

« الدراسات العليا »

الشيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة

مع دراسة تمهيدية موسعة عن الإسلام والمسلمين في جنوب افريقيا





حمزة مصطفى ميغا

الجزء الأول

منشورات
كلية الدعوة الإسلامية

الشيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة

PRINTED IN MOROCCO

الطبعة الأولى

1373 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ 2005 مسيحي

منشورات
كلية الدعوة الإسلامية

الشّيخ أحمد ديدات

ومنهجه في الحوار والدّعوة وأهمّ مجالاته التّطبيقيّة الممكنة

مع دراسة تمهيديّة موسّعة عن الإسلام والمسلمين في جنوب إفريقيا

إعداد الطالب

حمزة مصطفى ميغا

الجزء الأوّل

إشراف

د. محمّد فتح الله الزيادي
مشرفاً أولاً

د. عارف علي النايض
مشرفاً ثانياً

منشورات

كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

❖ قال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

[النحل: 125]

❖ وقال:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ .

[الأحزاب: 23]

❖ وقال:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ .

[الرعد: 24]

❖ عن قيس عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ، قال:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر اللّه وهم ظاهرون» .

البخاري : جـ 6 / ص: 2667 .

❖ قال رسول ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللّه عزّ وجلّ» .

مسند أحمد: جـ/ ص: 279 .

إهداء

❖ إلى داعية وراعي أكبر لقاء حواري بين مسلمي ومسيحيّي العصر قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية العقيد معمر القذافي .

وإلى الشعب الليبي الكريم المضياف.

حبًا وإعجابا .

❖ إلى داعية العصر، فارس المناظرات الدامغة الذي لا يشق له غبار. الشيخ الداعية / أحمد ديدات شمله الله برحمته وحلاّه بمغفرته وكرمه.

وفاء وتكريما .

❖ إلى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، رائدة الخطاب الدعوي النيّر، وقائدة العمل الإسلامي الحكيم في عالم التحولات الكبيرة، وعصر الأزمات الروحية والسياسية الخانقة.

تحية وتجلّة .

❖ إلى كلية الدعوة الإسلامية الكريمة الزاهرة .. قلعة الصحوة والانبعاث، منارة العلم والوعي، ومسرح الفكر والتنوّر .

شكراً دائماً وتقديراً تاماً .

❖ إلى كل جنود الإسلام وأعلامه المغمورين المعتصمين بصدق وإخلاص في ميادين العمل الإسلامي الممتدة المترامية.

رمز وفاء وعرفان وميسم دعم ومشاركة .

❖ إلى كل أولئكم : أهدي هذا الجهد المتواضع لقاء جهودهم الدائمة، وجهادهم المقدس في معركة العقيدة والخلاص، لصالح الإنسان في كل مكان، فعسى أن يتسع كرمهم لقبوله مني على تواضعه، آملاً أن يجدوا فيه ما يبرر الأمل لصالح العمل، ويدفع نحو المزيد من التضحية والبذل ....

من غريمكم وربيبكم الوفيّ .

حمزة مصطفى مايغا

القسم الأول

منهج الشيخ أحمد ديدات في الحوار والدعوة



المقدمــــة

الحمد لله ربّ العالمين، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فهيأ من بعده في كل عصر رجالاً يرفعون لواء دعوته الزاهرة بأليق الأساليب وأنسب الوسائل، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وآله وصحبه البررة الكرام، ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد :

فقد اقتضت حكمته وقدرته تعالى بأن يقيِّض لدينه الإسلام منذ أن ظهرت دعوته في الوجود رجالا عظامًا خدموه حق الخدمة بمنتهى الصدق والإخلاص، وفي غاية الالتزام والوفاء، وقفوا حياتهم على نشر دعوته كما نافحوا عن كيانه وذادوا عن حياض أمته .

وإذا كان مقام الدعوة إلى الله من أجلّ المقامات وأسماها، فإن هؤلاء الناس - بالطبع - من أفضل الناس مكانَة، وأكرمهم شأنًا، وذلك بسبب تعلقهم بأمر من أهم وأشرف الأمور قدرًا، وأعظمها أجرًا، ومن ثمَّ فإن الإنسان المسلم مرشح ومدعو دائمًا للتطلع بنفسه إلى هذا المستوى الدعوي الرفيع الذي يمتاز به ورثة الرسول ﷺ وقليل ما هم حقيقة، في حين ما أكثر من ينتمي إليهم في هذا العصر .

والواقع أنه لا مراء في اعتبار الشيخ الداعية : أحمد ديدات - رحمه الله - واحدًا من أولئك الصفوة من الدعاة، بل هو من طلائعهم في هذا العصر؛ حيث إنه يعد عن

جدارة واستحقاق من أبرز أعلام الدعوة منذ نصف قرن أو ما يزيد، وذلك بفضل ما بذله من جهود دعوية طيبة متنوعة، غلب عليها الحوار والجدل على حساب الجوانب الأخرى، والتي هي أيضًا على أهمية لا تنكر ولا يستهان بها، مع علم القليلين فقط بما كان للشيخ فيها من إسهام معتبر ومشاركة فعّالة.

وهو بذلك يجسد شخصية دعوية فذة، لها جلالها ووقارها، استطاعت أن تحتل في قلوب أغلب من عرفه من المسلمين مكانة عالية، وأن تتمتع بقسط وافر من الإعجاب والتقدير، قل من ينافسها في ذلك من بين دعاة العصر.

ومن المعلوم أن صيته قد ذاع في الآفاق، وجابت شهرته الأقطار من خلال ما قام به من مناظرات دامغة ونقاش معجز للخصوم، في بديهة حاضرة ورباطة جأش هي غاية في الثبات والاستقرار، والهدوء والاطمئنان، الأمر الذي أتاح له بالإضافة إلى كل ما اجتمع فيه من صفات وخصائص متفرقة، أن يكون أنموذجًا حيًا من النماذج القليلة التي انبرت للمواجهة ضد التنصير، وتعقب أعداء دين الله على مر التاريخ الإسلامي أو تاريخ المسلمين بمعنى أدق .

ومع ما تعرض له من تحديات وابتلاءات؛ من أخطرها إصابته بالفالج الكلي الشامل، فاستمر قعيد الفراش لبضع سنين، إلاّ أنه باحتماله الواسع ظل شامخًا قويًا، صابرًا ومثابرًا، ملتزمًا ما درج عليه من خطاب دعوي فريد، كان من نتائجه وإيجابياته الكثيرة - وإن اتّسم بالاستثنائية في هذا العصر - أنه أسهم على نحو بارز في التمكين الإعلامي لفكرة أن الدين الإسلامي بكل اعتزاز وموضوعية هو دين الحوار والانتصار، وأن الإقناع به عن طريق الفكر والتناظر من أحكم وسائل انتشاره، وأقوى مناهج ظهوره في العالم .

هذا... وبالرغم مما اكتسبه الشيخ من شهرة عالمية على المستويين الإعلامي والعملي، إلا أنه ما يزال في عداد المغمورين على الصعيد العلمي؛ إذ لم ينصف بعد على مستوى الدراسة العلمية، بل لم يعط أدنى حقه من الاهتمام المعرفي. الواقع

المؤلم الذي حرم الناشئين والمتدربين على الدعوة من الإفادة من مسلكه العام في العمل الإسلامي، ومن منهجه الحواري الدعوي بالأخص. إذ من الصعب أن تجد له ذكراً في الكتابات التي اطلعنا عليها مع تواضعها وقلتها .

ولعل الاهتمام به يعظم، ويشتد الحذر منه عند المنصِّرين الذين يدركون إدراكًا واعيًا خطورة دور الشيخ ديدات ضد عملهم، وبخاصة من جانبين اثنين : في تحصين عامة المسلمين من مكرهم من جهة، وفي استقطاب أتباعهم بتنويرهم وهدايتهم إلى الدين الحق، والصراط المستقيم من جهة أخرى. ولا يخفى أن واقعًا كهذا من الإهمال الذي يطال كبار دعاة الأمة هو واقع كارثي مأسوف عليه غاية، ولاسيما في ظرف ما أحوج المسلمين فيه إلى استلهام المناهج المعتمدة لدى علماء الأمة ودعاتها وبخاصة تلك التي ثبت نفعها في تكوين دعاة محاورين ذوي كفاءة عالية، ومقدرة فائقة في علم الدعوة ومقارنة الأديان، وذلك للمبادرة والدفاع عن عقيدتنا وعن وجودنا ضد هذه الزوبعة القائمة من الحملات الشرسة، والتي تعد امتداداً لمعركة تاريخية طويلة، ما فتئت على امتداد العالم كله تشنّ على الإسلام والمسلمين من قبل القوى المعادية من استعمار، وصهيونية، وتنصير وغيرها. وبالأخص في عقر ديار الإسلام في أفريقيا وآسيا؛ عالمي الإسلام بحكم الأغلبية .

ومما يضاعف مرارة الأسف في النفوس ويكثف من دواعي الاهتمام والاشتغال بموضوع من هذا القبيل : هو أن الجهل العلمي بالشيخ ديدات مع ضخامة جهوده وعظمة نتائجها ليس قاصراً على العامة من الناس دون غيرهم، بل وإنما يذهب بعيداً ليخيم حتى على بعض أولئك الذين نكن لهم كل احترام وتقدير ممن أطبقت شهرتهم العلمية والدعويّة على العالم الإسلامي، وذلك على الأقل إن لم يكن العالم كله، كما أن من الناس من يحلو لهم الاعتراض على من يعلق أهمية على دراسة هذا المنهج؛ لوقوفهم على طرف نقيض من اتجاه ديدات الدعويّ الحواريّ، بحجج ومبررات تدور في فلك الاعتراض والرفض .

وأيًا كانت الوجاهة الظاهرية لبعضها مع احترامي لأصحابها فإنها لا تقوى على الصمود في وجه المواقف المغايرة لها، والتي تقدم المصلحة العليا للعمل الدعوي الإسلامي فوق كل الاعتبارات الوضعية والظرفية الأخرى .

ومن هنا تنكشف بعض الدوافع التي حدتْ بالباحث إلى اختيار وولوج هذا الحقل البحثي رغم صعوبته العلمية، وتوقع كافة مخاطره العملية، حيث إن المرء يلاحظ اليوم من حوله أن الغيورين على الدعوة الإسلامية، المتحمسين للدفع بها إلى الأفضل ونحو غد مشرق، يتساءلون وقد اعتصر قلوبهم الألم والقلق، كيف فترت هذه الجهود الدعوية القوية عن مواجهة المدّ التنصيري، وكيف استحالت تلك الهمم الدعوية المشتعلة بقوة الإيمان ويقين الفكر الأقوى والأصح إلى واقع من الخمود والجمود على نحو أدى بالعمل الإسلامي المعاصر إلى الوقوف عاجزًا أعزل أمام تحديات داخلية وخارجية تستعصي على الحصر ؟. ومن ثم، فإني رأيت رسالتي في هذه الحياة، ما أشرفها حين تخصص علميًا وعمليًا للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها من قضايا الدين والدعوة والأمة! والتي تستأثر بجماع الفكر والجهد وتستوعب كل الحياة .

على أنني لست من وراء ما سبق من ملاحظات أرمي إلى التقليل من أهمية الأدوار الكبيرة التي تقوم بها جهات وشخصيات موقرة ومشكورة، كما أنني لا أغمز من قناة إخلاص عدد وافر من الدعاة المخلصين لدينهم، وتضحياتهم الغالية من أجل الدين والأمة، ولكن الرسالة أكبر وأثقل مما يمكن أن تحتمله رجال ومؤسسات مهما كان عددها، كما أن القضية أوسع من أن تستوعبها جهود مبعثرة، ومحاولات متعثرة، بينما العمل الإسلامي بحاجة إلى أضعاف الجهود المبذولة حاليًا: كمًا ونوعًا ونظمًا .

ففي مناخ هذا الإحساس المتدفق بالتحدي المتعدد المراكز والأطراف من جانب، وضرورة المواجهة الدعوية المنتصرة من جانب آخر، نشأت فكرة تبني هذا الموضوع البحثي، وفي أجواء المتابعة لما يجري على الساحة الدعوية نمت الفكرة وترعرعت، إلى أن ظهر

الموضوع إلى الوجود، وهو يرمي إلى ما يمكن إجماله من جملة الأهداف في التصور الآتـي:

فمن حيث الأهداف تطمح هذه الرسالة إلـى الإسهام المتواضع في الإجابة على عدد من الأسئلة والإشكاليات العلمية والدعوية، من أهمها: دراسة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا ووضع المسلمين فيها قديمًا وحديثًا، بالتعريج على بعض أعلام الدعوة والعمل الإسلامي فيها، ومن هو أحمد ديدات من بين هؤلاء الأعلام البارزين في حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقية، وذلك بتفصيل القول عن بيئته ونشأته، مع محاولة تعليل جهوده وحركته الدعويّة في ضوء تحليل المكونات الذاتية والموضوعية لشخصيته، عارضًا لحياته المبكرة، وصلته بالعمل الإسلامي في مختلف مجالاته، مما يستدعي التركيز عل جهوده الحوارية الدعويّة ممارسة وتأهيلاً للدعاة وما أسفرت عنه تلك الجهود من نتائج ثرّة تشكل موردًا للدارسين على الصعيدين العلمي والعملي، الأمر الذي يستلزم رسم معالم منهجه وبيان مسلكه العام في الفكر والعمل الدعويين بتقديم تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، بتحدياته ومتغيراته.

وبما أن الجانب الإعلامي في هذا الصدد على قدر كبير من الأهمية، فمن هنا يحاول هذا البحث تلمس ما يوليه الداعية أحمد ديدات من عناية لمختلف الوسائل الإعلامية من أشرطة مرئية مصورة، ومنشورات مطبوعة، بالإضافة إلى نشاط المناظرات والمحاضرات العامة. ويتم ذلك من خلال عروض تتسم بالتحليل والنقد، للانتقال إلى مقارنة منهج أحمد ديدات الحواري بغيره ممن يتحقق، أو يظن أن ديدات قد تأثر بهم من قدامى ومعاصرين في الفكر والممارسة الحوارية. ومؤدى هذه المقارنة وغايتها الوصول إلى ما يُمكّن من إبراز السمات والخصائص المميزة لمنهجه للكشف عما يمتاز به من إبداع وتجديد، وما يشترك فيه مع غيره من اتباع وتقليد. وهذا مما سيضعنا في موقف تقييم منهج ديدات ببيان رأي الفريق المنتقد إياه وحججهم في ذلك، مشفوعًا برأي المؤيدين وأدلتهم حاسمًا الأمر بالترجيح بين الفريقين من خلال إيضاح موقف كل من الدارس والمدروس لهذا المنهج، وعن صاحبه الداعية الكبير.

ثم إن من جوهريات أهداف هذه الرسالة الكشف عن سبل الإفادة من إيجابيات تجربته ومنهجه في العمل الإسلامي، ويقتضي ذلك في حد ذاته التطرق إلى عدد من أهم الدوائر والمحاور الدينية والفكرية، كنماذج لما يمكن توظيف المنهج الديداتي في حقولها الدعوية والحوارية. مع عدم إغفال الحديث دومًا عن بعض الآليات والمقترحات التي نراها كفيلة بضمان التوظيف الأمثل والأفعل لهذا المنهج، إن صح أنه دعوي ومفيد.

تلكم هي حدود هذه الرسالة ومستهدفاتها التي سوف يسعى الباحث بعون الله تعالى إلى تحقيقها أو بعضها في حدود قدراته المتواضعة ووفق الفرص والإمكانيات المتاحة له، آخذًا في الاعتبار أن نطاق هذا البحث واسع بمتضمناته، ومتشعب بقضاياه. وما أسعد الدارس وأعظم حظ هذه الدراسة من التوفيق إن قدر لها أن تشكل مدخلاً علميًا صحيحًا وموضوعيًا، ولو إلى بعض من أهم قضايا هذا الحقل العلمي الفسيح المترامي.

وهكذا ترتسم في آفاق هذه الحدود والغايات البحثية ملامح الأهمية العلمية لهذا الموضوع، والتي بالإمكان تفصيل القول فيها على النحو اللاحق:

فمن حيث أهمية هذه الدراسة فهي ذات حيثيات متنوعة ومتكاملة، نذكر من بينها:

أ ـ **بالنسبة للعلم**: فالموضوع كما تم عرضه يشكل مجمعًا مفقودًا لمثلث معرفي متكامل طالما عانى الفكر الدعوي من مسيس الحاجة إليه، ويتمثل ذلك في التوثيق المعرفي بين علم الدعوة تاريخًا ومنهجًا وأعلامًا في قطر من الأقطار الأفريقية، وبين دراسة العمل التنصيري في جانب منه بإمكاناته ووسائله، بالإضافة إلى أنشطة واتجاهات أخرى مناوئة للفكر الإسلامي الصحيح.

ومن ثم، الوقوف على سبل مواجهة كل تلك الأنشطة المضادة بالاستعانة بآداب الحوار، ونتائج علم مقارنة الأديان تراثًا وممارسة، ذلك العلم الذي يوظفه الآن أعداء الإسلام لمحاربته، بعد أن افتقد المسلمون زمام الريادة والمبادرة فيه. هذا ومن شأن بوتقة بحثية كهذه تنصهر فيها معارف ثلاث أن تعمل على إحياء منهج عملي مهمل أو

صياغة جديد أو مجدد، يتوقع منه في كل الحالات أن يقدم الكثير لحاضر العمل الدعوي وغده بطموحاته وآماله، كما أنه يسهم في تطوير فهم عامة المسلمين لأساليب الدعوة التي لا تزال عند كثير من الدعاة تنحصر في الخطب والمواعظ الدينية على نحو تقليدي بعيد عن واقع الحياة المعاصر بهمومه ومتطلباته.

والموضوع بهذا الاعتبار يعد بحثًا وبلورة منهجية معقولة ومعتدلة لما بات يعرف بالخطاب الدعوي الإسلامي المعاصر، على تنوع مقولاته وتعدد أنماطه. ولاشك أن الوقوف على تجربة ديدات وتفهم جهوده ومنهجه يمثل تجلية حقيقية لجانب هام ومتميز من هذا الخطاب، فضلاً عن الإخطار بضرورة التحري ووضع الخطط المضادة تحسبًا لكافة المخاطر والمحاذير التي تحيق بالدعوة والأمة قبل وقوعها. وحسبنا الله ونعم والوكيل.

ومن المعلوم علميًا أن الدعوة إلى الله تعالى عن طريق الكتابة والحوار والإقناع، لها تأثيرها الكبير وبخاصة في عصرنا هذا، الذي بدا فيه كثير من الناس عقلانيين يعتمدون على الحقائق المقنعة، ويتلمسون من خلال الأديان ما ينقذهم من حيرتهم، ويأخذ بأيديهم من غرقهم المادي العقدي إلى شاطئ السعادة والنجاة.

ب - **ومن حيث الدعوة والعمل الإسلامي**: فإذا تأكد الاعتقاد بأن العالم في هذا القرن سيشهد عودة قوية إلى الأديان ودعوة ملحة للإيمان وأنه لابد من العودة إلى دين الفطرة والحق، ليقتبس منه العزاء عن معاناته وشقائه الحاليين، ويستمد منه المعاني الروحية الكبيرة والخالدة، فتتحتم على أساسه الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة في أوسع وأشمل دلالتها، بما فيها الرد بأسلوب علمي وفني جذاب على ما ينسب ويثار ضد الإسلام من شبهات وأباطيل، وما يرمى به أهله من جمود وتطرف وإرهاب. . . !!!

هذا ومن ناحية أخرى تكمن الأهمية الدعوية لهذا الموضوع: في قلة وانعدام الدعاة المحاورين بالتي هي أحسن بالمعنى الشامل الفاعل من بين دعاة العصر؛ إذ يغلب على تكوينهم العلمي واتجاههم العملي التقوقع على الذات في مجتمعات وأجواء

إسلامية، أو ممارسة الدعوة في أوساط وثنية في حالات نادرة، مهملين بذلك أكبر جماعة دينية ضالة في العالم، وهم الصليبيون الذين ينشرون شباك المكائد للمسلمين، لاصطيادهم إلى حظيرة الغواية والضلال، أو الإيقاع بهم خارج حدود دينهم ليحيوا ملحدين، أو علمانيين في أحسن الأحوال المذمومة .

وليس أقل شأنًا وتأثيراً من هذا دوره في مناهضة تغلغل النفوذ الصهيوني اليهودي في عموم القارة الأفريقية، ولاسيما في إقليميها الشرقي والغربي على نحو أخص. ويأتي ذلك - في إحدى إمكاناته - بتوظيف منهج الشيخ ديدات ضد دعاته وعملائه، وكافة مناصريه، إظهاراً لمكائده وفضحًا لمقاصده، ولربما يدرك كل هؤلاء وأولئك خطورة الدور الذي يمكن أن يؤديه هذا المنهج في ممارسة نوع ملحوظ ومجتنب من التهديد لمواقعهم الفكرية، على نحو من القوة والنضج لم يسبق لهم أن عاينوا مثلها من قبل، وكل ذلك يعني أن لهذا المنهج من الفاعلية والغلبة ما يشكل به خطراً على الحياة الدينية والفكرية المعاصرة، ولاسيما المضادة للإسلام والمسلمين، على نحو وبقدر لا يمكن إنكاره .

فهل يحمل بعض دعاتنا عبء هذا المنهج المحمود، فيعيدوا للدعوة أمجاد انتصاراتها، ويحققوا للأمة دفاعًا قويًا يخاف ويحذر منه كل الحذر؟؟. وإني لأرجو من هذه الدراسة أن تضعنا على الطريق الصحيح نحو كل تلك الغايات المنشودة، بناء على الأهمية المركزية والاستثنائية المعلقة على هذا المنهج الذي نصبو إلى دراسته من شتى جوانبه.

جـ - **وأما بخصوص أهميته للباحث** : فيتوخى من هذه الدراسة أن تهيء للدارس معرفة علمية أعمق بالموضوع إلى القدر الذي يتحقق له من خلاله طابع التخصص والخبرة في هذا المجال، كما يؤمل منها أن تتيح له حسن التمرس على الكتابة العلمية، بمقاييس البحث العلمي المتعارف عليها، الأمر الذي من شأنه تنمية قدراته الجامعية، وترقية مستنداته إلى الأفق الذي تنمو في رحابه شخصيته العلمية على نحو منهجي معتمد مطلوب.

ومن هنا حق لموضوع مثل هذا أن يستقطب هموم واهتمام باحث مبتدئ في مثل حالي ومستواي، ولولا ما أسلفت الإشارة إليه من أهميات متنوعة، ما كنت لأعنى بهذا القبيل من البحث الصعب المراس، مع عظم فائدته، وتنوع مشكلاته، والتي نذكر منها ما يلي:

1ـ مشكلة الانطلاق من فراغ بحثي للتأسيس العلمي لموضوع بلا أساس:

إن انعدام دراسات سابقة تؤسس لهذا الموضوع شكلت عقبة مثيرة أمام الباحث، ولعل سبب ذلك عائد إلى تحفظ البعض، واعتراض البعض الآخر على إجراء دراسات من هذا القبيل، تتناول شخصيات معاصرة، وربما حيّة؛ وذلك بدعوى حياة العَلم المراد درسه، وأن مصيره وعاقبة أمره مجهولان، ومن ثم فإن تجربته غير مكتملة باعتبارها قابلة للمراجعة والإضافة، والإقدام والإحجام.... إلخ. وبينما تلوح أحيانًا مثل هذه الآراء والمواقف الفكرية في بعض أجواء البحث العلمي نجد في واقعنا المعاصر العديد من المؤسسات العلمية شرقًا وغربًا ترحب بدراسات علمية عن شخصيات حيّة، وفي هذا ما فيه من احتفاء بالعلم وتكريم له في حياته، والإفادة وهو حي من تجربته ومنهجه، قبل اللجوء إلى البحث عنه في ركام الصفحات والمذكرات بعد رحيله بتفويت فرصة الإفادة منه، فيضيع بذلك جزء كبير من مفاتيح شخصيته وحياته، ونفتقد قدرًا لا يستغنى عنه من تجربته وعطائه. والواقع أن المعلومات المدونة مع أهميتها فإنها لا تعدو أن تغطي بعضًا لا كلا ممّا يرجى الانتفاع به في حياة عَلَم من الأعلام.

وبما أن ديدات لم يعن بالتوثيق العلمي لسيرته الذاتية، فضلاً عن عدم عناية الدارسين قبلي بهذا الشأن ـ وذلك في حدود ما أعلم ـ إلا ما كان من تصريحات صحفية، وردت في صفيحات قليلة من كتاب: «هذه حياتي» «سيرتي ومسيرتي» من إعداد أحد الإعلاميين، فإن هذا الواقع من غير شك يشكل عائقًا بحثيًا كبيرًا، إلى جانب أن لغة مناظراته ومحاضراته، وكافة أعماله الدعوية، هي اللغة الإنجليزية التي لا يجيدها الباحث، ومن هنا دعت الضرورة إلى الاستعانة بعدد من الإخوة والزملاء لتعريب ما

تمس الحاجة إليه من أشرطة مرئية، ومنشورات مطبوعة، كما أني وجدت إسعافًا علميًا لا يمكن إغفال مكانته وأهميته بحال من الأحوال، وذلك من خلال مجموع الجهود الطيبة، التي أقدم عليها كل من دار المختار الإسلامي، ودار الفضيلة المصريتين، في تعريب ونشر أهم أعمال ديدات من مناظرات ومحاضرات، وبحوث، ومنشورات دعوية عامة. وليس بوسعي في هذا المقام أن أمنع نفسي من ميلها إلى تخصيص اعتبار خاص للأستاذ: علي الجوهري على أمانة ودقة معرباته الصادرة عن دار الفضيلة، فهو حقًا أحد الرجال الذين يفرضون على المرء الاعتراف بفضلهم، كما يقطعون لأنفسهم سهمًا وافرًا من حب طلبة العلم وتقديرهم إياهم، حتى دون لقاء سابق بين الطرفين.

وإن هذا البحث مدين له في وجوده إلى حد كبير، ولولا جهوده الطيبة لتعثر العمل وربما تعذر إنجازه.

وأما بخصوص المعلومات المتعلقة بالإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا، فقليلة هي المقالات التي عثرنا عليها بالكاد، بعد جهود مضنية ومشقة تنقيبية بالغة، إذ أن الكتابات العربية من كتب، وبحوث، ومقالات، لا تلحظ حتى الآن حركة الإسلام وشؤون المسلمين في جنوب أفريقيا إلا لمامًا. وقلما، يساق - هذا النادر أيضًا - في قالب علمي مكين، بل غالبًا ما يورد في سياق أدب الرحلات والمذكرات.

ولعله يتبين من خلال تصور هذه المشكلة على حقيقتها أن هذه الرسالة وليدة مخاض متعسّر، وفي ظروف نفسية كان من سماتها أحيانًا الحيرة والاضطراب ولكن بفضل الله استحالت هذه المشكلة البحثية مع سلبيتها البينة، وصعوبة ما تطرحه من تحد وإعاقة، إلى عامل إيجابي شجع كثيرًا على ضرورة إنجاز هذه الرسالة، وظل يبرر للقيام بهذا العمل بما يفيد أن من شأن مشكلة من هذا النوع أن تتيح أكبر فرصة ممكنة للبحث، ليكتسب جدته وأصالته دون منازع أو مزاحم.

2 ـ إثارة البحث لإشكالية معرفية ومنهجية:

من مشكلات هذه الدراسة في غياب دراسات سابقة للشيخ ديدات بدعوته

ومنهجه، أنها تثير - ضمنًا - نوعا من الإشكالية، وهي ذات بعد معرفي ومنهجي معًا، ألا وهي من الناحية المعرفية: إلى أي مدى يتاح لباحث ناشئ مبتدئ أن يشكل للآخرين مرجعية علمية، بأن تسند إليه عهدة رواية وطرح بعض المسائل والقضايا التي قد يتفرد بإبداعها، مما لم يسبق إليه؟

ذلك أن مقتضيات التوثيق والتحقيق منهجيًا تلزم حتى الآن بالعودة إلى جهود سابقة، للتأسيس عليها.

وفيما يخص دراسات عن الشيخ ديدات، فقد علمنا فيما سبق أن محاولات من هذا النوع لا تزال ليومنا هذا معدومة.

ومن جانب آخر تمثل البعد المنهجي لهذه الإشكالية في طرق الاستفادة في هذا البحث من التقارير والمراسلات الإدارية المفتقرة إلى عناصر التوثيق المنهجي، فضلاً عن كونها غير متاحة لعامة الناس، للاطلاع عليها للتأكد من صحة المعلومات المقتبسة منها، كما أن كيفية الاستفادة من معطيات مقابلات شخصية أجريتها مع بعض كبار الأساتذة والدعاة، لم تكن هي الأخرى هينة، بل كانت من الإشكالية بقدر وحجم ما سبق؛ ذلك أني ائتمنت فيها نفسي ولا أزكيها على أمانة التعبير، ودقة نقل تلك الآراء إلى البحث، في حين لا تتاح لكثير من الناس فرصة التحري والتأكد من صحة عزو تلك النقولات الشفهية إلى أصحابها بكل ضبط وإتقان.

وفي هذا الصدد نخلص إلى الاعتراف: بأن من الصعب جدًا في هذا العصر إجراء دراسات جامعية، عن شخصيات غير جامعية؛ ذلك أنها تكون في الغالب متحررة عن المعايير والضوابط العلمية المتعارف عليها حاليًا، وهذا مما يجعل إخضاعها للدراسة في ضوء تلك المعايير مهمة علمية عسيرة، في غاية الإشكال وبالغ الصعوبة.

وعلى أساس ما تقدم بيانه عن الموضوع بقضاياه وإشكالاته، تحددت الاختيارات المنهجية لمعالجته، وهي بالنظر إلى طبيعة الموضوع عديدة ومتنوعة، حيث إني اعتمدت في دراستي هذه، جملة من المناهج البحثية، من أبرزها المنهج الوصفي التحليلي،

الذي تجلى واضحًا في كثير من جوانب هذا البحث : في مستويات السرد والعرض، والطرح، وبخاصة ما يتعلق بقضايا المناهج والتاريخ، والسيرة، غير أنه لم يكن من شأني في هذا العمل سرد سيرة حياة ديدات بأروع وأدق تفصيل، فهذا شأن أدبي وتاريخي خالص، بل وإنما كان اهتمامي منصبًا على استكشاف الجوانب الأساسية والتأسيسية منها، وعلى ما يمكن أن يسهم بقدر يسير أو كثير في تنوير آفاق هذا البحث، وإضاءة ضروبه المنهجية المجهولة، كما أن من أهم المناهج التي أخذت بها في هذه الدراسة، المنهج النقدي البناء الذي لم يكن استخدامه قاصرًا على إبداء ملاحظات نقدية إزاء مواقف وأعمال الشيخ ديدات فحسب، وإنما طال آخرين ممن تتسع صدورهم غالبًا لممارسة علمية منهجية موضوعية، من النوع الذي تعددت موارده في هذا البحث، وكان رائدي في كل ما أقدمت عليه من انتقادات هو البحث عن الحقيقة والكشف عنها، بموضوعية لا تعير أهمية لاعتبارات غير علمية، ولا تفتح حسابا للعواطف والأحاسيس المهترئة، فضلاً عن المجاملات الرنانة الفارغة .

وأيضًا في الحديث عن مناهج الدراسة، يلاحظ في ثناياها توظيف جوهري وبارز للمنهج المقارن، الذي غطى بحضوره المكثف مختلف المقارنات التي عقدت بين المناهج والموضوعات والأساليب والأفكار، سواء بين ديدات من جانب، وبين الحواريين القدامى والمعاصرين من جانب آخر، أو بين اتجاهات وشخصيات دينية أو فكرية من جهة أخرى .

وقد ظلت المحاولة جارية في مختلف مراحل الدراسة وعلى امتدادها، لفهم القضايا المنهجية والفكرية المدروسة في إطار متكامل من الاستقراء والتركيب، لما يؤمن الدقة والشمولية في التصوير والأحكام والنتائج، التي قد يتوصل إليها من خلال مختلف فصول هذه الرسالة بمباحثها وأجزائها .

على أن ثمة ملاحظات، هي ذات اتصال وتعلق بالنواحي المنهجية المعتمدة ولابد من التنبيه والإشارة إليها بذكرها مجملاً على النحو الآتي :

1 ـ لقد راعى الباحث كما حرص غالبًا على عدم الحيلولة بين الشيخ ديدات والقارئ فأتاح لمن يقرأ هذا البحث فرصة التلقي المباشر من ديدات دون وسيط ثالث، علّه يصل إلى استكناه بعض المعاني التي قد تفوت على الباحث مع أهميتها، وتلك التي قد لا يعيرها - دون قصد - اهتمامًا كافيًا وجديرًا بها .

2 ـ قد يؤخذ على الباحث أحيانًا التكرار في إيراد أفكار وأمثلة كان يمكن تكثيفها في صفحات أقل، دون أن تفقد أهميتها، ومع قوة هذه الملاحظة وصوابها إلى حد كبير إلا أنها مدفوعة بمبررات وتعليقات متعددة منها :

مراعاته لطبيعة الخطة المرسومة لهذا العمل، وتعدد الشواهد والأدوار التي يمكن أن تمثلها الفكرة أو المثال الواحد، ولاسيما إذا كان الموضوع على وحدة فكرية متداخلة، بالإضافة إلى الرغبة في شمولية التناول؛ تأسيسًا لدراسات ديداتية لاحقة، فضلاً عما تواجه هذه المهمة من مطبّات عصية، بسبب ضمور فادح في المعلومات المطلوبة .

3 ـ كما أن من اللافت للنظر تفاوت أحجام مباحث وفصول هذا البحث على نحو ملحوظ ومثير للتساؤل أو الاعتراض؛ وذلك ناشئ عن التفاوت الطبيعي في حدود الموضوعات والقضايا التي تتضمنها تلك المباحث سعة وضيقًا، بالإضافة إلى نسبية المعلومات المتوفرة عنها قلة وكثرة .

ومن ثم آثرت - وأنا بين خيارين - التضحية بالشكليات والظواهر، لصالح المضامين والجواهر .

4 ـ ثم إني وإن كنت قد توسعت أحيانًا في الاطلاع على المراجع العامة، والإكثار تارة من إيراد نقولاتها في هذا البحث، كوسيلة للنقد أو الاستشهاد، أو لاقتصاد عناء التعبير عن كثير من الأشياء التي أوافق فيها أصحابها، إلا أني مع ذلك لم أحرم نفسي - علميًا - من حقوق النقد والتعليق، والأخذ والرد . . . إلخ .

وتلكم هي جملة الحدود المنهجية التي وجهت مسار هذا البحث في ثناياه، ومنعطفاته، من منطلقه إلى مرساه .

وأما فيما يختص بخطة الدراسة وتقسيماتها، فقد آثر الباحث إجراءها بحسب الأقسام، والأبواب، والفصول، والمباحث على الخطوات المرسومة على الهيكلية الواردة على النحو الآتي بالإجمال من غير تعليقات:

عنوان البحث:

«منهج الشيخ أحمد ديدات في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة»

المقدمة:

القسم الأول: دراسة في التاريخ، والسيرة، والأنشطة، والمناهج، والوسائل، والمواقف.

الفصل الأول: الإسلام والمسلمون في جنوب أفريقيا.

المبحث الأول: جمهورية جنوب أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخيّ

المبحث الثاني: تاريخ دخول الإسلام إليها وانتشاره فيها.

المبحث الثالث: الوضع المعاصر للمسلمين والعمل الإسلاميّ في جنوب أفريقيا.

المبحث الرابع: من شخصيات وتنظيمات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا.

الفصل الثاني: أحمد ديدات بيئته ونشأته.

المبحث الأول: التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا.

المبحث الثاني: بداية عهد الداعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي.

المبحث الثالث: أنشطته ومجالات عمله الإسلاميّ

الفصل الثالث: منهج ديدات الحواري بين مؤثراته وتأثيراته.

المبحث الأول: جهوده ومنهجه في حواراته

المبحث الثاني: شخصيته بين مؤثراتها الموضوعية ومكوناتها الذاتية.

المبحث الثالث: صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

الفصل الرابع: جدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات الدعوي

المبحث الأول: من وقائع الدعوة في حياة ديدات «صور، ومواقف»

المبحث الثاني : صورة من جهوده في مجال تكوين الدعاة المحاورين وتأهيلهم.

المبحث الثالث : تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر .

الفصل الخامس : توظيفه وسائل الإعلام لخدمة قضية الحوار والدعوة .

المبحث الأول : الإعلام عند ديدات فكرًا وتوظيفًا .

المبحث الثاني : نماذج من كتاباته في موضوعات الأديان المقارنة.

المبحث الثالث : من كتاباته الدعوية في موضوعات إسلامية .

المبحث الرابع : من أبرز محاوراته العالمية .

الفصل السادس : لمحات مقارنة عن منهجية الحوار بين ديدات وعدد من أعلام الحوار الإسلامي المسيحي .

المبحث الأول : النهج الحواري عند نماذج من القدامى .

أ - ابن حزم الأندلسي ، ب - ابن القيم الدمشقي ، جـ - رحمة الله الهندي .

المبحث الثاني : منهجه مقابل مناهج شخصيات معاصرة في مجال الحوار والمقارنة. محمد أبو زهرة ، أحمد شلبي ، أحمد كفتارو ، أحمد السقا ، عبد الوهاب النجار .

المبحث الثالث : السمات العامة والملامح الرئيسة لمسلكه في العمل الإسلامي .

الفصل السابع : منهج الشيخ ديدات في مرآة وميزان معاصريه «بين مؤيديه ومنتقديه»

المبحث الأول : منهجه من وجهة نظر مؤيديه .

المبحث الثاني : منهجه في مرآة منتقديه وفي تصور كل من الدّارس والمدروس .

المبحث الثالث : سبل الاستفادة من تجربته ومنهجه في الدعوة والحوار .

القسم الثاني : من المجالات التطبيقية الممكنة في أهم محاورها .

الفصل الثامن : في إطار الحوار الديني بين المسلمين وغيرهم من الجماعات

الدينية .

المبحث الأول : الحوار الإسلامي المسيحي بين الواقع والمرتجى .

المبحث الثاني : أ ـ مسالك ديدات في محاورة ودعوة اليهود والصهاينة إلى الإسلام .

ب ـ نحو ضرورة استيعاب الحوار الدعوي لكافة الاتجاهات الدينية في العالم .

الفصل التاسع : الحوار الدعوي مع مختلف التيارات الفكرية .

المبحث الأول : الحوار مع المستشرقين

المبحث الثاني : الحوار مع اتجاهات الغلو الفكري ، والشطط الأدبي ، نماذج : محمد أركون ، حسن حنفي ، نصر حامد أبو زيد ، سلمان رشدي

المبحث الثالث : الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي ، ضرورته آلياته إمكانياته

الخاتمة : مستخلصات البحث ونتائجه العامة .

شكر وعرفان :

وفي الختام :

فبالنظر إلى أهمية الأهداف التي تتطلع إليها هذه الرسالة ، والتي تكون قد أدت مهمتها إن قاربتها بمس أولي خفيف ، أو لفتت النظر إلى قضيتها باعتبارها من أهم الموضوعات على الصعيدين الدّعوي والديني العام ، فإني أقرّ بأن هذا البحث باعتبار أهدافه وغاياته ، هو فوق طاقتي ، وكان من الصعب جداً مع كل الصبر والجهد الملتزم التصدي لهذه المحاولة بزاد فردي ورصيد ضعيف ، لولا ذلك التعاون الواسع الذي كان من حظوظ هذه الرسالة وله الفضل الكبير عليها . ومن هنا تتجه العناية إلى تعميم الشكر لكل من شاركني في هذا العمل قلبًا وقالبًا ، ماديًا ومعنويًا ، فلهم مني جميعًا كل التقدير وغاية العرفان . على أن مبدأ الوفاء يلزمني لاعتبارات كثيرة بتخصيص شكر خاص إلى كل من الشخصيات والجهات التالية ، وفي مقدمتها : مشرفاي الفاضلان

الدكتور: محمد فتح الله الزيادي، والدكتور: عارف علي النايض، حفظهما الله وأدام سعادتهما بنشر العلم، وتعهد طلبته، والرعاية الكريمة للدعاة إلى الله. وفي هذا المقام فإني بخصوص الدكتور: محمد فتح الله الزيادي أعترف بحق أن تأثيره الفكري عليّ، وإعجابي بمنهجه التعليمي واتجاهه العلمي الراقي والأصيل كانا إلى حد كبير من أهم الدوافع التي أملت عليّ بعد انتهائي من المرحلة الجامعية فكرة البقاء لمواصلة الدراسات العليا.

وإني مدين له على كرمه المادي والمعنوي، بما يخرج عن طوق التعبير، ويظل في نطاق الشعور والضمير.

وفيما يخص الدكتور: عارف علي النايض من جهته، فإني أعتقد أنه منح العديد من أمثالي دافعية قوية نحو العلم والصلاح، لقد خلق فيمن حوله من الدارسين إحساسًا صادقًا بأهمية العظمة والطيبوبة، وقد ألفيته بمناسبة محاضراته ولقاءات إشرافه المشترك على هذه الرسالة، مثقفًا كبيراً من طراز رفيع نادر، ذا شخصية ودودة، ونزعة إنسانية فياضة كريمة، يدوم له عندي من الثناء والاعتبار ما لا حدود له.

والحقيقة أن هذا العمل قد اعترضته جملة من العوائق، ولكن تجاوبهما الدائم معي برغم تعدد الشواغل وضغط الصوارف وتعاونهما الطيب كذلك، كانا من الدعم والتشجيع في المستوى المطلوب، ومن دونهما بفضل الله لم يكن لهذا العمل أن يتحقق.

وقد أحسست بأن اللجنة العلمية بالكلية أرادت تكريمي حين أسندت مهمة الإشراف على هذه الرسالة إلى علمين بارزين من علماء هذا البلد، فكنت بينهما بمثابة واد سحيق تنساب فيه فيوض شلالة من جرعات الفكر والمعرفة، والتوجيه العلمي السديد، فلهما مني كل الشكر والتحية.

وليس مما يفوتني شكر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بمؤسسها وراعيها العظيم، وأمينها الشريف محمد أحمد الشريف ومعاونيه، وكافة الموظفين الأكارم في الخارج والداخل، على جهودهم ومجهوداتهم المتواصلة من أجل تعميم وتجديد الخطاب الدعويّ، وكذلك تفعيل العمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، والدفع بالأمة نحو ما يشرف

دينها من موقف ومكانة . وإني أؤكد لهم بأن المسلمين في كل مكان سعداء بهذا الدور الإنساني الكبير الذي يؤدونه ، وهم بذلك يتفاعلون مع مناشط الجمعية وإنجازاتها المتنوعة بقلوب مفعمة بالسعادة والتوقير ، وبنظرة حافلة بالإعجاب والارتياح .

وأما كليتي الموقّرة ، كلية الدعوة الإسلامية ، فهي في مدد عطائها المتدفق ، تمثل دوحة فينانة لاحتضان المحرومين من طلبة العلم ، وخدمة الدعاة إلى الله ، وهي بما تتيحه من فرص نفيسة وكثيرة في هذا السبيل ، تعد أملاً قويًا وكبيراً في نفوس من يتطلعون إلى العلم والدعوة ، من أبناء أمتنا الإسلامية من شتى بقاع المعمورة .

وإني أشهد لها بأن العديد - وما أكثرهم - هم أولئك الذين - من منطلق العرفان والوفاء - يشعرون بالدين الثقيل تجاهها ؛ ذلك أنهم استفادوا من الكلية معنى رسالتهم في الحياة ، وإمكانية تحققها ، بوعي فكري منهجي نادر مفقود ، وكفاءة علمية وعملية عالية ومطلوبة ، وإني أحس بأني غير قادر على ترجمة أحاسيسي ومشاعري إزاء هذه الكلية الحبيبة المعطاءة ، والتي هي بمثابة أم ثانية بالنسبة لي ولآلاف من أمثالي .

كما أني لاعتبارات موضوعية وخاصة لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر وصادق العرفان إلى عميدها الفاضل الدكتور : المختار أحمد ديره - رعاه الله ووفقه - على منهجه الأبوي التربوي السليم ، وعلى تواضعه الجم ، وصبره الواسع علي ومعي بالذات ، وعلى كل ما ظلّ يخصني به من لطف المعاملة وكرم التدليل ، إلى جانب اهتمامه المرهق ، بمتابعة شؤون أبنائه الطلبة ، وسعيه الجاد والمخلص في ضمان سعادتهم ، وتأمين نجاحهم . وعليه فإني وكثير غيري كذلك مدين له من أعماق القلب لجهوده الدؤوبة الطيبة بما لا سعة ولا إمكانية للإفصاح عنه .

ولابد في هذا الصدد من إزجاء الشكر العميم لكل جنود الإسلام الأوفياء من موظفي الجمعية والكلية على طول نفسهم في أداء الواجب ، وتحمل مشقة وأعباء هذا الجهاد الدعوي التعليمي العسير ، كما أنه لابد من اعتبار استثنائي خاص لكل الأساتذة الأفاضل الذين يتعاونون رسالة التربية والتعليم في كل مكان من العالم الإسلامي ، وبخاصة في كلية الدعوة الإسلامية - فتحية خالدة ومتجددة لهم ، على تضحياتهم الغالية في أخذهم بأيدينا

من تخبط الجهل إلى أبواب العلم والثقافة والوعي، ومن أجل إضاءتهم لنا الطريق نحو نور الفكر، والهدي الإسلامي الصحيح الأصيل.

وممن يتسع قلبي دائمًا لشكرهم وشكرهم، وإن لم تتسع له الصفحات، أولئك الزملاء والأحباب الذين قدموا لي - كل في حدود وسعه وفي نطاق ظرفه - كلّ خدمة اقتضاها إنجاز هذا العمل من ترجمة، وكتابة، ومناقشات فكرية، ومعونات مرجعية، وطباعة، وتسهيلات إدارية وغيرها، فكل منهم حقيق بشكري وعرفاني، وجدير باعتباري وتقديري الخاص لشخصه الكريم. فما أكثر هؤلاء الناس، وما أسلم الإعراض عما يجرح تواضعهم، ويطعن في كرمهم وإخلاصهم بذكر أسمائهم فرداً . . . فرداً.

فإلى كل الإخوة والرفاق من طلبة الكلية سابقين ولاحقين ومعاصرين، تحية شكر وعرفان وتقدير، أجزلها لهم وافرًا؛ لما غمروني به من صدق المحبة وفُرُطِ الثقة والإعجاب، لقد وجدت نفسي في كل مراحل الدراسة والبحث مدعومًا بما يلزم من تشجيعهم الدافئ، والذي سيظل بدفعه القوي يلازمني بعون الله تعالى في كل مراحل، ومواقف، ومشاريع حياتي في حاضرها ومستقبلها.

وللأستاذ: سعيد حديدان مسجل الدراسات العليا تحية تليق بدوره وإخلاصه، ومني كذلك للأستاذ: عمر الشائبي من الثناء والشكر ما يفي بحقّ وفضل طباعته الجيدة والدقيقة لهذه الرسالة العلمية، وغيرها من الرسائل التي يرجى أن يكون لها ما بعدها علمًا وعملاً وإصلاحًا ودعوة إلى الله تعالى على بصيرة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: 33].



الفصل الأول

الإسلام والمسلمون في جمهورية جنوب أفريقيا

المبحث الأول: جمهورية جنوب أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخي.

المبحث الثاني: تاريخ دخول الإسلام إليها انتشاره فيها.

المبحث الثالث: الوضع المعاصر للمسلمين والعمل الإسلامي فيها.

المبحث الرابع: من شخصيات وتنظيمات العمل الإسلامي فيها.

المبحث الأول

جمهورية أفريقيا بين الموقع الجغرافي والواقع التاريخي

أولاً: الموقع الجغرافي:

1 ـ **الموقع الجغرافي** : في أقصى الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية تقع جمهورية جنوب أفريقيا مطلة على المحيطين الهندي والأطلسي غربًا، ويتاخمها أربعة بلدان تحدّها شمالاً من الشرق إلى الغرب، وهي كلّ من: موزامبيق، وزيمبابوي وبوتسوانا وناميبيا[1].

وتبلغ مساحتها حوالي: 1.221.037كم ويقدّر عدد سكانها لعام 1997ف بـ43.715.000 نسمة، فيما تصل توقعات النمو السكاني في جنوب أفريقيا عام 2001ف إلى 48.904.000 نسمة، وقد كانت حتى عام 1994ف تتكون من أربع مقاطعات تتمثل؛ في الكاب «رأس الرجاء الصالح، ومقاطعة ناتال، وتراسفال، وولاية الأورايخ الحرّة»، وفي عام 1994ف استبدل بهذه المقاطعات الأربعة تسع مقاطعات حلّت محلّها.

وتبعًا للتقسيم الثلاثي لأجهزة الحكم، ونظام الفصل بين السلطات توجد في جمهورية جنوب أفريقيا ثلاث عواصم هي: مدينة كيب تاون وهي العاصمة التشريعية، وتعتبر بريتوريا العاصمة الإدارية وبها تتمركز الوزارات والإدارات الحكومية، وتتمثل العاصمة القضائية في بلومفونتين إذ توجد بها كافة الهيئات القضائية وما يتصل بها.

ومن الناحية الحضرية تأتي كل من: مدينة كيب تاون[2]، ودربان[3]،

---

(1) ينظر: موسوعة السياسة، ج2/ 102 ط1/ 1981، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

(2) كيب تاون هي العاصمة الدستورية لجنوب أفريقيا، حيث تعقد بها جلسات البرلمان وتقع في أقصى طرف القارة الجنوبي الغربي، وقد جعل منها موقعها في مجمع المحيطين الهندي والأطلسي جنوب أفريقيا بعد ديربان، من الموسوعة العربية العالمية ج30/ ص: 303 - 355 ط3/ 1419هـ 1999ف، الرّياض.

(3) ديربان: ثالثة كبريات مدن جنوب أفريقيا، وهي الميناء الرئيسيّ في المنطقة الشرقية في جنوب أفريقيا، وتقع على المحيط الهندي، ويوجد بها مركز سياحي هامّ ينتمي ما يقرب من نصف سكانها إلى أصول آسيوية، معظمهم من الهند ومن المسلمين والنّصارى، فهي تعدّ أكثر المصايف الساحلية شعبية وشهرة في جنوب أفريقيا، ينظر الموسوعة العربية العالمية ج10/ 558، 559، مرجع سابق.

وجوهانسبرج[1]، في مقدمة كبريات المدن الحضرية على أن الأخيرة تشكل أكبر مدينة سكانية في جنوب أفريقيا.

2 ـ **التضاريس والمناخ**: ومن حيث سطح الأرض في جنوب أفريقيا فإنه موزع مابين هضبات عالية ممتدة، وجبال شاهقة شامخة، وأودية عميقة مقعرة، إلى جانب سهول خصبة تمتد على ضفات الشواطئ الجميلة على امتداد الساحل، إضافة إلى عدد من الأنهار المتفاوتة الأبعاد والأهمية، والتي من أطولها الأورانج الذي ينبع من ليسوتو ويصب في المحيط الأطلسي ويبلغ طوله 2.100كم، يليه نهر ليبوبووطوله 1.500كم، وينطلق من مدينة جوهانسبرج ماراً في جنوب أفريقيا وموزامبيق، لينتهي عند مصبه في المحيط الهندي.

أمّا المناخ فإنه معتدل في عمومه وفي معظم أنحاء البلاد، تنعم الأجواء بمناخ معتدل مشمس له دوره الفائق في جذب السّواح من شتى الأماكن، وفي مختلف فصول السنة الطبيعية؛ كما أن من شأن مناخ كهذا أن يشجع على الهجرة والاستقرار باعتباره عامل جذب اجتماعي، طبقًا لمقررات علم الاجتماع.

ومن اللافت للنظر بشأن تضاريس جنوب أفريقيا أنها متنوعة ومتنافرة، إذ تتباين فيها الأوضاع الطبيعية على نحو متناقض، ولا شك أن هذا التناقض الطبيعي ذو طبيعة انسحابية على العلاقات الاجتماعية التي تنشأ في ظلاله، وتنمو جنباته والتي تعكس إلى حدّ كبير صورة الواقع الطبيعي للبلاد؛ إذ البقاع توثر في الطباع، وفقًا لما ذهب إلى ذلك سلفًا مؤرخنا المسلم المقدسي. وهذا الواقع الطبيعي المثير يفرض على الدارس ملاحظة أهميته، وتسجيلاً ذهنيًا لما يترتب عليه من آثار، لأخذها بمحمل الاعتبار، وهو ينطلق من معطيات الواقع الجغرافي كخلفية للوقوف على حقائق الاجتماع الظاهرة، واستكناه الكامنة منها.

---

(1) جوهانسبرج: أكبر منطقة حضرية من حيث السكان في جنوب أفريقيا، واحدة من أحدث وأكثر المدن ازدهاراً هناك، وهي تعتبر محور المشروعات التجارية المالية، والصناعية والتعدينية هناك، وتقع شمال شرقي جنوب أفريقيا، ينظر الموسوعة العربية العالمية ج8 ص: 635 – 637، مرجع سابق.

3 ـ الأهمية الاقتصادية لجنوب أفريقيا : تجمع المعلومات الواقعية والمصدرية على أن دولة جنوب أفريقيا تعتبر الأغنى والأكثر تنمية بين دول أفريقيا، إذ تنتج نحو 40% من البضائع الصناعية في أفريقيا وحوالي 50% من المنتجات التعدينية، و20% من الانتاج الزراعي، وتشكل الطاقة الكهربائية المستغلة نحو 50% من طاقة أفريقيا، وتمتلك حوالي 40% من عدد السيارات[1]. وإن إطلالة سريعة على القطاعات الاقتصادية للبلاد تكفي لتقديم صورة مجملة من الإمكانية والمكانة الاقتصاديتين اللتين تتمتع بهما دولة جنوب أفريقيا وذلك من خلال الآتي :

أ ـ الموارد الطبيعية : تتوفر البلاد على ثروات معدنية هائلة من الماس والذهب، والفحم الحجري، وخام الحديد، والنحاس، واليورانيوم، والفوسفات، ومختلف الأصناف المعدنيّة الأخرى ما عدا النفط، وهذه المعادن تشكل مصدر قوة اقتصادية وسياسية لجنوب أفريقيا في مبادلاتها التجارية مع العالم الخارجي، فضلاً عن أساسيّتها في تشكيل مستلزمات القاعدة الصناعية المتقدمة نسبيًا لهذه البلاد، والتي لها شأن لا ينكر في عالم الصناعات المعاصر.

ب ـ القدرة الصناعية : تحتل الصّناعة في اقتصاديات جنوب أفريقيا موقعًا متقدمًا وذا قدر كبير من الأهمية، حيث تنتج مصانعها ما تحتاج إليها البلاد من بضائع ومعدات كالنسيج والملابس والصناعات الحديدية والمعدنية من سيارات، وطائرات، وأحواض بحرية[2]، وقد بلغت حصة الصناعة في الناتج الوطني الإجمالي نسبة 37%، وقد أكد أحد الباحثين على تطور وتنوع الصناعة في هذه البلاد فسجّل قائلاً : «... فهذا الإقليم لم تتطور موارده الزراعية والمعدنية فحسب، بل قطع خطوات لابأس بها في سبيل الاقتصاد الصناعي المتنوع»[3].

والملاحظ أن معظم المصانع الهامة تتمركز في مدينة كيب تاون، وجوهانسبرج،

---

(1) ينظر : الموسوعة العربية ج3/ 504، ط2 عام 1419هـ 1999ف الرّياض – السعودية.

(2) ينظر : الموسوعة مج2/ 352 354، ط الشركة الشرقية للمطبوعات 1993ف جنيف – سويسرا.

(3) د. حسن أحمد محمود، السلام وانتشار الثقافة العربية في أفريقيا، ص : 7، ط دار الفكر 1420هـ 1999ف.

ودربان، وغيرها من المدن الصناعية، وهذا التمركز الصناعي فيها أدّى بدوره إلى اكتظاظها بالسكّان الذين وفدوا إليها في ظروف متباينة ومتباعدة باختلاف أجناسهم من داخل البلاد وخارجها، ولأسباب متعددة تتعلق في جملتها بالبحث عن فرص ملائمة للحياة، والاستثمار، فأصبحت بذلك من أشهر المراكز الحضرية في البلاد.

ج ـ **الثروة الزراعية والحيوانية**: ومن حيث الزراعة تعتبر جنوب أفريقيا من الدول التي تحقق لنفسها اكتفاء ذاتيًا من المنتجات الزراعية، إذ تتنوّع فيها المحاصيل الزراعية، والتي تشمل الغلاّت الرئيسة من القُونيّات التي يقتات بها، إلى جانب الفواكه والخضروات المتنوعة. ولوفرة الانتاج يجرى التزاوج بين كل من الزراعة التجارية المعتمدة على الوسائل الحديثة لتلبية حاجات السوق، ويتميز هذا النوع بكبر وسعة مزارعها، والزراعة العائليّة الخاصة وتستخدم فيها الوسائل التقليدية في مزارع صغيرة مقارنه بسابقتها[1].

هذا وتلعب الثروة الحيوانية دورًا مكمّلاً للإنتاج الزراعي، ومن خلالها تصنّف جمهورية جنوب أفريقيا في قائمة الدول المعبّرة في تربية الأغنام والأبقار والدواجن ووفرة ما ينتج عنها من لحوم، وبيض، وألبان ومشتقاتها، بالإضافة إلى الصوف وهو أحد الصادرات.

د ـ **التجارة الخارجية**: ففي مجال التجارة الخارجية، يشكل أحد صادراتها كلٌّ من الذهب والماس والمعادن، والصوف، والذرة السامية والسكر، والفواكه، مقابل واردات تشمل الآلات، ومعدات النقل، والمواد الكيميائية والنفط.

وتتم معظم المبادلات التجارية مع دول أوروبا الغربية إلى جانب كلّ من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، والكيان الصهيوني.

وتسهيلاً لعمليّات نقل السلع، والتنقلات البشرية عملت الدولة على توفير شبكة مواصلات برية وبحريّة، إذ تتوفر في البلاد طرق معبّدة وسكك حديدية، وعدد من

---

(1) ينظر: مادة جنوب أفريقيا من الموسوعة العربية السعودية ج3/ 513 مرجع سابق.

الموانئ الكبيرة بتجهيزاتها الجيّدة، إلى جانب عدّة مطارات لتأمين الرحلات الداخلية والخارجية، وقد نشطت حركة التجارة، وتوسّعت فرص الاستثمار، مع تطوير الصناعة في البلاد منذ اكتشاف الذهب في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، الأمر الذي جلب عدداً كبيراً من الأجانب إليها من رجال الأعمال وذوي المشاريع الاستثمارية الضخمة. وقد تعزّز هذا الإقبال الواسع وانتظمت معه حركة التنمية في البلاد بفضل ما توفر فيها.

هـ ـ **القوى العاملة**: تعتمد عملية التنمية في جنوب أفريقيا على توفر العنصر البشري المحلي والوافد، والذي من مميزاته تقديم خدمات رخيصة وبأجور متدنية وخاصة بالنسبة لمن يقومون بأعمال عضلية لا تتطلب مهارة عالية من أعمال يدويّة، وصناعة، ولا شك أن هذا العنصر يشكل عامل تشجيع وجذب للمستثمرين، وهو ما يدفع بدوره إلى تنشيط حركة العملية التنموية، ويسرع دورات عجلة النمو الاقتصادي بالمقاييس الرأسمالية على الأقل.

4 ـ **التركيبة السكانية**: تتكون البنية السكانية لمجتمع جنوب أفريقيا من عدة عناصر، جرت العادة بتصنيفها إلى بيض وغير بيض(1)، ويتفرع هذا الأخير إلى ثلاث مجموعات مركبة من السود، والآسيويين، والملوّنين، وهم نتاج العلاقات الاجتماعية بين مختلف العناصر الأخرى، على أن كلّ مجموعة من السابقتين تحتوي فروعاًمتعددة، حيث يمكن تقسيم السود إلى أربع جماعات قبليّة كالآتي:

أ ـ **البوشمان**: وهم رحل ينتقلون من مكان لآخر حسب فصول العام، وقد تباعدوا منسحبين إلى الداخل أمام الزحف الأوروبي الاستعماري للمنطقة.

ب ـ **الهوتنتوت**: وهم أقرب إلى البيض بحكم التجاور والتزاوج معهم، لدرجة أن نشأ نسل جديد حلّ محلّ قبائل الهوتنتوت، التي يمكن القول بذوبانها وزوالها الآن.

ج ـ **الكوزا**: وهي من الجماعات المستقرة ومن القبائل المحاربة وقد تصدّت للغزو

---

(1) ينظر: الدكتور عبدالجليل شلبي، معركة التبشير والإسلام، ص: 170-171، ط1/ 1409هـ 1989ف، مؤسسة الخليج العربي، د.م.

الاستعماري ببسالة صامدة، وهم في أغلبهم وثنيون، وأقرب القبائل في الوقت ذاته إلى الاستجابة لدعوة الإسلام طالما توافر لها دعاة مؤهلون.

د ـ **قبائل الزولو**: وتمتاز من بين القبائل الزنجية في منطقة جنوب أفريقيا بكبر عددها، وشدة تماسكها، وتوافرها على النظام، وقد حاربت هذه القبائل المستعمرين الإنجليز بشجاعة نادرة، وفي مواقع مشهودة مما دفع بالمستعمرين إلى اللجوء والاستعانة بالأساليب والوسائل التنصيرية الماكرة لاستمالتهم، وإخضاعهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير بدخول الكثيرين منهم في مسيحية المصالح، وهي مسيحية باهتة، إذ يظل بقاؤها أو فناؤها مرهونًا بأسبابها المادية.

ومن جانب آخر ينقسم الآسيويون بالنظر إلى الأصول الأولى لانتماءاتهم العرقية والجغرافية إلى هنود، وأندونيسيين، وماليزيين وفلبينيين، وباكستانيين، وإيرانيين، مع وجود قلّة من العناصر الآسيوية ذات الأصول العربية[1].

وفي المقابل يتكون صنف البيض من فئتين هما: الأفريكانيون، وهم سلالات المستوطنين الذين قدموا من كل من هولندا، وفرنسا، وألمانيا، في القرن السابع عشر الميلادي ولهم لغة خاصة بهم تعرف بالأفريكانية. والإنجليز وينحدرون ممن قدموا من بريطانيا في أوائل القرن التاسع عشر، ولغتهم هي الإنجليزية، وهم أقل عدداً وتعصبًا من الأفريكانيين الذين تبلغ نسبتهم 70% من مجموع البيض، ويعرفون بشدة التعصب، والسيطرة قديمًا على شؤون السياسة والحكم في البلاد، وإليهم تنتهي سياسة التفرقة العنصرية، بينما الإنجليز يتّسمون بنوع من المرونة والتسامح، والاهتمام بمزاولة شؤون الاقتصاد، ويلاحظ البعض أن العلاقات بين الطرفين الأبيض مطبوعة بشيء من التوتر، وقيام حالة تعكس شبه صراع بين الطائفتين[2]. ومن المنظور الكمي يردُ ترتيب هذه

---

(1) ينظر: عبدالرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، 97، د.ر، د.ت، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

(2) ينظر: ويصا صالح "أرضية التفرقة العنصرية في الجنوب الأفريقي" من مجلة الفكر المعاصر، ع، 40/ 34، 35، يونيو 1968ف، القاهرة، مصر.

المجموعات على النحو الآتي: السود، والبيض، والملوّنين، والآسيويين.

هذا وسيتعرض هذا البحث في حدود ما يسمح به موضوعه لدراسة العلاقات السائدة بين مختلف هذه الفئات والجماعات، ذات الأجناس والأصول المتباينة لمعرفة كيف نشأت تلك العلاقات وتطورت عبر التاريخ، وما هي الأسس الفكرية التي استندت عليها، مع محاولة الوقوف لتسجيل أبرز تجلياتها، وأهمّ صورها وأشكالها.

وتتويجًا لما تقدّم بشأن تعدّد أهمية الموقع الجغرافي لجنوب أفريقيا؛ كتب أحد الباحثين يقول: «في سنة 1935م، كانت أفريقيا الجنوبية بالفعل - من منظور عالمي - أهم أجزاء أفريقيا من وجهة النظر الاقتصادية، وفي الثلث الأخير من القرن العشرين أصبحت أفريقيا الجنوبية أيضًا، وعلى نحو متزايد، أهم المناطق الفرعية لأفريقيا من وجهة النظر الإستراتيجية في الوقت نفسه. ويرجع سبب أهميتها الاقتصادية في المقام الأول إلى ما بها من ثروة معدنية تتسم بأهمية حيوية بالنسبة إلى حضارة الغرب الصناعية، وكانت هناك أيضًا الزراعة على نطاق واسع، والتصنيع المحلي، أما الأهمية الإستراتيجية فكانت حصيلة ثراء المنطقة، والأهمية المتزايدة لرأس الرجاء الصالح بالنسبة إلى حركة المرور البحرية بين آسيا والعالم الغربي، بما في ذلك ناقلات البترول القادمة من الخليج»[1].

وقد ازدادت أهميتها على الصعيد العالمي في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين الإفرنجي بفعل تركيبتها السكانية، وما ترتبت عليها من إفرازات متشعّبة، تولدت عما عرفت بقضية التمييز العنصري في هذا الجزء الحسّاس من العالم، وهي قضية تشكل مفتاحًا ضروريًا لتاريخ جنوب أفريقيا برمته في قرونه الأربعة الأخيرة، ومدخلاً رئيسًا وشرعيًا للدخول إلى هذا التاريخ.

ثانيًا: الواقع التاريخي لجنوب أفريقيا:

ثمة غيوم كثيفة ما زالت تخيّم على تاريخ جنوب أفريقيا في عصور ما قبل الاستعمار الغربي، وإن كومة عريضة من الظلام تحجب حقائق هذا التاريخ ودقائقه،

(1) ديفيد تشانيوا "أفريقيا الجنوبية عام 1945" من تاريخ أفريقيا العام مج 8/ 78م، ط اليونسكو عام 1998ف.

الأمر الذي يثير الكثير من التحديات الدافعة للباحثين إلى بذل المزيد من الجهود لإزالة هذه الحواجز الزمنية، وتسليط الضوء على هذه الرقعة المعرفية المجهولة من تاريخ الإنسان الجنوب إفريقي.

وإزاء هذا الجهل العلمي، يظل من المجمع عليه أنّ جذور تاريخ أفريقيا الجنوبية تمتد إلى استيطان الإنسان القديم فيها منذ آلاف السنين، ثم تلتها عهود الاحتلال والاستدمار، وعقبتها مرحلة الكفاح في سبيل بناء وطن حديث.

وبقدر ما يتصل الأمر بموضوعنا فإن التاريخ المدوّن لهذه البلاد لا يعود لأكثر من 500 سنة، وهو بذلك لا يغطي معرفيًا أكثر من القرون الخمسة الأخيرة، فضلاً عن كونه تاريخًا استعماريًا، إنتاجًا وموضوعًا.

ومن هذا المنطلق تنطلق المصادر التاريخية في تحديدها لبداية الاهتمام الغربي الاستعماري لمنطقة جنوب أفريقيا من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك بوصول الرحالة البرتغالي بارتلوموزديار عام 1488ف إلى أقصى جنوب القارة وجورانه حولها، وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ أبحر برتغالي آخر وهو فاسكوداجاما حول المنطقة، ونزل بمنطقة ناتال الساحلية، ومن هناك أكمل إبحاره إلى الهند من غير أن يستقر فيها طويلاً، ودون أن يعيرها هو ولا قومه اهتمامًا يذكر، وذلك لعدم عثورهم على معادن ثمينة، أو بضائع للاتجار بها، علاوة على ما قوبلوا به من استقبال فاترٍ وغير ودّي من قبل سكان المنطقة[1].

وفي القرن السادس عشر أخذ الإنجليز في تسيير رحلات تجارية نحو الشرق مروراً بمنطقة الكاب، بحلول عام 1652م قرّر الهولنديون بدورهم إنشاء مستوطنة في الكاب، فقامت شركة الهند الشرقية الهولندية بإرسال نحو مائة رجل لأداء مهمة محددة، تتمثل في العمل على إقامة قاعدة تعنى بتقديم الخدمات الفنية للسفن

---

(1) ينظر: جديون س. وير، تاريخ جنوب أفريقيا ص: 35، ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ ط1/ 1407هـ 1986ف الرياض، السعودية.

الهولندية العابرة في رحلتها الشرقية نحو الجزر الهندية[1]، وتقوم بدور محطة تزويد السفن بالطعام، والماء الصالح للشرب، واللحوم التي يتم تحصيلها عن طريق المقايضة بالبضائع الأوروبية مع السكان الأصليين.

والظاهر من خلال هذه المهمة التي انتدب لها هؤلاء المغامرون أنها لم تكن في الأصل لمآرب استعمارية، بل كان مجرّد الاختلاط بالسكان الأصليين أو الاعتداء عليهم من الأمور المحظورة بالنسبة لهذه البعثة الفنية، غير أن المقام قد استطاب لها في هذه الأراضي الخصبة والتي نعمت بخيراتها الزراعية، فتحولت بمرور الزمن إلى فئة من التجار، شهدت نمواً متزايداً بل متضاعفًا مع الأيام، فانقسمت أخيراً إلى مجموعتين تمارس إحداها التجارة، بينما تقوم الأخرى بمزاولة الأعمال الزراعية، وتربية المواشي مستعينة في ذلك باستخدام الأيدي العاملة الأفريقية الرخيصة. وبحكم هذا التطور الجديد في حياة البعثة الهولندية أخذت تتعمق وتتوسع في أرجاء البلاد بعد أن قطعت صلتها بالمهمة التي أوفدت من أجلها في بداية عهدها ووصولها إلى المنطقة، فتحولت الإقامة الموسمية المؤقتة إلى استيطان فعليّ ومستديم، فتح الطريق أمام موجات هائلة ومتتالية من الهجرة الأوروبية ومن مختلف أقطارها للاستيطان في الأراضي الجديدة، وتصويراً لبوادر التحولات التي طرأت على البلاد من الناحية العمرانية بفعل تزايد موجات الهجرة إليها ورد في الموسوعة العربية ما نصه: «كانت المستوطنات في الشرق صغيرة، ويستوعب كل منها حوالي 60 شخصًا، بينما وصل عدد سكان المستوطنات الغربية إلى 10 آلاف شخص.

وقد استخدم هؤلاء كميات كبيرة من الحجارة في بناء منازلهم بينما كانت المباني الحجرية في الشرق نادرة»[2]، ولعلّ ملاحظة هذا الإجراء الاستيطاني هي ما استند عليها من قال: «كان المستوطنون الأوروبيون في أفريقيا الجنوبية على عكس أقرانهم في

---

(1) ينظر: حامد عثمان، المسلمون في العالم، ص: 232، ط1/ 1399 من وفاة الرسول ﷺ من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

(2) الموسوعة العربية العالمية، ص: 520 مرجع سابق.

سائر أفريقيا، راغبين منذ البداية في الاستقرار في بيئتهم الجديدة التي جذبهم إليها ما تتميز به من مناخ معتدل، وأرض زراعية خصبة، وعمل إفريقي رخيص وخامات معدنية وفيرة»[1]، ومع معقولية هذه التعليلات وموضوعيتها يميل فيها البعض إلى اعتماد العامل« الديني، بعزو سبب الهجرة الاستيطانية إلى الاضطهاد الديني الذي تعرض له البروتستانت على أيدي الكاثوليك في أوروبا، ولا شك أن تزامن الأحداث عاملٌ مشجّعٌ على طرح تعليل من هذا القبيل، وهو برأيي غير مستبعد، بل يعتمد كعلة مكمّلة لغيرها من العلل المتقدمة.

هذا، وقد حظيت المنطقة باهتمام متزايد بعد العثور على المعادن الثمينة، حيث تم اكتشاف الماس عام 1868ف، وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ عثر أيضًا على كميات تجارية هائلة من الذهب، وقد أدّت هذه الاكتشافات الثمينة إلى زيادة تدفّق سيول الهجرة، وتفجّر فيضانات استجلاب العمالة الأجنبية من خارج البلاد وخاصة من المستعمرات الآسيوية في أندونيسيا، وماليزيا، والهند، ومن القارة الأفريقية كذلك، وبوصول هؤلاء المستقدمين الجدد تكون المنطقة قد شهدت عنصرًا ثقافيًا جديدًا ساهم هو الآخر إلى جانب الفئات الأخرى في تشكيل نسيج مجتمع جنوب أفريقيا المتعدد الألوان والانتماءات، إذ لم تعد العمالة المحلّية وافية بإشباع حاجات سوق العمل المتزايد في مواكبتها لحركة التحولات الجارية، أوالإيفاء بمتطلبات فرص الاستثمار الجديدة المتدفقة[2].

وطوال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين «كانت الأقلية البيضاء تكبر أكثر، وتكبر معها مساحات واسعة من الأراضي الخاصة بها، إلاّ أن نشاطها لم ينحصر في الجانب الاقتصادي، بل راحت تتصرّف كطليعة قادمة لنشر الحضارة الأوروبية، والديانة المسيحية»[3]، وهذه إشارة قوية إلى ارتباط الاستعمار بالتنصير، الذي غلب عليه دومًا دورُ

---

(1) د شابايو "المبادرات والمقاومة الأفريقية في أفريقيا الجنوبية" من تاريخ أفريقيا العام مج7/ 203، اليونسكو 1990م.

(2) ينظر: ...... "الأبيض والأسود بين القهر والفقر" ص: 11 من مجلة العربي الكويتية ع325/ 11.

(3) حامد عثمان، المسلمون في العالم، ص: 233، مرجع سابق.

التمهيد والتمكين للمشروع الاستعماريّ، في مختلف فتراته، وفي شتى صوره، وأشكاله.

على أن من الطبيعي في أجواء يفور فيها غليان مطاردة المصالح الاستعمارية أن تنشب حروب دامية، ومعارك ضارية بين تلك القوى الاستعمارية بسبب تعارض المصالح المادية، وتصادم الإرادات التسلّطية، ومن أشهر تلك الحروب ما عرفتْ بحرب البوير التي اندلعت بين القوات البريطانية وجماعة البوير، وهم المنتمون إلى الأصول الأوروبية الأخرى بغلبة العنصر الهولندي، ورغم أن كلا الطرفين قد دفع ثمنًا باهظًا في مواجهته للطرف الآخر، إلاّ أن المحصلة النهائية لتلك النزاعات التي استمرت لما لا يقل عن ثلاث سنوات انحسمت لصالح الإنجليز، فعملت على عقد اتفاقيات مع الأقلية الأوروبية في البلاد وعلى أثرها امتد زحفهم، واستقر نفوذهم على مناطق شاسعة من البلاد، أمام انسحاب الطرف المهزوم وتوغّله إلى أعماق البلاد[1]، في هجرة داخلية عبر مسافات طويلة، مصحوبًا بالأسر والخدم، والممتلكات، وقد أطلقت عليهم لفظ البوير لاستخدامهم الواسع في تلك الفترة لعربات الخيول في رحلاتهم الانسحابية وتنقلاتهم العادية إلى أن كادت تصبح سكنًا مستقرًا لهم[2].

كما أن من الطبيعي جدًا أن تكون حركات الاستيطان والتوسع لاحقًا قد جوبهت منذ بواكير عهدها بأعتى المقاومات وأبسلها، من قبل الأهالي الأصليين الذين قاوموا باستماتة كل محاولات السيطرة التي كانت ترمي إليها الطلائع الأولى لمشروع الاستيطان الأوروبي في المنطقة؛ حيث لم تكن السيطرة الأوروبية على جنوب أفريقيا خالية من مقاومة أبناء المنطقة الأصليين، بل فمنذ بدء نزول البعثات الأوروبية إلى تلك الأراضي بدأ الأفارقة بالتصدي لهم، وشهد عام 1510ف أول صدام مسلح بين البرتغاليين والسكان الأفارقة، وتلته سلسلة من العمليات الحربية «كما ظهرت تنظيمات سياسية محلية من أجل مقاومة المستعمرين»[3].

---

(1) ينظر: د. شوقي الجمل وآخر، تاريخ أفريقيا الحديث المعاصر، ص: 86، ط1/ 1407هـ1978م، دار الثقافة، الدوحة.

(2) ينظر: .... "رأس الرجاء هل أصبح صالحًا" من مجلة العربي الكويتية، ع397/ 142.

(3) "المقاومة الأفريقية، ص: 7، ع735، من صحيفة الدعوة الإسلامية، 31/ 1/ 1369و.ر.

ولإبطال مفعول المقاومة، وتلهيتها عن نيل أهدافها عمد المستعمر إلى خلق صراعات أهلية، وإثارة نعرات قبلية في صفوف القبائل المقاومة والتي لم يكن شعثها ملمومًا في جبهة كفاح موحدة، إذ لم يكن يجمع بينها رابط ولا ضابط. فلجأ المستعمر من خلال سياسة فرق تسُد إلى الإغراء بالمصالح التجارية، وخلق أجواء المنافسة بين الجماعات المقاومة حيث: «ساعدت المنافسة على التجارة والموارد على إذكاء نار الحرب بين القبائل. ونتيجة لهذه الحروب هاجر كثير من السكان إلى الأحراش الداخلية وأدت الهجرة إلى انتشار الصراعات بين السوتو والبتسوانا المقيمين في المنطقة. في هذه الأثناء ظهر ملك الزولو ساكا الذي أسس حكمًا عسكريًا مركزيًا، وقضى على عدد من قبائل السوتو والتسوانا الصغيرة»[1] وهذا ليس بمفاجئ فهو معهود عن الاستعمار والامبريالية قديمًا وحديثًا. ومع تواصل حلقات مسلسل المقاومة في أكثر من زمان ومكان، يصرّ المستعمر على تزييف حقائق التاريخ والتعتيم عليها بإيهام الآخرين بدعوى «أن جنوب أفريقية كانت خالية من السكان قبل مجيئهم، والحقيقة أن جماعات من الخوسيين والبوشمن والهوتنوت كانت تسكن البلاد منذ أزمان سحيقة ثم وفدت عليها جماعات أخرى من شعب البانتوالزنجي»[2].

ولا شك أن جملة من العوامل أسهمت في إلحاق الهزيمة بالأهالي، وترجيح كفة الانتصار لصالح المستعمرين الوافدين، ومن أهمها تشتت صف الأهالي، وضعف مستواهم التنظيمي، وجهلهم بالأساليب والفنون الحربية الحديثة، إلى جانب صراعاتهم الداخلية، وتناحراتهم البينيّة لأسباب قبلية، وماديّة، غير أن أهم عامل على الإطلاق يتمثل في اعتماد المستعمر على الأسلحة الناريّة الحديثة، والتي لم يكن للمقاومين سابق عهد بها فضلاً عن اقتنائها، ولا سيما القدرة على استخدامها، وبخطورة وأهمية ما قد يترتب على اقتناء المقاومين لتلك الأسلحة، ودورها في توازن ميزان القوة بين الطرفين حال المستعمرون دون حصولهم عليها، وأبرموا في سبيل ذلك

---

(1) الموسوعة العربية العالمية ج3/ 522.

(2) عبد الله نجيب محمد "حصاد الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا" 2/ 134 من مجلة الأزهر لسنة 62، 1411هـ 1989م.

اتفاقيات قاضية بحظر بيع الأسلحة الحديثة من الأطراف الأوروبية للقوى الأفريقية المقاومة، وهذا ما عناه أحد الباحثين بقوله: «أدركت العناصر الأوروبية التي سكنت جنوب أفريقيا حاجتها للأسلحة النارية من أجل التوسع والاستيلاء على الأراضي الخصبة، وتأمين المراعي والدفاع عن النفس، وصيد الحيوانات، وعلى هذا أتاحت بريطانيا دخول السلاح إلى هذه المنطقة، وكانت التجارة فيها مشروعة، غير أن الأوروبيين حاولوا حظر حيازة الأفريقيين لهذه الأسلحة خشية استخدامها ضدّهم، وطبقت هذه السياسة على جميع مستعمرات الجنوب»[1].

وهكذا تم احتكار السلاح، ومنع تصديرها إلى من لا ينتمي إلى عالم القيم الغربية، شأن ما يجري في عالمنا المعاصر من احتكار التقنية، وأسبابها، وكافة مقومات التقدّم المادّي التكنولوجي وما يتصل به.

وقد ترتب على هذه العمليات التوسعية من جانب، والاجراءات الاحتكارية من جانب آخر فقدان المواطنين الأصليين للمزيد من أراضيهم وثرواتهم، واستقلالهم، وقتل منهم خلق كثير أثناء تصديهم لزحف وتقدم جحافل المستوطنين البيض[2]، وقد ساء وضع الأهالي كثيراً من العقود التي عقبت الزحف الأوروبي، وذلك بسبب ما كانوا يسامونه على أيدي البيض من معاملات تعسفية عنيفة لا إنسانية، وقد برّر أحدهم هذه السياسة القائمة في العقد الثاني من القرن العشرين بقوله: «ولا يستطيع أحد أن يقول إنه من الواجب أن نترك السكان الأصليين في المناطق التي يعيشون بها لأن ذلك القول ينكر حق حضارتنا في الوجود والسيادة على العالم، بل أنه ينكر منطق وعدالة القوة التي ساهمت في جعل العالم كما نراه، وينكر أيضًا على أن للجنس الآري مسؤولية ملقاة على عاتقه»[3].

---

(1) د. محي الدين محمد مصيلحي: "تجارة الأسلحة النارية في جنوب أفريقيا"، ص: 158، 138 من المجلة التاريخية المصرية، مج32/ 1985م.

(2) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 98 مرجع سابق.

(3) هـ ا. أ. غيبون، خريطة أفريقيا الجديدة، ص: 49، ترجمة منصور عمر الشيتوي ط2/ 1975م دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا.

ومن الواضح أن هذا الخطاب يمثل أصدق تعبير عن الخطاب والموقف الاستعماريين، وهو نتاج عقلية استعلائية، من أبرز سماتها قلب المفاهيم، وتعكيس سُلّم القيم، وتغليب المصالح المادية الآنية الفانية، على الاعتبارات الإنسانية الساميّة والدائمة.

ووفقًا لما تمليه هذه العقلية المنحطة، وبعد أن ترسخت أقدام المستعمرين في البلاد، واطمأنوا على استتباب الوضع لهم وسيطرتهم على زمام الموقف أخذوا يمارسون مختلف ألوان وأشكال التمييز العنصري البغيض، ولم يألوا جهدًا في تبرير واقع التمييز بمبررات واهية، وحجج واهنة، بادعاء حضارية رسالتهم، وتفوق العنصر الأوروبي على سائر الأجناس الأخرى بالطبيعة البيولوجية، ولا شك أن واقع الاستمرار في الاستقرار بعد عقود الاحتلال ومتاعبه قد لعب دورًا في جلب نظريات وسلوكيات من هذا القبيل إلى ساحة المستعمرات قديمًا، والتي وقعت في أسر القوات الأجنبية، وشهدت الحياة فيها تطورًا يقوم على تعدّد واختلاف الأجناس المتعايشة في أجوائها، بكلّ مميزاتها العرقية، والثقافية والجغرافية، ومن المتوقع بطبيعة الحال في مناخ إنساني يضم هذا الخليط المتنافر أن تظهر علاقات اجتماعية مختلفة تدين وتعتمد في وجودها على منطق القوة وحدها دون غيرها، وهذه الحقيقة النظرية هي التي عبرت عنها سياسات التمييز العنصري، وترجمتها إلى واقع عملي معاش وملموس على امتداد القرن العشرين في تاريخ جنوب أفريقيا المنكوبة. ولأهمية الحدث التاريخية محليًا وعالميًا فإنه يحتّم على الباحث التعريج عليه في وقفة قصيرة وعابرة.

ثالثاً: التفرقة العنصرية ومظاهرها في جنوب أفريقيا:

إن فكرة التمييز العنصري هي أول ما يتبادر إلى الذهن حين يتناهى إلى السمع أو يقع البصر على اسم جنوب أفريقيا وذلك بالنسبة لمن له أدنى إلمام بتاريخ العالم الحديث، أو أبسط اهتمام بمتابعة أحداثه وقضاياه الجارية، حتى وكأن مفهوم التمييز العنصري فكرة ملازمة للتسمية إن لم تكن مرادفة لها، حيث أصبحت قضية التفرقة العنصرية في تلك البلاد القضية الشاغلة للرأي العام العالمي، والتي ملأت الدّنيا وشغلت الناس، في فترة ممتدة من الفترات، وذلك من خمسينيّات إلى تسعينيات القرن

العشرين، وهو ما دفع بأحد الباحثين إلى القول بالحرف: «أصبحت قضية جنوب أفريقيا والصراع العنصري فيها من القضايا التي تشغل الرأي العام العالمي، ومن المسائل التي تحتل مساحة كبيرة من الاهتمامات على جميع المستويات»[1].

ومن الناحية التاريخية فإن التفرقة العنصرية قديمة قدم الاستعمار في هذه البلاد ولكنها، تطورت، وبلغت ذروتها حين اتخذتها حكومة جنوب أفريقيا دستوراً ضدّ غير البيض وهم السود، والآسيويون، والملوّنون، وقد سنّت تشريعات، لإقرارها، وحمايتها، حيث ظهر قانون التسجيل السكاني منذ عام 1950م والذي بموجبه تم منح السكان مدارس، وجامعات، ومناطق سكنية وخدمات عامة لكل مجموعة عنصرية على حدةٍ، واستقلال عن المجموعات الأخرى[2]، وظهر إلى الوجود ليدخل القاموس السياسي إلى الأبد مصطلح الأبارتايد APARTHEID والذي يدور حول معاني الانفصال، والإبعاد، والعزل، في اللغة الأفريكانية وهي لغة البوير.

ومن الناحية العملية فقد كانت الحياة اليومية تفوح برائحة التفرقة العنصرية في مختلف تجلّياتها، وفي مختلف مرافق المجتمع ووحداته الأساسية والسياسية، وقد ذهب أحد الملاحظين إلى تصوير تجلّيات التفرقة العنصرية، وتحديد أبرز مجالاتها على نحو يُغري باقتباسه حرفيّاً وذلك في قوله: «إنه من المستحيل أن تقضي في جنوب أفريقيا حتى بضعة أيام بل بضع ساعات دون أن تتحقق من الفواصل الموضوعة بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في محطات السكك الحديديّة، وفي القطار والحافلات، وفي المطارات، ومكاتب البريد، وكل المؤسسات العامة، وفي البنوك، والملاعب والبرامج التعليمية وعلى الشواطىء، وفي المقابر، ففي كل الحالات هناك خدمات وتسهيلات منفصلة لكل من الأوروبيين وغير الأوروبيين على حدة، وتقرأ دائمًا لافتات مثل «للبيض فقط» ولغير البيض، وفي المطاعم والفنادق والمقاهي ودور السينما

---

(1) محمد جلال عباس: "الصراع ضد العنصرية في الجنوب الأفريقي" 36 من مجلة الموقف العربي، ع78، من 10/ 1407هـ 1986م.

(2) ينظر: الموسوعة السعودية ج3/ 527، الرياض.

والمسارح وضعت أيضًا نفس العوازل»[1].

هذا وشملت سياسة التفرقة العنصرية العزل المكاني والاجتماعي بمنع الزواج المختلط، وامتدت إلى الملكيات الزراعية، وإلى الأجور والمرتبات، واستُصدرت بشأن تنظيمها شهادات التسجيل العرقي، وتصاريح المرور من منطقة عرقية لأخرى، كما عمت سيارات الأجرة، والمستشفيات، والحدائق. وقد أكّد الدكتور محمد الرميحي حقيقة قيام هذا الواقع الهزلي بقوله: «... كما شرع الحزب بين عامي 1948 و1960م قوانين الفصل العنصري في استخدام الأماكن العامة مثل الحدائق والسّكك الحديدية، وفي السكن، والمدارس، ودورات المياه العامة وفي أماكن العمل حتى أصبح لكل شركة أو مصنع أربعة أبواب للدخول مخصصة للأجناس المختلفة، فهناك باب للبيض، وباب للسود، وباب للهنود، وباب للملوّنين، وبالتالي أربعة مصاعد وأربع دورات مياه، وأربعة مطاعم، وأربعة أماكن لخلع الملابس... الخ»[2].

وليس بكثير على دولة تتركز فيها السلطة والثروة في أيدي أقليّة صغيرة، في مواجهة أغلبية محرومة أن تكون من بين أغنى الدول وأفقرها في العالم، وقديمًا قيل: إذا عرف السبب بطل العجب.

التفرقة في الكنائس: ولعل الأدهى من كل ما تقدم والأمرّ هي أن التفرقة العنصرية استطاعت أن تتسرّب إلى دور العبادة، وتخترق الكنائس المسيحية، الأمر الذي يؤكد تبعيتها للاستعمار، ورسالتها التغريبية، وقد أدّى الوضع إلى إفراز «ما يسمى بمسيحية الأسياد، ومسيحية العبيد، وبإله أسود، ومسيح أسود، وما يسمى بالكنائس متعدّد الجنسيات، والكنائس السوداء»[3].

وهذا من منطلق ردّ الفعل، والمبادلة بالمثل، حيث إنّ الكنيسة الهولندية المصلحة

---

(1) جديون من. وير: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 236 مرجع سابق.

(2) الدكتور: محمد الرميحي، مجلة العربي ع325/ 13 مرجع سابق. وينظر: كي زربو: تاريخ أفريقيا السمراء، 2/ 1016.

(3) د. حامد عثمان: المسلمون في العالم، ص: 235 مرجع سابق.

كانت تبارك هذا النظام وتسوّغه معتمدة على التوراة[1]. وقد سجل دبلوماسي ألماني كان يعمل في جنوب أفريقيا انطباعاته عن موضوع التفرقة في الكنائس بقوله: «ووقف أبنائي أمام إحدى الكنائس الرائعة البنيان، في فترة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وارتاحت عقولهم الحائرة عندما قرأوا دعوة مكتوبة بحروف واضحة على باب الكنيسة تقول «مرحبًا بالجميع، وفجأة لاحظوا مرة أخرى اللافتة القبيحة مكتوبة ولكن بحروف صغيرة تقول: «للبيض فقط»[2].

وهكذا أمضى البيض ردحًا من الزمن في جنوب أفريقيا على غيّهم سائرين، وبما حولهم لا يعبأون، مصرين على الظلم وسياسة الاضطهاد عنادًا ومكابرة ولأتفه الأسباب، إذْ «كان البوير يعتبرون أنفسهم قد اختارهم الله... كان البوير يرون أن الأفريقيين جنس اختاره الله للقيام بالأعمال الدّنيا ولإنجاز ما شقّ وصعب من الأعمال... وهذا الانحراف في التفكير خلق مشكلة جوهرية، هي المشكلة العنصرية صاغت الحياة، والتاريخ في جنوب أفريقيا»[3] وبذلك يصحّ القول بأن مواطني جنوب أفريقيا الأصليين أصابهم من العناء والقسوة اقتصاديًا واجتماعيًا مالا يقارن بما تعرّض له غيرهم في أي جزء من أجزاء القارة الأفريقية.

والحديث عن التفرقة العنصرية ومظاهرها في جنوب أفريقيا يفتح الباب واسعًا لعقد مقارنة موضوعية تفرض نفسها، إذ يشكّل كلّ من النظام العنصري سابقًا في جنوب أفريقيا، ونظام الكيان الصهيوني في فلسطين طرفي المعادلة فيها، وذلك لقيام أوجه شبه ومتماثلات كثيرة يشترك فيه النظامان؛ حيث إنّ كليهما من مخلّفات الاستعمار الغربي الأمبريالي، كما يقوم كلٌّ منهما على أساس الاستيطان بالقوة الغاصبة والقهر الرهيب على حساب أصحاب الأراضي الحقيقيين من السكان

---

(1) ينظر: كي زربو، ج2/ 1022 مرجع سابق.

(2) الحل الإسلامي للمشكلة العنصرية، ص: 91 من سلسلة مكتبة ديدات، دار المختار.

(3) جديون، س. وير: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 75، ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ، ط المريخ 1406هـ 1986م.

الأصليين والشرعيين، وفضلاً عن ذلك فإنهما يستمدّان سبب بقائهما من الدعم الغربي اللاّ محدود لهما، ويؤصّلان سياستهما على جملة من الأوهام والأساطير تستند على الاعتقاد بتفوّق عنصر بشري على آخر، مهدّدين بذلك أمن المنطقة المحيطة بهما، وأكثر من ذلك، فإنهما يعملان على زعزعة السلام في العالم كلّه، وهدّ أركان الاستقرار، وخلق التوتر الدائم في العلاقات الدولية.

وتأسيسًا على ما تقدّم، فإن ثمّة علاقات وطيدة كانت تربط بين الطرفين شملت كافة المجالات من سياسيّة واقتصادية، وأمنية، وتعاون عسكري، وثقافية، ودبلوماسية، وغيرها من المجالات الحيويّة التي ضمنت للنظامين الشقيين أسباب البقاء، وسبل المواجهة لتحديات الكفاح المحلي والدولي المهدّدة لوجودهما. ولعل أدلّ دليل على ذلك «أن جنوب أفريقيا كانت الدولة الوحيدة التي لها علاقات قويّة مع الكيان الصهيوني حتى قبل قيام دولة إسرائيل، وحيث وافقت سلطات جنوب أفريقيا العنصرية على المشروع الصهيوني وأيّدته، وكان رئيس جنوب أفريقيا كرستيان سماتس، والذي ظلّ يحكم حتى عام 1948 مؤيدًا للصهيونية»[1] وشدّد خَلَفُه من بعده في السير على نهجه المتعصب الممقوت.

وتأكيدًا على حقيقة هذا الارتباط العدواني الآثم بين النظامين ورد في خطاب الشيخ جابر الأحمد أمير دولة الكويت في المؤتمر الإسلامي الخامس قوله: «الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا هي إسرائيل، وإسرائيل هي جنوب أفريقيا العنصرية المغروسة في الوطن العربي والعالم الإسلامي»[2].

ويأتي ما كتبه الدكتور الرميحي تعميقًا وتوضيحًا لصورة التلاحم الجبان بين الدولتين، وذلك في قوله: «ولقد أسهمت جنوب أفريقيا في إقامة سلاح الطيران الإسرائيلي، كما أن شركة العال الحالية هي وليدة لشركة «يونفرسال آيرويز» التي أسّسها يهود من جنوب أفريقيا، أما المساعدات المالية الاستثنائية إلى إسرائيل من

(1) شوقي الجمل وآخر: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ص: 340، مرجع سابق.

(2) مجلة العربي الكويتية ع، 341/ 17، عام 1987م.

جنوب أفريقيا، والعلاقة الخاصة في البحث العلمي فقد أفردت لها مؤلفات كثيرة ولا يرقى إلى الشك اليوم حقيقة هذا التعاون في تجارة الماس والتعاون العسكري والعلمي»[1].

وهذه صورة مختصرة لكونها من لقطات وقفة عابرة تعكس مدى التماثل والتواصل اللذين كانا قائمين بين النظامين في كلّ من جنوب أفريقيا «سابقًا» والكيان الصهيوني الإسرائيلي قديمًا وواقعًا.

وحيث إن الاستمرار في السير على هذا النهج المعكوس هو في واقعه أمر يتنافى مع طبيعة مبادئ ومقومات الحياة الإنسانية الحرة الكريمة، فقد عزّز المضطهدون في جنوب أفريقيا من قدراتهم النضالية، وطوّروا كذلك من أساليب الكفاح وآلياته، وسعوا في الوقت ذاته إلى توسيع نطاق الكفاح والمواجهة، وتدويل دائرته ليكتسب كفاحهم بذلك بعدًا وعمقًا إنسانيًا عالميًا، بعد أن كان ولوقت طويل محليّـًا وشأنًا خاصًا، وقد تزامن هذا الإجراء مع ظهور عدد من المتغيرات الدولية على الساحة العالمية كان لها أثر ودور يذكر في نجاح عمليّة التدويل، وللوقوف على جزء ولو يسير من مسيرة حركة التغيير في جنوب أفريقيا فإن ذلك يقودنا حتمًا إلى استعراض بعض من صور النضال ومواقفه، وتحديد ساحاته المحلية، وميادينه العالمية، وذلك في الفقرات الآتية:

أ ـ النضال المحلّي في جنوب أفريقيا ضد نظام التفرقة العنصرية:

يُعتبر تأسيس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الحاكم حاليّـًا في جنوب أفريقيا عام 1912م حدثًا بالغ الأهمية في تاريخ الحياة السياسية بعامة في هذه البلاد، وفي مسيرة النضال من أجل التحرر والانعتاق خاصة، وهو الحزب الذي ينتمي إليه المنعوت برمز الكفاح والنضال، والثبات على المبدأ: السيد نلسون مانديلا[2]، وقد جاء تأسيس الحزب إيذانـًا ببدء فصل جديد ومهمّ من سفر النضال الكبير في تاريخ جنوب أفريقيا، حيث أمضى

---

(1) مجلة العربي ع325/ 16 عام 1985م.

(2) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 256، مرجع سابق.

الحزب عقوداً من الزمن ملتزمًا منهج المقاومة السليمة، وربما بتأثير من الزعيم الهندي المهاتماغاندي، الذي سبق أن أقام في هذه البلاد وأمضى جزءاً مهمًّا من حياته في أرجائها يتفاعل مع أحداثها ويكتوي مع غيره بلهيب العنصريّة، متجرعًا مرارتها، وحين لم تُجْدِ المقاومة السلميّة اضطر الحزب إلى المقاومة السياسية عن طريق المظاهرات الاحتجاجية، وتوزيع المنشورات، وتدرّج منها إلى استخدام أسلوب الكفاح المسلّح والمتّسم بالعنف، ومنذ عام 1962م أصبح العنف شعار الحياة اليومية في جنوب أفريقيا.

وهذا الحزب موضوع الحديث من أكبر الحركات القومية في جنوب أفريقيا وأوسعها شهرة، وإليه يعود الفضل في توعية الأفارقة، وتعبئتهم بإذكاء روح النضال فيهم، وحشد وتأطير طاقات المقاومة لديهم، وتدريبهم على ممارسة أساليب النضال المنظم من أجل التحرير، وذلك من أهدافه النبيلة والتي رسمها الحزب لنفسه لتحقيق قضية الشعب العادلة، وتتمثل تلك الأهداف في:

1 - إيجاد وتشجيع التفاهم المتبادل في المنطقة.

2 - إيجاد التواؤم، وجمع شعب المنطقة على صعيد واحد.

3 - الدفاع عن الحرية وحقوق وامتيازات الشعب على قدم المساواة بين كل الفئات المشكلة للكيان السياسي الاجتماعي لجنوب أفريقيا[1].

هذا، ولعلّ من أشهر المواقف النضالية التي يسجلها التاريخ للمناضلين هناك تلك المجزرة التي تعرف بمجزرة شاربفيل وهي بلدة بإحدى ضواحي جوهانسبرج، ثار فيها المتظاهرون، وتمرّدوا على نظام حمل البطاقات العنصرية وتصاريح المرور من منطقة لأخرى، فأصدر فيرفورد رئيس الحكومة آنذاك أوامر بإطلاق الرصاص لقمع الثورة، والقضاء على الثوار فسقط في شباك عنيف التحم فيه الثوار مع قوات الأمن ما يزيد على 250 شخصًا ما بين قتيل وجريح، وخلفه على رئاسة الحكومة جون فورستر وزير عدله سابقًا والذي ترسم خطاه لإكمال حلقات السياسة العنصرية، متحديًّا

(1) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 255 مرجع سابق.

المشاعر المحليّة والعالمية، فاندلعت ثورة الوطنيين للمرة الثانية على مسرح آخر في مدينة سوتيومن ضواحي جوهانسبرج، وقد «بدأت الثورة بخلاف على البرامج الدراسيّة في المدارس بدأها التلاميذ الصغار وانضمّ إليهم آباؤهم وانطلقت الجموع تدمّر وتحرق كل شئ يمثل جبروت الرجل الأبيض وطغيانه فأطلق عليهم الرصاص فسقط أكثر من 1100 قتيل وجريح، وسط بركة من الدماء، وتوالت الثورات وتوالت المذابح ويمضي الرجل الأسود في ثورته»[1] وهكذا سرت الشرارة، واندلع الحريق في كل أجزاء البلاد، ولم يعد بإمكان النظام إطفاؤه، وشهد النضال سوقًا رائجة، دفع المناضلون فيها ثمنًا باهظًا للتحرر والانعتاق وكان لابدّ منه إذ لم يكن أمامهم ثمة خيار آخر بعد استنفاد كل الوسائل السلمية والحوارية، وكان الشعب في حينه على استعدام دائم لخوض معركة المصير، وكان يعيش دومًا في حالة تأهب قصوى للنضال من أجل الحياة، وهو ما يفسّره فيضان تدفّق الجماهير إلى شوارع النضال وساحاته، وهي تتدفق حماسًا، وتلتهب إيمانًا بقضيتها التي لا بديل عنها، ولا تخاذل، فضلاً عن النكوص في سبيل الوصول إليها، وبذلك يمكن أن نتصور أن كلّ خروج كان يضمر قرار الشعب بعدم العودة إلا منتصراً. وقد صدق الشاعر العربي أبو القاسم الشابي حين قال:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلابدّ أن يستجيب القدر

وكان النظام من جانبه يواجه المواقف بمختلف صنوف القمع، وألوان التعذيب، معتمداً نظام التجنيد الإلزامي لجميع الرجال البيض لمدة سنتين في قوات الدفاع، مع استدعاءات دورية لأداء الخدمة العسكرية تدوم لثمان سنوات لاحقة[2]. كما أنه حاول اختراق الكفاح الوطني عن طريق الخداع والاستقطاب تارة وبالسعي لتفتيت الحركة وخلق صراعات داخلية على الزعامات تارة أخرى، إلاّ أنه لم يتم شيء مما أراد على الوجه الذي أراد، ورغم كل «الإجراءات القمعية المتمثلة «في الموت والضرب

---

(1) "قلاع الرجل الأبيض تهتزم في أفريقيا السوداء" مجلة العربي، ع 216، وينظر: 117 118، عام 1976/ 1396.

(2) ينظر: محمد اللافي، جنوب أفريقيا وأيديولوجية التمييز العنصري وقرارات الأمم المتحدة بشأن ناميبيا" ص: 178. مجلة الفكر الإستراتيجي العربي، ع (23 24) يناير أبريل 1988م.

والتخويف ومقاومة الإضرابات ونشاط الثوار، وكثرة الأسلحة، وانتشار قوات الأمن والحجز والاعتقال، والتهجير والنفي بالقوة، وأوامر المنع والتقييد وسنّ المزيد من القوانين وأنظمة القمع[1] واستخدام غازات مسيلة للدموع، وكلاب بوليسية، ورغم كل ذلك فإنّ موجات النضال كانت تشهد تصاعداً مستمراً، وكانت حركة الكفاح تتزوّد مع كل إجراء قمعي بوقود الإقدام، وتزداد كثافة وشدّة، وقد استمرّ الغرب في مدّ النظام العنصري بآليات القمع المتطورة، علماً بأنه هو الآخر كان قد خصص خمس الميزانية للنفقات العسكرية والأمنية. ولأسباب اقتصادية فإن الدول الغربية المتشدّقة بشعار الحرية والديمقراطية لم تتجرأ على قطع صلاتها السياسية والاقتصادية بجمهورية أفريقيا الجنوبية»[2]، جراء ما تقدم عليه وبه من أسس وعمليات تتناقض مع المبادئ التي يدّعي العالم الغربي أنه يسهر على رعايتها تضليلاً، وإمعانًا في الهيمنة.

ومع ما بذله النظام من جهود مضنية في التعتيم الإعلامي على الأحداث الجارية بكبح أبواق الإعلام والتكتم على حقيقة الوضع الداخلي، ومنع تسرّب المعلومات الصحيحة إلى العالم كلّه؛ إذ كان القانون ينص على: «أن وسائل الإعلام الصحفية التي تشمل المراسلين الأجانب ليست مخوّلة بنشر التقارير والتعليمات على حوادث الشغب والاحتجاجات على سياسات التمييز العنصري، كما أنه يعدّ من الجرائم أن تنتقد كيفية معالجة الحكومة للأزمة السياسية. وجميع التقارير حول العنف والإضرابات والمقاطعة، وتجمعات الاحتجاج عدا التقارير الحكومية، لابدّ من تقديمها إلى مكتب المعلومات للتصفية قبل وصولها إلى الرقابة، كما أن الأفراد الذين يدلون ببيانات هدّامة حتى ضمن الاتصالات الخاصة، معرّضون للمتابعة القضائية»[3]. مع كل ما في هذه الذرائع من شذوذ واستبداد، فلم يكن يمرّ يوم دون أن تنقل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة الأحداث العنصرية المروعة، والمواجهات الدامية بين الظالم

---

(1) كينيت وغبراندي: "جنوب أفريقيا: القسر والمطالبة بالتغيير" ترجمة مصطفى اللحام، من مجلة الثقافة العالمية ع 37مج 7 س7/ 1408هـ 1987م، الكويت.

(2) ينظر: تاريخ أفريقيا السمراء 2/ 1022، 1024، مرجع سابق.

(3) "جنوب أفريقيا: القسر والمطالبة" ص: 55 56 من مجلة الثقافة العالمية، مرجع سابق.

والمظلوم في جنوب أفريقيا ذات الأغلبية المحرومة من كافة حقوقها، والمسلوبة منها آدميتها وكرامتها. ولِمَا بلغته الأزمة من تفاقم واستفحال فقد بادر كينيت كوندا رئيس زامبيا سابقًا بدق ناقوس الخطر منذرًا بما يمكن أن يؤول إليه الوضع في جنوب أفريقيا ما لم يتم تداركه قبل فوات الأوان، وقد ورد ذلك في مقولة له بنصّها: «إذا لم ينتبه الغرب إلى ضرورة تدارك الموقف في جنوب أفريقيا، فستشهد تلك البلاد حريقًا هائلاً، ستبدو معه أحداث الثورة الفرنسية كما لو كانت مجرّد نزهة»[1].

على أن مما هو خليق بالإشارة إليه من مميزات حركة الكفاح في جنوب أفريقيا هو أنها كانت حركة شعبية بمفهومها المحيط، ولم تكن بحال من الأحوال قاصرة على الأفريقيين السود، فحسب دون غيرهم، بل كانت عامة وشاملة لكل الفئات الأخرى التي تنضوي تحت لواء مصطلح غير البيض من سود، وآسيويين، وملونين صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساء لأن الظلم كان يقع عليهم جميعًا دونما استثناء، فضلاً عن أن العاطفة الإنسانية الكريمة تدفع إلى المشاركة الإيجابية في مثل هذه النضالات الشريفة، والانضمام الفاعل إلى الصّفوف الأمامية لحركة المكافحين من أجل الحرية، والعدل والمساواة، وللاعتبارات السالفة فإن: «معارضة النظام الاستعماري لم تقم على الأفريقيين وحدهم وإنما قامت أيضًا على العدد الكبير من السكان غير الأفريقيين: الملونين، والهنود، وبعض الأشخاص التقدميين من البيض، فكان الأفارقة القوة الرئيسة المناهضة للاستعمار دون أن يكونوا القوة الوحيدة، وكان لهذا أثره على طابع الكفاح بأسره»[2]. وإلى جانب هؤلاء جميعًا كان يقف فريق قليل من البيض ناظرًا إليهم بعين التعاطف، يخالجه في قرارة نفسه شعور قويّ، كلّه يقين وإقرار بعدالة ومصداقية القضية التي من أجلها يكافحون. وعمّن ينتمي إلى هذا التيار يقول المؤرخ كي زربو، هناك أوروبيون مقتنعون فكريًا بقضية (الأفريقيين، ولكن بما أنهم

---

(1) مجلة العربي ع276/ 19، عام 1981م.

(2) باريل دافيدسون وآخرون "السياسة والكفاح الوطني في وسط أفريقيا وجنوبها" مج7/ 677، تاريخ أفريقيا العام، مرجع سابق.

يستفيدون ماديًا من الوضع القائم فإنهم لا يستطيعون أن يندمجوا بكيانهم كلّه مع هذه القضية)[1]. غير أن فئة من الشباب الجامعي المثقف من هذه المجموعة استطاعت أن تنتصر على نفسها، وتتغلّب على أهوائها وشهواتها، فتجاوزت بذلك موقف الاقتناع الفكري لتترجم قناعتها إلى واقع عملي ملموس، وتحويلها إلى سلوك كفاحي مشهود؛ وذلك حين وجدت المعاني الإنسانية العظيمة سبيلها إلى أعماقهم، فخالطت شغاف قلوبهم فأنارتها حقًا، وعدلاً، وإيثارًا، وتضحية وإحسانًا، وهم من قيل بشأنهم: «ظهر شبان مثاليون، وبخاصة بين البيض الذين يدرسون الحقوق والاقتصاد أو العلوم الاجتماعية، ومن غير أن تكون لهم هويّة سياسية معينة، فقد رأوا في تجمعهم وسيلة لعمل شيء إيجابي، تركوا الجامعة ليلحقوا بالنقابات العمالية، وذلك لمساعدة السود على إيجاد تنظيم لهم»[2]، ولكن تم القضاء عليهم عن آخرهم من قبل أجهزة النظام التي سامتهم سوء العذاب تقتيلاً، وتشريدًا، واعتقالاً، جزاء لتمرّدهم وخروجهم على العرف القائم آنذاك، إذ كان موقفهم هذا بمثابة سباحة مغامرة ضد تيار حاد وعنيف لا يمهل، ولا يهمل؛ حيث كان النظام يرى في كل حركة أو موقف نضالي ويْلاً مؤكدًا للبيض من شرٍ قد اقترب!

وفي هذا الجوّ الخانق كان الإحساس بالظلم والقهر يملأ المستضعفين صغارًا وكبارًا، وحتى الأطفال مع ما طبعوا عليه من براءة، وبعدٍ عن الإحساس بهموم الحياة، أو الاهتمام بمشاكلها؛ حيث عبرت مجموعة منهم عن انطباعاتهم بشأن تقييم الوضع، فكانت في مجملها تعكس مرارة الإحساس بالإهانة والمعاناة، وعدم الارتياح، وقد تبين ذلك من تصريح أدلى به أحدهم وهو من أصل هندي بقوله: «إذا اندلعت حرب، فسوف نحارب إلى جانب السود حسب رأيي، فهناك حرب وسوف تساعد البلاد السوداء المجاورة السود هنا، أريد أن يترك البيض جنوب أفريقيا. وآنذاك

---

(1) تاريخ أفريقيا السوداء ج2/ 1008، مرجع سابق.

(2) مقابلة مع نادين عورديمر؛ "صوتان أبيضان من جنوب أفريقيا ضد التمييز العنصري" ترجمة كمال فوزي، ص: 201، ع254 22 مجلة المعرفة، عام 1983م.

سنعيش جميعًا سعداء، ولست على وفاق مع البيض»[1].

وبالنظر إلى وسائل الاحتجاج ومنابره؛ نلمس أن حركة الأدب والفنّ في جنوب أفريقيا نالت قدراً وافراً من فضل المشاركة في النضال، وقد تراوح موقفها بين تصوير دقيق لحقائق الواقع المرير، وتعبير عميق عن إرادة التغيير، حيث كان: «في بدايته أدب احتجاج واستنكار، يحمل في طياته في الوقت نفسه المعاناة اليومية واللحظة المعاشة... ثم أصبح هذا الأدب على مرّ الأيام أدب الرفض والتصدي، وتحول إلى أداةٍ لجمع القوى وحشد الطاقات وسلاحًا لمعركة المصير. لقد كانت الأفكار التي يبثها والكلمات الصارخة التي يطلقها، تدعو إلى ضرورة توحيد الصفوف والعمل وخوض المعركة دون تردّد»[2].

وأما الفنّ فقد استخدم هو الآخر وبكل فروعه للتعبير عن الاستياء تجاه سياسة التفرقة العنصرية، وسخّر الفنانون لوحاتهم ومنحوتاتهم لتصوير مظاهر التعذيب، ومظاهرات الاحتجاج الشعبية. وبعد انفراج الأزمة انتقل الفن إلى لعب دور جديد والاضطلاع بمهمة وطنية نبيلة يمكن تسميتها برسالة الفنّ، ودعوته لإرساء قواعد التسامح من أجل التعايش في جنوب أفريقيا المتحررة.

وخلاصة ما يمكن أن يقال بشأن الكفاح الداخلي المحلي هو: أن جنوب أفريقيا شهدت أكثر أشكال النضال تقدمًا في القارة الأفريقية، وأسهمت إسهامًا واسعًا وفعالاً في تنمية روح الكفاح من أجل التحرر لدى كافة الشعوب المغلوبة على أمرها، وتفتّق النضال المحلي في جنوب أفريقيا عن رموز عالمية صادقة صامدة، شكلت نماذج تظل قدوة للشعوب والأفراد على مرّ الأزمان وهي تشق طريقها الطويل الشاق نحو الحرية والمساواة. على أن من الطبيعي بالنسبة لكفاح حظي بهذا الزخم الإعلامي الهائل أن تكون له تأثيراته الخارجية، وصداه الواسع في الآفاق العالمية، والمحافل الدولية. وهذا ما سنحاول أن نتبينهُ على مستويين، دولي وإسلامي من خلال الآتي:

---

(1) آناجايل "في جنوب أفريقيا أربعة أطفال يحاكمون نظام الفصل العنصري"، ترجمة محمود قاسم، مجلة الثقافة العالمية، ع22/ 115، س/ 1405هـ 1985م.

(2) الدكتور عبدالقادر ياسين: "الأدب في أفريقيا الجنوبية" ع324/ ص: 131 مجلة العربي عام 1985م.

ب ـ الموقف الدولي المساند لحركة التحرر في جنوب أفريقيا :

لعوامل متعددة تجاوبت الدول الأفريقية مع أصداء حركة التحرر في جنوب أفريقيا، فعملت على إيواء اللاجئين، وإعانتهم، وتدريب عدد لا بأس به منهم، وحظر تحليق طائرات جنوب أفريقيا فوق أقاليمها الجوية، كما عمدت إلى قطع العلاقات التجارية والدبلوماسية معها، والعمل على تعريتها في المحافل الدولية، ورشقها بوابل الإدانات، والتنديدات، وبيانات شجب، واستنكار لما هي عليه، إمعانًا في الإضرار بها، ودفعًا لها إلى الإنثناء والعدول عن نهجها السياسي المذموم.

وعندما أقدمت حكومة جنوب أفريقيا وفق ما تمليه سياسة التفرقة العنصرية على إنشاء كيانات قبلية لتشريد وتشتيت العنصر الأفريقي، بتهجير الملايين منهم قسرًا من المدن للاستيطان في تلك المستوطنات خالصة لهم دون غيرهم، فيما عرف بسياسة البانتوستات، فقد رفض المجتمع الدولي بأسره هذا السلوك الشاذ منذ إعلان المشروع بإقامة المستوطنة الأولى عام 1976م[1]، والتي بررت من قبل النظام العنصري بالعمل على تحقيق فرص التنمية المحلية والذاتية لكل مجموعة عنصرية على حدة، وفي حدود المنطقة الجغرافية التي تعرف بها، بأن تعهد إليها مهمة تنميتها وتطويرها.

هذا، وقد أخذت منظمة الأمم المتحدة من جهتها تتابع باهتمام فائق، وتعالج مشكلة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا منذ عام 1946ف؛ أي بعد أشهر من تأسيسها، وقد وجهت إدانات قاسية ولأكثر من مرة وعبر مختلف أجهزتها ووكالاتها إلى حكومة جنوب أفريقيا، في نظامها السياسي العنصري المنافي لمبادئ ميثاق المنظمة العالمية، ومع ذلك فإنّ حكومة جنوب أفريقيا «قد تجاهلت ما يزيد على 75 قرارًا للجمعية العامة للأمم ومجلس الأمن بمطالبتها إنهاء سياستها العنصرية[2]...». وقد عللت الدكتورة سعاد الشرقاوي سر إصرار حكومة جنوب أفريقيا على سياستها

---

(1) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 236، مرجع سابق.

(2) أحمد إبراهيم الجبير: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 95.

بعماية ومغالاة فقالت في ذلك: «إن سرّ هذا التحدي يكمن في أن جنوب أفريقيا تحتل مكانة فريدة وتتحكم في ثروات نادرة وهائلة»[1] وكان يقف وراء التحدي السافر والمعلن، لإرادة العالم السوي كلّه عدد من الدول الغربية ذات الروابط المصلحيّة العملاقة، والصلات التاريخية العميقة مع نظام جنوب أفريقيا الأبيض على اختلاف أحزابه المتعاقبة، وكانت الدول الغربية تلوح من حين لآخر بفرض عقوبات اقتصادية على حكومة جنوب أفريقيا ما لم ترضخ للقرارات الدولية، وللإرادة المحلية، ولم تكن هذه الإيهامات الإعلامية الماكرة في حقيقتها سوى سراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه وجده بلاء وفناء. والعياذ بالله.

ويأتي معزّزًا ومكملاً للموقف الدولي من النظام العنصري في جنوب أفريقيا، دور كلٍّ من الإسلام والمسلمين في معالجة مشكلة العنصرية ومساندة حركات التحرر في جنوب أفريقيا.

ج ـ موقف الإسلام من العنصرية ودعم المسلمين لحركة النضال في جنوب أفريقيا:

من الأمور البيّنة اليوم لعامة الناس والتي لم تعد محلّ جهل أو إنكار حتى لدى خصوم الإسلام والمسلمين، موقف الإسلام الجليّ من التفرقة العنصرية، إذ تتعدد النصوص القرآنية والنبوية، والتراثية، وتتنوع التطبيقات والمواقف العملية سواء في حياة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، أو في سيرة صحابته الكرام من بعده، وعلى امتداد تاريخ الأمة وواقع حياتها المعاصر، لتتساوق وتتآزر مجتمعة على تشكيل صورة جامعة وجليّة تجمع بين النظر والتطبيق، للتعبير عن الموقف الرافض الذي تبنّاه الإسلام في حملته المبيدة للتفرقة العنصرية، والقضاء عليها قضاء مبرمًا. ولتأصيل هذا الموقف الخالد فقد ورد في القرآن الكريم: أن اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله العلي القدير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ

---

(1) الدكتورة سعاد الشرقاوي: "حكومة جنوب أفريقيا وتحدّي المواثيق الدولية" مجلّة العربي ع370/ ص: 59 عام 1989م.

﴿ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : 22].

وقد وجه القرآن الكريم خطابًا حضاريًا ساميًا للناس ، كـل النـاس ، مفيـدًا إيـاهم أن تعدّد الشعوب وتنوع القبائل ليس من قبيل العبث ، أو ضربـًا مـن التمـايز العنصـري البغيض ، وإنما هو للتعارف من أجل التعاون ، والتفاعل ، وصولاً إلـى حسـن التكـامل لضمان سعادة الحياة لبني الإنسان جميعـًا ، وذلـك في قولـه تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الروم : 13] فبالتقوى وحدها دون غيرها يتفاضل النـاس في ميـزان الكرامـة الإلهية ، وتتفاوت مراتبهم قربًا وبعدًا من ولاء الله ورضاه ، مـع بقـاء الكرامـة الأصليـة المشتركة بين بني آدم جميعًا ، إذ هي منوطة بآدميتهم . وقد أفصحت الآية عـن ذلـك في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء : 70].

وفي هـذه الآيـات وغيرهـا ممـا لا يتسـع المقـام لعرضهـا ، عـالج الإسـلام مشـكلة العنصرية من خلال القرآن الكريم علاجًا أبديًا ونهائيًا بأبدية رسالة الإسلام ونهائيتها . تلك الرسالة التي جاءت لتقول للناس «إن هنالك إنسانية واحدة ترجع إلى أصل واحد وإلى إله واحد ، وإن اختلاف الأجناس والألـوان والرقعـة والمكـان واختـلاف الشـعائر والآبـاء ليـس ليفـرق النـاس فيختصمـوا ، ولكـن ليتعـارفوا ويتـآلفوا ، وتتـوزّع بينهـم وظائف الخلافة في الأرض وليرجعوا بعد ذلـك إلـى بـارئهم الله تعـالى الـذي ذرأهـم في الأرض واستخلفهم فيها»[1] .

وجاء الموقف النبوي الكريم في سياق التأكيد على الوارد في القرآن الكريم تطبيقـًا حيًّا ، وتعليمًا مجسّدًا ، لأمة القـرآن ، وقـد حصـل ذلـك في جملـة مـن مواقـف سيرته

---

(1) صلاح الدين الأيوبي : الإسلام والتفرقة العنصرية ، ص : 216 ، ط2/ 1401 ، دار الأندلس ، لبنان .

العطرة عليه السلام مدعومة بأحاديث صحيحة، الأمر الذي لا يدع مقالاً لقائل، ولا يفسح منالاً لنائل. وسارت الأمة المسلمة على نهج رسولها الكريم إزاء قضية التفرقة العنصرية إلى يوم الناس هذا.

ولمّا كان مسلمو جنوب أفريقيا مع قلّتهم العددية المباركة جزءًا من هذه الأمة المجيدة فقد كان لهم دور مشرّف في مواجهة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، عكس إلى حد كبير الموقف الحضاري الذي أسسته مدرسة القرآن الكريم ودعت إليه، ومما يروى من تلك المواقف النضالية التي سجّلها المسلمون هناك: أن مدينة جوهانسبرج شهدت أكبر مظاهرةٍ إسلامية عرفتها جنوب أفريقيا استنكاراً لسياسة التفرقة العنصرية التي كانت تقوم عليها حكومة الأقلية البيضاء ضدّ المواطنين الأصليين للبلاد، وقد اشترك في المظاهرة المعنيّة نحو 20 ألف مسلم، كما كان لمساجد المسلمين دور فاعل ومؤثر في إذكاء روح النضال، وتسيير المظاهرات والتي كانت تنطلق غالبًا من المساجد عقب صلاة الجمعة، وهذا يعني أن للأئمة يدًا طولى في تدبير ذلك، وكم ألقى عدد منهم أمام جموع غفيرة من المسلمين خطابات تحرض على التصدي وضرورة المواجهة[1]. ويأتي لتسجيل الموقف الرسمي لمسلمي البلاد في هذا الشأن ما أصدره مجلس القضاء الإسلامي الأعلى في منطقة الكاب من فتوى تنص على تحريم العمل في الشرطة، أو في الجيش التابعين للحكومة العنصرية، وذلك «حتى لا يكون المسلم عونًا للظالم على المظلوم»[2] ولهذه المواقف المذكورة وغيرها يجهر الشيخ أحمد ديدات بالحقيقة معلنًا بقوله: «...فمن ناحية النضال السياسي لا يستطيع أحد أن يتهمنا بالتقصير»[3]. والمقصود من كلامه هو الإشارة والإشادة بدور مسلمي جنوب أفريقيا في النضال السياسي لتحرير البلاد.

---

(1) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 242، مرجع سابق.

(2) "المسلمون في جنوب أفريقيا وتحريم الانخراط في القوات النظامية العنصرية" مجلة الأمة ع69/ 90 س6، 1406هـ-1986م.

(3) أحمد ديدات: هذه حياتي سيرتي ومسيرتي، ص: 103، إعداد، أشرف محمد الوحش، ط، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت، د. ر.

وعلى صعيد الدول العربية المسلمة، فإن جمهورية مصر العربية كانت في طليعة الدول التي دعت إلى مقاطعة حكومة جنوب أفريقيا سياسيًا ودبلوماسيًا واقتصاديًا، وشنت حملة شعواء ضدّها بتشكيل جبهة آسيوية أفريقية من خلال منظمة دول عدم الانحياز، للضغط على حكومة جنوب أفريقيا، في المحافل الدولية، وإرهاقها بالمطاردة في عدد من المنظمات الدولية، والحيلولة دون مشاركتها في مؤتمرات دولية هامة، ومن جانب آخر سمحت مصر للمؤتمر الوطني الأفريقي بفتح مكتب له في القاهرة[1].

هـ : موقف الجماهيرية العظمى وقائدها العالمي الكبير في التحريض والدعم :

وعن دور الجماهيرية العظمى، فإن مسؤولي المؤتمر الوطني الأفريقي ممتنون غاية الامتنان لتلك المساعدات السخية التي قدمتها الجماهيرية العظمى لحركة نضالهم من مادية ومعنوية، والتي «كان لها أكبر الأثر في الاستمرار ومواصلة النضال ضدّ نظام جنوب أفريقيا العنصرية»[2]. وتصعيدًا لروح النضال من أجل التحرر في جنوب أفريقيا قامت اللجنة الدولية لجائزة القذافي بمنح الزعيم مانديلا شعلة النضال العالمي جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان بتاريخ: 10/ 6/ 1989م.

وهذا لعمري معلم بارز ومؤشر قوي، يوحي بتكريم وتوسيم رمزين ليس لشعب جنوب أفريقيا المناضل فحسب، وإنما لكل الشعوب والشخصيات المناضلة في هذا العالم من أجل حقوق الإنسان، والتي تجد لنفسها متسعًا فسيحًا في شخص مانديلا المتواضع، وبذلك يتجاوز هذا الرّمز الجوهري مدلوله الظاهري البسيط ليلامس أبعاده العالمية، ومقاصده التاريخية. وقد أصدرت لجنة الجائزة بيانًا بمناسبة إطلاق سراح مانديلا بعد 27 عامًا وراء قضبان السجون، وكان مما جاء فيه: أن الجائزة التي منحتها له: «كانت فاتحة خير إيذانًا بالتحرير لهذا البطل الإفريقي الكبير»[3]، وعلاوة على ذلك فقد عمدت الجماهيرية العظمى إلى تنظيم واستضافة مؤتمر عالمي لمساندة الشعوب الرازحة تحت نير التمييز العنصري، وذلك في طرابلس من الفترة مابين

(1) ينظر: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 99، مرجع سابق.

(2) المسلمون في العالم، ص: 244، مرجع سابق.

(3) المسلمون في العالم، ص: 244، مرجع سابق.

23 - 27 نوفمبر 1985م، وقد تقدم أحد الباحثين من الجماهيرية إلى المؤتمر ببحث تضمّن معالجة وافية لمختلف الأوضاع السياسية والعسكرية، والصحية والاقتصادية والأمنية وغيرها في جنوب أفريقيا[1].

هذا وإن خطابات القائد الأممي الثائر العقيد معمر القذافي وبياناته المساندة لحركة النضال الوطني في جنوب أفريقيا، والتي يكاد لا تخلو منها حلقة من سلسلة السجل القومي الليبي وفي أكثر من مورد أحيانًا، تقطع كل ريب عن دور الجماهيرية الكريمة، وتحسم كل نقاش بهذا الشأن، إذ تغني المرء وتعفيه من مهمة الاسترسال في الاستشهاد والبرهنة على جهود الجماهيرية العظمى قيادة، وشعبًا في دعم ومساندة حركات التحرر ليس في جنوب أفريقيا فحسب، بل وإنما في العالم بأسره، وهذا واقع غير قابل للنكران، كما لا يطاله النسيان، بحال من الأحوال.

وفضلاً عمّا تقدّم، فإن عدداً من الأعلام البارزة من الجمعيات والمنظمات الإسلامية ذات الشهرة والانتشار العالميين، تصدّت من جانبها لسياسة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، وشدّت على أزر المناضلين من أجل العدالة والمساواة، داعية العالم الإسلامي، وكل القوى المحبّة للسلام والانعتاق في العالم إلى مقاطعة حكومة جنوب أفريقيا، وعزلها عن واقع الحياة الدولية؛ حيث كان مما أوصى بها الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق آسيا في بيانه الختامي، والذي انعقد في مدينة كولومبو عاصمة سريلانكا تحت شعار: «الدعوة ودورها في مواجهة التحديات» وذلك في الفترة من 26- 28/ 10/ 1399 من وفاته - عليه السلام - الموافق: 21- 23/ 5/ 1990ف مطالبة جميع المسلمين والشعوب المحبة للسلام، «بتقديم الدعم للكفاح البطولي الذي يقوم به شعب جنوب أفريقيا، ومقاطعة النظام العنصري سياسيًا واقتصاديًا حتى ينال الشعب حقوقه المشروعة كاملة»[2]. وإن ورود هذه التوصية الكريمة في مؤتمر آسيوي، وحرص

---

(1) هو بحث الدكتور محمد اللافي المنشور في مجلّة الفكر الإستراتيجي العربي ع 23 24، 1988م بعنوان سبق ذكره.

(2) أعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق آسيا، ص: 278، من منشورات الجمعية، طرابلس.

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في التأكيد على هذه القضية في كل المواقف والملتقيات لهو أكبر دليل على ما تحمله الجمعية من همٍّ إسلامي ساهر، وشعور إنساني نبيل تجاه كل شعوب العالم قاطبة، ونحو كل إنسان عامة، دون إعارة اهتمام متحيز لفوارق الدين والعرق، وغيرها من الاعتبارات التي يحسب لها المغرضون المرجفون حسابًا كبيراً، وهو كذلك يعبر أيضًا عن حضارية الخطاب الإسلامي الذي تبنته الجمعية فكراً ومنهجًا في مجال الدعوة إلى الله، ومناصرة المستضعفين والسعي من أجل انتصار قيم الحق، والخير، والحرية، والعدالة، والمحبة بين الناس جميعًا شعوبًا وأفرادًا، فوق كوكبنا الأرضي.

وقد درجت رابطة العالم الإسلامي أيضًا على هذا النهج الإسلامي البناء، وذلك حين: «ناشدت رابطة العالم الإسلامي الحكومات المسلمة الاحتجاج على سياسة التمييز العنصري التي تمارسها حكومتا جنوب أفريقيا وروديسيا العنصريتان، ضدّ سكان البلاد الأصليين في كافة المؤتمرات والمحافل الدولية ومساعدتهم لنيل حقوقهم في تقرير المصير، ودعا المجلس التأسيسي للرابطة تلك الحكومتين إلى منح السكان الأصليين حقوقهم المشروعة كمواطنين في هذه البلاد»[1].

ويلاحظ أن الفرق بين الخطابين يتجلّى في مستوى المخاطب الذي يتوجه إليه الخطاب، إذ هو في الخطاب الأول أعمّ وأوسع منه في الثاني.

وإلحاقًا بما سبق فإنه ليس بوسعنا أن نغفل دور منظمة المؤتمر الإسلامي التي أعربت عن عمق سعادتها بالإفراج عن نيلسون مانديلا، واصفة إياه في بيانها الصادر بهذا الخصوص بأنه: «رمز الحرية والمدافع عنها وأنه وقف حياته على التمسك بالقيم النبيلة التي تتطلع إليها الشعوب المحبة للحرية والعدالة لتحقيقها... إن العالم الإسلامي يؤكد من جديد في هذه المرحلة الدقيقة تضامنه مع شعب جنوب أفريقيا ومساندته لكفاحه العادل»[2].

---

(1) رابطة العالم الإسلامي تحتج على التفرقة العنصرية، ص: 128، من مجلة الوعي الإسلامي ع181، س16، 1400هـ 1979م.

(2) المسلمون في العالم، ص: 257، مرجع سابق.

وبفضل هذه الجهود النبيلة من الكفاح الداخلي، والخارجي ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، انبسط الأمل في نفوس السود، وكانوا مع تعاستهم ومعاناتهم متفائلين بأن الزمن سوف يصدر حكمًا إيجابيًا ومنصفًا في موضوع كفاحهم، وكان يملؤهم الاعتقاد رغم الجهل الإنساني بحقيقة وطبيعة ما تحمله الأيام في طياتها بأنه مهما يكن من أمر فإن هذا الحكم لن يكون سوى في صالحهم، ولم يكن متوقعًا بحال من الأحوال أن يتنكر لجانبهم وأن يكون غير ما كان بمشيئة الله وتوفيقه.

وفيما كان النظام العنصري يلفظ أنفاسه الأخيرة فقد أخذ التشاؤم يدبّ ويستبد بضعاف النفوس من أعوانه وأتباعه وكلّ أولئك الذين نعموا بعهده، وتمتعوا بامتيازاته التالفة، ومن ثم عرف اليأس طريقه إلى حياتهم المترفة، وبات يرتعهم القلق، وتخيم على أجوائهم الكآبة، وكلّ معاني الحزن، والتي قلّصت قدراتهم الاجتماعية إلى حدّ كبير وامتصّت كل طعم لسعادة الحياة لديهم؛ والحال أنّهم أدركوا أن شمس عهدهم أخذت في الأفول لتتولى من غير رجعة، وأن التاريخ مقبل على تحوّل إلى عصر جديد لا مكان فيه لنظام فاشل عن مواكبته، وفعلاً فقد باتت أيامهم آنذاك قليلة ومعدودة، وكانوا في حالة انتظار حقيقي لما تسفر عنه الأحداث والأيام، ولهذا السبب «فإن الكثيرين من البيض كانوا في حالة تجمد ينتظرون أن يمضوا حاضرهم في التفكير بماضيهم ليتجنبوا التفكير في مستقبلهم»[1].

ولفضل هذه الجهود النضالية الممتدة المتضافرة، وهذا الكفاح الطويل العريض لشعب جنوب أفريقيا، فقد بارك الله كفاحه المرير، وكلّل نضاله بالانتصار؛ إذ رست سفينة التحرير والإنقاذ في محطة الأماني الغالية، ليهبط الشعب بآلامه، وتضحياته، وآماله على برّ الأمان والحريّة، وفوق ساحل العدالة والسعادة. وقد تحقق تتويج الكفاح بالنجاح عبر سلسلة من المفاضات، والإجراءات السياسية من تعديلات دستورية، وانتخابات رئاسية، وغيرها من الأمور التي ليس الخوض في تفاصيلها مما يتّصل بموضوعنا هذا.

---

(1) فنست كربنزانو: "الانتظار: البيض في جنوب أفريقيا" ترجمة جودت أحمد، مجلة الثقافة العالمية، ع26/ 198 س: 5، 1406هـ 1986م.

وهكذا في جوّ حافل بالبهجة والتصفيق، وغارق بدمعات الفرح والنشوة انتخب نلسون مانديلا[1] أوّل رئيس أسود لجنوب أفريقيا وذلك يوم 9/ 5/ 1994م، وقد حضر حفل تنصيبه الرسمي ضيوف رسميون وشعبيون من شتى أنحاء العالم. وفي أوّل كلمة رسمية له ألقاها يوم تنصيبه، أبان هذا الرّجل العظيم ذو القلب الكبير عن مكنون المعاني العظيمة التي يحملها بين جنباته، عائشًا من أجلها وفي هديها. ومما قاله والتأثر بادٍ على ملامح الحاضرين بأجمعهم: «ها هو اليوم الذي ناضلنا من أجله وانتظره شعبنا طويلاً، فلننس الماضي... نحن بلد... نحن شعب»[2] وقد شدّد في خطابه على المصالحة الوطنية مؤكدًا على أهمية التسامح، وضبط النفس، والترفع عن عمليات الانتقام، والمبادلة بالمثل، داعيًا إلى التحلّي بالصبر، والتغاضي عمّا فات، صحيح أن مسألة التصالح بين الأجناس التي طال تنافرها ومن ثم عراكها ليست أمرًا ميسورًا كما أنها ليست قضية يوم وليلة، وهي مع صعوبتها تظلّ ممكنة وليست مستحيلة طالما ضرب كُلّ من الفرق المتنافرة أمثلة أخلاقية كريمة لتأسيس أصول حياة مشتركة ومتوازنة بإشاعة روح المودة والتسامح، وخلق أجواء التعاون والإخاء، فلذا «ليس من الحكمة أن نقول إن هذا أمر غير ممكن، بل علينا أن نتمسك بالإيمان الذي باستطاعته أن ينقل الجبال من أماكنها»[3]. وعن طبيعة المرحلة التي تمرّ بها البلاد يقول مانديلا: «إن هذا ليس زمن الانتقام ولكنه زمن مداواة الجراح من أجل بناء جنوب أفريقيا جديدة لنا وللعالم»[4] وبهذه الكلمات والمواقف السامية انطفأت نيران الغضب، وثابت النفوس إلى سكينتها، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان ذلك الموقف التاريخي الخالد الذي سجّله الرسول الأعظم ﷺ، يوم فتح مكة بقوله: «... اذهبوا فأنتم الطلقاء»، تسامح أيّ تسامح لازال صداه يتردّد ويتجدّد في أعماق التاريخ على

---

(1) من مواليد 18 "يوليو" ناصر عام 1918م، في قرية صغيرة تدعي كونيو وأمضى ريعان شبابه في السجن حيث ظلّ محبوسًا لمدى 27 عامًا من حياته، ينظر: مجلة العربي ع136.

(2) صحيفة العرب العالمية، ع4324/ ص: 5، بتاريخ 10/ 5/ 1994م، لندن، الصادرة في لندن.

(3) هربرت كادفمان: "أفريقيا" قراءة وتقديم لطيف دوس، مجلة الثقافة ع51/ ص: 53، مج5، س: 1.

(4) مجلة العربي، ع497/ ص: 136 مرجع سابق.

مرّ العصور، وما موقف مانديلا إلاّ شاهداً ودليلاً على ذلك، باعتباره ترديداً قويّاً لصداه الإنساني الواسع العميق، وبهذا يتأكد القول بأنه كلما تباعد الناس عن عصور الرسالة الإسلامية زمنيًا، وأخذت القيم العظيمة تتلاشى من حياة الأمم والشعوب، جاءت الرموز الإنسانية السامية لتشكل نبراسًا ينير للإنسانية الحائرة دربها الحالك، مذكّرًا بميراث النبوة المتجدّد، ينبوع الجمال، وملهم الأبطال.

وهكذا سجل وعزف شعب جنوب أفريقيا ملحمته التاريخية الرائعة، ملحمة التضحية والكفاح، لينتقل إلى فصل تاريخي جديد من سِفْرٍ، كلّه صراع وصدام، ونضال وتحد، مواجهة ومقاومة بين الخير والشر، بين الدخيل والأصيل، بين الحق والباطل، بين المستعمِر الظالم والمستعمر المظلوم، وأخيرًا بين الإنسان وأخيه الإنسان.

ولا يزال هذا الصراع يشهد امتداده على أشدّه، وإن كان قد اتخذ بعدًا دينيًا حضاريًا، بعد أن كان سياسيّاً اقتصاديّاً ويتمثل ذلك في الصراع بين حركة الدعوة الإسلامية، والنشاط التنصيري الكنسي في هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم. وسيردُ بيان ذلك في حينه من خلال هذا البحث، إن شاء الله.

وإذا كان ما تعرّضنا له من خلال الصفحات المتقدمة عن جنوب أفريقيا جغرافيّاً وتاريخيّاً من قبيل المعلومات التي هي مُشاعٌ بين عامة الناس على تفاوتهم في معرفتها، فإن مما لا يعرفه الكثيرون هو تاريخ الإسلام ووضع المسلمين قديمًا حديثًا في جنوب أفريقيا ومختلف أوجه نشاطهم الإسلامي في هذه المنطقة الحسّاسة من أفريقيا، قارة الإسلام؛ وذلك لكونها ظلت مبتورة الصلة بديار المسلمين حينًا من الدهر، وحتى إلى عهد قريب من هذا التاريخ، ولم تنعم بالانفتاح إلاّ في هذا العقد الأخير أو ما يزيد قليلاً.

وعليه، فإن من المهم أن تُتناول في الآتي القضية المثارة آنفًا، بالحديث عن تاريخ الإسلام ووضع المسلمين في جنوب أفريقيا في حدود ما يتيسّر، والله المستعان . . .

المبحث الثاني:

تاريخ دخول الإسلام
إليها وانتشاره فيها

أولاً: مقاربة أولية لتاريخ دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا ومراحل انتشاره فيها:

فيما يتصل بتاريخ دخول الإسلام إلى هذه البلاد، فإن المعلومات المتوافرة مع ضآلتها تختلف بشأن تحديده اختلافاً يستعصي على الرأب، مما يجعل مهمة من يتصدى لتحديد علمي دقيق لهذا الأمر أمراً عسيراً، وربما وصفت بأنها لا تخلو من مجازفة علمية.

وفي ضوء هذا الاختلاف، والذي أدّى إليه فيما أظن سكوت المراجع التاريخية الإسلامية عن تناول الموضوع في وقت مبكّر، وإهمال متابعة حركة الإسلام في هذه البقعة الدعوية الخصبة يلمح المرء بصيصًا من الإجماع عن دور دعوي مشكور في جنوب أفريقيا، للجالية المسلمة الوافدة من القارة الآسيوية من منفيين، ونازحين، ومهاجرين، ممن جرت المراجع التاريخية على نسبة فضل دخول الإسلام وانتشاره في جنوب أفريقيا إلى جهودهم السابغة وتضحياتهم الكبيرة.

ولئن كان هذا الإجماع وارداً وهو من الغرابة بمكان، فإن مما يثير التساؤل، ويدفع إلى التأمل، هو كيف أن المسلمين الأوائل لم يهتدوا إلى هذه المنطقة المعروفة اليوم بجنوب أفريقيا إبّان الفتوح، وانتشار الإسلام في العالم، وخاصة في سني دخول الإسلام إلى القارة، وهم من عُرفوا بغيرتهم وشدة تحمسهم لدعوة الإسلام العالمية؟ فضلاً عمّا تفيض به المصادر التاريخية من قدم العلاقات والاتصالات العربية المبكّرة بسواحل القارة الأفريقية حيث «كانت معرفة العرب بساحل أفريقيا الشرقية قديمة تعود إلى ما قبل الدعوة الإسلامية بكثير ولا زال الشاطئ الأفريقي يحمل أسماءً من الجنوب العربي في مناطق مصوع وعصب وما وراءها في الداخل»[1]، وقد تعزّزت العلاقات التجارية القديمة بين الطرفين بظهور الإسلام وانتشاره في العالم القديم، فخلّفت تلك الصلات التجارية القديمة وراءها على السواحل الأفريقية مجتمعات إسلامية ومؤثرات

---

(1) الدكتور: جميل المصري: حاضر العالم الإسلامي، ص: 649.

حضارية ترسّخت أصولها، وتبدّت معالمها بمرور الأيام، فكانت قد تجذّرت تلك العلاقات الحضارية في أعماق التاريخ عندما حطّ الرحالة المسلم ابن بطوطة رحاله على سواحل شرق أفريقيا في نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ليدرك أن معظم مناطقها كانت تنتمي إلى العرب ذات الثقافة والحضارة الإسلاميتين[1]. وذلك لقربها من المنابت العربية، ولتفاعلات التجارة والهجرة المتبادلة بين الطرفين، إزاء هذا التساؤل الملحّ، ربّما عنّ لبعض من يحاول التبرير القول: بأن الإسلام ظل محصوراً في الساحل دون أن يتوغلّ إلى الداخل، وأيضًا دون أن تتوسع حركة الدعوة في انسيابها نحو الجنوب، وخاصة في الفترات التي مني فيها المسلمون ببعضٍ من فتور الهمّة، وتغلّب عليهم داء القعود والتقاعس عن نشر رسالة الإسلام على الوجه الأتم والأعم. ولعل هذا ما تكشف عنه الرؤية التي كانت سائدة لدى المسلمين عن هذه المنطقة، كما تصوره أدبيات بعض الجغرافيين والمؤرخين منذ عصر ياقوت الحموي ت626هـ الذي وصف المنطقة الجنوبية في معرض حديثه عن صفة الأرض بقوله: «...إنه خراب يباب ليس فيه ملك ولا مدينة ولا عمار، وهذا الربع يسمّى المحترق، ويسمى أيضًا الربع الخراب... والربع الجنوبي خراب، والنصف الذي تحتها لا ساكن فيه»[2]، هذا، ولم تكن المعرفة المتوافرة لدى المسلمين عن هذه المنطقة بأمثل حالاً عمّا كانت عليه في أيام الحموي حتى في عهد القلقشندي ت821هـ = 1418م الذي استقى مادته العلمية عمن سبقه من المصنفين، وتكمن قيمته العلمية عند البعض في «أنه جمع في كتابه الكثير من نصوص المؤلفات التي لم تصل إلينا»[3]، ورغم موسوعية القلقشندي الواسعة، وسعة أفق المناخ الثقافي الذي عاش في رياضه، فإنه لم يسلم من الوقوع في قيد الرؤية الموروثة عن أسلافه، إذ كتب هو الآخر قائلاً: «... ثم النصف الجنوبي من الأرض لا عمارة فيه إلا فيما قارب خط الاستواء في بعض بلاد الزنج

---

(1) ينظر: د. جمال زكرياء قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 51، دار الفكر العربي، 1416هـ 1996م.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان: مج1/ 19، دار صادر 1397هـ 1977، بيروت، لبنان.

(3) الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 55، مرجع سابق.

والحبشة...»[1]، وفي موضع آخر يصف ما بَعُدَ عن خط الاستواء جنوبًا بأنه «أرض خراب غير مسكونة ولا مسلوكة»[2]، وعمومًا كانت هذه الرؤية الخاطئة عن منطقة الجنوب، هي السائدة في المصنفات الجغرافية حتى النصف الأول من القرن الخامس عشر الافرنجي، وقد توصل إلى هذا الاستنتاج من قام بدراسة وتقييم الأدب الجغرافي عند العرب، وهو المستشرق كراتشكوفسكي، فلخصه في قوله: «قد توافرت للعرب معلومات هامة عن ساحل شرق أفريقيا الشرقي إلى ما يقرب من خط العرض 20 جنوبًا أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرة العرب عنها بصفة عامة تستند على الحدس والتخمين»[3].

إذن؛ وفي ضوء ما تقدّم فليس من عجب أن يتأخر وصول الإسلام إلى هذه البلاد، وتظل الدعوة الإسلامية تتحيّنُ ستينيات القرن السابع عشر الإفرنجي لتتسنى لها الفرصة بأن تشق طريقها متسرّبة إلى أعماق المنطقة، وعلى يد المستعمرين من حيث لا يشعرون.

والواقع أن تقييمًا معرفيًّا من هذا القبيل، من شأنه أن يثير استياء بعض الباحثين، ويدفع بهم إلى محاولة التغطية والمفاجأة بآراء متحمسة يعوزها التوثيق العلمي الصحيح، ويمكن أن نجد مثالاً لذلك في رأي الأستاذ محمود شاكر القائل نصًّا: «يقل عدد المسلمين كلما اتجهنا نحو الجنوب في أفريقية... حيث لم تتجاوز سفنهم؛ أي المسلمين مدينة سفالة في موزامبيق إلا قليلاً، وذلك بسبب قلة السكان آنذاك في المناطق الجنوبية، والسفن الإسلامية كانت تحمل الدعوة مع التجارة، ولم تكن من مجال كبير للتجارة جنوب سفالة، وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا ذلك الجزء من القارة؛ لقد عرفوه في رحلات قليلة، ولكنّهم لم يمكثوا هناك طويلاً لقلة ما به من سكان»[4] وهو

---

(1) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 3/ 231، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(2) المرجع نفسه، ص: 237، وينظر: أيضًا ج5/ 263.

(3) نقلاً عن كتاب الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص: 40 مرجع سابق.

(4) العالم الإسلامي، ص: 278، ط3/ 1408هـ 1988، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

بذلك يفند رأي القلقشندي ـ الذي وصفه بأنه أرض غير مسكونة ولا مسلوكة ليوقع نفسه في فخ تهمة المسلمين بأنهم لم يكونوا يهتمون بالدعوة قدر اهتمامهم بالتجارة، وأنّ الدعوة عندهم شأن عارض، متفرع ومرتبط بالمصالح التجارية وجوداً وعدماً باعتبارها الهدف الأساسي والأصيل، لحركة سيرهم في الأرض!!.

على أن من الغريب حقًا، وقد أجمعت المصادر على تأخر دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا أن تكون جمهورية موزامبيق المتاخمة لها شمالاً من الجهة الساحلية قد شهدت الموجات الأولى لحركة الدعوة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري، على حدّ ما ذهب إليه أحد المعنيين بأمر الدعوة في القارة الأفريقية قائلاً: «وللمسلمين في موزامبيق تاريخ عريق منذ وصول الدعاة والتجار والنازحين المسلمين من مناطق أفريقية أخرى منذ القرن الرابع الهجري، فأسسوا مدينة سفالة التي ذكرها ابن بطوطة، وكثيراً من المساجد والمدارس، وكانت المناطق الإسلامية من موزامبيق تابعة ذلك الحين لمملكة الزنج التي كانت عاصمتها كلوة، وكان لها جهاد طويل في نشر الإسلام في ذلك القطاع من أفريقيا»[1]. ويقال إن موزامبيق مدينة باسمها الحالي لحاكم مسلم اكتسبت اسمها منه، ويدعى موسى بن أمبيق، ذلك أنه كان قيّمًا على إمارتها، ولما حاربه الغزاة البرتغاليون واستولوا على البلاد، كان من الصعب عليهم نطق الاسم فحرّفوه إلى موزامبيق.

ولا يزال المسلمون فيها حتى اليوم بعد خمسة قرون من الحكم المسيحي يشكّلون نسبة 60% من مجموع سكانها[2]. ولهذا الاعتبار قيل عنها: «تعتبر موزامبيق من المعاقل المهمة للإسلام في الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية، ولا زالت حتى اليوم تضمّ أكبر عدد من السكان المسلمين»[3].

وبجوار موزامبيق غربًا تقع جمهورية زمبابوي شمال جنوب أفريقيا، يعود تاريخ

---

(1) محمد عبده يماني: أفريقيا لماذا؟ ص: 131.

(2) ينظر: أحمد ديدات: الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، ص: 83، من سلسلة مكتبة ديدات، ط دار المختار الإسلامي، القاهرة د.ت، د.ر.

(3) "الإسلام في موزامبيق" مجلة حضارة الإسلام، ص: 102/ ع4، س7، 1386 1966م.

دخول الإسلام إليها كما يقال إلى القرن الرابع الهجري، وربّما أبعد من ذلك كله وأقدم، في رأي من يقول: «وهناك أدلة تشير إلى أن الإسلام دخل هناك قبل ذلك، فقد عثر الدكتور (ستانلي تيمبور) في إحدى مناطق زمبابوي، وبالقرب من نهر زمبيزي، على قبر نقشت عليه العبارة التالية: بسم الله الرحمن الرحيم... لا إله إلاّ الله محمد رسول الله... هذا قبر سلامة بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام»[1]. وفي ضوء ما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات، فإني أعتقد غير جازم أن الدكتور زغلول النجار، ربما وجد لنفسه فيها متكأً علميّاً فاستند عليه في قوله: «وقد دخل الإسلام إلى جنوب القارة سنة 605هـ الموافق 1208م عن طريق بعض التجار المسلمين القادمين من شبه الجزيرة العربية، والذين يعيش أحفادهم اليوم في مدينة الكاب»[2]. على أنّ وجود الأحفاد، لا يدل في حدّ ذاته على دقة ما حدّد من تاريخ لوصول الأجداد، ولا يستلزم القول بذلك إذ لا تلازم بين الأمرين.

وبذلك يظل مستنده العلمي مجهولاً لنا، إلاّ إذا عوّلنا على الظن بأن رأيه مستنتج مما قيل بشأن دخول الإسلام إلى كل من موزامبيق، وزيمبابوي، وإن كنّا لا نجد في مقاله ما يحمل ولو أدنى إشارة إلى اطلاعه على تلك المعلومات، فضلاً عن تأثره بها.

هذا، ويجنح الأستاذ أحمد يوسف القرعي أيضاً إلى قريب من الرأي المتقدم على نحو يوحي بالمشاركة فيه، إذ يقول في شيء من التعميم، ومن غير تحديد وضبط تاريخي: «وبدأت حركة الإسلام في الانتشار جنوباً منذ أوائل القرن السادس الهجري، الـ13 الميلادي عن طريق بعض التجار المسلمين من شبه الجزيرة العربية»[3].

وصفوة القول عندي في هذا الأمر، أن الرأيين السابقين مما يصلح للاستئناس به، إذ يفتحان الباب على مصراعيه للنقاش العلمي في موضوع كاد يُحسم بالاجماع من

---

(1) "الإسلام في موزامبيق" "المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 211، مرجع سابق

(2) "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" مجلة العربي ع239/ 48، أكتوبر 1978م.

(3) "واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا" مجلة الفيصل ع59/ 40، س5/ 1402هـ 1982م.

غير اجتماع، مما يدفع أولي الشأن من الباحثين والمؤرخين إلى المزيد من التقصي، والتحقيق في هذا الموضوع.

وللخروج بنتيجة علميّة ولو مؤقتة في رسالة علمية عن قضية دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا، فإنه حتى الآن لا مندوحة لنا أكثر من اعتماد الرأي المجمع عليه بخصوصه، وذلك على فرض صحته، والذي تتفق الروايات مع تعددها على ما مفاده: أن أوّل ما ظهر الإسلام في هذه البلاد كان عام 1667م عندما جلب إليها الاستعمار الهولندي من مستعمراته في الشرق في كل من أندونيسيا، وماليزيا، والفلبين عددًا من المعتقلين السياسيين ممن يُعد من أبرز المقاومين للحكم الهولندي المستعمر في مواطنهم الأصلية، وكان بينهم الشيخ يوسف، داعية الإسلام الأول في جنوب أفريقيا، والمؤسس التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية في مهجرهم الجديد بهذه المناطق، انطلاقًا من مدينة الكاب محط رحالهم، وقد عمل الشيخ فور وصوله من أندونيسيا على نشر الدعوة في أرجاء البلاد حتى وفاته عليه الرحمة عام 1699[1].

وكان بصحبة الشيخ عدد مختلف فيه من الآل والأتباع، ومن الدعاة، والمناضلين السياسيين، وكانوا جميعًا من المسلمين، ومما يقال عن المكانة السياسية والاجتماعية للشيخ يوسف أنه كان شقيقًا لأحد ملوك جاوه الأندونيسية، فكان هو ومن معه ممن قدّر عددهم في أقصى تقدير له بتسعة وأربعين شخصًا، الرواد الأوائل لحركة الدعوة، ونشر الإسلام في جنوب أفريقيا[2]. إذ كان من بينهم مالا يقل عن اثني عشر داعية إسلاميًا[3] إن صح هذا التخصيص! على اعتبار أن المسلمين بعامتهم دعاة إلى الله ولو بالسلوك الفاضل من غير احتراف وتفرغ.

وبمناسبة الحديث عن الشيخ يوسف فإنّ توماس أرنولد يخطئ في تحديد تاريخ وصوله إلى منفاه، إذ يقول في حاشية كتابه: «وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف،

---

(1) Abdul-Kader Tayob, Islam in South AFRICA- P:22 .

(2) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 208 209، مرجع سابق.

(3) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 147، مرجع سابق.

وهو معلّم دين ذو نفوذ عظيم في جاوه وآخر أبطال استقلال بنتام، وفي سنة 1694 ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب، هو وعائلته، وكثير من أتباعه، ولا يزال ضريحه يعدّ مكانًا مقدسًا»[1]. وعن أسباب اعتقال الشيخ يوسف ونفيه، فضلاً عن جهوده في الدعوة، وما آلت إليه الأمور من بعده يقول الدكتور عبد الرحمن الماحي: «وكان من بين هذه الجماعة مصلح كبير يدعى الشيخ يوسف، كان يطالب بالحرية وتطبيق الشريعة الإسلامية في بلاده، وهو في الواقع نقل منفيًا ونقل معه جمع من آله وأتباعه ولكنه تابع نشاطه في الدعوة إلى الإسلام، وأشاع روحًا إسلاميًا فيما حوله من الأفريقيين في جنوب أفريقيا، وليس هناك عناية كبيرة من المسلمين بعد ذلك بتاريخ الإسلام في هذه البلاد»[2]. فإذا كان قصد الدكتور هو القول: بأنّ مرافقيه من المهاجرين لم يولوا اهتمامًا يذكر بأمر الدعوة من بعده فإني مع وافر احترامي له أرى أنّ الصّواب قد جانب سيادته في ذلك إلى حدّ ما، لما عرف عن هذا الرّعيل الأول من تفانٍ، وبذل تضحيات غالية، وجهود مشكورة في سبيل تعميم دعوة الإسلام في محيطهم الجديد، والذي كان ولا شك مباينًا ثقافيًا لما هم عليه، فكان الإسلام وحده والدعوة إليه يشكل طوق النجاة من الذوبان في هذا الخضم الغارق، فلذا اعتصموا بحبل الدعوة الإسلامية شعورًا بالواجب، وأيضًا حماية لأنفسهم من الضياع، بخلق جوّ مجانس ومماثل لما عرفو في بلادهم من حياة إسلامية سعيدة، وبذلك يبعد كل مظنة تقوم على احتمال قصورهم وقعودهم عن نشر الإسلام؛ إذ كان وسطهم الجديد يحتم عليهم ذلك أيّما تحتيم. وقد شهد لهم الدكتور شلبي بالجدية، والتحمس في نشر الإسلام بقوله: «... ولكن هؤلاء وأولئك لم ينسوا الإسلام في مقرهم الجديد، وكأنهم كانوا دعاة رحلوا ليحملوا للناس دعوة الله، فما إن حطت رحالهم في جنوب أفريقيا حتى انطلقوا يدعون للإسلام، واستجاب لهم الكثيرون، وتألف من المهاجرين

---

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، الحاشية الـ2، ص: 388، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، ط3/ 1970م مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(2) د. عبدالرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 95 96، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د. ر، د. ت.

ومن الذين استجابوا لهم بالجنوب وحدة إسلامية واحدة متناسية الوطن الأصلي، والجنس واللون، وهي الآن جالية يحسب حسابها في هذه البقاع»[1].

وبذلك يمكن أن نتصور أن الإسلام أخذ ينتشر انتشاراً بطيئًا ومحدودًا في هذه البيئة الجديدة بإرادة الله تعالى، ثمّ بفعل ما بذله الدعاة الأوائل إليه، والذين لا تسلم طبيعة دعوتهم عادة، من مضايقات المستعمرين بحكم وضعهم السياسي، وصفتهم التي حملوها معهم إلى هذه البلاد، باعتبارهم منفيين يخضعون للمراقبة الساهرة والمتابعة الدقيقة.

ولئن كنا نفتقر إلى معلومات علمية تقدم مؤشرات بيانية لأثر دورهم الدعوي في مثل هذه الأجواء والملابسات، فإنه ليس مما يقنعنا بحال من الأحوال أن تكون جهودهم المخلصة التي بذروها، وتعهّدوها بالرعاية الفائقة قد ضاعت من غير أن تثمر، ودون أن تسفر عما كان يتوخى من ورائها، فيما يشبه عملية بذر البذور على الصخور لالتقاط الطيور.

وعمومًا: والجهل بكيف وكم أثرهم قائم، يكفيهم شرفًا أنهم حملوا النواة التاريخية الأولى لحصاد الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وحسبهم فخراً أنّهم دشنوا للمرحلة التأسيسية، وهي - بحسب المصادر المتاحة - الأولى من تاريخ الوجود الإسلامي في هذه البلاد لتعقبها مراحل لاحقة بتطوراتها وانتصاراتها، كما سيتضح ذلك في الصفحات التالية، فأعظم بهم شأنًا وأكرم بهم مقامًا!.

المرحلة الثانية لانتشار الإسلام في جنوب أفريقيا / 1850 - 1912 :

تتسم هذه المرحلة كسابقتها بتسجيل دور مميز لعامل الهجرة، وتأثير أكبر وأوسع للمهاجرين المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب أفريقيا، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الإفرنجي، فتوالت وفودهم عليها بأعداد لا حصر لها على امتداد النصف الأخير

---

(1) الدكتور أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6/ 191.

من القرن التاسع عشر إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وبالنظر إلى دواعي الهجرة ودوافعها يمكن تصنيف هؤلاء المهاجرين إلى مجموعتين اثنتين :-

أ - مجموعة الهجرة التعاقدية :

وهم الذين استقدمتهم إنجلترا إبان احتلالها لجنوب أفريقيا من العمال المسلمين القادمين من جنوب الهند وباكستان، للعمل في مناطق زراعة قصب السكر، واستصلاح الأراضي كحل موضوعي، تبنته السلطات لوضع حدّ لمشكلة العمالة في البلاد، وذلك منذ عام 1860، وقد أدى حضور هؤلاء المهاجرين إلى نموّ وكبر الجالية الإسلامية في البلاد، وعلى الرّغم من عودة بعضهم بموجب انتهاء عقودهم، إلاّ أنّ عدداً كبيراً منهم استقروا في موطنهم الجديد[1]، حيث إنّ ظروفهم المادية بدأت تتحسن فيها على نحو يشجع بالإقامة الدائمة، فغدا كثير منهم أغنياء، لديهم الكثير من المقتنيات، والعقارات، والضِياع؛ نتيجة اشتغالهم الأول في المجال الزراعي، وتوارثها عن آبائهم وأجدادهم.

ب - مجموعة الهجرة الاختيارية :

وبعد ما عرفت الهجرات الآسيوية سبيلها إليها، قدمت مجموعات متزايدة من مسلمي الهند للعمل في البلاد كتجار، ومستثمرين، في مختلف المجالات الاقتصادية من تجارة، وزراعة، وصناعة وتعدين، وكان ذلك عام 1869م[2]. وإلى جانب هؤلاء وصلت أعداد يصعب تحديدها من مختلف المناطق المجاورة لجنوب أفريقيا من القارة الأفريقية، وكان أغلبهم من موزامبيق، ومدغشقر، وزنجبار وغيرها من المناطق التي كان وجود المسلمين فيها منتعشًا، وكانت تشهد حركة إسلامية حيّة ومؤثرة.

وقد انتشر أفراد هذه المجموعة وفئاتها في مختلف مناطق البلاد، وجهاتها الأربعة مع غلبة الوجود على السواحل الشرقية الجنوبية، لأسباب عملية واقتصادية معروفة.

---

(1) ينظر: تاريخ جنوب أفريقيا، ص: 198، مرجع سابق.

(2) ينظر: أفريقيا لماذا، ص: 148، مرجع سابق.

ولرسم سمات هذه المرحلة نورد الملاحظات الآتية :

أ)ـ بناء أول مسجد في مدينة الكاب عام 1850[1]، وهذا لا يعني أن البلاد كانت تفتقر إلى ذلك، وإنما كان هذا التأسيس على مستوى مدينة الكاب فحسب، إذ يرجع تاريخ إنشاء أوّل مسجد في البلاد إلى المرحلة التأسيسية الأولى، وذلك في أشكاله البسيطة[2]. وكان بناة هذا المسجد ينتمون إلى المذهب الشافعي، ثم شفع هذا الإجراء بتأسيس مسجد آخر للأحناف، تمّ ذلك بجهود أفراد الجالية الأفغانية عام 1881ف، وقد اضطلعت المساجد في هذه المرحلة بدور دعوي تعليمي كانت وما تزال الحاجة تمس إليه.

ب)ـ ظاهرة تنظيم رحلات جماعية إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج : بقيام أعداد من المسلمين بتأدية فريضة الحجّ خلال سبعينيات القرن التاسع عشر الإفرنجي، وكان هؤلاء الحجاج غالبًا ما يطمحون إلى تعلم اللغة العربية إثر أدائهم لفريضة الحج، مما يجعل المقام ببعضهم يطول بعد أداء الفريضة الدينية وإتمام شعائر الإسلام. وبعد عودتهم إلى بلادهم يكونون قد تزودوا على الأقل بمبادئ اللغة العربية من الناحية الوظيفية وكسبوا فهمًا أفضل للإسلام وتعاليمه، مما يجعل بعضهم يتحول فور عودته إلى دعاة متفرغين للدعوة والتعليم. وعن مخلفات هذا الاتصال الروحي الثقافي ومؤثراته الحضارية في لغتهم يقول الأستاذ أحمد القرعي : «وقد انعكس هذا الاتصال الحضاري على لغتهم فأصبحت عبارة عن لهجة مُحرّفة من لغة البوير مع خليط من اللغة العربية وبعض كلمات الإنجليزية وكلمات الملايو»[3].

جـ)ـ انتشار الإسلام في أرجاء البلاد بتوزّع المسلمين وتفرقهم في الأقاليم : شهدت المرحلة توزع المسلمين في مختلف أنحاء البلاد، كأقليات اجتماعية ودينية، ومخالطتهم للأهالي الذين جدّوا في مزاولة عملية نشر الإسلام في أوساطهم، وأصبح انتشار الإسلام ينمو في البلاد ويزحف إلى مختلف مناطقها، كما سجلت هذه المرحلة

---

(1) ينظر : المرجع السابق، ص : 147.

(2) ينظر : Islam in south Africa p:33-37.

(3) "واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا" ص : 40، ع/ 59 من مجلة الفيصل، مرجع سابق.

للجالية المسلمة من الناحية الكمية نمواً مضطرداً عن طريق الهجرة والتناسل واعتناق المهتدين الجدد للإسلام، وهكذا «راحت هذه الطائفة الإسلامية تنمو وتكبر وتحاول أن تتأقلم مع الجوّ الأفريقي الجديد والتربة الجديدة التي أقاموا عليها»[1] وهو مالا يتم عادة دون مشقة ومعاناة، الأمر الذي يقتضي ضرورة التسلح بزادٍ يومي هائل من الصبر الجميل والمجاهدة الروحية الزكية.

د)- **تمتع المسلمون نسبياً بحرية التدين**: وقد تحقق ذلك للجالية المسلمة هناك حين أرادت بريطانيا أن تغتصب البلاد من صولة الاستعمار الهولندي، فكانت بحاجة إلى مساعدة المسلمين لتمام ذلك تخلّصاً من الهولنديين، فاضطرت إلى الاستنجاد بالمسلمين الذين وافقوا على ذلك «شريطة أن تعطي لهم الحرية في مزاولة شعائرهم الدينية، وبناء المساجد، وتخصيص مقبرة للمسلمين، وتعليم أبنائهم وفق المنهج الإسلامي»[2] ولما انتصر الطرف المتحالف مع المسلمين، بادر بموجبه إلى منحهم وثيقة مؤداها: أنهم أحرار في ممارسة شعائرهم بما في ذلك بناء المساجد وأداء الصلوات الجماعية.

مرحلة الانتشار الثالثة: 1912 - 1970م:

تبدأ هذه المرحلة بتأسيس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وتصاعد موجة الكفاح السلمي والمسلح ضد النظام العنصري، وقد أفرزت هذه المرحلة وعيًا تنظيميًا لمواجهة متطلباتها بروح جماعية وثابة، أفاد منها المسلمون في تنظيم أنفسهم، وتبني موقف إسلامي موحد من خلال جبهات متعددة تعنى بقضايا المسلمين الخاصة، وبالمسائل الوطنية الأخرى في عمومها، وتتمثل خصائص هذه المرحلة فيما يلي:-

أ ـ **المجابهة مع النظام العنصري**: حيث وقفت الجالية موقفًا مشرّفًا، مدافعة عن حقوقها الدينية والوطنية. وقدم المسلمون بسببها عدداً كبيراً من الشهداء الخالدين، الأمر

---

(1) المسلمون في العالم، ص: 237، مرجع سابق.

(2) المسلمون في العالم ص: 238، مرجع سابق.

الذي وسّع من فاعلية المسلمين في الأوساط السياسية، والاجتماعية وأصبح الآخرون يكنون لهم كل ودّ وتقدير، يتناسب مع دورهم الفعال والمؤثر في الكفاح من أجل العدالة والمساواة، وقد أثر هذا الموقف الجهادي الرائع في الكثير من غير المسلمين مما جرّهم إلى اعتناق الإسلام، فأخذ ينتشر بسرعة عجيبة بينهم «لأنهم يعتقدون - وهو كذلك - أن الإسلام قرّر المساواة بين البشر في أكمل صوره وأمثل أوضاعه، وأنه الحل الوحيد لجميع مشاكل جنوب أفريقيا بصفة خاصة»[1] وهو كذلك حقيقة وفعلاً. وقد عبّر الجنرال سمتس أحد رؤساء الحكومة في جنوب أفريقيا عن هذا الانتشار السريع للإسلام مقارنًا بنجاح الحركة التنصيرية، في محاضرة ألقاها في أكسفورد جاء فيها قوله: «الإرساليات المسيحية بعد مجهود متواصل في قرن كامل لم تنجح في إيجاد أي شعور عميق بالإنصات لدعوتها في جنوب أفريقيا، بل إن الدّين الإسلامي ينتشر بسرعة أكثر من المسيحية»[2].

ب - تنامي مد الهجوم الكنسي التنصيري على الإسلام ورسوله ﷺ: اتخذت الحركة التنصيرية المحلية في هذه المرحلة من الإسلام ورسوله ﷺ موقفًا عدائيًّا مكشوفًا، بالنيل من الإسلام والمسلمين، وكيل التهم والادعاءات الباطلة ضد رسول الله ﷺ، من خلال المواقف الخطابية، وفي عدد من المنشورات الحاقدة[3]، ومن أبرز أمثلته كتاب بعنوان: «الصليب والهلال» نشرته الكنيسة الإنجليكانية مهاجمة الإسلام والمسلمين، فكان من الطبيعي إزاء هذا الموقف الهجومي أن يتخذ المسلمون موقفًا مضاداً للدفاع عن دينهم وأنفسهم أمام سيول الافتراءات الجارفة، فأدّى ذلك إلى ظهور:

جـ - شخصيات، ومؤسسات بارزة: أنجبت المرحلة شخصيات بارزة من أمثال الشيخ ديدات، والشيخ عبد الله هارون، وإسماعيل عبد الرزاق وغيرهم ممن سنأتي على التعريف ببعضهم إلى جانب منظمات ومؤسسات إسلامية عامة، ومتخصصة،

---

(1) السيد إسماعيل عبدالرزاق من جنوب أفريقيا في لقاء صحفي في مجلة الأزهر مج4، ص: 397 س38، 1386هـ 1966م.

(2) مجلة الهداية الإسلامية، ج1 مج2 ص: 58، عام: 1348هـ القاهرة.

(3) ينظر: أفريقيا لماذا؟ 138، مرجع سابق.

لعبت دورًا مشكورًا في مضمار العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وفي كافة المجالات، ومن هذه المؤسسات مركز الشيخ ديدات العالمي للدعوة الإسلامية، حركة الشباب المسلم، دائرة الدراسات العربية، جمعية الأطباء المسلمين وغيرهم.

د ـ تطوّر اهتمام العالم الإسلامي بمسلمي جنوب أفريقيا : ظهرت اهتمامات العالم الإسلامي جلية بمسلمي جنوب أفريقيا، وقد عبّرت عن نفسها من خلال مواقف الدّعم المادي والمعنوي، والمساندة السياسية لقضية الحرية، والمساواة في جنوب أفريقيا كما أسلفنا، وفضلاً عن ذلك فإن فرص اللقاءات بين الطرفين تعددت من خلال مواسم الحجّ، والمؤتمرات الإسلامية، وزيارات تفقد أحوال المسلمين، وظهور المؤسسات الإسلامية ذات الانتشار العالمي، وغيرها، وقد أثمرت تلك الاهتمامات الأولية، ومن ثم اللقاءات والزيارات المتبادلة تعاونًا واسعًا في مختلف مجالات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، على نحو يقتضيه واقع العمل الإسلامي الغني في هذه الساحة الدعوية الخصبة، والتي يبدو أنها أفادت من هذا التعاون أيما إفادة.

هـ ـ تنفر طائفة من المسلمين للتفقه في الدين والعودة للإنذار : أتيحت لعدد قليل نسبيًا من مسلمي جنوب أفريقيا فرص الخروج للتعلم والتفقه في الدين، للنهوض بمهمة الدعوة الإسلامية في بلادهم بعد العودة. وقد أمّ معظمهم بلاد الحرمين الشريفين، والتحق عدد منهم بالأزهر الزاهر، كما توجه بعض منهم إلى شبه القارة الهندية لينهلوا من مؤسسات الهند وباكستان الإسلامية، والانضمام إلى حلقاتها العلمية، وبالأخص ما يتصل منها بعلوم اللغة العربية، والدراسات الإسلامية، وقد عاد بعض هؤلاء إلى البلاد ليتصدّروا مهام الدعوة والإمامة، والتعليم، والإفتاء، وغيرها من مجالات العمل الإسلامي، ومما يؤكد ذلك ما جاء في مذكرات رحلة الأمير محمد علي إلى جنوب أفريقيا في الربع الأول من القرن العشرين، حيث «ذكر مجيء رئيس الجمعية الإسلامية في جوهانسبرج لزيارته مع خطيب الجامع، واثنين من تجار الهنود، والظاهر أنهم في نعمة من العيش لأنهم عرضوا عليه سياراتهم مدّة إقامته في تلك المدينة، وقال: إن الخطيب من

أهالي جاوه ويحسن العربية»[1] ، وفي هذه المرحلة أخذ العنصر الأفريقي المحلي يبرز في ممارسة دوره الدعوي ، وعلى شاكلة إخوانهم من الدعاة المستوطنين والوافدين .

المرحلة الرابعة لانتشار الإسلام في جنوب أفريقيا من 1970- 1994م:

تشكل فترة السبعينيات تحديدًا في تاريخ العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا فترة حيّة ومتميزة ، إذ تضع حدًا فاصلاً بين ما بعد هذه المرحلة وسابقتها حيث تحققت خلالها إنجازات عظيمة ، واستطاع المسلمون تقديم مشاريع وبرامج دعوية كثيرة وجادة ، وكان للمسلمين فيها حضور فاعل وتأثير ملموس[2] . فهي بذلك تمثل فترة حصاد لنتاج المراحل السابقة كلها . وقد عبر المسلمون علميًّا عن دورهم الإيجابي في بناء مجتمع كريم تسوده العدالة والمساواة ، والقيم الإنسانية الخيرة ، وذلك من خلال نشرهم لرسالة الإسلام الحضارية ، التي تحمل مشروع الأمل والإنقاذ لكل الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة ، فصادفت قيم الإسلام السامية بيئة إنسانية هي أكثر ما تكون تعطشًا إليها فتلقفتها بلهفة بالغة ، واحتضنتها بسعادة غامرة ، ورغم عويل الأعداء النابحين وعراقيل التحديات ، وعقبات المشاكل ، فإنّ القافلة وفقت في مواصلة مسيرتها بسلام ونجاح كبير .

وقد تميّزت هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

أ)- نمو منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا : باعتبارها أولى منظمة إسلامية وطنية في جنوب أفريقيا ، وقد أسهمت إسهامًا كبيرًا في بعث العمل الإسلامي ، وتجديد أساليب حركة الدعوة في جنوب أفريقيا ؛ بأن طرحت أفكارًا وموضوعات جديدة تتصل بدور الإسلام في النهوض بالأمة ، ودور المرأة المسلمة ، وأعطت أبعادًا

---

(1) مجلة المقتطف ج4 مج66 ، ص : 400 عام 1925م .

(2) من مذكرة أعدتها حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا عن الشيخ أحمد ديدات وبعثت بها عبر البريد الالكتروني بتاريخ : 13/ 9/ 2000م بناء على طلب الموقر أمين مكتب الدعوة والمراكز الإسلامية بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية الدكتور محمد فتح الله الزيادي حفظه الله ، المشرف الأول على هذه الرسالة قيد الاعداد .

جديدة للتربية الإسلامية في البلاد كما أثارت الوعي العام، ونبهت الرأي المحلي إلى أهمية الدعوة الإسلامية، ومدى الحاجة إلى الإسلام[1]. في هذا المجتمع وغيره.

ب)- فتح قسم الدراسات الإسلامية في جامعة دربان : وهذا الحدث المهم يمثل فتحًا علميًّا للإسلام في هذه البلاد، وقد تم بالفعل الشروع في إلقاء محاضرات ودروس إسلامية بهذا القسم الجامعي الجديد، الذي رآه البعض بمثابة حجر الأساس في بناء صرح العمل الإسلامي الكبير في جنوب أفريقيا، وعلى الأقل في جناحه العلمي، وقد تبعته عملية إدخال برنامج تدريس اللغة العربية في المناهج التعليمية، لبعض المدارس الثانوية، وذلك عام 1976[2]، وهو عمل حضاري يسجّل فضله لدائرة الدراسات العربية في جنوب أفريقيا.

ج)- إنشاء المجلس الإسلامي الوطني : تم إنشاء هذا المجلس عام 1975م كمظلة وطنية عامة تضم في جنباتها كل المنظمات والطوائف المسلمة في البلاد بقصد تشكيل منبر عام وموحّد يسمع من خلاله صوت المسلمين، ويعبر عن مواقفهم الإسلامية حيال القضايا الوطنية، وأيضًا كان من مرامه توفير التعليم الإسلامي للمسلمين[3]، والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة السياسية في البلاد.

د)- نشطت وعمت حركة انتشار الإسلام كل البلاد : ضمنت التطورات الحاصلة تنشيطًا، وتعميمًا لانتشار الإسلام في مختلف أنحاء جنوب أفريقيا. وتتميز المرحلة بتوجه شبابي عام نحو الإسلام، بفعل كثافة الجهود التي بذلها المسلمون في هذه الفترة، وبفضل ما أبدوه من روح التضحية، والحياة من أجل الله، وفي سبيل الإسلام، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162- 163]. وعن رواج

---

(1) ينظر: المرجع السابق. . د. ر.

(2) المرجع السابق، د. ر.

(3) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 240، مرجع سابق.

سوق الدعوة الإسلامية في البلاد من هذه الفترة فصاعداً يقول الدكتور محمد عبده يماني: «ومنذ عام 1976م على وجه التحديد، من الواضح أن الإسلام يحقق نجاحًا بين الشباب السود، فالناس يتمسكون بالإسلام على اعتبار أنه سلاحهم في جهادهم المقدس ضد التفرقة العنصرية»[1].

المرحلة الخامسة والمعاصرة: 1994 إلى ماشاء الله:

تبدأ هذه المرحلة بانهيار النظام العنصري، وانقلاب الأوضاع السياسية في البلاد رأسًا على عقب، بوصول المناضلين الوطنيين إلى سدة الحكم. وفي ظل ما تحققت للبلاد من إنجازات سياسية عززتها الحقوق الدستورية الجديدة؛ في إشاعتها لمناخ الحرية والمساواة، والتعددية السياسية العادلة، وما ترتب على كل ذلك من انفتاح فكري وحرية إعلامية معقولة، فقد وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع جديد، كل شيء فيه يدعو ويشجع إلى بذل المزيد من التعاون والتنسيق بين الأطراف العاملة على الساحة الإسلامية، مع تعددها، وتباين انتماءاتها الاجتماعية والفكرية. ومن ثم فقد تنسّم العمل الإسلامي في البلاد عبير الحرية، وانفسح له مجال حركته، لتتسع دائرة فاعليته وتأثيره، بالتنسيق المثمر، والاستخدام الإعلامي الأمثل للوسائل الإعلامية المتاحة.

وفي محاولة رصد المعالم الأولية البارزة لمرحلةٍ ما زالت جارية، إذ لما تكتمل صورتها بعد، فضلاً عن تكامل حلقاتها، يمكن تسجيل العناصر التالية:ـ

أ ـ التعاون الفعال بين المؤسسات العاملة في حقل العمل الإسلامية: من الجهود المحمودة في هذه المرحلة ظاهرة التعاون الواسع، والتنسيق المتكامل بين مختلف الأطراف المحلية العاملة في حقل العمل الإسلامي، وذلك في مختلف الأنشطة والبرامج التي تصب في محيط العمل الإسلامي الممتدّ، حتى لا تذهب الجهود هدراً، ولكي تستثمر الإمكانيات القليلة المتاحة على أحسن وجه مطلوب، إذ يؤدي غياب التنسيق إلى تكرار

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص: 149، مرجع سابق.

أعمال سابقة، والقيام بنشاطات لا ضرورة لها على حساب الأولويات الأوّلية الهامة.

وليس فحسب، وإنما امتدّ هذا التعاون للتنسيق مع الجمعيات والمؤسسات الإسلامية خارج البلاد، وهو ما تدلّ عليه مشاركة وفد من مسلمي جنوب أفريقيا بدعوة كريمة من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ندوتي: «نحو إعلام إسلامي فاعل ومؤثر» و«التأريخ الإسلامي وأزمة الهوية» اللتين أقيمتا في طرابلس في عامين مختلفين، كما تعاونت الجمعية على الصعيد المحلي مع منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا لتنظيم مخيّم، ومؤتمر للشباب المسلم كل على حدة في عامين متتاليين[1].

وهذا النوع من التعاون مع المؤسسات الخارجية تتحدّد ملامحه في مسألتي التمويل والدعم الفني أكثر من غيرهما من المسائل التعاونية الأخرى، وقد تمخّضت ظاهرة التعاون هذه عما يمكن أن نسميه بـ:

ب ـ فيضان النشاط الإسلامي إلى ما وراء البلاد: فكان أن شهدت البلاد بفضل ما تقدّم من تعاون وتنسيق، نشاطًا إسلاميًا مكثفًا لم تقدر على استيعابه كله، فجادت به على الدول والمناطق المجاورة لها في الإقليم الجنوبي، وهذا ما نلحظه من فيضان وتدفق العمل الإسلامي من جنوب أفريقيا نحو المناطق المجاورة لها، وأكثر ما يتمثل ذلك في أنشطة منظمة حركة الشباب المسلم، وشبكة الدعوة في منطقة الجنوب الأفريقي، ومركز الشيخ ديدات العالمي بفروعها وأنشطتها في المحيط الإقليمي، مع عدم استبعاد جهات محلية أخرى تشترك معها في هذه الصفة مما لا علم لنا بها. وكان هذا البعد الإقليمي في منطلقه يرمي إلى تعميم العمل الإسلامي على دول الجوار من ناحية، وملاحقة النشاط التنصيري من ناحية أخرى.

---

(1) وقد استضافت الجمعية مؤخرًا وفدًا إسلاميًا هامًا منوّعًا ومتكاملاً، ضمّنت فعاليات من مختلف التشكيلات الإسلامية المعتبرة في البلاد، وذلك في الفترة من 18ـ25/ 2/ 2003ف، كما قامت الجمعية قبل ذلك، ممثلة في وفود رفيعة المستوى بزيارات ميدانية، لتفقد أحوال المسلمين في جنوب أفريقيا، ودعمهم بما أمكن، من مساعدات مالية، ومنح دراسية، وأخرى معنوية، تتمثل في محاضرات وتوجيهات دعوية قيّمة.

جـ ـ **تضييق الخناق على المراكز والأجهزة التنصيرية :** عملت المؤسسات الإسلامية على نحو دائم لمحاصرة النشاط التنصيري وتوعية المسلمين بمخاطره، فضلاً عن تبصيرالعامة بدوافعه الكيدية التغريبية، ولم تدخر الجهات المسلمة وسعًا في تعرية حقيقته، وكشف القناع المزيّف عن وجهه المتظاهر بالإنسانية، وهو أبعد ما يكون عن ذلك. وحتى يتم ذلك بنجاح حاسم لجأ القائمون على العمل الإسلامي إلى توظيف الوسائل الإعلامية، واعتماد أسلوب توزيع المنشورات المضادة للتنصير، والدخول مع المنصرين في حلبات المناظرات الساخنة حينًا، وعقد حوارات علمية هادئة حينًا آخر، لغرض إفحامهم وإلزامهم بحقيقة رسالة الإسلام التي لا يماري فيها إلا مكابر أو معاند.

ونعتقد أن هذا المنهج الحضاري الذي سلكه مسلمو جنوب أفريقيا في مدافعة الحركة التنصيرية كان له أثر طيّب بكل المقاييس الإسلامية، ومردود معتبر لا يستهان به، وإن كنا نفتقر إلى إمكانية تحديده نوعًا وكما. هذه إذن أهمّ المراحل التي اجتازتها حركة الدعوة والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا منذ دخوله إليها مع مهاجري جنوب شرق آسيا إلى البلاد وقد مرّ بمراحل متباينة، وعرفتْ تطورات متقدمة ومبشرة بمستقبل واعدٍ، وغدٍ أفضل.

على أن من تمام المعرفة بهذه المراحل، التي لم نعثر على من سبقنا في محاولتنا هذه إلى معالجتنا بمالها من أهميّة، مع قلّة من كتبوا عما يتصل بالإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا من المسلمين، التعريج على أهم العوامل والوسائل التي استنصر بها العمل الإسلامي هناك، واستخدمها المسلمون قديمًا وحديثًا لنشر رسالتهم الحضارية المبشرة بالخلاص لكل الناس.

ثانياً : من أهم العوامل والوسائل التي ساعدت على نشر الإسلام :

عديدة هي العوامل والوسائل التي اعتمدتها حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وهي بقدر ما تصدق على العمل الإسلامي هناك تنسحب كذلك على عموم القارة الأفريقية، بل وربما تعدتها ـ في بعض منها ـ لتشكل قاسمًا مشتركًا لكل

الساحات الدعوية جملة وتفصيلاً.

على أنه ليس من شأننا هنا أن نستقصي ونقصّ كل تلك العوامل والوسائل بقديمها وحديثها، بل وإنما نكتفي بالإشارة إلى الأهم والأبرز منها، وهي في جملتها لا تخرج غالبًا عما تعارف الناس عليه في هذا المجال.

فمن حيث أهم العوامل التي أسعفت حركة الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وساعدت على عمليّة الانتشار السريع للإسلام فيها، فهي تعود في أغلبها إلى العوامل التالية:

أ)ـ **عامل قوة الإسلام الذاتية**: ويتمثل في بساطة العقيدة ووضوحها، وحضارية تعاليم الإسلام التي تجمع بين الشمولية الدائمة، والواقعية المتجددة، والموازنة بين المصالح المادية والمطالب الروحية، على نحو ينسجم مع الفطرة البشرية السليمة، ويعمل على تنمية الشخصية الإنسانية المتكاملة، على المستويين الفردي والاجتماعي، وهذا العامل الفاعل جذب الكثير من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام، لأن «الإسلام، دين البساطة، والمحبة والسلام، منذ بعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ويدعو الإسلام لسلام العالم، وسلام الإنسان وأمنه، واستقراره على يومه وغده»[1].

ب)ـ **العامل البيئيّ الخصب**: وجد الإسلام في جنوب أفريقيا بيئة خصبة، لم تُجدّبها أو تمزقها الأهواء الدينية الفارغة، فكان أن صادفت بذرة الدعوة الإسلامية الصالحة تربة مهيأة، ومناخًا دينيًّا معتدلاً، وجاهزًا للتعاطي مع هذه القيم الإيمانية الجديدة، وتقبلها بمقتضى الفطرة البشرية، وبساطة العقيدة الإلهية القيمة، ومن ثم سارعت البذرة إلى النمو «وترعرعت وآتت أكلها، حيث أغلب الأفارقة يسارعون إلى الدخول في الإسلام رويدًا رويدًا، بعد أن تمكنوا من استيعاب تعاليمه وتفقهوا في القرآن والسنة أصبحوا هم أنفسهم من روّاد حركة انتشاره والداعين إليه[2]...». وعن

---

(1) أحمد حامد: هكذا دخل الإسلام 36 دولة، ص: 9، ط1، د، ت دار الهلال، بيروت، لبنان.

(2) د: عطية مخزوم: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص: 141، ط1/ 1998، بنغازي، ليبيا.

خصوبة بيئة جنوب أفريقيا للعمل الإسلامي يقول الدكتـور زغلـول النّجـار: «. . . لا يوجد مكان على وجه الأرض مهيأ لتقبل الدعـوة الإسـلامية مثـل تلـك البـلاد التـي لا يكاد يدرك أبناؤهـا معنـى الأخـوة في الإسـلام الـذي لا يفـرق بـين أبيـض وأسـود حتـى يُقبلـوا علـى هـذا الديـن بعاطفـة صادقـة، وإيمـان ثـابت، وهـذا مجـال يتنـافس فيـه المتنافسون[1]»، ولا أظنه مبالغًا فيما قال وإن كان ظاهر كلامه يوهم بذلك.

جـ)ـ نموذجية دعاة الإسلام ورقيهم الحضاري: كان لما اتسـمت بـه حيـاة دعـاة الإسلام من سلوك نموذجي، وخلال فاضلة دور مكمل للعاملين السابقين؛ فقد امتثـل المسلمون دور القـدوة الحسـنة للآخريـن إلـى جانب القـدرة علـى النفـاذ إلـى قلـوب الآخرين برسالة الإسلام السمحة، بكل صبر وإخلاص، وذلـك لمـا كـانوا يتحلّـون بـه من خلق قرآني عظيم، فكانت دماثة أخلاقهم، ورقة شعورهم الإنسـاني، وجوارهـم الكريم الأمـين، واستقامتهم التامـة في مسـلك حيـاتهم العامـة والخاصـة، إلـى جـانب تفوقهم الحضاري ورقيّهم الفكري عوامل استقطبت من كانوا في أمسّ الحاجة إلى هذه الصورة الرائعة والجديدة للحياة الإنسانية الراقيـة، فقـد فجـروا في البـلاد ينـابيع تتدفـق حضارة، ورقيا، وشكلوا معسكرًا قويا للانتصار لكل ما هو إنساني، فقـد كـانوا حقّـًا مثالاً للصدق في القول، والإخلاص في العمل. وكان يغلب عليهـم التسـامح والإيثـار والتضحية بالفاني من أجل الباقي.

د)ـ عامل الضعـف فـي حركتـي التنصـير والاسـتعمار المنافسـين: إن تعقـد مسيحية الكنيسة ودعوتها الهزلية إلى أخوة كاذبة، على الدفـع بسـكان جنـوب أفريقيـا نحو اعتناق الإسلام، حيث إن هذا العامل أعطى الإسلام في أفريقيا بوجه عام «موقعًـا أكثر قوة، وتمكنًا وامتيازًا من الموقع الذي يحتلّه النشاط التبشيري هناك»[2].

ومن جهة أخـرى فـإنّ موقـف الإسـلام التحريـري مـن الـرّق، والمنـاهض للتمييز

(1) "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" من مجلة العربي ع239، ص: 50، مرجع سابق.

(2) د: عماد الدين خليل، "الإسلام... والأفريقـي المعـاصر" مجلـة الوعـي الإسـلامي، ع115، ص: 48 س1/ 1394هـ 1974م.

العنصري الاستعماريين، يعتبر من العوامل الأساسية التي يسرت عملية انتشاره في أفريقيا عامة [1]، وساقت إلى رحابه باستمرار أعداداً كبيرة من أهل جنوب أفريقيا خاصة. وذلك لما تميزت به هاتان القضيتان من حساسة فارطة فيها أكثر من غيرها.

وفي سياق أبرز الوسائل التي استعانت بها حركة الدعوة إلى الإسلام، لدفع عجلتها إلى الأمام، نورد عدداً منها من خلال العناصر اللاحقة :-

1 - **الالتزام بالشعائر الدينية** : إنّ جمال الالتزام بالشعائر التعبدية في الإسلام، وما تنطوي عليه هذه الشعائر من حكم عظيمة ومعان عميقة، من صلاة، وصيام، وزكاة، حجّ، أخذ لبّ الكثير من غير المسلمين، وسحرهم ما توحي به هذه العبادات من جمال وجلال، وتشترطها من طهارة، وانضباط صارم، فجذبهم ذلك إلى الإسلام جذبًا قويًا. حيث كانت لرحلة الحج التي من شأنها أن تعمل على ترتيب اللقاء بين المسلمين، وتوفير أسباب الاتصال بالعالم الخارجي، مما ساعد ليس في تقوية وتعميق الثقافة الإسلامية لدى المسلمين فحسب، وإنما في نشر الإسلام وقبول الآخرين له أيضًا؛ وما تشمل عليه من أناشيد في مدح النبي ﷺ وذكر فضائل الحج والحجاج باللغة العربية واللغات المحلية، وما يناله الحجاج عند العودة من التعظيم والتبجيل، الأثر العميق في نفوس الأفريقيين، وعاملاً من عوامل ازدياد الحجاج الأفارقة إلى بيت الله الحرام في كل عام»[2].

2 - **إحياء المناسبات الدينية** : ويلتقي فيها جموع المسلمين مع غيرهم ممن يحضرون غالبًا بدافع الفضول والتسلي، في بيئات تقل فيها عوامل التسلية، وتتباعد فرص التجمّع. ويقوم على الوعظ والإرشاد إحياءُ هذه المناسبات والتي من أشهرها في أفريقيا: مناسبة العيدين، والمولد النبويّ الشريف، وليلة السابع والعشرين من رمضان وإلقاء أناشيد دينية، وتلاوة القرآن الكريم، والإكثار من الذكر والصلاة على النبي ﷺ، وأيضًا من الدّعاء، على أن إحياء المولد النبوي الشريف يظل أكثر بروزاً،

---

(1) ينظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص: 158 161، مرجع سابق.

(2) الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 102 مرجع سابق.

وأتمّها استعداداً. فلذا كان الشيخ أحمد ديدات يعنى فيه بإلقاء محاضرات عامة يُدعى لها من مختلف مناطق جنوب أفريقيا لإحياء هذه المناسبة الكريمة[1].

3 ـ **تبني الأطفال الشاردين والمهملين**: تحدث توماس أرنولد عن مسلمي الكاب في جنوب أفريقيا فكان مما ذكره من الوسائل المعتمدة عندهم في نشر الإسلام قوله: «ومن الوسائل التي تستغل الآن تبني الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على الإسلام»[2]، وهذه وسيلة ذكية، وذات ضمان مستقبلي لأنها تجمع بين الدعوة والتنشئة، في مهمة جليلة لخدمة الإنسان، وتأمين مالا تتم إنسانيته إلا به.

والملاحظ، أن المنصرين تقليداً للمسلمين قد لجأوا إلى هذه الوسيلة الكريمة، واستغلوها بخبث ودهاء، فأصبحت لهم وللأسف الصدارة فيها على حساب السابقين إليها.

4 ـ **الزيارات الأخوية**: لعبت الزيارات التي كان يقوم بها مسلمو العالم الإسلامي إلى جنوب أفريقيا دوراً نشطًا في تفعيل العمل الإسلامي، وسكبت في حياة مسلميها روحًا جديدة، ألهبت فيهم الحماس الدائم لنشر الإسلام والإقبال على التوسع في تعلّمه، ليتحقق لهم المزيد من التعرف عليه أولاً، والتعريف به لاحقًا، ولأهمية ما كانت تشي بها تلك الزيارات من روح أخوية، وتثيره من اهتمام تعليمي وبعدٍ دعوي في البلاد، سجل توماس أرنولد في كتابه قائلاً: «وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها، ويقال: إنّهم يقومون بدعوة حماسية، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب، وإنّهم حصلوا على نجاح محقق»[3].

---

(1) ينظر: بشأن ذلك في كتابه: الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، ص: 24، 25، مرجع سابق.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص: 389، مرجع سابق.

(3) المرجع السابق، ص: 389.

5 ـ **الحوارات والمحاضرات العامة** : إن الانتصارات الباهرة التي سجلتها العناصر المسلمة في جنوب أفريقيا من خلال حواراتها، ومناظراتها مع الأطراف الأخرى، كان يعقبها دومًا توجه جمع غفير، وعدد هائل من الناس لاعتناق الإسلام، عن قناعة واختيار. كما كانت المحاضرات العامة هي الأخرى على غرار الحوارات والمناظرات تمثل دورًا مماثلاً أو مقاربًا لها، ومن هذا النوع؛ تلك المحاضرات الإسلامية التي يروي لنا قصتها الدكتور زغلول النجار والتي ألقاها في برنامج زيارته لجنوب أفريقيا بدعوة من الجماعة المسلمة هناك، وذلك في قرية قريبة من بريتوريا تعرف باسم لانيشيا، وعلى إثرها مباشرة أشهر قسيس القرية ومدير مدرستها الثانوية، وعشرات الطلاب إسلامهم تأثرًا بما ورد في المحاضرة من معلومات صحيحة عن الإسلام وجذابة إليه. وكان مما قاله القسيس في تعقيبه على المحاضرة تشهيرًا بالمنصرين، وإشادة بالإسلام: «إني أرجوكم أيّها الإخوة المسلمون أن تعبروا الحواجز المقامة بيننا لتمنحونا نور الإسلام. . فإن أهل البلد الأصليين من الأفارقة قد سئموا دعوات الذين يتحدثون باسم السيد المسيح في نفس الوقت الذي يمارسون فيه التفرقة العنصرية البغيضة، وهذا في نظري يمثل قمّة النفاق. . . إنهم يقدمون لنا الإنجيل بيد ويصفّدوننا في الأغلال باليد الأخرى. . . إننا نريد الإسلام فهو الذي يناسب فطرتنا، الدين الذي يؤسس الأخوة الإنسانية. . . يحرم الخمر ليحفظ بها عقله...»[1]، وهذا الاعتراف الصريح ممن ترسم إلى درجة قسيس في سلّم العقيدة الكنسية يمثل شهادة قوية لمحاسن الإسلام ومزاياه، في الوقت الذي يشكل فيه ضربة قاصمة لظهر التنصير والمنصرين، وهو بذلك على قدر كبير من الأهمية العلمية والدعوية معًا.

6 ـ **الجهد الجماعي المنظم** : لاشك أن ظاهرة الجماعات الدعوية المنظمة، قد لعبت دورًا رئيسًا وهامًا في تسهيل حركة نشر الإسلام، وكانت من الوسائل المعينة عليها باعتبار أن قضية نشر الإسلام على نحو أوسع وأشمل، تتطلّب جهودًا جماعية منظمة، تتكامل عناصرها الفاعلة، ونشاطاتها الفرعية، لتشكيل دوحة فينانة لحركة

(1) مسلمو جنوب أفريقيا... مجلة العربي ع239 ص: 50، مرجع سابق.

دعوية سابغة ومحيطة .

وإن من الأمور الحميدة حقًا توفر هذه الوسيلة لمسلمي جنوب أفريقيا على نحو فيه قدر كبير من الكفاية والفاعلية . وتتمثل في عشرات الجمعيات والمؤسسات الإسلامية بمختلف أصنافها ، وهي تؤدي أدواراً متفاوتة الأهمية ، حسب إمكانياتها وتخصصاتها لتلتقي كلها أخيراً لصالح خدمة قضية الإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا .

والملاحظ ، أنه لا وجود لوسيلة الانتشار بالسيف المزعومة ، تلك الفرية التي يدّعيها ويروّج لها المغرضون المرجفون من أعداء الإسلام .

هذا... وإلى جانب هذه الوسائل التي أتينا على عرضها في الفقرات السابقة باعتبارها أهمها ، توجد جملة من الوسائل الإعلامية من أجهزة ومطبوعات ، وبرامج هي في غنى عن تناولنا لها في هذا المقام ؛ إذ هي أشهر من أن نعرّف بها ، وليست خاصة فقط بجنوب أفريقيا والتي حرصنا دومًا وبقدر الإمكان على التقيّد بنطاق العمل الإسلامي فيها ، تمهيداً كافيًا لدراسة منهج شيخنا الجليل في الحوار والدعوة .

ولما كان تحقق ذلك على نحوه المطلوب أمراً متعذراً في غياب الصورة العامة لواقع المسلمين في جنوب أفريقيا ، وبيان أوضاعهم ومشكلاتهم ، والوقوف على عدد من الشخصيات والمؤسسات الدعوية فيها ، فإن البحث سيحاول بشكل متواضع الإلمام بهذه القضايا ، وذلك لتأمين رؤية متكاملة عن البيئة التي ينتمي إليها العلم المراد دراسته بمالها من مؤثرات عليه ، بغية الوصول إلى نتائج علمية محققة بشأن القضايا المندرجة تحت موضوع الدراسة .

المبحث الثالث

الوضع المعاصر للمسلمين

والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا

إن الحديث عن الوضع المعاصر لكل من المسلمين والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا لذو شجون، حيث تتسع آفاقهُ، وتترامى أطرافه، وبذلك يصعب استيعابه ويتعذّر الإيفاء بما يستحقه من شمولية وعمق بحثيين. وبما أن الكمال لله وحده، ولا مطمع فيه على المستوى البشري، فإننا بهذا الاعتبار وفي حدوده، سنحاول رسم صورة مصغّرة عن الوضع المعاصر إسلاميًا في هذه البلاد، وفي مرحلة ما بعد التمييز العنصري بالذات. على أن من المعلومات الأولية أنّ مسلمي جنوب أفريقيا يشكلون نسبة 2% من مجموع سكان البلاد البالغ عددهم حوالي أربعين مليون نسمة، وهم ينحدرون من أصول عرقية متنوعة، ومن مناطق جغرافية متعددة، من كلتا القارتين، أفريقيا وآسيا.

وهم موزعون من حيث مناطق الانتشار في معظم أنحاء البلاد مختلطين مع غيرهم في مجتمع واحد، وفي وضع يوقظ شعورهم دائمًا بضرورة الحفاظ على الهوية، ويولد في نفوسهم الإحساس بمفهوم الانتماء إلى أمة الإسلام العظيمة، غير أنه يغلب عليهم التمركز في الأقاليم الحضرية، وفي المدن الرئيسة المتمثلة في كيب تاون، جوهانسبرج، بريتوريا، ديربان[1]، وما جاورها من المناطق، أو قاربها من حيث الأهمية، والملاحظ أن أغلب أبناء الملايو مقيمون في الكاب، كما أن حضور العنصر الهندي بارز جدًا في كل من ناتال وترانسفال[2].

ومن حيث الوظائف والمهن التي يزاولها المسلمون في جنوب أفريقيا فإن حوالي 30% منهم يعمل في التجارة، و30% يعمل في البناء، 30% شبه حرفيين، و1% في مجالات مختلفة مثل الطب والمحامات والمحاسبة ووظائف إدارية»[3].

ونظرًا إلى اعتماد هذه الإحصائية على عامل الوظيفة والمهنة فإنّها أغفلت الإشارة إلى الطلاب، والدعاة، ومجالات عمل المرأة المسلمة إلى حدٍّ ما.

---

(1) ينظر: "دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين بجنوب أفريقيا" ص: 1، تقرير أعدّه أحد دعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب أفريقيا، وهو محفوظات مكتب الدعوة والمراكز الإسلامية بالجمعية.

(2) ينظر: أحمد ديدات "هذه حياتي" ص: 108، مرجع سابق.

(3) ينظر: "دراسة مبدئية موجزة..." ص: 1، مرجع سابق.

وعلى الرغم من أن الأقليات - عادة - تظل محدودة القدرة على التأثير في محيطها، مهما بذلت من جهد، فإن وضع مسلمي جنوب أفريقيا يشكل استثناءً من هذه القاعدة؛ إذ لم يحل اعتبارهم أقلية دون تأثيرهم الفاعل في مختلف المجالات، والمناشط الحيوية من سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وغيرها، وإن كنا لا ننكر أن هذا التأثير الشامل هو أمر ناشئ وليس ملازمًا لوجودهم في كل فترات تاريخهم في البلاد.

وعن تأثيرهم في القرار السياسي ورد في صحيفة الدعوة الإسلامية ما نصّه «رغم أن عدد المسلمين في جنوب أفريقيا لا يتجاوز مليوني نسمة بين شعب قوامه 40 مليون نسمة فإنهم أصحاب نفوذ وتأثير في القرار السياسي للدولة»[1]. وإن مبعث هذا التأثير يكمن في تلك المواقف الشجاعة التي تصدّى بها المسلمون لسياسة التميز العنصري في البلاد، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى تهافت النظام العنصري وسقوطه أخيرًا. مما أكسب المسلمين شعبية واسعة، إذ أثار ثناء مواطنيهم وإعجابهم بهم، فاندفعوا متعاطفين مع المسلمين، والتصويت لصالحهم في الانتخابات البلدية والبرلمانية، فضلاً عما للجالية المسلمة هناك من دور إيجابي عظيم في دفع عجلة التنمية في مجتمعات إقامتها، ومساهمتها في مختلف المشروعات الإنسانية التي دأبت على تمويلها من خلال الزكاة، وجمع الصدقات، والتبرعات.

وكان من نتيجة ذلك كلّه أن «اكتسب المسلمون نفوذًا سياسيًا حتّى صار لهم في الحكومة ستة وزراء هم: عثمان قارو، وزير التعليم، دوالا عمر، وزير النقل، يوسف باهات، للمعلومات والاتصالات، ولي موسى، للسياحة، شكوت فيكي، لوزارة الثقافة، وعزيز باهات، وزير الدولة للشؤون الخارجية»[2]، ورغم أن أهمية هذه المناصب الوزارية بمكان من الوضوح يغنينا عن كل تعليق عليها، فلا أقل من القول بأنها مواقع حساسة جدًا، فمن حيث التأثير الداخلي والخارجي فإنها أكثر أهمية

---

(1) صحيفة الدعوة الإسلامية ع747/ 1، بتاريخ 2 صفر عام 1369 من و.ر، طرابلس.

(2) نفس المرجع والصفحة كذلك، وعنوان المقال "المسلمون قوة سياسية".

من غيرها، وهي من شأنها أن تقدّم الكثير للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وتسهم إلى حدّ كبير في تحسين أوضاع المسلمين في البلاد، وإيلائهم ما يستحقونه من صدارة واعتبار؛ هذا إن كان ثمة وعي بذلك وإحساس به، ولعل الله الحكيم الخبير، لهذه الأسباب وغيرها ملّكها إخواننا القائمين عليها، واستأمنهم إياها لنشر رسالته، وإظهار الإسلام على الدين كلّه هناك وفي غيره.

ومما هو جدير بالتذكير به أنّ هذا التأثير ليس فقط محصوراً في النشاط السياسي مع أهميّته التي لا تنكر، وإنما يتعدى هذا النطاق ليطال مختلف جوانب الحياة الهامة، ومن ثم فإن الإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا اليوم مرشّحان أكثر من أي ظرف سابق لدور حضاري أكبر وأفعل في صميم واقع ومستقبل البلاد. وقد ذهب إلى تأكيد هذا الدور من قال: «والإسلام؛ بفضل المشاركة الفعالة في الصراع الاجتماعي والسياسي، وتبعًا للدعوة الواسعة إلى الإصلاح، فإن هذا الدين يلعب دوراً أكبر مما ينتظر في مثل هذا العدد الصغير من المسلمين»[1].

إنّ الوضع اليوم في جنوب أفريقيا المتحررة وهي تمرّ بظروف دقيقة في تاريخها بعد مخاض عسير، وقرون من الكفاح الطويل يلقي على مسلميها خاصة، وإخوانهم عامة عبئًا ثقيلاً ومسؤولية تاريخية جسيمة، في الأخذ بيدها نحو دعوة الحق والخير بما تنطوي عليه من قيم السلام، والتعاون، والتسامح، ومبادئ العدالة، والمساواة، والمحبة بين البشر.

ويبقى على المسلمين النهوض لمقابلة هذا الواقع الجديد؛ بإثبات وجودهم ودورهم الحضاري واستثمار إنجازاتهم الغالية ومكاسبهم الجديدة التي تحققت لهم عبر مسيرة شاقة شائكة، استثماراً يتناسب مع قيمة تضحياتهم الجمة، ليجعلوا بذلك من جنوب أفريقيا قلعة من قلاع الإسلام ومركز إشعاع حضاري إسلامي في محيطها الإقليمي على الأقل، وهو ما لا يتم دون سلوك واع، ونشاط هادف منظم، ومشاركة

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص: 151، مرجع سابق.

إيجابية في الحياة اليومية، والمقصود هنا بالاشعاع الحضاري هو ذلك النور «الذي يسري في الحياة اليومية ويتخلل الدقائق والثواني منها ويتجلى في المظهر والجوهر على السواء، والزمرة المباركة الناشرة لهذا الاشعاع هي تلك الفئة المهاجرة الشاعرة بالواجب الملقى على عاتقها العازمة على تأدية الأمانة وتبليغ الرسالة»[1].

وإن الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا من موقع تمثيلها عن الأمة كلها، وواقع تصويرها وتجسيدها لتعاليم الإسلام وقيمه، يتعيّن عليها أن تأخذ بعين الاعتبار وبحذر ساهر «أن الأقلية المسلمة إذا صلحت كانت نعمة وسببًا في انتشار الإسلام، وإذا فسدت كانت نقمة وأساءت إلى الإسلام»[2]، ومن ثم فإن طبيعة دعوتها وكونها أقلية يحتمان عليها اللجوء إلى أساليب الحوار، والتمسك بأخلاقيات حسن الجوار، والتحلي بالحكمة والسماحة بعيدًا عن العنف، والتزمت، وكل ما يتصل بهما من معاني الشدة والغلظة المثيرة للقلاقل، وسوء التفاهم بين الجماعات المتعايشة في عربة واحدة من قطار الحياة العابرة.

ولعل من عوامل سعادة الإنسانية الحائرة في هذا الجزء من العالم، أن يظهر مسلمو جنوب أفريقيا أشدّ الناس تمسكًا بدينهم، وأحرص من غيرهم في الحفاظ على هويتهم الإسلامية، وتبتدي مظاهر هذا التمسك بالدين، والحفاظ على الهوية في عدد من النشاطات، يمكن تقصي بعضها في النماذج التالية:-

أ)- **كثرة المساجد والمؤسسات التعليمية**: يوجد في جنوب أفريقيا ما يربو على ألفٍ وثلاثمائة مسجد قامت الأقلية المسلمة بإنشائها في فترات مختلفة، وإنّ ما يقرب من ثلث العدد المذكور من المساجد شيّدت في السنوات الأخيرة الماضية، وهذه المساجد كما وصفها الأستاذ حامد عثمان «كلها تمتاز بالإتساع والفنّ المعماري الإسلامي

---

(1) مهدي بن عبود "كيف تكون الأقليات المسلمة مصدر إشعاع حضاري" مجلة الفكر الإسلامي، ع3، ص: 38 س16/ 987، لبنان.

(2) محمود مهدي: "الأقليات المسلمة في العالم، طريقة توعيتها وأساليب الافادة منها" من مجلة الوعي الإسلامي ع162، ص: 53، س14/ 1398هـ 1978م.

الحديث»[1]، ويتسارع معظم المسلمين إليها بانتظام، لتأدية صلواتهم في مواعيدها، وأشد ما تكون هذه المساجد اكتظاظاً بالمسلمين في أيام الجمعة، والأعياد والمناسبات الدينية، ويتميز شهر رمضان بكثافة الحضور أكثر من غيره من الشهور.

وأكبر المساجد في البلاد، جامع دربان الذي يتسع لآلاف المصلين، ويُعتبر من المعالم الإسلامية البارزة في البلاد، يؤمها الزوّار يوميًا من كل مكان. كما أن مسجد برهان الدين في مدينة كيب تاون من أكبر المساجد في جنوب أفريقيا، وهذا المسجد على قول الأستاذ حامد عثمان: «يمتاز بالسجاد الفاخر الذي لا مثيل له في مساجد أفريقيا، ويوجد في ركن من المسجد ملابس نظيفة معلّقة أعدت للعمال الذين يريدون الصلاة وعليهم ملابس العمل غير النظيفة، فيخلعونها ويرتدون الملابس النظيفة الطاهرة ويصلّون بها، وهذه الظاهرة موجودة في كل المساجد بجنوب أفريقيا»[2].

ولعل هذه الظاهرة إلى جانب ما فيها من إبراز لقيمة النظافة في الإسلام هو تطبيق حرفي لقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: 31] وعلى أية حال فهي ظاهرة حضارية استثنائية، يكاد ينفرد بها مسلمو جنوب أفريقيا عن غيرهم من مسلمي الأقطار الأخرى.

ومساجد جنوب أفريقيا في سبيل تأكيد الهوية الإسلامية، وتجذير أصول الانتماء الإسلامي في نفوس الأجيال الشابة الناشئة بتربيتها تربية إسلامية ملتزمة، تضطلع بدور كبير ومتعدد يجمع فيه المسجد بين كونه مركز تحفيظ للقرآن الكريم، وتدريس للعلوم الإسلامية، ومعقد حلقات الوعظ والإرشاد، وبين صفته منتدى لمناقشة المشاكل، والاحتفال بمختلف المناسبات[3]، إلى جانب أنه يمثل مقراً للكتاب الإسلامي، وهذا الدور الفاعل الشامل للمساجد في جنوب أفريقيا هو أقرب ما يكون إلى ذلك الدور الذي أراده الإسلام للمساجد من خلال

---

(1) المسلمون في العالم، ص: 240، مرجع سابق.

(2) المسلمون في العالم، ص: 238، مرجع سابق.

(3) ينظر: "مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال" العربي، ع239، ص: 49، مرجع سابق.

سيرة الرسول ﷺ، وممارسات أصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان في مختلف العصور الزاهرة من تاريخ الأمة المجيد، حيث إن المساجد كانت تشكل ولا تزال في بعض المناطق، وفي بعض الأحيان مراكز ثقافية، وإشعاع حضاري، وملتقى تكوين رأي عام إسلامي صحيح، إلى جانب كونها قنوات اتصال بين أفراد الجماعة المسلمة لتمتين أواصر الأخوة، وإشاعة روح المودّة والتعاون فيما بينهما، وهذا ما يعني أن المسجد «هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ويتعاونون لمجابهة المشكلات، ويتضامنون في الفكر والعمل والدفاع عن عقيدتهم، ويعبئون نفوسهم بالطاقة الروحية والأمل المتجدد مع كل صلاة، فقد كان المسجد دائماً منطلقاً للجيوش، وحركات التحرّر من العبودية للبشر والأوثان والطواغيت، كما أنه مركز للتربية الصحيحة والتعليم الديني والتثقيف الشرعي»[1]. وبقدر لا يستهان به فقد وقفت المساجد في جنوب أفريقيا للجمع بين مختلف هذه المهام من هذا وذاك[2]! بفضل ما قيض لها من أئمة لا ينحصر دورهم في إمامة الصلاة فحسب بل يتجاوزها ليمتدّ إلى الوعظ والإرشاد، وتصدر المناسبات الدينية والاجتماعية من عقيقة، وعقود زواج ومآتم وغيرها. وقد عبر عن هذا الدور الحي النشط لمساجد جنوب أفريقيا الدكتور زغلول النجار قائلاً: «... استطاعت تلك الجالية الصغيرة أن تبني قرابة الثلاثمائة مسجد من أجمل مساجد الدنيا مظهراً وأداء للرسالة»[3]، أقول: إنه لشيء رائع حقًا أن يتاح للمسجد التوفيق بين الجمالين الفني والديني في مهمة حضارية متكاملة. هذا... وتقوم إلى جانب المساجد في مهمتي التأصيل، والتأهيل للهوية والثقافة الإسلامية مئات المدارس والمعاهد الإسلامية: «تقوم بتدريس الشباب مبادئ الدين الإسلامية، لكن أكبر مشكلة تواجهها هي ضعف تأهيل المدرسين وفقر محتويات مواد التدريس»[4]. وهذه إحدى المشكلات التي ستثار في حينها، إن شاء الله.

---

(1) الدكتور إبراهيم إمام، أصول الإعلام الإسلامي، ص: 290، وينظر أيضاً: Islam in south Africa p:24-27.

(2) ينظر: مقال الأستاذ عمر الصديق عبد الله: "أضواء على أوضاع المسلمين واللغة العربية في جنوب أفريقيا" مج2/ 952، من كتاب: الأقليات المسلمة في العالم، ظروفها المعاصرة، ط/ 1420هـ 1999م، دار الندوة العالمية للطباعة، السعودية.

(3) مجلة العربي ع239، ص: 49، مرجع سابق.

(4) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 2، مرجع سابق.

إلاّ أنّ أشهر مؤسسات التعليم العربي الإسلامي وفقًا لأحد الدعاة يتمثل في المعهد الإسلامي في ودترفال، ومعهد السّلام في ناتال، ومعهد دراسات الشريعة الإسلامية، ومعهد دار العلوم في نيوكاسل، وفي ترانسفال[❖]، وأزادفيل، ومدرسة أنصار السنة في منطقة نيوكاسل، إضافة إلى شعب وأقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كل من جامعة ديربان، وجامعة غرب الكاب[1]، كما أن في جوهانسبرج جامعة مفتوحة تعتمد على المراسلة في دراستها، وتنظيم الامتحانات لطلابها، ودراسة اللغة العربية جزء من برامجها الدراسية، ويقال أن هذه الجامعة: «قد أسدت للمسلمين خدمة كبيرة، إذ أصبح المنتمون إليها قادرين على قراءة الكتب العربية وإن كان نطقهم غير جيد[2]، وعن الجهود الصادقة التي بذلتها الجالية المسلمة في هذا الصدد يقول الدكتور النجار: «استطاعت تلك الجالية أن تبني عشرات المدارس والمعاهد الإسلامية، وأن تنشئ قسمًا للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة دربان وستفيل، وأن تنتزع من الحكومة الطاغية حق تدريس الدين الإسلامي لأبنائها الذين يتعلمون في المدارس الحكومية، وأن تحتضن من لا تتاح لهم تلك الفرص في مدارس مسائية لتعليم الإسلام واللغة العربية»[3].

والظاهر أن العادة قد جرت في جنوب أفريقيا بإلحاق مدرسة بكل مسجد لغرض تعليم الناشئين اللغة العربية وشيئًا من القرآن الكريم.

وقد سجل لنا الدكتور النجار في زيارته لجنوب أفريقيا ما يعكس اهتمام مسلميها بحفظ القرآن الكريم والحرص على تحفيظه لأبنائهم، حيث أقيمت مدرسة إسلامية

---

(1) ينظر: التقرير الوارد بعنوان "دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا" ص: 2، مرجع سابق.

(2) الدكتور عبدالجليل شلبي: "الإسلام في جنوب أفريقيا" مجلة الأزهر ج10/ 1116، س: 61، 1409هـ 1989م.

(3) العربي... ع: 239، ص: 49، مرجع سابق.

(❖) ناتال، من أصغر المقاطعات في جنوب أفريقيا تقع على الساحل الشرقي بمحاذاة المحيط الهندي. يقيم فيها كلّ من المجموعات السكانية لجنوب أفريقيا بنسب عددية متفاوتة، يشكل للسود منهم نسبة 83٪ معظمهم من الزولو، وهي منطقة زراعية خصبة ذات أمطار كافية، ومناخ دافئ، ج35، ص: 10 16. ط3 من الموسوعة العربية العالمية. وأما ترانسفال: تقع في أقصى الشمال الشرقي للبلاد، وللمقاطعة حدود سياسية مع بوتسوانا وزمبابوي وموزامبيق، تعد هذه المقاطعة مركزًا للأنشطة الصناعية في جنوب أفريقيا، معظم سكانها من الأفارقة الأصليين، وهي مقاطعة غنية ومتنوعة النشاط الزراعي وتحتوي هذه المقاطعة على معظم ثروة جنوب أفريقيا من الذهب والألماس واليورانيوم والنحاس والفحم الحجري، ينظر: ج6/ 191 193، ط3. المرجع نفسه.

على مقربة من بريتوريا ينتظم فيها أكثر من مائة طالب بين الحادية عشر والتاسعة عشرة «يحفظون القرآن حفظًا كاملاً، ويتلونه تلاوة جيدة. والمدرسة مقامة على مزرعة كبيرة أوقفها أحد المسلمين على العمل الإسلامي، وهي مدرسة يقيم فيها الطلاب والمدرسون والإداريون، ويحيون فيها حياة إسلامية كاملة، والمدرسة مهيأة بجدارة لأن تكون نواة لجامعة إسلامية تضم آلاف المجلدات، ولها من الإمكانيات ما يجعلها مركز إشعاع إسلامي بالمنطقة»(1).

هذا، ولدفع المؤسسات التعليمية وتنظيمها جيّدًا تم تأسيس المنظمة الإسلامية التعليمية بجنوب أفريقيا التي أنشئت عام 1985م، وكانت تسعى لفتح مدرسة ثانوية خاصة للبنات في مدينة دربان، وأرى أنّ تأسيس هذه المنظمة التعليمية قد جاء في وقته المناسب، حيث ستعمل على تزويد حركة التعليم الإسلامي في جنوب أفريقيا بروح جديدة، وتعميم فرص التعليم على الجنسين رجالاً ونساءً من غير احتكار؛ إذ المعرفة في الإسلام حق طبيعي لكل إنسان وهو ما لا يتأتى لها القيام به على أكمل وأحسن وجه دون أن يتوفر لها وفيها شرط الكفاءة اللازمة، وفي القائمين عليها عامل الإخلاص، ودافع حب العمل الإسلامي.

وبفضل ما تبذله المساجد والمؤسسات التعليمية من جهود وخدمات فإن مظهراً آخر من مظاهر التمسك بالدين والحفاظ عليه يتمثل في:

ب)- **الإقبال الجماعي على أداء فريضة الحج**: سنويًا تصل مئات من أفراد هذه الأقلية المسلمة إلى الأراضي الإسلامية المقدّسة لأداء فريضة الحج جنبًا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين القادمين من شتى أصقاع العالم، ومن كل فج عميق، في موسم تلتقي فيه الأمة الإسلامية للعبادة، ربّما في مشهد عالمي رائع، وتجمع إنساني بديع. ومسلمو جنوب أفريقيا في معظمهم يتطلّعون بأمل فائق إلى نيل شرف أداء هذه الفريضة المكملة لأركان الإسلام، وإن كان قليل منهم هم الذين يوفقون لذلك، بسبب التكاليف المادية

---

(1) مجلة العربي، ع/ 239/ ص: 49 سبق ذكره.

الباهظة التي لا تتوفر لعدد كبير منهم، ومن سائر المسلمين كذلك ممن يقيم في ديار بعيدة عن الحرمين الشريفين. ومع ذلك فقد بلغ الحجاج القادمين من جنوب أفريقيا في يوم عرفة من عام 1368هـ الموافق 1978م حوالي (596) خمسمائة وستة وتسعين شخصًا[1]، على الرغم من المشقة وطول المسافة، وضيق الباع[2].

ج ـ السعي الاجتماعي والسياسي لتقنين التشريع الإسلامي في قضايا الأحوال الشخصية: يبذل مسلمو جنوب أفريقيا اجتماعيًا وسياسيًّا قصارى جهدهم في اعتماد وتطبيق تعاليم الشرع الإسلامي بشأن قضايا الأحوال الشخصية، من زواج وطلاق، وعدة وإرث وغيرها، إذ يصرون من الناحية الاجتماعية على ضرورة التزاوج داخل النطاق الإسلامي، ويتفادون قدر الإمكان الزواج مع المخالفين لهم في الدين، كما يجري العمل على توثيق عقود الزواج باستيفاء أركانه طبقًا لشريعة القرآن[3]، وفرض عدتي الطلاق والوفاة على المطلقات والأرامل كما هو منصوص عليه في الإسلام.

ومن جهة أخرى، ينشط بعض المسلمين سياسيًا في محاولة «تأسيس رأي إسلامي موحد في المسائل القومية، وفيما يخص التشريع في قضايا المسلمين بشأن الزواج والميراث وغيرها من القضايا الإسلامية لوضعها في عملية صياغة دستور جنوب أفريقيا»[4].

وفي ظل التعددية السياسية القائمة ف البلاد فإن الأمل معقود على تحقق الكثير من المطالب التشريعية التي يحملها جزء من النشاط الإسلامي لمسلمي جنوب أفريقيا اجتماعيًا وسياسيًا.

د)ـ التطلع الدائم إلى التواصل مع مسلمي العالم الخارجي: انطلاقًا من الكتابات القليلة عن مسلمي جنوب أفريقيا يلمس المرء فيهم رغبة عارمة في التواصل

---

(1) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 210، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلة التربية الإسلامية ع6، ص: 64/ س 21/ 1399هـ 1978، بغداد العراق.

(3) ينظر: المسلمون في العالم، ص: 239، مرجع سابق.

(4) من تقرير: دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 5، مرجع سابق.

مع إخوانهم المسلمين في كل مكان، وذلك شعوراً بالانتماء الديني المشترك، وتوثيقاً لروابط الأخوة التي تجمع بين كافة المسلمين تحت مظلة الأمة الإسلامية الواحدة.

ويندرج تحت هذا الدافع ما تقدم من حديث عن فيضان العمل الإسلامي من جنوب أفريقيا نحو المحيط الاقليمي. وقد جاء في حوار مع الدكتور غلام محمد حسين الرئيس السابق للجمعية الطبية الإسلامية ما يؤكد ذلك بقوله: «لدينا علاقات طيبة بمسلمي موزامبيق... وقد عقد مؤخراً مؤتمر يضم ممثلي المسلمين في تسع دول أفريقية منها جنوب أفريقيا وموزامبيق، وسوازيلاند وسويتو وناميبيا لتدارس مشاكل المسلمين، هذا المؤتمر يعقد كل عامين»[1].

وفي سياق التأكيد على هذا التعطش إلى التواصل، يحكى أن كبار التجار من مسلمي جوهانسبرج من الهنود يؤدون زكاة أموالهم إلى الجمهورية الإسلامية في إيران، وربما كان ذلك لتشيعهم، كما أنهم يبعثون منها إلى محاربي أفغانستان[2] تعاطفاً خالصاً معهم فيما أرى.

إن مسلمي جنوب أفريقيا مشبعون بروح التحمس لقضايا الأمة، وتحدوهم الرغبة الجامحة إلى المشاركة الفعلية والوجدانية لأمة الإسلام في قضاياها المصيرية، ومواقفها النضالية، وتعبيراً عن ذلك فقد خرجت جموع غفيرة في مظاهرة احتجاج ضد القصف الأمريكي لأفغانستان فيما بثته قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ 11/ 10/ 2001ف، وقد علت أوساط هذه الجموع هتافات التوحيد والتكبير منبعثة من قلوب صادقة، لعدد كبير من الرجال والنساء، ومن مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية، وحتى العجائز كان لهنّ حضور ملحوظ، وكانت هتافاتهم مصحوبة بإطلاقات قوية للأيدي رامزين بذلك إلى الاستمرار في الكفاح والمقاومة، وشدّ الأزر، كما كان تأييدهم للموقف الإسلامي بشأن قضية فلسطين المحتلة في مؤتمر دربان التاريخي من المحلّ الذي لا ينكر. ومن أمثلة تحمسهم لها أنه عقب ندوة مشتركة كان

---

(1) المسلمون في طليعة النضال ضد التفرقة العنصرية، مجلة لواء الإسلام، ع2، ص: 31، س42، عام 1407هـ 197م.

(2) د: عبد الجليل شلبي: "من حديث الإسلام في جنوب أفريقيا" ج7، ص: 798، عام 1409هـ 1989م.

الشيخ ديدات أحد طرفيها عن قضية الصراع القائم بين المسلمين واليهود في فلسطين تقدم أحد المسلمين في جنوب أفريقيا سائلاً: «هل يتعين علينا كمسلمين بجنوب أفريقيا أن نذهب إلى فلسطين ونقاتل مع إخواننا وأخواتنا العرب المسلمين في فلسطين؟ أخبرنا ما يحسن أن نفعله وقد فاضت نفوسنا انفعالاً وتأثرًا بما عرفنا عن القضية»[1]، وهذا مثال من كثيرة يعبّر عن روح جماعي أكثر من أي موقف فردي، ومع كلّ ذلك فإنّ العالم الإسلامي ظلّ وإلى وقت قريب مبتور الصلة الفاعلة، وفاقد الاهتمام الرسمي بمسلمي جنوب أفريقيا إلا ما ندر من اهتمامات فردية وطائفية تسجل لأصحابها، وعن أعزّ أمانيهم في التواصل فإنهم حريصون على أن تكون حبالهم دائمًا موصولة مع العالم العربي، وهو ما لمسه أحد الزائرين فسجّله بقوله: «وعما يتمناه مسلمو جنوب أفريقيا من العالم العربي فهو الإحساس بهم والتواصل معهم روحيًا، فهم في غنى عن المساعدات المادية»[2].

إنّ مسلمي جنوب أفريقيا يرقبون عن كثب تطورات الحياة في المجتمعات الإسلامية، ويتابعون بدقة وعناية معظم أحداث العالم الإسلامي في شتى المجالات وبتفاصيلها، وإن كان يغلب عليهم التفاعل مع ليبيا ومصر والسودان والسعودية ودول الخليج في عمومها.

والملاحظ أنهم قد وجدوا في الجماهيرية من خلال جمعية الدعوة الإسلامية العالمية إشباعًا لهذه الرغبة في التواصل والمساندة القوية، امتدادًا لموقف الجماهيرية التاريخي في دعمه اللامحدود لحركة التحرير في بلادهم. حيث إن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية قد قامت بتنظيم مؤتمرات وملتقيات متعددة في جنوب أفريقيا، من أبرزها تنظيم المؤتمر العام الأول للشباب الأفريقي المسلم في مدينة دربان بالتعاون مع

---

(1) أحمد ديدات؛ العرب وإسرائيل شقاق.. أم وفاق"، ص: 70، تعريب علي الجوهري، ط دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

(2) الدكتور: محمد المخزنجي: "جنوب أفريقيا ماذا يدور في رأس العواطف، مجلة العربي، ع: 412، ص: 46، عام 1993م.

حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا تحت شعار «دور الشباب الأفريقي المسلم في التنمية» شارك فيه 120 مندوبًا من رؤساء الاتحادات والمنظمات الشبابية المسلمة في أكثر من 27 دولة من مختلف أنحاء أفريقيا، وقد استمر لأربعة أيام متواصلة، ناقش فيه المشاركون جملة من الموضوعات الهامة، وعدداً من القضايا المركزية تتصل بحقوق الإنسان، والديمقراطية والهوية، ومستقبل الشباب المسلم، وواقع المسلمين دوليًا، والإسلام في أفريقيا بين التاريخ والواقع المعاصر، ومكانة المرأة في المجتمع الأفريقي المسلم، وقد كان للمرأة المسلمة حضور إيجابي فاعل في أعمال هذا المؤتمر التاريخي الذي له أهميته البارزة وله ما بعده.

على أنه مسبوق بملتقى عام للشباب المسلم في جنوب أفريقيا، ساهمت الجمعية في إقامته قبل وقت وجيز من المؤتمر الذي مر ذكره، وكان الهدف الذي من أجله انعقد الملتقى يتمثل في الاهتمام بالشباب المسلم، ومواجهة الحملات التنصيرية، والغزو الثقافي، التي يتعرض لها الشباب، خاصة في أفريقيا، إيمانًا بأهمية الشباب ودوره المصيري[(1)].

إضافة إلى هذا، قامت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مشكورة بتعيين عدد من الدعاة المحليين في جنوب أفريقيا، وابتعثت بعض الأفراد من خريجي كلية الدعوة الإسلامية التابعة للجمعية للعمل الإسلامي في تلك البلاد، كما أنها لم تدخر وسعًا في تقديم ما يحتاج إليه المسلمون والعمل الإسلامي من مساعدات كريمة.

وإلى جانب هذا الاهتمام الدقيق من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تقوم لجنة مسلمي أفريقيا الكويتية بدورها كذلك في العمل الإسلامي هناك، وقد قامت هي الأخرى بإنشاء مسجد ومركز من أجل تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم[(2)].

ولئن كان مسلمو جنوب أفريقيا قد تطلعوا بأمل فائق ولسنوات عديدة مديدة إلى المزيد من التواصل والارتباط الأخوي الروحي بالعالم الإسلامي، من جانب، وخلق

---

(1) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية كلاً من العدد 714 بتاريخ 7 جمادى الآخرة لعام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ، والعدد 724 بتاريخ 19 شعبان من العام نفسه.

(2) ينظر: مجلة العربي ع 497، ص: 49، مرجع سابق.

الشعور بالإحساس بهم في المسلمين من جانب آخر فإن رياح التغيير السياسي التي هبت في البلاد وعصفت بأوضاعها البالية، قد عملت لصالح قضيتهم، ولبّت طموح الأجيال السالفة والصاعدة في ذلك إلى حد بعيد، حيث إن الرئيس مانديلا نفسه رغم مسيحيته قد أبدى تشجيعه لهذا النوع من التواصل، ولم يتوان قطّ في التعبير عن حق مسلمي جنوب أفريقيا في ذلك كلّما اقتضى موقفه الخطابي شيئًا من هذا القبيل. وكان مما قاله في نقل مرئي مباشر حين حضر احتفال مسلمي البلاد بعيد الفطر المبارك: «...الآن جنوب أفريقيا حرة، فإنّ تلك الروابط التي للجماعة الإسلامية مع بقية أجزاء قارتنا تستطيع أن تنعش وتنمي أمتنا بدون قيد أو تشويه»[1].

إذن؛ من خلال ما تقدم، حُقّ لنا أن نؤكد أن الجالية المسلمة في جنوب أفريقيا مشدودة شدًا متينًا إلى العالم الإسلامي، مهتمة بقضاياه، متطلعة إلى تضامنه وتفاعله، متابعة عن كثب أحداثه وتطوراته، وكل ذلك من منطلق تمسكها بدينها وحرصها على هويتها، وهي «تبذل أقصى ما تستطيع في سبيل العيش بالإسلام في دقائق حياتهم أفرادًا وجماعات، وتربية أبنائهم على هذا الدين القيم وحمل نوره إلى الملايين الضالة من البشر حواليهم، ومقاومة الظلم الذي يتعرضون له»[2].

وقد شهد لهذه الجالية بالدعوة والحفاظ على الهوية من قال في حقها: «تقوم بدور بارز وملموس في نشر الإسلام والحفاظ على الهوية الإسلامية في تلك المناطق»[3]، وهذه الأقلية النشطة من أمّة الإسلام في جنوب أفريقيا تعدّ دعمًا قويًا ومهمًا لقضايا المسلمين في بلادها، ولو بالمقاييس السياسية على الأقل.

ومما لا يتطرق إليه الشك أن لصوت الإسلام اليوم في جنوب أفريقيا دويًا هائلاً، وحسابًا كبيرًا، وقد انتزع الإسلام لنفسه هذا الوزن والاعتبار بفضل الله أولاً، ثم

---

(1) من خطاب مانديلا في صحيفة الدعوة الإسلامية، ع 579، بتاريخ 7 شوال، 1428 و. ر. طرابلس.

(2) مجلة العربي ع: 239، ص: 50، مرجع سابق.

(3) د. عبدالعزيز راشد العبيدي: "وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا" ص: 46، من مجلة دراسات أفريقية، ع: 6؛ لعام 1420هـ 1990م الخرطوم.

بفعل قلة قليلة من دعاته المخلصين ممن توفّر لديهم أمل كبير في العمل، فشكلوا بذلك قوة دافعة للعمل الإسلامي في تلك البلاد التي يبشر وضعها الحالي بخير كثير من منظوره الدّعوي. وذلك انطلاقًا من أهمية اغتنام الفرص السانحة في هذا الظرف الجديد الذي تشهد فيه حركة انتشار الإسلام نموًا متصاعدًا، وهذا لا ينفي قيام تحدّ حقيقي وتنافسٍ محموم بين الدعوة والتنصير في كسب من قيل عنهم: «وليس بين الزولو مسلمون إلاّ أن يكون أفرادًا عرفوا الإسلام، وليسوا أيضًا نصارى جميعًا»[1].

وما من ريب في أن مجتمع جنوب أفريقيا وبخاصة الوثنيين منهم في شوق ولهفة لتلقف الإسلام بعد سنوات الكفاح الطويل، والمعاناة المضنية، فهم أحوج ما يكونون إلى من يعمل بجدٍ وإخلاصٍ لانتشالهم من وهدة الضلال التنصيري، وتحريرهم من براثن الوثنية، وهذا يعني شيئًا مهمًا جدًا بالنسبة لمن صدقوا ما عاهدوا الله عليه من دعاة الإسلام.

ومن حسن الحظّ وسعادته أن الله مهد لهذا الأمر، فهيأهم لقبول الإسلام، بأن «توفّرت لهم قلوب رقيقة تبحث عن يقين روحي لها لا يحمله الرجل الأبيض، والإسلام هو الدين المؤهل للعب هذا الدور، وقد لمسنا بعضًا من هذا الشغف في مدينة السود، بالقرب من كاب تاون»[2].

هذا ومع قيام هذه الفرص الثمينة المغرية، فإن هناك حقيقة جملة من التحديات التي تهدد وجود المسلمين وتعمل على تعويق العمل الإسلامي، إلى جانب طائفة من المشاكل التاريخية والواقعية يعيشها مسلمو جنوب أفريقيا بمالها من تأثيرات جدّ سلبية على حياتهم، ونشاطهم الإسلامي.

ولخطورة تلك التحديات والمشاكل؛ فلابد من الوقوف عندها طويلاً لدراستها وعرضها على ذوي الشأن والمسؤولية، كي تعرف طريقها عاجلاً إلى الحل والزوال،

---

(1) د. عبدالجليل شلبي، من حديث الإسلام في جنوب أفريقيا، مجلة الأزهر ج: 8، ص: 896 من 61، مرجع سابق.

(2) رأس الرجاء الصالح هل أصبح صالحًا، العربي ع: 497، ص: 149.

فنكون بذلك قد بلّغنا الرسالة، وأدّينا الأمانة، والله من وراء القصد.

2 ـ تحديات تهدد العمل الإسلامي ومشكلات تعكّر صفو حياة المسلمين في جنوب أفريقيا:

ليس مما نطمع فيه الإحاطة هنا بجميع تلك التحديات والمشكلات، فهي أوسع من أن يستوعبها جزء من مباحث رسالة لها قضيتها وموضوعها الرئيس، فكل ما نرمي إليه في هذا الشأن هو الوقوف على أبرز تلك القضايا الخطرة من تحديات ومشكلات متعددة، ويأتي في صدارتها ما يلي من تحديات مثيرة:ـ

أ)ـ **تحديات المحيط الثقافي**: من المعلوم أن مسلمي جنوب أفريقيا يعيشون في محيط اجتماعي حافل بالمعتقدات والانتماءات، يمثل هذا المحيط خليطًا من الأجناس والعناصر المختلفة في ثقافتها وتصوراّتها، مما أوجد مضطربًا فسيحًا من الأفكار، والفلسفات، يحاول أتباع كل منها جذب الآخرين إلى معسكرهم الذي ينتمون إليه، ولكن مع هذا التنوّع الفكري الثقافي، يصدق القول: بأن الطابع الغالب على الحياة في هذه البيئة هو طابع المدنية الغربية بروحها المادّية، والتي تفرض كيانها بشتى الأساليب والوسائل المادّية بصرف النظر عن شرعيتها أو إنسانيتها.

وتكريسًا لهذا الطابع التغريبي تعمل جملة من المؤسسات الثقافية والتربوية، باستخدام الوسائل العلمية والإعلامية للتمهيد والترويج لتلك القيم الغربية الغريبة، ونشر الأنماط السلوكية والعادات الاستعمارية الوافدة[1].

وبذلك تعيش الأقلية المسلمة في واقع قلق، مُستهدفةً ممن حولها من القوى المضادة والتيارات النشطة المدعومة، والتي تتربص بها الدوائر وتحاول أن تفرض عليها نمطًا من التصوّر للحياة، يقوم على الانسلاخ عن الدين، وعزله عن واقع الحياة الفاعلة، للعيش وفق الطريقة العلمانية التي هي نتاج ظروف خاصة بالغرب، ولها أسباب تاريخية معروفة.

(1) ينظر: أحمد ديدات، حياتي، ص: 159، مرجع سابق.

وفي مواجهة ثقافية غير متكافئة بين الأقلية المسلمة، ومحيطها الثقافي تظل عمليات التوعية الدائمة والمكثفة، وتعميق الانتماء الديني، والحفاظ على الهوية الإسلامية في وسط يعاني من أزمة الهوية، حتميات لابدّ منها ضرورة لا اختياراً؛ لمواجهة ما تتقاذفه تيارات هذا المحيط المتلاطم من تحدّيات ثقافية تلاحق الأقلية المسلمة في مختلف الدوائر، وفي كافة مجالات الحياة اليومية.

لئن كان الدكتور محمد عمارة قد أثار من خلال عنوان أحد كتبه سؤالاً كان مهما في حينه، مفاده: «الغزو الفكري حقيقة أم وهم؟» فقد بات جليا لعامة المسلمين اليوم أنه حقيقة لا مراء فيها، وأنه واقع مؤكد مشهود تتعرض له الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا، والتي ترى في مجابهتها لموجات الغزو الفكري، أن المسألة تندرج في عداد الصراع من أجل الوجود، والدفاع عن الهويّة والحياة المسلمتين.

وعلى الرغم من مخاطر هذا التحدي الثقافي على الشخصية المسلمة في جنوب أفريقيا وفي غيرها، فإنه يشكل من جانب آخر مبعث تفاؤل للعمل الإسلامي والقائمين عليه، إذ يعكس فراغًا روحيا عميقًا وفقراً مدقعًا إلى القيم القرآنية النبيلة الأصيلة، الأمر الذي يضع المسلمين أمام مسؤولية تاريخية كبيرة وخطيرة، وقد ظهر وتأكد لكافة العقلاء وذوي الضمائر الحية ترشح الإسلام أكثر من غيره لتعمير هذا الفراغ الروحي القاحل القاتل.

ب ـ النشاط التنصيري المحموم: تعصف أجواء جنوب أفريقيا بأعاصير حركة تنصيرية حاقدة على العمل الإسلامي، ومعادية للمسلمين. وتعود الجذور التاريخية للحركات التنصيرية، في الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية إلى فترات التوسع الاستعماري في بداياته الأولى، وذلك عندما قام البرتغاليون بإنشاء مراكز للتبشير في كل من ساحل الذهب، ومصب نهر الكونغو إثر عملية اكتشافهم للسواحل الأفريقية[1]، وقد وجدوا في اعتناق ملك الكونغو للدين الكنسي عام 1491م حافزاً قويا ليس للاستمرار في نشاطهم فحسب، وإنما في توسيع نطاقه كذلك ليشمل كافة الدول

(1) ينظر: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص: 30، مرجع سابق.

والشعوب الأفريقية، وإن كان جنوب أفريقيا أسوأ حظّـًا من غيره في هذا الشأن، إذ تم التركيز عليه بشكل لا يتصور، ولا وجه لمقارنته بغيره من مناطق القارة، وإلى هذا الثقل التنصيري الذي تنوء به البلاد، وترزح تحت وطأته، أشار الشيخ ديدات بقوله: «إن جنوب أفريقيا بحر من المسيحية، وإن كانت ليبيا تفخر أن بها أعلى نسبة من المسلمين في قارة أفريقيا؛ فإن جمهورية جنوب أفريقيا بها أعلى نسبة من المسيحيين»[1].

وإن مما يميز هذه النسبة العامة من المسيحيين تفجرهم حقداً وغيظًا على الإسلام والمسلمين لشدة تعصبهم البغيض وهو ما يؤكده قول الشيخ: «أنتم تعرفون الجانب الآخر لجنوب أفريقيا من العنصرية هناك. ولكن فيما يتعلق بالدين؛ ... هم مسيحيون متشددون جداً»[2].

هذا.. وتزخر البلاد بكم هائل من الإرساليات التنصيرية ذات مرجعيات متباينة دينيًا وسياسيًا، ولكن يجمع بينها التعاون والتنسيق تحت غطاء مجلس كنائس جنوبي أفريقيا[3]، وهذا الجزء من أفريقيا لما به من إرساليات لا حصر لها يشكل المحور الأساسي ومركز الثقل للنشاط التنصيري في القارة الأفريقية برمتها. لأنه مدعوم ماديا ومعنويا من الدول الغربية من أجل مزيد من التوسع والتمكن، تحقيقًا للمصالح الغربية في توسلها بكافة الطرق الملتوية لإبقاء القارة وشعوبها تحت هيمنتها، ولما كان المسلمون ممن يصعب مراسهم ولا يسهل انقيادهم لغيرهم، فالبعثات التنصيرية دائبة على تخصيص أكبر جزء من نشاطها وإمكانياتها لتنصيرهم، باذلة في سبيل ذلك الأموال الطائلة، مستخدمة شتى الوسائل الإعلامية، توصلاً إلى الهدف الاستعماري المغرض، والواقع أن جهودها الجبارة قد أسفرت في القارة الأفريقية عن نتائج مؤسفة ومقلقة لكل مسلم غيور على دينه، يجد المرء مرارة بالغة في الاعتراف بها؛ إذ «أدى نشاطها هذا إلى إعاقة سير الإسلام وانتشاره وذلك بسبب الهجمات الضارية التي تشنها على الإسلام، أضف إلى

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: المسيح في الإسلام، ص: 10.

(2) د. أحمد حجازي السقا: "المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان" ص: 147، مكتبة زهران، القاهرة، 1409هـ198م.

(3) عبدالقادر سيلا: المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، ص: 15، ط1/ 1406هـ ع12، ينظر: من سلسلة كتاب الأمة، قطر.

ذلك سكوت المسلمين وتقاعسهم عن مواجهة هذا الخطر الداهم»[1].

إن الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وفي أفريقيا عامة تخوض معركة مصيرية ضد الحركات التنصيرية التي دخلت حلبة هذا الصراع المرير بكلّ طاقاتها المادية والمعنوية والأساليب الدعائية، وقد عبر قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية العقيد معمر القذافي عن هذه الحقيقة المؤلمة في إحدى مقولاته بـ«أن الإسلام في أفريقيا في خطر، ويواجه حربًا صليبية، وكذلك الإسلام في المشرق العربي».

وفيما يخصّ مسلمي جنوب أفريقيا من هذا التحدي الذي يستهدف وجودهم، ويسعى لانتزاعهم من سياقهم الإسلامي انتزاعًا مشوهًا، واجتثاثهم عن دينهم وهو غاية وجودهم، وأكرم هدف لحياتهم، ما يلاحظ على سبيل المثال في مدينة الكاب من «تعاون وثيق بين الكنيسة الهولندية التبشيرية وكنيسة التحدي مدى الحياة التي أنشئت في عام 1976م على يد جير هارد نهيس بغية العمل التبشيري بين المسلمين، والتحدي مدى الحياة حريصة على تزويد الكنائس بالمعلومات المتوفرة والمطبوعات التي تحثها على مزيد من التبشير بين المسلمين»[2].

ولعل الوقوف على العدد التقريبي للجماعات والإرساليات التنصيرية في جنوب أفريقيا وعن حملاتها الحامية، كفيل بتزويدنا بصورة واقعية عن حقيقة هذا التحدي التنصيري الذي يتهدّد المسلمين والنشاط الإسلامي في هذه البلاد، ومن ذلك ما ورد في قول الشيخ ديدات: «إن أعمال الإرساليات التبشيرية في هذا البلد تجري على قدم وساق بكل الوسائل المتوفرة لديها، . . أما مراكز التبشير فإن البلد كله مركز التبشير ومع أن هناك أكثر من ألف طائفة وفرقة من البيض، وأكثر من ثلاثة آلاف طائفة وفرقة من السود، فإنّ الإرساليات قد نجحت في إيصال كتبها إليهم جميعًا»[3]، ومن

---

(1) معوقات انتشار الإسلام في أفريقيا، ص: 92، مجلة حضارة الإسلام 64، س: 8، 1387هـ 1967م، دمشق.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 160 161، مرجع سابق.

(3) الشيخ ديدات: "المسلمون والتحديات التي يواجهونها في جنوب أفريقيا"، ص: 31، مجلة الأمة ع1، س: 1، 1401هـ 1980م.

الأساليب الدعائية المضللة التي لا يستنكفون عن اللجوء إليها في محاولاتهم العملية توزيع نشرات خادعة توهم عناوينُها بأنها إسلامية، ونسبة تأليف بعض أدبياتهم الدعائية إلى عناصر مسلمة إيحاءً لضعاف العقول بأنهم ارتدوا عن الإسلام وتنصروا، فكتبوا عن روائع ومزايا النصرانية منتقدين الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك كتاب منتحل بعنوان لماذا تنصرت؟ وينسب لمسلم متنصر يحمل اسم محمد!! وهو منه بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وتتوفر لدى الإرساليات عدد من المنشورات الدينية في شكل كراسات وكتيبات موجهة إلى المسلمين في جنوب أفريقيا مثل: سلسلة التوجيه الصحيح، وهي من تسع كراسات منشورة بواسطة مطبعة الإرساليات الإنجليزية في جنوب أفريقيا، تضاف إليها سلسلة «من إرسالية المسيح إلى المسلمين في جنوب أفريقيا»، وتتكون من ست عشرة كراسة وعدد من الكتيبات، وكتاب الرب في الإسلام والنصرانية المنسوب إلى مسلم صوفي متنصر كما يزعم[1].

وقد بلغ بهم التحدي في جنوب أفريقيا أشده إلى أن طبعوا كتاباً تنصيريا على نسق المصحف، يبدأ كل قسم منه بالبسملة وينتهي بأرقام على غرار الآيات القرآنية، وهذا الكتاب في مضمونه ينتقد الإسلام ويفتري عليه، ساعيًا إلى تضليل العامة من المسلمين بدعوى دعوتهم إلى نور الإنجيل، وبالأخص منهم من لا يفقهون جيّداً الفرق بين القرآن الكريم وغيره، وعن هذه المحاولة الماكرة الفاشلة يقول ديدات: «ولقد حاول البعض تقليد القرآن الكريم، فاستعاروا الجمل والكلمات وحاولوا تقليد الأسلوب، حتى بسم الله الرحمن الرحيم أخذوها محاولين أن يخرجوا كتاباً مقدساً على طريقة القرآن، ولكن هيهات. إن هذه المحاولة برهان آخر على أن القرآن لا يمكن مضاهاته، حاول ما شئت لكن التحدي يظل قائماً»[2].

هذا.. وتأتي زيارات بابا الفاتيكان المتكررة لجنوب أفريقيا والتي لا تقل عن أربع

---

(1) ينظر: التنصير خطة الغزو والعالم الإسلامي، ص: 523، 529، 578، المتضمن مجموعة أعمال كلورادو التنصيري.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص: 112، ت: علي عثمان، من منشورات دار المختار الإسلامي، القاهرة، مصر.

مرات دعمًا وتتويجًا لهذه الجهود التنصيرية الواسعة في نطاقها وإمكانياتها. وعن البعد التنصيري لهذه الزيارات، وأثرها يقول أحد المسلمين من جنوب أفريقيا: «... لقد زار البابا جنوب أفريقيا أربع مرات، وهذه الزيارات يحدث منها تموجات إيجابية في نشاط التبشير، أفما كان ينبغي أن يزورنا شيخ الأزهر مرة واحدة، فزيارته تبث في حياتنا الدينية نشاطًا، وقد توجه إليه أسئلة تقضي إجاباتها على الخلافات الكثيرة بين الأئمة، ثم تكون مقابلة لزيارة البابا»[1].

وبهذا الاعتبار تستوفي زيارة القائد معمر القذافي التاريخية لجنوب أفريقيا في الفترة ما بين 12 إلى 15 / 06 / 1999ف كامل مغزاها، وتلامس أعمق معانيها، وقد سجّلت في ذاكرة الأقلية المسلمة هناك تاريخًا لا ينسى، حيث روت في نفوسهم ظمأً قاتلاً طالما عانوا من وطأته، وبذلك شفى غليلهم، وارتفعت معنوياتهم، بأن كانت الزيارة بردًا وسلامًا في نفوسهم؛ لمسوا فيها صدق توجهات القائد وإخلاصه، فتفاعلوا معه ورحبّوا به أيما ترحيب، وإنّ ما أولاه القائد من عناية للمسلمين في تلك الزيارة، وما أعاره من اهتمام وحرص، للإطمئنان عليهم في مواقع ولقاءات متعددة، يجسد بحق ما يميز القائد القذافي عن غيره من اهتمام ساهر، ومتابعة دقيقة لكافة أبناء الأمة الإسلامية، وهو أمر ليس بكثير ولا مفاجىء ممن هو قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، والسباق إلى كل ما من شأنه أن يمكن للإسلام ويعزز مكانة المسلمين ووجودهم الفاعل في هذا العالم المتأزم.

ومن المعلوم في مخططات الحركة التنصيرية أن القارة الأفريقية، ولا سيما المناطق الإسلامية منها تحظى إلى جانب أندونيسيا المسلمة، منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين بالأولوية في برامج الهيئات التنصيرية، باعتبار أن أفريقيا تمثل في نظرهم قلب العالم ومركزه الجغرافي. وهو ما تشهد به كثافة الحملة على هذه القارة[2]، حيث تنفق

---

(1) معركة التبشير والإسلام، ص: 189، مرجع سابق.

(2) ينظر: حمزة مايقا: المجتمع الإسلامي بين ماضيه وحاضره ومستقبله، ص: 133. بحث مخطوط للفقير إلى الله، صاحب هذه الرسالة أعد عام 1996، طرابلس.

الولايات المتحدة الأمريكية سنويًا على الإرساليات التنصيرية حوالي 600 مليون دولار على الأقل، «ولقد ترتب على رصد هذه الأموال إعداد 104ألف من المنصرين بأفريقيا وافتتاح 489 مدرسة لاهوتية و2594 مدرسة ثانوية و83,900 مدرسة ابتدائية كما تملك الكنيسة في أفريقيا حوالي ستمائة مستشفى و93 جمعية للمرضى ذوي العاهات و265 ملجأ للأرامل وكلّها تعمل لخدمة التنصير وأهدافه، وهناك ست ملايين طالب مسلم يتعلمون في مدارس تابعة للكنسية بأفريقيا، هذا بالإضافة إلى التنصير عن طريق البث الإذاعي للأماكن الرّعوية التي لا يصلها المبشرون»[1] ومن غير مبالغة فإني أرى أن هذه الأعداد تمثل إحصائيات قديمة تجاوزها الواقع بالزيادة والمضاعفة، وذلك بحكم اطلاعي المتواضع على واقع الحركة التنصيرية في أفريقيا من خلال المعايشة والمتابعة الهادفة بكل اهتمام، وتمعّن.

ومن أغرب الأمور وأعجبها أن الإرساليات المسيحية المعاصرة، وهي تعوم في خضم حملاتها الجارفة لتنصير مسلمي القارة الأفريقية وسائر شعوبها، تسترخص كل غال ونفيس، للتحرر من أثقال ماضيها الملوث بالعمالة الاستعمارية، وممارسة التفرقة العنصرية، وتسعى بكل ما أبدعت من مكر وكيد لطمس تاريخها الخسيس الجالب للعار والنفور. فمن حيث العمالة الاستعمارية؛ من الواضح جدًا أن هذه البعثات التنصيرية: «لم ترسل من أجل مصلحة الأفريقيين، لأنها لو كانت مهتمة حقـًا بالمسيحية لكان حريًّا بها أن تبشر بها في بلادها ذاتها، في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول التي ينتشر الإلحاد العلني فيها انتشاراً واسعًا، والتي تتعرض فيها الكنيسة ورجالها إلى كثير من الإهمال واللامبالاة»[2]. وتأكيدًا لارتباط التنصير بالاستعمار وخدمته للأخير تقول الدكتورة زينب عبدالعزيز: «وإذا ما كانت الصلة بين الاستعمار والتبشير ثابتة لا يمكن إنكارها وإغفالها، بل إن بعض المراجع تطلق على الكنيسة عبارة «الشريك الكامل للإمبريالية الغربية» فإن أخطر ما يواكبها

(1) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 15، مرجع سابق.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 403، مرجع سابق.

فعلاً، هو عملية اقتلاع الهوية الحضارية»[1].

ومن هذا الجانب أيضًا فقد اتهمت مؤخرًا وزارة الشؤون الدينية الجزائرية جهات أمنية وعسكرية وسياسية غربية بالوقوف وراء حملة تنصير الجزائريين، والتي هي من صنع أجهزة استخبارات غربية ترمي إلى إطباق الهيمنة الدينية والسياسية على البلاد والمنطقة بعامة، وأكدت الوزارة الجزائرية أن هذه الحملة يتصدرها رهبان أجانب من دول أوروبية من ذوي خلفيات عسكرية واستخبارية، حيث عمل معظمهم في أجهزة أمن رسمية، كما حاز بعضهم رتبًا عسكرية عُليا، ويتضافر جهد هؤلاء جميعًا لتهديد وحدة الجزائر واستقرارها، تمهيدًا لعودة الاستعمار[2]، وفي أية صورة كانت.

وبسبب المهمة الاستعمارية، والأدوار السياسية للحركات التنصيرية، كانت اليابان لعهود طويلة متحفظة جدًا تجاهها، الأمر الذي قادها إلى غلق الجزر اليابانية لما لا يقل عن ثلاثة قرون في وجه البعثات التنصيرية، وذلك «لأن اليابان قد علمت آنذاك أن المسيحيين يخفون غرضًا آخر هو الانقلابات السياسية»[3].

وأما ممارسة الكنائس وإرسالياتها للتفرقة العنصرية في القارة الأفريقية فحدّث ولا حرج، عما ثبت تاريخيا في جنوب أفريقيا عن إرسالية الكنيسة الإصلاحية الهولندية التي كانت تبشر من خلال العهد القديم مركزة على فكرة الشعب المختار، قاصدة بها من يعرفون بالبوير، في البلاد، «وكان أتباع هذه الكنيسة يعتقدون أنهم هم الجنس المتفوّق بالبلاد، وأن غير البيض هم جنس من الخدم، وكانوا يعتقدون أن رسالتهم هي الحفاظ على الحضارة الغربية، الحضارة البيضاء»[4]. إلا أن من الإنصاف الإقرار بما ذهب إليه صاحب كتاب تاريخ جنوب أفريقيا في وجود إرساليات وشخصيات كانت مناهضة

---

(1) تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا. . ص: 97 ط1/ 1415هـ 1995م، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، مصر.

(2) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية ع747، ص: 1 بتاريخ 2صفر 1369 من وفاته صلى الله عليه وسلم، طرابلس.

(3) عبدالكريم سايتو: "وضع الأقليات والجاليات عمومًا والإسلامية خصوصًا. ." مجلة الأصالة، ع: 20، ص: 29، ص: 2، 1394هـ 1974م، الجزائر.

(4) تاريخ جنوب أفريقيا؛ ص: 76.

لسياسة التفرقة العنصرية مما أدى إلى نزاع بينها وبين البوير، وأرى أنه وإن وجد شيء من هذا القبيل فإنه يمثل عنصراً غريبًا وشاذاً في الجسم التنصيري مما يحفظ ولا يقاس عليه، إذ لا يشكل قاعدة مبدئية، ناهيك عن تبلورها في تيار مؤثر ومعتبر.

لذلك حين أقدم نظام الحكم العنصري في جنوب أفريقيا على سياسية العزل السكاني، فقد باركت الكنيسة وأتباعها هذه الخطوة المدانة «وقد بررت الكنيسة والجامعيون التابعون لمكتب جنوب أفريقيا للشؤون العنصرية هذه السياسة إما باسم تعاليم العهد القديم، وإما باسم مبادئ غيرية غير حقيقية»[1].

ومن الأمثلة الشاهدة على روح التفرقة والتعبير العنصري عند المنصرين ما حكاه الدكتور أحمد شلبي بقوله: «وقد حدث أن تزوج مبشر مسيحي كان يباشر عمله في أفريقية من إحدى الأفريقيات، ولكن هذا الزواج جعل المسيحيين البيض يضطهدونه ولا يتعاونون معه، فاضطر إلى مغادرة أفريقية... وخوفًا من أن يتكرر عمل هذا القسيس لجأ البيض إلى اختيار القساوسة الذين يعملون بأفريقية من أتباع المذاهب المسيحية التي لا تبيح الزواج للقساوسة»[2].

ولهذه المواقف وغيرها درجت الكنائس الشرقية القديمة على النظر إلى الكنائس التنصيرية نظرة قلقة ومريبة؛ إذ تعتبرها في أغلب الأحيان وكالات للمصالح الغربية تسعى لتنصير المسلمين من جانب؛ ولاستقطاب أتباع الكنائس الشرقية المحلية من جانب آخر[3]، وبالطبع فإن لهذه النظرة الموضوعية غير المستريحة ما يبررها غالبًا، وبهذا فقد شهد شاهد من أهلها وكفى الله المؤمنين القتال.

وبالمناسبة فإنّ من المهم بالنسبة للمسلمين استثمار هذا الموقف الشرقي الكنسي وتوظيفه في عملية تحالف مضادٍ ومواجهٍ للغارة التنصيرية، والتي ليس مما ينكر أنها قد

---

(1) شارل أندريه جوليان: تاريخ أفريقيا، ص: 137، ترجمة عوض أباظة.

(2) موسوعة التاريخ الإسلامي ج6/ 160، مرجع سابق.

(3) ينظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص: 555 556، مرجع سابق.

حققت - وللأسف - بعض النجاحات في عدد من الساحات المسلمة، وإن كانت محدودة وبنسبة ضئيلة، ولكنها خطيرة في كل الحالات.

وربما وجدنا في حالة موزامبيق التي ارتفعت نسبة النصارى في إحدى قبائلها المسلمة من 6% إلى 30% بسبب ما تعرضت لها من مجاعات وكوارث[1]، أحد النماذج البارزة الشاهدة على ذلك.

والإرساليات التنصيرية في أفريقية اليوم تبذل قصارى جهدها للتغاضي عن هذا التاريخ القاتم، وتعمل جاهدة لإسدال ستار النسيان عليه، بشتى الوسائل المغرية، وبكل ما أتيت من قوة وبراعة.

وإن مما يثلج الصدور، ويواسي مصابنا الجلل بشأن استسلام بعض البسطاء من المسلمين للعواصف التنصيرية العنيفة، أن نخبة قيادية واعية، تنسحب من صف الجبهة التنصيرية يومًا بعد يوم، لتلتحق بالمعسكر المسلم بإشهار إسلامها، وإعلان انتمائها للأمة المسلمة، وهذا الإجراء يشكل ظاهرة متواصلة الحلقات تقع من حين لآخر على مستوى القارة الأفريقية ككل. وهو ما دفع فيما أظن بالدكتور عبد الرحمن الماحي إلى التعبير عن رؤيته المتفائلة لواقع العمل الدعوي بقوله: «وعلى الرغم من تعدّد المعوقات للدعوة الإسلامية وتوافر وسائل الإغراء في يد أعدائها. فإن الإسلام يشق طريقه بخطى ثابتة، ولم تفلح النصرانية في اللحاق به، حيث لم تكتف باكتساب الأحيائيين، بل نجح في جذب بعض من ارتموا في أحضان الكنيسة، فمن الواضح أن الإسلام اليوم ينتشر بشكل مطرد في أفريقية»[2].

نعم... يصح هذا القول إلى حدٍ ما في بعض أجزاء القارة الأفريقية، وقد سبق أن أصدرت جامعة أكسفورد موسوعة علمية أسهم في إعدادها أكثر من خمسمائة خبير في الأديان تتضمن دراسة إحصائية حول الأديان، استمر العمل فيها حوالي أربع عشر

---

(1) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر: ص: 18، مرجع سابق.

(2) الدعوة الإسلامية في أفريقيا "الواقع والمستقبل، ص: 268، مرجع سابق.

سنة متواصلة، توصلوا إلى نتيجة مؤداها «أن الدوائر الكنسية قلقة جداً من ظاهرة المد الإسلامي في القارة الأفريقية، إذ أن الإسلام ينتشر فيها بسرعة مذهلة، ولقد بلغ معدل نمو الدين الإسلامي 235% وينبع التخوف الكنسي من ظاهرة المد الإسلامي في أفريقيا من إدراك الأعداء أن الإسلام يلقى قبولاً سريعًا لدى الإنسان الأفريقي؛ لأنه دين الفطرة الذي جاء بالمساواة وإلحاق الرحمة بالناس»[1].

ولئن كانت المعطيات الواردة في هذه الدراسة على درجة كبيرة من الصحة في حينها، فإن مختلف الأوضاع التي عصفت بالقارة الأفريقية من كوارث طبيعية وبشرية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين استأثرت بجزء كبير من مصداقية هذه الدراسة، الأمر الذي يجعلنا نؤكد مرة أخرى بأن الأمة المسلمة في أفريقيا بما فيها جنوب أفريقيا مستهدفة، ويراد بها شرٌّ مستطير، وإن هناك اهتمامًا بالغًا وشاملاً بكل ما يتصل بقضية تنصير المسلمين؛ إذ توجد دراسات متعددة الأبعاد، عن المناهج والأساليب، والنجاحات والاخفاقات، ونوعية المشكلات والتحديات القائمة، مع اهتمام خاص بالمصادر والمراجع العلمية المعينة في ذلك لكل من المنصّر والمراد تنصيره، وهذه المهمة يضطلع بها عدد كبير من المراكز والإرساليات المحلية، والعالمية، وترصد لها إمكانيات مادية ضخمة، ومساندات معنوية عالية، من جهات متعددة، وكل ذلك يتم وصولاً إلى تنصير المسلمين في المقام الأول دون غيرهم؛ لسبب بسيط جداً يتمثل في استئصال الإسلام من حياتهم باعتباره يشكل أقوى عوامل الصّمود والمقاومة الحضارية في أوسع مفهومها، وهو ما تفتقده العناصر غير المسلمة في مواجهتها لقوى التغريب، إذ ينساقون وراء الرجل الأبيض إعجابًا به لما يملكه من سلطان وثروة، وصناعة. قابلين بذلك كلاً من الدونية الثقافية المنسوبة إليهم، والاستعمار الاستيطاني لبلادهم من غير مقاومة، بل «يتخذون حينًا موقف المتفرجين، أو يلوذون حينًا آخر بمقار بعثات التبشير، بدلاً من الاشتراك في المقاومة المسلحة ضد الغزو والاحتلال

---

(1) المسلمون في السنغال، ص: 9، 10، مرجع سابق.

الاستعماري»[1]، وهذا ما لا يرتضونه لأنفسهم مطلقًا من يحملون عقيدة الإسلام، وينعمون بضمائر حيّة، وقلوب واعية.

جـ ـ **التحدي الصهيوني الزهوق**: تقيم في جنوب أفريقيا جالية من الصهاينة، يرجع تاريخ وصول المهاجرين الأقدمين منهم إلى هذه البلاد إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، تم ذلك بقدوم عدد من اليهود لأسباب اقتصادية، للإسهام في استغلال ثروات البلاد، فشهدت هذه الجالية مع الأيام نموا مطّردًا، أسهم فيه عاملا الهجرة والتكاثر الطبيعي بالإنجاب، إلى أن زاد عددهم وفق إحصائية قديمة عن 150 ألفًا[2]، يعملون في تجارة الذهب والماس متمركزين بأغلبهم في جوهانسبرج. وتكمن خطورة هذه الجالية اليهودية التي تتمتع بنفوذٍ اقتصادي كبير في بلاد اكتسبت جنسيتها، في شدة وعمق انتمائها إلى الكيان الصهيوني، مما جعلها في مقدمة الجاليات اليهودية في العالم والتي قدّمت تبرعات سخية لرفد الهجرة اليهودية منذ ما قبل قيام الكيان الصهيوني، كما هاجر ما يقدّر بقرابة ستة آلاف شخص من أفرادها إلى فلسطين لتكريس واقع الاحتلال الصهيوني، ومن أبرزهم أبا أيبان الذي وصل إلى منصب وزير خارجية الكيان الصهيوني في فترة من الفترات[3]. وقد استمرت هجراتهم السنوية إلى الأراضي المحتلة بواقع ألفي مهاجر سنويًا[4]. والملاحظ فيما يتعلق بهجراتهم إلى فلسطين أن الدكتور الرميحي يميل إلى التقليل من نسبتها وأهميتها، مركّزًا على المساعدات الاقتصادية، والدعم السياسي، وفي ذلك يقول: «وفي عام 1948 كانت مساهمتها المالية هي الثانية من حيث الحجم بعد مساهمة اليهود الأمريكيين، ولكنها لو قيست بحجم السكان اليهود لتبيّن أنها تفوق بثلاثة أضعاف جهد الأمريكيين في جمع المال، ومن المعروف أن هجرة اليهود من جنوب أفريقيا إلى إسرائيل قليلة نسبيًّا... إلا

---

(1) تاريخ أفريقيا العام، ج7/ 206 207، مرجع سابق.

(2) ينظر: العلاقات العربية الأفريقية، ص: 103، مرجع سابق.

(3) ينظر: د. بديع حقي "العلاقات ما بين إسرائيل وجنوب أفريقيا" ص: 45، مجلة المعرفة ع290، س: 25، 1986م دمشق.

(4) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 233، مرجع سابق.

أن المساهمة الاقتصادية والسياسية من جنوب أفريقيا ومن اليهود الصهاينة فيها كثيفة ومتعددة»[1]، وبهذا ندرك السر في مفاخرة أحد زعماء الحركة الصهيونية في جنوب أفريقيا بأن ما يرسلونه من جنوب أفريقيا إلى الكيان المغتصب من مساعدات يفوق حجمها وقيمتها تلك التي ترسله الحركة من أمريكا»[2].

والظاهر أن الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا، استطاعت أن تنتزع وتكسب ودّ مسيحيي البلاد وولاءهم؛ لتوجههم الصهيوني الحاقد الغاصب، والداعم بلا حدود ولا قيود، لمختلف أنشطة الكيان الصهيوني الاحتلالية، ويتضح هذا من خلال الوقوف على ما ورد في محاضرة بتاريخ 17/ 7/ 1930م ألقاها الجنرال سمطس رئيس وزراء سابق لجنوب أفريقية ضمن سلسلة محاضراته في أمريكا إثر جولة خصصها لأداء هذه المهمة الإعلامية. وكان مما قاله في محاضرته تلك: «إنني من بلد صغير، ولكن الحركة الصهيونية تجد أكبر متفسح لها فيه، وقد يتفق أن تجد الشكوك ووجهات نظر مختلفة في مختلف أنحاء العالم، ولكن في جنوبي أفريقيا لن تجد مثل ذلك، إطلاقًا، فإن جميع اليهود في بلدنا صهاينة، وجميع المسيحيين موالون للصهيونية، وبالتالي فأنا أتحدّث إليكم، لا بوصفي مواطنًا عاديا بل كشعب بأسره برهن قولاً وفعلاً، على دعمه للصهيونية»[3]. وربما تعمّد قول ما ليس بصحيح راميًا من ورائه إلى إيهام وتضليل الحضور بشعبية عارمة للصهيونية في بلاده، والحال أن لا وجود لها إلا في مخيلته.

ومن الناحية التنظيمية يوجد للجالية اليهودية في جنوب أفريقيا تنظيمان سياسيان فاعلان وهما: مكتب النواب اليهود في برلمان جنوب أفريقيا، والاتحاد الصهيوني الجنوب أفريقي، على أن أكثر ما تظهر خطورة هذه الجالية على العمل الإسلامي والمسلمين بجنوب أفريقيا، في الجانبين الثقافي والإعلامي حيث: «تقوم المنظمات الصهيونية في جنوب أفريقيا، بالتأثير على الحياة الثقافية فيها، عن طريق تمويل

---

(1) مجلة العربي ع325، ص: 12 مرجع سابق.

(2) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 233، مرجع سابق.

(3) "العلاقات ما بين إسرائيل وجنوب أفريقيا"، ص: 41، مرجع سابق.

المدارس اليهودية، والنفوذ في الصحافة التي يسيطر عليها اليهود بطريق مباشر «الملكية والتحرير» أو بطريق غير مباشر «بالإعلانات» ولذا فإن ميولها الصهيونية تقليدية متطرفة. ويملك اليهود هناك معظم أسهم الشركة المعروفة باسم الوكالة المركزية وهي أكبر دار للطباعة والنشر»[1]، والجالية الصهيونية ومن شايعها في جنوب أفريقيا وفي عموم أفريقيا يبذلون جهوداً كبيرة ومضنية لاستثمار الثقافة الدينية، بما يخدم أهدافهم، ويؤيد قضاياهم في القارة وغيرها، ولذلك تتخذ الصهيونية الآن من منطقة شرق أفريقيا مركز نشاط هام ومكثف بالتعاون مع المسيحية لتقليص المدّ الإسلامي على أطرافه، وهي في سبيل ذلك تفتعل صراعات دولية، وتقدّم مساعدات سخية لحركات التمرّد في القارة[2]، كما تعمل على تهجير أعداد كبيرة من رعايا بعض دول شرق أفريقيا إلى الكيان المحتل بدعوى الانتماء إلى العرق اليهودي تاريخًا وثقافة.

إنّ تحدي النشاط الصهيوني للإسلام والمسلمين في جنوب أفريقيا واقع لا محالة فيه، ولكنه باطل زهوق، يندفع بالحق، وبالأساليب والخطط الحكيمة المضادّة له، وتوظيف مختلف وسائله لمناوأته، وهي وسائل أشار الدكتور عماد الدين خليل في معرض حديثه عن هذا الخطر وغيره إلى بعض منها في قوله: «إن المتتبع لتاريخ العقود الأخيرة في القارة الأفريقية، يجد بوضوح أن قوى الاستعمار والتبشير والصهيونية بذلت كل محاولة ممكنة لوضع يدها هناك وتقدمت إلى القارة من كل مكان، من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب، جاءت إليها بالسفن والطائرات والقطارات السريعة، ... ونفخت في عقول أبنائها وقلوبهم بكل نشرة أو كتاب أو مساعدة اقتصادية، أر بعثة متبادلة، أو نشرة إخبارية، وكان الخطر يزداد يومًا بعد يوم بسبب ما هنالك من تعايش وتعاون متبادل بين هذه القوى الثلاث، رغم ما بين بعضها من عداء تقليدي وتاريخي»[3]. وإلى جانب هذه التحديات يوجد تحد من نوع آخر، ينطلق في

---

(1) العلاقات العربية الأفريقية، ص: 107، 108، مرجع سابق، نقله هو الآخر عن نعيم قداح من مقال له بعنوان: "العلاقات بين الكيان الصهيوني وجنوب أفريقيا".

(2) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص: 19، مرجع سابق.

(3) د: عماد الدين خليل: "الإسلام... والأفريقي المعاصر" ص: 42 من مجلة الوعي الإسلامي، ع115

نشاطه المذموم متظاهراً بالإسلام نحو غاية وأهداف تخريبية، وهي من أكبر وأخطر الأمور ضرراً بالإسلام والمسلمين، ويتمثل هذا النوع في:

د ـ **الفرق المارقة من الإسلام الخارجة على المسلمين**: وفي مقدمتها حركتا القاديانية والبهائية، وتعرف الأولى بأنها «حركة تبليغ عالمية، ذات قناع إسلامي ولكن حقيقتها غير ذلك، أسست عام 1900 بقاديان زمن الاستعمار الإنجليزي للهند في ظروف مشبوهة على يد المدعو ميرزا غلام أحمد الذي زعم أنه نبيّ تابع لرسول الإسلام وأنه المهدي والمسيح الموعود، وتلتقي الجماعة في أهم أفكارها مع مصالح الاستعمار، لاسيما قضية الجهاد»[1]، وهذه الحركة تعرف بالأحمدية أيضًا، وهي من أحبّ الأسماء إليها مع استنكار المسلمين لهذه التسمية تحوطـًا من الالتباس الذي قد ينتج عنه بفهم نسبته إلى أحمد رسول الله ﷺ.

وهذه الحركة ذات طابع عالمي في تبليغها وتنظيمها، وتحظى باعتراف ورعاية بعض الدول الغربية ذات المصلحة في نشاطاتها الكيدية، ولها مراكز عالمية في كل من بريطانيا، وألمانيا، والكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وتشتمل هذه المراكز على معابد كبيرة ومكتبات، وقاعات للمحاضرات، ومحطات البث الفضائي المرئي والمسموع، ودور لإيواء الضيوف، ومطابع ضخمة لنشر دورياتها اليومية والأسبوعية والشهرية إضافة إلى مواقعها على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت.

وقد تسللت في إطار حركتها التضليلية إلى القارة الأفريقية، فأنشأت عددًا من المراكز التبليغية وأقامت مستشفيات كثيرة، كما أسست مدارس عديدة لتقديم الخدمات الصحية والتعليمية مجانًا وللجميع دونما استثناء، ومن باب تقريب الصورة، فقد وصل عدد المدارس القاديانية في أفريقيا منذ عام 1984 إلى 349 مدرسة، تتوفر في بعضها أقسام داخلية للمنتمين إليها، تأمينًا للحاجة إلى المأوى والغذاء، إضافة إلى

س10، 1394هـ 1974م، القاهرة.

(1) عبدالرحيم برمو: القاديانية دراسة فكرية تحليلية نقدية، ص: 16، هي رسالة ماجستير أعدت ونوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1998م بطرابلس.

منح شهرية لتغطية المصاريف الشخصية الخاصة[1]، وتسعى من وراء كل ذلك إلى تشويه العقيدة في عقول البسطاء.

وعن انتشار هذه الجماعة في كينيا وخطورتها على العمل الإسلامي فيها، وفي غيرها كتب الدكتور يماني قائلاً: «توجد في كينيا أعداد من القاديانيين والبهائيين الذين يتلقون الدعم من الصليبيين واليهود على السواء، لدرجة أنهم أنشأوا ما يسمى «الجمعية الأفريقية الإسلامية اليهودية، في مدينة ممباسا والاسم وحده يوحي بمضمون وأهداف هذه الجمعية العجيبة»[2]، إن هذا لشيء عجاب، وعلى أي حال فإن هذه الجمعية الشاذة متهمة بالعداء للإسلام ممن ليس عندنا بمتهم، وحسبنا عقيدتها دليلاً على هذا العداء السافر.

والحديث عن هذه الحركة ونشاطاتها في منطقة شرق أفريقيا وما انحدر منها إلى الجنوب كثير وفائض، وإن كان يحظى بنصيب الأسد من تلك النشاطات كل من كينيا وتانزانيا، وجنوب أفريقيا[3]، فهذه الأخيرة بلغتها الدعوة القاديانية، وقامت فيها بترجمة معاني آيات مختارة من القرآن الكريم إلى اللغة الأفريكانية[4].

وتتمثل الخطورة البالغة في القاديانية المعادية في تمسحها الظاهري بلباس الإسلام وهو منها بريء، وتتذرع إلى هذا الانتماء المبتور بموافقتها لعامة المسلمين في الاعتقاد بأركان الإيمان الستة والإقرار بأركان الإسلام الخمسة، ويبقى الفارق الجوهري بين الطرفين في ادّعاء القاديانية استمرار بعثة الأنبياء بعد كمال الدين، وختم النبوة، وفي تعطيلها وإلغائها مبدأ الجهاد في الإسلام، إلى جانب قضايا أخرى هامشية أقل خطورة من السابقتين اللتين أدتا إلى تكفير القاديانية لأنهما من المعلوم من الدين بالضرورة.

والقاديانية في نشاطها الملحوظ لنشر عقيدتها الاستعمارية، تستخدم ضمن

---

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص: 223.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 128، مرجع سابق.

(3) ينظر: حاضر العالم الإسلامي، ص: 655، مرجع سابق.

(4) القاديانية دراسة تحليلية نقدية ص: 212، 221، والأفريكانية من أوسع اللغات انتشاراً في جنوب أفريقيا.

أساليبها المتنوعة، أسلوب الجدل والمناظرة، وتُعِدُّ كفاءات قادرة على الحوار والإفحام بالباطل لدحض الحق، وهذا عامل مشجّع للدعاة المخلصين بإعداد أنفسهم للدخول معها في حوارات جادة وملزمة، قضاء عليها ودرءًا للفتنة، ويتحتم هذا الإجراء حين نعلم حقيقة خطورة القاديانية طبقًا للصورة التي قدّمها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام»، وفي قوله: «إن القاديانية تنشر في العالم الإسلامي الفوضى الفكرية، وعدم الثقة بمصادر الإسلام الصحيحة ومراجعه، وسلفه، وتقطع صلة هذه الأمة عن ماضيها وعن أعز أيامها وأفضل رجالها، وتفتح باب الأدعياء، والمتطفلين على مصراعيه وتسيء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه وتيئيس المسلمين من مستقبلهم»[1].

وإن مما يتعين على المسلمين والدعاة منهم خاصة، الوقوف بحكمة شاملة في وجه القاديانية التي يعتبر قبولها لمبدأ الحوار والمناظرة أعزّ ما فيها على الإطلاق وذلك فيما أرى، وإن سمة قابلية الحوار في القاديانية يشكل مدخلاً استثنائيًا لأداء واجب دعوي يفرض نفسه بشدة وإلحاح، ويتأكد هذا الدور حين نعلم: «أن بعض إخوتنا المسلمين في أفريقيا قد خدعوا حقّا بهذه الفئة الضالة فاعتقدوا بذلك أنهم قد دخلوا في الإسلام، ولكن ما أن اكتشفوا حقيقة التضليل القادياني حتى قطعوا كل صلة لهم بالقاديانية، وتابوا إلى الله، وكان ذلك يحدث عادة كلما عمد أحد الدعاة الإسلاميين إلى تبصيرهم بحقيقة القاديانية وبراءة الإسلام منها، ومما تعتقده وتفعل»[2].

وأما البهائية فهي كذلك من صنائع أعداء الإسلام وحُلفائهم للعب دور مماثل ومكمّل لدور القاديانية، وكان أول ما ظهر في طهران عام 1260هـ بادعاء شخص اسمه محمد الشيرازي أنه الباب إلى المهدي المنتظر، وانتهى مصيره بالإعدام عام 1266هـ، وخلفه ميرزا حسين علي المازنداري الذي تدرّج في مقاماته إلى أن ادّعى

---

(1) نقلاً عن: د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص: 41، ط11، 1405هـ 1985م، مكتبة القاهرة.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص: 409، مرجع سابق.

الربوبية لنفسه، وراح يهذي بأفكار سخيفة، وعبارات ركيكة يريد بها بديلاً عن القرآن الكريم وشريعته الغرّاء[1].

ومما يدلّ على عداء البهائية للإسلام وكيدها له، وأنها حركة صهيونية، حملها لواء الدعوة إلى وحدة الأديان بصرف النظر عن صحتها وبطلانها، وطبيعة مصدرها، وتعاليمها، وقد تبلورت هذه الفكرة على يد ثالث أكبر دعاتها وهو عبّاس عبد البهاء الذي تولى أمر هذه الدعوة عام 1892م[2].

والبهائية باعتبارها انبثاقًا من الصهيونية، ووليدة من أولادها، فإنها قد ورثت من أمها معظم سماتها، ومعتقداتها، وأهدافها الرامية إلى إثارة القلاقل والخلافات، وإطفاء جذوة الحمية الدينية من نفوس المسلمين بإشاعة روح التحلل الديني والأخلاقي في الأوساط والمجتمعات المسلمة. وهي أمور تشترك فيها البهائية مع أمها الصهيونية وشقيقتها الماسونية، إذ تتفق جميعًا على مواجهة المسلمين بسيل من الأفكار المناقضة لتعاليم دينهم كإباحة الزواج بالمحارم، واشتراك رجلين في العقد على زوجة واحدة، والدعوة إلى إبطال الجهاد، وبدعوى أن الإسلام يستمد اسمه من السلام وهو ما يتنافى في زعمهم مع الجهاد، ولو بمفهومه الإسلامي الصحيح، إضافة إلى السعي لإلغاء القبلة، ووحدة التوجّه إليها، وتتحدد القبلة عندهم فقط بمقام البهاء ومقره، ولو كان في تل أبيب، كما أنهم يدعون إلى إبطال صلاة الجماعة، وكل ما يقوم على التجمع والاجتماع من العبادات في الإسلام، والتي ترمز إلى معاني القوة والوحدة بين المسلمين. وأيضًا يسعون جهدهم لترويج ما مفاده أن الالتزام بالدين والغيرة عليه مما يثير التعصب، ويخلق العداوة والشحناء بين الناس[3]، وليس لنا بعد هذا أن نستغرب وجود المركز الثقافي للحركة البهائية في تل أبيب عاصمة الصهاينة المحتلة.

---

(1) نفس المرجع والصفحة.

(2) ينظر: البهائية أداة الصهيونية لتحطيم قوة الإسلام، ص: 5، من صحيفة الدعوة الإسلامية ع: 690 بتاريخ 16 من ذي الحجة عام 1430 من ميلاده عليه الصلاة والسلام، طرابلس.

(3) ينظر: المرجع السابق والصفحة نفسها.

وبهذا لا يبقى مجال للشك في أن القاديانية والبهائية صنيعتان استعماريتان صممتا لضرب وحدة المسلمين على الصعيدين السني والشيعي، وزُودتا بشتى الوسائل والإمكانيات لتحقيق هذا الغرض الخبيث، وبما لهما من إمكانيات الإغراء والإغواء تنشطان في القارة الأفريقية نشاطًا ملحوظًا، ولاسيما في مجتمعاتها المسلمة، وبالأخص في أوساط الأقليات المسلمة، وفي مناطق حديثة العهد بالإسلام.

وللإخطار بما يتعرض له العمل الإسلامي في القارة الأفريقية من تحد صارخ من قبل هذه الجبهات المتآمرة في حملتها المسعورة والمشهورة يقول الدكتور: عبدالرحمن الماحي: «وإلى جانب النشاط التنصيري المكثف في أفريقية فإنه يوجد نشاط خطير للشيوعية والصهيونية، والبهائية والقاديانية، وغيرها من الحركات المناهضة للإسلام التي ما أنزل الله بها من سلطان»[1].

إنها حقًا لقضية هامة تستدعي من المسلمين تخصيص اهتمام أكبر وأوسع للمواجهة الواعية في سياق الدفاع عن الإسلام، وحماية وحدة المسلمين. على أن أيّ جهد في هذا الإطار يظل ناقصًا ما لم يجمع على نحو متكامل بين مهمتي مواجهة هذه التحديات، ومعالجة ما يعانيه مسلمو جنوب أفريقيا كغيرهم من مشكلات متعددة مما سنعرض لها في الآتي.

أهم مشكلات الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا:

عديدة هي المشكلات التي تعترض سبيل فاعلية ووحدة الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا، وهي من الكثرة بمكان يصعب معه تناولها جميعًا على نحو مفصّل، غير أنه بالإمكان إجمالها بتصنيفها إلى ثلاث مجموعات رئيسة، تندرج تحت كل منها تلك التي تنتمي إلى صنف واحد من هذه المشكلات. والتي تنحصر في مجموعة مشكلات تتصل ببعض أركان العمل الإسلامي وآلياته، وأخرى ناتجة عن ضيق وعاء الفهم الديني، وأخيرة، تتمثل في الخلط بين المأثور الديني والموروث الثقافي، وفي تفصيل غير ممل نوردها على النحو التالي:

---

(1) الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، ص: 259، مرجع سابق.

أ)ـ ما يتصل منها ببعض أركان العمل الإسلامي وآلياته : تتصدّر هذه المجموعة مشكلة تعليم اللغة العربية، والمعارف الإسلامية، إذ يلاحظ في مجال تعليم اللغة العربية في جنوب أفريقيا، مع قيام عدد لا يستهان به من المعاهد، والمؤسسات، والأقسام الجامعية أن الحاجة تدعو إلى المزيد من الأساتذة المتخصصين في مجال تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ممن يحملون بإخلاص رسالة نشر اللغة العربية في البلاد، وترقية مستوى من توفّرت لهم فيها مبادئ أولية، وإقامة حلقات تربوية متصلة لتأهيل المعلمين والأساتذة المحليين، وتطوير أساليب تدريس اللغة العربية، وتغذية المناهج المقررة بشأنه، وذلك لكون اللغة العربية تأتي في مقدمة العوامل التي تسهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية، ولا سبيل بحال من الأحوال إلى فهم صحيح للإسلام إلا عن طريقها، ومن قواعد الأصول أن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» كما أنها هي الواسطة التي تربط بين المسلمين وعقيدتهم وتراثهم وتاريخهم وأيضًا بين بعضهم البعض أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا الدور الأهم والأساسي للغة العربية يحاول المتآمرون شن حملات القضاء عليها لفك ما بينها وبين الدين من ارتباط متلازم وثيق.

ولشدة حاجة مسلمي جنوب أفريقيا إلى اللغة العربية فقد فرضت نفسها على الدكتور عبدالجليل شلبي مما قاده إلى اعتبارها المشكلة الكبرى في جنوب أفريقيا على الصعيد الإسلامي وذلك في قوله: «والمشكلة الكبرى هي اللغة، والمدارس القائمة لا تكفي، لأن التلاميذ يذهبون إليها بعد خروجهم من مدارسهم الحكومية، فيقضون ساعتين أو نحوهما، وقصارى ما ينالون منها أن يستطيعوا قراءة الحروف العربية، وأن يحفظوا شيئًا من القرآن»[1].

وفيما يخص مواجهة هذه الحاجة الملحّة وحل مشكلة اللغة العربية في جنوب أفريقيا فإنه ليس محلّ إنكار أن جهودًا طيبة ومشكورة قد بذلت للتغلب على هذه المشكلة من قبل جهات محلية وخارجية، ومن خلال أعمال علمية لشخصيات مسلمة، من أمثال

---

(1) معركة التبشير والإسلام، ص: 185، مرجع سابق.

الدكتور أيوب جدوت أحد خريجي جامعة قاريونس الليبية الذي أهدى إلى مكتبة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية نسخة من كتابه المصنف باللغة الإنجليزية، والمنشورة من قسم اللغة العربية بجامعة دربان عام 1998م، بعنوان «تعليم اللغة العربية كلغة أجنبية» والكتاب كما هو بيِّن من العنوان: محاولة علمية لتسهيل دراسة اللغة العربية لغير الناطقين بها، يهتم بالقواعد والأساليب، ويعنى بالجانب التطبيقي مُكَثِّفًا من الأمثلة المُعِينة على ذلك مزودًا بمصادر إضافية في هذا الشأن، مع اهتمام خاص بقضية الترجمة، مسعفًا من يهمهم الأمر بمقارنات أسلوبية، تضمن جودة الترجمة ودقتها، منبهًا القارئ إلى مالا يستغني عنه من يتصدى للترجمة من شروط تؤمِّن للمترجم الدقة والتوفيق فيما يرنو إليه، وينطلق المؤلف في عمله هذا من أهمية اللغة العربية في عالمنا المعاصر، حيث تطورت النظرة العالمية إليها باعتبارها لغة حية إلى جانب غيرها من اللغات الأجنبية المشهورة والمتداولة عالميًا، فخرجت العربية بذلك من دائرة الإهمال، والنظرة المجحفة في حقّها، لتكتسي أهمية عالمية على مختلف الأصعدة والمجالات[1].

واللافت للنظر؛ أن المؤلف في عمله هذا ذو توجّه إسلامي صادق، ينصب جهده في محيط خدمة العمل الإسلامي الواسع، وهو ما ينكشف للدارس، لأول وهلة، وبمجرد النظر إلى غلاف الكتاب الخارجي الذي تضمن الآيات الأولى من سورة العلق باعتبارها أولى ما نزلت من القرآن الكريم في أول لقاء للرسول الأكرم بملك الوحي عليهما السلام، وهذا الإيحاء الذي أراده المؤلف مثير جدًا وله ما يعبر عنه.

وأظنّ أن أي مشكلة تثار في مجال تدريس اللغة العربية بجنوب أفريقيا هي من جهة أخرى بمثابة الإشارة إلى مشكلة عامة تشمل التعليم الإسلامي برمّته حين توضع القضية في إطارها العام.

ولعلي بذلك في غنى عن الاسترسال في التنبيه إلى هذا الجانب، وحسبي فيه تلك الرسالة التي بعث بها حديثًا مسلمو منطقة نيوكاسل بجنوب أفريقيا إلى جمعية الدعوة

---

(1) ينظر: Ayoob Jadwat: Teaching of Arabic is a Fereign Langage University of Durban – Weatville.

الإسلامية العالمية معبرين فيها عن رغبتهم في الاستفادة من الخبرات التعليمية لكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، في إطار إرساء وتطوير أسس التعاون بين الكلية وبين مدرسة الأنصار في جنوب أفريقيا، طالبين من الجمعية كذلك تزويدهم بالكتب والمناهج المعتمدة في الكلية، للاستفادة منها في عملية الارتقاء بمستوى التعليم العربي الإسلامي في بلادهم[1]. وبالأخص في مدرسة الأنصار التي تضطلع بدور تعليمي ودعوي متكامل، وتعتبر بذلك صورة مصغّرة لكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس.

ولمواجهة هذه المشكلة التعليمية بنجاح، فإنه من الضروري جداً تخصيص منح دراسية لأبناء المسلمين هناك سنويًا للالتحاق بالجامعات والكليات الإسلامية خارج بلادهم. ومسلمو جنوب أفريقيا في أشد الشوق إلى أي مساعدة من هذا القبيل والتي طالما تطلعوا إليها وعبروا عنها في مختلف المناسبات، وبشهادة من الدكتور شلبي في قوله: «وقابلت الكثيرين الذين يتشوقون إلى الحضور إلى مصر، ليتعلموا في الأزهر على حسابهم الخاص، ولا يحمّلون الأزهر أي نفقة»[2]. ومن المؤسف أن تكون الجهات المعنية قد تجاهلت هذه الرغبة الدينية الشريفة، فلم تصادف استجابة تذكر من قبل من بيدهم الأمر، إذ لم تعرها تلك الجهات مع مسيس الحاجة إلا أقل القليل من اهتمامها، وهذا ما يشهد به واقع مؤسساتنا الإسلامية التي تكاد تخلو من طلاب من جنوب أفريقيا إلا فيما ندر، كما أن الاطلاع على قائمة الطلاب الممنوحين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، يعزز هذا القول إلى حد كبير. حيث إن نصيب جنوب أفريقيا من منح الجامعة الدراسية لعام 1395هـ 1975م، لم يتجاوز ثلاثًا من ستمائة وخمسين منحة دراسية موزعة على أبناء المسلمين في العالم[3]، وللعام المذكور وحده.

وبعد ثمان سنوات من التاريخ المتقدم نجد أن عددهم لم يتجاوز اثني عشر طالبًا بمنح أزهريّة، في قائمة تضمنت عدد الطلاب المقيمين بمدينة البعوث الإسلامية عام

---

(1) ينظر: صحيفة الدعوة الإسلامية ع717، ص: 1/ بتاريخ 28 جمادى الآخرة لعام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ.

(2) معركة التبشير والإسلام، ص: 186، مرجع سابق.

(3) ينظر: مجلة الجامعة الإسلامية، ع1 ص: 173 س8، عام 1395هـ 1975م المدينة المنورة.

82/ 1983م حسب جنسياتهم[1]، وإذا كان هذا شأن الأزهر فما بال غيرها من المؤسسات الفتية الناهضة!!

وأيضًا إلى جانب مشكلة التعليم في مجال اللغة العربية والدراسات الإسلامية، تواجه مسلمي جنوب أفريقيا مشكلة قلة الكفاءات الدعوية المؤهلة للقيام بمهمة الدعوة الإسلامية في بيئة لها خصوصياتها، مما يحصر الحاجة في نوع خاص من الدعاة، تتوفر فيهم إلى جانب القدر اللازم من ثقافة الداعية، سعة الأفق، والقدرة على الحوار والمناظرة، والإلمام الشامل بالوسط الدعوي تاريخـًا وواقعـًا بمختلف تياراته، واتجاهاته، مع جديّة لا تفتر وإخلاص لا يقهر، وصبر لا ينفد؛ لسدّ ما نبه إليه الدكتور عبدالجليل شلبي من فراغ رهيب حين قال: «بوجه عام لمست في محيط المسلمين هناك فقرًا مدقعًا في التعريف بالإسلام وفي تعليم المسلمين، وهناك تعطش بالغ لسماع أي شيء عن الإسلام، وشوق بالغ لسماع القرآن»[2].

وإلى هذه المشكلات فيما أعتقد أشار الشيخ ديدات، في دعوته التي أطلقها إلى الدول الإسلامية، في صدد حديثه عن مشكلات المسلمين في جنوب أفريقيا، فقال مستنجدًا: «إننا بحاجة ماسة إلى مساعدة ثقافية تعليمية وعلى الدول الإسلامية، أن تساعدنا في هذا الصدد، بتزويدنا بعدد من المعلمين والعلماء والدعاة، وبكل ما من شأنه أن يعيننا على نشر الإسلام»[3].

ولعل أبرز ما يحتاج إليه المسلمون هناك في التغلب على هذا الصنف الأول من المشكلات هو مطبوعات اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، مع منح دراسية سنوية، وعدد كاف من خبراء التعليم والتربية الإسلاميين، ومن الأساتذة، والدعاة المؤهلين، وقد كان الدكتور النجار محقـًا حين لخص المشكلة في عنوان مقاله فقال: مسلمو

---

(1) ينظر: مجلة منبر الإسلام، العددان جمادى الآخرة ص: 196 سنة 1403هـ مارس 1983، القاهرة.

(2) الإسلام في جنوب أفريقية، من مجلة الأزهر ج10، ص: 1117، س: 61، مرجع سابق.

(3) مجلة الأمة ع1، ص: 33، مرجع سابق.

جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال[1].

ب)- ضيق وعاء الفهم الديني : في مجتمع من الأقليات لم تتوفر له أسباب القدر الكافي من التعليم الإسلامي كما هو عليه الحال في جنوب أفريقيا، تثور عادة روح الخلافات، وتظهر انشقاقات مذهبية بسبب ضيق وعاء الفهم الديني لدى الأغلبية الغالبة من هذه الأقلية التي التقت على هذه البقعة من غير ميعاد سابق، لظروف مختلفة، وأسباب كثيرة.

ومن القضايا التي تورِّث عادة خلافات فيما بينهم: تحديد المناسبات الدينية المرتبطة بحركة القمر وشهوده؛ كتحديد بداية شهر رمضان ونهايته، وغيره من المناسبات، التي ينقسم المسلمون إزاءها إلى فريقين أو أكثر، وقد اتفق في ستينات القرن العشرين أن اختلف مسلمو جنوب أفريقيا في شيء منها، فأرسل أحدهم رسالة إلى مشيخة الأزهر يستفتيهم في إلزامية موافقة المجلس الشرعي المحلي في مثل هذه القضايا من عدمها، حيث إن هناك من يعارض المجلس مقابل من يوافقه، ويتذرع المخالفون للمجلس بأنه ليس مَنصَّبًا من حاكم، أو حكومة مسلمة[2].

وقضية ترجمة الخطب الدينية من العربية إلى اللغات المحلية هي كذلك إحدى الأمور التي تثير جدلاً واسعًا، واختلافًا بيّنًا بين بعض الجماعة المسلمة في جنوب أفريقيا، إذ يميل فريق منهم إلى اعتماد نظام اللغة المزدوجة في الخطب المنبرية، بينما يكتفي معارضو هذا الفريق باللغة العربية وحدها. ولا يرون بالنسبة لمن يجهل العربية مانعًا من الانشغال بتلاوة القرآن أو بغيرها من جنس العبادة أثناء الخطبة، ولكن بشرط الحفاظ على الهدوء، وعدم إثارة الضوضاء، وليس الخلاف بشأن شروط الإمامة أقل شأنًا من الخلاف في لغة الخطبة، حيث يتشدد البعض إلى حد اشتراط حفظ القرآن الكريم كاملاً في الأئمة، بينما لا يرى آخرون ضرورة ذلك، ويكمن بعض خطورة

---

(1) ينظر: مجلة العربي: ع / 239، ص: 48، سبق ذكره.

(2) ينظر: فتاوى مجلة الأزهر، ج7، ص: 887، س: 34، عام 1382هـ 1963، القاهرة.

هذه الخلافات الشكلية في أنها قد تقود أحياناً الأطراف المتنازعة فيها إلى مرافعات قضائية، والمثول أمام المحاكم للتقاضي بشأن قضايا مسجدية[1]، مما يمكن التوصل إلى حلها مسجديًا طالما سادت روح الوحدة، والأخوة والتسامح، والحوار.

ومن الهامشيات التي يختلف فيها أيضًا قضية جواز التصوير من عدمه، مسألة إعفاء اللحى بمقاييس معينة. وقد سجّل لنا الدكتور عبدالجليل شلبي في زيارته لجنوب أفريقيا موقفًا طريفًا ومضحكًا حصل له أثناء زيارته لجامع دربان الكبير وكان مما قاله: «استقبلني الإمام والمؤذن - وهما هنديان - استقبلاني شاكرين، وعند وقت الآذان لصلاة المغرب لم أجدهما، وفي اليوم الثاني علمت أن الإمام أفتى ببطلان صلاتي، وأمر الذين اقتدوا بي أن يقضوا صلاتهم، وسببُ ذلك أنني لاأصل لحيتي بقدر قبضة اليد»[2]. وبأتفه الأسباب كهذا يتفكك المسلمون ويتنازعون في أماكن مثل جنوب أفريقيا.

على أن مما يزكي الخلاف في الشكليات ضعف التوعية الدينية، وما يشيعه الأعداء في صفوف المسلمين من هامشيات تضعف شوكتهم، وتلهيهم عن معالي الأمور بسفسافها، كما أن من الأمور الصارفة لمسلمي جنوب أفريقيا عن قضاياهم المركزية والمصيرية التقيد بالتفسيرات المذهبية الضيقة، والتقوقع على عتبة الحواشي والقشور، دون الولوج إلى المتون، والجواهر، بعقلية حضارية ناقدة ووعي نافذ بحقيقة الدين وجوهره.

ولاشك في أن الخلاف أيّا كان نوعه؛ سواء في الفروع أم الأصول، هو في غياب روح الوحدة، وحسن النية أمر سلبي جدا وضار بالمسلمين، وجنوب أفريقيا من الأوساط التي تنشط فيها المذاهب والفرق بين الجماعة المسلمة، والتي يوجد من بينها من ينتمي إلى كل من المذاهب السنيّة المشهورة[3].

ومما لا ريب فيه أن للشيعة في جنوب أفريقيا حضوراً نشطًا، حيث إن إيران كانت قد دأبت على توجيه الدعوة لبعض الزعماء المسلمين، للاحتفال بذكرى الجمهورية الإسلامية

---

(1) Islam in South Africa P.P:104-1L4 Ibid.

(2) معركة التبشير والإسلام، والحاشية رقم 1 ص: 173، مرجع سابق.

(3) ينظر: التقرير المعنون بـ"دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا" ص: 5، 6، مرجع سابق.

على نفقتها، ومن خلالها تمارس التأثير الشيعي عليهم[1]، ومن الممكن أن نتصور مدى ما يمكن أن تحظى به الدعوة الشيعية من رعاية وتشجيع، خاصة، إذا علمنا أن ثمة علاقات ثنائية، رسمية متينة، تربط بين إيران وجنوب أفريقيا في المجالين الاقتصادي والثقافي، من خلال لجنة تعاون مشتركة تعنى بمتابعة تلك العلاقات وتطويرها[2].

ومن المعلوم أن مذهب الشيعة الإمامية الذي تتبناه إيران هو من أنشط الحركات في مجال الدعوة، وعلى اهتمام كبير بتوفير الكتب الدينية، ومنح الفرص الدراسية لتلقي المذهب الشيعي، وقد نجحت دعوته في استقطاب عدد كبير من الأتباع، وإقامة مراكز وبرامج متعددة، وهي الآن تنتشر انتشاراً واسعًا وسريعًا في كل من أفريقيا الشرقية والغربية، مع حضور ملموس في جنوب أفريقيا كذلك، بما يرافق هذا الانتشار من توسيع هوّة الخلاف بين المسلمين، وإثارة المزيد من الشقاق والتفكك فيما بينهم.

وللعوامل السابقة وغيرها تكثر الخلافات المذهبية بين مسلمي جنوب أفريقيا، ومع وجود رابطة وطنية عامة لجمع شتات المسلمين في البلاد، إلاّ أن شيئًا من هذا لم يحل دون انتصار ثقافة الاختلاف والتفرق بين من يجمعهم من الأمور أكثر مما يفرقهم.

وإن هذه الشكليات التي نراها هيّنة جدًا، أخذت تتعدّى حجمها الطبيعي لتلعب دورًا خطيرًا هو أكبر مما يتوقع منها؛ حيث بدأت ظاهرة التكفير تلوح في الأفق المذهبي بين مسلمي جنوب أفريقيا، وقد قادت المذهبية إلى ما عبّر عنه أحد مسلمي البلاد قائلاً: «نحن معاشر المسلمين ينقصنا المعلمون الفاقهون، فبيننا أئمة هنود، وأئمة من أفريقيا، وأئمة يمنيون، وسعوديون، وكل له مذهب يدعو إليه، ويكفر الآخرين»[3].

وهذا من أوضح الاعترافات، وأكثرها شحذًا للاهتمام بمتابعة الوضع قبل أن يستفحل ويستشريَ إلى ما لا يحمد عقباه، والعياذ بالله.

---

(1) ينظر: أفريقيا لماذا؟ ص: 149، مرجع سابق.

(2) ينظر: صحيفة الفجر الجديد، ع: 9643، ص: 8 بتاريخ 23 جمادى الأولى، عام 1430 من ميلاد الرسول ﷺ، طرابلس.

(3) الإسلام في جنوب أفريقيا، مجلة الأزهر، ج: 10/ 1117، س: 61، مرجع سابق.

ج)- مشكلات الخلط بين المأثور الديني والموروث الثقافي : لئن كنّا قد سجّلنا للمهاجرين من مسلمي شبه القارة الهندية إلى جنوب أفريقيا، بأنهم هاجروا مع عقيدتهم التي كانوا حريصين عليها، ممّا أدّى إلى إسهامهم في نشر الإسلام في موطنهم الجديد، فإن من تمام الحقيقة في حقهم، الاعتراف بأنهم قد حملوا معهم أيضاً عاداتهم، وأعرافهم التي اكتسبوها من بيئتهم الهندية ذات الثقافة البرهيمية، وغيرها من الثقافات الدينية والاجتماعية.

فكان من شأن ذلك أن يحدث خلطًا عندهم بين ما هو ديني، وما هو عرفي، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار أن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا من العمال ممن يقل عادة إلمامهم بالدين، إلى جانب افتقار بيئتهم الجديدة إلى مؤسسات تعليمية ودعوية، تأخذ بأيديهم نحو الفهم الصحيح للإسلام، بعيداً عن شوائب العادات، ولوثات التقاليد الموروثة.

وقد تبدّت مظاهر هذا الخلط الذي انعكس على ممارستهم للعمل الإسلامي في جملة أمور، يمكن تحديد بعضها من خلال سلوكهم وموقفهم من القضايا التالية:

1 ـ **قضية تغييب المرأة المسلمة عن أداء دورها الإسلامي** : تتعرض المرأة المسلمة في أوساط المنحدرين من أصول هندية إلى تغييب شبه كامل، وهي في أحسن الأحوال لا يتعدى دورها في العمل الإسلامي كونه هامشيًا ودون أي تأثير كبير.

ولعلّ أصدق ما يؤكد هذا الطرح هو ما يلاحظ عند البعض من تغييب ومنع تام للنساء حتى من ارتياد المساجد والمشاركة في الصلاة، مع وجود أماكن مخصصة لهذا الغرض، وفي هذا يقول الأستاذ ديدات: «فبسبب عاداتنا، أو لسبب آخر لست أعرفه، فإننا قد جعلنا المساجد في هذا البلد قاصرة على الرجال، وفي معظم الأحوال لا يسمح للنسوة بدخول المسجد»[1]. وحتى لا يكون قوله مطلقًا على عواهنه، فإنه يعمل على توثيقه بضرب أمثلة واقعية لما ذهب إليه بقوله: «وفي مكان يدعى (إذا دويل) خصّص

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 106، مرجع سابق.

للنساء مدخل خاصٌّ، ومكـان للوضـوء، وحمامـات منفصلـة، ومصلّـى خـاصّ بهـنّ، على نحو لا يسمح للرجال برؤيتهنّ، ولكن حتّى اليوم لم تدخل امرأة إلى المسجد، لأنّ أحـد العلمـاء وقـف ضـدّ هـذا بشـدّة وقـال: «إن هـذا لـن يحـدث وسـأتصدى لـه حتـى الموت، ... والسبب هو التراث الثقافي الوافد معهم من قرى الهند»[1].

ومـن جهتـه، فقـد زودنـا أحـد زوار جنـوب أفريقيـا بشـهادة مماثلـة مـع اختـلاف المكان، حين كتـب يقـول: «... مدينـة بريتوريـا فيهـا مسـجد كبيـر جميـل وبمقربـة منـه المدرسة الإسلامية ومقر الجمعية، ومن عجيب أمره أن الإمام يمنع دخول النسـاء إليـه، كما يمنع التصوير بالكاميرا أو الفيديو، وقد اضطرّنـي هـذا أن اختصـر محـاضرتي بـه، لأنّ النساء كنّ في المدرسة ينتظرن سماع المحاضرة»[2].

واتفق ذات مرة أن استُقدمت داعية مسلمة من جامعة فرجينـا الأمريكيـة عـام 1994م واسـمها «آمنـة ودود محسـن» لإلقـاء درس في أحـد المسـاجد قبيـل خطبـة الجمعة، وقد أثار هذا الإجراء والذي يبدو لي الأول من نوعه هناك ضجّة عارمـة، وصيحة من قبل المنتقدين، فراحوا يستفتون العلماء من مصر والسعودية بشأن هذه الواقعة التي لقيت اهتمامًا واسـعًا، وتغطيـة إعلاميـة مكثفـة، عكسـت في عمومهـا ارتياح الرأي العام وتأييده لمـا رآه في هـذا الحـادث اللامسـبوق مـن تطـوّر مهـمّ، في الفهم الديني عند مسلمي جنوب أفريقيا[3].

إنّ هذه الممارسات الخاطئة الناتجة عن سوء فهم الدين تعتبر من أضرّ الأمور بـالعمل الإسلامي في هذه البلاد، التي هي أحوج ما تكون إلى حسن استغلال كـل عُنصر مسـلم لأداء واجب الرسالة الإسلامية، ومما لاشك فيه أن للمرأة المسلمة دوراً أساسيًا وحاسمًا في الأسرة وغيرهـا مـن المجـالات الاجتماعيـة، حـين يفسـح لهـا المجـال وتمكّـن مـن بعـض وسائل التبليغ، وتتوفر لها إمكانياته العلمية، وهذا كل ما يعوق المـرأة المسـلمة في جنـوب

---

(1) المرجع السابق، ص: 107.

(2) ينظر: مجلة الأزهر ج8/ 1019 1120، مج 33 عام 1381هـ = 1962م القاهرة.

(3) Islam in south Africa pp: 40 – 42 Ibid.

أفريقيا عن النهوض بدورها الكبير، إذ هي على استعداد تام للتضحية في سبيل العمل الإسلامي، وهو ما نلمحه بوضوح ونلمسه بصدق منذ ستينيات القرن المنصرم في رسالة موجّهة إلى وكيل جامعة الأزهر من فتاة مسلمة من جنوب أفريقيا، وكان مما جاء فيها: «إنني إذ أكملت دراستي إلى مستوى الجامعة اضطررت إلى ترك منزلي طلبًا للمعرفة الإسلامية، نظرًا لأنّ النساء في بلدي جنوب أفريقيا جاهلات بأبسط مبادئ الإسلام إلى درجة فاحشة، والحق أنّ الإسلام كان ينتشر وما يزال ينتشر بدرجة هائلة، ولكن لا توجد امرأة واحدة تستطيع أن تطفئ الظمأ في قلوب آلاف من رفيقاتي إلى المعرفة الدينية... إنني على استعداد لأمنح حياتي كلّها للعمل على إنهاض الإسلام، ولكنني أريد فرصة لتهيئة نفسي»[1]. وهذه الأخت تمثل أنموذجًا لكلّ النساء المسلمات في جنوب أفريقيا في إحساسهنّ بأهميّة دور المرأة المسلمة في العمل الإسلامي، وخصوصًا في تنشئة من هم أبناء اليوم ورجال الغد. ومن سوء الحظ مع إخلاصها لدينها وإجادتها لعدد من اللغات ذات الأهمية الدعوية، أنها كانت قد زارت باكستان للالتحاق بمعهد وصفت مستواه بأنه كان بسيطًا جدًا، مما دفع بها إلى التنقل طوال ستة أشهر ما بين الأروقة والأعمدة على حد قولها؛ ترجو من علماء الهند تلقينها - على الأقل - القرآن الكريم وشيئًا من الأحاديث النبوية، ولكن كلّ الذين التقت بهم - مع الأسف - لم يحفلوا بها وإنما أعاروها آذانًا صمًّا، لسبب بسيط هو أنهم لا يرغبون في تعليم أمثالها من الفتيات.

وإزاء ما تعانيه المرأة المسلمة في جنوب أفريقيا من إغفال وإهمال لدورها مع خطورته كمًا وكيفًا، قال أحد من أسلم من المنصرين «فعندما كنت قسيسًا كنت أنا وزوجتي وأولادي كُلُّنا نعمل بانهماك في الدعوة المسيحية، وفي الإسلام نرى فقط الرجل... فقد حان الأوان لأن تصبح الأخوات داعيات إلى الإسلام حتى يكون النصف الآخر من المجتمع مشاركًا في هذا العمل»[2].

---

(1) ينظر: مجلة الأزهر ج8 ص: 1019 1120، مج 33 عام 1381هـ 1962م، القاهرة.

(2) من مداخلة الأخ موسى شلونكي في المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية في طرابلس ص: 138 في الفترة مابين 11-16 محرّم 1396 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إنّ هذا التغييب ينسب إلى المسلمين لا إلى الإسلام، حيث تذكر المصادر التاريخية القديمة والحديثة عدداً غير قليل من النساء المسلمات البارزات في كافة أصعدة العمل الإسلامي: «وكان الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، يولي المرأة المسلمة عناية كبيرة، ويهتم بتثقيفها ورعايتها، لوعيه عليه السلام بمدى أهمية دورها وخطورته، وبهذا الدفع النبوي الكريم استطاعت أن تأخذ حقها كاملاً في المشاركة في الحياة العامة مع أخيها المسلم في مجالات العبادة، والعلم، والتعليم، والجهاد، والدعوة، والشورى وغيرها»[1]. وما يسجله تاريخ الدعوة المعاصر من دور رائد خالد لبعض النساء المهتديات إلى الإسلام من تحمّس وتفرغ للدعوة في مجتمعاتهن كتابة، وتبليغًا، لدليلُ صدق على موقف الإسلام من هذا الأمر، وما مثال الأخت الداعية مريم جميلة التي لفتت الانتباه في سعيها لإعادة التوازن والاعتبار لدور المرأة المسلمة، سوى أنموذج لفاعلية هذا الدور في العمل الإسلامي، وأهميته.

ومن هنا يدعو الدكتور أحمد شلبي إلى العناية بإنعاش هذا الدور، ولاسيما على الصعيد الأفريقي، وفي ذلك يقول: «ويتحتم على المسلمين وهم يضعون الأسس السليمة لرفع شأن الإسلام بأفريقية أن يوجهوا عناية كبيرة إلى المرأة الأفريقية، فالمرأة عمادُ الأسرة، ويوم تعرف المرأة الأفريقية الإسلام وحضارته وآدابه، ستنشئ أبناءها عليه، وممّا يذكر في هذا المجال أن الكنيسة عنيت بالمرأة الأفريقية في كثير من الأحوال، ودفعتها لشغل مكان بارز في المجتمع، وعملت لتُسند لها بعض الوظائف الهامة، ولتصبح عضواً واسع النشاط في بعض الأندية»[2].

2 ـ تأثير الانتماء العرقي، والتعامل على أساس طبقي قبلي: من مشكلات ذوي الأصول الهندية من الجالية المسلمة في جنوب أفريقيا، غلبة تأثير الانتماء العرقي على كثير منهم، وهذا الانتماء المتعصب يلوّث جوّ الأخوّة الإسلامية، ويعمل على

---

(1) الطالب: حمزة مايقا "نحو خطة شاملة للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر، ص: 70، بحث مخطوط لمعدّ هذه الرسالة.

(2) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6/ 724، مرجع سابق.

خلق الكثير من التوترات، والحساسيات النفسية والاجتماعية بين أبناء الأمة الواحدة، في بيئة هم فيها أقليّة مستضعفة. فعلى نحوٍ من الانتماء البغيض المتنافي مع الإسلام أصبح «المسلمون الهنود لا يحتكمون أو يضعون وزنًا للمسلمين الملوّنين أو السود، ونفس الشيء بالنسبة للمسلمين الذين ينحدرون من أصول ماليزية لا يعتبرون علماء الدّين الهنود مرجعًا لهم»[1].

وأيضًا، مما يعكّر صفو علاقات الأخوة الإسلامية بين هذه الأقلية، تعامل بعض جماعاتها، وفق نظام طبقي قبلي، إذ يفرقون بين المسلمين في الزواج، ويتبعون النظام الطبقي المعتمد برهميًا واجتماعيًا في الهند.

وهذا من غير شك من الأمور المتناقضة مع الإسلام. وطبقًا لهذه الروح الموروثة فإنهم مع وجود أئمة أكفاء من الأفارقة والملاويين يستوردون الأئمة من الهند، ممّن لا يجيدون سوى لغة الأردو الهنديّة[2]، مما يقلل من أهميتهم وتأثيرهم الدعوي في جنوب أفريقيا.

ولعل هؤلاء القوم لم يفقهوا جيدًا تعاليم الإسلام في حسم هذه المسائل، ولم يفطنوا إلى ما قاله أحد الباحثين عن الأخوة الإسلامية إذ قال: «الأخوة الإسلامية ليست انفعالاً مبهمًا أو رابطة عصبية أو دعاية سياسية أو ديماغوجية إقليمية أو خيال شاعر أو حلم فيلسوف، ولكنّها روح الحياة الإسلامية في شمولها الإنساني ورسالتها الإصلاحية وصياغتها السويّة للمجتمع البشري، مبرأة من رياح التعصّب وظلم العنصرية وجفافها»[3].

3 ـ **الوصاية على المساجد**: يعتقد بعض من لا يتمتع بأيّ قسط من التعليم الإسلامي ممن لآبائهم دور كبير في بناء بعض المساجد، أن لهم حقّ التلاعب والتحكم في تسيير شؤون المساجد، إما بتعيين الأئمة وعزلهم، أو فرض إرادتهم على من

---

(1) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 6، تقرير مرجعي سابق.

(2) ينظر: المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص: 136 137، طرابلس، مرجع سابق.

(3) الأستاذ: صلاح الدين الأيوبي: الإسلام والتمييز العنصري، ص: 162، مرجع سابق.

عينوهم من الأئمة، والذين غالبًا ما ينقادون لهم، ويرضخون لأوامرهم، التي ليس لهم أن يتجاوزوها، أو يخرجوا عنها قيد أنملة، وبذلك يبقون مقيّدين ومحصورين في نطاق ما تُملي به إرادة الجهلة من الأوصياء، وهو ما يفجّر خلافات ومشكلات تقود في أغلب الأحياء إلى المحاكم القضائية، للاحتكام في تلك المسائل.

وهذه في الحقيقة مشكلة من مشكلات الخلط بين ما هو دينيٌّ بما لا ينسجم معه من أعراف ثقافية واجتماعية موروثة.

تلكم كانت أهمّ التحديات والمشكلات التي تواجه العمل الإسلامي ويعاني منها المسلمون في جنوب أفريقيا، وقد حاولنا قدر الإمكان عرضها بإيجاز، ولكن الإطالة أبت إلا أن تفرض نفسها لأمرين اثنين:

1 - الحرص على دقة تصوير الواقع بمشكلاته وتحدّياته، استنفاراً لكل من يعنيهم الأمر من أجل إسعاف العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، حتى يشق طريقه نحو النجاح وهو أشد ما يكون صلابة على مواجهة التحدّيات، وأكثر قوة وقدرة على تحقيق انتصارات متلاحقة.

2 - إتاحة فرصة الاطلاع على هذه الساحة الدعوية بخصوبتها ومشكلاتها، وصولاً إلى تقدير صحيح لما يضطلع به في رحابها قديمًا وحديثًا عدد كبير من الشخصيات والتنظيمات من دور عظيم؛ في سبيل النهوض بالعمل الإسلامي، والقضاء على كلّ ما من شأنه أن يعرقل حركة سيره من تحديات ومشكلات. ويتمثل عدد من تِلْكَ الشخصيات والتنظيمات فيما يتضمنه المبحث الآتي:

المبحث الرابع

من شخصيات وتنظيمات

العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا

تقديراً للدور التاريخي الكبير في تعاقب الأجيال على النهوض بواجب العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا قديمًا وحديثًا، وإشادة بكلّ من الإنجازات التي تحققت حتى الآن، إلى جانب الاعتراف بما هو قائم من تحدّيات ومشكلات، آثرنا تخصيص هذا المبحث لعرض ما تيسّر من شخصيات وتنظيمات، كنماذج نتبيّن من خلالها ضمنيًا ما طرأ على العمل من تطوّرات هيّأت للشيخ ديدات الذي أسهم في بعضها فُرَصًا للانطلاق، ولتحقيق ما عرف به من انتصارات.

وبالنسبة للشخصيات التاريخية فإن أوّل من يتصدّر اسمه قائمة الشرف هو - فيما علم - الداعية الأول إلى الإسلام في جنوب أفريقيا:-

1 ـ **الشيخ يوسف الجاوي الأندونيسي**: قدم من جاوة إلى مدينة الكاب بجنوب أفريقيا مع وفدٍ مرافق له من الأهل والأتباع عام 1667م على يد الاستعمار الهولندي، إذ كان قيد نفي المستعمرين هو ومن معه، ولمّا كان من أبرز الناشطين المقاومين ممن تصدّوا للاستعمار الهولندي لأندونيسيا، فقد عمل المستعمر على إجلائه بعيداً عن مسقط رأسه، الأمر الذي كان خيراً للدعوة الإسلامية، وللشيخ كذلك، إذْ أتاح له الانتظام في سجلّ الخالدين بسبب ما بذله من جهود دعوية فور وصوله إلى منفاه بجنوب أفريقيا، وربما أسهم في تكوين وتعزيز هذا التوجّه الدعوي في نفس الشيخ يوسف ما وصف به من نفوذ عظيم، وأنه كان معلّم دين. وقد جاهد الشيخ في سبيل نشر الإسلام في البلاد حتى وفاته رحمه الله عام 1699م، وله ضريح يزار، ويعدّ مكانًا مقدسًا على حدّ قول توماس أرنولد[1].

وعلى الرّغم من قلّة المعلومات المتوفّرة عن الشيخ ودعوته، فإنّه يظل من غير شك في تاريخ انتشار الإسلام في جنوب أفريقيا، أحد أبرز عظماء الرّجال على مدى العصور.

2 ـ **الشيخ عبد اللّه هارون المناضل الشهيد**: كان رحمه الله زعيم مسلمي جنوب أفريقيا، ومن كبار الدعاة المناضلين فيها، وكان على حظّ من العلم،

---

(1) ينظر: ص: 56 73، عن تاريخ دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا من هذا البحث.

والإخلاص للعمل الإسلامي. قامت السلطات العنصرية باعتقاله، والزجّ به في السجن، بتهمة أنه نشر أفكاراً معادية للتفرقة العنصرية في صحيفة أنباء المسلمين التي كان يرأس تحريرها، إلى جانب استشهاده في المسجد بآيات من القرآن الكريم تنصّ على المساواة، والعدالة. وقد استشهد الشيخ داخل السجن في 27/ 9/ 1969م، وكان استشهاده حادثًا مهمًا ومؤسفًا في تاريخ جنوب أفريقيا. أثار امتعاض الكثير ضد النظام العنصري، ونال من التعاطف منتهاه من قبل أفراد المجتمع وفئاته على اختلاف الأديان والانتماءات السياسيّة؛ حيث قدّره الجميع وأثنوا على شجاعته، واستقامته، وتضحيته من أجل الحقّ، وقد تأثر أحد القسيسين بالحادث أيّما تأثر، فلجأ إلى الإضراب عن الطعام لمدة 67 يومًا في العراء على سفوح تل في كيب تاون، مطالبًا حكومة جنوب أفريقيا بإجراء تحقيق قضائي عادل ونزيه في استشهاد الشيخ عبد الله هارون.

وقد بادرت إحدى الكنائس في لندن إلى إقامة حفل تأبين للشيخ الشهيد، قال فيه أحد كبار الضيوف في رثائه للشيخ: «إن الرجال من أمثال الشيخ هارون سوف ينقذون عالمنا المعاصر من الشرور»[1].

وقد فات هذا المتحدث أن الشيخ كان يناضل بوحي من دينه القيم، وعلى هدي رسوله العظيم، في كلّ ما دعا إليه من حريّة، وطالب به من عدالة ومساواة وغيرها من المبادئ والقيم التي أثارت إعجاب وتقدير الجميع للشيخ الشهيد، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون.

والشيخ هارون بهذه التضحية النبيلة يعتبر مثالاً بارزًا لمشاركة الجالية المسلمة في المقاومة ضدّ نظام الميز العنصري البغيض في جنوب أفريقيا، وفي السنوات التي شهدت غليانًا سياسيًا صاهراً، ولعله من أبرز من كان الرئيس مانديلا يستحضرهم في ذاكرته حين قال تقديراً لنضال المسلمين: «تستطيع بلادنا أن تعلن وبفخر أن المسلمين إخوة وأخوات رفقاء مقاتلون من أجل الحرية، وزعماء جاهزون هنا في بلادنا.. لقد كتبوا

---

(1) ينظر: واقع ومستقبل الجالية الإسلامية في جنوب أفريقيا، ص: 41، مرجع سابق.

أسماءهم بالدّم والعرق على قائمة الشرف»[1] .

ومن الأمور ذات الدلالة أن أجهزة الإعلام الغربي رغم ما كانت تقوم به من تغطية واسعة لأحداث وتطوّرات جنوب أفريقيا في مرحلة انفجار النضال التحرّري ؛ إلاّ أنها سحبت الستار على دور المسلمين في التعبئة والمقاومة ، وبذلك يتهيأ القول : «بأن الإعلام الغربي تعمد تغييب الدور الإسلامي وغضّ الطرف عن عشرات الشهداء المسلمين الذين سقطوا برصاص الشّرطة العنصرية ولم يَرَ من الأحداث سوى وجهها الصليبي الذي يمثله القس دزموند توتو[2]» .

وقد أشاد الدكتور عبدالجليل شلبي بعظيم دور الشيخ عبدالله هارون ، وما خلفه استشهاده من فراغ شاغر فقال : «... وأحدث سجنه ثم موته فراغًا واسعًا في ميدان الدعوة الإسلامية ، ثم خلّفه ابنه محمد هارون ، وهو دون أبيه نشاطًا وعلمًا وحماساً[3]» . عوّض الله عنه الأمة خيرًا ، وأسكنه فسيح جناته .

3 ـ **الإمام أبوبكر النجار** : وهو من أبرز دعاة وأئمة جنوب أفريقيا المعاصرين ، وكان والده قد نزح من السعودية إلى هذه البلاد ، وتزوّج من أهلها ، ويعدّ الشيخ أبوبكر من مشاهير علماء المسلمين ، وله مؤلف يقع في جزأين بعنوان : «أنا مسلم»[4] وقد ترأس المجلس الوطني الإسلامي لجنوب أفريقيا ، وهو على جانب كبير من العلم والنشاط الدّعويّ. الأمر الذي نال إعجاب أحد الزوّار فقال في وصفه : «نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية موفور ، ويتمتع بحريّة لم يتمتع بها أسلافه الدعاة»[5] .

---

(1) من كلمة الرئيس مانديلا في الاحتفال بعيد الفطر في صحيفة الدعوة الإسلامية ع579 ، ص : 1 مرجع سابق ، طرابلس .

(2) المسلمون في جنوب أفريقيا يحاربون التمييز العنصري ، مجلة الأمة ع62 ، ص : 86 ، س : 6 ، عام 1406هـ 1985 ، قطر .

(3) معركة التبشير والإسلام ، ص : 183 ، مرجع سابق .

(4) ينظر : د . عبدالله نجيب محمد : "حصاد الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا" ص : 136 من مجلة الأزهر ، س62 ، 1410هـ 1989م القاهرة .

(5) معركة التبشير والإسلام ص : 183 ، مرجع سابق .

4 ـ **الأستاذ إسماعيل عبد الرزاق** : كان مقيمًا بالقاهرة عام 1966م، يحاضر في اللغة الإنجليزية بالدراسات العليا بجامعة الأزهر، وفي الوقت ذاته كان يعمل على إعداد أطروحته للدكتوراه من كلية أصول الدّين عن التفرقة العنصرية، وهو من العناصر الفاعلة على ساحة العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، حيث كان رئيسًا لحركة الصدق العالمية المتخصصة في ترجمة معاني القرآن الكريم[1].

5 ـ **الشيخ يوسف هيثم، داعية السجون** : عضو جمعية الدعوة الإسلامية بجنوب أفريقيا، وهي إحدى الجمعيات المحلية النشطة في البلاد؛ حيث استطاعت أن تسجّل لنفسها سمعة طيبة في الأعمال الخيرية، والشيخ من أبرز دعاتها، وقد اختار لنفسه القيام بواجب العمل الإسلامي في السجون، فوهب حياته لخدمة السجناء ومساعدتهم، وأنشأ لهذا الغرض في كل مدينة جماعات من المتطوعين للإسهام معه في هذا المجال الهامّ، يقوم عملهم على إعطاء حق الرعاية الدينية للسجناء داخل السجن، وتمكينهم من الحصول على أعمال يزاولونها بعد الإفراج عنهم، مع تقديم العون والدّعم الكافي لأهلهم طيلة فترة سجنهم، وكان تعرض الشيخ للحبس عام 1979م وقضائه شهرًا كاملاً، مما مكّنه من الاطلاع على التعاسة والمعاناة التي يعيشها السجناء في جنوب أفريقيا، فقاده إلى اتخاذ هذا المنهج، والتفرغ للعمل في هذا المجال[2] الذي يفتقر إلى ما يستحقه من اهتمام في السياق العام لمنظومة الخطاب الدعوي المعاصر.

6 ـ **الإمام عبد الرشيد عمر 1959م** : داعية موهوب، تلقّى جزءًا من دراسته بالمركز الإسلامي الأفريقي في السودان، وهو حامل لكتاب الله الكريم عن ظهر قلب، وحائز على درجة الليسانس في التاريخ الأفريقي، والاقتصاد، وعلى الماجستير في مقارنة الأديان من جامعة كيب تاون، فهو رجل قد جمع بين الإمامة، ومهمّة البحث العلمي، وله اهتمامات ومشاركات في تنمية حوار العقائد المختلفة، وبالتربية والتعليم الديني في جنوب أفريقيا، وكان لنشاطه المتعدّد، إلى جانب سعة أفقه وعصريته دور

---

(1) ينظر: مجلة الأزهر، ج554، 496 س38، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلة العربي ع497، ص: 147 148، مرجع سابق.

رئيس في محاولة تفعيل دور المسجد والمسلمين سياسيًا وأكاديميًا، الأمر الذي لم يسلم معه من انتقادات المعارضين ممن وجدوا في توجهاته، ونشاطاته مثار الاتهام بالتبديع، والخروج عن المألوف الديني[1]، وذلك في فهمهم القاصر، وضيق أفقهم الديني.

هذا . . ومن أبرز الشخصيات المسلمة في البلاد البروفسور سليمان الندوي رجل المؤلفات العديدة، والدور الفعّال في نشر رسالة الإسلام، وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو، ويعمل رئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية في جامعة دربان[2]. إضافة إلى عدد من البارزين أيضًا من أمثال الأستاذ عبدالقادر طيوب، مؤلّف كتاب: «الإسلام في جنوب أفريقيا: المساجد، الأئمة والخطب»، والأستاذ أيوب جدوت صاحب كتاب: «تعليم اللغة العربية» وكلاهما بالإنجليزية.

وغير هؤلاء كثير ممّن لا يدخلون تحت حصر، وهم على قدر كبير من النشاط والأهمية؛ إذ لم يدخروا وسعًا في تنمية وتطوير العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، ولكن ضخامة التحدّيات التي يواجهها العمل الإسلامي هناك وفي غيره، هي أكبر وأقوى من أن يتصدى لها أفراد مهما كانت درجة نشاطهم وإخلاصهم، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى التنظيمات والمؤسسات، مع بقاء أهمية دور الأفراد قائمًا، وإن كان قاصرًا بمفرده عن إشباع متطلبات العمل الإسلامي في هذه البلاد.

وبظهور المؤسسات في طور جديد من أطوار العمل الإسلامي؛ أخذت تسهم إسهامًا فعّالاً في نشر دعوة الإسلام، وترسيخه من جانب، وفي مواجهة التحديات والمشكلات من جانب آخر، حيث إنها تسخّر أموالها وجهودها في سبيل العمل الإسلامي في مختلف مجالاته من دعوة، وتعليم، وإعلام، وخدمات اجتماعية، وإصدار كتب ومنشورات إسلامية، وعقد ندوات علمية وحوارات دينية وملتقيات عامة، وحضور سياسي فاعل وغيرها من المجالات الهامة.

---

(1) See: Islam in sou the Africa P.P- 110 – 112 Ibid.

(2) ينظر: مجلة الأزهر ج2، ص: 136، س62، مرجع سابق.

ومن الجدير بالإشارة إليه، في فاتحة الحديث عن التنظيمات والمؤسسات الإسلامية في جنوب أفريقيا أنها بلغت من الكثرة مبلغًا جاوزت به مائة وثلاثين جمعية إسلامية ما بين عامة ومتخصصة[1]، ترتبط فيما بينها بعلاقات تعاون وتكامل، كما أن عددًا كبيرًا منها ينتظم تحت إشراف وتوجيه المجلس الإسلامي الوطني. وقد أورد أحد الدعاة قائمة باثنتي عشرة مؤسسة اعتبرها التشكيلات الرئيسة التي تتكون منها الحركة الإسلامية في جنوب أفريقيا، حشر فيها جمعيّات عامة، ومتخصصة، شبابية، وطلابية، إلى جانب مؤسسة صحفية وتعليمية تكوينية، إضافة إلى صندوق الزكاة الوطني بجنوب أفريقيا[2]، والملاحظ على مجموعته التي أوردها أنها خالية من المجلس الإسلامي الوطني الذي يشكل إطارًا جامعًا لمعظم هيئات وفعاليات العمل الإسلامي في البلاد، ولا ندري مسوّغ هذا الإغفال، فضلاً عن مستنده في هذا الحصر الكمي، إذ لا يبرر شيئًا من هذا أو ذاك.

ونظرًا لأهمية هذه المؤسسات من جانب، وكثرتها من جانب آخر، مما يجعل احتمال عرضنا الجامع لها غير واردٍ، فإننا سنكتفي بانتقاء ثلاث من أبرزها وأفعلها، تاركين لغيرنا مهمّة التأمل في تبرير هذا العرض الانتقائي، والذي قد يبدو للبعض تحيّزًا بلا مبرر.

تتمثل تلك المؤسسات في الآتي:

1 ـ **الجمعية الطبية الإسلامية**: أنشأها عدد من الأطباء المسلمين في جنوب أفريقيا في مطلع سبعينيات القرن العشرين الإفرنجي بعد أن ائتمروا، وعقدوا العزم على الاهتمام بصحة المسلمين وتقديم الخدمات اللازمة للمعوزين، والمعدمين، وكان قصدهم يتمثل في تقديم خدمات تطوعيّة من غير مقابل ودون اعتبارٍ لفوارق الدين أو اللون. وقد تسمّوا في بداية أمرهم بـ«لجنة الأطباء».

وبعد عشر سنوات من تأسيسها تسمّت باسمها الحالي «الجمعية الطبيّة الإسلامية».

---

(1) ينظر: مسلمو جنوب أفريقيا ينقصهم الرجال قبل المال، العربي ع ص: 49 مرجع سابق.

(2) ينظر: التقرير الوارد بعنوان: دراسة مبدئية عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 3-4، مرجع سابق.

وقد توسعت مع الزمن، وانضم إليها ما يبلغ 1500 عضو من الأطباء، فأنشأت بذلك مالا يقل عن 25 فرعًا في مختلف أرجاء البلاد، بعد نجاح باهر في ميادين كثيرة.

فهي تقدّم خدمات في مجال البحث الطبي والصحة العامة والتعليم، وتتواصل مع منظمات طبية خارجية في كل من أفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وترتبط بصلات متميّزة مع معاهد صحيّة، وكلّيات طبيّة، ومستشفيات في كل من أندونيسيا، والأردن وباكستان، والسودان، كما أن لها صلات وطيدة بلجنة مسلمي أفريقيا الكويتية.

ويتمثل بعض أنشطتها العامة طبقًا لمنشوراتها في العناصر التالية :-

1 - إصدار ونشر كتب ومذكرات حول قضايا طبيّة من وجهة نظر الإسلام إليها، ومذكرات تتناول مرض فقدان المناعة، والصحة الرمضانية.

2 - إجراء بحوث طبية حول العسل، وفائدته لجسم الإنسان، وما يحتويه من منافع.

3 - عقد ندوات علمية لدراسة موضوع: الأطفال في الإسلام، والمخدرات، والإجهاض، وغيرها.

4 - المشاركة في الملتقيات الدولية والمؤتمرات، والقيام بتوزيع منشورات طبيّة خلالها على المشاركين تتصل بالموقف الإسلامي من القضايا الطبيّة.

5 - تنظيم حلقات مناقشة لعدد من الظواهر الاجتماعية المؤثرة على المجتمعات المسلمة والإنسانية عامة مما يدخل في نطاق الصحة العامة، ومجالات الطب.

6 - إقامة مؤتمرات سنوية، يدعى إليها ضيوف من الخارج للمشاركة، إلى جانب أطباء محليين وعالميين مع مجموعة من خبراء الطبّ والباحثين في مختلف تخصصاته.

7 - القيام بأعمال الإغاثة، ونجدة المنكوبين بتقديم مساعدات طبية، وماديّة إن لزم الأمر، وقد حظي كل من الصومال وموزامبيق بشيء من ذلك.

8 - التنسيق والتعاون مع قسم الصحة الوطنية في جنوب أفريقيا في مجال التوعية الصحية ببيان خطورة مرض فقدان المناعة، وما يترتب على تعاطي الكحول والمخدرات من آثار وأضرار.

9 ـ الاهتمام بتطعيم الحجاج والمعتمرين القادمين من مختلف مناطق البلاد، وبالأخص من مدينتي دربان والكاب الغربية.

10 ـ تغطية برامج إذاعية عن التوعية الصحية من خلال حوارات ومناقشات مفتوحة.

11 ـ تنفيذ مشروع عيادات متنقلة في المدن والقرى المحتاجة، وذلك منذ عام 1974م، وقبل قيام الدولة بتبني هذا النوع من المشاريع، كما عملت الجمعية على تأسيس عيادات أخرى ثابتة في عدد من المناطق تُعنى بطب الأسنان، والصحة العائلية[1].

ومن الطموحات التي تراود الجمعية وتشغلها كثيراً، مشروع إنشاء مستشفى إسلامي مركزي وكبير في جنوب أفريقيا بكافة التخصصات الطبّية، والتجهيزات اللازمة، وهو مشروع دعوي عظيم يستحق تضافر الجهود المسلمة، فرديًا وجماعيًا، محليًا ودوليًا، في سبيل إنجازه.

2 ـ **شبكة الدعوة لمنطقة الجنوب الأفريقي**: وهي من المؤسسات الفاعلة محليًا وإقليميًا، إذ لا تنحصر جهودها وأنشطتها في الإطار الوطني لجنوب أفريقيا فحسب، بل وإنما تشملها، وغيرها من دول المنطقة والتي تسعى هذه المؤسسة جاهدة لتستوعبها بنشاطها الإسلامي المكثف، ومما يميّز هذه المؤسسة عن كثيرة من المؤسسات المحليّة هو شمولية كل من الدائرة الجغرافية بنشاطها، وتنوع مجالات اهتمامها العملي الجامع، وذلك على نحو يوحي بأنها تحرص على ترسّم خطى المؤسسات الإسلامية البارزة ذات الشهرة العالمية، والتجربة الواسعة وربما أمكن القول بأنها تأثرت في منهجها العملي الجامع بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجامعة بين كافة المجالات التي تخدم العمل الإسلامي، وتنفع المسلمين، وهو ما يتضح من خلال الإطلاع على أبرز أنشطة هذه الشبكة الإقليمية في مجال الدعوة الإسلامية والتي يتمثل أهمها في الآتي:

---

(1) معلومات صادرة من إحدى المطويات الإعلامية المنشورة من الجمعية الطبية الإسلامية، دون بيانات توثيقية يعوّل عليها للمراجعة.

1 ـ تعيين الدعاة إلى الإسلام، بتخصيص رواتب شهرية لهم، مقابل تفرغهم لما عُيّنوا له.

2 ـ بناء المدارس، وإنشاء مراكز إسلامية، مرفقة بأقسام داخلية للطلاب المنتظمين بها.

3 ـ إعانة الطلاب المحتاجين من أبناء المسلمين بدفع الرسوم الدراسية عنهم في الجامعات والمعاهد، إلى جانب عقد حلقات دراسية لهم في أوقات فراغهم، لتزويدهم بالثقافة الإسلامية وتعميق فهمهم للإسلام.

4 ـ بناء المساجد وترميمها، وحفر الآبار الارتوازية في المناطق الفقيرة.

5 ـ طباعة وترجمة ونشر الكتاب الإسلامي بالإنجليزية واللغات المحلّية.

6 ـ كفالة الأيتام والفقراء، وتوزيع المواد الغذائية، والملابس، والأضاحي على المحتاجين، وتوفير الخدمات الصحية لهم بتوظيف أطباء مسلمين لهذا الغرض.

7 ـ إقامة دورات تدريبية، وملتقيات تثقيفية، لتزويد الدعاة بالجديد المفيد رفعًا لمستواهم الفكري، وضمانًا لتأثيرهم العملي.

8 ـ إغاثة اللاجئين المتدفقين على جنوب أفريقيا من مختلف أنحاء القارة لظروف وأسباب كثيرة، وتوفير ما يلزم، ويحول دون اختطافهم من قبل الإرساليات التنصيرية المغرية.

9 ـ تنسيق العمل الإسلامي بين مختلف الهيئات الإسلامية المحلية والعالمية، وتبادل الزيارات مع مختلف الهيئات الإسلامية[1].

وفي ضوء هذه الأنشطة فإن الشبكة قد اشتهرت بخوض عدد من التجارب الناجحة، من خلال برامجها الآتية:

آ ـ أقامت الشبكة عددًامن الدورات التربوية للمعلمين بداية من 1994م، هادفة من ورائها إلى خلق أجواء اللقاء لتبادل الخبرات، والنظر المشترك في إمكانيات التجانس والمواءمة بين المنهج الإسلامي، والوطني في مدارس جنوب أفريقيا.

---

(1) ينظر: إحدى المطبوعات الإعلامية التي تنشرها الشبكة باللغة العربية في عدد قليل من الصفحات للتعريف بنفسها، وبأبرز أنشطتها.

ب ـ عقدت الشبكة عدّة مخيمات ونـدوات تثقيفية في مجال الدراسات القرآنية والسنة، والفقه الإسلامي، وكلّ ما يتصل بالثقافة الإسلامية عمومًا.

ج ـ تكفّلت الشبكة برعاية وكفالة ما يقدّر بمائة طالب بمنحهم مِنحًا دراسية مجزية، ودفع رسومات الدراسة عنهم، وتكاليف السكن، ومصاريف المواصلات، والمقررات الدراسية، وتوزيع هؤلاء الطلاب في مختلف الجامعات المحلية، وفي الجامعتين الإسلامية بالسودان، ويوغاندا. وإلى جانب هذا الدّعم تقوم الشبكة بتنظيم حلقات دراسية للأخوات المسلمات، ولمن يتمتّعون برعايتها من الطلاب الممنوحين. إلى جانب إقامتها بين الفينة والأخرى دورات في العلوم الشرعية يشارك فيها طلاب موفدون من مختلف مؤسسات التعليم الإسلامي في البلاد، كما يحضرها عادة ضيوف أجانب من الشخصيات والمنظمات العاملة في حقل العمل الإسلامي على الصعيد العالمي، ويضاف إلى ما ذكر من أعمال الشبكة عنايتها بالعمال والحرفيين والإداريين، بتزويدهم بمعلومات مفيدة ومساعدة لهم على مواجهة أعباء الحياة، وظروف المجتمع، وتعميق صلتهم بدينهم وثقافتهم فيصبحوا بذلك دعاة غير محترفين يمارسون العمل الإسلامي من خلال مهنهم ووظائفهم التي تتيح لهم فرص اللقاء والتفاعل مع شريحة عريضة من مجتمع جنوب أفريقيا.

د ـ وُفّقت الشبكة في إقامة عدد من المراكز الإسلامية المتواضعة، وتتكون عادة من مسجد صغير مرفقٍ بمدرسةٍ لا تتعدى غالبًا ثلاثة فصول دراسية، لتدريس القرآن الكريم، والحديث، والعقيدة، والفقه، والتفسير، والسيرة، وغيرها، مع سكن للمدرسين، والضيوف الزائرين.

وينتظم في عداد هذه المراكز مركز «فيرولام» للفتيات المسلمات، والدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات، يتعلّمن فيه العلوم الإسلامية، ويتدرّبن على مهارات وفنون الخدمات المنزلية، والاجتماعية، على أن أنشط هذه المراكز التابعة للشبكة هو فيما أظن مركز الفرقان الإسلامي الذي ينشط في مجال العمل الإسلامي في السجون على شاكلة

ما يقوم به داعية السجون : الشيخ يوسف هيثم ومن معه من دعاة تابعين لجمعية الدعوة الإسلامية في جوهانسبرج ، كما يُعنى المركز بإلقاء محاضرات في المعاهد العليا ، وتوزيع كتيبات إسلامية ، ومزاولة العمل الإسلامي في زيارة المنازل ، ومن خلال الدعوات العائلية على غرار ما يفعله المنصرون في أوساط بعض المجتمعات المسلمة .

هـ - تُولِي الشبكة اهتمامًا فائقًا للزيارات الميدانية ، وتتجشّم في سبيل ذلك مشاق السّفر عبر آلاف الأميال إلى المناطق الواقعة في نطاق عمل الشبكة لتفقد أحوال المسلمين ، والوقوف على واقع العمل الإسلامي ، في إطار السعي الدائم لتوطيد العلاقة مع المدرّسين ، والدعاة ، والمراكز والمؤسسات القائمة في تلك المناطق ، وتقديم ما تدعو الحاجة إليه من مساعدات في مجال الدعوة والإرشاد ، ولإصلاح ذات البين ، في المناطق التي تثور فيها أحيانًا نزاعات بين المسلمين .

وللأخوات المسلمات أيضًا مشاركة في برنامج الزيارات الميدانية المحدودة في الأوساط النسائية ، وذلك للوقوف على مشكلاتهن والمساعدة في الوصول إلى حلول مناسبة لها .

و - للشبكة عناية بالغة باستخدام الجانب الإعلامي في عملها الإسلامي ، سواء عن طريق الصحف الدورية التي تنشط في توزيعها مجانًا بواسطة محطّات تابعة للشبكة ، أم من خلال برامج الدراسة بالمراسلة في تخصّصٍ يجمع بين المواد الإسلامية ، وموضوعات الإسلام وأساليبه[1] .

وبهذا يتأكد ما أومأنا إليه من تميّزٍ لهذه الشبكة في توسعها الإقليمي ، وتنوّعِ مجالاتها العمليّة .

3 ـ **منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا** : هي إحدى المنظمات المحلية التي تتمتع بنفوذ داخلي كبير ، وشهرة خارجية واسعة من خلال علاقات

---

(1) ينظر : بشأن المعلومات السابقة ، حولية شبكة الدعوة لمنطقة الجنوبي الأفريقي لعام 1997م 1996م بالإنجليزية .

التعاون التي تربط بينها وبين عدد من المؤسسات القيادية في حقل العمل الإسلامي، وقد اعتبر فيما سبق تأسيس هذه المنظمة من أبرز تطورات المرحلة الرابعةِ من تاريخ العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وذلك في سبعينات القرن العشرين، حيث غطّت بنشاطها الفاعل مختلف مناطق البلاد بشبكة من الفروع، بلغت خمسة وعشرين فرعًا، وقفزت من جانب آخر بعلاقاتها الوثيقة خارج حدود البلاد لتتحالف مع مراكز شبابية في عدد من الدول المجاورة، وخاصة في موريشيوس، وبتسوانا، وناميبيا طبقًا لما يمليه عليها شعارها من مبدأ «كل المسلمين إخوة»، وتنفيذًا لسياستها في الصداقة مع الجميع دون تفريط في المبادئ، وبفضل جهدها وتعاونها استطاعت أن تحرز قدرًا كبيرًا من النجاح، وتحقق عددًا من الإنجازات المحليّة، مثل إنشاء مؤسسة الزكاة، ومعسكر الشباب، ومؤسسة علاجيّة[1]، وإليها يعود الفضل بتوفيق من الله تعالى في إنشاء أوّل مركز إسلامي للشباب المسلم، وأولى مكتبة إسلامية في جنوب أفريقيا[2].

ومن مميزات منظمة حركة الشباب تركيزها على الأشخاص الأكثر وعْيًا، وخاصة من شباب المدن. وتستخدم لتحقيق أهدافها الإسلامية عدة وسائل إعلامية، وبرامج عملية، الأمر الذي أتاح لها شرف إحداث نقلة نوعية في مسيرة الدعوة الإسلامية في البلاد، حيث كانت الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا مركزة لأكثر من قرن من الزمان على إنشاء المساجد وفتح المدارس في أوساط المسلمين، دون اهتمام ملحوظ بجانب الدعوة بين غير المسلمين، وما أن ظهرت حركة الشباب المسلم في السبعينات حتى هبّت مع غيرها من المؤسسات لتنظيم برامج وعمليات نشر الإسلام بين مختلف من تستوعبهم صفة غير المسلمين[3].

ولعلّ في الحواجز العرقية المقنّنة، ما يكفي لتبرير ما شهده العمل الإسلامي من فتور، قبل ظهور منظمة حركة الشباب بسبب القصور والعجز عن تجاوز العقبات،

---

(1) ينظر: "حصاد الدعوة في جنوب أفريقيا" مجلة الأزهر ج2/ 136 س62، مرجع سابق.

(2) ينظر: "شؤون العالم الإسلامي" مجلة حضارة الإسلام، ع9، ص: 107، س: 4، 1383هـ 1964م دمشق.

(3) ينظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، 210، مرجع سابق.

وبذلك ينتفي كل مظنّة للإهمال أو التقصير.

ومهما يكن من شيء فإن مما يصحّ، القول بأن ظهور حركة الشباب المسلم وما وفقت له من مجهودات وإنجازات، يمثل ثورة نشطة في تفعيل العمل الإسلامي في منطقة الجنوب الأفريقي بما تحويها من دول، وأقاليم، حيث تتزايد أعداد المهتدين الجدد إلى الإسلام مع انعقاد كل مؤتمر يقيمه الشباب المسلم في المنطقة. وقد «دخل في الإسلام أعداد كبيرة بعد انعقاد المؤتمر الأول للشباب المسلم في جنوب أفريقيا عام 1397هـ واشترك فيه 11 دولة من جنوب أفريقيا، لتدارس أحوال المسلمين، ومستقبل الدعوة الإسلامية هناك»[1].

ومن حيث القضايا والبرامج فإنها تستقطب اهتمام هذه المنظمة أكثر من غيرها ومن أهمها:

أ ـ مواجهة التحديات القائمة بأساليب حضارية معاصرة: ففي ظل الأوضاع السياسية للبلاد، وما يمكن أن تتولد عنها من تحدّيات سياسية، فإن حركة الشباب تعمل على احتواء الأحزاب السياسية واختراقها من الداخل، للوصول إلى مواقع التأثير فيها لما يخدم القضايا الإسلامية، ويؤمّن الحفاظ على هويّة المسلمين، كما أنها تواجه الحركات العلمانية، والتيارات الإباحية، وجحافل المجرمين، والمنحرفين، بتقديم ثقافة إسلامية بديلة، لا تنحصر في توجيه الشباب نحو القرآن الكريم والسنة فحسب؛ وإنما تدفع بهم أيضًا لخدمة الإسلام[2]، ولو من خلال القدوة الصالحة المتمثلة بتعاليم القرآن الكريم، لاستهواء الآخرين، وشدّهم إلى جمال منهج القرآن الكريم في تنظيم الحياة.

ب ـ العناية القصوى بالتعلم والتربية القيادية: تصْرف المنظمة جزءًا كبيرًا من مجهوداتها في مهمة تكوين شباب قياديين في المستقبل، وهو إلى جانب أهميته لإنسان عصرنا، يضمن للأمة المسلمة قيادة مستمرة عبر الأجيال، تتصف بقدر عال من

---

(1) المرجع نفسه، ص: 215.

(2) اقتباس بالمعنى من إحدى صحف منظمة حركة الشباب المسلم باللغة الإنجليزية خالية من موثقات الإحالة.

الخبرة، والالتزام، والحكمة، والتبصر، والتضحية من أجل حياة الأمة، وتقدّمها. وفي سبيل هذا البعد التكويني باعتباره تخطيطاً للمستقبل على المدى القريب والبعيد، تقوم منظمة الشباب بتنظيم مخيمات شبابية، وحلقات تكوينية ومحاضرات عامة تعالج أساساً مواضيع تتعلّق بدور الشباب المسلم في مختلف الدوائر الاجتماعية والوطنية والأممية، وتتناول مختلف القضايا التي تمتُّ إلى موضوع القيادة بصلة معرفية. وفي إطار تعاون منظمة الشباب مع غيرها من الجهات الداخلية والخارجية العاملة على ساحة العمل الإسلامي، قامت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بدعم منظمة الشباب، والتنسيق معها في تنظيم عدد من البرامج الناجحة في مجال تأهيل الشباب وتنمية المهارات القيادية لديهم، وتبصيرهم بدورهم الحيوي في خدمة قضايا الدين والوطن. وهذا التعاون في مختلف مظاهره وأطرافه، يعكس الوعي لدى كل طرف بأن قدراته وجهوده وحدها - مهما كانت - لا تفي بتلبية مطالب العمل الإسلامي المتعدّدة، وأنه لا يتحقق ثمة تقدم لهذا العمل حين تستقل كل مؤسسة بجهدها الخاص، دون أن تتضامن مع شقيقاتها من مئات المؤسسات والمنظمات الإسلامية في العالم، وقد وجدت منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا، في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: 2] عاملاً دافعاً نحو المزيد من الاهتمام بالبرامج والنشاطات التعاونية.

ج ـ **الاستعانة الواعية والواسعة بالإعلام ووسائله**: تستعين منظمة حركة الشباب المسلم بمختلف الوسائل الإعلامية المتاحة لها بملكية أو إجارة، لنشر معلومات صحيحة عن الإسلام في ظل سعي هادف بناء، يقودها أحياناً إلى إصدار وترجمة ونشر الكتب الإسلامية التي ترى لها المنظمة أهمية بالنسبة لواقع عملها، من مؤلفات في العبادات، وأخرى فكرية، أو اجتماعية.

وفي سياق الاستعانة بالوسائل الإعلامية، تنشر المنظمة صحيفة تصدر من مدينة دربان باللغة الإنجليزية تعدّ من أشهر الصحف الإسلامية في جنوب أفريقيا، وأوسعها

انتشاراً، وهي صحيفة القلم الشهرية، التي تحتم علينا شهرتها وأهميتها تقديم صورة سريعة وعامة عنها من خلال الأسطر الآتية:

4 ـ نظرة مجملة في محتوى صحيفة القلم الشهرية من خلال بعض أعدادها الهامة:

في اطلاع سريع على بعض أعدادها الرمضانية والتي تعتبر أهمّ وأغنى من غيرها نرصد في تصويرنا لمحتوى الصحيفة وتوجهاتها، جملة القضايا الآتية:

1 ـ تعنى الصحيفة بتوثيق مختلف النشاطات الإسلامية البارزة في جنوب أفريقيا، مع التركيز على اللقاءات الدولية التي يشارك فيها ضيوف من الخارج ممثلة عن جهات مشاركة في التنظيم أو مدعوّة. واحتفاءً بالضيوف، يظهر التركيز عليهم واضحاً تقديراً لمشاركتهم، وإبرازاً للبعد العالمي للعمل الإسلامي المشترك.

2 ـ تخصّص الصحيفة حيزاً كافيًا لتغطية المناسبات الدينية من رحلات الحج والعمرة، والأعياد والأشهر الكريمة في حياة المسلمين كرمضان، وغيرها، مع اهتمام خاصٍ بشهر رمضان الكريم، وإبراز فائدة الصيام، ومنافعه الدينية والصحية. ولما تحظى به الأعداد الرمضانية من تغطية واسعة، فإنها تتميز بجودتها، وسعتها واستيعابها لقضايا أوسع وأشمل.

3 ـ تتابع الصحيفة تطورات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وتطلع القراء على مختلف الإنجازات التي تحققها كافة المؤسسات والمنظمات الإسلامية في البلاد، كما تحرص على التعريف بالمنظمات الإسلامية والهيئات الجديدة هناك.

4 ـ تعمل الصحيفة على تثقيف القراء بتقديم ملخّص كتب، وبحوث إسلامية مفيدة لتعميق الفهم بالإسلام وترسيخ الانتماء الإسلامي.

5 ـ تهتم بقضايا الأمة المسلمة في مختلف مواطنها، حيث تعمل على نشر إعلانات طلب تبرّعات للأخوة الفلسطينيين، بواسطة مؤسسة الأقصى في جنوب أفريقيا. ولها اهتمام كذلك بأحداث العالم الإسلامي في المجالات الدينية؛ كمسابقات

القرآن الكريم العالمية، وفي القضايا السياسية؛ كالوضع السياسي في السودان وأندونيسيا ونيجيريا.

6- ترشيد مسلمي جنوب أفريقيا، وتوجيههم في حياتهم العامة والخاصة، وتنتقد الصحيفة في هذا الشأن انتماء بعض المسلمين إلى الأحزاب التي تُصادق إسرائيل، وترتبط معها بعلاقات صداقة وتعاون، مع إشارة مبشرة إلى اختراق المسلمين للأحزاب السياسية في البلاد، وارتقاء بعضهم إلى مواقع قيادية متميزة في الهرم التنظيمي لبعض الأحزاب البارزة في جنوب أفريقيا، وتنشر - ضمن اهتمامها بالتوعية والترشيد - مقالات عن موقف القرآن الكريم من فرقة المسلمين، وانشقاق صفهم، مركزة على نصوص الوحدة والأخوة الإسلامية، وعلى مفهوم التعاليم الجماعية في الإسلام، وتنعى على الخلاف بشأن هامشيات وجزئيات لا تستحق أن يختلف بشأنها.

7- التعريف بالخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، من خلال نشر نُتف من سيرهم ومنهج حياتهم دعوة إلى التأسي بهم في فضائلهم، وطاعتهم لله ورسوله.

8- تعرض الصحيفة أهمية الشباب المسلم، ودورهم المستقبلي في البلاد، ولا سيما الطلبة المسلمين ممن يتوزعون رجالاً ونساء في مختلف الجامعات، ويتخللون معظم التخصصات، الأمر الذي يقدّم أهمية مستقبلية للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا حين تتأتى لهم فرص المشاركة الإيجابية في تسيير شؤون البلاد وإدارة مقاليد الحكم فيها، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار حرصهم على شخصيتهم المسلمة وحفاظهم على هويتهم الثقافية، حيث يهتمون باقتناء الكتب الإسلامية، وأداء جماعي للصلوات المفروضة في أماكن مخصصة لذلك في مؤسساتهم الجامعية، بالرغم مما يتعرضون له أثناء الصلاة من استفزاز المشاكسين بتعلية أصوات الإذاعات الصارخة والأغنيات الصاخبة.

9- تتضمن أعداد صحيفة القلم الشهرية إلى جانب ما سبق، إعلانات تجارية وتشهيرات

لمختلف البضائع المباحة، وللمناسبات، والمشاريع، والمؤسسات وغيرها[1]، وهـي في هذا الجانب لا تقل أهمية عـن أي صحيفـة تجاريـة متخصصـة في هـذا المجـال، والظـاهر عليها أنها تلوّنت في هذا الشأن، بطابع البيئـة، فطاوعتهـا في مؤثراتهـا الاقتصاديـة إلـى حد ظاهرٍ، وفضلاً عـن ذلك فإن صحيفـة القلـم تعكـس واقـع العمـل الإسـلامي في جنوب أفريقيا وتشكل بذلك مرآة يمكن أن نطـالع مـن خلالهـا وضـع مسـلمي جنـوب أفريقيا، وحركة العمل الإسلامي في البلاد، وفيما جاورها من المناطق.

ومع وجود صُحفٍ إسلامية أخرى في البـلاد كصحيفـة أخبـار المسـلمين، ومجلـة الخليل، واليقظة، وغيرها، إلا أن لصحيفة القلم اعتبـاراً وتميـزاً يجعلهـا في عـداد أهـم الصحف الإسلامية في البلاد، وأكثرها تداولاً، ولا غروَ في ذلك فهـي صحيفـة منظمـة شبابية فاعلةٍ طموحـةٍ، شـهد لهـا أحـد البـاحثين متحدثـاً عـن المنظمـات الإسـلامية في جنوب أفريقيا شهادة مطّلع خبير بقولـه: «... ومـن أكثـر التطـورات بـروزاً هـي ظهـور حركة الشباب المسلم بجنوب أفريقيا»[2].

وإنّ أيّ تحوّل في قيادة العمل الإسلامي في جنـوب أفريقيـا قـد يتّجـه - فيمـا أعتقـد - لصـالح منظمـة حركـة الشباب المسـلم، التـي يتوقـع منهـا أن تلعـب دوراً فـاعلاً ومؤثـراً في مستقبل العمل الإسلامي هناك، وفي تحسين أوضاع المسلمين، وتفعيل دورهـم في مختلـف المجالات الحيوية تفعيلاً جديراً بمقام دينهم وكفاحهم، ومعبّراً عن تطلّعات الأقلية المسلمة في الإسهام الحضاري في معركة البناء الوطني لجنوب أفريقيا المتحرّرة المتعثّرة.

ومـن أطيـب الأمـور الباعثـة علـى التفـاؤل، والمبشـرة بـالخيّر في مستقبل هـذه الحركـة الشبابية، هو أنها تترجم إلى واقع عملي آمال جيلٍ صاعد يتطلع إلى التغيير الخيّر، ويعمـل جاهداً من أجل تحقيقه، باذلاً قصارى جهده في سبيل الوصول إليه وبأي ثمنٍ شريف كان،

---

(1) للوقوف على صورة عامة مما ذكر، ينظر: مجموعة الأعداد التالية من صحيفة "القلـم" الحلقة 25 ع11 عـام 1999ف، والأعداد 1، 2، 3، من الحلقة 26 عام 2000ف.

(2) دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين في جنوب أفريقيا، ص: 4، مرجع سابق.

تحت شعار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وفي سياق دراستنا إسلاميًا لهذه البيئة التي تسعى منظمة حركة الشباب المسلم حثيثًا بثقل لا يمكن معه تجاوز تسجيلها في النقاط الآتية:

1 - إن مجال العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا يمتاز بخصوبة مثمرة قلّ نظيرها، فهي مهيأة للغاية لتلقي المجهودات الإسلامية المخلصة، ولتتحوّل في ظرف وجيز إلى ثمار يانعة مباركة، وإنّ الحديث عن العمل الإسلامي والمسلمين في هذه البلاد فيه الكثير من الإيجابيات والمزايا، إلى جانب ما يقابلها من تحدّيات ومشكلات. وإنّ المجال مُتاح اليوم لبذل المزيد من التضحيات اللازمة بشأن العمل الإسلامي والمسلمين في البلاد. ولغلبة عوامل التفاؤل يمكن القول بأن رأس الرجاء الآن، قد أصبح صالحًا، على الأقل لنجاح العمل الإسلامي فيه، إجابة على سؤال علمي طرح عنوانًا لمقال سابق هو: رأس الرجاء هل أصبح صالحًا؟

2 - إنّ اهتمام مسلمي العالم الإسلامي بإخوانهم في جنوب أفريقيا، وإن كان قد أخذ في النشاط في الآونة الأخيرة، إلاّ أنه يصدق عليه القول بأنه أقل مما يلزم، ومن ثمّ فإن ملاحظة توماس أرنولد في مساق حديثه عن مسلمي الكاب ما تزال قائمة ليومنا هذا، وهي الملاحظة التي صاغها في قوله: «ولم يكتب عنهم الرحالة الأوروبيون، بل إخوانهم في الدين، حتى الأيام الأخيرة إلاّ مذكّرات قليلة»[1]، الأمر الذي يضفي على أي محاولة للكتاب في هذا الموضوع طابعًا من المغامرة العلمية، التي قد تؤدي في حالات النجاح إلى استحقاق وسام الجدّة والإبداع العلميين، إذ لم تتطوّر كثيرًا فيما أرى معرفة المسلمين بإخوانهم في جنوب أفريقيا عما كانت عليه منذ قرابة قرن من الزمان.

3 - من المحامد التي تسجّل لمسلمي جنوب أفريقيا تعلّقهم بدينهم، وتمسكهم بهويّتهم

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص: 388، مرجع سابق.

وتضحيتهم الغالية في سبيل إشاعة روح الإسلام ونوره فيمن وفيما حولهم، تضحية تعدُّ من النوادر التي تحكى من نوعها. ولعلّ ذلك ناتج من:

4 - أنّ الجالية المسلمة في البلاد لم تتجاوز كونها أقليّة، وهو ما يتضح من خلال الأعداد التقريبية لمن يترددون على المساجد، ولمن يشاركون في الندوات والدورات، والمنتظمين للدراسة في المدارس والمعاهد الإسلامية، وعليه فكلّ الأمارات تُوحي بأن المسلمين أقلية، ولكنها فاعلة[1]، الأمر الذي يلقي عبئًا ثقيلاً على عاتق المسلمين جميعًا، يتمثل في السعي الحثيث، والعمل المتواصل، لنقل المسلمين هناك من واقع الأقلية إلى وضع الأغلبية على المدى القصير، وفي أقرب وقت ممكن.

5 - من مزايا العمل الإسلامي في هذه البلاد غلبة الميل إلى التعاون بين المؤسسات، والتنظيمات في تنفيذ البرامج والمشاريع الإسلامية، كل في حدود اختصاصه، وقدر تعلق الأمر به.

ومن أمثلته: التعاون في إقامة الندوات والدورات، وفي تنظيم مخيمات الشباب، وملتقيات تنظيم وتنسيق العمل الإسلامي. ويحظى كل من السودان وليبيا والسعودية والكويت كجهات خارجية بالنصيب الأوفر من أسهُم الجهات التي يتعاون معها غالبًا.

6 - ومع إشادتنا بروح التعاون المتميزة، إلاّ أنها تطفو أحيانًا على السطح مشكلات الارتجال والعفوية، وعدم التخطيط السليم، كالإقدام على بعض المشاريع العملاقة من غير دراسة كافية لمختلف الحيثيات والملابسات، والنّظر في جملة الاعتبارات والظروف الموضوعية، ومن ذلك ما ورد في صحيفة القلم من أن السعودية كانت قد اعتزمت إنشاء مسجد كبير باسم الملك فهد بن عبدالعزيز يتسع لأكثر من ألفي مصلّ، مشفوعًا بمدرسة إسلامية، وغيرها من المرافق اللازمة؛ بقيمة 10 مليون دولار، فوقع اختيارها، على منطقةٍ ريفية يقيم فيها أقل من عشرين أسرة مسلمة، الأمر الذي قاد بعض المسلمين للوقوف في وجه هذا

---

(1) ينظر: كتاب الأقليات المسلمة في العالم.. ظروفها المعاصرة، مج2/ 949.

المشروع، مقترحين منطقة «سويتو» القريبة من جوهانسبرج، والتي تحظى بالأولوية، إذ يقيم فيها أكثر من 3000 مسلم فضلاً عن نموّ متزايد لعدد المسلمين يومًا بعد يوم[1].

إن هذه الواقعة تؤكد ما يعاني منه العمل الإسلامي من نقص فادحٍ في التخطيط، رغم تعالي صيحات الدعوة إليه، وتعبّر من جانب آخر عن إهمال واضح في التعرف على أولوية الحاجات لمن نتوجّه إليهم بالخطاب الدعوي، مقابل اهتمام بقضايا وإن كانت مهمة إلاّ أنها تأتي على حساب ما هو أهمّ منها.

وربما عبّرت الواقعة عن أسلوب من الأساليب الانفعالية الساذجة التي تحاول الردّ على الخطاب التنصيري الدعائي، الذي يستفزّ المسلمين ويتحدّاهم في بناء المعابد الفاخرة في عقر ديارهم، وفي عمق أحيائهم، ويسابقهم إلى المساحات الخالية التي يقلّ فيها عادة أتباع كل من الديانتين. وإن صحّ هذا الافتراض فإنه ليس من الحكمة في شيء أن ننشغل بمجاراة الخصم على شاكلته، وعلى حساب أولوياتنا، وأهدافنا النبيلة، في ظرف تشتد فيه الحاجة إلى ترشيد التصرف في كل صغيرة وكبيرة من الإمكانيات المادية والإنسانية والفكرية المتاحة لنا.

7 - على الرغم من كل ما قلنا من تحديات نوعية، ومشكلات ثقافية معقدة فإن تلك التحديات والمشكلات لم تقف في يوم من الأيام في وجه انتشار الإسلام كليًّا. وأمام كل موقف مناوئ كان المسلمون يمتازون بالقدرة على المناورة، والاعتماد على المجهود الفردي غير المنظم في الدفع بحركة انتشار الإسلام نحو الأفضل، مع أن الكثيرين منهم كانوا يفتقرون إلى الوقت الكافي بحكم عدم تفرّغهم، وتعوزهم الدّربة على أساليب الدعوة، وقلّة ما يلزم من إمكانيات تضمن حسن النجاح في العمل الدعوي.

8 - لا نبالغ حين نقول استناداً إلى ما تشهده جنوب أفريقيا في هذه المرحلة من نشاط

---

(1) Al-Qalam: Volume 26. No3, P:2 March 2000.

إسلامي هائل، وانتشار سريع للإسلام في جنباته، بأن البلاد في تاريخها الإسلامي، تمرّ حقيقة بحالة صحوة إسلامية قوية وجادّة، وإنّ هذا الغليان الاجتماعي الذي يصهر هذه البلاد لصبغها قريبًا بصبغة إسلامية، يقف من ورائه جنود مجهولون أخلصوا النية، وأحسنوا العمل لله، إلى جانب من ذكرنا من شخصيات تاريخية ومعاصرة، ومؤسسات وتنظيمات إسلامية كثيرة، مثل اتحاد الطلبة المسلمين، منظمة الجهاد الإسلامي، صندوق الزكاة الوطني بجنوب أفريقيا، جمعية المحاسبين والمحامين المسلمين، خدمة الكتاب الإسلامي، وحركة قبلة، جمعية الدعوة الإسلامية، وغيرها كثير ممن يعملون واصلين الليل بالنهار لرفع راية الإسلام عاليةً خفاقة في آفاق جنوب أفريقيا، ومحيطها الإقليمي.

وفي خضمّ هذا النشاط العارم تشمخ منارة شخصية دعوية فريدة، ذات خطاب دعوي متميز؛ يشكل نسيجاً وحده في هذه البيئة، وربما في غيرها في عصرنا هذا، وقف صاحب هذا الخطاب الفذّ شامخًا بمفرده، ومن خلال مؤسسته يدعو إلى الإسلام محليًا وعالميًا، وهو يعدّ ثالث ثلاثة ممن برّزتهم هذه البلاد من الشخصيات التاريخية التي قدّر لها الخلود على صفحات تاريخ عالمنا المعاصر، من ذوي الشأن الكبير والقدر العظيم، ولئن كان أحدهم وهو الرئيس مانديلا غنيًا عن التعريف به بفضل نضاله السياسي الطويل المرير، فإن مما لا يعلمه الكثيرون عن الثاني وهو المهاتماغاندي الزعيم الروحي للهند الذي جمع بين الكفاحين السياسي والروحي، أنه انطلق من جنوب أفريقيا ليعانق ما اشتهر به من مجدٍ تاريخي مشهود، حيث كان قد وصل إلى بريتوريا عام 1893 بدعوة من بعض الجماعات المسلمة للمساعدة في المحاماة أمام محاكم جنوب أفريقيا، فشاء له القدر أن يقضي فيها نيفًا وعشرين سنة، «وهناك ألقى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة والضنك مع أولئك البائسين، ويشاطرهم الظلم الذي يخضعون له ويريد أن ينقذهم منه»[1]. وفيها كذلك نذر وزوجه التنسك، والتبتل وهو في السادس والثلاثين من عمره ومن خلال ما لاقاه ووقف عليه في هذه البيئة من

---

(1) عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتماغاندي، ص: 25، ط/ 1408هـ 1988م المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

معاناة في حقه وفي حق غيره، تشرّبت روحه وهج النضال السياسي، والروحي، في رحلة حياةٍ شاقة ومضنية، شغلت صفحة بارزة من تاريخ النصف الأول من القرن العشرين.

أمّا ثالث شخصيات هذه البيئة التي تصنع الرجال والأحداث، وتخلق المفاجآت الكبيرة، فهو الداعية العظيم الشيخ أحمد ديدات موضوع هذه الدراسة، والذي ستتكفل الصفحات القادمة بالحديث عن منهجه الدعوي، وماكان له من شأن في ذلك، وعليه فإن الفصل الأول مع ما اتسم به من إفاضة ضرورية غير مقصودة، فهو في جملته محاولة للإجابة على مجموعة أسئلة عن جنوب أفريقيا واقعًا جغرافيًا وتاريخيًا. وعن الإسلام والمسلمين فيها بعامة، وعن تشخيص للبيئة التي نشأ فيها الشيخ ديدات متفاعلاً معها، مؤثرًا ومتأثرًا، تمهيداً للإجابة على مجموعة أسئلة مفادها: من هو الشيخ أحمد ديدات كيف بدأ وكيف توسط؟ وإلام انتهى؟ ماذا حقق؟، وفيم أخفق؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي يحاول الفصل اللاحق أن يتلمّس طريقه للإجابة عنها.

الفصل الثاني

الشيخ أحمد ديدات بيئته ونشأته

المبحث الأول : التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا .

المبحث الثاني : بداية عهد الدّاعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي .

المبحث الثالث : أنشطته ومجالات عمله الإسلامي .

المبحث الأول

التعريف به وبعائلته في جنوب أفريقيا

هو الداعية أحمد حسين ديدات من مواليد 1/ 7/ 1918م في قرية من أعمال منطقة سوارت الهندية من أبوين مسلمين هما حسين ديدات، وفاطمة بنت حافظ.

التحق بعد تسع سنوات من ولادته بوالده الذي هاجر إلى جنوب أفريقيا في وقت مبكّر من طفولة نجله المبارك، واستقرّ به المقام في مدينة دربان لمزاولة عمله في مجالي الخياطة والعقارات، وفي العام الذي فارق فيه أحمد ديدات أمه وأخته في بلاد الهند للحاق بأبيه توفيت والدته عليها الرحمة عام 1927م.

وبعد مرور خمس سنوات، والشيخ حسين ديدات يعاني من وطأة ذكريات فقيدته الوفية، معزيًا نفسه بجمال أيام العشرة وسعادتها، استطاع أن يُقاوم ما تعرّض له من هزّة نفسية في مصابه الجلل، وربما بمساعدة حركة الزمن التي عملت على التخفيف من حجم الصدمة وشدّتها فقرّر أخيرًا في عام 1936م أن يتزوج وللمرة الثانية في مهجره، فارتبط بسيّدة مسلمة ارتباطًا شرعيًا كان من ثماره الأبناء الآتية أسماؤهم مقرونة بتواريخ ميلادهم:

محمد 1933م، عبد الله 1935م، قاسم 1945م، عمر 1946. فشكل هؤلاء الإخوة بالإضافة إلى الأخ الكبير، والوالد نواة عائلة ديدات الجديدة في جنوب أفريقيا، انطلاقًا من مدينة دربان وما حولها من الضواحي التي عُرِفُوا بها واشتهروا فيها، وقد تعاونوا في فترة لاحقة على البرّ والتقوى بالدعوة إلى دين الله، والمرابطة على منافذ تسلل المهاجمين من أعداء الإسلام والمسلمين. وإن كان قد تميّز من بينهم أكثر من غيره إلى جانب أحمد ديدات أخوه عبد الله ديدات الذي ظل ملازمًا ومشاركًا له في أكثر المناسبات، والمواقف[1]. ويفيد تقصّي أحوال هذه الأسرة أنها في غالب أطوار وجودها المبكّر في جنوب أفريقيا لم تكن تنعم بتوفر المقوّمات الماديّة الضرورية لحياة أفرادها؛ حيث كان الوالد حسين ديدات قد بادر فور قدوم الابن أحمد ديدات إلى جنوب أفريقيا بتسجيله في إحدى المدارس التي درس فيها، وهو في العاشرة من

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: هذه حياتي ص: 9، 48 مرجع سابق.

عمره إلى أن بلغ الصف السادس الابتدائيّ بانتظـام دائـم واجتهـاد فـائق ، الأمـر الـذي أثار اهتمام أساتذته ولفت عناية القائمين على المدرسة نحو هذا التلميـذ المتميز بجديتـه واجتهاده ، وهما سمتان ظلّتا مرافقتين له في مختلف أدوار حياته ، علـى نحـو يمكـن أن نفسر على أساسه الكثير من فرص النجاح التي صادفها في مسيرة حياته المباركة ، مما لم تكن لتخطر له ببال في يوم من الأيام .

وما أن أكمل دراسته بالمرحلة الابتدائية فسرعان ما وقفت الظـروف الماديـة عائقـة سبيله عن متابعة الدّراسة ، رغم ما كان يميّزه من ذكاء واجتهاد وتوْق شديد إلـى العلـم وأهلـه ؛ وذلـك لضيـق ذرع العائلـة ، وقصـر باعهـا في القـدرة علـى سـداد الرسـوم الدّراسية ، ومصاريفها اللاّزمة .

وكان والده قد تقدم دون جدوى إلـى بعـض التجـار المسلمين لطلـب المسـاعدة ، تمكينًا لابنه من الدّراسة في معهد رغـب في الالتحـاق بـه ، وحـين لـم يتلـقّ منهـم أيّ ردّ ايجابي ، اضطر الابن أحمد ديـدات إلـى التوقـف عـن مواظبـة المتابعـة ، بعـد أن سـجّل اسمه وسمح له بالحضور مقدّمًا تحت مهلة ثلاثة أيام لدفع الرّسوم ، اعتبـارًا مـن تـاريخ التسجيل[1] .

ولما توقف به قطـار الدّراسـة عـن المسير ، وسـدّت في وجهـه أبـواب التعلّـم ، راح الفتى يبحث لنفسه عن عمل شاغل ، يوفّر له ما فيه كفاية لتحقيـق تلـك الأمنيـة الغاليـة في نفسه ، أمنية العودة إلى صفوف الدراسة ، ومقاعد العلـم ، فوُفّـق في الحصـول علـى عمل في مقهى شركة من الشركات ، ويبدو أن هذا العمل لم يعجبه كثيرًا ؛ إذ لـم يلبـث فيه طويلاً .

فشرع من جديد ، وبعد فترة قصيرة يتعاطى أعمالاً مختلفـة ، متنقـلاً بـين المحـلات التجارية ، ومواقع العمل المختلفة في عدد من المناطق التي من أشهرها دربان ، وناتـال ،

---

(1) ينظر : التقرير الوارد من جنوب أفريقيا عن الشـيخ ديدات ومركزه في محفوظات مكتب الدعـوة بجمعيـة الدعوة الإسلامية العالمية .

ووس بنك. وقادته هذه التنقلات العمليّة عام 1936م إلى العمل في متجر لبيع المواد الغذائية في قرية تبعد عن مدينة دربان بما لا يقلّ عن خمسة وعشرين ميلاً، وذلك للمعاونة على البيع في هذا المتجر الذي كان صاحبه مسلمًا. وكان يقع قريبًا من محلّ عمله مركز بعثة آدم التنصيرية، وهي كبرى البعثات التنصيرية في جنوب أفريقيا، يتبعها عدد من المدارس والكليات[1]، وتحمل البعثة اسم مواطن أمريكي وهو من أسّسَها؛ لتكون قاعدة ومنطلقًا للحملات التنصيرية في منطقة الجنوب الإفريقي وفي غيرها من المناطق على امتداد القارة الأفريقية. ونتيجة لهذا التجاوز ما بين موقع البعثة ومقرّ عمل أحمد ديدات، تعرّض هذا الأخير لحملة استفزازات مكثّفة من قبل طلبة البعثة التنصيرية الذين كانوا في مرحلة التدرّب على كيفية وأساليب مواجهة المسلمين، وكانوا يختلفون يوميًا على المحلّ الذي كان يعمل فيه أحمد ديدات، ليواجهوه من خلال ما كان يجري بين الطرفين من حديث أثناء عمليّة البيع والشراء بسيل مما لقنوا به من دعايات كاذبة، وشبهات مغرضة، تدور حول مسألة تعدد زوجات النبي عليه الصلاة والسلام ودعوى انتشار الإسلام بالسيف، وأنّ الرسول ﷺ قد نقل ما جاء به من وحي ودين عن اليهود والنصارى[2].

ولفرط ما تعرّض له من كان يجهل تقريبًا كلّ شيء عن دينه ما عدا كلمة الشهادتين من مضايقات، وتحديات سافرة، كانت تعكس في مجملها سموّ الديانة الكنيسية على الدين الإسلامي، فقد وقع صاحبنا أسير الحيرة والاضطراب، مما جعله يفكر أحيانًا في التولي أمام الزحف بالاستقالة من العمل، ومغادرة المكان، فياله من موقف ضاغط ومقلقٍ! وقد عبّر لاحقًا عمّا ساوره من الحيرة والقلق بقوله: «كنا في حيرة من أمرنا.. ماذا نفعل في مواجهتهم؟ لقد أحال هؤلاء المبشرون حياتي وحياة بقية العاملين من المسلمين إلى بؤس وشقاء، أحسست حينئذ بالرغبة في ترك المحلّ

(1) ينظر: لقاء مع أحمد ديدات، مجلة الفيصل ع135، ص: 43 من 12، 1408هـ 1988 الرّياض.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي ص: 18.

والهرب بعيدًا، وكان هذا مستبعدًا، فالحصول على عمل حينئذ كان أمرًا صعبًا»[1]
إذن: لابدّ من تهيئة النفس لمواجهة لابدّ منها، وكان من حسن الحظّ أنّ الحرارة التي كانت تشتعل في نفس الرّجل نحو العلم ومتابعة الطلب لم تبردْ بعد، فكان على شغف كبير، وولع دائم بالقراءة كلفًا بالانقضاض على كل ما تصل إليه يده من مكتوب، ولو دعا ذلك إلى التقاط الأوراق المحبورة، فكان كلّما فصل الزمن بينه وبين ما يختلج في نفسه من حاجة إلى دراسة نظامية ازداد شوقًا إلى العلم، وتعلّقًا به، وتأججت رغبته في متابعة دارسته، فكان يعوّض هذا الحرمان المرير برتابة المطالعة في أوقات فراغه، وكلّما وجد إلى ذلك سبيلاً، محاولاً التغلّب على هذا الظرف القاهر الذي كان عائقًا بينه وبين أعزّ أمانيه، وهو ما زال يافعًا، وفي أشدّ الحاجة كغيره إلى ما هو حقّ طبيعي لكلّ إنسان. وفي رحلة البحث عن أسباب ووسائل مقاومة العدوان التنصيري الداهم، تأتي العناية الإلهية لتسعف أحمد ديدات الذي كان في يوم من أيام راحته منهمكًا في مخزن المحل الذي يعمل فيه في عملية التنقيب عن مادة للقراءة بين كومة من الصحف القديمة، والكتب المهجورة. وفجأة عثر على كتاب قديم متعفّن قضمته الحشرات، ونال منه الزمن مانال، وكان بعنوان إظهار الحق باللغة الإنجليزية، فنفض عنه الغبار، وأخذ يقلّب صفحاته باهتمام وتركيز كبيرين. منكبّا عليه لا يشغله عنه شاغل، فهضم الكتاب في فترة وجيزة باستيعاب عميق، ووقف على محتواه، بعدما أدرك ما وراءه من قصة طويلة، فأثار اهتمامه أكثر فأكثر؛ إذ وجد فيه ضالته النفيسة، ورأى فيما يتضمنه من معلومات وافية سلاحًا خطيرًا لرد التحدي بما هو أشد وأنكى، واطمأن بعد قراءته إلى أنه ارتقى إلى وضع يهيئه للدفاع عن نفسه وعن عقيدته[2].

---

(1) ينظر: أحمد ديدات هذه حياتي ص: 19.

(2) وسنخصص بعون الله مساحة علمية ممتدة في الحديث عن الشيخ رحمة الله الهندي والتعريف بكتابه الإظهار، وبيان وقصة وظروف تأليفه، وذلك في معرض المقارنة المنهجية بينه وبين الشيخ ديدات الذي تتلمذ على كتابه، وتأثر بالشيخ كثيرًا، في أمور شكلية وجوهرية، تبدو معها درجة الشبه بينهما بنسبة مدهشة.

وقد مثل هذا الكتاب نقطة تحوّل كبير في حياته، وشكّل لديه حافزًا للتصدي تارة وللمهاجمة تارة أخرى. وقد تحدث عن أهمية هذا الكتاب ومكانته في حياته فقال: «وبفضل هذا الكتاب تغيرت حياتي تمامًا ولو لم أصادف هذا الكتاب ما كنت لأقوم بما أقوم به الآن، وأعني بذلك التحدّث إلى الناس عن الأديان من منطلق المقارنة بينها»[1].

ومن هذه الأهمية البالغة لكتاب إظهار الحقّ في حياة ديدات لا نبالغ في القول بأن عثوره على الكتاب بمثابة نزول الوحي على الأنبياء والرسل إيذانًا ببداية مرحلة جديدة في حياتهم وحياة من حولهم، وفي تاريخ العالم؛ إذْ كان الكتاب بالنّسبة لحياته ثورة حقيقية، غيّرت مجراها لتنحو منحى آخر كان طيّ صفحات الغيب يجهله هو وغيره من الناس.

وحين سبر غور الكتاب، ونهل من معينه الرّاوي، أخذ في ممارسة ما تعلّمه، متدرّبًا على تطبيق ما تلقّاه من معلومات جديدة وردود قويّة، شأن من كانوا يستفزّون متدرّبين، وكان أوّل ما بدأ به أخْذُ الموافقة بزيارة الطرف الآخر في أيام الأحد، فكان يلتقي بصغار المنصّرين بعد انتهائهم من قداسهم الكنسي من يوم الأحد، ليُفاتحهم في قضايا طالما أثاروها، واتخذوها ذريعة للطعن في الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام، وكان غالبًا ما يحتدم الجدال والنقاش بين الطرفين، دون أن يعترف أيّ منهما بانتصار خصمه عليه، رغم ما كان يبديه فريق المنصّرين من تخاذل بيّن، ومراوغات ماكرة.

واستمرّ الطرفان على هذا النهج بفضل ما بذله أحمد ديدات من نشاط متزايد ضمن به لقاءات أسبوعية لعقد هذه الحوارت الدينية؛ حيث كان يبادر بالذّهاب إليهم، وحتى في أيّام غيابهم عن مواقع اللقاء كان لا يفتر عن ملاحقتهم في مواطن إقامتهم، وكان يقول لهم بعد ما لمس في نفسه من ثقة كافية كان من ورائها تحسّن مستواه

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي ص17 مصدر سابق.

الحواري فكراً وأسلوباً، بأنه على استعداد دائم لتوجيه عشر ضربات صائبة نحو عقيدتهم مقابل كلّ ضربة خاطئة يطلقونها تجاه الإسلام ورسوله[1].

وبعد أن تسلح بسلاح الإيمان، وتحصّن بالمعرفة اللازمة، واشتد عُودُهُ في فنّ المناظرات عدل عن محاورة صغار المنصّرين بعد أن تحداهم واستعجزهم في سلسلة من اللقاءات الملزمة.

ومن ثم اتجه إلى استدراج الأساتذة المتخصصين في اللاهوت المسيحي لمناقشتهم وإيقاع الهزيمة بهم، متجاوزاً بذلك وبنجاح كبير المرحلة الابتدائية في مدرسة الحوار والمناظرة بين المسلم والمسيحي، وتعتمد تلك المرحلة أكثر ما تعتمد على العامة من المتدينين، وتنتهي بالحوار مع الطلبة، والمتدربين.

وهكذا ظل على ديدنه يشاسع المتضلعين في الفكر المسيحي، مستفيداً من تجاربه التي أفادها من مرحلته الابتدائية في مدرسة الحوار، وهي تجارب أساسية وضرورية، إذ يتوقف عليها نجاح المحاور في أي مرحلة لاحقة من مسيرة حياته الحواريّة.

والواقع أنّ مالقيه أحمد ديدات في مراحله الأولية من انتصارات دامغة على خصومه المدرّبين منهم والمتدربين، كان دعمًا نفسيا للمزيد من الزحف والمواجهة، ودفعًا قويًا لتعزيز قدراته، ومضاعفة زاده للاستمرار في رحلة شاقة ومثيرة، لها مالها من متاعب ومصاعب.

وفي تلك الأثناء فوجئ أحمد ديدات بفرصة طيبة بواسطة أحد أقاربه للعمل في أحد مصانع الأثاث، مما اضطرّه لمغادرة منطقة الدّكان الذي كان يعمل فيه، وقد كان فاتحة خير لما كرّس حياته له من مناظرات شهيرة، وما عرف به من حوارات عالمية ناجحة، .

وهكذا اتّجه أحمد ديدات عام 1937 إلى مدينة دربان للالتحاق بعمله الجديد في مصنع بدأ فيه سائقًا للشاحنات الكبيرة، ثمّ تدرّج إلى وظيفة كاتب ضابط للصادرات

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق د. ر.

والواردات ومنظم لحركة انطلاق الشاحنات ووصولها، فترقى تدريجيًا إلى أن تقلّد منصب مدير المصنع، وخلال إقامته بدربان شهدت حياته الاجتماعية طوراً جديداً، حيث أقدم على الزواج بسيّدة من قرية في شمال ناتال تسمى بحواء غنغت، وقد تمخّض هذا الزّواج السّعيد عن بنت وولدين[1] .

والظاهر أن العمل في المصنع امتص أوقات الشيخ وجهوده، فضاق بسببه نطاق حواره الدّيني، وإن كان لم ينقطع عنه كليًا، إذ كان قد كوّن لنفسه خلال هذه الفترة حلقة من الأصدقاء وشبكة من العلاقات، كان يتناقش مع أفرادها في أوقات فراغه من حين لآخر، في مسائل دينية، كما كان يتلقى دروسًا في المحاسبة، إلى جانب مواد أخرى في كلية سلطان للتقنية في دربان، تنفيسًا عمّا لازمه من رغبة جامحة في التحصيل العلمي، والاستزادة من المعرفة بمختلف فنونها وأصنافها. وفي هذه الكليّة اجتاز برنامجًا في الرسم الهندسي إضافة إلى برنامج آخر في رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانته[2] الأمر الذي أمدّه بقدرات فنّية في إدارته للمصنع، وضبط واقع أجهزته وآلاته.

وفي نهاية الأربعينات بعد أن توفّر له قدر من المال، سافر قاصداً باكستان عام 1949م، وقد قضى فيها فترة من حياته منكبًا على تنظيم معمل للنّسيج، ولعلّه اغتنم هذه الفرصة السانحة للتزوّد من موائد الثقافة الإسلامية؛ وهو في أشدّ الحاجة إليها في بلاد حققت في هذا المجال قدراً لا يستهان به، وتتوفر فيها ما يكفي لسدّ حاجات أحمد ديدات من الناحية العلمية، بما يؤمن له الإجابة على الكثير من الأسئلة والتساؤلات التي تواجهه، مما قد لا يجد لها جوابًا شافيًا في البلاد التي أتى منها.

وإن كان لم يطلع على شيء من هذا أثناء إقامته بباكستان فإن مما لا شك فيه، أنه قد تأثر بما رآه خلال إقامته فيها، وعايشه من مظاهر إسلامية على صورة لم ير لها

---

(1) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 9 مصدر سابق.

(2) ينظر: الموسوعة العربية العالمية مج10 ص: 554، ط2، 1419هـ 1999م الرياض، السعودية.

مثيلاً من قبل. وقد عاد إلى موطن إقامته بجنوب أفريقيا مسجلاً انطباعات حيّة عن المسلمين في جزء من العالم الإسلامي، بعد أن أقام فيه ثلاث سنوات، اضطر للعودة حتى لا يفقد جنسية البلاد التي هاجر إليها، إذ لم يكن من مواليدها.

وعاد ديدات لمواصلة عمله من جديد في المصنع، حيث كان يعمل سابقًا قبل الرحلة إلى باكستان، وهذه المرحلة لتميّزها عن غيرها من مراحل حياته، يمكن اعتبارها الحلقة الأولى في سلسلة تتضمن بضع حلقات، تمثل كل واحدة منها فترة ذات سمات خاصة وملامح محددة، ولو شئنا أن نصنّف فترات حياته إلى مراحل متمايزة لقلنا: إن هذه الفترة من حياته المباركة تشكل مرحلة ما قبل الانخراط والتفرّغ للعمل الإسلامي وهي بذلك تمثل المرحلة التمهيدية لما بعدها من مراحل ومنعطفات.

ورغم أن هذه المرحلة ليست غنية جدًا بالأحداث المثيرة، إلاّ أنها هي العمود الفقري لحياة ديدات، ومسيرته مع العمل الإسلامي وإن كان النظر إليها بمفردها يولّد انطباعًا خاصا مفاده أنّ حياة الرجل الحقيقية، وسرّ عزته يكمن في عمله الإسلامي الذي بدونه ما كان له من شأن يذكر، وقد صدق الله تعالى في قوله: ﴿ . . . ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 24].

فهو ممن أعزه الله بالإسلام، ولو ابتغى العزة في غيره ما وجد إليها سبيلاً يداني ما تكفّل به الإسلام لشخصه المتواضع.

أجل.. لقد انطلق في حياته من فراغ ليعود بعد سنوات من خدمة الإسلام، وقد تحقق له كل شيء على نحو مفاجئ لم يكن يحلم به إطلاقًا. الأمر الذي أوثق صلته المخلصة بهذا العمل الإنساني العظيم، وراح يضحي ويبذل ما بوسعه من أجل دينه وأمته بكل عزم وإصرار. وإنها لبداية قصيرة وصعبة لحياة طويلة سعيدة، حفلت بالعديد من الانتصارات وحملت الكثير من الإنجازات الغالية.

وإنّ القراءة المتأملة لحياة ديدات المبكّرة توحي بنتيجة قاطعة مؤدّاها: أنّ حياة الرجل هي دعوته، وخدمته للإسلام هي مبعث عظمته وشهرته؛ ولا غرابة في ذلك إطلاقًا بالنسبة لشخص ينحدر من أسرة متواضعة ومجهولة، لم تعرف في حياتها طريقًا إلى الظهور، فضلاً عن ارتقاء سلّم المجد والشهرة، فجاء على شاكلتها وليدها البكر أحمد ديدات ليمضي حينًا من الدّهر دون أن يكون شيئًا مذكوراً.

وعليه.. فإن صحة القول بأن حياته هي دعوته تثير أمام الدارس سؤالاً يترتب عليها؛ قِوامُهُ: إذا كانت حياته وعظمته في خدمته للإسلام، فكيف بدأها؟ وما هي قصّة البداية الجادة لعهده وصلته بالعمل الإسلامي؟

المبحث الثاني

بداية عهد الداعية
أحمد ديدات بالعمل الإسلامي

إن صلة الداعية أحمد ديدات بالعمل الإسلامي ، وبداية اتصاله الوثيق به تعود إلى خمسينات القرن العشرين ، أثناء إقامته عاملاً في مصنع الأثاث بدربان ، وكانت في تلك الفترة ولا تزال دائرة الدراسات العربية في جنوب أفريقيا تعنى بنشر اللغة العربية في أوساط المسلمين ، علاوة على إسهامها بقسط وافر في نشر الإسلام . وللقيام بمهمتها المزدوجة المتكاملة كانت بين فينة وأخرى تنظم مهرجانات ثقافية ومسابقات خطابية حول مختلف الموضوعات والقضايا ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين ، وكان ثمّة تجاوب كبير ، ومشاركة غفيرة من مختلف مناطق البلاد في تلك اللقاءات الثقافية والأنشطة الدعوية . وإلى جانب الحضور الحاشد على الصعيد المحلي كانت الدائرة تقوم باستدعاء بعض علماء المسلمين من خارج البلاد للحضور والمشاركة في تنشيط برامجها الهادفة من جهة ، والقيام بجولات علمية دعوية في أرجاء البلاد من جهة أخرى ، وكان هذا النشاط الإسلامي من الأمور التي توليها الدائرة اهتماماً كبيراً ، وتعمد إلى تنظيمها ، وترتيب تلك اللقاءات الثمينة بين مسلمي البلاد ، وعلماء العالم الإسلامي في حدود ما هي متاح لها من الإمكانيات . وكان أحد المسيحيين من بريطانيا ممن اعتنق الإسلام حديثًا يقوم تحت إشراف الدائرة بإلقاء محاضرات أسبوعية في أيام الأحد متحدثًا إلى الناس عن الإسلام ، في فترة زمنية وجيزة .

وبفضل دراسته الجامعية والعميقة للإسلام قبل اعتناقه ، فقد كان متميزاً في محاضراته بجُدة منهجه ، وطرافة أسلوبه وبراعته في فن الحديث والحوار ، مما شدّ كثيراً ممن حرصوا على الحضور المنتظم للاستفادة مما كان الرجل يقدّمها من معلومات جديدة وبطريقة جذّابة ، وسرعان ما شهدت دروس المسلم الجديد ومحاضراته حضوراً شعبيًا ملحوظًا ، وأخذ المسلمون في التدفّق إليها بشكل متزايد في كلّ لقاء جديد . وما أن أخذت تلك الدروس الأسبوعية مجراها في التأثير على من واظبوا على حضورها ، وولعوا بمتابعتها بعناية كبيرة حتى انكشفت للقائمين على الدائرة حقيقة عقيدة المحاضر الزائر ، وتبين لهم وللأسف أنه يعتنق العقيدة البهائية ، وينتمي إلى جماعتها ، وقد أفصح عن ذلك حين أدلى بتصريحات مناقضة للقرآن والسنة في إحدى

محاضراته الأخيرة، مما عرّض مجتمع الجالية المسلمة لهزّة واضطراب عنيفين من خلال ما أثار من ضجة هائلة، كتب له الكثيرون من أعداء الإسلام رسالات الدّعم ومقالات التأييد نشرت في بعض الصحف المحلية، وخاصة «رأي الهنود» وذلك في أكتوبر عام 1957م، وعلى الرّغم من أن الرجل أصبح منبوذًا في هذا الوسط المسلم، بعد ما انكشف ضلال عقيدته، لمن كانوا يكنّون له كلّ احترام وتقدير، إلاّ أنّ له فضلاً لا ينكر في التأثير على قاعدة عريضة وثابتة من المسلمين، تكوّنت لديهاَ اتجاهات وميول واضحة في الالتزام بحضور المحاضرات والدروس الدينية على نحو منتظم، وقد استطاع المحاضر الزائر - عن غير قصدٍ - بهذا التأثير الإيجابي الذي طبع الناس به، الدّفع بدائرة الدراسات العربية من بعده إلى اعتماد برنامج أسبوعيٍ جديد بعنوان «دروس إنجليزية» سدا لما خلّفه الرجل من فراغ، وإشباعًا لحاجة الجمهور الناشئة في الحرص على الإفادة من المحاضرات التثقيفية والدّروس الدينية العامة[1].

وتقديرًا لما أبداه الحضور من تحمس وتشجيع للقيام بمحاضرات دينية مقارنة، وعقد حلقات أسبوعية من هذا القبيل، تقدّم رجل آخر ممن أسلم من الإنجليز واسمه (فيرفكس) لتحمل هذه المسؤولية الدينية الجليلة، مقترحًا على الراغبين في الأمر نيّته في إلقاء محاضرات ودروس عن المقارنة بين مختلف الديانات، عارضًا عليهم خطّته في انتقاء حوالي عشرين شخصًا من ذوي الاستعداد والكفاءة لتخصيصهم بدروس إضافية يزدادون فيها علماً بكيفية استخدام الكتاب المقدّس في الدعوة إلى الإسلام.

وكان الجميع مسرورًا بهذه المقترحات، فوافقوا عليها بكلّ سعادة وارتياح[2]. فشرع الرجل في القيام بالواجب على النحو الذي ذكره واستمرّ فيه لعدد من الأسابيع لا تزيد على شهرين، فتوقف هذا النشاط الطيب بسبب مغادرة السيد فيرفكس لجنوب أفريقيا لأسباب مجهولة، وسرعان ما بدأ القلق يدبّ إلى نفوس من وجدوا في هذه المحاضرات وسيلة لا يستغنى عنها في تعميق معرفتهم بالإسلام وغيره من العقائد

(1) تنظر: المذكرة الواردة من جنوب أفريقيا عن الشيخ ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 21 مصدر سابق.

الدينية، وتقوية مواقفهم في الدعوة إلى الإسلام والدّفاع عنه. فتركت مغادرة فيرفكس الفاجئة على وجوههم شعوراً بالإحباط وخيبة الأمل، وأصبحوا يتبادلون نظرات مليئة بالحزن والاستياء.

وفي سبيل مواجهة الموقف، وعلاج ما جدّ من مشكلة، اتخذت الدائرة قرار الاستمرار في تقديم الدروس المقارنة على النهج الذي سلكه من فاجأ الناس برحيله عن البلاد، وهم في أمس الحاجة إليه، وعلى أن يتولى الأمر هذه المرة أحد الطلاب النابغين ممن عرفوا بانتظامهم في المحاضرات السابقة، على أن يكون القائم بالأمر ممن يتمتع بخلفية جيّدة من المعرفة بالكتاب المقدس، فوقع الاختيار بعد تمحيص وتدقيق على الأخ أحمد ديدات الذي كان عند حسن ظن القوم فيه. وقد اتفق أن بادر هو الآخر من جانبه باقتراحٍ يعبّر عن رغبته في التصدي لملء هذا الفراغ مبتدئًا من حيث انتهى فيرفكس؛ لأنه كان قد تزوّد من المعرفة في هذا المجال، وكان يرى في متابعته لمحاضرات سلفه مجرد تشجيع ورفع لروح معنوية الضّيف المغادر، ولم يكن الحضور يعني بالنسبة له أكثر من ذلك، وهو ما يفهم من قوله: «... ويوم الأحد من الأسبوع الثالث اقترحت عليهم أن أملأ الفراغ الذي تركه السّيد (فيرفكس)، وأن أبدأ من حيث انتهى السيد فيرفكس لأني كنت قد تزودت، بالمعرفة في هذا المجال، ولكني كنت أحضر دروس السّيد فيرفكس لرفع روحه المعنوية»[1]، على أني وإن كنت لا أتهم السيّد أحمد ديدات في صدق ما قاله؛ إلاّ أنّ ممّا هو يقين عندي أن حضور محاضرات خبير في هذا الشأن، هو آنئذ أمر لا يخلو من فائدة بالنسبة لمبتدئ كأحمد ديدات، وهو يخطو خطواته الأولى معرفة وممارسة في هذا الطريق الغامض الممتد.

وهكذا شرع أحمد ديدات على بركة الله وتوفيقه، في أداء المهمة على أحسن وجه ممكن، الأمر الذي أثار الكثير من الاهتمام والمتابعة، وظل لمدة ثلاث سنوات يتحدث إلى الناس في كل يوم أحدٍ في موضوعات المقارنة بين الإسلام والصليبية، وكانت هذه

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص: 21 - 22 مصدر سابق.

التجربة أفضل وسيلة تعلّم منها على حدّ قوله، فبدت له مهمته متمثلة في نطاق ما أمر به الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من تبليغ لرسالة الله. فمن خلال هذه المحاولة الناجحة اكتشف ديدات سرّ الحكمة النبوية في الأمر بأداء مهمة التبليغ، وقد كشف عن جزء من هذه الحكمة فقال: «إنّ سراً عظيمًا يكمن وراء ذلك.. فإنّك إذا بلّغت وناقشت وتكلّمت فإن الله يفتح أمامك آفاقًا جديدة، ولم أدرك قيمة هذه التجربة إلاّ فيما بعد»[1]. حيث قد فتح الله عليه بموجب القيام بواجب التبليغ آفاقًا معرفيّة جديدة، ومجالات عمليّة واسعة، ولِمَا تمكن في نفس أحمد ديدات من ثقة بالغة، وما أحرزه من نجاح مشكور في دروسه الأسبوعية، تم توسيع نطاق اللقاء الأسبوعي بتوجيه دعوات متعدّدة إلى ضيوف وشخصيات غير مسلمة، وخاصة من المسيحيين، لحضور المجلس من أجل إثراء المحاضرات بالمناقشات الجادة، والتعليقات المفيدة[2]، وذلك وقوفًا - فيما أعتقد - على حقيقة ما يقرّ به المسيحيون كعقيدة لهم، وتمهيدًا لخوض حوارات ومناظرات مستقبلية جادّة معهم، فضلاً عن الطمع في تأثر بعضهم بالحضور في تلك المحاضرات والمشاركة فيها؛ مما قد يدفع بهم إلى نبذ الصليبية واعتناق الإسلام.

وبينما كان أحمد ديدات مواظبًا على أداء واجبه الأسبوعي، بدأ صيته يذيع في آفاق البلاد وأخذت شهرته تمتد إلى أوساط مسلمي جنوب أفريقيا في مختلف مواقعهم. وقد اتفق أن حضر أحد الدروس التي كان يلقيها زوّار مسلمون من جوهانسبرج، فأعجبهم ما كان يقوم به ديدات. ومن ثم وجهوا إليه دعوة لمشاركتهم، والحديث في مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في إحدى قاعات مدينة جوهانسبرج، فوافق على ذلك بكل طيب نفس مبديًا كامل سعادته بالمشاركة، فبادر القوم إلى تأمين إمكانية وصوله إليهم عبر رحلة جوية، تعتبر هي المناسبة الأولى من نوعها في حياته، ولعلّه كان مدفوعًا بشدّة احتفائه بها حين قال عنها: «...فأعطوني تذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا، وكانت هذه هي أول مرّة في حياتي أسافر

---

(1) المصدر نفسه ص: 22.

(2) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

فيها بالطائرة، لألقي محاضرة في جوهانسبرج»[1]. وبعد عودته الميمونة من رحلته الدعوية الأولى، أوحت إليه التجربة باقتحام باب إقامة المحاضرات في قاعة مدينة دربان التي يقيم فيها، وتعتبر من المدن الهامة في جنوب أفريقيا.

وهكذا بدأت تتعدّد نشاطات الشيخ بتعاقب الأيام، وأخذت الثمرات الأولى لنشاطه تظهر في إقبال بعض المسيحيين والهندوس على اعتناق الإسلام بعد تردّد طويل على دروسه ومحاورات عدّة معه. ولِمَا لاح في الأفق من بوادر النجاح والتوفيق التهب حماس شباب ـ اتسموا بالنشاط - من ضمن مجموعة الدائرة بتشكيل لجنة مختصّة بعقد الحوارات وتنظيم المناقشات الدينية، شكّل هذا الإجراء البسيط في حينه باكورة حمل سعيد بوليد جديد ذي شأن متميّز في تاريخ العمل الإسلامي بجنوب أفريقيا وفي عموم دائرته الإقليمية، وغيرها من مناطق العالم نسبيًا. وقد أسفر ما عقب هذا الإجراء من مشاورات كثيرة، وترتيبات مكثفة عن مخاضٍ كان من نتائجه تأسيس المركز الدّولي للدعوة الإسلامية بتاريخ 17/ 3/ 1957م، الذي كان من مكملات تأسيسه وضعُ لائحة نظام أساسي له، وتشكيل لجنة تنفيذية تقوم بإدارة شؤونه، وتمّ اختيار أحمد ديدات أمينًا عامًا، مع عدد من الزملاء لأداء مهمّة استكمال متطلبات تأسيس هذا المركز الإسلامي الجديد، والنّهوض به قويًا لتحقيق رسالة إسلامية سامية عظيمة. صوّرتها اللجنة التنفيذية فيما رسمته للمركز من أهداف واضحة ومحددة متمثلة في :ـ

1 - نشر الإسلام بين غير المسلمين، وترقيته لدى المسلمين بالمحاضرات والأدبيّات المنشورة.

2 - العمل على إنشاء مؤسّسة لتكوين الدعاة الناهضين بأعباء العمل الإسلامي، وتأليف المسلمين الجدد، وشدّ أزرهم والرّفع من مستوياتهم للانخراط في التجمعات والأوساط المسلمة، وسلوك الطريقة الإسلامية في حياتهم اليوميّة.

3 - العزم على بناء مدارس تعليمية، وإنشاء كليّات للدراسات الإسلامية، إلى جانب

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 22.

دور الأيتام، في سبيل نصرة الإسلام، وجذب الآخرين إليه.

4 - تقديم العمل الاجتماعي، والقيام بالخدمات الخيرية والدينية لكل المحتاجين.

5 - جمع تبرعات لصرفها في مختلف النشاطات التي تخدم الأهداف السّابقة، وتعمل لصالح تنفيذها وضمان نجاحها.

6 - التعاون مع كافّة الجمعيّات والمؤسسات الإسلاميّة العاملة في مجال نشر رسالة الإسلام، السّاعية نحو تحقيق كلّ الأهداف المرسومة أو جزء منها[1].

وفي غمرة نشاطات ديدات الإسلاميّة، وبداية إقبال غير المسلمين على الإسلام بفضل جهوده، قام شخص اسمه [الحاج قدوة] ممن كان يتابع هذا العمل بإعجاب وتقدير بالغين، بمنح أحمد ديدات ومعاونيه قطعة أرض واسعة في منطقة تقع على بعد تسعين ميلاً عن مدينة دربان وقْفاً على العمل الإسلامي؛ لخدمة أغراضه الدّعوية والتعليمية، وجاءت هذه المنحة الكريمة عقب اعتناق رجلين إسلامهما في جامع دربان الكبير.

وفي هذا المكان شرعت لجنة إدارة المركز الدولي للدّعوة الإسلاميّة عام 1959م بإنشاء مؤسسة السّلام التي تضم مسجداً ومعهداً لتدريب الدعاة وتأهيلهم بما يلزم من استعدادات معرفيّة، وفنيّة، لنشر الإسلام في جنوب أفريقيا، إلى جانب مدرسة ابتدائيّة يدرس بها أطفال المنطقة في محاولةٍ لجَذْب سكانها إلى الإسلام، إضافة إلى عيادة طبيّة يشرف عليها أطباء مسلمون، تؤدي دوراً مكمّلاً لدروس المدرسة، كما تتضمن المؤسسة ملحقات رياضية ومرافق ترويحيّة[2].

وقد ثمّن القائمون على المركز هذا الوقف الكريم غاليًا، ورأوا فيه عاملاً مساعداً على تحقيق مختلف الأهداف المنشودة، التي يسعى مركزهم الدّعوي إلى تحقيقها، ومن هنا فرضت ضخامة العمل لتأسيس المؤسسة وترقيتها، على أحمد ديدات اتخاذ قرار التفرغ لمواجهة هذه المسؤوليّة الجسيمة، متخليا عن عمله في المصنع وعن مختلف

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات هذه حياتي، ص25-26، مصدر سابق.

مصالحه الشخصيّة الأخرى، حيث كان الواجب يقتضي منه ذلك، والّذي كان يتعذّر النجاح فيه بالجمع بينه وبين غيره من المهام الشّاغلة، فانتقل بأسرته حين تفرّغ عام 1959م إلى مقرّ عمله الجديد لإدارة الأمور ومتابعتها عن كثب، وأيضاً للتفرغ التام، وإيلاء ما يمكن من اهتمام ساهر لهذا العمل العظيم، الّذي بادر هو وغيره إلى جمع ما يكفي من تبرعات لإقامة بنيانه، وإنشاء صرحه المتكامل، وكان يزداد اندفاعاً وإقداماً على العمل بصبر واجتهاد، كلما تطلّع إلى ما يرجى للمؤسسة القيام بها من رسالة نبيلة هادفة، تتمثل في إرساء أسس الإسلام ونشر ثقافة التسامح والتعايش الآمن، لتوطيد أواصر التفاهم والانسجام في بيئة طالما عرفت بشدّة تنافر أبنائها وتناحرهم لأسباب سياسية وثقافية، وفي ضوء هذه الرسالة تم اختيار اسم السلام لهذه المؤسسة الناشئة إيحاءً بقيمة السلام في رسالة الإسلام، ورمزاً إلى رب السلام مصدر الأمن والأمان.

وعلى الرغم من أن أحمد ديدات أنفق زهاء عشر سنوات من عمره الغالي قيّماً على هذا المشروع، سدّاً للحاجة الملحّة إلى كفاءات إداريّة لم يكن الحصول عليها في تلك الأيّام بالأمر اليسير، إلا أن جهوده المبذولة لم تصادف ما كان يتوقع لها من نجاح، وما علّقت عليها من آمال طموحة، وذلك لجملة أسباب منها: أن اللجنة المُنفذة للمشروع بعضويّة أحمد ديدات البارزة كانت تفتقر إلى أدنى الخبرات التربويّة، التي تؤهلها للتنظيم، والإشراف على برنامج تكويني تربوي، من قبيل ما كانت تهدف إليه المؤسسة، إلى جانب أن ديدات وجد نفسه وحيداً فريداً على ساحة العمل بمختلف مجالاته وأوجه نشاطه، من جمع التبرعات اللازمة، والقيام بواجب التعليم، وإلقاء المحاضرات، وضبط أعمال الإدارة اليوميّة، فكان ينوء بثقل العمل من غير كفاية، الوضع الذي فقد معه القدرة على حصر وتركيز جهوده على جانب من جوانب العمل، لضمان النّجاح فيه، بل ظلّ جهده موزعاً ومبعثراً بين هذا وذاك، على نحو يقلل جدواه. وهذا - وللأسف - آفة من الآفات التي تنتاب غالبًا مشاريع العمل الإسلامي الوليدة، ويتكرّر ورودها، في محاولة إجهاضها وهي في رحم التكوين ومهد النشأة.

وفضلاً عن ذلك فإن ثمة مشاكل وخلافات طرأت بين المتبرّع الحاج (قدوة) ولجنة المركز مما لا نعلم طبيعتها ولا أسبابها، وإن كانت تلك المشاكل عادةً من معوقات العمل الناجح، إلا أنها في الواقع لم تثبط همّة أحمد ديدات الصّامدة، ولم تفلّ من عزيمته الصّلْبة.

هذا... وللعوائق القائمة في وجه مشروع مؤسسة السلام، تحولت إدارتها عام 1973م. إلى منظّمة حركة الشباب المسلم للإشراف على تسيير شؤونها[1]؛ إذ لم تفلح - فيما ظهر- الجهة المؤسّسة وهي لجنة المركز الدولي للدّعوة الإسلاميّة في القيام بهذا الدور في محاولتها الأولى لهذا النوع، فعاد ديدات بعائلته بعد هذه التجربة المتعثّرة إلى «فيرولام» القريبة من دربان، مستأنفاً عمله في المركز الدّولي للدعوة الإسلاميّة في مقرّه بدربان.

حقاً، تُمثل هذه المرحلة من حياته بداية عهده في مجال العمل الإسلامي، والتي تطوّرت إلى اتصال وثيق ودائم بهذا العمل حين تفرّغ له عام 1959م. ويعتبر قرار التفرغ لهذا المجال أجرأ وأخطر قرار اتخذه في حياته، فهو حدث من أحداث حياته البارزة، لا يدانيه في أهميته - فيما أظنّ- سوى عثوره على كتاب إظهار الحق، وانتصاره الحواري لاحقاًعلى القس سواجارت، إنّه قرار الحياة بالإسلام وللإسلام، قرار صادق في دخول عالم الدّعوة من بابه الأوسع ملقياً على عتبته كل المصالح الشخصيّة، والعلائق العائليّة، متجهاً إلى الله بالدّعوة إليه قلباً وقالباً، سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً. إنّه حقّـاً لموقف عظيم !!.

في هذه المرحلة وهي الثانية من حلقات حياته الدّعويّة أخذ نجمه يسطع من خلال ما استخدمه من أسلوب دعوي مقارن بين العقائد والديانات، عبر مسيرة السنوات الثلاث التي قضاها في إلقاء محاضرات أسبوعيّة عامّة، مفيدًا ومستفيداً بتحضيره لما يقدمه وبحضور المسلمين وغيرهم في تلك اللقاءات ومشاركتهم فيها بالنقاش الجادّ والحوارات المثرية. وقد عمل في تلك الفترة على اعتماد أسلوب ترتيب اللقاءات

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن الشيخ ديدات ومركزه، مصدر سابق.

وتوجيه الدّعوات وحضورها، للمناقشة الدّينية في المنازل العائلية، والأماكن الخاصّة، وعلى موائد الولائم وغيرها.

وعن أهمية ما تمثّله ديدات من دور بالغ الأهمية في هذه المرحلة بالذّات تحدث قائلاً: «أمّا ثمرة تلك اللقاءات فقد تمثلت في لجوء كل صاحب مشكلة إليَّ بحثاً عن حلّ لمشكلته»[1]. لقد كان سند من تعلّقت ثقتهم به في حلّ المشكلات والمرجوع إليه لكشف المعضلات وإزالة الشبهات، وذلك لما لمسوه فيه من إخلاص في سبيل نشر عقيدته، وخبروه من عمق درايته بما يعرف بالكتاب المقدّس. وكان منذ أن داعبته فكرة التّفرغ لهذا العمل الّذي ارتاح له، وسعد به كثيراً - تلك الفكرة الّتي ألحت عليه طويلاً وأخذت بمجامع شعوره وأحاسيسه - حيث أخذ في تقصّي كلّ ما يتّصل بهذا المجال من معلومات مفيدة وخبرات سابقة وتجارب مشهورة، فتأصّل في نفسه الأبية حب الدّعوة، والتّعلّق بها، وكان الأسلوب الحواري أكثر ما تاقت إليه نفسه من ألوان العمل الإسلامي والّذي صار فيما بعد أبرز اهتماماته في وضعه الجديد، وأشهر ما عرف به طيلة مسيرته النشطة، الأمر الذي أتاح له قدراً مُقدّراً من القدرة على تملّك زمام المحاورات، والمناظرات، لتوجيهها والتحكم في مسارها بكل نجاح وأمان.

وإنّ المعالم البارزة لهذه المرحلة من حياته، وهي مرحلة البداية الحقيقية والمتّصلة بعمله الإسلامي يتمثل في عدد من الأنشطة هي:

أ - **المحاضرات الأسبوعيّة**: التي كان دائباً على إلقائها في كلّ يوم أحد، والتي فتحت الطريق أمامه للّقاء المستمر مع الجمهور المسلم، ومواجهة من كان يحضرها للنقاش من غير المسلمين، ومن خلالها أخذ يعدُّ نفسه معرفياً ويتكون في فن الحوار والمناظرة، فتفتحت قدراته، وظهرت براعته، الأمر الذي جلب إليه اهتمام القريب والبعيد، ممن تلقى منهم دعوات كثيرة، وفي مناسبات متعددة؛ للحضور والمشاركة في وجه من أوجه النشاط الإسلامي التي كانوا يعملون على إقامتها من حينٍ لآخر، وقد

---

(1) في لقاء مع ديدات، مجلّة الفيصل، ع135، ص44، س12، 1408هـ- 1988م.

استمرت تلك المحاضرات لبضع سنوات، شجع نجاحها على توسيع نطاقها في عدد من المناطق، من خلال بعض ممن تكونوا عن طريقها من كبار المتابعين المنتظمين في دروس أحمد ديدات الأسبوعيّة.

ب - بداية الرحلات الداخلية لممارسة العمل الإسلامي: وكانت أولاها تلك الزيارة السّالفة التي دُعي فيها إلى جوهانسبرج للمشاركة في الاحتفال بالمولد الشريف، ومن حينها شرع يفكر في إقامة محاضرات أخرى في أماكن متفرّقة في دربان وما جاورها، ولاشكّ أنه قد تكلف الكثير من مشقّة التنقلات عبر المناطق في سبيل أدائه لهذه المهمة الجليلة.

ج - تأسيس المركز الدولي للدعوة الإسلاميّة: وهو المركز الّذي تولدت فكرة تأسيسه من حماس شباب واظبوا على محاضراته الأسبوعيّة، وكان ديدات من أكبر مؤسسيه والمشرفين عليه، وقد صُعّدت لجنة تنفيذية في بداية الأمر للقيام بوضع لوائح التأسيس، واستكمال الإجراءات الإدارية اللازمة، ووضع الخطوط العريضة لأهدافه العامّة، ومقاصده الكليّة.

وقد شهد هذا المركز بمرور الأيام تطوراً هائلاً ونجاحاً مثيراً، مما سنقف لاحقاً على بعض منه في حينه. وعموماً يمكن القول بأنّ مشروع تأسيس المركز عبّر في ظرفه عن ثورة جادّة في التفكير لدى الجماعة المؤسسة، كانت ناتجة عن تأثيرات نجاح نشاط ديدات الأسبوعي، وغيره من النشاطات الإسلاميّة النّاجحة التي بدت تلوح في الأفق من ظرف لآخر، وربما تتابعت وتراكمت لإنارة السبيل أمام السّراة، في رحلة البحث عن عقيدة الحقيقة والخلاص، والدعوة إليها.

د - صدور أول كتيب له في دراسة الكتاب المقدّس: إلى جانب ما كان يقوم به ديدات من محاضرات، ومحاورات، في مرحلة بدايته للعمل الإسلامي وتعلّقه به، شهدت بداية الخمسينات صدور أول كتيب له في هذا المجال بعنوان: (ماذا يقول الكتاب المقدّس عن محمد ﷺ)، وأعقبه بآخر من أهم كتيباته يحمل في عنوانه موضوعًا من أبرز

الموضوعات التي دارت عليها حواراته مع الصليبيين وهو: (هل الكتاب المقدّس كلام الله)[1]. وهذا يعني أن عمليّة الكتابة والنشر عند ديدات كانت مواكبة لنشاطه البارز في مجال المحاضرات والمحاورات، وربما أمكن القول بأن تلك المنشورات تمثل المحصّلة النهائية، بعد عملية تنقيح وبلورة لأهم الموضوعات والقضايا التي كان يدرسها، ويطرحها للنقاش في تلك المجالس واللقاءات الأسبوعية، وغيرها من المناسبات.

هـ - **إنشاء مؤسسة السلام**: إن الحصول على هذه الأرض الموقوفة التي أنشئت عليها المؤسسة من الأمور الواضحة الدلالة على ما بدأ يحققه من نجاحات أولية في رحلة الأمل والنّجاح؛ حيث إن المتبرع بأرض المؤسسة الغالية عنّ له الإقدام على هذا الإجراء حين لاحظ إقبال الآخرين نحو الإسلام بفضل أسلوب ديدات الحواري المقارن، مما دفع به ذات يوم إلى مفاجأة ديدات بهذا الوقف الكريم عقب إشهار رجلين إسلامهما في جامع دربان الكبير. فأقبل القائمون على المركز الدّعوي بمعيّة ديدات بجمع التبرعات لإنشاء مؤسسة السلام، التي غامر ديدات في عمل شاق وواسع على التفرغ لها بمفرده حين انتقل بأسرته إليها، ولكن المهمة كانت أعظم وأوسع من أن يستوعبها رجل واحد مهما توافرت فيه مؤهلات ومواصفات نادرة، ولو كان أحمد ديدات في عزمه وهمته. فلذلك مني المشروع بنوع من الإخفاق، مع سابق إصراره على النهوض به وترقيته بعمله الدؤوب الذي استمرّ فيه لعقد من الزمن. ومع ذلك تظل المؤسسة معلماً بارزاً في مجال خدمة ديدات للإسلام. وشاهداً قوياً على تضحيته وصبره وإخلاصه، وهي معانٍ تتجلى في:

و - **تفرغه للدعوة الإسلامية والإعراض عن غيرها من النشاطات الدنيوية**: ففي عام 1959م، توجّه أحمد ديدات كليّا بكيانه وحياته إلى الإسلام، وانصرف عن غيرها من الأعمال الشخصيّة التي كان يزاولها لحسابه الخاصّ، وذلك حتى «يتسنى له التفرغ للمهمة التي نذر لها حياته فيما بعد وهي الدّعوة إلى الإسلام»[2]، التي شكلت بؤرة اهتمامه الوافر، وطبعت حياته بمِيْسمِها حين تفرغ لها، وأقبل عليها إقبالاً لم يلتفت

(1) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص10، مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص10، مصدر سابق.

معه إلى غيرها مما لا يقارن بها بتاتاً، وقد ظهرت آثار هذا التفرغ فيما اكتسبه من أوقات ثمينة واسعة، أنفقها بسخاء سابغ على مختلف مجالات العمل الإسلامي، التي جدّ ونشط على السعي الوافر المثمر في إطارها، من خلال أنشطته الفكريّة، والإداريّة، والميدانيّة، وغيرها داخل البلاد وخارجها. ولما كان هذا التفرغ وما أدّى إليه من جهد جهيد مقرونين بالصدق والإخلاص فقد أثمرت المسيرة نتائج هائلة، وكان التفرغ بذلك خيراً وبركة للعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا وفي غيرها، وكان بمثابة ضالّة مفقودة طالما بحثت عنها الأمة بحثاً طويلاً ومملاً. فوجد أخيراً في أحد أبنائها البررة من عثر عليها، وقدّمها هديّة نفيسة لأمته المجيدة، ولعملها الإسلامي النبيل. ذلكم هو الدّاعية أحمد ديدات في تفرغه للدعوة إلى الله، وتسخير العمر من أجلها.

لقد دخل إلى فسيح عالم الحوار والدعوة بالقراءة الجارفة، بعد أن تعرض لضغوطات معنويّة شديدة وواجه تحديات عنيفة كانت بالنسبة له الهزّة النفسية التي أيقظته مما كان يشترك مع غيره فيه من سبات عميق، ورقاد طويل، فانتهض على قدميه، وهبّ يدعو إلى دين الله القيم محاضراً، ومناظراً وكاتباً ومترجماً ومعلماً، ومربياً وغير ذلك من الصفات التي حازها من خلال مجموع المجالات العمليّة التي خاضها، ووفّق للمشاركة فيها بفاعلية ملحوظة، مما سيتبين لنا من أنشطته الدّعويّة ومجالات عمله الإسلامي.

المبحث الثالث

أنشطته ومجالات عمله الإسلامي

إن الإلمام بالخطوط العامّة لأهمّ أنشطة الشيخ ديدات ومجالات عمله الإسلامي التي يتعذّر استيعابها جميعاً لسعتها وشموليتها من جانب، وندرة المصادر عنها من جانب آخر يظل أمراً هاماً؛ إذ يعدّ مقدمة لازمة للوقوف على منهجه بمفهومه الأوسع في العمل الإسلامي؛ ذلك أن تلك المجالات التي سلكها، وركز عليها جهوده واهتماماته تشكل في جملتها إطاراً منهجياً عاماً - على الأقل - في رؤية ديدات وممارسته لما وهب حياته لها من نشاطات وأعمال إسلاميّة.

وإن التناول الكلّي المفصّل لتلك الجوانب والمجالات برمتها مع ما لها من أهمية بالغة هو من الأمور التي تخرج بنا عن أولويات هذه الدراسة، وتبعد بنا عن قضيتها الأساسية؛ ذلك أن الرجل خدم الإسلام والأمّة في مجالات عديدة. نكتفي منها بأهم الجوانب التي كانت بارزة في عمله الإسلامي من نشاطات يمكن إيرادها مسلسلةً على النحو الآتي:

1 - نشاط المحاضرات العامّة:

من أهم أنشطته إلقاء محاضرات متخصّصة، وعامة، وقد بدأ بهذا النوع من النشاط في وقت مبكر من بداية خدمته للإسلام، ولعلّ الأصح القول بأن انطلاقه في هذا المجال يشكل البداية الفعلية لنشاطه الإسلامي، وقد زحفت محاضراته التي انطلقت من دربان إلى غيرها من مناطق البلاد، وبالأخص في المدن والمراكز الحضريّة، تلبيةً لحاجة الجماهير المسلمة والتي غالبًا ما كانت تدعو إلى تنظيم تلك المحاضرات وتبدي نحوها إقبالاً عميماً، واهتماماً عظيماً، كما أن دوافع الرد على موقف الإرساليات التنصيريّة المهاجمة للإسلام والمسلمين، كانت مبعث تنظيم بعض منها؛ حيث أُلقي في هذا الصدد عدد من المحاضرات الرامية إلى الدفاع عن الإسلام، ورد الاعتبار للمسلمين عامّة، وللجالية المسلمة في جنوب أفريقيا، خاصّة في مواقفها النضاليّة وفي جهودها الإنمائية للبلاد، وأيضاً في سعيها الدائم بمقتضى تعاليم دينها لتحقيق الأمن والسلام وكل ما من شأنه أن يرقى بالبلاد ويسعد العباد.

وكان هذا الصنف من المحاضرات يركز على معالجة قضايا مقارِنة بين الإسلام

والصليبية، مما يتعلّق بالأناجيل، وطبيعة المسيح عليه السلام وعن البشارة المضمرة بمحمد عليه السلام في الكتاب المقدّس. وإن مما يميز هذا النّشاط أنه لم يكن محصوراً في نطاق إقليمي معين، وإنما كان موزّعاً على مختلف مناطق البلاد، حيث أضحت المحاضرات نشاطاً محورياً لديدات ولمركزه الدّعوي، وبفضل تلك المحاضرات العامة والعديدة، وما حظيت به من إقبال شعبي كبير كسب المركز سمعة طيبة، وشهرة واسعة، حيث كان يحضرها أتباع مختلف العقائد الدينية لمنحاها المقارن الذي يجعلها أكثر إثارة وإفادة، بالإضافة لما يتاح للحضور عقب المحاضرات من فرص التعقيب، والمناقشة، وطرح الأسئلة، وهي أمور تشوّق الجمهور، وتستقطب جمعاً غفيراً منهم، ولذا لم يكن من المفاجئ أن تشهد بعض تلك المحاضرات حضوراً غير متوقع ممن تضيق بهم القاعة المخصّصة لهذا الغرض، الأمر الّذي يدفع تارة إلى بحث سريع عن قاعة بديلة أكثر اتساعاً، وخاصّة في الحالات التي يقال إن الحضور قد بلغ نحو ثلاثين ألف مشارك فصاعداً[1]. وبصرف النظر عمّا يمكن أن ترد على مثل هذه التقديرات الإحصائية من ملاحظات، فإنّ لها من الأهمية ما تُسعفنا به، في إمكانيّة تشكيل صورة تقريبيّة عن واقع الحضور والمشاركة في تلك اللقاءات، مما يضعنا أمام أهمية وخطورة تلك المحاضرات في آن معًا، إذ تعتبر من أندر الفرص وأثمنها في طرح الخطاب الإسلاميّ في هذه الحشود الكبيرة من الناس، بأساليب رائعة جذّابة، وهو ما لا يتم في غياب عناصر مؤَهلة ممن لهم باع طويل في كلٍ من مقارنة الأديان، وفي الثّقافة الإسلاميّة وعلم الدعوة على نحو وافٍ شافٍ، الأمر الّذي لا أظن أنه كان متاحاً للقائمين على المركز وعلى نشاط المحاضرات في كل الأحوال، من غير طعن في أهميّة جهودهم، أو نيل في إخلاصهم. ولعلّ تلك المحاضرة التي تحدثنا عنها من قبل، والتي ألقاها الدكتور زغلول النجّار في إحدى ضواحي بريتوريا بنجاح كبير، حيث أسلم على إثرها وبتأثيرها قسّيس القرية وعدد من الوجهاء ما يقطع بصحّة ما علّقنا به على نشاط المحاضرات من خطورة وأهميّة، وربما لهذا السبب نفسه مما توفر من فرص

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

النّجاح، وتحقق من التأثير في الحضور تعمّق ديدات في هذا النشاط وتوسّع فيه، وهو ما يعني أنه لم يتقوقع بتلك المحاضرات في نطاق حدود جنوب أفريقيا فحسب، وإنما تعداها إلى الدول المتاخمة لها ليتجاوزها إلى ما وراء البحار في مختلف أرجاء العالم، حيث خرج عام 1975م، في زيارة دعويّة إلى زامبيا[1]، بدعوة أخويّة كريمة من مسلميها لإلقاء سلسلة من المحاضرات فيها، وقد لقي منهم استقبالاً حاراً، وتميّز حضوره عندهم بترتيبات عالية، واستعدادات مكثّفة بلغت ذراها في السعي لضمان تغطية إعلامية له مسموعة ومرئية[2].

وبهذه الزيارة يكون الدّاعية ديدات قد دشّن لعمله بعده العالمي، ونقل بها من الداخل إلى الخارج مهمته في الدعوة الإسلامية موسعاً آفاق رسالته، لتعميم خيرها على كافة الناس كما هو مرادٌ لها ومقدر من ربّ العالمين. ولهذا الاعتبار خرج ثانية عام 1978م. إلى بوتسوانا المتاخمة لبلاده للقيام بجملة محاضرات في عاصمتها، وكان قد زار قبلها بعام الولايات المتحدة الأمريكية في جولة إلقاء محاضرات متفرّقة في عدد من مناطقها. وقد صوّر لنا نفوذ مسلميها في تلك الأيّام بقوله: «أثناء جولتي لإلقاء المحاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية الدّولة القويّة في عام 1977م. اكتشفت أن جنودنا في العالم الجديد مازالوا أضعف مما كنت أعتقد»[3] ويعني بهم الجالية المسلمة هنا، بمن فيهم دعاة الإسلام.

وعن نشاطه في مجال المحاضرات الإسلامية على المستوى العالمي، ورد في الموسوعة العربية ما ينوّه بشأنه فيها بقولها: «...وألقى محاضرات كثيرة في العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية مثل السعوديّة والبحرين، والإمارات وبريطانيا

---

(1) زامبيا: قطر يقع جنوب أواسط أفريقيا، يأتي في مقدمة منتجي النحاس، ويتحصّل على عائدات ضخمة من تصديره، كما كانت محمية بريطانية، فاستقلّت عام 1963م. وعاصمتها لوساكا، وهي أكبر مدنها.

(2) ينظر: القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص87، مصدر سابق. ج11/ 488، ط3 الموسوعة العربية العالمية؛ سبق ذكره.

(3) الرسول الأعظم محمد ﷺ ص26، مصدر سابق. يلاحظ في تعبيره كلمة: "جنودنا" مدى ما يلقيه من مسؤوليّة على عاتق الأقليّات المسلمة في مواطنها.

والولايات المتحدة...»[1]، وقد أسهمت هذه المحاضرات إلى جانب أنشطة أخرى في التعريف بداعيتنا، وتأمين ما حظي به من إجلال وتوقير عظيمين.

2 - برنامج سياحي لزيارة جامع دربان الكبير:

يعتبر البرنامج السياحي لزيارة جامع دربان الكبير من أنشطة ديدات المتميزة، ومن مشروعاته الناجحة، حيث يقوم من خلال مركزه الدعويّ الناجح باستغلال هذا المسجد لجذب الزوّار. وتعود فكرة اعتماد هذا المشروع الدّعوي الناجح إلى ما أثارته محاضراته العامة من أسئلة واستفسارات كثيرة عن الإسلام، مما كان يقتضي تخصيص متسع من الوقت للإجابة عليها، وإتاحة المزيد من الفرص للتعرف على الإسلام خارج نطاق المحاضرات، وقيودها التنظيمية، فوجد ديدات ومن معه في تنظيم هذه الزيارات السياحيّة خير مجال يضمن تلبية هذه الحاجة الدّعويّة، وبذلك أصبحت الزيارات برنامجاً خاصاً، ونشاطاً قائماً بذاته، يندرج ضمن أنشطته الأساسية المعتبرة، بعد أن بادر مركز ديدات إلى تسجيل الموقع ضمن المزارات السياحيّة في قائمة البلديّة، وعين للبرنامج من يسهر عليه قائماً بدور الدليل السياحي، والمرشد الدّعوي، فكان بما وفق له من نجاح وتطور الأول من نوعه في جنوب أفريقيا.

ويقوم هذا البرنامج الجذّاب بطريقة إعلامية لبقة على إيضاح حقائق الإسلام للزوّار وتعليمهم مبادئ الإسلام، وقيمه، والإجابة على استفساراتهم من خلال شروح ضافية، وتزويدهم مجّانًا بمطبوعات معدّة لهذا الغرض، وكثيراً ما أبدى الزوار ارتياحهم واستفادتهم من هذا البرنامج الّذي يسجّل فضل إبداعه لديدات ومركزه كمنهج حضاري معاصر من مناهج العمل الإسلامي، له جمهوره الخاص ممن يستهويهم هذا النوع من النشاط. وقد بلغ منذ عام 1980م. - طبقًا لديدات - عدد من استضيف في هذا البرنامج الجديد ما يربو على اثني عشر ألف شخص ممن زاروا المسجد وقدموا استفسارات عن الإسلام[2]، وهو أمر ذو أهمية كبيرة في حد ذاته،

---

(1) الموسوعة العربية العالمية، مج10، ص554، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلّة الأمة، ع1، س1، ص28، مصدر سابق.

يكفي لوحده مبرراً للدّفع بهذا النّشاط، وإيلائه المزيد من الاهتمام والرّعاية، فضلاً عمّا يمكن أن نلمسه من تأثيره الإيجابي الّذي دفع أحد الزوار إلى التعبير في شيءٍ من الدهشة، عن انطباعه المفاجئ بقوله فيما مفاده: «كنت أتوقع الاطلاع على متحف للمواد التافهة، ولكن الحقيقة هي التي اكتشفتها ووجدتها هناك»[1]. ويرجع هذا التأثير- فيما أعتقد - إلى الطريقة التي تنظّم بها تلك الزيارات وروعة ما يقدم فيها من حقائق إسلاميّة طريفة تمثلُ ضياءً للعقول، وشفاءً للقلوب، حيث يتضمن هذا البرنامج السياحي عادة مقارنات يسيرة ومركزة بين الإسلام والصليبية، والتركيز على عرض قيم الإسلام ومبادئه، وإبراز فلسفة السلام في الإسلام من منطلق التحيّة الإسلاميّة: السّلام عليكم[2]. وللعلم فإن الغالبية العظمى من ضيوف هذا البرنامج هم من البيض، من أتباع الديانة الكنسية غالبًا، إضافة إلى زوّار راغبين في اعتناق الإسلام من مختلف الأجناس، مما يكتسي به هذا البرنامج طابعاً استثنائياً من المكانة ضمن مجالات عمل ديدات الكثيرة والتي منها أيضًا:

3 - متابعة المسلمين الجدد وتعهدهم بالرّعاية:

يشترك ديدات مع الكثير من فعاليات العمل الإسلامي في إعارة اهتمام خاص بالمعتنقين الجدد وتخصيص مساحة متزايدة من العناية بهم، تأليفاً لقلوبهم، وتمكيناً لدين الله في نفوسهم وحياتهم، غير أن ديدات من خلال المركز يعتمد أسلوباً متميّزاً لاستكمال مراسم الدخول في الإسلام، والذي يمر بعدّة خطوات تبدأ بسؤال الشخص عن صدق اقتناعه بالإسلام، وإرادته الحرّة في الإقدام على اعتناقه، مروراً بعد الاغتسال والتطهر بتلقينه كلمة الشّهادتين مشفوعاً بشرح مستفيض لمدلولها، ومتعلّقاتها، مع اختيار اسم إسلامي مشهور للشخْص إن لزم الأمر، وبعدها يتلقى أربع محاضرات على الأقل يتم من خلالها تجريده من كلّ ما هو فاسد من معتقداته الضّالّة، وأوهامه البالية، لتحل محلها عقيدة الإيمان، وأركان الإسلام، وقيم

---

(1) التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص28-29، مصدر سابق.

الإحسان وكل ما تدعو الحاجة إليه من ضروريات الإسلام. وتنتهي المسيرة بمتابعة إحدى أقسام المركز الدعوي لهذا المسلم الجديد، بالإجابة على تساؤلاته، وكافة استفساراته الدينية، وتزويده بعدد طيب من منشورات المركز، ويظل هذا المسلم على صلة مستمرة بالمركز- في حدود ما هو متاح له - لتلقي المزيد من الإرشادات من الأقسام المخصصة لهذا النوع من الواجب. والتي تسعى جاهدة لدمج هذا المسلم في مجتمعه الجديد، ومساعدته على التكيّف النّفسي مع عاداته، وأعرافه الإسلامية، والتي هي جديدة بالنسبة إليه.

وإن تعدد الجهات المسؤولة عن هذا النشاط الهام جداً في مؤسسة ديدات، مما يدل على ما توليه المؤسسة من عناية لبرنامج متابعة المسلمين الجدد، وعلى جدّيتها في هذا الشأن، حيث يقول ديدات: «ولدينا في المركز أقسام مختلفة للتعامل مع المعتنقين الجدد، فلقد خصّصنا واحداً متخصصاً للتعامل مع المواطنين الأفريقيين من الزّولو، ويوجد متخصص آخر للتعامل مع الّذين يتحدثون الإنجليزية»[1]، ويقوم غالبًا هؤلاء الموكلون بالأقسام بدراسة مشكلات المسلمين الجدد، وتقصي حاجاتهم الدينيّة وذلك في إطار السعي الجاد للتوصّل إلى حلول حاسمة وملائمة لها.

ولعلّ أهم هذه الحاجات يتمثل في الحصول على المنشور من:

4 - مطبوعات مركز ديدات الإسلاميّة:

من أهم المجالات البارزة في نشاط ديدات الإسلامي إصدار العديد من الكتيبات والأدبيّات المنشورة للرد على خصوم الإسلام، ودحض مزاعمهم، وللتعريف بالإسلام وبيان موقفه من بعض القضايا الاجتماعية. وإن هذا الهدف المزدوج في محاربة التنصير من جانب، وتبصير المسلمين بدينهم النيّر من جانب آخر، هو ما يرمي إليه في مختلف ما أصدره من مطبوعات دينيّة بكمياتها الهائلة. وقد أصبح هذا النشاط بارزاً ومتواصلاً على مر مراحل عمله الإسلامي، وكان يشهد سنوياً تطوراً متقدماً من

---

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص14، مصدر سابق.

ناحيتي الكم والكيف، ومع باهظ التكلفة المطبعية لتلك المنشورات والتي تضاعفت فيما بعد إلى أضعاف ما كانت عليه من بداية الأمر، فإن ذلك لم يحل دون ما ذكر من تطور عددي ونوعي لتلك الأدبيات، وفي إصداراتها المتعددة، برغم ما يميزها من عموميّة مطلقة لحقوق نشرها الممنوحة للجميع بلا استثناء.

ومع غلبة موضوعات المقارنة بين الإسلام والصليبية على تلك المنشورات، فإن بالإمكان تقسيمها استناداً إلى معيار ملكيتها الأدبية، ومصدرها العلمي، إلى ثلاثة أصناف رئيسة هي:

أ - **مؤلفاته الشخصيّة**: وهي مؤلفات متعددة ومتنوعة الموضوعات، أصدرها في كتيبات صغيرة باللغة الإنجليزية، ومن أهمها:

المسيح في الإسلام، هل الكتاب المقدّس كلام الله، خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدّس، محمد الأعظم ﷺ، القرآن معجزة المعجزات، المسلم في الصلاة، مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ماذا يقول الكتاب عن محمد ﷺ؟، الخمر بين المسيحية والإسلام، العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، شيطانية الآيات الشيطانية[1]، هذه وغيرها من مؤلفاته التي طبعت منها مئات الآلاف من النسخ للتوزيع المجّاني على القرّاء المحليين والمراسلين، ولتأكيد ذلك يقول ديدات: «ولقد أصدرنا عدة كتب تتعلّق جميعها بالمقارنة بين الأديان، وطبعنا ونشرنا من هذه الكتب مائة ألف نسخة في المرة الواحدة»[2]، وذلك لغرض نشر الإسلام، ومحاربة الأعداء فكراً وعقيدة.

ب - **نشره لما يخدم قضيته الإسلامية من مؤلفات الآخرين**: يعمد ديدات أحياناً إلى طبع ونشر بعض ما يستحسنه من بحوث الآخرين، ومؤلفاتهم التي يراها جيدة، تصب في المجرى العام لعمله الإسلامي وتخدم ما يتبناها من أفكار وقضايا. ومن هذا النوع ما نشره من بحث جيد بعنوان «محمد المثال الأسمى» يعبر عن رؤية

---

(1) ينظر أحمد ديدات: محمد ﷺ المثال الأسمى، ص139، ترجمة محمد مختار من سلسلة مكتبة ديدات، دار المختار الإسلامي- القاهرة.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص32، مصدر سابق.

فيلسوف هندوسي معاصر لنبي الإسلام، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة ميسور في الهند، وقد ذهب أحد المترجمين إلى تقييم هذا البحث قائلاً: «إن قيمة هذا الكتاب ترجع لعرض مؤلفه للرسول والرسالة، والمسلمين عرضاً علمياً وتاريخياً حاول فيه أن يكون محايداً، فيبينُ فضائل نبي الإسلام، وفضل الإسلام على العالم، ويرد على بعض الشبهات والافتراءات التي أثارها حوله أعداؤه من المستشرقين وغيرهم من الحاقدين»[1]، والذي يقرأ الكتاب دون سابق علم بمؤلفه يخيل إليه أنه مسلم، إذ لا يظهر انتماؤه لغير دين الإسلام فيما كتبه؛ لأنه كان موضوعيّاً ملتزماً. ولعل من أروع ما في الكتاب أنه يركز على قيمة التسامح والمساواة في الإسلام، متطرقاً إلى التحول الكبير الذي أحدثه في بيئته الأولى، ومنبعه التاريخي العربي، ثم في المجتمع الإنساني في عمومه، مع عناية خاصّة وإشادة منصفة بتحرير الإسلام للمرأة، مقارناً بما كان عليه وضعها قبل ظهور الإسلام، كما أنّ من مزايا الكتاب الإفاضة في ذكر شمائل النبي ﷺ ومآثره، منوهاً بجوانب عظمته المتعددة في شتى مجالات الحياة، وهو في كلّ ذلك يوثق لأطروحاته منهجياً، ويدعمها باستشهادات ونقولات من الثقات من كبار المفكرين، والأدباء ورجال الدين الغربيين.

ولا يألو الكاتب جهداً في تفنيد فرية انتشار الإسلام بالسيف ليبقى التفسير الوحيد لسرعة انتشاره متمثلاً فيما أبداه المسلمون من التزام بأخلاقيات التّسامح، وحسن المعاملة الإنسانية الكريمة النابعة من فيوضات أخلاقيّة الرسول العظيم، وهو ما أكده المؤلف بقوله: «إن أعظم نجاح في حياة محمد ﷺ جاء نتيجة للقوة الأخلاقيّة فقط، وبلا ضربة سيف واحدة»[2]. وقبل ختام دراسته يقف وقفة ممتدة للحديث عن الدور الحضاري للإسلام والمسلمين في مختلف المجالات الروحيّة والعلميّة، عارضاً العقيدة الإسلاميّة السّامية بوحدانيتها الفريدة المبدعة، والتي هي أكبر منحة كريمة يقدمها الإسلام للإنسانية، بما يتفرّع عنها من نظرة إلى الوجود، وفلسفة للحياة والموت من منظور الإسلام. إنه حقّاً لدراسة رائعة

(1) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 7، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

تستحق إعجاب داعية عالمي من طراز أحمد ديدات وهي خليقة بمبادرته بطبعها ونشرها.

ويندرج في هذا الإطار نشره لمحاضرة عضو الكونجرس الأمريكي السابق بول فندلي التي انحاز فيها إلى الحق في قضية الصراع بين المسلمين والصّهاينة في فلسطين، حيث انتصر للجانب المسلم مندّداً بالصهاينة ومعرّياً لجرائمهم البشعة ضد الإنسانية(1).

يضاف إلى ما تقدم: تلك المحاضرة التي نشرها ديدات لدبلوماسي ألماني ممن عمل في جنوب أفريقيا، عالج فيها موضوع التفرقة العنصرية بعنوان: «الحلّ الإسلامي للمشكلة العنصرية»، وكان الموضوع من أكبر القضايا في جنوب أفريقيا وأخطرها في الظروف التي نشر فيها، ولِمَا اتسمت بها تلك المعالجة من موضوعية وجودة تصوير، كان لابد من مبادرة ديدات إلى نشرها، حيث إنها تميزت بالوضوح والبساطة وشموليّة التناول، انطلق فيها المؤلف من النصوص القرآنية، واستحضر عدداً من الأمثلة التاريخية في حياة الرسول ﷺ ومن بعده، كما عُني بفك رموز الشعائر الدينية، وما تعكسه من مساواة ونبذ التفرقة العنصرية، مسلطاً الضوء على المعالجة اليومية في كلّ من الصلوات الخمس، والحج، وفي عقيدة الإيمان بوحدة الربّ، والتسليم بوحدة الأصل البشري المشترك ومبدأ المساواة، والتسامح الديني في الإسلام.

ويؤكد المؤلف الموقف الإسلامي الحاسم في علاج المشكلة بقوله: «إن هذه الآيات القرآنية الحجرات: 13 هي الحل الإسلامي للعرقيّة والعنصرية، وهي الحل الّذي لم يبق - بقدر ما يتعلق بالمجتمع المسلم - نصيحة دينية محضة، بل إنها كانت بمثابة الجنازة التي شيّعت التمييز والتفرقة العنصريّة في العالم الإسلامي إلى مثواها الأخير»(2)، ولا يخفى ما في هذه المنهجية التي تبناها ديدات في انتقاء البحوث

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص: 59 ترجمة علي الجوهري. دار الفضيلة القاهرة، مصر د.ت.

(2) أحمد ديدات، الحل الإسلامي للمشكلة العنصريّة، ص56. والمراد بالآية 13من الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

الرصينة، والمؤلفات الهادفة، لنشرها مجاناً بموافقة أصحابها من أهمية قصوى في مجال العمل الإسلامي، وإن كان يعوزنا الدليل في القول بأنه مقلّد لغيره في هذا الباب، إلا أنه -كما هو بين- ليس متفرداً به عن غيره من الشخصيات والهيئات الدعوية.

ج - **توزيعه الواسع لترجمة معاني القرآن الكريم**: من القضايا التي شغلت ديدات، التوزيع الواسع للقرآن الكريم في هذا العالم، وبالأخص ترجمة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات في أوساط غير النّاطقين بالعربيّة، وقد ساقه هذا الهمُّ الشريف إلى توزيع عشرات الآلاف - وربما مئاتها- من النسخ المترجمة لمعاني القرآن الكريم، تتضمن النسخة منها النّص القرآني وترجمته مع شرح وتفسير وجيز، يباع منها بأسعار زهيدة مدعومة لاستثمارها في المجال الدعوي، ويوزع مجاناً الجزء الأكبر منها معمماً على المدارس، والكليات، والمساجد، والمكتبات العامّة، والجامعات وغيرها. وللوقوف على حجم التوزيع والجهات المستفيدة منه يحاول ديدات أن يطلعنا على شيء من ذلك فيقول: «وإلى الآن عام 1989م وزّعنا حوالي خمس وثمانين ألف نسخة. وقد اتفقنا مع إحدى المطابع على طبع مائة ألف نسخة أخرى لمساعدة إخوتنا في جميع أنحاء العالم، فعلى سبيل المثال: سوف أرسل عشرة آلاف نسخة إلى إخواننا المسلمين في أمريكا، وأريد أن أساعد المسلمين في سيرلانكا، وفي الهند وباكستان، والمملكة المتحدة»[1].

وبالمناسبة فإن مما يبعث على الارتياح، ويقتضي التقدير والعرفان هو ما توسعت فيه جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في إصدارها لطبعات متعددة للقرآن الكريم، وترجمة معانيه كاملاً ومجزّءاً إلى عدد من اللغات العالمية ذات الانتشار الواسع كالإنجليزية، والفرنسية، والتايلانديّة، والإسبانية، والألمانية، والهولنديّة، والعفريّة وغيرها من اللغات الهامة، وذلك إسهاماً في نشر الإسلام، وتعميم خطاب رب العالمين على العالمين، ومن جهة أخرى فهي ذات اهتمام فائق بمتابعة ترجمات معاني القرآن الكريم المنتشرة في العالم دراسةً وتقويماً من حيث الدقّة، والسّلامة. وبموجب هذا

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي ص34-35.

الاهتمام (عملت الجمعية على عقد ندوات حولها، كان آخرها: الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم والتي عقدت بالجماهيرية خلال الفترة 21-23/ 1/ 1369 من وفاة الرسول ﷺ بالتعاون مع كل من المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والفدرالية الإسلاميّة في فرنسا، شارك فيها عدد من المتخصصين في هذا المجال[1].

إن كلاً من هذا التعاون الواسع، وما تم من لقاء غال على هذا الأمر الأجل بفضل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ينهض دليلا فصيحاً على هذا الاهتمام الساهر، وتلك العناية الفائقة التي أشدنا بها سلفاً. مع إيحاءٍ قوي بأن المهمة هي فوق ما يمكن أن ينفرد بها شخص أو مؤسسة مهما كانت قدراتها وخبراتها، وفي هذه اللفتة العابرة إلى هذا المجال الدعوي المشترك بين جمعية الدعوة الإسلامية، ومركز ديدات الدّعوي ما يوحي بأهمية هذا اللون من النشاط الدعوي، وما ينفرد به من خصوصية وخطورة كبيرين.

هذا.. ومما يتصل بمجال نشر المخطوطات في عمل ديدات ومنهجه الدعوي ويعتبر متمما له، نشاطه في مجال:

5 - الإعلام بالإسلام:

إذ يشغل استخدام الجانب الإعلامي في وسائله المعاصرة حيزاً واسعاً من أنشطة الدّاعية ديدات، حيث يعتبر من أشهر المجالات التي عرف بها، وبرع في توظيفها لخدمة العمل الإسلامي. وقد تنوعت استخداماته لمختلف الوسائل والأساليب الإعلامية، كالإعلام عن القرآن في الصّحف المحليّة بنشر آيات مترجمة المعاني إلى الإنجليزية أو اللغات المحلية تحت عنوان: «القرآن يقول» أو «رسالة من القرآن»، وغيرها من العناوين المثيرة الجذّابة، مرفقة بالاسم والعنوان لتسهيل الحصول على المزيد من المعلومات، أو طلب التزويد المجاني ببعض منشورات ديدات من مطبوعات وكتب إسلامية، إلى جانب الإعلان عن الإسلام بطرق فنيّة مقبولة من خلال لوحات خشبية أو معدنيّة، وأخرى

---

(1) صحيفة الدعوة الإسلامية، ع765، ص5، بتاريخ 11 جمادى الآخرة 1369من وفاة الرسول ﷺ، طرابلس.

مضيئة، تعلق في أماكن بارزة في الطرق، والشوارع، وفوق المباني، والعمارات الشاهقة، وغيرها من المواضع التي تجعلها لافتة للأنظار ليلاً ونهاراً، وهي تحمل عبارات قويّة في إثارتها، ومصطلحات شديدة الجاذبية من قبيل «مرحباً بك إلى الإسلام» و«اقرأ القرآن. . . . العهد الأخير». والغاية من هذه الإعلانات وبهذه الصورة، هي فيما يقول ديدات: «إن فضولهم أمر مهم بالنسبة لنا، فهذا يدفعهم للبحث والمعرفة ويجعلهم يفتشون عن القرآن، ونحن نحقق هذا الهدف بالإعلان عن ذلك في أعلى المباني»[1]، وقد نشرت هذه اللافتات الإعلامية في عدد من المناطق. ولكن رغم ما يميز هذا الأسلوب الإعلامي الّذي جاء انعكاساً لظاهرة شائعة في جنوب أفريقيا من بعد حضاري هادئ في الدّعوة إلى الإسلام، فإن ذلك لم يحل دون اعتراض المختار البلدي لمدينة دربن عليه بدعوى مزعومة باطلة، من قول بأنه يثير الشغب، ويستفزّ الجماعة المسيحية، وأنه بسببه قد ووجه باحتجاجات واردة من قبل بعض المواطنين، وغير ذلك من الادعاءات الحاقدة المعبرة عمّا يكنّه أعداء الإسلام لدعوته من عداء قديم، وحقد دفين، وقد نوقش من قبل القائمين على المركز الدّعوي مناقشة واعية استندت على مبدأ الحرّيّة الدّينية والذي تكفّل به دستور البلاد كحق مضمون للجميع[2].

وقد استحدث الدّاعية أحمد ديدات في ضوء عنايته بدور الإعلامي في التعريف بالإسلام برنامج «التليكوم الإسلامي» وهو عبارة عن تخصيص غرف ذات واجهات خارجية مطلة على الشوارع العامة لعَرض برامج إسلامية عبر شاشات تلفزيونية كبيرة، تجذب المارة في الشوارع للترحيب بالرّاغبين منهم في الدّاخل، للمشاهدة على مقاعد جاهزة لهذا الغرض، مع تقديم ما تيسّر من خدمات الشاي وغيرها مجاناً، ويمتد العرض في هذا المجال يومياً لمدة ست عشرة ساعة[3]، أو ما يزيد، وللإعلام أيضًا فقد

---

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص32، مصدرسابق.

(2) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(3) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 42، مصدر سابق.

أنشأ ديدات عام 1961م صحيفة (الموقف) التي توقف صدورها، وخلفتها صحيفة (البرهان) التي جمعت بين مهمة تقديم معلومات مفيدة عن الإسلام من جهة، والتوثيق الإعلامي بتغطية مختلف نشاطات مركز ديدات الدّعويّ من جهة أخرى .

ويلحق بالإعلام الصحفي مشروع نشر مفكرة إسلامية حولية لغرض البيع، ولكن هذا المشروع استمر من مطلع الستينات إلى أواسط السبعينات فتوقف عندها عن الصدور .

ونظراً للأهمية التي تكتسيها قضية الإعلام في فكر وعمل ديدات الإسلامي، فإن العودة لإتمام الحديث عنها مطلب لابد منه، وذلك في موضع لاحق ومناسب من هذه الدراسة .

6 - الاحتفال بالمناسبات الدّينية :

يغتنم ديدات - كغيره عادة - فرصة المناسبات الدّينية للاحتفال بها وإحيائها بمحاضرات، وبرامج إسلامية تعد من صميم عمله الإسلامي، وقد يدعى أحياناً إلى بعض المناطق المسلمة للمشاركة في الاحتفال بتلك المواسم والمناسبات، والتي غالبًا ما يكون منشّطها، وكان لما يكنه من تقدير خاص لذكرى المولد النبوي الشريف أنه كلما وجهت إليه دعوة للاحتفال بها بادر إلى قبولها فور ورودها، لما يرى فيها ويعتبرها مثابة امتياز وتشريف لشخصه المتواضع[1]، فلذا حين قرر مسلمو جنوب أفريقيا الاحتفال بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم، بتنظيم متعاون من دائرة الدّراسات العربيّة، والمركز الدولي للدعوة الإسلامية، إلى جانب عدد من المدارس المحلية، كان للمركز الدّعوي وللقائمين عليه كديدات وغيره دور محوريّ في الاحتفال بتلك المناسبة العظيمة، لما لها من دلالات عميقة، وأبعاد تاريخية وواقعية، وقد نجح المنظمون لها في إضفاء طابع وطني على هذه المناسبة، بأن شاركت في الاحتفال بها وفود عن مختلف مناطق جنوب أفريقيا .

وأحسب أنّها كانت فرصة ذهبية نفيسة لطرح ومناقشة هموم الأمة، ومشكلاتها

---

(1) ينظر : الرسول الأعظم محمد ﷺ ص 24، مصدر سابق .

الرّاهنة، والحوار حول قضاياها المركزية الجادّة، وللنظر الموضوعيّ الشامل خصوصاً في مسيرة العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، وما جاورها من مناطق جنوب القارة الأفريقية، من منافذ ومراكز الغارة التنصيرية في حملتها الرامية إلى تطويق المسلمين، وإفراغهم عن محتوى عقيدتهم وهويتهم، فهذه وغيرها من القضايا التي أظن أنها كانت حاضرة بوضوح في بال من عملوا على تنظيم هذا اللقاء التاريخي الكبير على مستوى جنوب أفريقيا وفي جدول أعمالهم.

ولعل تعلّق ديدات بنشاط الاحتفال بالمناسبات الدّينية، وما صرفه في هذا المجال من عناية وجهود يعود إلى ما وجده فيه من أهمية متعدّدة، حيث يعتبر وسيلة ناجعة في استقطاب غير المسلمين إلى جانب ما يحتويه من بعد ترفيهيّ، فضلاً عن كونه مناسبة لتعميق الفهم والصّلة بالإسلام، وشدّ روابط الأخوّة، والانتماء الثقافي، وغيرها ممّا يمكن أن نجد ما يعززها في جهود ديدات في مجال:

7 - تقديم الخدمات الاجتماعية:

عُنِيَ ديدات من خلال مركزه الدّعويّ بالعمل في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية، والقيام بأعمال خيرية تمثلت في المساعدة على تقديم تسهيلات للرّاغبين في الزواج، وصيانة الأسر المسلمة بالحيلولة دون وقوع الطلاق فيها ممّا يعرضها للتفكك والوهن، علاوة على جهوده المشكورة في تأليف قلوب المعتنقين الجدد للإسلام بتقديم مساعدات معنوية ومادية للمحتاجين منهم. وفيما يلاحظ هنا، هو أن فترة سبعينات القرن العشرين، تعتبر من أنشط فترات مزاولته لهذه الأنشطة. ففي حينها بدأت تشيع ظاهرة الزّواج بين المسلمين وغيرهم، وخاصة الهنود، الأمر الذّي ظهرت انعكاساته السلبية في تهديد تناسق النسيج الاجتماعي للأقلية المسلمة في البلاد، وتبدّتْ في جملة المشاكل الاجتماعية، والقلاقل العائلية التي أفرزتها هذه الظاهرة ذات العواقب الوخيمة غالبًا، فعمل ديدات ضمن نشاطات المركز الدّعوى على التدخل في محاولة لتسوية الوضع من خلال ما قام به من عمليات نشر الوعي

الإسلامي، ببيان الأسس الإسلامية السوية في بناء العلاقات الاجتماعية، وخاصة العائلية منها، منطلقاً من واقع النصوص القرآنية، والنبوية، وكانت المعالجة تتجه إلى التركيز على بيان ضوابط علامة التزاوج بين المسلمين وغيرهم، وتوضيح أسس السّلوك الإسلامي، وما يتعين الالتزام به في الحالات التي يفرض فيها الزواج خارج النطاق الدّيني نفسه على الإنسان المسلم كشبه ضرورة لابدّ منه[1]. وأعتقد أنه كان لهذا النشاط مردوده الطيب في إزاحة الكثير من ضباب الغفلة والجهل في هذا الشأن، وفي العمل على إزالة بعض من المشكلات التي طرأت منغصة الحياة الزوجية في عدد من العائلات، فهو بذلك نشاط لا سبيل إلى التقليل من أهميته بحال من الأحوال.

وربما رأى ديدات في هذا النشاط الاجتماعي خدمة للأقلية المسلمة أكثر من غيرها من مواطني البلاد، فتأمل في توسيع نطاق خدمته الاجتماعية لتستوعب كل مجتمعه من خلال اعتماد مشاريع الإغاثة والإنماء، والتي كان من أولها وأشهرها تبنّي:

8 - مشروع زمزم:

وهو أحد المشاريع الإنمائية التي تبناها مركز ديدات الدّعويّ لمساعدة المناطق الفقيرة المحتاجة، وكان هذا المشروع المعتمد عام 1983م يهدف إلى حفر مجموعة من الآبار للتغلب على مشكلة المياه في مناطق تعاني منها، وكانت الخطة المرسومة لهذا الغرض تنص في مرحلتها الأولى على حفر عشرين بئراً، ولكن المشروع أجهض ولم يقدر له الخروج إلى حيز التحقيق، لأسباب يقال إنها إدارية في معظمها[2]، وهو ما يثير العجب! ويبعث على التساؤل؟ وإن كان من المهم أن نعلم أن تنفيذه كان يقوم على جمع التبرعات في حملة قام فيها المركز بطباعة وتوزيع 100 ألف بطاقة لتأمين متطلبات التمويل الكافي. على أن هذا المشروع مع توقفه، وعدم تنفيذه يصوّر لنا جانباً مغموراً من تلك الجوانب الكثيرة المجهولة عن نشاط ديدات، ومنهج عمله الإسلامي في مجالاته المتعددة والتي لم يعرف منها في الغالب إلا ما أبرزه الإعلام لسبب أو لآخر.

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر السابق.

9 - نشاطه في مجالي التعليم والتكوين :

وردت الإشارة فيما سبق إلى أن ديدات قد انشأ مؤسسة السّلام لخدمة العمل الإسلامي ، وهي تتضمن إلى جانب وحدات أخرى مدرسة تعليمية تقوم بأداء رسالة العلم إلى أبناء منطقتها ، وتستقطب غير المسلمين لإرسال أبنائهم إليها لينشأوا في رياض التربية والتعليم الإسلاميين .

وإن موضوع التعليم يشكل في فكر ومنهج ديدات قضية جوهرية ، تنكشف لنا حقيقتها حين نلقي نظرة موسوعية فاحصة على مختلف مجالات عمله الإسلامي ، حيث نجد أن كل تلك المحاضرات التي دأب على إلقائها ، وما قام بها من دروس كثيرة ، ومواعظ متناثرة ، في مناسبات مختلفة هنا وهناك ، فضلاً عن تلك التي تمت بناء على طلبه ، وتوجيهاته ، هي في مجملها تمثل جزءاً صميماً ، مما يعول عليه ديدات ، في إطار رسالته التعليمية ذات الهدف الدّعويّ ، في منظورها الأوسع . وتأتي كتاباته ، ومنشوراته الهائلة لتعميق وتوسيع دائرة حركته التعليمية التثقيفية من منطلق نشاطه الدعوي المحيط .

وفيما يخص التكوين فقد لمع ساطع اهتمامه في مجال تدريب الدّعاة وفق منهجه الدّعويّ لمقاومة المؤامرة التنصيرية ، ومناهضة جحافل المنصرين ، وقد توفر لديه عدد من الطّلاب[1] والأصحاب ، ممن ترسموا خطاه ، واقتفوا أثره في مسيرة طويلة يرجى منها الوصول إلى المحطة التي نزل عندها ديدات بزاد وافر من عُدَدِ وذخائر الكتاب المقدس ، لخوض معارك ضارية طالما انحسمت لصالحه ، وخرج منها منتصراً لدينه وأمته .

وفي سياق متطور لعمله في مجال تدريب الدّعاة أقدم عام 1998م على تجربة جديدة بإقامته في مركزه الدّعوي دورة تدريبية للدعاة المسلمين ، شارك فيها عناصر منتقاة من مختلف القارات مع محدودية عددهم ، واستمرت لمدة شهرين ، وكانت الدّورة الأولى من نوعها في أنشطة وأعمال الدّاعية ديدات ، ولنا مع هذه الدّورة موعد

---

(1) ينظر : معركة التبشير والإسلام ، ص : 186 ، مرجع سابق .

آخر للحديث عنها في موضع أحق وأنسب[1].

10 - نشاطه الإسلامي في مجال المراسلات :

يصور لنا الشيخ ديدات نشاطه في مجال المراسلات قائلاً : «فالرسائل التي تأتي إلينا كثيرة جداً، ولابد أن نجد حلاً لهذه، لأن كمّ الرّسائل كبير إلى الحد الذّي يمكن أن يستنفذ كل طاقاتنا»[2]؛ إذ تتراوح الرسائل الواردة يومياً ما بين مائة ومائة وخمسين[3] رسالة، وهي إما لطلب كتبه ومطبوعاته بالمجان، أو لطرح أسئلة دينية، والاستفسار في مسائل معينة. وهذا الكمّ الهائل من الرسائل اليومية الواردة من مختلف قارات العالم، بما تتطلبه من ردود مادية وإجابات معنوية سريعة يجعل من هذا اللون من النشاط مجالاً قائماً بذاته في عمل ديدات وخدمات مركزه الدّعوي. فلذا لا نعدو الصواب حين نعتبره مجالاً مستقلاً، ونفرد له اعتباراً خاصًا بالنظر إلى أهميته ودوره الدعوي، ولِمَا يوحي به من تقبل وتفاعل الناس في كل مكان مع جهود الشّيخ ديدات، وهو ما يعبر عنه هذا الحرص العالمي في التوجه إلى الاستفادة من خدماته، والانتفاع بعمله ومنهجه. وهذا المجال يعتبر أحد المجالات الواعية التي يتحقق من خلالها تبليغ الإسلام بهدوء وعقلانية، ليتم تقبله من قبل الآخرين عن نافذ وعي، وكامل اقتناع.

11 - استعانته بغير المسلمين في نصرة قضايا المسلمين :

من إيجابيات ديدات الكثيرة أنه مسكون بروح التعاون مع غيره في تحقيق ما تقتضيه خدمته للإسلام والمسلمين، فلذا نجده يتعاون إلى حد ما مع إخوانه المسلمين في مختلف المجالات التي من شأنها أن تفتح آفاقاً رحبة أمام حركة الدّعوة الإسلامية، وتمكن للحياة والعمل الإسلاميين. ولا نعدم في مسيرته المباركة : من منطلقها، وتطوراتها، وإنجازاتها، ما يؤيد خط التعاون في عمله، ويؤكد سيره عليه. ولكثرة الأمثلة في هذا

(1) ينظر: ص: 333 - 343، من هذا البحث.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 38، مصدر سابق.

(3) المصدر والصفحة نفسها.

الجانب ووضوحها ما يغني عن العرض والبرهنة. على أن من خصوصياته المميزة له حقاً، ظاهرة الاستعانة في نصرة القضايا المسلمة بالآخرين من غير المسلمين، وبالأخص من الشخصيات المنصفة من ذوي الضمائر الإنسانية الحية، المعروفة بانحيازها وانتصارها لكل ما هو إنساني في جوهره، بغض النظر عن الفوارق الشكلية العارضة. وهذا المبدأ الحكيم هو الذي حدا بالشيخ ديدات إلى تحقيق لقاء تاريخي هام مع عضو الكونجرس الأمريكي السّابق بول فندلي، بمدينة كيب، لدراسة ومناقشة القضية الفلسطينية باستيعاب دافق مؤثر، وذلك في محاضرة عامة شهدت حضوراً حاشداً.

فلقد كان حقاً لقاء مفاجئًا، إذ أسفر عن العديد من الحقائق عن جرائم الصهاينة في فلسطين مما كشف النقاب عنها، وحمل الثقيل من الهموم والإدانات الموجهة إلى المحتلين الصهاينة، فكان بذلك مكسباً عظيماً من مكاسب ديدات الوفيرة، في انتصاراته للأمة وقضاياها.

ولأهمية الحدث، وجدّيته في مجال العمل الإسلامي، ولتسجيل الفضل لمحققه قال الأستاذ علي الجوهري: لا تستطيع حكومة من الحكومات، لدولة من الدول، أن توفر الأموال اللازمة لتحقيق مثل هذا اللقاء الذي حققه الدّاعية الإسلامي الكبير العلامة «أحمد ديدات». ولكن توفير القدرات والمواهب الفنية اللازمة لإنجاحه كما أنجحه العلامة الكبير أحمد ديدات أمر بعيد المنال بغير جدال إن لم يكن في نطاق المحال[1].

إن هذا المنهج البديع الرائع يستحق التنمية والاستثمار، بتوظيفه في خدمة مختلف قضايانا العادلة، في كافة الدوائر العلمية والإعلامية، وفي شتى الساحات الإنسانية على المستويين المحلي والعالمي، وهو ما حاول ديدات القيام به متعاوناً مع غيره تارة، ومنفردًا بالمهمة تارة أخرى كما يظهر ذلك في:

12 - نشاطه في مجال الرّحلات الدّعوية:

ولئن كان ديدات يلتقي مع غيره من قدامى ومعاصرين في ممارسة نشاط الرّحلات

---

(1) من كتاب أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 5، ترجمة على الجوهري، مصدر سابق.

الدعوية، فإن مما يميزه في هذا المجال كثرة رحلاته، وتنقلاته عبر العالم، حيث قد جاب مختلف مناطق العالم شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وزار العديد من الدول. ولاشك أنه قد كابد الكثير من الصعاب والمتاعب، وهو يتجشم عناء السفر من منطقة لأخرى للقيام بواجبه الدّعوي، كما أمضى عشرات السنين في هذا العمل الإسلامي دون أن يلقي بعصا الترحال أو يركن إلى الراحة والاستقرار، بل تضاعفت رحلاته، وتواصلت تنقلاته داخل القارة الأفريقية، وخارجها، ولا يستبعد أن تكون إجراءات السفر الرسمية قد حالت دون تحقق بعض أسفاره، فصدّته عن الوصول إلى بعض الجهات التي كان يود زيارتها، حيث قد حدثنا عن التزامه في رحلاته المتعددة باستيفاء الشروط اللازمة لتمامها، فقال في مناظرته للقس سواجارت: «عندما قصدت المجيء إلى الولايات المتحدة، فرضت عليّ حكومتكم الحصول على تأشيرة، ونفذت كل الإجراءات المطلوبة للحصول على تأشيرة . . . ». وأيضاً حدث أني أردت الذهاب إلى (زامبيا) «حينما حصلت على استقلالها فسلموني نماذج الحصول على التأشيرة، وكان عليّ أن أوقع . . »[1]. وكان أغلب ما تتجه زياراته نحو دول الخليج العربي، وإلى العواصم الغربية من أوروبية، وأمريكية، فظل الأمل يحدوه بحسه الإسلامي المرهف، وثقل ما يعانيه من هموم العمل الإسلامي في اللقاء بشخصياتها البارزة، والاتصال بمؤسساتها الموقرة في الأوساط الدينية والفكرية، وذلك للتحاور معهم وتبادل وجهات النظر حول ما يثيرها من قضايا مفيدة ومهمة بالنسبة للطرفين، وقد ألقى في تلك الزيارات عدّة محاضرات، وعقد أثناءها سلسلة من اللقاءات الحوارية، كما حرص فيها على الاجتماع بالجاليات المسلمة وإسداء ما تيسر من نصائح وإرشادات إليها، ومتحدثا عن تجربته في العمل الإسلامي، مخطراً بفداحة التحديات التي تواجهها الأمة المسلمة، وجسامة المشكلات والعوائق العائقة لنهضتها الحضارية المنشودة. وهو في اتصاله بالإعلام، وقادة الرأي العام، والجماهير في العالم الغربي

---

(1) أحمد حجازى السقا: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ أحمد ديدات والقس سواجارت، ص 190، مكتبة زهران – القاهرة، د، ت.

يحرص على الدفاع عن قضايا الأمة، وحماية حقوقها، وينتصب في وجههم محامياً بارعًا عن الإسلام والمسلمين. ومما يدل على ذلك أنه في زيارة له لبريطانيا التي أرى أن الشيخ قد شغف بها كثيراً، وكانت لها عنده مكانة خاصة تدفعه في بعض المواقف إلى الإفصاح عن اعتزازه بها وببعض ما يتصل بها كقوله: «لقد ولدت - أنا أحمد ديدات - بريطاني الجنسية، ولازلت أحتفظ بكل اعتزاز بجواز سفري البريطاني الذي بلغ عمره الآن أكثر من ستين عامًا.. ! إنني لا أعرف لقيمته حدودًا»[1].

ففي زيارته تلك - والهجمة الإعلامية الغربية على العالم الإسلامي على أشدها في موقفه الثائر ضد صدور كتاب الآيات الشيطانية للكاتب المارق سلمان رشدي - عمل ديدات على تأجير قاعة واسعة والإعلان بصورة ملتوية عن محاضرة عامة، شهدها ما يبلغ حوالي ستة آلاف شخص، سلخ فيها رشدي سلخًا وعرّاه من أسلحته الوهمية الواهنة، مميطًا اللثام عن وجهه المعادي لكل ما ينتمي إنسانيًا إلى عالم القيم والأخلاق، ليكشف بذلك عن عداوته للإنسانية كلها، ولعل من المهم إدراك أنه قد لجأ ديدات إلى أسلوب المحاضرة، بعد أن رفضت هيئة الإذاعة البريطانية عرضه عليها مبلغ خمسين ألف جنيه مقابل تخصيصها له خمس دقائق فقط للحديث عن رشدي، وكتابه، وتوضيح ما ينطوي عليه من توجه خبيث عابث[2]. وعليه فإن هذا المنهج العقلاني الفاعل هو أخوف ما يخاف منه العالم الغربي، وهو ما كان يدركه جيداً خبير الدعوة الإسلامية الشيخ أحمد ديدات.

ولعل في الاستدلال بهذا الموقف ما يغني عن غيره من الأدلة التي لا حاجة بنا إلى أن نسوقها لتأكيد ما طرحناه عن نشاط ديدات في رحلاته الدّعوية، ومحاماته عن قضايا الأمة ومواقفها، وذلك في مختلف رحلاته ولقاءاته. ومما له أيضًا اتصال قريب بهذا المجال في عمل ديدات الإسلامي، وقد يتقاطع معه في بعض الحالات هو:

---

(1) أحمد ديدات، شيطانية الآيات الشيطانية، ص42، تعريب علي الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، د،ت، د.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 64.

13- مشاركته الفاعلة في المؤتمرات الإسلامية :

تسجل لديدات في سجل مجالات عمله الإسلامي الخالد. فاعلية مشاركته في العديد من المؤتمرات الإسلامية: الإقليمية منها والدولية إلى جانب تلك التي انعقدت منها محلياً في جنوب أفريقيا، مثل مؤتمرات الندوة العالمية للشباب الإسلامي[1]، ومؤتمرات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، وغيرها من المؤتمرات والندوات التي تعقد في ظروف مختلفة زماناً ومكاناً للنظر في قضايا المسلمين، ومراجعة مسيرة العمل الإسلامي، تقييما وتخطيطاً وتنسيقاً، وتبادل الخبرات، ووجهات النظر بشأن مختلف الموضوعات ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين. ومما درج عليه ديدات وعرف به في تلك المؤتمرات إفصاحه الصادق عن مراده بحرارة دون لثام، فكان حين يأتي دوره في الحديث تراه يستفيض في نقل تجربته إلى الآخرين بكرم وسخاء، مغلباً في مداخلاته جانب الإنذار بالخطر التنصيري الداهم بحملاته المسعورة، مستحثـًا اهتمام المسلمين وجهودهم للنهوض بواجب الدعوة إلى الله؛ نشراً لرسالة الإسلام، وحماية للذات الحضارية المسلمة، وبتعميق المجال الحيوي للأمة، والعمل الفعال للتوسيع من نطاق مناطق انتشار المسلمين. وفي سبيل هذا الشأن العظيم كان - وهو يتحدث إلى إخوانه من رجال الدعوة وقياداتها - غالبًا ما تتصاعد درجة حرارة انفعالاته، وتحتد نبرات صوته، وكأنه يتمزق تحسّراً ما بين مرارة إحساسه بخطورة جهود المنصرين السّاهرة، وما يقابل ذلك من تخلف وقعود غالب المسلمين عن الحركة والعمل، في مدافعة ما يتربص بدينهم ويهدد وجودهم من مخاطر هائلة، هذا ولنا فيما بعد وقفة على مشاركته في أحد مؤتمرات الدّعوة الإسلامية بطرابلس، وذلك في موضع آخر من هذا البحث[2].

غير أن من تمام العلم بمجالات عمل ديدات الإسلامي، وحسن إدراك العوامل التي أتاحت له هذه المشاركة الواسعة، ويسرت له سبلها، أن نعلم أن وجود مركز دعوي نشط في أداء مهمته، منظم في جهاز إدارته، بإشراف ديدات - بعد مشاركة في تأسيسه -

---

(1) ينظر: أسماء الفائزين بجامعة الملك فيصل العالمية "ص 142، من مجلة الفيصل، ع 107، س 6، 1406هـ-1986م.

(2) ينظر: 348-360، من هذا البحث.

هو عامل أساسي ورئيس من العوامل التي هيأت له هذه الفرص العظيمة، وساعدته على القيام بمختلف تلك النشاطات السابقة، والانخراط في مجالاتها المتعددة.

إذن: فلما يحظى به هذا المركز من أهمية خاصة، لا يسعنا إغفال دوره، وقد أصبحت إدارته في حدّ ذاتها تشكل جزءاً له اعتباره في أعمال ديدات، مما يجعل تجاوز المركز دون الحديث عنه نقصاً مشيناً في سياق أي حديث كهذا عن أنشطته ومجالات عمله الإسلامي خاصة، وعن منهجه في الحوار والدعوة على نحو أعم.

14 - المركز الدّولي للدّعوة الإسلامية:

كانت بداية المركز عام 1958م، حينما تحمس عدد من شباب محاضرات ديدات الأسبوعية بتشكيل فريق دائم للمحاضرات والحوارات الدّينية، من خلال مركز ثابت أريد له منذ بدايته أن يكون دولياً وللدعوة الإسلامية خاصة، وقد ظهر المركز إلى الوجود في ظروف محلية معقدة، وملابسات دولية دقيقة؛ حيث كان ذلك في سياق أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية، بما أفرزته من مضاعفات، ومضايقات، وكان من نتائجها أن تحول العالم الإسلامي إلى هدف أساسي، شُنَّت عليه مختلف الحملات: عسكرية وسياسية وتنصيرية، وسعى المتآمرون إلى تجزئته إلى دويلات وجنسيات، إمعاناً في إضعافه من أجل القضاء عليه. وفي سياق هذا السباق من التآمر الإمبريالي، تعززت الغارة التنصيرية، وانتشرت في معظم أرجاء جنوب أفريقيا. وبحلول عام 1950م نجحت الخريطة التنصيرية في ضم واستيعاب أوساط وجماعات من غير المسلمين عن طريق المدارس والدّورات التنصيرية، وملتقياتها المتعددة في كافة أرجاء البلاد. وكان يسعى المنصرون فيما يطمعون فيه إلى توسيع نطاق عملهم، وتركيز جهودهم لاستقطاب الأقلية المسلمة هناك، فهبوا مكثفين من نشاطاتهم في محيط المسلمين، وضاعفوا من أسلوب توزيع المذكرات، والتردد على المنازل، وعمليات التنصير الميداني في السّاحات. وكانت الأقلية المسلمة من جانب آخر تتعرض لحملة إعلامية شرسة من ذوي العواطف والميول المضادة للإسلام من مختلف التيارات الفكرية[1]، مما وضعها

---

(1) ينظر التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

اضطراراً أمام واقع المقاومة؛ إذ لم يكن عنها بدٌّ ولا بديل، فوجدت نفسها ملزمة - بل مرغمة -على رد الفعل المضاد لوابل الهجمات التي تمطر عليها، فكان لابد من الدفاع عن النفس من أجل حياة عزيزة كريمة. وهو ما لم يكن ميسوراً في غياب شخصيات مؤهلة ومؤسسات متخصصة، في بيئة اعتصم مسلموها بالهدوء وإطباق الصمت بسبب ما كان يخيم عليهم من جهل عام بفنون هذه المعارك الدينية الحديثة، وأساليبها الفكرية الماكرة، ناهيكم عن وسائلها الإعلامية المتطورة، والتي كان العدو يستغلها من حين لآخر لإثارة قضايا مثيرة لحفيظة المسلمين، مجنداً معه كافة الدّوريات الإعلامية البريئة باتخاذها طعمة سائغة في صنّارتها لاصطياد المسلمين، ولتحقيق ما ترنو إليه من علمنتهم، وإبطال مفعولهم في حالة تعذر تنصيرهم، أو ارتدادهم عن دينهم. فمن هذا المنطلق، ولِمَا أدت إليه الأوضاع، دعت الضرورة إلى تأسيس هذا المركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة دربان للقيام بمهمة التصدي وغيرها من مهام نشر الإسلام والدّفاع عنه.

وفيما تفيد به المعلومات الواردة في تقرير دعوي وعلمي - اعتمدنا عليه كمصدر وحيد متوفر في هذا الخصوص - تعتبر الفترة ما بين عام 1959 إلى 1962م من أهم المراحل المبكرة في حياة المركز، إذ ظهر فيها نموه السريع من خلال توسعه، وانتشار نشاطاته التي طبقت الآفَاقَ بشهرة هذا المركز. وفي عام 1965م انتقل المركز إلى مقر جديد له وبقي فيه لغاية 1986م لينتقل أخيراً إلى مقره الحالي بشارع الملكة في مدينة دربان، أترى هل ثمة من دلالة عملية لهذه الانتقالات من مقر لآخر؟ وهل يمكن الاعتقاد من خلالها بأن المركز كان يعاني من أزمة عدم الاستقرار الطويل بما لها من تأثيرات على مجريات العمل وإدارته؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تغيير للجو، وشحذ للهمة من أجل انطلاقة جديدة وجادة، وفق خطط عملية مستخدمة؟ أم أنه ليس أكثر من تعبير رمزي عن الإمكانيات المادية التي توفرت للمركز في فتراته اللاحقة، فأصبح يتلملم مستطرفًا الحياة في أجوائها؟ وعلى أي حال يبقى كل هذا وذاك وغيرها من الاحتمالات واردة، وقابلة للعرض والنقاش، مع وضع اعتبار خاص لما ظل عليه المركز من أول نشأته إلى يومنا هذا من ضبط دقيق لشؤونه الإدارية والمسائل المالية منها خاصة، حيث كان القائمون بأمره يجمعون له المساعدات، ويفتحون باب التبرعات الخيرية في الأشهر والمناسبات المباركة،

ويقومون كذلك بتوجيه طلبات الاستمناح إلى بعض الشخصيات والهيئات لتحمل نفقات طباعة بعض المطبوعات، أو تمويل أحد المشاريع. وكان الحرص شديداً على صرف الموارد المالية في شؤون الدعوة، والعمل الإسلامي: من نشر وإعلام وإيفاد واستضافة وغيرها، بعد صرف المخصصات الشهرية: من مرتبات، ومستلزمات إدارية. وتحقيقاً لمقتضيات الضبط كانت الإجراءات المالية تسجل بدقة متناهية لإخضاعها للمراجعة والتحقيق من قبل شركات محاسبة عامة، بموجب عقود بينها وبين المركز للنظر في مسائله المالية، والإشراف على مهمة الرقابة والتفتيش من حين لآخر[1].

وربما - فيما يبدو - يكون هذا الإجراء الدقيق هو الذي ضمن للمركز ما تحدث عنه ديدات قائلاً: «بدأنا المركز عام 1958م برصيد مالي مقداره ثلاث جنيهات وخمس شلنات ونحن حالياً نملك المبنى الذي به مقر المركز، وقد تخلصنا من كل الدّيون، واشترينا مبنى آخر، سنجهزه بقاعة ضخمة للجمهور، ولدينا محلات ودكاكين كثيرة تدر علينا دخلاً وعائداً، وعملنا في تطور وتقدم»[2].

ومن الناحية الإدارية فقد كان مقرراً في لائحة تأسيس المركز العمل بنظام تصعيد المجالس الإدارية، على أساس التعاقب سنوياً على إدارة المركز والإشراف عليه، وهو ما يفهم في إطار ظروف تأسيسه، وبما كانت له من قاعدة شعبية مُقَرِّرَة يرجع إليها. وبحلول عام 1980 اقترح ديدات تشكيل لجنة خاصة ودائمة تستمر عضويتها مدى الحياة، وإمدادها بصلاحيات واسعة تمكنها من العمل الجاد مراعية فقط مصلحة المركز وأهدافه، وحتى دون مشاورة الآخرين، أو إبلاغهم أحياناً، وهذا الاقتراح الذي تم اعتماده عائد - فيما أظن - إلى فتور وإهمال، لمسه ديدات في العامة من الناس. وبتقصيرها في التفاعل والمتابعة، وعملاً بموجب اقتراحه شكلت لجنة دائمة وقوية من أربعة أعضاء بالإضافة إلى ديدات نفسه، وتم تسجيل العضوية الدائمة لهؤلاء الأعضاء في سجلات المحكمة العليا طبقاً لمقررات الدستور وهم: أحمد ديدات،

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 27، مصدر سابق.

فنكر، غلام حسين أقجى، يوسف علي، محمد يوسف بخاس.

وفي العام 1987 قدّم هذا الأخير استقالته لأسباب مجهولة، وهو العام نفسه الذي توفي فيه أحد أبرز قادة المركز وهو السيد فنكر، فأصبح موقعهما الوظيفي شاغراً من بعدهما، الوضع الذي اقتضى التعويض عنهما بعنصرين آخرين هما: يوسف أحمد ديدات، وتوشد يوسف علي، وهما نجل كل من ديدات ويوسف علي[1].

لنجد أنفسنا بذلك في مواجهة وتأكيد ما أسميناه من مشكلات العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا بمشكلة الوصاية على المساجد ومؤسسات العمل الإسلامي، حيث يخلف الآباء أبناؤهم دون مراعاة العوامل الموضوعية، والضوابط العملية. ويعتمد المجلس يوم الخميس من كل أسبوع لعقد اجتماعاته الإدارية لمناقشة المستجدات، وتداول النظر في شؤون المركز ومختلف مسائل عمله الإسلامي بكلياتها وجزئياتها.

وفيما يتصل بنشاط المركز وأقسامه، فمن غير المبالغة القول بأنه قد شهد نمواً مطرداً وكسب سمعة عالمية طيبة؛ بفضل رئاسة أحمد ديدات وإشرافه عليه، في فترة من أزهى مراحل حياة المركز وأنشطها؛ إذ وظف ديدات في إدارته للمركز ما كان يتمتع به من رصيد إداري فكراً وممارسة، مما تحقق له أيام أن كان مديراً لمصنع الأثاث إلى جانب عدد من الدورات التي تلقاها في الإدارة والمحاسبة في تلك الأيام. وبتوفيق الله تعالى ثم بفضل تلك المعارف النظرية والخبرات العملية تطور المركز كثيراً، وتوسع في أقسامه وأجهزته المتعددة، والتي تتضمن قسماً للنسخ المرئي (الفيديو) يقوم شهرياً بنسخ مئات النسخ من أشرطة ديدات وغيره من مشاهير العمل الإسلامي، من قبيل الأشرطة التي عرف بها المركز في موضوعات الدّعوة من محاضرات، وندوات، ومناظرات[2].

ويشكل هذا القسم جهازا متكاملاً في مجال عمله تتوفر به كافة الإمكانيات الآلية والفنية للقيام بمهمته على خير وجه ممكن. وإن كان عمله يتوقف إلى حدّ ما على ما

---

(1) ينظر: التقرير الوارد عن ديدات ومركزه، مصدر سابق.

(2) ينظر: أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 35.

يحال إليه من أعمال صادرة عن قسم الدبلجة والتركيب الفني الإعلامي (المونتاج) وهو القسم الذي يتلقى في حدود اختصاصاته الأشرطة المرئية، بعد التسجيل وانتهاء عمل المصورين، ليتولى تضمينها بآيات قرآنية، وفقرات من الكتاب المقدس[1].

وإلى جانب هذين القسمين؛ يوجد في المركز قسم للحاسوب، يتوفر على تخزين المعلومات العامة، إضافة إلى ملفات المركز والرسائل الواردة من كافة الجهات. وقد بلغت أشرطة هذا القسم سبعة آلاف شريط تعمل على الحاسوب[2]، مما يدل على نشاط وافر وإنجاز كبير وهمة عالية !!.

وقد أبت هذه الهمة الطموحة إلا أن تكون للمركز مطبعته الخاصة به، فكان ذلك بفعل إرادة قوية من نفوس كبيرة، كان من شأنها دائماً أن تتعب الأجسام في مرادها، وأهدافها العظيمة.

وتتلخص مهمة هذه المطبعة في القيام «بطباعة كل ما يتعلق بالنشرات والكتيبات التي تخص المركز، بالإضافة إلى المطبوعات والدفاتر والنماذج التي يحتاجها المركز في نشاطه اليومي، وتقدم هذه المطبعة خدماتها لمن يرغب فيها من الزبائن، لتشكل بذلك دخلاً مالياً للمركز الدّوليّ للدّعوة الإسلامية[3].

وبالإضافة إلى هذه، توجد في المركز أقسام أخرى مختصة بالبرنامج السياحي لجامع دربان، وبالمراسلات، والعلاقات العامة، وبالمهتدين الجدد، ونحوها من النشاطات التي تجعل المركز دائماً يموج بالحياة، والحركة، ويغص بالمراسلات والزوار. وقد صور لنا ديدات هذا النشاط معبراً بقوله: «لأن المركز الإسلامي العالمي لنشر الدعوة الإسلامية بجنوب أفريقيا نشيط كخلية النحل، فإنه يجذب كثيراً من الناس للحوار والمناقشة بما في ذلك رجال الصحافة والإعلام»[4].

---

(1) ينظر: احمد ديدات، هذه حياتي، ص 36-37 مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر نفسه، حاشية الصفحة الـ 38.

(3) المصدر نفسه حاشية الصفحة الـ 34.

(4) أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات ص 61.

والمركز يبذل قصارى جهده في تفعيل وتطوير خطابه الدّعوي لمواكبة العصر، والارتقاء بالعمل الإسلامي، إلى مستويات أكثر رقياً وتقدماً، وقد ورد في أحد أعداد صحيفة القلم عمن له صلة بالمركز ما يحدد ملامح خطته العملية لخوض الألفية الثالثة، وقد أفصح المقال عن أمل المركز في إيصال الرسالة الإسلامية، وتبليغها بطريقة معاصرة تتناسب مع مستجدات العصر، باستخدام كافة المصادر والوسائل المتاحة لنشر الدّعوة، ومواجهة التنصير بمختلف الوسائل الإعلامية الحديثة. وبما أن خدمة الخلق لوجه الله جزء من خدمة الخالق، فإن المركز يرى أن الدعوة هي الخدمة العليا لتحقيق الواجب نحو الله سبحانه وتعالى، الذي جعل الأمة الإسلامية بركة وخيراً للإنسانية، وجعل الرّسالة المحمدية رحمة للعالمين. وفيما يخص واقع ومستقبل العمل الإسلامي في هذه الألفية الجديدة فإن المركز يعرب في خطاب متفائل عن تصوره بأن المجتمعات الإسلامية خلالها ستتقدم في طريقها لتحقيق أهداف الإسلام الحضارية؛ إن هي أدركت بأن الإسلام هو نظام الحياة الأمثل لدخول الألفية الجديدة، والأسلوب الأفعل لمواجهة تحدياتها. وأيضاً في الخطاب تعهد من المركز بالاستمرار في الخط الذي دشنه واستمر عليه أبرز أعلامه، أحمد ديدات، خط الحوار، والمناظرات الدينية[1] الذي غلبت شهرة ديدات به أكثر من غيره من المجالات. فلذا تأجل الحديث عنه ليكون نهاية مطافنا في رحاب أنشطته ومجالات عمله الإسلامي.

15 - نشاط ديدات في مجال الحوار والمناظرة:

إن مجال الحوار والمناظرات، وهو من غير شك أبرز مجالات عمل ديدات هو المسار الذي استهواه فاختطّه لنفسه، وانطلق منه منذ بداية أمره، وانتظم سيره عليه طيلة رحلة حياة عمله الإسلامي، كما التزم بجادته في مختلف المراحل والمواقف التي مرّ بها وشهدها خلال تجربته الدعوية، والتي شكلت ظاهرة فريدة من نوعها في عالمنا المعاصر. وقد تكوّن منهجه العام في مختلف أنشطته وأعماله بطابع الحوار والمقارنة، ومع ذلك فمن الخطأ حصر عمل ديدات في هذا المجال دون غيره من المجالات التي

---

(1) ينظر: 1-AL-qalam p:16 volume 25 No. 11-12-1990

كشفنا عنها من قبل هذا. ويبدو معلوماً أن أغلب حواراته ومناظراته مع الصليبيين والمستصلبين كانت بهدف المقاومة ووقاية الآخرين من شرّهم المستطير.

ولهذا، دخل معهم في مساجلات حوارية، وعقد مناظرات عديدة مع كبار علمائهم المتضلعين في اللاهوت الكنسي، كان من توفيق الله إياه، في مختلف تلك المواقف الصعبة، أن أبدى تفوقاً حاسماً عليهم؛ الأمر الذي لفت إليه الأنظار من كل مكان، وكان لدرء مخاطرهم - بتوكله على الله آخذاً بالأسباب - يحرص كل الحرص على أن تكون مناظراته لخصوم الإسلام ومناوئيه علنية ومسجلة، لتعم فائدتها، ويعظم نفعها. وكان حبه لعمله في هذا المجال يدفع به دائماً إلى إثارتهم للمباراة معهم في حلبات النقاش والمحاورة، كما كان أبعد ما يكون عن التقاعس أو التخاذل في مثل هذه الأمور وغيرها، من شؤون الدعوة والإسلام، وبذلك توصل إلى عقد عشرات من الحوارات البارزة مع القساوسة في مختلف مناطق العالم على مدى نصف قرن أو ما يزيد، ولكنه اشتهر من تلك المناظرات والحوارات ببضع منها أكثر من غيرها[1].

وبعد رحلة أربعين عاماً من المناظرات الدامغة مع ألمع رجال الدين الصليبي، تطلع ديدات إلى مناظرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني من خلال رسالة بعث بها إليه عام 1985م باعتباره الرمز الأول وأكبر شخصية في سلم مقامات المذهب الكاثوليكي الصليبي، قاصداً من وراء ذلك تتويج مسيرته الطويلة الشاقة من الكفاح الدّعوي في مجال الحوار والمناظرة بالغلبة على رأس الحربة، للقضاء على الفتنة قضاء مُبْرمًا؛ بسحق من تولّى كبرها، ولكن البابا تخاذل عن رد هذا التحدي السافر؛ لضعف في منطقه الديني، وضلال في عقيدته، فَلَم يستجب لمطلب ديدات لا في الحوار العلني، ولا في اشتراطه حضور عدد من مسلمي جنوب أفريقيا برفقته في حوار غير إعلامي مع البابا[2]. وليته ألحّ في متابعته لهذا الأمر مشايعًا البابا لاستدراجه في لباقة وحكمة إلى حلبة المناظرة، وذلك وصولاً إلى

---

(1) ينظر: بسام داود عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص 228-229، ط 1/ 1418هـ، 1998م، دار قتيبة، دمشق، سورية.

(2) ينظر: معركة التبشير والإسلام، ص 178، مرجع سابق.

إلحاق الهزيمة به، وإمنائه بالفشل الذريع كغيره ممن ناظرهم سابقاً، وهو مما لو تحقق بالفعل لكان إنجازًا تاريخيًا عظيمًا، ولكان - حتمًا - للإسلام والصليبية وللدعوة إليهما في عالمنا المعاصر شأن آخر غير ما هو عليه اليوم، بل يختلف عنه تماماً، ويتناقض كلياً مع ما هو قائم ومشهود الآن. ولو تمت تلك المناظرة كما كان يراد لها لتشكل بها واقع ومصير جديد، وحاسم لصالح الدعوة والعمل الإسلامي في عمومه.

حقاً لقد كانت إستراتيجية دعوية مبدعة، ورؤية حضارية متقدمة، استمدت جذورها من سيرة رسولنا الكريم ﷺ وتاريخ دعوته في مرحلتها التأسيسية، وذلك حينما اتجه إلى دعوة الرموز العالمية داخل الجزيرة العربية وخارجها من خلال أوفدهم محملاً إياهم كتبه إليهم، في وقائع معروفة في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، وإن من المؤسف في حق هذه التجربة التي أقدم عليها ديدات أنها لم تصادف نجاحاً يخرجها إلى واقع التنفيذ، بل بقيت أمنية غالية، وأملاً يظل متجددًا عبر الأجيال إلى أن يتحقق بعون الله تعالى، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، أن حوارات ديدات وإن كانت غالبة مع الصليبيين، كما تقرر، فإنها ليست مقتصرة عليهم دون غيرهم، بل وإنما اتسع حواره ليشمل إلى جانب المستصلبين كلاً من المارقين عن الإسلام من أمثال سلمان رشدي، الذي فضحه ديدات ودعا إلى أن يفتح معه باب الحوار والنقاش، فيما سنأتي على تفصيله في هذا البحث، وكذلك حاور نماذج من الشخصيات الغربية من ذوي الاتجاهات العلمانية مثل الرّجل السّياسي الأمريكي بول فندلي، فضلاً عن محاورته لليهود في بلاده فيما أشار إليها بقوله: «...ودعاني اليهود تيلفونياً لإلقاء محاضرة عن «القرآن واليهود» ووافقت أن أتحدث إلى أبناء عمومتي اليهود في هذا الموضوع الذي طلبوه منيّ وتحدثت إليهم في الموضوع[1]، وبهذا يتبين أن ديدات حواري بطبعه وفي ديدنه ومنهجه، ولم يكن بحكم تأثّره وإفادته من منهج القرآن الكريم من النوع الذي يستقذر الحوار ويستنكره حتى مع الخصوم التاريخيين وألدّ أعداء الإسلام والمسلمين،

---

(1) أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 39، مصدر سابق.

بل وإنما كان شعاره في مبدئه الحواري مع الجميع كما تبين لي «تعالوا إلي ناقشوني استوضحوا أي شيء تريدون مني، تعالوا إنني أرحب بلقائكم والتفاهم معكم، تعالوا تعالوا أنا مستعد أن أذهب إليكم، أنا مستعد أن ألقاكم، تعالوا، تعالوا، إنني أرحب بكم»[1] فياله من شعار رائع وحكيم!.

ومن الطبيعي جداً في شأن داعية شعاره الحوار مع الجميع، أن يتحاور مع العالم بأسره: أفراداً وشعوباً ومؤسسات عن الإسلام وبالإسلام وللإسلام، من خلال محاضراته العديدة التي ألقاها في مختلف مناطق العالم.

وأخيراً، إذا كان قد تقرر أن الحوار هو المجال الذي استهوى ديدات أكثر من غيره، فغلب عليه، ومن ثم دعا إليه مع الجميع، أترى فما هو المنهج العام الذي سلكه في مختلف حواراته، وبالأخص منها حواراته مع الصليبيين؟ هل ثمة من إمكانية لتحديد الملامح البارزة لهذا المنهج؟ وما هي سماته العامة؟ إضافة إلى مرتكزاته الأساسية وأساليبه الفنية؟

وفي محاولة الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، مما يتصل بمنهج الحوار عند ديدات نجد أنفسنا في هذا البحث أمام فصل جديد، يطمح إلى مواجهة تلك الأسئلة، متطلعاً في حدود ما هو متاح له إلى تقديم ما تيسر من إجابات عليها وذلك حين نفسح له المجال.

---

(1) المصدر نفسه ص 35.

الفصل الثالث

منهج ديدات

الحواريّ بين مؤثراته وتأثيراته

المبحث الأول : جهوده ومنهجه في حواراته

المبحث الثاني : شخصيته بين مؤثراتها الموضوعية ومكوّناتها الذاتية

المبحث الثالث : صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

المبحث الأول

جهوده ومنهجه في حواراته

في غياب محاولات سابقة لدراسة المنهج الحواري عند الشيخ أحمد ديدات، لاسيما - كذلك - وهذه الدراسة تفتقر إلى معلومات كافية لرصد مختلف أبعاد وملامح هذا المنهج على نحو علمي دقيق في مقرراته، موثق بأدلة ونصوص استشهادية قوّية، فضلاً عن أن الشخصية المدروسة ليست قوية الصَلة بالمعايير الجامعية الحديثة، مما يعني أن الصورة ليست لديها من الوضوح بالقدر الكافي، فتجدر الإشارة حقاً في أوضاع علمية كهذه إلى أن المهمة التي يحاول هذا المبحث التصدي لها هي شأن علمي يكتنفه الكثير من الصعوبة؛ استناداً إلى العديد من العقبات التي أشرنا آنفاً إلى بعضها، ولكن مع ذلك يظل من المشروع، بل من الممكن محاولة التأسيس لهذا الأمر، انطلاقاً من إطلالة عابرة على جهود الشيخ ديدات في مجال الحوار الديني، بالإشارة إلى ما كان يعلقه من أهمية على الحوار كوسيلة بارزة فاعلة من الوسائل التي دعا إليها الإسلام في الدعوة إليه.

ومن المعلوم في هذا الصدد، أنّ الشيخ ديدات قد تألق بعمله الجاد والمتواصل في مجال العمل الإسلامي عموماً، وفي ميدان الحوار والمناظرة خصوصاً، حيث أمضى ما لا يقل عن نصف قرن يحمل لواء المناظرة مع غير المسلمين دفاعاً عن الإسلام، وانتصاراً لأهله، وظل طيلة تلك الفترة يتصدى ويتحدى ببراعة نادرة مع من تسول لهم أنفسهم الكيد للإسلام والمسلمين. وهو ما يبرر لنا انحصار مناظراته في دائرة الطوائف، والشخصيات المنادية لدين الله الحق.

وبعمق تجربته في هذا المجال وطول باعه المكتسب من ممارسة أنشطة ممتدة عبر نصف قرن من الزمان، بلغ شأواً ضليعاً، يكاد لا يضاهيه غيره من معاصريه، فيما يبدو أنّه قد تخصص فيه وتفرّد به، حتى أصبح بفائق اهتمامه، وبما خبره من تجارب متراكمة فارس المناظرات الحامية الذي لا يشقّ له غبار ولا مخلص منه في الحوار.

وقد تحدث ديدات وهو ما يزال في مرحلة من مراحل المسيرة عمّا مارسه من تحدّ وإفحام على مناظريه فقال: «لي أربعون عاماً من الخبرة العلمية في التحدث إلى علماء

المسيحية ولم يستطع واحد منهم أن يتفوه بتفسير لعبارة مولود وليس مخلوقاً، التي يردّدها المسيحيون»[1] . وما أن أدرك ديدات أهمية المناظرات وقيمتها الدفاعية والدّعوية ظل متمسكًا بها، ولم يتخل عنها في سانحة من السوانح؛ وذلك لما يمتاز به هذا النوع من مجالات العمل الإسلامي من قوّة الإثارة، وشعبية جذابة لخّصها في قوله: «وميزة المناظرات أنها تجذب أكبر عدد من الجمهور لها وتجعل الأمور أكثر إثارة وجاذبية من أحاديث المحاضرات»[2].

ولهذا السبب مع غيره من الأسباب المتعلقة بإقناعية الأسلوب الحواري في الدعوة إلى الله، إضافة إلى أهمية المكاسب التي قد تسفر عنها اللقاءات الحوارية بكل بساطة وهدوء، فضلاً عن الاعتبارات الإعلامية في الاهتمام بقضية نشر الدعوة على الصعيد العالمي فلكل ما سبق - وربما أكثر - عُنيَ باستمرار بتحسين مستواه في ممارسة الحوار وتنمية قدراته في لقاءات المناظرة، وهو ما كان يدفعه إلى ارتياد المكتبات المسيحية العامة والتردّد عليها، للوقوف على الإصدارات الجديدة، وربّما لخلق فرص الحوار وإثارة قضايا نقاشية ذات اهتمام ديني مشترك.

ومن أمثلة هذه المواقف ما حكاه ديدات في قوله: «كنت أزور (دار الكتاب المقدس) في جوهانسبرج وبينما كنت أتجول بين أكداس الكتب تناولت نسخة للإنجيل مطبوعة في أندونيسيا مكتوبة باليونانية والإنجليزية للعهد الجديد في مجلّد غالي الثمن، ولم أكن أدرك أنّ القائم على الدار المشرف عليها يراقبني، وعلى الفور أقبل نحوي. . . فدعاني إلى تناول الشاي معه بمكتبه فوافقت، وأثناء تناول الشاي أوضحت له من العقيدة الإسلامية ما يتعلق بعيسى عليه السلام، وأوضحت له المكانة السامية التي يحتلها في كنف الإسلام . . »[3] وهذه بادرة من بوادر جهوده في الحوار الديني، وسعيه الدائم في تعميق هذا الاتجاه لدى أتباع مختلف العقائد والثقافات.

---

(1) أحمد ديدات: المسيح في الإسلام ص63: عليّ الجوهري ط دار الفضيلة، القاهرة، مصر د.ت.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي ص: 42، مصدر سابق ذكره.

(3) المسيح في الإسلام ص: 46، مصدر سابق.

ومن أجل التمكين لهذا النهج الحواريّ فقد كان على استعداد دائم بكل ما لديه، لبذله في سبيل إجراء مناظرات دينية في أي مكان أو زمان يتقرر ذلك، ومن أوضح الأدلة على هذا الطرح قوله لأحد المباغتين: «يا مستر د. شروش» أنا أقبل التحدّي، وأكثر من ذلك أنا أعطيك شيكاً على بياض لكي تحدّد مكان وزمان وكيفية إجراء المناظرة وموضوعها[1].

ومما ينصب في إطار جهوده المعتبرة لبناء صرح الحوار والمناظرات الدينية، استدراجه للرموز البارزة إلى حلبة المبارزة الفكرية بروعة المنطق وقوة الحق، وقد قاده ما كان يحمل من همٍ شاغلٍ بقضية الحوار مع الجميع إلى المواقف الذي عبر عنها قائلاً: «فقد كتبت أتحدى السفير الإسرائيلي في جنوب إفريقيا وكذا كبير الحاخامات وأدعوهما إلى مناظرة هناك، وأنا في انتظار الرد»[2].

وهذا من المواقف التي تسجل له في تجاوز خط الدّفاع والمقاومة إلى المبادرة والمواجهة، إذ لم يأل جهداً في الإقدام على الحوار وخوض المناظرات في أرقى مستوياتها، ومع أنضج وأبرز الشخصيات فكراً ومقاماً؛ كدعوته لبابا الفاتيكان فيما سبقت الإشارة إليها، ومناظراته العلنية مع البروفيسور كومبستي رئيس قسم اللاهوت في جامعة كيب تاون بجنوب إفريقيا[3].

بالإضافة إلى العديد ممّا يستعصي على الحصر والضبط من محاوراته الثنائية أو ذات الحضور المحدود البعيدة بصفتها عن الأضواء الإعلامية. ومن جانب آخر من جهوده الكبيرة اندفع ديدات في مدافعته للتنصير والمنصرين إلى عملية التوعية بمخاطرها، فنشر في سبيلها عدداً من المؤلّفات والأبحاث، منها بحث بعنوان: «الدعوة في مواجهة التنصير»[4]، ولعلّ في عنوانه - حتى بدون الاطلاع عليه - ما يكفي

---

(1) نقلاً عن عليّ الجوهري: مناظرة العصر بين ديدات والقس أنيس شروش ص27، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.

(2) العرب وإسرائيل شقاق، أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

(3) ينظر: أحمد ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله، ترجمة: إبراهيم خليل أحمد ط1/ 1410هـ، 1989.

(4) ينظر كتابه: محمد ﷺ المثال الأسمى، في هامش الصفحتين 32-33.

للإيحاء بمحتواه، على الأقلّ بالنسبة لمن تتوفر لديهم خلفية علمية عن علاقة المواجهة بين الدعوة والتنصير، وخاصةً في قارتي أفريقيا وآسيا، مما تناوله الدكتور عبد الجليل شلبي، وسلّط القدر الكافي من الضوء على كثير من جوانبه الخافية في كتابه «معركة التبشير والإسلام . . حركات التبشير والإسلام: في أفريقيا وآسيا وأوروبا».

وكان ديدات بجهوده المتحمسة لقضية الحوار الجاد يمقت ذلك النوع من الحوار الذي يمكن أن أسميه (الحوارات الدينية الدبلوماسية)، لما يغلب عليها -في الغالب- من طابع المفاوضة والمقايضة، وما تتسم به من مجاملات ومداهنات، وتركيز على عموميّات هامشية، وشكليّات دبلوماسية على حساب القضايا الجوهرية الهامّة.

وديدات ممن يعيب على هذا النمط من الحوار، مبدياً انحرافه عن مساره الصحيح بقوله: «وللأسف فإن المسلمين حين يتحاورون مع المسيحيين، فإنّ حوارهم يدور حول أمور غير التي حددها وأرادها الله لهم، فلقد قرأت عن اجتماع ضخم من هذا النوع عقد في (سويسرا) وضم الاجتماع العلماء والمفكرين المسلمين والمسيحيين وجرت مناقشات استمرت لأيام وصدرت في نهايتها قرارات ...إنّه بعد القرارات التي أصدرها هذا الاجتماع، والتي اتفقوا فيها بعدم التدخل في شؤون أتباع أيّ من الديانتين، فإنّهم شرعوا فوراً في مشروع تبشيريّ يتكلّفُ ملايين الدولارات لتنصير الفولانيين في نيجيريا»[1]. وفي هذا يكشف لنا ديدات ما تنطوي عليه هذه الحوارات من مكرٍ وخديعة، ممن لا عهد لهم ولا ذمّة إلا في مواقف نادرة، وبالأخص في حالات القلّة والضعف.

ومن ثاقب وعي بكل ذلك انطلق الرجل جاداً وجاهداً لتعرية كيد المنصّرين، والكشف عن حقيقة الغارة التنصيرية الماحقة، الأمر الذي لم يجدْ معه بدّاً من التنبيه كلّما اقتضى المقام إلى خصوصية النصرانية، حتى في أصدق صورها، وفي أصحّ رسالتها الأصلية، وأنها ليست ديانة عالمية عامّة. وقد ساق رأيه في هذه المسألة في سياق إجابته على سؤال قوامه: هل جاء في القرآن الكريم أنّ الإنجيل المقدس هدى للنّاس أجمعين؟

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص100مصدر سابق.

فقال ديدات: «كلاّ إنّ القرآن الكريم لا يقول: إنّ الإنجيل هدى للنّاس أجمعين، ولا حتى الإنجيل يقول بذلك وأنتم تجدون المسيح عندما بعث حوارييه للوعظ وشفاء المرضى، أوصاهم قائلاً: (إلى طريق الأميين لا تمضوا، وإلى طريق مدينة للسّامريين لا تدخلوا، بل بالجري إلى خراف بيتِ إسرائيل الضّالة). وأنا أتساءل أين هو موقع الأمريكان الأنجلوسكسان من هذا. وهم ليسوا يهوداً من بيت إسرائيل؟»[1].

وعمّا يعرض للبعض من انبهار، وانسياق وراء الخوارق التي يتأتّى لبعض المنصّرين الإتيان بها تصديقاً لرسالتهم الكاذبة، ودعماً لجهودهم الماكرة، فإن الشيخ ديدات لا يبدي أدنى إعجاب بتلك الخوارق التي يشترك المؤمن مع غيره في القدرة على صنعها، بل يذهب إلى استنكارها مستنداً إلى موقف كتابهم المقدس الرافض، والمحارب لها. ذلك أنه حين سئل ديدات عن رأيه في تحقيق ظاهرة الشفاء أحياناً باسم المسيح أجاب قائلاً: «ليس لديّ أي تردد في قبول هذه الظاهرة، وأنها يمكن أن تحدث، وهذه الأمور تحدث في الهندوسية، النّاس يأتون بالمعجزات، وباسم إله كاذب يمكن أن تتحقق المعجزات»... وهذا ما يقوله عيسى: «فينهض كثيرون يّدعون أنهم المسيح، وأنّهم أنبياء، ويأتون آيات وعجائب عظيمة، ليضلُّوا الصفوة لو أمكنهم، حتى حواريّي عيسى يمكن أن تضلّهم مثل هذه المعجزات، ولهذا فإن المعجزات ليست أبداً دليلاً على الصدق أو عدمه»[2].

ويظهر من هذا الجواب أنّ ديدات كان حريصاً على إزاحة كل ما يمت بصلة إلى الخرافة والشعوذة من مسعى الحوار العقلاني الجادّ، فظلّ يبذل جهداً غير قاصر في صرف النّاس عن الاحتكام إلى تلك الأوهام التي - من غير مبالغة - مازالت تشكل معتقد الأغلبية الساحقة، وتخلق بذلك صعوبة معضلة في وجه قيام الحوار المنهجيّ على سوقه، ممّا يسبب - ولاشك - لأي نشاط حواريّ يعتمد على العلم والمنطق كساداً في سوقه، وهو ما يتعارض تعارضاً صارخاً مع الخط الّذي اختطه ديدات لنفسه، وجاهد في سبيله، من خلال جهوده العريضة الممتدّة في مجال الحوار

(1) المناظرة الحديثة بين ديدات وسوجارت، ص174-176، مصدر سابق.

(2) المصدر السابق، ص181.

والمناظرة، وذلك لكي يسود سلطان العلم والعقل كمعيار للموازنة بين العقائد، والمبادئ، وفيصل للتمييز بين صحيحها وسقيمها. وحتّى يتحقق لديدات ما قصده من نجاح، ويتم له ما أراده لدينه من انتصار وظهور فقد خلُصَ- متوسّطاً -إلى اعتماد منهج أسّس عليه مختلف حواراته ومناظراته، ويتضمن هذا المنهج في عمومه جملة من الأسس، والدّعائم، ويتّسم بعدد من السّمات، وطائفة من الخصائص الأسلوبية. وفي محاولة متواضعة يمكن تحديد بعض من تلك العناصر في الفقرات الآتية:

أولاً: (جوهر المنهج ومحوره)

إنّ إلقاء نظرة مستوعبة إلى مناظرات ديدات الكثيرة ومؤلّفاته الحواريّة العديدة كافٍ لاستبانة جوهر منهجه، ولاستخلاص الباحث ما يمكن أن يؤلّف منهجاً متكاملاً يقوم عليه عمله في مختلف مواقعه، ومصادره. ومما يعمق علميّاً نتيجة هذه النظرة، ويعزّز مضمونها أنّ ديدات كثيراً ما كان يقف في كتاباته، ومقابلاته، لتسجيل المنهج الذي سلكه، وللحديث عنه، إسعافاً للآخرين ممّن يريد الاقتداء به، والاستفادة من تجربته. ومع ذلك فقد أوهم الأستاذ علي الجوهري بالحديث عن أسلوبه ومنهجه دون أن يقدّم في الواقع شيئاً قريباً من ذلك، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى الوسائل العلميّة والإعلاميّة التي اشتهر ديدات باستخدامه الواسع لها في مجال الدعوة إلى الله تعالى[1].

هذا، ويتلخص جوهر منهج ديدات الحواريّ فيما صرّح به في أكثر من موقع ومناسبة بقوله: «لقد علّمنا الله تعالى منذ 1400 عام أن نطالب بالبرهان في حوارنا مع المسيحيين.. يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 111]... وطلب الدليل والبرهان هو الرّدُّ الطبيعي والمنطقي، ولكننا للأسف لا نفعل ذلك»[2]. وتأكيداً على هذه القاعدة

---

(1) ينظر أحمد ديدات: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص186، مصدر سابق. والأستاذ علي الجوهري ناقل ومعرّب لعدد من أعماله المنشورة من دار الفضيلة المصرية.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص75-76. مصدر سابق.

الأساسية في منهجه، المتمثلة في المطالبة بالبرهان؛ يقول ديدات في موقف آخر وهو يتحدث عن منهجه: (...نحن بدورنا قد اتبعنا أسلوباً جديداً وهو أسلوب مواجهة العدوّ في مواقعه، وهذه الفكرة مأخوذة من القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 111] وأما طريقته في تطبيق القاعدة المنهجية فتقوم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: يكتفي فيها بالمطالبة بالبرهان من منطلق هاتواْ برهانكم، كما أنّه يلتزم بتقديمه عند أي طرح يقتضي ذلك، سواء أكان في الحوار الصّامت أم الناطق، حيث جرت عادته بدعم معلوماته وأطروحاته بما يشهد بصحتها من أدلّة نصية صحيحة، وبراهين عقلية مقنعة في كافّة حواراته وكتاباته.

المرحلة الثانية: وهي مكمّلة للأولى وقائمة عليها، وتتمثل في تحليل ومناقشة، وتفنيد البرهان كخطوة لاحقة، وقد أشار ديدات إلى هذه الخطوة بقوله: «وحينما يقدّمون برهانهم -كما أمرنا الله أن نطالبهم به- فعلينا إذن منطقياً أن نحلّله ونفنده، وإلا فلا معنى إطلاقاً في طلب البرهان»[1]، والظّاهر أن هذه الخطوة وإن كانت مكمّلة لسابقتها إلاّ أنها أهم منها، وأصعب، لاعتمادها على إمكانيات علمية في تحليل ما يُسَاقُ من أدلّة، ونقدها نقداً موضوعياً، واستنادها كذلك على قدرات مُعيّنة في مناقشة البراهين العقلية مناقشة واعيةً متّزنة، وتفنيدها على نحو لا يسوغ للخصم الاستناد إليها ثانية في الدفع والمواجهة. وتبلغ براعة المحاور ذروتها حين يكون قادراً على استخدام برهان الخصم في دكّ أطروحاته، بإشْهار أسلحته ضدّه، للإجهاز عليه بها، وهو ما قصد إليه ديدات في قوله: «المطلوب إذن أن تستخدم برهانه في تفنيد وتعرية ادّعاءاته، وأن تستخدم هذا المنهج في مواجهة كلّ ادّعاءاتهم، وفي مواجهة كل الحملات التبشيرية الصليبية»[2]. وبهذا نقف على مفهوم الحوار عند ديدات بأنّه جهد فكري، ونقاش علمي ينتفي وجوده في غياب الأدلة الصحيحة

(1) ينظر مداخلة ديدات في المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية المنعقد في طرابلس ص131. مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص98-99، مصدر سابق ذكره.

والبراهين المعتمدة المقنعة. ومنهجه الحواري في لبابه، وجوهره قائم على المطالبة بالبرهان متمحوراً حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ الأمر الذي يسوّغ لنا أن نطلق عليه - إن شئنا أن نلخّصه في كلمتين - تسمية «الحوار البرهانيّ» بالنظر إلى منهجه، حيث إنّه «بمجموع أسئلته، وأجوبتها يؤلّف برهاناً منطقياً يلزم المخاطب أو المخاطبين الإقرار بالأمر الذي صيغ الحوار من أجل إقناعهم به وهدايتهم إليه»[1]. ويتبين لنا ممّا سبق أن ديدات في صياغته لمنهجه في الحوار تتلمذ على المبادئ التي أتى بها القرآن، من مطالبة بالبرهان وتدبّر، ومراجعة للكلام بين الطرفين من خلال مناقشة هادئة عُمْدَتُهَا الجدال بالأحسن بإيراد الحجج والبراهين، وإسقاطها الواحد تلو الآخر حتى لا يبقى للمحاور بُدٌّ من التّسليم بالحقّ، أو ينكشف لغيره تماديه في العناد واللجاج بعد وضوح الحقّ كرابعة النّهار، إلاّ أنّ منهج ديدات وإن كان يعتمد على المطالبة بالبرهان، المشاسعة في الاستدلال والنقد جوهراً ومحوراً، إلاّ أنّه لا ينحصر فقط في هذا الإطار وإنما يقوم على أسس وركائز، بدونها لا يتحقق له وجود فاعل، بل حتّى مطلق الوجود، ومجرّد الحياة، وتتمثل تلك الأسس والركائز في:

ثانياً: أسس منهجه ومرتكزاته:

لمنهج الحوار عند ديدات مجموعة من الأسس والرّكائز التي يتأسّس عليها ويستمدّ منها قوام وجوده، وبالنظر إلى تلك الأسس والركائز يتأتى تصنيفها في قطبين أساسيين يعملان على توازن هذا النهج وتكامله، وهما النّص والعقل، أو الرّواية والدّراية بمعنى آخر.

ومن حيث النّص فهو يشكل أحد مركزي الثقل في منهجه، ويكون غالباً محفوظاً لديه عن ظهر قلب، وتأخذ المسألة أهمية بالغة عندما يكون في مقارعة النصارى، وفي مناظرة غير المسلمين عموماً، وتنقسم النصوص التي يُعْنَى بها ديدات في محاوراته إلى ثلاثة أنواع هي:

---

(1) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالحوار، ص 21، ط1/ 1421هـ-2000م، دار الفكر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

أ - نصوص الكتاب المقدس :

يعول ديدات كأساس لا يستغني عنه في كافّة محاوراته على نصوص الكتاب المقدّس استشهاداً ونقداً، وهو دقيق في إيراد نصوصه كلّما اقتضى منه الحوار ذلك، وغالباً ما يبهر الحضور بضبطه لتلك النصوص عن ظهر قلب، كما أنه ينبّه طلابه ومتدرّبيه دائماً إلى الاستعانة بنصوص الكتاب المقدس، إذ لا يمكن التغلّب على الصليبيين في الحوار دون دراية بنصوصهم، ودراسة نقدية معمَّقة لمحتويات كتبهم، للوقوف على المتناقضات واستكشاف مواطن الضعف فيها، ولا ستكناه تلك النصوص التي تضمر التبشير بنبي الإسلام، وتنكر ألوهية المسيح المزعومة، للوصول إلى إثباتات قوية بأن الكتاب المقدس ليس وحياً من عند الله، وإنما هو من وضع بشر يتقاسمون مع غيرهم مختلف صفات القصور والضّعف، وغيرها مما تنزّه الله عنها في كماله المطلق. ولإبراز أهمية الكتاب المقدس في الحوار مع المنصّرين يقول ديدات لطلاّبه: «...برهانه وحجته ومرجعه إذن هو الكتاب المقدّس، وإذا أردنا أن نتعامل معهم فعلينا أن نستخدم حججهم وبراهينهم ضدّهم»[1].

وبمتابعتنا لمختلف مناظراته نجده يصدر دائماً عن المصادر والمراجع المعتمدة لدى الطرف الذي يحاوره، ولا يلزمه بما لا يسلّم به من مصادر أطراف أخرى ضمن دائرته الدينيّة، أو غيرها، وإن أورد شيئاً من ذلك فلا يخلو من أن يكون لغرض نقدٍ مشترك لهذه وتلك، أو لبيان التضارب في المعتقدات، وتباين وجهات النّظر في تفسيرها وتصورها لدى طوائف مختلفة تَنْتمي لدينٍ واحد.

وهو إذ يهتم بتحديد مصادر الحوار مع الطرف الآخر يقدّم انطباعاً إيجابياً للدّارسين والمشاهدين عن موضوعية منهجه وعلميّته، ولعلّ أصدق دليل على ذلك حصره النقاش مع سواجارت في نطاق الرواية التي يؤمن بها هذا الأخير دون غيرها، وهو ما حدّده بقوله: «لأنّ الأخ سواجارت متيم بنسخة الملك جيمس. وأنا كذلك، وكلّ الاستدلالات التي

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص76. مصدر سابق.

أقدّمها سوف أقتبسها من نسخة ورواية الملك جيمس. وأنا أحب لغتها»[1]. وهذا مما يكشف لنا أن ديدات في التزامه بمصادر مساجله لم يكن يتعدّاها قيد أنملة، وذلك إمعاناً في دقة منهجيّة الحوار، وحرصاً على حسن سيره، وضماناً لما يرمي إليه من إفحام وإلزام، ولذا لم يجنح قط في هدم معتقدهم إلى الاستعانة بمصادر تحوم حولها شكوك مانعة من إلزامهم بها، كإنجيل برنابا وغيره من الكتب التي ينكرونها، وينسبونها إلى خصومهم.

ب - نصـــوص إسلاميـــة :

من الأسس التي يستند عليها منهجه، القرآن الكريم الذي تشبع ديدات من معارفه الغزيرة، وأفاد من نصوصه الفاصلة في قضايا الحوار الديني وغيرها من القضايا العديدة، وقد انطلق منه في صياغة منهجه، والتزم به في بلورته، وتغذيته بثمار القرآن الكريم اليانعة، فتحقق له بتوجيه القرآن وعلومه في مجال الحوار الديني والمناظرة، القدر الهائل من الانتصار على الخصم في نقض أباطيله، ومكاشفته بالحق الذي يجهله أو يتجاهله. وفي توظيفه لنصوص القرآن في حواراته يطالعنا غالباً في مطلعها بآيات قرآنية ذات علاقة بموضوع النقاش، كما أنه يورد أحيانًا في معالجته للموضوعات آيات من القرآن مشفوعة بتفسير ميسر لها، مع مقارنات بالنصوص المقدّسة فيما يقتضي ذلك إن وجدت، وقد ورد في معرض تفسيره لآية قرآنية فيما يفيد نزوعه إلى هذا المعنى أحيانًا، كقوله: وليس المقصود بـ «المقرّبين» المتفوّقين بدنيًا أو الأقرب مكانيًا، لكن «المقرّبين» مقربون لتفوقهم الرّوحي. قارن ذلك بقول إنجيل مرقس:

(ثمّ إنّ الربّ بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء، وجلس على يمين الله). (مرقس 16-1). لقد أساء المسيحيّون هاهنا الفهم كما أساءوا الفهم في مواضع أخرى»[2].

وبالنسبة للأحاديث النبوية فإنه يعدّ من المقلّين جداً في استخدامها في محاوراته إلى حد ما يمكن أن يقال عنها إنّها خالية من الأحاديث، واستخدامه القليل لها ينحصر

---

(1) المناظرة الحديثة بين ديدات وسواجارت، ص 131، مصدر سابق.

(2) المسيح في الإسلام، ص28، مصدر سابق.

في بحوثه وموضوعاته الإسلامية التي كتبت لأغراض الدعوة والإرشاد لا لِلْحوار والمناظرة، ككتبه عن العبادة في الإسلام، والحلّ الإسلامي للمشكلة العنصريّة، وغيرهما. وفي الآيات التي يحاول تفسيرها، يدفع اعتماده الكلّي على تراجم معاني القرآن الكريم إلى القول بأنّه ليس على إلمام كافٍ بما عدا الآيات التي تشكل موضوع حواراته، وركائزها، ولا غرو في ذلك، إذ لم يكن ديدات - في حدود دراستي إيّاه - بالضليع في الدراسات الإسلامية قدر بروزه في دراسات الكتاب المقدّس، وهذا راجع إلى ظروف بيئية، مع اعتبار كافة المؤثّرات التي كونت شخصيته كما سنرى لاحقاً[1].

ولعدم إجادته اللغة العربية فقد كان يعود إلى الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وبالأخصّ ترجمة المسلم يوسف علي التي تعلق بها ديدات كثيراً واستغنى بها عن غيرها من الترجمات التي يحمل لبعضها لهجة نقدية لاذعة، كترجمة الإنجليزي جورج سال التي قام بها عام 1734م[2]. ومهما تكن عليه ترجمات المعاني من دقّة وإتقان فإن اعتماد علم من أعلام الدعوة عليها يُعدُّ نقيصة منهجية، ومأخذاً مكشوفاً لهواة النقد والطعن.

ج - نصوص من مراجع عامّة :

إلى جانب ما تقدم، يعمد ديدات إلى توثيق أطروحاته ودفوعاته، بنقولات من مراجع عامّة، وهي عديدة لا حصر لها، منها كتابات الدارسين والنقّاد الغربيين للكتاب المقدّس، ككتاب «الكتاب المقدس تصنيف بشر، مع ذلك فهو سماوي» للدكتور جراهام سكروجي، أحد مشاهير الإرساليّين في العالم[3]، والسيّدة إيلين هوايت في كتابها «تفسير الكتاب المقدس»، وكتاب القس جورهاريس بعنوان: «كيف تقود المسلمين إلى المسيح »' وغيرها من ملاحظات القساوسة، ومراجعهم لكتابهم المقدّس في مختلف ترجماتها المنقّحة، وإصداراتها الجديدة، كما أن من مراجعه عدداً من الكتب

(1) ينظر: ص: 224 238، من هذا البحث.

(2) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص15-16، مصدر سابق.

(3) ينظر تباعاً: هل الكتاب المقدّس كتاب الله، 103-145-232، مصدر سابق.

التاريخيَّة، والثقافة العامّة ككتاب الأبطال لتوماس كارلايل، و«المائة الأوائل» لميشيل هارت، وشهادات المؤرخ اليهوديّ يوسيفوس عن العهود المبكرة من تاريخ المسيحية، وغيرها من الصحف اليومية، والمطبوعات السيّارة التي يعرض ما تدعو إليه الحاجة منها في أغلب كتاباته، وفي مناظراته كذلك، الأمر الذي يدل على متابعة دقيقة للجديد في مجال عمله، واستيعاب شبه كامل لكل ما من شأنه أن يدعم له رأياً أو يعزّز له موقفاً.

وبتنوع مراجعه العامّة يتاح لنا أن ندرك طرفاً مما حواه منهجه من العلم والتحقيق، وعن واسع ثقافته التي جهد دوماً في سبيلها، لتغذية فكره ومنهجه، يقول أحد مترجميه: «. . . إنّه واسع الاطلاع فيما يتعلّق بالعقيدة الإسلامية، والقرآن الكريم، دارساً مدققاً ومحققاً للأناجيل، ملمّاً بتاريخ العقائد والأديان، يجيد الإنجليزية ويعرف اليونانية، يدرك بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة، كلّ نقطة من ألفاظ الإنجيل، بل كل مقطع من كل لفظة»[1]. وإن كان هذا الحكم -فيما أرى- صحيحاً في معظمه إلاّ أنّ ذلك لايستلزم بداهةً صحة المقطع الأول منه، والذي ينص على سعة اطلاعه في العقيدة، والقرآن الكريم. ومن غير شك فإن هذا الاطلاع الواسع أمد ديدات بخاصيّة منهجية، ظهرت في قدرته البارعة على استحضار الأمثلة والشواهد دائماً لمختلف أقواله، وآرائه، كما يتضح ذلك من قوله: «. . . وأضرب لكم أمثلة على ذلك، وهنا أنبه أن الحوار بلا أمثلة لا يكفي»[2]. وفي موارد كثيرة من مواقفه وكتاباته يتكرر قوله: «وأضرب لكم أمثلة على ذلك، ونضرب مثالاً» إلى آخر ما هناك من هذا النوع.

وهذه الركيزة الأساسية لمنهج ديدات مدينة إلى شغفه بالقراءة وولعه بالإحاطة المتخصصة في الكتاب المقدّس، وما يتصل به من قضايا العقيدة والحوار، وقد أفْضى ديدات بذلك إلى الناشئين والمتدرّبين عامّة قائلاً في إخلاص مرشد خبير: خلاصة القول: لكي أستطيع التّصدّي لهذا السّيل الشرس والمتجدّد دائماً من الأباطيل،

---

(1) المسيح في الإسلام، ص5، مصدر سابق.

(2) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص60، سبق ذكره.

شعرتُ أني أريد أن أقرأ «وأقرأ » وأقرأ «كنت أقرأ كل ما تصل إليه يدي»[1].

وللإعانة على القراءة الهادفة والمثمرة، ينتقي أحيانًا للدّارسين والحضـور عامّة، ويوجههـم إلى كتـب مفيـدة، وثريـة في موضوعاتهـا، مـن شـأنها أن تعـين البـاحثين، وتوسع من آفاق ثقافة المستزيدين.

وعليه، فإنّ النصوص بمختلف أنواعها تشكّل متكأً عريضًا لمنهج ديدات الحواريّ؛ حيث اتخذها في الغالب دليلاً في الحكم على مختلف ما يعرض لنقاشها من قضايا، وما يتناولها من موضوعات مكتوبة، ساكباً عصارة ثقافته الواسعة في تلك المناظرات، والمصنّفات. وتأسيسًا على ما سبق، يتقرر أن النّصّ بنوعيه المقدّس والمؤسس يشكل أحد قطبي منهجه المرتكز عليهما. ويتجلّى ذلك في استخدامه الواسع للنصوص، افتتاحًا، واستشهاداً، وطعنًا، ونقداً بآليات عقليّة يخضع لها النصّ فهمًا وتدقيقًا، تحليلاً وتركيبًا[2]، والنظر إلى المنهج من هذه الزاوية، يسمح بالقول عنه - تجاوزاً - بأنّه منهج نصّي، مما يعني أنّ للنّص اعتباراً غالباً فيه، دون إغفال لدور العقل والّذي يأخذ هو الآخر بطرف وحظّ وافر من هذا المنهج، ولكنّه ليس طليقاً، وإنما هو مقيد بتحليل معطيات النصوص ونقدها، مما يعني أن العقل في منهج ديدات، على الرغم من كونه أحد قطبيه إلا أنه تابع وخادم للنصوص المنقولة، وليس مستقلاً لوحده! مما يبعد به عن الخوض في تأملات فلسفية جافّة، والإغراق في تحليلات فكرية عويصة، تُشتّتُ الفكر، وتُقصي الهدف المراد أكثر مما تخدم قضيّة الحوار والإقناع بأقصر الطرق، وأيسر الأساليب.

د - ركيزة العقل المحلّل النّاقد :

إن ديدات يوظف العقل تحليلاً ونقداً، باعتباره ثاني قطبي منهجه، وفي إطار هذا التوظيف يعمّق أحياناً في التحليلات العقليّة، والمناقشات الفكرية دون شطط أو مغالاة، وإنما يلتزم بحدود الموضوع الذي يناقشه منطلقاً من واقع النصوص التي

---

(1) في لقاء مع أحمد ديدات: ص44، من مجلّة الفيصل 1354، مصدر سابق.

(2) تتوفر العديد من الأمثلة على هذه الظاهرة الواضحة في مختلف كتاباته، ومحاوراته، ومنها: مناظرتان في استكهولم، ص16، وفي مناظرة العصر، ص60، وفي شيطانية الآيات الشيطانية، ص 69.

يوردها للنقد. وإنّ إطلالة سريعة على مختلف حواراته وكتاباته ولاسيما كتابيه عن مسألة صلب المسيح، وعتاد الجهاد، كافية للخروج بصورة عن البعد العقلي المؤازر للنّص في منهجه الحواريّ. وإن كان حتى في استخدامه للنقد العقلي ينطلق من مستند نصّيّ يدفع به إلى ارتقاء هذا الخط الذي سلكه للوصول إلى ما يتمتع به منهجه من تكامل بين النقل والعقل. وهو ما يقرّبه ديدات ضمناً عندما يقول: «إنّ القرآن الكريم يضع لاختبار مصداقية كلام الله اختباراً ومقياساً حاسماً...يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]. وهذا الاختيار معناه ببساطة ووضوح هو أن أي كتاب يدّعي أنّه من عند الله يلزم ألا يكون به خلاف أو تناقض... وهكذا يجب أن يكون كلام الحقّ بحقّ.. فلنطبق هذا الاختبار مستخدمين هذا المقياس على الإنجيل»[1]. ويتضح لنا من هذا المثال، أنّ ديدات يسحب هذا المقياس العقلي القرآني على الأناجيل وغيرها، ويحاول إخضاعها للدراسة والنّقد في ضوئه الكاشف، وقد توصّل من خلال هذه الأداة العقلية القائمة على التدبر إلى محتويات أربعة للكتاب المقدّس، وتتمثل في كلام الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم السلام، وكلام المؤرّخين والرواة، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة مثل النصوص الإباحية وغيرها[2]، وتوثيقاً لهذا الاستنتاج حتى لا يلقى القول على عواهنه، يضرب ديدات في إحدى محاضراته أمثلة توضيحية لكلّ نوع من الأصناف الأربعة مما يطول بنا إيرادها في هذا المقام لو استعرضناها.

وبعد دراسة نقدية للكتاب المقدّس وقف خلالها على تناقضاته وتهافتاته، مقارناً بما عليه القرآن من دقّة وتماسك، خرج ديدات برأي يكاد يجرده من أي قيمة دينية، ليندرج بذلك في قائمة المواد الجيّدة لإنتاج الأفلام السينمائية، وهو ما عبّر عنه مؤكدًا في قوله:

---

(1) أحمد ديدات: مناظرات في استكهولم، ص28-29، نقل وتعريب علي الجوهري، ط: دار الفضيلة القاهرة. د. ت.

(2) ينظر أحمد ديدات: هذه حياتي، ص58-62، مصدر سابق.

لا أستطيع إلا أن أؤكدّ باستمرار: أنّ السّرد القرآني يختلف كليّة عن أي كتاب آخر على سطح الأرض، إنّه يتحدث بطريقة مباشرة في الصميم. ليس فيه لو... ولكن... ولا مراوغة ولا يحوم حول الموضوعات، وفي كلّ الكتاب لن تجد النص المسرحي الذي يصلح لشبّاك التذاكر.. أو لفيلم يضرب الأرقام القياسية مثل الوصايا العشر، وشمشون ودليلة ليكون مادة إنتاجية للشاشة الفضية للسّينما، ومن هذه الناحية فإنّ الكتاب المقدّس مادة مبهجة لكتاب النصوص الفلمية والمسرحية يمكن تحويلها بسهولة إلى قدور الذهب[1].

وفيما يتصل بركيزة التحليل والنقد يعمد ديدات أحياناً إلى إجراء عمليات إحصائية لموارد بعض الألفاظ العقديّة مثل استقرائه لعدد المرّات التي ورد فيها لفظ ابن الإنسان كُنْيَةً للمسيح مقابل لفظ ابن الله في الكتاب المقدّس، وهو 83<13 مرة[2]. كما أن دافع الدقة في التمحيص والتحليل، يقوده أحياناً إلى متابعة أصول بعض ألفاظ الكتاب المقدّس في اللغة العبريّة أو اليونانية، لضبط مدلولاته الصحيحة من خلال تحليل وافٍ بالغرض الذي يرمي إليه، إمّا للتفنيد، أو لبيان الصواب[3]. وكان ديدات في كل ذلك مُشَبَّعاً بِحسٍ لغوي مرهف، واعياً بخطورة دور اللغة في نقل محتوى الفكر صحيحاً، وفي قلب المفاهم، وتزييف الحقائق عن طريق التلاعب بالألفاظ كحمولة للمعاني ووعاء للأفكار.

لقد كان متميزاً وبارعًا في قدرته على قراءة النصوص وتوجيهها كلّما أراد الآخر استغلالها لأغراض غير أصيلة وغير مقصودة.

وعلى هذا النحو يشغل العقل وما يتفرّع منه من تحليل ومناقشة ونقد، حيزًا قطبيًا من منهج ديدات في محاوراته، بالإضافة إلى عدد من القوائم، والدعائم الموثقة لهذا المنهج.

---

(1) ينظر: معجزة المعجزات: ص79-80، مصدر سابق.

(2) ينظر: المسيح في الإسلام، ص30، مصدر سابق.

(3) ينظر: محمّد صلّى الله عليه وسلّم المثال الأسمى، ص137، مصدر سابق.

ثالثاً: قوائم منهجه ودعائمه :

ينطوي منهجه على مجموعة من الدعائم والقوائم الهامّة التي يقوم عليها، وتعمل تلك الدعائم مجتمعة مع غيرها لتثبيت هذا المنهج الحواري، والتمكين له، حتى يؤدي غرضه العلمي بنجاعة وتأثير بالغين على النحو المنشود. وتتوزع تلك الدعائم في العناصر الآتية:

أ - الحفظ الدقيق، والضبط المحكم :

إنّ أهمّ انطباع يخلّفه ديدات على جمهوره: قرّاء، ومشاهدين، على النقيض من الآخرين هو حفظه الدقيق لنصوصه، وضبطه المحكم لنقولاته، وأمثلته عن ظهر قلب؛ لِمَا يرى من أنّ حفظ الأدلة سلاح للدّفاع عن الدين، وبدون معرفة الأدلّة وحفظها يتعذر الدفاع عن الدين، بالغةً ما بلغت مكانة المحاور العلمية، ولذا يولي ديدات اهتماماً فائقاً لحفظ الأدلّة من الكتاب المقدّس لدعم منهجه وإقامته على قوائم راسخة، وقد بهرت دقة حفظه للنصوص وضبطه مواردها أحد مترجميه فقال: «درج العلاّمة أحمد ديدات على الاستشهاد بنصوص صحيحة من التوراة والإنجيل والقرآن مع قدرة عجيبة على ذكر مواضع اقتباسها مع تحديد الإصحاح، وأرقام الجمل والآيات، بدقّة بالغة اعتماداً على الذّاكرة بطريقة معجزة، كما أن دقّة وصحّة ملاحظاته بلغت دون ريب حدّ الإعجاز»[1].

وهذا ما يصادفه كثيراً من لهم اطّلاع على محاضراته، أو مشاهدة أشرطة مناظراته بمختلف أنواعها وموضوعاتها.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ من مميّزات ضبطه المحكم إحاطته بالظُّروف، والملابسات التاريخية التي وردت في سياقها نصوص الكتاب المقدّس[2]، أي إنّه يحيط بما يمكن

---

(1) مناظرة في استكهولم بين أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد، هامش الصفحة 14، نقل وتعريب علي الجوهري، منشورات دار الفضيلة، القاهرة. د. ت.

(2) ينظر أمثلة عن ذلك في كتابه: المسيح في الإسلام، ص80، وما بعدها، مصدر سابق.

تسميته بعلم مناسبات وُرُودِ النصوص، وهو ما يقابل علم أسباب النزول في الدراسات القرآنية، وطالما أسر هذا الجانب من منهجه الكثيرين ودفع بهم إلى التعبير عن عظيم إعجابهم بقدرته العبقريّة في الحفظ والضّبط، مما دعا ديدات - مدفوعاً بتواضعه - إلى تصحيح ما في هذا الفهم من خطأ شائع، فأعلن - للحقيقة - الحقيقة قائلاً: «والنّاس يتصورون أنّني أتمتع بذاكرة فريدة قادرة على الحفظ، وحقيقةُ الأمر غير ذلك. إنّما ذلك هو حصاد الجهد السّابق الذي أبذله، وبقدر ما تعمل يجازيك الله، وكلّما بذلت جهداً أكبر كلّما كان جزاء الله أوسع»[1]. وهو بهذا الإعلان الصّارخ يعبر عن حقيقة التوكل في حياة ديدات، وعمله البعيد كل البعد عن الركون إلى الدّعة والاستسلام للتواكل، فكأنَّه يصرف المعجبين به إلى منهج السببية المتوّكل، ويفتح من جانب آخر للقاصرين مجالاً واسعًا فسيحًا من الأمل في إمكانية الوصول إلى النجاح عن طريق ما لفت انتباههم إليه من اجتهاد شاقٍّ، ودربة متواصلة، ومراس دائم باعتبارها من دعائم منهجه القويم.

ب - الدّربة المتواصلة والمراس الدائم:

في متابعة دقيقة للشيخ ديدات يصادف المرء في كتاباته ومقابلاته الكثير من الاعترافات بدور التدرب والتمرّس في نجاح عمله وفاعلية منهجه، كما أنها تتضمّن كمًا هائلاً من الإرشادات الموجّهة للدارسين والمتدرّبين إلى مواظبة التدرب على الحوار، وممارسته لتحقيق القدر الكافي من النجاح فيه، بالوصول إلى أرقى مستوياته، ورغم أن قراءة تجربته من بداية أمره في مجال الحوار والمناظرة كفيلة بحمل الكثير من الدروس والعبر لمن يترسمون خطاه، ويطمعون فيما فوق مقامه السامي، فإن ديدات ظلّ أمينًا في نقل تجربته إلى الآخرين، مُبصّرًا بأهمية الدربّة المتواصلة، والممارسة الدائمة.

ومن هذا الباب قوله موجهاً طلابه: «فوصيّتي لكم: عليكم أن تستمروا في التدريب.. ولا تخجلوا أن تقفوا أمام المرآة.. وتتمرّنوا، تمرنوا وتكلّموا أمام المرآة، وتصوّروا أنكم

---

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 81، مصدر سابق.

تتكلّمون لصورتكم في المرآة، وتكلّموا بكل حيوية: ولا تخجلوا. تدربوا. وتدربوا، بالإنجليزية وبلغتكم الوطنية، عليكم بالتدريب والتدريب.. والتدريب، وهكذا يصبح الأمر جزءاً منك ومن طبيعتك»[1]. ولعل هذه القطعة مع قصرها، أمر ذو دلالة واضحة على ما تكتسيه عنده هذه الدعامة من أهمية منهجية.

ج - التحضير الشامل للحوار مسبقاً :

يندرج ديدات في قائمة النّوع الذي يحضّر محاوراته، ويتهيأ لها، متفرغاً لإعدادها ما وسعه الإعداد، مستقصياً في شمولية التّحضير، جامعاً لها ما يلزم جمعه من معلومات ووثائق، موطّناً نفسه للمثول أمام كلٍ من المحاور والجمهور بزاد معنوي هائل، وطاقة نفسية مشحونة، ويتكلّف في سبيل هذا التحضير المسبق مشقّة الإلمام بمصادر الطرف الآخر، وأفكاره الخاصّة، مؤمّناً لنفسه اطّلاعاً كافياً على أهم أعماله، ومؤلّفاته إن وجدت، وذاك من أجل اللجوء إليها للاستشهاد منها ضد صاحبها بعد معرفته جيداً، ولمحاولة تحديد أولويات المحاورة المرتبة، ورسم خطوطها العريضة من خلال تصوّر صورتها العامّة.

ومن أنواع الأمثلة على شموليّة تحضيره المسبق، ما قام به ديدات إعداداً لمناظرته العالمية الشهيرة مع سواجارت، حيث إنه في إحدى لحظاتها رأى أن يلزم مساجله بأقواله ومؤلّفاته، فقال: «الأخ سواجارت في إحدى هذه الكتب الثلاثين التي اشتريتها من جنوب أفريقيا قبل حضوري إلى هنا، وهذه هي كتبه أكثر من ثلاثين. اشتريتها، وقد قرأت كل واحدٍ منها، واضطررت لأعرف عن أي شيء يتكلم الأخ سواجارت؛ وما الذي يؤمن به حقيقة؟»[2]. وهذا مما يكشف لنا ما يبذله ديدات من جهد في التحضير للحوار كدعامة من دعائم منهجه، بالسعي الحثيث لاقتناء كتب نظيره، والاطلاع على أبرز رؤساء الطوائف الصليبية لقراءتها، واستيعابها، إلى جانب

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص76، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة في علم المقارنة والإعجاز، ص134، مصدر سابق.

متابعته لكافّة نشاطاتهم ومحاضراتهم للخروج، من ذلك بما يمكّنه من إدانتهم بأقوال، وأفكار سابقة، وإفحامهم بحجج كانوا قد أقرّوها في غير مواقف الحوار والمناظرة.

ولتعزيز ما نحن بصدده من حديث عن تحضيره المسبق، فقد حكى لنا ديدات قصة تجربته المجهضة؛ إذ لم تتحقق، وهي أولى محاولة في ترتيب اللقاء مع المنصرين والقساوسة عن طريق محاضرة كان قد عزم على إلقائها بعد عُدّةٍ كاملة، وصفها بقوله: «...اجتهدت في الإعداد لها وحفظها والتدريب عليها»[1]. وظلّ في مختلف أطوار عمله الحواريّ سائرًا على هذا المنهج، ملتزماً بالنمط نفسه - أو أشد - من التحضير المسبق الشامل.

د - إجادته لعدد من اللغات، وامتلاكه زمام الإنجليزية:

إنّ امتلاك ديدات ناصية اللغة الإنجليزية، وإجادته لعدد من غيرها يشكّل - ولا ريب - في منهجه دعامة أساسية، لها دور حي ولافت للنظر، حيث إنّه يجيد الإنجليزية أكثر من غيرها، وهي في هذا العصر من الأهمية بالمحلّ الذي لا يخفى على الصعيد العالميّ، وقد أفاد في التصريح بإجادته لها أكثر من غيرها في قوله: «أنا أتحدث الإنجليزية أفضل من أيّ لغةٍ أخرى، ...ولقد شاءت الظروف أن تكون الإنجليزية لغتي القومية، لأنني أحكم بالإنجليزية، وأقسم بالإنجليزية، وإنني أجعلها لغتي القومية، حسب آراء علماء النّفس»[2]. على أنّ حصيلته اللغوية مع استيعاب لغته الإنجليزية لمساحة كبيرة منها، إلاّ أنها ليست قاصرة عليها وحدها دون غيرها من اللغات التي يعرفها ديدات إضافة إليها، ومع الجهل بماهية تلك اللغات في معظمها، فإنّ بحسبنا في هذا المقام الاستناد في معرفته لها إلى ما أدلى به في مساق الردّ من إحدى مناظراته قائلاً: «أنا أيضًا أعرف لغات كثيرة...مقابل كلّ لغة يعرفها باسترستانلي، أعرف ثلاث لغات، وبدون مساعدة الروح القدس»[3].

---

(1) القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص46-47، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة، ص132-133. مصدر سابق.

(3) مناظرتان في استكهولم، ص150. مصدر سابق.

ولمكانة اللغات في نشر المعرفة، وأهميتها في مجال الاتصال والتواصل بين البشر، كان ديدات غالباً ما يشجع على تعلمها، وإجادة أكبر قدر منها، توسيعاً لنطاق الاتصال والتفاهم مع الآخرين، لنشر الإسلام من خلال الحوار، والإرشاد. وقد تحدث مرة إلى طلابه في شيء من هذا المعنى فقال: «...الحقيقة أنّه لا توجد لغة سخيفة ومضحكة فكلّ اللغات عذبة، وكلّ اللغات جميلة، ولذلك فهي نعمة كبرى إذا استطعنا أن نتعلّم المزيد من اللغات، فعندما تتعلّم لغة جديدة، فإنّ آفاقاً جديدة تفتح أمامك، وكلّما تعلّمت المزيد من اللغات كلّما ازداد أفقك وفهمك»[1].

وممّا نستشفّه من هذا التوجيه أنّ اللغة تمثل عنصراً فاعلاً في عمل ديدات الإسلاميّ، وتعتبر عاملاً داعماً لمنهجه الخاص بالحوار الديني، وبذلك لا أظنّ أن ديدات كان مخوّلاً لما أتيح له من نجاح علميّ، وشهرة عالمية، لو لم يكن قد خاطب العالم وحاوره بأشهر لغاته، وأوسعها انتشاراً، في ظروفه الرّاهنة، وهو السرّ - فيما أعتقد - في احتجاب عدد من الشخصيّات الأكفاء القادرة على الحوار في أروع صوره، وأمْضاها، مغمورة خلف ستار الغيب، وفي زوايا العصر الخفيّة المظلمة، كأمثال بعض من سيعرض هذا البحث للمقارنة المنهجية بين ديدات، وبين كلٍ منهم على حدةٍ[2].

إذن؛ فمن الضروري لأي محاور على نهج ديدات، أو حوار وفق منهجه، تخصيص جانب كبير وواسع من الاعتبار للبعد اللغوي في هذا المنهج، وفي نجاح هذه الشخصية الفذّة التي تعدّ اللغة وخاصّة الإنجليزية من أبرز العوامل التي تقف وراء شهرته الإعلامية، وانتشاره الإعلاميّ، هذا... بالإضافة إلى الدعائم المتقدمة، وتتمة لتلك القوائم المنهجية ترد.

هـ - الشّجاعة الأدبيّة الوافرة:

توفّرت لديدات في منهجه الرّائع شجاعة أدبية نادرة، فكان كالطود الشامخ في

---

(1) أحمد ديدات: هذه حياتي، ص86.

(2) ينظر: ص: 424-440، من هذا البحث.

صموده وثباته، ورباطة جأشه في مختلف مناظراته ومحاوراته؛ ولا غرو في ذلك فهو من صَقَلَتْهُ تجارب الأيام، وشحذته ضراوة التحديات، إيماناً بالله لا يهتزّ، وثقة بالنفس لا تتزعزع، وكان يصدر عن جرأة كبيرة، ويواجه بشجاعة أدبية وافرة، وهي من الصفات المحمودة والمطلوبة ضرورة في عامة الدعاة، وفي المحاورين والمناظرين على نحو أخص. حيث إنّ قول الحقّ وحمل لوائه ناشِراً ومنتصراً له يقتضي قدراً كافياً من الجرأة باعتبارها «قوّة نفسية رائعة يستمدّها الداعية من إيمان بالواحد الأحد الذي يعتقده، ومن الحقّ الذي يعتنقه، ومن الآخرة التي يوقن بها ومن القدر الّذي يستسلم إليه، ومن المسؤوليّة التي يستشعر بها، ومن التربية التي ينشأ عليها»[1].

ولإحساس ديدات الدائم بمكانة هذه الخصلة في منهجه، وفي كلّ ما يتصل بالحوار، والتبليغ، ظل يؤصّلها، ويمكن لها في نفوس وشخصية طلابه، وفي كلّ من يؤمه ناهلاً من تجربته الثرّة. ومن المواقف المحفوظة من هذا، قوله لفوجٍ ممن جندهم بمنهجه في الدعوة، والحوار: «تقدّموا . . بكل حيويةٍ ممكنة ولا تخجلوا من ذلك، حتى لو كان هناك قدر من المغالاة في آرائكم . . فلا تخشوا . . بالعكس فإن ذلك يرفع التردد والخجل بعيداً. والغرض من ذلك أن تتدرب حتى تستطيع مواجهة الجمهور لتكون طبيعياً أمامهم، ولا تجد نفسك في حالة ارتباك وتحتار . . »[2]. وهذا تدريب عملي للنّاشئة على منهجه، وتنويه بشأن ما لابد منه لهذا المنهج من جرأة وشجاعة أدبية، وللدّربة والممارسة العمليّة دور كبير في التحلي بها.

وإلى جانب هذه الدعائم المنهجية تقف جملة من الخصائص الأسلوبية نكتفي بذكر أهمّها فيما يلي:

رابعاً: الخصائص الأسلوبية لمنهج ديدات الحواري:

إن دراسة هذا المنهج تكشف للدرّاس جملة من الخصائص الأسلوبية الملازمة له.

---

(1) الدكتور محمد أمين حسن بني عامر: أساليب الدّعوة والإرشاد، ص225، ط1999، جامعة اليرموك. د.ر.

(2) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص: 80.

والغالب على هذه الخصائص التعاطي مع البعد النفسي العاطفي سلباً، وإيجاباً؛ إذ يحرص ديدات في أسلوبه على التفاعل الوجداني مع الآخر، سواء أكان مواجهاً أم مشاهداً، محاولاً في أقصى ما يمكن ممارسة قدرٍ كبير من التأثير عليه لينفعل بما يسمعه أو يشاهده في تلك الحوارات، والمساجلات الدينية، بسلاح العلم والفكر. ولعلّ أهم هذه الخصائص في تصوّري لها يتمثل في:

أ - حيوية الإلقاء الفنيّ المؤثّر:

من أبرز الخصائص المميزة لمنهجه في الحوار: الإصداع بالحقّ في استرسال متحمّس، بفضل ما يتمتع به من قدرة أدبية مبدعة، تميل به إلى الاسترسال والتفصيل في القول، فكان وهو يتحدث يُخيل للمرء أنّه أمام شلال غزير ينحدر بتدفق كبير قويّ بأمواجه، وتياراته الجارفة، وتظلّ هذه الحيوية الأسلوبية ملازمة له، حتى وهو يكتب؛ بدليل أنّه غالباً ما يميل في عرضه لموضوعاته إلى الإمعان بنفس طويل في التفاصيل الدّقيقة، مزوّداً بتعليقات وافرة تحقيقاً للدقّة في حسن تصوير وإرسال الفكرة المرادة.

إنّ ديدات في إلقائه الرائع يُمثل جذوة نشاط وفكر يفيض حيوية وتأثيراً، ويبلغ في حديثه أثناء الحوارات أرقى وأروع مستويات الأداء الخطابي المتحمّس، حيث يكون كلامه مثيراً ومليئاً بالمؤثرات الجذّابة لكل من يتابعه. وهو في تجاذبه لأطراف الحوار مع الآخر، وفي محاضراته العامّة، يتَبَسَّط في حديثه بطريقة نَفّاذة خارقة، في شيء كبير من اللباقة ومراعاة انتقاء الألفاظ والأساليب الملائمة، ولفاعلية هذا الأسلوب في تأثيره وصفه أحد الباحثين بأنّه: «أسلوب دراميّ خطابي»(1). فهو أسلوب حافل بالهيبة والوقار، يحمله قالب أدبي شيّق، ويحمل هو الآخر قلباً ومضموناً سامياً من قلب رجل صادق.

وبهذا أرى أنّه يصحّ فقط في استثناءات قليلة من الحالات بعضُ ما سجله أحد المترجمين عنه قائلاً: «يبدأ حديثه حديثاً هادئاً، ...ودون تكلّف لفنون الإلقاء، ودون بذل

---

(1) ينظر: هل الكتاب المقدّس كلام الله، ص78. مصدر سابق.

أي جهد لاستغلالها من أجل التأثير على الجماهير؛ في هـدوء الواثـق وثقـة الهـادئ»[1].

وبما عُرف عنه من حيوية الأسلوب، مضافةً إلى سمو المضمون، ووقار الشخصية يتكوّن من المجموع حوار بليغ يتّسم بالفاعلية والتأثير، ممّا قد يدفع به - أحياناً - السعي المتحمّس من أجل تحقيقه إلى بعض مالا يتعمّده من التلبُّس بالخاصية اللاحقة.

ب - شيء من الحدّة وقليل من الانفعال :

من الملاحظات الأسلوبية على منهج ديدات، أنّه يجنح في أحيان نادرة عندمـا يحتدم النّقاش بينه وبين الآخر إلى شيءٍ من الحـدّة في أسلوبه، وقـد يغلـظ في الهجـوم أثنـاء ردوده المنفعلة، فتتصاعد وتنخفض نبرات صوته على نحوٍ متموج، تمتدّ أحياناً لتحمـل بعضـاً مـن القسوة وضروب الانفعـال. وتـارة حين يشتد في النقـاش، والـرّد علـى الأفكـار الباطلـة، ومواجهة الضالّين، والمنحرفين، يقسو في أقواله، فتطغى لغة الانفعال، والمعاقبة بالمثل على الردّ الهادئ، ومبدأ الصبر الجميل. ومع ذلك يحاول قدر المستطاع أن يظلّ عفيف اللسان، نزيه القلم، محافظاً على المعهود عنه من أدب وحياء، وإن كانت تصدر عنه عفـواً في أمثلـة قليلة تحصى فلتاتٌ عاثرة عـابرة دون أن تكـون مقصـودة في أغلـب حالاتهـا. ومـن أوضـح الأمثلة على ذلك قوله في الردّ على أحد الأسـئلة في مناظرتـه مـع سـواجارت: «. . . ولكـن حـين أسـألكم كـم صـورة تـرون؟ تقولـون: واحـدة، وتكذبـون علـيّ، أيّهـا الإخـوة والأخوات، أنتم تكذبون عليّ»[2]، وبالإضافة إلـى هـذا توجـد أمثلـة عديـدة في كتابـه عـن سلمان رشدي وفكره الشيطاني، وهي مما يفهم في إطار الرّد الواجب على هذا الفكر القـذر البذيء، والّذي كان بحاجة إلى أسلوب حـاد في الـردّ عليـه، وتنفير النّـاس عنه بتوعيتهـم بدناءته، وتفاهته. ولذا تظهر قسـوة لهجـة ديدات مبثوثـة في معظـم أجزاء الكتـاب إلـى أن يختم بالدعاء عليه ولعنه، بَدَلاً من الدُّعاء له بالتوبة والهداية. وفي ذلك يقـول: «نسأل الله القوي العزيز، أن يغصّ حلق ذلك المارق المأجور، سلمان رشدي بما ربحه وكسبه من مـال حرام، كأجرٍ تقاضاه مقابل القيام بهذه المهمة الشّريرة وهو مدفون في الجحيم. ونرجو مـن

(1) مناظرة العصر، ص60، مصدر سابق.

(2) المناظرة الحديثة، ص199، مصدر سابق.

الله القويّ العزيز، العليم الحكيم، السميع البصير أن يميته ميتة الجبناء خائفاً مذعوراً مرعوباً، وأن يخلد في الجحيم، إلى أبد الآبدين»[1]. ولعلّ الكثير من أمثالي لا يتفق مع ديدات في هذا الأسلوب في منهجه، مهما تكن مبرراته في هذه الخاصية الأسلوبية، لأنّ «الغلظة من الآفات التي تمنع وصول الدعوة إلى المدعوين، وتثير الغضب والكراهية والحقد، والإصرار على الباطل والشر، وتبذر بذور الشقاق والعداء لحامل الرسالة وأتباعه المناصرين له. فالرّفق في الخطاب أرجى لقبول الدعوة، والشّدة تفوت المنفعة»[2]. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]. وأيضاً: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: 125]، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: 159]. كما يقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – فيما روي عنه: (ما كان الرفق في شيء إلاّ زانهُ، ولا نزع من شيء إلا شانه)[3]. صدق الله العظيم ورسوله الكريم.

ج – من الاستدراج إلى الإحراج:

يلجأ ديدات أحياناً في ركاب أساليبه المنهجية إلى استدراج من يحاوره، متظاهراً بالتأييد والموافقة له في رأي من آرائه التي لا يؤمن بها ديدات إطلاقاً، مستخدماً أسلوب الحوار الهادئ لإيقاعه أخيراً في شرك الاعتراف، والاستسلام للحق. ومن الأدلّة على ذلك ما جاء في قوله: «وإذ نعرف ونؤمن إيماناً لا ريب فيه أنّ القرآن الكريم كلّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإننا مع ذلك سنوافق جدلاً أعداء محمد ﷺ فيما يزعمون من أنّه قد اخترعه بنفسه ولمْ يتَلَقَّهُ وحياً من الله، وإننا لنرجو بعض التعاون من المنكرين بأن يتماشوا مع حوارنا معهم بقدر ما يسعفهم المنطق المعقول»[4]. وينتهي به هذا الاستدراج – غالباً – إمّا

---

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص58. مصدر سابق.

(2) أساليب الدعوة والإرشاد، ث60-61، مرجع سابق.

(3) صحيح مسلم جـ4 / 2004 / ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

(4) المسيح في الإسلام، ص: 24، مصدر سابق.

إلى: إحراج الطرف الآخر ساحباً منه الاعتراف بالهزيمة، والإقرار بالحقّ، وذلك حين يحصره مضيّقاً عليه الخناق في متاهات نصوص أخلاقية محْرِجة، مما لها مواردها في كتابهم المقدّس، كما حصل ذلك في محاورته التي قال عنها: سألت المشرف على دار الكتاب المقدّس: أيّهما تختار لابنتك فيما يتعلّق بمولد عيسى عليه السلام: التصور القرآني أو التصوير الإنجيليّ؟ وأحنى الرجل رأسه بتواضع وقال: «التصوّر القرآني»[1].

وإما لإحراجه أمام جماعته الدينية، وأهل مذهبه خاصّة. حين يكشف ديدات للآخرين عمّا يتبنّاه نظيره من أفكار عقديّة مخالفة لمقررات الكنيسة، وما عليه عامّة مذهبه، ومن هذا النوع ما أورده أثناء الحوار من نصّ لمحاوره معلّقاً عليه في قوله: . . . أنا أقتبس لكم ممّا كتبه الدكتور (شروش) على الصفّحة الثمانين، يقول: «أيّها الأب السّماوي المحبّ، أنا أشكرك على معجزة إسداء الحياة لي، وإنّ أكبر معجزة في الدنيا أنّك تموت من أجلي»، ولقد تساءلت من الذي يموت من أجل الدكتور(شروش)؟ الأب الذي في السماء يموت من أجله؟ لقد حظرت الكنيسة هذا المعنى منذ أكثر من ألف عام. ويقول الإنجيل «ولا تدعوا لكم أبًا في الأرض لأنّ أباكم واحد الذي في السماوات» [متى 9:23][2]. والقصد عند ديدات – والله أعلم – في التركيز على هذا النوع من الانفرادات العقدية التي يُخالف فيها مساجله كنيسته هو إثارة النزاع والشقاق بينهم، وجلب شيء من التوتر ضدّ من يواجهه بالدفاع عن عقيدته الضّالة، مع أنه خارج عن رأي جماعته ومخالف لها. وهذا النوع من الاستدراج المحرج لا يتأتى للمحاور ما لم يكن على سابق علمٍ كافٍ بأفكار محاوره تفصيلاً، وبعقائد كنيسته وجماعته إجمالاً. وهو من الأساليب ذات المفعول الطويل في الانتصار على الطرف الآخر.

د – استغلال العاطفة اللغوية:

وهو لون من أساليب الإثارة والتأثير في منهج الحوار عند ديدات، حيث يحاول غالباً حفظ وقراءة النصوص التي يكثر الاستشهاد بها في الحوارات الدينية بلغات متعددة، من أجل التأثير على الناطقين بتلك اللغات، والتي تشدهم لمتابعة ما يقال

---

(1) المصدر نفسه، ص 54.

(2) مناظرة العصر، ص66، مصدر سابق.

بإنصات وتركيز، وليس بالضرورة فيما يرى ديدات أن يكون الشخص المحاور مجيداً لتلك اللغات، بل وإنما تكفيه القدرة على استحضار النصوص بها متى يكون ذلك مُستحسناً. وبهذا نصح ديدات طلابه قائلاً: «...وإذا كنت تستطيع أن تقرأ بلغة أخرى...فافعل ذلك، ولقد أخذتُ على نفسي مشقّة حفظ ذلك بعدة لغات، فحينما ألتقي بالمواطنين «الزولو» فإنني أتحدث إليهم بالإنجليزية...ولكني أقرأ عليهم بالزولو، ويكون لذلك تأثير عظيم عليهم. وحينما ألتقي بالأفريكانا، فإنيّ أتحدث إليهم وأقرأ النّصّ بالأفريكانا، وقد حفظته بالعربية، فقد تصورت أنني يمكن أن أذهب إلى لبنان، لذلك حفظته بالعربية للتحدث إلى المسيحيين اللّبنانيين..»[1].

ويكثر في عصرنا هذا استخدام الصليبيين، وبخاصة العرب منهم، لهذا الأسلوب المؤثر في محاضراتهم ومحاوراتهم، مع المسلمين ممن يتحدثون العربية ويتقنونها، إذ لا يخلو اللقاء بهم غالباً من مفاجأة المسلم بآيات تلوك بها ألسنتهم محرّفة، وأحاديث يتلعثمون في ضبط رواياتها، والقصد من ذلك خداع المسلم، وإيهام الآخرين بالتبحّر في مصادر الإسلام، ورغم ذلك فإنهم فضلوا غير الإسلام عليه، لا عن جهل، أو تقليد، وإنّما عن دراسة واختيار.

ولاشك أن ديدات حين يستخدم هذا الأسلوب ضمن أساليبه المتعددة يعي وعياً تامّاً مجمل هذه الاعتبارات، وهذا لا يعني أنّه يقلّدهم في ذلك، بل وإنما يصدر فيه عن درايته بأهميته النفسية في التأثير الإيجابي على الآخرين بشدّ انتباههم، وتفاعلهم مع المحاضر أو المحاور. وهو الهدف الذي سخّر له ديدات إلى جانب هذا الأسلوب مختلف ما تقدم من أساليب مميّزة من منهجه المؤثر، ومما يلحق بهذا من الأساليب المثيرة، تحديه للطرف الآخر في مختلف لقاءاته بجُعلٍ مادي مقابل إجابة صائبة على سؤال من تلك التي يوجهها إليه ديدات[2]، كما أنّه أحياناً قد يراهن برأسهِ، مضحياً بحياته في حال استطاع مساجله أن يقدّم نصّاً صحيحاً صريحاً ينهض دليلاً على دعواه، مناقضاً لصحة ما يقول به ويعتقده

(1) أحمد ديدات، هذه حياتي، ص 81.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص30.

ديدات. ومن أمثلته، قوله لأحدهم: «أرني نصاً واحداً قال فيه عيسى: (أنا إله) وقال (اعبدوني) عندما تعثر عليه، وأنا مستعدّ لو فعلت ذلك أن أقدم رأسي إلى المقصلة»[1]. وهذا مما يدل على ثقته بنفسه، وجدية الحوار عنده، وصدق إخلاصه لدعوته.

وفضلاً على هذه الأساليب تطالعنا قبل ختام دراسة هذا المنهج طائفة من السّمات والملامح المميزة له عن العديد من المناهج المغايرة.

خامساً: السّمات والملامح العامّة لمنهجه في الحوار[2]:

يتسم منهجه في الحوارات على اختلاف مواقعها وموضوعاتها بسمات متعددة، وملامح عامّة، تشكل في جملتها القسمات الرئيسة المميزة لمنهجه عن كثير من المناهج. وتكمن أهمية معرفة تلك السمات في المساعدة على التمييز بين مختلف المناهج مهما تعددت، وفي تزويد الدّارس بإمكانية تصنيف المحاورين حسب سماتهم المنهجية، وصولاً -حين تقتضي الحاجة- إلى دمج عدد من المناهج لأداء دور متكامل في مواقف حوارية معينة، فضلاً عن أنها من الوسائل المعينة في الحكم على الشخص سلباً أو إيجاباً. ونرصد فيما يلي - ما يبدو لنا - أهم تلك السّمات على النحو الآتي:

أ - التركيز على القضايا العقديّة، وربطها بالقيم والظواهر الأخلاقية:

تشكل العقيدة وما يتصل بها، الخيط الرفيع وربّما الفريد في مختلف حوارات ديدات، إلا ما شذّ عن هذا الباب من تجنيده للسياسي الأمريكي «بول فندلي» في ندوة مشتركة لمواجهة قوى الشرّ والعدوان الصهيونية، مما يجوز أن نعتبره تجاوزاً من قبيل الحوار المتحالف، حيث تتحالف فيه عناصر ذات اتجاهات مختلفة، وانتماءات متباينة لتشكيل جبهة موحدة؛ لتحقيق قيم الحقّ، والخير، والعدل، والسلام في مفهومها العادل السويّ.

---

(1) المصدر نفسه، ص138-139

(2) بعد ما مر بيانه عن المنهج من قواعد هيكلية، وخصائص أسلوبية تتعلّق بفنيات الأداء الشكلية، استحسنا الحديث عن السمات العامة لهذا المنهج، وذلك لصالح الخروج بصورة جامعة عنه، فاصلة بينه وبين غيره من المناهج الأخرى، إن وجدت.

وفيما يخص تركيزه على العقيدة، تكاد تنعدم عنده الحدود الفاصلة بين ما هو عقدي وما هو أخلاقيّ؛ وقد ترتّب على هذا الفهم ما ظهر في مناظراته أنّه غالباً ما يجرُّ محاوريه إلى واقع مجتمعاتهم لنقد ما شاع فيها من مظاهر الفساد والانحراف من النّاحية الأخلاقية، وذلك في قفزة سريعة من دوائر العقيدة إلى ساحات حياة المجتمعات اليوميّة؛ إيماناً منه بأنّ للعقيدة حيث تصح دوراً فاعلاً في توجيه الحياة، وإرشاد النّاس في دروبها ومسالكها الأخلاقية، وبالعكس عندما تصاب النّاس في سلوكياتها الأخلاقية تتعرض المجتمعات الإنسانية لأزمات حادة، وأمراض خانقة فتّاكة. والعياذ بالله.

وفي ضوء هذا التصور كان ديدات يأخذ بأيدي محاوريه ليُوقفهم على الأمر الواقع، وكأن لسان حاله يقول لهم: إنّ ما تشهده مجتمعاتكم من فساد وتيه، أيّها الصليبيون لهو أكبر دليل على فساد وضلال عقيدتكم؛ حيث إنّ صحّة العقيدة تورّث في الأغلب مجتمعاً سليماً معافى. وبهذا صرّح في إحدى مناظراته قائلاً: «...هذا هو المحك، المحك الثمرة، لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم، وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات، ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة»[1]، وفي موضع آخر من المناظرة ذاتها يقول: «انظروا في هذه الأمّة الجبّارة أمريكا، يوجد حسب قول سواجارت: أحد عشر مليون سكّير. هذه هي أمتكم، أمَّا في الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المجاملات الاجتماعية»[2]، وفي موقف مختلف من مناظرة أخرى يقول أيضـًا في مواجهة محاوره باعترافاته: «وفي كتاب الدكتور (شروش) المعنون بعنوان: (الفلسطيني المتحرّر) . . . يقول الدكتور شروش بعد استعراضه مظاهر الإباحية الجنسيّة في أمريكا، يقول إنّه كان يمشي وقد تعلّقت بكلّ ذراع من ذراعيه فتاة. ودعته فتاة جميلة إلى منزلها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وذهب معها، وكان أبوها ينتظر ومعه مسدّس، وكان عليه أن يتراجع، هذا ما

(1) المناظرة الحديثة، ص169، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص170.

يقوله الدكتور شروش في كتابه. أين هي الأخلاق الحميدة في مثل هذا المسلك؟...»[1].

إن تطرق ديدات إلى القيم والظواهر الأخلاقية وهو يحاور ويحاضر في العقيدة، سمة ظاهرة واضحة من سمات منهجه البارزة. والظّاهر أن تقيُّد ديدات بالحوار في العقيدة كان مبنيًا فيما أظن على رؤية مفادها أنّ الحوار في غير العقيدة غير مجدٍ، مادامت العقيدة فاسدة؛ إذ لا تلبث أن تزول وتتلاشى كلُّ النتائج والثمرات التي يمكن أن تتحقق وتجنى من الحوار غير العقدي، عندما تتغير الظروف والملابسات، ومن ثمّ تنتسخ النتائج الآلية المؤقتة. وإنّ ما يجنى من الحوار العقديّ مهما شقّ طريقه وتوعّر فهو الذي يبقى ويدوم، ويكفي ديدات مبرراً في تركيزه على العقيدة في حواراته، أنّه عاش في ظرف من الزمان والمكان يموج بالكثير من النِحَلِ والتيّارات، ويسوده الكثير من الحركات الفكرية الضّالة، وتنتشر في مختلف جنباته ألوان من الفوضى الاعتقادية يثيرها جحافل من المنصرين البادئين بالظلم والتحدي، فكان لزاماً على ديدات أن يعتصم بطود العقيدة، وقوة الأخلاق وثباتها، إذن؛ فلا غرو منه في مسلكه العقديّ الأخلاقي إذا علمنا أنه هو القائل: «...إنه بدون استماع إلى كلام المسيح الحق بصدق وطاعة لا يمكن أن يحكم العالم»[2]. وعليه، فلابد من التركيز على العقيدة لتصحيحها.

ب - غلبة الصّون والهدم على البناء والتعمير[3]:

ومما يتصل بتخصصه في الحوار العقدي أنّ الطابع الغالب على منهجه سمة الصون، والهدم، أي صونهُ لعقيدته والدفاع عليها أمام اعتداءات المعتدين، دون أي تخاذل، والعمل على توعية إخوانه المسلمين، وإرشاد الحائرين الباحثين لأنفسهم الخلاص في الأديان بأنّ العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تستحقُّ أن يحيا بها الإنسان مطمئناً، ويموت عليها ملاقياً ربّهُ بكلّ أملٍ وأمان، ومن حيث الهدم فإنّ ديدات يقضّ

---

(1) المصدر السابق، ص92.

(2) مناظرة العصر، ص92، مصدر سابق.

(3) أي له همّ كبير في ضمان النجاح لموقفه الحواريّ الذي يعكس كثيراً من رغبته الفائقة في أن يصون عقيدته من هجمات الأعداء، ويحامي عن دينه وأمّته ضدّ المتربصين بكلّ منها.

بها على العقائد الباطلة، وبخاصّة الصليبية منها بمعاول الهدم، يدكُّ بها معاقل المهاجمين، مخرّباً بنيانهم من الأساس لينهار برمّته من المعركة، وينزاح أمام الحق ليشق طريقه إلى العالمين رحمة من ربّ العالمين. ولم يكن ديدات في منهجه بمن يّغتنم فرصة محاوراته متجاوزاً فيها هذه السمة للبناء والتعمير؛ بتقديم البديل الصّحيح بعد الهدم، وبإلقاء ضوء شامل كاشف على الإسلام، بعقيدته، وشريعته، وقيمه، سواء لمساجله أو لعامّة الحضور. ولعلّ تقيده بما يحدَّدُ لمحاوراته سلفاً من موضوعات، هو الذي حدا به عن هذا المنحى الإيجابي، فلم يحفل به في منهجه الحواري العامّ إلا في القليل النّادر. وبخلوّ المنهج تقريباً من هذا البعد يقصر عن أداء أهمّ وظائفه من منظور من يرى أنّ الهدف من المناظرات والحوارات، هو الوصول معاً إلى الحقّ والخروج من رحلة البحث عنه بنتيجة حاسمة، وحقيقة واضحة محدّدة، يشترك كلا الطرفين المتحاورين في التسليم والالتزام بها.

وبالرغم من هذه الملاحظة، فإنّ من محاسن منهجه الكثيرة أنّه يصحّح العقيدة الكنسيّة بهدي القرآن الكريم، بعودته غالباً بعد مناقشته لمغالطهم العقديّة، واتهاماتهم الباطلة إلى كشف الصواب، وبيان وجه الحق فيما ضلّوا في معمعته من عقائد باطلة[1].

على أنّ حقيقة عذر ديدات في غلبة الصّيانة والهدم، على البناء والتعمير في منهجه، تكمن - فيما أرى - في منطلقه الذي بدأ منه الحوار أساساً، وهو منطلق المقاومة، ودفع التحدّي، والّذي انتقل منه لاحقاً إلى موقف:

ج - المبادأة والملاحقة:

من شيمة ديدات في سماته المنهجية، أنّه يبادر بفتح باب الحوار مع الآخر، فهو نزّاع- كليًا - إلى الحوار؛ حيث أصبح منذ أنس في نفسه بعضًا من القدرة العلمية، والكفاءة العلميّة على النقاش والمناظرة يبادئ المّنصرين، ويلاحقهم بالتطويق في ميادين الحوار، وقاعات المحاضرات. وإنّ كثرة محاوراته وإشراعه باب الحوار مع الجميع بما فيه

---

(1) المسيح في الإسلام، ص44، على سبيل المثال. مصدر سابق.

دعوته بابا الفاتيكان إليه كما أسلفنا، إلى جانب ممارسته الفعليّة للحوار من خلال مئات الرحلات والمحاضرات كفيلة بالتعبير عمّا يتمتع به من روح المبادأة الحوارية الجلية من سمات منهجه. وفي هذا الجانب كان ديدات مليئًا بالتحمس لتشجيع ودفع كل ما يخدم قضية الحوار بين الأديان والعقائد الفكرية بمختلف أنواعها.

وهذه المبادرة الإيجابية في نزوعه الدائم إلى الحوار والتي حكى لنا طرفاً منها بدعوته من المسجد لأحد طلاب كليّة اللاهوت في بلاده، إلى منزل أخيه القريب من المسجد للحوار والمناقشة على مائدة غذائية حول أصالة الكتاب المقدّس[1]، تكشف لنا مع أمثلة كثيرة جانباً كبيراً من عشقه للحوار، وتعلّقه به، ومن ثمّ مبادرته إلى تنظيمه والترتيب له ببذلِ كلّ ما بوسعه في سبيل تنمية روح وثقافة الحوار، والتمكين لهما.

ومع هذه النقلة النّوعية التي تحققت في حياة ديدات الحوارية من موقف الدفاع والاعتصام، إلى التجرؤ على الإقدام والمبادأة، فإننا لانصادف في هذا المنهج ما يدل على مواكبته لهذا التطور، إذ ظلّ برهانياً استدلالياً ولم يُقَدَّر لديدات الارتقاء به إلى مستوى الإثارة، وجعل الآخر في موضع الدفاع والاستدلال، وهو الموقف الذي ابتدأ ديدات نفسه منه الحوار، وكان حَرِيّاً به أن يعمل على تطوير المنهج وتنويعه، محافظاً على روحه وجوهره القرآني طبقاً لما طرأ من تطورات، وما استجدّ من مواقف.

د - الالتزام بنمط المقارنة الدّائبة :

لقد جرى ديدات في منهجه على نسق المقارنة الدّائبة، فمنذُ أن تشرّب روحها، واستمتع بثمارها، أصبح طابعها يسود منهجه الحواري في عمومه، وكان التفكير في التنصير والمنصرين مما يلازمه دائماً، حتى إذا واتته الفرصة انشغل-تنفيساً عن إحساسه الحزين-وشغل أيضًا من معه من دعاة المسلمين وعامّتهم، بالمقارنة بين جهودهم وبين ما عليه الدّعاة إلى الإسلام. وبالنسبة لحواراته، فسرعان ما كان يأخذ في النّسج على منوال المقارنة كلّما تهيأت عنده مناسبة لها، مستحضراً الآيات القرآنية ذات العلاقة

---

(1) ينظر، هل الكتاب المقدّس كلام الله، ص105. مصدر سابق.

بموضوعه، مقارناً بدقة بينها وبين نصوص كتابهم المقدّس لتجلية الروعة الأسلوبية، وإبداء مظاهر الدقة في التعبير القرآني الممايز لما عندهم، مزيلاً اللبس عمّا يلوح في الظاهر من تشابه بين الخطابين في بعض المواطن القليلة[1]، والملاحظ أن سمة المقارنة في منهجه، وبالأخص في جانبها النصّي ترد غالباً عقب المناقشة والتفنيد، للتصحيح بالتصور الإسلامي المتضمن في الآية التي يسوقها مقارناً ومصححاً. ومن أمثلتها قوله لمن كان يواجهه في إحدى الحوارات العلنيّة: «...ولذا فإنّ يسوع يستحيل أن يكون هو الأب ويستحيل أن يكون هو الله، لأنه كان ليسوع لسان وشفتان وتكلّم مع اليهود. وكانت له عينان، والعينان في وجه واللّسان يمتدّ من البلعوم. وكانت له أمعاء. وباختصار كان إنساناً وله جسم الإنسان. ولم يكن إلهاً بكل حال. ما هي الأشياء التي يجب ألاّ تنسب إلى الله؟ يقول القرآن الكريم: «ليس كمثله شيءٌ» ووفقاً للعقيدة الإسلامية، لا يصح أن ينسب إلى الله كل ما تحدّه قدرة الإنسان على التخيّل، وأي صورة يتخيّلها البشر لله ليست هي الله» [2].

إنّ ديدات وقد استهوته سمة المقارنة بين عامّة القضايا والمعتقدات التي تحاور فيها مع الآخرين، كان يعي حقاً ويعكس مدى هذا الوعي في منهجه، بأنّ من طبيعة المقارنة بين الأديان النّهج دائماً على درب المقارنة مختلف موضوعاتها ومصادرها، وأتباعها، وغيرها ممّا له علاقة بها. وبقدر ما تعبر عنه هذه المقارنة الدّائبة -التي ترد من زوايا مختلفة- من وعيٍ متيقظٍ فإنّها تدلُّ من جهة أخرى على:

هـ - حضور دائم فاعل لشخصيته القويّة في حواراته:

يُلمس جلياً في كلّ أعماله، ولا سيّما في منهجه الحواري، حضور شخصيته ووضوحها؛ ذلك لما تحلّت به هذه الشخصية من صرامة وصراحة في قول الحقّ، والدّفاع عنه، وتتجلّى في تضمين محاضراته ومحاوراته أطرافاً من تجربته، وجوانب ممّا جرى له مع غيره في مواقف سابقة من أحداث لا يخلو العلم بها من فوائد، وذلك إمّا من باب

(1) ينظر: المسيح في الإسلام، 50-56. مصدر سابق.

(2) مناظرة العصر، ص69.

الاستشهاد أو من قبيل عمليّة نقل التجربة العمليّة إلى الآخرين. وبحضور بارز لشخصيته المهيبة في منهجه-كما يتضح ذلك حتى في مجرد حديثه، وفي بصماته الواضحة في تعبيرها عن شخصيته في مختلف أعماله-يشكلّ ديدات في هذا المنهج شخصيّة محورية تدور بها وقائع محاضراته، ومحاوراته الجمّة، على غرار محورية شخصية المسيح عليه السلام فيما تحوم حولها من عقيدة كنسيّة باطلة. وربما لا تتضح فكرتنا عن حضور شخصيته القوية كسمة من سمات منهجه، إلاّ في ظل تصور شخصية أخرى، في إطار منهجه الخاصّ، ليتبين من ذلك مدى بروز وضمور الشخصيات في مناهجها.

إلاّ أن هذا الحضور الواضح بتأثيره الفاعل لم يحل دون سمة:

و - انضباطه في حواراته بقواعدها التنظيمية:

ينحو ديدات من النّاحية المنهجية منحى متميزاً في الانضباط بما اصطلح عليها من ضوابط، وإجراءات تنظيمية لمجرى حواراته، الأمر الذي يقدم لنا فكرة عن أدب الحوار فيما عوّل عليه من منهج حواري، وعمّا يتصف به شخصه من رصانة، واتزان، مما تشهد له بها حواراته المتعددة، والتي ظهر في معظمها منضبطاً بالتنظيميات، وملتزماً فيها بأدب الحوار الرفيع، إذ نادراً ما كان يخرج عن طوق مصطلحاته، لخرق شيء من مبادئها المحددة سلفاً. وإن حصل منه شيء من ذلك فلا يلبث أن يُراجع نفسه، عائداً مستدركاً، دون أن يتجاوز في الغالب حدّ المداخلة بمقاطعة نظيره المتحدث، وذلك عند اللزوم وفي أضيق الحدود كضرورة توضيح فكرة، أو تصويبِ لعقيدة، أو تصحيح لفهمٍ خاطئ، نزوعاً بمقتضى: لكلّ مقام مقال، ولكل مقام مقال كذلك.

ولمّا كانت القاعدة الغالبة على هذا المنهج من حيث أدب الحوار، هو الانضباط والتقيّد، إذن؛ فهو المعوّل عليه دون غيره من الحالات الشاذّة. ومن الأمثلة الكثيرة على هذا التقيّد إمساكه عن الحديث وفي نفسه شيء مما يحسن قوله، وذلك نزولاً عند مقتضى نفاد المدّة المحددة له في إحدى محاوراته، والتي قال فيها: «أعرف أنّ الحديث يمكن أن يمتدّ بيننا، ولكنني أحترم إشارة مدير المناظرة لي بما يفيد أنّ الوقت المحدّد

للإدلاء بما تيسر من الملاحظات قد استهلك ونفد»[1] . ولشدّة مراعاته للضوابط والآداب الحوارية كان حتى في الحالات التي يشجعه المعجبون به بالتصفيق الحار يعمل على صرفهم عن ذلك[2]، حفاظاً على الأدب واحتراماً للطرف الآخر، ولموضوعية الحوار. فياله من أدب رفيع، وروح حوارية سامية!!.

وإنّ هذه السمة الشريفة تستمدّ أسباب وجودها عنده من الإطار الجامع لكلّ سمات منهجه السابقة وغيرها، وهو الإطار الذي يشكل في منهجه أمّ السمات الإيجابية متمثلاً في:

ز - قرآنية المنهج :

لقد تقرر فيما مرّ بيانه أنّ منهج ديدات يستمد روحه وجوهره من القرآن الكريم، ويقوم على أسس لا تتعارض معه، إن لم يكن قد قرّرها بالفعل. وقد تجلّت السمة القرآنية في مختلف المراحل والمواقف التطبيقية لهذا المنهج في الحوار، من براعة استهلالاته بآيات قرآنية تتناسب مع الموضوع الذي يقْدم على معالجته، ومناقشته للقضايا بنصوص قرآنية، ملتزماً بآداب القرآن وتوجيهاته، بما حدده من موضوعات الحوار العقديّ، مُختتماً أحياناً حواراته بآيات ومقرّرات قرآنية، إلى جانب قرآنية منطلقه وغايته في كلّ ما قدّر له من نشاطات إسلامية، ومحاورات دينية بخاصّة. إذ كان قصده من ورائها خدمة القرآن الكريم بدعوة العالمين إليه.

ولذا ما كان ديدات ليُغفِل أبداً هذا البعد القرآنيّ لمنهجه، بل ظلّ يؤكد دائماً أن منهجه في الحوار والمقارنة نتاج أعظم كتاب في الوجود وهو القرآن الكريم، ذلك المعين الذي لا ينضب، والذي اهتدى ديدات إلى صياغة منهجه من بعض كنوزه النفيسة المتدفقة، ومن ثمّ فلا غرو في انطباق بعض خصائص القرآن على المنهج الذي بدا عليه جليّاً تلونه بها في سماته، وملامحه، ولعلّ أبرز مظاهر انعكاس السمة القرآنية على

(1) مناظرة العصر، ص 92.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

منهجه أنّه استطاع أن ينأى عن المنحى الفلسفي المعقـد، ويـأخذ بـه بعيـداً عـن أسـاليب الجدل الكلاميّ في مسائله الدقيقة، لتتمحّـض مطابقته فقـط لمنهـج الاحتجـاج القرآنـي المعروف ببساطته وفعّاليته.

أجل؛ وربما لا يكون ثمـة خيـار أمـام المسـلم المحـاور في الأخـذ بهـذا المنهـج الـذي فـرض نفسـه، وخاصّـة بعـد موجـة انحسـار الأسـاليب الكلاميـة التـي وجّـه كثـير مـن أعلامها سهام النقد إليها، بعد جولة طويلة في أزقتها الواعرة دون الخـروج منهـا بطـائل مثير ومثر. ولعلّ أبرز نقادهـا بعـد الجوينـي، والغزالـي، وابـن رشـد، هـو فخـر الديـن الـرّازي الـذي قـال في وصيـة أيّامه الأخيرة: «...ولقـد اختـبرت الطـرق الكلاميـة، والمنـاهج الفلسـفية فمـا رأيـت فيهـا فـائدة تسـاوي الفـائدة التـي وجدتهـا في القـرآن العظيم...»[1]، إذ هو أقرب وأيسر الطرق وأفعلها.

وممّن يؤكد من العلماء المعاصرين على هذا الاتجاه القرآني الذي سـلكه ديـدات في منهجـه، الإمـام محمـد أبـو زهـرة في قولـه: «ولـو أنّ المتكلّمـين عنـوا بإثبـات العقـائد والجدل فيها، وسلكوا مسلك القرآن الكريـم، وسـارو في سـمته، لكـان علمهـم أكثـر فائدة، وأدنى جنى، وأينع ثماراً، ولكنهـم سـلكوا مسـلك المنطـق وقيـوده، والبرهـان وأشكاله، فكان عملهم للخاصّة، من غير أن يفيد العامّة»[2]. وإلى هذا التيّار القرآني في منهجيّة الحوار ينتمي أيضًـا من المعـاصرين «منيـع عبـد الحليـم محمـود» المنقـول عنـه قوله: «ويرى العلماء: أن القرآن الكريـم اشـتمل علـى جميـع أنـواع الـبراهين وألـوان الأدلّة، وسلك جميع طرق المناظرة، وما من سبيل من سبل إثبـات المدعـى إلاّ وكتـاب الله قد سبق إليه وقرّره، ووضع له الأسس السّليمة التي يجب أن تحتذى[3].

ولهذه الاعتبارات - فيما أرى- عُنِيَ ديدات بالإفادة من القرآن في منهجه، لمـا بـه من كثرة النّفع، وتمام الفائدة. وبهذه العنايـة اكتسـب في حواراتـه منهجيّـة القـرآن التـي

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص468. شرح وتحقيق: د. نزار رضا، ط: دار مكتبة الحياة، 1970ف، بيروت.

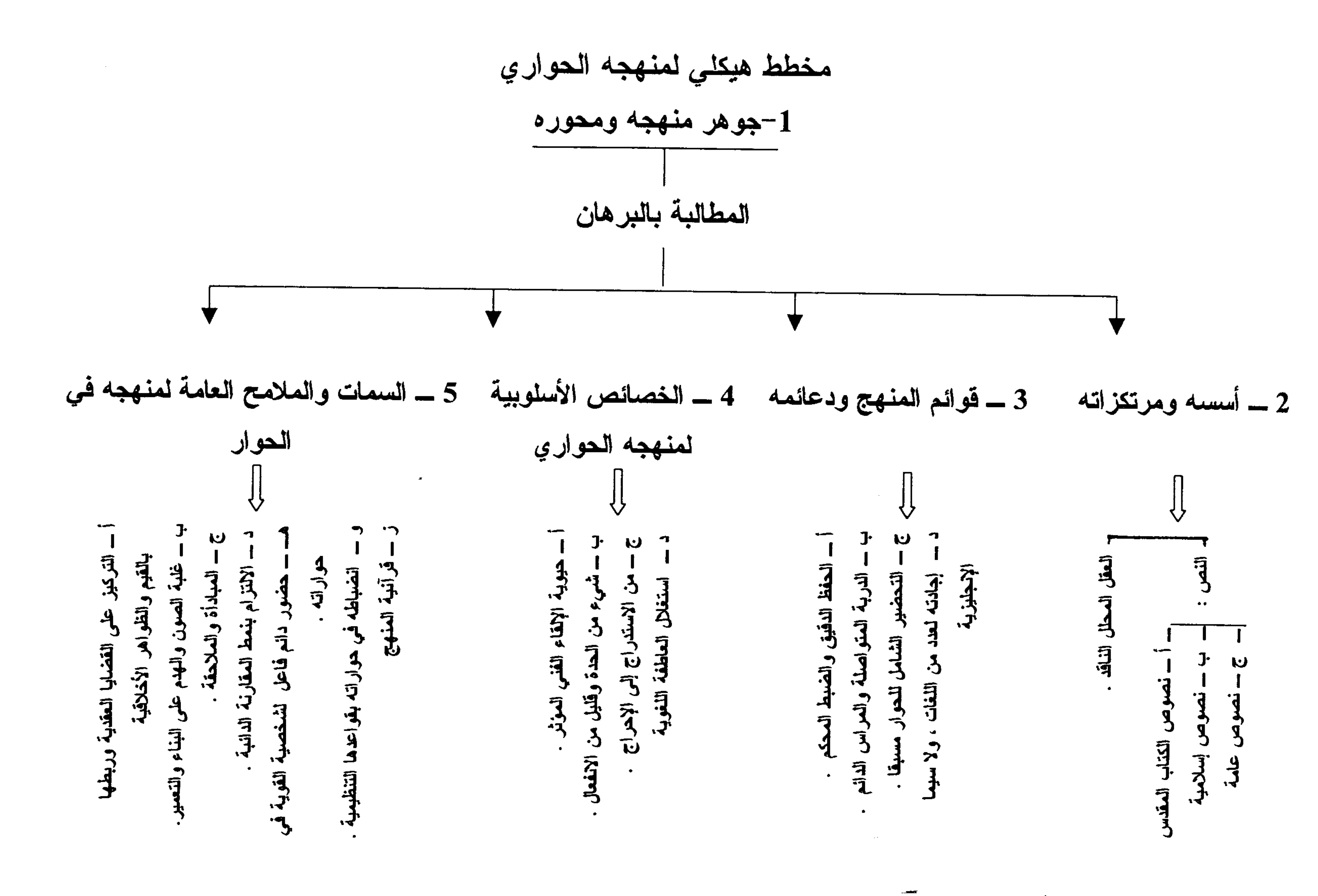
(2) د. محمد أبوزهرة: تاريخ الجدل، ص73.

(3) «منهج القرآن في الدعوة إلى الله»: ص180، مجلّة الأمّة، ع25، س3، 1403هـ - 1983 الدّوحة - قطر.

تثير القلوب وتنير العقول لإقناعها بقوّة الحجّة والبرهان .

وممّا سبق ؛ يتأكد لنا في ختام دراسة منهج ديدات الحواريّ أنّه ثاب إلى القرآن الكريم فاستمد من خزائنه الخالدة المتجدّدة ما أقام به صرح منهجه الرّفيع بجوهره ، وأسسه ، والقويم بدعائمه وركائزه ، الرّائع بخصائصه وسماته ، البديع بقرآنيته وأدبه الجمّ .

ولعلّ أكبر هدية حملها لعصره هو أنّه أكد الدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من منهجيّة الحوار مع الجميع ، وسعى قدر استطاعته لتطبيق وممارسة هذه الدعوة الكريمة إلى الحوار منوّعاً للمجالات ، وموسّعاً للآفاق ؛ ليزداد بذلك التأكيد على أهميّة الحوار الدّائم الموسّع ، ومن ثمّ ضرورة الالتزام به والسير عليه في الدّعوة إلى الله تعالى بالأَوْلى والأحسن ، وبذلك فإنّ دراسة منهج هذا العَلَمِ في نطاقه الشّامل ، يحمل أهمية كبيرة للدّراسة المعاصرة للأديان ، ويخدم إلى حدّ كبير قضية الحوار في عالمنا المعاصر في ظرف هو أحوج ما يكون فيه أكثر من أيّ ظرف سابق ، إلى كلّ ما يمت بصلة إلى الحوار الهادف البناء ، وهو ما يعزّز أهميّة منهج ديدات في الحوار وضرورة تنمية وتطوير ما قام به من دور تاريخي في مجال دعوته وحواراته ، وجعل منه ظاهرة عملاقة لا يمكن تجاهلها ، ممّا يدفع بنا في المبحث اللاحق إلى دراسة المؤثرات الموضوعيّة ، والمكونات الذّاتية التي صاغت في مجملها هذه الشخصيّة الإسلامية الفذّة ، بما لها من انتشار واسع ، ومن صدى عميق لمنهجه الفريد في عالم الدعوة والاعتقاد .


مخطط هيكلي لمنهجه الحواري
1-جوهر منهجه ومحوره
المطالبة بالبرهان
2 ــ أسسه ومرتكزاته
العقل المحلل الناقد .
النص :
ــ أ ــ نصوص الكتاب المقدس
ــ ب ــ نصوص إسلامية
ــ ج ــ نصوص عامة
3 ــ قوائم المنهج ودعائمه
أ ــ الحفظ الدقيق والضبط المحكم .
ب ــ الدربة المتواصلة والمراس الدائم .
ج ــ التحضير الشامل للحوار مسبقا .
د ــ إجادته لعدد من اللغات ، ولا سيما الإنجليزية
4 ــ الخصائص الأسلوبية لمنهجه الحواري
أ ــ حيوية الإلقاء الفني المؤثر .
ب ــ شيء من الحدة وقليل من الانفعال .
ج ــ من الاستدراج إلى الإحراج .
د ــ استغلال العاطفة اللغوية
5 ــ السمات والملامح العامة لمنهجه في الحوار
أ ــ التركيز على القضايا العقدية وربطها بالقيم والظواهر الأخلاقية
ب ــ غلبة الصون والهدم على البناء والتعمير.
ج ــ المبادأة والملاحقة .
د ــ الالتزام بنمط المقارنة الدائبة .
هــ ــ حضور دائم فاعل لشخصية القوية في حواراته .
و ــ انضباطه في حواراته بقواعدها التنظيمية .
ز ــ قرآنية المنهج

المبحث الثاني

شخصيته بين مؤثراتها الموضوعيّة ومكوناتهـا الذّاتيّـة

إن شخصيّة ديدات شأن كل شخصية استثنائية هامّة، ولاسيّما الأعلام من نوعها، هي صياغة لعدد كبير من المؤثرات والعوامل الموضوعيّة، إلى جانب غيرها من المكونات الذّاتية، التي تضافرت معاً لتشكيل هذه الشخصيّة الفذّة وفقاً لإرادة الله العلي، وطبقاً لتقديره في الأزل.

ولعل من الأهم أن نتذكّر فيما يخص أهميّة الوقوف على تلك المؤثّرات والمكونات، بأنّها من الشرائط الضروريّة المُعينة على فهم من لا تخلو سيرتهم ومعرفة مسيرتهم من فائدة علمية ومتعة نفسيّة. بالإضافة إلى ما هو أهم، وهو أنّ معرفة تلك العوامل شرط لازم في أي مشروع تخطيطي، يرمي إلى استنبات شخصيّات من هذا النّوع وإنتاجها -إن جاز التعبير- وهو مما قد تدعو الضّرورة إليه غالباً لترسيخ الأصالة، وتنمية روح الإبداع، واستثمار عناصر الفاعلية والتجديد، على نحو يستمر وجودها في الأمّة، وفي الدّعوة إلى دينها والتبْشير بأنموذجها الحضاري.

ومن هذا المدخل فإنّ ديدات لم يكن بدعاً من غيره من البشر، وإنّما هو من مفرزات ظروف موضوعيّة وذاتية، أطَّرت في مجملها شخصيّته، وهيأته لما قام به من جهود، وقدّم من أعمال وفق منهج وثيق الصلّة بتلك المؤثرات والمكونات، إن لم يكن بالفعل يعكسها تمام المعاكسة، في تعبير تلك الظروف عن نشأة كل من العلم والمنهج، وتطورهما معاً، وما رافق ذلك من حيثيات، سجلت بصمات واضحة عليهما في مختلف أطوار المسيرة ومراحلها.

وبتتبُع شخصيّة ديدات من النّاحية المنهجية، وإمعان التأمل فيما يمكن اعتباره من العوامل الموضوعيّة التي أسهمت في تكوينه والتأثير فيه، نهتدي إلى طائفة من العناصر، نذكر منها ما هي أساسيّة وأهم من غيرها، وذلك على النّحو الآتي:

أ - البيئة العائلية :

كانت أسرته الهندية هي البيئة الأولى التي أبصر ديدات فيها النّور، وتنسّم في أجوائها من مبادئ التربية الإسلامية القليل مما هو متاح منها لأمثاله ممن هم في مثل سنّه

ومجتمعه غير الإسلاميّ، فانطلق خلال أعوامه التسعة الأولى من حياته لتلقّي المزيد يوماً بعد يوم ممّا تجود به عليه بيئته الآسيوية من قيم، وآداب إسلامية، ظلّ لها وقْعُها الحميد في مختلف مراحل حياته اللاحقة. وفي هذه الفترة المبكّرة اكتسب في رحاب أسرته من أساسيات الأقوال والأفعال الإسلامية ما يمكن القول معها بأنّ اتجاهه الإسلاميّ بدأ يتأسس، حيث إنّه تعلم في أسرته المتواضعة ما يتعيّن في الإسلام تعليمه للأطفال، وتدريبهم عليه من طهارة، وصلاة، وسلام، وأدب، وأخلاق.

وكان ديدات في كلّ ذلك يُقلّد أبويه، متعلّماً منهما ما تتوفّر لديه القدرة على استيعابه في تلك السنّ الطفلة[1]، وربما كان إلى جانب ذلك لأسرته المتواضعة فيما كانت تشهده من ظروف ماديّة صعبة - اضطرّ بضغطها والده للهجرة إلى جنوب أفريقيا - دورٌ في تأصيل روح التّحدي، والتّجلّد لديه، وغرس بذور الطموح والأمل في مستقبل سعيد في نفسه الحازمة، والسعي الجادّ لتحقيق حياة ناجحة مطمئنّة، مغايرة لما تعرّف عليها في نعومة أظفاره.

ولعلّ تلك الأحلام المستقبليّة التي كانت تراود ديدات في طفولته، هي التي دفعت به للالتحاق بوالده في مهجره، وهو في التاسعة من عمره، ليتربى في كنفه تربية قصيرة الأمد، ألقته فجأة على عتبة مواجهة الحياة، ومن ثمّ نزلَ - على مضض - من غير عدّة كافية على ساحة المعركة لمواجهة مصير كانت بالنسبة له أمراً محتوماً لا بد منه، وكأنّه منذ أن تفتّحت براعمه على الحياة لم ينعم براحة البال، سيّما أن يهنأ بطعم الحياة خلاف ما يتحقق في الغالب لأترابه من الأطفال والغلمان. وكان من إيجابيات هذا التطوّر في حياته، أن ترعرع ديدات على العمل، وشبّ على النّشاط والحركة، وتحمّل المسؤوليّة وهو ما يزال دون أوانها بكثير، وهي من الأمور التي ساعدته إلى حدّ بعيد، حين أقدم على العمل الإسلامي، فظهرت ثمارها يانعة في أعماله الوافرة. إنّ هذه النقلة الحياتية السّابقة لأوانها في حياة ديدات الغلام، تنقلنا معه للاطلاع على عامل آخر من عوامل تكوينه متمثلاً في:

---

(1) وليس من المعاد -فيما أرى- إيراد هذه المعلومات هنا، بل إنّما هو من قبيل التفصيل في حينه المناسب بعد سبق الإجمال، ممّا يؤكّد ترابط عناصر الرّسالة، ويوحي بما بين أجزائها من تكامل علمي مطلوب.

ب - مجتمعاتـــه :

قليل من مكوناته ما يُعزى إلى مجتمعه الهندي الأوّل، وهو المجتمع الذي غادره ديدات في وقت مبكر، قبل بلوغ سنّ الانخراط فيه، والتفاعل معه، الأمر الّذي من شأنه أن تكون -حتى- ذكريات طفولته فيه قد انمحت من ذاكرته، وانتسخ من وعيه مع الأيّام القليلُ ممّا لا يُستبعد من أحداث كان قد عاينها. ولم يبق له مع الزّمن سوى تعلّقه به، وشدّة حنينه إليه، وذلك ربّما لمكانة والدته وأخته عنده اللتين فارقهما وهو ما يزال طريّ العود، لم يمهل الأجل أولاهما بعد وداعه لهما. ومن ثمّ ظلّت الفاجعة محفورة في ذاكرته، ماثلةً أمامه طوال لحظات حياته. وبصرف النظر عن كلّ ذلك فللمرء أن يتساءل عمّا يمكن أن يكتسبه صبيٌّ مسلم في مجتمع تغلب عليه ثقافة غريبة عن ثقافة دين أبويه، وينتمي لحضارة مناقضة لتلك الحضارة التي تنتمي إليها أسرة ديدات بحكم العقيدة، والتي كان أخذ هو الآخر في التّزوّد بأساسيّاتها، ومبادئها الأولية.

وبالعكس فإنّ رحلته إلى الباكستان، وإقامته فيها ثلاث سنوات، وقد بلغ مبلغ الرّجال، ممّا لا يمكن إنكار أو إغفال تأثيرها في شخصيّته، وإن كانت الأدلّة العلمية تعوزنا في ضبط نسبة ودرجة تأثره بها، وتحديد ملامح هذا التأثير المفترض، غير أنّ المستند إليه في تقرير مبدأ تأثير البيئة الباكستانية عليه، هو ما عُلِم من إسلامية مجتمعها، ورواج الثّقافة الإسلامية فيه على نحو قد يَنْدُرُ مثيله في المجتمعات الإسلامية الأخرى، غير العربية منها، وفي باكستان وللمرة الأولى من حياته يُخالط مجتمعاً إسلامياً، وينتقل من وضعٍ طالما عومل فيه مع أهله كأقليّة، ليجد نفسه في رحاب مجتمع إسلامي فسيح نابض بالحياة والحركة الإسلامية. وإنّ من الصعب الجزم بأنّ ديدات قد عني بتلقي شيء من العلوم الإسلامية مخصِّصاً لها وقتاً بعينه أثناء إقامته في الباكستان، وخاصّة إذا علمنا أنّ دوافع رحلته إليها لم تكن خارجة عن الدّائرة المهنية، الأمر الّذي يجعلُه منكباً على الهدف الّذي رامه منذ وصوله، فضلاً عن كون اتجاهه نحو العمل الإسلامي لم يكن متبلوراً بما فيه الكفاية في تلك الفترة، ومن ثمّ فإنّ تأثير المجتمع الباكستاني عليه-ربما-ينحصر في التأثيرات

الواقعية غير المباشرة وغير المقصودة، ممّا هي من طبيعة الحياة الإسلامية، وحيويّة النّشاط الإسلامي في هذا المجتمع الزّاخر بموجة الجماعات والتيّارات المتعدّدة، وبقيادة عدد من الشخصيّات الإسلامية البارزة على السّاحتين الفكريّة والدّعوية. ورحلة ثلاث سنوات في تلك الأجواء كفيلة بتوسيع مدارك ديدات الإسلامية، وتطوير ثقافته عن الإسلام والمسلمين، وربّما للتفكير الملح في القيام بواجب الدّعوة والتّضحية بجزءٍ من حياته لخدمة الإسلام في ديار هجرته، وموطنه بجنوب أفريقيا.

وهي البيئة الأكثر تأثيراً عليه من غيرها، لأنه هبط إليها في طفولته وقبل العاشرة من عمره، فتعلّم فيها المرحلة الابتدائية، وسرعان ما وقفت قسوة الحياة سدا منيعاً أمام مسيرته الدراسيّة، عندما أتم المرحلة التي بدأ منها، فعدل عن مسار التعلم-اضطراراً- إلى غيره من المسارات الكسبية والمهنيّة.

وفي هذا المجتمع المتناقض حتّى النخاع، وقف ديدات على ألوان الحياة والأحياء، ولمس عن عمق معاناة المجتمع من جفاف روحي قاحل، وتكالب على ماديّات الحياة، وتعرّف عن كثب على مختلف ألوان التيارات الفكرية والاجتماعية التي كانت تشكل خليط هذا المجتمع المتنافر، وإلى وقتٍ قريب جداً.

ولمّا كان ديدات جزءاً من هذا المجتمع الذي اصطرعت في شخصيته متناقضات ذات وجوه متعددة، فقد اشتوى بنار تحدياته، وأنضجته تجارب أيّامه، ومرارة ظروفه الطبقية البائسة، مما كان لها أثر عليه وهو يُعرّج على الواقع أحياناً بالنقد والتشهير، محاولاً تقويمه وإسعافه بالعلاج القرآني، كيما يضع حداً لتلك المشكلات الخطرة. وتتبدى محاولاته في هذا الشأن في محاضراته، وكتاباته عن الحلّ الإسلامي للمشكلة العنصريّة، وعن الحركات التنصيريّة، وعن أضرار الخمر، والمسكرات عامّة، وموقف الإسلام منها، ورفعه شعار الدّعوة إلى الحوار مع الجميع، بدلاً من العنف والمجابهة الوحشيّة، وغيرها من النشاطات والجهود، التي تكشف فيما تكشف عنه أنّ ديدات كان وثيق الصلة بواقع مجتمعه، لصيقاً به على أشدّه، ولم يكن من النوع الّذي يعيش

منعزلاً في برجٍ عاجيّ دون إعارة اهتمام عملي لهموم الحياة، ومشكلاتها الإنسانية في مجتمعه، وأنّى له أن يغفل عن دوره الاجتماعي الحيّ وهو الدّاعية الكبير من حملة مشعل رسالة الإسلام، ورحمة حضارته للعالمين.

على أن هذا المجتمع حمل له من المكونات في نوعين من النشاط أكثر من غيرهما، والعجيب في الأمر أنهما متناقضان في طبيعتهما، حيث إنّ أحدهما سلبي، والآخر إيجابي، ويتمثل هذا النوع الأخير في تأثير أنشطة دائرة الدراسات العربية على ديدات، وهي من المؤسسات الإسلامية النشطة في جنوب أفريقيا، ولها جهود مشكورة في نشر اللغة العربية، والدّعوة إلى الإسلام، والعمل على تبني كافّة الوسائل الإيجابية المعينة لها في أداء مهمتها، فكانت تستقدم الضيوف المحاضرين، والدّعاة للقيام بجولات علمية ودعويّة في مختلف أنحاء البلاد، وبالأخص في مناطق انتشار المسلمين. كما كانت تنظّم بدورها مهرجانات، وملتقيات عامّة لأبناء الجالية المسلمة وغيرهم، لتزويدهم بما لا غنى عنه من مبادئ تربية وثقافة الناشئة من أبناء المسلمين، بمن فيهم ديدات الذي أفاد كثيراً من حضوره لتلك المحاضرات، والبرامج التثقيفية المنوّعة.

ولعلّه أفاد خارج نطاق الدّائرة من نشاطات إسلاميّة أخرى كانت تظهر من حين لآخر، بتنظيم وإشراف من مختلف فئات الجالية المسلمة، بالإضافة إلى الدروس العامة في المساجد، والخطب، والمناسبات الدينية التي تظلّ من الروافد الثّقافية العامّة للمجتمعات الإسلامية، والهامّة بالنسبة للأقليات المسلمة خاصة .

وكان يعاكس تلك الأنشطة المحدودة من أقلية ضئيلة، نشاط آخر سلبي ينبعث متدفقاً من مصادر صليبية، همها الأكبر هو الوصول إلى تنصير المسلمين، ومحو الإسلام من الوجود. ولهذا الهدف الخبيث تميز هذا التيار بالعنف الجارف، والهجوم الحادّ، والمواجهة الحاقدة بشتى ضروب الأسلحة الفكرية، والإعلامية، والنفسية، وغيرها؛ لبث الشكّ في نفوس المسلمين نحو دينهم، وإغرائهم بالفتات الملوّث من مائدة رسالة المسيح الأصليّة التي كان أكبر مهمة لها التبشير برسول الإسلام عليه

الصلاة والسلام، وبرسالته العالمية الخاتمة.

وكان هؤلاء القوم في مشروعهم الجاد لتنصير المسلمين، يتعرضون لهم بشبهات مثيرة ودعاوى باطلة، لزعزعة ثوابتهم الإسلامية، وبالأخص منهم النّاشئة والعامّة، ممن كان أحمد ديدات أحدهم في تلك الفترة. ومن ثمّ فقد رشقوه بسهام نقدهم التضليلي لدينه، وطعنهم في رسوله الكريم بما يخرج الردّ عليه عن طوق قدرات ديدات وأمثاله من المسلمين العديدين[1]، ممّا جعله لضعف معرفته، وضيق حيلته يستسلم للبكاء لفرط تحمسه لدينه، وهو ما يزال صغيراً لمّا تتوفر له عوامل النضج الانفعالي في تلك السّنّ الشّابة. والواقع أنّ معلوماته عن دينه في تلك الفترة لم تكن تتعدى مجمل أركان الإسلام الخمسة، كما أفادنا بذلك في رواية عنه قائلاً: «كانت معظم تعاليم الإسلام آنذاك مبهمة علي...كنت أقوم بأداء الفرائض الإسلاميّة كما كان يؤديها والدي...كنت أصلي كما كان يصلي...وكنت أصوم شهر رمضان كما كان يصوم...وكنت لا أشرب الخمر ولا أقامر اقتداء بوالدي، ولكنّي لم أكن أعرف شيئاً عن تفاصيل العقيدة الإسلاميّة، ولا أعرف كيف أرد على أباطيل دعاة التبشير، وكنت أشعر بكثير من الضيق والحزن لدرجة أنّي كنت أثناء الليل أبكي ولا أنام إلا قليلاً»[2]. ولا غرو في ذلك، إذ لم ينعم في صباه وفيما تلاها بما توفّر في الوقت الحالي لكثير من أبناء المسلمين بفضل الجهود العربية المباركة من فرصٍ واسعة لتعليم الدّين، والتوسّع المعمق في دراسته بمختلف المراحل الدنيا، والعليا، والأعلى. وبما أنّه لم ينل في حينه، ولو الحدّ الأدنى من المعرفة الإسلامية، فقد كان قاصراً عن مقاومة تلك الاستفزازات التنصيرية المتهافتة، شأنه في ذلك شأن أي مسلم تأسس دينه في شخصيّته على التقليد التربوي، والمحاكاة المكتسبة دون أساس معرفي ثابت، يعصمه من عواصف رياح التضليل العاتية، ويحصّنه من تيارات أعداء الإسلام الحادّة العنيفة، مما

---

(1) والمقصود بهم الكم الهائل من المسلمين ممن لا يعلم إلا القليل عن دينه، ولا تتجاوز قيمتهم انتمائهم الكمي إلى الإسلام، دون وعي نوعي، وتأثير معتبر.

(2) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص8، مصدر سابق.

لا يُستبعدْ معها أحياناً التعرض للاهتزاز وربما الانهيار، عندما تتزعزع تلك المعتقدات المبنيّة على الرمال لاعلى الصخور، وتوضع على محك السّبر والاختيار، في معركة غير متكافئة مع قوى الشرّ والضلال.

وفي هذا الجو المحموم، والمشحون بالعلاقات الإنسانية الظّالمة، ووسط هذا الهول المتلاطم من الصراع الديني، انقشع عن عزيمة ديدات الشّاب ما استحوذ عليه من أدران الخمول والتخاذل، فراح في هذا المضطرب الفسيح من الاتجاهات والصراعات، يبحث لنفسه عن خلاص، يتمثل في الحصول على آليات فكريّة قوية تضمن له إمكانية المقاومة المنتصرة في هذا المعترك العقدي الفظيع في عنفه، وقد بارك الله سعيه، وسدد خطاه إلى ما سوف يؤدي به إلى إحراز انتصارات باهرة حتى تلك التي لم تكن متوقّعة، ولم يكن له مطمعُ فيها قط.

وبذلك فقد استفاد ديدات من هذا التحدي السافر، وبدونه ما كان لينجح في حياته الدّعوية وغيرها بالقدر الّذي تحقق له، وما كنّا من جانبنا لنفكّر في دراسة شيء ممّا يتصل بحياته ومنهجه، إذاً؛ فقد أحسن المنصّرون إليه من حيث أرادوا الإساءة، فدفعوا به منطلقاً من فراغ إلى خط الاستعداد بتنمية مواهبه، وشحذ همّته العالية للمقاومة الغالبة. ولعلّ أمثال هذه التجربة وغيرها من تجارب المسلمين هي التي عناها توماس أرنولد حين عبّر - بأسلوب غير دقيق - بالإسلام مريداً المسلمين بقوله: «تعلّم الإسلام منافع الشّدائد...»[1]. وفي خضم تفاعل ديدات مع هذه المجتمعات كلّها بتموجاتها العرقية والفكريّة، وبطوائفها الدينية والإلحادية، كان يقف مع الوعي بالذّات المسلمة، والحفاظ على الهويّة سنداً قوياً للصمود، والاستمرار في المقاومة. وقد يأخذ هذا الوعي بالذّات في بعض تجلياته بعداً جغرافياً وربما عرقيّاً، إذ يظهر من أحاديثه أحياناً التنبيه إلى أصوله الهندية، وتارة انتماؤه الوطني إلى جنوب أفريقيا، وأخرى إلى حمله للجنسية البريطانية، الأمر الذي يدل على أنّه كان مشدوداً بين التاريخ والجغرافيا، يتنازعانه للاستئثار به، وهو يبذل في ظلّ المعاناة النفسيّة من ضغط

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص469، مرجع سابق.

هذا النزاع قصارى جهده للحفاظ على التوازن بين قطبيها ، وإن كان انتماؤه للجغرافيا بعد انتمائه الإسلامي أقرب إليه ، وأغلب عليه لواقعيّته وحيويته .

ومن اللافت للنظر إلى جانب ما تقدّم من مؤثرات مجتمعيّة . أن قضية الإحساس بالذات والحفاظ على الهويّة ، تميّزت ببروز واضح في حياة ديدات ، ودعوته إلى دينه الإسلامي . ولا سيما حين يتحدث إلى الأقليّات المسلمة من خلال رحلاته ، ولقاءاته . ولا شك فيما للمجتمع جنوب أفريقيا من دور كبير في تعزيز وتنمية هذه الروح ولو من منطلق ردّ الفعل ، كما أنّه في بناء منهجه الدّعوي والحواري خاصة ، تأثّر ببعض المؤثرات المجتمعيّة التي كان لها تأثير بيّن في تبنيه أسلوب الحوار ، وفي تنويعه لمجالات عمله الإسلاميّ واعتماده الكبير على الوسائل الإعلامية الحديثة في نشر رسالة الإسلام ، وغيرها من التأثيرات المتناثرة في ثنايا منهجه وعمله هنا وهناك .

هذا . . وممّا يلي دورْرَ الأوساط المجتمعيّة في تكوين شخصية ديدات ومنهجه تأثيرُ:

2 - الشخصيات الإسلامية العظيمة:

تتصدر شخصية الرسول الأعظم عليه الصّلاة والسلام قائمة الشخصيات التي يُرى أنّ لها أثر في تكوين شخصيّة ديدات ومنهجه الدّعوي ، وكأي داعية إلى الإسلام فقد تأثر ديدات بسيرة الرّسول الكريم ، ومنهجه العام في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ ، حيث إنّه قد درس سيرته العطرة ، وقارن بين نظرة كلٍ من المسلمين وغيرهم إلى شخصية رسول الله ﷺ ، فخرج بصورة ملؤها الإعجاب بأعظميّته على الصّعيد الإنساني . وبما أن دعوة ديدات إلى الإسلام تستمد أصولها ومبادئها من خلال البلاغ النبوي ومسلكه العلمي ، فإن مظنّة تأثره بمن يدعو إلى دين رسالته ، ووفق منهجه ، تظلّ قاطعة ومشروعة ، وخاصّة حين نتذكر أن دوافع ديدات الدّعوية ارتكزت على خلفية الدفاع عن الإسلام ، وتبرئة رسوله الكريم المعصوم عمّا اتهم به من سفهاء القوم ، وأعداء الأمس واليوم . وممّا يذكر إشارة إلى المؤثّرات النبوية العديدة في تكوين ديدات ومنهجه ، تفانيه وإخلاصه للدعوة ، ورحابة صدره في الحوار ، وتركيزه على

الجانب العقدي، وهو جزء من المنهج النبوي الشّامل، والمراهنة بحياته فيما يشبه أسلوب المباهلة، والحركة بالدعوة إلى آفاق العالم تأكيداً على بعدها العالمي، والاستنان بسنّة رسول الله ﷺ في دعوته علية القوم، وقادة الجماعات الدينية في العالم، إلى غير ذلك من المؤثرات النبوية التي لا تدخل تحت حصر حين نستقرئ حياة ديدات، ومنهجه في الحوار والدعوة.

ومن الشخصيات المسلمة التي مارست تأثيراً مباشراً على ديدات، الداعية عبد العليم صديق[1]، الذي زار جنوب أفريقيا سنة 1934 لإلقاء سلسلة من المحاضرات الإسلامية، وكان ديدات ما يزال طالباً، وقد أفاد من تلك المحاضرات الثريّة من علم الشيخ عبد العليم، كما أنّه تأثر بمنهجه وموضوعاته في الدعوة إلى الله تعالى، وظلّ يحمل في نفسه إعجاباً شديداً بهذا الشيخ العظيم، أوحى بشيءٍ منه لقرائه في النعوت التي أطلقها عليه، لتكون بمثابة أو سمة توشيح نادرة لا تضفى إلا على كبار الدّعاة المخلصين لخدمة الإسلام، ومن تلك الأوسمة، والإجازات الدّعوية نعته إياه بـ«سفير الإسلام المتجوّل والملقب بالخطيب، ذو اللسان الفضّي...الخادم العظيم للإسلام»[2]. ومن الميسور والواضح جداً أن نلمس أثر هذا الشيخ على ديدات حتى من خلال النعوت السّابقة، إذ تحول هو الآخر إلى سفير متجوّل حاملاً للناس رسالة الإسلام، كما لمع لسانه القاطع في حواراته مع مختلف المخالفين للإسلام والمسلمين. وبرزت خدمته للإسلام معبرة عن نفسها في كافّة المجالات والجهود التي نشط على العمل في إطارها.

وآخر أنموذج نعرضه للشخصيّات المسهمة في تكوين ديدات، ودفعه نحو منهج الحوار والمقارنة هو المسلم الإنجليزي المسمى بـ«فير فاكس»[3]، وهو ممن أقام حيناً من الزمن في جنوب أفريقيا مسهماً في الدفع بالنشاط الإسلامي، مبصراً المسلمين بالصليبية الحاقدة وأساليب مقاومتها. وقد اتخذ مقارنة الأديان سبيلاً إلى هذه المهمّة، فكان

---

(1) وهو فيما أظن أحد علماء الباكستان، ومن أعلام الدعوة في النصف الأوّل من القرن العشرين؛ إذ لم أقف على ترجمة له.

(2) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص39-40، مصدر سابق.

(3) تقدّم الحديث عنه فيما سبق من مباحث الفصل الثاني، ص: 148 149.

يعقد حلقات أسبوعيّة عن منهجية استخدام الكتاب المقدّس في الدّعوة إلى الإسلام، ومقارعة النّصارى بالحجج الدّامغة، والبراهين السّاطعة من تلقاء كتبهم المعتمدة لديهم. وأرى أن للأستاذ فيرفاكس فضلاً كبيراً على ديدات في تعميق فهمه لقضايا الحوار الديني، وامتلاك فنّ مناورة أساليبه، والمساعدة على كشف وإبراز المطاعن الحسّاسة النفّاذة في الكتاب المقدّس، وإن كان ديدات - فيما يلي - يقلل من أهميّة هذا التأثير، إلاّ أنه ليس محلّ إنكار في حالة إنصافنا للرجل، ولعل قصر المدة التي غطاها في هذا العمل الحواري البنّاء، هو الذي حجب الستار عن تأثيره الهام، وحسبُه فضلاً أنّه فتح لديدات خط العمل المستمر في هذا المجال، وأتاح له فرصة النيابة عنه في القيام بما كان يقوم به، مما كان الجمهور المسلم في أشد الحاجة إلى أمثاله. ومن ثمّ وجد ديدات خلال السّنوات التي خلف فيها فيرفاكس في دروس المقارنة الأسبوعية متّسعاً لمواهبه، وتعبئة لقدراته في مجال الحوار الديني، فكانت تلك السّنوات بمثابة كليّة تخصصيّة تخرّج منها ديدات متدرباً بالمنهج التطبيقي على نقد الكتاب المقدّس، وعقد حوارات مع أصحابه ممن يدافعون عنه، ويروّجون لعقائده وتعاليمه، إلى جانب اكتسابه جمهوراً دائماً يواجهه أسبوعياً منمياً شجاعته الأدبية في فنّ مواجهة الجماهير ومخاطبتها، ولعل ثباته واتزانه في محاوراته، وحفاظه على هدوئه النفسي في محاضراته مهما بلغ جمهورها من الآلاف، من أوفى الأدلّة على إفادته من المسلك الجديد الذي دشّنهُ المعلّم «فيرفاكس»، والذي قال ديدات في مواصلة لما بدأه: «ويوم الأحد من الأسبوع الثالث اقترحت عليهم أن أملأ الفراغ الذي تركه السيّد «فير فاكس»، وأن أبدأ من حيث انتهى السيد«فيرفاكس» لأني كنت قد تزوّدت بالمعرفة في هذا المجال، ولكني كنت أحضر دروس السيّد فيرفاكس لرفع روحه المعنويّة»[1]. ومن الأسئلة التي تواجه ديدات في هذا المقام: هو مادام أنّه كان قد تزوّد في هذا المجال فما الّذي منعه من التّصدي له قبل اقتراح فيرفاكس القيام به؟ علماً بأن ديدات أَوْلى بهذا الواجب، وأدخل في مسؤوليته من زائر عابر؟!.

---

(1) هذه حياتي: ص21-22، مصدر سابق.

وفضلاً عن تأثيرات الشخصيّات الإسلامية العظيمة على شخصيّة ديدات ومنهجه، توجد تأثيرات موضوعيّة أخرى من نوع آخر، كان له حظه إلى جانب ما سبق في توجيه ديدات شخصيّةً ومنهجاً، وإسعافه بالأساسيات اللازمة لتكوينه، ونجاح عمله. ويظهر هذا النوع في تأثير ما يلي:

3 - الكتب والمطبوعات الدينية:

علمنا في السّابق أن ديدات استقى منهجه الحواري من القرآن الكريم، واعتمد على كتاب إظهار الحقّ في طريقة مناقشة أهل الكتاب، وقد أفاد من هذين المصدرين أكثر من أي مصدر آخر، وإلى هذا التأثير بالكتب نشير إلى:

أ - القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي الذي عبّ ديدات من معينه جوهر منهجه، ونظم من دُرَرِهِ النّفيسة مختلف عناصر النهج الّذي سار عليه في حواراته. وتتبُّع ديدات في منهجه، وكافّة أعماله ممّا يوحي للقارئ بدقة استعانته بالقرآن الكريم في نصوصه، وبتراجم معانيه، ويكشف عن تركيز خاص على آيات وموضوعات الحوار الديني فيما عرض لها من حوارات، وألقاها من محاضرات. ومن اليسير جداً الوقوف على مظاهر التأثير الناتج عن تغذية القرآن لفكر ومنهج ديدات كغيره من الدعاة عامة. وكان مرشحاً لتلقي مزيد من أنوار القرآن المؤثرة لو لم يحل ما يعانيه من حاجز لغوي دونها، وهو ما جعله يتوسّط بالتراجم إليها، دون التمكن الكافي من الورود المباشر. وبهذا فقد كان للقرآن تأثير هائل عليه سواء في حياته، أم في دعوته وحواراته.

وكفى بمنهجه دليلاً ساطعاً على هذا الأثر القرآني في تكوينه وصياغة منهجه. وقد أفرد للحديث عن القرآن أحد كتيباته بعنوان: «القرآن معجزة المعجزات» عكس فيه سمو نظرته إلى القرآن الكريم، ومكانته العظيمة عنده في مجال الحوار مع شتى الأطراف، والانتماءات غير المسلمة.

ب - كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي :

ولعلّه الكتاب الوحيد الذي عُرف ديدات بتأثُّره به عند معظم القلائل في العالم الإسلامي، ممن عرف عن ديدات شيئًا علمياً، مما يندرج في إطار الثقافة العامة. وفي أغلب القليل الّذي وقفت عليه من حديث عن ديدات وتجربته في العمل الإسلاميّ، ورد التعريف به مقروناً بالحديث عن تأثره البالغ بكتاب إظهار الحقّ، ومن ثمّ يتهيأ القول بما مؤاده: لئن كان ديدات قد تأثر بكتاب إظهار الحق، وأفاد منه إفادة عظيمة، فإن له هو الآخر فضلاً على الكتاب، في التعريف به، وتوجيه الأنظار إليه بعد أن عمل أعداء الإسلام - فيما أظن - على تغييبه وإبعاده عن ساحة الفكر، والدعوة، ومن ثمّ أصبح القليل من المسلمين هو الذي يعرف الكتاب وأهميته بماله من قصة طويلة وطريفة، سنعرض لطرفٍ منها في حينه.

ومما لا مراء فيه أن لهذا الكتاب تأثيراً جمّاً على شخصية ديدات، ومنهجه الحواريّ، إذ كان وقوفه عليه في مرّته الأولى ثورة فاصلة في حياته، ومحطة انطلاق نحو مستقبل يقوم على خدمة الإسلام، والدعوة إليه، بالاعتماد المتميز على المنهج الحواريّ أكثر. ومنذ أن تعرف على الكتاب في شدّة ظمئه إلى شيءٍ من قبيله، ونال عنده من القبول والحظوة ما ناله، عكف على مطالعته، متشرّباً من معلوماته وأسلوبه، لتنشأ بتأثيره في شخصه ملكة الحوار والمناظرة، بعد أن اجترّ أفكاره ومنهجه الحواريّ، وبذلك أخذ يشق طريقه على دروب الحوار الديني بخطوات بطيئة، ولكنّها كانت واعدة بالخير، ومبشرة بالانتصار. وإنّ صلته بالكتاب تعود إلى ضرورة ظرفيّة وعملية أكثر منها دوافع علميّة مجرّدة، إذ «كان كل من حوله، وكل ما حوله يحفزه على البحث والاطّلاع فيما يتعلّق بالدين والعقيدة، وكرّس «أحمد ديدات» نفسه وتخصص في دراسة تُشبع نهمه فيما يتعلّق بمعرفة أسرار العقائد والأديان، فتوجّه إلى دراسة مقارنة الأديان..»[1]، تلمّساً الإجابة على أسئلة كثيرة كانت تتصارع في

---

(1) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص9، مصدر سابق.

ذهنه، يجمعها سؤال مركزي ملح قوامه: ما السبيل الحواريّ إلى مقارعة المنصّرين بسلاح الفكر والمنطق؟ وكيف يمكن التغلب عليهم، وردّ كيدهم في نحورهم؟.

وفي خضم الحيرة، وتحت ضغوط المعاناة النفسية لم يجد ديدات بداً من الاستنجاد بمحصّلة القراءة، والبحث الدائب عن المكتوب المنشور في هذا المجال، فوجد إسعافاً له في رغباته الكامنة في القراءة والتعلّم، ومن ثمّ لعبت تلك الرغبات المحرومة دورها البارز في هذا الشأن، فجاءت عنايته بكتاب إظهار الحق، وإفادته منه وليدة دوافع علميّة وعمليّة عميقة الغور في نفسه، فلذا ظهرت قراءته له ولغيره من المؤلّفات التي تبين معالمها في عديد من جوانب فكره، ومنهجه، حبلى بالنتائج المتوخّاة من ورائها، ومن تلك الكتب التي لها أيضًا تأثير لا ينكر على ديدات وتطعيم لفكره ومنهجه، كتابا «خرافة الصّليب» و«الكتاب المقدّس كلام الله أم كلام إنسان» اللذان قال في حقّهما: «إن الحاج أ. د. جيجولا في كتابه «خرافة الصليب» يعطي عرضاً محكماً عن الشرور والضلالات التي يحتويها الكتاب المقدّس جنباً إلى جنب مع «خرافة الصّليب»، وباختصار يشتمل الكتاب «خرافة الصليب» على عموم أخطاء المسيحيّة، ولا يستطيع طالب مقارنة الأديان أن يتصدّى للحوار دون أن يقتني هذا الكتاب، وكتابًا آخر هو» الكتاب المقدّس كلام الله أم كلام إنسان» لمؤلّفه أس. دك. جومال»[1]. وقد أنشأ ديدات على غرار الكتابين، وفي ضوء تأثره بهما كلاً من كتابه: «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء»، وآخر بعنوان: «هل الكتاب المقدّس كلام الله». وإنه لجليّ ما بين العناوين من استيحاء وتطابق، وعليه فإنّ هذه الكتب القيّمة بالإضافة إلى غيرها تعدُّ معالم بارزة، ونُصُبًا هادية في مسيرة ديدات الحوارية لها تأثيرها البيّن على فكره ومنهجه، وإليها يعود بعد الله تعالى الكبير من الفضل في حسمه الصّارم للحوارات الدينية لصالح الإسلام والمسلمين.

ومع ذلك فإننا نخلص هنا إلى ما لابد من تأكيده فنقول: ولئن كان ديدات قد استفاد واعتمد في حواراته على عدد من الكتب الأصيلة والدخيلة في مجال الحوار

---

(1) هل الكتاب المقدّس كلام الله، 2ص206، مصدر سابق.

والمقارنة، فإن لكتاب إظهار الحقّ مقاماً متميزاً في حياته، وعمله، وتقديراً خاصاً في نفسه، وكان لا يتمالك عن الإبانة عن ذلك كلّما دعا داعٍ إلى الحديث عن سيرته، وعرض تجربته في مجال الحوار والدّعوة على الآخرين.

ورغم كلّ ما يمكن أن يسند من تأثير عظيم لكتاب إظهار الحق على حياة ديدات ومنهجه، فإن من الخطأ واقعياً وعلمياً ما صاغه أحد الباحثين بهذا الشأن قائلاً: «وأما اعتماده الكلي في كل حواراته فكان على كتاب «إظهار الحقّ» والسبب في ذلك هو تشابه القضايا والمواضيع التي يحتويها الكتاب مع الكثير من الموضوعات التي طرحتها حوارات الشيخ ديدات مع المسيحيين»[1]، وعذره في مبالغته أنّ قوله متضارب في حدّ ذاته، إذ لا ينسجم أوله مع آخره، فضلاً عن أنّه باحث عارض في هذا الشأن، وليس متخصصاً حتى تصدر أحكامه عن عمق ودراية، وينقل عنه كمرجع معتمد فيما أفتى فيه.

وإلحاقاً بما سبق، فإنّ من تمام التصوير المتكامل لمكوّنات ديدات ومؤثراته، الرجوع من غير إطالة إلى المكونات الذّاتية التي كان لها أثر كبير في توجيهه العلمي، وتشكيل ما ائْتَلَفَ لديه من عناصر منهجيّة، وذلك حتى لا يخطر لأحد ببال أنّنا نقلّل من أهميّة تلك العوامل الذّاتية التي يسوغ لنا تصنيفها إلى صنفين رئيسين على النحو اللاحق:

أ - المميزات الشخصيّة [2]:

اجتمع في ديدات عدد من المميزات الحميدة كان لها أثر في بناء شخصيّته، ونجاح حياته الدّعوية، ومن أبرز تلك المميزات طموحه بلا حدود، حيث إنه يتمتع بنفسٍ طموحة وإرادة صادقة، دفعت به تلك الطموحات وهذه الإرادة في مختلف مراحل حياته إلى السعي وراء معالي الأمور وأعزّها، متغاضياً عن السفساف منها، بفعل ما جبلت عليه شخصيّته من عزة النفس، وإباء كلّ هوان ومذلّة، إذ كان حلمه في تحقيق

---

(1) الحوار الإسلامي المسيحي، ص232.

(2) نشير إلى أن الحديث اللاحق، وإن كان لا يخلو من تكرار بعض ما سبق من أجل تحليله ومعرفة موقعه في المركب التشكيلي لشخصيّة ديدات الدعوية، فإنه بحكم هذا التعليل يعدّ مما لا يمكن تفاديه ؛ إذ لابد منه في هذا المقام.

حياة سعيدة له ولأهله من أقوى الدوافع التي شحذت همته للتفوق والظهور في كافّة ميادين حياته، وقد جاء حرمانه من الدراسة وهو في أشد الشوق إليها عاملاً حاسماً في تنمية طموحاته النبيلة للتعويض عن خسائر هذا الحرمان في مجالات أخرى.

وبفضل ما امتاز به من طموح لا يعرف حدوداً أو تبخُّراً أمام العقبات، استطاع عن طريق المغامرة أن يقحم نفسه في عداد أكبر وأبرز رموز الحوار الديني في تاريخ المسلمين على مرّ العصور، مع أنه في مطلع حياته كان من أبعد الناس عن استحقاق شرف تاريخي من هذا القبيل، إذن بهذا الطموح السّامي، سما ديدات في آفاق الحوار والدعوة، بعد أن تكلل سعيه بنجاح باهر مشكور، وبدون ما يقال عن طموحه ما كان ديدات ليهيء نفسه لهذا العمل، فضلاً عن تميزه بمنهج ممتاز، ومسلك فريد، على أن هذا الطموح لم يكن يتيماً منفرداً، وإنما كان مسَانداً بميزة أخرى في شخصية ديدات هي «الجدية الدافعة والعمل الشريف». إذ يتضح بكل سهولة ويسر للناظر إلى حياة ديدات، ومجالات عمله الإسلامي مدى ما اتسمت به شخصيته من جديّة ساهرة، ونشاط جمّ، وحب وإخلاص لكل ما هو عمل شريف وخيّر، وإن مختلف نشاطاته من بدايتها تعكس صادقة ما كان يتمتع به من روح جادّة، وحب أصيل للحركة الهادفة، والنشاط الدّائب المثمر. ولعلّ تلك الأيّام الأولى التي قضاها من حياته متنقّلاً بين مواقع العمل من محلات، ومصانع، كانت ذات دور كبير في تنمية وتعميق هذه الميزة في نفسه، وقد وعى أهميتها فنمّاها، واستوظفها في دعوته وحواراته.

فقد طبع ديدات بعزْمه الوقّاد ما عاشه من نشاط إسلامي في مختلف تفرعاته وأشكاله، وحاول من جانب آخر تسريبه إلى كافّة شركائه وأعوانه، وبالأخص فيما يظهر من خلال تنظيمه لمركزه الدّعوي من جديّة النشاط والحركة في وحداته المختصّة وعناصره العاملة، كما أن هذه الجديّة غالباً ما تنتقل معه إلى منابر المؤتمرات، حتى إذا ما أخذ في الحديث والمداخلة، أتاح لها الفرصة لمعاتبة الآخرين، وإغرائهم للتنافس عليها باعتبارها غالية، وعصيّة المنال. وبالإضافة إلى هذا وما قبلها يمثل «حبّه لدينه وتفانيه في خدمته»، سنداً ظهيراً لشتى مكوناته الذاتيّة، وقد عرف -بلا مراء- بغيرته

على دينه، وتحمسه الرشيد للدفاع عنه، والتفاني في خدمته بكل ما من شأنه أن يعلو بنيان ظهوره وانتشاره. فكان ديدات المعاصر أحد القلائل ممن تشربوا روح الدين الإسلامي، وتذوقوا جمال قيمه، ونعموا بصحة ووضوح عقيدته، ومن ثمّ انبروا للدفاع عنه بنصره، ونشره. وقد عمل كلٌّ من حبه الأصيل لدينه، وتفانيه في خدمته، دوراً متكاملاً في الدفع به إلى صرف المزيد من الجهد والهمّة في سبيل تكوين شخصيته الدّعوية، وتعزيز صرح منهجه بالتطبيقات المتواصلة على الدوام، الأمر الذي كان من نتائجه إحكام سيطرته على تطبيقه للمنهج، ونبوغ كفاءته في إجراء المحاورات الدينية، إذن، فلولا حبه لدينه ما كان ليتفانى في خدمته، ولولاه أيضًا ما شغل نفسه بالدفاع عنه بمنهج متميز تحمَّل من عناء تشكيله، وممارسته ما لا قبل للآخرين به ممن لا يجدُّون في سبيل ذلك، ولا يهتمّون به.

ب - التجارب الشخصيّة :

وتنقسم إلى تجارب شخصيّة محضة، وأخرى مقتبسة من الآخرين، استفادها ديدات من خلال رحلاته وتنقلاته فأضافها إلى مكونات شخصيته الدّعوية، وغذّى بها فكره الحواري. ومن الأمثلة على ذلك: أنّه قابل في زيارة له إلى أستراليا بعض سكّانها الأصليين ممن يعيشون في أماكن منعزلة، ووقف على مقياسهم البسيط لاختبار فكرة الألوهيّة، والذي يقوم على تنزّه الإله عن الأكل وعن كلّ ما يترتب عليه، فتأثر ديدات بهذه الفكرة التي نالت إعجابه دون أن ينتبه إلى ورودها في القرآن الكريم[1]، فاقتبسها بشهادة الأستاذ علي الجوهري على ذلك في قوله: «وأعجبه هذا المقياس للألوهيّة عند أحد القبائل البدائية للسكان الأصليين بقارة أستراليا، وضمّن هذه الفكرة واحداً من كتبه الصّغيرة الحجم بعنوان: ما اسمه جلّ جلاله؟»[2]، والأهم عندنا في هذا الأمر أنه يقدم أنموذجاً واقعياً لما عند ديدات من استعداد دائم للإفادة من مختلف الأفكار والثقافات،

---

(1) وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: 75].

(2) مناظرة العصر، ص17، مصدر سابق.

التي من شأنها إثراء أفقه الحواريّ بالبراهين والحجج القويّة البسيطة. وليس ببعيد عن الصّحة أن يكون قد استفاد من أفكار الآخرين وأعمالهم، في كل رحلة من رحلاته العديدة جداً والتي اتجهت به -مجملاً- إلى جميع أنحاء العالم.

وأمّا تجاربه الشخصيّة المحضة التي تفتقت عن خبراته العملية وممارساته السّابقة، لها فلها هي الأخرى دورها في التكوين والتأثير. لأن من طبيعة الإنسان العاقل الاستفادة من رصيد تجربته، ولا سيّما عندما تكون هائلة كتجربة ديدات وخبراته. وتتراكم تلك التجارب والخبرات الشخصيّة لتُشكِّل رافداً من روافد تكوين الشخصيّة، وعاملاً من عوامل التأثير على بناء المنهج ونموه من خلال عمليات مراجعة تطبيقاته وتقويمها.

وتتجلّى أوجه تأثير هذه التجارب الشخصية المحضة عليه، في توسّع نشاطه، وتحسن أدائه الحواري، وفي عمق معرفته بالطرف الآخر عقيدة وتاريخاً وواقعاً، إلى جانب سعة دائرة اطلاعاته المنمية لثقافته في مجال الحوار الديني، بمختلف قضاياه وموضوعاته. وقد استخدم في حواراته، وفي دعوته عامّةً، أهم ألوان ثقافته في جوانبها المتعددة: من ثقافة إسلامية، ولغويّة، وتاريخيّة، وواقعيّة، ودينيّة بعامّة، بالإضافة إلى العلميّة والإعلامية والتي تشكل في جملتها مكاسب حياته الدّعوية، تلك المكاسب التي أسهمت بدورها في تمتين تكوينه وتعزيز فاعلية منهجه الدّعوي الحواريّ.

والحديث عن دور تجاربه في تكوينه فكراً ومنهجاً، يذكّر بواسع خبرته في مجال الحوارات التي قامت على سلسلة من التدريبات، والممارسات المتراكمة عبر عقود من السنين، فكانت بذلك إحدى الروافد الهامّة في تكوينه، وتنمية معلوماته، ومنهجه الحواري مقاومة ومبارزة.

وإلى بعض ما سبق من مؤثرات عليه، أشار الأستاذ الجوهري في حالة من عدم التثبت قائلاً: «ربما كان لطبيعة تكوينه الثقافي، وسعة اطلاعه، واللغة الإنجليزيّة التي يجيدها كلغة أصليّة أثره في تفرّد أسلوبه الفكري، وجدة منهجه في الدعوة إلى العقيدة، وربما كان للوسط الّذي نشأ فيه، وتفاعل معه في جنوب أفريقيا أثر أيّما أثر في

ذلك» [1]. وبالتأكيد فإنّ شخصيّة ديدات قد نمت تحت تأثير كل ما أسلفنا من مكونات ومؤثرات، مما ساعد على تشكيل الوسط والظروف الملائمة لهذا النّمو، وفي ضوئها كذلك برزت جهوده، واتسق منهجه في مجال الحوار والدعوة. فكان لكل من شخصيته ومنهجه متلازمين - بعد أن تفيّأا ظلال تلك المكونات والمؤثرات - دويٌّ هائل، وصدى واسع ومؤثر في الدعوة إلى العقائد، وفي عالم الحوار والمناظرة حولها. مما سنتطرّق إلى بعض جوانبه وآثاره فيما أقبل من مبحث أخير لهذا الفصل.

❖ ❖ ❖

(1) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص186.

المبحث الثالث

صدى حواراته في عالم الاعتقاد والدعوة

مثلت أنشطة ديدات الدّعوية في جملتها، - وبالأخص الحوارية منها - حدثاً هائلاً في دنيا الاعتقاد، وواقع الدّعوة، لأنّها هزّت بمنهجها الفريد كلاً من العالم الإسلامي، وغير الإسلامي، فتشكّل لكل فريق منهما إزاء الرجل ومنهجه الحواريّ موقف واهتمام متباين، حيث إنّه بجهوده المشكورة، قد بثّ في الحركة الدّعوية روحاً جديدة، وأضرم في مقابل ذلك في نفوس القائمين على الفكر والحركة التنصيريين نار الحقد والقلق، مما أثار توجّسهم ومقاومتهم لهذا المنهج العاصف بمبادئهم، بالإضافة إلى تهديده - وهو الأهم - بتدمير مصالحهم الماديّة، وزعزعة مكانتهم الرُّوحيّة.

وعلى الرغم من أهمية مختلف أنشطته الدّعوية، إلاّ أنّ لحواراته مكانة خاصّة، وتميزاً ملحوظاً عن غيرها. وإلى هذا التميّز يعود الفضل في تميّز ديدات نفسه، وإشراق شمس مجده في الآفاق، وما ترتب على ذلك من شهرة واسعة، وسمعة طيّبة مقرونة بالإجلال والتوقير، ولعلّ البعض يميل في تحديده لمنطلق بروز ديدات شخصاً ومنهجاً كظاهرة عالمية إلى التركيز على أشهر مناظراته المتمثلة في تلك التي أجراها مع القس سواجارت، حيث ذهب الدكتور عبد الجليل شلبي إلى مفاد ذلك حين كتب يقوله: «أصبح هذا الرجل ديدات ذا اسم وصيت ذائع بسبب المناظرة مع القس الأمريكي جيمس سواجارت -J-SWAGGART، وقد أدرّت عليه أموالاً طائلة»[1]. أجل لقد كسب عَرَضاً كلاً من الجاه والمال حين ترفّع عن كليهما، متجهاً بصدق وإخلاص إلى خدمة عقيدته وأمّته.

وفيما يخص تأثير المنهج الديداتي في الحوار الديني على الفكر الصليبي، وحركة نشره، فيمكننا رصد نوعين متغايرين من ردّ الفعل، أحدهما إيجابي، والآخر سلبي، وتحت النوع الأول من التأثير الإيجابي لحوارات ديدات يندرج مضمون قوله في إحدى المناظرات: «دعني أخبرك أن كثيراً من علماء المسيحية قد أخبروني بصراحة، أن الإنجيل ليس وحياً إلهياً مباشراً»[2].

(1) معركة التبشير والإسلام، ص186، مرجع سابق.

(2) مناظرتان في استكهولم، ص25، مصدر سابق.

إنها لمعلومة خطيرة يدلي بها ديدات، وهي كافية في حدّ ذاتها لإلجام الصّاخبين النّاعقين بعقيدة ما أنزل الله بها من سلطان، إذ الاعتراف سيّد الأدلّة، وحسبُ ديدات تأثيراً إيجابياً سحبه هذا الاعتراف الصريح منهم بالحوار العلمي المقنع دون غيره، مما لا يجدي في هذا الشأن. ولعل تأثيره متضافراً مع غيره هو ما ساق أكثر من نصف أساقفة إنجلترا في ثمانينات القرن العشرين إلى تبني موقف رافض لعقيدة ألوهيّة عيسى عليه السّلام. الأمر الّذي بسببه اجتاح بريطانيا جدل لاهوتي هائج ثائر، مما أفادت بنبئه في حينه صحيفة الديلي نيوز الصادرة بجنوب أفريقيا بتاريخ 25/ 6/ 1984م. فيما نصه: «إن أكثر من نصف أساقفة إنجلترا الأنجليكيين يقولون: إنّه لا يلزم النصارى أن يعتقدوا أن المسيح عيسى هو الله، لقد تمّ استفتاء 31 من 39 من أساقفة إنجلترا، فأنكر معظمهم ضمن أشياء أخرى ألوهيّة عيسى عليه السلام، وقيامه من الموت، وهم بذلك يهددون عقيدتين من أكثر العقائد أساسيّة في المسيحيّة، ويعزون هذه التّصورات العتيقة إلى انعدام الدّقة في الكتاب المقدّس»[1]، ولاشك فيما للمنهج الحواري الذي حظي بعناية الأسلاف من علماء المسلمين، والذي تركز عليه عمل ديدات من دور مركزي في تحقيق تنازلات عقديّة من هذا القبيل في الفكر الصليبي الكنسي، وهو ما نجد له تأكيداً في رأي الأستاذ محمد بنا القائل: «إنّ ما نراه اليوم من تقبّل قسيسين بارزين لوجهة النظر الإسلامية فيما يتعلّق بمكانة المسيح عليه السلام الحقيقية هو بالفعل جزاءً وفاقاً على جهود لاتكل، ونتيجة الدّعوة الإيجابية العاقلة لعلماء علم الكلام المسلمين، وعلماء واسعي المعرفة في مقارنة الأديان على مر العصور»[2]، وبفضل تلك الجهود الحواريّة الصّادقة طرأت تطورات هامّة في الفكر الصليبي مالت به في الظّاهر والمعلن نحو عقيدة التوحيد، مع إضمار وإسرار ما توارثته الأجيال من الاعتقاد بفكرة التثليث الغامضة المستعصية على المنطق والفهم السليمين. وقد لاحظ الدكتور علي عبد الواحد وافي هذا التناقض القائم بين المعلن والمضمر في

---

(1) نقلاً عن كتاب أحمد ديدات: أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهيّة المسيح، ص23-24، ترجمة محمد مختار في سلسلة مكتبة ديدات، ط، دار المختار الإسلامي، القاهرة- مصر.

(2) المصدر نفسه، ص22-23.

الفكر الصليبي المعاصر على نحو واضح من الازدواجية المتنافرة فكتب يقول: «ولا تجد الآن أيّ كنيسة مسيحية ولا أيّ فرقة من المسيحيين لا تقول بالتثليث، ولكنهم جميعاً مع ذلك يتسترون وراء كلمات التوحيد، فيقولون: «تثليث في وحديّة»، أو «وحديّة في تثليث» مع أنه لا يمكن أن يكون التثليث وحدانيّة، والوحدانيّة تثليثاً: «لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد»[1].

هذا.. فطالما وجدت من الطرف الآخر الصليبي قابليّة التمويه والإيهام واللبس بعقيدته، وإعلان ما يخالف معتقده، حياءوتستراً، فإن ثمة فضلاً كبيراً يرجع في ذلك إلى ما تعرض له على أيدي المحاورين المسلمين ومنهم ديدات من مضايقات وإلْزامات، لم يجد بدّاً منها غير الممالأة، وإظهار العقيدة القريبة من الصحّة. وهو ما يعطي الدارس مبرراً للقول: بأن منهج ديدات الحواري كان ذا أثر في زعزعة معتقد الطرف الصليبي، متمثلاً في أكبر وأبرز أساقفته من الإنجليكانيين، ومن ثم يتأكد اعتقاده بأن للحوار الديني بين المسلم وغيره ما يمكن أن يقدمه من نتائج إيجابيّة عندما يكون مبنياً على أسس صحيحة، من المعرفة الكافية، والمنهجيّة العلميّة السليمة، وأخلاقيات الحوار وآدابه السامية.

والدليل على ذلك ما أسفرت عنه إحدى مناظراته عن المسيحية والإسلام من انطباعات طيّبة لدى جمهورها، حيث إنّها قد أسهمت نوعيّاً في إزالة سوء الفهم، والجهل العام لدى الطرف المسيحي بعقيدة الإسلام والمسلمين عن المسيح والمسيحيّة الصّحيحة، مما قاد ديدات إلى إبداء الملاحظة الآتية: «إن أكثر من 90٪ من الذين شهدوا هذه المناظرات قد اندهشوا وملأهم السرور إلى أقصى حدّ. ويبدوا أنهم لم يصدّقوا آذانهم، وربما ظنوا أن المسلمين ربما كانوا يتملّقون، وأنّهم كانوا يجاملون رفاقهم المسيحيين، وربما ظنّوا أن المسلمين حينما يقولون كلمة طيبة عن عيسى، فإن المسيحيين في مقابل ذلك ربما يقولون كلمة طيبة عن محمد، وتكون المسألة على هذا

---

(1) الأسفار المقدّسة، ص128.

النحو مسألة غش وخداع ومجاملة متبادلة»[1]. إن هـذا الجهل العام الذي تأسس، وترسّخ بفعل التعصب الموروث، وتراكمات الجفاء والتوتر التاريخية بين الطرفين المسلم والصليبي، ليس له أفضل وأفعل من الحوار، مما هو مرشح لتجليته، والقضاء عليه؛ ببناء فهم صحيح وتصور سليم لدى الطرف الآخر عن موقف المسلم، من عقيدته ورسوله الذي يدعي الانتماء إليه. وليست كالحوار وسيلة في الكشف عن الصورة المثلى لعقيدة الإسلام وتعريف الآخر بها. كما حاول ديدات القيام به إلى حدٍ ما. فكانت لمحاولاته أصداؤها وتأثيراتها الرسمية والشعبية إيجاباً وسلباً، في أوساط المسيحيين. وإلى شيء من هذا أشار أحد الباحثين بالقول: «وكان لحوارات الشيخ ديدات أثر واضح بين المسلمين والمسيحيين، إذ إنها أحدثت هزة كبيرة في مشاعر ووجدان وعقيدة المسيحيين الذين اطلعوا على تلك الحوارات، والنتيجة كانت إسلام أكثر من 700شخص في مختلف بقاع العالم»[2]، وقد ترتب بالمقابل وكردّ فعل سلبي على هذا التأثير أن ترصّد له الأعداء من كل جانب، فأخذ بعض رجال الفكر الصليبي في متابعته، والاهتمام بما يقوم به من أنشطة دعويّة، وفكريّة. وربما تجاوزوا حدّ المتابعة السّاهرة عامدين إلى الاختلاق والتزييف عليه، بنسبة ما من المؤلفات هو بريء منها، كما حدث له ذلك في السويد إثر مناظرته لكبير قساوستها، عندما طالع هذا الأخير الجمهور الشاهد بكتاب منتحل يدّعي نسبته إلى ديدات، لغرض إثارة عداوة عامّة المسيحيين ضده، وتأليبهم للتصدي بما يقوم به، أو الحذر من التأثر بما يقوله على الأقلّ، ولكنّ ديدات قد ردّ عليه حين جاء دوره في الحديث قائلاً: (ولقد قمت يا باستراستانلي بعمليّة خداع، لقد أظهرت للناس كتاباً وزعمت نسبة الكتاب إلي، وأنت تقول إن أحمد ديدات قد قام بتأليف هذا الكتاب، وأنا أقول هذه أكذوبة مفتراة، أنا لم أكتب مادة هذا الكتاب ولم أُمْلِهَا على أحد. إنّ غلاف الكتاب مكتوب عليه «وفق آراء أحمد ديدات» . . . وليس «تأليف أحمد ديدات»...إنّ جميع كتبي

---

(1) المسيح في الإسلام، ص10، مصدر سابق.

(2) الحوار الإسلامي المسيحي، ص232، مرجع سابق.

مكتوب عليها «تأليف أحمد ديدات»[1]، إنّ هذا الدسّ الساذج ينم عن أسلوب معيب من أساليبهم الخسيسة في مقاومة الحق، وتشويه جهود رجاله الصادقين المخلصين، لإضعاف وتطويق تأثيرهم؛ بإثارة الشبهات حول ما لا يروق لهم من أعمالهم الصالحة، وقد فضح ديدات الرجل، وكشف أمره بما هو أنكى مما أراده به من أذى، وكفى بالله حفيظاًوكيلاً .

ومن جانب آخر حاول بعضهم الافتراء عليه زوراً وبهتاناً، والتقول عليه بما لم يقله في مؤلفاته، وذلك للتنفير منه، وصرف أتباعهم المستغفلين عن التأثر بأقواله، وحواراته المقنعة، عن طريق إيهام هؤلاء الأتباع بأن أفكار ديدات متناقضة في الموضوع الواحد فيما تكشف عنه المقارنة بين كتاباته، ومن ثمّ فهي أبعد من أن يسلم بها ذو العقول السليمة الرّاجحة، وقد أورد ديدات أنموذجاً ممثلاً عن هذا التيار، في أحد كتبه قائلاً:

> ومتعصب آخر يدعي أنه محامي من حيث المهنة، يشد أزر زميله المبشر الأمريكي بأكذوبة أخرى، يقول على صفحة 120، من كتابه المعنون بعنوان: «الإسلام يناظر أو يجادل»، يقول: إن ديدات قد أثار في الأيّام الأخيرة ضجّة بالغة بنشر كتيب له بعنوان «من حرّك الحجر؟»، وفي كتابه ذاك يذهب إلى أن الحجر الذي كان يغلق باب مقبرة يسوع كان قد حرّك بيدي اثنين من أتباع يسوع الفريسيين. . . لكنه في كتابه المعنون بعنوان: «هل تم صلب المسيح؟»، يذهب إلى أن امرأة خارقة للعادة «25» مفترضاً أنها مريم المجدليّة. كيف لمبشر مسيحي ومحامٍ عن القانون أن يكذب؟ ولكي يحظى بثقة ضحاياه يشير إلى رقم الصفحة «25»[2] . . .

وبهذا يتبين أن هؤلاء القوم لا يتورعون عن الكذب والتزييف طالما كان يجلب إليهم منفعة دنيويّة عاجلة، أو يدفع عنهم مضرّة مصلحية، ولا غرو في ذلك إذا علمنا

---

(1) مناظرتان في استكهولم، ص142، مصدر سابق.

2)) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص: 156 157 .

أن منهج ديدات الحواريّ قد بات يهدد مصالحهم الماديّة، ويكشف للآخرين حقيقة ما هم عليه من ضلال، وخداع، وفساد، حيث انخفضت التبرعات والهبات التنصيرية التي كانت تقدم إلى القس سواجارت الأمريكي من نصف مليون دولار يومياً إلى ثلاثمائة وخمسين ألف دولار، على إثر الفشل الذريع الذي مني به في مناظرته لديدات، وما تبعها من هزيمة أخلاقية نكراء تمثلت فيما ضبط متلبساً بها من فضائح أخلاقيّة مُميتة، اعترف سواجارت والدموع تملأ عينيه، باقترافها مع إحدى المومسات. ونتيجة لما ترتب على هذين الحدثين الهامين في حياة سواجارت من تقلّص دخله اليومي اضطر إلى تسريح أكثر من مائة موظف في مؤسسته الخاصّة، إلى جانب ما ذكره مقربوه من قراره ترك كتاب الربّ، للتفرغ لإدارة شؤونه الخاصة، تفاديًا من انهيارها في غيابه عنها منشغلاً بنشاطه التنصيري المفلس[1].

هذا ولقد تنبه المنصرون إلى خطورة المناظرات والحوارات الدينية الناضجة مع الكفاءات المسلمة، وبالأخص الضليعة في دراسة الفكر الصليبي، من خلال تاريخه ومصادره المعتمدة لدى أصحابها، وظلوا يستحضرون ذكرى أشهر المناظرات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين، ولا سيّما مناظرة الشيخ رحمة الله الهندي مع أحد قساوستهم، مستفيدين منها العبر حتى لا تتكرر، وهو ما أومأ إليه أحد المنصرين في مؤتمر كلورادو التنصيري محذراً بقوله: «يجب على النصراني أن يتعمّد مقاومة إغراء السّماح لشهادته بأن تنحدر إلى درك التهجم والمجادلة العنيفة كما كان يحدث في الماضي، فهل يستطيع حقاً أن يقنع المسلم بأن النصارى لم يزوروا الكتاب المقدّس أو أنهم ليسوا مشركين أو أن المسيح هو أكثر من كونه «ابن مريم»، كما هو مذكور في القرآن، أو أن صلب المسيح وبعثه قد تم فعلاً؟ . . »[2]. وهيهات ينفع الندم بعد الخسران، إذ لم يحل التحذير دون وقوع المحذّر منه، حيث تكرر المشهد بعده مراراً،

---

(1) ينظر: مجلّة النور59، ص47، 1408هـ-1988م، الكويت.

(2) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص195-196، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، بيروت-لبنان. د. ت. د. ع.

وذلك من خلال حوارات ديدات السّاحقة، التي جاب صداها وتأثيراتها الآفاق والأمصار، وأصبحت لها فاعلية نافذة، مما أثار ذعر وامتعاض المنصرين من أحمد ديدات وأمثاله من الّذين يجيدون الحوار مع هؤلاء النصارى، حتى حرصوا في الآونة الأخيرة على تجنبهم، لأن مثل هذا الحوار في غير صالح عمليّة التنصير[1]. وبهذا أخذوا يحسبون لجانبه ولكل من انتمى إلى المنهج نفسه حساباً كبيراً.

ولعلّهم وجدوا في تجاوب الناس معه، وتأثرهم بمنهجه الحواريّ ما يعمق قلقهم، ويدعم استياءهم إزاء مقاومته لأنشطتهم، وكشفه لواقعهم، وحقيقة عقيدتهم. حيث لا يستبعد أن يكون المنصرون - في متابعتهم الدقيقة لنشاطاته - على علمٍ ودراية بما أجاب به ديدات حين سئل عن نتيجة حواراته، وبالأخص حواره مع سواجارت، فقال: «وقد استلمت رسالة من الفلبين تقول: إن ألفي شخص أسلموا بعد أن شاهدوا شريط الفيديو «المناظرة مع سواجارت»، لأن المحتوى يرفع الروح المعنويّة، لذا فإنه يصبح من السهل قتل جالوت إذا كان هناك شخص يحمل الحجر مع ديدات»[2].

إن هذا التأثير الكبير في عالم الدعوة أوصل ديدات إلى الإيقان بجدوى منهجه في تحقيق الهدف الذي بدأ من أجله الحوار، ومن ثم اطمأنّ إلى أن حواراته تؤدي مهمتها في هداية الناس إلى الإسلام، وتضييق الخناق على أعداء دين الله القيّم. وهو ما قد يفسر لنا قضية العدد الكبير من الجمهور والبالغ عددهم حوالي ثلاثين ألف شخص، ممن حضروا للاستماع إليه في إحدى محاضراته في قاعة ألبرت هول الملكيّة بلندن[3]. فضلاً عن إسلام الكثير من الغربيين على يديه بمنهجه الحواري، من أمثال من تسمى بأنور إسحاق، وهو مواطن أمريكي اعتنق الإسلام على يد ديدات[4]. وطبيعي في شأن داعية نجح أيّما نجاح في اتخاذ الحوار مطيّة له في الدعوة إلى الله تعالى أن يلفت

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص 174، مرجع سابق.

(2) العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص78، مصدر سابق.

(3) ينظر: مجلّة الفيصل ع135، س12، 1408هـ-1988م، مرجع سابق.

(4) ينظر: العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق، ص17، مصدر سابق.

نشاطه الفسيح على المستوى العالمي الأنظار إليه، فكان المعجبون به من المتأثرين بمنهجه الحواري الفصيح، لا يبرحون عن التعبير عن انطباعاتهم الصادقة نحوه، وترجمة أصدق ما تكنه أعماقهم له من إحساس عميق بالشكر والتقدير لشخصه الكريم بعمله الدّعوي العظيم. ولعل ما ورد في مستهل سؤال أحد سائليه عقب مناظرة له بالسويد ما يعكس طرفاً من هذا الإعجاب والتجاوب العالمي الّذي توفر لديدات داعية ومحاوراً، حيث جاء فيما قاله السّائل: «أستهلّه بشكر سيادته لجهوده العظيمة في جعل النّاس مثلي يتقبّلون الإسلام»[1].

وإلى جانب هذه المتابعة الصليبية الحاقدة لأنشطة ديدات لغرض تعويقها، والحدّ من مفعول صداها المؤثر المثمر، انتصب اليهود الصهاينة بدورهم في عناية فائقة لتحسّسه عن كثب، وترصّد مداخله ومخارجه، وتقصيّ مختلف ما يصدر عنه من أقوال وأفعال هدفها الدعوة إلى الإسلام، والرّد القوي على أعدائه. وتأتي دليلاً على ذلك مبادرة رئيس الاتحاد الصهيوني بجنوب أفريقيا بنشر رسالة موجّهة إلى أفراد جاليته من اليهود الصهاينة، معبراً فيها عن سخطهم، وردّ فعلهم تجاه صدور كتاب ديدات عن العرب وإسرائيل، ذاك الكتاب الذي أثار فزعهم، وهزّهم هزّاً عنيفاً. وكان مما ورد في الرسالة قوله عن ديدات ومؤسسته: «لقد كنا على الدوام على اطلاع كامل بأنشطة هذه المنظمة التي تستخدم كما يبدو مقادير لا حصر لها من الأموال لتلطيخ سمعة الشعب اليهودي، ومحاولة التأثير في تماسكه، وتلويث صورة إسرائيل»[2]. حقاً لقد فطن ديدات في تهييجهم بكل براعة، مستخدماً في ذلك سلاح الفكر والمنطق، باعتباره أخوف ما يخافون منه، ويحذرون بأسه.

وعلى الرغم من كل ما يسجل لحوارات ديدات من صدى وتأثير عظيمين، فإنه لابد من الإقرار بأن جهوده قوبلت من قبل معظم من حاورهم ومن معهم من أشياعهم بالرفض والمعاندة، فلم يذعنوا للحق رغم ما بان للجميع من هزيمتهم

---

(1) مناظرتان في استكهولم، ص: 162، مصدر سابق.

(2) العرب وإسرائيل شقاق أم (وفاق)، ص74، مصدر سابق.

وإخفاقهم في الدفاع عن عقيدتهم الزّاهقة في وجه الحق، بل ظلّوا مصرّين على الغي والمكابرة، وذلك ربما بسبب التعلّق بالجاه والمال، وما إليهما من توافه متاع الحياة الدنيا، بالإضافة إلى ما ورد في قول ديدات: «. . . ولكن المنكر المعاند لن يصغي بسبب أحكام مسبقة؛ أي أفكار تأخُذ مأخَذ التسليم قبل أي نقاش أو بحث أو تمحيص عقلي، وخرافات وسذاجة لا تموت إلا بصعوبة»[1]. ولذلك كان ديدات كلما حاول فكّهم وأتباعهم من آثار قيود ما يكبلهم من عقائد باطلة، وأفكار فاسدة، قوبل بمحاربتهم إيّاه من أجل الإبقاء عليها، وبذلك تتعذر مهمة المحرر طالما استسلم الأسير للأسر، وركن إلى ما يُرثى إليه من وضع إنساني منقوصٍ ومزْر. وربما تعدت مواقف المنكرين المعاندين حدود الرفض والمكابرة، إلى تهديد هذا المحرر العقدي الكبير بالقتل، والتربص به لإزهاق روحه العظيمة، وذلك للقضاء عليه وإيقاف سيل عمله الفياض عن التدفق برسالة الخير والحق، حيث إنه كما يقول: «إنني أتلقى من جنوب أفريقيا مئات الرسائل من اليهود والمسيحيين وحتى من المسلمين تهددني بالقتل وتصلني رسائل التهديد بالقتل هذه في كل مكان، ولكنني ألتمس العذر لأصحابها، إن هذه هي طبيعة عملنا . . »[2]. إنه لأمر عجاب أن يقابل الإحسان بالإساءة ويعارض الجميل بالنكران، ولكن لا ضير طالما وطّن الداعية نفسه لهذه المهمة الجليلة الخطرة، كما يظهر من حياة ديدات العظيم، صاحب القلب الكبير المتسامح، والصدر الرّحب في مقابلة الزلّة بكرم العفو وجميل الإعذار. ولا غرابة في ذلك ممن نهل من نفحات سيرة المصطفى ﷺ العطرة، وتعهد بالدعوة إلى ما جاءنا به عن الله من عهد أخير، لا يُرام له نظير، ولا يرجى عنه بديل.

ولئن كان ديدات ممن هابه أعداؤه، وتوجّسوا منه، مما ألجأهم إلى استخدام منطق العاجز ضدّه، المتمثل فيما تلقاها من مئات التهديدات بالقتل، فقد عرف له محبوه قدره فأكبروا فيه عظمته بدعوته الحواريّة، التي قدر لها أن تحظى بصدى واسع شاسع

---

(1) المسيح في الإسلام، ص98، مصدر سابق.

(2) مناظرتان في استكهولم، ص105، مصدر سابق.

في دنيا العقيدة، والدعوة. ومن هنا ينبغي القول بأن ديدات كداعية قدير، ومحاور خبير، شكل في نظر المسلمين عامة مثالاً حيّاً ومناسباً للتحدث باسم الدعوة الإسلامية ورجالها في تلك الحوارات التي عقدها مع القساوسة والمنصِّرين. وقد ظهر للبعض خير ممثل عن المسلمين في تلك اللقاءات بسبب عمق دراسته، وسعة درايته بالكتاب المقدّس. وكان لمراسه الحواري، وأسلوبه الخطابي الذي اعتمده فيما وقف عليه حياتَه من الدعوة إلى الله تأثيرٌ رائع في نفْس كل مسلم غيور على دينه، ذي اهتمام حي بنشره، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن. وقد كسب ديدات بمنهجه الإيجابي في الحوار الدّعوي وُدّ الغالبية العظمى من المسلمين، وحظي بثقتهم في كفاءته الحوارية. ولذلك ظلّ على صلته بالمسلمين في شتى بقاع المعمورة، حريصاً على اللقاء بهم، سواء عن طريق زياراته الدّعوية، أم من خلال المشاركة في ندوات ومؤتمرات المشاورة بشأن تنظيم وتنسيق العمل الإسلاميّ، أو التخطيط له بما يضمن تفعيل نشاطه، ويؤمن له النجاح.

وهكذا تظل ألسنة الجموع المسلمة الواعية بواقع دعوتها، ودور أعلامها البارزين تشيد بذكره، منوهة بدوره في كلّ مقام يتسنى فيه للذاكرة المسلمة أن تسترجع بعضاً من شريط ذكريات معاقد الحوار الديني بين المسلمين والمسيحيين. وبفضل ما بذله ديدات من جهد مشكور، وما حققه من صدى وتأثير قوبل الداعية الكبير بأبهى مظاهر التكريم وأسمى معانيه، ممن يعرفون للدعاة أقدارهم، ويُنزلون الرجال العظام منازلهم، حيث إنّه قد منح جائزة الملك فيصل العالميّة لخدمة الإسلام عام 1406هـ-1986م[1]. وإن السيّد ديدات قبل الجائزة كان قد قطع شوطاً بعيداً في مضمار الدعوة والحوار، وحقق الكثير من الأمجاد والمآثر، مما جعله جديراً بصورة رفيعة للحصول على جائزة تشريفية كهذه، بيد أن الجائزة التي لا تبلى ولا تفنى تتمثلُ في قبول الربّ الكريم لجهاده ودعوته، ورفع مقامه بما قدمه من تضحيات جمّة في خدمة دينه وأمته، تعظيماً لأجره وشأنه.

ولعل هذه الدراسة التي نحن بصددها الآن، عن منهجه في الحوار والدعوة، تشكل

---

(1) ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مج10، ص554، ج2/ الرياض- السعوديّة، 1419هـ-1999م.

هي الأخرى من جانبها إسهاماً متواضعاً، وتحيّة كريمة من كليّة الدعوة الإسلاميّة في تكريم داعية كبير ذي قامة حواريّة شامخة، وقيمة دعوية رفيعة، طالما أسهم في العمل الإسلامي المعاصر بمختلف مجالاته، وهو الشيخ أحمد ديدات بطل الحوار، وداعية العصر.

وإن مما لا يطاله النكران أن هذه الدراسة باعتبارها جائزة معنويّة للشيخ ديدات هي أنفع له وأفيد لعمله بكثير من غيرها من الجوائز الماديّة، حيث تسهم في التعريف به، ونشر منهجه، تعميماً لفائدته وتخليداً لذكراه، إذ الجوائز الماديّة قلّما تتجاوز فائدتها الظرفيّة شخصه إلى غيره من المسلمين، إلا من تشجّع وتحمّس بسببها على بذل الجهد للفوز بمثلها، وهذه المقارنة بين الجوائز المادية والمعنويّة، تذكر بأن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ لم تكن ماديّة، بل وإنما كانت معنويّة، لأنها أبلغ في التحدي وأخلد.

ولعلّه، للسبب نفسه عمد بعض المترجمين والنّاشرين في العالم العربي إلى إخراج جزء من تراث الشيخ ديدات لقراء العربية، بتفريغ بعض أشرطة محاضراته وحواراته، معرّبة من الإنجليزية إلى كتب منشورة، من النوع الذي قامت دار الفضيلة بنشره من أعمال الأستاذ علي الجوهري، أو الاكتفاء بتعريب بعض كتيباته، ومحاضرات من قبيل ما نشرته دار المختار الإسلامي المصريّة بجهد ملحوظ من الأستاذ محمد مختار مسلسلاً تحت عنوان مكتبة ديدات، إلى جانب ما بذلته هيئة إذاعة أبو ظبي المرئية من خلال نشر حصيلة ما أجرت معه من مقابلات إذاعيّة، فضلاً عن تعريبها لمناظرته الشهيرة مع الأمريكي سواجارت[1]، منطلقة في ذلك من فكر إعلامي واعٍ ومتقدم، هذه ونحوها من الجهود التي إن دلّت على صدى منهجه الإعلامي، وتأثيره الكبير الظاهر، فإنها تدل في الآن نفسه على رغبة إسلامية صادقة في إشاعة هذا المنهج، والإسهام في تعميق آثاره الإيجابية، والعمل على توفير نتائجه العالميّة في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة الحواريّة.

وعلى الصعيد العالمي – من جهة أخرى – فقد كان لمنهج الظاهرة الديداتيّة وقعه السّاحر، كالذي ظهر بتأثيره البين في الاتجاه العالمي إلى الإفادة من معطياته الفكريّة

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: هذه حياتي، ص6، مصدر سابق.

متمثلاً في حجيّة معلوماته النّاصعة، مما أغرى الأستاذ عبد العزيز الكحلوت للتعويل على عدة كتب لأحمد ديدات في مواقع متفرّقة من كتابه: «التنصير والاستعمار في أفريقيا السوداء»[1].

ولما كان هذا التأثير الحاصل بمنهج ديدات الحواري مما يصعّب تتبع صداه في أوساط المسلمين على نحو من الاستقراء التام، والتقصي الدقيق، فلا يسعنا سوى أن نخلص إلى بعض ما انتهى إليه الباحث بسّام داود عجك في قوله: «وأما بالنسبة للمسلمين فقد أعطت تلك الحوارات من اطلع عليها منهم دفعاً قوياً، وثقة أكبر في صحة دينهم، وقوة على مواجهة كل الاعتراضات التي يثيرها الآخرون، حول الإسلام شريعة، وعقيدة، وأخلاقاً»[2]. والملاحظ على هذا النص أنه يفتقر إلى الدقّة في الجزء الأخير منه، إذ لم يتناول ديدات الحوار في شيء من قضايا الشريعة، حتى يلهم المسلمين، ويسعفهم بردود في مجاهلها، بل اقتصر حواره على العقيدة مزيجاً بشيء قليل من الأخلاق، وقبل ذلك فإن الإسلام فيما أعلم ليس مهاجماً من النّاحية الأخلاقيّة، بل هو محسود على سموّ ما تضمنه من تعاليم أخلاقيّة رائعة.

إذن . . ، في ضوء ما تقدّم يمكن القول بكل ثقة بأن ديدات من حيث صداه وتأثيره، فبقدر ما لم يكن عالمه بأسره غريباً لديه من خلال ما وسعه بجهوده الحواريّة، واستغرقه به من أنشطته الدّعوية عامّة، فهو بالمقابل لم يكن غريباً عن هذا العالم الذي عاشه فاعلاً ومؤثراً فيه، وبالأخص عند من اتجه همّهم إلى متابعة حركاته وسكناته بدقة متناهية، من أحباء وأعداء. والقول الحق أنه كان منهم قريباً جداً رغم بعده المكاني، وحاضراً بكل ظهوره البارز بما له من ثقل مؤثر رغم انحصار نطاق وجوده الزمني، حيث أخذ الإهتمام به يتعاظم على مرّ الأيام، وتعاقب الأحداث، ممتداً إلى الرغبة في اقتناء حصيلة أعماله في وسائلها العلمية والإعلامية، وغيرها من شتى

(1) تنظر إحالاته إلى معلومات ديدات في الصفحات، 21-22-23-25-28-29-31-62، من الطبعة الثانية لعام 1402هـ-1992م. المنشورة عن كليّة الدعوة الإسلاميّة، طرابلس-ليبيا.

(2) الحوار الإسلامي المسيحي، ص233.

مظاهر الإقبال المتزايد على جهود هذا الْعَلَمْ العملاق، ومنهجه الّذي سلكه إليها، وقد صوّر لنا هو نفسه جانباً يسيراً من هذا الإقبال العالمي على نوع النشاط الذي يمارسه قائلاً: «فالرسائل التي تأتي إلينا كثيرة جداً، ولابد أن نجد حلاً لهذه الرسائل، لأن كم الرسائل كبير إلى الحد الذي يمكن أن يستنفد كلّ طاقاتنا»[1]. وربما لهذا السبب اتخذ لنفسه مندوباً في بريطانيا للتمثيل عنه في أوساط المجتمع البريطاني، وأداء ما تدعو الحاجة إليه من خدماته، فكان السيّد «شام شادخان» أحد هؤلاء المندوبين[2] في ثمانينات القرن العشرين.

وبهذه الصورة المختصرة عن صدى ديدات وتأثير منهجه، لا يحسبنّ أحد أن جهده قد ضاع هباء، أو ذهب أدراج الرياح، على نحو لا يتناسب - بل يتناقض - مع سموّ الرسالة التي حملها في حياته باذلاً في سبيلها جهوداً عظيمة خالدة.

والمُعْتقد عندي -بناء على بُعد صداه وقوة تأثيره- أن يكون قد أخذ في التشكل بالفعل تيار فكري منهجي يمكن أن نطلق عليها اسم «المدرسة الديداتيّة». تستمد نواتها، من طلاب ديدات والمتدربين على يديه، إلى جانب أعوانه وأعضاء مركزه الدّعوي، وقاعدتها هي جماهير الدارسين والمعجبين به، بالإضافة إلى مترجميه وناشريه، ممن يشكلون معاً قافلة المريدين في موكب دعوي بهيج ومتميّز خلف قيادته الحواريّة الحكيمة، في سيرها وفق منهجيّة واضحة ومحددة المعالم، مرسومة الأهداف باهرة النتائج.

ولعلّ الوقوف فيما يلحق على شيء من جدليّة الممارسة والفكر في عمل ديدات الدّعوي كفيل بإمداد دعم وثيق لكل ما تقرر في هذا المبحث الخاتم لهذا الفصل.

---

(1) هذه حياتي: أحمد ديدات، ص38، مصدر سابق.

(2) ينظر: شيطانيّة الآيات الشيطانيّة، ص63، مصدر سابق.

الفصل الرابع

جدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات الدّعوي

المبحث الأول : من وقائع الدّعوة في حياة ديدات : (صور ومواقف) .

المبحث الثاني : صورة من جهوده في مجال تكوين الدعاة المحاورين وتأهيلهم .

المبحث الثالث : تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر .

المبحث الأول

من وقائع الدّعوة في حياة ديدات
(صور ومواقف)

لعل من نافلة القول التذكير بأن ديدات قد أمضى ما يربو على ستة عقود من حياته المباركة في جهاد متصل وعمل دعوي دائب، ظل خلالها يتفاعل مع كل ما يمت بصلة إلى الدعوة بروح غيورة نشطة، ووعي إسلامي كبير، حيث كانت الدعوة إلى الإسلام مناط اهتمامه قولاً، وعملاً، فكرًا، وشعوراً. وقد سلك طريقها قويًا في عقيدته، عزيزًا بإسلامه، فمثل بذلك طوداً شامخًا تحطمت على عتباته أمواج الباطل وتلاشت على صفوحه تيارات التضليل والتنصير.

وإنّ الدعوة في حياة ديدات إيمان وعمل ورسالة، بدلاً من كونها عقيدة خامدة، وفكرًا مجردًا أو دراسة نظرية، ونتيجة لهذا التصور صرف طاقة غير محدودة للعمل على نشر رسالة الإسلام، بكل الوسائل الممكنة، وفي مختلف ساحات العالم ومنابره.

ومما تحكم في منطلقاته الدّعوية فزعه من هول التحذير الإلهي عن التقصير في خدمة الإسلام الوارد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: 24].

شكلت هذه الآية الكريمة لديدات وقوداً دافعًا للخوض في مختلف مجالات العمل الإسلامي بشعور متحمس، مما يسوقه أحيانًا إلى التفكير في ارتياد مجالات لاتتوفر فيه الأهلية الكافية لها، وهو أمر له مخاطره ومحاذيره، ومن هذا القبيل مارتبه على الآية من قول جاء فيه: «وليس علي أن أعتذر لتركي شرح الموضوعات العلمية في القرآن الكريم للعلماء المسلمين حيث إني غير متخصص، ولكن إذا لم يتقدم أحد من المسلمين ليشرح لنا كنوز الحكمة المدخرة التي يزخر بها القرآن الكريم فإنني من جهتي وكشخص عادي غير متخصص في العلم سوف أشارك معكم الطبيعة

الإعجازية في القرآن الكريم كما تظهر لي في الحقائق البسيطة والعادية»[1].

ولعلنا لا نعدم في فهمه للآية ما يفسر لنا مبرر تفرّغه التام للعمل الدّعوي، وإخلاءه الطرف عما عداه من الأنشطة الدنيوية، والمصالح الشخصية، بناء على ما ألح عليه من تصور قائم على أن «الدعوة تحتاج إلى جدّ واجتهاد، كما تحتاج إلى تفرغ وانقطاع، فالجد في نشر الدعوة وإبلاغها، وتذليل الصعاب والعقبات التي في طريقها أمر لا بد منه»[2]. فبمقتضى هذا التصور انخرط ديدات في سلك رجال الدعوة والتزم السير على خطهم طوال عمره المديد، وهو يتابع الملحمة الكبرى للدعوة إلى الإسلام في هذا العالم، والذي طاف العديد من بلدانه، ولديه ولع خاص بحمل رسالته إليها، وكان عليه أن يواجه جيوش التضليل، وجحافل المنصرين مدى عشرات السنوات التي لم يكن له فيها همّ آخر سوى نشر الإسلام في مختلف أرجاء المعمورة، فأبلى في ذلك بلاء حسنًا، ساعدته في تحمله قوة إيمانه، وصلابة عقيدته، مما جعله يفني حياته في خدمة الإسلام بطيب خاطر، ونفس رضية سعيدة، في زحف وثبات دائمين دون نكوص أو تقاعس، بل كان بجسمه وروحه يفيض حياة، ونشاطًا، وحركة، حتى وهو في مرحلة طاعنة من العمر. فرغم شيخوخته ومرضه الذي داهمه بطوفانه الطارح على الفراش لم يستسلم ولم يتوقف، وأبى إلا أن يلقى ربه مجاهدًا في صف من امتدحهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: 23].

ورحم الله هذا الفارس فقد كان منذ أن عرف طريقه إلى الدعوة صادقاً مع نفسه، في أداء واجبه الديني أمام الله، وفي ذمة التاريخ؛ حيث أنفق على العمل الإسلامي حياته الغالية بإخلاص نادر وأدب فارع، وبذل سخيّا كل غال ونفيس في سبيل الدعوة، وظل جاداً في نضاله، حريصاً على عمله، مما سلط عليه مجهر الأعداء ممن ترقبوه بعين ساهرة،

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص: 48، مصدر سابق.

(2) أساليب الدعوة والإرشاد؛ ص: 116.

ونفس قلقة متوجسة، مدركين خطورة المنهج الدّعوي الذي يُصدر عبره خطابه المميز في تبليغ رسالة الإسلام على الصعيد العالمي، وبمعرفة السبب يزول العجب في موقف الإذاعة البريطانية حيال عرضه السخي المعبر عنه في قوله: «ولقد عرضت خمسين ألف جنيه على هيئة الإذاعة البريطانية ليخصصوا لي خمس دقائق أوضح فيها أحسن وأفضل ما عند رشدي، ولم يستجيبوا، يتلون ويقرأون صفحات من كتاب رشدي على الملأ ويرفضون إعطائي خمس دقائق لأوضح لهم أفضل وأحسن ما عند رشدي؟»[1] حسبك الله يا ديدات، وأنى لهم أن يفعلوا ذلك، وأنت عازم على كشف حاسم صارم لما أضمروه من حقد دفين للإسلام، وكيد لأهله؟. بهذا يتضح أن ديدات من الصنف الذي يعطي الدعوة كل ما لديه دون أن ينتظر مقابلاً مادياً دنيوياً على صنيعه الخالص لوجه الله، وإنما يحتسب الأجر العظيم والمثوبة الخالدة عند الله تعالى في مستقر رحمته، وإلى القلائل من أمثاله المخلصين للدعوة أشار الشيخ الشعراوي في قوله: «...ولكن الذي يدعو إلى الله هو الذي ينفق على الدعوة ولا يأخذ منها، وينفق عليها وهو سعيد، ويدفع من ماله وهو مسرور، وهو أول من يتحمل مشاق التكليف والعبادة وكل أمنيته أن يتقبل الله عمله الصالح»[2]، ويتحقق طموحه الغالي في انتشار الإسلام في العالم والذي ما بعده طموح؛ حيث كان أعظم آماله أن يرى الإسلام سائداً في هذا الوجود الدنيوي، ويظهر على الدين كله، تحقيقاً لموجب إرادة الله تعالى، الذي رشح الإسلام لهذا المصير العالمي الخاتم بالدعوة إليه والمجاهدة في سبيله. وما من شك في أن السعي الدائب لإنجاز هذا المشروع العظيم النبيل اقتضى من ديدات وغيره مجهوداً عسيراً، وتضحية غالية بالنفس والفكر والمال وغيرها من الإمكانات المادية والمعنوية التي رصد منها ديدات الشيء الكثير لعمله الدّعوي الكبير، لتتحقق في تضحيته للدعوة، وفي حياته من أجلها، تلك الصفة الأساسية لكبار الدعاة وصفوتهم، والتي قررها الدكتور أحمد غلوش وسطرها بقوله: «أن يجعل الدعوة حية في كيانه كله تملأ ضميره ويجعل راحته في العمل لها، والحركة بها، وتشغله عن نفسه وماله

---

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص 94-95، مصدر سابق.

(2) محمد متولي الشعراوي: الخير والشر، ص 102، مكتبة الشعراوي الإسلامية، ط عام 1990، القاهرة.

وولده، ويتمثل ذاته حارسها الوفي، وصاحبها الأمين فيهب لها كل ما يمكنه ليكون كل شيء فيه لله ...»[1]، والشيخ ديدات ممن حقق شأواً بعيداً في هذا المضمار الذي هو أولى وأحق ما يتنافس فيه المتنافسون.

ومن حيث المنهج الذي اتبعه في مواقعه الدّعوية، وبث من خلاله رسالته الإسلامية الهادفة فيما عدا حلبات الحوار والمناظرة، فلم يخرج عن روح قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

وتنطوي تحت هذا المنهج القرآني كافة نشاطاته الحكيمة التي مارسها من موقع قيادة مركزه الدّعوي، إلى جانب الموعظة الحسنة لعامة المسلمين، المتمثلة في إسداء النصح إليهم، وحثهم على الالتزام بدينهم، مع المشاركة في نيل شرف الدعوة.

بالإضافة إلى جداله الأمثل لغير المسلمين، فهو بدعوته العامة قد استدرك جزءاً كبيراً مما لم تتسع لها حواراته، سيما أن تستوعبها، من قضايا التبليغ والتوعية فمن ثمّ كتب ودرّب، وحاضر الخاصة، وتحدث إلى العامة في تلك القضايا، قياماً بواجب الدعوة والإرشاد بتغطية مختلف المجالات الهامة على مستوى كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية وكانت فلسفته في ذلك تقوم على الفكرة التي نص عليها بقوله: «عندما يروّج غير المسلمين لكتاب مقدس غير القرآن الكريم فمن الضروري أن يعرف الناس، ومن حقهم أن يعرفوا كلام الله بحق، ودين الله الحق، ليجتنبوا مغالطات خصوم الإسلام»[2]، وإلى جانب الجناح القولي، وتتمة له كان ديدات معنياً أيضاً بالجناح العملي في الدعوة إلى الله حيث ظل حريصاً على أن يشكل بنفسه أنموذجاً صالحاً للإنسان الداعية، ويمثل من خلال

---

(1) أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص 439، ط عام 1987، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت.

(2) أحمد ديدات: عتاد الجهاد، ص 24، تعريب على الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د، ت، د، ر.

سلوكه وقيمه الأخلاقية قدوة حسنة للآخرين باعتبارها أنجع وسائل الدعوة، وأنفد أساليبها متحلياً بجميل الصبر، وفائق الأمل بعيداً عن اليأس في إسلام المدعوين وإصلاحهم، مهماً بلغ عنادهم وفسادهم وقد رسم لنا صورة جامعة لكل ذلك حين قال: «. . . هل هؤلاء الملاحدة الماديون، وهل أولئك المسيحيون واليهود بمنأى عن الإصلاح والهدى؟ كلا! . . . ليس لنا أن نيأس . . . لا يزال فيهم خير كثير . . . فلنتعلم كيف نخاطبهم بتعقل، دون انفعال . . . ولنعطهم أمثلة من حياتنا اليومية بحيث يجدونها صالحة لحياتهم اليومية أيضاً . . . »[1] وتأكيداً لهذا التصور الحكيم المتفائل والتزاماً به جرى على الحكمة في تعامله مع مختلف الشخصيات والجماعات بأساليب مناسبة لها مراعياً في ذلك الميول النفسية، والاهتمامات المهنية. ومن هذا القبيل أسلوبه الدّعوي المؤثر الذي يزاوله في مقابلاته مع رجال الصحافة، وهو ما حكى عنه بقوله: «وبمجرد أن أكتشف أن المقابلة صحفية أخبر صاحب المقابلة أنني أود أن أعرض عليه أن القرآن معجزة إعلامية والكل يقبل على الاستماع، إلى وجهة النظر هذه...»[2]، ومن ثم ينطلق ديدات في معالجة هذه الأطروحة، والإفاضة في شرحها مقارناً بين الأسلوب القرآني وأسلوب الكتاب المقدس في سرد القصص، والأحداث التاريخية، للوصول أخيراً إلى إبراز مدى ما يمتاز به الأسلوب القرآني من دقة بيان وإيجار مركز، وتأثير ساحر.

فبهذا الأسلوب وغيره كان ديدات ينفذ بدعوته إلى قلوب زواره، ومدعويه عامة، منطلقاً من قناعة راسخة بأن المسلم - فرداً وجماعة - مهما يكن وضعه الاجتماعي هامشياً، وظروف محيطه ضاغطة يتعين عليه القيام بواجب الدعوة في حدود المستطاع، وبأساليب إسلامية حكيمة. وإن القيام بنشر رسالة الإسلام في كل الأحوال يعني بالنسبة لديدات خضوعاً لإرادة الله، وانقياداً لأمره تعالى، ويستخلص ذلك من قوله: «. . . يجب أن ننصاع لمشيئة ربنا، ويجب أن نعلن الحقيقة بأعلى أصواتنا»[3]، وبمختلف

---

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص 28، مصدر سابق.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 61.

(3) المسيح في الإسلام، ص 10، مصدر سابق.

الوسائل والأساليب البعيدة عن العنف، والتزمت، وضيق الأفق والتقوقع على الذات، ومفاصلة الآخرين قلباً وقالباً، أو التشاؤم في مرد هداية المدعوين فليس شيء من هذه الصفات والأساليب بمعتمد عند ديدات، بل هي مرفوضة عنده رفضاً باتاً فهو في الدعوة إلى الإسلام ممن يشارك غيره الرأي القائل: «فما جعل الإسلام الإكراه على العقيدة وسيلة، ولكن بالدعوة البصيرة والبيان الهادي والحجة العقلية، والخلق الإنساني العظيم يخط للإنسان بقوة ووضوح سبيلاً إلى العزة والكرامة والوحدة، قد تبين الرشد من الغي»[1]. تكشف متابعة مسيرة ديدات الدّعوية في مختلف وسائلها وأساليبها، وفي كافة مواقفها التزامه الدائم بحدود ما نص عليه في المقطع السابق من أساليب دعوية، مما يدعو إليها القرآن والسنة وتؤكده الأدبيات الدّعوية الواعية لروح الإسلام، وحقيقة الدعوة إليه.

وتقديراً لما تكتسبها الممارسة العملية من أهمية قصوى في عمله الإسلامي العام، فإننا سننتقي فيما يلي: من بعض كتبه وأشرطته المرئية، ثلاثة مواقف دعوية، لعرضها كنماذج لخطابه الدّعوي.

أولاً - خروجه للدعوة في إحدى مناطق قبيلة الزولو القاطنة بجنوب إفريقيا:

يعرض هذا الشريط المرئي بعنوان «الإسلام إلى الزولو»[2]، لأحد برامج ديدات الدّعوية تتم وقائعه تحت خيام منصوبة، وبحضور حاشد حافل بالمسلمين رجالاً ونساء ومن أولاد بنين وبنات، وكعادة المسلمين في مختلف نشاطاتهم وبرامجهم الدينية يتم افتتاح الحفل بتلاوة أحد الغلمان لآي من القرآن الكريم من سورة الرحمن، ويعقبه قارئ آخر من أقرانه بتلاوة الآيات الأخيرة من سورة «المنافقون» وتلتهما بنت صغيرة تلت هي الأخرى سورة «الكافرون» مشفوعة بتفسير ميسر لها باللغة المحلية. وبعد ترحيب حار مما يليق بمقام الداعية الكبير، أخذ في الحديث إلى الحضور حديثاً شيقاً، تتمثل خلاصته في النقاط الآتية:

---

(1) الإسلام والتمييز العنصري، ص 317، مرجع سابق.

(2) ينظر عن العرض اللاحق الشريط المرئي المشار إليه من مسجلات ديدات.

أ - بعد تعبيره عن ارتياحه العميق، وغبطة اللقاء بهم، يذكّر الحضور بأن الإسلام ليس بجديد ولا غريب عليهم بل هو عقيدة هذا الشعب موروثاً عن الأسلاف كابراً عن كابر، مؤكداً قوله بأن ملاحظة عمرها أربعون سنة لم تثبت لديه غير ذلك، بل وإنما توصل من خلال التحليل والمتابعة إلى استنتاج مفاده: أنه لا وجود لقبيلة أفريقية عبدت الأصنام، وهذا من باب جذب عناية المخاطبين، وخلق شعور لديهم بأنهم أرقى من عبادة الأصنام السخيفة، والتي لا تليق بسليم فطرتهم ورجاحة عقلهم، كما أنها تتصادم مع تراثهم الديني العريق، وثقافتهم الأصيلة. وديدات يذهب تأكيداً لهذا الطرح إلى الاستشهاد بأحد الباحثين الأمريكان ممن يرى أن القارة الأفريقية ظلت ميداناً مفتوحاً لكل الديانات، ولكن دين شعوبها الأصلي هو الإسلام، والذي يتميّز بعقيدته الواضحة السليمة، وقيمه الفردية والاجتماعية المثلى مما يسمو به فوق كل من الهندوسية والمسيحية القائمتين على فكرة التناسخ والحلول.

ب - يبين في خطابه مزايا الإسلام الاجتماعية، مستشهداً بواقع الأقلية المسلمة في جنوب إفريقية، فيما يميزها عن الأغلبية المسيحية من التزام أخلاقي وطهارة اجتماعية، ومسارعة إلى فعل الخير، وأداء العمل الصالح وكل ما هو مبرة. وفي المقابل فإن مظاهر الفساد وأوكارها تعمّ أوساط غير المسلمين في البلاد، وتتفشى في الجماعات غير المسلمة الجرائم بمختلف أشكالها ومستوياتها، بما يهدد أمن البلاد، وسلامة الاستقرار فيها. وليس للمسلمين أدنى نصيب في ممارسة هذه الشرور الوخيمة العواقب. وهذه الميزة الأخلاقية، والفضيلة الاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون هي نتاج عقيدتهم الإسلامية الصحيحة، حيث إن الله تعالى لما خلق الخلق، بعث إليهم الرسل بشرائع ومناهج لتنظيم شؤون حياتهم، وضبط تصرفاتهم وتهذيب سلوكياتهم، فجاء الإسلام في هذا السياق لصياغة شخصية المسلم فرداً ومجتمعاً وأمّة وأمة، وفق نمط حضاري بديع متقدم، وطبقاً لتعاليم الإسلام فإن المسلم:

ج - أبعد الناس عن التعصب العرقي وممارسة التفرقة العنصرية، حيث إن الإسلام لا يقرها، بل يستنكرها ويحاربها بشن حملة قرآنية سنية عليها، وهذا موضوع

حساس بالنسبة لمن يخاطبهم ديدات، ونقطة جذب لهم لدعوتهم إلى الإسلام، وتمكينه في نفوسهم، وبذلك فقد وفق ديدات في مراعاة نفسية المدعو، وإعارة الاهتمام لمشكلاته الاجتماعية بخطاب إسلامي بناء له تأثيره الإيجابي في نفس السامع، ومشاعره.

وبعد حديث مختصر في هذه الموضوعات السابقة سئل ديدات عما إذا كان المسيح قد مات بالفعل، وقام من موته، وهل ولد المسيح في الخامس والعشرين من الشهر الأخير من السنة الشمسية؟

فأجاب ديدات على السؤالين بما يسمح به المقام، وعلى سؤال أخير عن الفرق بين المسيحية والإسلام، أخذ ديدات في الإجابة مستطرداً في بيان الفرق العقدي بين أبرز الفرق المسيحية ذاتها، مشيراً إلى وجود مالا يقل عن 3000 فرقة مسيحية مختلفة مبثوثة في ثنايا جنوب أفريقيا على طولها وعرضها، وفي منطقة دربان وحدها ما لا يقل عن 1000طائفة منهم، وعما يفترى على الله من أبوته للمسيح، وبنوة هذا الأخير لمن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يبين ديدات بأن هذه الإطلاقات لم تكن غريبة على الثقافة اليهودية القديمة وقبل ظهور المسيح، بل كان جارياً عندهم ومعهوداً لديهم إطلاق صفة أبناء الله على العباد، والأتقياء منهم، وقد ورد في الإنجيل عدد من المرات التي استخدمت فيها صفة البنوة منسوبة إلى غير المسيح، مما يعني إنها ليست حكراً عليه، وإنما هي بمفهومها البسيط البرئي تنطبق على كل إنسان.

د - انتهت المحاضرة بحوار مفتوح عن مسائل دينية وتاريخية، حول موثوقية الكتاب المقدس، وعن الاستعمار الغربي، ودوره في تشويه معتقدات الناس وتلويث أخلاقياتهم الحميدة، تمهيداً لزرع سلوكيات استعمارية بديلة عنها، ويذكر ديدات مخاطبيه بأن المسيحية رغم مرور بضعة قرون من تاريخ وجودها في البلاد إلا أنها أخفقت فيما تدعيها من رسالة إنسانية، فلم تستطع إنقاذ أتباعها من الممارسات الإجرامية، والأعمال الوحشية التي يندى لها جبين من في نفسه أثارة من حياء ومسحة من إنسانية، والغريب اللافت للنظر أن هذا الحوار الختامي لم يكن متابعاً

من قبل الجميع، حيث تعالت الأصوات في جنبات الأروقة، وكثرت التناجيات الجانبية بين الحضور ولعل ذلك يعود إلى قلة تجمع أهل المنطقة مما يدفع بهم إلى اغتنام الفرص والمناسبات النادرة للحديث في بعض القضايا العامة والخاصة، فضلاً عن أن ديدات لم يظهر في ختام لقائه معهم من الاهتمام ما يدل على جدية وأهمية رغبته في متابعتهم لهذا الجانب الأخير من أحاديث لقائه معهم .

وعن الملاحظات التي تبدو للدارس المتأمل في هذا الموقف الدّعوي للشيخ ديدات يمكن تسجيل ما يلي :

1 - كان حديثه مقتضباً جداً إذ لم يستغرق ولو ساعة كاملة، بل فقط زاد عن النصف قليلاً، وهو ما لا يتناسب مع ضخامة الاستعدادات والتجهيزات التي تمت لتهيئة هذا اللقاء الهامّ؛ حيث قام فريق مشكل من مختلف الفئات العمرية بإعداد وتوزيع طعام على الحاضرين كان كافياً لألفي مدعوّ ممن عزموهم، متوقعين حضورهم، العمل الذي استغرق يوماً وليلة، وعلى الرغم من كثافة الحضور إلا أنه في تقديري لم يتجاوز نصف ما كان متوقعاً .

2 - قام ديدات بتوزيع عدد كبير من ترجمة معاني بعض أجزاء القرآن الكريم بلغة الزولو، وكانت مخصصة فقط لمن لم يسبق لهم الحصول على شيء منها، والترجمة الكاملة لمعاني القرآن كاملاً قدمت في شكل جوائز تكريمية لمن وفقوا في الإجابة على بعض الأسئلة الإسلامية العامة في مستوى معلومات الحضور، وهذا أسلوب موفق يشجع كثيراً أمثال هؤلاء الناس من قليلي العلم بالإسلام، وربما حديثي العهد به، على تنمية معارفهم، بتزويدهم بالمصادر الأصيلة المعينة على الفهم الصحيح لدينهم، كما يرفع من روحهم المعنوية عالياً .

3 - يتملك ديدات - حتى وهو يتحدث إلى العامة - أسلوب المقارنة، فينساق وراء قضايا هي في موضوعات الحوار المقارن أدخل منها في خطاب دعوي موجه إلى جمهور مسلم، وتترتب على هذه الملاحظة مؤاخذته على عدم تقديره الجيد لنوعية ما تتطلبه المناسبة من حديث عن أركان الإيمان، والإسلام وقيمه وآدابه

العامة وثمارها في الدنيا والآخرة، وبالأخص في وسط لا تزال أصول الإسلام وأسسه غير متجذرة فيه بما فيه الكفاية، فضلاً عما يعانيه أهله من مشاكل اجتماعية حادة، يقدم لها الإسلام حلولاً منطقية وجذرية شافية بكل يسر وبأدنى كلفة، باعتبار أن المناسبة من قبيل ملتقيات التوعية والإرشاد أكثر من كونها موقف تبليغ ودعوة، وكان من الممكن أن يشغل ما اتسع لديه من الوقت بما يفيد الجميع في هذا اللقاء الدّعوي الثمين بدلاً من إطلاق الحبل على الغارب لكل من هب ودبّ، يتناجى مع من يشاء وفيما يشاء.

4 - تسجل لديدات براعة أسلوبه في ملامسة أفئدة المخاطبين بتقرير أصالة عقيدة التوحيد في ثقافتهم القديمة، وتعريجه على موقف الإسلام من التفرقة العنصرية، بالإضافة إلى أسلوب التغني بترجمة معاني بعض الآيات في أحيان نادرة، مناجياً في ذلك الروح الفنية الكامنة في أعماق ثقافة من يخاطبهم.

ثانياً - محاضرته للجالية المسلمة في أحد مساجد بريطانيا[1]:

إنّ هذه المحاضرة من حيث العنوان الذي اختاره لها ديدات تمثل رسالة إلى المسلمين، تتضمن العديد من القضايا، وتعكس على نحو واسع أسلوب داعيتنا في إلقاء محاضرات التوعية والإرشاد، مقدمة صورة عن مضمون رسالته التي أناط بها على عاتق المخاطبين، وغيرها من التوجيهات التي تحسن متابعتها عبر الفقرات التالية:

1 - يفتتحها بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120].

وطبقاً لما تبين من علاقته المنهجية بالنصوص ينطلق من الآية كقاعدة أساسية

---

(1) هذه المحاضرة التي نعرض لها في الآتي تم تسجيلها مرئياً في الشريط الثاني من مناظرة ديدات لسواجارت، ويمكن الرجوع إليه للتقصي.

يرمي إلى بناء أصول المحاضرة، وتعليق أفكارها عليها، ومن ثم يبادر ديدات - فيما يبدو حديثاً عن العلاقة بين المسلم والمسيحي - إلى إطلاع الجمهور الحاضر على كتاب عِدَائيّ نشرته أطراف مسيحية من جنوب أفريقيا بعنوان (تحدي الإسلام في جنوب أفريقيا)، يأتي في سياق التأكيد على ما نبه إليه القرآن عن موقف أهل الكتاب الدّيني من المسلمين، رغم وجود نقاط الالتقاء إلى جانب أوجه الاختلاف بين العقيدة الإسلامية، والتصور الكنسي لشخصية المسيح ورسالته عليه السلام. وبصرف النظر عما هو واسع بينهم من تفرق عقدي، وتعصب مذهبي ونكران بعضهم البعض، إلا أنهم يجمعون على معاداة الإسلام والمسلمين ومحاربتهما بشتى الوسائل الممكنة من الوسائل والأساليب التنصيرية، ولكن الله تعالى أراد لدينه الإسلام مصيراً ينتهي به إلى الظهور على الدين كله رغم كيد الأعداء، وكراهية الكفار والمشركين.

وبمناسبة الحديث عن التنصير فإن الخيط يجرّ ديدات لعرض واقعه الأشد في بلاده وما جاورها، متطرقاً إلى شيء من قصة دخول الإسلام، وبناء المساجد هناك. وقد بلغ على حد قول ديدات كيد أعداء الإسلام لأهله أن امتهنوا المسلمين المحافظين على دينهم وثقافتهم ورموهم بنعوت التخلف والتطرف، وصوّبوا إليهم سهام انتقاداتهم الهدامة، وكالوا لهم جزافاً ما وسعهم من التهم والافتراءات المنفرة منهم. وقد عمدوا في سياق تشويههم المتعمد لصورة الإسلام، وسمعة المسلمين، إلى استقبال المرتدّين والمارقين من الإسلام، وتشجيعهم بشتى الوسائل الممكنة، والتصدي لردود فعل المسلمين ضدهم، وهم بذلك يضطرون المسلمين إلى مواقف التحدي والإثارة، مما يعرضهم للسخرية والكراهية لدى الآخرين. وفي خضم هذه الهجمة العدائية العاصفة يوصي ديدات جمهوره بالتمسك بالدين، والاعتصام بالهوية باعتبارهما أعظم وأحسم سلاح في المواجهة وإغاظة العدو.

2 - إن مسألة الهوية من أهم القضايا التي نالت اهتمام ديدات في دعوته، ولقاءاته بالأقليات المسلمة؛ حيث إنه يراها وسيلة إعلامية للفت انتباه الآخرين بوجود إسلامي حي، إلى جانب ميزتها في تعرف المسلمين على بعضهم تلقائياً من غير

سؤال أو تكلف تعارف أو تقديم متبادل كما هو عليه الحال عند من يفتقرون إلى هوية مميزة. ولذا يعيب ديدات على 600 باكستاني مسلم ممن قابلهم في إحدى جولاته الدّعوية بمدينة هونج كونج الصينية، بأنهم انصهروا في الآخرين وذابت شخصيتهم الاجتماعية وانمحى وجودهم الثقافي؛ حين لم يعد لهم ثمة ما يميزهم عن غيرهم من هوية ثقافية. وبالنسبة لديدات فإن الحفاظ على الهوية يعني إظهاراً للإسلام، وإشهاراً لثقافته المتازة المميزة، واستمالة للناس الآخرين بهذه الوسيلة، وغيرها من الطرق الودية الحكيمة. وفي المجتمعات التي تضيق ذرعاً بالثقافة الإسلامية، ويتعرض فيها المسلمون للاضطهاد، والإيذاء نتيجة تمسكهم بثقافتهم وعقيدتهم، فحسبهم عند ديدات الانضباط زماناً ومكاناً، وذلك في المناسبات الدينية كالجمعة وغيرها، ومكاناً في رحاب الأسرة، وتنشئة الأبناء عليها. وديدات يعوّل في هذا الصدد على أهمية الدور التربوي للأسرة المسلمة في مثل هذه الأجواء وغيرها.

3 - وفي هذا الخطاب يصرف ديدات اهتماماً خاصاً بتوعية الحضور بأنهم مطالبون بالدعوة في ديار غربتهم وهجرتهم، ولكن فقط بالمسالك السلمية من إعلام وتعليم وحوارات، وسلوك ديني طيب، وخلق إنساني فاضل، تحت شعار «**لا إكراه في الدين**»، وإن كان هدف المسلمين هو إدخال الآخرين في الإسلام إلا أنه يلزم الالتزام بالمنهج المضاد للعنف والإفزاع والقهر والإكراه، وغيرها من الممارسات التي يمقتها الإسلام، ويتبرأ منها الحكماء من دعاته الصادقين المخلصين. وترسيخاً لهذا المبدأ؛ يستعين ديدات بآي من القرآن الكريم تأمر بالدعوة على بصيرة وحكمة، والتزام القول الأحسن والعمل الصالح.

4 - وحتى يتحقق في حياتهم ما أشار إليه من تمسك بالإسلام ودعوة إليه، لجأ ديدات إلى تشجيعهم؛ بالثناء عليهم وشحن معنوياتهم بأنهم أمثل حالاً في تطبيقهم للإسلام وهم في المهجر من مسلمي بلاده، مشيداً بجهودهم النبيلة في الحياة بالإسلام على ضوء القرآن والسنة، رغم إغراءات المحيط الاجتماعي وتحدياته،

والتي يقترح ديدات لمقاومتها من أجل العيش بسلام في رحاب الإسلام، الصحبة الواعية للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك بالاستعانة بتراجم معاني القرآن الكريم، والتدقيق في انتقاء أجودها، وتعمق القارئ إلى المعاني القريبة من روح النص الوافية بمراميه وأغراضه مع ضرورة الحفاظ على استخدام مصطلحات القرآن، ورغم كثرة التراجم وتفاوت جودتها ودقتها إلا أن ديدات يوصي بأهمية الاطلاع عليه والإفادة منه في لغته العربية الأصيلة، ليكتسب القارئ ذوق شمولية القرآن وتعدد عوالمه ولطائف معارفه الإلهية، وإحاطته بمختلف القضايا الدينية والإنسانية. ويتجاوز ديدات هذا الاقتراح إلى تشويق الحاضرين بقراءة القرآن، وفهمه بتدبر فهمًا إيجابيًا يدفع القارئ إلى توسعة دائرة الإفادة والنفع، متجاوزاً نفسه وأهله إلى جيرانه ومحيطه العام، إذ العلم المتعدي خير من اللازم فيما هو بيِّن. وإلحاقًا بالقرآن الكريم، يرغّب ديدات في التمسك بالسنة النبوية حاثاً على اقتناء كتبها إلى جانب تفاسير القرآن، وتراجم معانيه والتي تباع بأسعار زهيدة مقابل كتب باهظة الثمن لا تساوي شيئًا من حيث الأهمية أمام القرآن، وسنة رسول الله وسيرته ﷺ.

وفيما يخص أسئلة الحضور لديدات عقب محاضرته، فقد تراوحت ما بين أسئلة عن قصة دعوته، ومؤهلاته العلمية، وأخرى تتصل بقضايا من الفكر والعلاقات الدينية بين المسلمين والمسيحيين وخاصة ممن تعيش هذه الجالية المسلمة في أوساطهم في ديار الهجرة والدعوة، ولعل أهم ما طرحت من أسئلة يتمثل في الآتية :

أ - عندما سئل ديدات عن حياته وبداية نشاطه الدّعوي، وعن الجامعة التي تخرج منها، أجاب بأنه خريج جامعة الصراع المحموم والضربة القوية، ولها موقع في مختلف أنحاء العالم؛ حيثما يوجد معاً مسلمون ومعادون لهم، ومن هذا المدخل ينطلق ديدات للحديث عن حياته المبكرة، والظروف التي رافقت وهيأت لعمله الإسلامي، معرباً عما أسعفه به كتاب إظهار الحق من عون ومدد هائلين؛ حين وقف عليه وهو منهمك في تنقيب شاغل، وبحث متواصل لا يعرف الكلل ولا

الملل فعكف عليه بقراءة نهمة مستوعبة ، وقد دفعه إلى السير قدماً في هذا الخط المميز ما آلمته من قصة فشل أحد ممن لم يكن مؤهلاً للحوار من دعاة الإسلام أمام مساجلات منصّر ساذج .

ب - وفي رده على من سأله عن مدى إمكانية وجود مسيحي مؤمن بالله في عالمنا المعاصر أقرّ ديدات بوجود المؤمنين الموحدين لله حتى من مسيحيي بريطانيا ، مع قلة من ينتمي إلى هذا الفريق الذي يرى ديدات أنه بحاجة من المسلمين إلى دعم ، وأخذ بيده إلى نور الإسلام وهدايته ، باعتباره حائرًا يتلمس سبيلاً واضحاً وعقيدة منيرة وهو أقرب من غيره إلى الإسلام طالما وجد من يرشده بالحوار ويقنعه بالنقاش من منطلق أمره تعالى بدعوة أهل الكتاب إلى الحوار ، وفيما يبدو محاولة من ديدات لتزويد الحضور بفكرة عن أسلوب الحوار وموضوعاته مع المسيحيين أخذ يستطرد في بيان صور أنسنة الإله وتجسيمه في الكتاب المقدس ، خلاف ما يعتقده المسلم من عقيدة نزيهة خالصة تستلزم عملاً صالحاً كمظهر حضاري لها .

ج - لمّا سئل ديدات عن حكم تناول المسلم لطعام أهل الكتاب وعن عكسه ، اعتذر عن الإجابة معللاً ذلك بأن المسألة لا تدخل في عداد منهجه وتخصصه ؛ لأن مهمته هي الدعوة في جانبها العقدي المقارن ، وهذه مسألة فقهية شرعية خارجة عن مجاله الذي تفرغ له والأولى في رأي ديدات أن يعترف الإنسان بما لا يعرفه طبقاً لما ينسب لسيدنا علي - رضي الله عنه - من قوله : «لا تقل مالا تعلم وإن قلّ ما تعلم» ، وإن كان هذا الاعتراف الذي أدّى بديدات إلى عرض إمكانية طرح السؤال على إمام الجامع ، محل هذا اللقاء فضيلة إلا أنه قد يعتبر نقطة ضعف محسوبة عليه ، وبالأخص في عجزه عن الإجابة عن سؤال ، وإن كان فقهيًا فإنه بسيط ولصيق الصلة بموضوعاته التي يحاور فيها ، باعتباره جزءًا من الدائرة المعرفية التي تخصص فيها بجهوده واجتهاداته وربما هذه المحاضرة التي لا نضبط على وجه التحديد تاريخ إلقائها هي جزء من أعماله المبكرة قبل أن يقوي تكوينه ، وتنمو ثقافته الإسلامية ، الأمر الذي يُذكر بخلفية بدايته للدعوة الإسلامية ،

وكيف وجد نفسه فجأة من بين فرسان الدعوة، وأحد أبرز أعلامها في عصرنا المعاصر، ذلك المصير الذي لم يكن مرتقباً، ومن ثم لم يكن من شيء يدعو إلى التهيئة والتربية له، ولذلك تثير لكنته الانتباه، عندما يقرأ أي شيء بالعربية حتى القرآن الكريم، مما يعكس إلى حد كبير اقتحامه لهذا المجال عنوة وضرورة، من غير قدم راسخة فيه، أو أصالة علمية مؤهلة .

د - وفي جوابه الذي أدلى به لمن سأله عن إمكانية تطبيق المباهلة في الحوارات المعاصرة، يرى ديدات أن التركيز الآن ينبغي أن يكون على الحوار بلا مباهلة، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن، فالرسول ﷺ انطلق من المناظرة إلى المباهلة، ومن الحكمة الدّعوية لنا في هذا العصر الانطلاق من المحاورة إلى الموادعة، لكم دينكم ولي دين .

وإن ديدات وإن كان قد راهن بروحه وماله في عدد من حواراته إلا أنه لا يميل في هذا العصر بالذات إلى الحوار بالتباهل، وهو بذلك يتقاطع مع العديد من دعاة الحوار من أجل التعايش السلمي والتعاون الإنساني العادل .

هـ - وقد أنكر ديدات على المسيحيين في جوابه الخاتم الطعن في الإسلام بقضية تعدد الزوجات، التي أبيحت كقيد وعلاج معاً مع ما تنطوي عليه حياتهم مما هو أشر وأنكر، حيث تجوز عندهم العلاقات المثلية، وتتفشى في مجتمعاتهم ثقافة العري والإباحية، ومختلف ضروب الفساد الاجتماعي وأشكاله وغيرها من الشرور التي نجمت عن عقيدة نظرية صلب المسيح الفادي، ومن ثم انتفت المسؤولية الأخلاقية، وانهارت أو تدنت مؤسسات المجتمع المدني .

وأما حصيلة ملاحظاتنا عن هذا الموقف الدّعوي الإرشادي فهي الواردة في العناصر اللاحقة :

1 ـ تأكد لنا بهذا الموقف وغيره أن ديدات في أغلب حواراته ومحاضراته يميل إلى الوقوف منتصباً على قدميه، ويتحمل ذلك وإن طال به المقام، ولعل سر منطقه

المؤثر يكمن ضمن عوامل أخرى في حديثه واقفاً، مما ساعده على الاسترسال في الحديث والإطلاق فيه متميزاً بصرامته في الإلقاء، وجديته في الحديث والحوار جدية يلطفها ببسمات طارئة، ومفاجئة تتسم بالقصد، ولا تتجاوز حدود الندرة وذلك للفت الانتباه، وشدّ الحضور مربوطاً بالموضوع الذي يلقيه إليه، وهو في وقوفه متحدثاً يكثر من الالتفات يمنة ويسرة لمقابلة الجمهور بصفحة وجهه موزعاً اهتمامه الشخصي على الحاضرين دون تركيز على جهة بعينها، أو تجميده على شخص دون غيره كيلا لا يحس الحضور معه بالملل، أو يشعر بالإهمال منه، وقد يستعين بحركات يديه الدائبة، وإشارات أصابع كفيه للإبقاء على حيوية الحضور، ومتابعته اليقظة لما يقوله .

2 - إن ديدات في فهمه للهوية المسلمة يكاد لا يتجاوز ما دون الجواهر من مظاهر شكلية تتمثل في اللحية، واللباس والقلنسوة مقابل الخمار عند النساء، وإن كان يعنى بالجواهر إلا أنه يرى أن ميزة المظاهر تكمن في سرعة اهتداء المسلمين بعضهم إلى بعض دون وسيط، ولعل هذا الفهم الشكلي للهوية عند ديدات والذي يتنوع باختلاف عادات وأساليب حياة الشعوب المسلمة مما يساعدنا على فهم ما كونه ديدات لنفسه من هوية، فأصبح الواحد منا كلّما تخيل ديدات لم يره إلا من خلالها ؛ إذ لا ينفك عنها غالباً. وتتحدد تلك الهوية في بياض طاقيته الخفيفة وبياض لحيته المتوسطة في كثافتها، وبياض أقمصته التي يرتديها تحت بذلاته التي يفضلها سوداء في الغالب، إنه ثالوث مظهري ناصع البياض يحدد للعامة هويته الوضاءة، وربما كما أرداها إن صح الافتراض.

3 - من محاسن خطاباته الدّعوية أنّه ينمّي في سامعيه روح الدعوة، والاعتزاز بالإسلام، ويبصرهم بما يمكن أن يعينهم على مزيد فهمه من مصادر أساسية، ومؤلفات قيمة الأفكار زهيدة الأسعار .

4 - يراعى في دعوته الأسلوب المناسب لجمهوره ولهذا السبب يجنح عادة إلى إعادة صياغة الأسئلة التي تطرح عليه على نحو أوضح، إزالة للبس، وإفهامًا للجمهور

بموضوع السؤال بالمستوى الذي يتماشى مع عفويتهم، وبساطة مستواهم .

5 - إن المقارنة الدينية أسلوباً وموضوعات تتسلل إليه دائماً في مختلف مواقفه، لتقتطع لنفسها مساحة قد تتسع أو تضيق من كل لقاء يقدر له الحضور فيه وإن كان خاصاً بالمسلمين دون غيرهم .

6 - من الأمور الجميلة حقاً في هذا اللقاء الدّعوي أنه عقد في المسجد، الأمر الذي يعني بالنسبة لمن لهم شأن في ذلك، أن المسجد يشكل دائرة إعلامية مهمة، فضلاً عن كونه دار عبادة وعلم، وملتقى لأفراد المجتمع الإسلامي شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً. ومن سعادة الحظ أنه يتيسر فيه اللقاء بالمسلمين أكثر من غيره في المجتمعات الأجنبية ذات الأقلية المسلمة .

7 - إن متابعة هذا الموقف الدّعوي ولو في ثلثه الأخير تسفر عن ملاحظة هامة مفادها أن ديدات عاش مؤمناً بالحوار مستعداً له، ومشجعاً عليه .

وكان يغلب عليه التفاؤل في حواراته، وبالأخص في هداية الحائرين المسترشدين، ومنطلقه الدّعوي الأول والأخير هو الحوار العام الدائم، وإلا فالجوار والمسالمة بدلاً من الصراع والملاعنة، وإن هذا لمنطق عصري حكيم .

ثالثاً: عرضه لدعوة الإسلام وتعاليمه في البلاط الملكي السويدي على الملك وقساوسة بلاده [1]:

من المواقف الدّعوية الخالدة في حياة ديدات التي كرمه الله بنيل شرفها، مثوله بين يدي ملك السويّد بحضور قساوسة مندوبين عن كل الطوائف المسيحية في تلك البلاد، للإدلاء بدلوه في مناسبة دعا إليها الملك للخروج بإجماع ديني في مناقشة ومدارسة قضية اجتماعية ثارت في البلاد، واحتدم النقاش حولها؛ ألا وهي محاولة تحديد فترة ترمل المرأة بعد وفاة زوجها؛ أي تحديد المدة المناسبة لعدة الوفاة، وقد فرضت القضية نفسها على المجتمع السويدي في أعقاب فقدان الملك لقرينته، وسرعان ما انتقل

---

(1) ينظر بشأن هذه القصة كتابه: القرآن معجزة المعجزات، ص 104–112 من مصدر سابق ذكره.

الموضوع من دائرته الملكية في قفزة سريعة لمواجهة المجتمع كله في صورة معاكسة، انقلب فيها ميزانه من كفة الرجال ليلقي بثقله على ما يقابلها من كفة النساء، ولهذه القضية الشاغلة في حينها جمع الملك حشداً من رجال الدين المسيحي للنظر فيها، وبتوفيق الله تعالى، ثمّ بفضل السيد موسى بورمان من مسلمي السويد كان لديدات حظ المشاركة في هذا الملتقى الديني، حيث «طلب الأذن من الملك أن يدخل الإسلام أيضًا طرفاً في المناظرة، وبموافقة الملك تشرفت بأن أكون أنا أيضًا طرفاً في الحوار»[1].

وقد التأم المدعوون في نقاش متدافع، دام قرابة نهار كامل، دون الوصول إلى ما يشفي عليلاً أو يروي غليلاً، والجمهور يهتف ويصفق لكل متحدث رغم تباين وجهات النظر، وردّ بعضهم على البعض الآخر إلى أن جاء دور ديدات في الحديث عند الساعة الخامسة من مساء يومه، فهب مبلغاً خطاب الإسلام، ماسكًا بنسخة من القرآن الكريم في يده وهو يقول: «من الصباح إلى المساء ونحن نلتمس الإجابة عن المدة التي تنتظرها الزوجة بعد وفاة زوجها لكي تتزوج بآخر، ولقد سمعنا ما قاله العهد القديم (التوراة) وما قاله العهد الجديد (الإنجيل) ثم ما قاله العهد الجديد وما قاله العهد القديم، ولكننا لم نحصل على الإجابة بعد؛ لأن حل المشكلة موجود في العهد الأخير»[2]، يعني به القرآن الكريم، وللمرء أن يتصور مع ديدات كم كان سماع الحضور لمصطلح العهد الأخير لأول مرة في حياتهم مفاجأة مدهشة ومؤثرة، كان شأنها جمع قلوبهم للتركيز على ما يقوله هذا المتحدث الجذاب بإيمانه، وروحه المبدعة. فقرأ عليهم ديدات وهم ينصتون بدقة، وحضور تام الترجمة الإنجليزية لمعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: 234].

وأعقب قراءته لها بعرض مستفيض للحكمة الإلهية في تقرير هذا التربص، وذلك

---

(1) المصدر نفسه، ص 105.

(2) المصدر السابق ص 106.

في حدود الفهم البشري للآية الواردة في هذا الشأن، وقد وفق في ذلك وإن كان لم يتعد ما هو منصوص عليه في كتب التفسير والفقه، ومعلوم لدى الدارسين، وربما عند عامة المسلمين كذلك، ويخلص ديدات من ذلك إلى تحرير هدفه العظيم الذي يرمي إليه في أصل مشاركته في هذا الملتقى، وللتباحث في الموضوع المطروح وهو ما أعلنه على رؤوس الأشهاد مبلغًا لرسالة الإسلام بقوله: «هل فكر محمد وعمل حساباً لكل هذه الأخطار المتشعبة منذ أربعة عشر قرنًا من تلقاء نفسه؟ هراء أنك تعطيه قيمة هائلة فوق طبيعة البشر، لقد أمر أن يُكرّر مراراً وتكراراً أن هذه الحكم القرآنية ليست من صنعه ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 4-5].

إنها من عند الله الخالق الرحيم وإذا كنت لا تزال تشك في هذه الأدلة، إذا فواجه التحدي . . لقد أوحي إليه [1].

وبعدما أعلن ديدات للحاضرين دعوة الحق، وبين برهانه، لم يحفل بإفادتنا بما توصل إليه من خلال هذا اللقاء الرسمي الهام، وما أسفر عنه من نتائج. والظاهر أن كل همه في المشاركة فيه انحصر في اغتنامه هذه الفرصة السانحة لعرض مصداقية الخطاب القرآني، وإظهار ربانية مصدره، وهو ما يفهم في كل من مداخلته وعرضه للمصحف الشريف تعبيراً عن ضخامة دوره المطلق، ونهائية حلوله في تجاوز ومعالجة الأزمات والمشكلات الإنسانية الكبرى رغم محدودية حجمه نسبياً.

وكأني بديدات، وهو يقصد إعلام الحضور بأن القرآن نبع حضاري متجدد، يواكب تطور الحياة في مختلف مراحلها ويقود حضارتها إلى أرقى مستوياتها، معالجاً مشكلات الإنسان بعمق أطروحاته عن الكون والحياة والإنسان والمجتمع، واهباً الإنسان أمثل العقائد، وأليقها بكرامته الآدمية، موجهًا مسار حياته إلى صراط سعيد مستقيم.

لقد رأى ديدات أن ثمة مساحة واسعة للتقدم برسالة الإسلام إلى المجتمعات

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 111.

الغربية التي تتعطش إلى دين جامع متوازن يملأ عقلها وقلبها معاً، ويحل مشاكل حياتها، ويفيض بالأمن والرخاء والسعادة عليها وعلى سائر الإنسانية جمعاء، ومن ثم فهي فرصة الدعاة الكبرى للتحرك السريع بهذا الدين العظيم الموصوف في قول من خلق وهو اللطيف الخبير: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30].

لقد كان رحمه الله جاداً في دعوته وهو يحمل للغرب وللعالم أجمع نور الخطاب الإلهي المشرق، عاملاً ما وسعه الجهد على أن يفتح للإسلام مجالاً واسعاً في قلب المدنية الغربية، مبشراً في أرحب آفاق العالم برسالته التي تتمثل فيها خلاصة خلاص الإنسان وضمان سعادته، وفي ضوء هذا الموقف الدّعوي السامي نستخلص ما يلي:

آ - يلاحظ أنه ما يزال للدين في العالم الغربي من دور اجتماعي وتشريعي أحياناً حيث يظهر من حين لآخر للاضطلاع به على تردد واستحياء، وإن التقاليد الغربية ما برحت تفسح للديانة الكنسية مجالاً للمشاورة حتى على المستوى السياسي، وتتيح لها هامشًا من الاعتبار لتوجيه الحياة الاجتماعية في مجتمعاتها، وإن ما يقال عن علمانية تلك الدول فإني أجد أنها ليست مطلقة، وإنما هي علمانية متدينة، على الطريقة الغربية؛ حيث إن صلة تاريخية قوية ما تزال تربط بين السلطتين الزمنية والروحية، ممثلة في المؤسستين السياسية والكنسية.

ب - إن من أبناء العالم الغربي الكثير ممن أسلم بحق وحسن إسلامه - فيما أظن - وهؤلاء يشكلون ظهيراً للدعوة الإسلامية، ودعمًا لإخوانهم المسلمين أينما وجدوا، وطالما أبدى بعضهم نوايا صادقة وجادة في الإسهام الإيجابي لنشر رسالة الإسلام في مجتمعاتهم، ونادى البعض الآخر منهم، من قادة الرأي، ومن لهم كلمة مسموعة ووجهة نظر معبرة بإتاحة الفرصة الممكنة لإعلان الخطاب الإسلامي والتعبير عنه، والحوار حول مضمونه، والدفاع عن قضاياه بجانب

الخطابات الأخرى التي يموج بها العالم الغربي .

ج – وفق ديدات – مشكوراً – في هذا الموقف الدّعوي النادر في التـأثير على الحـاضرين، عندما جذب اهتمامهم باستخدام مصطلح جديد لافت للانتباه وهـو العهـد الأخير مريداً به القرآن الكريم ؛ الأمر الذي أثار فضولهم، ومن ثم أمعنوا في الإنصات إلى ما قد تهيأ لإلقائه عليهم من حل قرآني للقضية المعضلة التي التفوا حولها دارسين .

وهو بهذا وغيره من عديـد مواقفه الدّعوية مُعْتَبرٌ عنـدي ممـن عـاش لأداء مهمـة جليلة وتبليغ رسالة مقدسة وهي رسالة الإسـلام السّامية، وقـد حـدد مهمته الدّعويـة إزاء معاندة المكابرين، وإنكار المنكرين برؤية قرآنية واضحـة صاغهـا بقولـه: «ومهمتنـا ببسـاطة تنحصـر في أن نبلـغ الرسـالة، بصـوت عـال وواضـح، ونـترك البـاقي لله»[1]، وبفضـل مـا بذلـه مـن جهـود دعويـة عزيـزة كـان فيهـا علـى مستوى مسـؤولية الدعـاة وواجبهم نحو دينهم، فقد وفقه الله تعالى من خلال مركزه الدّعوي لإدخـال أكـثر مـن ستة آلاف شخص في الإسلام من جنوب أفريقيا وحدها، وذلك منـذ أواخـر ثمانينـات القرن الميلادي المنصرم .

ورغم ضخامة هذا العدد الذي يمثل جهداً جباراً يحظى بتقدير العالم المسلم كله، فإن ديدات بطموحه الخارق يستقله متطلعاً إلى ما هو أجل وأعظم، وبـالأخص عندمـا يقدر نسبة هذا العدد من مجموع سكان جنوب أفريقيا في تلـك الفـترة التـي قـال فيهـا: «وإذا سـألتني عـن العـدد فـإنني أقـول: إننـا أدخلنـا أكـثر مـن ستة آلاف في الإسـلام، وأقصد بذلك المركز التابع لي، وقد يبدو هذا طيباً لدى البعض، ولكني أقول: ما قيمة ستة آلاف في شعب يتكـون مـن ثلاثـين مليونـًا . . فعشرة آلاف أو سـتون ألفـًا ليسـت بالشيء الذي يعتد به»[2] .

والظاهر أنه قدفات ديدات في هذا المقام أنه علـى جلالـة قـدره وعظـم دوره ليس

---

(1) المسيح في الإسلام ص 98، مصدر سابق .

(2) هذه حياتي، ص 105، مصدر سابق .

الوحيد الذي يعمل لتحقيق انتصارات الدعوة الإسلامية في جنوب إفريقيا ، بل يوجد العديد من الشخصيات الفاعلة ، والمؤسسات المعتبرة ، التي تعمل جنباً إلى جنب بجهود متكاملة ، تصب على الدوام في حقل العمل الإسلامي الواسع . وعليه فإن لجهده الفردي والمؤسسي قدره واعتباره ، وهو بكل المقاييس جهد عظيم ومشكور ، ولربما أسهمت هذه النظرة لديه في تحميسه للعمل على تكوين الدعاة وتأهيلهم ، للقيام بدور عاجل سريع لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاده وفي مختلف أنحاء العالم ، وفق منهجه الدّعوي الحواري ، على النحو الذي سيتضح فيه بعض من هذا النشاط التكويني في المبحث اللاّحق .

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

صورة من جهوده
في مجال تكوين الدعاة المحاورين وتأهيلهم

فيما يخص نشاط ديدات في مجال تكوين الدعاة وتأهيلهم فإننا نلاحظ عنده مسلكين متكاملين في تحقيق الغرض الواحد، حيث إنه يجمع في هذا الإطار كلا من التكوين الدائم، والتأهيل الموسمي، ففي مؤسسة السلام التي تقدم الحديث عنها، يوجد معهد مخصص لتربية الدعاة المسلمين وتدريبهم[1]، يخرج منه ديدات أعداداً ممن ينتقيهم وفق ضوابط معينة للالتحاق بالمعهد لغرض التدرب على أساليب دراسة الكتاب المقدس بعقلية نقادة، وكيفية إجراء الحوارات الدينية مع المنصرين صَدّاً لهجماتهم، وطرق إلقاء المحاضرات العامة في هذا المجال لتبصير الجماهير بزيف ودحض العقيدة الكنسية، وتوعيتهم بقيمة عقيدة الإسلام المثلى بين سائر العقائد الدينية والمذاهب الفكرية، وهذا النوع من التكوين يتسم بالثبات والديمومة في مشروع ديدات للعمل الإسلامي، وهو الذي عناه الدكتور عبد الجليل شلبي في ملاحظات زيارته لجنوب أفريقيا، حين قال: «ورأيت في مدرسته (أي ديدات) بعض التلاميذ يقرأون الأناجيل في لغتها الإنجليزية الحديثة، وقراءتهم لها إنما هي لنقدها وبيان ما بها من مضارب ومآخذ أيّـًا كانت، وهذا على نحو ما جاء في مناظرته»[2].

وإلى جانب هذا النشاط الدائم جَدّ ديدات في اعتماد برنامج دورات تأهيلية غير منتظمة، ظهرت حلقتها الأولى بالمركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة ديربان عام 1988م، واستمرت لحوالي ستين يوماً، اختتمت بحفل تخرج للمشاركين، أسدى إليهم ديدات خلاله نصائح وتوجيهات عملية هامة، ومنح كلاً منهم شهادة مشاركة ملتقطًا معه صورة تذكارية، وقد اختير للالتحاق بهذه الدورة الأولى عشرون دارساً من ست عشرة دولة في كل من أسيا وأفريقيا، وأوربا، وأمريكا، وهذه الدول بالتحديد هي:

«سريلانكا وتايلاند وباكستان وبورما والفلبين وسنغافورة وجزر فيجي، وفلسطين والأردن، ومن نيجيريا والصومال وكينيا وزامبيا، ومن الولايات المتحدة

---

(1) ينظر: هذه حياتي: حاشية الصفحتين: 25-26، مصدر سابق.

(2) معركة التبشير والإسلام، ص 186، مرجع سابق، والمقصود مناظرته لسواجارت.

الأمريكية وبريطانيا»[1] ، والملاحظ أن كل المشاركين ينحدرون من دول ناطقة بالإنجليزية كلغة رسمية أو ثانية ، وربما كان ذلك مدبراً لتسهيل الاتصال والتواصل اللغوي فيما بينهم ، حيث كانت محاضرات الدورة باللغة الإنجليزية . ومع أهمية هذا الاعتبار إلا أنه يُفوّت فرصة المشاركة على من تشتد حاجة بلادهم إليها من غير الناطقين بالإنجليزية ، وهو أمر جدير بالملاحظة والاهتمام به .

وقد انعقدت هذه الدورة برعاية كريمة من بعض أثرياء الجزيرة العربية ممن تحمسوا لهذا الشأن ، وسعوا لتأهيل دعاة على شاكلة ديدات ونهجه ، وذلك ما أن سمعوا وعاينوا شريط مناظراته للأمريكي سواجارت ، «فجزاهم الله خيراً» ، إذ إليهم يعود الفضل بعد الله في تبني ديدات لهذا البرنامج لما لقيه منهم من جميل التبرع بنفقات هذه الدورة ، وغيرها من أنشطته الدّعوية . وقد علل ديدات منطلق هذه الدورة والدافع إليها فقال : «لقد بدأنا الآن في تدريب الدعاة المسلمين لأن المسلمين في البلاد التي نذهب إليها ونحاضر فيها أعجبتهم على ما يبدو طريقتي في طرح الموضوعات . . ذلك أن شيئًا ما كان مفقوداً في التعامل مع غير المسلمين ، ثم عثروا عليه في أسلوبي وطريقتي»[2] . ولعل هذا النص إلى جانب دلالته المقصودة يعكس لنا وعيًا نافذًا عند ديدات بجدة أسلوبه وطريقته في التبليغ ، بالإضافة إلى التعبير المكنون عن مدى سعادته العامرة جراء إقبال الناس على عمله ، وإعجابهم بمنهجه ، وثنائهم عليه ، وهو المنهج الذي اندفع من أجله البعض لتكوين الدعاة على نمطه فكانت من ثمرات هذا الاندفاع الخير هذه الدورة العالمية الأولى ، والتي تركزت موضوعات دراستها على قضايا فرعية متعددة يضمها في عقد شامل موضوع رئيس ، قوامه «التحديات التي يواجهها المسلمون في العالم» ، ومن جملتها الحملات الموجهة ضد المسلمين من ضروب الغزو الفكري ، وبخاصة ضد الأقليات المسلمة ، وما يحاك ضدها من مكائد الانسلاخ الثقافي ، واستلاب الهوية ، وغيرها من الأنشطة الكيدية المدبرة للهيمنة

---

(1) هذه حياتي ، ص 43 ، مصدر سابق . ويمكن الاطلاع على تفاصيل الدورة من الكتاب نفسه .

(2) هذه حياتي ، ص : 45 .

عليهم وسائر المسلمين عامة، والتي تعرف المشاركون على أغراضها وأساليبها الماكرة. ولما كانت الغارة التنصيرية على العالم الإسلامي، وكيفية التصدي لها تشكل اهتماماً محورياً في فكر ومنهج ديدات الدّعوي، فقد لزم التركيز عليها في دورة تدريبية تعنى أساساً بتوعية الدعاة بمخاطرها، وتزويدهم بطرق مواجهتها، واكتساب السبل والمناهج الكفيلة بالقضاء عليها، وكشف القناع عن حقيقة مآربها الخبيثة لكل من تستهدفهم، وهم عن ماهيتها غافلون. وقد اقتضى هذا الهدف الجوهري للدورة تخصيص جانب كبير من الاهتمام للتدريبات العملية وتغليب الدراسة التطبيقية، وذلك حتى يعود المشاركون إلى بلادهم وقد استفادوا عملياً من خبرات ديدات العميقة الغور في هذا المجال.

وقد أفصح ديدات عن أهداف الدورة معرباً عن الأمل المعقود على عاتق المشاركين فيها فقال: «إن الذي نرجوه من وراء هذه الدورة أن ندربهم على الدعوة للإسلام بين غير المسلمين، وأن يعودوا إلى بلدانهم، وأن يتدارسوا ما تعلموه هنا مع الآخرين في أوطانهم، وبتبليغ ما تعلموه هنا والتحدث حوله ستزداد معرفتهم، وسيقيمون المراكز الإسلامية الخاصة بهم، فمركزنا هنا يتوسع ويزداد حجم العمل فيه ويتضخم، لذلك نريد لمراكز إسلامية جديدة أن تنشأ في كل مكان إلى الحد الذي يستطيع كل منها أن يعتمد على نفسه، بالطبع سنقدم لهم كل يد عون ممكن، ولكنهم ذاتياً يستطيعون القيام بما نقوم به هنا»[1]، والظاهر أن الطلبات التي تلقوها عقب ما أعلنوه في العديد من الدول عن عزمهم على تنظيم هذه الدورة قد بلغت ما يزيد على أربعمائة طلب مشاركة، فرز منها فقط هؤلاء العشرون ممن أتيحت لهم فرصة المشاركة بناء على مواصفات وخصائص معينة، حددها المشرفون سلفًا، ولم يكن قبول المشاركين خبط عشواء، بل وإنما خضع لمعايير دقيقة وهادفة، وهو ما أوعز إليه ديدات بقوله: «ونحن في المقام الأول نفتش عن نوع معين من البشر ونختار أفضل العقول وأكثر النّاس حماسة»[2].

(1) هذه حياتي، ص 45-46، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه ص 46.

والمعلوم من شروط الاختيار والقبول كون المترشح على خلفية معرفية كافية بالإسلام، حيث إنه لن يتلقى في الدورة شيئًا عن أساسيات الإسلام، وإنما يتم تدريبه على أساليب الدعوة، وفن الحديث إلى الناس، وتحفيظه ما يتيسر من الآيات والنصوص التي لا غنى له عنها في أداء مهمته الدّعوية والحوارية منها خاصة.

ولعل المُعَوّل عليه في هذه الدورات أكثر من غيره هو تدريب المشارك على الحديث الجيد، وتنمية مواهبه الحوارية الكامنة، كيما يكون قادراً على التصرف في فنون القول، وتجاذب أطراف الحوار مع الآخرين بكل أريحية وهدوء، وفي منتهى التأثير والإقناع. وإن تركيز ثقل التدريب على هذا الجانب ناشئ فيما أعتقد عن تصور سائد لدى ديدات وأعوانه بأن الداعية هو الإنسان القادر على تبليغ رسالة الإسلام عن طريق الحديث والحوار، وقد أبان أحد إخوان ديدات وأعوانه وهو عبد الله ديدات عن هذه القناعة المشتركة في ضرورة توفر القدرة الحوارية لدى الإنسان الداعية؛ وذلك في كلمة له ألقاها على المتدربين في الحفل الخاتم لدورتهم، جاء فيها قوله: «إن الداعية هو ذلك الشخص الذي يجيد الحديث لخدمة الهدف، ولا يعني هذا ألا تكتبوا عن الإسلام، استمروا في ذلك، ولكن احرصوا على أن تكونوا دعاة ناطقين باللفظ والحديث، واستخدموا في هذا ما تعلمتموه هنا»[1]، وبما أن نجاح الداعية المحاور يظل متعذراً طالما كان أسيراً للخجل؛ فإن ديدات يدرّب مريديه على التحلي بالحيوية الممكنة، والتخلي عن الحياء الزائد بالشجاعة الأدبية اللازمة، والتي يمكن أن تتحقق للناشئة من الدعاة عن طريق التدرب المكثف على الحديث، وأسلوب الالقاء الجريء بالممارسة المتواصلة ولو أمام المرآة.

ولأهمية العامل اللغوي في النشاط الحواري، والدّعوي عمومًا يوصي ديدات المشاركين ببذل أقصى الجهود لتعلم أكبر عدد ممكن من اللغات، وإن تعذّر ذلك فلا أقل من حفظ النصوص الحوارية في عدد منها، ولا سيما من لغات من يتفاعل معهم الداعية كثيراً، ويتعاطى عمله الحواري معهم، أو في أوساطهم، على أن هذه الدورة

---

(1) المصدر نفسه ص 47.

التي انطلقت فعالياتها لغرض التدريب عادت في ختامها لتركز على النّصح بالتدرب الدائم المتواصل[1].

وبالجملة فقد تعلم المشاركون من الشيخ ديدات ما يشجعهم على التضحية بحياتهم من أجل الدعوة، ويعينهم على مواجهة التحديات الصعبة، ومعالجة المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وحركة دعوتها.

وكم كانت الدهشة عظيمة أن يطلعهم ديدات بإخلاص نادر على كل ما بجعبته من خبرات وتجارب من خلال هذه الدورة، فكان مسلكه في التدريب يقوم على قوله بلسان الحال للسالك في هذا الطريق الحواري الخطر: تعمق وتوسع في القراءة الناقدة، تدرب، تدرب، تدرب ثم اخلق فرصة سانحة لترتيب لقاء وحوار مُحَضّرٍ... طالب محاورك بالبرهان إن هو أدلى برأي أو تقدم بهجوم، ناقشه في ذلك وحاوره محللاً ومفنداً بكل هدوء وسكينة، كي تنجح في إفحامه وإلزامه بالحق مقيماً الحجة عليه، وليكن كل ذلك في ظل الحوار الموضوعي المتأدب، وفي جو نفسي يسوده التسامح والنظرة المحترمة إلى الطرف الأخر.

كان ديدات حريصاً على توفيق الله له ليجعل للإسلام من هؤلاء المتدربين جنوداً أوفياء ومؤهلين يسهرون على حماية الدعوة إلى الإسلام، ويسهمون سواء في حياته أو من بعده بدور إيجابي مثمر في خدمة قضية الحوار الديني البناء في هذا العالم التائه المتصدع؛ حيث «إن الدعوة إلى الله هي العلاج الوحيد لصلاح العالم ويجب أن يشمر الدعاة عن سواعد الجدّ حتى يتقنوا وسائل الدعوة، ويوصلوا دين الله إلى كل مكان في الوجود»[2]، مكرسين حياتهم من أجله على نهج ديدات الذي أصبحت الدعوة قوام وجوده، ومكمن سعادته، فتشكلت بها هواية حياته ورسالتها.

وبروح متفائلة فإني أعتقد أنه قد نجح في غرس شيء من هذه المعاني العظيمة في

---

(1) ينظر: المصدر السابق ص: 86.

(2) الدعوة الإسلامية وأصولها ووسائلها، ص 232، مرجع سابق.

نفوس المتدربين، مما جعل بعضهم يفكر جدياً في التفرغ للعمل الإسلامي في بلاده، ويخطط لمواجهة الحملات التنصيرية المتفاقمة، كما يتبين ذلك من تصريحات معظمهم في حفل اختتام الدورة.

وكفى بهذا الشعور النبيل لتأكيد نجاحها في تحقيق رسالتها الهادفة، وإنّ من تمام الإلمام الكامل بهذه الدورة النموذجية الأولى من نوعها في مخطط ديدات الدّعوي تسجيل ما يحمله عنها بعض المشاركين فيها من انطباعات طيبة، وذلك للوقوف على طرف مما يرمون القيام به من مشاريع دعوية فور عودتهم إلى بلادهم، وسيتم ذلك من خلال عينات قارية على النحو الآتي:

1 - **محمد شيخ من باكستان**: بعد تحيته الإسلامية وشكره لذوي الفضل في مشاركته المفيدة، يعبر عن مشروعه الذي سيقدم عليه في القريب العاجل قائلاً: «أنوي أن أكوّن فريقاً للدعوة يتنقل في أنحاء باكستان وبخاصة في المناطق الدّاخلية، فكما تعلمون فإن منطقتي (مولتان) و(سيالكوت) تتعرضان لهجمة تبشيرية مسيحية قوية، وأنوي التوجه إلى هناك مع جماعة لنتحدث إلى الناس هناك ولنحاضر فيهم ولنعرض عليهم الفيديو الخاص بكبار علماء المسلمين، وسنتوجه إلى شمال باكستان حيث يوجد المهاجرون الأفغان، وهناك تنشط اثنتان وسبعون جماعة تبشيرية وسط المسلمين»[1].

إنه لتصور واضح يرمي إلى هدف نبيل، نأمل أن يوفق صاحبه في القدرة على تحقيق كله أو بعضه على الأقل.

2 - **محمد جمال الدين من سيريلانكا**: وهذا الأخير من آسيا يدلي بحقائق مؤلمة عن انتصارات الحركة التنصيرية في شبه القارة الهندية، وهو لذلك يخطط للعمل في الاتجاه المضاد لهذه الحركة، مما دفع به للمشاركة في هذه الدورة التي قال في حفل ختامها: «لقد أتيت كما تعلمون من مؤسسة تذيع ليل نهار برامج تبشيرية موجهة إلى شبه القارة الهندية... موجهة إلى الهند وباكستان وبنجلادش، ولهذه البرامج تأثير هدام

---

(1) هذه حياتي، ص 49، مصدر سابق.

وضار على المسلمين هناك، وتذاع هذه البرامج التبشيرية بكل اللغات الهندية المختلفة، ونتيجة لذلك فقد تحول الكثيرون في الهند وباكستان إلى المسيحية، ولقد بعث المسلمون بكثير من الشكاوى إلى الجهات الإسلامية، لذلك أنوي أن أبدأ في الترتيبات اللازمة لإذاعة برنامج في الراديو يمكن فيما بعد أن يتكفل به راديو سيلان»[1]. ولا شك أن نجاح هذين المشروعين على مستوى القارة الأسيوية سوف يسهم بدور كبير في خدمة الإسلام والمسلمين، وعامة الناس هناك، إسهاماً يتكامل مع غيره من الجهود القارية، ويتعاون مع مثيلاته في سائر القارات كإفريقيا التي ينتدبها كل من:

1 - **خالد بالعلا: من كينيا**: يظهر من تعريفه بنفسه أنه أحد الدعاة الناشطين في بلاده، وله مشاركة واسعة في العديد من الجمعيات والنشاطات الإسلامية، وقد قطع على نفسه وعداً عزيزاً في كلمته التي ألقاها أمام الحفل، مشهداً الحضور عليه بقوله: (وأعد إن شاء الله بتبليغ ما تعلمته هنا إلى الأخوة في جميع أنحاء العالم، فطبيعة عملي تتيح لي ذلك لأني أسافر كثيراً، وإن شاء الله سأترجم كل كتب الشيخ أحمد ديدات إلى «السواحلية»، وسوف أبعث بنسخ منها إلى المركز هنا)[2].

ولعل السنوات التي مرت والتي تفصل بيننا وبين تاريخ هذا الوعد قد تكفلت بتحقيق هذا الحلم، وإنجاز بعض معطياته ملموساً على أرض الواقع.

2 - **عثمان عمر محمود: من الصومال**: لقد كان سعيداً جداً بالمشاركة في هذه الدورة، حيث إنه من الصومال التي ينشط فيها آلاف المنصرين من خلال معسكرات اللاجئين، وفي مختلف مواقع الحياة اليومية، والحال أنه لا وجود يذكر لدعاة محاورين من طراز خريجي مدرسة ديدات، ممن يمتلكون القدرة المعرفية والمنهجية، للتصدي لهذه الجيوش الجرارة من معسكر التنصير. وعما يخص استفادته وأهمية مشاركته بالنسبة لبلاده تحدث قائلاً: «وبالنسبة لي فقد تعلمت الكثير عن المقارنة بين الأديان، وتعلمت توظيف القرآن الكريم والكتاب المقدس في الدعوة وأكاد

---

(1) المصدر نفسه ص 49-50.

(2) هذه حياتي، ص 51.

أكون الشخص الوحيد في بلدي الذي يستطيع ذلك، ومن خلال عملي في التدريس فسوف أدرس للطلبة ما تعلمته هنا، وستكون لدي الفرصة والقدرة لدعوة المسيحيين إلى الإسلام»[1].

إنه مشروع رائع وهام من شخص يعي خطورة دوره في بلاده وجسامة مسؤوليته في نقل المعرفة الحوارية فكراً ومنهجاً.

وعلى الصعيد الأوربي فقد حضر الدورة اثنان من بريطانيا نعرض الآن لبرنامجهما الدّعوي المخطط على أساس ما تلقياها في الدورة من معلومات، وما خرجا بها من خبرات عملية.

1 - **شكيل أحمد حافظ أبو صفوان**: من لندن: بعد تعبيره عن سعادته بنيل شرف المشاركة في هذه الدورة المتميزة وإعلان رغبته في القيام بواجب الإرشاد والدعوة راح يحكي عن أمنيته العملية بعد العودة في الأسطر التي ضمنها قوله: «إنـي أطمح في تعرية وكشف الألاعيب المسيحية ضد المسلمين، وفي مساعدة المسلمين حتى لا يقعوا ضحايا الهجمات التبشيرية، ومن خلال عملي بالتدريس سأعطي لتلاميذي جرعة في الديانات المقارنة، وحين أعود إلى لندن سأجمع نفراً من الشباب المسلم لأعلمهم ما حصلته أثناء إقامتي هنا في ديربان»[2].

وأتوقع أن يكون لهذا الشخص تأثير ما مهما يكن حجمه، وذلك طالما هو جاد مخلص لله، ومستعين بما يستخلص من كلامه من وسيلتي التعليم والإعلام، واللتين لهما من التأثير في العالم الغربي ما لا يقارن بغيره.

2 ـ **فاروق يوسف .. من بريطانيا**: بعد استهلاله ببيان أهمية بريطانيا كأحد المراكز الرئيسة للتنصير في العالم، وعما بذله شخصياً في وقت سابق من جهد في جمع المعلومات المتعلقة بنشاط تنصير المسلمين، وإفادة الجهات المعنية بها بما فيها مركز

---

(1) المصدر نفسه، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 54.

ديدات الذي كان على تنسيق سابق معه، بما يود القيام به في بريطانيا ملتقى الطلاب الوافدين من جميع أنحاء العالم بتنظيماتهم الدينية الفاعلة، وهو ما عرضه علينا في قوله: «أنوي إنشاء منتديات في المدن المختلفة حيث يأتي الناس ويرتاحون ويتناولون فنجاناً من القهوة، وتكون فرصة للاختلاط بهم والتحدث معهم عن الإسلام، ونحن نقوم حالياً بهذا العمل في الجامعة، ولكننا نريد أن نعمم هذا النشاط في الجامعات البريطانية، ثم في جميع أنحاء العالم»[1].

ونجد هذا النوع من العمل وهو ما يمكن تسميته بالحوار العفوي، ونقاش الصدفة يتناسب مع بيئته، ويمكن أن يؤثر في الكثير ممن يستهويهم هذا اللون من الحوار في أوقات فراغهم، وإلى جانب هؤلاء انتظم في الدورة داعيتان من أمريكا، وقد أفادا منها كالآخرين، فعبر كل منهما عن ارتياحه العميق وما يعتزم القيام به في ظل ما اكتسب في الدورة من معلومات، وأساليب جديدة، وهما:

1ـ **وراث الدين عمر**: بعد إجزائه الشكر وافراً لمن هم أهل لذلك، يحدثنا عما هو مقدم عليه عند عودته إلى بلاده بقوله: «إني أستمر في الدعوة للإسلام، وهو العمل الذي كنت أمارسه قبل حضوري إلى هنا، لقد استفدت بالتأكيد من حضوري إلى هنا . . . لقد حفزني روحياً ومعنوياً حين أعود إلى أمريكا أن أستمر في نشر كلمة الإسلام، والآن لدي رؤية جديدة لإعادة دارسة (الكتاب المقدس) للخروج بدراسات مقارنة جديدة»[2].

والواقع أن أملاً فائقًا يحدوه في تطوير ما تلقاه والإفادة منه في خدمة العمل الإسلامي بأحد أكبر معاقل حركة التنصير العالمية؛ حيث عقد الشيخ ديدات أشهر حواراته وأهمها، وكانت له في أرجاء تلك البلاد جولات دعوية وجهود تاريخية خالدة، مما لا يستبعد أن يفكر في إحيائها هذا الأخ وشريكه الآخر من أمريكا وهو:

---

(1) هذه حياتي، ص 54، المصدر سابق.

(2) هذه حياتي، ص 54-55، مصدر سابق.

2 - **حمزة عبد الملك**: وهو أيضاً ممن لهم سابق عهد بالعمل الإسلامي قبل الالتحاق بالدورة كما يستفاد ذلك من سياق حديثه، وهو يعرض لبرنامج عمله لمرحلة ما بعد الدورة بالقول: «أنوي إن شاء الله حين أعود إلى أمريكا أن أستمر في تقديم هذا العلم وهذا التدريب بهذا الأسلوب، وهو النشاط الذي مارسته خلال السنوات القليلة الماضية، ولدي هناك فصل دراسي يعمل حالياً، وأعتقد أني قادر الآن على الارتقاء بالعمل، وأنوي أيضاً استغلال موجات الأثير المتاحة في نيويورك في العمل الإسلامي ولتكون منبراً لهذا النشاط»[1].

وعما لا يقل أهمية عن هذه المشاريع، والانطباعات السعيدة، عبّر الأخوة الآخرون ممن لا يتسع المقام لعرضهم الواحد تلو الآخر. والحقيقة أنه قد ساد الجميع إحساس عارم بالسعادة، وشعور موحد بقيمة هذه الدورة المفيدة، وأهمية العمل على ضرورة تنمية معلوماتها وفوائدها؛ لاستثمارها في مجالات الدعوة الإسلامية. ومما لا ريب فيه أن هناك مؤسسات قائمة لغرض تأهيل الدعاة، ودورات تدريبية يتوالى عقدها على كافة الأصعدة والمستويات، ولكن هذه الدورة ذات طبيعة مميزة وخاصة خصوصية منهج ديدات الحواري في خدمته للإسلام، فضلاً عن أهميتها الكبرى باعتبارها فرصة تعارف ثمينة لرجال تجمع بينهم المرابطة على ثغور الإسلام، وتأمين الدفاع عنه في خندق واحد، والتفاني في الآن نفسه لرفع رايته بنشر رسالته، وبهذه الدورة التي هي صورة من جهود ديدات الدّعوية، وغيرها من أنشطته الإسلامية المتنوعة يكون صاحبنا قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، حيث إنه «قد أهدى الشيخ ديدات خلاصة تجربته للشباب الواعد من جيل الدعاة الذين يتلقون منه دروس الدعوة، وقد أتوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها ليعلمهم فن الدعوة ومواجهة جحافل المبشرين وعتاة التنصير»[2].

ولقد كانت ملامح تشميره عن ساعد الجد في سعيه الإسلامي بادية لهؤلاء

---

(1) المصدر السابق ص 48-49.

(2) المصدر نفسه، ص 7.

المتدربين الذين ما أسعد ديدات حين ينجح في تكوينهم الجيد لتعقيبهم خلفاء له لأداء أعلى مهمة بالنسبة له في وجوده، تلك التي كرس حياته وضحى براحته وبمتاع دنياه من أجلها، ألا وهي رسالة الحوار والدعوة .

ولعل مما يثير الفضول التعرف على ما عسى أن تسفر عنه هذه الدورة وأخواتها من نتائج، وما هي حدود النجاح التي يتوقع أن يصل إليها هؤلاء المتدربون، ويحرزوها من انتصارات ومكاسب حوارية للدعوة الإسلامية، على الحركات والدعوات المضادة ؛ من تنصيرية وتهويدية وغيرها . وقد ذهب الأستاذ عبد الجليل شلبي باعتباره شاهد عيان على شيء من دور ديدات التكويني إلى التعبير عن قدر من التفاؤل بشأن النجاح المرتقب لمبرزي مدرسته ومنهجه فقال : «إن تلاميذ أحمد ديدات قد يتفوقون على المبشرين في مناظراتهم كما تفوق هو في مناظرته، ولا يأتي هذا التفوق إلا بدرس الكتاب المقدس»[1] .

وعلى الرغم من انعدام من استطاع منهم لحد الآن أن يلفت الأنظار، ويخلق في الرأي العام القناعة بجدارة خلافته للشيخ ديدات إلا أنه ليس من الوارد بالنسبة لي أن ينضب معينه الثر، وتتبخر جهوده الكبيرة، فلابد من ظهور رائد جديد لهذا المنهج سواء ممن أفاد من علمه على نحو مباشر أو غير مباشر؛ من طلاب وباحثين ؛ ممن شغلهم همّ معرفة حياته، ومنهجه، وجهوده، إلى جانب ما قام لديه من جدلية بين الممارسة والتصور فيما يتعلق بالعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر .

وهي ما ستتجه المحاولة إلى استكمال صورتها في المبحث القادم .



(1) مجلة الأزهر ج 8، 895، س 61، عام 1409 = 1989 م مرجع سابق .

المبحث الثالث

تصوُّره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر

يحسن التنبيه مسبقاً إلى أن ديدات ممن يغلب عليه الانتماء إلى الكفاءات العملية، أكثر مما ينتسب إلى الطاقات الفكرية، فهو من رجال العمل، وقادة الميادين الدّعوية، قبل أن يكون رجل فكر وصاحب مشروع نظري. مما يعني أنه ليس ثمه توازن في الظاهرة الديداتية بين القطب الحركي، وما يناظره من قطب فكري، ويرجع ذلك فيما أفهم إلى تكوينه الأساسي في منطلقه الدّعوي، حيث إنّه لم يحظ بدراسة نظرية من شأنها أن تدرجه في عداد كبار مفكري العمل الإسلامي ومنظريه، وإنما اندفع إليه مستجيباً لعوامل ظرفية ضرورية، تمثلت في سلسلة التحديات التي كانت تنتابه وغيره من المسلمين في تلك البيئة ذات الأغلبية المسيحية، وليس ضمور الجانب الفكري لديه مما يقلل من شأنه إطلاقاً، حيث إنه لم يكن ناشئاً عن تقصير أبداً، وإنما عن غلبة اهتمامه بأولوية العمل وضروريته. وكم من المفكرين المنظرين قصروا عن تحقيق الحد الأدنى من الأمجاد والانتصارات التي وفق ديدات لتسجيلها دفاعاً عن دينه، وتشريفاً لأمته، ومن ثم فإن ما تقدم من عنونة بجدلية الممارسة والفكر في عمل ديدات طرح يكتسب مشروعيته، ومبرر القول به؛ وذلك لاختلال التوازن عنده بين الطرفين العملي والفكري، لصالح الأول، على نحو يشجع على القول بأنه حتى النزر اليسير من الهامش المتاح للفكر والتصور لديه هو أيضًا عملي، باعتباره إما عوناً على العمل، أو دعوة إليه، أو رصداً لمخاطر التنصير في مختلف جوانبه، للتوعية بها، والتعبئة من أجل المقاومة والتطويق. إذن؛ لا مبالغة في القول بأن خطاب ديدات في جانبه الفكري يمثل خطاب تحد واستنفار للمقاومة، ولكن فقط بالحوار وغيره من الأساليب الواعية المتحضرة؛ لأن جوهر الخطاب يتمحور على المزاوجة بين الإنذار بخطر التنصير، والتبشير بمنهج وأساليب الانتصار.

ولكي تجلو حقيقة هذا الخطاب على النحو المقرر فيما اتضح لنا لا مندوحة من استعراض مداخلته في أحد المؤتمرات الدّعوية الهامة؛ حيث تشرف بالمشاركة فيه وكانت في كلمته التي نستعرض أهم أفكارها ما يعكس جانباً كبيراً من خطابه وتصوره للعمل الإسلامي المعاصر، على أن الشك مقطوع في تعدد المؤتمرات الإسلامية التي شارك فيها مما دفع الباحث إلى اعتبار مشاركته تلك أحد مجالات عمله الإسلامي

المتعددة الوجوه، وتكمن علة التركيز على هذا المؤتمر دون غيره لأهميته العالمية من جهة، ودقة تصويره لتصور ديدات من جهة أخرى وذلك تحت العنوان اللاحق :

أولاً: محتوى خطاب ديدات في مؤتمر طرابلس الدّعوي :

تكرمت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بدعوة ديدات مع غيره من مسلمي جنوب أفريقيا لحضور المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية التي انعقدت في طرابلس في الفترة ما بين 11 إلى 16 عام 1396من وفاة ﷺ الموافق 15-20 من الفاتح 1986 م تحت شعار «**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**» وفي قراءة تحليلية لخطابه الذي أدلى به تحت موضوع « حركة الدعوة الإسلامية ومشاكلها» : من خلال مداخلته في المؤتمر، تنكشف لنا ما شغل به ديدات في هذا المؤتمر من قضايا حرص على التركيز عليها، وذلك للتّنبيه : بأنها من أهم القضايا التي دأب على حملها معه في كل تجمع إسلامي؛ لعرضها على جمهور الحاضرين، وربما أيضًا لإفادة من سيستقصي أثره من بعده بما جرى عليه في المؤتمرات مما يمكن أن نسميه بأدب المؤتمرات عند ديدات .

ويظهر في مستهل متابعة هذا الخطاب، أن ديدات يتمتع بقدرة إقناعية في إيحائه للمستمع أو القارئ بأن من دأبه حين يشارك في المؤتمرات الإنصات العميق، والمتابعة الدقيقة لما يقدمه الآخرون من بحوث، وما تلقى من كلمات، وتقال من مداخلات؛ وذلك لغرض أن يستفيد منها ويبني عليها مناقشاته، ومداخلاته المؤتمرية .

ومن اليسير التوصل إلى هذا الاستنتاج بمجرد الاطلاع على هذا الخطاب، والذي يقول ديدات في مطلعه : «السيد الرئيس، أخوتي، إن الأخ الأمين العام الدكتور محمد أحمد الشريف قد ذكر هذه الآية ثلاث مرات في خطابه الافتتاحي يوم الاثنين، وبدا لي وكأنه يقترح علي أنه عندما آتي إلى هذه المنصة ينبغي أن أتناول هذا الموضوع : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : 120].

ومن هذه الآية الكريمة ينطلق ديدات في مداخلته مسترسلاً بالإفاضة في تناول ما يبدو لي أهم أفكار هذا الخطاب وموضوعاته واردة في النقاط الآتية :

1- النشرات المجانية الهائلة للحملة التنصيرية العاصفة:

من الحديث عن مضمون الآية بشأن ما يكنه اليهود والنصارى للمسلمين من عداء تاريخي قائم دائم، يتطرق ديدات إلى إيراد إحصائيات عن كم بعض المطبوعات التي ينشط المنصرون في نشرها مجاناً، بصورة يتضاءل مقارنة بها كل الجهود الإسلامية مجتمعة في هذا المجال، ومن ذلك قوله: «. . . منشور صدر في أمريكا بعنوان (الحقيقة الواضحة) . . (وكما هو في الغلاف فإنهم ينشرون منه ثمانية ملايين ألف نسخة شهرياً توزع مجاناً وما عليك إلا أن تملأ قسيمة للحصول على نسختك طول حياتك . . .) ولكن جميع الدول الإسلامية مجتمعة مع عائدات النفط التي لديها لا تستطيع إصدار ثمانين ألفًا فقط من مثل هذه المنشورات بينما هذا العمل تقوم به أسرة واحدة تدعى أسرة (أرمسترونج) في أمريكا، عمل شخص واحد فقط»[1]. وعن جهود نشر مذهلة لجماعة تنصيرية مزدوجة الهوية ما بين نصرانية ويهودية، ولا يتجاوز تعدادها في العالم حوالي مليوني شخص في العالم يقول ديدات: «وتوجد في نيجيريا البلد المسلم، أكبر مجموعة (شهود يهوه) بعد مجموعة الولايات المتحدة، حيث تأسست الجماعة قبل مائة عام وهذه المجموعة تنشر مجلة بعنوان (اليقظان) وتوزع تسعة ملايين وأربعمائة ألف نسخة شهريًا بأربع وخمسين لغة ونحن لا نستطيع إصدار مليون نسخة فقط، نفس هذه المجموعة تصدر مجلة أخرى بعنوان (المرقب) وتوزع عشرة ملايين وأربعمائة ألف نسخة بمائة واثنتي لغة»[2].

2 - ترجمة الكتاب المقدس إلى مختلف اللغات العالمية والمحلية:

يردف ديدات بما تقدم الحديث، عما يبذل من جهود كبيرة في مجال ترجمة الكتاب المقدس، وتوزيعه على أوسع نطاق ممكن على وجه البسيطة، وقد لفت أنظار المؤتمرين إلى ذلك بالقول: «وكما تعلمون أن المسيحيين في أفريقيا قد أصدروا الكتاب المقدس بمائة وسبع من اللغات الإفريقية . . . وأصدروا العهد الجديد بمائة وسبع عشر

---

(1) المصدر السابق 129.

(2) الصفحة ذاتها من نفس المصدر.

لغة ، وفي جنوب أفريقيا أصدروا ثمانمائة ألف نسخة من الكتاب المقدس في سنة واحدة وكل ذلك يوزعونه مجاناً ، كما أصدروا للأخوة العرب أحد عشر نوعاً من الكتاب المقدس بإحدى عشرة لهجة مختلفة»[1] .

وفيما يتصل بنشاط الطبع ، والترجمة والنشر ، ينتقل ديدات للتنبيه بلون آخر من نفس القبيل ، وهو أخطر من سابقيه ويتمثل في :

3 - إصدار نشرات تنصيرية ذات نفحات إسلامية :

وهي نشرات من نوعين ؛ تصدر إما منسوبة افتراء إلى شخصيات يُزْعَم ارتدادها عن الإسلام إلى الصليبية ، وإما تصدر موشاة بآيات قرآنية صحيحة ، ويرمي كلا النّوعين إلى تضليل البسطاء بتشويه عقيدتهم ، والتشويش عليهم . وقد أورد ديدات أمثلة شاهدة على الصنفين قائلاً : «وإليكم منشور آخر ، ها هو كتاب بعنوان «الكتاب» وانظروا إلى الخط الجميل ولأول وهلة يبدو كتاباً إسلامياً ولكن عندما تقرأون عن قرب تجدون أن هذا «الكتاب» ما هو إلا إنجيل متى وأي مسلم في البلاد غير العربية ... إذا وجد مثل هذا الكتاب سيلتقطه ويقبله ثم يضعه إلى جانب القرآن ، هذا من شدة احترامنا للقرآن فإن كل شيء يشبه هذا وأي شيء مكتوب بالعربية هو القرآن»[2] وبعد أيضاح وجيز لخطورة هذا النوع من الإصدارات للمسلمين من غير العرب ، يشفعه بالحديث عن النوع الأخر من الباب نفسه ؛ منصوصاً عليه بقوله «وهذا منشور آخر بعنوان (لماذا تحولت إلى المسيحية) تأليف : سلطان محمد بول ، فقد كان محمد وأصبح الآن (بول) وعندما تفتحون الكتاب تجدون عبر صفحاته آيات قرآنية وهي آيات قرآنية صحيحة ، فماذا ستفعل تحرقها ، وترميها؟ لا نحن متعودون على احترام وتقديس القرآن ، هذه آيات قرآنية ونضعها إلى جانب القرآن ومنشور آخر : (من الصوفية إلى المسيحية) تأليف مرتد آخر اسمه جون عبد السبحان ... وإذا فتحتم الكتاب تجدون الآيات القرآنية ، فماذا ستفعل تقبله وتضعه مع القرآن ، وهنا أيضاً كتاب (المسيح للمسلمين) وخمس كتيبات

---

(1) المصدر نفسه ، ص 130 .

(2) المصدر السابق ، ص 131 .

أخرى بنفس العنوان موجهة للمسلمين، وهذا كتاب بعنوان: (تحدي الإسلام في جنوب أفريقيا) الإسلام يتحدى في جنوب أفريقيا . . »[1].

والملاحظ على ديدات بهذا الصدد، أنه وإن كان محقاً فيما تملكه من تخوف إزاء هذه الجهود التنصيرية الخطرة الضخمة وهو تخوف في محله حقيقة، إلا أنه ليس في المستوى الذي يتصوره، والظاهر أن تقديره للخطورة مبالغ فيه، الأمر الذي أقلق عليه راحة باله وكدر عليه صفو هدوئه واستقراره النفسيين؛ حيث إن المستهدفين بهذه المنشورات بمن فيهم المسلمون، هم في أغلبهم موزعون بين من يعصمه وازعه الديني عن التأثر بما تتضمنه المنشورات من عقائد فاسدة، وبين من يحول تفشي الأمية في مجتمعه، وانشغال الناس بمتابعة هموم الحياة الاجتماعية والاقتصادية دون مجرد الالتفات إلى مثل هذه المنشورات، ناهيكم عن قراءتها والتأثر بها، فالمؤثر الفاعل في الحركة التنصيرية المعاصرة من واقع متابعتي لها وخاصة في أفريقيا، هي الخدمات الثقافية والاجتماعية بمختلف أصنافها بما فيها الطبية والإنمائية وما يتفرع عنها، وليست منشورات ما أقل من يلتفت إليها، أو يحفل بقراءتها.

4 - التحالف الصهيوني الأمريكي ضد الإسلام والمسلمين:

وهو من القضايا التي نالت اهتمام ديدات في خطابه باعتبارها من أكبر المشكلات التي تواجه المسلمين منذ ما يزيد على نصف قرن، والشيخ ديدات حريص على معلوميتنا بأن الصهيونية استطاعت تطويع أمريكا لخدمة مصالحها، وتحقيق أهدافها، وفي هذا التطويع يكمن سرقوة الصهيونية، حيث إن أي صراع ضدها يعني في حقيقته صراعاً ضد أمريكا في المقام الأول، إذ بدونها لا تساوى الصهاينة شيئاً مذكوراً. وبهذه الرؤية الواضحة يصوغ ديدات حلاً بسيطاً لمشكلة تعتبر أكبر مشكلات التاريخ المعاصر، وهو يقول: «إن مشكلتنا في الشرق الأوسط هم اليهود، ولكن اليهود هم لاشيء بدون أمريكا، وكل مرة نخوض حرباً فإننا لا نخوض حرباً في الواقع ضد

---

(1) المصدر نفسه، ص 131.

اليهود ولكن ضد أمريكا فكيف السبيل إلى التعامل مع ذلك الجالوت أمريكا؟ أقول إن الأمر سهل جداً هل تعلمون ما هو السر وراء قوة اليهود؟ إن قوتهم تأتي من المسيحيين ... هؤلاء اليهود قد أعطاهم الله عقلاً تمكنوا بواسطته من غسل أدمغة المسيحيين وجعلوا المسيحيين عبيداً لهم وأنتم بإمكانكم القيام بنفس العمل إذا كنتم تسعون لخوض معركة فكرية معهم»[1].

وإنّ ديدات بهذا التحليل يبدو محللاً سياسياً بارعاً يتجاوز مرحلة التدقيق في تشخيص أسباب المشكلات لطرح حلول واقعية ناجعة لها، لا تخرج عن دائرة استخدام الوسائل الفكرية المضادة. وللأسف نجده مسبقاً ينعى على المسلمين عجزهم عن المواجهة حتى بتلك الوسائل غير المكلفة مقارنة بغيرها، وقد ذهب إلى ذلك في الملاحظة اللاحقة.

5 - عجز المسلمين عن المواجهة بسلاح الفكر، ومقارنة الأديان:

يعيب ديدات على المسلمين - وبالأخص المتعلمين والعلماء منهم - ضعفهم وعجزهم عن المواجهة، لجهلهم بمجال المعركة، وأسلحتها القائمة على المقارنة الدينية. الأمر الذي يوحي بضرورة دوره، وأهمية جهاده في معركة الدعوة الإسلامية ضد مناوئيها، كما يستخلص ذلك من قوله: «فكيف يمكنك مواجهة ذلك فالجماهير الإسلامية ليس لديها وسائل المواجهة وحتى المتعلمين منا ليست لديهم القدرة على المواجهة ولا يعرفون شيئًا، صحيح أنني أرجع إلى علمائنا في أمور كثيرة ولكنهم في هذا المجال لا يعرفون شيئًا، والله لا يعرفون شيئًا.. فكيف يمكننا أن نحارب أناساً لا نعرف الذي يتحدثون عنه؟..»[2] هذا إذا صح حكم ديدات على متعلمي وعلماء بلاده فليس بالضرورة أن ينطبق على عامة من في هذا العالم الواسع من علماء ومتعلمين إنه تعميم غير مسلم به لخطئه وعدم دقته.

---

(1) المصدر السابق، ص 133.

(2) المصدر السابق، ص 133.

وهو من الأخطاء التي قد تواجه أي دارس حين يتعامل مع شخصيات قد تتحرر أحياناً عن مراعاة المقاييس العلمية المتعارف عليها من دقة وموضوعية وغيرها .

وربما لظنه بجهل المسلمين عامة لمجال المعركة وأسلحتها، تكلّف مهمة إفادتهم بها، وإرشادهم إليها، وهي تتمثل عنده في :

6 - المقابلة بالمثل، والمواجهة بسلاح المنهج القرآني:

لم يكتف ديدات بعرض المشكلات منتهياً عند حد ذلك فحسب وإنما تعقبها ببيان الحل المعتمد لديه لكافة تلك التي أتى على ذكرها من مشكلات تنصيرية وصهيونية، وفي طرحه لهذا الحل يقول: «نحن بدورنا قد اتبعنا أسلوباً جديداً وهو أسلوب مواجهة العدو في مواقعه. وهذه الفكرة مأخوذة من القرآن قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 111] وفي موضع آخر يقول تعميقاً للأيضاح: (وهذا ما نقدمه في هذه المعركة المستمرة مع اليهود ومع النصارى، فنحن نحارب ضدهم بالفكر وهذا ما يطلبه الله منا، أن نخوض المعركة الفكرية وهو يعدنا ويقول: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: 28]، وأن دينه سيظهر على جميع الأديان كلها . . . سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الهندوسية أو الشيوعية وأي معتقدات أخرى، فالإسلام سيعلوها جميعاً ويسحقها جميعاً»[1].

وبما أن ديدات غير موقن بأن باستطاعة كل راغب في هذه المواجهة الفكرية - ممن يجب عليهم - التوصل بجهده الخاص، وقدراته الشخصية إلى التوظيف الأمثل لهذا المنهج القرآني الحاسم في فعاليته الحوارية، فقد أخذ على نفسه ضرورة الإعلان للحاضرين بأنه خبير متبحر في مجال مقارنة الأديان، وهو الميدان الحقيقي للمعركة ضد الأعداء كما يراه ديدات، وأنه متاح للكل حق الإفادة من أعماله المنشورة،

---

(1) المصدر نفسه، ص 132.

وخبراته الناضجة، وهذا ما منحه ديدات للجميع في هذا المؤتمر من هدية غالية قائلاً: «ولقد دخلت معارك مع اليهود والنصارى فهناك طرق ووسائل لخوض هذه المعارك ولكنكم متكبرون وتعتقدون أنكم متعلمون لا تريدون التعلم على يد أطفال مثلي، أنا خبير في مجال مقارنة الأديان، واستفيدوا باستعمال منشوراتي وأشرطتي وإذا كانت لديكم أيّ أسئلة فسأكون سعيدًا للإجابة عليها»[1].

ومن الواضح أن هذه المنحة الغالية وردت خليطة بألفاظ جارحة كان يجمل بديدات عدم استخدامها، وهو في مؤتمر إسلامي يخاطب إخوانًا له ممن يشترك معهم في وحدة العقيدة، والقضية الواحدة، ولعل شدة تحمسه لقضية الدعوة الإسلامية، إلى جانب إحساسه القلق بالمخاطر المحدقة بها، هي التي دفعته في هذا المؤتمر إلى تصريحات لم تخل من حرارة التأنيب والغلظة في القول، الأمر الذي لم يسلم فيه من التناقض مع نفسه في بعض ما قاله، حيث إننا إذا استعرضنا ما ذهب إليه في هذا الخطاب نجده يتسم بشيء من التناقض؛ فهو في الوقت الذي يؤكد فيه عجز المسلمين، وجهل متعلميهم بمتطلبات المواجهة في هذه المعركة الفكرية - وهو أمر غير مسلم - به إلا أنه لا يلبث أن يتراجع عن هذا الحكم مقررًا نقيضه، فيما يشبه - تجاوزًا - عملية نسخ طرح لاحق لسابق، وذلك في قوله أخيرًا: «...وكل فرد منكم يمكنه القيام بهذه المهمة فلا تحتاجون فيها إلى أحمد ديدات أو أي شخص آخر فكلكم تستطيعون القيام بالعمل ويكون سلاحكم الفكر، وبالفكر تستطيعون دخول المعركة مع اليهود والنصارى والأمريكيين»[2].

وليس من عجب أن يناقض المرء نفسه أحيانًا، وتتضارب أفكاره، ولا سيما إذا كان هذا الشخص ممن ينحدر من مجتمع كان إلى عهد قريب - ولا يزال - يرزح تحت ثقافة المتناقضات، ويعيش واقع المفارقات الصارخة. وإلى جانب ما تقدم يطالعنا في هذا الخطاب على وشك من نهايته توجيه ديدات إلى المسلمين كافة رسالة:

(1) المصدر نفسه، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 133.

7 - الدعوة إلى الدعوة إلى الله :

يوصي ديدات في دعوة مفتوحة كل من ضمه المؤتمر إضافة إلى غيرهم من المسلمين بالقيام بواجب تبليغ الدعوة الإسلامية بكل جد وإخلاص، مفيداً بأن هدفه في عبور آلاف الأميال لحضور المؤتمر يتمثل في حمل هذه الرسالة إلى الحاضرين، وإلا فمعظم المؤتمرات التي تقام حتى الآن في تشهير ديدات بها هي عبارة عن لقاءات إصدار مجرد قرارات، بدون عمل جاد ومجد. وبهذه الكلمات نقل ديدات إلى الحاضرين الرسالة التي أتى من أجلها قائلاً: «لم آت عبر آلاف من الأميال لكي أسليكم وإنما أريد أن يكون كل واحد منكم من الآن حاملاً لشعلة الدعوة لتبليغ البشرية كلها رسالة الإسلام، كل فرد منكم يجب أن يقوم بهذه المهمة وما تفعلونه حتى الآن هو إصدار قرارات بدون عمل شيء، ولم يطبق من هذه القرارات شيء، إنه جميل أن نجتمع ونلتقي جميل والحمد لله ولكن يجب علينا أيضًا أن نفعل شيئًا أهم من ذلك»[1].

إنها حقًا لنصيحة طيبة، لكنها تنم عن عدم معرفة كافية لدى ديدات بالجمعية التي تكرمت بتنظيم المؤتمر ودعوته إليه. فالظاهر أنه ليس على أي علم بأنشطة الجمعية بما أنجزته عبر مسيرتها الزاهرة المعطاءة من إنجازات عملاقة متقدمة، وما أسدته للعمل الإسلامي والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من خدمات جليلة مشكورة.

ومع هذا العذر فليس من الغريب أن يلقى ديدات الحكم جزافاً بقياس هذا المؤتمر مع وجود الفارق على ما شارك فيها من عشرات المؤتمرات التي ربما يصدق عليها حكمه السابق.

وربما نتيجة وقوع ديدات في قيد تأثير هذا الحكم المسبق المعمم تشكل موقفه من المسلمين عامة، والعرب منهم بالأخص؛ حيث إنه يقسو في خطاباته للعرب، وهو يطالبهم بمزيد من الاهتمام الجاد بالعمل الإسلامي على نحو لا يسلم من القول بأنه يميل فيها إلى التهجم، والخشونة. ولعلّ في بعض أجزاء خطابه في هذا المؤتمر ما ينهض دليلاً

---

(1) المصدر نفسه، ص 133.

على ذلك[1]، بالإضافة إلى ما كان قد وجهه للعرب وهو في مدينة الرياض من نداء أليم، بأسلوب حار مثير، يدعوهم فيه إلى المسارعة لنشر الإسلام، وإعادة الأمجاد التاريخية المفقودة لأمتنا الإسلامية، وكان مما جاء فيه قوله: «اعلموا أيّها الرجال . . أن الله اختاركم يا عرب . . إنني أوجه حديثي الآن إلى العرب ولأول مرة . . إن الله اختاركم أنتم . . أنتم ولغتكم . . القرآن أنزل بلغتكم . . في البداية حاربتم لإعلاء كلمة الله أما الآن فأنتم تجلسون وترتكنون على ظهوركم . . لاتفعلون شيئاً في نشر الدعوة، إنها واجبكم أنتم في المقام الأول وليست بواجبي أنا لأنني هندي . . وهي لكم وبلسانكم»[2]. فيما يخص استنفاره للعرب لإعادة ما سلب، وتحقيق ما طلب، يقول في نفس المقابلة الصحفية: «إن الله منحكم - يعني العرب - فرصة ثانية، فرصتكم الأولى نلتموها في أسبانيا وفي الهند وفي كل مكان أينما ذهبت كنت ترى الإسلام، أمّا الآن فقد ذهبت تلك القوة من أيديكم . . والآن يمنحكم الله فرصة ثانية من خلال ما أسبغ عليكم من اقتصاد قوي، ونفط، ونفوذ ومشروعات عمل، فإذا لم تستثمروا هذه الفرصة فلن تبلغوا الهدف فإن من رحمة الله بكم أن يمنحكم فرصة ثانية»[3].

وفيما ينتظم في هذا السياق يحدثنا الدكتور عبد الجليل شلبي في زيارته لديدات أنه ناقم على الأزهر لسبب يتصل بدعوى التقصير في الرد على هجوم أعداء الإسلام[4]. ولعل هذا الموقف الاستثنائي الغريب الذي تبناه ديدات تجاه إخواننا العرب والأزهر كذلك، وأفصح عنه في كل من طرابلس، والرياض، وفي جنوب أفريقيا، هو ما يبرر اعتقادي بقلة مشاركته في المؤتمرات الإسلامية التي عقدت على الساحات العربية؛ حيث إن مسلكه في استنهاض همم العرب للقيام بواجبهم نحو الإسلام والمسلمين كان يفتقر إلى الحكمة، ولطف المداراة الأخوية، مما قد يسبب النفور منه، والإعراض عن استدعائه في أي عمل إسلامي، وجل من قال صادقاً:

---

(1) ينظر: المصدر السابق ص، 139، ص 130.

(2) مجلة الفيصل ع. 135/ 47، س 12، سبق ذكره.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) ينظر: معركة التبشير والإسلام، ص 186، مرجع سابق.

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]، وإن موقف ديدات من العرب موقف غير متوازن، ورؤيته للقضية بعيدة عندي عن الصحة، وقد وقع في خطأ يقع فيه الكثيرون معه، ممن يضعون في حسبانهم أن الإسلام دين العرب، وأنه يجلب لهم مصلحة مادية محققة على غرار النشاط التنصيري، ومن ثم يقف أصحاب هذا الرأي مكتوفي الأيدي في اعتماد كلي على المساعدات العربية في عملية خدمة العمل الإسلامي دون تحمل المسؤولية الشخصية في كل الإمكانات المتاحة لهم، صحيح أن للعرب فضلاً تاريخيًا، ودورًا عالميًا في نشر رسالة الإسلام، ولكن ذلك لا يعني الاعتماد الكلي عليهم وفي كل شيء، فبإمكانهم أن يقدموا مساعداتهم الفنية، وتغطية الجوانب اللّغوية والعلمية، دون التعويل على المساعدات المادية السائلة والتي أضرّت بالعمل الإسلامي المعاصر فيما أرى أكثر من أي شيء آخر؛ حيث كاد يخلو من كونه خالصاً لوجه الله إلى التلوث بوجه المال، ومصالح الدنيا .

ومما يعزز هذا الاعتقاد السائد لدى البعض بأن الإسلام دين العرب، وهم أصحاب منفعة خاصة في نشره، أن فرص اللقاء النادرة التي تتاح عادة بين المسلمين من عرب وغيرهم، هي في جملتها من حيث السلوكيات غير مشجعة على التقارب، فكثيرًا ما أدت إلى مزيد من التباعد بدلاً من التقارب، إذ قلما سلمت من حزازات ومشاحنات بين أطرافها لتثبت نقائض الصور الذهنية المسبقة التي كان يحملها أحد الطرفين عن الآخر في توهمه أن الإسلام دين العرب وهم ألزم الناس به، وأوثق تمسكًا به من غيرهم. وحين يصطدم بغير ذلك أحيانا ويخيب ظنه تراه يرجع القهقرى منقلبًا على عقبيه خاسرًا الدنيا والآخرة، وقد نسي قولة أبي بكر الصديق المدوية حين صدع قائلاً: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144]. وإن من المهم إدراك المسلم وغيره

بأن الإسلام وجود مطلق وإن الإنسان أي إنسان بمن فيهم العرب نسبيّ يتفاوت موقفه من هذا المطلق قرباً وبعداً باختلاف الزمان والمكان، والإنسان. وقد تقرر على ما جرى به الاعتقاد عند أهل السنة أنّ الايمان يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصها.

وإن لديدات أسوة حسنة في موقفه من العرب باعتباره من أهم القضايا التي وقف عندها، وهو يتحدث عن الدعوة الإسلامية في عالمنا المعاصر، وتتمثل تلك الأسوة في الأستاذ أبي الحسن الندوي، وهو من أصحاب الشأن العظيم في مجال العلم والدعوة وقد كان يشاطر ديدات الرأي بشأن ما يرجى للعمل الإسلامي من دور عربي كبير غير أنه كان أو فق خطاباً، وأرفق أسلوباً من شيخنا ديدات.

ويتضح ما بين الأسلوبين من فارق في قول النّدوي في محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات العربية: «إن هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم، ولا تملأ هذا الفراغ الأمة العربية الإسلامية ... لقد كانت رائدة الإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون، ولا تزال رائدة الرسالة الإنسانية في هذا القرن، لو عرفت قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها، ولو عرفت ضخامة رسالتها، ولو عرفت عظم مسؤوليتها، فمتى تنهض الأمة العربية الإسلامية وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد وهو نور الإسلام، وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن وفي صفحات السيرة النبوية»[1]. بهذا الأسلوب اللين الرقيق يلقي النّدوي خطابه، وذلك لعلمه بأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. ومع تخصيص ديدات العرب بجانب كبير من المسؤولية والعتاب إلا أنه يتجاوزهم في بعض المواقف إلى مؤاخذة المسلمين جميعاً بالتقصير في الدعوة مؤكداً مسؤوليتهم إزاء جهل الآخرين بحقائق الإسلام، كقوله على سبيل المثال: «.. نحن المسلمون مسؤولون إلى حد ما عن هذا الجهل المذهل للمليار ومائتي مليون مسيحي في العالم، إننا لم نفعل أي شيء هام لكي نزيل نسيج العنكبوت المضروب علينا»[2].

---

(1) السيد عبد الماجد: أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص 117، ط2/ 1420هـ 1999م، دار ابن كثير، دمشق؛ بيروت.

(2) محمد ﷺ المثال الأسمي، ص 16، مصدر سابق.

ورغم هذه المؤاخذات الشديدة فإن ديدات ممن يحترم ويقدر كافة الجهود التي تبذل لبناء صرح الدعوة الإسلامية في هذا العالم، وإن قلّت، وأصدق شاهد على ذلك قوله: «. . دعني أعبر على نحو ملائم عن احترامي وإعجابي بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة الذي يقوم بطباعة الملايين من النسخ المترجمة لمعاني القرآن الكريم في عديد من اللغات المختلفة»[1].

وبالجملة، يستشف من خلال ما سبق أن خطاب ديدات في المؤتمرات خطاب تفزيع وانتقاد، يتراوح بين قطبي التنصير والتقصير، أي يفزع الحضور بهول التنصير، وينتقد المسلمين على طول التقصير، وبغض النظر عما يمكن أن يسجل على خطابه من ملاحظات كثيرة، فإن مما لا ينكر أنه كان وهو يحضر الملتقيات الإسلامية صاحب قضية عملية، ورجل دعوة ميدانية، وكان يصدر في مداخلاته عن تجربة ثرة، ويعبر عن معاناة مزعجة، ولذا كان من طبيعته الإفصاح عن مراده بلا مواربة، وإنما بكل وضوح وصراحة، والواقع أن الحقيقة لا تؤلم طالما سيقتْ في أسلوب أدبي محترم يترفع عن الطعن والتجريح، ويبعد عن الاستفزاز والاستخفاف. ولعل ما كان يميزه من بالغ الجدية والصرامة في كل مناشط حياته هو الأساس الذي قام عليه ما عرف به من مصارحة الجميع بجميع الأخطار، وتسديد سهام النقد بالتقصير الدّعوي إلى الخاصة والعامة، وإن بعضاً من الصعوبات والعتابات التي يمكن أن يتعرض لها الحضور في المؤتمرات التي يشارك فيها ديدات بدت واضحة من خلال ظاهرتي التقريع والانتقاد اللتين سادتا مداخلته في هذا الملتقى الإسلامي، وأحسب من خلال استعراض أهم الأفكار الواردة في خطاب ديدات في هذا المؤتمر أنه قد تبين إلى حد ما جانب هام مما أسميناه بأدب المؤتمرات عنده، والذي يحتل مساحة واسعة من تصوره العام للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر.

وقد بادرنا سلفًا إلى الإشعار بأن الجانب الفكري في منهج ديدات للحوار والدعوة أقل خصوبة من نظيره العملي، وهو فضلاً عن قلته، وضيق مساحته يتركز على الإخطار بالحملة التنصيرية بما لها من أهداف ووسائل، وبما تتمتع بها من إمكانيات مادية ومعنوية

---

(1) المصدر نفسه، ص 28.

وما حققته في عملية تنصير المسلمين من نجاحات قليلة لا يستهان بها .

وكل ذلك من أجل أن يهب المسلمون ، وينفروا للمواجهة ويكثفوا من جهودهم الدّعوية لتعم العالم بأسره .

ولخطورة هذه الموجة التنصيرية العاتية سنقف عندها بعض الشيء وفقـًا لتأملات ديدات ، وتبعـًا لوقفته الممتدة معها .

ثانياً - حملة تنصير المسلمين كما يراها ديدات :

تشكل حملة تنصير المسلمين تحديـًا خطيراً يستهدف عقيدتهم ، ومشكلة مركزية في الآن نفسه تواجه حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة ، فلذا من الطبيعي ، بالنسبة لظاهرة تتوافر على قدر بالغ من الخطورة كما هو شأن الحركة التنصيرية أن تستأثر باهتمام ديدات وفائق عنايته ، وهو من عاين عن قرب واقع هذه الحركة ولمس الكثير عن حقائقها ، بل إنه قد عاش في بيئة أتاحت له معايشة ما تمتاز الحركة التنصيرية به من نشاط هائل ، وجدية لا تفتر في العمل على تنصير المسلمين ، بمختلف الوسائل والأساليب ، ولو بالاستفزاز والتحدي حينما تستعصي عليها مطالبها الحاقدة ، وهو الأغلب في مردود جهودها . فيا للحسرة ، ويا للخسارة .

وكان يتملك ديدات عجب لا ينقضي حين يتأمل فيما تهدف إليه الإرساليات التنصيرية بجهودها الهائلة ، وإمكانياتها الجبارة في ضوء ما آلت إليه أوضاع الكنائس ورعاياها في بلادها وفي العالم أجمع من فساد في السلوكيات ، وتنكّب عن جادة القيم النبيلة ، الناجم عن تنكرها للمبادئ الإنسانية القويمة ، وهو ما تألم له ديدات كثيراً ، فلم يسكت في أيّ مناسبة ملائمة عن التعبير عن شيء من ذلك كما جاء في قوله : «وحتى هذه اللحظة لا يستطيع السود والبيض والملوّنون والهنود أن يصلّوا معاً في أغلب الكنائس الهولندية والبروتستانتية في جنوب أفريقيا»[1] .

والواقع أنه لم يكن يخالجه أدنى شك في أن التنصير الغربي مشروع سياسي ،

---

(1) الحل الإسلامي للمشكلة العنصرية ، ص 44 ، مصدر سابق .

يكيد لمحاربة الإسلام باستهدافه المسلمين، حيث إنه: «قد درست عدة مؤتمرات كنسيه الأوضاع السائدة في الدول الفقيرة، ووضعت خطة لتنصير المسلمين والعمل على وقف انتشار الإسلام بين غير المسلمين، وقد رصد لذلك ألف مليون دولار وشكلوا مئات الفرق والكتائب من المنصرين تدعمهم أساطيل من السفن والطائرات المحملة بملايين الأطنان من الطعام والدواء والكساء لتنتشر في مناطق المسلمين التي تتوطن فيها الكوارث والأمراض والمجاعات»[1].

ويأتي هذا القول تأكيداً لحقيقة امتداد النوايا والأعمال التنصيرية في مواجهة الإسلام، وتنصير المسلمين، وذلك فيما سبق أن أشار إليه الأستاذ عبد الفتاح مقلد الغنيمي بالقول: «.. هذا بالإضافة إلى بلايين الدولارات التي صرفتها الحركات التنصيرية لهذا الغرض بما فيها فتح المدارس والجامعات والمستشفيات، ودور الأيتام والمدارس المهنية وغيرها من شتى أنواع النشاطات الخيرية والاجتماعية والإنمائية وتخصيص منح دراسية لأبناء العالم الإسلامي لتتولى الكنائس تربيتهم بالإضافة إلى أنه توضع تحت تصرف بابا روما بلايين الدولارات سنوياً للتبشير ومكافحة الإسلام ورعاية شؤون المسيحية»[2]. إن هذه الشهادات الصادقة تقدم مؤشرات مؤكدة لتاريخية العلاقة الوثيقة بين التنصير، ومشاريع الهيمنة الغربية على العالم. وبالأخص على الشعوب المناضلة، ذات النزعة التحررية؛ حيث استغلت النصرانية منذ قرونها الأولى لمآرب تتناقض مع مهمتها الدينية، بأن «كانت عناية الرومانيين بتنظيم مراكز الدعاية والبعثات لنشر النصرانية غير خافية على أحد، فقد شرعوا منذ سنة 343 ب، م في إقامة مراكز عديدة للتبشير وكانت بلاد نجران من أهمها وقد نجحت في تنصير العرب نجاحاً عظيماً»[3].

وحين تولت أيام الدولة الرومانية، وظهر مشروع الهيمنة الغربية في وجه جديد،

---

(1) محمد إبراهيم: «دور النشاطات الاقتصادية والإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة» ص 104، من أعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في جنوب شرق أسيا، مرجع سابق.

(2) الحركات التبشيرية وكيف نواجهها ص 580 من مجلة الوعي الإسلامي، 1564، عام 1379هـ -1977

(3) عبد العزيز الثعالبي: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان ص 133، ط 1/ 1985، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

عادت التجربة لتكرّر نفسها من خلال واقع التلازم بين الاستعمار والتنصير، الأمر الذي لا إمكانية إلا في ضوئه لفهم ما قاله أحد الباحثين: «... ومعلوم أن الجمعيات والإرساليات التنصيرية بمختلف انتماءاتها المذهبية، واجهت بعضها البعض في الساحة الإفريقية، كل في سبيل الدفاع عن مصالح الحكومة الاستعمارية التي تمول نشاطاتها»[1].

وبمتابعة ديدات في أحاديثه، وكتاباته عن التنصير نجده يقدم بيانًا مسهبًا عن مجمل جوانب هذا النشاط، وتقييمه له وما يتحتم على المسلمين القيام به، في التصدي له، والقضاء عليه، وحتى تنتظم رؤيتنا للصورة التي يحرص على تقديمها عنه، يفضل إيراد عروضه عن التنصير والمنصرين في المحاور الآتية:

1 - تكوين أعداد هائلة من المنصرين:

يذهب ديدات إلى أن الجهات التي تقف وراء الحركة التنصيرية، حريصة على نشر أعداد هائلة من جنودها في كل مكان، لإثارة غبار الحرب الدينية في العالم، ومعظم هؤلاء الصليبيين الجدد من الأمريكان بنسبة 60٪ منهم، وذلك في الوقت الذي تبدو فيه أمريكا في أمس الحاجة إليهم أكثر من غيرها، طالما أن الهدف المعلن ديني إنساني كما يدعون. وعن الإعداد الكمي السريع لأركان جيوش التنصير في جنوب أفريقيا يقول ديدات: «من السهل التحدث عن الزمالة الدينية والأخوة في الإنسانية، ولكن هناك في جنوب أفريقيا اليوم ألف من الطوائف والملل المختلفة بين البيض، وثلاثة آلاف من السود، وتفرخ كنائس البيض في بلدتي أساقفة سود بمعدل سريع، ولكن في أول 300 سنة من الاحتلال الأوربي لم يتخرج من كنائس البيض أسقف أسود واحد»[2].

وذلك لأن الاستعمار كان مجسداً بالقوة العسكرية، والوجود الفعلي للمستعمر. وبعد أن انسحب شكلياً نتيجة ضغوطات المقاومة راح يفوض الحركة التنصيرية للنيابة عنه في أداء مهمة الوجود المباشر على الأرض تكملة لما يقوم هو به عن بعد من دور

---

(1) أحمد انداك نوح: الاستعمار الغربي وأثره على علائق التواصل بين شمال أفريقيا والسودان الغربي، ج2، ص 558-559، رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1421=2001م.

(2) الرسول الأعظم ﷺ، ص 47

استعماري غير مباشر خلف ستار السياسة والاقتصاد، وعن طريق الثقافة والإعلام.

ونظراً لثقل وخطورة المهمة الاستعمارية الملقاة على عاتق الجنود المنصرين، ومدى تعويل المستعمر عليهم في الوصول إلى ما رسمه لهم من أهداف خبيثة، فإنه يحرص على انتقاء العناصر المؤهلة لها، ممن يتوفر فيهم شرطا الكفاءة والإخلاص، فيزودهم بالمزيد من التدريبات ذات المستوى الرفيع، مستفيداً في ذلك من خبرات متراكمة عبر قرون تنصيرية عديدة، كما ورد في قول ديدات؛ «وهؤلاء لديهم خبرة هائلة، وهم متدربون جيداً وهم قد مارسوا التبشير المسيحي خلال ما يزيد عن خمسمائة عام فهم متمرسون على عملهم ويعرفون أهدافهم ويعرفون كيفية تحقيق أهدافهم»[1]، وهذا التدريب التنصيري عام وشامل يغطي كافة المجالات التي تخدم عملية التنصير، وتحقق الأهداف المرجوة من ورائها، وقد تحدث الدكتور محمد عبده يماني عن التكوين الإعلامي للمنصرين فقال: «من أهم ما تعنى به الإذاعات الدينية التبشيرية إعداد الدعاة الذين يستطيعون استخدام الراديو أو التلفزيون أو كليهما بمهارة فائقة وفقاً لظروف كل من المجتمعات المستهدفة»[2]. وعما يتمتع به القوم على ضلالهم من إخلاص نادر في سبيل نشر باطلهم كتب أحد المؤرخين قائلاً: « . . فإن كثيرين من المبشرين في تحملهم لمشاق الحياة في ظروف شديدة البؤس (منها أنه لم يكن لهم إلا إجازة واحدة كل عشر سنوات» كانوا قد بلغوا في نضالهم بساطة رجال الكنيسة في عصورها البطولية الأولى)[3]. وإلى جانب الرجال وقفت المرأة المنصرة من خلال عملها في مجال الصحة، والخدمات الاجتماعية لبذل ما عز من تضحية غالية عكست إلى حد بعيد مقدار إمعانها في نكران الذات.

2 - وسائل التنصير وأساليبه:

يحصي ديدات عدداً من الوسائل والأساليب المتبعة لدى من يسعون لتنصير المسلمين في مختلف مواطنهم، ومن تلك التي أوردها:

---

(1) هذه حياتي: ص 88، مصدر سابق.

(2) أفريقيا لماذا؟ ص 435، مرجع سابق.

(3) تاريخ أفريقيا السوداء - ج2 / 777، مرجع سابق.

أ - **استخدامهم السفن التنصيرية في إندونيسيا**، وهي سفن تتنقل بين موانئ الجزر الإندونيسية، ويعمل أصحابها لجذب الأهالي إلى متنها كلما رست في ميناء جزيرة من جُزُرِها الزائدة على ألفي جزيرة. وقد صور لنا ديدات هذه التجربة التنصيرية الجديدة بقوله: «لديهم سفن توظف في العمل التبشيري.. من هذه السفن: سفينة تدعى (لوجوس) وسفينة أخرى (دولوس)، وهذه السفن تتنقل بين الموانى ويشجعون الناس للصعود إلى ظهر السفينة، والناس بطبيعتها تسرع إلى ذلك.. فهي تجربة جديدة وطريفة،.. ولذلك عندما ترسو السفن، وتفتح الأبواب للزوار يندفع الجميع إلى ظهر السفينة مسلمين وغير مسلمين ليتفرجوا، وهناك تقدم لهم المطبوعات، وتتم عمليات غسيل المخ»[1]. ومن المعلوم فيما أعتقد ما تتمتع به الحركة التنصيرية في هذا البلد المسلم (إندونيسيا) من نشاطات متنوعة وإمكانيات ضخمة، مما يؤكد استهدافَهَا للإسلام، وملاحقتها للمسلمين في عقر ديارهم، والعياذ بالله من شرها ومكرها.

ب - **أسلوب الدق على الأبواب**: والمقصود به: التنصير بيت بيت، كما نشهده في معظم الأقطار الأفريقية وبالأخص في مناطق المسلمين وأحيائهم؛ إذ ينشط المنصرون طوال نهارهم في اختراق حرمة المنازل للتشويش على أهلها ببضاعتهم الغربية الكاسدة في سوقها، ومن خلال هذه الاتصالات الشخصية يقوم المنصرون بالتكريس لعقيدتهم بالحوار، وبتوزيع المطبوعات، ومختلف الوسائل الفكرية الأخرى، وأما في الدول المحصنة في وجه التنصير، والمجتمعات التي يتعذر فيها النفاذ إليها بالوسائل والأساليب المكشوفة المباشرة فيتسلل التنصير إلى اختراقها بإحدى الطرق الآتية، أو أكثر من طريقة.

ج - **الاتصال بالمستهدفين عبر البريد**: ويتم ذلك خفية بالاستعانة بدليل الهواتف، حيث يلتقط المنصرون منه أسماء وعناوين من يودون الاتصال بهم، فيرسلون إليهم خطابات تستدرجهم للتعرف على المزيد من الفكر الصليبي بالإضافة إلى

---

(1) هذه حياتي: ص 90.

تخصيص نسخ مظروفة من الكتاب المقدس، وبعض الأدبيات التنصيرية [1].

د - **ممارسة التنصير عن طريق الخيامين** : وفي توضيحه لهذه الوسيلة يقول : « . . كان بولس يمتهن صناعة الخيام . . كان خياماً، وفي أيامه كان يرحل إلى أماكن هنا وهناك . . وكان الناس يفدون إليه إما لإصلاح خيامهم أو شراء خيام جديدة فيتحدث إليهم مبشراً، بمعنى أنه كان يبشر . . ويبشر من خلال مهنته، لذلك فإن الخيامين في عصرنا هذا هم من الأطباء . . يختفون في مهنة الطب، ويتسترون ويتخفون في مهنة تدريس الرياضيات أو الإنجليزية، وبحجة أنهم سيدرسون لأولادنا اللغة الإنجليزية أو العلوم»[2]، وقد نبه الدكتور الزيادي في دراسة له إلى خطورة هذه الوسيلة التي يجهلها الكثيرون مفيداً بجملة المزايا التي توفرها للمنصرين، والتي صاغ أهمها في النقاط الآتية :

1 - إنها الوسيلة الوحيدة لدخول التنصير إلى المناطق المغلقة كلياً .

2 - إنها الوسيلة المثلى لتجاوز كافة الصعاب القانونية التي قد تفرضها بعض المناطق المغلقة جزئياً .

3 - انعدام التكاليف المادية بتاتاً .

4 - إمكانية استغلال الفكرة بسعة لا مثيل لها انطلاقاً من حجم العمالة التي تحتاج إليها بعض البلدان المقصودة بهذا النوع من العمل التنصيري»[3] .

وبهذه الوسيلة الخفية البريئة في ظاهرها يتسلل المنصرون ضمن وسائل أخرى إلى مجتمعات العالم الإسلامي المحصنة . ولعل أكبر ما يكون خطرهم على الشباب الناشئة، وطلبة المؤسسات التعليمية، ممن لا تتوفر لديهم عادة من الوعي بهذه الوسائل الملتوية ما يحميهم عن مخاطر أهدافها، ويمنعهم عن الوقوع في كمينها . .

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(3) الدكتور محمد فتح الله الزيادي، «التنصير في واقع العالم الإسلامي» ص 60 من جلسات ووثائق لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة الإسلامية من 18-22 -الفاتح عام 1425، طرابلس، الجماهيرية . .

هـ - **الكتابات المعسولة المسمومة** : يرى ديدات أن المنصرين عدلـوا في الغـالب بحكـم خـبراتهم وأخذهـم بنصـائح المستشـرقين عـن أسـاليب التهجـم علـى الإسـلام ورسوله ﷺ وانصرفوا عن مختلف الممارسات التي تنفـر المسـلمين منهـم ، وتجعلهـم في مواقف صدامية معهم. فبعد أن خبروا أن تلك الأساليب فاشـلة ، إذ لـم تجـد مـع المسلمين ، أخذوا في كتابة كتب رائعة عن الإسلام مدسوسة بسموم زعافة ، قـل مـن ينتبه مـن القـراء إلـى النوايا المضمـرة في أعماقهـا وذلـك لممارسـةالتأثير اللاشـعوري عليهم ، وهـو تـأثير وإن كـان بطيئـاً إلا أنـه أكيـد المفعـول ووخيـم العواقـب ؛ حيـث تشوش على القارئ ، وتعمل على تشتيت بنية فكره وعقيدته لإتاحـة فرصـة القبـول بسهولة بأي فكر أو عقيدة بديلة . ومن الكتب التي تندرج تحت هذا النوع كتاب نداء المئذنة [the coll of the minaret] لمؤلفـه : لاكينيـت كـراج . الـذي عمـل في القدس بصفته مطراناً . وفي حديث ديدات عن هذا الاتجـاه التنصـيري الجديـد الـذي يمثله هذا الكتاب سجل قـائلاً : «حينمـا تبـدأ في قـراءة الكتـاب وتتصفحـه ابتـداء مـن الغلاف ، لا يمكن أن تتعرف على الكـاتب ولا تظـن أبـداً أن الرجـل يمكـن أن يكـون مسيحياً ، وأنا بكل خبرتي والمعلومات التي لـدي عـن أسـاليبهم قـرأت هـذا الكتـاب الذي أهداه إليّ أحد أصدقائي ، وقرأت أكثر من نصفه وأنا لا أدري إن كان الكـاتب مسلماً أو مسيحياً ، ولكن بعد ذلك تكشفت الأمور»[1] .

وإذا كان ديدات مع خبرتـه بفكرهـم وإحاطته بخبثهـم ودهـائهم لا يكـاد يهتـدي إلـى خفي أساليبهم الجديدة ، فما بال العامة من المسلمين ممن هم دونه بكثير في هذا المجال؟ .

و - **استدراج العامة بالحوارات الساذجة** : وهو من الأساليب الذكية التي يعتمدها المنصرون في حوارهم مع العامة ، وينطلقون فيه من أرضية المشترك مستدرجين مـن يريـدون استغواءه بطـرح السـؤال تلـو الآخـر عـن إيمانـه بالمسيح وبميـلاده المعجـز ، وسـائر معجزاتـه المؤكـدة لرسـالته ، ويتمـادى المنصـر في حـوار يقـوم علـى المقارنـة الضمنيـة بـين المسيح عليه السلام ، ومحمد ﷺ للوصول أخيراً إلى استنتاجات غير منطقية تفيـدُ أفضيلـة السـابق علـى

---

(1) هذه حياتي ، ص 94، مصدر سابق .

اللاحق، وأنه قد صلب فداء للبشرية من الخطيئة الآدمية الموروثة، فيجد العامي نفسه بذلك أمام حرج، وقد انهزم ولم يبق وفقاً لتعبير ديدات إلى أن «يبدأ المسلم في التخبط في الجدل والمناقشة لأنه غير مدرب، والرجل متدرب، ومجند لعمله . . »[1].

هذا... بينما لو كان المسلم العادي ممن يتمتع بقليل من العلم بالفكر الصليبي وأسلوب الحوار لا نتصر لدينه موقعاً الهزيمة بغاويه .

ز - **الابتعاث إلى الخارج** : وقاية لأبناء المسلمين من كيد المنصرين يحذر ديدات من مغبة ابتعاثهم إلى العالم الغربي، وهو ما يشبه عنده قذفاً بالأبناء أمام أنياب الأسد دون سابق إنذار ؛ حيث يعمل المنصرون بشوق ولهفة على تسميمهم وتضليلهم، كما تصور ديدات ذلك بقوله : «إن مهمة التبشير واحتواء أبنائكم مهمة سهلة، فأنتم ترسلون أبناءكم إلى الغرب، وهم يستغلونهم هناك ويقيمون لهم حفلات استقبال وتعارف وهم ينتظرونهم بفارغ الصبر، فإذا وقعوا في أيديهم فلن يفلتوا»[2].

وأعتقد أنه ليس بالضرورة أن يكون الابتعاث إلى الغرب فرصة ممنوحة من المسلمين لتنصير أبنائهم، وإن تعرض البعض لحملات التنصير أثناءه إلا أن من يقع فريسة لها أقل من النادر جداً، وإلى هذا الحد يلاحظ أن ديدات حين يتحدث في هذا المجال لا يرمي إلى عملية حصر شامل لمختلف الوسائل والأساليب التنصيرية الخفية منها والجلية، بقديمها وحديثها، بل يكتفي فقط بعرض نماذج قليلة منها، مما يجعله لا يعير اهتماماً لذكر العديد منها، ومن ثم يجد الدارس نفسه في حدود ما بين يديه من أعمال ديدات أمام إغفال شبه تام لمختلف الوسائل والأساليب القديمة وغيرها مما تعارف عليها الناس، وباتت غنية عن التعريف بها، أو ربما حتى مطلق الإشارة إليها إلى جانب سكوته عما أورده الدكتور مبارك قسم الله في قوله : « . . وفي مرحلة متأخرة اتخذ التبشير أساليب أكثر التواءً كالعيادات البيطرية والإرشاد الزراعي، وحفر الآبار الارتوازية بل والمساهمة في توطين الرحل ومكافحة التصحر والجفاف والمجاعة، استغل التبشير المسيحي فقر

---

(1) هذه حياتي، ص 97.

(2) المصدر نفسه ص 13.

ومرض وجهل الأهالي في الأماكن المختلفة ومن ثم ركز على تلك المناطق ليكسب ما يستطيع من أتباع تحت وطأة الحاجة وتحت إغراء الوظيفة المنتظرة للطلاب الذين يكملون دراستهم بالمدارس التبشيرية وفقاً لمناهج البلاد المستعمرة . . »[1] .

وبالإضافة إلى هذه فقد أورد الدكتور شوقي أبو خليل ما نعتبره من الوسائل المكملة لسابقتها ، وهي تتراوح ما بين وسائل إعلامية واجتماعية ، وثقافية واقتصادية ، وغيرها من الخدمات الإنسانية في مناطق الحروب والكوارث ، فضلاً عن بناء الكنائس الاستفزازية الفخمة ، وتشجيع الحركات المارقة من الإسلام[2] ، ودعم الشخصيات القلقة المنشقة عن صفوف المسلمين .

3 - **من جهود المنصرين ومشاريعهم** : يشير ديدات لِمَامًا إلى شيء من الجهود التنصيرية الموجهة صوب القارة الأفريقية ، وإلى إندونيسيا وباكستان الإسلاميتين من القارة الأسيوية[3] ، ويظهر عليه عدم الاستيعاب في التناول فضلاً عن قدم الإحصائيات التي ترد في ثنايا معالجاته للموضوع ، سواء من خلال مقالاته الكتابية ، أو عبر مقابلاته المنشورة ، ولعل الدكتور شوقي (أبو خليل) أظهر توفيقًا منه في تصويره للجهود والمشاريع التنصيرية في أفريقيا بقوله : «يعمل في أفريقية 113 ألف منصر ، ويشرفون على تعليم أكثر من خمسة ملايين فتى وفتاة وبلغت المستشفيات والمستوصفات التي أقامتها الإرساليات 1600 مستوصف ومشفى كنسي وارتفعت قيمة الدعم المالي للمنصرين فبلغت 3.5 مليار دولار سنوياً ، ووصل عدد المدارس اللاهوتية لتخريج المنصرين والقساوسة في أفريقية إلى 500 مدرسة لاهوتية ، بالإضافة إلى عشرين ألف معهد كنسي في أنحاء القارة وكلها

---

(1) الدكتور مبارك قسم الله «التصدي لما يهدد المسلمين من أخطار» ص 61-62 ، من بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث الدعوة الإسلامية ، مرجع سابق .

(2) ينظر : الدكتور شوقي أبو خليل «المستجدات المعاصرة في حركة التنصير» ص 352 ، 353 ع 9 من مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس الجماهيرية .

(3) ينظر : هذه حياتي ص 88-90-91 .

تعد المنصرين إعداداً خاصاً»[1] .

وطبعاً فإن هذه المشاريع الخارقة ، ومثل هذه الميزانيات الضخمة مما يثير الكثير من الشكوك والأسئلة حول مصادر تمويل الحركة التنصيرية المعاصرة .

4 - **تمويل الأنشطة التنصيرية :** يعزى الجانب الأكبر من مصادر تمويل برامج الحركة التنصيرية والقائمين عليها ، إلى مخصصات الدول وتبرعات الأفراد السخية .

وعلى الرغم من قلة نسبة المسيحيين المتدينين في العالم الغربي ، إلا أن هذا القليل يسهم إلى جانب الميزانيات المرصودة من بعض الحكومات بدور تمويلي وافر في دعم المشروع التنصيري ، بالإضافة إلى الجهود الاستثمارية الواسعة التي تعنى بها الهيئات التنصيرية ، وبناء عليه يمكن القول وبكل ثقة بأن النشاط التنصيري مدين بالكرم في استمرارية وجوده وبقائه المتوسع إلى كل من حكومات العالم الغربي ، وتبرعات أثريائه مناصفة ، وذلك على سبيل التجاوز حيث إن للاستثمارات أيضاً دوراً معتبراً في هذا الشأن ، إلى جانب المجمد من رؤوس أموال المسلمين وفوائدها التربوية .

ولعل بروز الجانب المدني في تمويل النشاط التنصيري هو ما أدى بديدات إلى القول : « . . والناس في الغرب ليسوا متدينين عموماً ، فالذي أعلمه أن ثلاثة بالمائة فقط من الناس في بريطانيا يترددون على الكنسية ، وفي أمريكا يتردد أيضاً ثلاثة بالمائة فقط على الكنسية ، ولكن هؤلاء الذين يترددون على الكنيسة يشكلون جبهة قوية جداً وهم يحركون العالم كله . . »[2] . وهو ما يذكر بما مر بنا من قوله في مؤتمر طرابلس بجهود أسرة أمريكية واحدة في طبع ونشر ملايين النسخ شهرياً من كتاب الحقيقة الواضحة . وتأكيداً للرأي نفسه يقول أحد الدكاترة : «لم يبخل الأغنياء النصارى بأموالهم ، بل بذلوا بسخاء للمبشرين ، وكثيراً ما كان هؤلاء يحضرون المؤتمرات التي تقام لتوجيه أعمال التبشير ولا ينتظرون من يطلب منهم ، بل هم الذين يعرضون

---

(1) مجلة الكلية ع 9/ 347 ، مرجع سابق .

(2) هذه حياتي : ص 88 ، مصدر سابق .

الأموال»[1]. ويذهب القائل نفسه إلى أن أول اجتماع من نوعه عقده المولون من أغنياء أمريكا كان عام 1906م قرروا فيه تشكيل لجنة تنسيقية مع رؤساء كل إرساليات التبشير الأمريكية للتشاور والتعاون على الأمور الآتية:

1 - بذل المجهودات لأجل تربية المبشرين العلمانيين.

2 - البحث وإعمال الفكر لرسم خطة تنصير العالم قاطبة في مدة 35 سنة.

3 - تشكيل لجنة هامة مؤلفة من 60 عضواً أو أكثر بأقرب ما يمكن لكي تتعهد وتزور مراكز إرساليات التبشير وتعمل التقارير عنها»[2].

وإن أثرياء الغرب - فيما أعتقد - مدفوعون إلى هذا الشأن بإثارة ما تبقت في نفوسهم من نزعة دينية خامدة، وهي في طريقها إلى التلاشي، بالإضافة إلى ما توارثوه عن أسلافهم عبر التاريخ من حقد صليبي دفين على الإسلام والمسلمين، إلى جانب ثرائهم التربويّ الفاحش، والذي لا يجدون له مصرفاً آخر يستمتعون به روحياً أكثر من هذا المجال، إذ يعتبرونه توبة وقرباناً وكأنه امتداد لظاهرة صكوك الغفران المعروفة في تاريخ الديانة الصليبية.

وبالنظر إلى هذا الدعم الكبير للنشاط التنصيري من قبل الأفراد والحكومات فإنه ينعدم أي وجه للمقارنة الموضوعية بين العمل الإسلامي، والنشاط التنصيري. وإن أية موازنة بينهما حتى الآن يظل الفارق فيها قائماً لصالح هذا الأخير باعتباره من أجنحة المكر الغربي بالمسلمين، وسائر شعوب العالم، ﴿.. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30] وممن ينتصر لهذا الرأي القائل بانعدام وجه صحيح للمقارنة بين عملنا ونشاطهم الدكتور مبارك قسم الله، وذلك في قوله: «وليس هناك وجه للمقارنة بين الإمكانات المتاحة للتبشير المسيحي والدعوة الإسلامية..

---

(1) الدكتور: بركات عبد الفتاح دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام أهدافها ومقاومتها، ص 119، دار النشر العربي للطبع والنشر د. ت، د. م.

(2) المرجع نفسه ص 120.

بالإضافة إلى مستوى التدريب العالي الذي يتمتع بـه المبشر المسيحي والحماية الأدبية والمادية التي يجدها من الكنيسة ومن الدول المسيحية في أركان المعمورة»[1] .

إن هذه الامتيازات التي يتمتـع بهـا النشـاط التنصـيري والمنصـرون وإن كـانت لـم تحقـق الهـدف النهـائي الكبير المنشـود مـن ورائهـا ، إلا أنـه مـن المحـزن الاعـتراف بكـل غضاضة بأن نشاطه الجاد قد أحرز نجاحات معتبرة ، وحقق أهدافًا فرعية مرحلية لايستهان بها ، إذ هي مقلقة لكل مسلم يعي وعيًا صحيحًا معنى الانتماء إلى الإسلام ، ويشهد ديدات وغيره ببعض ما تحقق لهم من نتائج جاءت ثمارًا طبيعية لجهودهم الضخمة وتضحياتهم الغالية النادرة .

5 - **تقييمه لمردود نشاط المنصرين :** مما يعترف به ديدات قلقًا أنهـم استطاعوا استمالة جموع من المسلمين العدديين ، وتنصير قطاعات عريضة من غيرهم ، وتظهر نجاحاتهم أكثر في أوساط المجتمعات الإسلامية المكتظة بالكثافة السكانية على مستوى القارة الأسيوية ، وبالتحديد في كل من الباكستان وبنغلاديش وإندونيسيا التي قال عنها ديدات : «وهم اليوم يتبجحون لأنهم استطاعوا تنصير خمسة عشر مليونًا في إندونيسيا ، وأنه مع نهاية القرن سوف تتحقق آمالهم بأن تكون إندونيسيا أمة مسيحية ، وكل الدلائل تشير إلى أنهم سوف ينجحون في غفلة منا»[2] ، وليس فحسب وإنما امتد نجاحهم لاحتواء غير المسلمين ، وتحقق لهم في هذا المجال الكثير من النتائج المأمولة ، وهو ما أفصح عنه ديدات معترفاً بقوله أيضًا « فالمسيحيون رغم كل المآخذ ضدهم إلا أنهم ينجحون في تنصير الأفارقة ، وينجحون حتى في تنصير الهنود الآخرين من الهندوس ، ولماذا ينجح المسيحيون في ذلك؟

والسبب أنهم يتكلمون ، ويتصلون بالناس ، أما المسلمون فلا يتحركون لإدخال الآخرين في الإسلام ، لأنهم لا يفتحون أفواههم بكلمة . . »[3] .

---

(1) من بحوث ومدخلات المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية بطرابلس ، ص 72 ، مرجع سابق .

(2) هذه حياتي : ص 88-89 ، مصدر سابق .

(3) المصدر السابق ، ص 103 .

وعن مأساة المسلمين في أفريقيا مقابل نجاحات المنصرين تشير معطيات التحقيقات الاستطلاعية بأن موجة الحركة التنصيرية تشهد روحاً صاعدة، وتتقدم من نسب متدينة نسبياً إلى ما هي أعلى، حيث «قد ذكرت مجلة تايم الأمريكية في تحقيق لها عن الوضع الديني في أفريقيا في عددها بتاريخ 13مايو 1980م أن عدد المسيحيين في أفريقيا عام 1960م كان حوالي الثلاثين في المائة وقد ارتفع عام 1980 إلى ما يقرب من الخمسين في المائة من جملة السكان . . وتوقعت أنه بنهاية القرن سيكون نصف الثمانمائة مليون أفريقي مسيحياً»[1] .

وبنجاح المنصرين في جذب وتضليل هذه الأفواج التي لا حصر لها من المسلمين وغيرهم، انساق أحد المنصرين في مؤتمر كلورادو التنصيري في نشوة من السعادة إلى التغني بهذه الخطوات الزاحفة على حساب حركة الدعوة الإسلامية في أفريقيا قائلاً: «وقد ظل هذا الخط الإسلامي يتقدم جنوباً بشكل مضطرد منذ القرن السادس الميلادي حتى حوالي عام 1950م حين وقف هذا التقدم تماماً عندما واجَهَهُ تأثير العمل النصراني في كافة أرجاء المنطقة الوسطى والجنوبية في أفريقيا، والنصرانية تحقق الآن نجاحاً في التنصير في وسط أصحاب الديانات التقليدية بصورة أكبر من الإسلام.

أما الإسلام فهو مستمر في الازدياد نتيجة لكثافة النمو السكاني، ولكن النصرانية تزداد بصورة أسرع»[2] .

والغريب المثير للعجب في أمر هؤلاء القوم، والذي يؤكد القول بكمون الدوافع والأهداف الإمبريالية في نشاطهم الساهر المتواصل، أنهم يجدون في التنصير بزعم تعمير ديار الآخرين وخدمتهم إنسانياً- في الوقت الذي تتدمر ديارهم وتتهافت في مجتمعاتهم بُنَى الحياة الإنسانية السّوية، وينحسر الفكر الصليبي يوما بعد يوم من واقع حياتهم،

---

(1) البروفسير: عون الشريف قاسم «الدعوة الإسلامية في أفريقيا» ص 29 –30 من مجلة دراسات أفريقية ع 6/ 1410هـ =1990 –الخرطوم.

(2) التنصير خطة الغز والعالم الإسلامي: ص 349.

وحتى في المعاقل الكنسيّةِ نفسها، ناهيكم عن تصورات العامة، وسلوكياتهم.

وفي تصوير الدكتور شوقي لهذا الواقع ما يقضي بالعجب العجاب، وذلك في قوله: «فبعد رفض صحة الأناجيل المتداولة في بريطانيا وحدها تم خلال العشرين سنة الماضية إغلاق 1800 كنيسة إنجليكانية، بعد أن هجرها المصلون، من بينهما 50 كنيسة في لندن وحدها، عرضت للبيع أو للإيجار، وشهدت جدران كنيسة سانت جيمس بحي هورنس في لندن لافتة حمراء تقول للإيجار، جاء ذلك بعد أن تم بيع الكنيسة بسبب النقص الشديد في عدد المصلين وقيام الملاك الجدد بتحويلها إلى شقق سكنية للإيجار.. والطريف أن هناك بعض الكنائس لم يتقدم لشرائها، فتقرر هدمها»[1].

وعن الفساد الأخلاقي المتفشي حتى في صفوف رجال الدين الصليبي من كبار المؤتمنين عليه، فحدث ولا حرج إذ تفيد الدراسات بأن نسبة 40٪ من القساوسة الكاثوليك الأمريكيين منحرفون انحرافًا أو قع ببعضهم ضحية فاضحة لمصيبة مرض فقدان المناعة «الإيدز».

وقد انكشفت هذه الحقائق عقب نشر مجلة: نيوزويك الأمريكية لدراسة أجراها عالم نفس أمريكي من خلال مقابلة بحثية مع 1500 شخص من الأوساط الكنسية، تبين من خلالها مدى ما تنطوي عليه حياتهم من فساد أخلاقي شائن، وتلوث قاتم لضمائرهم الاجتماعية، الأمر الذي دفع بالصحف الأمريكية إلى إثارة موضوع الانحراف الجنسي لدى القساوسة، مستشهدة بعدة حالات من مصابيهم بالإيدز[2] والعياذ بالله.

هذا والشيخ ديدات في أحاديثه المتكررة عن التنصير غالباً مالا تخلو من الإشارة إلى هذه الجوانب، والتنبيه إلى العلاقة الرابطة بين العقيدة والأخلاق، وأن فساد الاعتقاد في العالم الغربي أدى بدوره إلى فساد في السلوك، وشذوذ عن مواكبة المسار الإنساني الصحيح، وغيرها من الإشارات التي تنصب في هذا الإطار؛ مما يوحي لكل

---

(1) المستجدات المعاصرة في حركة التنصير، ص 350 ع 9، من مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

(2) ينظر مجلة النور الكويتية، ص 30، ع 59، 1408=1988م، مرجع سابق.

من تعامل معه فِكْرًا ومنهجاً بأنه يدرك إدراكاً جيداً مدى ما منيت به العقيدة الصليبية من إفلاس، وفشل ذريع في العالم الغربي، بمختلف مجتمعاته. ومن ثم فإنّ تصديرها للآخرين شأن سياسي محض، وليس دينيًا على الإطلاق.

وإنّ أيّ محاولة إيجابية للتصدي لها تقتضي بالضرورة وعيًا كافيًا بحقيقتها وإحاطة تامة بمختلف أبعادها وتجلياتها مع ضرورة التمييز بين شكليهما القديم والجديد، على اعتبار أن الطابع الغالب على الصليبية المعاصرة هو أنها طبقاً لديدات «عملية فكرية وذهنية» [1]، وهو ما يعني اتخاذ أسلحة من طبيعتها لمحاربتها باستخدام الوسائل العلمية والإعلامية، واعتماد الأسلوب الحواري الرفيع، دون إغفال لنشاطها في مجال الخدمات الصحية والاجتماعية، ولعله هو المجال الأنشط والأهم بالنسبة لحركتها في كل من أفريقيا بالذات وجنوب شرق أسيا على وجه التحديد؛ حيث يتفشى الجهل، وترتع الظروف الإنسانية القاهرة، والتي يلهب حماس المنصرين إلى استغلالها، وقد لا يستنكفون عن إثارتها وخلقها، حين تملي عليهم مهمتهم التنصيرية ضرورة القيام بأمور من هذا القبيل.

وعلى الرغم من كل ما قيل بشأن الحملة التنصيرية كما يراها ديدات فإن الأمل يحدوه إلى التفاؤل بقدرة المسلمين على مغالبتها والانتصار عليها، وذلك عن طريق العمل الدّعوي الواسع النشط، ومن خلال جهود الكفاءات المخلصة من أبناء الأمة، وهذه النظرة المتفائلة هي القاسم المشترك الذي يجمع بين ديدات، وبين الكثير من المعنيين بشؤون الأمة المسلمة، وحركة دعوتها إلى الإسلام من أمثال الدكتور صابر طعيمة الذي قال متفائلاً: «تجربة غزو أفريقيا عن طريق التنصير لا تزال وحتى الآن بين مد وجزر، ومن الممكن أن تفشل مخططات الاستعمار فيها ضد الإسلام، لو صدقت نيات بعض القادرين من أمة الإسلام وعملت على تزويد بعض العناصر التي تقاوم صامدة عمليات تنصير أفريقيا» [2].

---

(1) هذه حياتي: ص 88 –مصدر سابق.

(2) الدكتور صابر طعيمة: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص 194، ط1/ 1404هـ =1984–

وذلك من أمثال ديدات الذي يخشون منهجه، ويتحاشون حواره إذ يطوقهم ويحصر انتشار حركتهم وفكرهم في أضيق النطاقات وأتفهها.

وكيف لا، وقد أخذلها العدة، وظل حياته ينادي في المسلمين عامة أن حيوا على الدعوة وأقبلوا على المواجهة الحوارية الواعية. وإن للسائل في هذا المقام أن يسأل ديدات: «لا مانع من القيام بواجب الدعوة، ولكن من فضلكم أفيدونا بخلاصة تصوركم العام عن قيام الخاصة والعامة بواجب الدعوة إلى الإسلام».

ثالثاً: عمومية مسؤولية المسلمين عن الدعوة إلى الإسلام عند ديدات:

ينطلق ديدات في تحمسه الصادق لقضية نشر الإسلام والتصدي للحملة التنصيرية المشنونة على المسلمين من مسلمة مؤداها أن كل قادر من المسلمين مخاطب بواجب القيام بالدعوة، ومكلف بالمشاركة قدر الوسع في العمل على تحقيق قدر الله للدين الإسلامي بالظهور على الأديان، وذلك بالانتشار الأوسع، والانتصار الأتمّ.

ومن هذا الأساس نجده كثيراً ما ينحو في خطاباته إلى توجيه دعوة جفلى إلى كافة المسلمين لاقتسام مائدة الدعوة إلى الإسلام، وهو في هذا السبيل يستحث المسلمين عامة للنهوض بمهمة التبشير برسالة الله الخاتمة[1]، باعتبارها مسؤولية كل ذي وسع في حدود القدر المتاح له، والذي يتعاظم فيه الواجب ويتضخم باتساعه، كما يتقلص ويضأل بقلته وضيقه، وحتى يتم هذا الهدف الذي يدعو إليه ديدات على الوجه المطلوب فإنه لا يهمل استخدام أيّ وسيلة ممكنة لدفع المسلمين إليه، وبث حيوية القيام به في نفوسهم، فلذلك يقترح اللجوء إلى منابر المساجد، وخطب الجمعة لتحقيق هذا الغرض، وذلك «باعتبار أن للمنبر سلطته وتأثيره، ففي خطبة الجمعة عادة تحدد لنا واجباتنا ومسؤولياتنا، ولكن فيما يتعلق بالدعوة لا تسمع شيئاً. لذلك؛ فإني اعتقد أن على المسلمين واجب النهوض بالدعوة، وأن يقدموا

= عالم الكتب، بيروت، لبنان.

(1) ينظر: محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 138، مصدر سابق.

الإسلام للآخرين حتى يتحقق في النهاية وعد الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: 28] حتى يسود الإسلام ويعم العالم كله»[1]. إن ما يتقدم به ديدات من مقترحات من هذا النوع وغيره، تكشف في واقعها عن سمة مميزة لخطاب ديدات، تتمثل في عملية هذا الخطاب الذي يتجاوز به صاحبه غالباً المستوى النظري في طرح القضايا وعرض المشكلات لتقديم الحلول الواقعية والمقترحات العملية الجيدة.

وبما أن الدعوة مما يتعذر - إن لم يكن يستحيل تحقيقها - على الوجه المطلوب ما لم تكن قائمة على وعي وبصيرة، فإن ديدات إسهاماً منه في تجلية هذا الجانب يعمد إلى تنبيه عامة الدعاة بضرورة إعارة اهتمام كاف لعلمية استكشاف ودراسة حاجة المدعوين وتحديد مشكلاتهم، لتبني الوسائل المناسبة والأساليب الملائمة لهم، والتي تختلف باختلاف العوامل الإنسانية والظرفية، ولهذا السبب يضع بين يدي الدعاة تجربته في تشخيصه للحاجة الدينية لمدعويه إلى الإسلام من أفارقة بلاده قائلاً: «ولكي تفهم الإفريقي، فعليك أن تعلم أنه تواق، وأنه يبحث عن مخرج لما يعاني منه، وفي هذا الخصوص فهو في حاجة إلى شيئين لكي تدخله في الدين .. أي دين .. فإنه يحتاج شيئين اثنين: هو يحتاج إلى كتاب أولاً، ويحتاج إلى كنيسة ثانياً»[2]، والمراد بها المعبد من مسجد وغيره. ولعل غلبة المسْلك الحواري عليه والذي يتوسل بالعقل توصلاً إلى الإقناع ما جعله يلفت الانتباه دائماً إلى مخاطبة العقل باعتماد الأساليب العقلانية في العمل الدّعوي، وذلك لحسن ظنه في وعي الناس وثقته في تعاطيهم مع الأفكار والمعتقدات بتدبر وعقلانية، وهو ما يدل عليه ما طرحه كعنوان فصل من فصول أحد كتبه بقوله: «ليس الناس عمياناً، تزودوا الحقيقة تسطع في الآفاق»[3]، وفضلاً عن هذا نكتشف من خلال متابعته أنه يوغل

---

(1) هذه حياتي، ص 104، مصدر سابق.

(2) المصدر السابق، ص 105.

(3) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 162، مصدر سابق.

أحيانًا في التركيز الدّعوي على العقلانيين، وذوي الاتجاهات العلمية، آملاً أن يلقوا في عروضه ما يجذبهم إلى الإسلام من مبادئ وحقائق، تنسجم مع ما تستهويهم من رؤى فكرية ثقافية، ولذا نجده يخاطب أصحاب هذه النزعة بقوله: «إن الثورة العلمية التي فجرها الإسلام كانت عملاقة فلم يترك المسلمون ناحية من نواحي العلوم إلا وطرقوها ووصلوا فيها إلى مكانة عالية مرموقة، وفي الحقيقة فإن الإسلام يهدف إلى جعل المجتمع الإسلامي مجتمع فكر وثقافة، ووضع بذور العلم وسائر فنون المعرفة، يعتبر هدفاً رئيسًا للإسلام»[1]، وإن ديدات لا يتوقف عند حد مخاطبة أصحاب هذا الاتجاه رغم أهميتهم إدراكاً منه بأن جمعاً غفيراً من البشر لا ينتمي إلى هذا الصف، ومن ثم فهم بحاجة إلى خطاب يتواءم مع طبيعته اهتماماتهم، كفيل بالتأثير فيهم، وكسبهم لصالح الإسلام. الجانب الذي في مراعاة ديدات له يتلون خطابه بروح اجتماعية ونفحات أخلاقية، وهو يشيد بالدور العظيم الذي مثله الإسلام في صياغة المجتمعات البشرية؛ بتهذيب الأخلاقيات وتصفية نفوس الأفراد[2] من أجل ترقية الحياة الإنسانية إلى المكانة اللائقة بها في درجات الكرامة، وطبقات الحضارة السامقة وهكذا تتنوع الأساليب، وتتعدد الوسائل الدّعوية عند ديدات والتي لا يقصد من عرضها على المسلمين - وهو يحركهم نحو الدعوة - سوى تزويدهم حين ينهضون بكافة ما لا يتم عملهم الدّعوي إلا بها من تجارب حية، وخبرات غنية.

وفيما يخص العمل الإسلامي المضاد للنشاط التنصيري الذي يشغل حيزاً واسعًا من فكر وعمل ديدات فإنه يقترح على المسلمين مواجهته بما لخصه في قوله: «إنني أريد أن أنصح كل مسلم أن يقوم بنشر الإسلام وهذا لا يمكن إلا إذا تمتعنا بالوسائل والأساليب التي يتبعها أعداؤنا»[3].

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 43، مصدر سابق.

(2) ينظر: المناظرة الحديثة، ص 169-171، مصدر سابق.

(3) «المسلمون والتحديات التي يواجهونها في جنوب أفريقيا»، ص 35 من مجلة الأمة ع 1 - س 1، مصدر سابق.

وعلى هذا النحو يخلص ديدات في تغذية من يراد منهم القيام بالدعوة بقطوف دانية من دوحة تجاربه المباركة، تلك الدوحة الضاربة بعروق تجاربها في أعماق نصف قرن من الصحبة الواعية للعمل الإسلامي في مجاله الحواري الدّعوي؛ حيث ظل فيه ديدات يجول في جنبات الدعوة، وفي شتى ميادينها وما أكثرها، فلذا ظهر لنا وهو ينقل إلى عامة المسلمين ثمار خبراته العملية الخاصة مشكاة نور وحق، وجذوة جهاد مخلص. وبمجوعة ما أسداها إليهم من معطيات تجربته، وما ألقاها إليهم من صيحات دعوية صاحية يرى أنه لم يعد ثمة مبرر مقنع للاستمرار في التقاعس عن الواجب، والاسترسال إلى التقصير أو التراخي، إذ قد يؤدي أي من ذلك إلى تبعة أخروية جسيمة في محاسبة إلهية عسيرة، فيما أخطر بها ديدات في قوله: «إن الدعوة هي مسؤولية المسلمين وإن الله سيحاسب المسلمين عن ذلك يوم القيامة، ويواجههم بالسؤال: (هل بلغتم رسالتي؟) . . ولا يعقل أن يقولوا لا، لأننا كنا في شغل عن ذلك، بل الواجب أن نعمل ونقول: (لقد حاولنا قدر استطاعتنا وجهدنا)[1]. وكان كلما تأمل واقع الدعوة المعاصر، ومدى ما عليه أغلبية المسلمين من قصور وتقصير في هذا الشأن، استشاط نشاطًا واندفع همة لتعبئة هذا الفراغ الهائل في رقعة الدعوة الإسلامية ولاسيما حين يقارنها بما يواجهها من نشاط تنصيري حام محموم بعدائه للإسلام والمسلمين، وبذلك ينساق إلى إبلاغ المسلمين جميعاً بأن حياته فداء للدعوة، وأنه متفرغ بالدوام للسعي في كل ما من شأنه أن يسهم في نشر الإسلام، وينشط إيقاعات حركة الدعوة الإسلامية في هذا العالم، فبهذا صدع بقوله معلناً (نحن على استعداد أن نساعد المسلمين في العالم في نشر الإسلام، وهذا هو اختصاصنا وعملنا ونحن نرغب أن نشارك في هذا المسلمين في العالم أجمع)[2]، لأنه وأعوانه اكتشفوا في العمل الدّعوي سر وجودهم، ولمسوا فيه كرامتهم، وأن الله حين وفقهم للعمل في هذا المجال أراد تكريمهم، وإسباغ نعمه وفضاله عليهم».

---

(1) هذه حياتي، ص 104، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

وقد كان ديدات شاكراً الله على هذا وغيره من آلائه، سعيداً أيما سعادة بتقلده وسام الدعوة السامي، باختيار وتوفيق الله تعالى، ذلك الوسام الإلهي الخالد والذي لا يقارن بغيره من الأوسمة البشرية الفانية، وكأن ديدات يباهي غيره من المسلمين لشحْذ هممهم حين يعبر عن سعادته بهذه المهمة التي وفقه الله لها قائلاً: «إنني أحس أن الله قد كرمني بالتصدي لمهمة كهذه وهي خدمة دين الله . . لقد كنت أستطيع تحقيق الثروة في مشوار حياتي . . لكنني آثرت طريق الدعوة إلى الإسلام»[1]. إن ملامح السعادة والاعتزاز برسالته كانت بادية على محياه بوضوح طوال مراحل حياته مع العمل الإسلامي والذي اعتبره مكرمة حباه الله بها، وكانت شخصيته الوقورة الحازمة تعكس القدر الكبير من عظمة الدعوة الإسلامية وهيبتها، وهو في دعوته إلى الدعوة أمين في مصارحة المسلمين من غير مفاجأة بأن المهمة شاقة وعسيرة، وأن حمل رسالة القول الثقيل يقتضي استعداداً دائماً لخوض حلبات ملاكمات ساخنة، وأن المسيرة كلها متاعب ومعاناة، وهي أبعد من أن تكون مفروشة بالورود والرياحين كما قد يتوهم البعض. وفضلاً عن عظم التحديات وبالغ المشقة فهي غير مضمونة النتائج؛ إذ لا يملك الداعية شيئاً من تلك، فهي موكولة إلى الله تعالى الفعال لما يريده، الهادي إلى سواء السبيل، وإن دور الداعية محدود بحدود التبليغ الأفضل الوافي، والباقي متروك للقيوم الذي يهدي من يشاء عالم الغيب والشهادة جل جلاله، وعلى الرغم من هذه القناعة المعزية للدعاة فإن ديدات كان ممن يغلب عليه التفاؤل في أمر الدعوة وظهور الإسلام في العالم وفق ما يقرره القرآن الكريم وكأنه بتعبيره المتكرر عن هذا التفاؤل يرمي إلى تشجيع المسلمين بضرورة وسرعة المشاركة في نيل الشرف قبل فوات الأوان.

وهو المفهوم عندنا من أقواله بما فيها قوله: «تتنبأ الآية بأن الإسلام سيكون الأكثر سيادة على جميع الأديان، إن انتصارات تعاليمه وعقائده بدأت بالفعل وهو الآن بدأ يتحكم في الفكر والتعاليم والعقائد الدينية لمدارس الفكر المختلفة في العالم

---

(1) مجلة الفيصل ع 135، ص 46، مصدر سابق.

ليس باسم الإسلام ولكن باسم التحسين والإصلاح الديني ، فإن الطوائف الدينية المختلفة بدأت تتطعم بسرعة بتعاليم وعقائد الإسلام . . »[1] .

وبهذه النظرة المتفائلة لمستقبل الدعوة ومصير الإسلام ظل الأمل يحدوه دومًا لتحقيق فتوحات جديدة لحركة انتشار الإسلام في مختلف أرجاء هذا العالم ، الذي طالما استمع إليه ديدات وشاهده ، وهو يئنّ بنبرة فيها الكثير من الهموم والقلق ، مما أوقد حماسهُ وغيره من الدعاة المخلصين لإسعافه بالحل الحضاري الإسلامي الحاسم ، ولكنه في سبيله إلى ذلك جوبه بتحديات جمة وقوبل أحيانًا باستفزازات محبطة ، وأخرى بتهديدات مفزعة بالإضرار والقتل ومع ذلك فقد ظل صابراً ، ملتزماً الصمود والمثابرة ، على خط سيره الدّعوي غير خجل ولا وجل ؛ حيث رضي عن طيب خاطر بالتضحية بالنفس مقابل تحقيق ما كان يحمله في جعبته من آمال دعوية عريضة لإنسانية القرن العشرين القلقة الحائرة . وفي ضوء تلك الآمال والطموحات الدّعوية الكبيرة كان ينظر إلى عالمه زماناً ومكانًا برؤية متنورة ، ملؤها التضحية والعطاء السخي بلا حدود ، وذلك منذ أن صقل الإسلام شخصيته ، وطور وعيه بذاته ، معمقاً إيمانه برسالته .

ومن هذا المنطلق فإن تحميل ديدات كافة القادرين من المسلمين تبعة الدعوة إلى الله ، وإسهامه في إمدادهم بالزاد اللازم للسير الناجح الآمن في مسالكها الطويلة الشاقة هو أمر يعبر عن نفسه ضمن أهم القضايا الكلية الكبرى في فكر ديدات وفي ممارسته كذلك ، وإن كان هذا الفكر لا يرتقي في خصوبته إلى مستوى مقارنته بنماء الممارسة ووفرتها ، ومن ثم فإن القول بجدلية الممارسة والفكر في ظاهرته الدّعوية ، يظل - لحد الآن - طرحاً قائماً على جانب كبير من الصحة والاعتبار .

ولعل من الأنسب في هذا المقام الوقوف في الفصل اللاحق على جانب من جهوده في الاستعانة باستخدام مختلف وسائل الإعلام لخدمة مضمون خطابه

(1) الرسول الأعظم محمد ﷺ، ص 96، مصدر سابق.

الإسلامي في الحوار والدعوة مما قصد به - فيما أرى - الإيحاء للمسلمين بعد أن دعاهم إلى الدعوة بأنه على مستواه الخاص وفي نطاق محدود، لن يقصر في بذل ما وسعه الجهد أداءه من الواجب العام، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها والباقي لله وإليه، وهو خير ثوابًا وخير عقبًا .

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

توظيفه مختلف وسائل الإعلام لخدمة قضية الحوار والدعوة

المبحث الأول : الإعلام عند ديدات فكرًا وتوظيفاً

المبحث الثاني : نماذج من كتاباته في موضوعات الأديان المقارنة :

المسيح في الإسلام مسألة الصلب عتاد الجهاد

المبحث الثالث : من كتاباته الدّعوية في موضوعات إسلامية :

القرآن معجزة المعجزات الرسول الأعظم ﷺ

المبحث الرابع : من أبرز محاوراته العالمية في أمريكا - السويد - وبريطانيا .

المبحث الأول

الإعلام عند ديدات فكراً وتوظيفاً

إنّ اهتمام ديدات بتوظيف الجانب الإعلامي ووسائله المتعددة، الناجم عن ثاقب وعيه بأهميته ومدى خطورة دوره هو جزء من الاهتمام العالمي الواسع بالجهاز الإعلامي، بمختلف وسائله وأساليبه، حيث إن ثورة الاتصال الجماهيري التي شهدها عالم القرن العشرين كانت ذات دور كبير ومؤثر في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، اكتسبت الوسائل الإعلامية في ظلها اهتماماً خاصاً، الأمر الذي أغرى العلم التجريبي في تطبيقاته الصناعية إلى المسارعة في ملاحقة الإنسان كل يوم بنوع جديد منها، تعمل على جذبه، والتأثير عليه أينما كان دون أن تقف حواجز الزمان والمكان سدًّا في سبيلها لأداء الغاية المناطة بها. وبناء عليه؛ فإن ثمة فضلاً عظيمًا في دور الإعلام المعاصر ووسائله يرجع إلى التقدم العلمي الذي حققه الإنسان خلال القرنين الأخيرين، حيث إنه «قد أفرز التقدم العلمي كثيراً من وسائل الإعلام وقد تطورت آلية هذه الوسائل حتى أصبحت من أفضل الطرق وأيسرها للوصول إلى عقلية الجماهير والتأثير فيها، وأضحى السّواد الأعظم من الجمهور يعتمد عليها في تلقيه لكثير من معارفه وعلومه، ولذلك فقد عمد أصحاب الدعوات المختلفة إلى استخدام وسائل الإعلام الحديثة بمختلف الطرق والأساليب من أجل الوصول إلى أهدافهم»[1]

ولعظم ما تمارسه الوسائل الإعلامية من تأثير بيّن على الجماهير المعاصرة أكد علماء الاجتماع بأن الإعلام من أمضى الأسلحة الفكرية، وأقواها في التأثير على عقول الناس إيجابًا وسلبًا، وذلك بقدرته على كشف الحقائق وتزييفها لتوجيه أغلبية الناس على الوجهة التي يرتضيها المصدر الإعلامي[2].

والظاهر أن هذا التأثير يتم أحيانًا بطريقة عفوية تلقائية لمجرد تحقق صدور الفكرة أو الرسالة من أجهزة الإعلام دون تمحيص أو تبين، وبالأخص بالنسبة لمن من الناس

---

(1) عبد الله رمزي قناديلو: وسائل الإعلام الحديثة وأثرها في حركة الدعوة الإسلامية، ص ج، هي رسالة علمية نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية عام 1994م لنيل درجة الماجستير.

(2) ينظر: الدكتورة عوشة محمد حقيق، الرأي العام بين الدعاية والإعلام، ص 154 من منشورات الجامعة المفتوحة لعام 1994 م طرابلس، ليبيا، د.ر.و.د.د.

لا يتمتعون بحظ معتبر من العلم، والوعـي. وهـم من يعنيهـم الدكتور يماني بقوله: «فقد أصبح الناس يصدقون ما يقال وما ينشر في أجهزة الإعـلام، ويأخذونه على أنه قضية مسلم بها، فكيف إذا كـان جهـداً منظمـاً، وإعلامـاً موجهـاً ؟؟»[1] كما هو شأن الإعلام الغربي في بعديه الاستعماري والتنصيري، وذلك في نشاطه المتمثل في التدفق الإعلامي الهائل كما وكيفاً تجاه المسلمين بالأخص؛ لغزوهم ثقافياً، وتنصيرهم دينياً، وهو ما يفسر لنا قضية العدد الكبير مـن الإذاعـات التنصيرية والتي أفرد لها الدكتور: كرم شلبي مؤلفاً خاصاً بعنوان «الإذاعات التنصيرية» تناولها بإفاضة كاشفاً عن حقيقتها.

وبجـوار الإذاعـات تستغل كافـة الوسـائل الأخـرى مـن نوعهـا لمحاربـة الإسـلام والمسـلمين، حيـث «تستخدم الحركَةُ التنصيريـة كـل الأسـلحة الإعلاميـة المتوفـرة لهـا لمقاومة العقيدة الإسلامية، ونشر أفكارها، وخاصة بين الشبان المثقفين»[2].

وليس ما ورد في هذا النص مـن استخدامهم لمختلـف الأسـلحة الإعلاميـة تقـولاً عليهم، بل وإنما هو مما يقرون به، ويتواصون بمضاعفة التركيز في الاستعانة به لتنصير المسلمين. ولعل أصـدق دليـل علـى ذلـك مـا أورده أحـد مؤتمـري كلـورادو في تحديـده للمطبوعات والوسائل الإعلامية الموجهـة لتنصير المسلمين بقولـه: « . . ولتنفيـذ كـل ذلـك تشـكل المطبوعـات ووسـائل الإعـلام المناسـبة ضـرورة قصـوى، فإننـا نعتـبر أن المطبوعات ووسائل الإعلام تشمل الكراسات الدينية والصحف، والرسـوم الكرتونيـة المتحركـة والكتيبـات والكتـب والمجـلات، ودورات المراسـلة، والنصـوص الإذاعيـة، والتسـجيلات والمسـرحيات، ومـواد القـراءة والكتابـة، وترجمـات الكتـاب المقـدس، والصور والملصقات وأي مواد إضافية أخرى»[3].

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص 47، مرجع سابق.

(2) الدكتور: محمـد علي محمـد شـكري: «الثقافـة الإسـلامية والإعـلام الإسـلامي ودورهمـا في مواجهـة التنصير» 69–70 / ن الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية في جنوب شرق آسيا، مرجع سابق.

(3) ريمود جريس «الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الموجهة لتنصير المسلمين»، ص 519، من كتاب التنصير خطة –لغزو العالم الإسلامي، مرجع سابق.

هـذا . . . وإن الأدهى والأمرّ حقّـاً أن حركـة الدعـوة الإسـلامية تفتقـر إلـى إمكانيات إعلامية مماثلة، مما لها القدرة مـن جـانب علـى مواجهـة الحمـلات الإعلاميـة التي تشن على المسلمين ضمن وسائل تنصيرية أخـرى، وتحقيـق السّبق الإعلامـي مـن جانب آخر.

وذلك في تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة، قبل تعرضهـم لتشـويش الإعـلام التنصيري في مختلف تجلياته، إذ يعتقد ديـدات وغـيره أن مـن العبـث القـول بـأن الحق يظهر وحده دون جهد إعلامي أو دعوة شارحة مفسرة، لذلك كان للإعلام الإسلامي ضرورة حتمية تمثل جانباً هاماً من جوانـب الدعـوة الإسـلامية حتـى يكـون الكـافر بعـد ذلك قد كفـر عـن بينـة، وبذلـك يتحقـق قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15].

ولهـذا السـبب يدعـو ديـدات إلـى ضـرورة تكثيـف العمـل الإعلامـي لنشـر الدعـوة الإسلامية في كل مكان قائلاً: «إن الإعلام يمثل ركيزة أساسية للتعريف بالدين الإسلامي وحضارته ومبادئه، وأطالب بضرورة الإنفاق في مجال خدمة الدعوة الإسلامية أو شـراء محطات تلفزيونية لبث البرامج عبر الأقمار الصناعية لنشر مبادئ الإسـلام، مـع تكثيـف الجهود لنشر الدعوة في أفريقيا وأمريكا وجميـع دول آسيا إلـى جـانب مسـاعدة الأقليـات الإسلامية في العالم»[1]. وفي ضوء هذه الدعوة يستقر العلم بأن الإعلام عند ديدات يمثل أداة هامـة مـن أدوات الدعـوة، ووسـيلة متمـيزة بسـرعة نقلهـا وفاعليـة تأثيرهـا بـالحق الإسلامي في الطرف المستقبل، وخاصة حين يكون الإرسال الإعلامي مبنيـاً علـى أسـس علمية وفنية معتمداً على المناقشات العلمية والحـوارات الناضجـة، والأسـاليب الإقناعيـة الرفيعة. وإذا أضيفت إلـى مـا سـبق مراعـاة العمـل الإعلامـي لمـا هـو شـريف مـن حاجـة الناس، وذو قيمة إنسانية عندهم، فإنه يكـون حينئـذ أرجـى للقبـول وأكـثر ترشيحـاً مـن غيره لجذبهم والتأثير فيهم. وبالنظر إلى حجم وحدة الهجوم الإعلامي التنصيري علـى

(1) «أنباء وآراء» ص من مجلة الأزهر ج 7، س 61، 1409هـ= 1989م.

المسلمين فإن ديدات يسعى للرد بالمثل من منطلق تقييمه للظاهرة بأنها معركة حامية وجادة، يخوضها ديدات حامداً الله على توفيقه له بتسليح الآخرين، من خلال توزيعه عليهم ملايين الأسلحة الخاصة بهذه المعركة الفكرية، والتي تتمثل في كتبه وأشرطته من حوارات ومحاضرات، وصفها ديدات بقوله: «وهذه هي أحجاري: هذا الكتيب وهذا الشريط» . . وحتى إن لم تكن تقوم بأي عمل إلا أنك عند سماعك وقراءتك ما قدم فإن روحك المعنوية ترتفع أكثر . . وتتعزز وتقوى[1].

وهو في هذه المعركة البعيدة عن التكافؤ بين طرفيها يدرك تماماً مختلف المنافذ التي يمكن أن يباغت منها العدو، أو يؤلب من خلالها الآخرين على خصمه الضعيف، ولو أدى إلى مالا يستنكف عنه في الغالب من تعتيم إعلامي لمزايا الآخر، وتقييم جبان لصورته، مع تشويه كاذب لسمعته. ولكن على الرغم من إدراكه البصير بمختلف الأساليب الحقيرة التي يلجأ إليها العدو في معركة الفكر والعقيدة إلا أنه لا يضعف أمامها، ولا ييأس، وإنما يشتد بها في المقاومة؛ إذ يراها فرصة إلهية سانحة تمنح للمسلمين لغرض تهيئة الذات في المجال الإعلامي، ومن أجل الدفاع عن النفس، وملاحقة العدو في عقر داره. وبذلك يتحول عند ديدات هول هجوم الإعلام الغربي الماكر إلى عامل إثارة وتحد، يستدعي الرد، ويستحث عوامل الدفع، بشحذ الهمم المعطلة وشحن الطاقات الفكرية والإعلامية لخوض معركة المصير الحضاري. وقد أفاد بمقتضى ذلك في قوله: «إن تشويه وسائل الإعلام الغربية لمفهوم الأصولية ينبغي أن ينظر إليه على أنه فرصة وهبها الله لنا لنستفيد منها في الصحافة، إلا أننا لا نستفيد منها، إننا لكي نستفيد منها يجب أن نكتب للصحافة؛ المرة تلو الأخرى وبلا ملل ودون انتظار المختصين . . للقيام بالرد لأن الرد مهمة كل مسلم»[2].

فيالها من فلسفة سامية تمتاز بالقدرة على النفاذ إلى حقائق الأمور والكشف عن جوانب الخير حتى في أعمق أعماق ما يعتبر غالباً ضرباً من الشر، ولوناً من العداء. وفضلاً

---

(1) العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

(2) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص 140-141، مصدر سابق.

عن ذلك فهو في التنبيه إلى هذا الجانب والدفع إلى تكامل الجميع في القيام بالرد على الهجوم يبدي تفاؤلاً مشجعاً في إمكانية الوصول إلى هداية اليهود والنصارى بالمجادلة بالبرهان والإقناع بالحجة[1]. وهو تفاؤل في محله؛ إذ ليس مبنياً على أساس من الوهم أو الحلم، أو ممارسة الانخداع، بل وإنما هو من مفرزات تجربة عملية طويلة، واستنتاجات عميقة صادقة، وإن تحقق هذا التفاؤل النبيل يستلزم القيام بجهد إعلامي مضاد لا يقل - إن لم يفق - عما عليه الإعلام التنصيري، وذلك للرد القاضي على قدراته التأثيرية، وبالتحديد من قبيل النشاط الذي يقوم به ديدات بجوار غيره من الأنشطة الإعلامية المتعددة، فيما صوّرهُ لنا للإفادة منه بقوله: «إننا نقوم بإصدار منشورات على أساس مبدأ محاربة العدو على أرضه مثل هذا المنشور، (ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد) . . أي منشور لي مجانيّ وإذا فتحتم الكتاب ستجدون هذا الكلمات: (طلب مفتوح) فأنت لست مضطراً إلى طلب الإذن إذا أردت نشر أي كتاب لي، دعوني أقرأ لكم نمنحك نشرها للبيع أو التوزيع المجاني دون طلب إذن مسبق منا ولا نطالب بنسخ منها، والله لو كان لدينا الإمكانية لأغرقنا العالم بمنشوراتنا المجانية هذه، وإذا أرسلت إلينا بعض النسخ من قبل نفسك لكي نسجل هذا العمل فسيكون موضع استحسان من جانبنا»[2].

بهذا الإخلاص النادر وهذه الحكمة الإعلامية البارعة يتصدى ديدات للنشاط التنصيري الذي سالمه المسلمون ضعفاً وتقصيراً وتركوه لشأنه يصول ويجول في ديار المسلمين بإعلامه ومختلف وسائله محارباً دينهم ومصمماً على تنصيرهم. وقد أبدى ديدات في تصديه الإعلامي الحكيم استعداداً استثنائياً لبذل كافة ما أتيحت له من إمكانيات مادية محتسباً الأجر عند الله، ونجد هذا الاستعداد الكريم يفصح عن نفسه في مواقف حوارية متعددة، متمثلاً في تحديه لمناظريه بدفع عشرات الآلاف من الدولارات مقابل عقد مناظرات علنية معهم[3]، يتم تسجيلها إعلامياً، وتوزيعها

---

(1) ينظر المصدر نفسه ص 141.

(2) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية في طرابلس، ص 132، مصدر سابق.

(3) ينظر المناظرة الحديثة، ص 189-190، مصدر سابق.

عالميًا لتعم فائدتها؛ وليدرك الناس الحقيقة من خلالها، ولا لشيء آخر سوى إظهار الحق، وهو منطلق ديدات وغايته.

إنه بهذا السعي الحثيث لتوظيف الوسائل الإعلامية والإفادة منها ولو بالمقابل يكشف للآخرين مدى ما يوليه من أهمية قصوى لدور تلك الوسائل في خدمة الرسالة الإسلامية نشراً لصحيح العقيدة، وإصلاحاً لما فسد من عقائد الناس. ودافعه في ذلك هو ما ترسخ لديه من قناعة مشتركة مفادها، «أن على الذين يعملون في جهاز الإعلام الإسلامي أن يفهموا تماماً أن واجب الدعوة والإعلام للإسلام أمر لا يحتاج للتأكيد فهي مسؤولية شرعية وليست عملاً هامشياً بل هي من صميم الدعوة وركيزة دينية أساسية»[1]. ولإيمانه بهذه القناعة راح ديدات يتعمق في دراسة فنون الإعلام ويتوسع في استخدام وسائلها وأساليبها المتاحة له إلى أن تمكن منها وبلغ فيها مستوى يستحق الوصف معه بأنه خبير ضليع في فن الاستخدام الأمثل للإعلام في نشر رسالة الإسلام، حواراً ودعوة. وفي نطاق ما يدل على وافر خبرته الإعلامية يرد حديث وصفه لمميزات وخصائص أنجح العروض الصحفية، وذلك في قوله: «فالعرض الصحفي الناجح هو ذلك العرض الموحد الذي يجذب الغالبية العظمى من الطوائف المختلفة كل يوم هذه هي قمة النجاح في العمل الإعلامي، ولاشك أن كل الصحفيين وافقوني على ذلك»[2]. وفي غمرة الانفجار الإعلامي الهائل الذي يشهده العالم المعاصر لم يجد ديدات من أجل النجاح في الإبلاغ المؤثر برسالة الإسلام بُدّاً من تكييف وسائل وأساليب الدعوة بحال العصر، إذ أدرك «أن من فقه الدعوة خطاب الناس بلسان عصرهم ووسائل زمانهم وأن أجهزة الإعلام الحديثة تيسير جديد أمام التطبيق الإسلامي إذا أحسن الدعاة التكيف معها وتطويعها للإسلام»[3] وقد توصل في

---

(1) الدكتور عبدالقادر حاتم: الإعلام في القرآن الكريم، ص 371، ط / 1405هـ=1985 م مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر، د.ر.

(2) القرآن معجزات: ص 65-66، مصدر سابق.

(3) زين العابدين الركابي «نحو نظرية إسلامية في الإعلام»، مجلة المسلم المعاصر، ع 10/ 71، عام 1397هـ=1977م.

إطار جهده التكييفي بين المسالك الدّعوية ومبتكرات العصر إلى استحداث فكرة ومصطلح الإعلام القرآني محدداً مواصفاته في مجموعة العناصر المميزة له من اختزال حاسم، واعتماد أسلوب البرقيات الإعجازية، وجاذبية التأثير في المحيط وفي المستقبل عامة لكونه نداء موجها للجميع[1].

وطبقاً لتصوره الصحيح لعالمية رسالة الإسلام وضرورة قيام جهد إعلامي يوازي هذا البعد العالمي ويستوعبه، فقد تمثلت لديه أجهزة الإعلام الحديثة كمنابر عالمية فاعلة، يتحقق بحسن استخدامها الفني النشط الجانب الكبير مما قدر في الأزل للإسلام من ظهور وانتصار، وما يرجى له في الحاضر من انتشار سريع، وتفوق حاسم. ولذا عمد ديدات إلى تكثيف الاتصال الإعلامي بالناس لربطهم عن طريق الدعوة بالإيمان الصحيح، والإسلام القيم، وذلك إسهاماً منه في إزالة ما يكتنفهم من هم الجهل بهذا وذاك، ولإشباع حاجتهم في توجيه حياتهم بالعقيدة الحقة الصحيحة. وكان رائده في كل ما بذله في هذا الشأن من جهاد مشكور صدق الانصياع لمشيئة الحي القيوم، والإخلاص في إعلان الحقيقة بأعلى أصواتها[2]. وقد ساقه هذا الإخلاص في الإعلام بالإسلام، كما دفعه ما لازمه من رغبة صادقة في إعلان الحقيقة بصوتها الأعلى إلى استخدام مختلف وسائل الإعلام العصرية من صحف وكتب، وأشرطة مسموعة ومرئية، بجوار الاتصالات الشخصية والمحاضرات العامة.

وكان لتنويعه الجامع بين كل هذه الوسائل الإعلامية أثر لا ينكر في حمل خطابه الإسلامي، ودور معتبر فيما تحقق له من ظهور إعلامي وانتشار عالمي. ومن ثم فإننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا بأن ديدات قد بلغ بإعلامه مالا يبلغه بعلمه. ويشهد لذلك الفارق القائم لصالحه بينه وبين الكثيرين من العلماء المغمورين ممن لا يقلون عنه كفاءة في القدرة الحوارية، وليسوا أقصر منه باعاً في الدراسة المعمقة للأسفار المقدسة، فقط وإنما بهمته المخلصة، ووعيه الإعلامي، وباستخدامه القوي والأوسع لوسائله، ظهر

---

(1) ينظر: القرآن معجزة المعجزات 66-73، المصدر ما قبل السابق.

(2) ينظر: المسيح في الإسلام، ص 10، مصدر سابق.

عليهم بساطع نجمه، وحجبهم بوارف ظله، وعظم شخصيته .

ولكي ندرك مدى استخدامه الواسع المنوع لمختلف الوسائل الإعلامية فلا مندوحة لنا من استعراض طرف من نشاطه الهائل في هذا المجال جريًا على تصنيف كثير من الدراسات الإعلامية لتلك الوسائل[1]، وذلك على النحو الآتي :

1 - **الوسائل المقروءة**، وتتمثل في مقالاته، ومنشوراته الصحفية، إلى جانب الملصقات اللافتة بمضمونها الإسلامي من عادية ومضيئة، بالإضافة إلى مجموعة كتيباته المنشورة في موضوعات عديدة بلغت في مجملها ما لا يقل عن عشرين عنوانًا. وشهد بعضها رواجاً هائلاً مما دعا إلى نشر مئات الآلاف من نسخها ككتاب الاختيار، والعرب وإسرائيل. شقاق أم وفاق، ومسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء وغيرها. بالإضافة إلى جهوده في نشر عشرات الآلاف من تراجم معاني القرآن الكريم، والتي شجع القراء على تداولها، وتوسعة دائرة انتشارها بقوله: «ويستطيع من يشاء منكم أن يشتري أكثر من نسخة ليهديها إلى من يشاء، تستطيعون اقتناءها أو إهداءها إلى صديق أو تقديمها كمنحة أو كمكافأة لموظف من موظفيك من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود كأحسن هدية وأكرم منحة»[2].

وفضلاً عن ذلك فإنه في استخدامه للوسائل المقروءة يُعْنَى بانتقاء بحوث ودراسات الآخرين من النوع الذي يستحسنه لقيمته العلمية، واتصاله بمجال دراساته الدّعوية، وقد سبقت الإشارة فيما يخص منشوراته بأنها جميعاً تحمل إذنا مطلقاً ومفتوحاً يخول الجميع حق التصرف بها، والإفادة منها دون حقوق محفوظة للمؤلف.

وتقديراً منه للقراء فإن ديدات يعير اهتماماً لمراجعة المعلومات المنشورة في كتبه وذلك لمواكبة العصر، وملاحقة طبعاتها بالإضافات العلمية الجديدة المفيدة، التي من شأنها أن تثري المنشورات القديمة، وتخلع عليها لباس الجدة وطابع الطرافة. ومما يدل

(1) ينظر: الإعلام في القرآن الكريم، ص 36، مرجع سابق.

(2) العرب وإسرائيل شقاق. .أم وفاق ص 34، مصدر سابق.

على ذلك قوله : « . . فإنني كنت قد كتبت كتاباً صغيراً بعنوان « هـل صلب المسيح؟» منذ حوالي عشرين عاماً .

ونفذت طبعة الكتاب وأكثر من ذلك فإنه يحتاج إلى إضافات جديدة حيث إن مياهًا قد جرت تحت القنطرة[1] .

2 - **الوسائل السمعية** : وتندرج تحت هذا الصنف مختلف محاضراته، وكلماته العامة إلى جانب ما استحدثه بنجاح من برنامج زيارة جامع دربان الكبير، بما تتخلله من دروس مفيدة، وإجابات على أسئلة الضيوف الزوار. وتشغل أشرطته وأحاديثه في الإذاعات المسموعة حيزاً كبيراً من نوع الوسائل السمعية. ولعل عرضه لخمسين ألف جنيه إسترليني مقابل الحديث لمدة خمس دقائق في الإذاعة البريطانية كاف لإدراك ما يخصصه من قيمة واعتبار لمختلف الوسائل الإعلامية وللسمعية منها خاصة .

3 - **الوسائل البصرية** : هي عند ديدات جملة اللافتات والملصقات التي أتينا على ذكرها وهي في الغالب تحمل مقولات إسلامية أو ما يثير فضول القراء من أقوال تجذبهم في الغالب للاهتمام بالتعرف على الإسلام، وهي أقوال تصاغ خاصة بطريقة إعلامية مثيرة ومؤثرة، ليكون لها وقع قوي في النفس بمجرد ما يقع البصر عليها، ويستوعب العقل مضمونها اللفظي. وقد أدت هذه الوسائل في جنوب أفريقيا دوراً فاعلاً، مما أثار نقمة البعض واستياءهم فطالبوا بالتوقف عنها، وإزالة المعلق من لوحاتها، كما مرّ سابقاً متمثلاً في موقف رئيس بلدية مدينة دربان تجاهها، وحجته في ذلك .

4 - **الوسائل السمعية والبصرية** : وتكاد تكون أوسع استخدامًا عند ديدات أكثر من غيرها، إذ لا يضاهي سعة استخدامه لهذا النوع سوى الوسائل المقروءة والشخصية. ويتمثل إعلامه بهذه الوسائل في برامجه المسجلة في الإذاعة المرئية

---

(1) المسيح في الإسلام، ص 88، مصدر سابق.

وأشرطة الفيديو الكثيرة، والتي جاوزت حد السبعين شريطاً من محاضرات وحوارات الشيخ ديدات[1]. مما قد سجلت في ظروف متباعدة، ومناسبات مختلفة، وهي موزعة على المعنيين بها في مختلف أنحاء العالم، ويمكن بالنسبة لمن يجيدون لغتها التعرف على الكثير من منهجية ديدات الحوارية والدّعوية، وأهم القضايا التي حاور فيها أو تناولها في مختلف محاضراته المحلية والخارجية. وفيما يخص تأثير تلك الوسائل فإن الحديث قد سبق عن إسلام ألفي شخص من الفلبين بعد مشاهدتهم لأشْهَرِ أشرطته المرئية، وهو شريط مناظرته العالمية الشهيرة مع القسّ الأمريكي سواجارت[2]. ولتعميم فائدة تلك الأشرطة وإفساح نطاقها الإعلامي أخذ الأستاذ علي الجوهري في تعريب عدد منها، وتفريغها إلى كتب مقروءة، تتيح الفرصة واسعة للقراءة المتأنية والمتابعة الدقيقة للفكر والمنهج، وتقصّي ديدات بالدراسة والتأمل.

5 - **الوسائل الشخصية**: وتشمل في إعلام ديدات كافة اللقاءات العامة والخاصة التي دعا أو دعي إليها من مقابلات، ومحادثات موسعة ومحدودة. ومن الجدير بالذكر أن العدد الكبير من حواراته المحدودة النطاق البعيدة عن الأضواء الإعلامية، تنتمي إلى هذا النوع من الوسائل، بالإضافة إلى المقابلات الشخصية للتعريف بالإسلام، وغيرها من الدروس الخاصة التي ألقاها أو شارك في إلقائها على مختلف الأصعدة، إلى جانب الدورات التكوينية، والمحاضرات التثقيفية العادية أو الموقوتة بمناسبات معينة. وهذه الوسائل في استخدام ديدات لها كثيرة جداً لا مطمع في حصرها؛ إذ لا تنحصر لسعتها وشموليتها لمختلف مواقفه الحوارية والدّعوية. والملاحظ في ختام استعراض توظيفه لهذه الوسائل أن حالة من التقاطع والاشتراك تجمع أحياناً بين نوعين مختلفين من الوسائل حول نشاط واحد، الأمر الذي يمكن في إطاره تصنيفه وإضافته لكل من النوعين على حدة،

---

(1) ينظر: هذه حياتي: هامش 2 من الصفحة 35، مصدر سابق.

(2) ينظر: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

كالملصقات الإعلامية مثلاً، أو نشاط المحاضرات والحوارات المغلقة. ولكن ذلك لاينال من صلاحية هذا التصنيف المقتبس من علماء الإعلام، بقدر ما يدل على وحدة نسقية متشابكة بين عناصر الجنس الواحد، ولتمام تصورنا لفكره الإعلامي وتوظيفه لآلياته المتعددة يجدر الوقوف على أبرز السمات المميزة لمسلكه الإعلامي في عمله الإسلامي، وذلك بتسجيلها في الملخصات الآتية :

أ - **الوضوح في المحتوى الإعلامي** : تمتاز رسالته الإعلامية بسمة البساطة والوضوح، حيث إنّ لغتها وأفكارها تتناسب مع مستوى العامة من الناس، ويمكن أن يفيد منها أبسط الناس وعياً وأدناهم في المستوى العلمي. ومن مميزاتها كذلك أنها تعتمد على العقل، وتقوم على الحوار والإقناع .

ب - **تنوع الأساليب، وتعدد الوسائل** : يعمل ديدات في خطابه الإعلامي على المزاوجة بين أساليب متنوعة، ووسائل متعددة ولعل القصد من وراء ذلك تلبية رغبات جمهور كل وسيلة من الوسائل بأسلوب خاص ملائم لطبيعة هذا الجمهور المستقبل، حيث تتكامل على نحو عفوي تلك الوسائل والأساليب لتغطي ميول وخصوصيات الأفراد والفئات، وصولاً إلى التأثير فيهم واستمالتهم .

ج - **مجانية عطائه الإعلامي** : ينحو ديدات منحىً متميزاً في توزيع رسالته الإعلامية بالمجان، مستجيباً ومشجعاً لمختلف السبل الكفيلة بضمان التوزيع الواسع، والانتشار السريع للفكرة التي ينقلها من خلال تلك الوسائل المتعددة إلى الناس جميعاً، وبالأخص من يستهدفهم ديدات أكثر من غيرهم. ومن الأساليب الخاصة في هذا الشأن أنه يتنازل عن حقوق الملكية الفكرية لإغراء الآخرين بالمشاركة في توسعة نطاق التوزيع والتعريف بهذه الرسالة التي لا يسعد ديدات بشيء كسعادته بظهورها واعتناق كافة الساحات والآفاق لمقتضاها الإسلامي، والتسليم بعقيدتها وتعاليمها .

د - **التركيز على الوسائل المتاحة للجميع** : وهذه السمة ذات صلة بسابقتها وتظهر في تركيز ديدات إعلاميًا على الوسائل العامة والتي غالبًا ما تكون في متناول

الجميع، أو يتيسّر الوصول إليها بسهولة دون كلفة أو مشقة قد تصرف عن متابعة ما يحرص ديدات على إرساله إلى الجمهور المستقبل عبر تلك الوسائل. وبالطبع فإن أيّ رسالة إعلامية يستهدف بها الناس جميعاً تظل ذات حظ قليل من النجاح ما لم تراع عمومية الو سائل التي تعتمدها للوصول إلى المخاطبين برسالة المصدر الإعلامي.

هـ - **العقيدة والأخلاق موضوعان أساسيان لخطابه الإعلامي**: ليس بمفاجئ على الإطلاق في إعلام داعية كديدات أن يتمحور خطابه حول العقيدة والأخلاق كقطبين أساسيين، تدور حولهما مختلف القضايا التفصيلية المتناثرة في خطاباته، والتي يوردها فقط من أجل أيضَاح ما يصبو إليه من قضية جوهرية تتمثل في رسالة العقيدة، وما يلحق بها من دعوة إلى التحلي بالقيم الأخلاقية، والتمسك بالمبادئ الإنسانية الرفيعة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. وذلك - فيما أعتقد - التزام منه في منطلقه الإعلامي بمحدّدات مهمة الداعية في تأسيس أصول الدين في نفوس المدعوين قبل غيرها من تعاليم الإسلام في مجالي العبادة والشريعة.

و - **الالتزام بمعايير الأدب وطيبة الكلمة**: يخاطب ديدات في مختلف وسائله الإعلامية جمهوره بأساليب متأدبة، وبعبارات طيبة، وكلمات محترمة. إنه إعلام يقوم في أغلبه على اللين من القول، والجميل من الألفاظ والصحيح من الأفكار. يلقي رسالته إلى الجمهور في ظل الرفق والهدوء بعيداً عن الصخب والأساليب القاسية الجارحة إلا لضرورة ملزمة، لا تتعدى قدرها.

وهذه هي أهم ما توصل إليه استنتاجي الكليل مما بدت لي بمثابة سمات عامة للجانب الإعلامي عند ديدات باعتباره الآلية الأساسية التي يقوم عليها ومن خلالها مختلف جهوده في الحوار والدعوة، وفي سائر مجالات عمله الإسلامي على نحو أعم وبصورة أوسع.

هذا.. وإذا كانت هذه الوسائل مع أهميتها الكبيرة لا تمثل في جملتها سوى أدات نقل، وآليات اتصال اعتمد عليها ديدات في نشر رسالة الإسلام، وإبلاغ خطابه

العالمي إلى الناس، فما هو جوهر الفكرة ومضمون الرسالة التي طوع لحملها ونقلها تلك الآليات في مختلف تجلياتها الحوارية والدّعوية؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي عقد مباحث مستقلة لاستعراض عدد من كتاباته، بطابعيها المقارن والدّعوي، بالإضافة إلى أشهر محاوراته مع النصارى. وذلك في عرض يتسم بالتحليل والنقد على النحو الآتي :

المبحث الثاني

نماذج من كتاباته في موضوعات الأديان المقارنة

المسيح في الإسلام

مسألة الصلب

عتاد الجهاد

1 - في الكتاب الأول وعنوانه «المسيح في الإسلام ومحاورة مع قسّيس حول ألوهية المسيح»[1] :

يعرض ديدات في فصوله الثمانية للمسيحيين عقيدة المسلم بشأن شخصية المسيح عليه السلام، ووجوده المعجز وطبيعة ما مثلها من مهمة تاريخية في حياته الدينية، مع الإشارة البارزة إلى ما تحظى به أمّه عليها السلام في عقيدة القرآن من حفاوة وتبجيل، باعتبارها صديقة، وأم رسول من أعظم رسل الله عليهم الصلاة والسلام .

ولمعالجة ما يطرحه الكتاب من موضوع أساسي على نحو علمي متسلسل، ينطلق ديدات في الفصل الأول بالتنبيه إلى ما يكتنف المسيحيين من جهل عام بالروح الطيبة التي يحملها القرآن الكريم للمسيح وأمه عليهما السلام، وذلك باعتباره منبع إيمان المسلمين عامة . إذ تتجسد مكانة المسيح في القرآن بورود اسمه فيه خمساً وعشرين مرة مقابل خمس مرات لموارد اسم النبي الأعظم ﷺ. وفي مختلف تلك الموارد المبثوثة في ثنايا سور عديدة يكون ذكره مقترناً بألقاب حميدة، وأوصاف محترمة . وبمقتضى هذا الموقف القرآني الكريم من المسيح عليه السلام، فإن المسلمين يسلمون برسالته الإلهية كجزء أساسي لا يتم إيمانهم بدونه، كما أنهم بموجبه لا يسوغون لأنفسهم ذكر اسمه إلا ملحقاً باستدرار السلام عليه كلما ذكروه .

ولتعميق الفكرة يتجاوز ديدات إلى بيان ما أسبغ على أم المسيح عليهما السلام في القرآن الكريم من نعوت مجيدة، ومكانة سامية، على نحو لم يتح لها حتى في أناجيل المسيحيين، ممن يرونها أمّاً لإلههم أو مكلمة لآلهتهم، وحتى تتضح لهم الصورة القرآنية عنها فإن ديدات يضطر إلى إيراد قصتها باختصار، بداية من ظروف مولدها ونشأتها في المعبد، إيفاء بالنذر السابق على وجودها، مشيراً إلى تناقش الكهان على كفالتها، واقتراعهم في هذا الشأن. وهو في هذا العرض المختصر يفيد بحدود السرد

(1) الكتاب محدود الحجم إذ لا يتجاوز النص الأصلي مع تعريبه مائة صفحة، قام بتعريبه الأستاذ علي الجوهري ونشرته دار الفضيلة بالقاهرة .

القرآني دون أن يطلق لنفسه العنان في خوض التفاصيل الإسرائيلية المنقودة في الغالب، ويتخذ ديدات من هذا المنطلق القرآني دليلاً على صدق المصطفى عليه الصلاة والسلام وأمانته في نقل الوحي القرآني عن الله عز وجل إلى خلقه بحذافيره دون أدنى تصرف تلقائي فيه، بدليل الرواية القرآنية لقصة مريم في القرآن الكريم، وما يحيط بشخصيتها من الإخْبار عنها بالفضيلة، وهالة التمجيد والامتياز على نساء العالمين مع أنها يهودية، واليهود تاريخياً من أعدى أعداء العرب، ورغم كل ذلك فإن الرسول ﷺ لم يلوّنْ الوحي الإلهي بشيء من ظلال علاقات الجفاء السائدة بين العرب واليهود، ولو كان هو المؤلف الحقيقي للقرآن الكريم لأقحم فيه بالتشريف بدلاً من اليهودية اسم أمه أو زوجته أو إحدى بناته عليهنّ رضوان الله جميعاً، كما يستبعد في تأليفه له أن يخصص سورة كاملة منه باسم مريم عليه السلام تكريماً وتبرئة مما لا وجود لمثلها حتى في أسفارهم المقدسة، والتي لا تتجاوز تضمن عناوين وإشارات أقل أهميّة وقيمة مقارنة بالواردة في القرآن الكريم.

وفيما يتصل بميلاد المسيح يلتزم ديدات بمتابعة السياق القرآني وعرض القصة كما وردت فيه مبرئاً السيدة مريم من قذف القاذفين بمعجزة تكلم المسيح إلى قومه وهو في المهد بما يفيد براءة أمه. وبمناسبة الحديث عن هذه المعجزة المسيحية الأولى في القرآن الكريم يستحسن ديدات مقارنتها بما يناظرها في الكتاب المقدس، من دعواهم معجزة تدفق الماء خمراً على يد المسيح عن عمر جاوز الثلاثين[1]. ومن منظور أخلاقي يجد ديدات في حديثه عن معجزة الخمر في الكتاب المقدس مَنْفَذًا للتطرق إلى إثارة قضية إفراط الأمم المسيحية في معاقرة الخمور، وبالأخص في جنوب أفريقيا، وأمريكا التي بلغ فيها المدمنون الذين يقل الأمل في إفاقتهم وصلاحهم حوالي عشرة ملايين خمار.

وفي سياق المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في موضوع المسيح ومعجزاته، وصفاته يناقش ديدات ما ينسب إلى المسيح وهو عنه بريء من نداء وقح لأمه بلفظ «يا امرأة مالي ومالك» طبقاً للوارد في الإنجيل، وذلك في مناسبة عرس أقيم

---

(1) ينظر: المسيح في الإسلام، ص 36-40، مصدر سابق.

بمدينة قانا، بالإضافة إلى ذمّه وقدحه لكبار السن من قومه بوصفه إياهم: «أيها المنافقون الأشرار . . يا أبناء الزناة. . يا أبناء الأفاعي»[1].

وهذه من السلوكيات التي تتنافى مع ما يوصف بها من وداعة، وتسامح، ومسالمة، كما يقرر القرآن الكريم في وصفه له ببر الوالدة وأنه ليس جباراً ولا عصياً.

إن هذه اللفتات القوية التي يثير بها ديدات المسيحيين عن عقيدة القرآن إزاء المسيح وأمه، تشكل في واقعها عوامل استقطاب فعالة؛ إذ تتسم بجاذبية أخاذة من شأنها أن تقدم للآخرين مؤشرات هادية تقود خطاهم في الطريق المستقيم إلى الإيمان الصحيح.

وعلى هذا النمط المتكامل يسير ديدات على امتداد الكتاب، مبيّنًا للقارئ أنه ليس مجرد قصاص أو راو تتلخص مهمته في مجرد السرد والوصف دون غيرهما، بل هو بجوار السرد يقارن ويحلل ويناقش ويغذي هذا السّرد بنقولات ومقارنات كاشفة، يظهر للقارئ من خلالها أنّ حكاية ديدات للقصص والوقائع منطلق وبداية، وليست هدفاً أو نهاية.

ومن ثم يسترسل في المزيد من المقارنة بين آدم والمسيح عليهما السلام في مسألة استثنائية خَلْقِهِمَا، للوصول إلى ما تولده المقارنة من استنتاج عقلي بأحقيّة ترشح آدم للألوهية أكثر من المسيح لو كانت المسألة بمعيار الخلق المعجز، ومنطق الوجود العجيب لكليهما، وهو في هذا الاحتكام القرآني لا يزيد ولا ينقص شيئًا عمّا ناقش به القرآن الكريم مؤلهي المسيح مستندين إلى حجج واهية، ودعاو متهافتة. ولفاعليّةِ المنطلق القرآني يستنجد به في مواجهة أدعياء ألوهية المسيح بقوله: «إن المنطق المعقول في هذا الموضوع يتلخص في أنه لو كان مولد عيسى دون أب مدعاة أن نعده مناظراً ومساوياً لإله فإن آدم عليه السلام لديه فرصة أكبر لنيل هذا الشرف، وهو ما يرفضه أي مسيحي، وبهذا يكون من حق المسلم أن ينكر على المسيحي مثل هذا الكذب على الله»[2].

---

(1) ينظر المصدر نفسه ص 42.

(2) المسيح في الإسلام: ص 56 مصدر سابق.

وحيث إن ديدات خبير في دراسات الكتاب المقدس فإنّهُ يجود على الدارسين بإسعافهم بالقضايا العقدية التي يستعصي أيضاحها حتى على علماء اللاهوت، كبيان المقصود من قولهم «إن المسيح مولود وليس بمخلوق». ويستقصي في إفادة القارئ بأنّ استخدام تعبير «ابن الله» كان أمراً شائعاً لدى اليهود، وكانوا يطلقونه من باب الثناء والإطراء على كل شخص تميز بالتزامه وعرف بتدينه. ولتأكيد محتوى ما ذكره يستشهد بإنجيل لوقا الذي استخدم فيه التعبير بصيغتي المفرد والجمع معاً، الأمر الذي يدل على ما قرره.

ويرى ديدات أن القول ببنوّة المسيح لله يستلزم القول بشبهه له بطبيعة الحال، وهو ما يعكس عنده نزعة عنصرية بغيضه، ونظرة دونية سافلة إلى الأجناس المخالفة له في الخلقة والتكوين، والذي ربما يدعي القائلون بالبنوّة اشتراكهم مع المسيح فيه دون غيرهم.

وفي مناقشته لذات القضية يعيب على المسيحيين المعاصرين مغالطاتهم الفكرية المتطرفة، في الاستدلال على هذه العقيدة الباطلة بمعادلة ثنائية مبينة على نقيضين متقابلين دون حد وسط بينهما، مع إمكانية قيامه، وذلك لإلزام الطرف الآخر بضرورة التسليم بمعتقدهم كقولهم مثلاً: «إما أن يكون المسيح إلـهًا، وإما أن يكون كذاباً، أو إما أن يكون المسيح إلـهًا، وإما أن يكون مجنوناً، أو إما أن يكون المسيح إلـهًا وإما أن يكون مدعيًا»[1].

هذه وغيرها من المغالطات المتطرفة التي تقوم على نفي البديل الأصوب وهو كونه رسول الله، وعبده.

وفي ختام مناقشته لدعاويهم يحسم الأمر ببيان القول الحق فيه، وفق مقررات عقيدة القرآن الكريم المفيدة بأن المسيح عليه السلام سوف يتعرض يوم القيامة للاستجواب بشأن تأليه البشر له، وسوف يبرئ نفسه على رؤوس الأشهاد من مسؤولية الأمر به أو الدعوة إليه. ويخلص ديدات في هذا الصدد إلى تسجيل حقيقة مفادها: أن الأناجيل في حد ذاتها خالية بمختلف رواياتها الطائفية من قول صريح

---

(1) ينظر المصدر نفسه، المسيح في الإسلام، ص 68 مصدر سابق.

للمسيح عليه السلام بأنه إله، أو أنه في مقام يؤهله للمشاركة في صفة الألوهية .

وإن هذا الكتاب الذي نعرض لموضوعاته هنا يتضمن إلى جانب ما تقدم محاورة هادئة عقدها ديدات مع أحد كبار اللاهوتيين الكنديين في جنوب أفريقيا، جاءت المبادرة إلى إجرائها من قبل الشيخ ديدات، وكان هذا اللقاء في تقييمي له صادقًا وجاداً؛ حيث تحدى فيه ديدات محاوره بإيراد نص يفيد قولاً صحيحاً وصريحًا للمسيح بأنه والأب شخص واحد[1]، وقد أخفق الرجل مع ما هو عليه من مكانة علمية ودينية مرموقة، وكلما أراد تلفيقًا نبهه ديدات إلى عدم دقة اقتباساته، وأنها منزوعة من سياقها لتوظيفها لأغراض، ولدعم قضايا بمعان لا تحتملها تلك النصوص. وهو ما يسميه ديدات بصدمة السياق، وحتى يسلم المحاور من هذه المآخذ الفاضحة يرشد ديدات إلى الوقوف على سياق النص وسباقه جيدًا، وصولاً إلى تحديد المعنى المراد منه بدقة وموضوعية .

والملاحظ أن ديدات في هذه المحاورة كعادته في غيرها يركز على البعدين النقلي والعقلي، مناقشاً الرجل بطريقة علمية هادئة، يأخذ فيها التحليل اللغوي حيزاً واسعًا من ناحية مراجعته ترجمات الكتاب المقدس عن اللغة اليونانية، وما ترتب على ذلك من تزييف، وإساءة ترجمة الألفاظ التي جاءت خلافًا لمعانيها الصحيحة. وقد أبدى ديدات في تناوله لهذا الموضوع، دراية بأساسيات اللغة اليونانية في حالة مقابلة ألفاظها العقدية بما وضع لها كترجمات في اللغة الإنجليزية من حيث النطق وطريقة الكتابة والرسم[2].

والشيخ ديدات لا يحدثنا فيما يلحق عن بقية وقائع هذا اللقاء الهام، وكيف انتهى وإلامَ توصل، وإنما ينقلنا إلى الفصل الأخير من الكتاب مخصصًا فيه اهتمامه لمعالجة ثلاثة موضوعات أساسية في الحوار الإسلامي الصليبي، وتتمثل في قضية الصلب، ورسالة المسيح ومعجزاته، والبشارة بظهور خاتم الأنبياء والمرسلين بعد المسيح عليهم الصلاة والسلام. وفيما يخص الموضوع الأول يكتفي ديدات بإحالة

---

(1) ينظر: المسيح في الإسلام ص 47.

(2) ينظر: المصدر نفسه، المسيح في الإسلام ص 86-87.

القارئ إلى ما أفرده له من كتاب صدر قبل عشرين سنة، خصصه لمعالجة الموضوع، ويكفي القارئ الرجوع إليه لاستيعاب ما ورد فيه، كما أنه بشأن الموضوع الثالث يعد بدراسته مستقبلاً في كتاب مستقل.

وأما الموضوع الثاني وهو رسالة المسيح فإن ديدات يراها كرسالة غيره من الأنبياء جاءت لرسم طريق الخلاص للعباد بإرشادهم للسير وفق منهج التوحيد وطاعة الله عز وجل، وليس وفق الاعتقاد بصلب المسيح وافتدائه كما يدعي المدعون.

ولتعزيز قوله فإنه يستشهد بقصة رجل يهودي استوضح من المسيح طريق الخلاص فلم يزد له في رده عليه على أمره له بحفظ الوصايا، وهو ما يعني تقوى الله وطاعته بالتزام ما أمر به وترك ما نَهَى عنه وزجر.

وعن قضية معجزات المسيح فإنّ رأي ديدات في خوارق العادات بعامة هو أنها لا تثبت نبوة ولا تؤكد ما إذا كان من يقدر على صنعها صادقاً أو كاذباً في دعواه؛ حيث إنّ المسيح عليه السلام قد تنبأ بظهور دجالين وأفاكين من بعده، يستغلون قدرتهم في الإتيان بخوارق الأمور لتضليل الناس، بمن فيهم حتى الصفوة المتميزة بصدق إيمانها.

وحديث ديدات عن المعجزات والخوارق يجره إلى شيء من الاستخفاف بالمسيحيين واصفاً إياهم بسذاجة المنطق، وسخافة العقل، وأنه يستعصي عليهم استيعاب معجزات قد تفوق ما ظهرت على يد المسيح كمعجزة موسى عليه السلام في قلب العصا الجامدة حية تسعى مقارنة بمعجزة إحياء الموتى التي يؤمن بها المسيحيون بكل فخر واعتزاز. والمعلوم أن تحول المادة من عالم الجماد إلى عالم الحيوان أصعب وأعجز من عودة الروح إلى جسم قد فارقته بعد أن تلبست به حيناً من الدهر. هذه وغيرها من المعجزات التي يعترف المسيح نفسه فيما نقل عنه في الأناجيل بأنّ قدرته عليها ليست ذاتية وإنما هي مستعارة ومستمدة من الله العلي القدير، الذي تتم الأمور بإذنه وإرادته، وبذلك يتنصل المسيح من أيّ قدرة أو معجزة تسند إليه خارج اعتباره عبداً من عباد الله إذ لا حول له ولا قوة إلا بالله.

وللبيان يورد ديدات قصة الرجل الذي تضرع المسيح إلى الله بإعادة الحياة إلى جثته بعد مضي أربعة أيام من المفارقة، وكان تدخل المسيح بالابتهال رضوخاً لاحتجاج وإلحاح أخت الرجل والتي كانت من أتباعه المؤمنين .

ولعل ديدات بهذه القضايا التي ناقشها أدرك أخيراً الحاجة إلى تحديد مخاطبيه الذين يعنيهم بمحتوى هذا الكتاب أكثر من غيرهم، وهم من تؤمل فيهم الهداية ويتوسم فيهم الإيمان، من الذين تحدث عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 111].

وأما الطائفة الأخرى فيلزم في رأي ديدات إيجاد سبل ووسائل أخرى مناسبة لمخاطبتهم والتوجه إليهم. ولكنّه وفجأة يرتد عن هذا الرأي ليقرر بأن ما يقدمه صالح للفريقين معاً داعياً كل قارئ إلى المساعدة في تمرير الكتاب بَعْدَ قراءته إلى شخص آخر، كي يستفيد منه بدوره. وقد جمع ديدات بين الأمرين في قوله: «وإلى أولئك المؤمنين نتجه بمثل هذا الكتاب، أما الطائفة الأخرى فهم أولئك الذين وصفوا بأنهم الفاسقون يلزم أن نجد السبل والوسائل الأخرى كي نتوجه إليهم، إن ما نقدمه يصلح بإذن الله وتوفيقه للفئتين، ويصلح «بعون الله» للجميع، ومن المرجو أن تعطي هذا الكتيب لغيرك بعد الفراغ من قراءته»[1].

وأخيراً يختم بآية قرآنية كخلاصة حاملة لمجمل التصور القرآني عن السيد المسيح عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: 34-36].

وترد الآية في هذا المقام لتمثل دعامة متينة، وخلفية تشدّ وتعزّز تلك الأطروحات التي سبق وأن أطلقها في ثنايا الكتاب عن المسيح عليه السلام، كما أنها تؤكد في الآن

(1) المسيح في الإسلام ص 48.

نفسه ما تقرر في حينه من قرآنية المنهج ، وأن النص يشكل ركيزة أساسية من مرتكزات منهج ديدات في الحوار والدعوة .

ومما يلاحظ في معالجة ديدات لموضوع المسيح في الإسلام أنه كان من الأوفق التركيز على إبداء العقيدة القرآنية بشأن المسيح وأمه عليهما السلام ، مركزاً على توحيد الله عز وجل وتنزيهه ببيان الحدود الفاصلة بين الخالق والمخلوق في العقيدة الإسلامية ، مستعيناً في ذلك إلى جانب النصوص القرآنية بالتفاسير ، ومؤلفات المسلمين في هذا المجال . وعلى الرغم من افتقار معالجته إلى التعمق والتركيز؛ إلا أني لا أدعي عليها مطعناً جوهرياً يسحب عنها قيمتها العلمية أو الإعلامية .

2 - مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء[1] :

إن قضية افتراء صلب المسيح من أهم وأنجح الموضوعات التي تناولها ديدات ، وتركزت عليها دراسته الناقدة للفكر الصليبي ، وتعود صلته بدراسة الموضوع إلى إثارة المستفزين إياه بمناقشته فيه من أجل إقناعه به . مما جعله يقبل على دراسته فيه بموضوعية وروح متعمقة ، مستخدماً نفس المصادر التي ينطلقون منها في هذا الشأن ، فكانت هذه الدراسة الممتدة عبر صفحات الكتاب تمثل في تصريح ديدات : «حصيلة بحث ودراسة طوال سنوات وسنوات من عمري»[2] . وإن خطورة الموضوع ومكانته في الفكر الصليبي يغري بالقول بأنه من أهم القضايا المحورية التي تركزت عليها حوارات ديدات بنوعيها الصامت والناطق منها ، أي كتابة وخطابة . ولعله عند ديدات يعد أهمها على الإطلاق ، وذلك فيما يستفاد من قوله : «إن وفاة عيسى على الصليب هي عصب كل العقيدة المسيحية ، إنّ كل النظريات المسيحية عن الله ، وعن الحقيقة ، وعن الخطيئة ، وعن الموت ، تستمد محورها من المسيح المصلوب ، وكل النظريات المسيحية عن التاريخ ، وعن الكنيسة ، وعن الإيمان ، وعن التطهر ، وعن المستقبل ، وعن الأمل إنما تنبع من «المسيح المصلوب» فيما يقول البروفيسور جودن مولتمان في كتابه عن «الإله المصلوب»

---

(1) هو أحد كتب ديدات المنشورة عن دار الفضيلة بتعريب الأستاذ علي الجوهري .

(2) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء ص 183 ، مصدر سابق .

ومجمل القول: هو أن انتفاء الصلب انتفاء للمسيحية، وتلك هي تجربتنا نحن المسلمين الذين نعيش في خضم المسيحية في جنوب أفريقيا»[1]. وفي ضوء هذا الاعتبار تكتسب الدراسة قيمتها الكبيرة ممثلة إحدى أنضج المحاولات العلمية التي قدمها ديدات في مجال نقد الفكر الصليبي، حيث إنّ مسلكه فيه قد اتسم بطابع كتابي مختلف عن أسلوب المناظرات بما يلابسها من انفعال وارتجال مما لا يسلم معه المناظر غالباً من سقطات وردود ضعيفة، فضلاً عن إغفال أو نسيان مناقشة بعض ما تطرح من قضايا هامة.

وأخذاً بموضوعية الأسلوب الكتابي فإن الكتاب يعالج موضوع دراسته معالجة ملتزمة ومركزة، يقل فيها الاستطراد والحشو بقضايا غير ذات علاقة بالموضوع، من قبيل ما يظهر في بعض أعمال ديدات. وهو من الناحية المنهجية يعتمد طريقة السرد المفصّل لقصة الصلب المزعومة عارضاً لظروفه، وشخصياته، وكافة الملابسات التي اكتنفته للخروج باستنتاجات علمية تتمثل في ثلاثين برهاناً عقلياً على بطلان القول بموت المسيح على الصليب. وبطبيعة الحال فإنه يُعْنَى ببيان موقفه من القضية محدداً فيها عقيدته التي لا تخرج في جوهرها عما يقرره القرآن الكريم والذي اعتمد عليه ديدات وانطلق منه؛ إذ رأى فيه الإجابة الشافية الكافية من العليم الخبير. وعلى الرغم من أنه كان متاحاً له الاكتفاء بمقتضى النص القرآني بالإضافة إلى الاستنتاجات العقلية التي أوردها إلا أنه آلى على نفسه التوسع في دعم قضيته بسيل من المراجع المنسوبة لمستشرقين ونقاد غربيين ممن تعرضوا لنقد المسيحية، ونقض اللامعقوليات فيها، كما تكلف ديدات في هذا الأمر التعزز بكم من الصور الشمسية، ومنسوخات من الصحف لإثبات أطروحاته التي يدعمه فيها بعض معطيات الأحداث الجارية، والتي تحكيها الصحف موثقة بالصور، والرسوم. وهذا الإجراء العلمي الذي سلكه ديدات في خدمة قضيته العلمية يعبر بحق عن سعة أفقه الفكري، وعراضة دائرة اطلاعاته، وعمق ملاحقته لكل ما يمتّ بصلة إلى مواضيع اهتماماته الحوارية من مصنفات علمية، ودوريات يومية، وأفلام سينمائية. إن تلك المراجع بمختلف أنواعها، تشكّل لديدات قاعدة متينة يجدها من أنسب ما ينهض عليها

---

(1) المصدر السابق، ص 10-11.

المحاور للإفحام والإلزام في مختلف حواراته المنطوقة والمكتوبة .

وإنّ الكتاب بهذه المرجعية المتنوعة، يمثل خلاصة ما وقف عليه ديدات من آراء الدارسين في موضوعه، مضافة إلى قدراته، وجهوده الشخصية قراءة، وتحليلاً واستنتاجاً، إذ تقوم مناقشته فيه على أسس محاكمات عقلية، واستدراج منطقي لمن يفترض اعتراضهم على صواب ما يراه، ويتخلل سرده الهادئ ردود مسكتة، قد تدل من منظور آخر على أن ديدات يحظى بصفة القدرة على التحليل والمناقشة، ولكنه يفتقر لحد ما إلى الرّبط والتنسيق الجامع لأطراف موضوعه .

ومن ملاحظاته الذكية التي تستوقف الدارس أنه يعيب على الصليبيين تناقضهم في وصف المسيح بأنه وديع ومسالم وأنه أمير السلام، في حالة إقرارهم بصحة نصوص تفيد دعوته إلى سفك الدماء وإشعال النار والدمار، حيث قد ورد أكثر من نص وفي أكثر من مصدر لهم عن هذا الجانب في شخصيّة المسيح، أو بالأحرى في خطابات لحظاته الأخيرة تحديداً[1] .

وهو الجانب الذي يتكتم عليه الصليبيون، ويتغاضون عن إبرازه استغفالاً لغيرهم في إظهار وجه واحد فقط لعملة ذات وجهين متناقضتين. إن اكتشاف هذا البعد، وما يستتبعه من استخدامه في مواجهة أدعياء المعاني الجوفاء، والألفاظ الرنانة المفرغة من محتواها قد يضع حداً لتلك المزاعم الباطلة، ويكشف للمستغفلين كامل حقيقة القضية بوجهيها المتناقضين .

ومما يثيره ديدات ضمن ما يتناوله قضية أعظميه الرسول ﷺ باعتباره الإنسان الأنجح في تاريخ العالم. ولإثبات هذه الحقيقة يستعين ديدات بمراجع غربية - وربما مسيحية في الغالب تفيض إشادة بعظمة الرسول ﷺ - مقابل حظ عاثر للمسيح عليه السلام في تلك الرؤى الذي تتصوره أتعس الرسل حظاً في المهمة الدّعوية[2] .

---

(1) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 46، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص: 52.

إن هذه المقارنة الواعية التي يقتبسها ديدات من غيره ويقحمها في نطاق سرده لهي ذات مغزى ودلالة لافتة توحي بعظمة الرسول عليه الصلاة والسلام للقارئ العام الذي لم تتكون لديه فكرة مسبقة عن شخصيته العظيمة، ليقوده الإعجاب بهذه العظمة إلى التأثر بشخصيته، والاقتناع بصدق رسالته ﷺ. وإن متابعة ديدات عبر صفحات هذا الكتاب من شأنها أن ترسخ أيّ قناعة سابقة عن واسع معرفته بالخلفية التاريخية للأجواء الزمانية والمكانية التي ظهرت في إطارها الرسالة المسيحية، كما تدفع المرء للتسليم بعمق درايته بحياة شعوب تلك العصور بتاريخها وثقافتها[1].

ومن اللافت للنظر أنه في معرض سرده لتفاصيل القصة من أجل نقدها يميل إلى مسايرتهم في عقيدتهم، على نحو يوهم بتصديقه بموجب تلك الروايات الصليبية، والتي ليست معقد إجماع تام بين المسيحيين، وقد تدفع هذه المجاراة التي يتصنعها ديدات في خضم عفوية السرد بالقارئ المتسرع إلى الحكم عليه باعتقاد ما يعتقدون، حين لا يعمل النظر في موقفه الحواري، أو عندما يعتريه نسيان منطلق ديدات في وضعه لهذا الكتاب، ومقصده من هذه الدراسة التي تشكل خلاصة سنوات من رحلة البحث عن الحقيقة لإثباتها. ودرءاً لأي ظن نقيض لحقيقة عقيدته يلجأ ديدات إلى تسليط الضوء على آراء خارجة عن العقيدة الصليبية الموروثة، مما يفهم منه أن ديدات يعرض من خلال الآخرين عقيدته التي تتقاطع مصادفة في هذا الجانب منها مع بعض الاتجاهات المنشقة عن صف الفكر الصليبي العام[2].

وفي سبيل نقده العقلاني لموضوعه الأساسي وهو مسألة صلب المسيح «يعرض صورة فوتوغرافية لاجتماع ناد يضم سبعة أشخاص ممن يقال تجاوزاً بأنهم عادوا من عالم الموتى»[3]. ويأتي هذا العرض إثباتاً لما مفاده أنه قد يحكم على المرء بالموت في حالة تعرضه لنوبة قلبية أو وقوعه في غيبوبة طويلة، ثم لا يلبث أن يفيق ويصحو من

---

(1) ينظر المصدر نفسه «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 66.

(2) ينظر المصدر السابق ص 84-86.

(3) ينظر المصدر نفسه ص 83-84.

الموت الحكمي الذي قد يقع في خطأ توثيقه والتصريح به بعض كبار الإخصائيين من الأطباء. الأمر الذي لا يستبعد معه خطأ العامة أو تواطؤهم على الكذب فيه. وما يرمي إليه ديدات من وراء هذه الظاهرة هو إثبات أن يكون المسيح عليه السلام قد خضع للتسمير على المصلبة دون أن يستلزم ذلك بالضرورة موته على الصليب.

وفي هذا الموضوع كغيره من موضوعاته، تفرض العناية بالمسائل اللغوية نفسها على ديدات، فيبدى نحوها اهتماما خاصاً، بتحديده للمصطلحات وضبط المراد من بعض الألفاظ تفادياً من أيّ فوضى فكرية، وإجهاضاً لأي نقاش محتمل حول المفاهيم بمعزل عن جوهر المشكل وطبيعته العقدية[1].

وتتجه عنايته في هذا الكتاب إلى إيراد إشارات متفرقة عن نطاق التحدي والضعف في العقيدة الصليبية الملفقة، وهي مطاعن حساسة، اكتسب ديدات العلم بها من واقع تجربته الحوارية مع المسيحيين كمناظر، ودارس خبير بالمسيحية. على أن إثارته لتلك الملاحظات بالإشارة إليها تعكس عن نتاج قلمه - رغم هدوء جو الدراسة - روح المناظرة وطابع التعبئة والمواجهة، إذ من اليسير أن يتخيل القارئ في ظلها مناظرة جارية بين طرفين، يتجاذبان فيها أطراف الحوار، ويتقاذفان بالقضايا والردود على نحو متبادل[2]. ويبدو لي بذلك أن الشيخ ديدات حتى بقلمه المناقش محافظ دوماً على قدرته الفذة في محاصرة الخصم في زوايا ضيقة ومظلمة للإجهاز عليه بعد إحْراج شديد، وتجريح مقعد طالما ظل معانداً ومكابراً أمام الحقيقة. ومن ذلك قوله: «ولقد كان يسوع قد قال: إنه سيكون مثل يونان، وأتباعه المتحمسون يقولون إنه (لا يماثل) يونان، من يكذب من، يسوع أم أتباع يسوع؟ أدع لكم الإجابة»[3].

والواقع أن لا سبيل إلى إنكار ما بذله ديدات في هذا الكتاب من جهد غير يسير في قراءته وتحليله للنصوص الواردة بشأن قضية الصلب، للوصول إلى حجج منطقية تفيد

---

(1) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 136.

(2) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء ص 124-125.

(3) المصدر نفسه ص 144.

في جملتها أن القضية مفتعلة، ولا أساس لها من الصحة إطلاقاً. حيث يحتوي الكتاب دراسة نقدية تخترق ظاهر النصوص، لتقدم ما يثبت بطلان أكبر قضية عقدية في الفكر الصليبي، وهي قضية الصلب التي ينتمي إليها هذا الفكر، ويدين لها بالوجود.

وإزاء هذا الجهد الكبير وفي خضمّه، يتلاشى ويهون كل ما يمكن أن يلاحظ عليه، أو يسجل من سقطات هينة غير ذات أهمية اعتبارية، والتي من أمثلتها قوله عن مدينة نينوى: وهي مدينة عظيمة كان تعداد سكانها يبلغ مائة آلف نسمة[1]؟.

وهكذا يرد دونما أي سند أو نقد لهذا العدد المرتفع الذي قلما يسلم من الرمي بسهم المبالغة.

كما أنه من جانب آخر تغلب عليه ظاهرة الإفراط في العنونة، وذلك ربما لإعانة القارئ على الفهم والاستيعاب المفصل، لمختلف الجزئيات الواردة في الكتاب جليلها ودقيقها، ليسهل هضم الموضوع على العوام من القراء، وهو مالا يستبعد أن يكون الشيخ قد تصوره بعين الاعتبار. ولكن هذه الظاهرة تمثل في الوقت نفسه بالنسبة للقارئ المتخصص أو المنهجي على الأقل عاملاً قاضياً على الوحدة الموضوعية، وذلك لحشوه الموضوع بعموميات لا صلة قريبة بينه وبينها أحيانًا مما يعمل على تفكيك نسيج الصورة العامة للموضوع المحوري الذي يراوح حوله الكتاب.

ومن حيث أسلوب الحوار والمناقشة يبدي قدرة فائقة على استدراج الخصم للاعتراف بالحقيقة، والتي لا تكون في صالح عقيدته غالبًا. ومن ذلك ما ورد ضمن أسئلته التي وجهها إلى أحد محاوريه بقوله: «وقلت: من ذا الذي خدع مليارًا ومائتي مليون من المسيحيين في العالم بمن فيهم الروم الكاثوليك، الذين يدَّعون وجود سلسلة متصلة الحلقات من البابوات لديهم بدءًا من القديس بطرس حتى اليوم، من الذي خدعهم بخرافة تمجيد يوم الجمعة؟، وأجاب السيد فاهاي دونما خجل «الشيطان» فقلت: إذا كان الشيطان يستطيع أن ينجح في أن يضلل المسيحيين وأن يبقيهم في

---

(1) المصدر نفسه ص 138.

ضلالهم لمدة ألفي عام في أبسط مظاهر الإيمان؛ فكم يكون الأمر أسهل على الشيطان ليضلهم فيما يتعلق بطبيعة الله ؟، واحمرَّ وجه السيد فاهاي ومشى مبتعداً[1].

على أن من المثير حقاً في هذا الكتاب أن مناقشات ديدات تعكس واضحاً اعتقاده بعملية صلب المسيح من غير موت على الصليب، إذ يرى أنه لا تلازم بين الأمرين. فلذا يجهد في التكثيف من أمثلة حية - تمت في محاكاة ما ينسب للمسيح من صلب مزعوم -، دون موت أصحابها، وذلك في الفلبين وجنوب أفريقيا وغيرهما[2]. فكان ديدات يناقشهم بمنطق من يريد أن يقول لهم: وإن اشتركنا في الاعتقاد بمبدأ الصلب المجرد إلا أن الأدلة التي تدلون بها من خلال النصوص والروايات لا تدل على موته على المصلبة، إذ لا يلزم بشهادات واقعية معاصرة من تحقق حمل الشخص على المصلبة موته في كل الأحوال، ومن ثم يتهافت صرح ديانتكم ببطلان عقيدة الفداء والتكفير. ولا شك أن هذا الرأي الذي يتبناه ديدات يُعَدّ شاذاً في ضوء الرواية القرآنية المعبرة في نفيها للحادثة بلفظتي القتل والصلب، إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء: 157].

وهذا النفي المنصب على اللفظين معـًا أمر له أهميته في الدلالة على استقلالية معنى كل منهما عن الآخر وإن كليهما مقصودان على وجه التحديد؛ إذ لو كان لفظ الصلب في حد ذاته يحتوي بالبداهة على معنى الموت لاكتفى القرآن بنفيه لوحده، دون اللجوء إلى اللفظين معـًا، وذلك تفاديًا من هذيان لا طائل من ورائه أو إطناب لا مبرر له مما لا خلاف بين المسلمين في معصومية كتاب الله المحكم عن كل ما ينتمي إلى هذا القبيل. ومما تجدر الإشارة إليه في ختام مناقشاتنا لهذا الكتاب هو أن معربّه قد ألحق به حواراً طريفـًا يصب في جدول المقارنة بين الإسلام والمسيحية، مركزاً على التثليث

---

(1) المصدر السابق ص 152.

(2) ينظر: المصدر نفسه في كل من ص 13-174-178.

وتاريخ الأناجيل، ومسألة الصلب، ومصير المسيح بعد المؤامرات التي نجاه الله منها. وقد أردف هذا الحوار لتمام الفائدة بفتوى أزهرية من فضيلة الشيخ محمود شلتوت بشأن نهاية أمر المسيح، ومسألة عودته وبيان حكم الاعتقاد بالعودة وعدمه[1].

وإن هذا الحوار الذي أضافه الأستاذ علي الجوهري - مع قصره - يترجم بحق حماس الإنسان المسلم في كل المستويات وبمختلف التخصصات في الإدلاء بدلوه للدفاع عن عقيدته وذلك كلما توفر قدر ولو قليل من القدرة على ذلك.

3 - عتاد الجهاد : خلاصة خمسين عاماً من البحث عن الحقيقة[2]:

يشير ديدات في هذا الكتاب الذي وصفه المعرب بأنه أهم وأحدث كتيب أصدره العلامة أحمد ديدات[3] قضايا بالغة الأهمية، ويلفت فيه الانتباه إلى موضوعات ذات خطورة صارخة في دراسة ونقد الكتاب المقدس. ويظهر أن ديدات قد وضعه ليكون بمثابة فهرس موضوعي يستعان به في الاهتداء إلى متناقضات الكتاب المقدس ومطاعنه، وهو بذلك كشاف يوفر على القارئ جهد الدراسة النقدية والتأمل الفاحص في مغالطات ما وصفوه بالمقدس، إذ بمجرد الحصول على نسخة من الكتاب المقدس بجانب هذا الكشاف يكون بإمكان الدارس في هذا المجال الاستغناء عن غيره في بيان ما يتعين التركيز عليه من قضايا نقدية. وهو ما أشار إليه ديدات مبينًا طريقة استخدامه في قوله: «وأول شيء يلزمك هو أن تحصل على نسخة من الإنجيل، ثم قم بلصق وتثبيت نسخة من هذا الكتيب (عتاد الجهاد) بالغلاف الداخلي للكتاب المقدس، ثم استخدمها كفهرس، وتصفح هذا الفهرس الذي قمت بتثبيته، ثم . . في الخطوة الثالثة اختر موضوعاً من موضوعات الفهرس»[4]. ولأهمية الكتاب ومكانته في خدمة الدارسين والباحثين صوره المؤلف صاروخًا علميًا مضادًا لصواريخ الأعداء بقوله: «وسيمكنك

---

(1) ينظر بشأن كل من الحوار والفتوى: مسألة صلب المسيح، ص 189-203.

(2) كتاب عرّبه علي الجوهري ونشرته دار الفضيلة.

(3) ينظر: عتاد الجهاد، ص 5 مصدر سابق.

(4) المصدر نفسه ص 8.

هذا الكتاب الصغير عندما يكون في متناول يدك أن تعترض مسار صاروخهم من طراز سكود بصاروخ من طراز (باتريوت) ولتحقيق هذه الغاية من الضروري أن تقوم ببعض الجهد»[1] . جهد لابد منه ثمناً للنجاح في أي عمل شريف، وسعي نبيل، وبالأخص في ظرف تدأب فيه الجهود التنصيرية على نحو حثيث ومكثف؛ حيث قامت بترجمة الكتاب المقدس إلى ألفي لغة من لغات العالم، مخصصة خمس عشرة ترجمة للإخوة العرب وحدهم باللغة العربية الفصيحة، ومختلف اللهجات الدارجة. وهذه حقيقة يؤكدها ما نص عليه أحد مؤتمري كلورادو بقوله: «ونظراً إلى تعدد اللهجات في اللغة العربية فإنه يجري العمل في ترجمة الأناجيل الأربعة إلى اللهجة العربية اللبنانية، وقد نشرت الكتب المقدسة أيضاً باللهجات العربية الجزائرية والتشادية، والمصرية والفلسطينية والسودانية، إلا أن تلك الترجمات لم تجد قبولاً يذكر، وعلى الرغم من أن هناك دائماً اهتماماً ثقافياً أو قومياً باللهجات المحلية إلا أن سيطرة اللغة العربية الفصحى لم تتأثر بأيّ محاولة في هذا الصدد»[2] . وقد أشار ديدات إلى هذه الترجمات مقرونة بتواريخ نشرها في كتابه «عتاد الجهاد» والذي هو في واقعه مجهر مطاعن اليهود والنصارى، إذ يقوم على حشد وعرض تناقضات كتابهم في قضايا ذات موضوع واحد لا سبيل بحال من الأحوال إلى التوفيق بينها، مركزاً بعناية خاصة على ما ورد فيه من حكايات غير أخلاقية، وما يتضمنه من بذاءة وفحش ينأيان به عن أبعد مسار لصفة الوحي الإلهي الصحيح، ويسلب عنه كل صفة للقداسة ولو مزعومة ؛ حيث يفيض الكتاب بخلاعة ما جنة ووضاعة سافرة .

إن المتابعة النقدية للجوانب الأخلاقية في الكتاب المقدس قد أو صلت ديدات إلى حكم موضوعي صاغه في قوله: «سل المبشر المسيحي المنصر عندما يقترب منك، سله عن تعريفه للنكاح المحرم بين أقرب الأقارب كالأب وبناته، أو الأم وابنها، أو الأخ وأخته،

(1) المصدر نفسه ص 8.

(2) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص 546، مرجع سابق.

وسله عن رأيه فيه . . . وهكذا يثبت ويتضح أن الكتاب المقدس كتاب غير أخلاقي»[1] .

إن ديدات وهو ينقد الكتاب المقدس موضوعياً يهتم بالمقارنة بين الترجمات الإنجليزية والعربية ، للكشف عن واقع التزييف والخداع والتلاعب بالألفاظ من خلال الترجمة ، بتسريب وتمرير معان غير دقيقة في مطابقتها للنص المترجم ، كما يعمد المترجمون إلى إسقاط بعض الألفاظ ، والتصرف في البعض الآخر منها ، بتلطيف أسلوب التعبير أثناء الترجمة أحياناً .

وفي هذا الكتاب كغيره من تراث ديدات يظهر بجلاء أنه قد استفاد من القرآن الكريم في نقد عقائد النصارى وذلك باعتماده عليه في بطلان ألوهية المسيح وإثبات بشريته بمختلف المناقشات والإلزامات التي يواجه بها القرآن الكريم أدعياء ما تنزه الله عنه وتعالى عن التلبس به علوا كبيراً. وأهم الموضوعات التي يعرضها الكتاب ضمن موضوعاته الأربعة والأربعين يتراوح ما بين إلهيات وأخلاقيات ، منها الله وصفات متناقضة له عندهم ، ليس الله سبب الفوضى ، أبناء الله ، هل كان عيسى عليه السلام إلهاً معدوم القدرة . وأما الأخلاقيات فمن أمثلتها : نكاح المحرمات من الأقارب ، هل كان عيسى عنصرياً ، أنبياء ولكن عراة ، الرق والعبودية بقرار إلهي ، البغاء ، وغيرها من موضوعات تفوح برائحة الوقاحة ، وتنم عن عقلية منحطة ، وحياة شاذة منحرفة . وإنّ تصفحاً سريعاً لفهرس محتويات الكتاب كاف لوحده لتكوين صورة عن أهم تلك القضايا ، والخروج بتصنيف موضوعي لها .

إنّ كتاب عتاد الجهاد - والذي يمثل خلاصة ما خرج به ديدات من رحلة نصف قرن في أعماق دراساته النقدية للكتاب المقدس - كتاب متواضع في مظهره ، بسيط في حجمه ولكنه غال نفيس في جوهره ، جليل في موضوعه ، فهو يشكل بحق عتاداً وافياً بمتطلبات الحوار والمناظرة مع أهل الكتاب المقدس . ولهذه الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب فليس من قبيل التجاوز أو المبالغة وصفه بأنه بداية للمجتهد ونهاية للمقتصد في علم

---

(1) عتاد الجهاد ، ص 8-9 ، مرجع سابق .

مجادلة اليهود والنصارى . ولعل تأليف هذا الكتاب مما يؤكد مجدداً رغبة ديدات في التهيئة لخلافته في أداء الدور العظيم الذي اضطلع به في معظم فترات حياته ، الأمر الذي دفعه إلى المبادرة بتسجيل أهم ما يمكن أن يوجه إلى الكتاب المقدس من قضايا نقدية حساسة ، وذلك إسعافاً لمريديه وكل ذوي الهمة في التصدي لحملات التنصير والتهويد بما يعينهم على المواجهة الناجحة ، والمقاومة الحاسمة . وإنّ الطريق إلى حلبات الحوار مع اليهود والنصارى بات ممهداً بفضل جهود ديدات وغيره إلى حد يشجع على اقتحامه برؤية واضحة ، ومنهجية فاعلة ، وعدة فائضة . ومن هذه النماذج عن كتابات ديدات في مجال الحوار ننتقل لعرض لون آخر منها ، مما ينتمي إلى الخط الدّعوي العام .

❖ ❖ ❖

المبحث الثالث

من كتاباته الدّعوية في موضوعات إسلامية
القرآن معجزة المعجزات
الرسول الأعظم محمد ﷺ

في إطار نشاطه الدّعوي الواسع، واهتمامه بكل ما يرفد حركة العمل الإسلامي في مختلف مناحيها الفكرية والثقافية، كتب ديدات عدداً من الكتيبات في موضوعات إسلامية عديدة هادفاً منها تزويد عامة القراء من المدعوين بمعلومات جذابة ومؤثرة عن الإسلام ورسوله ﷺ ومن بين تلك الكتيبات الكثيرة نستعرض اثنين منها، وذلك عن القرآن الكريم باعتباره مصدر الإسلام الأساسي، وعن الرسول الأعظم مبلغ هذا المصدر بكل ما لا يتم البلاغ التام بدونه.

1 - القرآن معجزة المعجزات[1]:

إنّ كتاب «القرآن معجزة المعجزات» للشيخ أحمد ديدات، يمثل بالنسبة لي محاولة متواضعة في حقل الدراسات القرآنية، وفي الجانب الإعجازي منها خاصة، ونظراً لعدم ضلوع المؤلف في هذا الفن، وقصر باعه في هذا المجال المجهول لديه، والذي يقتحمه للمرة الأولى بهذا الكتيب، فإنه ظل أميناً وحريصاً على معلومية القارئ بأنه غير متخصص في هذا الشأن، وأن هذا الجهد الأوليَ لا يعدُو كونه محاولة فجة في جانب ضيق من موضوع فسيح قد بهره واستحوذ على عنان قلمه، مما دفع به إلى إصدار هذا الكتيب. على أن القيام بالمهمة على أوفى وجه مسلم به أولاً وأخيراً متروك للمؤهلين لها من أولى الاختصاص، وللأعلمين بالدراسات القرآنية من علماء المسلمين. وكأنّ هَمّ ديدات حين يلقى معاذيره على هذا النحو هو أن يعلن للقارئ براءته من الرغبة في مزاحمة المتخصصين، حيث إنه يصرح بذلك في قوله: «القرآن الكريم معجزة كبيرة، هو كتاب معجزات يمكن أن يعرض من جوانب لا تحصى، ولقد حاولت أن أشارك في بعض هذه الجوانب التي بدت لي كرجل غير متخصص والتي بهرتني، وليس هناك نهاية لمثل هذه الأبحاث، وأترك هذه المهمة إلى أخوتي الأكثر علماً والمتخصصين بالدراسات الإسلامية، وأتمنى أن أعيش لأرى نتيجة جهدهم»[2].

---

(1) كتيب يقع في مائة واثنتي عشرة صفحة، نشرته دار المختار الإسلامي المصرية بتعريب علي عثمان، ويمثل الحلقة الـ 20 من سلسلة مكتبة ديدات المنشورة عن هذه الدار.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 104 مصدر سابق.

وتأكيداً لعدم اختصاصه، تدفعه الأمانة العلمية إلى الاعتراف بمصدر فكرة البحث، وتاريخ الاهتمام بالموضوع، مفيداً بأن بذوره الأولى تمتد إلى ثلاثينات القرن الإفرنجي المنصرم، وتحديداً عام 1934م، وذلك إثر استماعه - وكان لا يزال تلميذاً - إلى محاضرة بنفس العنوان كان قد ألقاها أحد الدعاة الرحالين في إحدى زياراته لجنوب أفريقية، وهو الداعية عبدالعليم صديق وقد أبدع ديدات في الإشادة به وأوفى في التنويه بشأنه الذي تناول في تلك المحاضرة موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ودعوة الإسلام إلى العلم وما يتصل به من بحث وتأمل، معرّجاً في وقفة ممتدة على دور علماء المسلمين، وجهودهم العلمية الكبيرة في إثراء وتشييد صرح الحضارة الإنسانية. وقد لازمت الشيخ ديدات إيحاءات هذه المحاضرة التي نالت إعجابه فظلت بعض معلوماتها عالقة بذاكرته، الأمر الذي ما برح دوماً يشده قويّاً نحو هذا الموضوع، فدفعته بقايا تأثيرات المحاضرة على مر السنين إلى الإقدام على كتابة ما أظنه خلاصة المعلومات والأفكار الواردة في تلك المحاضرة.

وتأسيساً عليها؛ يحاول ديدات في مطلع كتابه تقديم عدد من التعريفات لتحديد وضبط مفهوم المعجزة باعتبارها محك البحث والدرس في هذه المحاولة، وقد ساق لهذا الغرض عدداً من التعريفات متمثلة في قوله:

1 - «حدث لا يمكن تفسيره حسب قوانين الطبيعة إلى قوة خارقة، أو أنه من صنع الله القادر.

2 - المعجزة هي شخص أو شيء أو حدث يثير الرهبة والرعب المقترن بالإعجاب.

3 - هي فعل فوق طاقة البشر، أي يستحيل حدوثه بشرياً»[1].

والملاحظ عندي على تعريفاته للمعجزة قصورها، وأنها تنم عن نقص المعرفة بمفهوم المعجزة وأركانها في تحديد علماء المسلمين لها، وذلك فيما أورده الزحيلي في حديثه عن حجية القرآن الكريم بقوله: «الإعجاز: معناه نسبة المعجزة عن الغير في محاكاته والإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، ولا يتوافر معنى الإعجاز إلا بثلاثة

(1) المصدر السابق، ص: 8.

أمور: التحدي، أي طلب المباراة، والمعارضة، وأن يوجد المقتضى الذي يدفع المعارض للمباراة، وأن ينتفي المانع الذي يمنعه من هذه المباراة»[1]، وهذا المفهوم للمعجزة أمنع من تعريف ديدات لها .

ومن تعريفه للمعجزة ينتقل ديدات للحديث عن الطبيعة الإعجازية للقرآن الكريم مقَدّمًا دليلين عليها، يقوم أحدهما على دليل أمية الرسول ﷺ، ويستند الآخر إلى محتوى القرآن الكريم من حيث اشتماله على علوم ومعارف إنسانية متعددة تخرج معرفتها بطبيعة الحال عن طوق أميٍّ عاش في عصور جاهلية لم تتوفر فيها على المستوى الإنساني العام أسباب المعرفة بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الجمة. ومن منظور آخر نجد أن هذين الدليلين لا يخرجان عما عرف عند المحدثين بالسند والمتن وذلك حين نمعن فيهما النظر ونرجعهما إلى الأصل .

وفيما يبدو حديثاً عن وجوه الإعجاز القرآني، يشير ديدات أولاً إلى النسج الدقيق والتركيب الأسلوبي المحكم للقرآن الكريم. وقد قال عن هذا الإحكام: «كل كلمة في النص الأصلي للقرآن الكريم، اختيرت بدقة متناهية وأخذت موضوعها بحكمة الله القدير، فالكلمات تحمل معانيها من قبل الله وهي معجزة من معجزاته، وفيض من روحانية القرآن»[2]. وهذا الوجه الأول يفتح الباب واسعاً لدراسة الجوانب البيانية في المعجزة القرآنية بلغتها العربية، ولأهمية هذا القيد اللغوي يتطرق ديدات إلى إثارة قضية تراجم معاني القرآن الكريم، مشيراً إلى ما يعتريها من عجز في الحفاظ على هذا الجانب الإعجازي في التركيب والنسج، وأن بعض المغرضين قد تعمدوا الإساءة إلى الإسلام من مدخل الترجمة، من أمثال المستشرق البريطاني جورج سيل الذي قال عنه ديدات: «لقد كان فحسب يبر بوعده في الإساءة للإسلام»[3]، وهذه الوقفة التي يخصصها ديدات لهذه

(1) الدكتور وهبة الزحيلي، أصول الفقه، ص 24، ط1/ 1400، من و. ر_ 1990 م من منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 17 مصدر سابق.

(3) المصدر نفسه ص 16.

القضية هي عبارة عن دعوة لبذل المزيد من الاهتمام بشأن موضوع خطير طالما تدارسه المسلمون في مقالات، وبحوث، وندوات، وسعوا فيها لوضع ضوابط ملزمة لا بد منها لمن يتصدّى لترجمة معاني القرآن الكريم. وقد أوردها الزرقاني فيما نصه :

أولها : معرفة المترجم لأوضاع اللغتين : لغة الأصل، ولغة الترجمة .

ثانيها : معرفته لأساليبهما وخصائصهما .

ثالثها : وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على نحو مطمئنّ.

رابعها : أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل بحيث يمكن أن يستغنى بها عنه، وأن يحل محله كأنه لا أصل هناك ولا فرع»[1] وعلى الرغم من اكتفاء ديدات بمجرد الإشارة فحسب دون العناية بضبط قواعد العمل الترجمي لمعاني القرآن الكريم فإني أعتقد أنها ليست أموراً غائبة عنه .

والوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن في كتاب ديدات هو : اتساق النسق القرآني : أي تناسق محتواه، وانسجام مضمونه دون قلق ولا تنافر، وهذا الانسجام البديع، والعصمة من التناقض رغم تنجمه على مدى ثلاث وعشرين سنة يعد من أقوى الأدلة على بطلان القول بأنه مؤلف بشري .

وجريًا على المعهود عنه في كتاباته يطالعنا ديدات في تعزيز فحوى ما ذهب إليه، بإيراد عبارات ثناء غربي على القرآن الكريم وأسلوبه الفريد مركزاً على إبراز بعض الإشارات العلمية في القرآن في جوانبها الفلكية، والجيولوجية والبيولوجية، الأمر الذي يدل على تجاوبه مع أصداء البحوث والدراسات الحديثة عن وجوه الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى. ولعل أهم ما في هذا الإيراد هو وعيه بالبعد الوظيفي لتلك الإشارات في مجال الحوار والدعوة، ويتجاوز وعيه مدى هذا البعد إلى محاولة رسم معالم منهج محاورة العلميين الملحدين من مختلف التخصصات؛ وذلك بالاستعانة بمعطيات

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2/ 123، ط1/ 1409هـ= 19888م، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان. .

الإعجاز العلمي. للقرآن، والتي تشكل عدة وزاداً للمحاور المسلم على الصعيد العلمي، وهو ما وجه إليه ديدات الدعاة بقوله: «إذا عوّدنا أنفسنا على التعامل مع حقائق القرآن سنكون قادرين على فتح مجالات الحديث مع أي متخصص في فروع العلم»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستخدام للإشارات العلمية في مجال الدعوة والحوار هو توجه سليم، وله ما يبرره، ولكن بشرط تأطيره بالضوابط العلمية التي ذكرها بعض العلماء في منهجية التفسير والإعجاز العلميين للقرآن الكريم. وتتلخص فيما أوْرَدَهَا الدكتور مصطفى مسلم في كتابه: «مباحث في إعجاز القرآن» وهي كما يلي:

1 - اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى وليس كتاب علوم وكونيات.

2 - ترك الإفراط والتفريط لدى النظر في الآيات الكونية.

3 - الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهًا في التأويل.

4 - الاكتفاء بالحقائق العلمية مناط الاستدلال، وعدم الاستدلال بالنظريات والفرضيات العلمية.

5 - عدم حصر الآية على الحقيقة الواحدة، بل إبقاء دلالة الآية مفتوحة تحتمل كل ما يتفق مع معناها.

6 - اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية، والحقائق العلمية.

7 - اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة، بالنظر في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق والوقوف على سنن الله في ذلك[2].

والوجه الإعجازي الثالث من كتاب «القرآن معجزة المعجزات» هو الإبداع في

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص: 60-61، مصدر سابق.

(2) نقلاً عن الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي من كتابه: البيان في إعجاز القرآن، ص 273، ط3 1413هـ=1992م، دار عمار، عمان، الأردن.

صياغة القرآن : حيث إنه فريد دقيق في أسلوب تعبيره الذي يعلو على النمط البشري العادي في الكلام تركيزاً وإيجازاً، وإن هذا الجانب يشكل إعجاز إعلامياً ابتكره القرآن وتفرد به دون سائر ما هي متداولة من الأسفار المقدسة، فسجل بهذا الابتكار ذروة الكمال الإعلامي[1].

والقرآن الكريم في إعلامه النموذجي يقوم على الاختزال الحاسم بإيراد معان مكثفة في ألفاظ قليلة على نحو يغري بوصفه طبقاً لديدات بأن : «القرآن الكريم من الممكن وصفه بأنه كتاب البرقيات الإعجازية، وهكذا أوحي الكتاب في صورة رسائل تلغرافية موجهة كجواب على الأسئلة»[2]. والواقع أن كونه إجابات مما يصدق على بعضه لا على كله.

وتجلية لما وصفه بالأسلوب البرقي يعقد ديدات مقارنة قصيرة بين كل من الأسلوبين؛ القرآني الكريم، والنبوي الشريف، وذلك في مسألة تحريم الخمر، مريداً الوصول من ورائه إلى فارق جوهري بين تعبيرين أحدهما إلهي مطلق، وآخر ينتمي إلى عالم النبوة وهو عالم بشري نسبي.

ويذهب ديدات إلى تقرير ما يفيد: أن مترجمي معاني القرآن الكريم قد أفادوا من هذا الاختزال في الأسلوب القرآني متأثرين بنهجه في ذلك، وقد دعا القارئ إلى التأكد من صحة هذا التأثير بقوله «من فضلك قارن الآيات السابقة[3] مع أي ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم، ترجمة بواسطة صديق أو خصم وستجد نفس الإيجاز والاقتصاد في الكلمات»[4].

ومن الأمثلة التي ترد في سياق البرهنة على الأسلوب التلغرافي إلى جانب مثال تحريم الخمر ينطلق ديدات من قصة موسى عليه السلام في نزوحه إلى مدين وإقامته بها،

---

(1) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص 60-61.

(2) المصدر نفسه ص 73.

(3) هي آيات عن قصة موسى عليه السلام في أول وحي إلهي إليه بطور سيناء.

(4) القرآن معجزة المعجزات، ص: 68.

وخبر تلقيه للخطاب الإلهي بسيناء إثر عودته مع أهله من مدين، مُرُوراً بأجوبة على أسئلة من سألوا عن الأهلة، والإحسان، وعن الساعة، والروح. للوصول أخيراً إلى الإعجاز العقدي في سورة الإخلاص التي نعتها الشيخ بمحك الذهب القرآني[1].

وفي حديثه عن سورة الإخلاص يستطرد في بيان المناسبة الحوارية التي نزلت في أجوائها السورة، مفيداً بأنه عليه الصلاة والسلام استضاف وفداً من نصارى نجران فأكرم وفادتهم، وكان مما طرحوه عليه من الأسئلة في نطاق حوارهم معه قولهم: «قل لنا يا محمد ما هو مفهومك عن الله؟» . . وتأتي الإجابة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2].

والصحيح الأرجح عند المفسرين في بيان واقعة نزول السورة خلافاً لما ذهب إليه فضيلة الشيخ ديدات أنها نزلت إما جواباً على المشركين، أو على أحْبار اليهود في حوار عقدي بينهم وبين رسول الله ﷺ[3]، فنزلت السورة رداً على استفسارهم عن جوهر الله الأحد، أوكنه ذاته الصمدية المقدسة. وبالجملة فإن ديدات يرى في سورة الإخلاص مركز الثقل الذي يدور حوله الخطاب القرآني، وهو المحور الجوهري الذي تنزلت بقية آي القرآن وسوره لتوضيحه وحمل الناس على الاعتقاد به، وقد كتب معبراً عن هذه الرؤية فيما نصه: «في كل الكتب الدينية في جميع أنحاء العالم لا توجد أي كتابة يمكن مقارنتها حتى بهذه السورة الصغيرة[4]، وهي سورة الإخلاص، وإذا كانت هذه السورة هي الاختبار الحاسم في علم اللاهوت والقدرة الإلهية في تركيز

---

(1) القرآن معجزة المعجزات، ص 85.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص: 91.

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني، ج 5/ 131، ط2/ 1419هـ=1988م دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، وينظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج 30/ مج 15، ص 611 ط، دار سحنون عام 1997 في تونس، وأيضاً: صفوة التفاسير محمد علي الصابوني، مج 3/ 621، ط 1/ 1414هـ=1994م من منشورات دار القلم العربي، بيروت.

(4) والأولى: التعبير بالقصيرة بدلا من الصغيرة.

أعظم المعاني في أقل الكلمات، فبقية القرآن هي تفسير وتوضيح لها . . »[1].

وفي ضوء تأمل ديدات في سورة الإخلاص يكتشف منها وجهـًا رابعـًا من أوجه إعجاز القرآن الكريم، يتمثل في : تفرد الله في صفاته : وهو لون إعجازي في مجال اللاهوت ؛ حيث تظهر إعجازيته في قصور البشر - من تلقاء أنفسهم - عن إيراد ولو بضع صفات لله عز وجل فضلاً عن عشرات منها ؛ ولذا يتحدى ديدات أحبار اللاهوت بقوله : «ستكون تجربة جيدة لنا أن نسأل أكثر أصدقائنا على أن يسرد لنا بعض صفات الله، وأنا أؤكد لك أنه مع كل ما لديهم من علم فإن أساتذة اللاهوت والحاصلين على درجة الدكتوراه في اللاهوت لن يستطيعوا أن يعدوا لنا حتى اثنتي عشرة صفة»[2] في حين نجد أن القرآن الكريم يزودنا بتسعة وتسعين اسماً من أسماء الله تعالى مبثوثة في ثناياه، تتضمن تلك الأسماء أروع وأجل ما يليق بمقامه الأعلى من صفات الجمال، ونعوت الجلال، وفي مقدمتها اسم الجلالة [الله] باعتباره الجوهرة الكبرى فيما شبهه ديدات بعقد من حبات اللؤلؤ.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار لدلالتها الهامة، أن قائمة القرآن بأسماء الله تعالى تخلو تماماً من لفظ «الأب» مع أنه أقرب الصفات البشرية التي يتهيأ للإنسان العامي لأول وهلة، وبكل عفوية وبساطة إطلاقها على الله تعالى في حال افتقاره إلى الوحي الإلهي الصحيح، وفضلاً عن ذلك، فإن : «كلمة الأب كصفة من صفات الله كانت تتردد أمامه ؛ النبي ﷺ خلال سنوات نبوته الثلاثة والعشرين التي قضاها في تبليغ الدعوة، لكنه نحّاها وأبعدها عن مجموع الصفات التي كان يستخدمها عامة ولمدة تزيد عن العقدين من الزمان، وبالتالي من علم اللاهوت الإسلامي»[3].

وتأكيداً على إلهية المصدر القرآني بجوار الأوجه الإعجازية المتقدمة يجتر ديدات في هذا الكتيب معلومة تتكرر عنده في أكثر من مصدر، مبناها : أن القرآن الكريم يذكر

---

(1) القرآن معجزة المعجزات : ص 93.

(2) المصدر السابق ص : 96.

(3) القرآن معجزة المعجزات ص 97-98 المصدر السابق.

المسيح بالاسم أكثر من المواطن التي يسمي فيها النبي ﷺ، كما يتضمن سورة تكريمية لأم المسيح على نحو فريد لم تحظ بمثله امرأة غيرها، وتفادياً مما يمكن أن يترتب على هذا الطرح من سوء فهم مبني على مقارنة خاطئة بين الرسولين العظيمين، يبادر ديدات إلى تعليل هذه الظاهرة القرآنية المثيرة بقوله:

ما السبب؟ هل لأن عيسى وأمه أهم من محمد عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه؟ لا، ليس كذلك، إذن لماذا هذه التغطية الإعلامية غير العادية؟ ببساطة، لأن هناك العديد من الاتهامات الزائفة للأم وابنها، كان لابد من دحضها لذلك فإن قصة بشارة الملاك والحمل بلادنس ومولد عيسى عليه السلام لابد من تسجيلها، ولم يكن نسب محمد ﷺ في أي وقت موضع سؤال لذلك لم تذكر كلمة واحدة في كل الكتاب عن مولد محمد أو نسبه، القرآن ليس كتاباً عن سيرة محمد ﷺ هذا شيء يصعب على غير المؤمنين فهمه[1].

وأخيراً في سياق عرضه لأوجه إعجاز القرآن الكريم يعرض ديدات وجهاً خامساً يراها معجزة من معجزات القرآن الكريم، وتتمثل في حفظ الله تعالى لكتابه العظيم؛ حيث قد تعهد الله بحفظه من الضياع، وعصمته من التحريف، وكل محاولات العبث، وضروب التزييف التي تعرض لها غيره من كتب الرسالات السابقة؛ وذلك لحكمة يعلم الله وحده حقيقتها. وقد قال تعالى عن حفظه لما أسماه ديدات بالعهد الأخير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

إن هذا الوجه الأخير يصح اعتباره لطيفة من لطائف ديدات في دراسة الإعجاز القرآني إذ لم أقف في حدود اطلاعي الضيق على من سبق ديدات في الإشارة إليها[2]. وهي ملاحظة طريفة تستحق الاعتبار باعتبارها إضافة إلى تلك الكنوز الزاخرة في بحر الدراسات القرآنية. وبقيام هذا الحفظ الإلهي ودوامه للقرآن الكريم تظل كل الجهود

---

(1) المصدر نفسه، القرآن معجزة المعجزات، ص: 81.

(2) مع ملاحظة عدم إنكاري إمكانية وجوده الفعلي.

العدائية الرامية إلى محاكاته هراء وضرباً من الهذيان، والطرق في حديد بارد. وعليه فإن أيّ محاولة قائمة أو لاحقة من هذا القبيل تعتبر من غير شك فاشلة وكيداً يائساً مآله الخزي والعار في الدنيا والآخرة. وقد سقنا في مورد سابق ما نعيده هنا لأهميته من قول ديدات بشأن تلك المحاولات العدائية الضائعة، والتي قال عنها: «ولقد حاول البعض تقليد القرآن الكريم، فاستعاروا الجمل والكلمات وحاولوا تقليد الأسلوب حتى بِسْمِ اللهِ الرَّحِمَنِ الرَّحيمِ أخذوها محاولين أن يخرجوا كتاباً مقدساً على طريقة القرآن، لكن هيهات وإن هذه المحاولة برهان آخر على أن القرآن لا يمكن مضاهاته، حاول ما شئت لكن التحدي يظل قائماً»[1].

هذا وإن كانت ثمة من ملاحظة خاتمة لعرض كتاب «القرآن معجزة المعجزات»، فلا تتعدى تسجيل قناعتي بأن الشيخ ديدات رغم قلة بضاعته العلمية في هذا الموضوع، إلا أنه عالجه بروح ذواقة لأسلوب القرآن الكريم، ونفس مستمتعة بجمال صياغته، وفرادة نسجه، وتركيبه، على أنه وإن كان إلى حد كبير لا يصب جديداً في هذا البحر المحيط إلا أن ما قدمه يظل مفيداً في موضوعه، وتبقى له أهميته البينة بالنسبة للجمهور العارم ممن يتوجه ديدات بخطابه الدّعوي إليهم، ومن ثم لا يطعن في قيمته وطرافته، كونه لا يرقى في نضجه واستيعابه إلى مستوى دراسات قرآنية من قبيل تلك التي قام بها عدد من العلماء المعاصرين من أمثال مناع القطان، صبحي الصالح، ومحمد عبدالعظيم الزرقاني، وصلاح عبدالفتاح الخالدي، وكثير غيرهم ممن توفرت لهم العدة الكافية من أهلية علمية معتبرة لخوض غمار موضوع فسيح من هذا القبيل.

حسبه عذراً أن شتّان ما يفرّق بينه وبينهم من نشأة عملية، وبيئة تعليمية إسلامية، وحسبه عذراً أنه ألقى معاذيره وهو يتلمس سبيله إلى اقتحام مالا قبل له به، وله في كل الأحوال فضل الجراءة والمخاطرة في ولوج هذا اليم الذي لا ساحل له، وهو ينادي على المتخصصين أن أقدموا على القيام بما يتحتم عليكم من واجب دعوي قبل

---

(1) القرآن معجزة المعجزات: ص 112.

فوات الأوان، وإنّ تأخركم عنه في وجه ضغط الحاجة يدفع بأمثالي من المتطفلين إلى تكلف مالا وسع لهم به، تحمساً لنشر الإسلام المتربص به، وإخلاصاً لقضيته الإنسانية السامية وحبا لله ولرسوله وللبشرية جمعاء.

هذا.. ومن أجل رؤية شبه متكاملة - على الأقل - ننتقل بعد هذه الدراسة القرآنية إلى عرض كتيب آخر من تراث ديدات في موضوع قريب الصلة من السيرة النبوية، بل هو - تجاوزاً - جانب من جوانبها مما يتصل بمناقبه وعظمته ﷺ.

2 - الرسول الأعظم محمد ﷺ[1].

يخيل للمرء في بداية اطلاعه على عنوان الكتاب أنه لون من ألوان التراجم، وأنه مؤلف على شاكلة كتب السيرة، والواقع أنه سرعان ما يتلاشى هذا التصور ليتأكد لدى القارئ حيث يتصفح الكتاب ويتهيأ لقراءاته، أنه عبارة عن معرض علمي مصغر لجملة من النعوت والشهادات المنصفة مما أدلى بها بعض الكتاب المستشرقين، إمّا في محاضراتهم أو سجّلوها في مؤلفاتهم عن رسول الإسلام ﷺ في الإشادة بأعظمية شخصيته، وأنه الإنسان الأول نجاحًا وسمواً في هذا الكون وعلى مرّ عصور التاريخ.

ونتيجة لطبيعة ديدات الحوارية المتوسعة تستهويه قضايا هامشية دون أن تكون لها اتصال مباشر بعنوان الموضوع الذي يطرحه الكتاب، وبذلك قد ينسب إليه الافتقار إلى التركيز الموضوعي إلى حدّ ملحوظ.

ومن الناحية الكمية يحشد ديدات في هذا الكتاب نصوصاً منقولة تبلغ حوالي إحدى عشرة شهادة إجلال وتوقير للرسول الأعظم من شخصيات فكرية متعددة، يتصدر قائمتها كل من مايكل هارت، وجيمس ما سرمان، والبرفسور الهندي راماكرشناراو، برناردشو، لاماري، وتوماس كارلايل، غير أنه يخصص لنفسه مع هذين الأخيرين وقفة ممتدة لعرض وتحليل ما يتصل من أفكارهما بتقييم شخصية

---

(1) كتيب يقع في 144 صفحة، قامت بنشره دار المختار الإسلامي، بعد أن عمل على تعريبه علي عثمان، وهو يشكل الحلقة التاسعة عشرة من سلسلة مكتبة ديدات وفقًا لترقيم الدار الناشرة.

النبي ﷺ وفي ذلك يخضع كتاب الأبطال لتوماس كارلايل لعملية اقتباس مكثف، عارضاً لرأي المؤلف في نبي الإسلام، وعظيم مكانته عنده، وتنويهه بما يمتاز به الرسول الأكرم عن غيره من العظماء من إخلاص، وصدق، وجدية وأمانة. وتأثراً بمبالغة أعداء الإسلام في إشاعة تهمة انتشاره بالسيف فإن ديدات يجد في كارلايل محاميه المفضل وربما الأنسب من غيره - وذلك لأنه جمع بين صفتي الانتماء إلى الغرب وموضوعية البحث العلمي - لدحض هذه الفرية الحاقدة، وتسخيف آراء القائلين بها بالكشف عن عدائهم التاريخي الدفين، نحو كل ما هو إسلامي.

ولا يألو ديدات من جانبه جهداً في تعزيز ودعم مواقف كارلايل الدفاعي، حيث يستعرض عدداً من الدول ذات الكثافة الفائضة من المسلمين، والتي لم تعرف في تاريخ إسلامها سوى جهود الدعاة الصادقين المخلصين، التي دعمت القوة الذاتية لتعاليم الإسلام بكل ما لها من بساطة، وفطرية، ورقي حضاري. ومن الدول والمناطق الكثيرة التي تقع في نطاق هذه الخريطة الواسعة يرد كل من إندونيسيا، وماليزيا، والقارة الإفريقية بساحليها الشرقي والغربي، وما يقع بينهما منحدراً نحو الجنوب، ونظراً لما عليه هذه المساحة الدّعوية من امتداد هائل يتوسع ديدات في دفاعه عن الحق، ومواجهة الخراصين الأفاكين بعرض أمثلة ونماذج كثيرة من هذا النوع، من مناطق انتشار المسلمين في العالم قديماً وحديثاً، وإزاء تلك الأمثلة الكثيرة والشواهد البينة يتساءل مستغرباً:

ماذا يمكن أن يقول الأعداء عن البلاد التي لم يضع فيها جندي مسلم واحد عليها قدمه؟

1 - إندونيسيا: يوجد بها أكثر من 100مليون إندونيسي مسلم لكن لا يوجد جيش إسلامي فاتح أبداً ذهب إلى أي من جزرها الألفين.

2 - ماليزيا: الأغلبية العظمى من شعبها مسلمون بالرغم من أنه لا يوجد جندي مسلم قد دخلها أيضًا.

3 - أفريقيا: أغلبية الشعوب على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى موزامبيق جنوبًا وأيضًا معظم السكان على الساحل الغربي للقارة مسلمون لكن التاريخ لم

يسجل أي جيوش مسلمة مهاجمة في أي مكان[1].

وفضلاً عن شواهده الداحضة في هذا الصدد، يُعنى ديدات بالتركيز على مبدأ التسامح في الإسلام ومدى التزام المسلمين به، ومراعاتهم لمفهوم الحرية الدينية في كل من الهند والأندلس في ظرف بلغ فيه الحضور الإسلامي عزه وذروته فيهما، وعلى الرغم مما يسجل للمسلمين من إدارة حضارية متسامحة لشؤونهما إلا أنهم ما قوبلوا في نهاية المطاف بعد زوال دولتهم بغير الاضطهاد، والتنكيل والتهجير والتنصير فيا للتسامح والمروءة ويااللعنف والعار، فأين هذا من ذلك؟؟

وفيما يخص عرض ديدات في كتابه لوجهة نظر المؤرخ الفرنسي لا مارتين إلى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يضع بين يدي القارئ ما حدده المؤرخ لنفسه في دراسته للقادة العظام وتحديد العباقرة، من مقاييس موضوعية ثلاثة توصل من خلالها إلى استنتاج ما مفاده: أن الرسول محمداً ﷺ أعظم إنسان في تاريخ الوجود الإنساني على الإطلاق، وينقل لنا ديدات معايير لامارتين وما نتج عنها من حكم بأفضلية الرسول الأعظم في قوله: «ويعتقد لا مارتين أن: إذا كانت عظمة الغاية وقلة الوسائل والنتائج المذهلة هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان فمن يجرؤ على مقارنة أي رجل عظيم بمحمد ﷺ[2]؟».

هذا . . . ولتأكيد حضارية طرق ووسائل انتشار الإسلام تأكيداً يدفع كل مظنة لعامل الانتشار بالسيف، يبدي ديدات في هذا الكتاب تفاؤلاً عريضاً بشأن انتصار الإسلام، ومستقبل الدعوة إليه في العالم؛ وذلك استناداً إلى الوقائع المفيدة بأن الإسلام يعتبر أسرع الأديان نمواً وانتشاراً في عالمنا المعاصر، لاعتماده في دعوته على سيف العقل واستلهام نموذج قدوته عليه الصلاة والسلام الذي شق طريقه بنجاح

---

(1) الرسول الأعظم محمد ﷺ ص 87-88.

تعزيزًا لصحة ما قاله وبالأخص في الجملة الأخيرة من النص يتعين التنبيه إلى تلك المعارك السياسية التي اندلعت بين أطراف مسلمة وأنها لم تكن إطلاقاً لغرض فرض الإسلام على الآخرين بحد السيف.

(2) الرسول الأعظم ﷺ، ص 101.

عظيم نحو عالمية الدعوة الإسلامية بالقدوة الحسنة، ومكارم الأخلاق، وبالأسلوب الحواري الرفيع، إلى جانب الرسائل الدّعوية التي وجهها إلى ملوك العالم وأمراء الأمم[1]، ممن حاقبوه ﷺ في ذلك العصر التاريخي الذي خصه الله تعالى وآثره بشرف ظهور رسوله الأعظم فيه .

ولتوثيق علمية ما سجله من سرعة انتشار الإسلام يورد ديدات جدولاً إحصائياً مقارناً بين حركة انتشار كبرى العقائد الدينية في العالم[2]، مع إيلاء اهتمام خاص بالعدد الإجمالي لأتباع كل من المسيحية والإسلام. وفي الموازنة بين الجماعتين يُبَصّرُ بأن اعتماد معيار الكم والانتماء الاسمي الشكلي في هذا الأمر يجعل الميزان راجحاً لصالح الطرف المسيحي بفارق بسيط هو أقل مما يلزم، وذلك إذا أدخلنا في الاعتبار الفاصلَ الزمني القائم بين تاريخ ظهور الدعوتين النصرانية والإسلامية .

وأما إذا كان المعيار النوعي التطبيقي هو المعتبر؛ فإن المسلمين بلا محالة أكثر عدداً وأوفر حظاً من غيرهم. وقد ناقش ديدات هذه القضية موضحاً حقيقتها بقوله: «تقدمت المسيحية الإسلام بـ600 سنة ويدعي المسيحيون أنهم يفوقون أي دين آخر من حيث العدد، هذا صحيح ولكن دعونا ننظر للصورة من منظور صادق.

هناك مسيحيون معلنون إيمانهم في العالم أكثر من المسلمين الذين يعلنون إيمانهم، ولكن هناك مسلمون يطبقون الإسلام في العالم أكثر من المسيحيين المطبقين للمسيحية»[3]. وفضلاً عن ذلك فإني أجد أن ما يفرق بين هذا الكم الفارغ من المسيحيين من فوارق عقدية صارخة هو أكثر مما يجمعهم، بعكس ما عليها الأمة الإسلامية من وحدة نسبية لها اعتبارها .

وإن من الملاحظات الأساسية التي لا غنى عنها لأيّ نظرة موضوعية تهدف إلى عقد موازنة إحصائية بين عدد المسلمين والمسيحيين في العالم، فلابد لها من أن تأخذ في

---

(1) ينظر المصدر السابق ص 91-107-93.

(2) ينظر المصدر نفسه، ص 93.

(3) المصدر نفسه، ص 116-117.

الحسبان اعتبار القرون الستّة الفارقة بين تاريخ ظهور المسيحية والإسلام من بعدها، مع عدم إغفال معيار الالتزام العقدي وتطبيق الشعائر الدينية عند كل من الجماعتين.

هذا.. وبكلمات مقتبسة تفيض أملاً وتفاؤلاً يختتم ديدات كتابه محدداً دور المسلمين وواجبهم تجاه العالم في إشراقه بنور الإسلام، وإشراك عامة البشر في رحمته تعالى المهداة للعالمين جميعاً، ولا يتهيأ للمسلمين النجاح في أداء هذا الدور الإنساني العظيم في غياب التنور بالإسلام والالتزام به عقيدة وشريعة وأخلاقًا، ومن ثم يتسرب شعاع هذا النور الذي يحملونه في حياتهم بسلوكياتهم الفاضلة، وعقيدتهم المثلى تلقائيًا إلى الآخرين، فيرشدوا بعد ضلال وعماية وتنفسح آفاق حياتهم، وتستنير أعماق نفوسهم لينقشع عنها وإلى الأبد هذا الظلام الموحش، وتتبدد من أجواء إنسانيتهم غموم الشقاء الهالك، ليحفل وجودهم بالنور والبهجة، والسعادة الأبدية.

إن هذا الدور الذي يستنفر ديدات المسلمين له لهو من غير شك فاضل عظيم، وقد اقتبس له عبارات جميلة تغري بنقلها كما نقلها ديدات عن أحد مصادره الأساسية في ترجمة معاني القرآن الكريم وبألفاظها الواردة على هذا النحو:

ماذا يمكننا أن نفعل لنجعل نور الله يشرق عبر الظلمة التي تحيط بنا؟ لابد أولاً أن نجعله يشرق بداخل نفوسنا الصادقة، بهذا النور في أعماق قلوبنا نستطيع أن نمشي بخطوات واثقة وصارمة، تستطيع بتواضع أن نزور التعساء ونرشد خطاهم لسنا نحن ولكن النور هو الذي سيرشدهم! إنّ السعادة نابعة من كوننا جديرين بحمل الشعلة وأن نقول لإخواننا: نحن أيضًا كنا في ظلام وتعب، ولكن انظروا الآن، إننا وجدنا العزاء وفرحنا برحمة الله لهذا يجب أن ندفع ديون الأخوة بأن نسير بتواضع جنباً إلى جنب في طريق رضى ربنا بتعاون وتشجيع متبادلين، ودعاء من القلب مؤيد بالعمل بأن تتحقق فينا جميعاً غاية الله الطيبة[1].

وأخيراً، يتقرّر بأن الكتاب ليس موضوعاً في السيرة كما قد يتصور، وإنما هو باب

---

(1) المصدر السابق: ص 138-139.

في فن التمجيد، والإشادة بنبي العظمة الإنسانية، والرحمة العالمية، ولقد أعده ديدات بروح دعوية مدافعة تنويهاً بعبقريته ﷺ من خلال شهادات الآخرين له بالمرتبة الإنسانية الأعلى عن جدارة واستحقاق وذلك فيما تفرق في الكتاب من نصوص وأفكار، معزوة إلى الموضوعيين من عقلاء غير المسلمين.

وبنظري إنّ هذا اللون من الكتابة الدّعوية مع أهميته وتأثيره في العامة والخاصة، فإن من تمام القصد أن يعتضد متكاملاً بكتابات ميسرة تختص بعرض خالص سيرته ﷺ كما عاشها مجردة عن غيرها من آراء عامة وأفكار خاصة، بأن تقوم تلك الكتابات على تقديم نسق متكامل عن مختلف جوانب حياته الكريمة يتم انتقاؤها مصفاة من كتب السيرة والسنة النبويتين. بالإضافة إلى ما ورد منها في القرآن الكريم من شمائل حميدة وأخلاقيات رفيعة. ولعل من يعقد العزم على القيام بشيء من هذا - بجوار ما تحقق من خطوات متنوعة على هذا الخط - لا يعدم إسعافاً له في الخطة التي رسمها الإمام الغزالي في هذا المجال، محدداً موضوعاتها بقوله: «واعلم أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه، وأفعاله، وأحواله، وعاداته، وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق وقوده إياهم إطاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولاشك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه»[1].

وفي موطن آخر وهو ينحي باللآئمة على من يتشبثون أمام قواطع حجج سيرته الصادقة بالجحود عناداً ومكابرةً يورد الغزالي بقية العناصر المكملة لهذه الخطة المنهجية التي طرحها ودعا إليها، متيقنا بفعاليتها الحاسمة وذلك في قوله: «فأعظم بغباوة من

---

(1) محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين ج2/ 548، الطبعة المحققة الأولى 1412هـ=1992م، ط دار قتيبة، بيروت - دمشق.

ينظر في أحواله ثم أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره، وبعد عصره، مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه»[1].

إن هذه المنهجية التي تحدد للسيرة النبوية اتجاهًا دعويًا وتسلك بها مسار إرشاد وتبليغ هي قطعاً ذات قدر كبير على صعيد المنهج الذي يقوم في دعوته على الوسائل الفكرية والأساليب الحوارية. وهو عين المنهج الذي اعتمد عليه ديدات وعرف به في نشاطه الدّعوي الحافل وإن كان قد فاتته خاصية توظيف السيرة النبوية الكريمة للعمل الدّعوي طبقًا للرّؤية التي ابتكرها الغزالي، ووفق المنهجية التي اختطها وأخذ فيما تبين في رسم معالم أبرز موضوعاتها. ، ولعل ذلك يعود إلى ما تعكسه منشوراته الدّعوية من محدودية إمكانياته في مجال الكتابة والتأليف، مقابل ما يتمتع بها من قدرات حوارية هائلة، مما يمكن الإهتداء إلى جانب منها في المبحث اللاحق.

❖ ❖ ❖

(1) المصدر نفسه ج2/ 553.

المبحث الرابع

من أبرز محاوراته العالمية

أ - حواره مع جمي سواجارت[1] :

من متابعتنا لوقائع هذه المناظرة العالمية الشهيرة التي جرت بين ديدات والقس الأمريكي سواجارت في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 3/ 11/ 1986م وكان موضوعها : هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ نسجل أهم ما ورد فيها في الصفحات التالية من قضايا ومجاوبات بالإضافة إلى ما أمكن من ملاحظات .

إن القس سواجارت باعتباره المتحدث الأول تظاهر إلى حد بعيد بالموضوعية مبديًا تطوراً نوعيًا في تحسّن فهمه للقضايا الإسلامية ولواقع المسلمين وأخلاقياتهم ، وقد جَرّته هذه الموضوعية المزعومة إلى تقديم اعتذار علنيّ للمسلمين ، جراء ما صدر منه في برنامج إذاعيّ سابق في التلفزيون من عبارات نابية ضد القرآن الكريم[2] .

ويظهر عليه أنه انفعل بهول الموقف وهيبته ففزع إلى تكثيف الصلاة والدعاء على الطريقة الكنسية لاستمداد النصرة ، والدعم النفسي من إلهه الذي ظل عليه عاكفاً . ويبدو أن إلهه كان منتصراً للحق فأنطقه - عفواً - في مستهل حديثه بعبارة تشكل المحصلة النهائية لما ترمي إليها المناظرة ، فكأنها انتهت فور بدايتها وذلك بقول سواجارت : «لا يوجد مسيحي واحد يمكن أن يقول أن الرب هو الذي كتب الإنجيل ، فالرب لم يكتب الإنجيل ، وحتى أكون صريحاً معكم ، لأن الشيء الوحيد الذي أعرف أن الرب قد كتبه هو الوصايا العشر على الحجر ، ولكن الرب لم يكتب أبداً كلمة ، الرب الإنسان هو الذي كتب الإنجيل ، والإنجيل مجلد من عدة كتب كتبها الإنسان بوحي من الروح القدس كما يروي لنا سمعان بطرس[3]» .

ومع هذا الإقرار الصريح الذي انطلق منه إلا أنه ظل يعاند محاولاً إقناع كل من المناظر والحضور بأن الكتاب المقدس وحي من الله لكاتبي أسفاره ، وفي تأكيده لهذا الطرح الذي نراه في منتهى السقوط يستنجد بشخصيات علمية بارزة من الجامعات

---

(1) يعتبر أشهر حواراته ، وقد قام الدكتور أحمد حجازي السقا بتفريغ شريطه في كتاب نشرته مكتبة الزهراني المصرية بعنوان : المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقس سواجارت .

(2) ينظر : المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان ، ص 113 .

(3) المصدر السابق : ص 114-115 .

الغربية، تتفق معه على حد قوله في الاعتقاد بما ذهب إليه[1]. وبهذا الأسلوب الماكر يحاول شن حرب نفسية على السامع، ليستسلم بدوره كما استسلم قبله من يعتقد أنهم مفكرون بارزون وباحثون جادون.

وفيما انتقل إليه من حديث عن تعدد الروايات الإنجيلية نجد أن المقارنة الخاطئة تستهويه كغيره من المكابرين، حين يقرر أن تعدد روايات كتبهم هو بمثابة تعدد تراجم معاني القرآن الكريم، فهما متشاكلان، وعليه فلا حرج عندهم في هذا التعدد، طالما هو مسلم به لدى المسلمين فيما عندهم من هذا النوع. ولاشك أن هذه المقارنة التي عقدها واهية ومنقودة من أساسها؛ لأنها تتجاهل أن المترجم هو معاني القرآن الكريم، وليس نصه الذي تستحيل ترجمته، والمعلوم أن هناك عدداً من الفروق الواضحة بين النص الأصلي، وترجمة معانيه، ويتمثل بعضها في الوجوه الآتية:

1 - إن القرآن الكريم وحي موثق من الله تعالى لرسوله الكريم متواترًا في روايته، معجز بلفظه ومعناه.

2 - هو معصوم عن الخطأ والتناقض في مضمونه.

3 - يشكل مصدر الإسلام الأساسي، ودستور حياة المسلمين.

4 - نصه الأصلي هو الوحيد الذي يتعبد به دون غيره من المعاني والتراجم.

5 - متكفل من الله تعالى بحمايته ورعايته.

6 - التفاسير والتراجم عبارة عن جهود نسبية في حدود الطاقة البشرية.

ولتأكيد ما أطلقها من مقارنة خاطئة يلجأ سواجارت إلى إثارة مسألة جمع القرآن في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه، معتبراً أن هذا الجمع كان بمثابة عملية توحيد النصوص والتوفيق بين الروايات المختلفة. وبهذا يجهل أو يتجاهل سواجارت حيثيات هذا الجمع، وجملة الاعتبارات المنهجية التي سبقت عملية الجمع ولازمتها، من ضبط وتحري الدقة وشرط مطابقة المحفوظ في السطور لما هو في الصدور، إلى جانب الأهلية العلمية للجنة التي عُهِدَتْ إليها مهمة القيام بهذا الواجب العظيم.

ومن هذا المنزلق الساقط يتسلل سواجارت إلى إعلان دعوى انتحال القصص

---

(1) ينظر المصدر نفسه ص 117-118.

القرآنية من الخرافات والأساطير اليهودية[1] . وهذه القضية وسابقتها من القضايا التي أفاض المستشرقون وأعداء الاعلام في إثارتها، وتعميق البحث فيها، من أجل الخروج بنتائج هي في أغلبها عدائية مردودة .

وبعد هذه الجولة الهجومية يعمد القس سواجارت إلى المبادرة بالكشف عن المطاعن الذاتية وتعرية مواطن النقد في متناقضات كتابهم المقدس؛ وذلك تأميناً للدفاع المسبق وتخفيفاً لحدة هجوم الخصم، وربما هي إستراتيجية تستخدم في تحطيم أسلحة المساجل لصرفه عن استخدامها، وفي إطار هذه المبادرة يشير إلى أمثلة كثيرة منها: ورود أفعال تنسب إلى الله تارة، وإلى الشيطان تارة أخرى، وإشكالية اختلاف الروايات في ضبط عدد مرابط خيل نبي الله داود عليه السلام بالإضافة إلى اختلاف كل من إنجيل لوقا ومتى في تحديد نسب المسيح عليه السلام، وهو في عرضه لهذه التناقضات التي يراها مزعومة يسعى لتوجيهها موفقاً بين الروايات من جانب، ومحاولاً من جانب آخر انتقاد القرآن الكريم بدعوى تناقضه في بعض محدداته العددية[2] .

ومن كل ذلك يخلص سواجارت إلى دعم زعمه بصحة الأناجيل بدليل أنه صمد في وجه الحفريات الأثرية التي لم تسفر عما يناقضه، بل تحقق كل ما تضمنه الكتاب من آلاف النبوات[3] . وتبلغ المبالغة بسواجارت ذروتها في نفي بطلان عقيدتهم الناتج عن بطلان المصادر التي يستقون منها معتقدهم، مؤكداً أن العهدين القديم والجديد لم يعترهما أي تبدل عبر العصور على اختلاف الزمان والمكان. وفي ذلك يقول: «أنا أسلم أمامكم الليلة بأن العهد القديم الذي أحمله في يدي، هو نفس العهد القديم الذي كان لدى اليهود في أيام وزمان محمد، وأنه لم يتبدل، وأن الإنجيل أو العهد الجديد الذي أحمله في يدي هو نفس الكتاب الذي كان لدى الكنيسة في أيام وزمان محمد ﷺ»[4] .

وفيما يتعلق بنبوة ديدات في الحديث نجده يفتتحها بآية قرآنية ذات دلالة قوية على وقوع التحريف وممارسة التكسب بالتقول على الله عز وجل، وذلك في قوله تعالى :

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 122 .

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 124 .

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 125 .

(4) المصدر السابق: ص 121 .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: 79].

من هذا الاستهلال البارع يمهد ديدات لمناقشته بتقديم صورة مجملة عن المسيح عليه السلام في العقيدة الإسلامية ونظرة المسلمين إليه. ومن الجدير بالإشادة أن تمهيداً كهذا هو أمر له اعتباره وتأثيره في مثل هذا المحفل الحاشد والذي قد يجهل معظم من ضمهم حقيقة الإسلام في معتقداته، وتعاليمه.

ثم ينتقل الشيخ ديدات في أولى خطوة نقدية إلى إطلاع الجمهور الحاضر على مدى الفرق القائم بين النسختين الإنجيلية عند كل من الكاثوليك والبروتستانت، مبيناً أن مذهب البروتستانت يقوم على عدم اعتماد النسخة الكاثوليكية الزائدة بسبعة أسفار مرفوضة عند البروتستانت[1].

ومن باب احترام قواعد المناظرة وأصول الحوار يجنح ديدات إلى تحديد مصدره الذي يبني عليه مناقشته في هذا المقام، مما سيوجّه إليه سهام نقده في هذه المناظرة.

والملاحظ أنه يسبقُ نقده اللاذع المفحم بتقريظ أنيق، شحنه بمعاني الإعجاب بالنسخة الإنجيلية المعتمدة لدى مناظره، مشيداً بصياغتها الأدبية البارعة[2].

ومن أهم القضايا التي انصبت عليها مناقشة ديدات مسألة بُنوّة المسيح عليه السلام، بين إشكالية الخلق والولادة، أي أهو مخلوق أم مولود، وهي مسألة غالباً ما ترد في حوارات الشيخ وكتاباته، وقلما نفقدها في أعماله ذات الصلة بموضوعها. وقد جرت عادته بالتنبيه إلى أنه تحدى بها كبار اللاهوتيين بمختلف طوائفهم على مدى نصف قرن ظل يحاورهم فيه، ولكنه لم يلق منهم سوى التهرب والمواربة، الأمر الذي تحرّج إزاءه بعض القساوسة فحذفوا الكلمة الدالة على الولادة والتي تنزه الله تعالى عنها علواً كبيراً. وقد تم هذا الإسقاط بإقرارهم أن اللفظ دخيل على الإنجيل، وأنه تلفيق وتحريف، وهو ما أثبته ديدات بقوله: «ثم إن اثنين وثلاثين من أرفع علماء المسيحية قدراً يساندهم خمسون من الطوائف الدينية، قد حذفوا هذه العبارة، هل

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 130.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 131.

هددكم المسلمون إذا لم تحذفوا هذه الكلمة من الإنجيل بأنهم لن يزوّدوكم بالبترول؟ لماذا حذفتموها إذن؟ حذفتموها لأنها كلمة دخيلة لأنها ليست كلمة من الله»[1].
وعلى هذا النحو يستفزهم ديدات كاشفاً قابلية المساومة لديهم في أخص الأمور وأنفسها، حتى العقيدة؛ طالما تُؤمّن هذه المساومة فرصة تحقيق المصالح المادية. وهو ما ينمّ عن فتور الروح الدينية الصادقة فيهم، هذا إن لم تكن بالفعل معدومة لديهم.

ولكي ينفذ الشيخ ديدات إلى صميم نقد صارم لمحاوره في هذه المناسبة، رجع إلى مؤلفاته البالغة ثلاثين كتاباً، وعكف على قراءتها كلها ليعرف عن كثب أفكار وأسلوب الطرف الآخر، وليقف على القضايا التي تشغله في دراساته، وأيضاً للإحاطة بعقيدته على نحو أخص، إذ يرى ديدات أن كل مسيحي في العالم، يشكل حالة فريدة قائمة بذاتها قياماً ينفرد فيه في الغالب بمعتقدات مخالفة لعقيدة الطائفة التي ينتمي إليها[2].

وفي ضوء هذا الاطلاع العام على أعمال الطرف الآخر ونتيجة له يورد الشيخ ديدات إحصائيات منقولة عن كتب سواجارت تحدد نِسَباً عالية للانحرافات الأخلاقية في المجتمعات المسيحية، وبالأخص في المجتمع الأمريكي، الذي تركزت عليه كتابات سواجارت التي تفصح عن واقع الفساد في هذا المجتمع الهش حتى من مجرد إلقاء نظرة على عناوين تلك المؤلفات، التي تحكي واقعاً وصفه سواجارت نفسه بأنه وصمة عار، وفضيحة في جبين المجتمع الأمريكي[3].

وفجأة يجد سواجارت نفسه واقعاً في شرك الشيخ ديدات باعترافه من خلال كتبه بأن الكتاب المقدس يحتوي على عشر حالات من زنى المحارم. وبهذه الفرصة النقدية السانحة يَنْقَض ديدات على عقيدة مساجله مبيّناً للحضور أن كتاباً يضم حكايات سخيفة من هذا القبيل هو أبعد أن يكون موحًى به من الله بل يستحيل.

ويشاء الله القدير بعد هذه المناظرة العالمية أن تسجل الأحداث على سواجارت فضائح أخلاقية مزرية، تمثلت في تورطه الفعلي في معصية الله تعالى بارتكاب ما يربأ بنفسه عنه كل شريف محترم، بله رجل دين عالمي.

---

(1) المصدر نفسه: ص 136.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 134.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 140.

والواقع أن ديدات في هذه المحاورة، يركز كعادته على المسألة الأخلاقية من المنظور الديني. وأمام ما يُقرّ به سواجارت من فساد عارم في مجتمعه مما يعرض هو وغيره عن معالجته، لا يجد ديدات بداً من فضح حقيقة مهمته الدينية للآخرين، والتي ليست أكثر من التحايل لجمع مئات الآلاف من الدولارات يوميًا باسم الدين والدعوة إلى النصرانية الغربية.

وبهذه الميزانية اليومية الضخمة التي ترصد لسواجارت باسم التنصير، يشكل أنموذجاً من نماذج عديدة تصور مدى الإمكانيات التنصيرية الهائلة، وما تحظى به حركتها من دعم غربي واسع بلا حدود، تشترك في رفده الأفراد والمؤسسات. وإضافة إلى ما تقدم يشير ديدات في معرض النقد إلى التناقض الواقع بين الروايات الإنجيلية وهو نقد مدعوم باعتراف بعض الكتاب من المسيحيين بأن النساخ لم يكونوا معصومين من الخطأ، وأن الرب تركهم لشأنهم ولم ير داعيًا لحمايتهم منه[1]، ولذا لا وجود لمخطوطين متماثلين تماماً مما يتباهى به بعضهم من توفر أربعة وعشرين ألف مخطوط لكتابهم المقدس، وهو نقيصة، وليس محمدة. وقد ناقش ديدات سواجارت في ذلك بالقول: «وفيما يتعلق بالتباهي بأربعة وعشرين ألف مخطوط، أنت تعرف أخي سواجارت أن ليس بينهما اثنان متماثلان وعلماؤك يقولون بأنه بين الأربع والعشرين ألفًا التي كتبوها لا يوجد اثنان متشابهان، إذن فكيف لك أن تحكم بأن هذه من عند الله وأن الأخرى ليست من عند الله»[2].

وبالمناسبة يبدو لي أن تطوراً تاريخياً قد طرأ في نظرة المسيحيين إلى رجال مصادرهم المقدسة، إذ تختلف النظرة المعاصرة عما كانت عليها في أيام الإمام أبي المعالي الجويني الذي كتب يقول: «وأما دعوى النسيان والغلط، فإن رجال الأناجيل عندهم منزهون عن ذلك فإنهم جازمون بعصمتهم، وإن روح القدس لما حلّت عليهم أوجبت لهم العصمة»[3].

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 150.

(2) المصدر نفسه: ص 151.

(3) أبو المعالي الجويني: شفاء العليل في بيان ماوقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ص 63، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط3/ 1409هـ=1989م، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

وفي ختام حديثه المقيد بعامل الزمن يثير ديدات موضوع اختلاف الأناجيل في حلقات السلسلة التي وضعوها نسبًا للمسيح، وقد وردت إشارته إلى ذلك في قوله: «سلسلة الأنساب فيما بين أنجيلي متى ولوقا، نجد أن للمسيح ستة وستين أبا وجداً وفي هذه الأنساب الستة والستين من الآباء والأجداد لا نجد اسمين متشابهين، فيما عدا اسم واحد». ويتساءل ديدات، كيف ساغ لهم إثبات هذه السلسلة الطويلة المتناقضة مع الأنساب مع أنهم ينسبون المسيح إلى الله، ومختلف قوائمهم خالية من اسمه تعالى الذي يدعون أنه هو الذي أملى عليهم هذه الكتب!!؟ .

وإن مما يلفت النظر في هذه المناظرة أنّ ديدات قد خلع عليها الكثير من تواضعه، وعلق عليها أهمية بالغة، وهو ما يلمس جلياً في تعبيره الحار عن سعادته وامتنانه، وأنّ حواره مع سواجارت يعني بالنسبة لشخصيته امتيازاً وتكريماً[1]. وذلك ربما لأنها هي مناظرته العالمية الأولى والتي ترتبت عليها نتائج مستقبلية هامة في حياته الدّعوية، وفتحت له آفاقاً رحبة لم تكن في حسبانه في يوم من الأيام.

وفي الجولة الثانية للقس سواجارت من ذات المناظرة يتبدى للمتابع مدى توتر أعصابه وشدّة انفعاله، مما دفع به إلى التعبير بلهجة قاسية شاتمة خرج بها خروجاً سافراً عن حدود الأدب، فخرق صارخاً أصول الحوار، ومقاييس الانضباط فيه. وذلك في تعريضه بديدات قائلاً: «لقد تصفحت الأناجيل التي مع السيد ديدات، وفي القرآن في السورة التي نسميها الفصل الثاني والستين تقول الآية الخامسة: «كمثل الحمار يحمل أسفاراً، مثل الحمار الذي لا يدرك قيمة الحمل الذي يحمله على ظهره، بعض الناس الذين يجهلون الكنز الروحي الذي بين أيديهم»[2].

وهكذا بدلاً من الرد الموضوعي على بعض إلزامات ديدات وإفحاماته له فإنه فضل العدول عن ذلك، وركن إلى التخاذل والاستسلام متبجحاً بألفاظ رنانة عن مفاهيم الخلاص، والحب الموهوم في الفكر الصليبي والتباهي بالدّور التهذيبيّ للكنيسة، وعن مساعيها في إعادة تأهيل المجرمين والمنحرفين. والظاهر أنه غالباً ما يميل محاور ديدات إلى الاعتصام منه بالامتداح والثناء على النفس، والمفاخرة بالأدوار، بدلاً من المنافرة بالحوار.

---

(1) المناظرة الحديثة ص 154.

(2) المصدر السابق ص 160.

وعلى العموم فتلك شيمتهم، وطوق نجاتهم حين يتعرض مركبهم للغرق، ويسحب البساط من تحت أقدامهم. وبالنظر إلى الفقرة المخصصة لاستفسارات الحضور عقب المناظرة تتفتق من خلال التأمل في أسئلة الحضور وأجوبتها جملة ملاحظات منها:

1 - شملت الأسئلة قضايا متعددة وحصرتْ في طياتها مختلف المسائل التي تعرض لها المتناظران أثناء حديث كل منهما، وتأتي في مقدمة تلك القضايا الجمع العثماني للقرآن الكريم، وتعدد المصاحف والروايات، الدور الأخلاقي للإسلام في حياة معتنقيه، مصير من لا يؤمنون بألوهية المسيح أو بنوته الحسية طبقاً للمعتقد الكنسي يوم القيامة وبخاصة المسلمين، والتثليث، وتحريف الأناجيل، وغيرها.

2 - عمد سواجارت وقد عجز عن تقديم إجابة مقنعة لبعض الاستفسارات إلى تفويض الأمور إلى الإيمان، والذي يحتّم - فيما يرى - التسليم بها على عواهنها، وبسخافاتها ومتناقضاتها، دون إعمال فِكْرٍ، أو حتى مجرد حق التدبر فيها.

3 - تَعثّر ديدات في الرد على بعض الأسئلة مما جعل الدكتور أحمد حجازي السقا يعنف في التعليق والتعقيب عليه مستخدماً عبارات من قبيل «هذا باطل» أو «زعم ديدات»[1].

4 - قام القس سواجارت متجرئاً بتلاوة فقرات إنجيلية ملؤها الفحش والدعارة، وذلك ردا على تحدّي ديدات إياه بمائة دولار مقابل قراءتها علناً على مسمع الجمهور. ولعله ارتكب مطية الجرأة بقراءتها حتى يوهم الحضور بأنه ليس في الفقرات التي يتشبّث بها الشيخ مساجلا - من الخجل والحرج ما يدعو إلى التكتم عليها وبالأخص في المجتمعات التي شُلّ حسّها الأخلاقي، وفقدت سلامة تذوقها لقيم الفضيلة، وضوابط الحياة الإنسانية الكريمة.

5 - يلاحظ من خلال إجابات ديدات أنه لحين المناظرة لا يزال الجهل بالإسلام ومصادره مطبقاً على بعض الأحبار والقساوسة[2]، على الرغم مما تحقق للقليل منهم من تقدم نوعي، وتعمق في مجال الدراسات الإسلامية. وما من شك في أن لهذا الجهل الرّائن على عقولهم وقلوبهم دوراً في الهيمنة عليهم بصدهم عن سواء السبيل.

6 - يتحدى ديدات مناظرهُ، بإبداء استعداده التام لمنازلته في أربعة مواقع أخرى متفرقة

---

(1) ينظر المصدر السابق في الحاسية الثانية من الصفحة 166، وفيما يماثلها من الصفحة 173.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص 187.

في الولايات المتحدة الأمريكية، متعهداً بدفع عشرة آلاف دولار لقاء كل لقاء[1].

7 - افتقد سواجارت صوابه، وفلت منه توازنه المعهود عنه منذ أن زعزعه ديدات، وهزّ عقيدته، فتبين للآخرين أن الأمر قد سقط من يديه، وربما كانت هذه المناظرة بداية النهاية بالنسبة له ولمشاريعه التنصيرية العملاقة التي طالما تستر من ورائها مخادعاً لمموليه، وهو في واقع الأمر يرمي إلى التكسب بالعقيدة والمتاجرة بالدين في دار الفناء والمكاسب الرخيصة الزائلة. وقد انتهى به الأمر إلى إقرار ما يعمقّ روح العلمنة، ويعزز سلوك التسيب؛ وذلك بالفصل بين العقيدة والممارسة وفقاً لما يعتقدونه، وفي هذا يقول: «إن خلاصنا يتم بالاعتقاد وليس بالأعمال، حتى لا يتباهى أي إنسان، إن خلاصنا هو الاعتقاد بالرب يسوع المسيح»[2] فكأنّ سواجارت كان يتحين فرصة هذا اللقاء العالمي الهام لإلقاء دعوته إلى هذا الاتجاه اللامسؤول في الحياة.

8 - استبد القلق أخيراً بسواجارت وانتابته هزة نفسية عنيفة، عبرت عن نفسها فيما تعرض له من ارتباك وذهول، أدّيا به إلى تصريح كاشف لأحد أساليبهم الإعلامية الملتوية، التي لا يتورعون عن الإقدام عليها، والاستعانة بها في دعاياتهم التنصيرية الماكرة وغيرها، طالما هي محققة لمقاصدهم، وتضمن لهم الوصول الرخيص إلى تلك الأهداف الخبيثة التي يرمون إليها غالباً. وقد ساق هذا الاعتراف في قوله: «. . وكما تعلم، فإن لي دراية بالتلفزيون، فبإمكانك أن تجعل أي شخص يقول عن أي موضوع، ما تريده أنت بالغش، نحن خبراء في ذلك»[3]، ولا غرور في هذا، طالما ظلت الغاية عندهم تبرر الوسيلة، ومادامت البرجماتية منطقهم ومذهبهم في كل شؤونهم.

9 - انفضّتْ المناظرة بين الطرفين مسجلة انطباعاً عاماً لدى الجميع وشعوراً خاصاً ومريراً لدى المناظر المسيحي بهزيمته، وهو انطباع توهم بتأثيره بعض المتحمسين فيما بعد بأن الشيخ ديدات كان متآمراً مع سواجارت، وأنّ المناظرة لم تكن أكثر من مسرحية جاهزة للتمثيل جرى ترتيبها بين الطرفين مسبقاً، فرسمت معالمها بوضوح، وحدّدت قضاياها سلفاً، وحسمت نتائجها بدقة؛ وذلك مقابل أجر

---

(1) ينظر المصدر السابق: ص 198-190.

(2) المصدر نفسه: ص 191.

(3) المصدر نفسه: ص 200.

يتقاضاه الطرف المسيحي من نظيره المسلم، والذي ينمي أي وهم من هذا القبيل هو أن الحوار بين الجانبين قد انحسم بلا امتراء بانتصار الطرف المسلم، والذي يعني في حقيقته انتصار الإسلام على الصليبية. وإن هذا الانتصار الرمزي يبشر عبر حركة الزمن بظهور ساحق عليها وعلى غيرها من النحل والمذاهب، كما هو مقطوع به نصاً واعتقاداً.

10 - إن هذه المناظرة تعد أخطر مناظرات ديدات وذلك لأوليتها وعالميتها؛ إذ تعتبر أولى مناظرة ناضجة يعقدها ديدات مع أحد كبار المسيحيين فكراً ونشاطاً، له انتشار عالمي واسع، ووزن معتبر في الأوساط الغربية، وصفه ديدات بأنه «أكثر المتحدثين سحراً في العالم اليوم»[1]، فبهذه الاعتبارات تتجاوز المناظرة طرفيها لتعكس لقاء دينين عالميين، تمثل العلاقات بينهما صفحات ممتدة من التاريخ، خليطة من الصراع والتسامح، ومن ثم يأتي البعد الجغرافي في انتماء المتحاورين ليرمز من جانبه إلى أن المناظرة كانت بمثابة لقاء بين الروحين الشرقية والغربية.

ومن حيث عالميتها، فقد حظيت بتغطية إعلامية واسعة، كما تميزت بحضور حاشد مميز يقلّ نظيره. وقد تطرق خبرها إلى مختلف أصقاع المعمورة، فشكلت بذلك انطلاقة جادة لمسيرة ديدات نحو مرحلة أكثر تطوّراً وتوسّعًا، يمكن وصفها بالعالمية، حيث تحرّر الشيخ خلالها من القيود المحلية والقارية ليخاطب العالم بدعوته، ومنهجه المجدد، وليبشر الناس مع غيره من دعاة الإسلام بالعهد الأخير المتمثل في الإسلام دين الحق والعدل، والسلام والمحبة. وعليها؛ فإن هذه المناظرة قد رشحت ديدات لدور عالمي عظيم؛ إذ جعلته في تاريخ عالمنا المعاصر فارساً لا يشق له غبار في ميادين الحوار وحلبات المناظرة.

على أن المناظرة مع بالغ نجاحها، وعظم انتصار ديدات فيها، لم تسلم من تعقب الدكتور أحمد حجازي السقا للشيخ ديدات فيها، بإبطال بعض ردوده الضعيفة الناتجة عن عدم توثيق المعلومات، شأن كل من يخوض مناظرات حامية، ويتصدى لخطابات مرتجلة، مما لا ينفك غالباً عن الوقوع في بعض الهنات الهينة، فضلاً عن ورود مسائل لا تخلو من اختلاف وجهات النظر بشأنها. ومع ذلك يميل المخالفون فيها إلى تخطئة آراء غيرهم، وتصويب ما يرونه دون غيره.

---

(1) المناظرة الحديثة: ص 159.

ومن هذا المنطلق يلازمنا ونحن نتابع رحلتنا في أرجاء هذه المناظرة من خلال كتاب «المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان» حواشٍ مثقلة بالتعليقات على امتداد الكتاب واستخدمها مُعِدّ الكتاب في إضافة ما تقتضي الضرورة بيانه من تعقيبات وتصويبات لأخطاء ديدات في المواطن التي تزل قدمه، ويكبو جواده. وعلى العموم هي في واقعها وفي أغلبها معلومات مفيدة ومثرية .

ب - مناظرتان في استكهولم بين ديدات وكبير قساوسة السويد[1] :

جرت وقائع هاتين المحاورتين في عاصمة السويد بتاريخ 27/ 10/ 1991م بين الشيخ ديدات وكبير قساوستها المسمى «استانلي شوبيرج» وهو رجل قد عاش سنوات عديدة في أقطار إسلامية، ساعد خلالها حسب دعاية مُقَدِّمِه كثيراً من المسلمين اجتماعياً وصحياً. ويفهم مما تنسب إليه من مساعدة المسلمين والإقامة في ربوع ديارهم أنه كان يتعاطى مهمة تنصيرهم، مزاولاً الوسائل التنصيرية المعروفة عنهم، والتي تستغل مجال الخدمات الاجتماعية والثقافية، وتتلبس بعباءة الإنسانية، وهي أبعد ما يكون عنها، بل هي وسائل خبيثة ومعادية للعقيدة الحقة، وللقيم الإنسانية السامية .

وفي هذه المحاورة الهامة التي كان عنوانها هل الإنجيل كلام الله؟ يوجد لكل من المتناظرين مرافق يتولى تقديم صاحبه، ويشتركان معاً في إدارة اللقاء وضبط الحوار بين الطرفين. وقد بدأ الشيخ ديدات باعتباره المحاور الأول بإهداء نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية إلى مناظره: وقد اختار له هذه الهدية الغالية باعتبار أن القرآن الكريم على حد قوله أقيم شيء عنده في الوجود[2] .

وإن من المتوقع أن تثير قضية إهداء القرآن الكريم، وما يتصل به لغير المسلم تساؤلات بشأن جوازها ومشروعيتها، رغم ما يظهر بأن العصر قد تجاوز مسألة من هذا النوع؛ حيث إنّه متاح لهم من تلقاء أنفسهم اقتناء القرآن وغيره رغم إرادتنا، وذلك عن طريق المكتبات العلمية والتجارية، ومن خلال الانتشار الواسع للثقافة، ووسائل العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أن هذا الإهداء يعد فرصة ثمينة، ووسيلة

---

(1) عنوان كتاب مفرغ من أشرطة المناظرتين –أصدرته دار الفضيلة، والتعريب للأستاذ علي الجوهري، عام 1992م.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم ص 16، مصدر سابق.

دعوية حكيمة، إذ تمكن الآخرين من الاطلاع على حقيقة الإسلام عقيدة وحضارة من مصادره الأصلية المعتمدة عند المسلمين، ومن خلال ما ينتقونها لغيرهم بدقة من الكتابات الإسلامية الرصينة الجيدة .

وبعد الشكر، والإهداء، يستهل ديدات مطالبًا محاوره بتحديد المصدر المعتمد لديه، والذي سيتمحور الحوار حوله، وينضبط به النقاش دون غيره من النسخ الإنجيلية الكثيرة المختلفة، بل والمتناقضة غالباً. ولتأكيد هذا الاختلاف الواسع بين رواياتهم المقدسة يقدم ديدات اثنتي عشرة ملاحظة نقدية تدور حول عدم دقة الترجمات الإنجيلية، وتحتوي مقارنات تمثيلية من العهد القديم لمعلومات تختلف فيها النسخ اختلافا متناقضاً. وفيما يخص العهد الجديد يضيف بضع ملاحظات أخرى تتضمن انتقادات موجهة إليه .

وفي هذا المضمار يحيط ديدات - كلا من المحاور والحضور معًا - علمًا بمعلومة ذات أهمية استثنائية تتصل بموثوقية الأناجيل، وفيما إذا كانت وحياً من الله أم لا؟ مقابل الحكم نفسه بشأن القرآن الكريم. وقد أفاد في ذلك بقوله: «دعني أخبرك أن كثيراً من أكبر علماء المسيحية قد أخبروني بصراحة أن الإنجيل ليس وحياً إلهياً مباشراً، بينما المسلمون يعتقدون أن القرآن الكريم وحي إلهي مباشر، وأن القرآن الكريم هو كلام الله أوحاه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، دون أن يغير كائن بشري أي حرف أو كلمة أو جملة من كلام الله سبحانه وتعالى»[1] .

وعلى هذا النحو يستقطب ديدات الحضور في الوقت الذي يمارس فيه تأثيرًا نفسياً على محاوره، وذلك حتى يلين ويضعف مستسلماً دون تماد في عناد أو حجاج، وبذلك يقتنع الحضور بتحريف الأناجيل وأنها ليست وحياً من الله تعالى بخلاف القرآن الكريم الذي هو وحي مباشر توثق جمعه، وتأكد حفظه وصونه. وعلى خلفية نقده للكتاب المقدس يتوقف للطعن في قيمته التربوية على اعتباره أنه قد يسهم سلبياً في انحراف الأحداث، والناشئة من الأولاد، ؛بما يتضمنها من قصص فاحشة وحكايات بعيدة عن جو الأدب والأخلاق النبيلة، وما يتصل بها وبعد ما ساقه من دليل قد ورد في مجلة غير إسلامية عن تَفسّخ الكتاب المقدس، يصفه ديدات قائلاً: «إن هذا دليل

---

(1) المصدر السابق، ص: 25-26.

ناصع قاطع على أن هذا هو أخطر كتاب في العالم، وهو أشد الكتب ضرراً على وجه الأرض من الناحية التربوية»[1].

وأما القس الكبير فقد اعتمد في محاورته أسلوباً دبلوماسياً منمقاً يقوم على التذكير بالوحدة العامة بين الناس في أصل خلقهم، والإشارة إلى المشتركات بين الإسلام والمسيحية، متسللاً إلى انتقاد القوانين المعمول بها في أغلب البلاد المسلمة، متهماً إياها بأنها تهدّد الحياة، الأمر الذي لجأ بسببه بعض المسلمين إلى السويد تهرباً منها. وقد فجر بهذا الاستفزاز ردّ فعل حادّ وعنيف، عم جنبات القاعة بهتافات وتكبيرات مدوية أطلقها الحضور المسلم لمقاطعة الرّجل، وإعاقته عن الاستمرار في الاسترسال بإيراد دعاوٍ مثيرة تخلصاً من هذه المقاومة التي وُوجه بها حيث تَنكّبَ إلى الحديث - متباهيًا - عن موقفه المتعاون والمتعاطف مع المسلمين في بلاده، وخاصة في تأييد مشروعية مطالبهم الدينية. وحماية بعضهم من الإجلاء عن البلاد ممن سبق وأن اتخذت بشأنهم قرارات ومواقف رسمية، ولا نجد أيّ مناسبة تقتضي في هذا المقام الإعلان عن مثل هذه الأمور سوى أن الرجل قصد به الْمنّ على المسلمين، والتشدق بالتسامح الديني، والتظاهر بالنضال من أجل إرساء مبدأ حريّة الاعتقاد، وضمانه كحق قانوني للمواطنين والمقيمين في بلاده على قدم المساواة. والملاحظ أن الرجل ذو أسلوب ماكر خبيث يوهم الحضور بأن منطلق ديدات في دراسته ونقد الكتاب المقدس ناجم عن ثورة انفعالية، ولدت عنده ردود فعل دائمة ضد المسيحيين؛ جرّاء ما تعرض له هو وغيره من مسلمي جنوب أفريقيا من اضطهاد وامتهان على يد المسيحيين. ومن ثم فإنه بالنظر في الكتاب المقدس بعيداً عن العقد والترسبات النفسية القديمة، وبمعزل عن خلفية الأحكام المسبقة يتأكد أن ما ورد فيه صحيح ومسلَّم به[2]، وذلك على الرغم من إقراره بأنهم لا يؤمنون بوحي إلهي مباشر لعظمته تعالى وتنزهه عن ذلك، وإنما يؤمنون بما أسماه بوحي كلي شامل؟ وهو ما أفصح عنه قائلاً: «إننا لا نؤمن بالوحي الإلهي المباشر الذي يكتب كما أنزله الله بالضبط، وإننا نؤمن بوحي كلي شامل، إن الله عظيم جداً إن الله لم يقصد أن يتكلم في الآذان . . »[3].

---

(1) المصدر نفسه: ص 33.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص 40.

(3) المصدر نفسه: ص 41.

ومن جانب آخر يثير عن جهل أو عمد - ومن غير مناسبة - معلومات في غاية السفسطة والتفاهة عن موقف الإسلام من المرأة، معبراً بذلك عن عميق جهله بالإسلام وتعاليمه، وعما تنطوي عليه نفسه من سوء نية تجاهه. وتأتي تلك المغالطات - فيما يظهر - في سياق التهرب من مواجهة ديدات بالحجج الموضوعية والبراهين العلمية، ومن ثم أبعد النجعة في التهرب متجرئاً بقذف النبي عليه السلام في حادثة إبطال عادة التبني التي قصر وعيه عن درك حكمته، وحتى مطلق الإحاطة بملابساته، وقد سَاقَهُ جهله وحقده في وقاحة سافرة إلى قوله: «والآن كيف نستسيغ أن محمداً وقد كان له ابن، أو بالأحرى ابن بالتبني، وكان محمد قد عقد قران ابنه بالتبني على شابة صغيرة السن، وعندما شاهد محمد حسنها وجمالها وقع محمد في غرامها فتزوج منها، وقال محمد لقومه: مثل هذا الصنيع حرام عليكم، حلال لي أنا وحدي هذا سهم نقدي محرج»[1].

وإن من الخطورة بمكان أن تساق هذه المغالطة الفاحشة في مثل هذا الموقف الحاشد ويفوت ديدات الرد عليها بشدة في معرض حديثه وردوده على هذا المغالط الكبير، والذي تمادى على هذا النهج لإثارة قضية قتل المرتد ناسباً القول به إلى القرآن الكريم زوراً وبهتاناً، عامداً من ذلك إلى مقارنة كاذبة تقوم على أن الإنجيل بخلاف القرآن يدعو إلى إلتزام مبدأ الرّحمة والعفو العام والمساواة بين الناس، بينما ينزع المسلمون على حد زعمه إلى التعصب والتمييز العنصري ضد اليهود[2]. والغريب في الأمر أنه يستند في مزاعمه الخطيرة إلى مصدر مجهول لم يسمه، ولا قدّم بيانات توثيقية عنه، وإنما ينسبه تلفيقاً إلى مجمع البحوث الإسلامية على نحو ممقوت وبعيد عن المنهجية العلمية.

وفضلاً عن ذلك يدّعي في محاولة منهُ لكسب المعركة بأنّ ديدات في انتقاده للتوراة والإنجيل مخالف للقرآن الكريم الذي ينص على الأمر بالتصديق بهما[3]. وهو بهذا يتجاهل أن المعترف به قرآنيـاً لا يستوعب كتابهم المقدس بل يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان بكتب الأنبياء الصحيحة دون غيرها من المحرفة أو المزيفة.

وإن من سقطات الرجل الكثيرة أنه ناقش طوال الفترة المخصصة له عموميات

---

(1) المصدر نفسه: ص 54.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص 55-56.

(3) المصدر السابق: ص 40.

تخرج عن إطار العنوان المحدد كموضوع للمناظرة، فعاد أخيراً لمحاولة الرد على أقوال ديدات في الدقائق الثلاث عشرة الأخيرة من مداخلته رداً خليطاً بقصص خيالية مختلقة، لدعم منطلقاته مقابل تضعيف موقف الطرف الآخر بأي ثمن كان، غير متورع ولا آبهٍ بالمسؤولية الأخلاقية. وهو في هذا الصدد يورد قصة مفادها أن امرأة مسلمة استجارت بالمسيح عليه السلام من كثرة ما عانت من ضرب زوجها لها؛ وذلك لإدمانه الخمر فأجارها المسيح بأن استسمحها الزوج ولم يعد يقدم على ضربها بعد ذلك[1].

وأخيراً يسرّب إلى الحاضرين بدهاء ولباقة ما مفادهُ أن العالم الإسلامي في بعض دوله يضم كنائس ينتمي إليها آلاف المسيحيين، وهم يؤيدونه في عقيدته ورؤاه، ويدعمونه بالصلاة من أجله وغيره. وبهذا يتضح للقارئ بأن الرجل ظل يتهرب من المواجهة الموضوعية، الأمر الذي دفعه إلى حشر أنفه في قضايا لا تمت بصلة مباشرة إلى موضوع المناقشة كعقيدة التثليث، وعلم الله المطلق، ومساعداته للمسلمين وغيرها. وعلى هذا الأساس تعقبه ديدات في جولته الثانية كاشفاً للحضور تنصله وتملصه من الإجابة على القضايا المثارة، وأنه تحدث عن أشياء غير مطلوبة إدراكاً منه لأبعاد تلك الأسئلة المطروحة عليه وعمقها، غير أن الشيخ ديدات سجل هو الآخر حالة من القصور في عدم رده على مغالطات مناظره كما كان ينتظر منه. وهو أمر خطير ومؤسف، لعله اضطر إليه تقيداً بالموضوع واحتراماً للوقت من جانب، أو نتيجة عدم توفر الاستعداد الكافي لذلك من جانب آخر، وخصوصاً حين يفاتح المرء بالنقاش في قضايا مفاجئة، مما لم يحضّر لها سلفاً، لعدم توقع ورودها. وعليه نلتمس له العذر بقول صاحب كتاب العقد الفريد: «الجوابات هي أصعب الكلام كله وأعزه مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة يروم في بديهته نقص ما أبرم القائل في رويته، فهو كمن أخذت عليه الفجاج، وسدّت عليه المخارج، قد اعترض الأسنة، واستهدف للمرامي، ولا يدري ما يقرع له فيتأهب له ولا ما يفجأه من خصمه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بذمامه بعد أن روّى فيه واحتفل»[2].

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: ص 61.

(2) أحمد محمد بن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد، تح: محمد عبدالقادر شاهين، ج1/ 81، ط2/ 1420هـ=1999م المكتبة العصرية – صيدا – بيروت.

ومن طرائف هذه المناظرة أن القس الكبير تعرض لعملية تحدٍّ واختبار من قبل أحد السائلين من الحضور، عندما تقدم إليه السائل بقارورة من السم طالباً منه تجرعه، طالما هو جاد ومتأكد بأن مجرد إيمانه بالإنجيل يؤمن له السلامة، ويضمن له العافية من مخاطر من هذا النوع، طبقاً لما ورد في إنجيل مرقس[1]. وأمام هذا التحدي المعلن على رؤوس الأشهاد، لم يجد القس لنفسه بداً سوى التخلص من هذا المأزق بالالتواء والمراوغة مُؤْثِرًا طريق السلامة ليتبين للحاضرين بذلك الحق من جانب، وضعف إيمانه بما يدّعيه من جانب آخر.

وفي المناظرة الثانية في الليلة التالية والتي كان عنوانها «هل عيسى إله ؟» لم يكن الرجل فيها بأوفر حظًا من سابقتها - إن لم يكن أسوأ منها - ويظهر أن مناظرة ديدات للقس السويدي تجري في نفس ما تناظر عليها ديدات وسواجارت من موضوعات، مما يبرر القول بأنه لم يستسغْ الاقتناع بما مُني به هو وشريكه في الدين «سواجارت» من فشل وهزيمة على يد ديدات الذي ساجلهما بتفوق ساحق حاسم؛ الأمر الذي دفع به إلى المطالبة بإجراء مناظرة أخرى عن العنوان المتقدم كي يتمكن من الثأر لنفسه ولعقيدته، ويتخلص من عار الهزيمة الذي تلطخت به سمعته، واهتزت به مكانته الدينية.

وهو في هذا اللقاء الأخير يتهم ديدات بشتمه إياه، ومحاولة قتله، وأن عائلته قد تلقت تهديداً هاتفياً بالقتل في حال حضوره للمناظرة وذلك فيما ورد عنه قائلاً: «فإن بعض الناس قد طلبوا مني ألاّ أشارك في لقاء الليلة ولكن لماذا؟ لأنك في الليلة الماضية أردت أن تقتلني ولقد تلقت عائلتي تهديداً تلفونياً بالقتل لو أنني جئت إلى الكنيسة الليلة من أجل هذه المناظرة»[2]. وهكذا يسترسل في كيل التهم جزافًا ضد الشيخ ديدات، مدّعيًا أنه في أحد كتبه ذهب إلى السخرية والتجديف بعقيدتهم وإيمانهم. وقد اتضح من رد ديدات عليه أن الكتاب المشار إليه موضوع، وليس صحيح النسبة إلى من نسب إليه[3].

والواقع أن الرجل قد فشل في تقديم معالجة مركزة لموضوع المناظرة، فأصبح يتخبط. ويتموج ما بين قضايا اجتماعية، وبين كيل التهم، والافتراء على الشيخ في

---

(1) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص 88.

(2) المصدر نفسه: ص 111.

(3) ينظر: المصدر السابق كلاً من ص 121 -142.

أمور عديدة، منها أنه لا يحب معجزات المسيح وأنه يفاضل موسى على عيسى عليهما السلام. وقد قال فيما نقل عنه «أنا أعرف أن السيد ديدات لا يحب معجزات المسيح، وهو يعتقد أن موسى أعظم من عيسى؛ لأن موسى استطاع أن يخلق من العصا التي بيده حية تسعى، وهذا شيء مخيف، ولكن عندما جاء عيسى كانت أول معجزاته أنه حوّل الماء إلى خمر»[1].

إن سخافات القس الكبير في هذا اللقاء تشجع على ترجيح الاعتقاد بأنه كان فاقداً لبعض وعيه - إن لم يكن كله - إذ كان فيما يبدو لي يعاني من شدة الاضطراب والارتجاف، كما قد أقر هو نفسه واعترف بذلك.

وقد سجل الأستاذ علي الجوهري مظاهر اضطراب أسلوبه التعبيري في أكثر من موقع من حواشي الكتاب، حيث لاحظ عليه أنه لم يكن يهتم في حديثه باستخدام جمل مفيدة، ذات معان مستوفية، مما جعله يعلق على بعض جمله قائلاً: «الجمل مفككة لا قوام لها بالأصل»[2].

ومن ثم يستطرد الرجل في جوه الدائخ المتماوج متّهمًا القرآن الكريم بدعوى خلق وإثارة العداوة نحو اليهود، وضد دولتهم المزعومة، مما يؤكد انتماءه الصهيوني، وتبنيه وهو مسيحي موقف المحاماة عن الصهيونية[3].

وبهذه الصورة يتمادى الرجل في ثرثرة لا طائل منها، محاولاً تزجية الوقت، ولكنه لم يفلح فيها، فانتهى إلى التصريح بذلك قائلاً: «وقبل أن أنهي حديثي . . أنا لم أستهلك كل الوقت، أنالم أستهلك كل الوقت . . أنا سأنهي . . أنا لمست ذلك من قبل، دعوني أخبركم بأمانة أنه على المستوى العقلي يجوز ألاّ نتفق . . وأنا أعتقد أن كلماتي ربما لا تقنعكم وربما تغضبون مني . . ولكني آمل أننا نستطيع أن نصبح إخوة، ولو احتجتم شيئًا اتصلوا بي وأنا أعدكم أننا سنكون أخوة حتى لو لم تصبحوا

---

(1) المصدر نفسه: ص 125-126.

(2) المصدر نفسه الحاشية الثالثة من الصفحة 129، وينظر أيضاً الحاشية الثانية من الصفحة السابقة على ما قبلها.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 128

مسيحيين، أنا سأحبكم كإخوة . . أين الباكستانيون هنا»[1]، وبهذه الكلمات الفارغة من أي مضمون معقول مفيد ظل يشوش على الحضور إلى أن قال أخيراً «والآن أنا أشعر بالتعب الشديد . . وأنا أعتقد أنني يجب أن أجلس»[2]، وذلك بعد أن رَوَّج لـدَوْر الكنيسة في بلاده، وأشاد بمساعيها في إنقاذ ما يزيد عن ألف شاب من المجرمين ومدمني المسكرات، من الذين وإن لم يكن هو بالفعل أحدهم فلا يختلف عنهم كثيراً.

وكان لفرط فقدانه صوابه قد أعلن على الملأ أنه مهدّد ومعرَض للتحدي من قبل ديدات، ناسيًا بذلك أن الدعوة إلى هذا الحوار تمت بمبادرة ذاتية منه، وأنه هو المتحدي الأول، وما حضور ديدات إلا لإظهار الحق دفاعاً عن عقيدته[3].

وصفوة القول: إن القس قد فلت عن المواجهة الموضوعية أمام ديدات ولم يكن ثمة مخلص مما لابد منه، سوى التسلل إلى الحديث في عموميات وسخافات بعيدة عن جوهر الموضوع. وبوهن دفوعاته الواهية التي واجه بها ما ألقاها ديدات من أسلحة فكرية نفاذة قاضية، يكون قد سجل على الصليبية مجدداً هزيمة من أكبر الهزائم التي تضاف إلى قائمة ما اعتادت عليها من هزائم تاريخية مشهودة .

وفيما يخص الشيخ ديدات في هذه المحاورة فقد اتسم مسلكه فيها بالتركيز في انتقاداته وفي ردوده على السواء، وقد استوفى حق نقد الكتاب المقدس، وبصريح نصوصه. ومن ذلك ما قمع به مناظره من نص إنجيلي ينعى عليهم المفاخرة بإبراء العاهات المزمنة والأمراض المستعصية باسم المسيح، كما ردّ أيضًا على مناظره بنصهم المقدس في المباهاة بالقدرة على الإتيان بخوارق الأفعال .

وقد عقب بنص من الكتاب المقدس ساقه ديدات للاستشهاد به في هذا الصدد، بمخاطبة القس الكبير قائلاً: «إنك تدعو الناس بالسويد وأفريقيا وبنجلاديش أن يتصلوا بك للخلاص من متاعبهم ومتاعب أسرهم، ويسوع يقول لك: يا سيد، ابتعد عني، أنا لا أعرفك؟ أنا لا أريد أن أعرفك. . . يحذر المسيح ممن يزعمون القدرة على

(1) المصدر نفسه: ص 130 .

(2) المصدر نفسه: ص 131 .

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 175 .

عمل المعجزات لكي يضلوا الناس الذين يتبعونهم ويخدعون بمزاعمه»[1] . وبالجملة فإن مما يميز هذه المناظرة هو أنها قد عكست قدراً وافراً من المغالطات التنصيرية والاستشراقية القديمة ، التي كانت وما زالت في بعض الأوساط تحاك ضد القرآن الكريم ، وشخصية الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ؛ حيث إن نفس الأباطيل والافتراءات التي درج الأعداء منذ قرون خلت على ترويجها ضد الإسلام ورموزه الفكرية والشخصية ، هي التي ردد بعضًا منها كبير قساوسة السويد ، وجانب من جملة الحاضرين ممن سألوا وناقشوا في الحلقة الأخيرة من هذه المحاورة العالمية الكبيرة .
واعتباراً لهذه الميزة البارزة التي طبعت هذه المحاورة قيمها الأستاذ علي الجوهري بقوله : «ولا ريب أن النتائج التي حققتها هذه المناظرة بالفعل نتائج مهمة وكبيرة ومدهشة»[2] ، وذلك لتقليدية القضايا التي طرحت فيها ، وفجيعة ما ألم فيها بالطرف المسيحي من هزيمة فادحة ، بانت لعامة حاضري المحاورة ومتابعيها لاحقًا ، ولا سيما في الليلة الأخيرة منها ؛ إذ تجلى فيها هذيان القس الكبير ، وسخافة منطقه الفارغ ، متوّجة بوضاعة شخصيته الحوارية ، التي تختلف كثيراً عن شخصية أنيس شروس الذي عقد معه ديدات من قبل واحدة من أخطر محاوراته العلنية المشهورة .

ج - مناظرة العصر بين الشيخ ديدات والقس أنيس شروش بلندن[3] :

رُتِّب لهذه المحاورة أثناء عقد ديدات مناظرة سابقة مع أحد أكبر علماء اللاهوت المسيحي في مدينة برمنجهام البريطانية ، حيث كان القس أنيس شروس حاضراً من الولايات المتحدة الأمريكية خصيصاً لغرض اغتنام فرصة تحدي ديدات ، بأخذ موافقته على إجراء مناظرة علنية خاصة معه ؛ فلذا تظاهر بالاستفسار ، مفاجئًا الحضور بإعلان تحديه للشيخ في مناظرة لاحقة ، بدلاً من إلقاء ما كان يتوقع منه من سؤال أو تعليق .

وسرعان ما وافق ديدات على هذا الطلب الرخيص ، الذي يعتبره فيئاً نفيساً لا يقدر بثمن مهما غلا وارتفع . ومن ثم تم الاتفاق على اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحديد ظرف مناسب زمانًا ومكانًا لعقد هذه المحاورة المدبرة ، بتخطيط محكم من

---

(1) المصدر السابق : ص 148-149 .

(2) المصدر نفسه : ص 109 .

(3) فرغها الأستاذ علي الجوهري معربة في كتاب نشرته دار الفضيلة القاهرية .

الجهات ذات الشأن والعناية بهذا الأمر، حيث إن القس أنيس شروش من عرب فلسطين، هاجر إلى أمريكا سنة 1948م، وتحصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت من إحدى جامعاتها، وبحكم كل من العرق، والموطن، والتخصص فإنه يجيد عدداً من اللغات الهامة، منها العربية والإنجليزية، بالإضافة إلى اليونانية القديمة[1].

وهو فيما أعتقد مدفوع به كنسياً لمواجهة ديدات لمآرب إعلامية تتمثل في تضليل الناس بأن الرجل رغم أصله العربي وإجادته لغة المصادر الإسلامية أكثر من ديدات، ومعرفته بمحتوى تلك المصادر كما يظهر في استشهاداته فإنه مع كل ذلك نتيجة دراسته المقارنة لكل من الإسلام والمسيحية، فضّل اعتناق المسيحية بدلاً من الإسلام، وهو من أقرب الناس إليه وأولى به من ديدات الذي شغل العالم بحماسه الأعمى للحوار والدعوة، مع أنه لا يداني القس شروس في تلك المزايا اللغوية والثقافية التي يتمتع بها.

ومن هذا المنطلق هُيّئتْ أجواء المناظرة من خلال اتصالات بين الطرفين دامت عدة أشهر، فوقع الاتفاق أخيراً على عقدها تحت موضوع: هل عيسى حقاً هو ابن الله؟ على أن تكون في مدينة برمنجهام الإنجليزية بتاريخ 15/ 12/ 1995م.

وفي ساعة اللقاء من يوم المناظرة كان مع كلا المتناظرين صاحب مرافق له، يعينه على ترتيب أوراقه، ويقدم له المساعدة في استخراج ما تدعو الحاجة إليها في المراجع من نصوص وشواهد. فكان صاحب ديدات بريطانياً اعتنق الإسلام، ومع مناظره مسيحي لبناني الأصل أمريكي الجنسية.

وقد ظهرت صعوبات فعلية في ضبط طريقة إجراء هذه المناظرة، فلجأ أصحابها إلى الاقتراع للوصول إلى تحديد المتحدث الأول، والتوزيع الزمني لفرص الحوار، وما يعقبها من مداخلات، واستفسارات. وإسهاماً من ديدات في تجاوز تلك الصعوبات الإجرائية فقد تكرم على الطرف الآخر بالتنازل عن حقه المكتسب بالقرعة في أوليّة الحديث والمبادأة، وقد وُفق بهذا التصرف في الجمع بين التسامح والإيثار من جهة، وبين الحكمة والوعي الثاقب من جهة أخرى، حيث إن الوضع منظوراً إليه بعين الحكمة كان يقتضي من ديدات منح المتحدي شروش حق المبادأة، باعتباره مصدر المبادرة بالدعوة إلى هذا التحاور. ومن ثم يكون الرد أصوب وأنكى.

---

(1) ينظر: مناظرة العصر، ص 7.

وقد دشن القس شروش حواره بتقديم هدية مجهولة إلى الشيخ ديدات، وهدايا تذكارية لمن كان برفقته، بالإضافة إلى تخصيصه مدير الجلسة بهدية ذات مدلول رمزيّ كبير وهي مفتاح مدينة «ألاباما» الأمريكية الذي قال عنه شروش: «وهو يمنح لمن يسدون جميلاً إلى هذه المدينة، كما أنه يمنح أيضًا لمن يسدون جميلاً إلى البشرية عمومًا»[1]. إن هذا الصنيع من القس شروش يؤكد تأكيدًا قاطعًا صادقًا مدى ارتباط مهمته الدينية بالأجهزة المدنية والسياسية في أمريكا، فضلاً عن تعبيره عما يحظى به النشاط التنصيري والمنصرون من دعم غربي واسع على المستويين المادي والمعنوي.

وعندما أخذ في الكلام استطرد في خطاب فارغ أجوف، شحنه بالمغالطات المتهافتة، والإطلاقات الطائشة، مكتفياً في استدلاله على صحة الكتاب المقدس ومصداقيته بوثائق محفوظة في المتاحف لم يعن بجلبها معه للعرض والتوثيق بدلاً من مواجهة الموقف بالاستدلال للإنجيل بالإنجيل[2]، وذلك بمضمونه وتعاليمه. وفي إثباته لعقيدة «الثالوث الموحد» يلجأ إلى الاستعانة بالظواهر الطبيعية والتحليلات العلمية البعيدة في صلتها بموضوعه من قبيل ما ورد في قوله:

ولننظر إلى الطبيعة حيث قدم الله بعض الأدلة على التثليث، لدينا العناصر كم عددها؟ ثلاثة أجسام: الصلبة والغازية والسوائل، وكل مادة إنما تنحدر من هذه العناصر الثلاثة، والهواء الذي نتنفسه يتكون من ثلاث ذرات: ذرة أوكسجين وذرة هيدروجين، وذرة نيتروجين، ولننظر إلى الشمس التي تبعد عنا آلاف الأميال، إن الشمس ضوء وحرارة ودفء، وهي تأتي إلينا مع ذلك شمساً واحدة، والزمن ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل، والإنسان نفسه: نفس وعقل وجسم والأسرة تنقسم إلى الأب والأم والأطفال[3].

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة يجهد شروش نفسه في تعزيز قضيته بنصوص وردت فيها مصادفة ألفاظ ومكررات ثلاثية، ولكنه أصر على استخدامها للبرهنة على صحة عقيدته الباطلة، وفي أثناء ذلك يعرض شروش لدعوى أفضلية المسيح على آدم عليهما السلام بقوله: «لقد كان آدم مخلوقًا من تراب الأرض، ونحن تراب أيضًا، ولكن

---

(1) مناظرة العصر، ص 31.

(2) والمقصود كتابهم المقدس، في إطلاق لفظ الإنجيل عليه نوع من التجاوز.

(3) ينظر المصدر السابق: ص 38-42.

يسوع المسيح قد ولد بواسطة روح الله»[1]، ولعل لنا في هذا المقام أن نسأل شروش عن العنصر الذي تنتمي إليه تلك الصديقة الفاضلة التي وضعت المسيح عليهما السلام ؟؟.

وبهذه المغالطات البينة، والمقارنة الفاسدة، يتجاوز شروش إلى الاستدلال على ألوهية المسيح عليه السلام بما تحقق بإذن الله على يديه من معجزات[2]، وبما تنبأ به من مغيبات[3]، إلى جانب ما أثر عنه من عفو وتجاوز عن المسيء وقد صاغ استدلاله بهذا النوع في قوله: «ولقد كانت ليسوع المقدرة على العفو والمغفرة، ومن ذا الذي يعفو ويغفر سوى الله وحده؟ لقد غفر يسوع لكل من آذاه وأساء إليه ولكنه لم يطلب العفو والمغفرة لنفسه»[4]؟

وفي سياق هذه الخزعبلات يمرر شروش غير متورع افتراءه على القرآن بنسبته إليه الاعتراف بعقيدة صلب المسيح وقيامته التي نفاها القرآن وردها ردًا لا هوادة فيه، وقد جاء هذا الدس الماكر المذموم في قوله: «إنني أرى وأسجل أن هذا ابن الله وأن آدم الأول قد خاض المعركة وخسرها، ولكن آدم الثاني (المسيح) خاض المعركة وربحها، إن القيامة بعد الصلب تؤكد هذا الانتصار كما أقر به اليهود واعترف به القرآن لأنه بدون إراقة الدم، دم المسيح، لتخليص البشرية من الخطايا»[5].

وعلى هذا النمط يطلق الرجل العنان لنفسه متهرباً تارة، ومفندًا تارة أخرى، الأمر الذي يفقده أدب الخطاب أحياناً فيصدر منه ما يقرب من اتهام الحضور بالخمول والبلادة، ومن أمثلة ذلك تعبيره قائلاً: «دعوني أنشط ذاكرتكم وأشف قلوبكم المتطلعة إلى المعرفة...»[6].

وعلى الرغم من محاولة إثباته ألوهية المسيح بكل ما أوتي من قوة فكرية ومقدرة حوارية، فإنه يعود أخيراً لهدم كل ما أرهق نفسه بكلفة بنائه، ضاحكاً على نفسه، في اعترافه الضمني بسخافة الفكر الصليبي، وسفاهة الإيمان به، وقد جرى على لسانه

---

(1) المصدر نفسه ص46.
(2) ينظر: المصدر السابق ص53.
(3) ينظر: المصدر نفسه ص56-57.
(4) المصدر نفسه ص57.
(5) المصدر نفسه، ص59.
(6) المصدر نفسه، ص56.

القول بما يستنتج منه ذلك، فيما نصه: «دعوني أؤكد لكم أن الله في الحقيقة هو يسوع، إن الله الإنسان فكرة مضحكة طوال التاريخ، ولكن هذا هو الإله الإنسان الأول والوحيد بحق هو يسوع المسيح»[1].

وبهذا الفكر الساذج ينهي حديثه - كعادتهم - بدغدغة العواطف وتنويم المشاعر والأحاسيس بخيالات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، حشاها في قوله: أودّ أن أقول لكم ما أعلنه يسوع إذ قال: «لقد أتيت لتعيشوا حياتكم، ولتعيشوها على نحو أفضل»، وهكذا.. نصبح جميعاً محل عناية الله ورعايته، إن يسوع قد جاء بحثاً عنك وعني، وهو يريد أن يهبك وأن يهبني الحياة الأبدية ولكن النعمة الإلهية بحق إنما هي الحياة الأبدية ليسوع المسيح إلهنا، وينكشف لنا هذا السرّ عندما نتسمّع إلى يوحنا المعمدان مبشراً بميلاد يسوع المسيح عندما يقول: «ترقبوا مجيء حمل الله الذي يمحو آثام الدنيا»[2].

وأما ديدات فما كاد يستوي قائماً لأخذ دوره في الحديث حتى وقد بادر مرافق الدكتور شروش في دهاء وتضليل إلى معانقته متودداً إليه، بإعلان حبه له وتقديره إيّاه، مما أثار عاصفة من التصفيق، والهتافات. وبعدها استهل ديدات حديثه بتلاوة قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18] ثم أردفه بالتذكير بموضوع المناظرة، وذلك لضبط مجرى الحوار، وحصره في نطاقه المقرر له كي لا يتسرب إلى ما لا علاقة له به، فيسلك الكلام مذاهب أخرى.

ويظهر أن حديثه قد تركز في مجمله على نقض ادعاءات عقيدة التثليث، وأن عقيدة وحدة الأقانيم المتفرقة بقدر ما هي فكرة متناقضة وغير معقولة، فهي كذلك باطلة ومفتعلة، حيث إن المسيح عليه السلام لم يدّعِ البتة أنه إله كما يزعمون، وقد أثبت ديدات بطلان هذه العقيدة باللجوء إلى عملية إحصائية لموارد استخدامات كل من كنيتي «ابن الإنسان» و«ابن الله» في الكتاب المقدّس مراداً بها وصف المسيح، فخرج ديدات بحقيقة علمية مفادها أن اللفظ الأول في موارده يفوق الأخير بسبعين مرة أي 83 مقابل 13[3]، كما أنه قدم محاكمات عقلية

(1) المصدر نفسه، ص58.

(2) المصدر نفسه، ص58-59.

(3) ينظر: مناظرة العصر، ص67.

عن صلب المسيح متسائلاً بأنه إذا كان مسيحهم المصلوب هو الله فمن الذي حكم العالم، وقام بتصريف شؤونه خلال الأيام الثلاثة التي صلب فيها، وسبقت عملية قيامه من عالم الصلب، وفي ذلك يقول ديدات: «وإنني لأسألهم: هل تعتقدون أن الله يموت؟! ألا تقولون إن الله خالد لا يموت، ثمّ تقولون إنه يموت!؟ وإذ يموت فماذا يحدث لمخلوقاته؟! وإذا كان قد مات ودفن في أحد المدافن لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال كما يزعم أصحاب الوثائق المقدّسة فمن الذي كان يعنى بالعالم طوال تلك الأيام الثلاثة وتلك الليالي، من الذي كان يسيطر على العالم في ذلك الوقت بالذات»[1]؟، وتلو هذا الاستفهام التعجبي الإنكاري، يستدل لهم ديدات على بشرية المسيح عليه السلام بممارسة عادة الأكل كحاجة أساسية من حاجات الكائن الحي، بالإضافة إلى ما ورد في الكتاب المقدّس من دليل تضرع المسيح إلى الله، واستنقاذه إياه حين أحدقَ به خطر الصلب الذي يرونه تكفيراً اختيارياً مع إقرارهم بتهرب المسيح منه، وابتهاله إلى الله طالباً النجدة والخلاص.

والملاحظ أن الشيخ ديدات ملازمٌ في حديثه بأسلوب المقارنة الذي هو مولعٌ به كثيراً، وبالأخص في مسرح حواراته، ففي هذه المناظرة كغيرها نجده يفند ويصحح القضايا التي يعرض لها طبقاً للتصور الإسلامي، وهو في ذلك يبرز مقدرة نادرة المثيل، في تسخيف عقيدة الطرف المناوئ له، وعرضها على الجمهور بشكل يمجه العقل السليم وينفر منه الإنسان السوي.

وقد ترتب من الناحية المنهجية على تذكير وضبط ديدات لموضوع المناظرة في مطلع حديثه، التركيز عليه باستفراغ الجهد في معالجته، وتفنيد القول بموجبه، فلذا لا يُعنى غالباً في هذا اللقاء كغيره بتعقب شروس، وملاحقته، بالرد المتسلسل على ما ورد في حواره من قضايا، وطروحات. ولعل هذا المسلك هو ما شجّع مناظره في حديثه للمرة الثانية على تزوير الحقيقة وتعمد الكذب بأن نسبة 75٪ من القرآن الكريم هي مقتبسة من الإنجيل، وذلك فيما نقل عنه: «دعوني أتحداكم وأقول لكم إن خمسة وسبعين بالمائة 75٪ من القرآن المكتوب باللغة العربية المدهشة، وهي لغتي القومية الأصلية، إنما هو من الإنجيل»[2].

---

(1) المصدر نفسه، 69.

(2) المصدر السابق، ص82.

وبعد هذه الأكذوبة التي لا يحفل بتبعتها العلمية أو الأخلاقية، يجنح متستّراً إلى الالتحاف بلفائف كلمات رنانة تقوم على الزعم بتحقيق معاني الحبّ، والمغفرة والحياة، والخلاص باعتناق العقيدة الصليبية، والتي أساسها الاعتقاد بصلب المسيح تكفيراً عن خطايا البشر باعتباره أحد أركان ألوهية الأقانيم الثلاثة. ويختم شروش أخيراً بأسلوب عاطفي معسول لا رابط مباشر ولا صلة قريبة بينه وبين موضوع المناظرة، وقد بان للحضور ما لحق به من عجز بيّن، وما ناله من هوان لا يحسد عليهما.

وأمّا ديدات فقد كان مسنداً بروح من الله ثمّ بتصفيق صارخ، وهتاف مهيب، يعلوه تكبير الله سبحانه وتعالى، ولكنه مع هذا التشجيع الحار ظلّ يشير إلى مؤيديه بالهدوء، شاكراً لهم دعمهم الروحي المعنوي، وقد استطاع أن يكشف للحضور فشل مناظره وأن القضية التي جاء هو للدفاع عنها هي الصحيحة، وليس نقيضها.

وقد أثار في اللحظات الأخيرة ضد مناوئه قضية أخلاقية محرجة، كان قد سطرها هذا الأخير باعتراف حر منه، في كتاب له اطلع عليه ديدات ضمن ترتيبات تحضيره للمناظرة، وهي قضية تعكس قمة الانحطاط في حضيض الفسق والفحش في حياة من يعرفون برجال الدين المسيحي وكبار قساوسته ولاهوتييه، وفي مقدمتهم الساقطون من أمثال القس شروش بطل هذه القضية الأخلاقية المخجلة ومدير وقائعها[1].

وحيث إن شروش قد تجرع كأس الهزيمة المرة، وآلمه ما أفشاه عليه ديدات، أخذ في تلطيف الموقف متودداً إلى الجمهور بالتظاهر لهم بالحب، والإحساس بالسعادة في دوام اللقاء بهم، وقد ضمن اعتذاره بالتعبير عن أمنيته الغالية في عقد مناظرة أخرى مع ديدات، على أن يتولى هو شروش تحديد موضوعها، مقابل تحديد ديدات لهذه المناظرة[2]، التي تبين فشله فيها. وبهذا يوحي شروش - كاذباً - للحضور بأنّ الشخص الذي حدد موضوع المناظرة وهو ديدات - بافترائه - استجمع لها العدة والعتاد، بعد أن اختار لها موضوعاً كان واثقاً من استعداداته في حسمه لصالحه، وكان شبه ضامنٍ لفوزه وانتصاره في مناقشته.

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص92، وقد ورد الاستشهاد بهذه القضية في ص271من هذا البحث وذلك في معرض الحديث عن التصور العام للعمل الإسلامي عند ديدات.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص97.

وفي آخر كلام للقس شروش في هذا اللقاء - باعتباره المتحدث الأخير - وهو يرد على سؤال موجّه إليه عمّا إذا كان المسيح هو ابن الله فكيف واتته الوفاة؟ اعترف شروش بالحقيقة قائلاً في نهاية الإجابة: «. . . لقد قدم لنا نفسه وابنه الوحيد والروح القدس واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد، سرّ ليس عليكم أن تفهموه بل عليكم أن تتقبلوه»[1].

وهذا إيذان منه بالهزيمة، وإقرار بالاستسلام أمام الدفوعات المنطقية القوية التي أدلى بها ديدات، مسلماً بأن القضية محل البحث لا تدخل في حدود المسلمات العقلية، بل تنتمي إلى عالم المعتقدات اللامعقولة، المضادة للعقل السليم والتفكير المنطقي الصحيح.

إن هذه المناظرة الجارية بين ديدات وأنيس شروش تعتبر في رأي معربها الأستاذ علي الجوهري أهم وأخطر حتى من مناظرته الذائعة الشهرة مع القس الأمريكي سواجارت[2]. وقد ذهب الأستاذ الجوهري بدفع من هذه الأهمية القصوى التي يضفيها على هذه المناظرة، إلى اعتبارها مناظرة القرن العشرين[3]. وقد أفصح قبل ذلك عن تقييمه لها حين اتخذ «مناظرة العصر» عنواناً للكتاب الذي فرّغ فيه تعريبه لهذه المناظرة.

وبالنسبة لي فإن أهمية هذه المناظرة تكمن في دحضها رأي من يقول بأن ديدات لا يقوى على مناظرة مسيحيي المشرق العربي وغيرهم، ممن يتمتعون بإجادة اللغة العربية، ولهم اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية، ويقال بأنه لو عرض نفسه لمناظرة هذا الفريق فلن يكون الأمر في صالحه كما كان مع غيرهم.

ولعل من الأنسب بعد هذه الجولة الاستعراضية في رياض مؤلفاته وحواراته الزاهرة التصدي بالإجابة على ما يمكن أن يثار من سؤال عن جوانب الإبداع والاتباع في منهج ديدات، وذلك في ضوء موازنته في الفصل اللاحق بعدد من قدامى المحاورين المسلمين ومن معاصريهم، للوقوف على مواطن التقليد والتجديد في منهجه الحواري وموضوعاته.

---

(1) مناظرة العصر، ص105.

(2) ينظر المصدر نفسه، ص5.

(3) ينظر المصدر السابق، ص30.

القسم الثاني

أهمّ مجالاته التطبيقية الممكنة

الفصل السادس

لمحات عن منهجيّة الحوار وسماته بين ديدات وعدد من أعلام الحوار الإسلامي المسيحيّ

المبحث الأول: النّهج الحواري عند بعض القدامى.

المبحث الثاني: مناهج شخصيات معاصرة في مجال الحوار والمقارنة.

خلاصة عن:

المبحث الثالث: السمات العامة والملامح الرئيسة لمسلكه في العمل الإسلامي حواراً ودعوة.

المبحث الأول

النهج الحواري عند نماذج من أسلاف ديدات في مجال الحوار والمناظرة:

ابن حزم الأندلسي

ابن القيّم الدمشقيّ

رحمة الله الهندي

من أبجديات تاريخ علم مقارنة الأديان أن للمسلمين أقداماً راسخة في نشأة هذا العلم وتطوره، فهم الذين وضعوا لبناته الأولى، وأصّلوا لموضوعاته، وأرسوا قواعده، وظلوا لقرون طويلة رواده وروافده، ولم يكن ثمّة منازع يدانيهم فيما تحقّق لهم من سبق وإنتاج غزير في مجاله؛ مما يقف شاهداً عليه، ناطقاً بعظمته ما خلّفوه للأجيال اللاحقة من تراث هائل تزخر به المكتبة الإسلامية وتفخر، وقد تمثّل دافعهم إلى اقتحام مجاهل هذا العلم في القرآن الكريم، الذي غرس بذور هذا العلم وضبط أسسه ومنطلقاته، محدّداً لعددٍ من موضوعاته، وقضاياه، مشيراً إلى بعض الأطراف الدينية المعنيّة بالدراسة والحوار معها، من جماعات كتابية، ووضعيّة، وعلى أثره جاءت التطبيقات النبويّة لتتعهد هذا الغرس، وتسهر على نمائه وازدهاره من خلال الحوارات التي تمت بين الرسول ﷺ وبين شخصيات وجماعات من أهل الكتاب.

وقد رأى المسلمون على مرّ العصور في هذين المصدرين تأصيلاً وتطبيقاً مشجّعين على السير قدماً في مسالك دراسة هذا العلم، واستثمار معطياته في لقاءات الحوار والمناظرة مع من كانت الخلطة بهم أكثر من غيرهم.

ومن ثمّ برزت أعلام لامعة في خضم هذا الاهتمام الطويل العريض في قاعدته، وطرفيه، استطاعت تلك الأعلام بهديٍ من القرآن والسيرة أن تفرض نفسها كمراجع أساسيّة لا يُستَغْنَى عنها في مجالات الحوار والمناظرة؛ وذلك لتميّزها العلمي، وكفاءتها الحوارية. وممن كان له شأن خاص من هؤلاء الأعلام - وما أكثرهم - من يرد ذكرهم من الشخصيات الآتية ممن وقع عليها انتقاؤها لاعتبارات خاصّة، يمكن تبيّنها أو الوقوف على بعضها من خلال عرضنا الموجز لمناهجهم وسماتها على النحو الآتي:

أولاً: منهج الإمام الظّاهريّ ابن حزم الأندلسيّ: مولده ووفاته 384-456هـ.

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الشّهير بابن حزم الظاهري الأندلسي، جمع في شخصه بين علوم متعددة، وأفاض مترجموه في الشهادة له بعلو قدمه في معظمها، وكأنه قد بلغ المنتهى في تلك العلوم، وبالأخص في مجال علم الجدل

ومقارنة الأديان، الذي شهد له فيه بالصدارة من قال: (إن شخصية العالم المسلم الأندلسي ابن حزم هي بلا شك تمثل أعظم شخصيات علماء المسلمين في مجال نقد وجدل الكتب المقدسة لليهود والنصارى، وأنشطها وأغزرها إنتاجاً في هذا المجال)[1]. حيث يظهر أنّه تعمّق في دراسة تلك الكتب، وعقد حوارات حامية مع بعض أصحابها، غلب عليه فيها طابع الهجوم على كل من تصدّى لمناقشتهم سواء أكانوا مسلمين أو أهل كتاب، وهم من قيل في نقده لهم: (ونقد ابن حزم أيضاً العقائد غير الإسلاميّة كاليهوديّة والنصرانيّة، وحاول أن يجد تناقضاً وتعارضاً في كتبهم ليبررّ اتهامهم بتحريف النصوص)[2]. وكان لأسلوبه الحاد، ونقده اللاّذع، دور محوري فيما ساد بينه وبين علماء عصره من علاقات الجفاء والمنابذة، إذ لا يكاد يسلم أحد من لسانه، أو يعظم عنده عن النقد والنيل منه. وقد صوّر لنا ابن كثير هذا الجانب من شخصيّته فقال: (وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه، وما زالوا به حتى أبغضوه إلى ملوكهم، فطردوه عن بلاده... والعجب كل العجب منه أنّه كان ظاهرياً حائراً في الفروع لا يقول بشيء من القياس لا الجليّ ولا غيره،... وكان مع هذا أشدّ الناس تأويلاً في باب الأصول وآيات الله وأحاديث الصفات، لأنه كان أولاً قد تضلّع في علم المنطق... ففسد بذلك حاله في باب الصفات)[3]. وقد سار على الألسنة قولهم فيه: (كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج بن يوسف شقيقين، وذلك لكثرة وقوعه في العلماء من متقدميه ومعاصريه)[4]. وعلى الرغم من مرارة تلك الحياة القلقة الناتجة عن سوء علاقته بأهل العلم في زمانه، فإنّ اهتماماً متعاظماً منذ عقود منصرمة قد صرف لدراسة شخصيّته في

---

(1) مهدي عياد الصّابري: قواعد المنهج عند ابن حزم الأندلسي، ص398، رسالة دكتوراه مخطوطة، نوقشت عام1995م بقسم الفلسفة الإسلاميّة في كليّة دار العلوم من جامعة القاهرة.

(2) دائرة المعارف الإسلاميّة [ابن حزم، مج1، ج ع ص258= ط: المكتبة الحديثة، بيروت- لبنان، د.ت، د.ر.

(3) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، مج6/ ج12/ ص92، ط1398 هـ=1978م. دار الفكر بيروت-لبنان.

(4) ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، مج3/ 328، تحقيق الدكتور: حسّان عبّاس، ط دار الثقافة، بيروت، لبنان، د، ت.

مختلف جوانبها العلميّة، وخصص له القدر الأوفر من الفضل العلمي التاريخي في تأسيس علم مقارنة الأديان. وقد تجلت مظاهر هذا الاعتبار المعاد إلى ابن حزم منبوذ بيئته في شهادة أحد الباحثين بقوله: (لقد لقي ابن حزم اهتماماً كبيراً في هذا العصر، فدارت حوله دراسات متعددة تناولت نواحي التفكير الذي اتجه إليها، فقد ثبت أنه بين المؤرخين يحتل مكانة مرموقة، وبين الأدباء أديب يشار إليه بالبنان، وهو بين الفقهاء فقيه صاحب رأي واجتهاد، وبين علماء الكلام عالم وصل إلى منزلة لا يتسنّمها إلا القلائل، وها هي ذا الأطروحات العلمية حول تفكير ابن حزم وآرائه تناقش فينال أصحابها الدرجات العلميّة من (ماجستير ودكتوراه)[1].

ويعتبر كتابه: (الفصل في الملل والأهواء والنحل) أهم وأشهر تراثه الحواري، حيث تناول فيه الأديان والعقائد والفرق، وناقش فيه مختلف المذاهب والاتجاهات الإسلامية وغيرها، إلى جانب تعرضه لمعالجة قضايا متعددة تتصل بالفكر الفلسفي، وعلم الكلام. وبتوسعه في رحاب موضوعه كماً ونوعاً أصبح الكتاب بمثابة سجل حفظ لنافيه صاحبه معظم المقالات، والجدليات الدينية والفكرية التي كانت شائعة في عصره، والتي تصدى لمناقشتها والردّ على أصحابها. ولما لهذا الكتاب من أهمية تاريخية متجدّدة عكف عليه الدارسون، واحتفى به لفيف من المستشرقين والمسلمين، ممن وصفه أحدهم قائلاً: (فلما ظهر كتاب ابن حزم الفصل كان منعطفاً جديداً أبرز مقارنة الأديان كعلم له أصوله وقواعده وموضوعاته المحددة، وليس مجرد دفاع عن العقائد الخاصّة)[2]. ويذهب الباحثون إلى بيان الأثر المنهجي والمعرفي الذي خلّفه كتاب الفصل على قمم الفكر الإسلامي من أمثال أبي حامد الغزالي، فابن تيمية، ثم من لحق بهم من النقاد والدارسين الغربيين لموضوعات وقضايا علم مقارنة الأديان، وربما يكون هذا التأثير الملحوظ هو الذي دفع بالدكتور مهدي الصابري إلى اعتبار كتاب الفصل خير مؤلف في موضوع مقارنة الأديان معللاً ذلك بدقة،

---

(1) ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1/ 23، تح، محمد ابراهيم نصر، وآخر، ط. دار الجيل، بيروت - لبنان. دت. در.

(2) عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي واضع علم مقارنة الأديان ع/ 28/ ص: 59، مجلة الفيصل، عام 1399هـ = 1979م.

وضبط ابن حزم، في بيان وعرض عقائد الآخرين عرضاً مشفوعاً بشمولية النقد واتساعه إلى جانب التزامه بخطوط المنهج الذي رسمه لنفسه، القائم على التقرير والنقد)[1]. ومن حيث الذرائع العلمية التي أدت بابن حزم إلى تأليف هذا الكتاب فيمكن الإلمام بها من خلال مقدمته، التي بين فيها تلك الدوافع بما لا يخرج عن إطار أغراض علمية مطلقة، وغايات حوارية محدّدة[2]. وفي ضوء تلك الدوافع الهادفة تتشابك العديد من القضايا التي تناولها المؤلف، وأفرغ جهده في عرضها، ونقدها، انتصاراً لما يراه أحق وأصوب من غيره.

وقد أورثت منهجية ابن حزم العلمية كتابه الفصل جملة من الخصائص التي سبق غيره إلى التمتع بها في مجال دراسته، متمثلة في الحيوية والبعد عن الجفاف والجمود، وإضفاء سيل من الحجج والأدلة الدفاعية، بالإضافة إلى سمة إظهار الحق، وكشف التحريف، فضلاً عن خاصية تنمية ملكة المناظرة، وتعليم فن المحاورة بروح علمية تستمدّ أسبابها من سبق وريادة الفِصَل في دراسة اليهود والنصارى[3].

وفيما يخص منهجه الحواري وفق تصوير الفصل لهذا المنهج فقد استخلصه الإمام محمد أبو زهرة ولخّصه في قوله: (وفي مناقشته اليهود والنّصارى فقد اعتمد على بدهيّات العقول، وسلك سبيل الإلزام لإفحامهم وإلزامهم بنصوص محترمة عندهم تثبت بطلان بعض عقائدهم بالأدلة العقلية، وإنه لا يكتفي بالدفاع عن الإسلام، بل ينتقل إلى الهجوم فيحلّل بنصوص التوراة تحليل الخبير العليم بموارد هذه النصوص ومصادرها ويشرح أخبارهم وأحوالهم في استقصاء دقيق)[4].

إن هذه المنهجية الجامعة بين العقل والنقل تتقاطع مع تلك التي اتبعها ديدات،

---

(1) ينظر: مهدي عياد الصّابري: قواعد المنهج عند ابن حزم الأندلسي، ص398. رسالة دكتوراه مخطوطة، نوقشت عام1995م. بقسم الفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم من جامعة القاهرة.

(2) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1/ ص19-20. مصدر سابق.

(3) ينظر: قواعد المنهج عند ابن حزم ص475-476.

(4) محمد أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره- آراؤه وفقهه، ص186، ط. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د.ت.د.ر.

وإن كانتا متمايزتين في غلبة الاعتماد على العقل عند ابن حزم على نقيض ما سار عليه الآخر في محوريّة النصوص، والتعلّق بالمنقول. ولعل مردّ ذلك فيما أعتقد يعود إلى تباين منطلقيهما؛ حيث إنّ أحدهما في حواره يتصدّر بالمبادرة بينما يغلب على الآخر الدّفاع، فضلاً على المؤثرات الفلسفية والمناهج العقليّة التي أطرت المناخ الثقافي الذي عاش في ظلاله ابن حزم وتأثر به أكثر، مما لم يتعرض لمثله ديدات.

وبناء عليه «يمكن القول بأن منهج ابن حزم بعامّة يؤكد عقلية منطقية، تحسن تقديم المقدمات وإنتاج النتائج، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد فهو في كل كتاباته يظهرنا على عنايته البالغة بتبويب موضوعاته وتحديدها، وتعيين خطته في الدراسة والنص على الهدف الذي قصد إليه، وهو واضح تمام الوضوح، عالم تمام العلم بأصول الجدل. هذا ولاشك أكسبه دقة منطقية، وصرامة عقلية، لا نجدها إلا عند الغزالي رحمه الله ت 505هـ، والإمام ابن تيمية ت 728هـ من بعده»[1].

وبقدر ما يصدق هذا القول على منهجه الحواري فإنه ينطبق إلى حدّ عام على مختلف التراث الحزميّ. وبما أن الذي يعنينا هنا هو الجانب الحواري أكثر من غيره، فإن التعرف على الطريقة التي تحدد بها تطبيقه لهذا المنهج العام في هذا المجال الخاص يصبح أمراً ضرورياً، ومطلباً أساسياً، ولكنه ميسر بفضل ما أتحفنا به الباحث: الطّاهر بن عريفة من إشباع لهذا المطلب العلميّ في قوله: (أما أسلوبه في نقض هذه الأقوال بعد إيرادها فيقوم على مناقشة هذه المقالات بفحصها وتمحيصها بناء على المدركات الحسيّة، والبديهيات العقلية التي لا تخون أصلاً، أو بناء على أقوال أخرى للخصم لم ترد في ذلك الموضع، أو بناء على مقارنتها بما ورد في أقوال غيره ممن يثق به ويعتقد فيه، أو بناء على نص معترف به عند الخصم، ويحظى عنده بالصدق والاعتقاد، أو بناء على دلالات اللغة وما تجيزه من استعمالات)[2].

---

(1) قواعد المنهج عند ابن حزم، ص495، مرجع سابق.

(2) الطاهر عريفة: ابن حزم الظّاهري وكتابه الفصل، ص87/ ط1/ 1997م. دار الحكمة، طرابلس-ليبيا.

ومن الواضح من خلال هذه الكلمات أن قدراً كبيراً من القواسم المنهجيّة تجمع بين الإمام ابن حزم، والشيخ ديدات، ويشتركان فيها اشتراكاً تتجلّى ملامحه في النواحي الآتية:

أ - **الإيمان بضرورة الحوار وفاعليته**: يعتقد العالمان جازمين بأهمية الحوار، وفاعليّة جدواه، وقد تبين مما تقدم مدى تعويل ديدات على الحوار ودعوته إلى اعتماده كسلاح دعوي صارم، وأمّا الإمام ابن حزم ففي معرض تعليقه على الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إلا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ [التوبة: 120].

فقد كتب ما نصّه: (ولا غيظ أغيظ على الكفّار من هتك أقوالهم بالحجّة الصّادعة، وقد تهزم العساكر الكبار، والحجّة الصحيحة لا تُغلب أبداً، فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمّة، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم، إنما أسلموا بقيام البراهين على صحّة نبوة محمد ﷺ عندهم، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة، بلا خلاف من أحدٍ من المسلمين)[1].

وهذا يكفي دليلاً لإثبات توجهه الحواري ومنحاه الجدلي.

ب - **قرآنية المنهجين**: ينطلق كلاهما من مبدأ المجادلة بالحق والمطالبة بالبرهان[2]، ائتماراً بمقتضى الخطاب القرآني، كما يكثر في حواراتها وما تستلزمهُ من مناقشات مواردُ الاحتكام إلى القرآن الكريم، والانطلاق من حقائقه ومطارحاته.

وتنكشف لنا نزعة ابن حزم القرآنية في بناء منهجه الحواري بقول أحد دارسيه: (اتبع ابن حزم في نقده للعقائد والأديان التي درسها في كتاب الفصل منهجاً جدليّاً متميّزاً قائماً على الحقائق البرهانية والأدلّة العقلية، مستنبطاً أصول هذا المنهج

---

(1) ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، مج1/ ج1/ 28، تحقيق لجنة من العلماء، ط1/ 1404هـ/ 1984م، دار الحديث- القاهرة.

(2) ينظر: المصدر نفسه ص27، وينظر: قواعد المنهج عند ابن حزم، ص274-275.

وشروطه من القرآن الكريم، وتعاليم الدين الحنيف)[1].

ج - **موضوعات الحوار**: إنّ مجمل حواراتهما ومناقشاتهما للفكر الصليبي يتركز حول إبطال عقيدة التثليث، ودحض قضية صلب المسيح التي تمثل بالنسبة لهم الخلاص[2]، بالإضافة إلى دراسة أناجيل وأسفار الكتاب المقدّس، دراسة مقارنة ترمي إلى كشف متناقضاتها، وبيان مغالطاتها، للوصول إلى إثبات تحريفها، وأنها ليست وحياً من الله، طالما تضاربت معطياتها، واحتشدت بما لا يصمد أمام التمحيص والنّقد.

د - **كثرة الحوارات وتوسّع دائرتها**: اتّسم حوار كلّ منهما بسعة دائرته، وشموليّة أطرافه، إذ لم ينحصر في نطاق جماعة معينة، بل وإنما شمل كلاً من النّصارى واليهود إلى جانب المرتدين والعلمانيين عند ديدات مقابل محاورة ابن حزم للطوائف الإسلاميّة والتيّارات الفلسفيّة[3].

ولا شك أن هذا التوسّع كفل لصاحبينا فرص المران والتأهيل، فكسبا بتعدّد حواراتهما مقدرة حوارية فائقة، كان لها دورها في ما أحاط بكتابات أوّلهما من اعتبار علمي، وقيمة تأهيلية، وما تحقق للآخر من انتصارات ميدانية مشهورة.

هـ - **تركيزهما على الأدلة والبراهين**: لقد تقرر أثناء الحديث عن منهج ديدات الحواري بأنّه منهج نصّي استدلاليّ برهاني، أمّا الإمام ابن حزم فقد اتخذ هو الآخر من البرهان - تقديمًا ومطالبة به - دعامة للحوار ومرتكزًا له، موقنًا مثل ديدات بأنّه لا حوار بلا أدلّة وبراهين). وقد خرج الدكتور مهدي الصّابري من استقصاء ابن حزم في نقضه للفكر اليهودي ومصادره، بملاحظة صاغها في قوله: (وفي كلّ ما قدّمه في هذا الباب لم نر رأياً دون دليل، ولا فكرة دون برهان، بل إنّه

---

(1) ابن حزم الظّاهري وكتابه الفصل، ص97، مرجع سابق.

(2) ينظر: مجلة الفيصل، ص46/ ع135/ س12، مصدر سابق.

(3) ينظر: قواعد المنهج عند ابن حزم، ص387.

كان دائماً يقرن الدليل بالسّند كما يشفع الفكرة بالحجّة)[1].

وهذه الظاهرة تضفي طابعاً علمياً عزيزاً على منهج الفارسين الكبيرين.

و - **القدرة العقليّة الخارقة**: من الأمور التي يشتركان فيها تمتّع كل منهما بقدرة عقليّة مدهشة، وفيما نذكر عن ديدات أنّه كثيراً ما توقّف لصرف اهتمام المعجبين بمواهبه العقلية الرفيعة إلى التركيز على الجدّ، وبذل قصارى الجهد في تنمية الملكات العقلية وذلك بالدربة على حفظ النصوص بكلفة ومشقّة، وحمل النفس على تحمل عناء التخزين الذهني للمعلومات الحوارية الضروريّة، وحتى الكماليّة إن أمكن، مع التسلح بالقدرة على تحليل النصوص ومناقشتها ونقدها بكل وعي وموضوعيّة؛ وذلك لضمان الخوض في حوارات ناجحة ظافرة. ومن جانب الإمام الأندلسي فقد (كانت قيمته العلميّة تتمثل في قدرته العجيبة التي مكنته من فهم هذه النصوص-رغم كثرتها-فهماً دقيقاً كما تتمثل أيضاً بصورة أوضح في يقظة ذهنه، وفي بديهته الحاضرة، التي كانت تساعده على استحضار النصوص والمعلومات التي يحتاجها في وقتها)[2].

إنّها لسمة جليلة ترقى بالمحاور، وتكسبه التفوق والهيبة أمام الآخرين وفي نفوسهم.

ز - **الشّبه في أسلوب المناقشة**: بالرجوع إلى مناقشات ابن حزم وابن ديدات لعقيدتي التثليث والصلب يقف الشّبه بين أسلوبيهما جلياً واضحاً، حيث يحاول كلاهما مواجهة مناقشه في هذا الصّدد، بمحاكمات عقليّة، وتحليلات منطقيّة، تكشف للآخرين اضطراب المسيحيين في هاتين العقيدتين الأساسيتين، الأمر الذي يستنتج منه تهافت فكرهم، وأن مقتضى عقيدتهم موضوع ومفتعل، وليس وحياً من الله. وللتمكين لهذا النقض يورد كل من جانبه سيلاً من الردود والحجج العقلية، لدحض الفكر الصليبي، وإفحام معتقديه، وقد يستعينان أحياناً بمرجعيّات معتمدة لديهم، لإيقاع ضربة قاصمة لظهر خليطهم العقدي المتنافر.

---

(1) ينظر: الفصل، ج1/ ص177-329.

(2) قواعد المنهج عند ابن حزم، ص545، مرجع سابق.

ح - **تحدّي القيادات الصّليبية بمنطق الحوار** : لئن كان ديدات قد حاز شرفاً تاريخياً باستدعائه بابا الفاتيكان للمناظرة من خلال رسالة تحدّاه فيها، فإن ابن حزم قبله بقرون كان قد وجّه رسالة تحدٍ ونقد إلى أحد أعيان الصليبية في عصره، وقد تضمنت الرسالة قصيدة جدلية بلغت سبعة وثلاثين ومائة بيت. أنشأها المُرْسِل للطعن في الْمرسَلْ إليه بنقض ديانته وتجريح مصادرها، معقباً بطرح البديل الإسلامي الأسلم والأقوم. ومن أبياتها كما وردت عند السّبكي قوله:

أتقرن يا مخذول دين مثلث .:. بعيد عن المعقول بادي المآثم

تدين لمخلوق يدين عباده .:. فيالك سحقاً ليس يخفى لكاتم

أناجيلكم مصنوعة بتكاذب .:. كلام الألى فيما أتوا بالعظائم

وعود صليب لا تزالون سجّداً .:. له يا عقول الهاملات السّوائم

تدينون تضلالاً بصلب إلهكم .:. بأيدي يهود أرذلين ألائم

إلى ملة الإسلام توحيد ربنا .:. فما دين ذي دين لنا بمقاوم

* * *

وكم آية أبدى النبي محمّد .:. وكم علم أبداه للشرك حاطم

تساوى جميع النّاس في نصر حقّه .:. فللكل من إعظامه حال خادم[1]

ومن منطلق ما قرّره في هذا البيت الأخير من مساواة جميع النّاس في نصرة هذا الحقّ الإسلامي، وخدمته؛ بتبليغه للناس كافّة، والنضال عنه في وجه الطاعنين والمعادين، ظهرت في المشرق الإسلامي شخصيّة إسلاميّة معاصرة لابن حزم الأندلسي، حقّقت درجة علميّة مرموقة، وكان لها تأثير في تكوين علماء فحول، ودور محفوظ في الحوار العلمي الصّامت، وفي النقد التحريري للفكرين اليهودي والصّليبي خاصّة. ألا وهو أبو المعالي الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، الملقب بإمام الحرمين رحمه الله

---

(1) تاج الدين عبد الوهّاب السبكي: طبقات الشّافعيّة الكبرى، ج2/ 188-189/ ط2، دار المعرفة، بيروت لبنان، د.ت.

- 419هـ، ت 478هـ - كان شيخ الشّافعيّة، وأسرع متكلم أشعري في عصره وأطراه تاج الدين السبكي بقوله: (العلمُ الفرد، زينة المحققين إمام الأئمة على الإطلاق عجماً وعرباً. . . بطل علم إذا رآه النظار فحموا وقالوا وما منا إلا له مقام معلوم، وفارس بحث يضيق على خصمائه الفضاء الواسع حتى لا يفوته الهارب منهم. . . تفِدُ المشكلات فيصدها، وترد السؤالات إليه فلا يردها أبداً)[1]. وقد صنف الإمام الجويني كتيّباً أطلق عليه اسما يعبر عن محتواه بوضوح ويصور لنا موضوعه بدقّة، وهو: (شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل)[2]، سلك فيه الجويني منهجاً مقارناً بين مختلف نسخ كتابهم المقدّس، حيث يعرض بعض ما اختلف فيها من تواريخ الميلاد بين التوراة التي بيد اليهود وتلك التي بيد النّصارى[3]، منتقلاً إلى المقارنة بين الأناجيل المعتمدة، بدءاً من تاريخ كتابتها إلى بيان الاختلاف القائم بين إنجيل متى ولوقا في تحديد نسب يوسف النجّار، وذلك على النحو الّذي تعرض له ديدات لاحقاً في مناظرته مع جيمي سواجارت بإثارته لقضيّة اختلاف سلسلة الأنساب فيما بين إنجيلي متى ولوقا[4]، كما أن من منهج الجويني في كتابه الموازنة بين النصوص الواردة في الأناجيل في حكايتها لحادثة واحدة، أو واقعة معينة، قاصداً من ذلك إظهار ما بينها من اختلاف وتباين مما يؤدي إلى سحب الثقة عنها جميعاً، أو بعضها على نحو لابس يتعذّر تحديده من أمثلة هذا النوع من الموازنة ما ورد في كتابه: (إن الأناجيل اختلفت في كيفية دخول المسيح عليه السلام لأورشليم في المرّة الأخيرة، قيل: إنه دخلها على حمارة، وقيل بل دخلها على جحش، وقيل: بل ركبهما معاً، فلماذا قال كتّاب الأناجيل إن المسيح دخل أورشليم على حمارة أو جحش)[5].

والملاحظ: أنّ الجويني يعتمد في نقضه لكتب اليهود والنّصارى على المقارنات

---

(1) طبقات الشافعيّة الكبرى، مج3/ 249-250، مرجع سابق.

(2) نشرته مكتبة الكليّات الأزهرية بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا.

(3) ينظر: شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ص38-44.

(4) ينظر: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، ص154، مصدر سابق.

(5) ينظر: شفاء الغليل...ص25، مصدر سابق.

البينية فقط، دون إعارة أدنى اهتمام للنقض الضمني المسلط على دراسة إنجيل مابعينه، بالمقارنة بين شتى أجزائه، ومختلف نصوصه، ومما يميزه أيضًا شدّة الإيجاز، وغلبة الميل إلى الاختصار، حيث لا يتوسّع في العرض والنقض، ولا يتبسّط في معالجة موضوعه، بل يلتمس لنفسه دافعاً قويّاً، ومتكأ سُنّيًا يستند عليه في الإعراض عن الإغراق ليس في دراسة ونقض كتبهم المقدّسة فحسب، بل وحتى مطلق إكثار النظر فيها، وهو ما أفصح عنه في آخر ما سطّره في هذا الكتاب بقوله: «وإنما أعرضت عن الإكثار من ذلك حين ذكرت منهما، ما تقوم به الحجّة على الخصوم: لأن سيّد المرسلين صلوات الله عليه حين رأى عمر ينظر في التوراة: غضب منه، وقال: «لو كان موسى حيّا، لما وسعه إلا اتّباعي»، فلهذا السبب لم أكثر النظر فيهما»[1]. ولعل هذا السبب كفيل بالإسهام في كشف سرّ إحجام كثير من العلماء عن الإقدام على دراسة هذا المجال الحواريّ والتصنيف فيه، كما أنّه-فيما أعتقد-مسؤول إلى حدّ ملحوظ عن تقليل البعض من تناوله، وعدم توسعهم فيه، من أمثال إمام الحرمين (أبو المعالي الجويني) وغيره من علماء الملل والنحل كالشّهرستاني الذي أبصر النور بعد الإمام، ولم يفصل بين ميلاد اللاحق، ووفاة السّابق سوى عام واحد.

وهو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني -479هـ، 548هـ- من أشهر من أرّخ للأديان من علماء المسلمين، شهد له الزّركلي في ترجمته أنّه (كان إماماً في علم الكلام، وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة)[2]، وكان لعلمه وفضله يلقب بالأفضل. ومن أهم ما خلّفه كتاب (الملل والنحل) الّذي استأثر دون سائر مؤلفاته باقتران ذكره باسمه في الغالب، وهو كتاب متميز بقيمته العلمية الكبيرة مما أشاد بها الدكتور محمد خليفة في قوله: (فهو صاحب الكتاب المعروف باسم كتاب الملل والنّحل الذي يعتبر بحق أهم عمل في تاريخ الأديان عند المسلمين بسبب التزام مؤلّفه بمنهج علمي وموضوعي في دراسة الأديان والفرق، وبأسلوب علمي تحليلي في

---

(1) المصدر السابق، ص63.

(2) خير الدين الزركلي: الأعلام، ج2/ 215، ط12/ 1997م. دار العلم للملايين، بيروت-لبنان.

عرض مادتها، وأفكارها وعقائدها، كما أنه يتصف بوجود وعي علمي لدى المؤلف بضرورة تطوير منهج علمي لدراسة الأديان والفرق بعيداً عن الأهداف الدفاعيّة والمؤثرات الخارجيّة)[1].

وفيما يخص حديثه عن عقائد اليهود والنّصارى فإنّه مختصر جداً، لقلته عن عشر صفحات، عرض فيها عن اليهود رأيهم في عدم جواز النسخ، واعتقادهم بالتشبيه، وموقفهم الإعتقادي من القدر والجبر، ومذهبهم في تجويز الرجعة واستحالتها مختتماً بإيراد أربع فرق يهودية[2]. وأمّا النصارى فقد بين اختلافهم في أمرين هامين هما اختلافهم في كيفية نزول المسيح عليه السلام وتجسّده من جانب، وفي كيفية صُعُودِهِ وتوحد الكلمة بالحلول من جانب آخر[3]، بالإضافة إلى عرضه لثلاث فرق نصرانية. ولعلّه تقيد بهذا العدد مطابقة لعقيدة التثليث عندهم.

وقد اختط الشهرستاني لنفسه في هذا العمل العلمي منهجاً وصفياً، ذا طابع موضوعي بادر إلى ضبطه وتحديده في قوله: (وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم، من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم، دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعين حقه من باطله، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية من مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل)[4]. وعلى الرغم من هذه الموضوعية التي تمنح القارئ حرية الاحتكام إلى الدلائل العقلية للتمييز بين الصحيح والفاسد من الملل والنحل، فإني ألاحظ أنّ سرده لمقالات دراسته جاء مضمناً بوجهة نظره في بعض القضايا الفكرية والدينية، وقد عكست عروضه في ثناياها قناعاته

---

(1) محمد خليفة حسن خليفة: (منهج الشهرستاني في دراسة الأديان والفرق) ص102، من مجلّة الفيصل مج 35ع35/ س9/ 1406هـ=1986م.

(2) ينظر: أبو الفتح الشهرستاني: موسوعة الملل والنحل، ص95-98، ط1/ 1981م. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت – لبنان.

(3) المصدر نفسه ص101-103.

(4) المصدر نفسه ص3.

العقدية وملاحظاته النقدية[1]، إلى حدّ لا يخفى على القارئ المستكشف. ومن أبرز الأدلّة على ذلك تعليلاته بـ لعلّ ذلك) واستخدامه لألفاظ من قبيل (الإدعاء) وإكثاره من التعبير بالزّعم[2]، وما يتصرف منه.

وبالجملة، يظلّ التمايز بين الشهرستاني وديدات متمثلاً في كون الأول مؤرخاً عارضاً، بينما تقوم مهمة الأخير على الحوار والنقض، وذلك على الرغم من تماثل تناولهما لعقيدة التثليث، والصّلب في معتقد النصارى، مع انفراد أقدمهما ببيان تفرقهم، وتحليل أساسيات عقيدتهم.

ولعل من أبرز من يلتقي معه ديدات منهجيّاً من أسلاف الحوار الديني عند المسلمين صاحب كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، وهو:

ثانياً: منهج الإمام ابن قيّم الجوزيّة. ميلاده ووفاته- 691هـ-751هـ.

هو أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر الدّمشقي، شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة، من كبار علماء المذهب الحنبلي، قال ابن حجر العسقلاني: (كان جريء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حبّ ابن تيميّة حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك فهو الذي هذّب كتبه ونشر علمه)[3].

وابن قيم الجوزية ممن اشتهر بالصلاح والإصلاح في حياته، وبعد وفاته رحمه الله، فقد كان عالماً قدوة بعمله الوافر، وعلمه الغزير، حيث (تفنن في علوم الإسلام وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله والعربيّة وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالم بعلم السلوك وكلام

---

(1) ينظر: أمثلة على ذلك في المصدر نفسه ص123-230-236.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص103-249-251.

(3) محمد بن علي العسقلاني: الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، ج3/ 401، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د. ت. د. ر.

أهل التصوف وإشاراتهم ومتونهم، وبعض رجاله)[1].

بهذه الثقافة الموسوعيّة في ألوانها المتعددة، تحققت للإمام ابن قيّم صدارة لا تنكر في العلوم والدراسات الإسلامية: من لغوية، وشرعية. وعقدية، وإن من نتاج علمه الواسع إسهامه في الرد على اليهود والنصارى بالمناظرة، وبكتابه (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) وهو كتاب يقدّم فيه باقتدار الجواب على شبهات أهل الكتاب بطريقة تنتقل بعد الردّ المفحم إلى تقرير نبوته ﷺ بدلائل متعددة، يستقي بعضها من كتبهم، معززة باعترافات تاريخية لبعض من أسلم منهم.

والجدير ذكره أنّه قد اندفع إلى تأليف الكتاب منفعلاً بإجابة قاصرة، ردّ بها بعض المسلمين على مسائل تعجيزيّة واردة من عناصر مسيحية، تدور تلك المسائل حول سبعة أمور هي:

1 - تحميل المسلمين القول بامتناع أهل الكتاب عن اعتناق الإسلام بعلّة حب الرياسة والحرص على المأكلة.

2 - إذا كانت العلة المتقدمة مفهومة في حقّ القادة والوجهاء فما الذي حال دون إسلام عامة أهل الكتاب سواء بالاختيار أو بالقهر.

3 - دعوى استحالة تواطؤ أهل الكتاب على محو اسمه ﷺ من كتبهم المنزّلة، إذ يستشكله العقل، فيما يرى السّائل المتحدي.

4 - هلاّ أتى من أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ونحوهما، بنسخ من الكتب المقدّسة تدعم شهادتهم بورود البشارة بنبيّ الإسلام في تلك المنزّلات؟.

5 - فكيف يستسيغ المسلمون نسبة الأغلبية الساحقة إلى الكفر ممن ظلّ على دينه من أهل الكتاب، مقابل الاعتراف بإيمان ورشد الأقليّة المسلمة منهم، مع أنّ العكس أولى وأعدل؟.

---

(1) عبد الحيّ بن العماد الحنبلي: شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، مج3/ ج6/ ص168. ط دار الفكر، بيروت - لبنان، د.ت.د.ر.

6 - مما يطعن في موثوقيّة مسلمي أهل الكتاب ازدواجية النقل عنهم، حيث لا يعتمد عليهم ولا يروي عنهم المسلمون في غير ما يتصل بالكتب المقدّسة من حلال وحرام، ونهي وأمر، وغيرها من شئون ومسائل الشريعة الإسلامية إلاّ النزر اليسير.

7 - دعوى أن أكثر الفواحش في الأوساط المسلمة تظهر فيمن هم أعلم وأفقه، وعلى فرض صحة هذا الحال فإنه يكذب لسان المقال.

هذا. . . فبإثارة من الأسئلة السالفة انطلق ابن قيم الجوزية في ردوده على أهل الكتاب، كما هو الحال عند ديدات أيضاً الذي ثار بفعل دوافع خارجية، تمثلت في أسئلة استفزازية كانت تنتابه يوماً بعد يوم. وكانت الموضوعات التي تطرق إليها الإمام ابن القيم في معرض إجابته الشافية الوافية على المسائل السبعة هي الحديث عن المجامع الكنسيّة، والبشارة بنبي الإسلام في الكتب المقدّسة بنعوت لا تنطبق على غيره، وبيان تاريخ الأناجيل، وأنواع ما تعرضت له من تحريفات، بالإضافة إلى نقده لليهود آخذاً عليهم كتمانهم للحقّ وهو معروف عندهم.

ويرى الإمام في حديثه عن المجامع أنها كانت سوقاً نافقة للتكافر والتلاعن فيما بينهم، وقد سجل هذه القناعة في ختام حديثه المستفيض عن المجامع قائلاً: (وقد اشتملت هذه المجامع العشرة المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبتاركة والرهبان كلهم يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فدينهم إنما قام على اللعنة بشهادة بعضهم على بعض وكلّ منهم لاعن وملعون)[1].

ولعل الإمام لا يعدم هنا من يلاحظ عليه ما وقع فيه من تعميم علمي منقود، قد يؤدي إلى وصفه بالمبالغة، وإطلاق أحكام جارفة. فتعليلاً لما ذهب إليه من ذكره ﷺ في التوراة والإنجيل بالصفة دون صريح اسمه العربي يقول الإمام: (وهذا أبلغ من ذكره بمجرد اسمه، فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز، ولا يشاء

---

(1) ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص273، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقّا، ط 3/ 1407هـ المكتبة القيّمة، مصر الجديدة.

أحد يسمى بهذا الاسم أن يدعي أنّه هو إلاّ فعل، إذ الحوالة (الشهادة) إنما وقعت على مجرد الاسم، وهذا لا يحصل به بيان ولا تعريف ولا هدي، بخلاف ذكره بنعته وصفته وعلامته ودعوته، وصفته وأمته ووقت مخرجه ونحو ذلك، فإن هذا يعينه، ويميزه ويحصر نوعه في شخصه) [1]. وفي موضع آخر من كتابه يفيد القارئ علماً بعدة طرق نقلية عرفت بها البشارة بنبوته في الكتب المتقدمة[2]، وهي طرق تعد مكملة لطريقة الكشف والتحليل، واستنطاق مضامين النصوص التي هي الطريقة العقلية.

وفيما يخص نقده لأناجيلهم المعتمدة التي حرص على تحديد تواريخ تأليفها، مقرونة بأسماء مؤلفيها، يعقّب بالقول: (وكل واحد من هذه الأربعة يسمونه الإنجيل، وبينها من التفاوت والزيادة والنقصان ما يعلمه الواقف عليها، وبين توراة السّامرة واليهود والنصارى من ذلك ما يعلمه من وقف عليها، فدعوى الكاذب الباهت (أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقاً وغرباً بعداً وقرباً) من أعظم الفرية والكذب، وقد ذكر علماء الإسلام ما بينها من التفاوت والزيادة والنقصان والتناقض لمن أراد ذلك)[3].

وإن من الممكن بالإضافة لموضوعات الدراسة رصد الشبه الحواري القائم بين الإمام ابن قيّم والشيخ ديدات في عدة مستويات، من أهمها:

أ - **أسلوب المناقشة**: من سماتهما في أسلوب المناقشة الإكثار من الاستشهاد بالنصوص، مع تحري الدقة في تمحيصها قبل الأخذ بها. ومن مظاهر هذه الظاهرة الاستحضار المكثف لنصوص القرآن والسنّة عند ابن القيّم، مع تتبع السيرة النبوية وعرض خصائصه ﷺ لإبداء وجه المطابقة مع مدلولات الكتاب المقدّس بشأن تحديد المُبشّر به. وإن طول النّفس، وقوة المناقشة، مما يتمتع بها الشيخان في نقضهما للكتاب المحرّف. ويمتاز الإمام ابن القيم بتتبع مسائل الخصم وأدلته الواحد تلو الآخر إما للتضعيف والنقض، أو لبيان المعاني الكامنة من ورائها التي

---

(1) المصدر نفسه، ص76.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص160.

(3) المصدر السابق، ص85.

تعكس وتدعم مصداقيّة القضية التي ينتصر لها، كما أن من خصائصه الحوارية التعقيب ببيان العقيدة الصحيحة، بعد الكشف عن الحقيقة وانقشاع ظلمات الضلال؛ وذلك تمكيناً للحق من أن يأخذ مكانه فسيحاً. ولعل تقريره لنبوته ﷺ والإشادة برسالته، في ثنايا الإجابة على المسائل التي خصص الكتاب للرد عليها يغني دليلاً على ذلك.

ب - **الانتصار لمبدأ الحوار والتمكين لثقافته**: إن من الثوابت التي استقر عليها عرف الشيخين في عملهما الإسلاميّ، والذود عن حياض الدين، التمسك بمبدأ الحوار وسيلة ومنهجاً. وقبل ديدات فيما عرف عنه في هذا الشأن نجد الإمام ابن القيم حين تهيأ للرد في هذا الكتاب؛ أخذ يرغب في اعتماد أسلوب المجادلة مع الاستعانة بالله، في معاملة الكفّار بدلاً من المجالدة العضليّة التي يعيب على أنصارها ويعتبرهم عجزة وجهلة. وقد ورد رأيه هذا في قوله عن نفسه: (فشمّر المجيب عن ساعد العزم، ونهض على ساق الجدّ، وقام لله قيام مستعين به، مفوض إليه، مُتكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهّال، إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف)[1].

على أنّ مبدئية الحوار عند ابن القيم كذلك ليست قضيّة نظرية وإنما هي مبنيّة على:

ج - **التجربة العملية الناضجة**: إن لكل من الشيخين رصيداً ضخماً من الخبرة العملية الحية في ممارسة الحوار، وعقد حلقات النقاش والمناظرة مع كبار خبراء الفكر الصليبي. وقد عمد ابن قيم الجوزية إلى تسليط الضوء على هذا الجانب المجهول من شخصيته، مصوراً لنا طول نفسه في المناظرة، وقدرته الحوارية المتفوقة؛ وذلك فيما ورد عنه عرضاً في قوله: (لقد ناظرت بعض علماء النصارى معظم يوم فلما تبين له الحق بهت، فقلت له وأنا وهو خاليين: ما يمنعك الآن من اتّباع الحقّ؛ فقال لي: إذا قدمت على هؤلاء الحمير... فرشوا لنا الشقاف تحت حوافر دابتي وحكموني في أموالهم ونسائهم ولم يعصوني فيما آمرهم به، وأنا لا

(1) المصدر السابق، ص34.

أعرف صنعة ولا أحفظ قرآناً ولا نحواً ولا فقهاً، فلو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس، فمن الذي يطيب نفساً بهذا؟)[1]، وإذا كانت التجربة الحوارية قاسما مشتركاً بين ابن قيم الجوزية والشيخ ديدات، فإنهما يلتقيان أيضًا في:

د - **منهج إقامة الحجة على الخصم بمصادره الأصيلة ومراجعه المعتمدة**: من الموضوعية العلمية في منهج الشيخين أنّهما يعولان في المقام الأول على إلزام الخصم بأدلة مصادره، ويبنيان محاجتهما على متضمنات المرجعيات المعتمدة لدى الطرف الآخر، وذلك أفحم دليلاً وأقوم سبيلاً، إذ تنْسدُّ في وجه المعاند كل المنافذ التي يمكن التسلل منها في حالة مواجهته بأدلّة لا يراها ملزمة له.

وقد أفاد الإمام ابن القيّم بموجب نهجه على هذا المنوال العلميّ القيّم في مختلف قضايا الحوار وموضوعاته، وبالأخص في إثبات الإخبار بنبوته ﷺ في كتب أهل الكتاب. وفي ذلك يقول: (فالدليل بالوجه الأول يقام عليهم من كتبهم، وبهذا الوجه يقام بشهادة من لا يتهم عليهم؛ لأنه إما من عظمائهم، وإما ممن رغب عن رياسته وماله ووجاهته فيهم وآثر الإيمان على الكفر، والهدى على الضلال)[2]. وإن في منهج الشيخ ديدات من الأخذ بأولوية مصادر الخصم، ومراجعه في إقامة الحجة عليه ما لا حاجة إلى البرهنة عليه؛ لكثرة موارده، ووضوح توجهه المنهجي في التركيز عليه.

هـ - **وفرة المقارنات الضمنية العارضة**: من الخصائص التي اتسم بها منهج ديدات - وذلك فيما سبق - ولعُهُ بالمقارنة الدائبة سواء في محاوراته، أم في كتاباته، وقد ظهر قبله عند الإمام ابن القيّم، وبالأخص في كتابه المقارن (هداية الحيارى) ميل غالب إلى استخدام أسلوب المقارنة بين مختلف الأمور، والعناصر التي ترد ضمن إجاباته على المسائل المطروحة، وفي ثنايا ردوده العلمية القويّة على اليهود والنصارى. والملاحظ أن تلك المقارنات غالباً ما تعقد في سياقات استفهامية، وبصيغ إنكار توبيخي. ومن الأمثلة عليها قوله: (أفلا يستحيي عبّاد الكباش والبقر من تعيير الموحدين بذنوبهم؟! أولا

---

(1) المصدر نفسه، ص179.

(2) المصدر السابق، ص159.

تستحيي ذريّة قتلة الأنبياء من تعيير المجاهدين لأعداء الله؟! فأين ذرية من سيوف آبائهم تقطر من دماء الأنبياء ممن تقطر سيوفهم من دماء الكفار والمشركين؟!...)[1].

وهذه الموازنات الراجحة لصالح الإسلام والمسلمين تقود الإمام ابن القيم إلى امتثال سمة حوارية أخرى مشتركة بينه وبين الشيخ ديدات، وهي:

و - **تسفيه الاعتقاد بكليّة العقيدة الصليبية**: بالرغم مما يمتاز به ابن القيم عن غيره من عمق ودقة مناقشاته، وقوة حججه، وعلميّة تصنيفه، فإن حرارة منطلقه الانفعالي في هذا الحوار الديني قد شابت ردوده ببعض الألفاظ الجارحة، وغذته بعبارات لا تخرج عن دائرة الاستخفاف والاستفزاز، بلغت أبعد مقاصدها في التشنيع بالفكر الصليبي، وتحميق كافة المنتمين إليه. ولعلّ تصوّر ذلك يسير فيما عقّب به نقده لاختلافهم في طبيعة المسيح، وذلك في قوله: (فلو أنّ قوماً لم يعرفوا لهم إلهاً ثمّ عرض عليهم دين النصرانيّة هكذا لتوقّفوا عنه وامتنعوا عن قبوله، فوازن بين هذا وبين ما جاء به خاتم الأنبياء والرسل ﷺ تعلم علماً يضارع المحسوسات أو يزيد عليها: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19][2].

وفي ختام الحديث عن أوجه التماثل فيما بينهما نذكّر أنّه قد:

ز - **تأسست حوارية كلّ منهما على كتاب هامّ**: إنّ ثمة كتاباً قيّماً يقف شامخاً وراء كل منهما مشكلاً حجر الزّاوية في ثقافتهما الحوارية، حيث إنّ الإمام ابن القيم من أبرز من برّزه ابن تيمية، وأطول من تتلمذ عليه حيناً، وأكثرهم صحبة له، وهو مدين بفضل علمه الغزير بعد الله تعالى لأستاذه الذي يعد ابن القيم أشهر من عكف على تهذيب كتبه ونشر علمه من تلامذته. ومما يظن أن يكون ابن القيم قد نهل، وهو يرد على اليهود والنصارى من كتاب شيخه المسمّى (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص198، وينظر: ص41.

(2) المصدر السابق، ص274.

(3) وهو كتاب رغم أهميته البالغة، وطول بحثي عنه فإنني لم أتمكن من الإطلاع عليه، وذلك لعدم توفره في المظان التي تركزت عليها متابعتي له.

وهو كتاب يقع في أجزاء ألفه ابن تيمية -على ما يقال- للرد على كتاب ورد عليه من قبرص، من منشورات نصارى عصره، يقع في ستة فصول تتضمن دعاوى ومزاعم داحضة هي: أنّ محمداً ﷺ لم يبعث إليهم بل إلى الجاهليّة من العرب، وأن القرآن أثنى على دينهم، كما شهدت بصحته نبوات الأنبياء المتقدمين، بالإضافة إلى دعوى ثبوت التثليث بالعقل والنقل، والزعم بأنّهم موحدون، وأن المسيح جاء بعد موسى بغاية الكمال، ومن ثمّ فلا حاجة إلى شرع جديد.

وفيما يخص مسلك ابن تيمية في ردوده التي تضمنها الكتاب فقد ورد في مجلّة المنار من باب تقريظ الكتاب ما نصّه: (... وقد أورد كلامهم في كل فصل وردّ عليه بالعقل والنقل من كتبهم، فدلّ على أنه كان مطّلعاً عليها تمام الاطلاع، وأيد بيان الحق في جميع المسائل بآيات الكتاب العزيز والأحاديث النبوية بما يعهد في كلامه من البسط والإيضاح، وفي هذا الكتاب من الفوائد النادرة في العلم والتاريخ وإيضاح المشكلات الغامضة في الدين وغيره ما لا يوجد في كتاب سواه)[1].

وإنّ كتاباً من هذا النوع، له من الشأن العلمي مالا يخفى على أولي الخبرة والاختصاص لا يستبعد بحال من الأحوال أن يفيد منه ابن القيّم في تنمية ثقافته الحواريّة، وينسج على منواله خيوط منهجه العلميّ الرفيع، وذلك باعتباره أقرب النّاس إليه، وأدراهم بمؤلفه، نتيجة صحبة طويلة دامت حوالي خمسة عشر عاماً، من شأنها أن تورثه عن شيخه كلاً من علمه ومنهجه معاً.

وأما ديدات فقد انطلق -فيما علمنا- من كتاب جليل، عظيم الفائدة، استحكمت صلته به منذ أن اكتشفه، فظل يصدر عنه، مستفيداً ومفيداً، وكان لا يسكت عن ذكر تأثره بالكتاب في كل مقام سانح، مبيناً أن كتاب إظهار الحق يعدّ - بجدارة - بالنسبة له الخلفية العلميّة التي استند عليها في مختلف حواراته مع النّصارى. وقد حظي هذا الكتاب بعناية العامّة والخاصّة باعتباره من أنفس ما وضع في

---

(1) تقريظ كتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، مجلّة المنار، مج9/ ج3/ ص223، عام1324هـ = 1907م، مصر.

بابه، وقوبل مؤلفه عند الأعيان بحفاوة بالغة، بصفته أحد كبار محاوري الإسلام في كل العصور، ذالكم هو المناظر الكبير:

ثالثاً: الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه ومنهجه:

هو الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، ينحدر من أسرة عريقة ذات نسب موصول بأمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ كانت حياته من عام 1818م-1891م، قضاها في بلاد الهند والحجاز. وقد ظهر في الهند، في ظروف كان الإسلام يواجه في بلاده مخاطر استعماريّة وتنصيريّة رهيبة؛ حيث كانت حملة تضليل المسلمين، وتشكيكهم في عقيدتهم على أشدّها، وكانت نيران الطعن في تعاليم الإسلام، والاختلاق عليه، وعلى رسوله الكريم مشبوبة متأججة، مما راح ضحيتها نفر من ضعاف الإيمان ارتدّوا بسببها؛ وذلك لسذاجتهم وجهلهم بالإسلام من جانب، ولضغط الإغراءات التنصيرية من جانب آخر[1].

وفي أثنائها كان الشيخ رحمه الله الهندي متصدراً للإفتاء والتدريس في مدرسته الشرعيّة التي أسّسها في مسجد كيرانه[2]. وقد تنبه إلى جانب علماء أجلاء لمخاطر تلك المؤامرات التنصيرية ضد مسلمي الهند، وامتلك وعياً ثاقباً بدقة الظروف التي كانت تمر بها حركة الدعوة الإسلاميّة في تلك البلاد، حدا بِهِ هذا الوعي الحساس إلى التفرغ لمواجهة المنصرين، بمختلف الوسائل العلمية والحوارية، فعمل من خلال طلابه ومن بينهم على تشكيل شخصيّات، وجماعات حواريّة، بثّها في مختلف القرى والمناطق، للقيام بمهمّة محددة، تتمثل في أداء واجب التصدي للتنصير والمنصّرين، على أن يستنجد كل مبعوث أو بعثة بالمركز الرئيس لمقاومة التنصير حين يستدعي الموقف إرسالاً فورياً لعلماء أكفاء من أجل التعزيز، وتقديم النّصرة. وقد اعتمد الشيخ في هذه المهمة منهجاً متكاملاً يجمع بين النظر والتطبيق، حيث يقوم من جانب على

---

(1) ينظر: محمد سليم بن محمد سعيد: أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهندي، ص18/ ط1/ 1397هـ = 1977م، مكتبة الكليّات الأزهرية القاهرة-مصر.

(2) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهنديّ، ص20، مصدر سابق.

مطالعة كتب النصارى، وشروحات علمائهم ضماناً لمعرفة حقّة لعقيدتهم، وعلى مقاومة التنصير من جانب آخر، بإظهار الحجة القوية، والدّفاع عن الإسلام بالفكر النيّر في مناظرات علنية حاشدة.

وقد عمد الشيخ رحمة الله الهنديّ لتيسير مهمة المحاورين، وإسعاف العامة بصحيح العلم بالإسلام والصليبية، إلى تأليف عدة كتب نقدية مقارنة - تستحقّ الدراسة والإفادة منها - ومن أهمها:

❖ إزالة الشكوك: وهو كتاب موسّع يحتوي على 1116 صفحة، يجيب فيه المؤلف على 39 سؤالاً موجّهاً من رجال النصارى إلى علماء المسلمين، كما يتضمن إثبات نبوة خاتم النبيين محمد ﷺ بالأدلة القاطعة، والحجج المفحمة)[1].

❖ التنبيهات في إثبات الاحتياج إلى البعث والحشر: كتبه ردّاً على الملحدين، ومنكري البعث والحشر عامة، أكّد فيه حقيقة البعث بعد الموت، وأن ثمّة حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الدنيويّة الفانية.

ولعل هذا يشجع على القول بأن حواره لم يكن قاصرًا على المنصرين فحسب، وإنما شمل معهم الملحدين، وكافة منكري ركن من أركان الإيمان الستّة.

❖ البروق اللامعة: أثبت فيه الشيخ بأدلة من الكتب المقدسة، أن ختم محمّد ﷺ للنبوة وارد في التوراة والإنجيل.

❖ وكتاب البحث الشريف، في إثبات النسخ والتحريف، درس فيه مسألة تحريف الأناجيل، وحققها بأدلة وبراهين.

❖ وله كتاب أحسن الأحاديث في إبطال التثليث، وكتاب الإعجاز المسيحي[2].

---

(1) ينظر: محمد عزت الطهطاوي: (الشيخ رحمة الله الهنديّ والمبشرون) ص78-79، من مجلة الوعي الإسلامي ع/ 231/ س19/ 1404هـ=1984م. وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميّة- الكويت.

(2) ينظر: صلاح أحمد الطنوبي: (الشيخ رحمة الله الهنديّ القائد الأول لعلماء المسلمين في الهند)ص102، من مجلة منبر الإسلام ع5س36/ 1397هـ، القاهرة - مصر.

❖ وإزالة الأوهام: وهو كتاب ألفه بالفارسيّة ردّاً على كتاب ميزان الحق للمنصّر فندر، وقد تعرض الشيخ أثناء تأليفه لمرض شديد لم يكن معه قادراً ولو على الجلوس للصلاة، فكان يؤديها راقداً. ويقال في قصّة تروى: أنّه في مرضه رأى النبي ﷺ وأبا بكر الصديق ﷺ في المنام، فبشّره هذا الأخير بالشفاء معلماً إيّاه بأنّ سبب مرضه عائد إلى مشقة الجهود المضنية التي بذلها في تأليف إزالة الأوهام، وأن المرض لا يلبث أن يزول في أيّام قليلة لاحقة، فمنّ الله عليه بالشفاء عقب ذلك، ووفقه لإنجاز الكتاب[1].

❖ وأما إظهار الحقّ فهو أشهر كتبه على الإطلاق، وهو الكتاب الذي يدين له ديدات بالفضل الكبير فيما حاز عليه من المقدرة الفائقة في محاورة الصليبيين، حيث قد تتلمذ عليه -كما أسلفنا- وأفاد من حججه ومنهجه، ومن ثمّ كوّن من حصيلة استيعابه له شخصيّته الحواريّة.

وهو كتاب قيّد فيه مؤلفه تفاصيل القضايا التي تحاور عليها في الهند عام 1854م. مع القسيس المنصّر فندر، وبسّط فيه المسائل التي طرحت في تلك المناظرة التاريخية التي استمرت يومين متتالين، وكان مقرراً لها التناظر حول خمس مسائل تتمثل في التحريف، والنسخ، والتثليث، وحقيّة القرآن، ونبوة محمّد ﷺ[2] ولكنها توقفت بمقاطعة الطرف الصليبي لها في اليوم الثاني، بسبب هزيمته أمام المحاور المسلم في مناقشة مسألتي النّسخ والتحريف. وكان ذلك أمام جمع غفير من الخاصّة والعامّة، استطاع الشيخ رحمة الله الهنديّ أن ينتزع من القسيس على رؤوس الأشهاد، اعترافًا صريحًا بتحريف الإنجيل في سبعة أو ثمانية مواضع، الأمر الذي أهاب أحد الأئمة من الحاضرين برجال الصحافة لنشره في صحفهم وإذاعته في الناس بمختلف الوسائل[3].

وقد امتنع القسيس المناظر عن حضور اللقاءات الباقية حتى لا يضطرّ إلى التخلّي

(1) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ، ص32، مصدر سابق.

(2) ينظر: رحمة الله الهندي: إظهار الحقّ، ص4، إصدار مكتبة الثقافة الدينية، مصر د.ت.د.ر.

(3) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ، ص35، مصدر سابق.

عن عقيدته بموجب ما تعاهد عليه الطرفان من شرط تغريم المهزوم بالتنازل عن ديانته، والالتزام بقبول ما يدين به الآخر[1].

والظّاهر أنّ هذه المناظرة قد أثارت دويّاً هائلاً في أرجاء البلاد، وكان لها أبعد الأثر في الحياة الدينية، حيث جاءت في ظرف طوّق فيه المنصّرون النّشاط الإسلامي في الهند، وكادوا يربحون المعركة بارتداد الناس عن دينهم، نتيجة سكوت العلماء، وغفلة عامة المسلمين. فما أشبه الليلة في أفريقيا التي تتكرر فيها نفس المأساة وتعيد فيها القصّة فصولها يومًا بعد يوم، ببارحة الهند التي كان للشيخ الهنديّ ومن ترسّم خطاه دور في الدفاع عن الإسلام وإنقاذ المسلمين فيها!!.

ولما لحق فندر من خزي وعار بسبب إخفاقه في المناظرة، وما ذاقه من مرارة تعنيف وتشنيع أصحابه عليه، لم يتحمّل البقاء في الهند، فارتحل عنها إلى ألمانية وسويسرا وبريطانية، واختير أخيراً من إرسالية لندن الكنسيّة للتنصير في مقر الخلافة الإسلاميّة بتركيا. وبوصوله إليها عام 1858م، اتّصل بالسلطان عبد العزيز خان، وزوّر له أخبار المناظرة، مُدّعياً لنفسه الغلبة فيها، وأخذ من جانب آخر يروّج في أوساط العامة فرية تحول مسلمي الهند إلى النصرانية، وأنّ المساجد قد كنّست في بلاد الهند. وما أن تناهت تلك الأكاذيب إلى سمع السلطان حتى اغتمّ اغتماماً شديداً، وحزن كثيراً لتلك الإشاعات الدعائية التي كان القسّ الألمانيّ يذيعها في صفوف المسلمين.

وما أن علم من بعض الحجاج بوجود الشيخ رحمة الله الهندي في مكة المكرّمة، فسرعان ما بادر إلى استقدامه في دار الخلافة للوقوف على حقيقة ما كان من أمره مع القس الكاذب، ولترتيب مناظرة أخرى بين الطرفين من جديد، وقد خلص فندر نجيّاً، وغادر البلاد هارباً فور سماعه بوصول الشيخ إلى مقر الخلافة من مكّة المكرّمة[2]، التي كان قد نزل بها - مجاوراً - إثر لجوئه إليها تخلّصاً من ملاحقة وترصّد الاستعمار

---

(1) ينظر: "الشيخ رحمة الله الهندي والمبشرون" ص: 76 - 77، مرجع سابق.

(2) ينظر: عبد الجليل شلبي: "مناظرات بين المسيحيّة والإسلام"، ص580، من مجلة الأزهر ج5/ س60 1408هـ=1988م. مصر.

الإنجليزي له؛ حيث كان الشيخ قد تصدّر ثورة شعبية ضد مستعمري بلاده سنة 1857م. فأخمد المستعمر الثورة بضراوة لا هوادة لها، ونصّب مشانق للعلماء، وكان الشيخ في مقدمة من اعتبرهم المستعمر خطراً على وجوده فتعقّبوه، وخصّصواْ مكافآت مغرية لمن يدلهم على مكانه. ولمّا يئسوا من القبض عليه صادرواْ أملاكه وباعوها في مزاد علني بأسعار زهيدة، وحظروا بيع كتبه وتداولها بين الناس وذلك عام 1864م. ولهذا السبب اضطر الشيخ إلى الهجرة من بلاده متخفّياً في زي فلاح للاستيطان في مكّة المكرّمة[1]. ولما قدم الشيخ البلاط السلطاني لتلبية دعوة السلطان، أكرم هذا الأخير مثواه، وخرج لاستقباله في موكب رسمي فخم، وجمع لمقابلته في حفل استقبال أقيم على شرفه معظم علماء الدين، وكبار رجال الدولة في دار الخلافة، وقد استمعواْ إلى محاضرة تحدث فيها الشيخ عن تفاصيل ما جرى في مناظرته مع القسيس فندر في بلاد الهند. وفي ختام الحفل أكرم السلطان وفادته، وخلع عليه وساماً سلطانيّاً رفيعاً، وخصّص له مرتباً شهريّاً، إلى جانب سماحه له بحضور المجلس الأعلى لشؤون الدولة مع شيخ الإسلام، ورئيس الوزراء[2]. وفي رحلة ثانية إلى القسطنطنية لقي الشيخ من مضيفه السلطان كلّ حفاوة وإكرام، وقد أعرب عن بعض ذلك حين قال: [. . . منحني السلطان، عشرة آلاف قرش وسبحة من عقيق البحر. . . وعظّمني بلقب: (فايا حرمين شريفين) أي ركن الحرمين الشريفين]، وقال: هذا تقدير لجهادك في سبيل الله وألبسني عباءة هذا اللقب، ومنحني مفتاح الكعبة المقدّسة، وقرّر لي راتباً شهريّاً مقداره خمسة آلاف قرش. . . وبلغ من حفاوة السلطان بي أثناء المقابلة أنّه قام من على كرسيّه، وصافحني واقفاً، وقال لي: كنت مشتاقاً إلى زيارتكم، ومعرفة أخباركم. . .][3]، وقد قوبل حين عاد إلى مكّة باستقبال عظيم، حضر إليه الناس من شتى أنحائها لتهنئته، والتعبير عن سعادتها بسلامة عودته إلى البلد الأمين، كما كرّم بحفل خاص أقامته

---

(1) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ، ص44 مصدر سابق.

(2) ينظر: الشيخ رحمة الله الهنديّ والمبشرون، ص77، مرجع سابق.

(3) أكبر مجاهد في التاريخ...، ص59، مصدر سابق.

أساتذة وطلاب المدرسة الصولتيّة بمكّة المكرّمة[1].

وهي مدرسة أنشأها الشيخ بدعم مادي واسع من سيدة هنديّة فاضلة تسمى (صولت النساء بيغم) وكانت قد قدمت إلى مكّة للحجّ عام 1290هـ، برفقة ابنتها وصهرها، ناوية بناء رباط في مكة للحجاج والمعتمرين الأجانب، وقد استطاع الشيخ إقناعها بوساطة من زوج ابنتها بما هو أولى وأهم من الرباط، وبعد تنسيق وتشاور بين الطرفين استحسنت السيدة التبرع بجزء من ثروتها الهائلة لتأسيس تلك المدرسة التي نسبت إليها باقتراح من الشيخ رحمة الله الهندي[2]، والذي كان يروم تحقيق عدّة أهداف من خلال المدرسة، ومن أهمها:

1 - تعليم أبناء المهاجرين الذين يفدون إلى مكّة من مختلف البقاع، بالإضافة إلى أهل الحرم، وتعهدهم بتوفير الرعاية الكاملة لهم من مأكل ومشرب ومسكن وملبس، وكتب وأدوات مدرسيّة.

2 - تدريب طلاب المدرسة على الحرف الصناعيّة، والمهن الفنيّة، ليتسنى لهم كسب عيشهم بعد التخرج من المدرسة بطرق ووسائل شريفة، دون أن يكونوا عالة على غيرهم.

3 - تخريج قرّاء ومجودين للقيام بمهمة تعليم مسلمي الهند التلاوة الجيدة لآيات القرآن الكريم[3]. وقد سلك الشيخ بمدرسته منهجاً وسطاً لا إفراط فيه ولا تفريط، اتّسم مدرّسوها وطلابها بالابتعاد عن الخلافات المذهبية، والزج بأنفسهم في صراعات فكرية تنم عن جهل أو ضيق أفق، فكانوا لا يكفّرون، ولا يفسّقون أي مسلم، وإنما يرجئون الحكم لله[4].

وفيما يخص كتاب إظهار الحقّ للشيخ رحمة الله، فقد ألّفه بالتماس من بعض علماء مكّة معزّزٍ بأمر خليفة المسلمين السلطان عبد العزيز خان بالقسطنطنية،

---

(1) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ...، ص60، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر نفسه ص53.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص55-56.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص56-57.

وبتشجيع السيّد خير الدين التونسي أحد أعيان الدولة العثمانية، وكان شروعه في تأليفه في تركيا يوم 16 رجب عام 1280هـ=1863م، وانتهى منه في العام الهجري نفسه[1]، وقد حوى فيه المسائل التي طرحت في مناظرته لفندر، مشفوعة بأدلّته في طروحاته، إلى جانب ردوده على شبهات الخصم ومطاعنه. وقد صدّر الكتاب بمقدّمة طويلة ومفيدة ضمّنها أزيد من عشرين ملاحظة منهجيّة، وسجّل فيها بعض الوقائع المعِينة على تصوير جو المناظرة، وتوثيق بعض الملابسات التي لا يُستغنَى عنها في تمام الاطلاع على الصّورة العامّة، وفي تشكيل العدّة الحواريّة اللازمة.

وقد ناقش بأدلّة علميّة مقنعة عدم وجود سند متصل لكتب العهدين القديم والجديد، مورداً عشرات الأمثلة على تناقضات ومغالطات كتابهم المقدّس، أدت به تلك المناقشة إلى نقض ادّعائهم بإلهاميّة كتبهم بسبعة عشر دليلاً.

وقد أفاض في تناوله لقضية التحريف التي وقف عندها طويلاً، ووسعها معالجة وافية بعلمه الغزير، ومنهجيته الرصينة، تلك المنهجيّة التي تصدّى بها لقضيّة إثبات النّسخ من منطلق الهجوم لا الدفاع، حيث أثبت من خلال كتابهم المقدّس عشرات الشواهد على وقوع التناسخ بين الشرائع المتعاقبة، وأيضاً بين أحكام الشريعة الواحدة.

ومن أروع ما في الكتب دحضه لعقيدة التثليث بأدلة عقليّة ونقلية، وبأقوال المسيح نفسه، يسوقها بمنتهى الموضوعية، وبروح علمية عاقلة. ولعل من اليسير أن يتبين القارئ من خلال ما أبطل به التثليث مدى تأثيره الواضح في ديدات الذي لم يأل جهداً في استعانته الواسعة بشيخه، سواء في هذه القضية[2]، أم في غيرها من القضايا التي حاور فيها الصليبيين، انطلاقاً من فكر الشيخ الهنديّ ومنهجه، واستقاء من معين كتابه الثرّ.

وفيما يتصل بالموضوعات الإسلامية من جانب مكمل لتلك التي سبقت من قضايا تتعلق بكتب وعقيدة أهل الكتاب، فإنّ الشيخ رحمة الله يورد أدلة كثيرة تثبت

(1) المصدر نفسه ص39.

(2) ينظر: إظهار الحقّ، ص339-394، مصدر سابق.

لذوي الأغراض العلمية النزيهة بما لا يدع مجالاً للشك أن القرآن الكريم كلام الله، ثمّ يستطرد في دفع شبهات القساوسة على القرآن، وطريقته في ذلك تقوم على عرض الشبهة بإجمال غير مخلّ، وتعقيبها برد مستفيض، عبر مناقشة مطولة تتسم بالتفصيل والإقناع. ومن شبهاتهم حول القرآن ينتقل الشيخ لإثبات صحّة الأحاديث النبويّة ملحقاً بعرض ودفع شبهات القساوسة على الأحاديث النبوية أيضًا كذلك.

ثمّ يتدرّج إلى إثبات نبوة محمّد ﷺ عبر ستة مسالك يطول وقوفه في شعابها وتفرعاتها، وتتركز على معجزاته، وشمائله ﷺ بجوار مزايا شريعته الغراء، ودوره التاريخي في هداية العالم، وإنقاذ البشرية، بالإضافة إلى ما جاء عن الأنبياء المتقدّمين من بشارات واردة بشأنه ﷺ مما نقل منه الشيخ عن الكتب المعتبرة عند البروتستانت ما يبلغ ثماني عشرة بشارة. ويخلص الشيخ من هذه إلى عقد الفصل الأخير من كتابه لتبرئة ساحة الأنبياء من مطاعن أهل الكتاب، مختتماً بالرد على تلك التي تثار ضد خاتم الأنبياء محمّد ﷺ وتتمثل في مطعن الجهاد، ودعوى عدم ظهور معجزة على يد رسول الله ﷺ وهي من شروط النبوة حسب زعمهم، وفي تعدد أزواجه صلوات الله عليه وآله وصحبه وسلّم. والملاحظ أنّ الشيخ قد بادر إلى إشعار القارئ بأنّ انتقاداتهم الطاعنة تطال الأنبياء السّابقين كذلك وليست خاصة بمحمد ﷺ دون غيره إذ لم يسلم من لسانهم السليط عدد ممن ظهر فيهم من الأنبياء. فلذا صدّر الشيخ عرضه لمطاعنهم الموجّهة إلى النبي الخاتم عليه السلام بقوله: (إن الذنوب المذكورة وأمثالها مصرّح بها في كتب العهدين ولم تقدح هذه الذنوب في نبوّة أنبيائهم أفلا يستحيون أن يعترضوا على محمد ﷺ في أمور خفيفة)[1].

وفضلاً عن الفوائد المعرفية، والمزايا المنهجية التي يتمتع بها الشيخ، والتي سكبها في مؤلفه، فإن من أهم ما يقف عليه الدّارس في قراءته لهذا الكتاب الذي تضمن علماً غزيراً في فنه ومجاله، هو أنّ المؤلف قد كشف فيه جانباً نفيساً من عميق معرفته بكل من الإسلام والصليبية، وتمثل على امتداد مراحل الكتاب عقلاً متوازناً في علمه

---

(1) إظهار الحق: ص655، مصدر سابق.

بالديانتين وبالفرق المندرجة تحتهما وهو ما يميزه عن ديدات الذي لم يتهيأ له الارتقاء بثقافته لتحقيق مثل هذا القدر من التوازن العلمي، ومن ثمّ فقد أعاقه -فيما أرى- تخلخله المعرفي عن الوصول إلى تلك المكانة السّنيّة التي تبوأها الشيخ رحمة الله الهندي في عالم الحوار، وعلم مقارنة الأديان. الأمر الذي يعني -عندي- أنّ الظاهرة الديداتية وإن كانت بمثابة امتداد لرسالة الشيخ رحمة الله الهندي، إلا أنها بكل إنصاف أقلّ منها نضجاً في المستويين العلمي والمنهجيّ؛ حيث إن الشيخ الهندي يصدر في كتابه من مصادر مكتبيّة متنوعة؛ إسلاميّة وصليبية، إلى جانب متابعته الدقيقة لواقع تطورات الفكر الصليبي، ومستجداته المصدرية. وتتراوح مصادره الإسلامية بين القرآن الكريم، وكتب السنّة والسيرة، بالإضافة إلى كتب التفسير والتاريخ كتفسير الزمخشري، والرّازي والبيضاوي[1]، وكتاب الخطط للمقريزي[2]. ومما لا يخفى على من قرأ كتاب إظهار الحق أنّ مؤلفه كان على دراية واسعة بمختلف الفِرق الصليبية، وإن كانت مناقشاته قد تركزت على الكاثوليكية، والبروتستانتية على نحو أخص، وفي مقابلها كان على إحاطة مكينة سابغة بالفرق الإسلامية كذلك، كالشيعة والخوارج على سبيل المثال، ولعلّ من أبرز الأدلة عليها: وقفاته المتكررة لعرض آراء الشيعة من خلال أمهات مصادرهم المعتمدة، وذلك في معرض دفعه لشبهات القساوسة على الأحاديث النبوية[3]. وتعدّ هذه إحدى الظواهر العلمية التي توفرت عنده مما لا نجد لها نظيراً في كتابات ديدات وحواراته، وفوق ذلك كله يتمتع الشيخ الهندي بعقلية منهجية منظمة ذات مهارة إبداعية في فن التصنيف، وطريقة التأليف. وقد عكست طرفاً من هذا الإبداع تلك الخطة الدراسية التي أسس عليها صرح كتابه العلم، وذلك في حسن تعريفه لقضاياه، ومنطقيّة التنسيق والمعالجة التي اعتمدها في هذا العمل العلمي الجليل، والذي ترجم لما اجتمع فيه من مزايا متعددة إلى كلّ من

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص391، 535، 538.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص359.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص480-481، 485.

التركية والإنجليزية والفرنسية والألمانيّة، وقد حدث ذلك بأمر سلطاني منذ العهود المبكرة من تاريخ ظهوره، ومن ثمّ انتشرت طبعات هذه الترجمات إلى كافة أرجاء المعمورة، ولكن المنصرين وعملاءهم ترصّدوها، وتصدّوا لها بالإتلاف والحرق[1]. والمعتقد - عندي - أن تلك النسخة القديمة التي اطلع عليها ديدات وانطلق منها، هي من بنات ما نشر من طبعاته مترجمًا إلى اللغة الإنجليزية.

وعلى الرغم من ضخامة الجهود السلطانية المبذولة في تكريم الكاتب، وخدمة الكتاب، والعمل على تيسير تداوله بمختلف اللغات الشرقيّة والغربيّة، يرى البعض أن فضل التعريف بالكتاب، وبدور المؤلف في إحياء وتنشيط كل من الحوار الناطق والصّامت منسوب في عمومه إلى علماء الهند وباكستان، الذين مثلوا دوراً هاماً في هذا الشأن من خلال كتبهم في التفسير والحديث، وفي التراجم والتاريخ، وغيرها من كتبهم في المناظرة، والردّ على النصارى[2].

ولا شك أن كتاب إظهار الحقّ قد تُلُقّيَ بالقبول منذ الوهلة الأولى من ظهوره؛ إذ سرعان ما: (أخذ الطلاب والعلماء الباحثون عن الحق يتلقّفون طبعات هذا الكتاب للدراسة والاستفادة منه، وأقبل الناس على شراء طبعاته وترجماته المختلفة إقبالاً منقطع النظير، وقد أثنى عليه عدد كبير من العلماء ونقلوا منه، وعدّوه من المراجع الهامّة في علم مقارنة الأديان، وأوصوا باقتنائه وإعادة طباعته)[3].

وأحسب أن ذلك قد نجم عن نظرتهم إليه كعطاء حواري فريد ومتميز من نتاج الفكر الإسلامي، أو العقل المسلم، في ظروف كانت تعاني فيها الأمة من ضمور في الفكر، وجفاف في منابع الإبداع، وقحط في روح التجديد العلميّ والمبادرة.

ولعل بعضاً من القيمة العلمية للكتاب، ومما له من أهمية حوارية، ينكشف لنا

---

(1) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ، ص6-7، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص9.

(3) شوقي أبو خليل: الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، ص73-74، ط2/ 1421هـ=200م. دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان+ دار الفكر دمشق-سورية.

فيما كتبته صحيفة لندن تايمز -بعد أن ترجم الكتاب إلى عدة لغات- قائلة: «لو داوم النّاس على قراءة ومطالعة هذا الكتاب لتوقّف انتشار التبشير كليا»[1].

وتجاوباً مع موجب هذا الرأي حث أحد المسلمين الأقطار المسلمة إلى دعوة أهل الكتاب وإدخالهم في الإسلام، عن طريق إيلاء اهتمام كافٍ بطبع كتاب الشيخ رحمة الله الهندي، ونشره مجّاناً، وتعبيراً عن هذا المقصد النبيل يقول القائل: «ولو أن كل قطر إسلامي اهتمّ بطبع كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهنديّ من يوم تأليفه إلى الآن ولنشره مجاناً، لدخلَ بقراءته أهل الكتاب في دين الإسلام عن طواعية واختيار»[2].

ومن جانبي فإني لست ممن يعتقد دقة رأي يدور في هذا الفلك، ومن ثمّ لا أعول على صحّته إلى حدّ بعيد، وذلك لأمرين اثنين هما:

1 - تفاقم الجهل الديني في عامة أهل الكتاب، وبالأخص في الشعوب الأكثر استهدافاً من غيرها، بحملات التنصير، ومحاولات التضليل في آسيا وأفريقيا.

2 - ما تهيأ للكتاب من مستوى علمي رفيع يعلو هضمه واستيعابه على قدرات العوام، مما يجعله مخصصاً ومتناسباً مع طائفة معينة من القراء، ممن اكتسب تقدماً معرفياً في مجال العقائد الدينية. وحقّقت مسبقاً شيئاً من الإلمام بعلم مقارنة الأديان، وبقضايا وموضوعات الحوار الإسلامي مع أهل الكتاب على نحو أخص، على أنه ومع ما تقدّم فليس محل إنكار عندي كون الكتاب بقوّته العلميّة الدّافعة، وتفوقه الحواري الحاسم، قد أثار -وربما إلى الآن- ردود فعل من ألوان شتى عند كل من المنصرين والمستشرقين على السواء، حيث عمد المنصرون - بإيحاء من هذا المنهج الحواري الذي تبناه المؤلف وقام عليه الكتاب - إلى حظر تداول المطبوعات الصليبية ذات النزعة الهجوميّة على الإسلام ورسوله ﷺ وقد أعيد إعلان هذا الحظر في معرض انتقادهم لشخصياتهم الحوارية لما لحق بها من

---

(1) نقلاً عن عبد الله نجيب سالم: [وقبل ديدات الباقلاني ورحمة الله] ص49، من مجلة النور، ع59/ 1408هـ = 1988م، الكويت.

(2) أكبر مجاهد في التاريخ...ص87، مصدر سابق.

فشل ذريع في مباراتها للكفاءات المسلمة، وقد جاء ذلك ضمن الحديث عن الأسلوب التنصيري المباشر في المؤتمر الذي أقيم في كلورادو علم 1978م بدافع الكيد لتنصير المسلمين، فقد ورد فيه عن أحدهم قوله في لباقة وتمويه:

. . . يعتبر هنري مارتن وكارل كوشليل فاندر رائدي أسلوب المناظرات والدّفاع عن العقائد النصرانيّة، ونهج كثيرون نهجهما . . . والكتاب الذي ألفه كارل فاندر بعنوان ميزان الحقّ أعيد طبعه عدة مرات، وفيما ترك هؤلاء الرواد بصماتهم على التنصير ووجدواْ آذاناً صاغية لمواعظهم ونصّرواْ البعض، إلا أنهم في الوقت نفسه نفّرواْ آخرين عن الكنيسة، إن مستوياتهم الأكاديمية الرفيعة وقدراتهم الرائعة لم تبق جسوراً فعالة لإنجيل المسيح، وبسبب ذلك أصدرت لجنة المطبوعات النصرانية للمسلمين قراراً في لاهور في الهند عام 1935م ينص جزء منه على ما يلي:

نظراً إلى أن المطبوعات المتداولة والتي تتضمن الهجوم على النبي المسلم محمّد غير مرغوب فيها فقد تم التصويت . . . لوقف مثل هذه المطبوعات، كما أقرت اللجنة كمبدأ أساسي للمستقبل بأن يوصى بمنع نشر أي كتاب أو نشرة دينية تقع في هذا التصنيف[1].

ولعل أصحاب الهوية المزدوجة ممّن زاوجوا بين البحث الاستشراقي، والنشاط التنصيري كأحد مجالاته التطبيقية، هم أول من تفطّن إلى خطورة كتاب إظهار الحق ضد ما يقومون به فارتأوا -من ثم- ضرورة الرد عليه بقبيل ما ورد ضمن تعقيب الدكتور أحمد حجازي السّقا على كتاب (شفاء الغليل) بقوله: (. . . بين يدي كتاب

---

(1) التنصير خطة لغزو العالم الإسلاميّ، ص585-586، مصدر سابق.

اسمه (الهداية) طبع بمعرفة المرسلين الأمريكان، بمصر سنة 1904م وهو ردّ من بعض المستشرقين على كتاب إظهار الحقّ. . .)[1].

هذا ومن الأمثلة الكثيرة على موقفهم المعادي لهذا الكتاب، يعرض علينا الدكتور شوقي أبو خليل في إشادته به والتنويه بشأنه العلميّ الرفيع، صوراً مما قُوبل به من قبلهم من مصادرات مخجلة، وتصرفات دنيئة؛ وذلك في قوله: «وكتاب إظهار الحق يعد من خيرة ما ألف للردّ على النصارى وكشف زيف مزاعم المنصرين ومطاعنهم، مع خلوّه من الشتائم واللغو، وتقريره للحقائق الدينية والتاريخية بأسهل الطرق وأقربها، واعتماده في ذلك على كتب العهدين المسلّمة عند فرق النصارى، ولذلك لا عجب أن يحدث ظهور هذا الكتاب بعدّة لغات أوروبيّة صدى عجيباً في الأوساط النصرانية والإسلامية.

أما النصارى فقد غاظهم صدور هذا الكتاب وترجمة الحكومة العثمانيّة له ونشره فأخذوا يشترون هذا الكتاب من الأسواق بجميع ترجماته وطبعاته، ويجمعونها ثمّ يتلفونها بالحرق قاصدين إعدام وجوده من الأسواق العالميّة، ومنع وصوله إلى أيدي القراء عامة والنصارى خاصّة»[2].

ومن حيث الأثر الكبير الذي خلفه الشيخ رحمة الله في بلاد الهند، فحسبه أنه قد بعث في حياة علمائها صحوة حواريّة، من خلال حواراته الناضجة والمراكز التي أسسها لمناظرة القساوسة[3]. وقد تبدت مظاهر هذه الصحوة في وجود تشكيلات حوارية في مختلف القرى للرد على هذيان المنصّرين، وفي ظهور جيل من العلماء من بعده أعدّهم لمناظرة القساوسة، بجانب تأليف كتب علمية لمواجهة الهجمة التنصيرية الطائشة على الإسلام[4]، وكل ما يمت إليه بصلة؛ أكان رسالة أم أمة.

---

(1) شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ص82، مصدر سابق.

(2) الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، ص73، مرجع سبق وروده.

(3) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ...، ص19.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص21.

ومن الظاهر للناظر المستقرئ لمسيرة حوارات المسلمين في شبه الجزيرة الهنديّة أن ثمة اتصالاً نسبياً قد تحقق لسلسلة السند الحواري الذي دشنه الشيخ رحمة الله الهنديّ، فتمثلت حلقاته في أتباعه ومقلديه من بعده، ولربما أمكن القول بأن السلسلة الحوارية قد أخذت امتدادها المتشعب في واحدة من أكبر الجمعيات الإسلامية التي أنشئت في القرن العشرين - وعلى الأقل في حدود تلك البلاد خاصّة - وهي تلك التي قال عنها توماس أرنولد: «. . . ولكن أنجومان (هداية الإسلام) تعد أعظم هذه الهيئات المنظمة . . . وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعًا وعشرين جمعية، في جهات مختلفة في الهند، وترسل هذه الأنجومان الدعاة للدعوة إلى عقائد الإسلام ولعقد مناظرات مع غير المسلمين كما تقوم بنشر الكتب الجدليّة»[1]. ولعل من السابق لأوانه بالنسبة لديدات القول بأن هذه الظواهر من الأمور التي لا يداني فيها الشيخ الهندي، سيما أنيباريه وينافسه فيها، فذاك أبعد وأقصى.

غير أن من عجيب المصادفات تقاطع الشيخين في قدر مفاجئ من الصفات الطبيعية والمميزات الحوارية التي يمكن إيراد أهمها ملخصاً في العناصر الآتية:

أ - **الانتماء العرقي**: ينتميان إلى أصول هنديّة، وقد ظهرا إلى الوجود في الهند وإن كان أولهما قد أقام بها أكثر من تلميذه الذي تلقى العلم من كتابه دون أن يدركه شخصياً في دار الدنيا.

ب - **الاستماتة في الدفاع عن الإسلام**: كرّس كل منهما حياته للدعوة إلى الإسلام وتفرغ للدفاع عنه بالعديد من الحوارات، والمصنفات المقارنة، فضلاً عن العديد من الخدمات الجليلة، والانتصارات الخالدة.

ج - **في المنهج والموضوعات**: لقد قلّد ديدات الشيخ الهندي في منهجه، وشاركه في ذات الموضوعات التي كان قد سبق أن ناقشها قبله، وبنفس الأدلّة النقليّة والبراهين العقلية التي استعان بها سلفاً.

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص480، مرجع سبق ذكره.

د - **في صدق الحوار وإخلاصه** : كانا - رحمهما الله حياً وميتاً - صادقين في حواراتهما، وقد أخلصا - في حدود ظني - النيّة في عملهما تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى، وحسبي دليلاً على هذا الإخلاص ما كان من دأب كليهما في حواراتهما، من قطع العهد على النّفس بالتخلّي عن العقيدة التي يدافع عنها في حالة الفشل، والاشتراط المبدئي بقبول ما عليه الآخر حين تتحقّق له الغلبة، ويخرج من الحوار منتصراً. وأنّى له ما يقرب في امتناعه من المستحيل.

هـ - **إجلال الخاصّة، وتوقير العامّة** : نال كل منهما مظاهر التكريم، ومعاني الثناء ما يفضل عن الوصف لسبق العلم ببعضه فيما تقدّم من حديث عن ذلك.

و - **إنشاء مؤسسة وتكوين رجال** : أسس الشيخ الهنديّ مدرسة شرعيّة في بلاده وأخرى للدعوة في مكة المكرمة حين نزل بها، كما أعدّ طلاباً وأصحاباً للمواجهة الحوارية، وكذلك أنشأ ديدات من جانبه معهد السلام للتعليم الإسلامي وتدريب الدعاة، وأقام مركزاً دولياً شهيراً في منطقته لخدمة العمل الإسلامي في مختلف مجالاته، بالإضافة إلى تنظيمه البرنامج الدولي الذي استعرضنا أولى حلقاته فيما سبق.

ز- **الهجرة والتنقل** : لقد هاجر الشيخ الهندي من بلاده إلى مكة المكرمة كبيراً، كما هاجر ديدات لاحقاً من البلاد نفسها إلى جنوب أفريقيا صغيراً، وقد استوطن كلاهما في مهجره إلى آخر أيام حياته. وفي غضون سنوات الهجرة وعقودها شهدت حياة الشيخين تنقلات كثيرة في أقطار متعددة، على أن ديدات قد تميز بسعة دائرة الحركة وكثرتها، وذلك لسهولة التنقل، وتوفّر المواصلات في عصره أكثر من ذي قبل.

ح - **الابتلاء بشديد المرض** : لقد نازع المرض كلاً منهما على حياته؛ حيث قد تعرّض الشيخ رحمة الله الهندي لمرض شديد إبّان تأليفه كتاب إزالة الأوهام، ظلّ بسببه طريح الفراش برهة من الزمن، لم يكن قادراً أثناءها حتى على مجرّد القعود للصلاة، وقد تماثل للشفاء فيما بعد، وأتمّ ما كان بصدده من عمل علميّ قصد به الردّ على كتاب (ميزان الحق) لمنصر يعد من أبرز من ناظرهم الشيخ، وبالمقابل ألمّ

بديدات أيضًا في سنواته الأخيرة داء عضال جرده من كامل قواه الجسمية، وسلبه كل إمكانية للقيام بعاداته اليومية، حيث قد شلّت كل طاقاته الحركيّة، ولم يبق في مقدوره سوى تحريك رموش العينين، للإشارة إلى ما يريد إملاءه على ابنه الذي ظلّ ساهراً بسعة أفقه ورحابة صدره، على تمريض والده، وتقديم ما تدعو إليه الحاجة للمريض الكبير، ولزوّاره الكرام من خدمات مطلوبة[1].

وقد تحمل الشيخ ديدات هذا الامتحان الإلهي الحاسم بإيمان راسخ، وصبر جميل، وواجه مرارة الأيام وسهر الليالي في صمود نادر، وثبات عجيب، بنفس راضية بقضاء الله، متطلّعة إلى كريم عفوه، وعظيم رضوانه، دون أي جزع لشماتة المشاغبين واستفزاز الخصوم به وهو في أشدّ حالات مرضه القعيد، والعجز مستولٍ عليه حتى في قدرته على الكلام. ومع ذلك لم يأمن استخفاف المنصرين الذين «كانوا يزورونه ويقولون له: اطلب من المسيح أن يساعدك فقد طال ما أنت فيه من مرض ومعاناة، ولكنّ الرجل المؤمن مازال كما هو يستعين بالله ثم بابنه الصّبور، ومن خلاله يكتب ويشارك في الدعوة»[2].

وذلك على الرغم من ظرفه الصحي المانع القاهر الذي اضطرّه إلى الرقود والصمت، ولكنه لم ينل من صخرة عزيمته الدّعوية الصلبة، فظل مجاهداً بإيمانه وفكره، وشعوره، معتصماً في رباط من قيل في تمجيدهم . . . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: 23].

فعسى الله أن يكفر عنه بمرضه الفالج، ويضاعف له به المثوبة، ويجزل له المقام، ولعله من الابتلاءات التي يتعرض لها -عادة- الخواص من عباد الله الصالحين، ممن اختصهم الله بمزيد محبته، واستأثرهم بالدرجات العلا في مستقر رحمته، فرجاؤنا لهم جميعاً رضوان الله تعالى ورحمته.

---

(1) ينظر: زياد علي: (مظاهر القوة والضعف في حياة الداعية أحمد ديدات)، ص12 من صحيفة الدّعوة الإسلامية، ع793، بتاريخ7/ محرم الموافق 12 من شهر الطير عام 1430م من ميلاده ﷺ، طرابلس.

(2) المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.

هذا . . . ولئن كانت هذه المصادفات تشكل ملتقى الشيخين فإن بجوارها مفارقات ينفرد بها الشيخ رحمة الله الهندي عمّن مارس هو تأثيراً واضحاً عليه من خلال كتابه إظهار الحق، ويتمثل بعضها في الفوارق الثلاثة الآتية :

أ - **تلقيه العلم على يد شيوخ أجلاء** : بدأ الشيخ رحمة الله حياته العلميّة بالتلمذة على يد والده، ثم على المبرزين في العلم والدين من أفراد أسرته، وقد وفق لإتمام حفظ القرآن الكريم في سن الثانية عشرة من عمره، ولقد شهدت حياته تنقلات لطلب العلم بين أشهر المراكز العلميّة في الهند، فدرس خلال تلك الرحلات التعليمية كلا من الطبّ والهندسة، والرياضيات[1]، بجانب ما برز فيها من علوم شرعية ولغوية وعقدية. وفيما يخص ثقافته الحوارية وتكوينه العلمي في دراسات الكتاب المقدّس يذهب الكاتب ألبرت حوراني إلى أن الشيخ قد أتيح له بواسطة طبيب هندي الاطلاع على البحوث النقدية الحديثة التي ظهرت في ألمانيا حول الكتاب المقدّس؛ فاستخدم حصيلة اطلاعه على تلك المعارف في طرح أسئلة عن مدى موثوقيّة الكتاب المقدّس[2]، وإنشاء مؤلفات ناقضة لمضامينه في ضوء هذا العلم النقدي المستحدث.

ب - **نجاحه في تخريج رجال أفاضل** : لقد ربى الشيخ في الهند، وخرجت مدرسته المكيّة أجيالاً من العلماء، ومن الرجال الناشطين في مجالات العلم والتعليم، والعمل الإسلامي. فمن تلامذته في الهند الأستاذ عبد السلام الرامبوري[3]، والأستاذ عبد الوهّاب الويلوري مؤسس جامعة الباقيات الصالحات بمدينة مدراس[4] الهندية، وكثير غيرهما من صدور علماء الهند[5].

---

(1) ينظر: الحوار دائماً مع المستشرق، ص7 مرجع سابق.

(2) ينظر: ألبرت حوراني...الإسلام في الفكر الأوروبي، ص28.

(3) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ...ص: 31-32، مصدر سابق.

(4) المصدر نفسه: ص: 31 32.

(5) ينظر: الشيخ رحمة الله الهندي القائد الأول لعلماء المسلمين في الهند، ص101 من مجلة منبر الإسلام ع/ 5/ س36، مرجع سابق.

وأما طلابه العلماء من خريجي المدرسة الصولتيّة، فقد تضمن كتاب سيرته المعنون بـ(أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهندي) قائمة طويلة بعشرات الأسماء من هؤلاء الأعلام[1] الذين ينسب إلى الشيخ فضل أيادٍ بيضاء في تكوينهم وتخريجهم.

وربما يكون تعدّد النجاحات التي حقّقها الشيخ على مختلف الأصعدة من علميّة، وتربويّة وحوارية، هو السبب الأول والمباشر في الانبهار به، على نحو يعكسه بوضوح مجرّد ما اختاره كاتب سيرته من عنوان غير دقيق لكتابه «أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهندي) إذ يوحي بقدر كبير من المغالاة والشطط، وبالانحراف عن جادة الدقة، والموضوعيّة العلميتين، فقد تصعّدت بالمؤلف موجة الانبهار بالشيخ إلى مستوى الإفتتان به، فأطلق قائلاً في مبالغة مغالطة، ما نصّه: (لم تر الدنيا عبر تاريخها الطويل عظيماً مثله مجاهداً، ومثل ذلك الرجل ربما يجود به الدهر بعد مرور سنوات طويلة»[2].

ج - **العمق المعرفي، وعلميّة المنهج**: يتميز الشيخ رحمة الله عن ديدات بسعة معرفته، وعمق مناقشته، وعلمية منهجه. وبهذه الاعتبارات تستحقّ كتاباته أن تكون مصادر أساسيّة للبحوث، والدراسات العلميّة في مجالها، كما - بالأحرى - تصلح أيضاً للاعتماد كمقررات منهجية للمراحل الدراسيّة المتقدّمة.

وقد عوّل الدكتور أبو خليل على مكانة الشيخ العلميّة فعلّق بالقول (... ولما تمتاز به مؤلفاته من تحقيق علمي وتدقيق لم يسبق إليه كان الشيخ رحمة الله في عصره أستاذ الهند بلا منازع في علم مقارنة الأديان والردّ على النصارى)[3].

إذاً فحقيق بأن يكون شيخاً لديدات من نال من العظمة مثل هذا المقام، ولا عظيم إلاّ بالله فهو الأول والآخر ذو الجلال والإكرام.

---

(1) ينظر: أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهندي، ص66-74، مصدر سابق

(2) المصدر نفسه، ص75.

(3) الحوار دائماً والحوار مع المستشرق، 70 مصدر سابق.

هذا. . . وقد خلف من بعد مَنْ سلف عدد من الشخصيات المعاصرة، أسهمت هي الأخرى بدورها المتفاوت، إمّا في امتداد العمل الحواري، أو في التمهيد والتهيئة العلميّة لهذا العمل. وكان لبعضهم من الشأن في ذلك ما يغري بتقديمه في عرض لامحٍ، يندرج في سياق الموازنة بين الشيخ ديدات وبين غيره من قدامى ومعاصرين.

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

نظرة مقارنة لمنهج شخصيات معاصرة في مجال الحوار والمقارنة

1- الشيخ: محمد أحمد أبو زهرة: (1316-1394هـ)=(1898-1974م).

من كبار علماء المسلمين في القرن الميلادي المنصرم، شهد له الزركلي بأنه: «أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره»[1].

أصدر العديد من المؤلفات التي زادت على أربعين كتاباً ما بين مطبوع، ومخطوط. وإنّ من أهم ما يتصل بموضوعنا من تلك المؤلفات هو كتابه (محاضرات في النصرانية) الذي خوّل المؤلف حق اعتباره -عندي- أحد المهيئين لعملية الحوار من الناحية العلميّة دون أن أقف له على ممارسة فعلية للقضية التي اعتبره هنا أحد المسهمين في التوطئة لها.

وهو في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب يحدد منطلقه العلمي، مبيناً موضوعيّة الدوافع الموجهة لخطاه على هذا المسار المعرفي مشيراً إلى تلك الغاية الحوارية النبيلة التي يصبو إلى تحقيقها من خلال ما احتواه الكتاب. وفي توجّه حواري صادق يقول: «وإني لأهدي كتابي هذا إلى كل مسيحي طالب للحقيقة ويسير في مسالكها، لاأبغي به غلباً في جدال ولا سبقاً في نزال، ولكن أبغي به الحقّ المجرد(ياأهل الكتاب تعالواْ إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله»[2].

ومن استجابة مفترضة لهذه الدعوة ينطلق المؤلف لمناقشة النصارى في الموضوعات التي جعل منها مدار حواره في هذا الكتاب، وتتمثل في حياة المسيح عليه السلام، والحكمة من ميلاده المعجز، وفي مضمون رسالته التي دعا إليها كما وردت في القرآن الكريم، وما تعرضت لها المسيحيّة بعده من شوائب دينية، بالإضافة إلى تاريخ الأناجيل المعتمدة لدى الكنيسة ملحقة بالرسائل المكملة لها. وفي دراسته لتلك الأصول الكنسية يلقي عليها نظرة نقدية فاحصة مبرزاً أوجه التناقض بينها، مع الكشف عن انقطاع

---

(1) الأعلام: مج6/ ص25، مصدر سابق.

(2) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص9، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة-مصر. د. ت.

سندها، وتصويرها لعقائد وشعائر المسيحية على النحو الذي استقرت عليه عبر سلسلة المجامع الكنسيّة، والتي تناولها المؤلف مسهباً في عرض أشهرها من حيث تواريخها، وأسبابها، وما انتهت إليه من قرارات عقدية وشعائرية. ولما كانت تلك المجامع وقسوة الكنيسة مع مخالفي قراراتها الرسمية أسباباً قد أحدثت شرخاً في جسم الأمّة الصّليبية، فلم يكن ثمّة بد من تعرض المؤلف لأهم الفرق الصليبية قديمها وحديثها، مع الإشارة إلى بعض من يجهر بإنكاره لألوهيّة المسيح من بني ديانتهم[1].

وتتجه عناية المؤلف إلى تتبع مسيرة تطور العقيدة الصليبية في مختلف أدوارها، والحرص على بيان ما قام حولها من مناقشات وخلافات؛ كان لتلوث النصرانية بفلسفة الرومان واليونان الدور الكبير في ما حصل لها من تطور سلبي وغير مشروع. ولعل اعتماد المؤلف على مصادرهم الأصول، والرجوع إلى كتبهم المقرّرة من الأمور التي يتماثل فيها مع ديدات في دراسة ونقد الكتاب المقدّس كوسيلة للوصول إلى نقض ما تضمنه من عقائد شركيّة.

وقد أقام الإمام أبو زهرة على سعة الاطلاع بنيان منهجه الذي يحتكم إلى العقل أكثر من تعويله على حجيّة النّص خلافاً لمسلك ديدات في الشأن نفسه، ومستندي في ذلك ما ورد في غير هذا الكتاب من قوله: «لقد درست ما وسعني الوقت، والتمكن من الاطلاع، فقرأت ما جاء في الديانات القديمة، وما عليه الديانات السّماويّة بعد أن حالت وتغيرت، لأعرف ما فيها من قضايا، وما يتفق مع حكم العقل، وتستسيغه الأفكار، وما لا يقبله العقل، بل يلفظه كما يلفظ اللسان مسيخ الطعام، وما تمجّه الأذواق»[2].

وفي مقابل تركيز ديدات على النقد العقدي نجد الإمام أبا زهرة يميل في منهجه الحواري إلى تسليط الضوء على الأدوار التاريخية التي مرّت بها الدّيانة المسيحيّة، وذلك لفرز الدخيل عن الأصيل فيها، والكشف عن الحقائق وتعرية المغالطات. وبناء على قناعته بجدوى هذا المسلك الموضوعي القائم على متابعة الخط التاريخي للعقيدة

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص189.

(2) محمد أبو زهرة: مقارنة الأديان: الديانات القديمة ص3/ ط. دار الفكر العربي. د.ت القاهرة-مصر.

النصرانية يطلق الإمام أبو زهرة دعوة ملحة وصريحة إلى كافة المعنيين من السّاحة الإسلامية بمسألة الحوار مع المسيحيين، للتوافر على سلوك هذا المنهج الذي جعل من كتابه مدخلاً إليه، وذلك فيما نصّ عليه بقوله: «بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم ردّ العالم المسيحي إلى التوحيد إلى العناية بدراسة تاريخ المسيحيّة، وإعلانه لأهلها ونريد أن ندعو الّذين يريدون نشر الإسلام بين ربوع المسيحيين إلى إعلان ذلك التاريخ»[(1)].

على أن مما يطعن في توجه أبي زهرة الحواري، ويضعه في منزلة أدنى من منزلة ديدات ومن يقرب منها افتقاره إلى القدر اللازم من الشجاعة الأدبية التي لا يتأتى الحوار بدونها؛ حيث إنّ صدور كتابه قد قوبل بموجة من النقد من قبل مواطنيه من غير المسلمين، فتضايق المؤلف بتيارها العنيف، الأمر الذي قاده إلى الاستسلام المتمثل في إحجامه لبضع سنوات عن إعادة طبع الكتاب رغم مسيس الحاجة إليه. وقد ثبتت هذه الواقعة بإقرار صريح منه وذلك فيما أفصح عنه قائلاً: «. . . وقد كنا بسبب التألم نحجم عن إعادة طبع الكتاب، مع الإلحاح من الكثيرين وبعضهم من إخواننا المسيحيين وأحجمنا نحو ست سنوات، ولكن اشتدّ الطلب من البلاد الشرقيّة والمصريّة. . .»[(2)].

وربما لهذه الطبيعة الانفعالية التي لا تصمد أمام النقد، لم يقدم الشيخ أبو زهرة على خوض حوارات واقعية مع الصليبيين، وإنما اكتفى بالإسهام المحدود في تزويد المؤهلين لها بالمدد العلمي المطلوب، وشقّ الطريق بهم نحو ما اعتبره المنهج الحواري المناسب. وإني بهذا الطرح أجد نفسي مخالفةً لرأي من يقول في وصف الشيخ الفاضل: (فرأيت فيه شدّة الحقّ، وقوة في إبداء الرأي، وشجاعة في التصميم على ما يقول)[(3)]، ولا حاجة فيما أرى بعد نقل صُراح إقراره إلى تكلّف تأويلات وتعليلات متعسّفة.

---

(1) محاضرات في النصرانيّة، ص191، مصدر سابق.

(2) المصدر السابق، ص7.

(3) أبو بكر عبد الرزّاق: أبو زهرة وقضايا العصر، ج3/ ص4/ ط1988م، دار الاعتصام-القاهرة-مصر، والرأي المشار إليه للدكتور محمد كامل البناني في تقديمه للكتاب.

2 - الدكتور أحمد حجازي السّقا ومنهجه في التمهيد للحوار العلمي[1]:

هو عالم أزهري معاصر واسع التراث الجدليّ الحواريّ، له إسهام متميز في خدمة وتسهيل المتطلبات العلمية لحوار المسلم مع أهل الكتاب، شاكل الدكتور السّقا الإمام أبا زهرة في التقيد بحدود تهيئة الزّاد المعرفي لجنود الحوار وأبطاله، دونما تجاوز إلى ميادين التوظيف العملي لهذا الزّاد العلميّ الخصب.

ومن صميم ما قدّمه الدكتور السّقا للمشروع الحواري كتاب: البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، وهو في الأصل أطروحة علميّة نوقشت في الأزهر عام 1977م، لنيل إجازة التخصص الدّقيق، ثمّ نشرت طبعتها الأولى عام 1989م، من دار الجيل البيروتية.

ومن حيث الموضوعات التي تناولها الكتاب فقد توزّعت في بابين: أوّلهما البشارة بنبي الإسلام في التوراة، وأنه وعد الله لإبراهيم عليه السّلام مقابل دعوته المستجابة، وعليه دون غيره تنطبق الأوصاف التي حدّدها موسى عليه السلام للرسول الذي بشر بمجيئه من بعده. وقد خلص من ذلك إلى أنّ محمداً ﷺ يمثل البركة الخاتمة لمجموع البركات الإلهية الثلاث، المقسّمة على سينا، وساعير، وفاران، طبقاً للمنصوص عليها في الرواية التوراتية.

أما الباب الأخير فقد أفرده المؤلف لمناقشة إثبات نبوة محمد ﷺ من خلال الإنجيل، بدأ فيه بالحديث عن حياة المسيح عليه السلام ودعوته، وتبشيره بخاتم الأنبياء والمرسلين، ثمّ ختم بعد مناقشة فائضة بالحديث عن يوحنا المعمدان وهو نبي الله يحي بن زكرياء عليهما السلام، معرّجاً على حياته ودعوته، وسوق ما نُقِل عنه من نصوص مبشرة بمقدم رسول الله ﷺ لختم سلسلة النبوّة، وإعلان الميثاق الإلهي لكمال الدين، وتمام النعمة.

---

(1) لم أقف على ترجمته في حدود ما وسعني البحث عنها.

وأما منهجه العلمي في هذا الكتاب فهو قائم على الإستدلال بمحتوى أسفارهم المعتمدة، وذلك بإيراد النصوص الشاهدة على مراده مُرْدفةً بشرح ميسر لتلك النقولات ثمّ يعقب ببيان موضع الشاهد في النص على النحو الذي تجلو معه الحقيقة المطلوب كشفها[1]. وربما استعان في ذلك بمناقشتهم بأدلة من كتبهم وبأقوال المؤرخين أحياناً.

وقد عرض بإجمال قواعد هذا المنهج في قوله: «نذكر النصوص المسلم بصحتها عن أهل الكتاب، والنصوص المشابهة لها من كتبهم، ونبيّن وجهة نظر علمائهم فيها كما دوّنوها في الكتب، ثم نناقشهم فيها مناقشة جادّة وهادفة»[2].

وبهذا المنهج الذي يقدّم النقل في مزاوجته بالعقل يعدّ الدكتور السّقا من أقرب الناس إلى ديدات منهجياً، كما يظهر الشبه بينهما في اعتداد كليهما بعمله وثقته المطلقة في صلاحيّة ما قدمه، والتنويه بقيمته الحوارية، وهو ما جنح إليه الدكتور السّقا ناسجاً على منوال ديدات بقوله: «. . . ذكرنا وبسطنا وجهة نظرهم في نصوص النبوءات، مما يصح بعده أن نقول: إن هذا الموضوع كما كتبناه صالح للإلزام به والإقناع به»[3].

وفضلاً عن هذا الكتاب فمن جهوده العلميّة المتعددة في مجال خدمة التراث الحواري تحقيقه لكلٍّ من كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن قيّم الجوزية، وكتاب (شفاء الغليل) للإمام الجويني، إلى جانب أن له دوراً لا ينكر في تعريف المعاصرين بالشيخ رحمة الله الهنديّ، والإشادة بكتابه إظهار الحقّ، وسائر جهوده العلميّة والتعليمية. وقد عمل الدكتور السّقا في إطار مساعيه التمهيدية لظروف الحوار وضرورياته، على تفريغ الشريط المرئي لمناظرة ديدات مع سواجارت في كتاب نشره بعنوان (المناظرة الحديثة) في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقس سواجارت؛ بعد أن قدّم له بمباحث نقدية موسّعة للكتاب المقدّس بكافة أسفار عهديه

---

(1) ينظر: أحمد حجازي السقا: البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، ج2/ 154-161، ط1 1409هـ=1989م، دار الجيل - بيروت.

(2) المصدر نفسه، ج1/ 82.

(3) المصدر نفسه، ج2/ 386.

القديم والجديد، ثم تطرّق إلى دراسة الأناجيل المزيّفة بحكم المجامع الكنسيّة، عارضاً لمناقشة قضيّة الصلب والفداء من خلال الأناجيل مشيراً إلى ما بين رواياتها من تناقض في عرضها لذات القضيّة. وقد تناول بالمناقشة فكرة البشارة والخلاص ناقداً بعقليّة مسلمة تلتزم مقررات العقيدة الإسلامية وثوابتها.

ويخلص من نقده للعهد القديم وبيان ما وقع فيه من تحريف إلى إعلان رفع الثقة عنه على اعتبار كتابته بعد موسى عليه السلام، وأنه ليس وحياً من الله[1].

وليس مما يفوته الحديث عن موقف المسيح عليه السّلام من أسفار الأنبياء التي كانت موجودة في عصره[2]، وموقف أتباعه من تلك الكتب، وبخاصة بولس الذي أوصى بإلغاء ناموس موسى عليه السلام، مقرراً أن مجرد الإيمان يؤدي إلى الجنّة ولو بدون أعمال تسنده[3].

ويختم المؤلف هذا المدخل الموسّع إلى مناظرة ديدات، بعرض أسفار الأنبياء التي يشتمل عليها العهد القديم بجوار أسفارها الخمسة الأساسية، وهو في عرضه لكلّ سفر منها يزود القارئ بخلاصة مختصرة لمضمونه، من شأنها أن تؤمن للدّراس فكرة عامة لموضوع كل كتاب في أسطر قليلة لا تُعْنى بتفاصيله العامة؛ ولعل ذلك ناتج من كثرة الأسفار وتنوعها من جانب، ومراعاته لطبيعة هذا المدخل التمهيدي من جانب آخر.

وفيما يخص العهد الجديد فإنه يعرض لأناجيله موضحاً مفهوم البشارة الإنجيلية عند كل من النّصارى والمسلمين، ومبيناً الفرق بين الأناجيل القانونيّة وغيرها، ومدى ما بين وحدات النوع المعتمد من علاقة التشابه والاختلاف[4].

ورغم أن المؤلف قد أبان في كلّ ما سبق عن علم غزير بفكر أهل الكتاب وعقيدتهم،

---

(1) ينظر: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، ص79. مرجع سابق.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص104.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص81.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص60-62.

وعَكسَ إلماماً محيطاً بمصادرهم ومرجعيّاتهم، إلا أنّه لم يسلم من المآخذ الآتية:

1 - يتعمق في التفصيل والتدقيق لدرجة تعرض القارئ العادي للتيه في لُجّة السّرد المفصّل دون الخروج بطائل يغنيه من نفائس النقد وحقائقه.

2 - يبالغ في اعتبار أي اختلاف بين الروايات في المسألة الواحدة -وحتى في أدقّ التفاصيل- ضرباً من التناقض[1]، مع أنّه لا تلازم بين الاختلاف والتناقض بالدوام.

3 - وقع المؤلّف في خطإ تأييد سواجارت على الباطل، في دعواه بأنّ الكتاب المقدّس الذي يحمله بين يديه بعهديه القديم والجديد، هو نفس الكتاب التي ظلّ - ومازال - موجوداً لدى أهل الكتاب منذ أيام النبيّ محمّد ﷺ[2].

وهو قول مردود بما تعورف عليه من ترجمات متعدّدة، وروايات مختلفة لكتبهم المقدّسة، وخاصة بدليل ما نشرته مجلّة تايم الأمريكية في عددها الصّادر في 4/ 10/ 1982م، مفيدة: (أن إنجيلاً جديداً موجزاً قامت بإصداره مجلّة المختار (ريدرزدايجست) يحتوي على 32 ألف كلمة فقط، أي ما يعادل 40٪ من النّص الأصلي أو نصف مقدار سفر العهد القديم بالإضافة إلى ربع مقدار العهد الجديد، وتشير تايم إلى أنّ مجلّة المختار ترى أن الإنجيل كتاب قلّ أن يقرأه أحد لأن فصوله كثيرة وثقيلة على الذهن، ومملّة بالنسبة للقارئ الذي يريد التذوق السّريع) [3]، ويقال إن هذا العمل -الذي أقدمت عليه مجلّة المختار بموافقة رسميّة من مجلس الكنائس العالمي المالك لحقوق طبع الإنجيل الجديد- قد لقي ثناءً حارا وتقديراً فائقاً من كبار النصارى... !![4].

وبالنسبة للموضوعات التي تناولها الدكتور السّقا في مختلف إصداراته التي بلغت

---

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص41-48.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص121، وحاشيتها.

(3) مجلّة الأمة: ص88/ ع26/ س3/ 1403هـ=1982م، الدوحة، قطر.

(4) المرجع نفسه، ص88.

- في حدود علمي- حوالي عشرة مصنفات[1]، في ظلال علم مقارنة الأديان والتمهيد العلمي للحوار، فإنه يلتقي مع الشيخ ديدات في معالجة نفس القضايا التي تشكّل مواضيع اهتمام مشترك بينهما، غير أن ميزة السّقا الذي لا نعلم شيئاً عن تجربته الحواريّة تكمن في عمق مناقشاته، وعلميّة نهجه في التصنيف؛ بسبب من وفرة رصيده العلميّ في مجال البحوث العلميّة، ورسوخ قدمه المكين في رحاب الدّراسات الجامعيّة.

3 - الشيخ عبد الوهاب النجّار: (1278-1360هـ)=(1862-1941م).

هو الأستاذ عبدالوهاب سيّد أحمد النجّار من مؤرخي مصر وفقهائها، تخرج من مدرسة دار العلوم سنة 1315هـ، واشتغل بالمحاماة الشرعيّة، ثمّ بتدريس الأدب والشريعة في كليّة الخرطوم، وله مشاركة فاعلة في أكثر الجمعيات الإسلاميّة التي عاصرها، وفي صدارتها جمعيّة الشباب المسلمين[2]. وقد خلّف عدداً من المؤلفات، من أشهرها كتاب (قصص الأنبياء) الذي سلك منحًى نقديًا دقيقًا فيما يخص عرضه لسيرة المسيح وللمسيحية وأناجيلها المتناقضة[3].

وعلى الرغم من أنّ الشيخ لم يتفرغ في حياته لمحاورة الصليبيين، ومن ثمّ لم تتحقق له شهرة معتبرة في مجالها، إلا أنّ اللافت للنظر في أمره هو أنّ صلته بالحوار تعود إلى بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان ما يزال آنذاك طالباً، وقد اتفق أن كان ثمّة قسيس في مدينة طنطا المصرية يشيع اعتراضات على الإسلام والقرآن، فتحمّس الطالب عبد الوهّاب واستأذن الشيوخ في مساجلته معتضداً بأحد الكبار النابغين، وقد أخذ مع صاحبه الكبير في مقارعة القسّيس، والردّ عليه في

---

(1) ينظر: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان ص12، مرجع سابق، وذلك للوقوف على ثمانية من تلك المصنّفات مما أوردها المؤلف في الصفحة المذكورة.

(2) ينظر: الأعلام، ج4/ ص182، مرجع سابق.

(3) ينظر: عبد الوهاب النّجار: قصص الأنبياء، ص371-468، ط4/ 1375هـ=1956م. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة - مصر.

لقاءات ودّية مفتوحة قال عنها: «كنّا نجتمع في بعض الأوقات بإحدى المقاهي بشارع البورصة بطنطا، ويحضر معنا بعض مواطني القسّيس اللبنانيّين، فكان صدى تلك المجادلات الدينية ينقل إلى القاهرة ثمّ إلى لندن، فتضج التايمز والجرائد الإنكليزية وتجأر بالشكوى من التعصب الديني في مصر مبرقة مرعدة مهددة منادية بالويل والثبور، فتنقل تلك الأقوال في بعض الجرائد المصرية»[1].

وهو بهذا النص يصور لنا عصراً كان الحوار فيه متسماً بضيق أفق الطرف الآخر، رغم ما كان ينعم به من رعاية استعمارية معلنة، ومساندة إعلاميّة مكشوفة. وقد توقف الطالب عبد الوهاب النّجار وصاحبه عن مساجلة القسيس، لأسباب تتعلّق بأمن بلاده، وتتصل بسلامة علاقتها مع الدوائر الاستعمارية.

وبعد سنوات من هذا الحدث قدمت بعثة إنجليزية للتنصير في مصر في ختام القرن الـ19 الميلادي أي سنة 1899م، برعاية مكفولة من المستعمر البريطاني، وما أن استقرّت حتى أخذ أفرادها في دعوة المسلمين إلى دخول النصرانية، فذهب إليهم الأستاذ عبد الوهاب برفقة صديقيه للمحاورة، فجرى بينهم ما قصّه علينا بقوله: «ودخلنا إلى دار التبشير وجادلت المبشرين وناقشتهم في دينهم حتى أفحمتهم، ثمّ انبريت لهم أدعوهم إلى الدخول إلى الإسلام، وبيّنت لهم عقائده ومحاسنه... تكرر مني هذا الأمر حتى برموا مني وضجّوا بالشكوى إلى جهات الحكومة، حتى أرسلت المحافظة الجند مشاة وفرساناً لمنعي من الدخول إلى مكانهم الّذي يدعون النّاس إليه دعوة عامّة»[2].

والظاهر أنه ليس مما يهمّه بيان منهجه الحواري، فضلاً عن الموضوعات التي حاورهم فيها، ولكنه يُعنى فقط بتحديد منطلقه الحواريّ الجامع بين الدفاع والهجوم، ممّا نفهم منه أن حواره دعويّ المنطلق والغاية، وقوامه التدرّج من مرحلة نقض الباطل، إلى إحلال البديل الصحيح. وهو بموجب هذا الرأي ليس ممن يكتفي بإلحاق الهزيمة بالخصم كما هو شأن ديدات، وإنّما يسهر على جبر خاطره وإسعافه بالحقّ

---

(1) المصدر السابق، ص(أ).

(2) المصدر نفسه، ص(ن).

الإسلاميّ حتى ينقاد ويذعن عن طاعة وقناعة دون إكراه أو إلزام. وعليه يتقرر القول بأن العمليّة الحواريّة في ممارسته لها عبارة عن بناء مزدوج ومركب يجمع بين هدم الفكر الديني عند الطرف الآخر، وإعادة بنائه على أسس إسلاميّة صحيحة وثابتة.

وإن من المنهجيات التي يتقابل عليها الشيخان (النجّار وديدات) هو أن لكل منهما اهتماماً بالغاً بالارتكاز على الكتاب المقدّس في الفعل الحواري، إضافة إلى ظاهرة الاستعداد المسبق له، ودعوة الناشئة والمتدربين بعامة إلى تخصيص مساحة كافية من العناية بمسألة التحضير للحوار، والتزود له بالقدر الكافي من العدّة الشاملة، بدلاً من المخاطرة بخوضه على سبيل المغامرة والمجازفة.

وقد جمع الأستاذ النجّار بين هذا وذاك - مما يتقاسمه مع ديدات - في قوله: «ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه القارئ إلى أنّ كتب العهدين (القديم والجديد)، ليس لهما سند متصل، ولم تخل من تحريف المحرّفين خطأً أو عمداً، ولكني بذلك أنبه الطالب الذي سيكون عرضة للاتصال بأهل الكتابين بحكم مهمته، وبصدد أن ترد عليه النصوص منهما في الموضوعات المختلفة ليكون على استعداد للإجابة عمّا يسأل عنه وتكون عنده فكرة عنهما، وليأخذ منهما ما يساعده على أدلّته وبراهينه، وليبطل ببعض نصوصهما ما يمكن إبطاله من الدعاوى التي قد يدّعيها أهل الكتابين»[1].

وقد مرّ بنا في دراسة منهج ديدات الحواري، ما يترادف عنده مع هذه الإرشادات المنهجية التي دعا إليها الشيخ عبد الوهاب النجّار.

4 - الدكتور: أحمد شلبي محاوراً وممهّداً:

بحّاثة مصريّ، من مواليد العقد الثاني من القرن الميلادي المنصرم، تلقى المراحل العليا من دراسته في بعض الجامعات البريطانية بعدما اجتاز دراسة المراحل الأولى والجامعيّة في الأزهر وفي كلية دار العلوم بالقاهرة. تخصّص في التاريخ والحضارة

---

(1) المصدر نفسه، ص(ح).

الإسلاميين فاشتغل داخل بلاده وخارجها، وألف العشرات من الكتب في التاريخ والحضارة والتربية، ومقارنة الأديان، كتب بعضها بالإنجليزية والأندونيسية، كما ترجم أكثر عطائه العلمي من العربية إلى لغات أخرى شرقيّة وغربية[1].

ويكتسب الدكتور شلبي مشروعية اعتباره محاوراً إسلامياً بدوره المزدوج الذي جمع فيه بين الممارسة الفعلية للحوار، والتهيئة العلميّة له؛ حيث قدّر لهُ عقد عدد من الحوارات الكاسبة في أكبر ساحة تنصيرية من ديار المسلمين – وهي أندونيسيا الطريدة المُستنجدة – أسهمت تلك الحوارات إلى جانب آخر، في بناء قاعدة الشهرة الشعبية العريضة التي تحققت له خلال السنوات السّتْ التي قضاها موفداً للدعوة والتعليم الإسلاميين في أرجاء تلك البلاد، وذلك من عام 1955–1961م. وقد أشار في سيرته الذاتية إلى هذا الجانب الحواري من عمله الإسلامي في أندونيسيا فكتب يقول: «. . . وهناك مجال آخر دفع اسمي دفعة قويّة بين الجماهير. ذلك هو مجال المناظرات التي عقدت بيني وبين كبار القسيسين المسيحيين، والحق أن هذه المناظرات كانت في جو علميّ دقيق، وقد أثمرت أجمل الثمرات لخدمة الإسلام والفكر الإسلامي»[2].

وعلى سبيل الاستشهاد المؤكِّد على هذا القول عمد الدكتور شلبي في كتابه (المسيحية) إلى حكاية ظروف إحدى المناظرات التي عقدها في أندونيسيا بتاريخ 13/ 6/ 1959م، مع أساتذة جامعة مسيحية متخصصة في الدراسات اللاهوتية، وقد تمت بموجب دعوة من الطرف المسيحي، فكان للدكتور شرف تلبيتها بقوله: «فذهبت في الموعد المحدد إلى مقرّ هذه الجامعة حيث تجمع الأساتذة وكلهم غربيون وبعض الطلبة الأندونيسيين، وبعض المشتغلين بهذه الدراسات، وجمهور كبير من الناس، وقد استغرقت هذه المناظرة عدة ساعات، تلقيت خلالها عدداً من الأسئلة عن الدين الإسلامي، ويمكن القول بقوة: إن التوفيق حالفني إلى أبعد حدّ، فانتزعت إعجاب

---

(1) ينظر: نبذة تعريفية به على الواجهة الخلفية لأيّ من كتبه المغلّفة دون المجلدة منها، كسلسلته في مقارنة الأديان على سبيل المثال.

(2) أحمد شلبي: رحلة حياة، ص177، ط3/ 1982م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – مصر.

الحاضرين لا بشخصي ولكن بالدين الإسلامي، وبدعوته الرشيدة، فلما جاء دوري لأسأل قدمت بعض الأسئلة عن الدين المسيحي، فجاءت الإجابة عنها من المسيحيين متهافتة، أو قل لم تكن هناك إجابة علميّة على الإطلاق»[1].

إن هذه الصورة التي يعرض بها شلبي مناظرته الجادّة توحي إلى الأذهان بأجواء مماثلة لها عند ديدات، وبالأخص في بعض حواراته التي أقيمت في أروقة جامعية مسيحية، وامتدت لعدد من الساعات في مشهد حاشد من الحضور، وكانت مبنية على أصول علميّة عميقة، وأساليب حواريّة متقنة.

وأمّا إسهامه العلميّ في بعث مدرسة الحوار، وإحياء علم مقارنة الأديان في العالم الإسلامي، فلا مراء في عظم وسمو المكانة العلمية الخالدة التي تبوأها وسجلها لنفسه صاحب الأجزاء الأربعة من سلسلة مقارنة الأديان، والتي شملت كلا من اليهودية والمسيحية وأديان الهند الكبرى في جوار حواريّ مع الإسلام.

وقد امتطى المؤلف في سلسلة المقارنة منهجاً وصفياً يعنى بعرض شيء من تاريخ المعتقدات التي تعرض لدراستها، وما دعا إليه مبشروها الأوائل من عقائد وشعائر ونظم وسلوكيات، وما آلت إليه الأمور على يد أتباع بعضهم بعد رحيلهم، بالإضافة إلى أهم القضايا، والظّواهر التاريخية والعقدية لتلك المذاهب الدينية، مع اهتمام ملحوظ بعرض فرقها الرئيسة، ومصادرها المعتمدة ونقض ما يستوجب النقد منها.

وبإلقاء نظرة مقارنة على كتابه: المسيحية، للخروج بموافقات بينه وبين ديدات ينكشف للدّارس أن حزاماً موضوعيا يربط بينهما في العديد من القضايا التي اشتركا على انفراد في تناولهما؛ سواء في بيان حقيقة رسالة المسيح عليه السلام من منظور إسلامي، أم في مناقشة ونقض كلّ من قضيّة الصلب والتثليث، والطعن في أصالة الأناجيل وفي بعض مضامينها الباطلة. ويتمثل الفارق بينهما في شمولية ومنهجية المنزع العلمي الذي يقوم عليه عمل الاستاذ شلبي في هذا الكتاب الذي أراد به كاتبه تقديم دراسة علمية نزيهة لعقيدة

---

(1) أحمد شلبي: المسيحية، ص22، ط1/ 1993م/ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر.

الآخر، فانشغل بتأثر من كتاب (محاضرات في النصرانية) للإمام أبي زهرة - فيما أرى - بهمٍّ التغطية الشاملة لموضوع دراسته، مما جرّه إلى الحديث عن المجامع، والرهبنة والأديرة والكنيسة وأسرارها، والحركة الإصلاحية المضادة لها، والعناية بتوثيق صلة المعتقدات الصليبية بمصادرها الحقيقية في الحضارات القديمة[1]. ومن هذه الموضوعات ما ليست ذات معالم واضحة في أعمال وحوارات ديدات الذي يعير اهتماماً ساهراً لمتابعة الحركة التنصيرية، وملاحقة ربابنتها ونشطائها، بحماس وتفرغ لا وجه لمقارنته فيه بالدكتور شلبي، الذي تغلّبت عليه في دراساته الهموم العلميّة أكثر من هواجس التصدي والمواجهة.

ولعلنا لا نعدم تصديقاً لذلك في عرضه لمسلكه العلميّ قائلاً: «وقد سرت في دراسة مقارنة الأديان والحيدة طريقي لا أحيد عنها ولا أنحرف، كما اتخذت اليسروسيلتي فكنت أتتبع النصوص لتقودني إلى الغاية، دون أن أفرض نفسي أو فكري عليها، وكان هدفي أن أجعل الدراسة موضوعيّة لا ذاتية»[2].

ورغم هذا الموقف العلمي المحايد، وضعف تأثير الكتابات الحوارية في العامّة من الناس مقارنة بالمناظرات العلميّة الحاسمة، فإن المؤلف بكل اعتزاز وارتياح ينسب إلى كتابه (المسيحية) دوراً كبيراً ومثيراً. وهو ما ورد في قوله: «وهذه هي الطبعة العاشرة من كتاب (المسيحية)، وإذا كنت أطمع في رحمة الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، فهذا الكتاب هو من أهم وسائلي لهذه الغاية، إنه القربى التي أمسكها بإحدى يدي وأمسك كتاب (الإسلام) باليد الأخرى وألوّح بهما في شكر وتواضع، ذاكراً أنّهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين البشر، وإنقاذهم من التبشير ووسائله»[3].

ولا أجد عندي في ضوء هذا القول ما يدعوني إلى رميه بالمبالغة، فيما قد يرى البعض ذلك ويميل إليه.

---

(1) ينظر: المصدر السابق، 149-162.

(2) أحمد شلبي: اليهودية، ص41، ط12، 1997م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة-مصر.

(3) المسيحية: ص25، مصدر سابق.

وفي إطار معارضته بديدات من جانب آخـر نجده يحاكيـه في تأسيس بنيـان عمله العلمـي -باعتبـاره تمهيـداً وذخيرة للحـوار- علـى الكتـاب المقـدّس، والاعتمـاد علـى المعتمد من المنشورات الكنسية، والشخصيات المرجعية المطلعة من الأوساط المسـيحية، بالإضافة إلى الكتب والأبحاث العلمية الرصينة.

وبخصوص تعويله أساساً على الكتاب المقدّس يفيد قـائلاً: «وقـد عنيـت في هـذا الكتاب عناية خاصة بالمراجع التي كتبها مسيحيون ليكون حديثي أقرب بقـدر الإمكـان إلى اعتقاد المسيحيين المثقفين، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها (الكتاب المقدّس) أي العهد القديم والجديد، وقد قدّم الكتاب المقدّس مادة إضافية لهذه الدراسة، وكـان عماداً كبير الشأن أقمنا عليه صرح هذا البحث»[1].

وإني أؤكّد على صحّـة القـول بتـأكُّدِه لـدي مـن خـلال متـابعتي لـه للكشـف عـن مصداقيته. وفضلاً عما تقدّم نلمس عند كلّ منهما إحساساً عميقـاً بقيمـة علـم مقارنـة الأديان، وتقديراً غالياً لأهميته، وهو ما حمل كلا من جانبه على الدعوة إلى دراسته، والدعاية له في أوساط من يعدون للدعوة إلى الإسلام، والتصدي لجحافل المنصريـن، وعامة المُضلين. ويتلخص فحوى خطاب الدكتور شلبي في هذا الشأن فيمـا نـصّ عليه بقوله: «... ودراسة مقارنة الأديان ستضع أيدينا علـى جمـال الإسـلام وعلـى الـدور الذي يحمله ليكمل به محاولات الأديان لهداية البشر، وسيستفيد الداعيـة مـن مقارنـة الأديان في مواجهة المبشرين بالمسيحية أو البوذيّة، فهؤلاء يعرفـون الإسـلام ويتلمسـون ما يعتقدون نقاط ضعف فيه ليهاجموه عن طريقها، كتعدّد الزوجات والطلاق وانتشار الإسلام بالقوة، ولا يجوز أن يقـف الدّاعيـة موقـف الدفـاع فقـط بـل يجـب أن يعـرف كيف يهاجم أحياناً، ولن يكون ذلك إلا إذا تعرف على هذه الأديان ودرسها»[2].

على أن من الغريب حقا من أمر الدكتور شلبي وهـو يسـهم بحـظ وافـر في تعميق

---

(1) المصدر السابق، ص23-24.

(2) رحلة حياة، ص190، مصدر سابق.

جذور علم مقارنة الأديان، أن مشروعه العلميّ لا يتّسع لأعمال ديدات ولا يستوعبها، إذ يخلو من الاستفادة العلمية الجلية من جهوده وتراثه - حتى ولو أوهم القرّاء في إشارة عابرة وجدّ قصيرة بمرجعية الدراسات التي نشرها ديدات بالنسبة لكتابه عن المسيحية دون توظيف ملموس لتلك الدراسات في ثنايا الكتاب وعلى امتداده[1] - وذلك على الرغم من كل المعهود عنه من شدّة ولعه بالموسوعية البحثية، وركونه في الأغلب إلى حشد كومة من المصادر والمراجع التي يصدر عنها ويستقي منها مادته العلمية، الأمر الذي يثير عندي عدة تساؤلات؛ توحي في مجملها بسلبية وضآلة ما توليه سيادته من اعتبار علمي وأهمية دعوية للشيخ ديدات ونتاجه الحواري.

وربما ساقنا تعليل ذلك إلى افتراض ما مفاده: أن لعله قد بدا للدكتور شلبي في نفسه أنّه على الأقل ليس بأقل من ديدات شأناً في أي من مجالات العلم والعمل، هذا إن لم يفقه فيها، ومن ثمّ لا مدعاة للأخذ عنه فيما يمكن الحصول عليه عند غيره من الأسلاف، أو الوصول إليه بالجهد الشخصي. وعلى فرض صحّة هذا الافتراض فإنه سوف يتعزّز اعتقادنا بأن العمل الإسلامي المعاصر قد خسر ديداتاً آخر في شخص الدكتور شلبي الذي-ربما-لو فكر وقدّر للتصدي للمهمة العظيمة لكان أوفق وأفعل ممن تفرّد بها في غياب الفحول، وذلك استجابة لنداء واقعي ملح، وإشباعاً لبعض الطموحات العالمية لحركة الدعوة الإسلاميّة المعاصرة وهي تناشد بلغة الضرورة القصوى، ومنطق اعتماد الأساليب الحواريّة المقنعة.

5-المنهج الحواري كما تمثله الشيخ أحمد كفتارو: (1330-1425هـ)= (1912-2004م)

داعية رباني معاصر، من كبار علماء سورية، شغل منذ سنوات وبصفة رسمية منصب الإفتاء العام فيها، وهو معدود -عندي- من قلائل من نجحوا في هذا العصر في الجمع بين التصوف السّني، والتربية، والدعوة، عرف بجهوده الإسلامية المتميزة

(1) ينظر: كتابه: المسيحية، ص20، ط10/ 1993م، وقد سبق ذكره.

داخل بلاده وخارجها؛ حيث قد تنقل بالخطاب الدّعوي في أرجاء الدول الكبرى التي يطمع المسلمون في إسلامها، ويتطلّعون بكل أمل إلى ميلاد اليوم الذي يتحقق فيه من جديد (هذا) الفتح الإسلامي العظيم.

وقد تشرب الشيخ المفتي في عمله الإسلامي، وفي رحلاته الدّعوية خاصة، روح المنهج الحواري الذي انطلق قطار دعوته به من أوائل خمسينيات القرن العشرين من التقويم المسيحي. فعقد في رحلة خمسين سنة «أكثر من خمسين حواراً مع المسيحيين بمختلف مذاهبهم وكنائسهم الشرقيّة والغربية، وعلى جميع مستويات الحوار، بدءاً بالحوار الفردي مع عامة المسيحيين الذين يلتقيهم، ووصولاً إلى رجال الدين المسيحي بجميع طبقاتهم ومراتبهم، في مختلف أنحاء العالم»[1].

ويظهر من تقصي حوارات الشيخ المفتي أنه يشارك ديدات في خاصية سعة دائرة الحوار وشموليته.

أما عن المشاركة في خاصية الفاعلية فهي أوثق وأعمق، بدليل ما أفصح عنه فضيلة المفتي للمؤتمرين في قوله: «في أول هذه السنة رأست مؤتمراً في براغ في حوار إسلامي مسيحيّ، حضره ممثلون عن كنائس لست دول أوروبية، كان نتيجة الحوار بعد ثلاثة أيّام وبإمضائي كرئيس للمؤتمر، والرئيس الثاني الدكتور برنهارد عميد كليّة اللاهوت في برلين الشرقية، بأننا اتفقنا جميعاً على «لا إله إلا الله محمّد رسول الله وعيسى رسول الله» والبيان المشترك طبع باللغتين الألمانية والعربيّة»[2].

وفي الصفحة اللاحقة في نفس المقال يعلن لنا الشيخ أنه مدعُوٌّ لحوارات إسلامية مسيحية في العواصم الأوروبية، تنقل إعلاميا بأجهزة البث المرئية، وتأتي تلك الحوارات امتداداً لسلسلة حواراته التي كان منها حوارٌ أجراه في ألمانيا مع خمسة وعشرين أسقفاً، وكانت النتيجة في جلسة واحدة لا إله إلا الله محمّد رسول الله وعيسى رسول الله.

---

(1) الحوار الإسلامي المسيحي: ص233-234، مرجع سابق.

(2) من كلمة الشيخ المفتي في المؤتمر العام الثّالث للدعوة الإسلامية: ص23، مرجع سابق.

وفي حقل هذه القطوف الجنيّة يغرس الشيخ المفتي أصول تفاؤله بإيجابية دور الحوار في العمل الدّعوي الإسلامي، في خطاب يبشر بأن المسألة الدينية تنحسم -بأقل كلفة وفي أقصر وقت ممكن - بإعداد جيش من دعاة أكفّاء لتعريف الآخر بعقيدتنا عن نبيّه[1]، الذي لا يكتمل للمسلم دينه ما لم يؤمن به، وعن رسالته التي هي جزء من الرسالات التي جاءت البعثة المحمدية في ختامها للتصديق بها والهيمنة عليها، فصلى الله عليه وعليهم جميعاً وسلّم تسليماً.

وتتعدى المقارنة حدّ الالتقاء في شمولية الحوار وفاعليته، لتثبت لنا بجوار ذلك وفاقاً دعوياً بينهما، لكنه في مجال آخر يتصل هو الآخر بالحوار ويكمّله، وهو مجال المحاضرات العلمية العامة ذات المقاصد الدّعوية. وقد علم في حينه ما لديدات من إسهام في هذا الجانب من نشاطه الإسلامي الواسع، وأما المفتي فقد عرّفنا بطرفٍ مما يعتزّ به من إنجازاته الإسلامية في هذا المجال، فقال: «أنا ألقيت محاضرتين بدعوة رسمية أحدهما في أكاديمية العلوم بموسكو عن الإسلام، بعد حوار في الكرملين مرّتين عن الإسلام؛ والأخرى في بلغاريا بأكاديمية العلوم، والأثر الذي حصل لا يسع المجلس أن أذكر تفاصيله»[2].

وفيما يخص منهجه الحواري فقد سبق الأستاذ بسّام عجك إلى دراسته ووصفه قائلاً: «أما الأسلوب الذي كان يعتمده المفتي في حواراته مع المسيحيين فكان الأسلوب الهادئ، والعرض الجذّاب للإسلام، بعيداً عن الشّدّة والغلظة والقسوة مؤكداً نقطة مهمة وهي:

أنه إذا آمن المسيحي بالله تعالى، وبرسوله محمّد ﷺ فله أجران، كما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة. ولم يلجأ المفتي إلى مهاجمة العقيدة المسيحية -في أغلب حواراته- وكذلك لم يلجأ إلى تعرية أخطاء المسيحيين، لأن ذلك من شأنه أن يثير المسيحيين للنيل من الإسلام، والقرآن، وشخصيّة الرسول الكريم ﷺ فيزدادوا بذلك إساءة للإسلام والمسلمين»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص25.

(2) المرجع السابق، ص23.

(3) الحوار الإسلامي المسيحي، ص237.

وكأني به ينتقد من طرف خفي ما دأب عليه ديدات واتسم به مسلكه في مختلف حواراته. وإن هذا التوصيف الأسلوبي للحوار عند الشيخ المفتي يشكل في الواقع ويؤكد اختلافاً منهجياً فاصلاً بينه وبين ديدات في سيرهما الحواري لتحقيق غاية واضحة ومحدّدة، فحوارات ديدات التاريخية البارزة هي في أغلبها ساخنة، ومفتوحة وفردية، أما المفتي فيغلب عليه الميل نحو حوارات هادئة، مغلقة، وجماعية، أي ذات أطراف متعددة، تعقد في صمت وهدوء، وبصدقِ حواري جادّ، وفي نطاقات محصورة. وإن التفسير السليم والمستقيم لهذا الاختلاف يتحقّق بعزوه إلى فعل ما بينهما من اختلاف في المؤثرات الموضوعيّة والمكونات الذاتية، كما تبين لنا دورها في تكوين شخصيّة ديدات الحوارية.

وإن من أوضح الأدلة على هذا الفارق المنهجي إقدام بابا الفاتيكان الحاليّ (يوحنّا بولس الثّاني) متجرئاً على الحوار مع الشيخ المفتي، وذلك من العام نفسه الذي أمسك فيه عن الردّ على خطاب موجّه إليه من ديدات بهذا الخصوص، محجماً عن تلبية رغبته في المناظرة معه، على النحو الذي بدا لديدات مفيداً فحدّدها على أساسه، وتأيّد عندنا باعتبار أنه يحقق مكسباً دعوياً عظيماً.

ومن حيث موضوعات هذا اللقاء الفاتيكاني مع الشيخ المفتي فقد حرص الأستاذ بسّام على معلوميتنا بها ومن ثمّ عني بعرضها علينا فقال: (وقد تمّ هذا اللقاء بتاريخ 14/ 12/ 1985م، في حاضرة الفاتيكان بروما، وبحثت فيه المواضيع التالية:

1 - حقيقة الإسلام، والهدف الذي جاء لأجله وهو الرحمة والسعادة بين كل الناس.

2 - قضية الالتزام بحقيقة الأديان السماوية فيما يتعلق بعلاقات الشعوب فيما بينها، حيث المبدأ هو المساواة والتعاون والاحترام.

3 - قضية فلسطين، وحقوق الشعب العربي الفلسطيني)[1].

ومما يتهيأ للمتأمل في هذه الموضوعات الثلاثة التي حملها الشيخ في ملفّه الحواري

---

(1) المرجع السابق، ص235-236.

للتداول فيها مع بابا الفاتيكان، القول بأن صاحبها وهو ينطلق من مبدأ التعريف بالذّات الدينيّة، يتجاوز موقف المراوحة والانحصار في الدفاع عن هذه الذات إلى أبعد منه محاولاً كسب الآخر عقدياً، بسحب ما يدل منه على اعترافه وقناعته بمصداقيّة الدين الذي يؤمن به الشيخ ويدعو إليه، أو كسب دعمه المعنوي في قضية هامة ذات بعد سياسي، ترتبط ارتباطاً تاريخيا -لا ينفصم- بالذات الدينية في منظورها الحضاري الأشمل.

وإن تعذر هذا وذلك فلا أقلّ ولا مانع عند الشيخ من التعاون مع الآخر لمحاربة الفساد والانحراف في العالم، والعمل على نشر المشترك بين الجانبين من القيم الإيجابية الخيرة. وللعلم فإني حريص على حسن فهم القارئ بأني لست بهذا في صدد المفاضلة بين المسارين؛ فهما برأيي منهجان متكاملان مع سائر المناهج الحوارية الأخرى بمختلف الاعتبارات والحيثيات؛ على أن الذي يشغلني في هذا الموضوع هو الخروج بزاد معرفي ومنهجي يمكنني من تشكيل باقة منهجية شاملة ومتكاملة، تستمد عناصر وجودها من مختلف المناهج الحوارية، قديمها وحديثها.

وتأسيساً على الاعتبار ذاته فإني في هذا المقام وفي ختام المقابلة المنهجية بين ديدات وغيره، سأعرض عن التصريح بالقضاء له بالتجديد والإبداع، أو الحكم عليه بالتقليد والإتباع، يدفعني إلى ذلك كل من:

آ - تقديري له ولغيره ممن أعتبرهم جميعاً قدوة صالحة وصادقة في إخلاصهم النيّة في خدمة الإسلام، والسعي نحو تحقيق مطالبه الدفاعيّة وغاياته الدّعوية الواحدة.

ب - ثقتي وحسن ظني بالقارئ في أن بمقدوره الإهتداء في هذا الشأن إلى حكم علمي موضوعي، يردُ كنتيجة منطقيّة يمكن استخلاصها في ضوء تلك المقابلات التي لا ضير في اعتبارها مقدمات لتلك النتيجة الحكمية.

ج - مؤدى ما سأسوقه من خصوصيات ديدات في العمل الحواري، والتي لا غضاضة ولا مبالغة في القول بأنها مزايا مبتكرة يسجّل له فضل السبق إلى بعضها،

والتفرد بالبعض الآخر من تلك المميزات التي يتمثل عدد منها فيما يلي :

أ - **التفرغ للحوار والتّخصص في مناظرة النصارى :** قادت ديدات منطلقاته الدفاعية إلى التفرغ للعمل الحواري ، والدعوة إليه في نطاقه الأوسع مع مختلف الجماعات الدينية ، والتيّارات الفكرية . وإن كان في ظل هذه الدعوة العامة إلى الحوار العام ، قد تخصّص في مناظرة النّصارى ، واشتهر بها عند العامة والخاصة دون غيرها من الحوارات والنشاطات الدّعوية التي تحظى بمساحة معتبرة من حقل عمله الإسلامي الكبير ، وتتصل بهذه الميزة :

ب - **مبادراته وتنقلاته الحوارية :** حافظ الشيخ ديدات عبر مسيرة نصف قرن من الحوار على روح المبادرة إليه ، حيث كان يتحرّق شوقاً إلى المبادرة بترتيب اللقاءات الدينية ، وظلّ شعلة نشاط لاهب يدفع به إلى الحركة والتنقل نحو كل ما يمت بصلة لقضية الحوار والدعوة ، وقد حقق بتنقلاته الكثيرة ما لا مطمع في الوصول إليه لو استقرّ وأقام دون تكلّف المبادرة ، أو تحمّل مشاق الإقدام والتنقّل .

ج - **الاعتماد - بعد الله سبحانه وتعالى- على الذّات في تكوين شخصيته الحوارية :** صحيح أن ديدات قد خضع لمؤثرات موضوعية وأفاد من كتب وشخصيات أصيلة ، ولكنه لم يتلقن أساسيات وقضايا الحوار مع أهل الكتاب عند غيره ، إذ لم يعرف له ما عرف لغيره من أساتذة تَلقّى العلم على يدهم ، رغم إفادته من محاضرات المسلم الإنجليزي فيرفكس الأسبوعيّة والتي لم تدم أكثر من شهرين . فمن خلال قراءته المستوعبة ، واطلاعاته الواسعة ، وخبراته العملية ، وجهوده الشخصية استطاع أن يترقى سنام المجد الذي رآه الكثيرون أهلاً له وجديراً به ، وذلك فيما سيرد في حينه .

لقد كان على اطلاع جيّد بالكتاب المقدّس ، كما كان مطّلعاً على كتاب إظهار الحق وغيره ، وبالطبع عرف شيئاً غير يسير عن الدراسات العربية الناقدة للفكر الصليبي ، فاتخذ من ذلك كله مصبوغاً بطابع قدراته الشخصية ، منطلقاً للشروع في كتاباته المقارنة ، ولكل ما أقدم عليه من محاضرات ومناظرات .

وقد يؤخذ عليه في اعتماده الكبير على الذات القصور عن العودة إلى الرصيد الخصب من تراث السلف المسلم في مجال المقارنة والمناظرة، حيث ظلّ مقيداً بحواجز اللغة والتعلّم، فلم يفلح في تخطيها إلى تغذية الفكر والمنهج من ورائها.

هذا وإن جاز الاعتذار عن الموقف بأن منطلق الإعتداد بالنفس والاعتماد عليها مما يبرره، فهو مدفوع بأن منطق البحث العلمي ينتقده ويرفضه.

وكم هو عظيم ما كان بالإمكان أن يفيده الشيخ ديدات برجوعه واطلاعه على أعمال من سبقه في الردّ على النصارى، فينمّي بها ثقافته، ويثري بها مناظرته ومحاضراته، ويؤصّل بها لمؤلفاته ومنشوراته، فقد فاته هذا التوجه العلمي الصّحيح الذي ينطلق في تعامله مع البناء المعرفي من مبدأ الطبيعة التراكميّة للمعرفة الإنسانية، وذلك بتعاقب الأجيال على المساهمة في بنائها بالأخذ والعطاء اختصاراً للزمن وتوفيراً للمجهود، ولصرفه في كشف وإضافة الجديد المفيد.

د - **الدخول بالحوار مدخل الإعلام الدّعوي الصّادق**: أفاد الشيخ من إمكانات عصره الحديثة، فنقل مبدعاً العمل الحواري من الدوائر العلمية، والميادين المحلية، إلى الفضاءات الإعلامية، والآفاق العالمية، وهو ما لم يكن متاحاً لأسلافه بالقدر نفسه، كما لم يتهيأ له معاصروه؛ إذ-فيما يبدو لي-لم تشغلهم القضية بمقدار ما شغلته. فبمقتضى اهتمامه الوافر بكل من الردّ الحواري، والكسب الدّعوي، عمل على إعلامية القضية، فنشر في إطارها الكمّ الهائل من الكتيبات، والأشرطة المرئية، والتي ترمي بالإضافة إلى خدماته الإسلامية الأخرى إلى تحقيق الأقصى والأسمى من المقاصد الدّعوية.

هـ - **استخدام لغة ذات نطاق انتشاري واسع**: لقد وفق ديدات ومن غير اختيار في مخاطبة العالم بلغة تعدّ من أوسع اللغات انتشاراً في عالمنا المعاصر، وهي لغة يتحدث بها ويجيدها شعوب كثيرة من الذين يتّجه إليهم ديدات ويعنيهم بحواراته أكثر من غيرهم. ولا شك أن سعة نطاق الإتصال بالآخرين من الأمور الهامة

والمطلوبة بالنسبة للدعاة، ولكل من تحتم عليه طبيعة عمله الانفتاح على الآخرين والتواصل معهم. ومن ثمّ فإن معلوماتنا الضئيلة عن المحاورين المسلمين في هذا الشأن تحسم لصالحه أية مقارنة بينه وبينهم في هذا المجال، مع سابق إقرارنا بأن دخله في هذا الأمر لئن وجد فهو قليل؛ إذ هو توجيه وتوفيق إلهي أكثر من كونه تدبيراً إنسانياً مخططاً. ومن هذه المقابلة المنهجيّة التي ربما طالت بعض الشيء يتبين لنا منهج كلّ من ديدات وغيره من أعلام الحوار، ورموز الجدل والمناظرة، كما يتبين لنا أيضًا جانب خاص من الموافقات المنهجية التي يشترك فيها مع كلّ منهم على حدة، فضلاً عن بعض الخصوصيات التي تفرّد بالإختصاص بها دون غيره.

ولعل الصورة المنهجية للشيخ ديدات لا تكتمل ما لم نخصّص الآن مبحثاً فرعياً، لعرض الطّابع العام، والمعالم البارزة للمنحى المنهجي الذي سلكه في حواراته، ودعوته بوجه عام.

❖ ❖ ❖

المبحث الثالث

السمات العامة والملامح الرئيسة لمسلكه في العمل الإسلامي حواراً ودعوة

يتعين في مستهل عرضي لأهم تلك السمات التنبيه إلى أن مسألة حصرها جميعاً في هذا المقام ليست واردة عندي، وإن القصد يتجه فقط إلى تقديم أمثلة تمكن من تشكيل صورة عامة عن الملامح الرئيسة لهذا المنهج، الأمر الذي يعني أن إمكانية الوقوف على سمات أخرى غير معروضة هنا؛ تظل أمراً ممكناً.

علاوة على أن المبحث يتضمن كلاً مما يخص الحوار وما يعم الدعوة على سبيل الخلط، وذلك لدقة الحدود الفاصلة أحياناً بين بعض سماتها، ولتنازعهما أحياناً أخرى على سمات مشتركة بينهما، ويتأتى ذلك في ظل انطوائهما تحت عمله الإسلامي الكبير والذي تتحدد ملامحه في العناصر الآتية:

1 - تنوع المجالات وتعدد الأنشطة:

لقد تطرق مدُّ عمله الإسلامي إلى مجالات متنوعة، وتسرب فيضه إلى أنشطة متعددة، فاتصف عمله بشموليّة سبقت الإشارة إلى أهم جوانبها الخفية، والتي ظلت لحد الآن مجهولة عند العامة من الناس باستثناء نشاطه الحواري وما يتصل به من منشورات ومطبوعات وتسجيلات مرئية. ولعل انطلاقه من هذا النشاط وتركيزه عليه من جانب آخر يعد العامل الرئيس في رواجه عنه وشهرته به أكثر من أي نشاط إسلامي آخر.

2 - البساطة والوضوح:

وهما من أهم ما يميز مسلك ديدات في عمله الإسلامي بمختلف تجلياته الحوارية والدّعوية، وقد لازماه من بداية عمله الإسلامي، حيث إنّ وضعه المعرفي البسيط كان يتطلب مسلكاً بسيطاً وواضحاً يتناسب ومستوى معلوماته ومداركه، ولما بلغ أشدّه واستوى على سوقه في المعرفة بالكتاب المقدّس، امتد الطابع وظل يفرض نفسه عليه، ولكن باعتبار آخر يتمثل في مراعاة مناسبة مقتضى حال المدعوين، ومن يسعى ديدات للتأثير عليهم بخطابه الحواري المناظر، وهو شأن يقتَضي الحفاظ على بساطة ووضوح المسلك في شتى روافده ومفارقه.

3 - عصرية مسلكه في العمل الإسلامي :

الظاهر أن ديدات يبدي بالفعل لا بالقول تطلعه الصّاعد إلى عصرنة مسلكه العملي، والارتقاء إلى مستوى إمكانات العصر الآلية ومبتكراته الأسلوبية؛ فلذا لا يني عن توظيف مختلف الوسائل الإعلامية الحديثة لخدمة رسالته الإسلامية الهادفة، وهو في سيره الملتزم بهذا الخط يحاول باهتمام تطوير نشاطه، ليجعل منه عملاً إسلامياً معاصراً يتواءم مع حاجة أهل العصر، ويستوعب أساليب إقناعهم، ويواكب طرق التأثير فيهم. وعليه؛ فإن وصف مسلكه الإسلامي بأنه عصري هو -بكل حياد- وصف دقيق وصادق عليه.

4 - البعد عن التطرف ومقت العنف :

يسفر استقراء عمله الإسلامي عن شدّة نبذه للعنف، وإعراضه عن الإكراه وشتى صنوف الضغوط وأنماط القسر والجبر، وقد اكتسب ديدات هذا الطابع الحميد بانتمائه إلى مدرسة (لا إكراه في الدين، وإنما بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن)، وقد ورد عنه ما يؤكد هذا المعنى مفيداً سلمية منزعه في العمل الإسلامي، وذلك فيما نصه: «الإسلام سيسود، إنه وعد الله ووعده حقّ، لكن كيف؟ بالسيف؟ لا حتى ولو كان عندنا سلاح ذري، هل يمكننا استعماله؟ القرآن الكريم يحرّم علينا استخدام القوة كوسيلة للهداية»[1].

ويتبين من قوله هذا إيمانه بمصداقية الوعد القرآني الذي يرفض القرآن ذاته استخدام القوة لتحقيقه، وإنما تتحدد مسالك الدعوة إلى مشروع الخير القرآني في الخيّر من الوسائل والأساليب. فبموجب هذا الفهم اتجه ديدات إلى التركيز على الحوار والإقناع وعلى الدعوة والتربية، وتأهيل دعاة محاورين، معتمداً في كل ذلك على الوسائل العلمية والإعلامية.

وقد دفعه التطلع والحفاظ على سلمية وأمن العمل الإسلامي إلى إيجاد وتقديم حلول موفقة لإشكاليات مثيرة، أهمها:

---

(1) الرسول الأعظم محمّد ﷺ ص95-96، مصدر سابق.

5 - معالجة تناقض ثنائية الدين والوطن:

أدرك ديدات بثاقب وعيه وبوضعه الحسّاس في إطار أقليّة في مجتمع غير مسلم، أن التناقض حين يقع بين الدين والوطن قد يفضي إلى مخاطر وخيمة العواقب، وقد يجر المجتمع إلى ويلات وقلاقل تتبخّر في أجوائها كل إمكانية للعمل الإسلامي المتدرّج، كما تنعدم بسببها ما كان متاحاً من هوامش نسبية ومساحات ضيقة، من الحرية الدينية عبادةً وحياةً، والدّعوية تنظيماً ونشاطاً.

وقد توصل ديدات في ضوء تأملاته في هذا الأمر، وبعودته إلى القرآن الكريم إلى حلّ له مكانته في سمات عمله الإسلامي، وهو ما أفصح عنه بقوله: . . . إذا كانت دولة تستحق أن يعيش الإنسان على أرضها . . . فإن هذه الدولة تستحق أن يموت الإنسان في سبيلها . . . والإسلام يعلمنا أنك إذا لم تستطع أن تعيش في دولة ما؛ بمعنى أنك لا تستطيع أن تعبد الله على أرضها بحرية، وتؤدي فرائض دينك . . . فإنّك تستطيع أن تهاجر، يقول القرآن الكريم: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: 56][1].

ولا يخفى أن معالجة ديدات المبدئية الموفقة قد تثير في حد ذاتها بعض الإشكاليات التي ليس لهذا البحث أن يقحم نفسه فيها؛ لبعد صلته بها، ويبقى أهم ما نودّ أن نشير إليه: هو أن منهج ديدات في العمل الإسلامي يؤكد على الأمن والسلام، ويحافظ على الانسجام والاستقرار الاجتماعيين، معولاً بكل أمل على ترشيد استثمار فرص الحرية من أجل تحقيق التقدم في هذا العمل، وكسب المزيد من الإنجازات والانتصارات، وبالمقابل دأب ديدات في مختلف لقاءاته بالأقليات المسلمة في العالم على توصيتها بالحفاظ على الهوية والغيرة على تربية الأولاد، وتنشئة الأجيال الشّابة على مبادئ وقيم الدين الإسلامي السمحاء، حتى لا يؤدي الانفتاح والانسجام مع الآخرين إلى ضياع من تقل فيهم المناعة الثقافية لحداثة سنّهم، وغربتهم في مجتمعات

---

(1) شيطانية الآيات الشيطانية، ص93، مصدر سابق.

غريبة بعيدة عن قيم المسلمين وديارهم.

6 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لهذه القاعدة طابعها الجلي على مسلك الشيخ ديدات من خلال أمثلة متعددة ومواقف متكررة في خضم جهوده الإسلامية، وقدّ تقدّم في أنشطته ومجالات عمله الإسلامي الحديث عما قام به من دور إرشادي في توجيه الأقلية المسلمة في جنوب أفريقيا، وضبط علاقاتها الاجتماعيّة فيما بينها من جانب، ومع الجماعات الدينية الأخرى من جانب آخر، بنصوص وضوابط قرآنية. وفضلاً عن ذلك فقد كان في كلّ تجمع إسلامي يركز -إن أمكنه الخطاب- على الأمر بواجب الدعوة إلى الإسلام، ونهي المسلمين عن التقصير والتثاقل في أداء هذا الواجب العظيم. ثمّ لما أقدم سلمان رشدي على نشر تفاهاته مدفوعاً بمساندة جهات مغرضة، صادرت حكومة جنوب أفريقيا كتابه وحظرت تداوله في أقاليم بلادها، فضلاً عن رفضها دخول المؤلف إلى أراضيها، وقد تمثل ظهير هذا الموقف الحكومي الحكيم في إيعاز ديدات إلى عبثية هذا الفكر وسفاهة صاحبه، وذلك من خلال مذكرة وجهها إلى السلطات المختصّة في بلاده آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.

وقد أفضى به المبدأ نفسه إلى التحرك إلى بريطانيا - معقل سخافات رشدي - للقيام بحملة إعلامية ضد هذا الإنسان السّاقط، على أنه وإن كانت المحاولة لم تتم على النحو المراد والمخطط له، وذلك لما لقيه من معوقات مضادة، إلا أنه قد وفق في إلقاء محاضرة عامة سلّط فيها الضوء على هذا الفكر العاري، وسلخ صاحبه عن آخره معرياً حقيقة منطلقاته الشيطانية، وما يرمي إليه من غايات هدّامة[1]. وفي بيان موقف بلاده الرسمي المشار إليه آنفاً تحدث قائلاً: «... ولقد كان موطني جمهورية جنوب أفريقيا في مقدمة الدول التي حظرت تداول الكتاب، بالإضافة إلى منع رشدي نفسه من دخول جمهورية جنوب أفريقيا، ولقد تم ذلك في أوائل شهر أكتوبر عام 1988م. قبل أن تحذو هذا الحذو

---

(1) ستكون لنا في هذه الرسالة بعون الله تعالى وقفة لاحقة مع أنموذج منهج ديدات في التعامل مع قضية سلمان رشدي وغيره.

دول إسلامية كثيرة بوقت طويل»[1]، وما كان هذا وارداً لولا توفيق الله سبحانه وتعالى وفضل قيام ديدات بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فياله من محتسب عظيم.

7 - الجدية وصرامة الالتزام بالوقار:

يتمتع ديدات كطابع مسلكي بجدية صارمة ووقار مهيب من اليسير على المدقق أن يتلمّس ملامح هذه الجدية في كل جزئية من كلية عمله الإسلامي، وربما حتى في صورته الشخصية التي تعكس قدراً من الصرامة والجدية، والالتزام والصمود في ميادين الحياة والحوار والدعوة. والدليل على هذه السمة فيه: أنه عصف هاتفاً بقولته الجادّة حين تفجّر الحضور ضحكاً أثناء مداخلته الحسّاسة في أحد المؤتمرات الإسلامية فقال: «لا داعي للضحك فليس هناك ما يدعو للضحك لو عرفتم ماذا يفعل هؤلاء، هذه هي المشكلة مع المسلم فإنه يأخذ الأمور الخطيرة وكأنها نكت، وبسبب ذلك نهزم دائماً»[2]، إن هذا الوقار الديداتي وهذه الجدية الصّارمة التي لا بست كل نشاطاته الإسلامية يمكن إرجاعها إلى سمة أخرى هي:

8 - الصدق في القول والإخلاص في العمل:

إن الصدق قوام العمل الإسلامي وغايته، والإخلاص روحه ورائده وإن لسان حال عمله الإسلامي بمناحيه المتعددة تكشف عن صدق عميق في التوجه والقول، وتعبر عن قدرٍ هائل من الإخلاص والحب للرسالة والعمل، لقد ظلّ حياته يحمل للعالم غير الإسلامي خطاب الحق بلسان صدق أمين، كما وقف جزءاً نفيساً من جهوده لتنبيه المسلمين ودفعهم نحو مصاعد الإخلاص للدعوة الإسلامية؛ وذلك بعد أن ضرب لهم من أروع الأمثلة وأخلصها في هذا الشأن، وحسبنا دليلاً على هذا أنه أطلق حقّ نشر منشوراته للجميع وأذن به للكل، سيّان في ذلك المكتسب أو المحتسب[3]، حيث إن هدف ديدات هو العمل على كشف الحقيقة لمن يجهلونها

---

(1) المصدر السابق، ص56.

(2) المؤتمر الثالث للدعوة الإسلامية، ص129، سبق ذكره.

(3) ينظر: المصدر السابق، ص132.

بالدعوة إلى الحق، ومن كان هذا همه فسوف تهون عنده العوائد المادية لنتاجه الفكري، إذ يرى في مختلف طرق النشر مغنماً ثميناً ووسيلة سريعة للوصول إلى الهدف المرتجى باعتباره الأسمى والأبقى، مما يدل من مجموع أمثلة لا حصر لها على ميسم الصدق والإخلاص في مسلكه الإسلامي قولاً وعملاً.

9 - طابع النزوع إلى المقارنة:

لقد تعدى المنهج الحواري المقارن نطاقه عند ديدات فتغلب على مجمل عمله الإسلامي، فكان من آثار هذه الغلبة انصياع أسلوبه وفكره ودعوته...... لهذا الطابع المقارن الذي تحكم في نشاطه إلى حد ظاهر. ولذا يميل إلى المقارنة حتى وهو يتحدث عن واقع الدعوة والعمل الإسلامي؛ حيث تجده يورد إحصائيات وكشوفات مقارنة بين الجهود الدّعوية والتنصيرية، موازناً بينها في مختلف جوانبها، وبالأخص في نشاط توزيع المطبوعات والمصادر الدينية[1].

وفيما يخص محاضراته وحواراته الدينية ففيها تتوالى صور المقارنة، وتتلاحق أوجه الموازنة بين الإسلام وغيره، في نطاق القضايا التي يتناولها في تلك النشاطات الإسلامية والمواقف الدّعوية، ولهذا الطابع من الموارد الكثيرة جداً والصور المتناثرة في ثنايا مختلف جوانب عمله الإسلامي ما لا حاجة للقارئ إلى تأكيده بالاستشهاد عليه.

10 - مسلكه عملي أكثر من كونه خطاباً نظرياً:

من سمات منهجه الحميدة أنه متحيز للعمل والنشاط، على حساب الميل والتعلق بالقول والفكريات النظرية. وقد تبين في موضوع سابق رجحان نشاطاته العملية على مقولاته الفكرية، الوضع الذي يبرره مدخله الدّعوي، علاوة على خلفيّة صلته الضئيلة بالتعلم والثقافة الإسلامية. وقد عمد الشيخ إلى تعويض هذا التخلخل الثقافي بشغفه الكبير بممارسة العمل الإسلامي الذي يستمتع ديدات بأدائه في مختلف مجالاته وفروعه، وهذا الشغف النبيل هو الذي قاده إلى الموقف الذي عبر عنه قائلاً: «من

---

(1) المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص129.

عادتي وواجباتي الممتعة أن أصحب غير المسلمين كمرشد لهم في جـولات داخـل أكـبر مسجد في نصف الكرة الجنوبي بديربان»[1]، وفضلاً عن هذا الموقف الدّال على هوايته العمـل الإسـلامي، نذكـر بـأن شـهرة ديـدات ونجاحـه يعـودان إلـى عملـه المخلـص، واندفاعه النشط، أكثر من الاعتبارات الفكرية التي لم نقف له منها على مـا هـو جديـد ومثير، فيستحق منا الإشادة، والقول بموازاته للخط العملي الفاعل.

11 - قرآنية المسلك العام:

إن ثمّة حساً قرآنياً قد استغرق ديدات، فأصبح يتبصّـر بـالقرآن الكريـم وبـه يبشر ويحاور، ومن خلاله يطرح قضاياه الحوارية ويلوّح طروحات المخالف، وفي كل شـأن إسلامي يحاول أن ينطلق فيه من القرآن الكريم أو يلتمـس لـه تـأصيلاً قرآنيا وقـد أبـان الجوهـر القرآنـي لعملـه الإسـلامي عـن نفسـه في كثرة مقولاتـه الاسـتدلالية بنصوصـه الكريمة المفحمة، وفي نشره للعدد الهائل من ترجمة معانيه باللغة الإنجليزيـة، بالإضافة إلى صياغة مقولات دعائية مثيرة تجذب بقوة نحو القرآن الكريـم، عـلاوة علـى حمله كتاب الله تعالى معه، وتعليتـه علـى رؤوس الأشـهاد في كـل محفـل حـواري، لعرضه على النّاس، ولعل من لقبّه بخـادم القـرآن الكريـم[2]، انطلـق في تأسـيس هـذا اللقـب، على ما لاحظه في عمله الإسلامي بمختلف مشمولاته، من قرآنية طابعه العـام؛ إذ مـن القرآن استقى منهجه العام، ومنه استمد بعض أدلته، ومعظم موضوعاته.

12 - التركيز على العقيدة والأخلاق:

وهو مـن إفـرازات الطـابع القرآنـي ومـن أبـرز ملامحـه، وقـد تركـز مضمـون عمله الإسلامي على العقيـدة والأخـلاق تأسـياً بـالقرآن الكريـم. وإن هـذا التركـيز قـد أفضـى بخطابه الإسلامي إلى حالـة قريبـة مـن التخصـص في العقيـدة أولاً، ثـم الأخـلاق ثانيـاً. ولكنه مع طابعه العقدي تجاوز به مستوى القضايا الفلسفية المستغلقة والمناقشـات الجدلية

---

(1) الرسول الأعظم محمد ﷺ ص40، مصدر سابق.

(2) ينظر: العرب وإسرائيل شقاق...أم وفاق، ص17، مصدر سابق.

الفارغة، فكان بكل بساطة ووضوح يقيم الحجة ويؤصل لموضوعاته العقدية التي يطرحها على مشرحة الدرس والمناظرة. والظاهر أن تمحور عمل ديدات حول العقيدة والأخلاق قد ورثه ميلاً إلى التهوين من شأن حوارات العموميات المشتركة، وانتقاد من يتجه نحو هذا القبيل من الحوارات التي يصفها بأنها تدور حول أمور غير التي حددها وأرادها الله، وذلك لأنها تجري غالباً في مسائل غير عقدية. وسوف يتضح إن شاء الله في دراستنا لمحور الحوار الإسلامي المسيحي مدى خطأ هذا الاتجاه الذي تبناه ديدات في تخطئة من يمارس حوارات من نوع آخر مختلف ومتكامل مع ما هو عليه.

13 - التآزر بغير المسلم في خدمة الإسلام والمسلمين :

يعتضد ديدات بعناصر غير مسلمة لدعم مواقف وقضايا إسلامية حين يقتضي صالح عمله الإسلامي تصرفاً من هذا القبيل، فلهذا السبب لا يُفوّت فرصة استغلال واستثمار دعم ونفوذ ذوي النزعة الإنسانية السوية، ممن يلتقي معهم ديدات من أبناء وقيادات العالم الآخر في الدفاع عن نفس القضايا الإنسانية العادلة والانتصار للحق المبين. ومن أمثلة هذا المسلك تعاونه مع النائب الأمريكي بول فندلي في عقد ندوة كاشفة لحقيقة القضية الفلسطينية، وفضح شراسة الصهاينة واعتداءاتهم الدموية المخزية[1]. ويقع أيضًا في هذا الإطار ترجمته ونشره لبحث رامكر شنه راو عن الرسول ﷺ وهو أستاذ الفلسفة في إحدى الجامعات الهندية، وقد قدّم في هذا البحث بموضوعية قصوى عملاً علمياً منصفاً ورائعاً[2].

14 - الإيمان بجدوى الحوار والدعوة إليه :

فمنذ أن شرع ديدات في عمله الإسلامي من مدخل الحوار، لم يخالجه أدنى شك في يوم من الأيام في فاعليته وجدواه. ومن ثمّ فقد تهيأ له، ومارسه عن علم بموضوعاته، ومعرفة بأساليبه وفنونه، وظلّ يدفع بالآخرين نحو استمرارية هذا العمل

---

(1) ينظر: كتاب العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، فهو حصيلة هذا التعاون.

(2) ينظر: كتاب محمد ﷺ المثال الأسمى، مصدر سابق.

تمكيناً لروح الحوار ونشراً لثقافته في أوساط الدعوة والدعاة.

أما إيمانه بدوره الفاعل فيستدل عليه بقوله: «أقول إنّ قدر الإسلام هو أن يلحق الهزيمة بكل أيديولوجية عن طريق الفكر»[1]، فتطبيقاً لهذه القاعدة الأصلية وتفريعاً عليها مارس ديدات فن الدعوة والمواجهة بالفكر وأخلص النصح في أكثر من مناسبة للعناية بالمسلك نفسه. ومن ذلك قوله: «في هذه المعركة المستمرة مع اليهود ومع النصارى، نحن نحارب ضدهم بالفكر وهذا ما يطلبه الله منا، أن نخوض هذه المعركة الفكرية، وهو يعدنا ويقول: ليظهره على الدين كلّه. . . سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الهندوسية أو الشيوعية وأي معتقدات أخرى، فالإسلام سيعلوها جميعاً. . . ويسحقها جميعاً»[2]، ولا شك أن ثقة ديدات بالناس وحسن ظنه في قدرة عقولهم على التميز بين الحقّ والباطل، كان بالإضافة إلى الدعوة القرآنية عاملاً مشجّعاً على المزيد من المبادرات الحوارية بعد أن تفرغ لها ولما يتصل بها من نشاطات إسلامية. وقد أقدم على كل خدماته في هذا المجال بهدي من القرآن الكريم، ودفع من ثقته في عقول الناس، والتي عبّر عنها قائلاً: «نعم من حق الناس أن يعرفوا الحقيقة ويميزوا الحق من الباطل ليزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم بشأن عقيدتهم ودينهم، . . . إننا نحن المسلمين نثق بالناس وبقدرة الناس على الفهم السليم، والتمييز بين الحق والباطل، فالعقل السليم أعدل الأشياء قسمة بين الناس»[3].

وأما تهيؤه للحوار وتكوين شخصيته الحوارية، فقد تبين قدر كبير من ذلك من خلال كل من صلته بالعمل الإسلامي، وفي دراسة المنهج الحواري الذي سار عليه، حيث قد قادته عملية التكوين الذاتي وإعداد النفس للحوار، إلى الإقدام على حفظ الكتاب المقدّس في أغلبه إن لم يكن كلّه، وهو ما أعانه على عبقريته الاستشهادية في اعتماده على الذاكرة في سوق النصوص بدقّة متناهية، وفي تحديد مواطن تلك

---

(1) المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص133.

(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) عتاد الجهاد، ص24، مصدر سابق.

النصوص من إصحاحات الكتاب المقدس، وضبطها بالأرقام المقرونة بها بطريقة جدّ مدهشة. ولكنه في هذا الشأن ليس بدعاً من تاريخ الأمة الإسلامية؛ حيث إنه مسبوق بسلف من أبرزهم: أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام[1] الذي قال عنه أحد من ترجم له: «وروي أنه كان لا يكتب ولا يقرأ وقد حفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس في الفتيا»[2]، وذلك حتى تتسع قاعدة ثقافته الحوارية فيتمكن بها من إفحام غيره بكل يسر وسهولة.

وفيما يخص استعداده الدائم للحوار ودعوته إليه مع الجميع، فقد سلف من أدلة ذلك ما يحسن التذكير به لأهميته وعظم فائدته، وهو قوله: «إنني أقول لإخواني المسيحيين واليهود تعالوا إليّ ناقشوني، استوضحوا أي شيء تريدون منيّ، تعالوا إنني أرحب بلقائكم والتفاهم معكم، تعالوا إنني أرحب بكم»[3]. وقد ترتب على هذا النهمّ الحواري عند ديدات ظاهرة:

15 - الفصل بين الحوار والدعوة:

إذ من الممكن - حين نمعن النظر ونعمل الفكر في عمل ديدات الإسلامي - الاهتداء إلى نوع من التفرقة بين ما هو حواري وما هو دعوي؛ حيث إن موقفه الحواري يتّسم بالدفاع عن الدين والتطلع إلى الغلبة على الآخر، ومن القليلة جداً في حواراته المبادرة بتقديم وطرح البديل الإسلامي الأفضل، وكأن كل همه ينحصر في الوصول إلى دكّ بنيان عقيدة الخصم فيقتنع بفسادها وتنكشف حقيقة الأمر للآخرين، دون عناية ملموسة من شأنها تجاوز هذه المرحلة لتأسيس لبنات العقيدة الإسلامية في نفس الخصم وغيره؛ وذلك من منطلق دعوي قائم على الدرّء والجلب. هذا بينما

---

(1) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام، كان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة، ت231هـ=845م. ينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين مج1/ ج1/ 37، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت

(2) أحمد بن يحي المرتضى: طبقات المعتزلة، ص55 تحقيق سوسنة د يقلد، عام 1960م. من منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.

(3) العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص35، مصدر سابق.

نجده بالمقابل لا يقصّر إطلاقًا خارج الدوائر الحوارية في صرف جهدٍ معتبر في الدعوة إلى الله بشتى الوسائل والإمكانات المتاحة له.

إذن؛ فعلى هذا الأساس يتأتى الطرح بأن العمل الحواري عند ديدات نشاط إسلامي مستقل عن عمله الدّعوي، ولكنْ يتكامل الاثنان مع غيرهما في إطار عمله الإسلامي المحيط، والذي فرض توسعه قيام:

16 - الطابع المؤسسي لعمله الإسلامي:

من السمات التي لا يمكن إغفالها في عمل ديدات الإسلامي كونه مؤطّراً بمؤسسة تنظيمية تُعْنَى بدراسة وتخطيط وتوجيه هذا العمل بقيادة ديدات سابقاً، ويتبعها جهاز إداري وتنفيذي لمقررات المجلس القيادي. وما من شك في أن لهذا الطابع المؤسسي فضلاً كبيراً في تنشيط وتنظيم عمله الإسلامي، فقد أسهم بحظ مبارك في دفع هذا العمل نحو أرحب آفاقه وتحقيق أثرى عطاءاته، وله يدين بالشرف امتداد عمل ديدات من بعده، واستمرار هذا العمل على الدرب الدّعوي الذي رسمه له، وقاد عليه المركز طيلة حياته الدّعوية، ومدى صلته بالعمل الإسلامي. ومن حيث تشكيلة مركزه الإسلامي وأوجه نشاطه الواسع، فضلاً عن مسائله الإدارية والمالية وغيرها، فقد سبق فيها من القول ما يمكن الرجوع إليه في موطنه من هذا البحث.

17 - المبادرة بالدعوة والتنقل إلى المدعوين:

تظهر في عمله الإسلامي المبادرة به إلى الآخرين جلية واضحة، سواء في الحوار أم في الدعوة؛ إذ كان رحمه الله كثير التنقل إلى الآخر لأداء واجبه الإسلامي وتأدية رسالة القرآن، وأغلب ما تكون مبادراته الدّعوية مقرونة بتقديم خدمات مجانية لمدعويه، تتمثل في توزيع مطبوعات إسلامية، يشغل القرآن الكريم ومنشورات مركزه حيزاً كبيراً منها، كما أن مركزه الإسلامي يلبي الطلبات اليومية الواردة من مختلف أصقاع وأطراف العالم الراغبة في الحصول على أشرطته الحوارية أو كتيباته المقارنة، أو المتضمنة استفسارات دينية، وغيرها من القضايا التي لا يبطئ المركز في العمل على إرسال الردّ الإيجابي لأصحابها فور

وورود تلك الطلبات في حدود الإمكانات المتاحة. وبخصوص حركته بالعمل الإسلامي فقد وَسعَ ديدات مختلف مناطق العالم بتنقلاته الإسلامية، وكان بذلك في مستوى قول القائل: «. . . إن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية في أعصابه، متوهجة في ضميره، تصيح في دمائه فتعجله عن الراحة والدعة إلى الحركة والعمل، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله. . . وهذا هو الداعية الصادق الذي تحس إيمانه بدعوته من النظرة والحركة، والإشارة»[1]. هذا ومع هذه الحركة الدائبة التي عرف بها ديدات عند متابعيه استطاع أن يكسب عمله الإسلامي سمة علمية من نوع آخر ألا وهي:

18 - ظاهرة ابتكار المصطلحات الخاصة:

يتناثر بين مسجلات ديدات وكتاباته، عدد معتبر من المصطلحات التي تحمل أهمية خاصة، بالنسبة لمن يُعْنى باستقصاء علمي لألفاظ ومصطلحات علماء الحوار والمقارنة. إذ لا يعدم صاحبه في التراث الديداتي ما يمكن الاعتداد به لتأكيد القول برفده وإثرائه لعلم مقارنة الأديان بمصطلحات جديدة لم يسبق إليها، وإنما ابتكرها ابتداعاً أو استحدث معان جديدة لألفاظ قديمة منها، وسنكتفي من تلك المصطلحات -وهي كثيرة- بذكر ما يلي:

أ - العهد الأخير[2]:

يستخدمه ديدات مريداً به القرآن الكريم في أخص معنييه، والإسلام في معناه الأوسع، وإن لهذا المصطلح إثارة عجيبة لأهل الكتاب وتأثيراً ساحراً على نفوس سامعيه منهم لأول مرة.

ب - قلب الموائد[3]:

وهو عبارة عن الردّ الحكيم على السائل المغرض والقدرة على التخلص بلباقة من

---

(1) البهي الخولي: تذكرة الدعاة، ص26، ط دار الفتح، د. ت. د. م.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص16، وينظر: القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص107.

(3) ينظر: شيطانية الآيات الشيطانية، ص13-14، مصدر سابق.

مكر ومؤامرات الكائدين، للنفاذ إلى إثارة أعمق ما يغيظهم، ومن حيث لا يتوقّعون.

ج - البرمجــــة[1] :

وتعني - في فهمنا لها - عنـد ديـدات عمليـة التغذيـة، مـن خـلال التنشئة بأفكـار مسبقة ومعتقدات خاطئة، قد تجر في الغالب إلى اتخـاذ مواقـف مضـادة أو تكويـن آراء غير موضوعيـة وغير واعيـة تجاه قضايا وأفكـار، ومعتقـدات، أو شـخصيات. دون دراسة نزيهة أو تمحيص نقدي لموثوقيّة الثقافة الموروثة، أو تحري صحّة ووضوح الرؤية التي تعاقبت الأجيال عمداً على تناقلها بطريقة عفوية، وبصورة مشوشة ومشوهة.

د -كتاب البرقيات الإعجازية[2] :

وصف يطلقه ديـدات على القـرآن الكريـم لجذب رجـال الإعـلام والصّحافـة في متعدّد لقاءاته بهم.

هـ - صدمة السّياق[3] :

المقصود بها استدلال أحد طرفي الحوار بنصّ يجهـل سياقه ومناسبته، فيطلعه مناظره على حقيقة ما يجهله، موقعاً إياه في حرج شديد حين يدرك الآخرون أنه قد بهت وأفحم.

و - مرض الافتتان بالخسّة والعار[4] :

صفة يسندها ديدات إلى من يفتخر ويكشف عن معايبه وفضائحه، ما من شـأنه أن يتستر عليه المرء ويبالغ في كتمانه خشية العار والزراية. كجهر النصارى بأن حواريي المسيح أسلموه وفرّوا جميعاً هاربين، حين أخذ المتـآمرون يتربصون به لإدانته وصلبه فيما يزعمون. وهذا لعمري منتهى الحقارة والوضاعة.

---

(1) ينظر: محمّد ﷺ مثال الأسمى، ص15، 141، مصدر سابق.

(2) ينظر: القرآن معجزة المعجزات، ص73، مصدر سابق.

(3) ينظر: المسيح في الإسلام، ص، مصدر سابق74.

(4) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص48-50، مصدر سابق.

ز - انتصار الإسلام[1] :

مصطلح استوحاه ديدات من وعده تعالى في القرآن الكريم بإظهار الدين الإسلامي على الدين كلّه رغم أنف الحاقدين والمعاندين وكافة المعارضين. وقد لقي هذا المعنى هوى في نفسه فوضع له هذا المصطلح بكثرة استخدامه له في كتاباته، والتبشير به في أحاديثه إلى المسلمين.

ح - تحريف بلا توقف :

أي عملية التحريف المستمر للكتاب المقدّس من قبل النصارى، من خلال ترجماته وإصداراته التي لا تسلم غالبًا من التحويرات والتعديلات، إما حذفًا أو إضافة لأهوائهم إلى أهوائهم. وقد جاء في تعبير ديدات عن هذه الظاهرة ما خلاصته في قوله: «هذا التحوير المسيحي رأيته بنفسي في النسخة الأردية من الإنجيل، وهو خداع معتاد من المبشرين؛ خاصّة في اللغات الإقليمية»[2]، وهذا دليل صادق على استمرار التحريف وسيرورته.

ط - المحمديّون :

لفظ يتحفّظ ديدات وغيره عن إطلاقه على المسلمين لمنشئه الغربي الاستشراقي، وربما أمكن القول بأنه يلفظه بشدة، ويرفضه بوعي ثاقب. وهو ما يوحي به قوله تحت هذا الاصطلاح: «. . . إن الغربي خبير في اختراع الأسماء . . . إن الرجل الأبيض يصف نفسه بأنه مسيحي لأنه يعبد المسيح، وهو يسمي من يعبد بوذا بالبوذي، وبنفس المنطق فإنه يسمي المسلم (محمّدي) لافتراضه أنه أي (المسلم)، يعبد محمّدًا ﷺ، لكن حقيقة الأمر أنه لا يوجد أي امرئ من الألف مليون مسلم في العالم يفعل ذلك»[3].
إنه لموقف داعية خبير، تفطن لمكائد الأعداء وسوء طويتهم، فأصبح متحسساً تجاه كل

---

(1) ينظر: أحمد ديدات: محمّد ﷺ الخليفة الطبيعي للمسيح، ص103، ترجمة رمضان الصفناوي، من منشورات دار المختار الإسلامي- القاهرة/ د.ت.د.ر.

(2) المصدر السابق، ص90.

(3) ينظر: محمد ﷺ المثال الاسمى، ص12-13. مصدر سابق.

ما يصدر منهم، منبهاً غيره من المسلمين إلى خطورة أهدافهم وبعد مقاصدهم، في تصرفاتٍ وعبارات مغرضةٍ قد يراها البعض من الأمور الهينة، وهي عندهم عظيمة.

ي - الأصولية :

مصطلح أعاد ديدات صياغة مفهومه بشكل يتسم بالبساطة والتعميم حيث قد أرجعه إلى أبسط معانيه وأصحها، لكي ينسحب على كل مسلم متمسك بدينه ويشمله، دون ما يراد له من مفهوم غربي يقوم على الاتهام بصفات التخلف والتعصب والإرهاب واللامنطقية. ودفعاً لهذا الفهم السقيم المتعمد اضطر الشيخ ديدات إلى تعريف الأصولية بأنها تعني: «التمسك القوي بالتعاليم الأصولية للدين والعقيدة وهي بذلك تعتبر كلمة جميلة فنحن نؤمن بإله واحد ولا نساوم على ذلك ونعتقد أن نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، ولا نتزحزح عن ذلك، ونصلي خمس مرات في اليوم ولا نساوم على ذلك. هذه هي الأصولية فالجزائري والإيراني والسعودي وأي شخص آخر يتمسّك بتعاليم الإسلام بثبات فهو أصولي»[1]. وبرأيي ليس مما يمنع هذا الطرح من تجاوز نطاقه الإسلامي، لتنطبق بذلك صفة الأصولي على كل إنسان ملتزم بمبادئ وقواعد المذهب الذي ينتمي إليه فكراً وعقيدة.

هذا، وتتمة لكل السمات السابقة فمن الجدير بالإقرار أن مجمل نشاطه الإسلامي الهائل قد تأسس وانطبع بجملة من:

19 - الآداب الرفيعة والأخلاقيات الإسلامية السامية :

من المميزات المسلكية في عمله الإسلامي أنه يتمتع شخصياً بفيض من الأدب والأخلاق، خلع منه قدراً كبيراً على نشاطه الإسلامي، فانعكس بصورة واضحة ورائعة على هذا النشاط، فتشكلت بهذه الظاهرة إحدى السمات الرئيسة والرفيعة لمنهجه العام في الحوار والدعوة. وإن من مظاهر أدبه وأخلاقية منهجه، ما لا متسع للإسهاب فيها، وسنكتفي بذكر أقلّ القليل منها في الوجوه الثلاثة الآتية:

---

(1) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص139-140، مصدر سابق.

أ - غلبة التواضع عليه :

لقد عكس ديدات من خلال مسلكه الإسلامي العام تواضعاً جمّاً وأدباً سامياً ومؤثراً، وعلى الرغم من صلابة موقفه الحواري، وقوة دفعه الباطل بالحقّ بكل شموخ واعتزاز، إلا أنه لم يتجرّد من أخص السجايا وأسماها، كسجيّة التواضع التي خالطت شخصيته فانصبغت على منهجه العام. ومن ثم تبدت آثارها في مختلف سلوكياته مما ليس احتفاؤه بالعاملين المخلصين للدعوة الإسلامية، وتمجيده لكبار الدعاة منهم بخلع نعوت العظمة وأوسمة الفضال عليهم[1]، سوى أصدق تعبير عن هذا التواضع، وإن في مستواه القولي. ولكنه يتعزز بغيره من المواقف الدالة على ذلك من أمثلة كثيرة يتمثل أحدها في رفضه الألقاب والنعوت، ونزوله بنفسه إلى المستويات المتواضعة، وذلك في وصوله إلى السويد لعقد مناظرته الشهيرة مع كبير قساوستها، الأمر الذي لفت انتباه من كان بصحبته في الموقف، فتحدث قائلاً: «عندما وصل السيد: أحمد ديدات إلى إسكندنافيا كان الناس يتحدثون عنه وإليه، مستخدمين ألقاباً مثل البروفيسور ديدات، أو الدكتور ديدات، أو العلامة ديدات، ولقد انتهز العلامة أحمد ديدات أول فرصة يتحدث فيها إلى الناس في أول محاضرة يلقيها بين أيديهم هنا، لكي يوضح أنه ليس بروفيسوراً وليس دكتوراً، وليس علامة، وأوضح سيادته أيضاً أنه ليس واحداً من رجال الكهنوت المحترفين، الذين يتم تعيينهم من قبل أي جهة حكومية أو غير حكومية. . »[2].

ولا شك أن ركونه إلى التواضع كان ناشئاً عن إدراكه بأنه «يرفع قدر صاحبه عند الله، فيكون بذلك أهلاً لمعونة الله وتوفيقه له، في حين أن التكبر يعرض صاحبه لمقت الله وسخطه، فلا ينتظر له بمقتضى ذلك أن يعينه الله أو يسدد خطاه»[3]، فضلاً عن سخط الناس ونفورهم من المتكبر، مقابل ارتياحهم للمتواضع ومعه وإقبالهم عليه، وهو المعنى الذي قصده ديدات

---

(1) ينظر: القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص39-40، مصدر سابق.

(2) مناظرتان في استكهولم، ص13-14، مرجع سابق.

(3) طلعت محمد عفيفي سالم: أخلاق الدعاة إلى الله تعالى النظرية والتطبيق، ص75، ط1/ 1421هـ=2000م. دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ولخصه بقوله: «إن التواضع صفة تأسر اللب»[1]، وذلك للدلالة على القيمة الكبيرة التي يكنها للتواضع باعتباره إحدى السمات المنهجية العامة المميزة لكل عمله الإسلامي.

ب - التزامه بجميل الصّبر في خدمته للإسلام:

إن الصبر من أبرز ما يميز الإنسان المؤمن ولا سيما دعاة الإسلام منهم، وقد أورده كثيرون في آداب الداعي وصفاته، من أمثال من نصّ عليه بقوله: «الصبر في مقام الدعوة إلى الله تعالى فهو وصف الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ومدار نجاحهم فيها، ولن تسعد بها كما سعدوا وتظفر فيها كما ظفروا إلا بالصبر والثبات، ومتى فقدت الصبر والثبات كنت كمن أراد السفر في البحر من غير مركب»[2].

وإن الحديث عن صبر ديدات في خدمة الإسلام يعيد إلى الأذهان ما سلف ذكره من مئات الرسائل التهديدية التي كان يتلقّاها في بلاده من مختلف الفئات الدينية، ولكنه كان بجميل صبره ورحابة صدره، يلتمس العذر لأصحابها معزّياً نفسه؛ بأنها من طبيعة العمل الذي وقف عليه حياته[3]. وإن لنا في صبره على طول مرضه الشديد، وإصراره تحت وطأته على الدعوة بطريقة الإملائية العجيبة، ما يكفي لوحده دليلاً ساطعاً على هذا الصبر النادر على ما ارتضاه لنفسه من جهاد مقدّس، جهاد الدعوة والحوار.

ج - التحلي بأدب الحوار الرفيع:

يعد الأدب جوهراً نفيساً في حوارات ديدات، وسمة رفيعة في مجمل نشاطه الإسلامي. وكان بمقتضى هذا الأدب المستلهم من مبدأ الجدال بالأحسن يتسامح مع مناظره فيما هو محل لذلك، كتنازله أحياناً عن دوره وحقّه في أوليّة الحديث لصالح

---

(1) مناظرتان في استكهولم، ص15، مصدر سابق.

(2) علي محفوظ: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ص102، ط7، د.ت، الناشر: المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة - مصر.

(3) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص150، المصدر ما قبل الأخير.

الآخر، حين يبدي رغبته فيها وتكون القرعة لم تسعفه بحظها. وقد حصل منه شيء من هذا القبيل في مستهل إحدى مناظراته الشهيرة؛ وهي تلك التي قال عنها مترجمها: «ورغم أن القرعة خيّبت أمل الدكتور (شروش)، نجد العلامة أحمد ديدات يتنازل عن فرصته أن يكون هو أول المتحدثين، قائلاً: فليتفضل الدكتور أولاً، ويشكر مدير المناظرة العلامة ديدات؛ لأن الدكتور(شروش) كان يلح فيما يبدو قبل إجراء القرعة أن يكون أول المتحدثين»[1].

وفيما عدا الحوار أيضاً كان يدفعه سمو أدبه إلى احترام مدعويّه والحرص على إخطارهم بأي موقف جديد قد يكون مفاجئاً وربما صادماً؛ وذلك حين يدرك أن خطابه قد يتلبس بشيء من الخشونة والحدّة، فسرعان ما يبادر قبل اللقاء إلى الإشعار والتنبيه بذلك حتى لا يصدم أحد بما لم يكن متوقعاً[2]. وبالإضافة إلى هذه الظاهرة كان من سماته محاولة استمالة جمهوره والنفاذ إلى صميم أعماقهم للتأثير فيها، بعد عمله على إزالة الحواجز ورواسب العقد النفسية، وخلق جوّ من الألفة والتناغم بينه وبينهم[3].

وفيما يخص العدالة والإنصاف والتزام الحقّ ولو مع العدو، فقد كان ديدات أحد القلائل الذين يمثلون الإسلام أروع تمثيل في ميادينها، بامتثالهم تعاليم دينهم الحنيف وتحليهم بأدب الحوار والمحاضرة. وعليه؛ فإن ديدات لا يثير أية غرابة في تبرئة اليهود من قتل المسيح عليه السلام بقوله: «لا ينبغي لنا أن ننسى أن اليهود إنما هم في قفص الاتهام لأنهم متهمون بقتل عيسى عليه السلام، ونحن المسلمين مكلفون بالدفاع عنهم ضد اتهام المسيحية؛ لأن العدالة ينبغي أن تأخذ مجراها، ومهما تكن خطايا اليهود في تحريف كلام الله بالزيادة عليه والنقصان فيه، فإن الله سبحانه وتعالى قد برّأهم من تهمة قتل المسيح؛ إذ قال عز من قائل: (وما قتلوه يقيناً. . .). لقد كان العالم المسيحي يضطهد ويطارد أبناء عمومتنا على مدى حوالي ألفي عام، بسبب جريمة قتل لم يرتكبوها، هل

---

(1) مناظرة العصر، ص30، مصدر سابق.

(2) ينظر: شيطانية الآيات الشيطانية، ص16، مصدر شابق.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص72.

هي شروع في القتل؟! . . . يجوز لكنها ليست جريمة قتل»[1] .

وأحسب أن من الواضح قصده؛ حيث إنه لا يستقيم حمله على محمل الإطلاق، وإنما أنصفهم فقط، وحرّر لهم ميثاق البراءة في مسألة قتل المسيح فحسب، دون غيرها من الجرائم البشعة والانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان وكرامته، والتي دأب عليها اليهود قديماً ومعاصراً. وقد سلط ديدات نفسه لمواطنيه الضوء على بعض جوانبها، في ندوة متميزة أقامها في جنوب أفريقيا مع خبير أمريكي، أسهم كشاهد عيان في الكشف عن الخفايا المأساوية للمؤامرة الأمريكية الصهيونية في فلسطين المحتلّة[2] .

هذا وفي ختام هذا الفصل ككل، وعقب هذه السمات العامة التي أتينا منها على ما هو كافٍ لتصوير الملامح الرئيسة لمسلك ديدات في العمل الإسلامي، وذلك لضمان المعرفة الجيدة بمنهجه العام من جهة، ولإعانة من يعنيهم الأمر وتتوفر فيهم شرائطه على تقييم هذا المنهج، والحكم لصاحبه أو عليه بتيسير ظروفه وأسبابه من جهة أخرى، فإني أجد أن من تمام الفائدة وكمال التيسير الإقدام على وضع هذا المنهج في ميزان النقد، بما يعني ذلك عرض آراء وحجج البعض من كلّ فريق من مؤيديه ومنتقديه، للخروج من هذه الدراسة إما بما يشجّع على التمسك بهذا المنهج والإفادة منه، أو يدفع إلى الإعراض عنه، ونبذه، وسيتم ذلك بعون الله في هذا الفصل اللاحق.

❖ ❖ ❖

---

(1) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص22-24، مصدر سابق.

(2) سوف أعمل من خلال هذا البحث على عرض أهم أفكار هذه الندوة باعتبارها أحد النماذج المنهجية الممكنة في إطار الحوار الإسلامي اليهودي الصهيوني.

الفصل السابع

منهج الشيخ ديدات في مرآة وميزان معاصريه

« بين مؤيده ومنتقديه »

المبحث الأول : ديدات ومنهجه من وجهة نظر مؤيديه .

المبحث الثاني : منهج ديدات في مرآة منتقديه وفي تصور كلّ من الدّارس والمدروس .

المبحث الثالث : سبل الاستفادة من منهجه وتجربته في الدعوة والحوار .

المبحث الأول

ديدات ومنهجه من وجهة نظر مؤيديه

إن عملية تقييم منهج ديدات الحواري، تقتضي جملة من الملاحظات التي تدعو الضرورة إلى إبدائها قبل الخوض في عرض آراء المؤيدين، وسرد مسوغات تأييدهم له، ومن أهم تلك الملاحظات ما يلي:

1 - إن هذا التقييم ليس أكثر من محاولة مبدئية، ينحصر في حدود ما توافر للبحث من استفتاءات ومقابلات مع بعض الشخصيات العلمية، والكفاءات الدّعوية، لنقل تصوراتهم النقدية حيّة إلى صميم هذا البحث بما يتناسب مع واقعية موضوعه وجدّته، على أن الأمر لم يخلُ:

2 - من صعوبة بالغة اكتنفت التجربة، فكادت تقضي عليها بالفشل؛ حيث إن قوماً - بما يشمل شخصيات ومؤسسات - ممن نحسن الظنّ فيهم، أحجموا عن الردّ على طلبنا الاستفتائي الموجه إليهم بهذا الخصوص، فضنّوا علينا بالتعبير عن آرائهم التقييمية، ربما لاعتقادهم بحساسية الأمر، وربما لعدم علمية انطباعاتهم عن هذا المنهج، حيث إن عدداً قليلاً ممن يعنيهم الأمر هم الذين عنوا بمتابعة المنهج الديداتي، وتكلفوا هم تقصّي محاوراته، وما كان له من شأن في ذلك.

ومن ثم فقد تبين وللأسف أن السواد الأعظم من دعاتنا وعلمائنا لا تتعدى معرفتهم بديدات عتبتها الإعلامية، دون أيّ دراية علميّة معتمدة. الواقع الذي يعبر عن مأساة يرثى عليها في الظرف الراهن من مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، طالما ظلت شخصيات مثل ديدات خارج دائرة عناية أهل العلم والاختصاص. وقد أفضى هذا الوضع إلى:

3 - كون معظم الآراء التي تمكنّا منها في هذا الشأن غير علمية، وغالباً ما لجأ بعض من قابلناهم إلى معسكر التأييد، ولهجوا بكيل المدائح والثناء عليه، معبرين عن انفعالات إعلامية، وعواطف إسلامية جياشة، دون استناد إلى أسس موضوعية، وأدلة علميّة مطلعة ومقنعة. وهم بذلك يتسترون أمام هذا الحرج العلمي، وفراغ الهم الدّعوي، بإطلاق عبارات تأييدية منمقة، وغالباً ما

ينصحون بعدم نشرها، لأن حظّها من العلم، إن وجد فهو قليل، على أن هذا الحكم ليس مطلقاً على علاّته، ومعمماً على كل أفراده، بل وإنما نقرّ:

4 - بوجود طائفة قليلة من المهتمين استطاعت بعنايتها ومتابعتها أن تكوِّن عن منهج ديدات صورة نقدية، هي إلى حد ما ذات روح علمية، ليس بوسعنا التهوين من شأنها، بل بالأحرى تتعين الإفادة منها لوضع اللبنات الأولى في بناء صرح النقد العلمي الوظيفي للمنهج الديداتي. ومن أهم ما توصلنا إليه في هذا الصدد، من أصوات وأقلام مؤيدة لهذا المنهج، مشيدة بجهود صاحبه، وأهمية دوره الحواري المخلص الموفق هي ما سنستعرضه من خلال الشخصيات الآتية:

لقد وصف الداعية المعاصر محمد الغزالي رحمه الله الشيخ ديدات في تقديمه لكتاب (المناظرة الحديثة بين ديدات وسواجارت) فكتب يقول: «والمناظر الأول وهو الشيخ أحمد ديدات رجل يشبه العقّاد في غزارة اطلاعه وطول باعه، وقوة عارضته، وسرعة بديهته»[1]، إن هذا التشبيه ينطوي على بالغ الإعجاب بالعلمين معاً، وإن كان القصد منه على نحو أخص تقييم ديدات من خلال صورة تشبيهية مماثلة، من شأنها أن تقرب فكرة التقييم المطلوب، وتعين القارئ على استيعاب الصورة التي يحملها الشيخ الغزالي عن أخيه الداعية ديدات، بما تعني من مكانة علمية رفيعة، وأهلية حوارية معتبرة. وبصرف النظر عن دقة الحكم من عدمها فإن من المهم أن ندرك أن الداعية الإسلامي الكبير الشيخ الغزالي، قد أسسه على متابعته لأشهر مناظرات ديدات، وبعد تزكيته للمنهج، وثنائه على الأسلوب المتّبع في تلك المناظرة، الأمر الذي يعني عندي أنّه يقدّر عمل ديدات عظيماً، ويدَخّر لمنهجه وأسلوبه تأييداً مطلقاً، بدليل ما أفصح عنه بقوله:

> هذه المناظرة الذكية المستوعبة، هي من قبيل الجدال الحسن، أو هي مبارزة عقلية، سلاحها الفكر والبرهان، وحدهما، في

---

(1) المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان: ص8، مصدر سابق.

مصاحبة لقاء بشوش، وودّ متبادل. ومن ثمّ ختمت بالمصافحة والاحترام، وودّع كلا الرجلين صاحبه وداعاً حسناً، على مشهد الجماهير المحتشدة من رعايا وزوّار الولايات المتحدة. وعندما شاهدت الصور التي التقطت للمناظرة قلت لجلسائي: ذلكم منهج الإسلام في عرض حقائقه، إنه يذكر ما لديه، تاركاً للضمير الإنساني أن يرى رأيه، لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ [المزمل: 19].

ومن الواضح أن هذا التقييم المنهجي مبني على تركيز صاحبه وتعلقه بعقلانية الحوار وأخلاقيته، محفوفتين بجملة القدرات العلمية، والسمات الشخصية التي يتمتع بها ديدات في رأي الشيخ الغزالي الذي لا يحفل بالمعطيات التفصيلية وبمختلف القضايا والعناصر الجزئية، وإنما يتجاوزها جميعاً لإقامة بنيان تقييمه على المركب الكلي للمنهج، ومجمل عناصره العامة، وهو الموقف الذي أدّى به إلى جوهر الحكم الذي انحاز فيه لديدات ومنهجه، فلخّصه في قوله: (ذلكم منهج الإسلام في عرض حقائقه)، بعد أن علق على مناظرة ديدات لسوايجارت بأنها ذكية ومستوعبة، وجدال حسن. وممن يشهد له بالفضل، ويكن له القدر الكبير من الاعتبار عددٌ من مترجميه، ومنهم الأستاذ علي عثمان الذي قال في تمجيده إيّاه: «وديدات رجل من رجال الدعوة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد تحمّل العبء الأكبر في مواجهة تيارات الباطل الجارفة، وفي مناقشة النصارى ودحض حججهم، وردّ الحقّ إلى نصابه، فإذا قلنا أن من بين من ناقش النصارى يوجد منهم علماء يستحقون التوقير فهو ديدات، لما له من مكانة مرموقة في قلب كلّ مسلم في شتى أنحاء العالم»[1]. إن هذا التقدير إذا صح اعتباره إنصافاً لديدات فهو بالمقابل يعدُّ إجحافاً في حقّ الآخرين ممن حرموا الحقّ في التوقير المقصور على ديدات فحسب دون غيره، وربما انبهار صاحب هذا الرأي

(1) الرسول الأعظم محمّد ﷺ ص6، مصدر سابق.

بالشيخ ديدات هو الذي جرّه إلى هذا المسلك المجانب للصواب العلمي لعاطفيته، ومبالغته، ولكنه مع ذلك يصلح للنهوض دليلاً على الإعجاب بديدات، وتأييد منهجه. وعلى الرغم من عدم استخدام صاحبه صريح لفظ المنهج في خطابه إلا أن ما أقرّه لديدات من دور عظيم في دفع عجلة حركة الدعوة الإسلامية إلى الأمام هو أمر لا يتحقق في غياب منهج أساس يقوم عليه ذاك الدّور، وتتوفر من خلاله تلك النتائج الهائلة. ومن ثم تترتب على هذا الاستنتاج نسبته إلى المعسكر الذي ينتصر لمنهج ديدات ويشجّع على الأخذ به، وذلك بدليل ما يفهم من قوله: «وديدات غني عن التعريف بل إنّ كتبه خير دليل على شخصيّته، وهو غني عن التعريف، فلا يكاد يوجد مسلم إلا وهو يعرف ديدات لما له من باع كبير في سير الدعوة الإسلامية»[1].

صحيح أني لا أنكر شهرة ديدات إعلامياً على المستويين الإسلامي وغير الإسلامي، ولكن الأصح في اعتقادي أن الذين يجهلونه من المسلمين هم أضعاف من يعرفه منهم، وعليه فليس غنياً عن التعريف به بإطلاق في كل الأحوال، رغم طول باعه في سير الدعوة الإسلامية في منطقة الجنوب الأفريقي، ودوره الكبير في تنشيط الحوار الإسلامي المسيحي في مستوياته الفردية، أو في أشكاله المتسمة بالمواجهات الثنائية.

وإلحاقاً بهذا، يرد في قائمة المترجمين المعجبين به الأستاذ محمود غنيم الذي أدلى برأيه قائلاً: (والأستاذ أحمد ديدات الذي درس الكتب المقدسة القديمة دراسة وافية يقدم لنا منهجاً علمياً راقياً في مجادلة أهل الكتاب... فهو يناقشهم فيما يؤمنون به ولا يستطيعون إنكاره، ثم هو بعد ذلك يستخدم المنطق العقلي الرصين الذي لا يسع أي منصف راغب في الوصول إلى الحق غير متحامل ولا مكابر إلا أن يتفق معه ويخطو إلى جانبه في طريق الحقيقة المجرّدة إلى الهدى...)[2]. إن صاحب هذا الرأي يعلن صريحاً فصيحاً مدى تقديره للشيخ، ومبلغ تعويله على منهجه الذي هو جازم

---

(1) المصدر نفسه، ص6-7.

(2) أحمد ديدات: محمّد ﷺ الخليفة الطبيعي للمسيح، ص6، ترجمة رمضان الصفناوي، من منشورات دار المختار الإسلامي، القاهرة-مصر. د.ت.

بفاعليته، وقدرته على تحقيق الغرض الـذي يتطلّع إليه كـل داعيـة علـى الخصـوص، وكل مسلم على وجه العموم.

وإن أشد مترجميه تحمساً له، وتعلقاً بمنهجه، هو بلا نزاع الأستاذ علي الجوهـري الذي يدين له هذا البحث بجانب كبـير مـن الفضـل في تعريبـه لبعـض أعمـال ديـدات، الأمر الذي مكن من الاطـلاع والإفـادة منهـا باللغـة العربيـة، فأسـهم بهـذا الإجـراء في تذليل العقبة اللغوية باعتبارها أهم المشكلات التي كـانت تتهـدد هـذا البحـث بالحيلولـة دون تحققه. والملاحظ أن الأستاذ الجوهري سـواء في تقديمـه أو تعقيبـه لأعمـال ديـدات يميل غالبـاً إلـى الإفاضـة في إطـلاق النعـوت والألقـاب الكبـيرة عليـه، وقـد درج علـى تخصيصه بلقب داعية العصر على سبيل العلَمِيّة والإفـراد، وهـو يواجـه بـه المرء لأول وهلة فوق الغلاف لأي كتاب من معرباته من التراث الديداتي. ومن النصـوص الدالـة على إعجابه بالشيخ الداعيـة قولـه في مقدمـة إحـدى كتبـه: «إنـه-ديـدات- يتكلـم مـن جنوب أفريقيا، حيث أغلبية ساحقة مسيحية... إنـه شـعاع قـوي ينبعـث مـن هنـاك، يهيب الأنظار والعقـول أن تلتفـت نحـوه»[1]. ولعـل أهـم مـا شـدّ الأسـتاذ الجوهـري، ولفت اهتمامه نحو الشيخ هو انبهاره بعمق معرفة ديـدات بمـا عنـد الآخـر، فضـلاً عـن براعة أسلوبه، وعلمية منهجه الذي ساقت غلبة الطابع النصي عليه الأسـتاذ الجوهـري إلى تقييم كتابات ديدات بقوله: «كتابـات العلامـة أحمـد ديـدات ترقـى بذاتهـا إلـى أن تكون وثائق في موضوعها من وجهة نظرنا»[2]، ومما أثـارهُ أيضـًا بجـوار تلـك العوامـل ضخامة وشمولية نشاط ديدات الإسلامي التي أعرب عنها فيما نصه: «العلامـة أحمـد ديدات غني عـن التعريـف وهـو داعيـة إسـلامي موهـوب، ذو نشـاط ضخـم في مجـال الدعوة إلى الإسلام في جميع أنحاء العالم...»[3]، وقد تكلّـف هـذا البحـث في جـزء منه بعرض بعض مجالات عمله الإسلامي المتعددة فيما سبق منه.

---

(1) المسيح في الإسلام، ص4، مصدر سابق.

(2) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص7، مصدر سابق.

(3) مناظرة العصر، ص7، مصدر سابق.

وفيما يتصل بصورة المنهج الديداتي في مرآة الجوهري فإن سلامة معظم آرائه في ديدات ودعوته، لا تضمن له السلامة من النقد والمؤاخذة على إعجابه المفرط به، والمعبر عنه في قوله: «أسلوب جديد وفريد، أسلوب ذلك الداعية الإسلامي العلامة أحمد ديدات، وليس تفرّد أسلوبه وجدّته من حيث هو أسلوب من أساليب اللغة، ولكنه تفرّد ولكنّها جدّة في أسلوب التفكير، ومنهج الدعوة إلى العقيدة»[1]، وأعتقد أنه بالرغم من سهولة وسرعة انهيار هذا الظنّ الهزيل أمام النقد المؤسس، إلا أنه مما يساعد في فهم بعض الدوافع التي حدتْ بالأستاذ الجوهري إلى تبني مشروع تعريب أهمّ تراث ديدات، والتي منها -فيما أعتقد- رغبته الصّادقة في الإسهام في نشر هذا المنهج الذي ظنّه جديداً، وتعميمه على مستوى واسع في واقع العمل الإسلامي المعاصر، وهي رغبة يلتقي فيها مع غيره ممن أشاد بديدات، وتمنّى لمنهجه الانتشار؛ فدعا إلى الإفادة من مناظراته، وذلك فيما أعرب عنه بقوله: «. . . جرت مناظرات رفعت رؤوس المسلمين، وما زال الجدال، ومن أشهر علماء المسلمين في عالمنا الآن داعية العصر الحديث الأستاذ أحمد ديدات في مناظرته مع قساوسة المسيحيين، وقوة حجته وبيانه، ونصاعة برهانه، وحبذا لو استفاد من تلك المناظرات، وهذا الجدل، كل محب للحقّ، وكل كاره للباطل»[2].

وفيما يخص قول الجوهري بجدّة منهج ديدات في الدعوة إلى العقيدة، فإن قصد به منهجه العلمي المعتمد في مناظراته وحواراته الدينية، فرأيه مردود بشهادة وقائع التاريخ، ومنقود بالقول الذي نشارك فيه المفكّر الإسلامي أنور الجندي الذي احتفى بديدات، فخلع عليه لقب (خطاب التبليغ الإسلامي العالمي)، كما نال منه منهجه الحواري كل ثناء وإطراء، ومما جاء في تعريفه به - مناقضاً لغيره - قوله: «لمع فجأة اسم الداعية المتمكن القدير، واستطاع بقدرته البيانية واطلاعه الواسع أن يهزّ المنابر

---

(1) مسألة صلب المسيح، ص186، مصدر سابق.

(2) محمّد علي أبو العباس، في مقدمة تحقيقه: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص6، ط/ مكتبة القرآن د. ت القاهرة-مصر.

ويبهر المجامع، وعرف بعدد من المناظرات الشهيرة، والحوارات المثيرة وهو مواطن من جنوب أفريقية، من أصل هندي لمع في سماء العالم الإسلامي والغربي من خلال منهجه المتفرد في الدعوة إلى الله، مجدداً منهج المناظرة والجدل والحوار الذي عرف به عدد ليس بقليل من الدعاة المسلمين على مدى العصور»[1].

ومن البيّن إزاء هذا القول أن أيّ دعوى تحمل قضية جدّة منهج ديدات الحواري فهي مدفوعة، وساقطة؛ وليس ذلك سوى لضعفها، وعدم علميتها. هذا . . . بالإضافة إلى الموقف الإعجابي الذي اتخذه من ديدات معرِّبوا كتبه، فإن أغلب أعوانه ومرافقيه متيّمون بتأييده، وتقدير كفاحه، وتقليد ديدات فيه، وما هي عنا ببعيدة تلك الانطباعات التي سجلناها -سلفاً- عن خريجي دورته التدريبية الأولى على الحوار والدعوة، والتي ربما ما زلنا نذكر الشيء الكثير من أمرها، ونوايا أغلب المشاركين فيها. ولعلّ أحبّ الألقاب إلى ديدات، الذي يبدو لي أن استخدامه قد اطّرد لدى أتباعه ومقربيه للدلالة عن سمو مكانته عندهم، وعظم تقديرهم له، هو لقب: (الدارس العالمي الشهير للإنجيل، وخادم القرآن الكريم)[2]. وبقدر ما يفيد هذا اللقب امتداحاً أطلق عليه فإنه يعكس بحسب ذلك صورة بطولية رائعة للشيخ ديدات في مرآة أصحابه، وأحبابه في الله، وهم عالم كثير من الناس، حشد ديدات جمعاً غفيراً منهم عرضاً في حديثه عندما قال: «لقد بدأنا الآن في تدريب الدعاة المسلمين لأن المسلمين في البلاد التي نذهب إليها ونحاضر فيها قد أعجبتهم على ما يبدو طريقتي في طرح الموضوعات. . . ذلك أن شيئاً ما كان مفقوداً في التعامل مع غير المسلمين، ثمّ عثروا عليه في أسلوبي وطريقتي»[3]، على أن من أبرز مؤيديه في صرامته الحوارية، ومنزعه الدّعوي: الأستاذ بسّام داود عجك، الذي يتفق مع الشيخ في هذا الشأن ويبارك تمسكه بالمقصد الدّعوي في حواراته، مما جرّه إلى التعليق على النصوص الواردة في كتابه من

---

(1) نقلاً عن كتاب: هذه حياتي، سيرتي ومسيرتي، ص11 مصدر سابق.

(2) ينظر: شيطانية الآيات الشيطانية، ص63، مصدر سابق، وينظر: أيضاً العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص17 مصدر سابق.

(3) هذه حياتي: ص45، وللتذكير، فإن هذا النص مما سبق وروده، وقد استخدم ثانية لتناسبه أيضاً مع هذا المقام.

رسالة الشيخ ديدات إلى بابا الفاتيكان بقوله: «وإن الطلب الذي تقدم به الشيخ ديدات إلى البابا لاعتناق الإسلام هو المبدأ الذي ينبغي أن يقوم عليه حوار المسلمين مع المسيحيين، بدلاً من المجاملات الفارغة التي تعطي أكثر مما تأخذ»[1].

وإلى هذا التيار المؤيد لديدات، والمنتصر لمنهجه، ينتمي أيضاً الأستاذ إبراهيم خليل أحمد[2]، الذي قام بتعريب أحد أهم كتب ديدات وهو (هل الكتاب المقدّس كلام الله؟)، عندما وجد في مؤلفات الشيخ ما يشفي الغليل، ويثلج الصدر، بعمق درايته بالمسيحية، وقوة ردوده وطعنه في نقاط ضعفها. ومن ثمّ كان اكتشافه لديدات والوقوف على بعض جهود ه الحوارية مفاجأة سارّة بالنسبة له، الأمر الذي لم يتمالك عن التعبير عن سعادته إزاءها، فقال: «وكأنني على موعد مع الداعية الإسلاميّ أحمد ديدات، وشاء الله أن أجد بين يدي كتيباته، يتصدّى بها مواجهيه المبشرين بالحجج والأدلة الحاسمة من كتبهم ومقدساتهم، فما أن تناولت هذه الكتيبات إلا ولمست أنه يعبر عما يخالجني من فكر ومنهج أستطيع أن أدعو إلى سبيل الله بإذنه وتوفيقه على بصيرة في رحلتي المرتقبة بين العواصم الثلاث، باريس، بروكسل جنيف، بمشيئة الله»[3]. وظاهر من تلقفه السريع لهذا المنهج، وعزمه على الاستعانة به في رحلته الغربية، بتوظيفه في دعوته بتلك العواصم المذكورة، مدى ما يكنه لديدات من اعتبار، وما يوليه لكل من فكره ومنهجه من أهمية استثنائية، وقيمة دعوية. وبالأخص في المناطق التي هي ذات أغلبية مسيحية.

وإن هذا التأييد والاهتمام من الأستاذ إبراهيم خليل بالمنهج الديداتي يستوفيان كامل قيمتهما العلمية والعملية معاً، إذا اعتبرنا أن هذا الموقف يشكل في حد ذاته شهادة كفاءة وفاعلية لديدات ومنهجه من رجل دين نصراني سابق، كان قد تصدر

(1) الحوار الإسلامي المسيحي، ص285 مرجع سابق.

(2) وهو أحد من أسلم من مسيحيي مصر، وحسن إسلامه بدعوته، ودفاعه عن الإسلام، بعد أن كان يشغل منصب راعي كنيسة إنجيلية في بلاده.
ينظر: هل الكتاب المقدّس كلام الله؟ ص98.

(3) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص225 مصدر سابق.

سدّة المسؤولية الكنسية في مقام من أعلى مستوياتها. وخبر واقع التدافع بين حركتي التنصير والدعوة، وأحاط علماً بالمناهج والأساليب القاضية على النشاط التنصيري، المفحمة لقادته وجيوشه. وفي تزكيته لديدات يعلّق على فوزه في المناظرة التي أجراها مع الأمريكي سواجارت بما نصّه: «. . . إنه النصر والازدهار الإسلامي، الله أكبر، إنه صدق القول وإخلاص العمل ونقاوة القلب وحضور البديهة مع غزارة علوم مقارنة الأديان»[1]، وحسبي من تأييد هذا الأستاذ وتزكيته للشيخ ديدات أنه ليس ككل منتسب لهذا الفريق، وإنما هو من النوع الذي له من الوزن العلمي، والثقل العملي ما يميزه عن كثير من شركائه وأنصاره، وذلك لخلفيته الدينية السّابقة على إسلامه، فيما أشرنا إليه.

أما الدكتور زياد علي وهو من الوفد الذي ضمّ بعض كبار مسؤولي ودعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ممن تفضلوا بزيارة الداعية ديدات لتفقد حالته الصحيّة في أحلك ظروفها العصيبة، فقد كتب في مقال له بعنوان (مظاهر القوة والضعف في حياة الداعية أحمد ديدات) واصفاً الشيخ بقوله: «عاش سنواته في توهج، وروح عاشقة للصدام مع الآخر، الآخر الذي يحاول تشويه كلّ ما يتعلّق بعقيدته»[2].

على أن لي بعض التحفظ على وصفه إيّاه بعشق الصدام، الحكم الذي ربما يختلف معه الكثيرون فيه، لأن البون ما بين النزوع إلى الحوار وعشق الصدام شاسع وممتد الوسط الفاصل بين حديه.

ومن جانب آخر يقرر لصالح ديدات في نفس المقال بأن جهوده الإسلامية المتنوعة قد حقّقت نتائج إيجابية، بدليل هداية بعض الناس إلى الإسلام بسببها، كما أن مناظراته المذاعة إعلامياً، لفتت هي الأخرى-على نحو أخص-انتباه الآخرين إلى الدين الإسلامي[3]، وهذا مكسب إعلامي جدير بالاعتبار. ومن حيث رؤية الدكتور

---

(1) هل الكتاب المقدّس كلام الله؟ ص227.

(2) صحيفة الدعوة الإسلامية، ص12/ ع693 مرجع سابق.

(3) ينظر: الصفحة ذاتها من المرجع نفسه.

مسعود عبد الله الوازنّي[1]، للمنهج الديداتي فإنه مع سابق إقراره بأن معرفة النتائج التي تحققت هي عنصر رئيس أو أساسي في عملية تقييم منهج دعوي ما، وبناء الحكم عليه، إلا أنه يعود ليعترف لديدات بأنه كان يتمتع بعمق المعرفة بأدق التفاصيل المسيحية، وأنه كان خبيراً بفكر وأساليب الآخر المسيحي، الأمر الذي اتخذ منه قاعدة متينة أسس عليها منهجه الحواري، إذ لابد للمحاور وللداعية عامة من معرفة ما عند الآخر كشرط ضروري لنجاح أيّ عملية حوارية أو مهمة دعوية. ولما كان ديدات في مستوى هذا الشرط فقد ظهرت الموضوعية في طرحه، بعد أن توفرت له الانطلاقة الجيدة في الحوار، ومن ثم اتسمت حواراته بالجرأة والكفاءة، وتلونت بالانضباطيّة والهدوء، وغيرها من الأخلاقيات الرفيعة والمطلوبة في العمليات الحوارية. كانت موضوعيته تدفع به للتركيز على مسائل معينة، تتعلق غالباً بالعقيدة، ونقض الكتاب المقدّس، كما كان في كلّ الأحوال يتجاوز الإثارة والاستفزاز، وكافة السلوكيات الانفعالية، بضبط صارم للنفس، وثقة بالله القدير، واطلاع وتحضير لما هو مقدم عليه من مواقف حوارية.

وعلى الرغم من تقدير وتسجيل الدكتور الوازني للشيخ ديدات فضل النقل الإعلامي المباشر للعديد من حواراته، إلا أنه لا يعتبره بمنهجه وجهده الحواري ظاهرة منهجية في هذا المجال الذي أفرغ فيه اهتمامه، وتميز أكثر من غيره بتفرغه للعمل فيه، وإن القول بأنه يشكل ظاهرة في هذا الباب يعني في فهم الدكتور مسعود نفياً لأصول تراثية بني عليها، وإغفالاً لجهود سابقة ومعروفة في هذا الميدان الهام من ميادين العمل الإسلامي القديم والمعاصر، وهو فهم في الحقيقة لا يساعد على تبنيه المعنى اللغوي البسيط للكلمة، والذي يؤسس لمفهوم الظهور المتكرر، مشتملاً على نحو من التجديد والإبداع.

ولعلّ هذا المعنى هو الذي جنح إليه - على نقيض من الدكتور الوازني - من لم

---

(1) وهو أحد أركان المجلس الإداري لكليّة الدعوة الإسلامية، رئيس قسم المواد العامّة، وأستاذ مادة مقارنة الأديان بذات الكلية، نقلت عنه رأيه مشافهة في مقابلة أجريتها معه في مكتبه بمبنى إدارة الكلية، بتاريخ 8/ 4/ 2002ف. طرابلس-ليبيا.

يستسغ اعتبار ديدات ظاهرة دعوية، وإنما رأى فيه بالنسبة للعمل الإسلامي ممثلاً عن حالة استثنائية متخصصة. وربما بني هذا الحكم -فيما أعتقد- على خلفية تفتقر إلى اطلاع سابق، ودراية علمية بما سلفت من جهود إسلامية في هذا المجال على المستويين المعرفي والتطبيقي.

وعلى العموم يشفع لصاحب هذا الرأي وهو الأستاذ الكبير إبراهيم بشير الغويل[1]، تعلّقه بالعمل الإسلامي، وحرصه على خدمة البحث العلمي، فضلاً عن سابق اعتذاره في مطلع لقائي معه بأنه لم يتابع منهج ديدات إلى الحدّ الذي يمكن أخذ رأيه للاحتجاج به في هذا الموضوع، ومن ثمّ لا يتعدى حكمه فيه كونه انطباعات ناشئة عن لقاءاته بالشيخ ديدات في عدد من المرات، واستماعه كذلك إلى عدد قليل من محاضراته. ولكن تولّد من جملة تلك اللقاءات والمحاضرات موقفه المؤيد للشيخ، واستحسانه لمنهجه العام في العمل الإسلامي، وذلك للأسباب الآتية:

1 - من اللافت للنظر المعجب في نهجه اتباعه منهج الداعية المتحرك بدعوته إلى الآخرين، حيث يتنقل إلى المدعوين طارقاً أبوابهم لتبليغ الخطاب الإلهي، وتأدية رسالة الإسلام، وليس ديدات بمن ينتظر قدوم الناس إليه ليلقي بدعوته إليهم، بل وإنما يبادر بدعوتهم للقيام مثنى وفرادى للتفكير المستقل والنزيه، في حقيقة ما يبلغهم به من دين صادق وقيم وحقائق إيمانية ثابتة. وهذه المبادرة الدّعوية في نهج ديدات تعدّ سمة إيجابية، ومطلباً هاماً طالما دعا إليه خبراء الدعوة وكبار الدعاة، ومنهم البيانوني الذي قال في كتابه المدخل: «إن للمدعو حقوقاً، كما أن عليه واجبات، ولعل من أهم حق للمدعوين في عنق الدعاة؛ أن يقصدوا ويدعوا، أو يرسل إليهم، وأن لا تكون الدعوة لهم عرضاً أو مصادفة... كما أن من

---

(1) محام ليبي قدير، من روّاد الفكر والثقافة في بلاده، عضو مؤسس وقيادي لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ذو اهتمامات فائقة بالعمل الإسلامي، والمسلمين عموماً. قابلته بناء على موعد محدد سلفاً في مكتبه بشارع أول سبتمبر في طرابلس بتاريخ 11/ 4/ 2002ف. الموافق 28/ محرّم الحرام/ 1370 من وفاة الرسول ﷺ.

حقوقهم : أن يحرص عليهم جميعاً ، ولا يستهان بواحد منهم أيا كان شأنه»[1] .

2 - يميل به طبعه المنهجي إلى إسماع المدعو كلام الله تعالى بلغة واضحة مفهومة ، حيث يحرص غالباً في مواقفه الدّعوية على تلاوة ما يقتضيه المقام من آيات قرآنية ، ملحقة باستحضاره لترجمة معانيها عن ظهر قلب دون اللجوء إلى شيء مكتوب ، أو استذكار لها بالبحث عنها في الموقف نفسه . وهذا من مميزاته الجيّدة ، ومن دواعي تأييده والإعجاب بمنهجه .

3 - لقد حصر ديدات نشاطه في حدود علمي- فوجّه جهوده الدّعوية إلى أهل الكتاب ، وخاصة المسيحيين منهم ، وقد تمكن في دراسة كتبهم ، وأتقن في حفظ نصوصها ، مما جعله متخصّصاً في محاورتهم ، وأمكنه من مواجهتهم والانتصار عليهم . والصحيح أن ديدات مع تميّز هذا الجانب فيه ، لكنه يتجاوز هذا الحد المعروف عنه عند معظم الناس .

4 - مما يدفع إلى تأييد المنهج الديداتي أن صاحبه لا يحاور من أجل إثارة الخلاف ، والشقاق ، وإنما ينطلق من أرضية مشتركة مع المحاور ، مستخدماً الحقائق التي يلتقي فيها مع الآخر ، كتمجيد القرآن الكريم وتبرئته للصديقة أم المسيح مريم عليهما السلام . وبذلك كان يأسر اهتمام ومتابعة الآخر لخطابه ، وهو ما لم يكن متاحاً له لولا معرفته بالجانب المسيحي في الإسلام ، ودرايته بقسمات وتفاصيل الصورة القرآنية للمسيحية وملحقاتها . فبمقتضاها تكونت لديه عن هذه الديانة رؤية واضحة ومتكاملة من القرآن الكريم ومن الكتاب المقدّس .

5 - تمتع الشيخ في منهجه بسمو الأدب ، فكان في أسلوبه بعيداً عن التأنيب والتوبيخ ، فلم يكن يجادل مراء أو رياء ، وإنما كان يشعر الآخر بحبه إيّاه وحرصه عليه ، وأنه لا يسعى بدعوته ليملي عليه ، أو يفرض عليه أمراً هو كاره له أو غريب عليه ، ولا ليحوّله عن دينه ، وإنما ليرتقي به إلى دين مُصحّحٍ ومكمّلٍ لما هو عليه من

---

(1) محمد أبو الفتح البيانوني : المدخل إلى علم الدعوة ، ص170/ ط3/ 1415هـ=1995م . مؤسسة الرسالة-بيروت .

سلسلة الرسالات الإلهية. وهكذا يراوح ديدات في استلطاف الآخر، واستمالته إلى نور الحقّ حتى ينشرح صدره للإسلام.

وتأسيساً على الاعتبارات السالفة، يقول الأستاذ الغويل بجدوى هذا المنهج، ويرى فوق ذلك ضرورة استمراريته، بالإفادة من تجربة ديدات؛ باعتبارها حوار دعوة إلى الإسلام، ونقد للفكر الصليبي. وبالجملة فإن شهادة الأستاذ الغويل للشيخ ديدات ورؤيته لمنهجه تكشف لنا عن صدق تأييده له، ومبلغ إعجابه بالمنهج الحواري الذي تفرّد به، وبالدّعوي العام الذي سار عليه بجهد كبير، وإخلاص نادر، وبنجاح ساحق عظيم. وهي في جملتها معان يعتز بها الأستاذ الصدّيق بشير نصر(1)، في تقييمه هو الآخر لهذا المنهج الذي يرى أنّ أهم ما يميز صاحبه يتمثل في المزايا الآتية:

أ - كان الشيخ ديدات مرابطاً على ثغرة من ثغور الإسلام، وكان صاحب قضية ورسالة تحمّلها بأمانة وإخلاص، ولم يكن بمقتضى فهمه لهذا الواجب العظيم من الدعاة المحترفين الذين ينشغلون بالتوظيف، أو يشتغلون بالمرتبات، فإذا ما تأخرت عنهم تلك الماديات فربما توقفوا عن العمل، أو طرقوا الباب على مصادر التمويل. فالشيخ ديدات من قلائل من أدرك من بين دعاة العصر عظمة هذه الرسالة، وضرورة التفرغ لها بنيّة خالصة ومجردة امتثالاً لأمر الله، واحتساباً لمرضاته تعالى.

ب - وقد حباه الله تعالى سكينة ربانية عزيزة، مكنته من محاورة أهل الكتاب بكل هدوء واتزان، وفي منتهى الجرأة، والثقة بالله، وبالعقيدة، والنفس، فاستطاع بفضل هذه السكينة أن يسلك في مناظرته لأهل الكتاب منهج قلب الموائد بقدر كبير من النجاح والتأثير. وإن هذه السكينة التي كان يتمتع بها تعدّ من أهم السمات التي أفاد منها منهجُه الحواري في جوانبه النفسية والأخلاقيّة.

---

(1) أستاذ وباحث ليبي معاصر يتميز بثقافته الواسعة، ورصده العلمي لواقع العمل الإسلامي المعاصر، يقوم حالياً بتدريس طلاب كليّة الدعوة الإسلامية، وقد نقلت عنه رأيه في مقابلة بهذا الخصوص بتاريخ 19/ 2/ 2002ف. =7/ ذي القعدة/ 1370و. ر بطرابلس-ليبيا.

ج - وُفّق في تحقيق فتوحات إسلامية عظيمة ؛ وذلك من خلال انتصاراته الدامغة على كبار القساوسة، واللاهوتيين، الأمر الذي كان له وقع أليمٌ في نفوس المرجعيات الكنسية، والقيادات التنصيرية، مما أدّى إلى انتقاد القس سواجارت وعتابه على الإخفاق في مناظرة ديدات، وأنه قد قدم بذلك هبات مجانية ثمينة للإسلام والمسلمين على حساب الصليبية والصليبيين. وقد عمل أولو الأمر التنصيري على تفادي تكرار موقف الهزيمة في المناظرة مع ديدات، فلذا اتسمت لقاءاته اللاحقة معهم بطابع الحوار؛ لحرصهم على تجريدها من روح المناظرة والمقارعة، كما أنهم من جانب آخر حاولوا اتقاء مواجهته تارة، والأخذ بثأر هزيمة سواجارت تارة أخرى. وهو ما ظهر في تهيئة ودفع عناصر أوفر حظاً في تحديه لدرايتهم بالمسلمين، وذلك حتى يتسنى لهم محو الصورة القاتمة التي سجلها ديدات على رؤوس الأشهاد عن عقيدة الكنيسة، وتصوّرها لجوهرها الدائر حول الألوهية والتنزيل.

وإنّ ديدات بسبب هذا الدور الكبير الذي أدّاه، بالإضافة إلى مختلف جهوده الإسلامية، يشكل في منظور الأستاذ الصديق بشير ظاهرة دعوية فريدة لن يتهيأ مثلها فيما بعد، كما لم تتهيأ لغيره فيما قبله من تاريخ القرن العشرين. وإني لا أظن أن داعية إسلامياً على مر العصور قد شغل الكنيسة ورجالها مثلما شغلها الشيخ ديدات في عصره؛ وذلك لرصانة منهجه، وحسن استخدامه الفاعل لمختلف الوسائل الإعلامية التي هي من إمدادات العصر الحديث لحركة الدعوة الإسلامية في عالمنا المعاصر.

وفي غمرة إعجاب الأستاذ الصّديق بشير بالشيخ ديدات ومنهجه، ينبري للتصدي عنه بقوة ضد من تسول لهم نفسهم النيل منه، بنقد منهجه؛ وذلك بدعوى عدم إجادته للغة العربية، أو ضعف مستوى تكوينه الدّعوي، وقلة حصيلته المعرفية بالعلوم الإسلامية، فيواجه الأستاذ كل هذه الانتقادات الطاعنة بحجة صدق إيمان الشيخ، ومواهبه الخاصة، والضرورة الظرفية التي أملت عليه القيام بهذا اللون من النشاط الدّعوي، وغيرها من المبررات التي يرى أنها كافية لمنح ديدات حقّ السير على

نهجه الذي اضطر إليه. بل وأبعد من تلك صلاحية تأهيل طائفة من دعاة الحاضر والمستقبل لمواصلة المسيرة إلى المرابطة على ثغور إسلامية من قبيل التي كان قد نذر ديدات حياته من أجلها أميناً ساهراً عليها.

وجدير بالذكر أن الأستاذ الصديق بشير يستند في تقييمه لهذا المنهج إلى معرفته الجيدة بصاحبه، واطلاعه المبكر على أعماله، بالإضافة إلى متابعته المتحسسة لمختلف نشاطاته الإسلامية. وبناء عليها؛ فإنّه حين يبدي تأييده له، ويكبر فيه الهمة العالية، وإخلاصه العميق في تبليغ الحق الإسلامي، يكتسب حكمه له قيمة علمية يتميز بها عن كثير من الآراء، والانطباعات التي لا ترقى إلى مستواه، وربما لا يوازيه في المتانة العلمية سوى عدد قليل من تلك الآراء التي خرجتُ بها من قراءاتي ولقاءاتي، ومنها رأي الشيخ إبراهيم الحسيني[1]، الذي يعدّ خبيراً في قضايا العمل الإسلامي بأفريقيا، وفي العالم عامّة، ويعتبر حجة في شأن ديدات خاصّة؛ بحكم متابعته له، فضلاً عن المعرفة الشخصية والرسائل المتبادلة، إلى جانب العديد من اللقاءات التي جمعت بينهما في ظروف مختلفة زماناً ومكاناً.

وقد أعرب عن رأيه فيه بوضع هذا المنهج في إطار البيئة التي ينتمي إليها صاحبه، مع اعتبار تأثره الواضح بالشيخ رحمة الله الهندي، فلذا اتسم منهجه -رغم امتيازه بالقوة- بشيء من الشدة والقسوة أحياناً، وذلك في لجوئه تارة إلى استخدام ألفاظ جارحة في أحاديثه عن مسيحهم المزعوم، وهو أمر قد يوهم البعض بأن ديدات يتطاول على المسيح عليه السلام، ويتعرض له بما لا يليق، مع أن الحقّ خلاف ذلك، حيث إنه من أشد المؤمنين بالمسيح عليه السلام، وفي مقدمة معظميه، ولكن الذي ساقه إلى ذلك هو قوة اندفاعه لإحقاق الحقّ الإسلامي، وإبطال الباطل الصليبي ضد الإسلام

(1) هو رئيس دائرة الإفتاء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعموم نيجيريا، ومساعد الأمين العام للشئون الأفريقية في القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، مؤسس ومرشد منظمة النهضة الإسلامية في بلاده، وهو داعية مشهور ومشارك بالتأليف في مجالات إسلامية متعددة، قابلته بفندق طرابلس الكبير إثر زيارة له إلى الجماهيرية العظمى في ضيافة جمعية الدعوة الإسلامية، وكانت المقابلة بتاريخ 3/ 5/ 2002ف. =الموافق 20/ صفر/ 1370 و. ر ﷺ.

وضد صحيح المعتقد المسيحي الأصيل. ومما نقلته عنه أيضًا، قوله في حديث أعيدت صياغته: وعلى الرغم مما يمكن تسجيله من ملاحظات أسلوبية طفيفة لا تخرج عن نطاق الغلظة في القول، فإن ديدات يظل في عداد أحسن من تفخر بهم الأمة الإسلامية في قوة الحجّة، والقدرة على الجدل. وهو بهذا الاعتبار يسجل باعتماده على رحمة الله الهندي تاريخاً عظيماً في النقد، وكأنه موسوعة حاوية تكفلت بحفظ بعض المعلومات الجيدة والدقيقة عن المسيحيّة وعلمائها قديماً وحديثاً، وعن الكتاب المقدّس بوجه أخص. وقد كانت بعض تلك المعلومات في طريقها إلى الضياع والاندثار لولا أن تداركها ديدات وغيره بجهدهم وعنايتهم.

وبالجملة فهو داعية محقّ في دعوته، ومخلص فيها، وقد كان مرتكز دعوته قائماً على الدفاع عن الإسلام، والذود عن مقام النبوة بتبرئة النبي محمّد ﷺ من اتهامات المغرضين، وافتراء المعادين. هذا . . . وبغض النظر عن عمومية رأي الشيخ في ديدات ومنهجه فإني ألاحظ أن اختزال دعوته في غرض الدفاع فحسب دون الدعوة إلى الإسلام بمدلولها الأدق هو أمر لا يستقيم مع شمولية عمل ديدات الإسلامي، وتنوع المجالات الإسلامية التي شارك فيها بسهم وافر وجهد كبير.

وأيضًا من محبيه ومؤيديه كذلك من الشخصيات الإسلامية البارزة، زعيم حركة أمة الإسلام في أمريكا، عبد الحليم فرقان (لويس فركان) وهو من أحدث الناس عهداً بالشيخ ديدات، حيث قد عمل على زيارته في الأشهر القليلة الماضية[1]، وكانت هذه الزيارة في مشهدها مفعمة بالحنان والشفقة، وروح الأخوة الإسلامية، وبالرغم من صعوبة الحالة الصحّية التي يمر بها الشيخ ديدات في هذه الأعوام الأخيرة، إلا أن شعوره كان يفيض بتقديره الفائق لهذه الزيارة الأخوية الكريمة، التي يحسّ الشاهد بأنها حظيت عند ديدات باعتبار كبير يقصر غيره عن سبر أغواره للتعبير عن كنهه.

---

(1) ينظر: الشريط المرئي المخصص لهذه الزيارة بعنوان[Deedat Meets farakan]وهو شريط أتحفنا به الدكتور المشرف محمّد فتح الله الزيادي من جنوب أفريقيا، ويمكتب الدعوة والمراكز الإسلامية لجمعية الدعوة الإسلامية نسخة منه.

وقد ألقى زائره الكريم حديثاً عاماً في جمهور من الناس، شهد له فيه بحبّ الإسلام إلى درجة كبيرة، وأنه وظّف حياته لخدمته، وكان في ذلك على قدرة عالية من الإقناع، ونضال مستميت في سبيل الدفاع عن دينه الذي ظلّ يؤمن به إيماناً قوياً. الأمر الذي يشهد لصحته، تأليفه لما يقرب من ثلاثين كتاباً دعوياً، في غضون ستّ سنوات، وهو في أشدّ حالات المرض، عافاه الله وعجّل بشفائه.

وعليه يعلن السيّد فرقان حبَّه الجم، وتقديره السامي لديدات، وينصح مستمعيه بمحبته والدعاء له بالشفاء، كما يشجعهم على السعي والجدّ من أجل أن يكون بينهم عدد من أمثال ديدات؛ وذلك حتى ينتصبوا لمحاورة غير المسلمين لكي يعتنقوا الإسلام ويتخلّصوا من النار، أو على الأقل لتقوم عليهم الحجة يوم الدين.

إن هذه الشهادة الغالية بقيمة الشيخ ديدات وأهمية منهجه، لتأخذ مداها الأوسع حين نأخذ في الحسبان مكان صاحبها، على الصعيدين الدّعوي والسياسي، في بيئة تتميز بشدة الحاجة إلى خطاب دعوي من قبيل ما عرف به ديدات، وشهد له بخدمة الإسلام من خلاله.

وتتويجاً لكل ما تقدم فإن لنا في خطاب للدكتور محمد أحمد الشريف أمين عام جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مما يحتمل الاستدلال به على إعجابه بهذا المنهج، ويسوغ القول بتأييده لصاحبه، وتقديره لدوره الدّعوي الكبير، وذلك في قوله: «هناك حملة تنصير، وحرب على الدين، مما يؤدي إلى صرف بعض المسلمين عن دينهم ودخولهم المسيحية، إننا في الوقت الذي نطرح فيه هذه السلبيات نود أن نشعر أيضًا بالعمل الكبير الذي تمّ، فهناك علماء يقومون بأعمال جيدة ولا نودّ ذكر أسمائهم وكلنا نعتز بهم»[1]. فليس من المستبعد في هذه الإشادة الوفية بدور صفوة من دعاة هذا العصر، أن يكون ديدات في طليعتهم، أو في صفّها الأمامي على الأقل. ولولا اتقاء المبالغة لقلت بإمامته لهم. وعلى أيّ حال، فهو مُدْرج -عندي- في قائمة من يعنيهم

(1) الملتقى العام لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية بجنوب شرق آسيا، بكولومبيا ص183 مرجع سابق.

الخطاب ويشملهم، وعليه فشرف أيّما شرف لديدات أن ينال وسام تأييد وتمجيد خبير الدعوة العالمي. هذا وإن كان من تقدم يمثل مؤيديه، فيوجد بالطبع في الاتجاه المقابل طائفة من منتقديه، وهم متفاوتون في مواقفهم منه؛ من حيث درجة حدّة انتقاداتهم وخفتها، ومن ثمّ فمن حقّ البحث العلمي علي استعراض نماذج من هذا الفريق، ملحقاً ببيان رأيي الخاص في ديدات ومنهجه من جانب، وبصورته عند نفسه من جانب آخر.

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

منهج ديدات في مرآة منتقديه
وفي تصوّر كل من الدارس والمدارس

يميل عدد قليل من المقيّمين إلى انتقاد ديدات ومعارضته في كل أو بعض طريقته الحوارية، وذلك لأسباب ومبررات تختلف بشأنها وجهات النظر، وتتعدد إزاءها المواقف، على أن تلك الانتقادات في جملتها ليست-فيما أفهم-ناتجة عن عداء أو كراهية، وإنما هي من النوع الإيجابي البناء الذي يعكس تبايناً طبيعياً في الرأي، وتدافعاً علمياً غايته التطلع الدائم إلى صياغة وتشكيل منهج حواري أمثل، وأسلوب دعوي أفعل. والملاحظ: أن مما يُنمّي هذا التعارض ويعقد العملية التقييمة برمتها في هذا الشأن انعدام معايير علمية دقيقة ومحددة يحتكم إليها في القبول والرفض، حتى لا تضطرب الأنظار في تقديم الرجال وتأخيرهم، على نحو عابث يشغل البعد النفسي متمثلاً في الجانب المزاجي حيزاً كبيراً في مساحته. وبناء على واقع ورود اتجاه معارض لهذا المنهج فإني أعتبر الدكتور زكي بدوي[1]، عميد الكلية الإسلامية في العاصمة البريطانية أحد أشدّ منتقديه. وتكمن شدة انتقاده له في معارضته كليا للمنهج الذي سلكه، والذي يمكن تركيز مؤاخذاته عليه - من خلال تصريحاته - في النقاط التالية:

1 - يدفع ديدات بالمرء إلى تصنيفه ضمن مجموعة من يستفزون الآخرين ويعملون على إثارتهم، مما يجرّهم إلى سبّ الله تعالى والعياذ بالله، وهو أمر منهي عنه بصريح القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 108]، وقد كان ديدات من النوع الذي لا يتورع عن سبّ محاوريه وعامة من يتعرض لنقد معتقدهم، وهو أمر غير سليم بل مردود عليه بضوابط النصوص الدّعوية وكافة المحددات الأدبية للعلاقات الدينية.

هذا ولئن كنت قد اعترفت بما يعتري ديدات في أحيان نادرة من تهجم وانفعال، يجرانه إلى شيء من الحدة والتعنيف من واقع دراستي المتواضعة لملامح منهجه، فإني

(1) يعد وجهاً بارزاً من قيادات و فعاليات العمل الإسلامي في العالم الغربي، وقد أسفرت مقابلتي له بمقر كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس بتاريخ 18/ 3/ 2002م. عن هذه المعلومات التي نقلتها عنه شفهياً بدقة وأمانة.

أرفض كل قول بمبادأته إلى سبّ الآخرين، بل وإنما كان في ذوده عن حياض دينه ملتزماً في الغالب بأخلاقيات هذا الدين الذي ينافح عنه الأعداء، متقيداً بحدود ما يرسمه لأتباعه من قيم حوارية وسلوكية، هي غاية في التحضر، وقمة في مراعاة الفضائل الإنسانية. ومن ثمّ لم يكن شيخنا ديدات حيث تصوره الدكتور بدوي. ولعله تأثر في تشكيل هذا الرأي على ديدات ببعض مواقفه الاستثنائية القليلة، والتي كانت تقتضي من ديدات قوة العارضة في المعاقبة بالمثل، كتشهيره بالعدوان الصهيوني على الشعب المسلم في فلسطين المحتلة، وكشفه أيضًا عن فضائح وسخافات المرتزق بكتابه الآيات الشيطانية على حساب الدين والقيم، والنظرة السوية للحياة والإنسان والمجتمع. وإني أراه في تلك المواقف القليلة محقاً ومصيباً في شدته - وإن مال بعض الناس إلى تعييبه والتطاول عليه بسببها- فحسبه فيها دليلاً مؤيداً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [العنكبوت: 46].

كما يشفع له فيها من جانب آخر قول من قال: «القاعدة الأساسية في الحوار هي اللطف والوعي والتذكير، ولكن عندما يكون الخصم عنيداً أو مكابراً فإن البراهين المفحمة الصّارمة المغلّفة بالوعيد والتهديد تصبح هي الوسيلة المناسبة، وقد لا يهدف هذا النوع من البراهين إلى إقناع المخاطب بتلك الأدلة بقدر ما يهدف إلى حماية إيمان المؤمنين وتعزيز موقفهم، أو لكشف ضلالات المخاطبين للآخرين حتى لا يضلوهم»[(1)].

2 -كان ديدات بمنهجه الذي عرف به يخلق عداوات أكثر مما يكسب صداقات للإسلام والمسلمين.

وبغض النظر عن وهن هذا الانتقاد، فإني أحسب أنه قد فات الدكتور وهو يدلي بهذه الملحوظات إدراك أن ديدات من كبار دعاة الحقّ، ممن لا تأخذ هم في الله لومة لائم، وإنما يستضيئون بهدي قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

(1) سعيد إسماعيل صيني: مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص265، ط 1411هـ=1991م. دار الحقيقة للإعلام الدولي، القاهرة-مصر د. ر.

وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: 71]

إذن لم يكن من هم الشيخ استرضاء الناس على الباطل، وكسب مودتهم بغير حقّ، بل كان جهاده يتمثل في إبطال الباطل وإحقاق الحقّ ولو كره المعاندون، ولا مطمع في رضى الناس كلهم؛ إذ هي غاية لا تدرك. وفي مؤاخذة أخرى شبيهة أو قريبة من سابقتها يقول أيضًا:

3 - كان ديدات بمناظرته يثير العامة من غير المسلمين، فكانوا يصرون بالمقابل على التمسك بمعتقدهم دفعاً وصموداً في وجه ما كان يلاحقهم به ديدات من تحد صارخ ونقض غليظ. وأرى أنه إذا صح هذا القول بدافع تماديهم في العناد والمكابرة، فتلزم منه صحة ما يقابله من قول مؤداه: إن تلك المناظرات قد خلقت في العوام من المسلمين روح الثقة في دينهم وفي أنفسهم، وشجعتهم بمدد معنوي هائل على الصمود في معركة العقيدة والثقافة، وفي ميادين الحوار والدعوة. ومن جانب آخر؛ فإن هذه الإثارة القوية التي ينكرها البعض تشكل عندي عامل جذب ونجاح، وتعتبر فوق ذلك إنجازاً متقدماً على صعيد تبليغ الخطاب الإسلامي على المستوى العالمي، وذلك بكل ما تعنيه وتتوفر في تلك الإثارات من كسب وأهمية إعلامية قصوى.

وفيما يخص فاعلية هذا المنهج وجدواه، يقول الدكتور بدوي تأسيساً على ما تقدم من انتقادات حادة:

4 - لم أسمع أنه اهتدى على يديه أحد وصاحب هذا القول معذور بعدم معرفته بتلك النتائج الباهرة التي تحققت بتوفيق الله تعالى على يدي هذا الفارس الإسلامي العظيم. ومن أبرزها إسلام بضع آلاف في جنوب أفريقيا وحدها من خلال جهود مركزه الدّعوي، الذي ظلّ يشرف عليه طيلة عقود من الزمن. وأما عن المهتدين في شتى أنحاء العالم بتأثير كل من مناظراته ومحاضراته ومنشوراته، فلا يحصي

عددهم إلا العليم الخبير؛ إذ لا علم لغيره تعالى بحقيقة عددهم الزاخر. وفضلاً عن هذا؛ فإن مطلب الدفاع عن الإسلام وحماية عقيدة المسلمين من الأولويات الموازية لمطلب الهداية وكسب الآخرين في مشروع ديدات الدّعوي الكبير، والواقع أنه كان شديد الحرص على المزاوجة المتكاملة بين مهمتين إسلاميتين، من الممكن استقلال كل منهما عن الأخرى، وهما: التصدي عن الإسلام، والدعوة إليه. فيكفيه مكرمة أنه فرض على الإرساليات التنصيرية بمخططيها ومنفذيها الهيبة من دعاة الإسلام وحماته، مما جعلهم يحسبون للجديرين بصفة داعية الإسلام حساباً كبيراً، ويتّقون الخوض معهم في سجالات عقدية مشهودة. ولله درّ من شهد له بفضلَيْ الدعوة، والدفاع عن الإسلام، فقال منوهاً بشأنه ومنهجه: «لقد قدّم الشيخ ديدات - في دعوته - الكلمة المباشرة والكتاب والشريط المسموع والمرئي، فردّ سهام التبشير والتنصير الموجهة إلى الإسلام وأهله من ناحية، واعتنق عدد كبير الإسلام على يديه من ناحية ثانية، وعاد عدد كبير من الشباب إلى دينهم بعقيدة راسخة شامخة»[1]. ولعل مبنى هذه الاعتقادات السالفة عند الدكتور بدوي قائم على ظنه بضآلة ثقافة ديدات الإسلامية، وانخفاض مستوى تكوينه الدّعوي؛ وذلك فيما أفصح عنه - من غير تحفظ - قائلاً بطعنه الجريء فيمن وصفه البعض بداعية العصر بأنه:

5 - لا يعرف شيئاً عن القرآن؛ إذ أخفق ديدات على حد قول الدكتور في الإجابة ذات مرة على سؤال يتعلق بالقرآن الكريم، ويظهر لي من غير شك أن من الإسراف في المبالغة الزعم بأن الشيخ ديدات لا يعرف عن القرآن شيئاً مما قل منه أو كثر!!

صحيح أنه شأن كل جواد لم يسلم من بعض العثرات، ولكنه مع ذلك كان بحق على صلة وثيقة بالقرآن الكريم بنصّه العربي الأصيل، وعبر التراجم المتقنة لمعانيه باللغة الإنجليزية. ولقد لاحظنا في دراستنا لمنهجه طابعه القرآني، مما شجعنا إلى جانب

---

(1) شوقي أبو خليل: "الدعوة الإسلامية حاضر ومستقبل"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ص165/ 4/ خاص بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للدعوة الإسلامية عام 1400من و. رﷺ =1990م. طرابلس-ليبيا.

غلبة النص في بنائه المنهجي على وصفه بأنه منهج نصي ذو طابع وسمات قرآنية. إذن فكيف يستقيم مع هذا الاعتبار التسليم بأن من أسس صرح منهجه بنصوص وتعاليم القرآن كان يجهل كل شيء عن القرآن الكريم على سبيل التعميم والإطلاق؟!

وكم نال ديدات إعجاب جمهوره بإيراده - حين تستدعي الحاجة - الشواهد النصية عن ظهر قلب، مردفة بشروح مجملة وتعليقات مضيئة. ومن جانب آخر يخلص الدكتور من هذا الطعن إلى ما هو أمرّ وأدهى، وذلك فيما مفاده:

6 - أن ديدات لم يكن معداً للدعوة، وهذا - برأيي - من مفاخره وليس نقيصة في شأنه كما يرى فضيلة الدكتور. ومقارنة بديدات؛ فكم وماذا حقق آلاف الدعاة من خريجي المؤسسات الدّعوية الإسلامية؟ ولو وُزن ديدات بعالَمٍ منهم لرجحهم فيما أعتقد، وهو ما يعني أن العبرة ليست بالإعداد والتكوين الجامعي فحسب، وإنما هي بالكفاءة والفاعلية والموهبة والإخلاص. وعلى اعتبارها يحق لنا أن نسأل الذاهبين إلى هذا الرأي بما مفاده: أين كان المعدّون للدعوة حين أخذ ديدات في تحقيق انتصاراته الدّعوية؟ من قبيل ما أشاد به الدكتور السائح في مؤتمر دعوي قائلاً: «وبهذه المناسبة أشير إلى أشهر حدث في تاريخ الدعوة في العصر الحديث، وهو المناظرة التي جرت بين العالم الفاضل الشيخ أحمد ديدات والقسّ جيمي سواجارت والتي سجلتها شركات (الفيديو) وانبهر بها الناس في كثير من البلدان الإسلامية لجدة هذه المعلومات عليهم»[1]. وإن من المعلوم علاوة على ذلك، أن النقاش العلمي فيما إذا كانت الدعوة علماً أو فناً، أو هما معاً لَمّا ينحسم لصالح أي من أطرافه[2]، رغم ميلي إلى الجمع بين الأمرين بنسب متوازنة أو متفاوتة، الأمر الذي يترتب على أي قول بفنيتها كلياً أو جزئياً وضع اعتبار كبير وثقيل لقضية الفروق الفردية والقدرات الجِبِلّية المتفاوتة، أي لجانب الموهبة، والتي أعتقد أن شخصية ديدات قد مُنِحتْ ميزة

---

(1) السائح حسين: 'خواطر حول أسلوب الدعوة ومتغيرات العصر'، المرجع السابق، ص152.

(2) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة، ص

الاشتمال على قدر معتبر من أطرافها. وأعتقد أن أغلب ما يقوم الإبداع في أي عمل ما على العوامل الذاتية الخاصة أكثر من العوامل الموضوعية العامة.

وينتهي الدكتور من كل ما سبق مؤسساً عليه إجابته على سؤالي إيّاه عن صورة ديدات في المجتمعات الغربية، وانطباعات العامة والخاصة حياله، بقوله الصريح الطليق: (يكرهونه ويحتقرونه جداً) وغالباً ما يشتكونه إلينا بدعوى ماذا لو فعلنا وقلنا في دينكم مثلما يهاجمنا به ديدات؟، والواقع-فيما ألاحظ-أن فضيلته حين يتهجّم في نقده لديدات متأثراً بموقف الآخر منه قد نسي الخلفية الدفاعية التي انطلق منها ديدات في أول عمله، والتي تعتبر أمراً مشروعاً إزاء سلسلة تاريخية لما درج عليه الصليبيون من هجوم وافتراء على الإسلام القيّم، ورسوله العظيم صلوات الله وسلامه عليه.

وانطلاقاً من حقيقة ما هو معروف من تلك الاعتداءات القولية والفعلية الصارخة، فإننا نذكّر بالمبدأ الذي يعبر عنه القول السّائر: والبادئ أظلم..، وجدير بالذكر أن طول وقفتنا عند انتقادات الدكتور زكي بدوي هو نتاج عدد من الاعتبارات من أهمها:

أ - أن آراءه تشكل في الحقيقة ملتقى لمعظم منتقدي ديدات ممن تجمعهم تلك الملاحظات، وتمثل المحور الذي تدور حوله انتقاداتهم التي يتحفظون في الغالب عن الإفصاح عنها، والسماح بنشرها منسوبة إليهم، وربما تفادياً من حساسية الموضوع وبذلك فإننا - من خلال عرض ومناقشة ما تقدم من آراء الدكتور بدوي - في غنى عن الاسترسال في عرض متكرر لآراء هذا الفريق إلا ما قلّ منها، وذلك لأهمية خاصة، أو ما يستدعيه من اعتبار معين.

ب - إن الدكتور زكي بدوي بحكم إقامته الطويلة والدائمة في لندن - وهي جزء من كل- يعكس بانتقاداته للشيخ ومنهجه، صورة مزدوجة لا نعلم مدى دقتها، أُولاهُما: عن موقف بيئة غربية من ديدات كان له تعلق بها وارتباط وثيق ومبكر بها، بقدر ما تترجمه كثرة محاضراته ومناظراته في جنباتها، وسعة نشاطه

الإسلامي في أوساطها، وثانيهما: ربما يعكس صورة ديدات في العالم الغربي برمته وموقف هذا الأخير منه.

ج - كانت إطالة الوقفة من جانب آخر للتعبير عن أن أغلب الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى هذا المنهج وصاحبه هي متهافتة، ويسهل الرد عليها من غير تكلف، ومن ثم فلا داعي- مع وجودها - إلى اتهام الشيخ في دعوته ومنهجه، وطرح عمله وإحباط جهوده، وكم وقع العلماء والدعاة في مآخذ غير متعمدة ولكن بقي لهم مع ذلك قدرهم واعتبارهم؛ إذ الأهم هو سلامة المنهج ونبل المقصد، وما عداهما يهون ويغتفر، وحسبهم أجر الاجتهاد مع الخطأ فالعصمة والكمال المطلق لله وحده.

هذا... وممن قابلته بهذا الخصوص- إلى جانب الدكتور بدوي- الدكتور محمّد البائك[1]، من المملكة المغربية وهو متميز بلطف لهجته في نقد المنهج الحواري عند ديدات، والذي يرى أنه منهج استعراضي خطابي سجالي، يعتمد على فن المناظرة بمعرفة المسيحية والكنيسة أكثر مما يعتمد على الحوار الهادئ الرصين والبحث عن خطوط اللقاء والقواسم المشتركة، ولذلك فإن نجاحه نسبي برأي الدكتور البائك. وهو نجاح مقيد عنده بعامل الظروف السجالية وفي الحوار مع بعض الأشخاص في نفس المستوى، كما يشترط لضمان الإفادة وتأمين النجاح بهذا المنهج وفي ظروفه السجالية، الخلو والتحرر من الدوافع المادية بمختلف تجلياتها.

وأقول تعليقاً على هذا الرأي: إن ديدات لم يغفل البتة في عمله الحواري التركيز على المشترك، أو الاستنجاد بخطوط التلاقي والتسامح مع الآخرين، كما أن حواراته وإن كانت مع الجميع إلا أنها في مقتضياتها ومنطلقاتها تولدت في ظروف سجالية، كان الوضع فيها يحتم ردّ الفعل بقوة أكبر أو مماثلة، لإيقاف العدوان وقطع دابر القوم الظالمين. وعلى صعيد آخر من السياق النقدي المعارض يذهب مستشرق ألماني معاصر

---

(1) يعمل بكلية اللغة العربية بمراكش من المملكة العربية المغربية، له اطلاع ومتابعة للدعوة والدعاة، ومشاركة غنية في مؤتمرات وندوات العمل الإسلامي المعاصر، وكانت المقابلة بمقر كليّة الدعوة الإسلامية، بطرابلس وبتاريخ 18/ 3/ 2002ف. بمناسبة انعقاد ندوة الحوار الإسلامي المسيحي في عصر العولمة.

مغمور ضمن حواراته مع الدكتور أبي خليل إلى اتهام ديدات بما نصه : «أشعر أنه يريد ويحب أن ينشر الإسلام، إنه داعية قوي وهذا من حقّه، ولكن أظن ليس من حقه ولا يحق له أن يقول أشياء لا تتعلق بصميم المسيحية، هذه مشكلة، والمشكلة الأكبر عندنا نحن حينما لا نعترف بحقيقة الإسلام ولا نصل إلى حقيقة الإسلام، يجب أن نستدل بقول محمّد ﷺ لا بقول أحد الحكام المتأخرين، يجب علينا أن نقول وننطلق من الإسلام الأصيل من معينه، وهكذا في الوقت ذاته في المسيحية ننتقدها»[1]، إنه لقول جميل، ولكن يظهر الفارق جلياً في قياسه الفاسد، حين نتذكر أن المسيحية التاريخية المعاصرة تفتقِرُ بخلاف الإسلام إلى أصول علمية صحيحة، وبذلك يشكل مجموع تراث اللاهوتيين وإنتاجات الكنيسة مصادر صميمة في دراستها، مما لا يستغني عنها باحث جاد ومنصف، فضلاً عن أن انتقادات ديدات للمسيحية الصليبية، كانت في أعمها مبنية على نصوص الكتاب المقدّس بأناجيله ورسائله، مع مراعاة الخلاف القائم بين الجماعات المسيحية، في كم مصداقية النصوص الواردة في ما يعتقد أنه كتاب مقدّس.

أما إذا قصد المستشرق أن ديدات قد تطرق في نقده للمسيحية إلى قضايا سلوكية وواقعية، ولم يلتزم بحدود العقيدة كمعرفة نظرية مجردة فذاك أمر وارد؛ حيث إن ديدات كان في معالجته لأغلب القضايا الحوارية يعرّج دوماً على واقع المجتمعات المسيحية، غربية وشرقية؛ وذلك إما لعرض المفارقة الشاسعة بين القيم الدينية والممارسة العملية، أو لبيان كيف أدى الضلال في المعتقد إلى التنكب عن جادة المسار الصحيح والسوي في العلاقات الإنسانية اجتماعياً ودولياً. وهذا إجراء نابع عن صحيح تصوره بمثالية الدور الوظيفي الذي يُنتظر من الدين أداؤه في حياة الإنسان فرداً وجماعة. ولا يفوتنا في معرض الحديث عن بعض منتقديه، التذكير بأن أولئك الذين سبق وأن قال ديدات بمراسلتهم إيّاه بالتهديد[2]، هم ممن يصنفون من الناحية الفكرية في دائرة منتقديه، وإن زادوا على غيرهم بالمواجهة القولية، وإعلان المعارضة الفعلية،

---

(1) شوقي أبو خليل: الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، ص68، مرجع سابق.

(2) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص150، مصدر سابق.

شأن كل ذوي الآفاق الضيقة، ممن تعوزهم القدرة على الحوار والإقناع، فيجدون في استعراض العضلات ملاذاً يطمئنون على أنفسهم فيه من مداهمة أمواج الحقّ، وملجأً يرون أنه يمكِّن من الإبقاء على صولة ما هم عليه من الباطل في مواجهة سلطان الكلمة الحقّة، والعقيدة الصحيحة، وينال بالضعف والتراخي من همة حملتها والدعاة الصادقين إليها.

ومما يسترعي الانتباه في خضم اختلاف مواقف المقيّمين لمنهج ديدات الحواري تأييداً وتنديداً، وجود موقف وسط بين هؤلاء وأولئك يزاوج بين محاسن ما عند الفريقين، ويتسم بروح علمية تراعي أدب النقد وموضوعيته. ومن ممثلي هذه الوسطية أستاذنا الكبير الدكتور السائح علي حسين[1]، الذي أبدى في تقييمه لديدات وعيًا منهجيًا، تمثل في دقة تفرقته بين مقام الشيخ ديدات ومكانته الرفيعة، وبين نقد منهجه كمسلك بشري، من أجل غاية دعوية يدخل في حكم الخطأ والصواب. وفيما يخص رأيه في ديدات ذاتاً لا منهجاً فقد لخصه في قوله: «وأحب بادئ ذي بدء أن أفرق بين أمرين حتى لا يظنّ ظانٌّ بحديثي غير ما إليه قصدت، الأمر الأول: هو علم الشيخ أحمد ديدات، ومقدرته الفائقة على الحوار، وبديهته الحاضرة، واطلاعه على الأناجيل الذي فاق اطلاع القساوسة أنفسهم، فهو من هذه الناحية أستاذنا وله كل تقدير وإكبار، الأمر الثاني: هو جدوى هذا المنهج في ميدان الدعوة...»[2]، ولا يخفى أن هذا القول من الوضوح بمحل يغني عن كل تعليق عليه، وأما حكمه على منهجه فقد صاغه فيما نص عليه بقوله: «والذي أعتقد بيقين: أن هذا الأسلوب لا يدخل مسيحياً واحداً للإسلام، وفي أفضل الافتراضات سيجعل بعض المسيحيين غير المهتمين بدراسة تاريخ الأديان يتركون دينهم وغيره. أما أن يدخلوا إلى الإسلام فذلك

---

(1) هو رئيس قسم الدراسات القرآنية بكلية الدعوة الإسلامية، كاتب ذو مؤلفات عديدة، ومدرس عدد من المواد الإسلامية، كالفقه والتصوف، وعلوم القرآن والسنة بمرحلتي الدراسة الجامعية الأولى والدراسات العليا، وله نشاط عريض في تنظيمات العمل الإسلامي وفي توجيه الدعوة والدعاة وتربيتهم.

(2) خواطر حول أسلوب الدعوة ومتغيرات العصر، ص 152-153، من عدد 1990 الخاص من مجلة كلية الدعوة الإسلامية.

غير وارد؛ لأنهم جروا الشيخ ديدات للبدء بالهجوم، وعقدوا معه مناظرة ثانية فيها قس من أصل عربي كما حدثني من أثق فيه (ولعله الأستاذ الصديق بشير نصر) وقد وجه العديد من طعنات التشكيك في القرآن الكريم، مما يجعل ثقة المسيحيين فيه غير واردة، هذا إذا لم تهتز ثقة السذج من المسلمين أنفسهم في كتابهم الكريم»[1].

والواقع إن إبطال مفعول منهجه على هذا النحو أمر ينطوي - عن غير قصد - على شيء كبير من الإجحاف في حقه، والإنكار شبه التام لجدوى العمل الذي عكف عليه منذ أدق مراحل عمره المبارك، وأمضى ما يقرب من كامل حياته في سبيله محاضراً ومحاوراً، مسافراً وناشراً.

وأنا إذ لا أستطيع منع نفسي من مخالفة الدكتور السائح في حكمه المعطل لمنهج ديدات، أجدني ملزماً ببيان الحقائق التالية:

1 - ليس الأستاذ السائح بدعاً ممن جرّد منهج ديدات من إمكانية هداية الآخرين إلى الإسلام، بل ذهب الدكتور زكي بدوي - فيما تقدم - إلى أبعد من ذلك، حين أعلن أنه لم يبلغه قطّ أن أحدًا قد أسلم على يديه. وقد رُدّ على قوله في حينه بما فيه كفاية له، وبما هو مقنع علمياً لمن يشترك معه في الرأي.

2 - إن القول بأن ديدات قد استدرج للبدء بالهجوم ليس دقيقًا، وخاصة إذا تأملناه في ضوء المعرفة الكافية بسيرته، والاطلاع الواسع على مسيرته الحوارية، والإلمام المجمل بظروف وملابسات أشهر حواراته على الأقل.

3 - يميل البعض، ومنهم الدكتور السائح إلى الاعتقاد بأن مناظرة ديدات مع القس العربي أنيس شروش جاءت متأخرة عن مناظرته الشهيرة مع القس الأمريكي سواجارت، والصحيح - تحقيقاً - أنها كانت من الناحية الزمنية متقدمة على هذه الأخيرة[2]. ومن ثم لا مجال للأخذ بما رتب على هذه المسألة الترتيبية من حكم افتراضي، يكفي لدفعه

(1) المرجع السابق، ص153.

(2) ينظر: كتاب: مناظرة العصر، ص28، مصدر سابق، وكتاب الحوار الإسلامي المسيحي، ص229، وقد سبق ذكره.

القول بأن مناظرته مع القس العربي لم تحظ من الشهرة الإعلامية بما يروج لقضاياها، فتهتز بتأثيرها عقيدة من وصفوا بالسذج من المسلمين. وعلاوة على ذلك فإني أحسب أنها مع خطورتها مرت كسحابة صيف عابرة من غير أن تمطر حتى في المحيط الذي انعقدت فيه، إذن؛ فلا مدعاة للقلق على المنهج الديداتي، ولا داعي للتشاؤم بشأن النتائج الدّعوية المأمولة من ورائه وبواسطته. على أن من مزايا تقييم الدكتور السائح لمنهج ديدات أنه حين حكم عليه بما يفيد أنه عديم الجدوى لم يرض لنفسه الوقوف موقف الناقد المتفرج وإنما عمد إلى اقتراح منهج حواري بديل عما اعتبره هجوماً، وهو ما أسماه بأسلوب تجاهل العارف في الحوار والمجادلة، وذلك سيراً على الطريقة الإبراهيمية الواردة في القرآن الكريم[1].

وقد ذهب إلى تحديد طبيعة هذا المنهج لإبراهيم عليه السلام بقوله: «بدلاً من الهجوم، من الحكمة في الحوار والمجادلة، استعمال الإحراج بالأسئلة التي ظاهرها الوصول إلى الحقيقة، وكأنك تريد أن تعرف فقط لا أنك تريد أن تحرج محدثك حتى لا يقطع الحوار»[2]. ولا يخفى علينا وعلى غيرنا أن لهذا المنهج الحواري ظروفاً وأطرافاً تختلف في الغالب عن تلك التي تعاطى معها الشيخ ديدات وانطلق منها على طول مسيرته الحوارية، ومع ذلك لا يعدم من يتابع حواراته الهادئة ذات النطاق المحدود ما ينهض دليلاً على استخدامه لهذا المنهج الإبراهيمي، والخروج بما يؤكد عدم تجاهله إيّاه، بل وإنما كان يحمل نفسه عليه في فرصه المواتية. وإلى الاتجاه ذاته يذهب الدكتور عبد الجليل شلبي فيما ظهر لي من خلال سرده لتفاصيل قصة زيارته لجنوب أفريقيا، ومقابلته لديدات أثناءها، وقد عكس لنا موقفه النقدي من منهجه بقوله: «وقلت لهم «أي ديدات ومريديه» إني أودّ أن يبذلوا في درس الدين الإسلامي جهداً أكبر، فلئن كانت هجومات المبشرين تدعونا إلى أن نحاربهم بسلاحهم، فإن ميدان الدعوة الإسلامية ومجال التعريف بها أهم وأولى، ولا

---

(1) ينظر: مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد خاص، 1990م، ص157، مرجع سابق.

(2) المرجع نفسه، ص156.

تقوم الدعوة دائماً على المناظرات»[1] ، والصحيح أنه يُستشف من هذه النصيحة الخالصة عدم معرفة صاحبها في حينها بسعة مجالات عمل ديدات الإسلامي ؛ إذ لا يقوم - فيما تبين لنا - على المناظرات وحدها مع غلبتها عليه ، واستئثاره بها أكثر من غيرها .

وفي خليط من النقد والتمجيد لشخصه ولعمله ، كتب يقول : «ويبدو أن أحمد ديدات بعد انتصاره في مناظرته ناله شيء من الزهو ، ولم يشارك الجماعة الإسلامية حفلها الكبير ، وعلى أي حال فله مجموعة من الكتب واجه بها المبشرين ، وهو مستعين دائماً بدراسة الكتاب المقدّس بقسميه ، ويبدو أنها دراسة جيدة وعميقة»[2] .

وأهم ما في هذا التقييم أن صاحبه يخلص في ختام حديثه عن ديدات إلى إقرار منصف لدوره وجهوده الحوارية ، وذلك فيما نصه : «وعمل ديدات يستحق الشكر والتقدير ولعله من أهم ما يغاظ به المبشرون ، وقد كتب رسالة إلى البابا في روما يدعوه لمناظرة بينهما لإثبات أن الإسلام هو الدين الصحيح ، وتحدى الباب أن يقيم براهين سليمة على صحة المسيحية ، ولم يظفر بردّ»[3] . وأظن أن إغاظة ديدات للمنصرين وتضييقه الخناق عليهم يكفيان في حدّ ذاتهما لتبرير جدوى منهجه ، وتقرير ضرورة وصال السير عليه . وقد كتب ذات مرة من قدّم لأحد أهم كتبه المعربة ، بعد أن صنف حواراته في إطار النوع الصاخب[4] ، فقال : «ورغم أن المنهج وهذا الأسلوب المتبعان في تحرير الكتاب قد لا يلقيان قبولاً من بعض جمهور الأكاديميين ، خاصة المتخصصين في ميدان دراسة مقارنة الأديان والجدل الدفاعي ، إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة هذا الكتاب أو بقية كتبه ولا من وضوح فكرتها . . . نستطيع أن نقول : إن أحمد ديدات نجح فيما قصد إليه رغم تجاهله للقواعد الأكاديمية المتعارف عليها ، في تحرير البحوث ، أو عدم قدرته على مراعاتها ، وعلى كل حال ، فالرجل بذل أقصى جهده ولا يكلف الله نفساً إلا

(1) معركة التبشير والإسلام ، ص186 .

(2) المرجع نفسه .

(3) نفس المرجع والصفحة .

(4) ينظر : هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص65 ، مصدر سابق .

وسعها»[1]، ولا يخفى على القارئ الكريم أن الاستشهاد بهذا النص في هذا المقام ذو دلالة معبرة عن اعتقادنا بأن ما يقال بشأن كتبه وبحوثه يصدق أيضاً بكله أو جله على منهج محاضراته ومناظراته من جانب آخر.

وأخيراً نخرج من هذه المرافعات النقدية، وقد تبين لنا سقوط معظم الانتقادات التي أطلقت حول ديدات ومنهجه، مع لحاظ أنها سرعان ما تلاشت في وجه الحقيقة. الأمر الذي تأكد لنا في ظله إصدار أحكام مزاجية ممن ليسوا مختصين في القضايا التي يحكمون فيها، ولا يمتلكون اطلاعاً علمياً وافياً في الشأن الذي يناقشونه بما يخولهم حق البت فيه. فقد انصبت انتقاداتهم في أغلبها عليه وعلى منهجه الحواري دون غيره، كما عيبت عليه أحياناً أمور هينة وربما تافهة، على أننا -وعلى أيّ حال- نكبر في أصحابها روح المغامرة العلمية، ونسجل لهم إعجاباً بشجاعتهم الأدبية النادرة.

والحقيقة أن تقييم المنهج الديداتي وبالأخص في جانبه الحواري، سوف يظل أمراً مثيراً للجدل، ورافداً يغذي جهداً نقدياً لا ينضب، ويخلق مواقف تقييمية متباينة، كما أني أتوقع أن تثير الظاهرة الديداتية في قادم الأيام والأعوام عمليات من الدرس والتحليل والنقد، وقد نتفق مع أصحابها أو نختلف من حيث الموقف والرؤية، لكنها تمثل في النهاية مطلباً علمياً لابد منه؛ للكشف عن الجوانب المضيئة والمفيدة من هذا المنهج، والتي قد يظل العمل الإسلامي في مسيس الحاجة إليها لوقت قد يطول أو يقصر.

وبهذا الاعتبار فقد آن لي أن أسهم بإبداء ما أفدته من هذه الدراسة من رأي فجّ متواضع في تقييم الشيخ ديدات ومنهجه، ولعله لا يخلو مما يمكن الاستئناس به، ولا أقول الاعتماد والتأسيس عليه.

---

(1) المصدر نفسه 81.

مناقشة وتعقيب عن الشيخ ديدات ومنهجه في ضوء هذه الدراسة :

فيما يختص بالشيخ ديدات يمكن القول - على الرغم من كل ما يمكن أن يقال فيه - بأنه داعية كبير ومحاور قدير، وهو يمثل معلماً شامخاً في أفق العمل الإسلامي المعاصر، ومصدراً زاخراً قادراً على العطاء الحواري المتواصل، ولقد أثبت بما لا مجال للشك فيه، أنه فعلاً يجيد فن الحوار ويعرف كيف يخوض في أعلى المستويات معركة المناظرات الهادئة والساخنة، ليكتسبها بفروسيته الخطابية، وبطولته المنهجية المثيرة. وقد اتجه همه في حياته لخدمة الإسلام والأمة في مجالات عديدة، استطاع أن يحرز فيها نجاحات غالية بحكمته وصبره وإخلاصه، وبتوفيق الله تعالى إياه أولاً وأخيراً. وإن عظمة رجل مثل ديدات مبعثها أنه استوعب المشكلة القائمة، وقدر الواجب تقديراً صحيحاً وموضوعياً. فكان في مستوى النهوض به وأداء ما مُكِّنَ من أدائه منه بإخلاص وإتقان. وإن الحديث عنه ذو سعة وتدفق، حيث إنه حافل بالجوانب الشامخة؛ لأن دعوته كانت آهلة بالخصوبة والعطاء، وإن حصيلته الدّعوية- مهما قيل عن رصيده فيها- تظل متميزة، ويشهد عليها أنه لعب دوراً كبيراً في نشر الإسلام في بلاده وفي العالم، كما عمل على إشاعة المؤثرات الإسلامية في منطقة الجنوب الأفريقي لمغالبة عقيدة العالم الغربي وثقافته، كما سعى إلى بعث حياة إسلامية ناهضة في نفوس وواقع المسلمين، وحثّ الأقليات المسلمة على التمسك بدينها وهويتها إلى أبعد الحدود. وقد عرف بحرصه على أن يكون كل مسلم قادر داعية مخلصاً إلى دينه.

وفي تقدير صحيح لحجم الدور الكبير الذي قام به لا يسعنا التقليل من شأن التأثير العميق الذي مارسه على المنصرين، وبمقدورنا أن نتبين شيئاً من ذلك في إحجام بابا الفاتيكان عن مناظرته، كما أن له تأثيراً ملحوظًا في حركتي الدعوة والتنصير، وفي إثراء الدراسة الدينية المقارنة، بما تكشف عنه منشوراته بجوار محاضراته ومناظراته. وليس بخاف على الإطلاق في واقع الدعوة الإسلامية مدى أهمية ما تمثّله الشيخ ديدات من دور حواري عظيم، حتى نضطر إلى التأكيد عليه بأنه كان متفرداً في نوع

العمل الإسلامي الذي حمله على عاتقه وعاش ينوء بثقله، مما لازمه همّ القيام به حتى وهو في أحرج الظروف وأحلك الأيام التي عاشها، بما يعني تلك الأيام التي قضاها طريح الفراش يعاني من وطأة صراع مرير مع المرض وآلامه. ومن ثمّ فإن لفتور نشاطه أو غيابه وقعاً أليماً في النفس، وفي الواقع الإسلامي بعمومه، مما لا يخفف أثره إلا النجاح الباهر الذي حققه، وذلك العمل الكبير المستمر الذي أسسه وخلّفه، ومن أبرز مظاهره مركزه الدّعوي في جنوب أفريقيا الذي يعتبر من أخص المقاصد التي أُنْشئ من أجلها والتي يجب أن يقوم بها هو العمل على تنشيط الحوار والدعوة، باعتباره منتهى آمال الشيخ ديدات. إذ لم يكن- فيما أظن- يطمح في أكثر من أن يوفق لنيل شرف مقام خدمة الإسلام والمسلمين، الأمر الذي يقدم تفسيراً صحيحاً لعلو همته وسعتها في مطاردة التنصير بالدعوة، والتثليث بالتوحيد، وملاحقة الشر بالدعوة إلى الخير. فهو بعمله وجهاده معدود في القلة من فحول الدعاة الذين يتقدمون المواكب للحيلولة دون توقف القافلة، ولتجديد مسار الدعوة وتحقيق طموحاتها. وربّ قائل بأنه يمثل آخر العمالقة في قرنه، غير أنني أعتبر سيرته ودعوته من أبرز منارات الإيمان والدعوة إلى إنسان القرن العشرين. وإن عبقرية التحدي تكشف عن نفسها جلية حين نأخذ في دراسة رسالة حياة هذا العلم، مما يدفع بالباحث إلى اعتقاده رائد جيل في الميدان الذي اشتهر به، وباعث مدرسة حوارية مهجورة مندثرة، ولكنها أصيلة وفاعلة، وإن رسالة ديدات تشكل في حقيقتها نقلة دعوية بعيدة الآماد، لا ندرك مداها إلا بالتأمل في الصرح الذي أقامه لتحصين الدفاع وتوفير المبادرة الناجحة من أجل إفساح المجال أمام دعوة الحق والخير، والجمال والمحبة، إن صاحب هذا المنهج بمزاجه الجدي ووقاره الدائم، كان يقوم بمهمة مقدّسة تتمثل في البحث والكشف عن الحقيقة معاً منذ أكثر من نصف قرن، مما يكسبه بجدارة حق الانتظام في مصاف كبار حراس الحقيقة وحماة العقيدة، وإني بذلك أرمق عمله بفخر واعتزاز كما يحظى هذا العمل في الآن نفسه -فيما أعتقد- بتقدير العالم الإسلامي كله، وكل من لا يستطيعون - في مساق الحديث عنه- أن يمنعوا دمعة عزاء ودعاء من أن تحتقن لها

عيونهم بذكرى جهوده، وسع الله عليه رحمته لقاء ما قدّم وجاهد، وأجزل له المثوبة بأفضل مما خلّف من عمل وعلم ينتفع بهما من بعده. ومن طرائف المقارنة بالنسبة لمن يستهويهم فن المقابلة بين الشخصيات، ما يلاحظ من شبه قوي بين الشيخين المجاهدين بطل المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي الشهيد عمر المختار، وبطل المقاومة الدّعوية ضد الحملات التنصيرية الداعية أحمد ديدات؛ حيث إن كلا منهما قد قاوم ببسالة نادرة- في عصره وبطريقته- حركة الهجوم الاستعماري الصليبي على الإسلام، والمسلمين، في منطقة من أقصى أطراف القارة الأفريقية، وفي ثغرتين متقابلتين من أشد ثغورها الشمالية والجنوبية حساسية وخطراً على الذات والعقيدة المسلمتين، فما أقوى الشبه بين العلَمين شكلاً وفعلاً!! وهو شبه يعمقه خلود كليهما في ذاكرة التاريخ وفي وعي الأمة، إضافة إلى ما يتماثلان فيه من حياة عاصفة ونهاية فاجعة[1]، واجهَاهَا بروح معنوية عالية، وفي تحدٍ دائم، بالإصرار على مبدأ الأبطال العظام: الموت أهون من التخاذل والاستسلام.

ومن جهة أخرى تتحتم الإشارة إلى أن كل ما قيل بشأن ديدات بعيد كل البعد عن دعوى كماله، أو الاعتقاد بسلامة منهجه وأفضليته المطلقة، أو الانتصار الأعمى له ولمنهجه، فلا هذا ولا ذاك قصدته؛ حيث إني لا أنكر فيما يتّصل بتكوينه الثقافي، أنه وإن كان ضليعًا خبيراً في علم الأناجيل إلا أنه لم يكن بالقدر، وفي المستوى ذاته من التمكن والإحاطة بمعارف الإسلام، وذلك لما يبدو في ردوده أحياناً من ثغرات، وما تسفر عنه كتاباته من فراغات معرفية يمكن أن يسهم في ملئها من له زاد يسير من معين علوم القرآن الكريم وما يحيط بها من ألوان متنوعة من كلية الثقافة الإسلامية[2]. على أن مبعث تلك الثغرات في ثقافته الإسلامية يظهر في كون تعليمه الأول لم يكن إسلامياً، وأن دراسته

---

(1) ينظر: عمر المختار نشأته وجهاده، من 1682-1931م. ص77، من أعمال الندوة العلمية المنعقدة بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاده، ط2/ 1983م. من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس - ليبيا.

(2) سبقت الإشارة إلى بعض الأمثلة من ذلك، وبالأخص في حديثنا المقارن بين الشيخ ديدات والدكتور أحمد حجازي السّقا وما كان لهذا الأخير من ردود وتعليقات عليه في مواقع متعددة من كتاب المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان.

للإسلام وتزوده من ثقافته لحواره ودعوته كانا لا حقين وغير نظاميين. وقد تحققا بجهد شخصي يحكي لنا طرفاً من تصميم الشيخ ديدات وقوة إرادته الحديدية. ومن شأن تحصيل علمي من هذا القبيل عدم السلامة في الغالب من ثغرات ومطاعن، وأنا إذ ألتمس له العذر بهذا السبب، أدرك حقاً أهمية ما ينبغي أن تتاح للداعية المعاصر من فرصة دراسية نظامية متخصصة ومتعمقة في مجال الدراسات الإسلامية، على النحو الذي تهيأ لعدد كبير من أبناء الأمة الإسلامية من غير العرب بمن فيهم كاتب هذه الأسطر، وذلك بفضل ما بذلته -وما تزال- من جهود متواصلة ومشكورة جملة مؤسسات كبيرة للتعليم الإسلامي في العالمين العربي والإسلامي، وأعني بها تلك التي حازت قصب السبق وفازت بشرف الريادة في إعداد الدعاة وتكوين علماء الحاضر والمستقبل. إذن؛ فشخصية ديدات ودعوته منظوراً إليهما في ضوء الملابسات البيئية التي أطرت ثقافته، وحددت له طريقة عمله، لا يمكن فهمها صحيحًا، ومن ثمّ تقييمها موضوعياً بمعزل عن إطار التدافع والمبادرة المرتجلة بردّ الفعل من غير توفر إمكانيات معرفية سابقة وأساسية؛ أي ثقافة الداعية وعدته المعرفية الكافية.

ولتعلقه بالدفاع عن دين القرآن الكريم وحبه للدعوة إليه، فقد عصم الوحي القرآني عقيدته من الضلال والانحراف، دون عصمته مما لا ينفك عنه بشر من خطأ ونسيان.

وقد كان من الناحية النفسية يتمتع بثقة فياضة ومطلقة بالله العزيز القدير، واعتداد موضوعي بالذات المسلحة بعمق معرفة الآخر، فلذا كان يظهر قوياً في إيمانه ودعوته، قوياً في حواره ونقده.

وانطلاقاً من دائرة ثقافته الإسلامية، ومع كل ما أكنه له من اعتبار وتقدير، فإنا إذا أردنا الدقة في وضع الأمور في نصابها وكان لنا حقّ يذكر من أمر توزيع الألقاب والدرجات العلمية على مستحقيها، قلنا حقاً: إن الشيخ أحمد ديدات داعية ومجاهد، وفارس مناظرات خبير، وخادم أمين للإسلام ودارس متبحر للكتاب المقدّس. . إلخ.

ولكنه ليس كما يطريه البعض غالباً[1] علامة بالمفهوم الإسلامي الشائع. إن العلامة تعني - فيما أفهم -: من أحاط بعدد من العلوم الإسلامية في إحاطة شاملة، وتمكن واسع عميق. وربما في شيء من التجاوز يصحّ اعتباره علامة بالكتاب المقدس؛ وذلك حين نتقيد فقط بمعناها اللغوي الذي يحدّده ابن منظور بقوله: «علاّم وعلامة: إذا بالغت في وصفه بالعلم أي عالم جداً والهاء للمبالغة»[2].

وهذا الرأي مؤسس عندي على اعتبار ما كان يعاني منه الشيخ ديدات من مشكلة الاتصال الصعب بالتراث الإسلامي الخصب، وبالأخص في المجال الحواري الذي يعدّ فيه ديدات شرخاً واسعاً في شرنقة الصمت[3] المطبق عليه. وأما منهجه الحواري فقد حاور به كأحسن ما يكون، كاشفاً عن قدرته الحوارية الفذة التي قل من يباريه فيها، في كلٍّ من عرضه ونقده لنصوص الأناجيل، وفي دفعه بالأدلة الصحيحة القاطعة، وفي رباطة جأشه، وحضور بديهته، والتزامه بالأدب الحواري الفاضل، وغيرها من المميزات الشخصية والمنهجية التي استطاع بفضلها محاصرة مناظريه، بتضييقه عليهم سبيل التخلص من قواطع المنطق السليم، وبينات الحقّ الإسلامي الصحيح.

ومن ثمّ فإني أعتقد بكفاءة هذا المنهج طالما توفرت له مقوماته ورجاله واتسعت قاعدة أخلاقياته الحوارية ودائرة آفاقه الإعلامية[4]. ولا نوافق في الرأي من يتهم المنهج بأنه لا يضمن سوق الآخرين إلى الإسلام، بل وإنما ينفرهم أو يشجعهم على العناد والمكابرة. وهذا افتراض بغض النظر عن تجاهله للبعد الآخر لهذا المنهج وهو الهدف المتمثل في المنع والدفاع، فإنه لا يصح، وذلك باختباره في ضوء الواقع مأخوذاً في

---

(1) ينظر: مناظرتان في استكهولم، ص13، وينظر: مناظرة العصر ص19، وأيضاً ينظر: مختلف مناظراته وكتبه المعربة، يميل فيها المعربون والمقدمون إلى خلع هذه الصفة العلمية عليه في جوانب كثيرة.

(2) ابن منظور: لسان العرب، باب العين، ج ص371 ط3/ 1418هـ=1997م. دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي بيروت-لبنان.

(3) الشرنقة: تعني قشرة الحية إذا ألقته، أو البيوت التي ينسجها دود القزّ لنفسه، ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، ص385، ط37/ 1998م. دار المشهد-بيروت.

(4) سنعود بعون الله تعالى في المبحث اللاحق إلى تناول القضية المنهجية، وبيان سبل الاستفادة منها.

الاعتبار ذلك الكم الهائل ممن اعتنق الإسلام على يديه ، أو بتأثيره ؛ سواء في بلاده أم في غيرها من العالم .

ولئن كنا قد أمطنا اللثام عن بعض الانتقادات والمآخذ التي اهتدينا إليها من خلال هذه الدراسة ، فأشرنا إليها في مواضع متفرقة من مباحثها ، مما مفاده أن عدته الحوارية لم تكن متوازنة في شقيها الإسلامي والمسيحي ، وأن الشيخ ديدات كان يعاني في ميزان فكره وعمله من اختلال يتجه لصالح هذا الأخير ، وأنه يتمتع في كتاباته ومناقشاته بالقدرة على التحليل دون التركيب والتنسيق ، وأنه يلتقي مع غيره من العلماء القدامى والمعاصرين في جوانب حوارية متعددة معرفية ومنهجية ، وأنه متأثر أو متتلمذ بالأحرى على كتاب الشيخ رحمة الله الهندي ، علاوة على حدة أسلوبه الحواري أحياناً ، وقسوة ألفاظه في بعض المواقف وغلظة خطاباته الاستنفارية الموجهة إلى المسلمين العرب بوجه خاص بما يشوبها من لوم وعتاب ؛ وذلك نتيجة حماسه وانفعاله الدّعوي ، بما لا يعكس أكثر من نفثة مصدور أو زفرة مكلوم ، فضلاً عن انتقاد البعض الآخر له بأنه لم يكن معداً للدعوة وأنه مكروه ومحتقر في الغرب - والله أعلم - وأن أسلوبه كان سجالياً خطابياً ، وغيرها من الملاحظات والانتقادات التي أتينا على ذكر معظمها فهي - حقيقة - في جملتها قليلة ومنحصرة قياساً بالكثير من الإيجابيات التي يتعذر حصرها مما احتواه الشيخ ديدات وحققه بمنهجه في الحوار والدعوة ، وهي إيجابيات -رغم كل نقدٍ محتمل- تتحدى سلبية كل موقف قادم أو قائم من الشيخ ومنهجه .

وفيما يلي عدد مجمل من تلك الإيجابيات الكثيرة التي يشهد بها التاريخ ويسجلها للنشاط الديداتي حواراً ودعوة :

1 - واقعة مناظرته مع القس الأمريكي جيمي سواجارت وانتصاره عليه .

2 - استدراجه وتأثيره في النائب الأمريكي بول فندلي للتطوع بإلقاء محاضرات وإنشاء مقالات ، والقيام باتصالات مباشرة لتعرية حقيقة الصهيونية والكشف عن عدالة

القضية الفلسطينية وأحقية شعبها في أرضه ومقدساته[1] .

3 - خطابه الدّعوي الحكيم في البلاط السويدي أمام الملك وحاشيته ومندوبي مختلف الكنائس السويدية ، وذلك في يوم مشهود نال فيه انتباه الجميع وأثار إعجابهم بوضوح بيانه وقوة منطقه وحكيم أسلوبه[2] .

4 - قيامه بشن حملة فكرية إعلامية ضد المارق سلمان رشدي ، وذلك في موجة الأحداث التي أثارها بصدور كتابه : الآيات الشيطانية ، وقد ردّ عليه ديدات باللسان والقلم ، وجند لمواجهته مختلف الوسائل الإعلامية والإمكانات المادية والفكرية المتاحة ، بما فيها اللجوء إلى المسالك القانونية لمنع دخول المردود عليه إلى أراضي جنوب أفريقيا[3] .

5 - مراسلته لبابا الفاتيكان متحدياً إيّاه بدعوته إلى مناظرة علنية لإثبات مصداقية الإسلام وإبراز بطلان ما عليه الكنيسة والكنسيون[4] . وقد أعرض البابا وتولى لأسباب يمكن تقديرها بإرجاعها إلى الخوف والتحفظ .

6 - إحراجه للمنصرين بتعرية المسيحية الصليبية : لقد كشف ديدات النقاب عن حقيقة معتقدهم الفاسد ، وحال إلى حدٍ ما دون تأثيرهم في العامة من الناس ، لا سيما مسلمي بلاده وكانوا لانتصاراته البينة عليهم لا يصمدون أمامه ، بل يتهربون في الغالب من مواجهته[5] ، وربما توسطوا إلى منعه وإيقافه بأساليب العنف والتهديد وإثارة الشغب . ومع ذلك ظل متحلياً بجميل الصبر وشجاعة التضحية بالنفس في سبيل الكشف عن الحقيقة ؛ من أجل سيادة العقيدة الإسلامية . وبهذا يستحق منا من لم يأل جهداً في مدافعة التنصير ومواجهة المنصرين تقديراً أيما تقدير ، وإن الدور الكبير

---

(1) ينظر : كتاب ، العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق؟

(2) ينظر : القرآن معجزة المعجزات ، ص104-112 ، مصدر سابق .

(3) ينظر : شيطانية الآيات الشيطانية ، وكيف خدع رشدي العرب؟ مصدر سابق .

(4) ينظر : الحوار الإسلامي المسيحي ، ص284-285 ، مرجع سابق/ وينظر : أيضاً : معركة التبشير والإسلام ، ص187 مرجع سابق .

(5) ينظر : هذه سيرتي ومسيرتي ، ص43-86 ، مصدر سابق/ وينظر : أيضاً : معركة التبشير والإسلام ص187 مرجع سابق .

الذي كانت تقوم عليه دعوته يكشف لدعاة الإسلام عامة عن حقيقة مؤدّاها: أنه بقدر ما نوسع في نطاق هذا الدور ونكثِّف من نشاطه نسبب إحراجاً بالقدر نفسه لجحافل المنصرين مما لا يلبثون معه دون انسحاب؛ بإيثار العافية على الفضيحة.

7 - جهوده الكبيرة في إحياء منهج المناظرة وبعث روح التحمس في الدعاة الناشئين لتصعيد دور هذا المنهج في حركة الدعوة المعاصرة، وقد اتجه عملياً لعقد دورات تكوينية للتخريج وفق متطلبات منهجه الحواري الذي امتلك ناصيته بواسع وطول تجربته، وكثرة مناظرته وثراء اطلاعه ودراساته[1]. ولقد استطاع بحق أن يكسب قضية الحوار الديني بعداً إعلامياً عالمياً لتصبح ظاهرة إسلامية فريدة.

8 - تأسيسه للمركز الدولي للدعوة الإسلامية بمقره في جنوب أفريقيا[2]: لا شك أن إنشاء هذا المركز بالنظر إلى ظرفيه زماناً ومكاناً، كان عملاً كبيراً وإنجازاً هاماً، جاء في حينه المناسب تلبية إيجابية لمقتضيات الواقع ومتطلبات هداية الإنسان، مما يجعل منه خطوة متقدمة في مسار حركة العمل الإسلامي الفتية في هذا الجزء الحساس من القارة الأفريقية. على أن الفهم الصحيح للأمور يقتضي منا استيعاب ووعي الدور العالمي الذي اضطلع به المركز منذ تأسيسه ليومه هذا، وهو ما لم يكن مفاجئاً، ولا نشاطاً ثانوياً في مهام هذا المركز، بل كان مراداً له القيام بهذا الدور من يوم أخذ أصحابه في التخطيط لإنشائه. ولعل جملة من الأدلة تتضافر على تأكيد هذه الحقيقة ولا سيما حين ننطلق من التأمل في الاسم في حد ذاته وهو: «المركز الدولي للدعوة الإسلامية».

9 - نشاطه الواسع والكريم في مجالي الطبع والتوزيع: وقد علمنا في السابق أن مركزه الدّعوي يمتلك مطبعته الخاصة به، يعنى من خلالها بنشر أعمال فكرية من طبيعة أهداف المركز، بالإضافة إلى تقديم خدمات تجارية للراغبين فيها، كما تتضمن مؤسسة مركزه الدّعوي فرق عمل بأجهزة متكاملة تقوم بتصوير وطباعة ونسخ

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص27-11-31.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص33-39.

الأشرطة المسموعة والمرئية، وتوثيق النشاطات الإدارية والمعلومات الدينية؛ وذلك لتلبية الطلبات اليومية المتزايدة على تلك المنشورات التي لقيت قبولاً عالمياً فائقاً ومفاجئاً؛ إذ وجد الناس في طرافتها ما يشبع رغباتهم في رسالة إسلامية معاصرة، ولكن من نوع آخر مثير ومؤثر. ومن المعلوم أيضًا أن عملية توزيعه لترجمة القرآن الكريم باللغات الأجنبية على الصعيد العالمي هي مهمة تشغل حيزاً فسيحاً من مجموع مساحة منشوراته الإسلامية[1].

10 - إسلام عالم من الناس بحواره ودعوته: على الرغم من أن الأدلة العلمية تعوزنا لإثبات ما لا نستبعده بشأن إسلام بعض محاوريه ورجوعهم عن المسيحية بتأثير حواراته المتعددة معهم في مواقع متنوعة، فإن من اليقين الذي لا يطاله النقد ولا ينال منه الشكّ أنه قد أسلم متجاوباً مع حواره ودعوته جمع غفير في مختلف مناطق العالم، وقد تحقق إسلام عدد كبير منهم على يديه في مركزه الدّعوي بمدينة ديربان الساحلية، وقد وردت الإشارة فيما سلف إلى تصريح ديدات بدخول أكثر من ستة آلاف شخص في الإسلام عن طريق مركزه وذلك في حوار قديم معه يعود تاريخه إلى 1989م. وما زلنا نذكر إلى جانب ذلك قصة الرسالة التي تلقاها ديدات في الفلبين، مفيدة إسلام ألفي شخص هناك إثر مشاهدتهم شريط مناظرته الشهيرة مع سواجارت[2]، كما أن المعلومات السماعية العامة تفيد من جهتها تسببه في إسلام عدد لا حصر له في كل من الشرق والغرب. وفيما صح من الحديث قوله ﷺ لعليّ رضي الله عنه يوم خيبر: «. . . ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[3]، يقول الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه للحديث: «قوله . . . فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً إلخ . . .» يؤخذ منه أن تآلف الكافر

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص33-39.

(2) ينظر: العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص78.

(3) ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص44، تحقيق محب الدين الخطيب وآخر، ط1/ 1407هـ=1986م. دار البيان للتراث: القاهرة-مصر.

حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله، وقوله (حمر النعم) بسكون الميم وبفتح النون والعين المهملة وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل المراد خير ذلك أن تكون لك فتتصدق منها، وقيل تقتنيها وتملكها، وكانت مما تفاخر العرب بها»[1].

وأخيراً بعد هذه الإيجابية من إيجابياته الوافرة، أظن أن ليس ثمة مجال علمي موضوعي للتقليل من شأن شيخنا ديدات بالتطاول عليه بحال من الأحوال، فضلاً عن التحامل على منهجه بالنيل من جدواه الدّعوي وصلاحيته الحوارية، والتي تكلفت هذه المحاولة البحثية المتواضعة بالكشف عن بعض جوانبها الزاهرة، محافظة على روح التقدير لا التقديس. على أنه - بعد كل ما سبق - يظل مجال التساؤل دوماً مفتوحاً لمعرفة الصورة التي يحملها ديدات عن نفسه؟

ما رأي ديدات في شخصه ومنهجه؟!.

يعتقد الشيخ ديدات في تقييمه للداعية والمحاور أحمد ديدات؛ وذلك إن صح التجريد، بأنه خبير في مجال مقارنة الأديان وذو تجربة ثرة في قضايا الرد على النصارى، ومن ثم يوجه خاصة المسلمين وعامتهم ممن لهم بأمر دينهم عناية إلى الإفادة من تراثه المتميز بخصوصيته، في المجال الذي انصرف إليه همه. وفي هذا المعنى يقول على لسان الداعية ديدات: «أنا خبير في مجال مقارنة الأديان، استفيدوا باستعمال منشوراتي وأشرطتي»[2]، ويرى إضافة إلى هذا: أن مردّ شهرته ونجاحه الحواري مدين به أولاً لتوفيق الله تعالى: وثانياً للجهد الكبير الذي بذله، والمشقة التي أخذ نفسه عليها[3]، ولا اعتبار لما يزعمه الناس فيه من عبقرية خارقة وقدرات استثنائية وغيرها، فهي اعتبارات لا يعول عليها لأنها ذات حظ قليل جداً من الصحة والقبول، وفي كتابات الشيخ ديدات يلمح بطرف خفي إلى أن داعيته أحمد ديدات يتمتع بنشاط هائل، وسعي دائب؛ وذلك فيما يفهم ضمناً في وصفه للمركز الدولي للدعوة

---

(1) المرجع نفسه، ص546.

(2) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص33، مصدر سابق.

(3) ينظر: هذه حياتي، ص18، مصدر سابق.

الإسلامية بأنه نشط كخلية النحل[1]، ولكن على الرغم من كل البريق الإعلامي الخلاب الذي حظي به المحاور ديدات وسطوع نجمه في آفاق الحوار والدعوة، إلا أن مُقيّمَهُ في هذا المقام يشخصه لنا بعين التواضع، ويحرص على أن يبقى لدى مريديه وعامة المعجبين به في إطار بشريته الناقصة الفانية، وذلك باعتراف وتصريح من المحاور ديدات نفسه، فيما أفصح عنه بقوله: «يا بني. . . إنني بشر مثلك. . . ومثل أي شخص آخر، أنا لست معصوماً من الخطأ. . . أنا لست قديساً. . . أنا لست أحد الملائكة. . .»[2]. إن هذه الاعترافات - فيما أرى - تمثل من الناحية العلمية قيمة نقدية نفيسة، وذلك بما تعكسه من استعداد نفسي للنقد الذاتي وقابلية للمراجعة والتراجع عند الخطأ أو الأخذ بخلاف الأولى والأصح، كما تستفاد منها سعة أفق قائلها في تقبل سهام النقد بصدر رحب، ومن أي مصدر أطلقت. وهكذا تجد كلّ الانتقادات السالفة متسعاً لها في قلب ديدات الكبير، في ظل هذه الاعترافات الصادقة. وهذه في عجالة تشكل الصورة الشخصية التي يحملها الشيخ ديدات عمن تجرد لتقييمه شخصياً؛ وهو ديدات المحاور، وذلك فيما إذا صحّ هنا أن يكون المقيِّم غير المقيَّم؟!.

وأما عن رأيه في كتاباته المنشورة فيقول عنها: (يمكن لكل واحد منها أن يكون مادة دراسية في مجال الدعوة)[3]، وفي تقديري من منطلق موضوعي بحت من غير طعن في القيمة المعرفية لتلك الكتب، أقول: إنها برأيي وضعت لتتناسب مع مستوى العوام من المسلمين وغيرهم، ولإسعاف المنضمين الجدد إلى قافلة الحوار والدعوة، وإمداد من هم في طور التدرب على ارتياد مسالكها؛ إذ قليلة من تلك الكتب هي التي يمكن أن يفيد منها الدارس المتعمق معلومات جديدة[4]، فالغالب عليها في عمومها طابع البساطة والميل الأسلوبي إلى إرضاء ذوق أكبر عدد ممكن من القراء، باختلاف

---

(1) ينظر: القرآن الكريم معجزة المعجزات، ص61.

(2) شيطانية الآيات الشيطانية، ص92، مصدر سابق.

(3) محمد ﷺ المثال الأسمى، ص139، مصدر سابق.

(4) من كتاب صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، وكتابه عتاد الجهاد، بالإضافة إلى كتب مناظرته المعربة.

طبقاتهم الثقافية وتفاوت مستوى معارفهم الدينية. وربما في هذا الاعتبار يكمن سر شغف الناس بتلك المنشورات مما يدفع بهم إلى الإفاضة على المركز بوابل من الرسائل اليومية، وهي تحمل فائق رغبة أصحابها في اقتناء منشورات المركز من كتب وأشرطة. وقد أبلغ الشيخ ديدات في تقييمه لها بوصفها بالقول: «هذه هي أحجاري (هذا الكتيب) (هذا الشريط)»[1] وهذا - فيما أعتقد - أدقّ وصف يمكن أن يقال عنها.

حيث إنها قد صنفت لتكون بمثابة أحجار علمية منطقية، يستعين بها المسلمون في انتفاضتهم الحوارية الظافرة لرجم العدو وإعاقته بها، فهي ذات مفعول مضمون ومجرّب. وفيما يتصل بتقييمه للمنهج الذي سار عليه هذا المحاور الكبير يقول الشيخ ديدات بلسان صاحبه: «إذا صنعتم هكذا، وقليل من المسلمين فعلوا مثل ما فعلت، فإن هؤلاء وأولئك المبشرين المرسلين لم يطأوا أعتاب بيوتكم أبداً»[2]، أراه يلفت بهذا القول عناية الدعاة إلى مدى الأهمية التي يتوفر عليها هذا المنهج؛ وذلك حثاً لهم للتعرف عليه، من أجل توظيفه في جانبه المناسب من نشاطهم الإسلامي، أو على الأقل لتجفيف ما يداهمهم من سيل أسلوب التنصير المنزلي من باب لباب، كما يشهد بذلك واقعنا المعاصر في بعض المجتمعات المسلمة. وعلى العموم فإن كافة أحاديثه عن نشاطه الإسلاميّ ومنهجه فيه، تكشف عن بالغ سعادته بجدوى هذا المنهج وليس فحسب، بل تحمل أيضاً في طياتها نداءات تحريضية تتجه بدعاة الإسلام نحو التسلح به تحسباً للمواجهة القائمة وهي في أشدّها منذ عقود خلت. ولعله يستند في هذا وذاك إلى اعتبار أنّه منهج ينصّ القرآن الكريم على السير عليه، بالإضافة إلى وفرة النتائج والنجاحات التي اصطادها شخصياً بشبكة هذا المنهج القويم. على أننا سواء اتفقنا أم اختلفنا كلياً أو جزئياً مع ديدات في تقييمه لذاته ومنهجه، فإنه قد بات مؤكداً على نحو لا تتطرق إليه معاول الهدم بأن له في كل من خصوبة تجربته وطرافة منهجه ما يمكن أن يضيفه إلى حقل العمل الإسلامي المعاصر، ويثري به رصيد الدعوة في عصر تزداد فيه

---

(1) العرب وإسرائيل شقاق أم وفاق، ص78، مصدر سابق.

(2) هل الكتاب المقدّس كلام الله؟ ص79، مصدر سابق.

المسألة الدينية حيوية وبروزاً، ويحتم نمطاً جديداً من العلاقات الدينية على أتباعها، يقوم على ضرورة التعارف، وجدية الحوار. ومن ثمّ فإن أمالي هذا الواقع الجديد منظوراً إليها في ضوء الالتزام بقضيتي الدعوة والحوار، تثير جملة من الأسئلة تتفرع عن هذا السؤال الكبير:

ما السبيل إلى الاستفادة من تجربة الشيخ ديدات ومنهجه في مواجهة متطلبات هذا العصر وما بعده. . . ؟.

❖ ❖ ❖

المبحث الثالث

سبل الاستفادة من تجربته ومنهجه في الدّعوة والحوار



نتطلق في هذا الموضوع أولاً: من حقيقة واقعية، مفادها أن ديدات كان فارساً من فرسان الحوار، وعلماً من أعلام الدعوة. وقد أسهم في حدود وسعه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، بينما كانت تشتد الضربات وتتشابك المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين. فدخل بجهده وجهاده في زمرة الوجوه الكبيرة، ممن يحتويهم السجل التاريخي الخالد لأعلام الحوار والدعوة. وثانياً: مما يرافق تلك الحقيقة من مسلمة مؤداها بأن العمل الإسلامي في هذا العصر الحائر القلق في أمس الحاجة إلى الاستفادة من تجارب رجاله، الذين حافظوا بتميز على استمراريته، فشقوا به الطريق نحو التقدم، ومن أجله وضعوا أو جددوا من المناهج ما كان لها أثرها في بعثه، والحفاظ على حيويته، ويعتبر ديدات من غير شك أحد أهم وأبرز هؤلاء الرجال في تاريخنا المعاصر. فما أحرانا أن ندرك أنّ العالم اليوم في حاجة إلى قراءة تجربتهم، والافادة من عطاء هؤلاء الدعاة العظام الذين عاشوا بالحقّ وللحقّ وهو يتدفق من أعماقهم، ويفيض على لسانهم ومن سلوكهم.

ومن هذا المنطلق فإن الزمن ينذر إسلامياً بخسارة قد لا تُعوض، مما قد تصيب الدعوة والعالم معاً برحيل داعية كبير بحجم ديدات، باعتباره من قلائل الرجال الذين امتلكوا القدرة والشجاعة للدفاع عن الحقّ الإسلامي، في أدوار ومواقع من أخطر الظروف التي تعرض فيها للهجوم والمواجهة.

ومن ثم فإننا نجد أنفسنا في مواجهة مشكلة إيجاد صيغة ملائمة لضمان الاستمرارية والتواصل، تفادياً من أيّ قطيعة قد يحتمها غالباً غياب بعض الشخصيات الجليلة، ذات المكانة القيادية المتقدمة في حركة الدعوة الإسلامية في أي عصر من العصور.

والواقع أن أملاً كبيراً بحجم كبر الأمة الإسلامية يخيم على النفوس المليئة بهم القلق على الوضع، مما يبعث فيها روح الاطمئنان والتفاؤل، ويعيد إليها الثقة بذاتها وأمتها بعد تجديد ثقتها في خالقها، بما يفيد أن ثمة إمكانيات هائلة ومعطلة، تتوفر للمسلمين للدفاع القوي عن دينهم، وتنشيط الدعوة الصادقة إليه، ومن تلك الإمكانيات على نحو أخص

ما يتوجب علينا ذكره بأن دراسة تجربة ديدات بغية الاستفادة منها تمثل توجهاً صائباً نحو توظيف منهجه الحواري، والذي بقدر ما يعبر عن الوسط الذي عاش فيه الشيخ، فإنه يحمل في الآن نفسه أهمية دعوية لتلبية حاجة أوساط مماثلة، كما يتعدى كل هذا وذاك متطلعاً إلى تأسيس وإشاعة مناخ الحوار الديني بين الأتباع حاضراً ومستقبلاً. وليس مما يضيره أو يعيب فيه اقتصاره - من غير قصد ولاضرورة - على ذلك النوع من الحوارات الفردية، والتي تتخذ في الغالب شكل مناظرات ثنائية ساخنة. وفي مقاربة الخوض في الموضوع يتعين عليّ في البداية التنبيه إلى أني لا أدّعي في هذا المبحث بأن بمقدوري أن أضيف جديداً أو أقدم أصيلاً، لا؛ وإنما يتجه همي فيه إلى التمهيد بفتح باب الإجابة لقدرات علمية أقدر وأنضج، من شأنها أن تقوم بالأمر على أحسن وجه ممكن. ولكن إلى أن تنهض تلك القدرات بواجبها، فإنه لا مناص لي من مواجهة السؤال المطروح تعبيراً عن حاجة عملية قائمة، وذلك بمحاولة صياغة مفتاح للمسألة بسيط وغير دقيق، مما تجود به الخواطر اللاحقة، والتي بإمكاننا أن نستمد منها - ولو مبدئياً - عناصر الإجابة على سؤالنا السابق، وذلك في ضوء مجموع المفردات التالية:

1 - دراسة سيرته بروح الاستلهام المنهجي والتأسي العمليّ:

إن ديدات مثل أي علم آخر، تشكل سيرته وعاء أحداث حياته العامة، ومستودع تجاربه الخاصة، وبهذا فإن دراسة سيرة الشيخ تمكننا من معرفة حياته الدّعوية والوقوف على مختلف الملابسات التي اكتنفتها، والاطلاع على كافة الظروف الشخصية والموضوعية التي قادت خطواته المبكرة نحو الحوار والدعوة إلى الإسلام. ومن المعلوم في ضوء المعطيات السابقة أنه قد بدأ حياته تلميذاً بسيطاً، خادماً تجارياً بعدة محلات في مناطق متفرقة، ثم اتجه إلى قيادة الشاحنات في أحد المصانع فتدرّج عبر سلسلة من الوظائف للوصول إلى إدارة المصنع ذاته، لينتهي أخيراً داعية عظيماً ومحاوراً كبيراً. وذلك في نهاية وبداية مشوارين مختلفين من حياته، الأمر الذي يشيع اعتباره الأمل في كل نفس مسلمة، حتى من طبقة العوام في إمكانية النجاح والوصول، مهما كانت البدايات متواضعة والإمكانيات ضئيلة.

وإن الدراسة المتأملة لحياة ديدات وسيرته، تؤشر في مجملها لملحمة بطولية رائعة من التحدي والنضال الظافر، كما أن من شأنها أن تورث في النفس الداعية روح الجدّ والتضحية الصابرة، والمثابرة على خط التدافع والعطاء. على أن أيّ دعوة واعية إلى دراسة سيرة هذا العلَم لاشك أنها تكون صادرة ومصحوبة بحقيقة أن تاريخ الأمة الإسلامية زاخر على امتداده بنماذج متعددة من هذا النوع من الدعاة، ولكن مع كل اليقين الذي يغمرني بصحة هذا الطرح فإني أجد -وربما غيري أيضًا- أن الداعية ديدات لا يَقصر عن كونه واحداً من أهمهم، ولا شك أن معرفة الآليات والظروف التي نسج بها وفي سياقها خيوط عمله الإسلامي المتشابكة، مما يساعد على تقصّي إيجابيات حياته المباركة، وتحريّ نفائس سيرته الدّعوية فيها. ومن ثمّ تتولد الإرادة والقدرة على التفاعل الإيجابي الخلاق مع مخزون تلك السيرة من نشاطات إسلامية هائلة؛ من أجل إعادة ترجمتها إلى واقع عملي ملموس ومعاش، في صميم العمل الإسلامي القائم بكل تضاعيفه وتشعباته.

وبدراسة سيرته؛ سندرك حقاً أن الشيخ ديدات وإن كان قد انطلق لملء الفراغ، إلا أنه لم ينطلق في ذلك من فراغ، بل استند إلى جهود سابقة فكرية وعملية، لمواجهة هول التحدي الذي كان -وما يزال- حامي الوطيس في أيامه. ومن هنا فإن نظرية التحدي والاستجابة كشرط لصياغة الفعل الحضاري والحدث التاريخي تكسب مصداقيتها عند من يقول بها[1]، وذلك بانطباقها على الحالة الديداتية كأنموذج على الأقل. ولعلّ من أكبر الفوائد التي يخرج بها من سيعكف على نظم ودراسة ما تفرق من أخبار سيرته وبيئته معرفة ما بذله من جهود حثيثة ومساع حميدة في مختلف مجالات عمله الإسلامي، وبالأخص في تلك البيئة المركبة التي عاش فيها، وكانت مركز نشاطه الدّعوي، بجانب كونها قطاعاً هاماً من محط عنايته الحوارية والدّعوية الواسعة. وهي معرفة - في يقيني - لابد منها كشرط أساسي لأي مقصد إيجابي، يرمي إلى استلهام منهجه العملي أولاً، ثم التأسي في الفعل الدّعوي بصاحب هذا

---

(1) ينظر: أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ج1/ ص7/ ترجمة فؤاد محمد شبل، ط2/ 1966م. من منشورات الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة-مصر، ينظر: أيضاً عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص73-77 ط1/ 1975م. دار العلم للملايين بيروت-لبنان.

المنهج أخيراً، وذلك باعتبارهما شقين متكاملين لهدف واحد عظيم.

وهذا الإجراء المزدوج من المعرفة والعمل، والذي ندعو إليه كأحد سبل الاستفادة ينبني على خلفية تصورنا بأن الشيخ ديدات يمثل في الواقع واحداً من أهم الشخصيات الإسلامية المعاصرة والتي يمكن أن تسفر عملية سبر أغوار سيرتها عن إضافات جديدة، وإضاءات جلية في المعرفة والمنهج، والنشاط الإسلامي، من شأنها جميعاً أن تفيد المعنيين بها ممن تشغلهم قضايا الحوار والدعوة على امتداد الزمان والمكان.

2 - تقمص شخصيته المنهجية:

ولا يكون ذلك إلا باستيعاب عناصرها بمحاكاته فيها، والنسج على منواله الذي سلكه في مختلف مراحل رحلته مع هذا المنهج. على أنه ينبغي في هذا المقام بالذات أن يتعدى تصورنا للمقصود بالمنهج نطاقه الحواري الضيق، ليستوعب أفقه الدّعوي الواسع وهو ما يستفيده من له بعض من الإلمام بشيء من أحداث سيرته وأبرز معطيات حياته؛ مما يعني أن نتذكر في ضوء هذا الفهم مجمل أنشطته الإسلامية في مجال التعليم والدروس التثقيفية والمحاضرات العامة، والدورات التكوينية، وفي مجال الإعلام والنشر، سواء لكتبه الخاصة أو الجيدة من نتاج الآخرين من مسلمين وغيرهم، إضافة إلى الخدمات الاجتماعية، وفي مجال المشاركة في المؤتمرات والندوات الإسلامية والاهتمام بالأقليات والجاليات المسلمة، علاوة على حكمته الدّعوية في استدراج الآخر أيا كانت عقيدته للدفاع عن الحق الإنساني المشترك، وذلك حين يكون هذا الآخر من المؤثّرين أو ممن تُتوقع فيهم القدرة على التأثير في هذا الشأن أو ذلك، إلى غير ما سبق من مجالات تشكل في جملتها مسلكه المنهجي الخاص في الحوار والدعوة[1]. على أن خصوصية المجال الحواري في الوقت ذاته بالنسبة لعمل ديدات الإسلامي وبالنظر إلى حاجة الوضع الدّعوي المعاصر-في جانب منه- إلى هذا النمط من النشاط، مما يغري بالتركيز عليه، والسعي للاستفادة من تراث الشيخ وتجربته

---

(1) راجع حديثنا عن أنشطة ومجالات عمله الإسلامي في المبحث الأخير للفصل الثاني من هذا المبحث.

الطويلة في بابه، وهو الأمر الذي يدعو إليه - في يقيني- من قال: «ولا يكفي أن نرفض ما يعتقده النصارى، بل يستحسن أن نستعين بالأدلة والحجج التي تؤيد عقيدتنا وتثبت عدم موثوقية الكتاب المقدس، وحين نفعل ذلك فإننا نقوي إيماننا من جهة ونملك الحجج التي نستطيع أن نجادل بها مخالفينا في العقيدة من جهة أخرى، وهذا منهج القرآن الذي يحثنا دائماً على بناء عقائدنا على الأدلة والحقائق الثابتة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: 111]»[1].

هذا... ومن معاد القول الواحد في موضع آخر أن نشير ونحن في صدد التحفيز للاستفادة من هذا المنهج إلى أنه لا أحد يستطيع أن يغفل الدلالة الصادقة لما انطوى عليه تقييم أحد كبار الدعاة المعاصرين، وهو الشيخ إبراهيم صالح الحسيني وذلك فيما شافهني به قائلاً: «إن الشيخ ديدات ممن تفخر بهم الأمة الإسلامية في قوة الحجة وقوة الجدل... يسجل في اعتماده على الشيخ رحمة الله الهندي تاريخاً عظيماً من النقد وكأنه موسوعة لحفظ بعض المعلومات الجيدة والدقيقة»[2]، إنها شهادة تنبع من عمق المعرفة المتبادلة، ومن فاعلية الحوار التي لمسها الشيخ إبراهيم في قوة شخصيّة ومنهج صاحبه ديدات. ومن ثم يتأكد صواب القول بتقمص شخصيته المنهجية كسبيل لا تغني عنه السبل الأخرى، مع أهمية كل منها جملة وتفصيلاً.

3 - تجنيد دعاة ذوي كفاءة حوارية عالية:

من المسلم به أن الإنسان الداعية يمثل أداة محورية في توظيف هذا المنهج، والذي يظل نجاحه في تحقيق الأهداف الدّعوية المنشودة به مرهوناً إلى حدّ غالب بكفاءة هذا المنهج، الذي يحتاج بالطبع إلى نوع من الإعداد للقيام الموفق بهذه المهمة الجليلة، من خلال من يعملون على إشاعة مناخ حواري متسامح، ويسهرون على مضي قافلة الحوار الديني بخطوات طليقة واثقة ثابتة. ولا يمكن لهذه الطائفة أن تنجح في تمكينها

(1) محمد السعدي: حول موثوقية الأناجيل والتوراة، ص10/ ط1/ 1365 من و.ر= 1986م، من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا.

(2) وقد وردت هذه المعلومة وغيرها في عرضنا لرأيه في ديدات ومنهجه في ثاني مبحث قبل هذا الأخير.

للخير بالحوار، وتطهير المجتمعات الإنسانية من العقائد الفاسدة ما لم يكتسبوا في إيمانهم بالله الثقة في أنفسهم، وما لم يشعروا بأنهم الأعلون، ويتيقنوا بأن جند الله هم الغالبون، بغلبة عقيدة الله الحقّ الذي وعد في قوله الحقّ بظهورها على الدين كله ولو كره من ليس لهم من الأمر شيء؛ إذ كله لله عزّ وجلّ، ولكن يشترط في هؤلاء المجندين الإخلاص كله للعمل في صمت وهدوء دون جلبة ولا ضوضاء، بأن يكونوا ممن يستعذبون كل مشقة في سبيل الله. يضاف إلى ذلك إعدادهم بما يضمن لهم القدرة على النقض والتفنيد والردود والإثبات بالأدلة العقلية والنقلية في هدوء المعتز بالله الواثق بالنفس، الملتزم بجميل الفضائل ورفيع الآداب. وبالمناسبة: فلعلنا نذكر برنامج الدورات التدريبية التي همّ بها ديدات وباشر في إنجازها لتخريج رجال يجمعون بين الحوار والدعوة، يترسمون عبق مسيرته الخالدة، ويقودون الكتيبة حاملين لواء التحدي والانتصار. ولئن كنا لحدّ الآن لم نشهد من هو جدير بأن ينعت بخلافة ديدات، فهذا مما يعني أن المهارة تأتي ببطء بينما تمضي الحياة بسرعة فنستعجل الكثير من الأمور من غير ما تأخر، فعسى الله أن ينشئ بهم بنيان الهدف الذي دُربوا من أجل تحقيقه وأن يهيء بنا وبهم الخير. على أنه مهما تكن كفاءة خلفائه من بعده - إن وجدوا - سوف يبقى لديدات على هذا المنهج طابعه الشخصي، من أسلوب ولغة حركات تنبيهية واتزان وحضور، وغيرها من الخصوصيات التي تعني أن قوة شخصيته تظل إطاراً جامعاً لعناصر هذا المنهج، في الوقت الذي تعكس قدراً كبيراً من ذاتيات هذا المنهج وجوانبه الشخصية الخاصة.

وإن التأمل في مشروع ديدات لتجنيد الكفاءات الحوارية يولّد الاعتقاد بأنه كان يجدد لعمل أراد من القيادات الدّعوية أن تستمر في التوسع فيه، وربما أيضـاً أن يتفادى سلبيات المناظرات الأحادية، والتي قد يعذر - بسبب انفراده - في بعض أخطائه فيها، مما يتعذر اتقاؤها في وضعية استمرار غياب لجان وفرق حوارية كافية.

وإن من أوضح الظواهر وأشدّها استدعاء للحذر، وأدفعها للاهتمام بقضية التجنيد للحوار، هو ما ينشط فيه الآخر من «العمل على تثقيف المنصرين عن الإسلام ليكونوا

على فهم أكبر يمكنهم من إجراء الحوار بصورة أقوى وبإحراج الدعاة من المسلمين الذين لا يكونون قد أعدو إعداداً حسناً»[1]، ومن هنا تأتي أهمية أن تكون كل الكفاءات مجندة في جهاد صادق مخلص لنصرة دين الله عز وجل، ولمدافعة من يبيتون له الدسائس ويكيدون لأتباعه. ويبدو أن شيئاً من هذا التصور كان حاضراً في بال من جنحوا في موقفهم من النشاط التنصيري إلى ردّ الفعل من منطلق إسلامي دعوي، وذلك من خلال نشاطات المجلس الأعلى الأندونيسي للدعوة الإسلامية حيث: «أقيمت حلقات التدريب الدورية لجماعات الدعاة والمبلغين، وأعدت طائفة خاصة لمواجهة القساوسة والمطارنة إعداداً خاصا»[2]. ومما يبعث على التفاؤل مع جسامة المخاطر، ما تؤكده الوقائع في أكثر من مكان من أنباء نجاح الدعاة المسلمين من حين لآخر في تحويل بعض المنصرين أو المتنصرين إلى الإسلام، الواقع الذي يثير فيض استياء وتبرم القيادات التنصيرية، ويدفع بهم إلى العويل والصراخ؛ بإنذار شركائهم بوشك وقوع الخطر الجارف، والذي يأتي على معاقلهم الهشّة فلا يبقي منها شيئاً ولا يذر. ومن ذلك ما نشرته مجلة التضامن الإسلامي فيما نصه: «أعلن القسّ جيمس ديلما، مسؤول كنيسة ربعي الكينية تخوفه من الغزو الإسلامي لوسط أفريقيا، وقال إنه تم بناء معهد إسلامي على بعد كيلومترات قليلة من الكنيسة، بالإضافة إلى التخطيط لإنشاء مجمع كبير ووصف الشيوخ المسلمين (المحاورون من الدعاة) بأنهم عدوانيون لأنهم نجحوا في تحويل المنصرين في كنيسته إلى الإسلام بما فيهم شيخ الأهالي، وأضاف أن المسلمين يعتبرون تحول هذا الشيخ إلى الإسلام كسباً كبيراً للمسلمين»[3] إذن؛ أما آن لولاة أمور العمل الإسلامي أن يجيبوا عملياً على السؤال الذي طرحه فضيلة الشيخ أحمد كفتارو؟ - رحمه الله - وذلك في قوله: «فهل نحن مهيأون لنعد جيشاً من الدعاة المعرفين للعالم، لنعرفهم بموسى ونعرفهم بالمسيح. . . إننا نقدسهما كمحمد »لا فرق بين أحد من رسله«

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص162، مرجع سابق.

(2) جميل عبد الله المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ص88، ص5/ 1412هـ=2001م. مكتبة العبيكان، الرياض - المملكة العربية السعودية.

(3) نقلاً عن مجلة التربية الإسلامية، ص60/ ع1/ س30/ 1409هـ=1988م. بغداد-العراق.

عند ذلك نرجع بخيري الدنيا والآخرة. . . والله في أقل الأوقات. . . بأقل النفقات ومن أقصر الطرقات»[1]. وإلى أن تستكمل هذه المهمة الحوارية أسباب ظهورها، يظل الأمل المعقود في النجاح في هذا الشأن وطيداً ودافئاً، طالما اتضحت الغايات وتوفرت الآليات والوسائل، وفوق ذلك كله؛ إذا خلصت النيات وصدقت في جهاد الحوار والدعوة، وصمد الرجال في معركة العقيدة والدفاع عن الوجود الحضاري المتميز بأفضليته. وقد استصرخ الدكتور عبد الجليل شلبي في استنهاض الهمم الفاترة مبيناً فداحة الخطر بقوله: «وفي جميع هذه البلاد على مختلف القارات، وفي أستراليا أكثر من غيرها يوجد هجوم عنيف على الإسلام، وتشويه لمعالمه، وصدّ الناس عنه، وليس ثمة مدافعون»[2]، فيا للتقصير ويا للخطر! فوا أمتاه وَوَا همتّاه؟!.

4 - شمولية المعرفة بالآخر:

من أهم الجوانب التي يستند عليها نجاح المحاور عامة، وكل من يتصدى لتوظيف المنهج الحواري الديداتي خاصة، شمولية معرفية بالآخر. إذ بدون هذه المعرفة تضيق فرص النجاح أمامه وربما تنعدم، ومن ثم يلزمه التكوين المسبق لرصيد معرفي هائل عن الطرف الآخر، بالقدر الذي يضمن له نيل ما يصبو إليه من أمنيات دعوية غالية وعويصة.

ولا يخفى أن نجاحات ديدات مدينة بنسبة عالية من الفضل إلى عمق معرفته بالآخر؛ حيث دأب قبل كل حواراته على تهيئة نفسه معنوياً ومعرفياً، مما كان يتطلب منه غالباً العودة إلى مختلف ما أنتجه محاوره بمفهومه العام والخاص، وكان يأخذ نفسه بمشقة الاطلاع الشامل على كافة ما يتصل من قريب أو بعيد بالموضوع الحواري المطروح؛ وذلك لتغذية حصيلته المعرفية، وتعزيز ردوده وطروحاته، بما يؤمن له كسب الرّهان الحواري على نحو حاسم، وتجربته بهذه الصورة تمكننا من تحديد المقصود بشمولية المعرفة بالآخر، بما تعني من فهم ارتكازي محيط بهذا الآخر، ينطلق في شموليته من العقيدة والتاريخ، مروراً بالمحيط الثقافي والواقع الاجتماعي، وصولاً

---

(1) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص25، مرجع سابق.

(2) معركة التبشير والإسلام، ص308، مرجع سابق.

إلى الخلفية الدينية والفكرية الخاصة بهذا الآخر، فانتهاء بإدراك وافٍ لشخصيته ومكانته ومنهجه ونظرته إلى مخالفيه في العقيدة والمذهب وخاصةً المسلمين منهم. وإن الإلمام بطرف من شتى ما يخص الطرف الآخر يُعدّ مستنداً إيجابيًا ومطلوبًا. وقد مال البعض فيما يختصّ بهذه القضية إلى تحديد وحصر نوعية الأدلة والبراهين، التي يحسن التركيز عليها في المسألة الحوارية مع أهل الكتاب، فكتب صاحبه يقول: «عندما يكون الحوار مع مجموعة بشرية محددة، مثل اليهود أو النصارى؛ فإن الأدلة والبراهين في العادة ترتكز على علم يقيني دقيق لماضي تلك المجموعة وحاضرها ومستقبلها ومصيرها أيضًا»[1]، وأظن أن في هذا النحو من ضبط الأمور تقييداً للحوار ومصادرة لحرية المحاور؛ إذ على الرغم من سعة الوعاء الزمني الممتد، فمن المعلوم أن ثمة قضايا عديدة قد يفجرها الحوار مما يتسم بالتجريد والخروج عن دائرة حركة الزمن، ومن ثمّ فإن المعرفة بالآخر من الأبعاد الزمنية الثلاثة هي -من غير شكّ- مطلب هام باعتبارها زاداً حوارياً يُستأنس به، ولكن مع ذلك يظل الأمر أوسع وأشمل من أن ينحصر في إطارها. وكخلاصة لما تقدم: فإننا نصوغ هنا بإيجاز مبدأ «اعرف محاورك بدقة وشمولية»، وذلك على غرار ما شاع من قولهم «اعرف عدوك»، إذ المعرفة قوة وقدرة ولا يُستغنى عنها في أي حوار معتبر.

5-الانطلاق من موسوعية دائرة المصادر والمراجع:

لئن كانت المعرفة - كما أسلفنا - من الأهمية بالمكانة المذكورة، فإنها تستمد من مظان متعددة، منها مصادر علمية وإعلامية بمختلف أنواعها، وأخرى تقوم على خلاصة الملاحظات الواقعية، ومعطيات المتابعة الميدانية للوقائع الجارية هنا وهناك. وثقافة المحاور الناجح تكاد تكون من الموسوعية بمثابة دائرة معارف متنوعة، تدور تلك المعارف حول محور دقيق وعميق من المعلومات المتخصصة في مختلف العقائد والتيارات الفكرية، فتغذيه في دورتها حوله بروافد غنية بالمواد المنشطة لنموه. ويستبين بالرجوع إلى تجربة ديدات، أنه بالرغم من اقتطافه - في بداية أمره - من معلومات

(1) مدخل إلى الإعلام الإسلامي، ص265، مرجع سابق.

جاهزة توصّل إليها بمحض الصدفة، إلا أنه عمد لاحقاً إلى تغذية تلك المقتطفات الأولية بطول عكوفه ومِراسه للموضوع على امتداد عشرات السنين، مما أمّن له في مجاله معرفة واسعة لا سبيل إلى الاستهانة بها.

وهو ما أكده المقدم لأحد كتبه المعروفة، بقوله: «مازالت حركة التبشير تجري على قدم وساق في مجتمعات المسلمين في أفريقيا وآسيا، وليس ببعيد ما جرى ويجري في جنوب السودان وأندونيسيا وغيرهما من بلاد أفريقيا وآسيا، أما ما تلقاه الأقليات المسلمة في أرجاء العالم كله من مضايقات المبشرين فحدث ولا حرج، ومن هنا فإن ترجمة ونشر هذا الكتاب (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) اليوم مفيد للغاية في تثبيت عقيدة المسلمين، وتجديد ثقتهم في أنفسهم، وفي صحة وصدق دينهم، وشفاء لصدورهم»[1].

وفي إطار الدعم والتوسعة لهذا الاتجاه العلمي الذي يشق الطريق نحو الاستفادة من تراث ديدات، يمكننا تصنيف أهم المكونات العلمية لتلك الموسوعية التي يُنشد من المحاورين أن يوسعوا دائرة مصادرهم ومراجعهم إلى مستواها، وتتشكل في أهمها من المواد والمصنفات الآتية:

أ - **المصادر الإسلامية وكتب الدعوة ومناهجها**: انطلاقاً من القرآن الكريم، وكتب السنة والسيرة النبوية، والمراجع الإسلامية الأصيلة في علم الملل والنحل، والمقارنة بين معتقدات الشعوب وثقافتها، إضافة إلى مئات البحوث والدراسات الحديثة عن الدعوة ومناهجها، والردود الإسلامية المعاصرة على شبهات المغرضين، من منطلقاتها الفكرية والدينية.

ب - **التعمق في دراسة مصادر الطرف الآخر**: أي شريكنا في الحوار، ويتم ذلك باقتناء تلك المصادر، والتركيز على دراستها بروح فاحصةناقدة، ومحاولة حفظ ما تستدعيها الحاجة من نصوص وشواهد نقدية، مع استفراغ الجهد في تهيئة ردود وبراهين نقلية وعقلية على مختلف ما يرد من قضايا متناقضة وغير معقولة، مما

---

(1) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص99، مصدر سابق.

ينكشف للقارئ المدقق من خلال معارضة النصوص ببعضها، والتأمل في دلالاتها النصية، ومضامينها العقدية. وإنها لمهمة شاقة وعسيرة ولكنها تبدو هينة -نسبياً- عندما يتعلق الأمر بدراسة ونقد الكتاب المقدّس؛ وذلك لتوفر الثروة النقدية الهائلة في هذا الميدان أولاً، وثانياً لما نصّ عليه الإمام الجويني في قوله: «ولعمري: إن الناظر في الكتابين، أعني التوراة والإنجيل لواجد ما يقضي منه العجب»[1]، ولعل ذلك من شدة التناقض، واضطراب الروايات، وفساد المعنى.

ج - **التزود من نتائج الدراسات الحديثة والمعاصرة في النقد الديني**: وما أكثر تلك الدراسات من شرقية وغربية، من قبيل التي سبق الأستاذ الصديق عمر يعقوب إلى الإشارة إليها، منوهاً بأهميتها فقال:

> إن جملة من صور المعارضة والنقد قد وجهت إلى المسيحية من داخلها؛ أي من كتاب ينتمون فكرياً وثقافياً إلى بيئة مسيحية، وهذه الصورة من النقد ربما يحسن إبرازها وإظهارها، لأنها شهادات على المسيحية من أهلها من مفكرين مسيحيين، قد استبطنوا دينهم وعقيدتهم، هذه الصورة قد يكون لها صدى في الأوساط الفكرية متى وأين كانت. يضاف إلى ذلك أنها تكشف عن مواطن الخلل، وعن أوجه القصور في المسيحية كما صورتها وبشرت بها الكنيسة، وعلى ضوء هذه الصور النقدية يمكن أن نتبين هذه الجفوة بين المسيحية وبين الحياة، وبين المسيحية وبين النهضة الفكرية والعلمية، ومن ثمّ بين المسيحية وبين الإنسان في هذا العصر على الرغم من المحاولات اليائسة التي تقوم بها

---

(1) شفاء الغليل، ص93، مرجع سابق.

الكنائس على اختلاف مشاربها منفردة أو من خلال مجلسها العالمي[1].

ويلاحظ أن ما عليه تلك الدراسات من كثرة، وتوزع بين مختلف المنازع الفكرية والمشارب الأدبية، لم يمنع الدكتور شلبي من تخصيص كتابين فقط بصفة(أخطر كتابين) أحدهما للدكتور موريس بوكاي، وهو كتابه الشهير (القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث)[2]، وقد جاء في تقريظه له: (وهو بحث جيد انتهى فيه صاحبه إلى أن العهد القديم يمثل مجموعة من المؤلفات الأدبية التي استمر تحريرها طوال تسعة قرون بالتقريب، وقد ألحقت به تحريفات شتى، أما الوحي القرآني فله تاريخ مخالف لذلك في الجوهر والأساس)[3]. وأما الكتاب الآخر فهو «دعوة إلى العهد الجديد» ألفه رجل دين أمريكي، اسمه دكتور ديفيز، وقد أثبت فيه أن العهد الجديد، بأناجيله الأربعة وملحقاتها مبتور الصلة بالمسيح عليه السلام، فهو من وضع بولص الذي لم يلتق قط بالمسيح، بل وإنما عمد إلى تحريف النصرانية بما كان مشبعاً به من الثقافة اليونانية. وعن خلاصة ما توصل إليه صاحب الكتاب يقول الدكتور شلبي: «انتهى دكتور ديفيز إلى أنه لا اليهودية ولا النصرانية تستحق أن تكون ديناً يعبد الله به أو يتبع، وأن الإسلام وحده هو الأصفى والأنقى والأجدر بأن يتبع»[4]. إذن؛ بهذه الدراسات وغيرها مما يتصل بالدوائر الحوارية الأخرى ينبغي أن يتزود المسلم المحاور، ويفيد من الانتقادات العلمية الواردة فيها ضد المستهدف بها[5].

وليس - بحكم الاستقصاء - من التقول في شيء، أو حباً في المؤاخذة، إدراج

---

(1) الصديق عمر يعقوب: بحوث ودراسات في العقيدة والفكر والدعوة، ص225، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية، عام 1403 من و. ر= 1994م. طرابلس- الجماهيرية العظمى.

(2) عملت جمعية الدعوة الإسلامية على إصداره في عدة نشرات باللغات الثلاث: العربية والفرنسية والإنجليزية.

(3) حوار مع الدكتور عبد الجليل شلبي: مجلة الأمة ع25/ ص51/ س3/ 1403هـ=1994م الدوحة-قطر.

(4) ينظر: المرجع نفسه: ص52.

(5) ينظر: هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص46-47 مصدر سابق.

هذا النوع من الدراسات في قائمة ما أهمل ديدات الرجوع إليه، من مراجع علمية لها وزنها واعتبارها.

د - **كتب الخطابة وفن الحديث، وإلقاء القول المؤثر**: وهي كتب تعنى بدراسة وعرض أصول فن الخطابة، والتبصير بقواعد إلقاء القول المؤثر، والقدرة على استمالة المخاطب فرداً أو جماعة، والتأثير فيه بالإقناع. ولما كانت العملية الحوارية، -وبالأخص ذات البعد الإعلامي- تعتمد على مستوى رفيع من القدرة الخطابية، وفن الحديث الجيد بحيث يتذوقه السامع، وينفعل به، فمن ثم قد تعين إعداد النفس لبلوغ الموقع اللائق والمطلوب من هذه العدة. ومن البين أن ديدات كان قد حقق في هذا الشأن شأواً قياسياً رفيعاً يُغتبط عليه، مما أثار عدداً من المهتمين به، فوصفوه بغلبة استخدام الأسلوب الخطابي في حواراته[1].

هـ - **كتب أصول الحوار وآدابه**: وهي -في حدود علمي- كتابات قليلة في المكتبة العربية الإسلامية[2]، ولكنها جيدة ومفيدة، يوفر الاطلاع عليها لمن يهمهم ذلك فرصة معرفة قواعد الحوار وضوابطه، وأهم الآداب التي تتوجب على المحاور ضرورة التحلي بها. وبدون معرفته بتلك القواعد والآداب، قد تعاب عليه أخطاء مهينة، مما قد يتعرض للوقوع فيها من حيث لا يدري. والظاهر أن اهتمام العلماء المسلمين بهذا الفن مبكراً - رغم قلة ما وقفنا عليه في بابه - إذ يعود اهتمامهم به إلى تلك الأيام التي قربها العلامة ابن خلدون بقوله: «لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص78-89، وينظر: الحوار الإسلامي المسيحي ص231، مصدر سابق.

(2) ينظر: طه جابر فياض العلواني: أدب الإختلاف في الإسلام، حاشية الصفحة 19، ط1/ 1405هـ من سلسلة كتاب الأمة، الدوحة-قطر، وينظر: أيضاً: عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ص371، ط4/ 1414هـ=1993م. دار القلم دمشق - سورية.

وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحلّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال»[1]، وفي هذا السياق يذهب الشيخ محمد أبو زهرة من المعاصرين إلى معنى نجده أخص وأضيق مما عناه ابن خلدون، مع اتفاقهما على تقرير البداية المبكرة لظهور هذا العلم على الساحة الإسلامية، وقد جاء في تعبيره عن ذلك قوله: «وقد عُني العلماء في الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة، من يوم أن نشب الخلاف الفكري بين العلماء ورجال الفكر في هذه الأمة، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة، لكي يكونا في دائرة المنطق، والفكر المستقيم، أسموها علم الجدل، أو علم أدب البحث والمناظرة»[2]. وقد يفهم من قوله أن هذا العلم عبارة عن مجرد قواعد منطقية، وأحكام جدلية من غير آداب، وضوابط أخلاقية، وهذا مما لا يصح لعلة قصوره في التعبير الوافي عن حقيقة هذا العلم الجامع لكل من القواعد والآداب معاً.

6 - **السعي الجاد للتغلب على حواجز اللغة وعوائق التخاطب**: كلما امتد الحديث نحو الحوار والدعوة، توقع المتابع أن تثار مشكلة الجهل باللغات كعائق حقيقي، يعترض إمكانية ترجمة واقعية لما يعتمل في نفوس الدعاة الصادقين من رغبة ملحة في التوغل والتقدم بالخطاب الإسلامي إلى مختلف العوالم والآفاق الإنسانية. وتتبدى إثارة هذه المشكلة في مستويات متعددة فردية ومؤسسية، ينبثق فيها الطرح غالباً من محاولات بلورة أساليب ووسائل تفعيل الشأن الدّعوي العام، بما يتضمن مجال الحوار وآلياته. ومن أهمها آلية اللغة التي تزاحم غيرها في المكانة، والتأثير، ومن ثمّ فلابد «لكمال الدعوة أن يذهب ناس لهم ثقافة عالية إلى البلاد المختلفة، ويتقنوا لغاتها، ويتعرفوا نفوس أهلها، ومن أي طريق يمكن التأثير فيهم»[3].

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج3/ 1068، تحقيق: علي عبدالرحمن وافي، ط3، دار نهضة مصر. د. ت.

(2) محمد أبو زهرة، ص6، مرجع سابق.

(3) الإعلام في القرآن الكريم، ص408، مرجع سابق.

وما مناظرات ديدات وقدراته اللغوية فيها بمنسية أو غائبة عنا، حتى نقول إن تمكنه من إحدى اللغات المتميزة بسعة انتشارها لعب دوراً هاماً في نجاح حواراته وتوسيع نطاق متابعتها، وفي امتداد دوائر تأثيرها الإعلامي. على أن العناية باللغة والجدّ في كسر طوقها الحاجز تكتسب جدواها في هذا الشأن حين لا تكون قاصرة في نطاق لغوي ضيق ومحدود، بل يقتضي الحل السليم تسرب الاهتمام، وانسيابه إلى مختلف اللغات الإنسانية، وبالأخص تلك اللغات التي تضم شمل عدد كبير من معتنقي الدين الواحد، أو يلتقي عليها جمع هائل من الأفراد والشعوب، من لغات شرقية وغربية، وفي مقدمتها المنعوتة بالعالمية.

وفي تعبئة جادة لتحقيق هذا المطلب الدّعوي الهام العاجل، يستنفر الدكتور غلوش عامة الدعاة بقوله: «أصبح واجباً على الدعاة بعد النبي ﷺ مواصلة الدراسة في اللغات العالمية حتى يملكوا القدرة على مخاطبة أي قوم بلغتهم، ويستطيعوا أن يترجموا المبادئ والأسس والتعاليم الإسلامية بينة وواضحة»[1]. وإن من الأمور المعيبة ذات العواقب الوخيمة أن يظل الوضع - فيما يتناقض مع أغلى طموحاتنا الدّعوية - على نحو ما صوّره من عمد إلى الإثارة بعرض موازنة خاطئة وغير متكافئة فقال: «... وكليات الدعوة القائمة الآن ليست بذات قدرة كافية، إذ ينقصها جميعاً درس اللغات الأجنبية، ودرس الديانات الأخرى ومقابلاتها ودرس الثقافات الحديثة على نحو ما تفعل مدارس التبشير»[2].

وفي هذا وبه نلمس مشكلة هامة تعرض سبيل سيل من الدعاة، وتثير في وجه القادرين على الحوار عقبات التراجع والتردد. ولكنها لحسن الحظ مما يمكن تجاوزها بخطوات متدرجة، للوصول إلى فضاءات دعوية متوسعة، وتحقيق جولات حوارية فائزة. ولا يتم ذلك إلا بالهمة الناهضة، ومن خلال الزمن، حين يمهل ويمنح المرء فرصة التكوين والاستعداد.

---

(1) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ص470.

(2) معركة التبشير والاسلام، ص308، للدكتور عبد الجليل شلبي، مرجع سابق.

7 - **إيلاء اهتمام كافٍ ولازم للجانب الإعلامي بكافة وسائله** : إن المتطلع إلى توظيف هذا المنهج والإفادة منه مُطالبٌ فضلاً عما سبق بأن يكون على قدر ناضج من الوعي بأهمية البعد الإعلامي في العمل الحواري، وبما يقتضيه هذا الوعي من توفر المهارة الفنية في تسخير كافة الأجهزة الإعلامية، لخدمة الغرض الذي يسعى إلى تحقيقه عن طريق الحوار ومن خلاله، مما يتطلب مواكبة الحدث الحواري الناجح بالتغطية الإعلامية، وتعميق أثره بمختلف وسائلها المتاحة، التي من شأنها أن تفسح لصداه مجالاً قد يشهد امتداداً مستمراً، يقول الأستاذ الركابي: «الجيل الإسلامي المعاصر والأجيال القادمة حظها عظيم في الوسائل الإعلامية إن هي أقبلت عليها إقبال من يتحرى التقرب إلى الله بكل وسيلة متاحة»[1]. وإن أحد أبرز وجوه الإبداع في عمل ديدات الحواري، وأحد أهم عوامل نجاحه وشهرته، يتمثل في وعيه الإعلامي النافذ، وفي قدرته على توظيف مختلف الأسلحة الإعلامية، لكسب المعركة ليس في ساحات الحوار فحسب، بل حتى في أوساط اجتماعية هي بعيدة عنها. وإن من تجليات الوعي لدى المحاور المسلم أن يلازمه إدراك دائم بأن العمل الحواري رغم كونه شأناً فكرياً أو دينياً، إلا أنه يتخذ شكل معركة دعائية يستخدم فيها الآخر كل ما أوتي من أسلحة إعلامية، ترويجاً لنفسه وتعتيماً لصورة الآخر ومضمون خطابه الثقافي أو الديني. وفي واقعٍ كهذا: فإن أي إغفال أو إهمال لسلاح إعلامي ما، يعدّ تخاذلاً عن المواجهة بتفوق أو بتكافؤ، ويعتبر عجزاً إعلامياً غير معلل.

وأعتقد أن من الإهانة للحوار في هذا العصر، والإجحاف في حقّ مقصده الشريف، أن يمارسه المسلم بنجاح وتفوق دون أن يمكنه من تضوع نبئه الإيجابي الطيب في العالم، وذهابه في الناس بما يستحقه من صيت إعلامي رائج. وبموجب هذا الاعتقاد يتعين على الطرف المسلم وهو يحاور، أن يجند له كافة ما يجود به العصر من

---

(1) زين العابدين الركابي: 'نحو نظرية إسلامية في الإعلام'، ص49، من مجلة المسلم المعاصر، ع/ 10 / 1397هـ=1977م.

وسائل الاتصال والتواصل، وأن يبلغ في ذلك حداً يتناسب مع عظم الرسالة التي يحملها من جانب، ويتكافأ من جانب آخر مع فاعلية التأثير وأهمية الدور الذي يلعبه الإعلام بوسائله العديدة، في عالم يمتلك فيه من الهيبة والهيمنة ما لا نظير لغيره فيه.

8 - **التقيد بضوابط الحوار والتحلي بآدابه**: من لوازم الحوار العلمي الجيد صرامة تقيد طرفيه بقواعد الحوار وآدابه المثلى، إذ الهدف منه: «هو تعاون الفريقين المتحاورين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه، والتي خفيت عنه حينما أخذ ينظر باحثاً عن الحقيقة... فالجدل سلاح للدفاع عن أفكار الإنسان وتصوراته، وقد أمر الله عز وجل به ولكن جعله مقيداً بالتي هي أحسن»[1].

ومن منطلق قرآني ملتزم بسيرته وتطبيقاته ﷺ ضرب المسلمون الأوائل ومن ترسم خطاهم أروع الأمثلة على سعة أفقهم الحواري؛ وذلك برواج سوقه عندهم؛ نتيجة تعويلهم الكبير عليه، وبما اشتهروا به من فائق احترامهم لأصوله، ودقّة انضباطهم بمكارم آدابه الرفيعة. ومن ثمّ وفقوا فيه كثيراً، وحققوا به مجداً إسلامياً يظل معبراً عن سمو الدور الذي كانوا روّاده العظام، ومشيدي صرحه العملاق. وفي تأكيدٍ لهذه الحقيقة يقول أحد الحِواريين: «ولقد كانت الدعوة إلى الحوار بين المسلمين وغير المسلمين قديمة قدم الرسالة الإسلامية، وإن اختلفت غاياتها وطرقها... فقد سجل التاريخ المناظرات التي جرت بين علماء المسلمين وغيرهم منذ العهد الأول للإسلام، والتي انتهت بأطيب النتائج، وذلك حين استكمل الحوار شروطه ودخل المسلمون حلبته واثقين من أنفسهم»[2]، وفيما يخص قواعده وآدابه فقد عني بعرضه عدد من القدامى[3] والمعاصرين[4]. ولعل مورد القلة في هذا الشأن عند الأوائل يعود

---

(1) أساليب الدعوة والإرشاد، ص80، مرجع سابق.

(2) محمد الصالح عزيز: الحوار والمعادلة الصعبة، ص18، مجلة الأمة، ع62/ س6 1403هـ=1985م. الدوحة - قطر.

(3) ينظر: إضافة إلى ما تقدم: إحياء علوم الدين، ج1/ 65-68. وينظر: الفقيه والمتفقه، البغدادي ج / ص.

(4) ينظر: أساليب الدعوة والإرشاد، ص83، مرجع سابق، وضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ص 451-454.

إلى شيوع المعرفة بتلك الأصول والآداب، مما لم يكن ثمة داعٍ للتأصيل النظري طالما هو سلوك عام متعارف عليه، يعيشه الناس في واقعهم، ويمارسونه على نحو تلقائي في منتهى البساطة والعفوية، كما أن الطلاق الذي كان فاصلاً بين الحوار وبين واقع المعاصرين مسؤول إلى حدٍ ما في صرف هؤلاء عن الاشتغال بأمرٍ ليس للناس التفات إليه ولا يتصل بواقعهم بسببٍ ظاهرٍ مؤثرٍ.

ولعل الفقيه المالكي أبا الوليد الباجي أوْفى من غيره تناولاً لتلك الضوابط الحوارية، حيث عقد لها باباً مختصراً في كتابه: (المنهاج في ترتيب الحجاج) ترجم له بعنوان (باب ذكر ما يتأدب به المناظر)[1] وقد أورد أدناه ما يربو على عشرين قاعدة وأدباً، تعكس في مجموعها أخلاقية الفكر الإسلامي في مسالك الحوار، وحلبات المناظرة، وتقدم أنموذجاً فريداً لثقافة حوارية راقية، تربع المسلمون على سدتها قروناً وأجيالاً طويلة. ومما ساقه في هذا الباب قوله: «ولا يناظر من لا ينصف من نفسه، ولا مَنْ عادته التسّفه في الكلام، ولا مَن عادته التفظيع، فإنه لا يستفيد بكلامه فائدة، فإن ظهر له من خصائصه شيء من ذلك نهى عنه بلطف ورفق، فإن اللطف في الأمور أنفع، والرفق أنجح، فإن لم ينته عن ذلك، أعرض عن كلامه، ولم يقابله في أفعاله، وإذا بان له الحق وانقاد إليه، فإن الغرض بالنظر إصابة الحقّ»[2]، إلى أن قال في ختام هذا الباب مشجعاً على الالتزام بالمعطيات الواردة فيه: «ومتى أخذ المناظر نفسه بما وصفناه وتأدب بما ذكرناه، انتفع بجدله، وبورك له في نظره إن شاء الله عز وجلّ»[3].

وبالنظر إلى واقع حواراتنا المحدودة الخجلة في كفاحها من أجل الانبعاث، وفي ضوء القمة التي بلغها الأسلاف تأصيلاً وممارسة، يتضح الفارق الكبير لصالحهم برغم وفرة حظنا في التقدم بحكم عامل التطور التاريخي، ولكن للأسف ليست الحالة السائدة ليومنا هذا بأمثل مما كانت عليه منذ قرابة سبعة عقود زمنية أو أكثر، وذلك حينما كتب

---

(1) أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، ص9، تحقيق عبد المجيد تركي، ط2/ 1987م. دار الغرب الإسلامي.

(2) المرجع نفسه، ص10

(3) نفس المرجع والصفحة.

أحد المصريين في مجلة الرسالة قائلاً: «من آفات المناظرة في بلادنا. . . أن جمهرة من القراء تنظر إليها نظرها إلى شكل من أشكال الصراع أو القتال، لا ترى بينها وبين الملاكمة فرقاً ظاهراً، فليس الظافر من جاء بالحجة الظاهرة، والدليل القاهر، ولكن الظافر من كان أكثر كلاماً وأطول لساناً، وأدنى إلى التعريض والتسميع بخصمه، وأقدر على النيل منه. . . أما الموازنة بين الحجج والمفاضلة بين الدلائل، والحكم حكم المنصف العادل والناقد البصير فشيء لا يكاد ينصرف إليه أحد»[1]، ومن البين أن هذه الصورة -رغم قدمها نسبيًا- تنسحب بصدق كبير على واقعنا المعاصر، وتعكس رؤية ومواقف غالبية أهله من كلّ من المتناظرين، ومن المناظرة كذلك، باعتبارها نوعاً هاماً مما ينطوي عليه جنس الحوار.

ولعلّ الطبقة المعنية أكثر من غيرها بإصلاح هذه الصورة، هم الدعاة المحاورون؛ وذلك بما يثبت فيهم من القدرة على الحوار الراقي الحميم، وبما يظهر للناس فيهم من التزام صارم ومحمود بأصول الحوار وضوابطه الفنية والأخلاقية. وفيما علمنا عن الشيخ ديدات أنه -مع قليلة من الاستثناءات- لم يأل جهداً في الاعتصام بتلك الأصول، كما لم يسترخص التقيد بما يحمد عليه من جميل الآداب ورفيع الأخلاق. الأمر الذي لا مخلص للخروج عنه، أو التساهل فيه، بالنسبة لمن وطنوا أنفسهم للاستفادة من منهجه علمياً، والإفادة به عملياً. وفي يقيني أن تحقق كليهما مما يظل متعذراً؛ ما لم يمحض المتدرب اعتباراً خاصاً لمجموع العناصر السّالفة بكلّها؛ باعتبارها مركباً متكاملاً في أداء مهمة لا تخرج عن كونها محاولة للإجابة على السؤال الذي تأسس عليه هذا المبحث، وربما لا يجزئ هذا المركب مع أهميته، بل قد يضعف ما يتوقع له من فاعلية الدور وبعد الأثر، ما لم يوضع الحوار، كمنهج للدعوة والسلوك الإسلاميين في إطاره الأوسع والأشمل، وهذا ما يكون بـ:

9 - **تعميمه على كافة الدوائر وتشميله لمختلف المحاور**: انطلاقاً من الثوابت المنهجية الإسلامية، ومراعاة لظروف هذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها العالم في

(1) آفات المناظرة، مجلة الرسالة، ص1158/ع، 262، مج2/ س، / 1375هـ=1938م. القاهرة.

هذه الآونة، التي يمكن أن نطلق عليها تعبير مرحلة الصحوة الحوارية الشاملة؛ لما عبرت عنها الشعوب والأفراد من اندفاع قوي في مسيرة البحث عن صيغ حوارية ملائمة لتعايش الثقافات، والمعتقدات، يجد المسلمون -ودعاتهم خاصة- أنفسهم أمام واقع عالمي يستحق منهم إبراز عمومية المسلك الحواري للإسلام، والكشف عن شمولية أبعاده لمختلف قضايا الدين والإنسان، كما يتوجب عليهم من الناحية العملية التأكيد على ما ينطوي عليه دينهم من روح المبادرة الحوارية، والدفع بأتباعه نحو مواقع الصدارة على ساحاتها، بما تتطلبه هذه المواقع من السهر على رعاية مختلف القواعد والآداب الكفيلة بتحقيق أنشودة الحوار الإيجابي البنّاء مع مختلف الأطراف، وفي كافة القضايا المطروحة على مائدة التحاور. وهو ما يتجاوب أيضًا مع مبدأ الحوار مع الجميع، في فكر ومنهج ديدات، وينسجم مع واقعنا العالمي المعاصر، فيما عبر عنه من قال: «فالحوار اليوم من روح العصر، وإحدى ظواهره الهامة، وقد تميز عصرنا بثورة الاتصال التي هي إحدى ثمار ثورة العلم التي تفجرت فيه، ومع ثورة الاتصال هذه بأجهزتها السلكية واللاسلكية... قوي التواصل بين بني الناس، واتسعت دائرة الحوار وتنوعت موضوعاته، بصورة لم تعرفها الإنسانية من قبل، وشاهد على ذلك هذا العدد الضخم من المؤتمرات والندوات والاجتماعات، التي تعقد كل يوم في عالمنا، وتنوع الموضوعات التي تبحثها»[1]. وبمقتضى هذه الظاهرة فإن أي خطاب إسلامي معاصر يتعمد إغفال وسائل الحوار وارتياد مسالكه، سوف يكون مآله الفشل العاجل؛ بخروجه أولاً عن حقيقة حوارية الإسلام، وبتصادمه ثانياً مع مقتضيات هذا العصر المضطر إلى الحوار.

10 - **التدرّج التطبيقي من التجارب الدّنيا السهلة إلى المواقف الحوارية العليا والصّعبة**: من أساسيات سبل الاستفادة من هذا المنهج، توخّي الداعية وهو في بداية الطريق، وفي مرحلة التدرّب تحديدًا، كامل الحذر من الشروع الفوري

---

(1) أحمد صدقي الدجاني: الحوار الحوار ما أحوجنا إليه، ص23، من مجلة العربي 4/ 303 عام 1984م.

والمباشر في محاورة المتضلعين، ممن يتّجه إليهم بخطابه الدّعوي.

والأولى في تأسيسه لهذا الخطاب بعدما يهيء نفسه بتمثل كافة الشروط اللازمة فيه، الابتداء في حواراته الأولية مع العامة من مخالفيه، ثم يتدرّج من هذا الأساس إلى مستوى صغار المتدربين، ثم يرتقي إلى محاولات حوارية مع المتمكنين من الاتجاه الآخر.

ويجب في كل الأحوال، ألا يستسلم المحاور الدّعوي المبتدئ لعاطفة التهور، فيغامر بالانسياق وزجّ نفسه في حوارات علنيّة ناضجة، من غير ما ضمانات مسبقة في أنّ بإمكانه حسم الموقف الحواري بجدارة لصالح خطابه الدّعوي؛ وذلك حتى لا يسجّل على هذا الخطاب إخفاقًا رخيصًا، هو في حقيقته أعلى وأقوى من كل نوع من جنسه، طالما أتيح له دعاة تتهيأ فيهم كفاءة جودة عرضه، وقوة الدفاع المنتصر عنه.

وفيما يتصل -بعد بيان سبل الاستفادة- بطبيعة المهمة الحوارية، فإننا لا نعدو الصراحة والوضوح، إن قلنا بأنها ليست سهلة بالقدر الذي يريحنا ويرضينا، بل إذا أردنا أن تتحقق على نحو ما نطمح إليه من سعة، وعمق وفاعلية، فيجب الالتزام بتطبيق معظم ما ورد من معالم الطريق إلى المنهاج الديداتي، كما أن السعي الجادّ نحو تعميم النشاط الحواري على كافة الدوائر، واستيعابه لمختلف القضايا والموضوعات، من شأنه صنع الكثير من الإنجازات الدّعوية المأمولة.

ولكن... أترى فما الدوائر الهامة، والمحاور الرئيسة التي يمكن اعتبارها أبرز المجالات التطبيقية لهذا المنهج؟

أعتقد أن الإجابة الوافية على هذا الطرح تقتضي منا وقفة طويلة ومتأنية، لا تفي بحقها المعالجة العاجلة، أو الردّ المقتضب، مما يقودنا بطبيعة الحال لولوج القسم الثاني والأخير من هذا البحث، فلعله يتمخّض عما يتناسب مع أهمية السؤال، ويفسح متسعاً من المجال، بما يتكافأ مع موسوعيته التي تحتوي على دوائر دينية: من كتابية ووضعية، وأخرى: فكرية ومنهجية...



الفصل الثامن

في إطار الحوار الدِّيني بين المسلمين وغيرهم

المبحث الأوّل : الحوار الإسلاميّ المسيحي بين الواقع والمرتجى

المبحث الثّاني : مسالك ديدات في محاورة ودعوة اليهود والصّهاينة إلى الإسلام

- نحو ضرورة استيعاب الحوار الدعوي لكافة الاتجاهات الدينية في العالم

المبحث الأول

الحوار الإسلامي المسيحي بين الواقع والمرتجى

(المردود والمنشود)

مما سبق بيانه أن الشيخ ديدات في فورة تحمسه وإنتصاره لحوار الدعوة والإقناع، كان يعيب على الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر، وذلك في نمطه المتعارف عليه، كحوار للتعايش والتعاون، وقد استند في هذا الموقف الذي لا يشاركه فيه الكثيرون إلى أن المحاورات المعاصرة بين المسلمين والمسيحيين غالباً ما تدور حول أمور غير التي يحددها القرآن الكريم، ويمنحها الأولوية، في هذا المجال الدعوي الحسَّاس. وبرغم هذا التنازل المعيب من قبل الطرف المسلم فإن الطرف الآخر لا يلتزم بموجب المقررات، والتوصيات التي تتخذ بشأن تلك القضايا التي لا تدخل في دائرة الاهتمام الدعوي، إذ لا يستهدف الآخر من عملية الحوار مع المسلمين سوى تحييدهم وإلهاءَهم من نشاطهم الإسلامي لإقامة العمل التنصيري على حسابهم، وفي أوساطهم[1].

وعليه، فإني أتصور أنَّ ديدات الذي اقتحم مع المنصّرين مواقع حوارات خطيرة، واشتبك معهم في سجالات، زاد من ضرامها أن كلّ سلاحه فيها، كان يتمثل في عمق معرفته بالفكر المسيحي، وبما يحاك ضدَّ المسلمين من مكائد تنصيرية رهيبة لم يكن - وهو محق في ذلك - ليرضى لنفسه منطق المداهنة باسم حوار التعايش والتعاون، والذي قد يقال بفشله حتى الآن في تحقيق ما كان يُّعول عليه من الجانب المسلم في إرساء دعائم السَّلام، والتسامح، والتعاون بين الشعوب المسلمة والمسيحية.

بل، قد يصح القول بأنَّ الشيخ ديدات يرى أن هذا النوع من الحوار على ما هو جار عليه لحدّ الآن، هو من العبث الذي لا يليق بمن انتدبهم القرآن الكريم للدَّعوة إلى الله على بصيرة، بمختلف المناهج الحكيمة، وليكونوا دعاة أمن وسلام وتعايش وتعاون، لتتحقق بذلك شهادتهم على الناس عند الله عز وجلّ.

ومن هذا المنظور الدَّعوي، اندفع ديدات للمطالبة بمبارزة بابا الفاتيكان على مسرح الحوار والإقناع، لكي يقيم عليه وعلى أمّته حجَّة دعويَّة يشهد بها العالم كله، وكان ذلك حين علم بمكر هذا الأخير في إعلان رغبته في الحوار مع المسلمين، من خلال دعايات

---

(1) ينظر: هذه حياتي، ص 99-100، مصدر سابق..

إعلاميَّة خادعة، قال عنها ديدات: «نحن نعلم جيداً أن البابا حقيقة لا يعني حواراً إنه في الحقيقة: يدعو مبشريه ليذهبوا لتحويل المسلمين إلى المسيحية، لكنه إذا استخدم كلمة تحويل فإن المسلمين سوف يقاومون، لذلك فقد اختار بعناية كلمة حوار»[1]. ولما تراجع البابا ولزم الصمت، رغم إلحاح ديدات في طلب محاورته عبر عدة خطابات وجّهها إليه لهذا الغرض، أيقن أخيراً عدم جدِّيته في دعوة المسلمين إلى الحوار، وأن ما يمارس الآن في أغلبه ليس في منظور الكنيسة سوى وسيلة خفية لتنفيذ مشروع تنصير المسلمين، ومن ثم كثّف ديدات نشاطه في الاتجاه المضاد، على خطٍّ حوار الدعوة والإقناع، فكان ما قدَّمه مثار إعجاب وتقدير سيظلّ دوماً على الصعيد الإسلامي على الأقل، علامة بارزة في الطريق الأصح والأقوم لمسيرة الحوار الإسلامي المسيحي.

على أن هذا المسار الذي سلكه ديدات لم يحظ بإجماع المسلمين على تأييده عليه، بل من الدعاة - فيما رأينا - من عارضه في ذلك أشد المعارضة، وشن عليه من الهجوم أعنفه، كما أن من الباحثين، والمهتمين بقضية الحوار الإسلامي المسيحي من ركن إلى اعتبار الحوار العقدي جدلاً قد بان عقمه، ونوعاً من المماحكة قد تجاوزها الزمن[2]، ومن ثم فإن الحوار بين المسلم والمسيحي ينبغي أن ينصرف إلى المشترك بينهما، وإلى التناظر في القضايا، والمشكلات الإنسانية المعاصرة بدلاً من المراوحة حول ماهو مختلف فيه من قضايا عقدية، وقناعات خاصة. وإلى هذا الاتجاه ينتمي أيضاً الدكتور عبد العزيز التويجري، وذلك فيما أفصح عنه في قوله «. . . حينما يتعلّق الأمر بالحوار الإسلامي المسيحي لا ينبغي الدخول في مناقشة مسائل الاعتقاد على حساب قضايا عملية تعود معالجتها بالنفع والفائدة على الطرفين، لا تهرباً، ولكن لأنَّ مثل هذه المناقشة لا فائدة فيها وهي أقرب إلى الجدل العقيم، واللجاج

---

(1) أحمد ديدات: خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، وحوار البابا مع المسلمين، ص 16، ترجمة: رمضان الصفناوي ط/ دار المختار الإسلامي، القاهرة، د. ت.

(2) ينظر: عبد المجيد المشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع العاشر، ص 42، 47 ط/ 1986م، الدار التونسية للكتاب تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر. .

السقيم . . . »[1] ويمضي الدكتور بعد هذا وهو من أنصار حوار التعايش والتعاون إلى تحديد جملة من القضايا والموضوعات التي يجب أن يتركز عليها الحوار، منها احترام الحياة الإنسانية، السعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام، ومراعاة حقوق الإنسان، التعاون على محاربة الإلحاد والفساد في العالم، مقاومة الظلم والطغيان، وتوجيه الناس إلى قيم المحبَّة والإخاء الإنساني[2] ونحوها.

والحقيقة أن المرء ليتساءل مستغرباً، كيف يتأتى الحوار المثمر حول تلك القضايا في ظل فساد العقيدة، وغلبة نزعة الشر والمكر عند الطرف الآخر الذي يريد، ويحاول تنصير مَنْ هم أقوم عقيدة، وأهدى سبيلاً ؟!

ومن هنا، فإننا نجد أنفسنا على الساحة الإسلامية إزاء موقفين مختلفين من قضية الحوار الإسلامي المسيحي، ينتصر أحدهما بقيادة الشيخ ديدات لحوار الدعوة والإقناع، بينما يدعو الآخر - وما أكثر أصحابه - إلى حوار التعايش والتعاون، ولكي تترجَّح كفة الحق لصالح أحدهما، أو يتأتى التوفيق والجمع بينهما، فليس بوسعنا سوى التناوُل المختصر لمختلف عناصر ملف الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر، على نحو من العرض والنقد، يُرْجى تحققه من خلال الخطوات الآتية:

أولاً: التصور الحواري ومنطلقه لدى الجهات الإسلامية والمسيحية التّنفيذية:

من المعروف - تاريخياً - أنَّ مبدأ الحوار تقليد راسخ في ثقافة الإسلام وتاريخ المسلمين، منذ أن أرسى القرآن الكريم قواعده، وحدَّد موضوعه وغاياته، وقد أخذ النبي صلوات الله وسلامه عليه، في ضوء الهدي الرباني في تعهُّده بالرعاية العملية، وتجذير أصوله التطبيقية في واقع المسلمين، وفي تأمين وتلطيف صلاتهم بغيرهم من الأمم، والمعتقدات، وقد ظلّ الموقف الكنسي يقابل هذا الموقف الكريم بالإقدام تارة،

---

(1) الحوار من أجل التعايش، ص 20، ط 1/ 1419هـ = 1998م، دار الشروق، القاهرة، بيروت.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص20.

وبالإحجام عنه تارة أخرى، إلى أن فوجىء العالم قبل أربعة عقود أو يزيد بثورة حوارية لا سابقة لها في تاريخ الكنيسة المسيحية، وبخاصة مع الشعوب المسلمة. وبالرغم من عدم مواكبة المستوى العملي للبعد النظري، إلا أن هذا الأخير ظلّ متميزاً بهالة إعلامية، أوحت للكثير من الناس بأن الأمر ليس خالصاً من دعاية مغرضة يُبيت من ورائها للعالم الإسلامي، من الهجوم التنصيري الهادىء مالا عهد له بمثله ضخامة وخطورة.

وممَّا أكد هذه القناعة لدى أصحابها دور المناخ السياسي والاقتصادي في تحريك الدعوة الكنِسيّة إلى الحوار الإسلامي المسيحي، وفي تنشيط إيقاعاته المتشابكة، في سبعينات القرن الإفرنجي المنصرم، حيث شَهِد فيها ميزان العلاقات الدولية تصاعداً للدور العربي الإسلامي بشكل بارز(1).

كما أن التأمل في دقة صياغة الوثيقة التاريخية الصادرة عن المجمع الفاتيكاني الممتد من عام 1964- 1965م، بشأن موقف الكنيسة من المسلمين، وما أغفله البيان الوارد بهذا الخصوص، ممَّا يزكي الاعتقاد بنوايا كنسية مضمرة، قد لا تكون لصالح الجانب المسلم، إذ ينصُّ الجانب الخاص بالمسلمين من وثيقة المجْمَع الذي أبهم على الناس اعْتِباره تغيّرًا جذرياً في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية على المنقول الآتي بحروفه:

«... تنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم ضابط الكل، خالق السماء والأرض، المكلِم البشر، وأنهم يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية كما خضع له إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم يجلُّون يسوعًا كنبي وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرِّمون مريم أمَّه العذراء.

... وعلاوة على ذلك أنهم ينتظرون يوم الدِّين عندما يبعث الله كلَّ البشر القائمين من الموت، ويعتبرون أيضاً الحياة الأخلاقية، ويؤدون العبادة لله، لاسيما

---

(1) ينظر: فهمي هويدي، «المؤتمر الإسلامي المسيحي الثاني في قرطبة»، ص 50-51، مجلة العربي، ع/ 223، عام 197م.

بالصلاة والزكاة والصوم، وإن كانت قد نشأت على مر القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدَّس يحضّ الجميع على أن يتناسوا الماضي، وينصرفوا بإخلاص إلى التَّفاهم والتنازل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع النَّاس[1].

والملاحظ على هذا البيان برغم ما يقرِّره من انفتاح واسع على المسلمين، وتودّد بالغ إليهم، أنه أغفل تماماً مسألة الاعتراف بصحة رسالة الإسلام، كما أنَّه لم يتعرض البتة لقضية الوضع الديني للنبي الخاتم محمد ﷺ، فضلاً عن الإيمان برسالته الإلهية الصادقة، مع أنه قد تضمن زعماً عريضاً وكاذباً بأن المسيحيين يشتركون مع المسلمين في عبادة إله واحد، والواقع أن المسيحيين يعبدون ثالوثاً من الآلهة!!

وجدير بالإيضاح في هذا الصدد أن اعتبار المجمع الفاتيكاني الثاني فاتحًا لآفاق الحوار والتعاون مع غير المسيحيين وخلفيةً تاريخية للحوار الإسلامي المسيحي، هو ضرب من التَّمويه، ومغالطة معرفية يفندها ما للإسلام من فضل السبق إلى تأسيس هذا الحوار، على المستويين العقدي والإنساني العام، وفي السَّهر على تغذيته بالمبادئ الفاضلة وبمقومات التنمية العملية النَّشطة، وهذا لا يعني إنكاراً للجهود المسيحية المعاصرة في هذا الشأن، منذ أن أطلقت شرارة الحوار مع غير المسيحيين من قبل الكنيسة الفاتيكانية باعتبارها القيادة الروحية العليا للمسيحية الكاثوليكية في العالم، بل إنها - في الحقيقة - وبغضِّ النظر عن الدوافع والأهداف قد أفاضت في الدعوة إلى الحوار، ودأبت على دراسات علمية تغطِّي مختلف مجالاته وقضاياه، بجانب نشاطها عملياً في تنظيم لقاءاته أو المشاركة فيها بالحضور والإسهام. وفي إطار نشاطها الوافر في تنظير الحوار مع المسلمين، وفي تحديد المنطلقات والأسس التي يراد من المسيحيين في العالم أن يصدروا عنها، ويؤسسوا عليها حواراتهم الإسلامية المسيحية، أعدَّت لغرض إسعافهم دراسات منشورة بهذا الخصوص، منها منشور فاتيكاني بعنوان:

---

(1) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة، ص29، جمع: جوليت حدَّاد، ط1/ 1995م، دار المشرق، بيروت، لبنان.

(توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين)، وهو بمثابة توجيهات أساسية ومقترحات وجيزة، تتيح لمن أنشىء من أجلهم تصوراً عامّاً عن الأبعاد المتعددة لحوارهم مع المسلمين، على أملٍ أن ينالوا في ذلك تسهيلات تُمكِنهم من إدارة حوارات ناجحة مع الوفود المسلمة، مراعاة لرغبة الفاتيكان في أن يرتبط أتباعها بعلاقات حوار دائم مستمر مع الجماعات الدينية عامة، ومع المسلمين بوجه أخصّ، ويتهيأ لنا من خلال هذا المنشور الوقوف على فلسفة الحوار لدى الفاتيكان، وتتمثل في أنّ: «الحوار في جوهره يهدف إلى تعزيز التعارف بين الجميع، وجعلهم يتعمقون في عقيدتهم وتراثهم الديني، وإلى تنشيط التماسهم لمشيئة الله . . فلا يسوغ إذن على الإطلاق أن تكون غاية الحوار سعي المحاور إلى اجتذاب الآخر إلى دينه بأي ثمن، أو حمله على الشك في الإيمان الذي يقتدي به، بل يعتزم المؤمنون في تنافس روحي، وتسابق مقدس . . . أن يتعاونوا على استِباق أنفسهم، فيصيروا خيراً ممّا هم عليه، في سياق ما دعاهم الله إليه، ليزدادوا قرباً منه، وليزيدوا من وزن الخير في العالم»[(1)] .

ولأنَّ الهدف المعلن هو التعاون من أجل المزيد من الخير لعالمنا المشترك، يمتد الطموح الفاتيكاني إلى طرح فكرة شمولية الحوار لشتَّى المجالات الحيوية المشتركة، في النطاق الإنساني العام، محليّاً[(2)]، ودولياً، على أن تظل قضية تحديد وتكييف مقتضيات الحوار مرهونة بخصوصية الأوضاع الواقعية .

ومع هذه الشمولية المقصودة لا يتردد هذا المنشور في التلويح بالحوار العقدي بعيداً، بالنظر إلى ما قد يترتب عليه من عواقب لن تكون في صالح الكنيسة وعقيدتها[(3)]، كما أنَّ ثمة تحذيراً لا يفتر تحفظًا من أن يؤدي الحوار إلى القبول بعقيدة الآخر، والاستسلام لسلطان الحق الذي يدين به، وقد عُبِّر عن ذلك بأساليب في غاية اللباقة، والقدرة على

---

(1) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ص20 تعريب المطران يوحنا منصور، ط 1/ 1986م، من منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص: 46-47.

(3) المصدر السابق، ص: 58.

التأثير النفسي كقولهم: «فليس أسوأ للحوار من السعي الكاذب إلى التكيف، وقوامه عند المسيحي انتقاص إيمانه حين عرضه بحيث يجعله مقبولاً لدى المسلمين، إنَّ الحوار يفقد كلَّ معناه إذ انتقص الفريق المسيحي إيمانه إلى حدٍّ جعله عموميات، وحجب عقائده التي تفترق عمَّا يؤكده القرآن، فالمسيحي الذي يلاقيه المسلم في الحوار، إنما هو ذاك الذي يعيش في اكتمال حياته الروحية، واكتمال عقيدته؟!»[1].

وتبريراً لهذا المنطلق الحواري المنقوص يتكرر في البيان بأنه لا يوجد من وراء هذا الحوار إرادة اجتذاب ديني للآخر إلى حظيرة المسيحية[2]، بل يعكس المنشور حالة من التخوف المسيحي من عملية الحوار مع المسلمين، والتي وصفت حيناً بأنها «مغامرة لا يعرف فيها المتحاورون جيداً إلى أين ينتهون»[3]، كما اعتبر حيناً آخر مغامرة محفوفة بالمخاطر قد تؤدي إلى مآزق مأساوية[4]، ومن ثمَّ فإن المسيحيين ملزمون قبل غيرهم بامتلاك الجرأة الحوارية اللازمة، والتزود الكافي لاقتحامها.

ومن الجديد في هذا المنشور، كأمر هام بالنسبة للمسلم أنَّه يحاول أن يُقدِم للمسيحي بنزاهة وعلميَّة صورة موضوعية عن عقيدة الإسلام، وثقافة المسلمين، ولكنه في أثناء تلك المحاولة يتعثر أحياناً، فيتصور الإسلام الواحد إسلامات متعددة بحكم انتساب المسلمين إلى أعراف متنوعة، وانتمائهم إلى أقاليم متعددة، ويؤسس على هذا الاعتقاد الخاطىء مسألة تَنوع الحوار، من طائفة لأخرى بحسب تلك الخصوصيات التي لا شأن لها في الإسلام، والحال أن الكنيسة تعيرها اهتماماً حوارياً وتنصيرياً بالغاً، كما يوحي هذا المنشور الكنسي لقرائه بانعدام الحرية الدينية في ثقافة المجتمعات المسلمة، ذلك أن للردَّة الدينية، وهي محرَّمة في الإسلام عقوبة شديدة تترتب عليها[5].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 75.

(2) ينظر: على سبيل المثال: ص49 من المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 51. .

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 60.

(5) ينظر: المصدر السابق، ص: 116-117.

وعلى العموم، يلاحظ في قراءة هذا المنشور أنه لا يسلم من الوقوع في بعض التناقضات، وبخاصة في تحديد موقفه من الحوار الديني حول العقيدة ومتعلقاتها، إذ يتراوح الموقف بين الإقبال عليه نظرياً فقط، والإعراض عنه نظرياً وعملياً[1]. ومما يثير الشكوك الكثيرة، والتساؤل الطويل لدى القارىء المسلم، حول المنطلق الحواري للكنيسة الفاتيكانية، ما ورد في هذا المنشور (توجيهات في سبيل الحوار) من تطلع فائق، وإلحاح زائد إلى أن يفضي الحوار بين المسلمين والمسيحيين إلى قبول كلٍّ منهما للآخر، والعمل على استقباله، والترحيب به، واستضافته للعيش سويا[2]. ومن هنا نفهم أن قصد الفاتيكان من الحوار مع المسلمين هو تحقيق المزيد من التنازل الديني، لتكوين مجتمعات متعددة الأديان تتسنّح فيها للعمل التنصيري فرصة اقتحام المناطق الإسلامية المغلقة أمامه وتكثيف الهجوم على تلك التي لا تزال مفتوحة أمام جيوشه الجرَّارة، وسيوله الغامرة.

ولا أدَل على ذلك من قول بابا الفاتيكان الحالي في خطاب له «إنَّ الحوار بين الديانات يشكل جزءاً من رسالة الكنيسة التَّبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم، بل إنه بالعكس مرتبط بها، بنوع خاص، وهو تعبير عنها»[3]، ويمضي في تأكيد هذا المعنى، وتفصيله قائلاً في موضع آخر: «إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو- نوعاً ما - أداة، وعلى الأخص، طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم. . . وهو إنارة الكون كُلّه ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروح واحد. . . وفي الواقع، إنّ الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تحسن حمل الناس. . . على الارتداد والتوبة، على طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديداً عميقاً في ضوء نشر الفداء والخلاص . . . »[4]، وفي هذا من الدلالة على انطواء الحوار على

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 58-115.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص: 49.

(3) نقلا عن كتاب: تنصير العالم. . مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، ص 106 مرجع سابق.

(4) المرجع نفسه، ص 109.

المقصد التنصيري لدى الفاتيكان ما لا يحتمل أي تأويل أو مواربة .

وبما أنَّ الفاتيكان ذو دور تاريخي معاصر في عملية تنشيط الحوار الإسلامي المسيحي ، يتظاهر دوماً في ممارسته بإعلان النزعة الإنسانية والتسامح الديني ، فلذا لم تشأ لنفسها غالباً الإفصاح عن حقيقة مراميها بتصريحات قد يحْرجها أمام الآخرين ، وذلك تقييمًا لطبيعة حوارتها ، وتلبيساً على من يضعون فيها ثقتهم ، من الأبرياء الذين لا تظهر لهم حقيقتها ، بالقدر الكافي من الثبات والوضوح .

أما مجلس الكنائس العالمي ، الراعي الأعلى للكنائس البروتستانية في العالم ، فهو أجسر من الفاتيكان في الإفصاح عن تنصيرية غرضه الحواري ، وتتلخص جملة أهدافه من الحوار مع المسلمين في الدَّعوة إلى الإيمان بالمسيح ، والعمل على تحقيق الأهداف التي أسَّس من أجلها المجلس منذ عام 1948م ، مع ضرورة حمل المحاور المسيحيّ لعقيدته بوضوح تامّ أثناء الحوار ، والسعي في سبيل نشر المسيحيّة خلال عمليات الحوار ، وعبر لقاءاته[1] .

هذا . . . وقد سبق أن أوْصى هذا المجلس التنصيري العالمي الكنائس التي تتبعها بإعداد فرق ، تتحمل مسؤولياتها في الحوار مع الدِّيانات الأخرى ، مع العناية القصوى بالفرق القائمة حالياً بتحسين مستوى خبراتها ، وتطوير إمكاناتها الحوارية[2] ، وقد جاء في دراسة تنصيرية معتمدة لدى المجلس بأنه «يجب على المسيحيين المشاركين في الحوار ، أن ينتبهوا لكلٍّ نقد يوَّجه إليهم ، وأن يعملوا من أجل الدفاع عن المسيحية ، وأيضاً أن يوجِّهوا اهتماماتهم إلى المسلمين الذين ينقضون الإنجيل لأجل الرَّد عليهم»[3] .

ومن جهة أخرى ، فقد ناقش مؤتمر كلورادو التنصيري عام 1987م ، موضوع الحوار الإسلامي المسيحي ، وصلته الوثيقة بالتنصير ، وبرغم ما قيل فيه عن تطور الفكر الحواري من وسيلة تنصيرية ، إلى التزام نصراني في عالم تسوده معتقدات

---

(1) ينظر : الحوار الإسلامي المسيحي ، ص 393- 394 ، 396 .

(2) ينظر : المرجع نفسه ، ص : 395 .

(3) ينظر : المرجع نفسه ، ص 397.

متعددة، إلاّ أن كل شيء كان يوحي من خلال أبحاث المؤتمر ومداخلاته بأن ثمة تياراً قويّاً ومتشدداً من المنصرين لا يرى انفكاك الحوار عن مقصد التنصير، بل الحوار - كأداة - في منظور جمهور كبير منهم يجب أن يظلّ وفيّاً لتطلعات الكنائس الغربية في السعي لتنصير العالم، والمسلمين بوجه أخصّ.

وأظنّ أن هذا الاتجاه قد يسود توجُّه مجلس الكنائس العالميّ ويقوده إلى الالتزام بالحوار التنصيري، لا سيّما إذا علمنا أن الرغبة المعلنة في الوصول إلى فهم أكثر واحترام أكبر، هي الأخرى مشوبة بنزعات الخوف، وملامح الحذر من الحوار الخالص مع المسلمين، بناء على قناعة عامة لدى المنصرين بأنّ الحوار الحرّ الصادق مع المسلم المؤهّل للحوار، هو في الغالب يَكسب المسيحي لصالح الإسلام[1]، وهذا عندهم مصيبة يجب تفاديها بالانطلاق من منطلق تنصيري متحمِّس، حتى لا يقع ما يبعث على القلق والإحباط مما يحْذرون.

وفي ضوء متابعة بعض أعمال وبيانات مجلس الكنائس العالمي بوسعنا أن نُقرر - ولو على عجل - بأنّ كلّ ما يقال عن إنسانية حواراته مع المسلمين ليس أكثر من تبرير وتخدير، من أجل القيام بغايات ومشاريع تنصيريّة ناجحة، بدافع التّعصب الشديد لمسوخ الفكر المسيحي، والحقد الدفين على العالم الإسلامي الذي تُعْقَدُ بخصوصه مؤتمرات مسكونية من أجل تنصيره. وتعزيزاً لهذا الطرح؛ نلاحظ أن معظم أو كُلّ من حاورهم ديدات من المسيحيين هم من البروتستانت من أكبر رعايا مجلس الكنائس العالمي، في حين لم يستجب الكاثوليك لطلباته الحواريّة. وأحد أسباب ذلك، أن منظورهم الحواري قيمي ذرائعي، وليس تنصيرياً مباشراً، بل يركّز على القيم الإنمائية المشتركة ودعوى مساندة حقوق الإنسان وإغاثة المنكوبين والمحرومين من فرص الحياة السعيدة، ليتخذوا من كلّ هذه الدعايات الجوفاء مطيّة طائعة، هي ذريعتهم إلى اختراق المجتمعات المسلمة، والمناورة لاستفتاح المحصّنة منها. ومن الأدلة أيضاً على هذا الخبث الحواري عند مجلس الكنائس العالمي وغيره، ما ورد من تقرير

---

(1) ينظر: التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، ص 767 - 783، سبق ذكره.

مقارن بين الوضعيين الدعوي والتنصيري في أفريقيا، عن أحد كبار اللاهوتيين المنصّرين في جنوب أفريقيا، وكان ممّا جاء فيه قوله: «وبعد أن كانت العلاقات بين النصارى والمسلمين في السابق علاقات مواجهة أصبح التركيز على الحوار. ومثل هذا الحوار يجب أن لا يسيء إلى الإنجيل، فمثلاً ربّما يرى البعض تفادي مناقشة التثليث في تعزيز الحوار، فمثلاً هذا يجب أن لا يحدث على الإطلاق، كما أن الحوار يجب ألا يحل محل الدعوة بالإنجيل، بل لابّد أن يكون واسطة تتحقق عن طريقها دعوته»[1].

على أن في المسيحيين حقاً، على المستويات الفرديّة والفكريّة خاصة، من يؤمن بالحوار الصادق مع المسلمين، ويخلص في ممارسته، مناضلاً من أجل سيادته المطلقة على العلاقات القائمة بين الأمة الإسلامية والشعوب المسيحيَّة.

ومن هنا إذا جئنا خارج نطاق المؤسسات الكنسية المتنفذة نصنّف اتجاهات الحوار عند المسيحيين، فسنجد أنها تتراوح بين ثلاثة مواقف رئيسة، يتسم أولها: وهو اتجاه الحدّ الأعلى، بالانفتاح والاعتراف النسبي بالطابع الإلهي للقرآن، فالاتجاه الوسط، الذي يميل إلى الاعتدال في انفتاحه على المسلمين، ويتحفظ في اتخاذ مواقف إيجابية من الإسلام، عقيدة ورسالة.

ثم اتجاه الحدّ الأدنى، وهو تيار تقليدي منغلق على نفسه، وما يزال ينظر إلى الإسلام بعين القرون المسيحية الوسطى[2]، ويحكم عليه بتصوراتها المشوهة التي نبذها الزمن، وأخذ العقلاء في النفور منها.

وفيما يتصل بتصور المسلمين، ومنطلقهم الحواري، فبصرف النظر عن افتقارهم إلى مؤسسة دينية تمثلهم جميعاً، فإن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تعتبر أرقى وأنشط هيئة إسلامية في مجال الحوار الإسلامي المسيحي، وغيره من المجالات الدينية والإنسانية عامة، وهي في حواراتها مع المسيحيين من خلال مكاتبها المختصة، وعبر علاقاتها

---

(1) أفريقيا لماذا؟ ص = 157، سبق ذكره.

(2) ينظر: أليكسي جورافسكي الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ص = 125-126، ترجمة خلف محمد الجراد، ط2/ 1421 هـ =2000 م، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر-دمشق.

الواسعة، ولقاءاتها العديدة مع الجهات المسيحية، تقدم تصوراً حوارياً، يقوم على مستوى عالٍ من الجدِّية والمسؤولية، ينزع بالجانبين الإسلامي والمسيحي إلى التغلُّب على رواسب الماضي ومخلفاته التي طالما عملت على شحن كلٍّ طرف ضدَّ الآخر، ويدعو إلى العمل من أجل العدالة والسلام في العالم، وتضافر كلّ الجهود الروحية من أجل إفساح مجال التعايش بين المعتقدات بما يمكِّن من التعاون بين النَّاس من أجل حياتهم، وبما يؤثر في تنظيم العلاقات الإنسانية على أسس من الرحمة، والمحبَّة، والعيش معاً سعداء في سلام ووئام، وهي في سعيها الحواري الجادّ لتوسيع رقعة التفاهم والتسامح بين الجماعات الدينية، تنطلق من مُسَلَّمة مؤدَاها: أن التواصل بين الإسلام، والنصرانية قديم قدم الإسلام نفسه، وأن للحوار الإسلامي المسيحي في صِيغَه المعاصرة مغزاه الهام في عالم اليوم، الذي يتطلع وسط تحديات رهيبة إلى قيم التواصل الحق بين الشعوب والمعتقدات بكافتها، ومن ثمَّ فإن مسألة الحوار الإسلامي المسيحي في منظور جمعية الدعوة الإسلامية هي أخطر وأهم من أن تكون مسألة نظرية صرفة، بل هي مهِمّة دينيّة وإنسانية لازمة لسلم العالم، ورسالة حضارية لصالح «التعارف» الحقيقي بمفهومه القرآني الشامل بين الناس جميعاً على اختلاف أعراقهم، وأعرافهم.

وفي صدد تعميق وتوسيع هذا المسار فقد توصلت الدورة الثالثة عشرة للمجلس العالمي للدعوة الإسلامية في بيانها الختامي إلى التوصية بأن يتجه الحوار بالدرجة الأولى إلى حلّ معضلات الحياة الإنسانية، وأن يتمّ في إطار من العدالة والاحترام المتبادل، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار مهِمّة التقييم الموضوعي للمراحل التي اجتازها الحوار بين الطرفين حتى الآن[1]، وذلك من أجل الاستفادة من الرصيد الحاصل، لتقويم المسيرة في ضوئه، نحو الغايات الدعوية والإنسانية المنشودة.

وقد ظهر كذلك جانب من هذا المنطلق الحواري لجمعية الدعوة الإسلامية لدى

---

(1) انعقدت الدورة المذكورة من يوم 5-6 رجب عام 1369 هـ الموافق 22-23 الفاتح عام 2001، بمقرّ كلية الدَّعوة الإسلامية بطرابلس، الجماهيرية العظمى.

المرحوم الحسن الثاني ملك المغرب، وذلك في لقاء له مع بابا الفاتيكان الحالي بِمقرِّه عام 1980، طالب الملك في مباحثاتهما بتعزيز الحوار الإسلامي المسيحي «من أجل صدّ أخطار الإلحاد والماديّة، وضمان قاعدة استقرارٍ وطمأنينةٍ وأمانٍ للمجتمع البشريّ، من خلال القيم الأخلاقية والمثل العليا»[1].

وأمّا الأزهر كأحد أشهر وأكبر المؤسسات الإسلامية القائمة اليوم، وأعرقها جميعاً، فيمكن أن يقال عنه - من خلال القليل الذي وقفنا عليه من حصيلة لقاءاته الحوارية القليلة مع المسيحيين - بأن حواره يدور في نطاق القيم الإنسانية العامة، وحول المبادىء الدينية المشتركة، مع تركيز ملحوظ على مبدأ التعاون من أجل استِتْباب السلام والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط على أساس العدالة والكرامة[2].

وإزاء قلّة العناية والإسهام في الحوار الإسلامي المسيحي من قبل المؤسسات الإسلامية الكبيرة، ذات المكانة الدولية المعتبرة، يتحول الاهتمام العلميّ بالمرء إلى استبانة موقف بعض الشخصيات المسلمة من هذا الحوار، ومنهم الدَّاعية الكبير الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - الذي أبدى تأييده ودعمه لأي حوار من هذا القبيل داعياً من منطلق التعاون إلى كفالته بما يضمن له النُّمو، ويحقِّق له التَّقدم، وهذا ممَّا فهمنا من مقال قديم له، وذلك في قوله: «فإني أطلق القول كمسلم فاقه لدينه محبّ لله ورسوله رقيق القلب لجميع عباده أنّ هذه المؤتمرات (مؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي) يجب أن تشجّع وأن يكثرث بها، وأن تبذل المحاولات الجاهدة كيما تثمر السلام للناس»[3].

أمَّا الشيخ القرضاوي فهو من أكبر مساندي مثل هذه الحوارات، ومن أبرز المشاركين في لقاءاتها حين يُدعى إليها، ومع علمه الجيّد بأن الحوار من وسائل الدَّعوة

(1) عبد الكبير العلوي المدغري: الحوار بين الحضارات، ص 19، د. م. ن؟! والكتاب عبارة عن درس ديني ألقاه بحضرة الملك في قصره بالرباط، عام 1412 هـ = 1992م.

(2) ينظر: البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة، ص 42-43، 64، 65، سبق ذكره.

(3) ينظر: "التعاون بين الإسلام والمسيحية"، ص 30، من مجلة منبر الإسلام، ع 11، ص 13=1375 هـ=1956م.

التي بدأها الرسول ﷺ مع من عاصرهم من أهل الكتاب بالمقابلة أو بالمراسلة، إلا أن منطلقه في الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر يتمثل فيما لخصه في قوله: «ليكن هناك حوار ديني بين الإسلام والمسيحية يهدف إلى عدة أمور:

1 - الوقوف في وجه تيار الإلحاد والمادِّية.

2 - تأكيد نقاط الاتفاق بين الدينين.

3 - تنقية العلاقات من رواسب الروح العدائية التي خلفتها الحروب الصليبية قديماً والاستعمارية حديثاً، وإشاعة معاني الإخاء والإنسانية والرحمة، وفتح صفحة جديدة لعلاقات أنقى وأصفى...»[1].

وبالرغم من ميل بعض المسلمين إلى إثارة الشبهات، وكيل الاتهامات لإخوانهم الذين يشاركون في لقاءات الحوار مع المسيحيين، فإن القرضاوي بعكس ذلك يقف من الأمر موقف الدفاع عنه، والثناء على من يستحقون الاعتراف بفضل مشاركتهم الطيبة، وإسهامهم الإيجابي ببحوث علمية رصينة تخدم الإسلام، وتعلي من شأن المسلمين، وتُعْلِمُ الطرف الآخر على نحو جيّد بمبادئهم الدينية، وتدافع عن قضاياهم وتدعم مطالبهم[2].

وربّما لهذا السبب يؤكِّد الشيخ القرضاوي أن ما يدعو إليه هو الحوار، وليس المناظرة، إذ يتصور أن «كلمة المناظرة توحي بالتَّحدي، وإرادة الغلبة، ومحاولة كل طرف أن يصيب الآخر في مقتل، وأحسب أنّ هذا لا يفيد كثيراً، وقلَّما يرجع أحد الطرفين عن موقفه، أو يتزحزح نتيجة المناظرة، وربَّما تزيده إصراراً وتعصُّباً لما هو عليه»[3].

ومن هنا ألمس عند الشيخ القرضاوي، أحد الأسباب التي جعلته يصمت، من غير ردّ على الخطاب الذي وجهته إليه، - وإلى غيره أيضاً - عبر موقعه على شبكة

---

(1) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 179، سبق ذكره.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص 181.

(3) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص، 172.

المعلومات الدولية، مستفتياً إيَّاه، عن موقفه التقييمي لمنهج الشيخ أحمد ديدات في الحوار والدَّعوة، وذلك حتى أفيد من آرائه في هذا الشأن العلميّ والعمليّ، وأثري بها هذه الدراسة الجارية .

هذا . . وفي سياق التعبير عن فلسفة الحوار الإسلامي المسيحي، وتصوير أهدافه، يقول الأستاذ فهمي هويدي: «إنّ هدف الحوار هو تعميق الفهم، وتبديد المخاوف، واقتلاع جذور الحساسيّة والرفض، لتمتدّ جسور المودّة والتعاون بين بني الإنسان، مهما اختلفت مواقفهم المذهبية والعقيدية»[1] . وبالمقابل، يوجد فريق متفرق من المسلمين، يعارضون عمليات الحوار مع المسيحيين لِحُجَجٍ وأسباب كثيرة، منها: أنَّها لا تجدي، لأن كلا سيظلُّ مستمراً في موقفه، متشبثاً برأيه، دون تقديم أي تنازل عنه ولو مقابل الحق .

ومنها أيضاً: أن غرض الآخر من الحوار هو تنصير محاوره المسلم، وزعزعة عقيدة المسلمين، والتشويش على القيادات والشعوب لتقبل ثقافة الغرب وأنماط حياته، وأن الحوارات الحالية تتعرض أحياناً لقضايا شرعية ليست من اختصاصها، كما أن تمثيل المسلمين فيها لا يخضع في الغالب لمعايير الكفاءة العلمية المتخصصة، والقدرة الحوارية اللازمة، وأن ثمَّة قضايا إسلامية جادَّة وملحة طالما أغفلتها تلك الحوارات، أو لم توفها حقَّها من المعالجة النظرية والعملية، وأنها تموّل من مصادر مشبوهة، فضلاً عن غير هذه الملاحظات من اعتراضات كثيرة، أورد صاحب كتاب، (الحوار الإسلامي المسيحي)، طائفة منها بما يطول الوقوف عندها في هذا المقام[2] . وإن كانت قد تفيد ضمنياً بأنَّ أصحابها قد يجدون في حوارات الدعوة والإقناع - شأن ما قام به الشيخ ديدات - ما يلبّي رغباتهم الحوارية، وينقلهم من موقف المعارضة والاحتجاج إلى مواقف المساندة والمشاركة، وذلك بإقناعهم علمياً بأن حججهم - في معظمها - لا تنسحب على هذا النوع من الحوار .

---

(1) المؤتمر الإسلامي المسيحي في قرطبة، ص 50، من مجلة العربي، ع / 223، سبق ذكره.

(2) ينظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ص 418-423، سبق ذكره.

وقد تعدّى أحدهم كلّ تحدٍ معقول في معارضتهِ لمؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي وفي هجومه العنيف على من يشاركون فيها من المسلمين، فقال: «ولعل من أخبث أساليب الهجوم الذي يستهدف التطويق والتخدير، ظاهرة الاهتمام بالإسلام، المتمثلة في عقد المؤتمرات المشبوهة، والتي يشترك في عقدها مسلمون ونصارى، ومن أبرزها المؤتمر الإسلامي المسيحي الذي عقد أخيراً في أسبانيا، والذي سيعقد له نظائر في (تونس، وفي لبنان، وفي دكار) مع علم المؤتمرين، أو المتآمرين (لافرق) أنه لا يمكن الجمع أو التوفيق بين الإسلام والنصرانية، ولا بين التوحيد والتثليث. . .»[1] إنه لهُجومٌ أعزَلُ من العلم الصحيح بحقيقة هذه المؤتمرات، وبمنطلقات من يشارك فيها من المسلمين، كما أنه عارٍ تماماً من أدب النَّقد وموضوعيته، وليس له عندي من مبررٍ علميّ أو دينيّ، إلا ما كان سببه تحذير المسلمين من مكائد المنصرين ولفت الانتباه إلى جهودهم التنصيريّة الضخمة ووسائلهم الاغرائية السَّخية في الفقيرة من المجتمعات المسلمة، كما أن الاستناد إلى خلفية الصراعات التاريخية القديمة بين العالمين الإسلامي والمسيحي، بالإضافة إلى «ما يصدر عن بعض كبار المنصرين حول فشل الأساليب التقليدية للتنصير، وضرورة البحث عن وسيلة أخرى تكون أكثر فعالية وأبعد أثراً من سابقاتها»[2]، فكلّ هذه العوامل مدعاة لليقظة والحذر، إلى الحدّ الذي يؤدي ببعض المتحمسين لشدّة الغيرة الدينية إلى اتهام غيره بالتحالف مع الأعداء في التآمر على الإسلام والمسلمين. وهذا مما يكشف لنا ويقودنا إلى التعرف على المشكلات والعوائق التي تواجه مسيرة الحوار الإسلامي المسيحي، والتي سنقف على أهمّها من خلال الفقرة اللاحقة.

---

(1) إبراهيم سليمان الجبهان: معاول الهدم والتّدمير في النصرانية وفي التبشير، ص 30، ط4/ 1981م، عالم الكتب، الرياض، السعودية.

(2) السيد محمد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ص23، ط/ 1421هـ=2001م، دار الأمين، القاهرة، مصر.

ثانياً: من مشكلات ومعوِّقات الحوار الإسلامي المسيحي :

فبقدر ما هي كثيرة ومتباينة مواقف المسلمين والمسيحيين من الحوار المعاصر، فإن مشكلاته ومعوقاته أيضاً على قدر من الكثرة والتنوع مما لا ضرورة لحصره، واستيعابه في هذه الوقفة العابرة؛ حيث يعاني النشاط الحواريّ بين المسلمين والمسيحيين من مشكلات يجب النظر فيها دون تجاوزها، خوف مواجهتها بكل صدق، وصراحة، وموضوعية إلى جانب معاناته من عوائق لا يتأتى السير الحواريّ المنتظم في ظلّ وجودها المانع. ولعلّ بالإمكان إيراد ما يبدو لي أهم تلك العوائق، ملخَّصة في الأمور الآتية:

1 - العقد التاريخية والنزاعات السياسية :

إن الحوارات المعاصرة القائمة على خلفيات عريضة من ركام العقد النفسية، وشحن النزاعات السياسية تتأثر بالفعل بنظرة كلّ طرف إلى الآخر من منظور التاريخ والواقع، وهو مامن طبيعته أن ينعكس سلباً على مجرى الحوار بَيْنَ الطرفين بِثِقَلِ ماران على النفوس، من تصورات تأصّلت في أعماقها، فتعززت بِفعل العلاقات الصِّدامية الدَّامية بين الجانبين انطلاقاً من الحروب الصليبية، مروراً بحركة الاستعمار الغربية وموقف العالم الغربي المسيحي من الاحتلال الفلسطيني الغاشم، ومن حرب التطهير العرقي، وتصفية الوجود الإسلامي في البوسنة والهرسك[1]، ونحوها من سلسلة المشاهد التي ليس ما يسمى الآن بالحملة الغربية لمكافحة الإرهاب، (ويقصد به الإسلام) إلا امتداداً لها وشاهداً قوياً على الطابع العدائي والنزعة الصدامية المهيمنة على علاقات المسيحيين بالمسلمين من قديم الزَّمان، وكلّ تلك الأحداث والتطورات التاريخية تقف عائقاً منيعاً أمام الحوار الإسلامي المسيحي، وبخاصة حين نظلّ نَتَذكر من خلال دروس التاريخ «أن المبشر كان يدخل البلاد ثم يأتي الجيش على أثره، ولكن المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبّوا أن يتقدم الجيش أولاً لأنّ ذلك يسهل مهمتهم. . . ولذلك كان الحكام الوطنيون في كل بقعة على حق حينما كانوا يعتقدون أن مجيء المبشرين

(1) المرجع السابق، ص7.

ينتهي دائماً بتدخل النصرانية في بلادهم، وبخسارتهم جزءاً من استقلالهم»[1].

ولاشك أنه ليس من اليسير على النفس نسيان كلّ هذا الماضي الطويل الثقيل دفعة واحدة وفي لحظة راهنة، بل يحتاج ذلك إلى قدر كبير من التضحية الغالية، والمسامحة الكريمة، والعفو عن طيب خاطر عن كل ما سلف، وهو ما إن لم يتحقق فإنَّ الطريق لا يبدو ممهَّداً أمام قافلة الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر في رحلتها الشاقة بأحْمالها، وعوائقها الكثيرة.

2 - اضطراب الفكر المسيحي وازدواجية مؤسساته:

من الملاحظ أن التدخلات الإنسانية عبر التاريخ في تشكيل المعتقد والفكر الكنسيين مما جعلتهما يخضعان لقانون التطور والمراجعة المستمرة، الأمر الذي يشكل صعوبة بالغة أمام المحاور المسلم، عندما يتناظر حول فكر يتَّسم بالتناقض والاضطراب ويفتقر إلى الانسجام والثبات، لذا رأى أحد المُتخصصين «أنَّ من العبث مناقشة القول بالأقانيم والأشخاص مثلاً كما لو أنَّها ما زالت تحتّل في واقع ذلك الفكر نفس المكانة التي كانت لها في القديم، إذ هناك اليوم تهميش ملموس للتثليث واحتفاظ به كتعبير «أدبي» تاريخي، لا يدل على حقيقة ما يعتقده عامة النَّصارى»[2].

ويتَّضح من هذا، أنَّ الفكر المسيحي يعاني الكثير من التحديات الجوهرية في العصر الحديث، من النوع الذي يستلزم ضرورة التَّخلي عن العديد من المفاهيم الكنسية البالية، ذلك أنها لا تنسجم مع المنطق السليم، والفطرة البشرية السَّوية، مثلما أنَّها تتصادم مع معطيات العلم الصحيح، ومتطلبات الحياة الإنسانية المعاصرة[3].

ثم إن ازدواجيَّة المؤسسات الكنسيَّة، وبخاصة الفاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي،

---

(1) مصطفى خالدي وآخر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص144-145، ط4/ 1390هـ، 1970م، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، لبنان.

(2) الفكر الإسلامي في الرَّد على النَّصارى، ص 526، سبق ذكره.

(3) ينظر: عمر توفيق داعوق: «الروح القدس في اليهودية والنصرانية والإسلام» ص140، من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ع/ 10، عام 1415هـ-1995م، دبي، الإمارات.

في الإبانة بوضوح وصدق عن مقاصدهما الحواريَّة المشبوهة، ممَّا قد يوحي للدارس والمحاور المسلم بأنَّ ثمة تبادلاً للأدوار يجري بسبق تنسيق حواري محكم بينهما، ولا يقصد بالعملية كلها أخيراً سوى تخدير المسلمين والتلاعب بهم، ولئن كانت الضرورة لا تحتم مصداقية هذا الاستنتاج، لكنه على الأقل يدخل في إطار الممكن، والله أعلم.

3 - الارتجاليَّة في بناء الحوارات على معرفة سطحية بالآخر:

في خضمّ الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر يلمس المرء طابع الارتجالية على لقاءاتها التي لا تكاد في أغلبها تتجاوز المستويات الشكلية، لمعالجة قضايا كبيرة بعمق معرفيّ واسع ومقنع، والملاحظ على عدد كبير منها أنَّها تتعاقب على ترديد نفس المعاني والموضوعات بألفاظ متقاربة، وإن كان يتمّ ذلك في ظروف يختلف زمانها ومكانها.

ويعود ذلك في اعتقادي إلى وجود مشكلات حقيقية في مستويات التنظيم والتمثيل، وبخاصة عند الجانب الإسلامي الذي يُنْتَقى له أحياناً من لا حق لهم في ذلك علميّاً وعمليّاً، ولكن يستقدمون للتمثيل تحت الطلب، طبق مواصفات معينة يشترطها الآخر فيهم لما له أكثر من مصلحة في ذلك.

وربَّما لجأ إلى تشجيع العناصر المنبوذة من قبل جماعتها الدينية بتفويضهم حق التمثيل والحديث عمن هم ساخطون عليها[1]، وذلك حتى لا يُسْفر اللقاء الحواري إلا عمَّا يُخطِّطه ويريده الطرف المسيحي، إذن فلا عجب من إجراء حوارات تنم عن سطحية معرفة كلا الطرفين بالآخر عقيدة، وتاريخاً، وواقعاً، كما لا غرو من غثاثة حصيلة لقاءات مرتجلة لا يمثل عن المسلمين فيها إلاَّ في حالات نادرة المؤَهَّلون لها، بحكم التخصص العلمي، والصلاح الديني، والتَّمرس على فن الحوار والإقناع.

4 - التَّحالف المسيحي الصَّهيوني لمواجهة الإسلام وإضعاف المسلمين:

يُؤرخ لأوَّل تحالف بين اليهود والمسيحيين بعام (1505م)، وكان بهدف احتلال العالم الإسلاميّ، وانتِزاع مُقدَّسات المسلمين، وتمكين اليهود من احتلال فلسطين

---

(1) ينظر: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ص: 8، سبق ذكره.

واستدمارها[1]، فمن ثم بَرَزت إلى الوجود الأوروبي ظاهرة الأصولية المسيحية، وتعني المسيحية المتصهينة، وهي من إفرازات تجدُّد الحماس الديني، ونشوء الاهتمام الطارئ بالعهد القديم وبالدراسات العبرية في جامعات أوروبا، ومراكزها الثَّقافية، النشاط الذي كانت من ورائه ثورة الإصلاح الديني البروتستانتية، ولذا فإن أغلب التيارات الأصولية المسيحية هي من الطائفة البروتستانتية.

وتكمن خطورة هذا التَّحالف في أنَّ أتباع حركته يؤمنون إيماناً عمليّاً جازماً بأن اليهود هم شعب الله المختار، «وإن الله أعطاهم الأرض المقدسة، فلسطين، وأنَّه تعالى يبارك الذين يباركون اليهود ويلعن الذين يلعنونَهم»[2]، وقد قاد هذا الاعتقاد المنحرف أصحابه إلى التَّآمر على إنشاء وطن قومي صهيوني في فلسطين، تشتيتاً للعرب، وتحكماً على العالم الإسلامي من خلال أعماقه الحيويَّة، ومناطقه الحساسة. وفي سبيل التمكين لهذا الكيد الاستعماري الفاضح «آزرت المسيحية الغربية، ولا سيَّما طوائف البروتستانت، والفرق المسيحية المتهودة كالسبتيين، وشهود يهوا، إسرائيل مؤازرة المستميت في الدفاع عن عقيدته، وذهبت في مؤازرتها إلى حدّ خذلان إخوانها في الدِّين، مسيحيي فلسطين، الذين عاشوا في فلسطين مئات السنين حماةً للتراث المسيحي بعقيدته، وآثاره، ومؤسساته»[3].

وقد زاد من ضراوة هذا التحالف البغيض، ودَفْعِهِ السياسي منذ ستينات القرن الإفرنجي المنصرم إقْرَارُ المجمع الفاتيكاني بأغلبية ساحقة وثيقة تبرئة اليهود من دم السيد المسيح عليه السلام، وهي العقدة التاريخية التي ظلَّت عالقة بين الجانبين، مع أن الإسلام كان قد عالجها، وفصَّل القول فيها بما لا مزيد عليه من العلم، ولا حق يعلو عليه.

---

(1) ينظر: محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي صلى الله عليه وسلَّم وبلاد الإسلام، ص: 98، ط1/ 1411هـ=1991م. الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر.

(2) محمد فاروق الزين: المسيحية والإسلام والاستشراق، ص245، ط1/ 1421هـ=2000م، دار الفكر، دمشق - سورية.

(3) إسحاق موسى الحسيني: "الخلاف بين اليهودية والمسيحية" ص: 244، من مجلة الأزهر، ج3/ س 41 = 1389هـ = 1969م.

وقد نصّت الوثيقة المشار إليها على التنديد بإظهار الكراهية لليهود واستنكار مضايقتهم في كلّ حين وفي أيّ مكان[1].

هذا . . ولا يخفى من الناحية الرمزية، أن عمليّة الجمع في كتاب واحد بين كلٍّ ممَّا يعرف بالعهد القديم والجديد تعني بالنسبة للمتأمِّل، أكثر من إجراء شكلي، وقد رأى فيها الدكتور أنور الجندي ربطاً عجيباً، من فعل ا لكنيسة البروتستانتية، فأقرّ في ضوء مستجدّات المجمع الفاتيكاني بأنَّ محاولات واسعة للتقارب بين اليهود والمسيحية، قد أخذت في التحقّق بالفعل[2].

وليس من مؤكد لذلك أكثر من خطاب بابا الفاتيكان الحالي لحاخامات اليهود في كنيس روما الكبير بتاريخ 14/ 4/ 1986م، حيث خطب فيهم بما منه قوله: «إن العلاقات التي تربطنا بكم لا تربطنا بأيّ دين آخر، أنتم إخوتنا المفضّلون أو بتعبير آخر نستطيع أن نقول: أنتم إخوتنا الكبار»[3].

وفي متابعة الشيخ الغزالي لهذا الخطاب البابوي الخطير، علّق عليه بملاحظة هامة فقال: «وعندما يتحدث عن المسيح يقول: يسوع الناصري ابن شعبكم»[4].

وفي أيامنا هذه، والدعوة إلى استمرارية الحوار الإسلامي المسيحي على أشدها، يشهد التحالف المسيحي الصهيوني انتعاشاً منقطع النظير في العالم الغربي، وبخاصة، منذ انعقاد أول مؤتمر صهيوني مسيحي دولي، عام 1985م، وفي نفس المدينة والقاعة التي أقيم فيها المؤتمر التاريخي الأوّل للحركة الصهيونية في مدينة بازل بسويسرا عام 1897م، والذي تمّ بمؤازرة ومباركة من بعض القساوسة البروتستانت في حينه، وبعد ثمانية وثمانين عاماً من تاريخ هذا المؤتمر عاد التحالف الصهيوني المسيحي للانطلاق

---

(1) ينظر: "الفاتيكان واليهود" ص: 30، من مجلة العربي، ع/ 91، عام 1966م.

(2) ينظر: أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، ص: 376، ط1/ 1400هـ=1980م، د. م. ن.

(3) نقلاً عن محمد الغزالي: جهاد الدعوة بين عجز الدّاخل وكيد الخارج، ص: 156، ط/ 1408هـ، دار الصحوة، القاهرة - مصر.

(4) المرجع نفسه، ص157.

من الأرضية نفسها، ومن أجل ذات الأطروحات والمبادىء الصهيونية، وقد ضم هذا المؤتمر التحالفي مايربو على ستمائة رجل دين، ومفكر مسيحي، هدفهم جميعاً العمل الجادّ في سبيل حياة دولة إسرائيل الغاصِبة، وتصعيد النضال من أجل أن تكون القدس عاصمتها الأبدية، مثلما قرّروا الانتشار في الأرض لحماية المشروع الصهيوني، وتوسيع نطاقه من خلال نشاط التنظيمات، بوسائل الإعلام والفكر والحركة[1].

وتقرَّر في هذا المؤتمر: الأمر بالتفاني في حثٍّ يهود العالم على الهجرة الدَّائمة إلى الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة مع ضرورة الضغط على الولايات المتحدة والدُّول التي ترتبط بعلاقات دبلوماسية مع هذا الكيان الغاشم، لنقل سفاراتها إلى القدس، ومناشدة العالم الغربي برمّته ليمتنع عن تسليح العرب والمسلمين[2]؛ حتى لا تدور الدائرة على الكيان الصهيوني الذي ما يزال ترقيعه مستمراً بكلِّ خليط متنافر.

وقد دعت إلى هذا المؤتمر، ونظمته منظمة «السفارة المسيحية الدولية»، وهي أوسع انتشاراً وأقوى نفوذاً من كلِّ المنظمات الصهيونية المسيحية التي ظهر العديد منها خلال القرن العشرين المنصرم، وقد أنشئت المنظمة عام 1980م، باجتماع أكثر من ألف رجل دين مسيحي في مدينة القدس المحتلة، ممَّن قَدِموا من أزيد من عشرين دولة للتعبير عن الدَّور المركزي والرمزي لهذه المدينة في الفكر الصهيوني بكافة حركاته، وروافده.

وما أن تأسست بافتتاح مكاتبها بالقسم الغربي من القدس، فسرعان ما «أعلنت عن افتتاح قنصليات لها في أكثر من 37 دولة في أوروبا، وآسيا وأفريقيا، وكندا وأستراليا، يدير مكاتبها رجال دين مسيحيون متعصبون للصهيونية، يحملون مشاعر العداء تجاه العرب والمسلمين بشكل عام، والفلسطين بشكل خاص»[3]، ممَّا يدفع بهم دوماً إلى شنّ هجوم مستمر وغير أخلاقي على كلّ هذه الانتماءات الدينية والعرقية والوطنية.

---

(1) ينظر: يوسف الحسن "مؤتمر دولي للمسيحيين الصهاينة أيضاً"، ص18، من مجلة العربي 326، عام 1986م.

(2) ينظر: الإسلام والمسيحيّة والاستشراق، ص: 272، سبق ذكره.

(3) ص: 21، من مجلة العربي، ع/ 326، سبق ذكره.

ومنظمة السفارة المسيحية الدولية في حملتها الضارية ضدّ الإسلام والمسلمين، تبدو صهيونية أكثر من الصهاينة الخلّص، وأشد من اليهود الأقحاح أنفسهم تمسّكاً بحرفية النصوص اليهودية المحرَّفة والموضوعة.

وككل المنظمات المسيحية الصهيونية، وخصوصاً التيار الرئيس البروتستانتي الأمريكي الذي يزيد تعداده على خمس وسبعين مليون نسمة، تتصور السفارة المسيحية الدولية أن فلسطين هي الأرض المقدسة التي كانت مسرحاً لأحداث العهد القديم، والتي ينبغي أن تجمع الصهاينة من الشتات لإقامة كيان هش لهم عليها[1].

وتمتلك في سبيل تحقيق ودعم هذه الغاية اللئيمة مؤسسات تعليمية وإعلامية ومالية ضخمة، وتستخدم كذلك شبكة واسعة من أجهزة الإعلام، وكما هائلاً من النشرات الدوريّة، بالإضافة إلى مشاريع وبرامج متعددة، كلها ترمي إلى مساندة الكيان الصهيوني على مختلف الأصعدة، والعمل على تنميته، وترسيخ وجوده في أرض لا جذور له فيها. ولكن مبعث الهيبة والقلق، من هذه المنظمات هو حقاً ما تتمتع به، من ثقل شعبي لا يمكن تجاهله، أو التهوين من شأن تأثيره، وحجم قوته؛ إذ تضم بين جنباتها بعض كبار الشخصيات من مختلف الشرائح الاجتماعية والقيادية في شتَّى المجالات الهامة، يعملون بكل ثقلهم ووسعهم لدعم الكيان الصهيوني ماديًّا ومعنوياً، وقد بلغ من نفوذهم السياسي أن ترشح أحدهم عام 1988م، لمنصب الرئاسة الأمريكية، كما سبق أن شغل المنصب في الواقع، وبالفعل الكثير من ذوي الميول الصهيونية[2]، ممّا كان له تأثيره السلبي في توجيه السياسة الخارجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي بأسره، وفي الكوارث التي يُعاني منها بشكل أخصّ الشعب الفلسطيني المجاهد.

وبالنظر إلى فظاعة المآسي التي لحقت بالشعوب المسلمة، جراء هذا التَّحالف المسيحي الصهيوني العائق لأي حوار جادٍّ ومتقدم، بين المسلمين والمسيحيين، كتب

---

(1) ينظر: ص: 20 من المرجع السابق.

(2) ينظر: المسيحيّة والإسلام والاستشراق، ص 246-250، سبق ذكره.

الأستاذ إبراهيم الجبهان بلهجة غاضبة شاتمة، يقول: «لا تستغرب إذا قلت لك: إن النصراني لا يتورع عن افتراسك إذا شعر بالقوة، وهو ماكر حقود يتربَّص بك الدوائر إذا شعر بالضعف، هو مستعدٌ لأن يتحالف مع اليهود، ومع المجوس، ومع الشيوعيين، ومع الوثنيين، ومع عبدة البقر، في سبيل محو الإسلام، وهذا ما وقع فعلاً وما تؤيّده الشواهد وتدعمه البراهين»[1].

فيالها من عوائق ثقيلة وصلبة، تزيد من تعويقاتها قابلية التحالف لدى الكنيسة مع كلّ من يُقَدِّمون لها خدمات في إطار أهدافها، بغضّ النَّظر عن اتجاهاتهم الدِّينيّة والفكرية، وحسبها فقط اتحادهم معها في بعض المنطلقات والغايات، ولو في أَتْفهها وأَخْبثها. وأما المشكلات التي تعصف بالحوار الإسلامي المسيحي، وتهدّد مصيره، ليبقى بلا أمل في مستقبله، فمن جملتها ما يلي:

أ - الإصرار على الحوار التنصيري:

من المنصَّرين من عاهد الكنيسة منذ أيام الرائد ريمون لول (1235- 1316) على وضع خطَّة عمليَّة لإعداد كوادر مدرَّبة على تنصير المسلمين[2]، عن طريق الخطابة وأساليب الإقناع في الحوار، وإفحام الخصم في المناظرة. وقد تعدَّدت محاولاته واتصالاته بالقيادات الكنسية والعلمية لإقناعها بضرورة العمل الموَّجه والمهيء لتنصير المسلمين، فكان من نتائجها أن دأبت الكنيسة وعامة المنصّرين منذ أيَّامه على إعارة اهتمام كافٍ لمنحاه العملي في صنعها وتنفيذها لأي مشروع يهدف بالخصوص إلى تنصير العالم الإسلاميّ، ولهذا الاعتبار نجد من يحلِّل غايَة الكنيسة من الحوار، ويعلّل منطلقها فيه بقوله: «يصعب على المبشرين أن يتصلوا بالناس، وخصوصاً بالمثقفين وذوي المكانة الاجتماعية، فلجأوا إلى وسيلة جديدة سموها «الحوار» تقوم على جمع نفر من المثقفين ذوي الكلمة المسموعة في قومهم على مناقشات علنية لا

(1) معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، ص: 138، سبق ذكره.

(2) ينظر: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص87، سبق ذكره.

تمت بظاهرها إلى تبشير، وإن كانت غايتها الحقيقية زعزعة العقائد بجرّ الناس إلى القول والردّ ثمَّ النفوذ من خلال الأخطاء والجمل المتشابهة إلى التأثير على ذوي النفوس الضعيفة»[1].

والواقع أن شعار «تنصير العالم» أو «من الكنيسة إلى المجتمعات» - يقصد بها المجتمعات المسلمة - أصبح من مبادىء الكنيسة، وتقاليدها المتعارف عليها لَدَى كلّ من لهم حسّ إسلامي حيّ، واهتمام مهما قل، بالعمل الإسلامي، وبكافة قَضايا أمة الإسلام.

وخصوصاً من يخالطون المسيحيين ويلتقون أكثر من غيرهم بقادة الكنائس ورجالها، في مناسبات حوارية كثيرة.

ومن الحقائق الواقعية البينَة أن موجات تنصيرية عنيفة تكتسح العالم الإسلامي اليوم، وهي تتدفق في خطوط موازية أو مصاحبة لدعوات الحوار ولقاءاته!!، ومن مظاهر هذه الموجة المعبِّرة عن حرب كنسيّةٍ معلن شنها على الإسلام والمسلمين، ماتنوء بِثَقله المجتمعات المسلمة من جهود تنصيريّة كبيرة، وكنائس فخمة، ومشاريع ضخمة تقام في معظم ديار المسلمين على امتداد وتعدّد مواقعها القاريَّة، ولا أدلّ على ذلك من الواقع المشهود في أفريقيا التي تعرف بقارة الإسلام، بحكم الانتماء الديني لأغلبية سكانها، إذْ «تشير إحصائية عام 1976م إلى أن الكنسية الكاثولكية تملك في أفريقيا الجنوبية وحدها حوالي مليون ونصف مليون كنيسة، موزعة بين روديسا، وجنوب أفريقيا، ومالاوي، وزامبيا، وزائير، وناميبيا، وبوروندي، وأن مجموع الإرساليات الموجودة في (38) بلداً أفريقيًا، يبلغ مائة واحدى عشرة ألف إرسالية، وأن بعضها يملك طائرات، تنقل الأطباء والأدوية والممرضات»[2].

علماً بأن معظم الدّول المذكورة آنفاً كانت سابقاً مستعمرات إنجليزية، وهي ممّا يقلُّ فيها عادة النشاط التنصيري الكاثولكي مقارنة بالنشاط البروتستاني الذي تبلغ

---

(1) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص257، سبق ذكره.

(2) معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، ص 16، سبق ذكره.

ضخامة وجوده التنصيري أضعاف ما ورد عن نظيره الكاثوليكي .

ومن اللافت للانتباه في هذا الصدد أن هذه الإحصائية الواردة أعلاها ، هي بطبيعة الحال تقريبية ، ولكنها مثيرة باعتبارها حصاد عام الحوار التاريخي الكبير ، المنعقد بين المسلمين والفاتيكان في طرابلس بالجماهيرية العظمى ، ليبيا .

وهذا - فيما أفهم - مما يعني أن خط العمل الحواري مواز لخط النشاط التنصيري ، فهما متكاملان في سبيل غاية واحدة . ومن حيث البحث في إعداد جيوش تنصيرية قويّة وقادرة على أداء مهمتها بالوسائل الحواريّة «فنجد أنّ الحركات التنصيرية في لبنان ، ومن خلال مراكزها ومعاهدها يتخرَّج منها 15 ألف قسيس ومبشر سنوياً من جنسيات مختلفة يتوجه كل واحد منهم إلى حيث يتوجه لأداء مهامِّه بعد أن يتزود بدراسات عميقة حول تعاليم الإسلام ، وأساليب جذب الناس إليه ، والتشكيك في العقيدة الإسلامية . . »[1] .

وممّا يندرج في إطار هذا المشكل الحواري من جانب آخر ، قيام بعض الجهات التنصيرية بإجراءات خفية ، تعكس سوء النِّية تجاه الطرف الآخر ، ومن قبيلها على سبيل المثال : إعداد تقرير مفصّل من قبل الاتحاد النَّصراني للطلبة في بريطانيا ، يتناول مختلف أنواع ما ينشط الطلبة المسلمون بالجامعات البريطانية في مزاولته ، من نشاطات إسلامية خلال عقد من الزمن ، وقد تضمن التقرير نوعيّات الكتب المتداولة بينهم ، والتي قد تكون ذات تأثير إسلامي على الشباب المسيحي ، فضلاً عن المصادر المعتمدة لدى الطلاب المسلمين في مناقشاتهم للمسيحيين أفراداً وفئات .

وقد انتهى التقرير إلى طائفة من التوصيات من أهمِّها : عدم فتح المجال أمام الشباب النصراني للمشاركة في التجمعات الإسلامية ، بالإضافة إلى ضرورة محاولة التشكيك في عموم المصادر التي يعتمدها المسلمون في الحوار الديني[2] .

إلا أنّ من أعجب الأمور حقّاً ، أن يعنى المنصّرون كلَّ العناية لتنصير المسلمين ،

---

(1) ينظر : (الحركات التبشيرية وكيف نواجهها) ص ، 57 ، من مجلة الوعي الإسلامي ، ع/ 156 ، سبق ذكره .

(2) ينظر : . (أخبار قصيرة) ص ، 91 ، من مجلة الأمة ، ع 26 ، س3 ، عام 1403هـ .

بينما يمتد في فراغهم كلّ من موجة المادّية، وتيار الإلحاد، وكافة السلوكيات الشاذة، ومظاهر الانحطاط، والانحراف عن سواء السبيل، حتّى إنّ السَّيدة مارجرت تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية سابقاً، قد حمّلَتْ رجال الدّين المسيحي جانباً كبيراً من المسؤولية الأخلاقيّة والاجتماعيّة في الانتشار الجارف لوباء مرض العوز المناعي (الإيدز).

«وقد شنَّت رئيسة وزراء انجلترا - آنذاك- هجوماً عنيفاً على رجال الكنيسة الإنجليزية وأسقف كانتربري، قائلة: لقد خذلونا، بل إنهم ساهموا في نشر الوباء، لأنهم لم يندّدوا بالممارسات السلوكية التي أدت إليه...»[1]، وجاء الهجوم، بعد صمت طويل، ورفض تامٍّ من الكنيسة الإنجليزية اتخاذ إجراءات التنديد، وتدبير المعالجة لما تفشى في المجتمع البريطاني من شذوذ أخلاقي، وتفسخ اجتماعي، وذلك أن واحداً من كل ثلاثة من رجال الكنيسة - بموجب تقرير ورد الهجوم في أعقاب صدوره - مصاب بالشذوذ الجنسي[2]!!؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كما أن الدين المسيحي في الولايات المتحدة الأمريكية بات يخضع إلى حدّ مسرف وممقوت لقاعدة العرض والطلب التي تضبط مسار الحياة الاقتصادية هناك... ومن ثمَّ «أصبحت الكنائس وتنظيماتها تحاول الاستجابة قدر الامكان إلى رغبات جمهور المستهلكين للبضاعة الروحية والأخلاقية والنفسانية في نطاق الحياة الخاصة والأسرة، وأزيحت منها العناصر الماورائية التي لا تجد نفس الإقبال أو كادت»[3].

إذن، فلماذا كلّ هذه العواصف التنصيرية العابثة؟ ولماذا الاستماتة في لجج المغامرات الطائشة من أجل تنصير العالم الإسلامي بشتَّى السبل، وبمختلف الوسائل والأساليب؟ إلا أنَّه للحقيقة العلمية وللأهمية الدَّعوية، يجب أن يعلم المسلمون أنّه قد راح ضحيَّة حملاتهم التنصيرية، في الوقت الذي ندور معهم في حلقات الحوار المفرغة، أكثر من مليون مسلم بنغالي، تحولوا إلى المسيحية خلال خمس عشرة سنة،

(1) (تاتشر تحمل الكنيسة مسؤولية انتشار وباء الإيدز) ص9، مجلة لواء الإسلام، ع9، س42 =1408هـ=1987م.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص: 9.

(3) الفكر الإسلامي في الرَّد على النصارى، ص 527، مرجع سابق.

وذلك بسبب الفقر المدقع، والأميَّة الغارقة، وانعدام الرعاية الطِّبية اللازمة[1]، وغيرها من الضرورات والحاجيَّات الإنسانية التي تلقى إشباعاً كافياً من قبل البعثات المُجنَّدة لتنصير العالم الإسلامي، ونَخْرِ قُواه البشريّة من الداخل، وإلاّ فما معنى رفض الجانب المسيحي في مؤتمر عقد في جنيف عام 1976م، لمطلب الجانب المسلم بشأن وضع حدّ للنشاط التنصيري في الدّول المسلمة، وبين الأقليات المسلمة[2]. . . ؟

ومن هنا، فلا أهمية إطلاقاً في أن نعيب على المسيحيين محاولاتهم الرامية إلى استغلال فرص الحوار، لفرض المطالب التنصيرية، وذلك طالما أنَّنا واثقون من صحة عقيدتنا، ومتأكدون من تمكنها في أعماق نفوسنا، ومن التمثيل الجيد لتعاليمها في واقع حياتنا، بل إن مبادراتهم التنصيرية ممَّا يمنحنا مبرِّراً منطقيّاً كافياً لمحاولة دعوتهم من جهتنا إلى الإسلام، من خلال لقاءات الحوار، وفي هوامشها. وأظنُّ أنَّ أمامنا من فرص النجاح - إن أحسنَّا استثمارها - ما ليس للطرف الآخر أقلَّه وأدناه.

وعليه، فلا ضير من العمل الجادّ في هذا الاتِّجاه المزاوج بين الحوار والدَّعوة، والخطر كل الخطر في أن نركن إلى الدَّعة ونستسلم للخداع، فنهمل الدعوة إلى ديننا الحق، في الوقت الذي يغزونا الآخرون بغيّهم، وضلالهم.

فقط، حين ننهض لهذا الأمر يجب علينا أن نفقه جيِّداً أن التنصير مالٌ ورجالٌ، مَشاريع مَدْروسة، وتنظيمات سَاهِرةٌ، تضحيات غالية، ومساع حثيثة وجادّة، يعتمد فيها على أساليب ووسائل عصريَّة فعَّالة.

ولعلّ هذه المهمة الإسلامية قد تظل بلا قوام، ما لم نَدعمها بقّوة التوصية الحكيمة التي توصلت إليها الدورة الثالثة عشرة للمجلس العالمي للدَّعوة الإسلامية بطرابلس، في بيانها الختامي، والذي نصَّت فيه على ضرورة التَّأكيد على أهميّة الحوار

(1) ينظر: مجلة الأمة، ص 88، ع / 58، س 5، عام 1405هـ=1985م.

(2) ينظر: أحمد علي المجدوب: (اللقاءات الإسلامية المسيحية . . شبهات ومحاذير)، ص 57، مجلة الأمة ع 70، س 6 عام / 1406هـ=1986 م.

باعتباره أسلوباً من أساليب الدعوة وعرض مفاهيم الإسلام[1] .

وعسى أن يتحقق بمقررات هذا البيان ما يشرع الباب على مصراعيه للانطلاق الدعوي، في حركات حواريّة جادّة .

ب - مشكلة الاعتراف الديني برسالة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام :

بينما تُحتِم العقيدة الإسلاميَّة على مُعتَنقها الايمان بجملة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كشرط أساسي لصحة وتمام الاعتقاد، يقف الكنسيون من الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، موقف المنكر لصحة رسالته، الرافض لمحتواها، على تصوّر الإسلام حركة معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً دقيقاً وفائقاً لاجتثاثها من الأعماق بغية إحكام القضاء المبرم عليها[2] . وهذه النظرة العدائية التي تتوهم أن الإسلام هو العدو اللدود الذي يشكل العقبة المنيعة أمام الموجة التنصيرية بغاياتها المريبة، هي السبب في سكوت اللقاءات الحواريّة غالباً عن مناقشة المكانة الدينية لمحمد رسول الله ﷺ، حيث «إنَّ قضية الوضع الدِّيني لنبيّ الإسلام محمد ﷺ هي واحدة من الإشكاليات المعقدة في الحوار المعاصر بين هاتين الديانتين، فاللاهوتيون من الكاثوليك يعترفون بالدَّور الإيجابي التاريخي لمحمد، لكنهم لم يوفقوا بعد إلى صيغ عبارات إنشائية مناسبة لوصف المآثر المحمديّة، - بصيغ لاهوتية - عقائدية مسيحية. . »[3]، والظاهر أنَّ هذا عين الجحود والإنكار لنبوته حتى الآن من قبل الكنيسة التقليدية والطَّيعين لها خاصة، لا عند كل المسيحيين. ومن منطلق الجحود والاستخفاف يعمد بعض المسيحيين أحياناً في لقاءات الحوار، إلى الحديث عن رسول الإسلام عليه الصلاة والسّلام بما يضيق منه المسلمون، ومن ثم قد تنقلبُ المؤتمرات إلى منابر لتصعيد الشِّجار والنفور بين الجانبين، بدلاً مِمَّا يراد لها ومنها بأن تكون فرصاً للتحاور، وجسوراً لبناء أسس التفاهم والتعاون في حدود المشترك بين المتحاورين، يقول الأستاذ

---

(1) انعقدت الدورة في طرابلس بتاريخ: 5-6/ رجب/ 1369 و.ر. الموافق 22-23/ الفاتح 2001 م.

(2) ينظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، ص: 598.

(3) المسيحية والإسلام من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 142، سبق ذكره.

محمد السماك : «ولقد تعثرت كلّ محاولات الحوار الإسلامي الميسحي التي جرت في السابق سواء بين الإسلام والفاتيكان، أو بين الإسلام والأرثوذكسية أو بين الإسلام والكنائس الإنجليزية، وربَّما يعود أحد أهمّ أسباب التعثر إلى خلل في معادلة الحوار نفسها، ذلك أن الحوار إمَّا أن يكون بين طرفين يعترف أحدهما بالآخر أو ينكر أحدهما الآخر. أمَّا هنا فإن الإسلام يعترف بالمسيحية، والمسيحية تنكره كدين، ولذلك لم تصل مؤتمرات الحوار إلى أبعد من حدود المجاملة والتَّعايش»[1].

ورب سائل عن سرّ هذا الإنكار الكنسي الطويل لمصداقية رسالة الإسلام، وصحة نبوّة خاتم الأنبياء عليه السلام فنجيبه بما أجاب به الشيخ ديدات بكلّ بساطة ووضوح، فقال: «.... أما القبول بنبوة محمد فسوف يكون حدثاً له انعكاسه المباشر على البنية الكنسية، إنَّ الحقيقة في الموضوع، هو أن القبول بمحمد سيفقد البابوية حقّها في الوجود، بل إنّ صرح الكاثوليّكية كلّه سوف يسقط»[2]، ومن الواضح بداهة أن اعتراف الكنيسة دينياً ورسمياً بالإسلام ورسوله الكريم سوف يضع حدّاً لوجودها، إذ يجرّدها من كلّ صلاحيّة دينيّه ولو مزيَّفه، لأنّ ذلك يلزمها بالإيمان الكليّ بكلّ ما بلَّغه الرسول ﷺ عن الله عزَّ وجلّ من عقائد وتعاليم دينية، بما فيها تلك التي تبين فساد عقيدة المسيحيين، وأن كتبهم قد حرّفت، وتدعوهم إلى الإيمان المطلق بمن بشر به المسيح عليه السلام من بعده بأن لا بنيّ بعده، عليهم جميعاً أطيب صلوات الله، وأزكى سلامه.

ج - التحاور على طريقة المفاوضات الدبلوماسية:

وهذا من أكبر المشكلات التي تخامر الحوارات الإسلامية المسيحية المعاصرة، وتعوق فاعليتها في التعاون على البحث عن الحقيقة، إذ تحمل الوفود المتحاورة تفويضات من جماعاتها الدِّينية، بتعليمات محدَّدة، ومواقف مرسومة سلفاً، وفق مبادىء ثابتة، الأمر الذي لا يتيح للمحاور إظهار اقتناعه بما يدلي به الآخر، ولو كان هو

---

(1) (الجوامع المشتركة بين الديانات) ص: 196، من مجلة الاجتهاد، ع / 29.

(2) خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس وحوار البابا مع المسلمين، ص27.

الحق من عند الله، ذلك أنه مطالب بالتقيّد بالموقف الرَّسمي لجماعته، وأي خروج عنه من غير ورود أمر بذلك سوف يترتب عليه استجواب، وتبرير لهذا التَّصرف. إذن، فأي جدوى من وراء الحوار، حين يتصلب المرء في الدِّفاع عن رأي موفده فحسب!! لا عن الحقيقة التي يعتبر العثور عليها من عوامل سعادة الإنسان وكرامته، ومن أسباب استقرار علاقات السلام والتواصل بين الشعوب وكافة ذوي المعتقدات المتباينة.

إن مبدأ المساومة، والمراوحة حول المصالح الخاصة في العمليات الحواريّة، دون الرجوع إلى الحق، أو الالتزام بموازين العدل والإنصاف؛ وذلك جريًا على العرف الدبلوماسيّ، لمن أهم أسباب العقم الحواري، وجدب اللقاءات الدِّينية ذات الحصاد الحواري الهزيل.

د - استغلال الحوارات المعاصرة لأغراض دعائية:

وبخاصة ما تعمله الكنائس الغربية، وما كان يقوم به بابا الفاتيكان نفسه، من التظاهر بالنَّزعة الحواريّة، والاستشهار بالمنهج الحواري في توجيه العلاقات الدينية والإنسانية عامة، ولولا التّحدي الحواري الذي ووجه به من قبل الشيخ ديدات، اختباراً حاسماً لمدى مطابقة قوله لفعله، لما عرفنا حدّاً لتلك الدعايات الإعلامية المملّة.

هـ - نخبويَّة الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر:

لقد ظلَّ الحوار بين الطرفين، ولحدّ الآن نخبويا، برغم مرور مايقرب من نصف قرنٍ على انطلاقه، وقد أخفق هذا الحوار حتّى اللَّحظة الراهنة في التدفق إلى المستويات الاجتماعية الأخرى واستمالة فئات جديدة من الشباب والنساء بما لها -كما وكيفاً- من دور أساسيّ ومؤثر في واقع المجتمعات الإنسانية، ومع كلّ الزخم الإعلاميّ الذي أحيط بالعمل الحواري، ورافق مسيرته المعاصرة، إلا أنَّه لم يتعدّ نطاق المؤسّسات، والنخب الفكرية والدينيَّة[1]، إذ لم يستطع النفاذ إلى أعماق المجتمعات، واختراق الحواجز النفسية التي تجعل بعضاً من الناس يصفون الناشطين الحواريّين من المسلمين

---

(1) ينظر: المسيحية والإسلام من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، 154، سبق ذكره.

بالعمالة، والانصياع لما تمليه مؤسسات الحوار الكنسيَّة، ومن ورائها الدوائر الغربيّة .

وبهذا، فإن عدم تحوّل الممارسة الحواريّة إلى ظاهرة شعبية عريضة، ممّا يعني بكلّ وضوح، أنّه لم يحصل تقدّم حقيقي على مستوى التفاعل الجماهيري معها، في مجتمعات وأقاليم يراد لأفرادها وشعوبها أن تتفاهم وتتسامح، فتتعاون على العيش معاً في سلام وانسجام.

هذا. . وفي نهاية أهمّ ما اتَّسع المقام لعرضه من معوِّقات ومشكلات حواريّة، يجب أن أبادر إلى التقرير بأنه بالرغم من كل تلكم العوائق والمشكلات فإن الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر استطاع أن يحقق بعض النتائج الطيبة، التي وإن كان بعضها هامشياً، وغير مقصود لذاته، إلاّ أن منها ما هو جليل الشأن، وله اعتباره الكبير، بكلّ المقاييس الحواريّة.

وحتى نقف على شيء من ذلك، فمن المناسب هنا تخصيص فقرة مستقلة للحديث من غير إسهاب عن :

ثالثاً: أبرز موضوعات ونتائج الحوارت الإسلامية المسيحيّة :

إن تتبّع معظم اللقاءات الحوارية التي تمّت حتى الآن في مناطق متفرّقة من العالم بين المسلمين والمسيحيين، واستقراء ما أتيح من أدبياتها للباحثين، وعامّة القراء، لممّا يؤكد قناعة الباحث بإمكان تصنيفها من حيث موضوعاتها إلى ثلاث قضايا أساسية ورئيسة، على النحو الآتي:

1 - **التعايش والتعاون** : وهو الموضوع الذي دارت في فلكه كثيرة من اللقاءات الحواريّة، وانطلقت من مبدئه القائم على التفاهم والتسامح، ويعتبر من أبرز نماذجه حوار مالطا الإسلامي المسيحي بتاريخ 22-23/ 11/ 1990م، المنعقد بين جمعية الدَّعوة الإسلامية العالمية والمجلس البابوي للحوار بين الأديان، بعنوان التعايش بين الأديان «الواقع والآفاق»، ويهدف هذا النوع من الحوار إلى دعم أخلاقيات التسامح والتعايش بين جماعات الديانتين، مثلما يتوخى تشجيع روح

التعاون بينهم في كافة المجالات الإنسانية التي تلعب فيها القيم الروحية دوراً مطلوباً، ومعتبراً. ولكثرة هذا الاتجاه الحواري في ظروف التوترات والأزمات الدولية، وبخاصة في هذه العقود الثلاثة الأخيرة، فإنه يشكل اليوم التيار السائد في عالم الحوارات الإسلامية المسيحية.

2 - **محاربة الفساد والظلم والإلحاد**: في فورة ينابيع الإلحاد وفيضان أمواج الظلم والفساد في العالم، لم يجد المتدينون من مسلمين ومسيحيين بدّاً من التنادي لوضع حدّ لطغيان هذ الزحف الماديّ الساحق، وقد الْتَأَمَتْ - استجابة لدعوات وصيحات متعالية - عديدة من المؤتمرات الحواريّة، وتكثفت اللقاءات الدينية في أعلى مستوياتها المؤسسيّة، من أجل محاربة الظلم والاضطهاد، ومواجهة موجة الكفر والإلحاد: والعمل على نشر قيم الفضيلة، ومبادىء الخير، تحقيقاً لكرامة الإنسانية وسعادتها.

ولعل تفاقم الظلم الاستعماري والسياسي الغربيّ على العالم الإسلامي أحد أهمّ الأسباب في تركيز بعض الحوارات وفي مقدمتها لقاءات الأزهر مع الفاتيكان على هذه القضية أكثر من غيرها[1]، بما ينطوي تحتها من ضرورة مواجهة التفرقة العنصرية، ورعاية حقوق الإنسان والحريات العامة، والسعي المشترك من أجل إيجاد حلّ إنساني عادل وشامل لقضية فلسطين المحتلة، باعتبارها أم القضايا الدوليَّة الحديثة والمعاصرة.

وفي إطار تحديد مجالات التعاون على محاربة الفساد والانحراف يرى الأستاذ التويجري من جبهة الحوار من أجل التعايش أنه:

«ينبغي أن يشمل الحوار بين الأديان العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والانحلال الخلقي، وتفكك الأسرة، وانحراف الأطفال، ومقاومة كلّ الآفات والأوبئة التي تتهدّد سلامة كيان الفرد والجماعة، وتضرّ بالحياة الإنسانية»[2]. فهذه وغيرها كثير،

---

(1) ينظر: (الحوار الإسلامي مع الفاتيكان) ص: 17-18، من مجلة منبر الإسلام، ع/6، س 36، عام 1398هـ القاهرة، وينظر: أيضاً: البيانات المسيحيّة الإسلامية المشتركة، ص: 42-43، 64-65، مصدر سابق. ومجلة الوعي الإسلامي، ص113، ع / 162، س14، عام 1398هـ =1978م.

(2) الحوار من أجل التعايش، ص92، سبق ذكره.

من الأمور التي يتوجب التعاون على محاربتها بين الجانبَيْن الإسلامي والمسيحي بمقتضى أسسهما ومبادئهما، وكذلك طبقاً لمقرّرات أغلب حواراتهما.

3 - **القضايا العقدية وما يتعلق بها**: وهي من المواضع التي تتجنب الحوارات الوقوع في مزالقها، ولو أنَّها المدخل الرئيس والحاسم لمختلف الفوارق الدينية الأخرى، ذلك أن التصور السائد في المحافل الحواريّة هو أن التحاور حول العقائد الدينيّة ممّا يعمّق الخلاف والشقاق، ولن يوصل إلى نتيجة يرتضيها الطرفان، بل ينطوي كتاب «الفكر الإسلامي في الرَّد على النَّصارى» على فكرة عدم جدوى التحاور العقدي، الذي يجرّ إلى جدل قد فشل في بلوغ غايته.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ محمد السَّماك: «ممَّا لا شك فيه هو أنَّ الحوار يمكن أن يتمّ بين العقائد، انطلاقًا من بعض نقاط الالتقاء، ولكن هذا النوع من الحوار لا معنى له، ولا فائدة ترجى منه، إلاّ إذا كان يستطيع مساعدة اللقاء بين الأشخاص، مع التقليل من أهمية أفكارهم، وآرائهم المسبقة، ومع إزالة العوائق التي تقف في وجه هذا الحوار»[1]، أترى فأي معنى لهذا الكلام الملتوي، الذي يكاد ينسخ آخره أوَّله؟!!

إن تشاؤم المسيحيين إزاء الحوار العقدي مع المسلمين أو التحرج والحذر من المغامرة بالخوض فيه، بدعوى عدم جدواه، كما أقنعوا بعض المسلمين أيضاً بالتنازل عنه، هو المبرِّر الوحيد لظاهرة تركيز اللقاءات على البحث فقط عما هو مشترك بين الديانات وعمومي بين الأمم دون غيره، مثلما أنه هو العامل المفسر لما تعرضت له القضايا العقدية من إقصاء حواري متعمِّد، بما ترتب عليه عمليا ندرة مباحثة المواضيع الدينية في الحوارات المعاصرة، حتّى إنَّنا لا نكاد نعثر من بينها - إلا بالكادّ - على أمثلة لهذا النوع، أكثر من حوارَيْ: النمسا عام 1977م، وذلك في مؤتمر، مازلت حقا أجهل تفاصيله ونتائجه، عقد تحت عنوان «قضايا الإله في الإسلام والمسيحية»[2]،

---

(1) الجوامع المشتركة بين الديات نص 196-197، من مجلة الإجتهاد، ع/ 29، بيروت.

(2) ينظر: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص15، سبق ذكره.

والخرطوم عام 1980م، وقد تُنُوظِرَ فيه حول مسائل دينيَّة متنوعـة[1]، وإني أعتقد أن من الخطأ أن يدفعنا التَّخوف والإفراط في الحذر إلى العمل بما يقال بـ«أنَّ المجادلات اللاهوتية والكلاميَّة كانت هي الأساس في التنافر المسيحي الإسلام[2] . . .»، كما أن القول أيضاً بأن الجانب العقدي ممَّا «يطرب المسيحيون لمناقشته كثيراً لأنَّه يبعدهم عن الدخول في مناقشات تتعلق بواقع العمل التنصيري في البلاد الإسلاميَّة وضرورة احترام المسلمين وعدم المساس بعقيدتهم وثقافتهم»[3]، يظلّ هو الآخر في أيامنا هذه موضع نظر، واستسفار، إذ قلَّما تدعمه شواهد الواقع المعاصر بحواراته الجارية.

وبرغم ذلك فإنّي أرى أن موضوع العقائد الدينية، وكافة ما يتصل بها من قضايا حساسة، ممَّا يجب أن يعالج في الحوارات الإسلامية المسيحيّة بكلّ جرأة وموضوعيّة، كما لابدّ من الموازنة بين الديانتين في شتى نواحيهما بمنتهى النزاهة العلميّة، وبهمّة البحث عن المعرفة الحقة، باعتبارها فضيلة يشرف بها المرء ويسعد.

ولكن مع سعة آفاق هذا الحوار وتشعّب موضوعاته، فإن التناظر المقنع حول خصوصية رسالة المسيح عليه السلام وعالميتها من الموضوعات التي تستحق قبل غيرها كل اهتمام وتركيز، وبخاصة في الحوارات العقديّة التي هي من وسائل الدّعوة والإقناع برسالة الإسلام العالمية، في مواجهة من يدَّعون الانتماء إلى المسيح عليه السلام، مع تجاهل قوميَّة رسالته، وأهميّة بشارته بالمبعوث رحمة للعالمين، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه.

ومن حيث الوقوف على مدى ما تحقق من نتائج ناشئة عن الحوارات بالرغم من كلّ العوائق والإشكالات المذكورة وغيرها، ولو أني علمت بأنّ إحدى أدبيات الفاتيكان قد قالت عنها: «يحق لنا بعد هذه اللائحة الطويلة من اللقاءات أن نتساءل

---

(1) ينظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ص275 – 278، سبق ذكره.

(2) حسن صعب: الإسلام وتحديات العصر، ص166-167، ط 2/ 1971م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

(3) (التنصير في واقع العالم الإسلامي)، ص64، من جلسات ووثائق لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة الإسلامية، مرجع سابق.

عن نتائج تلك الجهود المبذولة في سبيل الحوار بين المسلمين والمسيحيين، وأوّل ما نلاحظه هو أن الحوار المنظم مازال في عهد الطفولة، حيث تبدو لنا حصيلته ضئيلة وجزئية، ولا عجب من أن نمَنى أحياناً بشيءٍ من القلق واليأس بِشأن مسيرته ومستقبله، ونحن نرى المؤتمرات التي عقدت حتى الآن تنكبّ على الدراسات والدراسات ذاتها، وتخرج القرارات والتوجيهات نفسها! . . . هذه الملاحظة الأولى تلزمنا الإعتراف بأنَّ الحوار المسيحيّ الإسلامي مازال في مرحلة البحث عن لغة مشتركة وطروحات واضحة، وأسلوب جديد»[1]، فإنه لا يسعني وأنا أتصور أن الحوار الإسلامي المسيحي المعاصر في طور التحضير والتطور، ولم ينضج بعد بشكل كامل إلا الإعتراف بأن بعض لقاءاته قد أسفرت عن نتائج هامّة ومُشجعة، مثل حوار طرابلس الكبير المنعقد عام 1976م، في جوّ أشاد من حَفَلَ بهم من الوفود العلميَّة والإعلاميَّة، باتسامه بالصراحة والوضوح، وأن المناخ الحواري كان إلى حدٍ كبير صافياً ومنفتحاً، مما يجعله أسوة حواريّة يجب أن تحتذى، خصوصاً وأن الالتزام الذاتي بالمسؤوليّة كان في ذلك اليوم إحساساً عارماً قد غمر الجميع. ومن أصدق ما يعكس ذلك وأقواه، ما جاء في خطاب الدكتور محمد أحمد الشريف رئيس الجانب الإسلاميّ من قوله: «إنَّ لقاءنا هذا هو لقاء على الصراحة والحق والعدل الإيجابي الجاد، ولذلك نؤكد على منطلقات هامة لابدَّ من أخذها في الاعتبار.

حقاً إننَّا لا نستطيع أن نلغي التاريخ أو نعيد تفسير أحداثه وفقاً لظروف زماننا ولكنها نستطيع أن نستخلص منه العبر لتتمكن من أن نصنع تاريخ عصرنا . . . »[2].

كما أكَّد في الخطاب نفسه على أن مشكلات روحيَّة وماديَّة تجتاح الإنسانية وأنَّها تحتاج إلى حلول ومعالجة مشتركة من الجانبين لصالح الخير والسلام، وذلك في حدود ما يجمعهم على كلمة سواء بِحكم كمّهم الهائل وأغلبيّتهم الساحقة، لا على ما

---

(1) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ص 167، مصدر سابق.

(2) نقلاً عن تقرير صحفي بعنوان (حول الحوار الإسلامي المسيحي)، ص60، من مجلة الشورى، ع ع/ 1، س3، عام 1396 هـ = 1976م، طرابلس - ليبيا.

يفرقهم من خصوصيات اعتقادية وثقافية[1] .

ولعل من أهم ما يستحق التحفظ والحذر في مثل هذا اللقاء التاريخي الهامّ، وباعتباره - فيما أعلم - أكبر حوار إسلامي مسيحيّ حتّى الآن شعبية ووقاراً بالرغم من الموقف الرجعي للجانب المسيحي إزاء إدانة العدوان الصهيوني على الشعب الفلسطيني، واستنكار ممارساته الاستعمارية البغيضة على الأراضي الإسلامية، هو أن البيان الختامي لأعمال هذا المؤتمر الجليل حقا، قد نصَّ في مقرراته وتوصياته على «أن كلا الجانبين يشجع على ترجمة الكتب السماوية إلى جميع اللغات ويدين كلّ محاولة ترمي إلى مصادرة تلك الكتب، أو منع تداولها في أي جزء من أجزاء العالم»[2]، وهذا ممَّا إن تحقق عملياً - مع ملاحظة عدم انطباق الصفة المحددة للكتب المعنيَّة على ما عند الجانب المسيحيّ - فسوف يؤدِّي إلى اختراق هائل للعالم الإسلامي بما لا عهد له بمثله، وسيضع حداً لنهاية مهمَّة المنصِّرين الخيَّامين، ببداية الهجوم التنصيري العلني المباشر على كافة أرجاء العالم الإسلامي بما فيها المناطق المحصَّنة أمام النشاط التنصيري ! وهذا ممَّا لا يخفى ما لشأنه من الخطورة من مكان عظيم.

ومن جانب آخر، فقد عقد في كلّ من عامي 1970- 1977م، مؤتمران للحوار الإسلامي المسيحي في مدينة قرطبة الأندلسية، بأسبانيا المعاصرة، كان من نتائجهما النظريَّة والعمليَّة إلى جانب بروز تيار يدعو إلى الاعتراف بنبوّة سيدنا محمد ﷺ[3]، تمكين الجانب المسيحي أعضاء الوفد الإسلامي من أداء صلاة الجمعة في مسجد قرطبة التاريخي للمرة الثانية والثالثة منذ سبعمائةسنة، وكانت الأولى في سنة 1965م، بمناسبة زيارة المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود لمدينة قرطبة الإسلامية[4] .

وإن ما حدث في هذين المؤتمرين يمثل أنموذجاً رائعاً للحوارات المثمرة حيث كان ما

---

(1) ينظر: نفس الصفحة من المرجع السابق.

(2) البيانات المسيحية الإسلاميّة المشتركة، ص98، مصدر سابق.

(3) ينظر: عبد الكبير المدغري: الحوار بين الحضارات، ص: 40، مرجع سابق.

(4) مجلة العربي، ص 49، ع 223، سبق ذكره.

قاله وأبداه الجانب المسيحي من روح التسامح مفاجأة سارة لنظيره الإسلامي، إذْ أعرب بعضهم عن اعترافهم بنُبُوَة محمد ﷺ ورسالته، مثلما أكَّد جميعهم قناعتهم الحقيقية بأنَّ الإسلام قد لعب دوراً عظيماً في التاريخ الإسباني، وقد ظلم في نيل الاعتراف الكامل بحقه الحضاري في ذلك حتَّى الآن على مستوى العالم الغربي»[1].

وقد جرت في الخرطوم كذلك، في عام 1980 م، مناظرة جادَّة وهادئة، بين علماء مسلمين وقساوسة مسيحيين انتهت بحصاد دعوي وفير من نوعه، حين «قام القساوسة المسيحيون بإعلان إيمانهم، والدخول في دين الله تعالى: الإسلام، عن عقيدة وإيمان . . . ثم قام هؤلاء المهتدون إلى الإسلام بتأدية دورهم وواجبهم في الدعوة إلى الله تعالى، فبلغ عدد الذين أسلموا على أيديهم بعد سنوات من هدايتهم (500) مسيحي»[2].

ولعل هذا ممَّا يؤكد لدى الشيخ ديدات وأنصار منهجه أهمية أن تُعْنَى الحوارات الإسلاميَّة المسيحية بمعالجة المواضيع الدينية، أكثر من غيرها من القضايا التي يمكن اعتبارها متفرِّعة عنها، وتابعة لها.

ويقرب من نتائج حوار الخرطوم ما توصل إليه الوفد الإسلامي برئاسة مفتي سوريَّة الشيخ أحمد كفتارو، في مؤتمر الحوار بين الأديان، الذي أقيم عام 1986 بالعاصمة التشيكوسلوفاكية: براغ، وكان ممَّا ورد في بيانه الختامي الذي شارك في صياغته والموافقة عليه الجانب المسيحي بقيادة د. كارل هاينتس برنهارت، ممثلاً عن عدة كنائس أوروبيَّة ورئيس قسم اللاهوت في جامعة هامبولت في برلين ما يلي من مكاسب إسلامية ثمينة: «الإقرار بوحدانيَّة الله، والاقرار ببشريَّة المسيح عليه السلام، وأنه عبد ورسول لله تعالى، والإقرار بنبوَّة ورسالة محمد ﷺ، التنبيه على قضية الشرق الأوسط، والصراع العربي مع الصهيونية، حث الدول الكبرى على التوقف عن إنتاج الأسلحة النَّووية المدمِّرة، التحذير من المحاولات التي تقوم بها الصهيونية

---

(1) ينظر: المرجع السابق، ص: 50-51.

(2) الحوار الإسلامي المسيحي، ص 278، مرجع سابق.

العالمية لصبغ التَّوسع العدواني بالصبغة الدينية»[1].

هذا، وقد توصل الجانب المسلم في العديد من الحوارات التي كشفت مناقشاتها عن روح طيبة تفيض بالسماحة، والتعاهد على التعاون على احترام الحق، وتحقيق السلام في العالم، والسمو عن كلِّ ماهو ممقوت دينياً وفطرياً، إلى سحب الاعتراف من نظيره المسيحي بأخطاء الماضي، وسلبياته الكثيرة التي يقع عبؤها الأكبر على عاتقه؛ من خلال حملاته الصليبية، وبتحالفه مع الاستعمار الغربي بشكليْه القديم والجديد، وبهذا فإن الجانبين يدعوان إلى طيّ صفحات الماضي، وتجاوزها إلى مرحلة جديدة تقوم على تطوير العلاقات الدِّينية، وصلات الأخوة الإنسانية نحو الأفضل[2].

وهكذا، يظهر لنا من خلال مقررات الحوارات وتوصياتها، أن من أكبر فوائدها إتاحة فرص التلاقي بين الجانبين للمدارسة والمباحثة حول قضايا دينيَّة خاصة وعموميَّات إنسانيَّة مشتركة، كما أننا نلمس من واقع اللقاءات الحوارية أهميَّة المحادثات الجانبيَّة من بعض الأفراد من الجماعتين، مما يعني أن قدراً كبيراً من الأهمية يكمن في فرصة اللقاء في حدٍّ ذاتها، حيث تحاك فيها صلات حواريّة متينة، وتصَحّح فيها التَّصورات الخاطئة، وتنمّى من خلالها معرفة كلّ من الجانبين المتحَاورين بالآخر، على المستويات الشخصية والرَّسمية، على حدّ سواء، وقد سجَّل أحد المهتمين بهذا الشأن، ما تحقق لصالح الإسلام من تطوّر إيجابي في نظرة الآخر إليه، من خلال التقارب الحواري، فقال: «والذي يظهر من خلال التتبع الدقيق لحركة الفكر المسيحي في تحليله للإسلام، هو أن هذا الفكر يتجه نحو الحقيقة، وأنَّه متأثر إلى حدٍ بعيد بأمرين اثنين يملكان عليه أقطاره: الأمر الأول هو ما في القرآن من صفاء التوحيد، الأمر الثاني: هو انسجام صورة المسيح عليه السَّلام في القرآن مع هذا التوحيد»[3].

---

(1) نقلا عن المرجع السابق، ص 280.

(2) ينظر: البيان الختامي للقاء شامبزي (سويسرا) عام 1976م= 1396هـ، في كتاب البيانات المسيحية المشتركة، ص: 105-106، مصدر سابق.

(3) الحوار بين الحضارات، ص 41، مرجع سابق.

وممَّا يصدق هذا القول ويؤكِّده ما تضمَّنه ردّ محمد فريد وجدي على مغالطات كاتب قبطي من قوله: «وقد ظهر في إنجلترا وألمانيا وهولندا وفي كلّ بقعة من أوروبا مذهب الموحِّدين تحت إسم Unitarisme، رفض أهله التثليث وما يتبعه واتخذوا لهم كنائس خاصة. وهم يعدّون في كلِّ أمَّة بالملايين وأكثر ما يوجدون في إنجلترا وأمريكا، ولسنا نشك في أن هؤلاء هم طليعة الإسلام في أوروبا»[1].

وبجوار تيارات الموّحدين المنشقين عن عقائد الكنيسة وتعاليمها يتوفر عدد من رجال الكنيسة ممَّن لم تشغلهم الأهواء، ولم يحفلوا بغير الحق، فوجدوا في عقيدة الإسلام وتعاليمه ما يدفعهم إمَّا إلى اعتناقه والدفاع عنه، أو إنصافه ومعارضة نقيضه. ومن أصحاب هذا الموقف الأخير: الحبر الكبير هانس كونج الذي يعدّ واحداً من ألمع علماء اللاهوت الكاثوليكي، ولكنه مع هذه المكانة اعترف بنبوة محمد ﷺ، وبأن القرآن وحي من عند الله تعالى كغيره من الكتب الموحى بها من الله عزَّ وجل.

وقد طعن هذا العالم المنصف في الزعم المسيحي بقداسة البابا وعصمته، كما ذهب إلى مناقضة عقيدة التثليث الكنسي، وقال بأن التفسير المسيحيّ لها غير مقنع، وأن ذلك سبب الضعف أمام الحجج الإسلامية المضادة لهذه العقيدة الدخيلة على الديانة المسيحيّة. ونحو ذلك من المخالفات التي جرَّت عليه نقمة البابا فجُرِّدَ من كافة صلاحياته الكنسيّة، بما فيها التمثيل عنها والإشراف على الطلاب القساوسة، وإلغاء كرسيّ الأستاذيّة الخاص به، فهو بذلك مغضوب عليه من قبل الكنيسة وأتباعها[2]، وذلك لأنَّه آمن بالحق الذي تتشدّق الكنيسة بالسعي إليه من خلال حواراتها! واسترخص كلّ غال ونفيس في سبيل إعلانه والالتزام به.

وقد عرض كتاب: (المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار)، لحوارٍ له شيّق وموضوعي، عن الإسلام والمسيحية مع أحد أشهر المستشرقين الألمان: وهو

---

(1) (المسيحية في الإسلام)، ص: 643، من مجلة الأزهر، س 9، = 1357هـ.

(2) ينظر: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ص 30-31، 49- 52، 82- 83، 87، 96.

البروفسور (يوسف فان إس) الذي لا يقلّ عنه كذلك في الانحياز إلى الحق، والتمسك به، وقد قال مؤلف الكتاب عن اللاهوتيّ هانس كونج بسبب أفكاره الجريئة: «هانس كونج قال ووضح ودلل على كلّ ما قال بأسلوب علميّ مقنع، مَا لَمْ يجرؤ عليه مسيحي منذ القرن الأول الميلادي إلى يومنا هذا، وهذا باعتراف كثير من علماء اللاهوت المستشرقين»[1]، كما قال أيضاً عن الكتاب الذي تضمَّن حواره مع المستشرق الألماني يوسف فان إس: «إنَّ هذا الكتاب من أخطر ما ظهر في الغرب عن المسيحية من أحد رجال الكنيسة والعلماء الكبار، وإن كان ليس فريداً في كلّ ما جاء فيه، سواء بالنسبة إلى المسيحية أو الإسلام، فلقد سبقته كتابات في بلاد الغرب، والولايات المتحدة ولكنها لم تصل إلى درجة كتابنا هذا في الوضوح، ولم تثرما أثاره من ردود فعل بلغت أكثر من خمسين تعليقاً ونقداً باللغة الألمانية وحدها»[2].

وربَّما من التأثيرات الجانبية أيضاً للحوارت الإسلامية المسيحية المعاصرة والانفتاح الديني، ما شهدته الكنائس الغربيَّة في عقود القرن العشرين الأخيرة من موجة ارتداد قويّة، وعلى نطاق واسع من المفكرين وكبار الشخصيات على كافة الأصعدة الحيويّة، «ومن هؤلاء مثلاً أكثر من مائتين، من علماء ودكاترة اللاهوت، وأساتذة الجامعات في أمريكا الذين اشتركوا فيما أسموه (ندوة عيسى) التي استمرت ستّ سنوات أثمرت في العام 1993م، نتاجهم القيّم وهو كتاب (الأسفار الخمسة) إشارة للأسفار القانونية الأربعة مضافاً إليها سفر توماس المكتشف حديثاً في نجع حمادي بمصر، كما ظهرت في الغرب في القرن الماضي كمية كبيرة من الأدب النَّاقد لموقف الكنيسة ولفكر بولس اللاهوتي»[3].

ومن الحقائق الدينية والتاريخية التي انتهت إليها بحوث البروفسور فنك، مؤسس ندوة عيسى ضرورة تجريد شخصية المسيح عليه السلام من كافة الأوهام الكنسية التي

---

(1) المرجع السابق، ص 89- 90.

(2) المرجع نفسه، ص: 96.

(3) المسيحية والإسلام والاستشراق، ص =271-272، سبق ذكره

علقت بها عبر التاريخ، إذ ليس المسيح عليه السلام على جلالة قدره، أكثر من عبد من عباد الله وأحد رسله إلى خلقه[1]. ولن يستنكف المسيح، طبقاً للقرآن الكريم أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون.

ومن نتائج الحوارات كذلك وهي كثيرة ظهور عدد من جمعيات الحوار الإسلاميّ المسيحي في ثامن وتاسع عقود القرن العشرين[2]، وضعت لنفسها من منطلق الصداقة بين أعضائها، هدف تنشيط حركة الحوار والتقارب بين الجانبين المسلم والمسيحي، لما من شأنه أن يدعمّ أواصر التعاون بين الشعوب، ويوطّد لأركان السَّلام، والانسجام في العالم.

ومن الآثار الطريفة لظاهرة الحوار الإسلامي المسيحي على الحياة الاجتماعية، وعلى النتاج الأدبي في المجتمعات الإسلامية، أن الشاعر شبلي ملاط، وهو مسيحي من لبنان، امتدح النبي ﷺ وأصحابه بقصيدة رائعة، قال فيها:

من للزمان بمثل فضل محمد .:. وعدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب .:. وأعزّها بالآل والأصحاب[3]

ولعل الشاعر الفاضل كان متجاوباً في هذا الصنيع مع ما فعله أمير شعراء العصر، المرحوم أحمد شوقي الذي هتف بأمجاد المسيح عليه السلام في أكثر من مائة قصيدة[4]، نبّه بها المسيحيين وغيرهم إلى ما حملته دعوته لأمَّته من قيم الرحمة والمودَّة والسَّلام، وإلى ما كان يتمتع به من وداعة وروحانية.

هذا .. ولئن كانت الحوارات الإسلامية المسيحية - من حيث نتائجها - دوما في

---

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 98-99.

(2) ينظر: الإسلام والمسيحيّة من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 152، سبق ذكره.

(3) نقلاً عن مجلة الأزهر، ص 461-462، س 25، عام 1373هـ= 1953 م.

(4) ينظر: بعضًا منها في مقال: أحمد عبدالرحمن عيسى: "السيد المسيح في شعر شوقي" ص: 155-160، مجلة العربي ع/ 181 عام 1973م.

صالح المسلمين، بحكم ما توصل إليه أحد الباحثين من نتائج سجَّلها في خاتمة دراسته إياها، قال فيها: «من خلال متابعة الحوار الإسلامي المسيحي توضّح أنَّه تحوَّل الكثيرون من المسيحيين عن دينهم، ودخلوا في دين الله تعالى الإسلام، على حين لم يسجِّل التاريخ قطّ هزيمة للمسلمين في حوارهم مع المسيحيين، ولم يحدث أبداً أن تحوَّل مسلم عن دينه، ودخل في المسيحيّة من خلال الحوار بين المسلمين والمسيحيين، الأمر الذي يؤكد أهميَّة ودور الحوار في الدعوة إلى دين الإسلام»[1]، فإن الحوار الذي أجري في (غانا) بغربيّ أفريقيا، بين تسعة مسلمين وأحد عشر مسيحياً يُعَدُّ حتى الآن - فيما أعتقد - أخطر حوار من نوعه، وكان هدف هذا اللقاء الذي نظم عام 1974م، تحت إشراف مجلس الكنائس العالمي!، هو «التحاور في الطرق التي يمكن للمسلمين والمسيحيين أن يعتمدوها من أجل التعارف والمشاركة على صعيد معتقداتهم»[2]. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية رسم الملتقى الحواري خطوات عمليَّة تؤدِّي بالجانبين إلى ما يستهدف إنجازه من مهمة مستدرِجة نحو حضيض التنصير، منها: إقامة صلوات الجمعة بمناسبة تدشين الجامع الجديد ضمن جامعة غانا، كما أن المسلمين استجابوا دعوة الجانب المسيحي، وحضروا معه قداس الأحد الكنسيّ!![3]. ومنها أيضاً أن اللقاء قد نصّ على تبادل الأخبار المهمَّة لتنمية الثِّقة والصداقة المتبادلة، فضلاً عن تبادل التهاني في المناسبات الدِّينية، والعمل على إنشاء مؤسسات أبحاث، ومراكز للحوار، وتبادل المعلومات[4].

وقد ذهب إلى أبعد من كلّ ذلك، حين طالب بألاَّ يقتصر التعليم الديني في المدارس على ديانة واحدة[5]، بل يجب أن يشمل الديانتين، حتى ولو كانت المدرسة لا تضم إلا تلاميذ من ديانة واحدة، وظاهر من هذا أنَّه مخطط تنصيري لتعميد أطفال

---

(1) الحوار الإسلامي المسيحي، ص: 463، سبق ذكره.

(2) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة، ص57، سبق ذكره.

(3) ينظر: المصدر نفسه: ص: 57.

(4) ينظر، المصدر نفسه: ص59.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص: 59-60.

المسلمين، في مختلف المدارس، حتى التابعة منها للمسلمين أنفسهم، المدارة من قبلهم ومن أخبث ما يمرره هذا اللقاء بكلِّ مكر ودهاءٍ من أفكار هي وسيلة للتنصير والاحتواء، قولهم: «إن الحوار يتجسد في اللقاءات الشخصية والتعاون في العمل والصلاة، كما يتجسد في التزامنا المشترك والمثابر الاتصالات المحلية..»[1]، وتعني هذه الاتصالات؛ السماح للمنصِّرين بانتهاك حرمات بيوت المسلمين، والدخول عليهم متى شاؤوا لتنصيرهم وذويهم.

وعلى صعيد آخر يعكس هذا اللقاء تخوف الجانب المسيحي من أن يعتبر الحوار عند المسلم نوعاً من المقارنة بين الديانات[2]، ولأن هذا ليس في صالح المَنصرين على الإطلاق، فلذا يتجنبونه، ويُحذِّرون منه.

وبهذا يتأكد القول بأنَّ هذا اللقاء الحواري مع المسيحيين في غانا لهو أخطر حوار على المسلمين ولا سيما بالنظر إلى تعليماته، ومقرراته.

ولعل سبب ذلك عائد إلى انعدام التوازن بين الجانبين من كافة الجوانب، ومن هنا نجد أنفسنا أمام واحدة من أهمّ وأخطر قضايا ظاهرة الحوار الإسلامي المسيحي المعاصرة، ومن ثم فلا بدّ من الوقوف عندها ولو قصيراً.

رابعاً: ما مدى التَّوازن بين الجانبين الإسلامي المسيحي في العدد والآليات الحوارية:

الحقيقة المؤسفة هي أن للجانب المسيحي من الإمكانات الحواريَّة، ما لا يوازن فيها بنظيره الإسلامي، حيث إن كفة الموازنة راجحة لصالحه، وبخاصة في كلِّ ما يتصل بالحوار المعاصر من جوانب فنِّية وتنظيميّة، وغيرها من الأجهزة والوسائل. وهذا ما سبق إلى إقراره الدكتور محمد فتح الله الزيادي مشيراً إلى خطورته، فقال: «تعتبر مسألة الحوار الإسلامي المسيحي من أخطر القضايا التي تواجه العمل الإسلامي

(1) ينظر: المصدر نفسه: ص: 61

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص: 61

في العصر الحاضر، وتكمن خطورتها في انعدام التوازن بين طرفي الحوار من حيث مفهومه، ووسائله، ومستهدفاته»[1].

ولعل الجوانب الآتي ذكرها تمثل عيّنات كفيلة بتصوير واقع اختلال التوازن في العمل الحواري الإسلاميّ المسيحي، بما يستحث الجانب المسلم على إعادة الأمور إلى نصابها بتحقيق التفوق، وإلاّ، فبضبط المعادلة الحواريّة المتوازنة على الأقل.

1 - **في فن التحاور**: يحاور باسم المسلمين كثير ممَّن لا يدركون جيداً ما للحوار من مقتضيات وأساليب، ومن الثابت أن للحوار قديماً وحديثاً أصولاً فنيَّة، وقواعد علميَّة، ولخصوصية قضيّته، وأهميّة شأنه، يستطيب البعض أحياناً استخدام مصطلح: علم الحوار، أو فن الحوار، إشارة إلى أنه ليس عملاً اعتباطياً يُقْدِم عليه المرء عفوياً من غير علم بأساليبه المقنعة، وبأخلاقيته المؤثِّرة، وإنَّنا نلاحظ أن كثيراً من دعاتنا بمن فيهم بعض الكبار، ينقصهم هذا الجانب الذي تميّز فيه السلف من أهل العلم والدّعوة، وهم من ورث منهم الجانب المسيحي أسباب تفوقه الحواري علينا، فأصبح المسلم مع قوَّة الحقّ الذي يحمله ويدعو إليه، يتَّسم بضيق الأفق في الحوار مع الآخرين، وقد يلجأ إلى إثارة العواطف، وإلهاب المشاعر بخطابات قد تنجح في توجيه المسلمين، وردهم إلى الجادّة، ولكنها عديمة الجدوى مع الآخرين، ولا سيما من لا ينفع معهم سوى الحوار الجادّ والتناظر العلمي المقنع.

2 - **في العدة العلميّة والزاد الثقافي**: من المفارقات التاريخية بين ماضي المسلمين وحاضرهم، «أن معرفة الجدليين المسلمين بالمسيحية كانت أفضل بكثير من معرفة جداليي المسيحية بالإسلام . . .»[2]، وهذه الغلبة العلمية والحضارية بعامَّة، التي كانت للمسلمين على غيرهم، هي التي أفرزت علم مقارنة الأديان الذي انتقل مع الأيام إلى العالم الغربي، فبرز فيه، وأصبح يُوظفه ضدّ من أنشأه، وكَلأه بالتنمية في

---

(1) جلسات ووثائق لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك، ص: 62 سبق ذكره.

(2) رضوان السيد (العلاقات الإسلامية المسيحية، ثقافة الجدل وثقافة الحياة)، ص12، من مجلة الاجتهاد، ع/ 28.

عدد كبير من المؤلفات التي قال عنها توماس أرنولد: « . . . منذ القرن التاسع الميلادي تبدأ سلسلة طويلة من الرسائل المنظمة في الدفاع عن صحة الديانة الإسلامية، وقد ظلّت قوية نشيطة حتّى الوقت الحاضر، وإنَّ عدد أمثال هذه المؤلفات التي وجهت ضدّ العقيدة المسيحيَّة، كان أكبر بكثير ممَّا كتبه المسيحيون في تفنيد الإسلام»[1].

الأمر الذي يدلُّ على التفوق العلميّ الذي كان عليه المسلمون، وعلى معرفة دقيقة بالمسيحية، وتبصُّر بمكامن الخلل ومنافذ النقض فيها بالمعقول والمنقول، وقد استخدم المسلمون في حواراتهم مع أهل الكتاب مختلف المناهج المتاحة لهم[2]. ولكننا اليوم في وضع منقلب ومغاير لما كان عليه؛ حيث إن السبق فيه فنيّاً وعلميّاً محسوب لصالح الجانب المسيحيّ، الذي أفاد من تراثنا، بعكوفه على إعداد رسائل ودراسات علمية متخصِّصة، عن أفكار ومناهج أبرز من نعتزّ - من علمائنا - بدورهم الحواري ونفخر بجهودهم الإبداعية في تعمير علم مقارنة الأديان، وذلك فيما بلغني عن الدكتور عارف على النايض - حفظه الله - وممَّا يظهر لي أنه كان لاهتمامهم بالتراث العلمي الإسلامي أثره الكبير، في هذا التَّفوق الذي أحرزوه علينا حول موائد الحوارات، حتى إن الجانب المسيحي قد تجرَّأ في حوار طرابلس الكبير على النظر إلى نظيره الإسلامي بعين الضعف العلمي، وسذاجة معرفته بالمسيحية، وهذا فيما يستخلص من التوصية التي تقول: «يتمنى الجانب المسيحي من الجانب الإسلامي مواصلته الأبحاث التاريخية والتفسيرية الرصينة المتعلقة بتقييم الكتاب المقدس (تقييماً) علمياً صحيحاً»[3].

وهذا بكلٍّ بساطة ووضوح بمثابة قولهم للجانب الإسلامي إن ما توفر لكم من معرفة مضمونية وتقييميَّة بالكتاب المقدس، فهو لحدِّ الآن منقوص ومشوه، فلذا لا يجدي في الحوار شيئاً، إذ لا يغني من العلم إلاَّ قليلاً. ولعله لهذا السبب أو غيره عمد

---

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص776، -سبق ذكره.

(2) ينظر: قواعد المنهج عند ابن حزم الأندلسي، ص: 98، سبق ذكره.

(3) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة، ص 98، سبق ذكره.

الأستاذ بسام عجك في ختام دراسته إلى التوصية بـ«ضرورة عدم مشاركة أيّ مسلم أو داعية إسلاميّ مباشرة في أي حوار مع المسيحيين، عند ما يُدْعى إليه على المستوى الرسمي، إلاَّ بعد الرجوع إلى العلماء والمفكرين المسلمين المتخصصين بالعقيدة المسيحيَّة، حتَّى لا تُسجَّل نقاط سلبيَّة على الإسلام»[1].

وعلى أمل العودة إلى المتخصصين في هذا الشأن، يتساءل المرء عن: كم من المسلمين من يعرف بدقة وعمق المسيحية وما يتصل بها من تاريخ وفرق، وعقائد، في كل من المصادر الإسلامية، والمعتمدة لدى المسيحيين بكافة طوائفهم التي يتعذر حصرها؟

3 - **في الأجهزة والنشرات الحواريَّة** : لقد سجل الجانب المسيحي تقدّماً ملحوظاً، في إنشاء الأجهزة، ونشر الأدبيات الحواريَّة، حيث قد أنشأت الفاتيكان أمانة السِّر الخاصة بشؤون غير المسيحيين، بعضوية عدد كبير من أساقفة الكنائس في مختلف أنحاء العالم، بالإضافة إلى لفيف من الخبراء من مختلف الديانات، مثلما أن مجلس الكنائس العالمي قد أسس هو الآخر بمقره في جنيف لجنة مختصة بالحوارات دون غيرها، ولا يُوَازِنُ على مستوى العالم الإسلامي هاتين اللجنتين المسيحيتين في نشاطهما، وفاعليتهما سوى مكتب الحوار الديني والثقافي لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بطرابلس.

وقد عمل الجانب المسيحي في هذا الصَّدد على فتح مراكز ومعاهد علميَّة للدراسات الدينية في مناطق متفرقة من العالم، من أشهرها: المعهد البابوي للدراسات العربيَّة الإسلامية، في روما، ومركز الدراسات للعالم العربي الحديث في بيروت[2]. وغيرها في مصر والعراق، وموزامبيق والهند.

ومن حيث النشر، تصدر لجنة فاتيكان الحواريَّة نشرة فصلية تعنى بدراسات لاهوتية عن الحوار الديني[3]، كما أن للمعهد البابوي كذلك مجلة علمية متخصِّصة.

---

(1) الحوار الإسلامي المسيحي، ص 464.

(2) ينظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ص 411، سبق ذكره مراراً

(3) ينظر: الحوار بين الحضارات، ص: 34.

«تعنى بالحوار الإسلامي المسيحي، وبالدراسات العلميَّة الأكاديمية الإسلامية المسيحية»[1]. ويوجد في ألمانيا أيضاً كتاب حولي يصدر تحت عنوان (حوار الديانات).

وأظنُّ أن بِحسبنا هنا ما أجمله أحدهم في الحديث عن هذه الظاهرة التي لا سبيل إلى الإحاطة بها على نحو مفصَّل، فقال: «وتكاد لا تخلو أيَّ مدينة كبيرة من مدن أوروبا من مؤسسة علميَّة أو ثقافية، ترعى وتنظِم ندوات للحوار الديني أو تنشر أبحاثاً تخدم هذا الهدف»[2]. وكل هذه المؤسسات والوسائل العلميَّة والإعلامية تروِّج لثقافة الحوار الكنسيّ ومناسباته المتعددة، لتوهم الآخرين بأن ثمة محاولات جادَّة، وإرادة صادقة تتوفر لدَى الكنيسة وعامة المنصرين لإشاعة روح الحوار الديني، وتحقيق طموحات الجماعات الدينية الأخرى في لقاءاته.

ولكن، مع ذلك فمن المحزن حقّاً أنَّ ما عند الجانب الإسلامي من تلك المؤسسات والوسائل، لا يقارن إطلاقاً - من حيث الكمّ - وفقط، بالمشهورة منها لدى الجانب المسيحي، بكافة فعالياته الدينية والفكرية.

4 - **في مجال التخطيط والتنسيق الحواري**: من الأمور التي أتصورها - وربَّما على الخطأ - أن كثيراً من المهتمين من الجانب الإسلامي، بمتابعة حركة الحوار الإسلامي المسيحي، وبحضور مؤتمراته يعوزهم التقدير الصحيح لمبلغ الجهود التخطيطية والتنسيقية الهائلة التي تبذلها المؤسسات المسيحية في تسيير المهمَّة الحواريَّة: من إعداد مخطط ومدروس مسبقاً، وانتقاء جيّد ودقيق لمن يمثلون عنها من ذوي الكفاءات الحواريَّة العالية علميّاً وفنيّاً، وهذا، بينما نعلم جميعاً أن أغلب من يحاور باسم الإسلام والمسلمين لا يخضع لأي إعداد أو استعداد! وقد أفاض الدكتور عارف عليّ النايض في محاضراته الدراسيَّة على طلبة قسم الدراسات العليا بكلية الدعوة الإسلامية، في الإفادة علماً بمختلف جوانب

---

(1) عبد الكبير العلوي المدغري: حوار فكري إسلامي مسيحي حول الدين بين الوحدة والتشابه، ص 23 د. م. ن.

(2) المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ص 7، سبق ذكره.

التخطيط الدقيق، والإعداد الرهيب للحورارت في المؤسسات المسيحيَّة، وبخاصة الفاتيكان، والملاحظ في ذلك هو أن معرفة العدوّ - وهم الجانب الآخر من الحوار - من أهم الألوليات في عمليات الإعداد الحواري، وغالباً ما يتطلب الأمر جمع معلومات شخصية وفكرية عن كلٍّ عنصر من الوفد الآخر، في حالة ما يمكن ذلك قبل اللقاء بوقتٍ كافٍ، وبشكلٍ علميّ دقيق[1]. أمَّا من الجانب الإسلامي فإن همَّ الحوار وهيبته لا يرتقيان إلى هذا المستوى من التخطيط والإعداد، ممَّا ليس استغراق صياغة خطاب بابوي مدَّة ستّ سنوات[2] سوى صورة صادقة وحيَّة لما تتمتع به الدوائر التنصيرية من دقة وتركيز في الإعداد والتصميم، وجدَّية في العمل والإنجاز. وفيما يخص التنسيق بينها، ففي مقابل تشتت الجهود المسلمة، برغم قلَّتها إذا ما قورنت بغيرها، يوجد سعي تنسيقي مشترك بين لجنة الحوار الفاتيكانية واللجنة المماثلة لها بمجلس الكنائس العالمي[3]. ففي إطار التنسيق تقيم عادة هذه الأخيرة لقاءات تشاوريَّة، قد يُسْتدعى إلى بعضها بعض المسلمين[4].

5 - **في مجال التقييم والتقويم**: نظَّمت لجنة الحوار التابعة لمجلس الكنائس العالمي مؤتمراً في (تايلند) عام 1977م بعنوان (استشارة لا هوتيّة بشأن الحوار ضمن الجماعات الدينية)، وقد قيل في وصفه: لقد كان هذا المؤتمر محاولة فريدة من نوعها حيث انكبَّ على تحليل شامل وجادّ لكلِّ الجهود والمبادرات التي بذلتها الكنائس في السنوات الأخيرة من أجل الحوار مع مختلف الديانات والمعتقدات[5].

وإنّ فكرة إقامة حلقات دراسيَّة، وإعداد تقارير علميَّة عن المسيرة الحوارية،

---

(1) هي مجموعة قضايا طرحها الدكتور وناقشها معنا في محاضرته عن الحوار الإسلامي المسيحي، تحت مادة مقارنة الأديان، المقررة على طلبة شعبتي الدعوة والحضارة والقرآن وعلومه، وكان ذلك في صبيحة الثلاثاء بتاريخ 15/ 2/ 1999م في كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس.

(2) ينظر: تنصير العالم: ص 43. سبق ذكره.

(3) ينظر: توجيهات في سبيل الحوار، ص 162-163، مصدر سابق.

(4) ينظر: البيانات المسيحيَّة الإسلامية المشتركة، 109-110، 129- 130، مصدر سابق.

(5) توجيهات في سبيل الحوار.. ص 163، سبق ذكره.

والمراحل التي تم التَّوصل إليها مـن خـلال الآثـار والنتـائج التـي أحـرزت، انطلاقـاً مـن واقع الاعمـال والبيانـات الختاميـة الصـادرة عـن كافـة اللقـاءات السـابقة، تظـلُّ مسـألة حيويَّة، وشأناً إسلامياً فائق الأهميَّة، وخليقاً ببالغ الاعتبار، الأمر الذي أكَّدته الـدورة الثالثة عشرة للمجلـس العـالمي للدعـوة الإسـلامية في طرابلـس، في توصيتهـا بضـرورة التقييـم الموضوعـي للمراحـل التـي قطعهـا الحـوار بـين الجـانبين الإسـلامي والمسيحي، وذلك من أجل الاستثمار، والتقويم.

وكما أن من التقاليد الراسخة في هذا السياق بمكتب الحوار الفاتيكاني مع المسلمين «إقامـة حلقـات بحـث منتظمـة ومحـاضرات في الفاتيكـان، يُدعـى إليهـا بصفـة خاصَّـة العلمـاء واللاهوتيـون المسـلمون البـارزون»[1]، ولكـن مـن النـوع الـذي يرضـى عنهـم الفاتيكان لا من يتهرَّب البابا من مباراتهم علنيّاً على ساحات حوارية مفتوحة.

وهكـذا، يتضـح لنـا أن المسـلمين في حواراتهـم مـع المسـيحيين بحاجـة إلـى إعـادة النظر، بصورة شاملة ومتكاملة في مختلف جوانب وقضايا هذه الحوارات، وخصوصاً في المنطلقات والغايـات، وفي مسـتوى التخطيـط والتنسيـق، وفي الآليـات والاعتبـارات التمثيلية، بحيث تصبـح هـذه الحـوارات وسيلة كريمـة نحـو غايـات إسـلامية وإنسـانية شريفة، لا أن تتحول هي إلى غايات في حدِّ ذاتها، أو تكون مجرَّد وسائل إعلاميَّة، لا أكثر منها ولا أقل.

والحقيقة هي أنَّ على المسلمين أن يتساءلوا عما يريدونه من الحـوارات، ومـع مـن سيتحاورون، وفيم، وعلام، وكيف؟

هل الأفضل هو الحوار بين الشخصيات أم بين المؤسسات، وخصوصاً إذا ما أضفنـا إلى معلوماتنا القليلة أن الكنيسة الكاثوليكية تبدو مضطَّرة إلى الحوار مع الآخرين، بقـدر اضطرارهـا إلـى الحـوار الداخلـي مـع نفسـها، إذ يتصـور كـارل رايـنر، وهـو مـن كبـار اللاهوتيين الكاثوليك، أنَّه لا يتوجب على المسيحيين أن يضعوا بحسبانهم مسقبلاً مسألة

(1) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 148، سبق ذكره.

الهيمنة الدينية على الجميع، كما كان ذلك في سالف الأزمنة، لأن مجتمع الغد سيكون تعدُّدياً وستشغل فيه الكنيسة موقفاً متواضعاً، وستصبح عندئذ أرضاً صغرى، بل سيتوجب عليها أن تحسب حساب التعددية داخل المسيحية ذاتها[1]. والواقع أن حقيقة هذا التَّصور تتبدّى بقوة في أيامنا هذه أكثر من أي وقت سابق، وحيث إن الكنيسة تجد نفسها فريدة في مواجهة ما يتهدَّدها من مزيد الانشقاقات، فالانهيار، ثم الزوال، فلا خيار لها سوى أن تستدر شفقة الآخرين بالحوار معها، والتَّودد إليهم بنوايا إنسانية برَّاقة وجذابة، وذلك تحسُّباً لتطورات عالم ماديّ مضطرب، قد يجرها سريعاً إلى نهايتها المحتومة، بنير التَّعددية الذَّرية والصراعات الدَّاخلية الحاسمة.

إذن، فما على المسلمين إلاَّ أن يراجعوا مواقفهم وأساليبهم الحوارية مع عامة المؤسسات المسيحية، وأن يتخذوا من العدد والآليات ما يسعفهم لكسب هذا الرهان الحواري، الذي ما زال يقيني: يتأكد دوماً – من خلال متابعتي لزخم حركته وسرعتها – بأنَّه لن يكون بمشيئة المولى القدير إلاَّ في صالح الإسلام والمسلمين.

على أن موقفنا من قضية تفضيل أحد نوعي الحوار على الآخر، أو المزاوجة بينهما، إنَّما يتحدد من خلال هذه الفقرة اللاحقة كخاتمة لهذا المبحث.

خامساً: الحوارات الإسلامية المسيحيَّة بين ثنائية الأطراف وتعددها، وأحادية الهدف وتنوعه:

ممَّا يتعيَّن التنبيه إليه والعلم به في هذا المقام، أنه إذا كانت مختلف حوارات الشيخ ديدات – وفق معلوماتنا – ثنائية الأطراف لسبب ما أو لآخر، فإن من الخطأ الذي لا يقرّنا عليه بما يتنافى مع منهجه، أن نصنِّف تلك الحوارات في أحد الإطارين دون الآخر، فنعتبرها حوارات دعوة وإقناع فحسب، دون تعايش وتعاون، خصوصاً إذا استرجعنا موقفه من المباهلة الحوارية التي يرى عدم ضرورتها بالنسبة لنا، في حواراتنا المعاصرة، إذْ

(1) المرجع السابق، ص 159، سبق ذكره.

يغنينا عنها في أشد الحالات الحوارية تعنُّتاً ومكابرة التوجيه القرآني بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6]، وهو ما لا يمنع من واقع التعايش والتعاون في حدود العموميات الإنسانية، بل يظلُّ مسموحاً به وربما فرصة أمل للوصول يومًا ما إلى مستوى التأثير والإقناع من خلال التعايش والتفاعل.

صحيح، أن جلَّ ما قام به من حوارات ولقاءات مع المسيحيين كانت دعويَّة، وثنائية الطرفين، لكنَّ ذلك كان واقعاً مفروضاً عليه في بداية أمره، ثم رأى فيما بعد الاستمرار على النهج ذاته، لعله يحيي به وسيلة دعويَّة حاسمة كادت تَنْدثر من حياة الأمة؛ إذ لم يَعُد لها شهود ولا ورود في غير كتب التراث والتاريخ. وأظنه في ظلِّ جذوة نشاط المؤتمرات الحوارية المعاصرة قد استطاع بجهده الكبير ونضاله المرير، أن يحقق نوعاً من التوازن بين مسلكين حواريين: هما في الأصل فرعان متكاملان لطريق رئيس واحد، من طرق الدعوة والإقناع. ذلك أنه من منطلق الدعوة والإرشاد ظلَّ مسلمو العصور السالفة يخوضون مع مجايليهم من المسيحيين حوارات دينيَّة إقناعية، حتَّى إذا لمسوا فيهم إصراراً على الباطل بعد انكشاف الحق، أمسكوا عندئذ، واكتفوا بمعايشتهم على ما هم عليه من غير إغراء أو إكراه.

ومن ذلك ما حكاه المسعودي ت 346= 956 م، في مروجه، من قصَّة استدعاء أحد سلاطين المسلمين قبطيّاً لمناظرته، فلمَّا سأله السلطان عن صحة ديانته، أجاب قائلاً: «دليلي على صحتها وجودي إياها متناقضة، متنافية، تدفعها العقول، وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها، لا نظر يقوِّيها، ولا جدل يصححها، ولا برهان يعضدها من العقل والحسّ عند التَّأمل لها، والفحص عنها، ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة، وملوكاً عظيمة ذوي معرفة، ورأي حسن، قد انقادوا إليها، وتديَّنوا بها، فعلمت أنَّهم لم يقبلوها ويتديَّنوا بها، مع ما ذكرت من تناقضها في العقل إلاَّ لدلائل شاهدوها، وآيات علموها، ومعجزات عرفوها، أوجبت انقيادهم إليها والتدين بها»[1].

---

(1) أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب في معادن الجوهر، ج1/ 334، تحقيق: قاسم السماعي الرفاعي، ط/ 1408 هـ =1989م، دار القلم، بيروت، لبنان.

ومن هنا - فيما يقول الراوي- : «أمسكوا عن مناظرته، وانقطعوا عن مجادلته، لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه، وفساده، ووهيه»[1].

وربَّما، لمثل هذه المغالطة الغافلة استقذر الإمام الرازي عقيدة التثليث، فقال: «التثليث: أقبح أنواع الكفر، وأفحش أقسام الجهل، ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس، فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم، فعلمنا: أنَّ دعوته (عيسى عليه السلام) ما كانت البتة إلى هذا الدين الخبيث، وإنما كانت دعوته إلى التوحيد، والتنزيه»[2].

ولكن مع صرامة مثل هذه المناقشات التي كان ينطلق فيها أصحابها من موقف الدفاع عن الإسلام، وواجب تبليغ دعوته، فإنه لم يحفظ عنهم، أنَّهم أرغموا قط على اعتناق الإسلام أحداً، ممَّن كانوا يعتقدون بفساد عقيدتهم، وذلك في حدود ماهو معلوم حتى الآن.

بل عُرِفوا في هذا الصَّدد بالمناظرات المشهودة، وبالردود على غيرهم بالمصنَّفات العلميَّة المحكمة، ممَّا شارك فيه بعض من أسلم من أعيان المسيحيين وأحبارهم، من أمثال صاحب كتاب: تحفة الأريب في الرَّد على أهل الصليب، وهو كتاب هامّ في بابه، نزع فيه مؤلفه إلى الاختصار والتركيز محدّداً منهجه في تناول القضايا التي عرض لها، فأوردها مجملاً في مقدمته، وهو بِصدد تسجيل ملاحظة منهجية هامّة على عامة من سبقه بالتصنيف في هذا المجال من علماء المسلمين، وذلك في قوله: «ووجدت تصانيف علمائنا الإسلاميين - رضي الله عنهم - محتوية على ما لا مزيد عليه، إلاَّ أنَّهم - رحمهم الله - قد سلكوا في معظم احتجاجهم على أهل الكتاب من النصارى واليهود مقتضيات المعقول، بل الحافظ محمد بن حزم - رحمه الله - قد ردَّ عليهم بالمعقول والمنقول، خصوصاً ممّا في كتبهم. وانصرفوا من الاحتجاج عليهم بمقتضى

---

(1) الصفحة ذاتها من نفس المصدر.

(2) فخر الدين الرازي: النبوات وما يتعلق بها، ، ص: 182، 190، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط1/ 1406هـ = 1986م، دار ابن زيدون، بيروت + دار الكليات الأزهرية، القاهرة.

المنقول إلاّ في نادر من المسائل، فكنت شديد الحرص على أن أضع في الرَّد عليهم موضوعاً بطريق النقل، وحقيقة الإنصاف بالعقل يجمع بين النقل والقياس. وتتفق عليه العقول والحواس، أبين فيه باطل نواميسهم، وأصمت نواقيسهم، وما أسسوه من القول بالتثليث. . . »[1].

وفضلاً عن هذا النوع من الكتابات العلميَّة المندرجة في سياق الحوار الإسلامي المسيحيّ، على المستويات الثنائية، توجد مراسلات حواريّة. يمتاز بعضها بأرقى الأساليب وأبلغها، وأنضج الأفكار وأقنعها، ومن جملتها: رسالة ألحقها توماس أرنولد بكتابه الدعوة إلى الإسلام، يقول فيها المحاور المسلم لنظيره المسيحي المرسل إليه: « . . . فلست أجادلك إلاّ بالجميل من الكلام، والحسن من القول، واللين من اللفظ، لعلّك تنتهي وترجع إلى الحق، وترغب فيما أتلوه عليك من كلام الله عزَّ وجلَّ الذي أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، ولم أيأس من ذلك، بل رجوته لك من الله الذي يهدي من يشاء، وسألته أن يجعلني سبباً في ذلك. . . . »[2].

ويمضي الكاتب في طرح موضوعاته، ومناقشة القضايا التي من أجلها حرَّر رسالته للرَّد عليها، بما يكشف للقارىء تبحره في معرفة المسيحية والمسيحيين، لما يظهر من أنَّه قد تهيأت له فرصُ مخالطتهم، فَخَبرهم عن قرب، وتعرف على ما هم عليه متعمّقاً في دراسته، والرَّد عليهم بمقررات القرآن الكريم وحقائقه، ولا أدلّ على ذلك من قوله بعد سرد دقيق: «فهذا كلّه كنت له حاضراً، ولأهله مشاهداً، وبه عارفاً عالماً»[3].

كما تظهر من الرسالة سلامة نية صاحبها وصدقه الدَّعوي المتمثل في حرصه على هداية من يعرض عليه مبادىء الإسلام ومزاياه في ثنايا نقده لما عليه هذا المخاطب

---

(1) عبد الله الترجمان: تحفة الأريب في الرَّد على أهل الصليب، ص4، تحقيق: الطاهر المعموري، ط/ دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس. د. ت.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 471. سبق ذكره.

(3) المرجع السابق، ص: 472.

بالرسالة، من عقيدة لا تتناسب مع مكانته وعقلانيته إلى غير ذلك من الملاحظات المنهجيَّة والأسلوبيّة التي تضفي على الرسالة قيمة حواريَّة خاصة، وتجعلها جديرة بقراءة تحليليّة ذات أهمية علميَّة ومنهجية، وذلك على صعيد أدب المراسلات الحوارية في القضايا الدّينية بين المسلمين وغيرهم.

وهذا المسلك الحواري الصامت، والذي نجد امتداداً له في هذا العصر عند الأستاذ إبراهيم سليمان الجبهان[1]، يؤكد كغيره من الردود العلميَّة المصنَّفة، والمناظرات العلنيَّة المشهودة، أن الخط الذي سار عليه الشيخ ديدات من مسارات الحوار الإسلامي المسيحي، هو ذو هدف مزدوج، يراد به أولاً الدَّعوة والاقناع، وإلاَّ فالتعايش والتعاون.

ومن هنا يتواصل ويتكامل هذا الخطّ مع خط الحوارات الجماعيَّة، من مؤسسات وغيرها، بما يحتِّم دعم استمراريتهما معاً، لكن دون أن ننسى التأكيد على ضرورة تقييم هذا الأخير وتفعيله، بمناقشة قضايا جادَّة وبتوجهات صادقة وعلميَّة، إذ ليس الهدف من الحوارات تزاحمها وتراكمها حول أيّ موضوع، وفي أيّ حين، بل لابدَّ من القيام بالحوار حسبما يقتضيه الواجب الإسلامي وتستوجبه مصلحة العمل الإسلامي، وإلا فلا شيء يضمن كسب المعركة.

وإن تجريد اللقاءات من الاعتبارات الدبلوماسيّة، وتصفيتها من كافة ما يمكن أن يشوبها من مصالح سياسية ضيقة، قد تغلب على إسلامية مقاصدها، لمن المهامّ التي ينبغي أن تسهر الجهات الإسلامية على إنجازها وصيانتها، ولعل فكرة إقامة حوارات بلا صفة تمثيليَّة لمن يحضرها، قد تسعفنا عندما تجرَّب بلقاءات إيجابية ومثمرة.

ومن أجل الغاية نفسها يقول أحد من يهمهم الأمر: « . . فإني أرى أن يتمّ الحوار بين المتدينين من رجال الديانتين، وليس بين مسيحي أيّاً كان، ولا مسلم أيّاً كان، فإن الحوار متى بدأ على مستوى ذوي الدين والخلق والشخصية المستقيمة كان كل منهما معبِّراً بإخلاص وأمانة وصدق عمَّا يدور في نفسه، وليس متزلفاً أو متديناً اسمياً يريد

---

(1) ينظر: معول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، ص 141-157، سبق ذكره.

أن يبين مدى نظرته التَّقدمية بالتفريط في نواح أساسية في دينه إرضاء لهـذا أو لـذاك ، إنَّ أمثال هؤلاء يجب أن يقصوا عن مجال الحوار لأنَّهم يسيئون إليه ، ويبعثون إلى الشـك في جدِّيته ، وصدق هدفه»[1] .

وبهـذا تكـون الحـوارات الجماعيـة المعـاصرة وسيلة دعويَّة قويَّـة ، وسـبلاً توفـر للجانبين الإسلامي والمسيحي المزيد من فرص التعـايش والتعـاون علـى الـبر والفضيلـة من جانب ، وعلى مدافعة الإثم والعدوان من جانب آخر .

وأظُنُّ أنَّ للمؤتمرات الحوارية من الكفاءة والجديَّـة ، مـا يدفـع بالجـانب الإسـلامي إلى توظيفها لمعالجة قضايا جديرة بأن يُسْتجمع النـاس مـن أجلهـا ، حيـث إن الاهتمـام الكافي من جانب المسـلمين بالتحـاور مـع مختلـف الفـرق والطوائـف المسيحيَّة بصـرف النظر عن حجمها ممّا لا يخلو من مردود دعويّ طيّب ، وبخاصة مع أولئـك الذيـن هـم أقرب إلى الإسلام من غيره ، من حيث معتقداتهم وسلوكياتهم .

كما ينبغي في المؤتمرات الحوارية أن نواجه الجانب المسيحي باسـتمرار بجملـة مـن الأسئلة ، منها : لماذا لا يتمّ التنصير في الغرب إلاّ في نطاق المهـاجرين أو اللاجئين إليـه؟ لماذا التركيز على تنصير المسلمين والمسيحية قـد أفلسـت في الغـرب ، وفشـلت في توجيـه الحياة الغربيَّة ، فأصبحت الكنائس هناك تؤجّر وتباع ، لتتحول تارة إلى أوكار للفسـاد ، ولكلّ ما يضاد الدّين ويناقض مبادىء الأديان ؟! .

مـا حقيقـة تفشـي الفسـاد الأخلاقـي وأمراضـه الفاحشـة في أوسـاط رجـال الديـن المسيحي؟ وكيف ذلك ، وعمليـات التنصير ، والحـوار من أجـل الخير والإصلاح على أشدها اليوم؟ لماذا يُحَـذر الشباب المسيحي في المؤسسات التَّعليميـة الغربيَّـة مـن مخالطـة نظيره المسلم والتفاعل معه؟ ما المانع من الحوار بين الجماعات المسيحية خصوصـاً ، وهـي في أمسّ الحاجة إلى شيء مـن هـذا ، نظـراً لاختلافهـا وتناقضهـا في عقائدهـا وطقوسـها؟

(1) السيد متولي الدمرداش : "الحوار الإسلامي المسيحي ووجهة نظر إسـلامية" ، ص251 ، من مجلة البحوث الإسلامية ، ع5/ عام 1400هـ = الرياض : السعودية .

ولماذا رفض بابا الفاتيكان إجراء حوار ثنائي وعلني مع الشيخ ديدات، والدعوة إلى الحوار مع المسلمين من أبرز مشاريعه، ومن أهمّ أولوياته؟، ثم هل من مبرّر معقول لتصور معظم المنصِّرين بأن الإسلام والمسلمين هما عدوّهم الأول والأخير؟

هذه وغيرها من الأسئلة هي ما تقتضي طبيعة الحوارات وأهدافها المعلنة المكاشفة بها، والمصارحة في معالجتها، بحيث يتحقق للعمل الحواري أهدافه السَّامية، ويصل فيه الطرفان إلى كلمة سواء بين المسلم والمسيحي. ثم إن المحاورة بمفهوم المجاوبة، يجب تنويع صورها وأشكالها لتتخذ أحياناً - وخصوصاً عند المسلمين - بُعداً عمليّاً، في شكل مشاريع واقعية، وذلك حتَّى لا تظلّ الحوارات متحجرة في إطار القول، دونما فعل واقعي ملموس أو محسوس.

فمثلاً، من سبل مواجهة مكائد التنصير والحدّ من نشاطه، تحدِّيه في نوعية المشاريع التنصيرية التي يقيمها على كافة الأصعدة، وفي شتى المجالات الصِّحيّة، والتعليمية، والاقتصادية، والاجتماعيِّة، وغيرها؛ بإقامة مشاريع مماثلة ومتفوِّقة عليها، كمشروع قرية الحنان في السودان لإيواء الأطفال اللاجئين، فهو مشروع نموذجي أنشأته وتدعمه الجمعيَّة الثقافية النسائية الكويتية، مثلما تمنحه وزارة الأوقاف الكويتية أيضاً اهتمامها البالغ[1].

ولا أنكر أن يكون هذا المنهج الواقعي في الحوار مع المسيحيين والتعامل مع ظاهرة التنصير قد أخذ الآن سبيله الواسع نحو النّمو والازدهار، ولا سيما بِشبكة نشاط جمعية الدَّعوة الإسلاميّة العالميّة، وهي أوسع وأقوى في أفريقيا أكثر من غيرها، بالإضافة إلى جهود لجنة مسلمي أفريقيا في عدد كبير من دول القارة الأفريقية.

وكل هذا النشاط الساهر، والجهد الإسلامي الوافر، يشكل أنموذجاً واعياً لعمل

---

(1) ينظر: «الحركات التبشيرية في أفريقيا»، ص 120، من مجلة الوعي الإسلامي، ع/ 214، س 11، عام 1402 هـ 1982م.

إسلاميّ متقدم، يحظى فيه منهج (الحوار العملي الواقعي) بحظٍّ معتبر، له دوره وأهميته.

هذا.. والذي نخلص إليه في ختام هذا المبحث - تأسيساً على كلّ ما سبق فيه - هو أنَّ الحوار الإسلامي المسيحي بكافة أشكاله، وتنوع أهدافه، لا يعدو أن يكون وجهاً من وجوه العمل الإسلامي المتعددة، وسبيلاً إلى خدمة المسلمين، وذلك طالما كان مدروساً ومتقناً، وتوفر لأطرافه المسلمة القدر اللازم من الجدّ والإخلاص، بالإضافة إلى تعقب اللقاءات الحوارية بتطبيق ما يصلح من مقرّراتها وتوصياتها، من خلال الأجهزة المختصة، وعن طريق لجان التنسيق والمتابعة الحوارية...، والله تبارك وتعالى هو الهادي إلى سبيل الرشاد.

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

مسالك ديدات في محاورة ودعوة اليهود والصّهاينة إلى الإسلام

يلزمنا في إطار تحديد المجالات التَّطبيقية لمنهج ديدات التعرف بوضوح وكفاية، على تلك الأساليب التي اعتمدها، وكذلك الطرق التي سلكها ملتمساً محاورة ودعوة اليهود والصَّهاينة إلى الإسلام، أوْ لإقناعهم بالأخذ فكرياً بما يتَّفق مع موازين الحقّ والعدل حتَّى يتسنى لهم ضبط سلوكياتهم وعلاقاتهم بغيرهم وفق تلك الموازين الإنسانية الحقَّة العادلة واللاّزمة لأمن وسلام العالم، ودعماً لأواصر الأخوة والتَّعايش بين النَّاس.

وبالرُّغم من أنَّه لم تُعهد عن الشيخ ديدات حوارات مشهورة مع اليهود، على شاكلة حواراته مع المسيحيين، إلاّ أن بعض محاوريه من هؤلاء المسيحيين كانوا صهاينة في فكرهم، ودعوتهم ونضالهم، كما أنَّ دراساته وانتقاداته للكتاب المقدس قد انصبّت على قسميه المعروفين بالعهد القديم والجديد، فضلاً عن تلبيته لدعوة صهاينة بلاده، لإلقاء محاضرة فكرية عن الإسلام وموقفه من اليهود، إلى جانب استنفاره لبعض من لا ينتمي إلى الإسلام بصلة إيمان واعتناق من رجال الفكر والسِّياسة، وذلك للكشف عن حقيقة الصَّهاينة، والإعلام بخطورة دورهم العالمي، وفضح مخططاتهم وممارساتهم الإجراميّة ضدَّ الإنسانية جمعاء.

إذن؛ من مجموع هذه الأساليب والمواقف الَّتي تشكل خيوطاً لنسيج فكر ومنهج ديدات، في محاورة ودعوة اليهود والصَّهاينة إلى الحقّ، يمكننا الخروج بصورة واضحة عن هذا الجانب الخفي في رسالة ديدات ونضاله الإسلاميّ بما يمكننا من تصوّر الآفاق التطبيقية لمنهجه، خصوصاً في هذا المجال، ولكن بعد رَصْدِ مَا تهيَّأت لنا معرفته من أساليبه ومواقفه الخاصَّة باليهود والصَّهاينة في الفقرات التالية:

أوّلاً: إلقاؤه محاضرة تنويرية على طائفة من الصَّهاينة:

ما إن استَدْعَى صهاينة جنوب أفريقيا الشَّيخ ديدات لإلقاء محاضرة عليهم عن «القرآن واليهود». فسرعان ما استجاب لدعوتهم الكريمة، متشرِّفاً وسعيداً بها، باعتبارها فيئاً نفيساً، طالما تطلّع إلى مناسبات من أمثالها، ليُغنم بها الإسلام والمسلمين،

أو لعلّه يصحح بها فكراً خاطئاً، أو يعدل بها سلوكاً منحرفاً. وهذه الدَّعوةالتي قال عنها ديدات: «ودعاني اليهود تليفونياً لإلقاء محاضرة عن «القرآن واليهود» ووافقت أن أتحدث إلى أبناء عمومتي اليهود في هذا الموضوع الَّذي طلبوه منّي، وتحدّثت إليهم في هذا الموضوع . . .»[1]، قد جاء بِصَرْفِ النَّظر عن احتمال تعدُّد دوافع الصَّهاينة إليها في وقت اشتداد الحاجة إليها، فلذا؛ أعدّ لها ديدات كعادته عدَّتها الكافية، واغتنمها كفرصة سانحة يتحتَّم استخدامها بلباقة وحكمة، لإثارة ومعالجة مشكلات، هي أبعد وأعمق ممَّا قصده منظمو هذه المحاضرة، وإن كانت تهمُّهم كذلك.

وقد عرض ديدات فيها بعد معالجة الموضوع المطلوب منه تناوله، للقضية الفلسطينية، والاحتلال الصهيوني لأرض المسلمين واضطِهادهم الوحشي لعامَّة أهلها، مذكِّراً اليهود والصهاينة بما أوصى به التَّوراة بني إسرائيل من الاتِّجاه إلى الخير ومراعاة حقوق الله عزَّ وجلَّ، واتِّقاء سخطه بظلم عباده والاعتداء عليهم، وقد بيَّن لهم ديدات أنَّ الحل الحاسم والأخير للمشكل الفلسطيني يتمثَّل في أن يعلن اليهود والصَّهاينة إسلامهم، ماداموا يتظاهرون بأنَّهم يعتقدون بديانة توحيدية تُوجِّه خطواتهم السِّياسية وتقودهم نحو إجراءاتهم الاحتلالية، وأنَّهم يعملون بموجب تعاليمها[2].

على أنَّه، وإن كان من الصعب على سبيل اليقين معرفة ما خلَّفته هذه المحاضرة في نفوسهم من انطباعات إيجابيَّة، وما سجَّلته كذلك في حياتهم من آثار حميدة، فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ لمثلها من الأهمية على صعيد النِّضال الفكري ما يدعو إلى تكثيف الاهتمام بها، والسَّعي الجاد لاقتناص فرصها النَّادرة، وخلقها بكثرة.

ومن ثمَّ فإنَّنا معنيون - لكي نكون في مستوى استثمارها والإفادة منها - بالإعداد الجيّد لها، وانتقاء أهمّ الموضوعات وأجْدَاها لمثل هذه الفرص، وبخاصّة منها، ماهو أكثر اتِّصالاً بواقعنا المعاصر، وأدخل في هموم وتطلعات أمَّتنا الإسلاميَّة.

---

(1) أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق، أم وفاق، ص 39، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر السَّابق، ص 39-43.

ومن الموضوعات الَّتي لها أن تثيرنا، وتستأثر باهتمامنا في محاضرات كهذه، قضية تقديم الإسلام، والتَّعريف بمجمل رسالته بوضوح واقتدار، على نحو يقدِّم تصوراً وافياً ومقنعاً عن عقيدة الإسلام، ومبادئه، وقيمه، مع اهتمام خاصّ بعناية القرآن وتكريمه للإنسان، وبيان الغاية من وجوده في هذا الكون، وتحديد رسالته، وعلاقته بكلّ من الخالق، والمخلوقات من بني جنسه وغيرهم، بالإضافة إلى موقف الإسلام من المعتقدات الأخرى، والشُّعوب غير المسلمة، وما يحظى به أهل الكتاب خاصَّة من اعتبار وتميّز في إطار تصوير القرآن والسُّنة والتَّاريخ لموقف وعلاقات المسلمين بغيرهم.

ومن أبرز القضايا، وأوكد المطالب في هذا السياق، التَّعرض للديانة اليهودية عقيدة وتاريخاً، لتوضيح مدى ما يحتمه الإسلام من إيمان بكافة أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، وما يوليه كذلك من تبجيل وتوقير لحضراتهم السّامية بعظمتها وكرمها، ومن هنا يتاح لداعية في مثل هذا الموقف أن يدحض من الأساس معتقد اليهود والصَّهاينة بأنَّهم شعب الله المختار دون النَّاس جميعاً، والادِّعاء بأنَّ الله وعدهم بالعودة إلى أراضي فلسطين. ونحو ذلك من القضايا الَّتي تمس أصول الاعتقاد، وتتَّصل بصلة إلْهَام وتوجيهٍ لكافة المناشط السِّياسية المعاصرة: صهيونية ودوليّة بِمَا ترتب عليها من دمار وتخريب للأرض والعمران، واضطهاد بشع للإنسان الآهل في فلسطين. الأمر الَّذي يستوجب تذكير اليهود والصَّهاينة في لقاءات الفكر والثقافة بما عرف به الإسلام والمسلمون من موقف سمح تجاههم في كلّ العصور التَّاريخية الَّتي عاشوا فيها مع المسلمين جنباً إلى جنب، توفَّرت لهم فيها سبل الحياة الكريمة مثلما نعموا فيها بالحريَّة الدِّينية، كما ساد حياتهم مثل غيرهم من المسلمين القدر الأوفر من الأمن والاستقرار، وذلك من لدن حياة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، حيث يُرْوَى أنَّه «كان لعبد الله بن عباس جار يهودي فكان إذا أحضر لأولاده فاكهة، أعطى منها لأولاد جاره، وكان إذا ذبح شاة أهدى إلى الجار اليهودي

منها»[1]، وقد استمر المسلمون في عهود القوَّة والضّعف على السواء في معاملة أهل الكتاب بالحسنى، والتَّسامح الدِينيّ إزاءهم، وذلك بالسَّماح لهم ببناء المعابد، وإقامة شعائرهم الدِّينية، فضلاً عن العدل في معاملتهم، وإفساح الفرص الواسعة أمامهم للوصول إلى أعلى المناصب الإداريَّة في تاريخ الدّول الإسلامية، والارتقاء إلى مواقع ثقافية ووظيفية جدّ حساسة وعظيمة، وما رفعة مكانة أهل الذِّمة، وحجم دورهم في تاريخ المجتمع الأندلسي سوى أحد الأدلة البارزة على ذلك[2]. ومن المعروف عن المسلمين كرم معاملتهم لهؤلاء القوم، في ظروف كانوا يسامون فيها سواء العذاب والاضطهاد على يد غير المسلمين، لأسباب لا تتصل بموضوعنا هذا[3]. وقد تعايشوا مع المسلمين من غير ما أيّ إحراج ناتج عن أسباب دينية. وكفى تصويراً شاملاً ومختصراً لوضعهم الكريم، بما عبَّر به من قال: «والحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ الأندلس كانت الجنَّة الَّتي استمتع فيها اليهود بكلّ ألوان التَّرف والنَّعيم»[4].

وهذا ممَّا يعود فضله إلى الله أوَّلاً ثمّ إلى حسن التزام المسلمين بتعاليم دينهم إزاء الجماعات والأمم الأخرى، فهو العامل المفسّر لظاهرة تأثير الإسلام في اليهود لغة وعبادة، واجتماعًا، وتصوّفًا، إلى أن استثنى بعض مفكري يهود الأندلس المسلمين من الأمم الَّتي تنهى التَّوراة من التعوّد بعاداتهم.

وتقديراً لحجم هذا التَّأثير وأهميته، ذهب باحث يهودي فيما أظنُّ إلى إفراد دراسة متخصصة في استقصاء مظاهره، وأنماطه المتعددة بعنوان «تأثير الإسلام في العبادة

---

(1) الإعلام في القرآن الكريم، ص 336، سبق ذكره.

(2) ينظر: أحمد شحلان: "مكوِّنات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذِّمة فيه" ص 286-289، من مجلة التَّاريخ العربي، ع1/ 1417هـ 1996 م، لجمعية المؤرِّخين المغاربة، الرِّباط، المملكة المغربية.

(3) ينظر: محمود أرحو: "دور يهود الجنوب المغربي في تجارة القوافل الصَّحراوية" ص، 93 – 100، من مجلة الاجتهاد ع/ 34-35 – س 9/ 1417هـ = 1997م، بيروت.

(4) محمود محمد شبكه: «اليهود في الاندلس» ص 541، من مجلَّة الأزهر، ج 9-10، س 37/ 1385هـ = 1966 م القاهرة.

اليهودية» ولما تميَّز به من علميَّة وموضوعية، فقد حظيت باهتمام خاصّ من الأستاذ المرحوم عبَّاس محمود العقَّاد، فعرضها ملخصاً في كتابه «ما يقال عن الإسلام» معقبّاً بقوله: «فالواقع أن اليهودية بعد الإسلام قد استفادت من آدابه، وشعائره، كما استفادت من ثقافته في علم الأصول وفي نحو اللّغة وعروضها، وأوزان شعرها»[1].

ومن حيث التَّأثير الفلسفي، فقد تصدَّى كذلك باحثون، من السَّاحة الإسلامية لدراسة ما خلفته الفلسفة الإسلامية من تأثيرات جوهرية عميقة على الفكر اليهودي، وما ظهر على هذا الأخير من سمات الانفعال البارزة وملامح التَّأثر الواضحة بها[2]. وممَّا لا ريب فيه أنَّ تأثيرات الإسلام والمسلمين القدامى على اليهود وفكرهم، ما كانت لتتحقّق بدون الالتزام بموقف الإسلام الواضح من أهل الكتاب، ومن غير جهد فكري من المسلمين، بهدف إشعاع الهدي الإسلاميّ على من حولهم ومعهم من الذّميين. وأظنُّ أنَّ كلّ ذلك قد مثل لدى ديدات، وهو يستجيب لمحاضرة اليهود في بلاده، قيمة دعويَّة كبرى، ومصدر إلهام غزير لخوض نضال فكريّ شريف وعظيم، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أنَّ ما جرى في السَّابق من لقاءات فكرية وتثقيفية بين المسلمين واليهود على وجه الخصوص، قد أسفرت عن إسلام عدد يتعذَّر إحصاؤه من عقيلة القوم وعليتهم، وذلك منذ عهد رسول الله ﷺ، مروراً بالفيلسوف اليهودي المسلم أبي البركات: هبة الله بن ملكا البغدادي (ت 560هـ = 1164- 1165م)[3]. والمفكر اليهوديّ المسلم سعيد بن حسن الأسكندراني، صاحب كتاب «مسالك النّظر في نبوة سيد البشر»[4] بالإضافة - كذلك - إلى الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي (530-603هـ = 1135-1205م) صاحب

---

(1) عبَّاس محمود العقَّاد: ما يقال عن الإسلام، ص 126-127، ط2/ 1966م، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

(2) وللتحقيق والتَّوثيق يمكن الرجوع إلى كتاب: الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية، للأستاذ علي سامي النّشار وعبَّاس أحمد الشربيني، من منشورات منشأة المعارف الإسكندرية لعام 1972 م.

(3) ينظر: ما قيل عن حياته وفكره في دائرة المعارف الإسلامية، مج 1، ج6، ص 425-429-سبق ذكره.

(4) هو ممَّن لم أقف على ترجمته إطلاقاً، سوى ما اكتفى الأستاذ أحمد عبدالرحيم السَّائح بالإشارة إليه في كتابه، بحوث في مقارنة الأديان، ص 15، سبق ذكره.

كتاب دلالة الحائرين[1]، الّذي يعكس بما يحمله في طيّاته أوضح تأثير للفكر الإسلاميّ، ومنهج المسلمين على اليهودية ديانة وأمّة، وصولاً إلى عالم القرن العشرين الّذي أسلم فيه عدد من الرِّجال والنِّساء، من ذوي خلفيّات وأصول يهودية، ولكنّهم بمجرد إسلامهم استطاعوا أن يحققوا مجهوداً دَعْوِياً كبيراً، وأصبح لهم حضور لا يمكن تجاهله على صعيد الفكر الإسلامي المعاصر. ونذكر من هذه الفئة المباركة كلا من المفكِّر والكاتب الإسلاميّ محمَّد أسد النمساوي الموطن[2]. والدَّاعية النَّشطة مريم جميلة الأمريكيّة الجنسيّة[3]، وهي أنموذج حيّ وشاهد على أهمية العمل العلميّ، وفاعلية أساليب الفكر والإقناع في دعوة اليهود والصَّهاينة إلى الإسلام.

ولعلّ هذه مؤشرات كافية للدلالة على جدوى النضَّال الفكري في التأثير على اليهود والصَّهاينة، وبخاصة عن طريق المحاضرات العامَّة، وغيرها من المسالك الفكرية، والتي هي مرشحة لأن تكون ذات فائدة للعمل الإسلامي، في أوساط اليهود والصَّهاينة، إذا ما توصلنا إلى بلورة دورها وأساليبها، وتمكنّا من تفعيل وتنويع وسائلها.

وإنَّ التَّسليم بمبدأ الحوار والنِّضال الفكري الَّذي يعدّ الشيخ ديدات ذا فضل ريادي في بعثه، وتوظيفه في هذا العصر، يعني الإيمان بأنَّ العمل الدَّعوي، وتبديل قناعات النَّاس من الضّلال إلى الرّشد، لا يتأتى حقيقة سوى عن طريق التَّفهيم والإقناع.

وإنَّ الخطوة الَّتي أقدم عليها الشَّيخ ديدات في هذا المجال، من شأنها تجفيف روافد الفكر الصهيوني، والكشف عن كافَّة أساليب ودعايات التزوير الَّتي خُدع بها الكثير من أتباع الفكر الصهيوني، ومؤيدي مشروعه. كما أن من طبيعتها كذلك التَّمكين من إصغاء غير المسلم إلى الخطاب القرآني، للتعرف على دعوة الإسلام من خلال

---

(1) ينظر: عن حياته وتنقلاته وفكره، في كتاب عبد الوهَّاب محمد المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصَّهيونية، ج3، ص 367-370، ط1/ 1999 م، دار الشُّروق القاهرة: مصر.

(2) ينظر: عنه: في كتاب الإسلام والتَّمييز العنصري ص 104، سبق ذكره.

(3) وردت قصة إسلامها، وبعض سيرتها في كتاب: رجال ونساء أسلموا، بإعداد عرفات كامل العيشي، ج1/ ص 35-55، ط3/ 1398هـ = 1978 م، دار القلم، الكويت.

مصادرها الأصيلة، وعن طريق فحول خبرائها.

ولعلَّ استمرار تلك الفرص بما يستتبعها من تراكم الجهود الفكرية الواعية، ممَّا قد يعين الدُّعاة على غرس بذور الفهم الصَّحيح في عقول اليهود، وفي أوساط الصَّهاينة، ويهيء نفوسهم جميعًا لقبول الحقّ، واعتناق الدِّين الَّذي لن يقبل سواه ممن يبتغي غيره. خصوصاً وأنَّ من بشائر الخير في هذه الظروف الرَّاهنة أن «تظهر حاجة ملحَّة لدى الرَّأي العامّ اليهودي بضرورة الانفتاح الدِّيني على باقي الأديان السَّماوية، والتَّعامل معها دونما استعلاء على قاعدة شعب الله المختار والأساطير التَّوراتيَّة الأخرى»[1].

وإنَّ ما يمكن جنيه من هذا التَّطور الإيجابي عن طريق المحاضرات، وبرامج التَّوعية والتنوير لمردودٌ هائلٌ ومتميِّز، طالما أُنْجِزَت المهمة على أحسن ما يرام، وكتب لحملتها السَّداد والمدد الإقناعي من الله عزَّ وجلّ.

على أنَّ من فضل الله وتيسيره أن بدأت أسبابُ الإقناع، ومقوِّمات الإلزام بالحقّ، تنكشف شيئاً فشيئاً. ومن ذلك ما عثر عليه عام 1947م من مخطوطات البحر الميّت، الَّتي وصفها الأستاذ محمَّد السَّماك بقوله: «إنَّها تشكل بعد إنجيل برنابا الَّذي أجمعت الكنيسة على رفضه والَّذي يتضمن نصّاً واضحاً بالتبشير بالإسلام، وبالنبي محمَّد عليه السلام أوَّل نصّ تاريخي يهوديّ ثابت لا شك في صحته، يؤكِّد العلاقة التَّكاملية بين الإسلام والمسيحية واليهودية على النحو الَّذي ورد في عدَّة سور من القرآن الكريم، وفي عدَّة آيات من آياته»[2].

هذا، وبالرُّغم من عدم المعرفة بما يحويه الزَّمن بين صفحاته، فإنَّنا في ضوء هذه التَّمهيدات النَّفسية، والاكتشافات النَّفيسة، يمكننا التَّعويل بقدر كبير من الثِّقة والتَّفاؤل على دور المحاضرات الغنيَّة بحقائق الفكر وعناصر الإقناع، ليس في توسيع

---

(1) مسعود ضاهر: مجابهة الغزو الثَّقافي الإمبريالي الصَّهيوني للمشرق العربي، ص 114-115، ط1/1989م، من منشورات المكتب القوميّ للثَّقافة العربيَّة.

(2) «الجوامع المشتركة بين الدِّيانات السَّماوية»، ص 196، من مجلة الاجتهاد. ع / 29، س7، سبق ذكره.

نطاق انتشار الإسلام في أوساط اليهود والصَّهاينة فحسب، وإنَّما كذلك في تضييق الخناق على الفكر الصهيوني الفاسد، فكر الدَّمار والمجازر، والَّذي يَصْدُقُ علينا في القصور أَو التَّقصير عن مواجهته ما أهاب به أحد المهتمين بالشأن الإسلامي، حين رأى تخاذل المسلمين في مدافعة سيول التَّنصير الجرَّارة، فقال: «فإنَّ من المهانة ألاَّ نكون أقدر على الحركة والإقناع بحقِّنا من دعاة الباطل الَّذين يركبون فيه الصعب والذُّلول، إشفاء لقلوبهم الحاقدة على دين أيسر حقوقه عليهم أن يذكروه بخير، وأن يعرفوا فضله في الحديث عنهم، وعن أنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم، وعن كتبهم الَّتي لولا حديثه عنها ما ذكره ذاكر، ولا تحدث عنها إنسان»[1].

هذا ولئن كانت الدَّواعي تتوفر اليوم أكثر من السَّابق لإرساء دعائم نضال فكريّ جادّ وحاسم ضدّ الفكر الصهيوني الحاقد، وفي شتَّى أنحاء المعمورة، فإنَّ العمل المنظم، والناشىء عن برامج مدروسة ومنسقة، وفق خطوات متدرجة سوف يَظلُ مطلباً جوهرياً لا غنى عنه، في أيّ عمل إسلاميّ صادق ومخلص. ولكن، حتى لايفوت الأوان من غير ما حركة مقاومة، فإنَّنا سنرافق الشَّيخ ديدات عبر رحلته الممتدَّة على طريق التَّحدي والتَّصدي، لكلٍّ من اليهود والصَّهاينة معاً، بدءاً من المحاضرة فإلى مرحلة لاحقة هي:

ثانياً: استحواره لليهود والصَّهاينة، واستنزالهم إلى ساحة المقارعة الفكرية:

عندما هاج صهاينة جنوب أفريقيا وأزبدوا، على إثر تلك الضَّربات القوية، الَّتي سدَّدها ديدات في وجه الفكر والمشروع الصهيوني فأوعدوا باتخاذ كافة التَّدابير اللاَّزمة لمصارعته والتَّصدي بشدة وعنف للحملة الفكرية، الَّتي أخذ يقودها لملاحقة الظُّلم وتعرية حقيقة الظَّالم، لم يجد ديدات بُدّاً إزاء موقفهم هذا من تصعيد الحملة، والإصرار على التَّحدي والمواجهة، فكتب إلى كلّ من السَّفير الصهيوني وكبير

(1) من تقديم الأستاذ معوَّض عوض إبراهيم لكتاب: معاول الهدم والتَّدمير في النَّصرانية وفي التبشير، ص7، مرجع سابق.

الحاخامات في جنوب أفريقيا، يدعوهما للمناظرة[1]، ولكنَّ أيّاً منهما لم يكن في مستوى الرَّد بالإيجاب على هذا الطلب الَّذي سعى صاحبه من خلاله لجرِّهما إلى مواقف وخيمة عليهم عواقبها.

وبذلك فقد فُوِّتَتْ عليه فرصٌ، كان شديد الإيمان بدعوة القرآن إلى خلقها، وهي دعوة أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى إلى النِّقاش والحوار على أسس مشتركة[2]، وفق مفاهيم سليمة، ومعتقدات صحيحة. كما حيل بينه وبين أمر من أشْهَى أمانيه، إذ طالما حدّث نفسه به وهمَّ بأمره في معظم لحظات مسيرته الحوارية، ألا وهو أن يظفر بمواقع اشتباكات فكرية مع اليهود والصَّهاينة، مثلما كان له مع المسيحيين، أو أشدّ وأنكى.

وهكذا يتضّح لنا أنّ ما بذله من جهد بلا طائل في عملية استدرَاجهم إلى حلبات الحوار، يكشف عن طبيعة الصُّعوبات الَّتي تكتنف محاولات من هذا القبيل، وفي مقدمتها قلَّة أو عدم تجاوب الطَّرف اليهودي الصهيوني للمثول أمام المحاور المسلم في مواقف هو متأكِّد سلفاً من أنَّه لا يسلم فيها، من جرّ ذيول الهزيمة الفكرية، والتَّعرض للإحراج الفادح اجتماعيّاً وإعلاميّاً.

ولعلَّه، لو كان قد تمكن من اقتحام هذا المجال المحكم إغلاقه في وجهه، لتركَّزت مناقشاته في مختلف لقاءاته بهم على قضيَّة التَّعصب العرقي في كتابهم المقدَّس، ونقض دعواهم بحقّ العودة إلى أرض فلسطين الإسلامية إذ يقول: «تنبع عنصرية اليهود المتطرفة من كتابهم المقدس لديهم حيث يلقنون منه أنَّ أباهم إبراهيم كانت له زوجتان: سارة وهاجر، ويقول اليهود: إنَّهم أبناء إبراهيم من زوجته الشَّرعية سارة وإنَّ إخوتهم العرب قد تناسلوا من هاجر الَّتي كانت في نظرهم مجرَّد جارية، فالعرب

---

(1) ينظر: العرب وإسرائيل.. شقاق أم وفاق، ص 78، مصدر سابق.

(2) ينظر: هذه حياتي، ص 45، 52، مصدر سابق.

سلالة أقلّ شأناً من وجهة نظرهم»[1].

ومن أساسيَّات القضايا الَّتي تستحق منه الإثارة في مواجهة ثقافية عمادها الحوار العلميّ الجادّ بين المسلم واليهودي، إشكالية ما إذا كانت الرِّسالة الموسوية والَّتي يدَّعي اليهود الانتماء إليها في أصلها ومن واقع المصادر الإسلامية واليهودية رسالة خاصَّة بِقَومٍ مَا، ومحصورة في نطاق زمنيّ معيَّن. أم هي رسالة صالحة لكلِّ زمان، وعامَّة أيضًا لجميع البشر، إلاَّ من أبى الصَّهاينة انضمامهم إليها؟

وهي إشكالية يراها البعض شائكة، وإن كان أحد العلماء قد ذهب إلى الإجابة عنها بكلِّ تبسيط وإيضاح فقال: «كانت دعوات الأنبياء في أقوامهم خاصة، لم تتعدَّ أقوامهم، ولم تتجاوز حدود أوطانهم . . والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدِّد الغاية التي من أجلها أرسل موسى إلى فرعون، وهي تخليص بني إسرائيل من قبضتِه وإخراجهم من تحت سلطانه . . . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله، اللَّهم إلاَّ ما كان قد يلمح فرعون من دلالات تدلُّ على الله، فيما قدم له موسى من معجزات، تُصدّق دعواه أنه رسول رَبِّ العالمين، وقد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل»[2].

هذا . . ويستقصي القائل في الإيضاح والتّعليل محترزًا بما نصّه: «وليس معنى هذا أنَّ فرعون لا تقوم عليه الحجَّة بدعوة موسى له بالإيمان بالله . . . . كلاّ فإنَّ موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله . وأقام عليه الحجَّة بتلك الدَّعوة، وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة، ولكن لم يكن ذلك إلاَّ لأنَّ لفرعون شأنًا في حياة بني إسرائيل، فهم في ملكه، وتحت سلطانه، وإنَّهم لكي يخرجوا من هذا السلطان كان لا بدّ أن يكون ذلك عن رضًى من فرعون، ولا يرضى فرعون حتَّى يخرج عن طبيعة

---

(1) المسيح في الإسلام، ص26، مصدر سابق.

(2) عبد الكريم الخطيب: النَّبي محمَّد إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء، ص 406، ط/ 1395 هـ=1975م، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

البطش والقهر والظُّلم، الَّتي تستبد به، ولا يكون ذلك إلاَّ عن إيمان بالله وعن مراقبته، وخشيته . . ومن هنا كان موسى رسولاً إلى فرعون، وداعياً إلى الله، وإلى الرِّفق بعباده . . . »[1]، وليس بخافٍ أنَّ أهميَّة إثارة قضيَّة جوهرية كهذه، وتعميم العلم بها بين النَّاس، تكمن في صرامة حَسمها وقدرتها على إعاقة حركة تهويد غير اليهود، والَّتي سّماها البعض بـ «التبشير باليهودية»، وهي حركة أنشأها ويدعمها كذلك مجلس اتحاد المعابد العبريَّة الأمريكي، الممثل عن 735 معبداً يهودياً .

وقد تقرَّر في اجتماع لهذا المجلس عُقِد عام 1981م، اعتماد خطَّة مقترحة لنشر اليهودية في أمريكا وغيرها، تقدَّمت بها لجنة كانت قد تشكلت من المجلس نفسه منذ عام 1977م، وتتكوَّن من ستة وعشرين عضواً .

كما تقرر أيضًا بعد الموافقة على الخطة المعروضة، تخصيصُ مبلغ خمسة ملايين دولار لتمويل مشروع التَّهويد في مرحلة عمله الأولى على الصَّعيد الأمريكي . وسرعان ما اعتنق اليهودية في ظرف زمني وجيز ما يقدَّر باثني عشر ألف شخص كبداية لنشاط يزداد توسعاً وتنظيماً، مثلما يكثر معتنقوه أيضًا فيما يقال[2] .

وأعتقد أنَّ تجلية مثل هذه الشُّبهات، والكشف عن أبعاد ومخاطر هذا النَّشاط التضليلي التهويدي، ممَّا كان يرمي إليه الشيخ ديدات حين توجه بطلبه إلى أكثر من شخصيَّة وهيئة يهودية، معبِّراً عن فائق رغبته في إقامة حوار علني معهم حول مختلف المسائل الدِّينية، وبخاصة ما يثير من تلك المسائل نزاعات سياسية حادَّة في هذا العصر، وتتخذ أبعادًا دولية متعددة .

وحتَّى لا ينكر على ديدات صنيعه عند بعض النَّاس ممَّن لا يتجاوب مع فكرة الحوار مع اليهود والصَّهاينة، نذكر بأنه ليس بدعًا في السُّلوك بمنهجه في هذا الاتجاه، إذ من المعلوم

---

(1) المرجع السابق، ص 407.

(2) ينظر: مقال الدكتور محمد عبد الله: "التَّبشير باليهودية وسياسة التوسع الإسرائيلي" ص، 14، من مجلة الأمَّة، ع20، س2/ 1402هـ= 1982م.

أنَّ الرَّسول ﷺ، قد حاور اليهود في مناسبات متعدِّدة، مثلما تحالف معهم فورَ هجرته الشَّريفة إلى المدينة المنورة على عقود ومواثيق تضمن للجميع الأمن العامّ، والتَّعايش الكريم في مجتمع واحد، على اختلاف أعراقه ومعتقدات أهله. وفيما عقده عليه الصلاة والسَّلام مع اليهود «كان النَّبي رفيقًا بهم، عطوفاً عليهم، يقسم عليهم بأحبِّ أيَّامهم، ليستدنيهم إليه، وفي الوقت نفسه، يلزمهم بما عندهم، فيلزمهم بما يقرُّون»[1].

وعلى هذا النهج نفسه سار أعلام الحوار بين الأديان من أمثال العلامة ابن حزم الأندلسي الَّذي دعا إلى الوقوف في وجه الفكر اليهوديّ، خصوصاً في أيام تصاعد نفوذهم السِّياسي والإداري في دول ومجتمعات الأندلس الإسلاميَّة.

ولذلك لم يتردد في تحرير رسالة علميَّة، يردّ بها على مغالطات أحد معاصريه من أعلام اليهود وأجْدَلِهم، وينتقض بها فكرهم من الأساس، لينهار في مواجهته للإسلام الَّذي تنزَّه وتعزَّز بالله عن كلِّ مطعن ومنقض[2].

وقد جرت لابن القيِّم أيضًا من بعد ابن حزم الأندلسي ردود ومناظرات مع أهل الكتاب، وقد قال بخصوص اليهود: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرِّئاسة»[3]، وبعد نقاش طويل ومقنع أمسك اليهودي عن التَّمادي في الحوار بعد أن أفحم بالحجج القاطعة، والمنطق الدَّامغ.

وقد بلغت مثل هذه المناظرة مبلغاً من الكثرة والشُّيوع، وتآلف النَّاس عليها في تلك الأيَّام إلى حدٍّ ما صوره الأستاذ أحمد حجازي السَّقا بقوله: «... وممَّا تقدم يفهم: أنَّ الحوار بين اليهودية والنَّصرانية والإسلام ركن من أركان الحياة الاجتماعية الشَّرقية، فلا يحق لإنسان أن يعترض عليه، وكيف يعْترض أحد على غرِيزة ثابتة في

---

(1) تاريخ الجدل، ص 53، مرجع سابق.

(2) ينظر: قواعد المنهج عند ابن حزم الأندلسي، ص 503–504، 516.

(3) هداية الحياري في أجوبة اليهود والنَّصارى، بتحقيق أحمد حجازي السّقا، ص 140، سبق ذكره.

الإنسان، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»[1].

وإنَّ هذا المسلك الحواري الَّذي دشَّنه الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام أوّلاً، واقتفى أثره في السَّير عليه صحابته الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، ثمَّ تبعهم فيه التَّابعون، وأرباب العلم في كلِّ عصر ومصر، هو نفسه المسلك الَّذي حاول ديدات أن يعود بنا إليه، بعد أن توهم أكثر النَّاس تحت ضغط ظروف الحاضر أنَّ سلوكه لم يعد مجدياً، وأنَّنا لم نعد الآن في مرحلة الحوار. ولكن ديدات باستحواره لليهود والصَّهاينة أراد أن يجدد حبال الوصال بتجربة تاريخية ممتدَّة ومثمرة، تؤكد للنَّاس جميعاً أنَّه على مستوى المبادىء والتَّطبيقات «لقد كان الإسلام باراً بأهل الكتاب، داعياً إلى حوار كريم هادف معهم لا يقوم على تعصُّب مقيت، ولا ينبع من تشنج صاخب أو انغلاق صارم، ليصل المتحاوران إلى حقيقة تملأ السَّموات والأرض بنور الله»[2].

وبالجملة، فإننّا على وعي ويقين بالمصاعب المتعددة أمام محاولات الحوار الدِّيني والفكري، مع اليهود والصَّهاينة، كما أنَّنا نعتقد أنَّ ديدات يدرك جيّداً أنَّ لقاءات الحوار معهم لا تُنْهي بغتة الصِّراع القائم بينهم وبين المسلمين وإنَّما يُخَفِّفُه ويُلَطفه، ويؤصل لعلاقات تقوم على منهجية الحوار، وآداب التَّناظر، ويفتح أمام المسلمين فرصة الغلبة الفكرية والانتصار الإعلامي بما له من مكاسب سياسية واجتماعية، في آفاق العالم، وفي أوساط الشُّعوب والفئات المضّللة صهيونياً. يقول الشيخ أحمد كفتارو تأييداً منه لأسلوب المواجهة الفكرية، في كلمته أمام المؤتمر الثَّالث للدَّعوة الإسلامية: «حكومات البلاد العربية جهَّزت جيوشاً لتحرير فلسطين، وأنفقت مئات المليارات ومئات الألوف من الأرواح، وتبذل ولا تزال، وهناك طريق الإسلام . . طريق القرآن، طريق سيِّدنا محمد الطريق الَّذي سلكه سيّدنا محمد بن عبد الله لا تتحرر بها فلسطين فحسب،

---

(1) المرجع السابق، ص 15.

(2) يوسف العظم: المنهزمون دراسة في الفكر المتخلف والحضارة المنهارة، ص 283، ط3/ 1397هـ= 1977م، دار القلم، بيروت – لبنان.

الإسلام يملك بيـده اليمنى تحرير العالم وبلا قطرة دم. . . »[1].

صحيح، أنَّ مسلسل الاعتداءات العدوانية الدَّامية، ممَّا يفتّ من عزيمة الدُّعاة إلى الحوار والمشجعين عليه، كما ينال من آمال الجماهير المسلمة، بالخيبة والتشكيك في جدوى المقاومة الفكرية، ولا سيما في هذا العهد الشاروني المتوحش، ولكن يظلُّ الأمل معقوداً في إمكانية الوصول إلى تطورات إيجابية ومُرضِية لصالح الأمَّة الإسلامية، وذلك عن طريق الحوار القائم على الحكمة والبيان، وإعلان الحق والإقناع به، في تناظر كريم ومهذَّب، يتحاشى العنف والبذاءة، إلاَّ في الرَّد بقدر الضَّرورة على من سبق إلى شيء من ذلك، وبدأ به متَهجِّمًا على الإسلام والمسلمين.

وعليه، فلا بد - طبقًا للمنهج الديداتي - من الحلم وضبط النَّفس، فيمن يتوقع فيهم النَّفع والتَّأثير الطَّيب بحقائق الإسلام، وقواطع الأدِلة، وقوامع الحجج، في حواراتهم مع اليهود والصَّهاينة، وذلك لأنَّ «المناظرات والمداولات تستدعي الإثارة، ومن يغضب يسيء من حيث أراد الإحسان. أمَّا الحليم فإنَّه يستجرّ من يناظره برفق ولين، حتَّى يدرك خفايا نفسه، ثمَّ يسيطر على الموقف لاقتران حلمه بالإدراك والعلم»[2].

على أنَّ ممَّا هو جدير بالإشارة إليه أنَّ الشِّيخ ديدات في إطار مقاومته للفكر الصهيوني، قد استعاض نوعا ما عن خيبة الأمل المترتبة على امتناع اليهود عن محاورته، وعدم استجابتهم لمقتضى رسائله المتعدِّدة بهذا الخصوص، بالتَّوجه إلى إكثار الحوار وتكثيفه مع أعوان اليهود وشركائهم، وهم :

---

(1) بحوث ومداخلات المؤتمر العالم الثالث للدَّعوة الإسلامية بطرابلس، ص 23، سبق ذكره.

(2) محمد بن سعيد الشّويعر: « ولن ترضى عنك اليهود ولا النَّصارى ». ص 217، من مجلة البحوث الإسلامية، ع 23/ عام 1408 هـ = 1409 هـ. الرّياض - السعودية.

ثالثاً: المسيحيون الصهاينة ممّن حاورهم ديدات:

لئن كنَّا لا نضبط عدد من حاورهم ديدات من المسيحيين الصَّهاينة على وجه التحديد، فإنَّ تصور حجم كمّهم ممكن، طالما تذكرنا أنَّ معظم حواراته كانت مع أتباع الطَّائفة البروتستانتيَّة الَّتي تشيع في كنائسها ورعاياها ظاهرة التَّوجه الصهيوني، وممَّا يغني عن تأكيد القول بالدَّليل في هذا المقام أن جلّ حواراته المتداولة بين النّاس اليوم - مرئيًا ومكتوباً - انعقدت مع أطراف ذوي نزعات صهيونيَّة واضحة التَّطرف.

على أنَّني بهذا، لست أدَّعي أنَّ حواراته معهم كانت مبنية على هذا الجانب فحسب، ولكنْ يلاحظ أنّ تتبع تلك الحوارات، ومتابعة محتوياتها، ممَّا يكشف لنا اهتمام ديدات في نقده للكتاب المقدس بإشراك العهد القديم المتوارث عن اليهود، مع العهد الجديد الَّذي هو كتاب المسيحيين وعمدة ديانتهم.

ومن هنا نجده في غير ما موقفٍ ومؤلَّفٍ[1]، ينتقد العهد القديم في الفضائح الأخلاقية المنسوبة إلى من عصمهم الله من بين خلقه بالنُّبوة والرِّسالة من الله عزَّ وجلّ، ليثبت من ذلك وغيره من الجوانب النقدية الأخرى أنَّه كتاب لا يصلح للاعتماد عليه كمصدر إلهي في أيما شأن ديني، أو مشروع ذي منطلق ومبررات دينيَّة؛ مثل دعوى اليهود ومن شايعهم أنَّهم شعب الله المختار، وأنَّ الله قد ملَّكهم تاريخيّاً أرض فلسطين، ووعدهم بالعودة إليها بعد شتات طويل، يتعذر معه الحفاظ على صفاء الأصول العرقية والعقدية.

وهكذا، أُتيحت لديدات من هذا المدخل أيضًا فرص مواجهة الفكر الصهيوني ولو ضمنيًا، وعلى نحو غير مباشر. فكان ينقضّ عليه بالنَّقض والهدم كلّما حاور مسيحياً متمسكاً بموثوقية العهدين معاً، ولا سيَّما إذا كان صهيونياً مُسْتَغْفَلاً بالدِّعاية والتَّضليل. هذا ولكي تتضح لنا خطورة الفكر الصهيوني، وخبث نشاطه الحاقد، وما لمنهج ديدات من قيمة فكرية، وتأثير علمي وإعلامي في مواجهته فقد تعيَّن في هذا

(1) ينظر: مناظرة العصر، ومناظرتان في استكهولم وغيرهما.

الصَّدد تقديم لمحات خاطفة، تُصوّر لنا إجمالاً حقيقة الحركة الصهيونية وطبيعة مناشطها الخرافية الهدّامة، والصهيونية كما عرَّفها باحث مسلم «حركة سياسية عنصرية دينيَّة . . . فهي تهدف إلى جمع الملايين من اليهود في العالم في كيان يهودي قومي في فلسطين، استناداً إلى مزاعم تاريخيَّة ودينيَّة تربطهم بها، واتّخاذ فلسطين نقطة انطلاق لدولة كبيرة تمتد من الفرات إلى النِّيل، ومن ثمّ تكوين إمبراطورية صهيونية عالمية تكون وريثة الحضارة الغربية»[1].

وبصرف النَّظر عما يثيره هذا التَّعريف من مشكلة التَّعريف بمن هم اليهود، التي تثار من حين لآخر حتى داخل الكيان الصّهيوني[2]، تعبيراً عن الفشل في مواجهة هذه الإشكالية التي بحاجة إلى المزيد من البحث والاستقصاء، وبما يدل على دوران وتخبط القانون الإسرائيلي الصَّادر عام 1960م، في دمجه بين الدِّيانة والجنسية في تعريف اليهودي بالمولود من أمّ يهودية ولا يعتنق ديناً آخر، أو من اعتنق اليهودية وفقاً لشروط مفروضة[3]. فنلاحظ بمعزل عن هذه الإشكالية على تعريف الصهيونية المتقدم، أنَّها حركة عنصرية، دينية استيطانية، تمارس الهجرة والعنف والحرب في تحقيق مشروعها الَّذي ترتبط فيه بالدوائر الإمبريالية نشأة، ووسيلة وغاية.

فهي عنصرية من حيث مزاعمها بأنَّ اليهود هم شعب الله المختار، وأنَّهم يتمتعون بمصير تاريخي وسمات متميزة لا يتصف بها غيرهم[4]، كما أنَّ مجتمع الكيان الصهيوني منقسم على نفسه إلى مستوطنين غربيين «الأشكيناز» وإلى يهود شرقيين من البلاد العربيَّة وهم الصابرا، بالإضافة إلى السّفارديين وهم المستوطنون من أصول آسيويّة أو أفريقيّة.

---

(1) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ص 94، مرجع سابق.

(2) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 2/ 165، 201، سبق ذكره.

(3) ينظر: عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، ص 410.

(4) ينظر: أسس الحركة الصَّهيونية في كتاب عبدالرزاق محمد أحمد: الموسوعة الفلسطينية مج 1/ 113 - 114. ط1/ 1978، الدَّار العربية للموسوعات.

ولوضوح عنصريتها وحدّتها أصدرت الجمعية العامّة للأمم المتّحدة في دورتها الثّلاثين بتاريخ 10/ 11/ 1975م، قراراً تاريخياً مشهُوراً، تحت رقم (3379) ينصّ على اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، والتّمييز العنصري[1].

أمّا كونها حركة دينية فلأنّها تنطلق من كتب دينيّة تعتقد الصّهاينة مصداقيتها وقداستها، لممارسة كلّ ما أقْدَموا عليه حتى الآن وبخاصّة توراتهم المحرّفة لتغذية الفكر الصهيوني بالأساطير المنمّية لروح العداء والحقد في وجدان الصّهاينة وأدعياء اليهودية ضدّ غيرهم من النّاس، وكذلك التّلمود (كلمة عربية تعني تعاليم) فهو كتاب ديني «يدعم مبادئ العنصرية الضّيقة والغرور والاستعلاء عن شعوب الأرض، ويكثر من العدوان والانعزالية والاستغلال، ولقد بلغ من أهميّته وخطورته أنّ اليهود حفظوه كما لم يحفظوا التوراة واستقوا من تعاليمه ومبادئه أصول الصهيونية الحديثة التي طلعوا بها على العالم»[2] ولهذا السبب يلقّبه صاحب هذا القول بالكتاب الأفعى[3]. على أنّه بالرّغم من تشدق الصّهاينة وتشبثهم بالحقّ الدّيني، واستغلالهم المفرط لأساطير وخرافات كتبهم المدنسة فإنّنا «نجد أنّ الصهيونية بجذورها الفكرية الإمبريالية لا ترتبط أساساً بالدّين ولا تقيم له وزناً، وإنّما تعتبره وسيلة من الوسائل الّتي تحقق بها أهدافها التّوسعية، ولذلك فإنها وجدت في اليهود بِمَوْرُوثاتهم العدائية للعرب والمسلمين الوعاء الذّي يحتوي الكيان الصهيوني الاستعماري العنصريّ»[4].

---

(1) ينظر: نبيل عبد الحليم متولي: أخطار الأيديولوجية الصّهيونية والأيديولوجية الأخرى على المجتمع العربي الإسلامي، ص 122. ط1/ 1400هـ و. ر. ﷺ = 1990م من منشورات كلّية الدّعوة الإسلامية بطرابلس: ليبيا.

(2) راضي صدوق: «التّوراة والتلمود» ص 78. من مجلة الوعي الإسلامي. ع 9/ س1 عام 1385 هـ = 1965م، الكويت.

(3) المرجع نفسه: ص 79.

(4) الدّكتور محمد فتح الله الزّيادي: «أثر اليهودية والصّهيونية على الاستشراق» ص 320 من كتاب ندوة الدّين والتدافع الحضاريّ، ط1/ 1399. و. ر.. ﷺ = 1989 من منشورات مجلّة رسالة الجهاد الصّادرة عن جمعية الدّعوة الإسلامية العالميّة – بطرابلس.

والواقع هو أنَّ الصَّهاينة في أغلبهم ملحدون أو علمانيون لا يستوحون سياستهم من مصدر ديني صحيح، ولا يستندون في مخططاتهم وأعمالهم البشعة إلى أيّ معيار إنسانيّ أخلاقيّ. فقط، وكما يقول ديدات: «إذا سألت أكثر من خمسة وسبعين في المائة من اليهود. هل تؤمنون بالله، فإنهم سيجيبون على الفور، «لا» وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّ هؤلاء الملاحدة واليهود اللاّأدريين الماديين الَّذين لا يؤمنون بالغيب يستخدمون اسم الله زوراً في إغتصاب أرض الفلسطينيين»[1]!! وليس لشيء سوى أنْ حمَّلوا اليهودية وزر أكاذيبهم، بعد أن افتعلوا منها قضية إثنية، وخلقوا من جانبها الديني تراثاً شعبياً يدَّعون توارثه عبر العصور والأجيال، وأكثرهم ملحدون، معرضون عن الحقّ، وممَّن يبغون الفساد في الأرض بصدودهم عن سبيل الله.

وأمَّا استيطانيَّة الحركة الصهيونية، فتظهر في استخدامها لكافة أساليب القهر والإجلاء للشعب الفلسطيني صاحب الأرض الأصيل، وذلك للحلول محلهم، إلى جانب توظيفها لمختلف وسائل الخداع والتَّضليل للتمكين لعمليات الاحتلال، ولتكريس واقعها دونما أي سند تاريخي معتمد أو مسوّغ منطقي مقنع، وهي في سبيل هذه الغاية الوضيعة لا تتورَّع عن استباحة كلٍّ ما قد يساعد على تحقيقها، ولو بقذف الآخرين بتهمة معاداة السَّامية، وهي سلاح «تستخدمه الصهيونية ضدَّ كلّ من يحاول كشف التَّاريخ المخزي الَّذي صاحب قيام دولة إسرائيل، أو يكذب الأسطورة الصهيونية حول أرض الميعاد»[2].

والحقيقة الَّتي استطاع الصَّهاينة تغييبها عن الكثير من النَّاس، وبخاصّة في المجتمعات الغربية هي أنَّهم احتكروا مصطلح «السَّامية» وقصَّروه على أدعياء اليهوديّة المعاصرين، دون غيرهم، ممن هم أحقّ به وأجدر، خصوصاً وهو «مصطلح يطلق على تلك الأقوام والجماعات الَّتي استقرت في الجزيرة العربية وهاجرت منها. ولعلَّهم

---

(1) من كتاب: الحلّ الإسلاميّ للمشكلة العنصرية، ص. 28. مصدر سابق.

(2) يحيى درويش: «أبشع جرائم الصَّهيونية في القرن العشرين» ص 54، من مجلَّة الموقف العربي، ع / 69 / س 12 / 1408 هـ= 1988 م.

يعنون بذلك - في أصل استخدام هذا المصطلح - العرب»[1].

والغريب في الأمر حقاً . أنَّه حتى بهذا الفهم الضَّيق لمصطلح السَّامية ومعاداتها ، تعتبر الصهيونية العالمية أكبر وأخطر حركة معادية لها ، ذلك لأنَّها تطالب بتصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين[2] ، وبثّ الهرج والمرج والذعر في أوساطهم حتى ينفضوا من مواطنهم الأصلية ، ويفيضوا إلى فلسطين لاحتلالها والاستيطان فيها بغياً وعدواناً .

ومع ذلك ، فكم أساءت الصَّهاينة استخدام هذه التُّهمة ضدَّ غيرهم ، وجعلوها سيفًا مصلتًا على رقبة كلٍّ من تسول له نفسه التَّشهير بمخاطر نواياهم ومستهدفاتهم ، أو حتى مطلق التشكيك في مدى مشروعيّة ما يصبون إليه .

ومن الجَدير ذكره أنَّه ليس ممَّا يهمّنا استقصاء الجذور التَّاريخية لنشأة الصهيونية وتطوُّراتها فذاك شأن طويل يضيق به المقام ، إذ تعتبر تلك الجذور في حقيقتها أبعد وأعمق ممَّا يتصوّره معظم النَّاس ، ولا سيَّما من لا يتعدى نطاق نظرهم إلى الصهيونية أكثر من قرن وبضع سنين ، والحال أنَّ الأستاذ أحمد حجازي السّقا يقول : «وكان اليوم الذي انتهوا فيه من كتابة التَّوراة الجديدة ، هو اليوم الأوَّل لتكوين الصهيونية»[3] ، وكان ذلك في حدود سنة 586 ، ق . م . ولئن ساغ للعديد من الباحثين اعتبار الصحفي والنَّاشط السياسي النَّمساوي تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السِّياسية في أواخر القرن التَّاسع عشر الإفرنجي ، وذلك بالنَّظر واستناداً إلى جهوده الفكرية والتَّنظيمة والتَّعبوية كذلك ، فإن ثمَّة محاولات كثيرة ومتفرقة ، كانت قد سبقت بنحو ثلاثة قرون إلى المناداة بمثل ما دعا إليه[4] .

وحتى في عام 1862م ، قبل قيام حركة هرتزل ، وظهور دعوته نُشر كتابٌ بعنوان

---

(1) من «أثر اليهودية والصهيونية على الاستشراق» في كتاب الدِّين والتَّدافع الحضاري ، ص 326 .

(2) ينظر : موسوعة اليهود- واليهودية والصهيونية ، ج 2/ 389 ، مرجع سابق .

(3) من تقديمه لكتاب : شفاء الغليل في بيان ما وقع في التَّوراة الإنجيل من التَّبديل : ص 12 ، مصدر سابق .

(4) ينظر : ريجينا الشريف : الصَّهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ العربي ، ص8 ، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز من سلسلة عالم المعرفة ع/ 96 س 1406 هـ= 1985 م ، الكويت .

«البحث عن صهيون» أصدره المسمَّى بـ: زفي هيرش كاليسكر، وهو حاخام بولنـدي، ومن أقواله فيه: «عندما تتحقق العودة بوسائلنا الأرضية، فإنَّ أشعة الخلاص السَّماوية سوف تظهر بـالتدريج»[1]. ودلالـة هـذا: أن هرتـزل ليـس المنظـر الأوَّل ولا الأساسـي للفكـر السِّياسـي الصهيونـي، وإن كـان مـن أبـرز نَاشِطِيهِ في السَّعي لتحقيـق مشـروعه الحركي وحلمه الاستيطاني.

إذن؛ فلا غَرْو طالما الغاية واضحة، وكلُّ وسيلة مستباحة، من أنْ تشـكل الحركـة الصهيونية منظومة شبكية ذات أجنحة وحواش متعـدِّدة بمعلنهـا وخفيِّهـا، مثـل الحركـة الماسـونية الَّتـي قيـل في تعريفهـا: «جمهـور كبير مـن مذاهـب مختلفـة يعملـون لغايـة واحدة. وهي إعادة الهيكل الذي هو رمز من دولة إسرائيل، لكن لا يعلـم هـذه الغايـة إلاَّ القليلون»[2]. والماسونية بانتشارها العالمي الواسع تعدُّ أخطر حركة صهيونيـة تعمـل علـى ممارسـة الضغـط الدَّولـي، تأمينـاً لمصـالح الغـزاة الصَّهاينـة، كمـا بـاتت مكشـوفة الهدف في سعيها الماكر لمحاربة كلِّ الأديان ووأد كافة المعتقدات والقيم الثَّقافية الفاضلة، لصالح المحافظة التَّامة على اليهودية الصهيونية وحدها[3]، ولذلك لا تَفـتر نشـاطاتها في نقض النَّظم الأخلاقيـة، ونشـرالإلحاد، وثقافـة الإباحيـة في أوسـاط الأجيـال النَّاشـئة، وبخاصّة المراهقين والفتيان منهم، لتنحـدر بالإنسـانية جمعـاء في منـزلق مميـت، تلحـق أضراره بكلِّ قيمة فردية واجتماعية نبيلة، وكلِّ نفس إنسانية شريفة.

وتقف إلى جانب الماسونية العالمية حركة شهود يهوه، وهي حركة مزدوجة الهويَّة، ولكن يغلب عليها الانتماء إلى اليهودية أكثر مـن المسيحية، نشـأت في بريطانيـا في القـرن التَّاسـع عشـر الإفرنجي، ثـمَّ انتقلـت إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ويعتقـد أتباعهـا

---

(1) حسن فؤاد: «سفر تكوين الفكرة الصَّهيونية»، ص 9، من مجلة الفكر المعاصر، ع/ 68، س/ 1970م، القاهرة.

(2) نقـلاً عـن محمـود عليّ التَّـائب: الماسـونية قديمًـا وحديثًـا، ص 13، ط2/ 1428 و.ر. ﷺ = 1999م مـن منشورات جمعية الدَّعوة الإسلامية العالميَّة بطرابلس – ليبيا.

(3) ينظر: حاضر العالم الإسلاميّ وقضاياه المعاصرة، ص 97. سبق ذكره

- على إتِّفاق مع اليهود واختلاف عن المسيحيين - بقدسيَّة يوم السَّبت وليس الأحد[1].

وهذه الحركة الَّتي أتصورها أداة صهيونية لاختراق المسيحيَّة، واحتواء المسيحيين، هدفها كالماسونية وغيرها العمل لإتمام الإجراءات العقدية والإعلاميّة والسِّياسية لتنفيذ الوعد الإلهي المزعوم، بشأن تمليك أرض فلسطين للصَّهاينة، وكلّ لقيط من الشتات يعلن تأييدهم وحبَّ الانتماء إليهم.

وعن ضخامة نشاط هذه الحركة في مجال النَّشر والتوزيع، تبعاً لسعة إمكانياتها الهائلة، يقول الشَّيخ ديدات: «. . . فإنَّ الجماعة لا يبلغ تعدادها مليونين، وتوجد في نيجيريا، البلد المسلم، أكبر مجموعة «شهود يهواه» بعد مجموعة الولايات المتحدة، حيث تأسست الجماعة قبل مائة عام وهذه المجموعة تنشر مجلَّة بعنوان «اليقظان» وتوزع تسعة ملايين وأربعمائة ألف نسخة شهرياً بأربع وخمسين لغة، ونحن لا نستطيع إصدار مليون نسخة فقط. رغم أنَّ المسلمين ألف مليون نسمة، لا يستطيعون أن يصدروا مليون نسخة للتوزيع مجاناً، ونفس هذه المجموعة تصدر مجلة أخرى بعنوان«المرقب» وتوزِّع عشرة ملايين وأربعمائة ألف نسخة بمائة واثنتي لغة»[2].

ومن حيث الوسائل الَّتي تستخدمها الصهيونية لخدمة مآربها، فتتنوع لتشمل مختلف الوسائل من مشروعة وغيرها. فمن النَّاحية العلمية تُعنى ببحوث استشراقية متعدِدة المَشارب والموضوعات، لتأصيل ما تدَّعيه من حق ديني وتاريخيّ في ملكية أرض فلسطين، دعماً لمبررات احتلالها الغاشم، كما أنَّها من جانب آخر تزيّف الحقائق مسيئة في استغلالها للبحث العلمي، لطمس كلّ ما للشعب الفلسطيني من أصالة ثقافية وتاريخية فوق أرضه منذ القدم العريق، ولقلع كلّ ما يربطه بوطنه الأصيل من جذور راسخة متينة.

---

(1) ينظر: عاطف عبدالغني: شهوديهوه مملكة إسرائيل على الأرض، ص143، ط1/ د.ت، دار ديوان - القاهرة.

(2) بحوث ومدخلات المؤتمر العام الثالث للدَّعوة الإسلامية، بطرابلس، ص 129، سبق ذكره.

ولعلّ نعت الدكتور الزّيادي مرحلة الاستشراق المعاصرة بـ«المرحلة الصهيونية»[1]، ممّا يوحي، بل يعبّر بدقة وجلاء عمّا اتّسمت به المرحلة الرّاهنة من فرط هيمنة الصّهاينة وفكرهم عليها.

وفي المجال الإعلامي والفنّيّ، ففيه للصهيونية نشاط لا نظير له عالميّاً من حيث السّعة والتّنوع، والتّخطيط والتوجيه، وكلُّه مكرّس لتمرير المشروع الصهيوني، والدّعاية له بما يجعله يحظى بقبول عام وتامّ في نفوس النّاس في شتى أصقاع المعمورة وبقاعها؛ وذلك بتحسين صورة الصهيوني السّفاك، مقابل تشويه صورة الإنسان المتميّز بوداعته وسماحته، عربياً كان أو مسلماً[2]. ومن أخبث الأمثلة على ذلك ما رصده أحد من لهم اطلاع واسع، ومعرفة حيّة بخفايا وتدابير الحركة الصهيونية، فقال: «تقوم الهيئات اليهودية في أمريكا ومن يناصرها من الجماعات النصرانية ببثّ الذعر مما يسمىّ «القُنْبُلَةُ الذريّة الموقوتة» واستعملت لذلك محطات التلفزيون الأمريكي والصّحافة، والطّباعة، وخلاصة ذلك: أنَّ العالم الإسلامي والّذي يتصف بالتّهور وعدم ضبط النّفس، يسعى جاهداً لامتلاك القنبلة الذرية إن لم يكن قد امتلكها بالفعل، وأنّه حين ينتهي منها فسوف يُدمّر إسرائيل، ويجلب الدّمار للعالم كلّه، وأوضح مثل لذلك الكتاب الّذي صدر حديثاً باسم «القنبلة الإسلامية» (The Islamic Bomb) تأليف سيف وايزمان، وهربرت كروسنى»[3].

وعن مدى خطورة هذا الهجوم والتّشويه الإعلاميين للإسلام والشّخصية المسلمة، والّتي تتعدى آفاق العالم الغربي إلى غيره من مناطق العالم ككلّ، فتتبدّى لنا بشكل تقريبي، وبصورة مجملة، حِينَ نعلم أنَّ الصهاينة قد «عملوا على امتلاك أهمّ

---

(1) ينظر: محمد فتح الله الزّيادي: الاستشراق، أهدافه ووسائله، ص96، ط1/ 1426و. ر. ﷺ = 1998م، د. د. ت.

(2) ينظر: أصول الإعلام الإسلامي، ص: 144، سبق ذكره.

(3) «التبشير باليهودية والتّوسع الإسرائيلي» ص20، من مجلة الأمّة. ع / مرجع سابق.

المؤسسات الصَّحفية والإذاعية في العالم، بل وعملوا على امتلاك معظم المواد الخام الَّتي تساهم في صنع الخبر؛ مرئياً كان أو مسموعاً أو مقروءاً . . . »[1].

وفضلاً عن الوسائل المذكورة، فقد نظمت الحركة الصهيونية حملة استقطاب واسعة النِّطاق، لاستجلاب المستوطنين من كلِّ صوب وحدب، وحتى من البلاد العربية، مثل الجزائر الَّتي يحكي لنا المفكر الكبير مالك بن نبي وقائع هجرةٍ جماعية منها إلى الكيان الصهيوني[2]، استهدفت طوائف قلقة ومنغلقة على نفسها، كانت تعرف وتصنَّف في إطار الدَّائرة اليهودية .

وحقيقة؛ فإنَّ ظاهرة هجرة أزواج وأفواج من أقطار المغرب العربيّ وبالأخصّ من الجزائر والمملكة المغربية إلى الكيان الصهيوني، بدعوى الانتماء العرقي والدِّيني إلى أصول يهودية، وبتأثير من الدِّعاية الصهيونية الماكرة . لأمر يثير الدَّهشة ويدعو إلى تأملات وتساؤلات كثيرة عن: كيف استطاعت الصهيونية أن تمارس عليهم هذا التَّضليل على مرأى ومسمع منَّا ؟! وكيف سمحنا نحن من جانبنا بذلك؟! ولماذا ظلَّت هذه الجماعات المهاجرة طوال قرون وقرون مديدة تعيش على هامش مجتمعاتها في عزلة ومفاصلة شبه تامَّة ؟! وما سرّ فشلنا في استيعابها وطنياً. ودمجها اجتماعيّاً على الأقل، إن لم يكن ثقافياً ودينياً ؟! ولماذا عجزت هي الأخرى عن التَّكيف مع محيطها الاجتماعي في أجواء لم تعرف غيرها من قبل ؟! وهل استطاعت إسرائيل بعد أن هاجرت إليها أن تحقق أمانيها في رغد العيش الآمن، وفي تنمية شخصيتها الإنسانية، وأن تكون في مستوى تطلعاتها إلى الحياة الحرة الكريمة؟!

هذه وغيرها من الأسئلة، والتَّساؤلات الشَّاغلة، ممَّا يلح على المرء فلا يلقى له جوابًا وافيًا إلى أن تدرس القضية برُمتها، بنحو من الجدّية العلميّة، وبروح المسؤولية

---

(1) «أثر اليهودية والصهيونية على الاستشراق»، ص325، من كتاب ندوة الدين والتدافع الحضاري. مرجع سابق.

(2) ينظر: في مهب المعركة، ص: 114-115، ط4/ 1411هـ=1991م، دار الفكر العربي بيروت لبنان+ دار الفكر دمشق - سورية.

العمليَّة. فعسى أن يتصدى لها بعض المقتدرين عليها.

وهكذا تسلك الصهيونية في سبيل غاياتها السَّافلة كلّ السبلّ والوسائل المتاحة لها بما فيها التَّأثير على ذوي النُّفوذ من القادة والأمراء، وعلى رجال العلم والثَّقافة، وأرباب المال والجاه. وذلك لتسخيرها ذاتياً لصالحها، وأيضاً للتأثير على من يقع تحت إمرة هؤلاء من الشعوب، والمرِيدين، والعامَّة من الأتباع والرّعاء.

وممّا يتَّصل بالوسائل المذكورة، بل يعدّ من أخطرها وأنفذها، ماسبقت الإشارة إليه من أنَّ الصهيونية تتحالف مع المسيحيين ضدَّ الإسلام والمسلمين، وقد نجحت في أن تزيّن لخلق كثير منهم، وخصوصاً من الطّائفة البروتستانتية أنَّ كتابها الموسوم بالعهد القديم هو أمّ ومستَند ما يعرف من المسيحيين بالعهد الجديد، ومن ثمَّ أوهمتهم ببطلان إيمانهم ما لم يسلموا بصحة ما في كتب الصَّهاينة، فتعبدوا بالتَّعاون على تحقيق مقتضياتها ومضامينها الاحتلالية.

وبفعل تأثير تلك الخداعات الصهيونية المزمنة، فقد بلغ الأمر بالفكر المسيحي الأصولي الصهيوني إلى اعتبار حركة الإصلاح الكنسي البروتستانتيّة نهضة عبرانيَّة يهوديّة[1]. كما تحمَّسوا أكثر من غيرهم لإنجاح مشروع الصهيونية المركزي، وهو المتمثل في إقامة دولة لليهود في فلسطين.

وقد لاقت جهود المسيحيَّة المتصهينة ترحيباً حاراً، وتشجيعاً كبيراً من قبل الصَّهاينة الأقحاح، بما يليق بشأنها وخطورتها. فذهب أحد أبرز القيادات الصّهيونية في كتاب له بعنوان «خط الدِّفاع الإسرائيليّ» إلى الإشادة بهم، وتشجيعهم فقال: «كانت الصهوينة أنشودة مسيحيَّة قبل أن تصبح حركة سياسيَّة يهوديَّة»[2].

وهكذا تتعاون الصهيونية والأصولية المسيحية على خذلان المسلمين، وتضليل العَالم بطُروحات وهميَّة كاذبة، ولكن هذا التحالف لا يقوم على أساس من المودَّة، والإخلاص

---

(1) ينظر: المسيحية والإسلام والاستشراق. ص260. سبق ذكره.

(2) ينظر: مجلة العربي ع/ 326/ 19، مرجع سابق.

والصِّدق، وإنَّما لمصالح مشتركة، مبنيَّة على اعتبار الإسلام أخطر عدوّ يواجه الطرفين معاً، فيجب التَّخلص منه معاً كذلك، كما أنَّه لا نجاة ولا نجاح من غير كسر شوكة المسلمين واستضعافهم. حتَّى لا تقوم لهم قائمة ما قامت الدُّنيا. وامتدَّت الحياة فيها!!

إذن؛ فلا عجب في أن يكون الفاتيكان أحرص على مصلحة الصَّهاينة وحمايتهم[1]، من الحفاظ على عقيدته الَّتي تتنازل عن بعض عناصرها لإرضاء اليهود، ويعدِّل من مواقفه التَّاريخية ما ينال منهم في ضَوْء العلاقات المعاصرة بين الطرفين، استيثاقًا، واستلطافًا، يقودانه - عادة - إلى التَّكلف والإسراف في التجمل إلى الصَّهاينة! ولهذا، فبالرغم من كثرة محاورة الشَّيخ ديدات للمسيحيين الصَّهاينة، إلاَّ أنَّه لم يقتنع بالوقوف عند هذا الحدِّ في مواجهة الفكر الصهيوني، بل قدَّر أن أسلوب المواجهة الأنسب يقتضي منه مقاومة هذا التَّحالف الصهيوني المسيحي بحلف مضادّ له، بشرط أن يكون أبصر بمطاعن العدوّ، وأنفذ إعلاماً، وأقدر إقناعاً.

فهذا ما ساقنا معه إلى خطوة جديدة، في عمليَّة المواجهة الفكرية سنقصّ أثره، من خلال متابعتنا له، فيما يلي:

رابعًا: ديدات وأنموذج تجنيد نخبة الغرب السِّياسية والفكرية لمواجهة الصهيونية:

لا يماري منصف على قدر من المعرفة بديدات وجهوده الإسلامية، في أنَّه كان على مستوى الإبداع النِّضالي حين أخذ يستنفر نخبة السِّياسة والفكر في الغرب لمواجهة الحركة والفكر الصهيونيين، وذلك من خلال أنموذج عضو الكونجرس الأمريكي بول فندلي الَّذي ظلَّ لمدَّة اثنتين وعشرين سنة ممثلاً عن ولايته، وما أن أبدى آراءه الجريئة بشأن القضية الفلسطينية، وأعلن اعترافاته الصريحة بهول الضغوطات الَّتي تمارسها الصَّهاينة على مختلف شرائح الدَّولة والمجتمع في الولايات المتَّحدة الأمريكية، حتَّى تعرض لعدائهم

(1) ينظر: البيانات المسيحيَّة الإسلامية المشتركة، ص 94، 100، مصدر سابق.

والحيلولة دون إعادة انتخابه عام 1982م[1]. وقد استقدمه الشَّيخ ديدات إلى جنوب أفريقيا باعتباره من أخبر النَّاس بالصهيونية، وأشهدهم بخبثها ومصائبها وذلك للإعلام بحقيقة الصهيونية في مجتمع للصَّهاينة حضور بارز فيه، ودَوْر كبير ومؤثر، ونشاط واسع وخطير. وقد ألقى محاضرة عمَّا إذا كانت إسرائيل قد أقيمت من أجل التَّدمير؟.

تسجَّلت بها انطباعات مثيرة في نفوس الحضور ضدَّ الصَّهاينة كما ألقت الكثير من الضوء على أهمّ جوانب المأساة التي يتجرّعها الشَّعب الفلسطيني بمرارة لا تطاق، من جراء الاحتلال الصهيوني الرَّامي إلى إبادته، أو إجلائه عن أرضه ومقدَّساته.

وقد مثلت هذه المحاضرة تجربة نادرة المثيل، أثارت دويًا إعلامياً واجتماعيّاً هائلاً. في مجتمع الجنوب الإفريقيّ، وذلك لأسباب كثيرة منها: ما يعود إلى عوامل ذاتية، وأخرى موضوعيَّة. فمن العوامل الذَّاتية أنَّ الضيف المحاضر بول فندلي الأمريكي الجنسية، يحمل أكثر من صفة مهمة ومعتَبرة، ككونه سياسيّاً بارزاً يتمتع بشجاعة أدبية وافرة، إلى جانب اشتغاله في السَّابق برئاسة تحرير صحيفة محلِّية، وعمله كذلك ضابطاً في الأسطول الأمريكي. فحياته خليطة من المدنية والعسكرية، يزيد من روعتها وجلالها أنَّ الرَّجل في محاضرته عَكَسَ روحًا تفيض إنسانية وطيبة، وتحترقُ بحسٍّ مرهف لآلام الآخرين، وتعاسة حياتهم، مندفعة إلى الانتصار للحقّ والعدل والسَّلام.

ومن هذا، يتبيَّن أنَّ الشيخ ديدات قد وفِّق في الاختيار بما يستحق بسببه الاعتبار والشكر. ولا سيَّما الاستلهام والمحاكاة، وأمَّا العوامل الموضوعيَّة. فتتمثل في حساسية الموضوع، ومناسبة المكان، بالإضافة إلى خطورة الحقائق التي كشفت عليها المحاضرة لمَنْ ربَّما يجهل أغلَبُهُمْ حقيقة الأوضاع الجارية على السَّاحة الفلسطينية، ولا يعرفون عن جذور المشكلة وتطوراتها وعن المشروع الصهيوني وحركته، إلاَّ ما جاءهم من قبل أجهزة تزييفها الإعلامي.

---

(1) ينظر: عبد العزيز كامل: «الصَّحوة الإسلامية بين الجسور والعقبات»، ص 34، من مجلة العربي، ع/ 342/ س 1987م.

ولهذه الاعتبارات، عمد المحاضر إلى إماطة اللِّثام عن حقيقة المأساة، وطبيعة الظُّلم الصَّارخ، وكافة صنوف التَّعذيب والقهر، ممَّا يتعرض له الشَّعب الفلسطيني من خلال مسلسل العدوان الصهيوني، وممارسات جنوده الموغلة في الوحشية والمعنة في الشذوذ. وقد دفعت به فظاعة المشاهد والتَّصرفات اللاإنسانية إلى التعريج في محاضرته على مظاهر الحرمان الَّذي يعانيه الشَّعب الفلسطيني في مختلف المجالات، من حيث المياه الكافية للزراعة والحياة، فرص التَّعليم، المواصلات، والاتصالات، والخدمات الطِّبية، وغيرها(1). كما قادته الأسباب نفسها للتطرق إلى تصوير بعض ما يقع على الفلسطينيين من قتل، واعتقال، وقمع وتنكيل، وهتك للأعراض، وامتهان لشرف الآدمي، وتمريغ لكرامة الإنسان في وحل العار والدَّمار(2). فيا لدماءٍ تراق ليلاً ونهاراً على مرأى ومسمع من العالم، وليس ثمة من يحرك ساكناً !!

هذا.. والملاحظ أنَّه يعرض لكلٍّ ما عرض له، وهو ينوء بثقل فداحة المصيبة، - التي يعترف - متألماً بأنَّ دولة بلاده أمريكا هي الَّتي يَقع عليها كامل المسؤولية إزاء ما يصبُّ على الشعب الفلسطيني من عذاب، واضطهاد، يتمّ بأيد صهيونية ولكن بدعم ماديٍّ ومعنويّ وعسكريّ أمريكي.

ومن الأمثلة على هذا الاعتراف المتكرر في غير ما موضع من محاضرته، قوله: «إنَّني كأمريكي أحني رأسي تعبيراً عن الإحساس بالعار وأنا أذكر لكم هذه الحقائق لأنَّني أعرف أنَّ أمريكا هي نهر الحياة بالنِّسبة لإسرائيل، وبدون تدفق هذا النَّهرِ لاتستطيع إسرائيل أن تَقوم بهذه الأنواع البشعة من الممارسات السِّياسية لإنزال العقوبات بالشَّعب الفلسطينيّ»(3).

وفي ختام محاضرته، ينذر ويحذِّر الصَّهاينة من مغبة عتوّهم وفسادهم، بشيء

---

(1) ينظر: العرب وإسرائيل شقاق... أم وفاق، ص 21- 25، مصدر سابق.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص 25-28.

(3) المصدر نفسه ص 24، وينظر: أيضاً ص 20، 23، 25، 27.

من نصوصهم المقدَّسة ساقه في قوله : إنَّني أقول للإسرائيليين إنَّني أذكركم بما ورد بالكتاب المقدَّس إذ يسأل : «هل يمكن أن أبارك لكم وأنتم ترتكبون كلّ هذه الخطايا؟ لكلّ هذه الخطايا سأدمّركم»[1] .

وممّا يلفت النَّظر في محاضرته ، استنادها إلى خلفية جهود فكرية وإعلاميَّة ، كان يزاولها رجل من اليهود اسمه : «إسرائيل شاحاك» مناضلاً من أجل قضية عادلة ، وغاية إنسانية لخَّصها المحاضر فندلي بقوله : « . . . . إنَّه يطالب بإخلاص بإنصاف الفلسطينيين من ادِّعاءات واتِّهامات الكذَّابين في إسرائيل . . . . وهو ينادي بالمحبَّة التي نادى بها الكتاب المقدَّس بين البشر كافة . . . وهو يطالب اليهود بالتَّكفير عن ذنوبهم وخطاياهم الَّتي اقترفوها بحقّ جيرانهم ، وهو يحاول أيضًا أن يوقظ مواطني الولايات المتحدة الأمريكيّة من سباتهم لكي يدركوا ما يحدث حقيقة ، وأمريكا هي أهمّ أسباب الحياة لدولة إسرائيل . أمريكا هي الَّتي تمدّ إسرائيل بأهم أسباب الحياة . ومن الضَّروري أن يعرف الأمريكيون ما يجري داخل دولة إسرائيل»[2] .

ومن الوسائل الَّتي يستخدمها هذا المناضل الكبير ، رغم يهوديته ، ترجمة الحقائق التي تَرِدُ في الجرائد ، والصُحف ، والمجلات التي تصدر باللُّغة العبرية في الكيان الصهيوني ، عن تطوّرات الصِّراع في فلسطين ، وإرسالها باللغة الإنجليزية إلى كثير من كبار الساسة والمتنفذين في أمريكا ، وبخاصَّة المختصين في كلّ من الكونجرس والحكومة ؛ ذلك «أنَّ (شاهاك) لا يهتمّ بالصَّحافة الإسرائيلية الَّتي تصدر في إسرائيل باللغة الإنجليزية ، إنَّه يهتمّ فحسب ويترجم من العبرية إلى الإنجليزية مقتطفات من الصحف الإسرائيلية النَّاطقة باللغة العبرية ، والصَّحافة العبرية هي الَّتي تنطق بالحقائق في إسرائيل»[3] . وغيرها مصممة للتضليل الخارجي . والظاهر أن المحاضر بول فندلي قد أفاد في نضاله الفكري ضدّ الصهاينة من المنهج الذي اختطّه لنفسه الدكتور «إسرائيل

---

(1) المصدر نفسه 30.

(2) المصدر نفسه ، ص 19-20.

(3) المصدر نفسه ، ص : 20.

شاهاك» الذي اشتغل رئيساً للرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان، كما عمل مدرساً لمادة الكيمياء في الجامعة العبرية بالقدس، إلى جانب كونه مؤلف كتاب بعنوان: «عنصرية دولة إسرائيل»[1] فكان لمنهجه من التأثير، وفيه من الحكمة ما جعل، فندلي ينسج على منواله. ويستقي من معلوماته لتغذية محاضراته وغيرها، من رسائل ومنشورات.

ولعلَّ كتابه المعنون بـ«من يَجْرُؤ على الكلام... اللُّوبي الصهيوني وسياسات أمريكا الدَّاخلية والخارجيّة» الشهير بقيمته الفكرية والسِّياسية يعدّ- بغض النَّظر عن أسباب وظروف تأليفه - أوضح دليل على ذلك، إذْ تناول فيه تشعُّبات النَّشاط الصهيوني المتسرب إلى كافة جوانب ومجالات الحياة في المجتمع الأمريكي، كاشفاً عن تسلط نفوذه على المراكز التَّشريعية، والتنفيذية، والقضائية، والإعلاميَّة، وحتى العلميَّة والعسكرية، كذلك بما فيها مختلف الجامعات، ودوائر الأمن والاستخبار. ويتوصَّل قارىء الكتاب إلى أنَّ المؤلّف استطاع أن يصوِّر بأدلَّة واضحة وصادقة، بأنَّ الصَّهاينة يمارسون على المجتمع الأمريكي - بما لا يتناسب مع عددهم - تأثيرا سياسيّاً كبيراً وإعلامياً خطيراً، لهما انعكاسات سلبية في مجريات حياته، وقد بدأت تظهر آثارها بالفعل. وقد قال حكاية عن أحد من حاورهم من كبار شخصيات أمريكا: «... ولو عرف الشَّعب الأمريكي مدى قبضة هؤلاء الصَّهاينة، على حكومته لهبَّ إلى السِّلاح. فمواطنوها لا يعرفون شيئاً عمَّا يجري»[2].

ذلك أنَّ الصَّهاينة يكرسون كلّ جهودهم لممارسة التَّجهيل على الشعب الأمريكي، وللعمل على بقاء هذا الجهل، ودوام سيادته. خصوصاً فيما يتصل بقضايا السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة، ولا سيما حَقيقة القضية الفلسطينية بالأخص. ولا أدل

---

(1) ينظر: الصَّهيونية والعنصرية: أبحاث المؤتمر الفكريّ ببغداد حول الصهيونية، ج1/ 44، ط1/ 1977م، من منشورات المؤسسة العربية للدارسات والنَّشر.

(2) بول فندلي: من يجرؤ على الكلام، ص 269، ط3/ 1406= 1986م، شركة المطبوعات للنَّشر والتَّوزيع. بيروت، لبنان. وانظر: أيضًا ترجمته عند عصام شريح، في مقاله: : "يهود معارضون للصهيونية، ص: 32، مجلة الدوحة، ع/ 72، س 1402 = 1981م، الدوحة، قطر.

على ذلك من الصعوبات التي واجهها بول فندلي نفسه بشأن نشر كتابه المذكور[1].
فضلاً عن التَّهديدات التي وجِّهت إليه على امتداد مسيرته النِّضالية من أجل الكشف عن الحقّ، وتعرية الحركة الاستدمارِيَّة، الصهيونية العالميَّة.

وقد نَقَل في هذا الصدد عن أحد علماء العهد القديم رأياً علميا هاما، يجب الاهتمام بنشره والإعلام به، وذلك في قوله: «يستنتج بيغل، كغيره من العلماء التوراتيين أنَّ الأساس الَّذي يعتمده المسيحيّون المؤيدون للصهيونية بناء على الكتاب المقدَّس بشأن قيام إسرائيل الحديثة، لا يصمد أمام التَّمحيص الدَّقيق، ويمكن تلخيص استنتاجاته في نقطتين:

أوّلا: أنّ نبوَّة عودة شعب إسرائيل إلى فلسطين كانت قد تحققت بالعودة من بابل كما جاء في التَّوراة. ولا علاقة لذلك بإسرائيل القرن العشرين.

ثانياً: أنَّ وعد الله إسرائيل «بالأرض» لم يكن دائماً بل مشروطاً، وقد خرقته إسرائيل أيَّام التَّوراة بتقصيرها في إطاعة وصايا الله، وهكذا تكون قد خسرت الوعد»[2].

ولكن ما مدى إمكانية نشر معلومة كهذه في مجتمع يدَّعي حرّية الفكر والتَّعبير. بينما فندلي يقول: «إنَّ حريَّة الكلام في الولايات المتَّحدة آخذة في الانهيار»[3]، ويستطرد في إيراد شواهد على هذا الطَّرح بقوله:

إنَّ الَّذي ينتقد السياسة الإسرائيلية بصورة مستمرة يجر على نفسه متاعب الرَّد المستمرّ المؤلم، بل وخسارة مصدر رزقه بسبب ضغوط اللوبي الصّهيوني العنيد، فرؤساء الجمهورية يرهبون، والكونغرس ينفذ أوامره، وبعض الجامعات المحترمة تتجنَّب البرامج الأكاديمية والهبات الَّتي يعارضها، وعمالقة الإعلام والقادة العسكريون ينحنون تحت قسم أو أكثر منه، وبدلاً من الحكم على قيمة حجج منتقدي إسرائيل وآرائهم، فإنَّ

(1) ينظر: مقدّمة المصدر السابق، وأيضاً، ص 511-538.
(2) المصدر نفسه، ص 401.
(3) المصدر نفسه، ص511.

هؤلاء يجدون فجأة أنَّ دوافعهم وقيمهم الخلقية الأساسية أصبحت موضع شك، ومهما تكن انتقاداتهم معتدلة، فقد يتهمون بأنَّهم أدوات صمَّاء في أيدي لوبي النفط أو مدافعين عن الإرهابيين العرب، أو حتَّى أعداء السَّامية[1].

ولذا؛ فإنَّ من النَّوادِرِ حقا، أن نجد بول فندلي مع كلِّ ما أتى على ذكره من أسطورة سياسية للحركة الصهيونية، وخنق فكري، وتغييم إعلامي منها على المجتمع الأمريكي. ما يزال متفائلاً بإمكانية عمل شيءٍ مَا إيجابيّ، من منطلق المواجهة الفكرية، واحتمال النَّجاح فيه، طبقاً لما حدَّده في قوله: «. . . يقوم نفوذ اللوبي (الصهيوني) أساسًا على مجموعة خرافات، يمكن لبرنامج تربويّ موسَّع معقول أن يحطمها بسهولة»[2].

ولكن كيف يتأتَّى تنفيذه؟ فهذا ممَّا لا يجيب عليه من جرؤ على الكلام في وسط قلَّ من يجرؤ فيه على الكلام.

ولعلَّ صمته يدلّ على رضاه بفاعليَّة منهجه هذا، فكريّاً وتربويّاً. خصوصاً، وقد أثار بنضاله وِفْقَهُ زوبعة عاصفة في أوساط صهاينة الولايات المتحدة الأمريكية الَّتي تمثل أبرز أنموذج وأوضح مثال لتغلغل الفكر والنَّشاط الصهيونيين في أحشائها، الأمر الَّذي يبرر ويفسّر كون المهاجرين منها إلى الكيان الصهيوني «هم أشدّ اليهود تعصّبًا وأذية للعرب، وأنَّهم يشكلون أكثرية العناصر التي تقيم في المستعمرات الَّتي تنشئها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة»[3].

ومن هنا ندرك أهميّة هذه الخطوة الساحقة في نضال ديدات الفكري ضدّ الصهيونية، ليست كمجرد أسلوب جديد في هذا المسار، بل هي كذلك مَعْلمة مميَّزة على طريق السَّائرين وفق منهجه، من رجال الدَّعوة، والفكر.

---

(1) المصدر نفسه، ص 511- 522.

(2) المصدر السابق، ص 522.

(3) «التبشر باليهودية وسياسة التوسّع الإسرائيلي» ص 17، من مجلّة الأمَّة ع / 20، ، سبق ذكره.

وقد قال الشيخ ديدات في مؤتمر طرابلس: «نحن نبكي على فلسطين، ونشتكي من الصهيونية ونشتكي من أمريكا وكأنَّ الصهيونية وأمريكا هما إله هذا العالم وعندما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾. هل استثنى الصهيونية؟ وهل استثنى أمريكا؟ لا. قال «كلّه»، ويعني كلَّهم، والطريقة الَّتي تنجز بها هذه المهمة كما يقول الله تعالى هي عن طريق الفكر.. إنَّ قدر الإسلام هو أن يلحق الهزيمة بكلِّ أيديولوجيَّة عن طريق الفكر»(1).

ولكن، يظهر في الحقيقة، أنَّ طريق الفكر ما يزال حتى الآن غير واضحة المعالم، بالنسبة للمسلمين. ولعلّ ممَّا يؤكد هذا، شهادة من أحسن في التَّعبير عن الحال، في تصويره النَّاقد للوضع، وذلك منذ عقود خلت، إذ قال: «إنَّنا لا نعرف كيف نخاطب أنفسنا ولا سوانا، عندما نتحدّث عن فلسطين، فنفوسنا لم نملأها إلا بالهواء، وعقول سوانا لم نبعث لها سوى رشاش من الحماسة والزَّبد المتخثر على الأشداق، فلم ننشر في النَّاس سوى الهباء، ولم نرسل فيهم سوى الفقاقيع، وإن ما نزعم أنَّه كلام ودفاع، لم يكن سوى صراخ أجش، واختلاج مريض، وهذيان مرسل على سجيته البدائية، هي بضع رصاصات من القول الطائش أطلقناها في الفضاء بفيض حماسي، قبل دخول المعركة، وعندما غدَونا في خضمها، كانت بنادقها فارغة، وحماستنا منطفئة»(2).

إذن، فما تزال الظُّروف والفُرصُ مهيَّأة لحدٍّ الآن، للقيام بتنظيم مواجهة فكرية راشدة، يقودها دعاة مسلمون، ومن غير المسلمين يستعان فيها بالقيادات الفكرية، والشَّخصيات اللاَّمعة سياسيّاً واجتماعياً، لكي نقنع العالم بالحقيقة التي هي حقُّنا، وديننا ويجب أن تصل إلى النَّاس كلِّهم، لتسعد الحياة، وينسجم البشر مع سننها، ومبادىء العمران السَّليمة.

وأعتقد أنَّ كلّ فريق محترم من النَّاس، وكلَّ صنف معتبر ومناضل من أجل خير

---

(1) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدَّعوة الإسلاميَّة، ص 33، سبق ذكره.

(2) فؤاد الشَّايب «كيف نجابه إسرائيل» ص 269-270، من مجلة المعرفة، ع/ 49، س 5= 1966م، دمشق.

الإنسانية وسلامتها، مدعوّ للمشاركة مع المسلمين في هذا النِّضال الإنساني العظيم، بمختلف الأساليب الفكرية والثقافية، وبكافة الوسائل الإعلامية المتاحة في عالمنا اليوم. وقد نصَّ المؤتمر الفكري ببغداد حول الصهيونية والعنصرية، على ما يؤكِد هذا التجنيد والاستنفار العالمي، وذلك في توصيته القائلة: «إنَّنا نناشد جميع الأفراد والمنظمات والحركة السَّاعية نحو السَّلام والعدل أن تشارك في النِضال ضدّ الصهيونية، يحفزنا على ذلك تزايد إدراك العالم كلّه للطبيعة العنصرية الرَّجعية للصهيونية، هذا الإدراك الذي جاء قرار الأممّ المتَّحدة علامة بارزة عليه. ونناشد المفكرين والمؤسسات الأكاديمية بصفة خاصَّة أن تولي اهتماماً جدّياً لهذه القضيَّة، وأن تخوض الحملة التي تستهدف القضاء على الصهيونية، وكلّ أشكال العنصرية الأخرى»[1].

فالمهمَّة هي بالتَّحديد: القيام بحملة إقناعية واسعة النِّطاق زماناً ومكاناً، وأسلوبًا ووسائل، لتبصير النَّاس باليهودية كديانة قد تجاوزها الزَّمن، ولم تعد بعد ظهور الإسلام صالحة حتى لمن تخصّهم. وبالصهيونيَّة كذلك كحركة معادية لسائر النَّاس، تبيّت لكلّ الأمم والشعوب الكيد والمكر، وتريد الإيقاع بهم في أوحال الشّر والدّونية والهوان. فليست دعواها بـ(دعوة شعب الله المختار) من العقيدة الدِّينية الحقَّة في شيء، بل هي مطلب سياسي بحتٌ، لا يمتّ إلى التعاليم الدِّينية والقيم الأخلاقية بصلة غير واهية ومزيَّفة.

ونؤكد بأن ليست المشكلة دينية، وإنَّما هي أيديولوجيَّة مناطها دعاية جماعة من أمهر النَّاس في الدِّعاية بأنَّهم شعب الله المختار، وأنَّهم مفضلون بالإطلاق على الآخرين، وبموجبه يستحقون محاربتهم، والاستيلاء على أوطانهم وممتلكاتهم.

ومن الأمور الَّتي لها حسابها في هذه الحملة الفكرية الَّتي يعدُّ ديدات من أبرز قادتها، أنَّ ثمة مضايقات وتهديدات يتعرَّض لها في الغالب من ينازلون الصَّهاينة في هذا الخندق،

---

(1) الصَّهيونية والعنصرية، ج2/ 223، سبق ذكره.

ويقمعونهم بالحجج والأسلحة الفكريَّة. وما مثال المفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي عنّا ببعيد، إذ «أحدث كتاب جارودي (الأساطير المؤسسة للسِّياسة الإسرائيليّة) دوياً هائلاً في العالم كلّه، فقد كان أوّل مفكرٍ عملاق يفنِّد الادّعاءات الصهيونية الكاذبة الَّتي يثير بها الصهاينة في العالم، وبرهن على أنَّها خرافات ما أنزل الله بها من سلطان»[1]. ولهذا السَّبب قُدِّم هذا المفكر الكبير في بلاد الحرِّية على الطريقة الغربية!! للمحاكمة أكثر من ثلاث مرَّات، مثلما تعرَّض كغيره من المناضلين للتهديد بالقتل، كما سحبت في أداء المهمة ذاتها من أحد الباحثين المنصفين درجة الدّكتوراه لأوّل مرَّة في تاريخ فرنسا، وفصل المشرف عليه بقرار من وزير التَّعليم[2]!!.

وما نقموا منهم إلاّ أن قالوا الحقّ، ودافعوا عنه بالعلم والإعلام. وأظنّ أنَّ هذا يعني التأكيد على أنَّ خط المواجهة الفكريَّة والإعلاميَّة هو من أوقع المسالك وأقواها في النِّضال ضدَّ اليهود والصّهاينة، وهذا على الأقلّ ممَّا تكشف عنه تجربة كلّ من ديدات، ورجاء غارودي، وبول فندلي، وإسرائيل شاهاك. على سبيل المثال لا الحصر.

ومن صعوبة المواجهة، ولا سيَّما في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، تسلط اليهود والصَّهاينة على كافة الأجهزة الفاعلة والمراكز الحساسة في مختلف ساحاتها: سياسيَّة، واقتصادية، وإعلاميَّة، وغيرها. ولذا على حدّ قول الرَّأسمالي الأمريكي الشَّهير هنري فورد: «لا يخفي اليهود مطلقاً ما يتمتعون به من نفوذ في هذه البلاد، فهم يزعمون أنَّ جوهريات الحياة الأمريكية يهودية لا مسيحيَّة، وأنَّ من الواجب إعادة كتابة التَّاريخ الأمريكي، للاعتراف اعترافاً صحيحاً بما في أمجاد يهوذا من أفضلّية»[3].

على أنّي لا أبتغي ببيان هذه الصعوبات تثبيط همم ما تزال ضعيفة، بل

---

(1) رجاء جارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.. ومحاورات جارودي بالقاهرة، ص 229. من منشورات: دار الغد، العربي، القاهرة. د.ت.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 295، وينظر: أيضاً ص 7، 190-191، 125 - 219، من نفس الكتاب.

(3) هنري فورد: اليهودية العالمية، المشكلة الأولى الَّتي تواجه العالم، ص 26، تعريب خيري حمَّاد، من منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان. د.ت.د، ر.

فبالعكس، لأنَّ هذا ممَّا تتطلبه عمليَّة المواجهة الظَّافرة، لشحذ الهمم، وتشحين النّفوس بما لا بدّ من العلم به من حقائق ميدانية لا يُسْتغنى عنها.

فنحن هنا على اتفاق تامّ مع الأسْتاذ العقّاد في قوله: «ممَّا لا نشك فيه أنَّ جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالميَّة في الولايات المتحدة تستطيع أن تقهرها وتمحو أثرها، ولو لم تبلغ مليونًا واحدًا يحاربون خمسة ملايين»[1] ذلك لأنَّها مبغوضة إلى جمهور الشعب الأمريكي، فضلاً عن أنَّ التَّناقض ضارب بمعوله في كيَانها من الأساس، حيث إنَّ نقاط الضّعف، وهي كثيرة في المنظومة الصهيونية، من تعصّب دينيّ وعنصري، وإجرام وإفزاع، واحتلال وإبادة[2]، من الأمور الَّتي يضمن حُسْنُ استغلالها الفكري والإعلامي تأثيرا واسعاً، كما يجلب مردوداً طيّباً وهائلاً. ومستندي في هذا الرَّأي هو ما سجَّله أحد كبار موظفي الحكومة الأمريكيّة من اعترافات وجَّهها في رسالة بعث بها إلى كاتب يهودي مضادّ للصهيونية، وذلك فور قراءته لكتاب هذا الأخير. ومما جاء فيها قوله: «لقد فرغت مؤخراً من قراءة كتابك.. وأصارحك القول بأنَّه قلَّب تفكيري. أو بالحري حاجتي إلى التفكير. رأساً على عقب، ذلك أنَّني كنت مؤيّداً لبن غوريون بفكري وقلبي 100٪. ولو كنت يهودياً وثرياً لوجد فيّ الصَّهاينة الفريسة المثلى.. لا رَيبَ في أنَّ أهل الغرب عموماً. باستثناء اللاّمبالين منهم، يهيمون في غمرة الدّعاية الصهيونية كما كنت أهيم قبل قراءتي لكتابك»[3].

وهذا بالإضافة إلى منظمات وشخصيات يهودية معادية للصهيونية، ومنهم من المعاصرين مثلاً: إدموندهاناور من مواليد عام 1938م، وهو أستاذ علوم سياسيَّة، ومن أنشط اليهود الأمريكيين المعادين للصهيونية، وخاصَّة بعد انفصاله عن عضوية

---

(1) عباس محمود العقَّاد: الصَّهيونية العالميَّة، ص 76، منشورات المكتبة العصرية. صيدا - بيروت - لبنان، د.ت، د.ر.

(2) ينظر: عرض محمود السّمرة لموضوع: "التَّغلغل الإسرائيلي في أفريقيا وطرق مجابهته، ص145، من مجلَّة العربي، ع/ 165، س 1392 هـ= 1972ف.

(3) من عرض يوسف زعبلاوي لكتاب موشي منوهن: "تدهور اليهودية وانحلالها" ص73، من مجلة العربي ع/ 100 س1967ف.

المجلس الأمريكي اليهوديّ، وله نشاط واسع في المشاركة في المؤتمرات، والنَّدوات واللِّقاءات المناهضة للصهيونية، وفي الكتابة كذلك، وبكثرة في مختلف الدَّوريات المقاومة للصَّهيونية، ولا سيما نشرة أخبار فلسطين الشَّهرية، والتي يشرف على تحريرها بحكم تبعيَّتها لتلك المنظمة التي أسسها عام 1973م، باسم: «البحث عن العدل والمساواة في فلسطين». وتدعو باستمرار إلى الضَّغط على الحكومة الأمريكيَّة من أجل اتِّخاذ سياسة عادلة لحلّ كلّ المشكلة الفلسطينية حلاً جذريّاً وحاسماً[1].

ومن جانب آخر فمنذ قرابة سنة من هذا التاريخ، تصدَّى للصهيونية والصَّهاينة أحد قيادات الحزب الدِّيمقراطي الأمريكي، فأصدر بياناً يحذِّر فيه خصوصاً الرئيس الحالي لحكومة الكيان الصهيوني وأركانه بقوله: «إنَّنا وجميع أولئك الذين يفهمون الإستراتيجية للدول الموكلة إلى هؤلاء القياصرة الإسرائيليين، نعرف تمام المعرفة، مثلما كان رئيس الوزراء (رابين) يعرف أنَّ النتيجة النِهائية لما يفعله شارون وأسياده في (قوات الدِفاع) ستكون محو إسرائيل، بينما سيتحول الهيكل الثالث الَّذي يزمع بناؤه فوق موقع الحرم الشَّريف إلى فرن حرق جثة إسرائيل. . .»[2].

وقد أعلن هذا المناضل السِّياسي البارز قيادة حملة فكرية وسياسيَّة وتحريض شعبي ضدَّ النِّظام السياسي الإسرائيلي الَّذي يديره السَّفاح أرييل شارون، ولعلَّ افتتاح موقع خاصّ بهذا الغرض على شبكة المعلومات الدَّولية، ممَّا يدلّ على جدية هذه الحملة، وصدق قائدها وأنصاره.

وتعتَبر هذه المواقف النِّضالية المشرِّفة في حقيقة الأمر امتداداً لجهود، كان لليهود أنفسهم دور في تنميتها، أفراداً وجماعات. فمثلاً، كان آرثركو ستيلر وهو يهودي ولد في بودَابست عاصمة المجر عام 1905م، قد قام بطرح نقيض علمي للمشروع

---

(1) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج6/ 432، مصدر سابق.

(2) ينظر: "السِّياسي الأمريكي ليندرون لاروش. . يحذر النظام الدِكتاتوري النَّازي في إسرائيل" ص 6، من مجلة العرب الصَّادرة بلندن، بتاريخ 13/ 12/ 2001 ف.

الصهيوني في كتابه: (السّبط الثالث عشر) الَّذي ضمَّنهُ خلاصة بحث تحقيقي طويل وموثق، عن أصول اليهود المعاصرين، توصَّل فيه إلى «أنَّ يهود العالم اليوم هم من المتهوّدين الَّذين لا علاقة لهم ببني إسرائيل أو العبريين، أو حتى اليهود الأوائل حسب ما يدَّعون، مع تشدّقهم بوجود جنس يهودي يتفوَّق على جميع أجناس البشر»[1].

وقد ذهب مؤلِّف «السّبط أو القبيلة الثالثة عشرة» إلى بيان منهج ونتاج بحثه فقال: «حاولت أن أظهر اتفاق الأدِلَّة الأنتربولوجية مع التَّاريخ في رفض الاعتقاد الشائع بوجود جنس يهودي منحدر من القبيلة التَّوراتيَّة . . قمت بتجميع الأدِلَّة التَّاريخية الَّتي تثبت أنَّ الأغلبية العظمى من اليهود . . يهود أوروبا الشَّرقية، ويهود العالم، هي من أصل تركي خزري وليست من أصل ساميّ»[2].

وفيما يخص الجماعات اليهودية المعادية للصهيونية، فمنها الرَّابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية الَّتي تشكلت عام 1946م، من اليهود الشِيوعيين في مصر خاصَّة دون غيرهم، بهدف التَّأكيد على البون الشاسع بين اليهودية كديانة والحركة الصهيونية كمشروع استعماري حاقد متعصِب، ولكن هذه الرَّابطة لم تستمر في نشاطها لأكثر من عشرين شهراً؛ إذْ ألقت أجهزة الأمن المصرية في عام 1948ف القبض على كلّ من لعب من اليهود دوراً ضدَّ الصهيونية وعملت على نفي معظمهم وإقصَائهم من البلاد[3]!!.

وأيضاً توجد في الكيان الصهيوني حتى اليوم طائفة يهودية قليلة العدد، تقاوم الصهيونية بشكل عنيف، وتُصِرُ، ليس فقط على عدم تمثيل الحكومة عنها، كما تعتقد بأنَّها لا تمثل كذلك عن اليهود ككلّ، بل وإنَّما على عدم القبول بدولة صهيونية حتّى ولو قَبِل العرب والمسلمون بها. والحياة عند هذه الجماعة المعروفة بـ(ناطوري

---

(1) طارق الحجي: «اليهودية في ضوء العلم» ص 89، من مجلة العربي ع / 414/ س 1993 ف.

(2) المرجع نفسه، ص 89

(3) ينظر: الموسوعة الفلسطينية، ج 2 / 441 – 442، ط1/ 1984 م، الصَّادرة، عن هيئة الموسوعة الفلسطينية، بإشراف عبد الهادي هاشم.

كارثا) هي «عبارة عن تقوى وورع. والعيش وفقًا للشَّريعة اليهودية هو في نظرهم ما يجعلهم يهودًا. أمَّا الصهيونية بالنِّسبة إليهم فهي ارتداد عن الدِّين اليهودي، لأنَّ التَّأكيد على الهوية القوميّة والعرقية تنسف أهمية الشَّريعة اليهودية»[1].

ثمّ فيمن عدا هؤلاء، فإنَّ عددا كبيراً من متنوّري اليهود ومتفهميهم اكتشفوا وهميَّة الأساطير الصهيونية، فكشفوا عنها. وعن وثيق العلاقة الاستعمارية الرّابطة بين الصهيونية والإمبريالية[2]، يقول أحدهم: «لقد آنَ الأوان لليهود أن يأخذوا في الحسبان العامل العربي كأهم عامل يواجهنا. وإذا كان لنا قضية عادلة، فهم أيضًا لهم قضيتهم العادلة، وإذا أسبغت علينّا الوعود، كذلك أسبغت عليهم وعودهم، ولعلَّ إحدى أبشع وقائع الاستعمار وأكثرها قربًا إلى الواقع هي أنَّ العرب يعيشون هنا وفي هذه الرُقعة من العالم، وسَيَبْقون هنا إلى ما بعد انهيار استعمار ونشوء استعمار آخر، وإذا كنَّا نحن أيضًا نرغب في العيش في هذا المجال الحيوي، فعلينا أن نعيش مع العرب»[3].

وهكذا يتكشف لنا، كما قد تبدّى لديدات من قبل أنّ تعبئة الجماهير في كلّ مكان، بإثارتها وإقناعها فكريّاً بضرورة التَّصدي للحركة اليهودية الصهيونية، هي ما سوف يسهم في إرغام هذه الحركة الدِّينية الاحتلاليّة، والإيقاع بها في قعر الهزيمة الفكرية والسِّياسية، على مستوى الرَّأي العامّ العالميّ.

فنحن إذن على شاكلة ديدات أمام مواجهة فكريَّة، وحملة إقناعيَّة بحقائق أصيلة ناصعة، ممَّا يقلق الصَّهاينة، ويشعرهم بأنَّهم مطوَّقون في أضيق الزوايا وأخنقها.

ولعلّ بوسع المسلمين، وبخاصَّة الدُّعاة ورجال الفكر والإعلام بما تتوفر للأمة من إمكانيات مادية ومعنوية متعدِّدة، إحراز ما يُنْتَظر منهم من انتصارات منشودة في مواجهة الفكر اليهوديّ الصهيوني، وخصوصاً إذا ما اتَّجهنا عملياً بخطابنا الدَّعوي

---

(1) «يهود معارضون الصّهيونية» ص 33، من مجلة الدَّوحة، ع/ 72، سبق ذكره.

(2) ينظر: مجابهة الغزو الثَّقافي الإمبريالي الصهيوني للمشرف العربيّ، ص 259. سبق ذكره

(3) نقلاً عن كتاب: الصهيونية والعنصرية، ج1/ 73. وينظر: ص 377، من المصدر نفسه، وقد سبق ذكره.

ونحن نتصدى لليهود والصّهاينة بالحوار وعن طريقه نحو المزيد من :

أ - التّعمق في دراسة ونقد مصادر فكر اليهود والصّهاينة :

لقد بات من قبيل ما هو معلوم القول بأنَّ علماءنا القدامى تعمقوا في دراسة كتب اليهود ونقدها في ضوء القرآن والسُنَّة، وكانت لهم إزاءها من حيث الرّفض المطلق، والقبول الجزئي مواقف عدَّة، وآراء متباينة. تتراوح ما بين المغالاة في الرَّفض أو القبول[1] كما كان لبعض من أسلم من اليهود إسهام نقدي في الرَّد على سابق معتقده الَّذي تحوَّل عنه إلى الإسلام، من أمثال صمويل بن عبَّاس المعروف باسم يحيى المغربي (1125- 1175) الَّذي ولد في بغداد، وتنقَّل في مناطق متفرقة، وكتب كتيباً بعنوان: «إفحام اليهود»[2].

ولكن بالرُّغم من كلِّ الجهود الكبيرة التي عُرف بها علماء المسلمين، في ميدان دراسة المعتقدات ونقدها. فإنَّ بعض المعاصرين يندفع إلى القول بأنَّ «ما يسمى بعلم مقارنة الأديان ولد يهوديّاً، بل أكثر من روّج له هم اليهود . . . والهدف منه تمييع الفواصل الحاسمة بين عقيدة الإسلام والعقائد الكفرية، اليهودية والمسيحية هي العقائد المطالب المسلمون الكفر بها»[3]. هذا والغريب في أمر صاحب هذا القول الذي لا يصحّ، أنه يؤسس عليه هجومه العنيف على من يشتغلون بهذا العلم من أمثال الدكتور أحمد شلبي، على حدِّ ذكره، مدَّعياً أنَّ لمنهجهم العلمي خطورة بالغة على عقيدة الأمَّة المسلمة ودينها. ولعلّهُ استند في ذلك إلى قول بعضهم بأنَّ الفيلسوف الهولندي اليهودي الأصل باروخ إسبينوزا (1632-1677) يعدّ «من أوائل الّذين وضعوا دعائم العلم الّذي يسمى نقد العهد القديم؛ أي النَّقد التَّاريخي للكتب المقدَّسة»[4]. وذلك في كتابه «رسالة في اللاّهوت

---

(1) ينظر: كلاً من: قواعد المنهج عند ابن حزم، ص 524-525، وكتاب: أحمد محمود صبحي، في علم الكلام ج1/ 43 سبق ذكرهما.

(2) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج5/ 335. سبق ذكره.

(3) جمال عبدالهادي محمد مسعود، وآخر: الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء، ص 50 ط 3/ 1410هـ= 1990م، دار الوفاء، المنصورة - مصر.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 47- 13.

والسيّاسة» الّذي يقال بأنّه قد ضمّنه نقده اللاّذع لليهودية كديانة، منكراً العديد من مبادئها، مثلما أفاض كذلك في الكشف عن سلبيات اليهود من النّاحية الأخلاقية، وفيما يتّصل بعلاقاتهم مع غيرهم من الجماعات[1]!.

على أنّه مهما يكن لإسبينوزا من دور علميّ في تطوّر الدّراسات النّقدية حول العهد القديم خاصّة، فإنّ التّأسيس والأسبقية يعود بحقٍّ لعلماء المسلمين، ممّن سبق ذكر بعضهم فيما مضى. ولا ننكر بعد هذا أن يكون النّقاد قد توصلوا إلى المزيد من الدلائل العلميّة المفيدة بأنّ ما يسمّى بالّتوراة اليوم ليست من تأليف شخص واحد بعينه. ولا حتى جيل واحد، استناداً إلى نتائج كلّ ممّا يعرف بمنهج النّقد الأولي النصي، والنقد العالي التاريخي والأدبي، بالإضافة إلى النّقد الشكلي الّذي يتتبع أصول وتاريخ الموضوعات بدراسة علمية مقارنة[2].

إذن، فلا غرو من ظهور دراسات تتناول موضوع التّحريف، ومن ثمّ فلا غرابة أيضًا في تأثير نقد العهد القديم في اليهودية المعاصرة، حيث إنّ «اليهودية الإصلاحية تنطلق من تقبل نتائجه، فهي تنطلق من دنيوية أو نسبيّة أو تاريخية أو زمنية التُّراث الدِّيني اليهودي بأسره. وهذا يعني أنّه ليس مرسلاً من الإله، وإنّما نتيجة قريحة عقل الإنسان، وربّما بإلهام (وليس بوحي) من الإله، ولا تختلف اليهودية المحافظة أو التجديدية عن اليهودية الإصلاحية في هذه النّاحية إلاّ من نَاحية الدّرجة»[3].

إذن، فليس من الصعوبة بمكان شاق، عندما يقدَّر لحملة الخطاب الدّعوي التحاور مع عناصر يهودية وصهيونية، إحراجهم في زيف معتقدهم وتفاهته، طالما أخضعنا مصادرهم المعتمدة لديهم لدراسات علميّة مُتعمّقة، ووضعناها - وهذا هو

---

(1) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج3/ 380 - 381.

(2) ينظر: محمد بحر عبد المجيد: «التّوراة بين الحقيقة والتزييف» ص 332، من مجلة كلّية اللغة العربية والدّراسات الإسلاميةع 1/ س 1/ 1393-1394 هـ = 1973-1974م، من منشورات جامعة بنغازي - ليبيا.

(3) المصدر ما قبل السابق: ج 5/ 104. سبق ذكره.

الأهمّ على محك المحاكمة النَّقدية الصّارمة - للكشف عن تناقضاتها، وضلالاتها الكثيرة. والَّتي يمكننا تصنيفها مبدئياً إلى ثلاثة موضوعات رئيسة وهامَّة بالنِّسبة لحواراتنا الدَّعويّة في مقابل اليهود والصَّهاينة، وهي كالآتي:

1 - توحيد اللَّه تعالى وعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام:

بالرّغم من دعوى اليهود ودعايتهم بأنَّهم هم أوّل من دعا إلى التَّوحيد في تاريخ الإنسانية، وأنَّ اليهودية ديانة حقَّة[1]، يجمع الدَّارسون قديماً وحديثاً على أنّ عقيدتهم في إلههم تقوم على تجسيمه، وتشبيهه بالبشر، وقد تنزَّه الله ربّ العالمين عن ذلك وتعالى علوّاً كبيراً. ولذا ينقض ابن حزم الأندلسي عقيدتهم في عرضه لما بها من مظاهر التَّجسيم، وصور التَّشبيه بما يفيد عنده تطرق التَّحريف إلى التَّوراة بأيدي اليهود، وأنَّها ليست وحياً خالصاً من عند الله[2].

ويدل على ذلك قول أحد الباحثين: «إنَّ التَّوراة اليهودية المكتوبة والتّلمود المنطوق لا يوجد فيهما ذكر للحياة الآخرة. ويوم البعث أو يوم الحساب. ولا يذكران عن الرُّوح شيئاً، بخلاف التّوراة المنزَّلة»[3].

وفيما يخصّ عصمة الأنبياء عليهم السّلام، فإنَّ أسفار اليهود قد تطاولت عليهم إلى حدّ لا يتصوّر حتى في حقّ إنسان خليع ماجن، لا سيَّما من عصمهم الله باصطفائه إيَّاهم لهداية البشر، وتوجيههم نحو الحقّ، والخير والفضائل.

وقدْ ذهب صاحب مجلَّة المنار إلى استقصاء نماذج ممَّا نسب إلى أنبياء الله الكرام في كتب اليهود من فضائح أخلاقية، يذوب المرء لذكرها خجلاً وحرجاً[4].

---

(1) ينظر: «سفر تكوين الفكرة الصهيونية» ص 88، من مجلة الفكر المعاصر، ع68، عام 1970، سبق ذكره.

(2) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، ج1/ 253-256، مصدر سابق.

(3) فوزي محمد حميد: عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، ص 363، ط 2/ 1428= 1999ف، من منشورات: جمعية الدّعوة الإسلاميّة العالميّة، طرابلس: الجماهيرية.

(4) ينظر: «حكايات الفجور في كتب العهد العتيق» ص497، من مجلَّة المنار، مج15/ ج7 س1291هـ= 1912م.

فعقب عليها مستنكراً بقوله: «فما الفائدة من الإطناب والإكثار من حوادث السّكر والزّنا وفسق الإنسان ببناته وأخته وامرأة جاره، ونساء أبيه وامرأة ابنه في كتب مقدَّسة جاءت لنشر الآداب والفضائل بين النَّاس، مع أن أمثال هذه الحكايات يسهل على الأشرار ارتكاب مثلها بعد أن كانوا يظنّون أنّ جرائمهم شاذة لم يسبقهم إليها أحد، وأنَّهم بإتيانها صاروا عاراً على المجتمع الإنساني، فكيف بهم إذا وجدوا في كتبهم المقدَّسة أنَّ أنبيائهم وهم قدوة النَّاس، وأولاد أنبيائهم أتوا بما هو أشنع مَّما اقترفوا، وقد غفر الله تعالى لأكثرهم ما فعلوا!!»[1].

والواقع، أنَّه قد عرض كثير من الدَّارسين والنّقاد لهذه الجوانب الفاحشة في العهد القديم، فمنهم الشَّيخ ديدات في مواضع متفرِّقة من كتابه: «عتاد الجهاد». وأيضاً الأستاذ أحمد شلبي في كتابه: «اليهودية»[2] وغيرهما كثير.

ولعلّ حرص اليهود على الاستمتاع بالدُّنيا، وإسرافهم في الرُّكون إلى مباهجها وشهواتها، هما في الأصل، الدَّافع الحقيقي لورود مثل تلك الافتراءات الأخلاقية ضدّ الأنبياء عليهم السّلام في أسفارهم المقدَّسة؛ وذلك تسويغاً لما في نفوسهم من ميل إلى الفحش والشذوذ.

يقول الإمام ابن قيّم الجوزيّة عن اليهود في هذا الصدد: «وضلال هذه الأمَّة الغضبيّة وكذبها، وافتراؤها على الله ودينه. وأنبيائه لا مزيد عليه»[3].

فلهذا السّبب، وبالنَّظر إلى رسالة القرآن الكريم الخالدة، وتقديراً لمسؤولية الأمَّة المسلمة المؤتمنة على رسالة التَّوحيد في هذا الكون يقول الأستاذ (إبراهيم الغويل) من باب التَّذكير والأمر بالمعروف: «إنَّنا في مواجهة نردُّ فيها عن الإنسانية كلّها خطر

---

(1) المرجع نفسه، ص 497-498، وينظر: الفصل لابن حزم ج1/ 223.

(2) ينظر: عتاد الجهاد، ص 20، 30، 37، 60، 62، وينظر: كتاب اليهودية للدكتور أحمد شلبي، ص: 172، 185، ط11 عام 1996م.

(3) هداية الحيارى، ص 208، بتحقيق الدّكتور أحمد حجازي السّقا.

التّزييف والدّس والأباطيل الّتي مثّلها للأسف اليهود الّذين لم يتورّعوا عن قتل الأنبياء وعن تشويههم حتى في كتبهم، وتصوير كلّ ما يتعلّق بالله، وكأنّه في خدمتهم»[1].

2 - أخطاء وتناقضات أسفار اليهود:

من الحقائق الّتي وثقها ابن قيمّ الجوزيّة منذ أيامه، وكان الحوار الدِّيني بين المسلمين واليهود قد تجاوزها قبل عصره، ما سَجّله معلقًا عليه في قوله: «واليهود تقرّ أنّ السّبعين كاهنا اجتمعوا على اتّفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التَّوراة . . .، ومن رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف غيره. . .»[2].

وعلى هذه الحقيقة الّتي تستند على نصوص بيّنة من القرآن الكريم، مضافاً إليها الموروث عن السَّلف في مجال الدِّراسات المقارنة بين العقائد والدِّيانات، فقد أسّس بعض المعاصرين جهودهم في دراسة وبيان الأخطاء والمتناقضات الواردة في توراة اليهود بأسفارها الخمسة، وقد توصَّل من خلالها صاحب كتاب: (التَّناقض في تواريخ وأحداث التَّوراة) إلى نتيجة مفادها: وضوح التزوير والدّس في التَّوراة، وإن اعتقد بعض مفسّريها ممَّن لم يسمّهم - بقدسيتها - وأنَّها منزلة بوحي وإلهام من الله، وتتمتع بدّقة التّأليف، وإحكام النّسج[3].

وممَّا يؤكّد ما أشير إليه، بحيث لا يمكن إغفاله، بل تجب الإفادة منه في سياق دراسة أخطاء وتناقضات العهد القديم، تلك الحصيلة العلميَّة النَّاتجة عن الدّراسات النَّقدية الدَّقيقة، والَّتي أجراها الطَّبيب والباحث الفرنسي (موريس بوكاي) للتَّأكد من موثوقية ومصداقية النُّصوص المقدسة عند كلّ من المسلمين واليهود والمسيحيين على السّواء، في ضوء معطيات العلم الحديث، ووفق تطبيقات النَّقد التاريخي. وقد توصَّل

---

(1) «الصهيونية وخطرها على الأديان» ص 141، من مجلة رسالة الجهاد، ع / 11-12، س 2/ 1392. و. ر ﷺ - 1983م، طرابلس: ليبيا.

(2) هداية الحيارى، ص 161. سبق ذكره.

(3) ينظر: محمّد قاسم محمد: التناقض في تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل، ص 598، ط2/ 1992م، مطابع ستاربرس للطباعة والنَّشر. د. م.

بالنِّسبة للتَّوراة إلى مـا أعـرب عنـه بقولـه : «. . . إنّ التـوراة تحتـوى علـى أخطـاء ذات طابع تاريخيّ . . من زاوية المنطق يمكن أن نتبيّـن عـدداً كبيـراً مـن المتناقضـات والأمـور غير المعقولة في التَّوراة»[1].

أمَّا من حيث مقابلة التَّوراة بمعطيات العلـوم التجريبيّـة الحديثـة فقـد كتـب يقـول : «قليل من الموضوعات الَّتي يعالجهـا العهـد القديـم - كالأنـاجيل- تسـمح بالمقابلـة مـع معطيات العلوم الحديثة، ولكن عندما يحدث تعارض بـين نـصّ التَّـوراة والعلـم، فإنَّـه يجيء في مسائل نستطيع أن نصفها بالمهمّة»[2].

ولعلَّه من هذا، يتبين لنا أنَّ جملة التّناقضات والأخطاء العلميَّة الَّتي وقف عليهـا دارسـو النصـوص اليهودية، ممَّا لا مخرج منهـا في أسفارهم المقدّسـة، هـي ممَّـا دفعـت باليهـود إلـى محاولات متكررة ويائسة لتحريف القرآن الكريم، كلام الله المعصوم عن كلّ تبديل وتبطيل، ومن ذلك مـا قيـل بأنَّهم في عـام 1385هـ الموافق 1965ف. «قاموا بطبـع مصحـف محرَّف يحمل الشِّعار اليهودي ونشروه بين شعوب أفريقيا وآسيا وبعض شعوب أوروبا الَّتي لا تعرف اللغة العربية ولا تقف على أسرارها، ووضعوا مصحفاً محرَّفاً، وطبعوا قرآناً عمـدوا فيـه إلـى حذف كلمات اللَّعن الَّتي أنزلت في حقِّهم، وحذفوا بعض الآيات الَّتي فضَحت مؤامراتهـم، وبينت كذباتهم وغيّروا في ضبط الآيات، وبدَّلوا بعض الكلمات . . .»[3].

وبهذا يتعمَّق إدراكنا لأهميَّة إخضاع العهد القديم لدراسة جـادّة نـاقدة، مـن قبـل حملة الخطاب الدَّعوي، توضيحاً لما فيه من ضلالات، ومتناقضات، وأخطـاء، تولّـى القرآن الكريم تصحيحها بالجملة، ودعا إلى الحقّ بتمامه وخلوده، وإنّ هـذا التَّوضيـح الذي نرومه، علاوة على كونه سيقوّض أركان أطروحة الفكر الدِّينـي اليهـودي، فإنَّـه

---

(1) موريس بوكاي : القرآن الكريم والتَّوراة والإنجيل والعلم، ص39، من منشورات جمعية الدَّعوة الإسلامية العالمية، بطرابلس. د. م. ن.

(2) المرجع نفسه، ص 36.

(3) سليمان حسين عبد الوهَّاب : "تحريف اليهود للقرآن قديماً وحديثاً"، ص93، من مجلّة منبر الإسلام، ع/ 6، س 23= 1385هـ= 1965 ف.

سوف يقود كذلك إلى الموضوع الرّئيس الثالث والأخير من بين الموضوعات التي لها اعتبار خاصّ في هذا المحور، ألا وهو:

3- الكشف عن دلائل البشارة بنبوةّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام من خلال العهد القديم:

إنَّ الكشف عن هذه الحقيقة، والقدرة على الإقناع بها، هما أهمّ ما يجب أن يتوخاه الجانب المسلم في حواره الدّعوي مع الجانب اليهوديّ. وهو موضوع قد نال اهتمام القدامى والمحدثين معًا، حتى إنَّ الإمام الرَّازي صوّر لنا موقف اليهود من هذه القضية فقال: «واليهود جميعاً متفقون على أنّ التّوراة بشرت بواحد بعد موسى، وإنّما افتراقهم في تعيين ذلك الواحد، أو في الزّيادة على الواحد، وذكر المشيحا وآثاره ظاهر في الأسفار، وخروج واحد في آخر الزّمان، اتّفق عليه اليهود، وهم منتظرون لظهوره»[1]. كما ذهب الأستاذ أحمد حجازي السّقا إلى تسجيل مدى تقدم الفكر الإسلاميّ في دراسة وتحليل المسألة، للخروج منها بإثباتات تؤكد بالإيجاب ورود دلائل هذه البشارة في العهد القديم سواء بالتّصريح أم بالتّلميح، ففي معرض حواشيه التي علق بها على كتاب «هداية الحيارى» كتب يقول: «كلّ نبوءات التّوراة تشير إلى محمّد وأوّل من نادى بتطبيقها على المسيح هو بولس لقصر النُّبوة والكتاب على بني إسرائيل إلى الأبد»[2].

وعن مكانة هذه البشارة في الخطاب الدَّعوي الحواريّ، وإمكانية تأثيرها الإيجابي في الطرف الآخر، فممَّا لا يخفى من معلومات السِّيرة النَّبوية، وتاريخ المسلمين، أنَّه «قد كان لهذه البشارات فضل كبير، إذ شجعت الكثيرين من اليهود والنَّصارى على الدّخول أفواجاً في دين الله...»[3].

---

(1) فخر الدِين الرَّازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص 130، من منشورات مكتبة الكليات الأزهرية في عام: 1398هـ= 1987ف بالقاهرة - مصر.

(2) هداية الحيارى: ص 101 في حاشيتها.

(3) حسن خالد: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنَّصرانيَّة، ص 436، ط 1/ 1986، معهد الانماء العربي، بيروت.

وعليه، يتأكّد مجدّداً مدى الحاجة في العمل الدّعوي المعاصر إلى معرفة شاملة ودقيقة بأسفارهم الدينية، وكلّ ما يتّصل بالفكر اليهودي الصّهيوني، ولا سيّما إذا خصصنا اعتباراً كافياً لأبعاد مخاطر الهجوم التّهويدي على مسلمي القارّة الأفريقية (قارة المسلمين)، هجوماً لا يقل خطره عن الهجوم التنصيري، وهذا إذا لم يكن أضعافه. الأمر الذي يحتم على الصّعيد الإسلامي، ضرورة السّعي العاجل بالخطاب الدّعوي الحواريّ مع غيره من الوسائل والأساليب الأخرى، وما أكثرها: وذلك حتى نحصّن العوام من المسلمين، وندرأ عنهم شرّ ما يتربّص بهم من حملات كيدية، تتمثل في دعاية يهودية ساذجة ومغرية، يقف من ورائها في كلّ من شرقيّ أفريقيّة وغربيّها أجهزة صهيونيّة تتّصف بالمهارة في ممارسة الخديعة والمكر، إذ من المظاهر الواقعيّة لهذا الهجوم الصهيوني - الّذي لا شكّ في كونه مخططاً ومدعوماً - ما نراه من تغلغل صهيونيّ في شرقيّ أفريقيا، وبخاصّة في دولة أرتريا ذات العلاقات الإستراتيجية الوطيدة بالكيان الصهيوني إلى ما يقرب من حدّ المؤامرة على القارة ومسلميها.

وكذلك في كينيا الّتي نجح الصّهاينة فيها في تشكيل جمعية شاذة، وذات أهداف غامضة ومشْبوهة. وقد سبقت الإشارة إليها من قبل باسم الجمعيّة الإسلامية اليهودية، هذا بالإضافة إلى ما ينتاب المسلمين في أثيوبيا بين حين وآخر من حملات التّهويد والتهجير إلى الكيان الصهيوني، تحت مسمّى يهود الفلاشا.

وأمّا في غرب أفريقيا، فثمّة علاقات جديدة وواسعة بين الكيان الصهيوني وجمهورية موريتانيا الإسلاميّة[1]، وهي علاقات آثمة، يُرَاد بها اختراقٌ صهيوني لكافّة دول المنطقة، وبخاصّة المعروفة منها بتاريخها الإسلاميّ العريق، وما تزال تحافظ على صفتها الإسلامية من النّاحية الشّعبية: مثل السّنغال، والنّيجر، ومالي الّتي ينشط في مناطقها الشّمالية، - وهي إسلاميّة صرفة منذ عام 1995م - شرذمة قليلة تدّعي انتماءها إلى أصول يهودية منذ قرون قد درجت. وتعمل هذه المجموعة الحقيرة من

---

(1) ينظر: الجزائر محنة الدّولة والإسلام السّياسي، ص 184، مرجع سابق.

خلال جمعيّة تسمىّ بـ«الجمعية التّنبكتية للصّداقة مع العالم الإسرائيلي» يرأسها عميل صهيونيّ يدّعيّ التّخصص في التّاريخ، ويُدْعى إسماعيل جاجى حيدري. وهدفها تعزيز الوجود اليهوديّ في المنطقة، باستغلال التاريخ والثّقافة لدعايات لا أساس لها علمياً[1]. وكل هدفهم من ورائها هو تمكين الصّهاينة من اختراق المنطقة، طالما يضمن ذلك تدفق الدّعم المادي عليهم. ويُؤمّنُ لهم ارتباطـًا وتحالفـًا مصلحيين مع الكيان الصّهيوني. فيا للعار! ويالكرامة رخيصة تباع للصّهاينة بأسعار زهيدة!!.

ودلالة ذلك أنّ العمل الإسلاميّ في أفريقيا اليوم أكثر من أيّ وقت سابق، يواجه من التحديات الأخطر من نوعها، وذلك من حيث المكر الفكريّ، والمهارة في الدّعاية، والإغراءات السّخية والفاتنة.

ولعلّي بهذا في غنى عن القول أنّه ما لم يتدارك المسلمون الوضع قبل فوات أوانه، فإنّ القارّة الإفريقية فيما عدا مناطق الشّمال الإفريقي مرشحة للمزيد من الاختراق الصهيونيّ، وللتغلغل الفكريّ المتوسّع النِطاق في أوساط مجتمعاتها المسلمة، الأمر الّذي إن استْمرّ - لا سمح الله - فسوف يكون له أثره الخطير على المسلمين، والعمل الإسلاميّ، في هذه القارة الّتي ما زالت وهي تنوء بثقل المؤامرات والهجمات تسَجّل يوميًا المزيد من الانتصارات الدّعوية.

ومن هنا يظلّ الأمل معقوداً على سرعة وكفاءة الخطاب الدّعوي الحواريّ؛ لتوعية مسلمي أفريقيا بحقيقة الإسلام وتجذير مفاهيمها وقيمها في نفوسهم وحياتهم، وللكشف كذلك عن بطلان مزاعم الصّهاينة، وفداحة أضرار خِداعاتهم الّتي بدأت تنطلي على عناصر انتهازيّة قليلة، ولكنّها نشطة في الدّعاية لها، وجادّة في الوصول إلى الأغراض المادية والمعنويّة من ورائها.

ولكن يبدو لي مع ذلك أنّ مقاومتها ليست ممّا يصعب، إذ يقول أحد الباحثين بشأن

---

(1) ينظر: المقال الوارد باللغة الفرنسية بموضوع "يهود سود وماليون" في مجلة:
.jeune afrique No 1879, P: 20-22 Du:08-14/1/1997, PARIS: FRANCE

مواجهة الحركة اليهوديّة الصهيونية: «وليس أرقى من المقاومة بالثّقافة حيث تتحول الكلمة إلى رصاصة في صدر العدو، ويتحوّل الفكر إلى موقف مناهض للاحتلال...»[1] فبالفكر الإسلاميّ النّقيض القوي للفكر الصّهيوني، وعن طريق الأساليب الحوارية الحكيمة الفاعلة ننشر ديننا، وننتصر لأمّتنا، وتظهر دعوتنا على غيرها.

وأخيراً، نؤكد أنّه بالفكر الإسلاميّ النّقيض القوي للفكر الصهيوني، وعن طريق الخطاب الدّعوي الحواري المتمكن، يمكننا أن ننتصر على الصهيونية في كلّ مكان، وأن نحرّر أتباعها من أسرها، وربّما إنقاذ دعاتها أيضًا من شرّ قد استَبَدَّ بهم، فعجزوا عن التخلص منه، وما ذلك في الواقع بمستحيل طالما هو داخل في إطار الاحتمالات والممكنات.

ب - نحو ضرورة استيعاب الحوار الدّعوي لكافة الاتجاهات الدينية في العالم:

ثمّ ماذا بعد في إطار الحوار الدِيني مع غير المسلمين؟ إذا كان الحوار الدِيني بإطلاقه أصبح ضرورة ملّحَّة من ضرورات العصر، فإنَّ النّوع الّذي يستند منه على الخطاب الدّعوي يظَلُّ بالنِسبة للمسلمين أهمّ من غيره، ومن ثمّ فلا بد منه، حيث إنَّنا علاوة على مقتضَى الأمر الإلهي بإبلاغ الدّعوة إلى النَّاس جميعاً، نعيش مع الآخرين في عالم لا مجال للقطيعة فيه، بحكم تطوّر وسائل النَّقل والاتصال، وشيوع فرص التّلاقي إمَّا للعمل أو العلم، أو تبادل المنافع، أو التعايش بين أفراد وجماعات ذات انتماءات دينيّة مختلفة، ونحن المسلمون أَدْعى في ظلّ هذه التّطورات الّتي تُسَجَّلُ لصالحنا في مجال الإعلام والاتصال، بأن نفيد منها لنشر العقيدة الصّحيحة، وفي إشاعة رسالة الرَّحمة والأخوة بين النَّاس كافة.

وإنَّ التّوسع بإتقان في توجيه الخطاب الدَّعوي الحواريّ إلى جماعات المعتقدات الدِينية الأخرى من آسيوية وأفريقية لصدور غيرها عنها، لهو أمر من المتوقّع أن يهدي إلى الإسلام جموعاً غفيرة من تلك الجماعات، فتسود بذلك تلقائياً ثقافة الإسلام وقيمه في أرجاء العالم بأسره.

---

(1) مجابهة الغزو الثّقافي الإمبريالي الصّهيوني للمشرق العربي، ص 13، سبق ذكره.

ومن السوابق التّاريخية التي يذكرها لنا الباحثون دلالة على اهتمام المسلمين بدراسة الفكر الدِيني عند الآخرين من منطلق حواري دعويّ، ما أشار إليه الأستاذ أحمد محمود صبحي قائلاً: «. . . ودافع المسلمون عن النّبوّات، وأنكروا التّناسخ وأقرّوا المساواة، وبحثوا في مصادر المعرفة ليواجهوا الصّائبة والبراهمة والبوذيّة»[1].

إذن، فليس الاستدعاء إلى تطبيق المنهج الدّعوي الحواريّ مع أتباع الدِيانات الأخرى أمرًا مبتدعًا، بل وإنّما هو امتداد لتقليد راسخ في تاريخ الدّعوة الإسلاميّة، وتقرير لواقع ما جرى عليه الدّعاة في مختلف الأزمنة والأمكنة. يقول الأستاذ عبد العزيز التّويجريّ: «فإنَّ المسلمين حيثما كانوا، يسعون دائماً إلى التَّقارب مع أتباع الديانات والثقافات والحضارة والتحاور معهم، ويجعلون هذا التقارب والتَّحاور في مقام الدّعوة إلى الله الّتي أمر الله سبحانه وتعالى، أن تكون بالحكمة، وبالموعظة الحسنة وبالَّتي هي أحسن، ويصدرون في سلوكهم هذا عن إيمان بالرسالة الَّتي يحملونها، وبواجب تبليغها إلى النّاس كافة، وبأنَّهم دعاة هداية ربَّانية، وحضارة بانية، وثقافية هادفة»[2].

ومن حيث المنطلقات والمبادىء العامَّة لهذه الحوارات الدَّعوية، فإنَّ أيّ جهد حواريّ قائم على الموازنة الشّاملة بين الإسلام، وغيره من المعتقدات النَّبوية والوضعيّة، يجب انطلاقه من المبادىء المشتركة، وهو ما يعني «البدء بنقط لا تختلف حولها وجهات النَّظر، حتى لا ينقطع جسر الاتِّصال، فالدَّاعية يبني جسوراً من الفهم وعليها ينقل فكره ودعوته، فلو قطعت هذه الجسور من البداية ما تهيأ موقف اتّصالي يتيح عرض الدّعوة»[3].

---

(1) في علم الكلام، ج1/ 88. سبق ذكره. والصّابئة: هم عبدة النُّجوم والكواكب، والبرهمية والبوذية من أديان الهند الكبرى والأخيرة منهما ذات انتشار عالمي. لا يستخفّ بشأنه إطلاقاً.

(2) الحوار من أجل التعايش، ص 141. سبق ذكره.

(3) محمود يوسف مصطفى: "البدء بنقط التّلاقي"، ص58، من مجلّة الوعي الإسلاميّ، ع/ 265، س1407هـ = 1986ف الكويت.

ولعلّ من المفاجآت بالنِّسبة للكثير منّا أن تكون الدِيانة البوذية[1]، الّتي أخذ بعض أهل الغرب يتّجه إليها، في رحلة البحث عن الله الحقّ، وعن الدّين الصحيح، تلتقي مع الإسلام في أمور عديدة من المسائل الأخلاقيّة: كالأمر بالاستقامة، وتحريم الكذب والسّرقة، وتجنّب المسكرات، وعدم الاعتداء على كائن حيّ، ونحوها[2]. ودلالة هذا، أنّ سعة دائرة المشترك بينها وبين الإسلام، تهيء فرصًا كبيرة لسرعة تأثير الخطاب الدّعويّ في أتباعها، ولو بأقلّ مجهود حواري مقارن.

والحقيقة هي أنّ معتقدات القارة الآسيوية، ماعدا الجزء العربيّ منها والّتي تستمد أصُولَها من منابع الهند الدّينية، مرشحة مرّة أخرى للتأثر الدّينيّ بالهند التي ما تزال في جانب كبير منها تربة خصبة للخطاب الدّعوي الحواريّ المقارن؛ إذ تسود في العديد من مناطقها نفس الأوضاع الّتي كانت قائمة فيها ككلّ، فاغتنمها الإسلام من أول دخوله إليها لنشر دعوته، حيث «كانت الهند تئنّ حينئذ من التّفرقة ونظام الطبقات القاسي الّذي تقوم عليه ديانتهم، فكان حديث التّوحيد والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها. وأن يقارنوا بينها وبين ماهم فيه من أوضار التّفرقة وأثقالها، وكانت النتيجة أن تتفتّح القلوب لهذا الدّين، ويقبل النّاس عليه ليتخلصوا من العناء النّفسي والاجتماعيّ الذي كانوا يعانونه، كما ينفضون عنهم الوثنية الهندوسيّة المحشوة بالخرافات والأساطير»[3].

هذا، وبالرّغم من اختلاف الإسلام عن الأديان الأخرى في الطّبيعة والمناهج، من حيث كونه دينًا إلهيًا محققًا. ورسالة عالميّة خاتمة، تتّسم بالشّمول والواقعية والتوازن. إلاّ أنّه يلتقي مع العديد من النّحل والملل في المبادىء الإنسانية الكريمة، والمثل الأخلاقيّة الرّفيعة، ومن ثمّ فإنّه لا يعادي أهل دين من الأديان، وإنّما يدعوهم

---

(1) البوذية فلسفة حياة، ظهرت في الهند في القرن السّادس، ق.م. وقد اتّخذت من عهد مؤسّسها بعدًا دينيًا، يدين بها في العالم الآن الملايين من البشر. ينظر: كتاب أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى، ص 141-207، ط9/ 1990ف، مكتبة النهضة المصرية.

(2) ينظر: السّيد محمّد بدوي: «المبدأ الأخلاقيّ في العقيدة البوذية»، ص 37، من مجلّة المجلّة ع/ 48، س 7= 1963، القاهرة. وينظر: أيضاً: مجلة الوعي الإسلاميّ، ع/ 38، ص 21-26، س4= 1388هـ= 1968ف.

(3) عبدالمنعم النّمر: تاريخ الإسلام في الهند، ص 88-98، 1/ 1401هـ=1981م، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر، بيروت.

بالحكمة والموعظة الحسنة، مشجّعاً على الحوار معهم بالأحسن والأقنع، حتى يتبيّن الحقّ للنّاس كافة، ويعلم الجميع أنَّ «أحقّ الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشّدة واللّين، ليجد كلّ من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خيرَ دنياه وآخرته»[1].

على أنَّه إذا كان الحوار بين الأديان، ولو مع الوضعيّة منها ضرورياً ومطلوباً من المنظور الدَّعوي، فإنَّ ممّا يقتضيه الواجب من كلّ من يُعْنى مُمَارسَةً بالخطاب الدّعوي الحواريّ، حتّى قبل تجاوز الحواجز النَّفسية بينه وبين المخاطبين، وقبل الانطلاق من نقاط الالتقاء هو: «أن يدرس ما في هذه الأديان والأفكار من تغيّرات ونقاط ضعف، ومقارنة ذلك بالإسلام ليستغلّها الدَّاعي في زعزعة عقيدة المنتسبين في هذه الأديان»[2]. ثمّ بذل الوسع الحواري لاستقطاب أصحابها بعد ذلك، للتَّعرف على مميزات الدّين الإسلامي الكثيرة، بما يحفزهم على اعتناقه، والانضمام إلى أمتّه.

وإنَّنا لنجد العديد من الأدلة والأمثلة الدَّالة على سعة فرص النَّجاح أمام الدُّعاة في هذا الميدان الحواري مع غير المسلمين. ومن ذلك فيما يرويه صاحب مجلة المنار «أنَّ أحد فلاسفة الهنود درس تاريخ الأديان كلَّها، وبحث فيها بحثًا مستقلاً منصفًا، وأطال البحث في النَّصرانية لما للدّول المنسوبة إليها من الملك وسعة السّلطان، والتَّبريز في الفنون والصناعات، ثمَّ نظر الإسلام فعرف أنَّه الدّين الحقّ فأسلم، وألف كتاباً باللّغة الإنجليزية سمّاه (لماذا أسلمت) بين فيه ما ظهر له من مزايا الإسلام على جميع الأديان وكان أهمها عنده: أنَّ الإسلام هو الدّين الوحيد الَّذي له تاريخ صحيح محفوظ. . . »[3].

وقد حشر لنا من الأمثلة كذلك الأستاذ عرفات كامل العيشي في حلقات متفرِّقة من مجموعة (رجال ونساء أسلموا) عدداً ممّن اعتنقوا الإسلام من مثقفي الدّيانات الوضعية من منطلق الدّراسات المقارنة، وبخاصَّة من الهندوس والبوذيين، وكان فيهم

---

(1) نقلاً عن كتاب: الفكر الإسلاميّ في الرّد على النَّصارى، ص 514، سبق ذكره.

(2) أساليب الدّعوة والإرشاد، ص185، مرجع سابق.

(3) مجلّة منار الإسلام، مج 16، ج 11، ص 831، س 1331هـ= 1913. القاهرة.

من هبّ للطعن فيه فأعجب بمزاياه، فلم يستطيع التّخلص من جاذبيته القويّة، ومنهم من توخّى أساساً البحث عن الحقيقة بمنهج علميّ، وبروح موضوعيّة متجرّدة، فساقته إلى الإسلام طبيعة وضوحه وبساطته، إلى جانب قيم المساواة، والأخوّة الدّينية فيه، فضلاً عن شموليته وحيويته المتجدِّدة[1]، وأمَّا على المستويات الجماعيَّة فتورد الأدبيات الدَّعوية كلّ حين وآخر أخبار قرى كاملة تعتنق جموعُهَا الإسلام معًا في مقام واحد، وذلك شائع في كلّ من أتباع الدّيانات الوثنية بآسيا وأفريقيا[2].

وهي مؤشرات تؤكد ما نحن بصدد إثباته عن سعة الفرص السَّانحة أمام الخطاب الدَّعوي الحواري في كافَّة السَّاحات الدِّينية على اختلاف أنواعها.

ولعل من أبرز الشواهد، وأقواها دلالة على المراد، ما تحقق للشَّيخ المرحوم عبد الله دراز من عظيم تجاوب ممثلي الدّيانات الأخرى معه، وتفاعلهم الكبير مع خطابه الإسلاميّ ممثلاً عن الأزهر في مؤتمر الأديان بفرنسا عام 1939ف، إذ «ألقى محاضرة هادفة قال عنها السّير فرنسيس رئيس المؤتمر: إن كلمة الأزهر هي الكلمة الرئيسة، وقد وافق الحاضرون بالإجماع على اقتراحين قدّمهما الشِّيخ دراز للمؤتمر. . . .»[3]. وهذا ممَّا يعكس بصدق ووضوح جانباً من إمكانات التَّأثير الإسلاميّ البعيد المدى، بالخطاب الدَّعوي الحواريّ المحكم.

وبالنَّظر إلى أهميَّة الحوار مع الأديان الأخرى، واستناداً إلى نتائجه الطِّيبة في بلاد الهند، يمكننا القول بأنَّها هي السَّبب وراء افتتاح قسم للدراسات المقارنة للأديان بمعهد الدّعوة والفكر الإسلاميّ التَّابع لمؤسسّة دار العلوم التَّعليمية بمدينة (لكهنو) في شمالي الهند، وتتمثل مهمَّة هذا القسم العلميَّة في العناية بدراسة اليهودية والمسيحية، إلى

---

(1) ينظر: رجال ونساء أسلموا، ج1/ 19، ط3/ 1398هـ= 1978م، دار القلم، الكويت، وينظر: أيضًا المرجع نفسه: ج2/ 112–113، ط 3/ 1398هـ= 1984م، وكذلك أيضاً: ج 3/ 81–111، ط4/ 1404هـ= 1985م، دار القلم- الكويت.

(2) ينظر: مجلة الوعي الإسلامي، ع207/ 128–130، س18/ 1402هـ= 1982م الكويت.

(3) ينظر: محمد رجب البيومي، "الأزهر والسَّلام الدّيني" ص 681 من مجلّة الأزهر، س 51 / 1399 هـ= 1979م.

جانب البوذية والهندوسية وغيرها[1].

ومَا مِنْ شكّ في أنّه يلزمنا هُنَا الانفكاك عن نزعة الشّعور بضرورة مفاصلة أصحاب الدِّيانات الوثنية، إذ يقتضي الحوار الدّعوي معهم مخالطتهم، والانفتاح عليهم، وفق سلوك عملي مطابق لِلْعِلْم بأنّه «قد انتهج الرّسول ﷺ مع الوثنيين والمشركين عامّة وغيرهم أوضح المسالك وأيسرها، ليصرفهم عمّا هم فيه من جهالة وضلال، وليردّهم إلى الحقّ، ويهديهم سنن الذين اتقوا وأخلصوا لله، متوسلاً بالحكمة والمرونة واللِّين، وكلّ صنائع التّحبّب ليحسّن لهم تقبل الحقّ والهدى، والانتهاء عن الباطل والشّرّ»[2].

ومن هنا، نصل إلى قناعة مزدوجة: مفادها في أحد شقّيها هو أنّ الخطاب الدّعوي المعتمد على منهج الحوار مع كافّة المعتقدات، والجماعات الدّينية في العالم، ممّا يشجّع عليه الإسلام، ويؤيده تاريخ دعوته؛ إذ يفتح آفاقًا واسعة أمام المدّ الإسلامي لاستقطاب جموع غفيرة من البشر، تتطلّع في عالمنا اليوم إلى ديانة حقّة تخاطب عقلها وتريح وجدانها، وتضفي على حياتها قيمة إنسانية مطلقة، وبعداً وجودياً عميقاً وشريفاً. ولعلّ في تلمّس سبل الاستفادة من منهج ديدات في الحوار ما يعين الدّعاة على الإسهام الإيجابي الفاعل في هذا المجال.

وأمَّا الشقّ الآخر، فيتمثل في اعتقادنا الرَّاسخ بأنَّ موضوع الحوار الدَّعوي مع سائر الأديان غير المسيحية واليهودية، والَّذي نطرق بابه في هذه العجالة، ما يزال من المواضيع الَّتي تستحق اهتماماً بحثياً خاصّاً ومستقلاً. وأعتقد أنَّ دراسات علميَّة رصينة لهذا الموضوع، مشفوعة بتطبيق عمليّ لنتائجها ومقرّراتها، سوف تكون ذات فائدة محققة للعمل الإسلاميّ عموماً، وللخطاب الدَّعوي الحواريّ على وجه الخصوص.

---

(1) ينظر: «ندوة العلماء بالهند» ص44، من مجلة الأمَّة، ع / 137س / 1404 هـ= 1983 ف.

(2) موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنَّصرانية، ص70-71، سبق ذكره.

الفصل التاسع

الحوار الدَّعوي مع التيارات الفكرية

المبحث الأول: الحوار مع المستشرقين

المبحث الثاني: الحوار الإسلامي مع الغلو الفكري والشطط الأدبي (نماذج وتحليلات)

المبحث الثالث: الحوار الدَّعوي مع الفكر المادي الإلحادي

المبحث الأول

الحوار مع المستشرقين

في حدود ما اطلعت عليه من أعمال ديدات، ليس ثمّت ما يعكس لديه وعياً ملحوظاً بالحركة الاستشراقية أو اهتماما خاصاً بجماعة المستشرقين، فيما عدا إشارات طفيفة أو عروض علمية لمحتوى أعمال بعض الموضوعيين منهم، انطلاقاً من كونهم باحثين منصفين لا باعتبارهم مستشرقين، كأمثال الأمريكي مايكل هارت، صاحب كتاب: «المئة الأوائل»[1] والمستشرق الإنجليزي توماس كارلايل، صاحب كتاب: «الأبطال»[2].

على أن هذا الإغفال من حيث السبب لا مجال لاعتباره حالة من الإهمال أو مثالاً للتقصير، وإنما هو عائد فيما أفهم إلى تأثر ديدات بالسياق الثقافي العام عند المسلمين ممن لا يزالون يتعاملون مع الظاهرة الاستشراقية كقضية فكرية وثقافية، أكثر من كونها موضوعاً دعوياً، ومجالاً حوارياً. هذا ولئن كان الاستشراق كظاهرة معرفية هي أولاً من القضايا التي لم يتطرق إليها الشيخ ديدات، وثانيًا من المواضيع التي نالت حظاً موفوراً من اهتمام الباحثين المسلمين من شتى المستويات العلمية، فتكفلوا بخلق الوعي بها عند المسلمين، من خلال الدراسات التي كشفت عن مختلف جوانبها من ماهية وغايات، ومناهج ونتاج، ووسائل ومراحل، ومدارس وأعلام وفئات وتأثيرات . . . الخ[3]. الأمر الذي أسهم في تبصير الكثير من الدارسين وطلبة العلم من أمثالي بحقيقة الحركة الاستشراقية، وتكوين صورة كلية مجملة عنها، بما لا إمكانية، ولا أهمية هنا لاجترار كل ما قيل عنها في مختلف الدراسات المتخصصة في موضوعها، إلا أنه ما من مانع علمي ودعوي من اعتبارها أحد المجالات الحوارية الممكنة، لتطبيق منهج الشيخ ديدات في الحوار الدعوي، وهو ما قد تتبدى إمكانيته من خلال ما تتم إثارته من قضايا، وما نشير إليه من تجارب وفرص وآليات، عبر هذا المبحث وفي فقراته الآتية:

---

(1) ينظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ص 8، مصدر سابق.

(2) ينظر: الرسول الأعظم محمد ﷺ ن ص 59، مصدر سابق.

(3) وبالخصوص يمكن الرجوع إلى بحوث ودراسات الدكتور محمد فتح الله الزيادي، وبخاصة كتابه: الاستشراق أهدافه ووسائله.

1 - نقد التراث الاستشراقي المتراكم :

من أساسيات مشروع الحوار الدعوى مع المستشرقين التصدي العلمي لدراسة موضوعية معمقة، ونقد منهجي دقيق لمجمل التراث الاستشراقي في مختلف وأهم مجالاته وبخاصة ما يتعلق منه بالجانب الديني، قرآنًا وسنة ورسالة، وسيرة وتشريعاً وغيرها. حيث إن الاستشراق باعتباره العامل الأول والرئيس في تشكيل صورة مشوهه عن الإسلام ودعوته في ذاكرة الوعي الغربي، قد اعتمد كلياً في فرض تلك الصورة، وترسيخها على مناهج بحثية مغلوطة، متوصلاً إلى ما يعزز به افتراضاته المسبقة من نتائج خاطئة، طالما اعتبرت حقائق علمية مؤكدة، ومن ثم فقد أتيح لها أن تظل لقرون طويلة - وربما حتى الآن - خلفيات ثقافية، لعبت دورها كمحددات أساسية لموقف العالم الغربي في عمومه من الإسلام والمسلمين .

ولما كانت المهمة النقدية ترتكز على المناهج أكثر من استقراء النتاج العلمي الزاخر، وتعقب الموضوعات المدروسة، مما تبدو الإحاطة به متعذرة، إن لم تكن مستحيلة، فقد عمد من جانبه، ولكن على نحو متكامل، كل من الدكتور محمد فتح الله الزيادي والمرحوم ساسي الحاج إلى دراسة المنهج الاستشراقي، وتحديد أهم مواصفاته[1] للخروج بما من السمات يهون التعاطي معها مشقة الجهد النقدي كركيزة أساسية يقوم عليها بنيان الحوار الدعوي مع المستشرقين .

كما قام إلى جانب جهود أخرَى كثيرة، الباحث الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد بتقديم دراسة متميزة بعمق النقد المعرفي من منطلق فلسفي تركيبي لمسيرة الحركة الاستشراقية، وذلك في كتابه «الاستشراق» الذي أبان فيه عن تأثيرات وتطورات الفكر الاستشراقي[2] فكان في عمله من الإبداع والإثارة بمكان وصفه أحد الباحثين من شرقي

---

(1) ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، ص114 - 124 . ط1/ 1426 من ميلاد الرسول ﷺ وأيضاً: ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. ج 1/ 197 - 263، ط1 / 1991 من منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا.

(2) ينظر: إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص 214، 324، تعريب كمال أبوديب، ط2/ 1984 م مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

أوروبا فقال: «إن (كتاب الاستشراق) عمل علمي لا مثيل له في تاريخ دراسات العلاقات بين الغرب والشرق في العصر الحديث، تعددت فيه المعاني ووجهات النظر، والمواضيع، وذلك كله على أعلى المستويات العلمية»[1].

وأعتقد أن حصيلة هذه الجهود بالإضافة إلى مختلف الدراسات النقدية باختلاف أنواعها، وتفاوت مستوياتها، مما لا مطمع ولا سبيل إلى حصرها هي كفيلة بتزويد المحاور المسلم في هذا المجال بما يمكنه من هداية نظيره المستشرق، أو إقناعه على الأقل بتهافت الاتهامات والمغالطات الاستشراقية المتوارثة إزاء الإسلام والمسلمين. والتي يمكن تصور حجمها عمن يقول: «ومن يتصفح كتب المستشرقين وموسوعاتهم، ودراساتهم، يجد مئات من الاتّهامات والأباطيل وآلاف التخريجات التي لا صلة لها بالعلم»[2].

وعليه فإن مثار العجب، في شأن النتاج الاستشراقي وهو لا يقوم على قاعدة منهجية سليمة، أنّه يفتقر إلى القدر اللازم من النقد الذاتي للتراكمات المعرفية التي تكونت عبر القرون بفعل إسهام كل الأجيال المستشرقة، فذاك من الأمور التي يلاحظها النقاد المسلمون على التراث الاستشراقي، حيث إنّه يثير قلقهم، وامتعاضهم أمام الدّعاوي العريضة عن علمية مناهج المستشرقين، والظاهر أن احتجاج هذا الفريق من الباحثين يتلخص فحسب في قولهم: «إننا لا نطمع أن يلقي الاستشراق كل أسلحته، ويرفع راية السلام في وجوهنا، ولكننا نطلب فقط أن يخضع هذا الاستشراق بكل زخمه وتراكماته إلى ذات المناهج النقدية التي استخدمها في محاولة نقد وتقويض الآخر، وهذا الآخر هو الأنا الحضارية للأمة العربية الإسلامية»[3].

وإذا كانت منهجية ديدات في الحوار الدعوي تقوم على الاستيعاب والنقد، فإن

---

(1) حارث صلا يجتيش: «مسؤولية الاستشراق» ص220 من مجلة المعرفة، 2284/ س 19: 1981 م، دمشق، سورية.

(2) أحمد عبد الرحيم السائح: «الاستشراق وضرورة مواجهته» ص 73، من مجلة الوعي الإسلامي، ع/ 318/ 1413هـ، 1992م. الكويت.

(3) مصطفى نصر المسلاتي: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص236، ط1/ 1396. من وفاة الرسول ﷺ: 1986 م، دار اقرأ للطباعة والنشر، طرابلس، روما، مالطا.

النسج على منواله في مشروع الحوار مع المستشرقين يستلزم قاعدة نقدية، يكون تعميرها وتوظيفها أهم مهام الدعاة المعنيين بهذا الشأن، وخصوصاً في عمليات نقد المناهج الاستشراقية، وتصحيح الأخطاء، وتحقيق المصادر، وتوثيق المعلومات، ودحض الافتراءات والشبهات بالبراهين العقلية، والأدلة النقلية، بما يثبت عدم سلامة مستنداتها العلمية والمنهجية. على أنه، بالرغم من كل ما يمكن أن ينسب إلى الاستشراق من أخطاء علمية، وسلبيات تاريخية، فإنه ينبغي مع ذلك أن نتفهم بأن حركته المعاصرة تتجه لتحقيق علميتها، وذلك حسب ما توصل إليه العديد من الدارسين والمتخصصين من ملاحظات تفيد فيما سنرى الآن الاعتقاد بتطور الاستشراق المعاصر.

2 - تطور الاستشراق المعاصر في منهجه ونتاجه

في الوقت الذي يميل فيه البعض إلى إطلاق نعوت سلبية على الحركة الاستشراقية دون إعارة اهتمام كاف لما يعتمل داخلها من تطورات إيجابية، بل يستسهلون وصفها بكل قبيح، وهي في الواقع أوسع من أن تستغرقها تعميمات جارفة بنعوت جارحة فإن من يطلع على بعض مقالات ومصنفات المسلمين عن الاستشراق وقضاياه يدرك جلياً مدى ما تشهده حركته المعاصرة من محاولات إيجابية، من شأنها أن تقربها إلى مقام البحث العلمي الخالص الذي يتم بكل نزاهة وموضوعية، ومن أجل البحث عن الحقيقة.

ولعل الخطأ الذي ما زال في أسْره الكثيرون، بينما ينمو البحث الاستشراقي على امتداد قرون من الزمن، ومن ثم فبديهي أن تكون شخصيته قد تطورت بحكم تغير الظروف التاريخية، هو اعتبار المستشرقين كتلة واحدة منسجمة، مع أنهم يمثلون روحاً مختلفة ويتعاطون مع مناهج وظروف ذات دوافع وأهداف متباينة، إذ «... لكل منهم اعتقاده العرقي والديني أو السياسي أو الإنساني، أو أن منهم من يخلو من كل ذلك. وأن منهم القسيس، ومنهم المبشر، ومنهم الملحد بكل دين، وأنّ منهم الرأسمالي، ومنهم الشيوعي وأن منهم الاشتراكي الذي يرى أن أحسن ما في الإسلام سماحتُهُ بتعدد

الزوجات، وأسوأ ما فيه الإيمان بالروحانية، وتساوي البشر في الطبقات»[1].

وبموجب هذا التنوع الواسع، فضلاً عن الدور المؤثر لحركة الزمن، يلاحظ أنه مع ظهور التسامح الديني في العالم الغربي، فقد حصل تغير كبير في مفهوم الكتاب الغربيين نحو الإسلام، في معالجتهم لقضاياه وفي تصويرهم لكيانه، ولشخصية نبيه عليه الصلاة والسلام[2]. وربما لهذا السبب تسنح لبعضهم من أمثال ميشال جحا القول بـ«أن الأساتذة من المستشرقين لم يتركوا شيئاً إلا نظروا إليه، وقلبوا الرأي فيه محاولين أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون منصفًا. أما الذين كانوا أصحاب هوى وتعصب وهؤلاء باتوا معروفين، وهم قلة، فلا يصح أن نأخذ العالم بجريرة الجاهل ولا المنصف بخطيئة المتحامل. العديد من هؤلاء المستشرقين يصح أن نصفهم بالمترهبين في سبيل العلم»[3].

وبالرغم من جدلية هذا الرأي في الموازنة الكمية بين المنصفين والمتعصبين منهم، فإن هذا التطور العلمي الذي أصاب البحث الاستشراقي مدين لجملة أسباب، منها ما ذكره أحدهم في سياق قوله: «وبمراجعة التراث الحديث لحركة الاستشراق يتضح أن مستشرقي اليوم قد تخلوا عن غلوهم وتحيزهم ضد المسلمين. وذلك له أسبابه الكثيرة ومنها، تغير الظروف ويقظة المسلمين النسبية الحالية، وإمكان تنقلهم في ديار الغرب، وانشغال الكثير من نخبهم بالكتابة في الموضوعات الإسلامية في الغرب، واختلاطهم بالمستشرقين أنفسهم في الجامعات ومراكز البحث، وتصويب أخطائهم»[4]. ومما يتفق مع هذا الرأي ويؤكده هو ما ذهب إليه الشيخ القرضاوي في قوله: «والذي نلمسه مما يترجم لنا من إنتاج المستشرقين المعاصرين أن مستشرقي اليوم أعدل من مستشرقي الأمس، وأبعد من الغلو والتعصب، وبخاصة أن المسلمين غدوا يقرؤون ما يكتبون،

---

(1) قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص 139، ط1 / 1403 هـ: 1983 م، منشورات دار الطباعة للنشر الرياض: السعودية.

(2) ينظر: ماذا يقول الغرب عن محمد عليه السلام: ص 20، مصدر سابق.

(3) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص: 274- 275.

(4) محمد عثمان عثمان: مؤامرة الغرب على الإسلام والمسلمين اعتداء وتشويه، ص 73 - 74، د. ت، دار المحبة دمشق.

ويناقشونهم، ويردون عليهم، أما قديماً فقد كانوا يكتبون لأنفسهم، أي يكتب بعضهم لبعض، فكانت كتاباتهم أشبه بتقارير خاصة لا بموضوعات علمية عامة»[1].

ومن حيث النماذج الممثلة عن اتجاه التطور في الفكر الاستشراقي يورد الأستاذ زقزوق وهو من المختصين القائلين بواقعية هذا التطور عدداً من طلائعه، متفائلاً بأن يشكل تياراً له ما بعده. وذلك في قوله: «إن هناك بعض المؤشرات نحو الاقتراب من الاعتدال والاتزان في معالجة بعض المسائل الإسلامية لَدَى بعض المستشرقين المعاصرين من أمثال: مكسيم رودنسون، وجاك بيرك، وأنا ماري شميل. على سبيل المثال لا الحصر، وهو اتجاه نقدره ونرجو أن يصبح في النهاية تياراً عاماً، وعندئذ يمكن أن يسهم في دعم روح التفاهم والقضاء على الروح العدائية التي استمرت قروناً عديدة.»[2].

وعلى أساس هذا التطور يعترف الاستشراق المعاصر بأخطاء الرعيل الأول ممن ارتبطوا بعجلة الاستعمار من المستشرقين ومن ثمّ «أخذ يعيد النظر في كل شيء يقوم به مما أدى إلى إعادة تفحّص الكثير مما رسّخه التقليد القديم من قناعات ونظريات وأحكام وأعراف، وربما قلبها عقباً على رأس»[3] وهذا ما إن تحقق فسوف يسهم في تهيئة فرص الحوار العلمي الدعوي ويعمل على الدفع به نحو آفاق الإقناع والاعتناق.

وفيما يخص حظ المناهج من التطور، وانعكاس ذلك على المعالجات والنتائج، فيدلي أحدهم بشهادته في ذلك نصاً عليه بقوله: «لم يجمد المستشرقون على منهج معين، ولم يقفوا عند فكرة معينة، بل واصلوا تطوير مناهجهم وتهذيبها وتقويمها بالممارسة والنقد والإفادة من تقدم البحث عامة ومناهج العلوم الإنسانية خاصة، ولم يقف جيل منهم عند جميع النتائج والتعميمات التي توصل إليها الجيل السابق، ومن

---

(1) يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 184، سبق ذكره.

(2) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 52، 35/ 1405هـ: 1985م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(3) عبد النبي اصطيف: "نحن والاستشراق تحولات إيجابية" ص 168، من مجلة المعرفةع/ 327. س 29: 1990م، دمشق.

هذا نجد في كتاباتهم شيئاً من الجدة والحياة في المنهج والأسلوب والاستنتاجات»[1].

ولذا نلاحظ أن جملة الدراسات المعاصرة حول الاستشراق تشكل لَدَى الدارس انطباعاً قوياً ومؤكداً بأن تياراً استشراقياً جديداً قد ظهر في العالم الغربي يتسم برفض العديد من الثوابت الموروثة، ويتصدى للتراث الاستشراقي بنقد علمي صارم، ساعياً إلى تحقيق القدر اللازم من الحياد والموضوعية في النظر إلى الشرق الإسلامي بما يتصل به من موضوعات فكريّة، وقضايا بحثية، من خلال المصادر الأصيلة. وهو فيما أظن الأمر الذي ساق الباحث المبدع إدوارد سعيد - وهو من أبرز من قصم ظهر الاستشراق بنقده العلمي المرير - إلى الإقرار بما أعرب عنه قائلاً: «إني لأومنُ، على الصعيد الإيجابي - ولقد حاولت في أعمال أخرى أن أظهر ذلك - بأن قدرًا كبيراً من العمل يؤدى اليوم في العلوم الإنسانية لتزويد الباحث بنظرات نافذة، ومناهج وأفكار بميسورها أن تتخلص من النماذج المنمطة العرقية، والعقائدية والإمبريالية، من النوع الذي قدمه الاستشراق أثناء ارتقائه التاريخيّ»[2].

وفيما يتصل بفضل هذا التطور، يبدو أنه عائد إلى المستشرقين البريطانيين ابتداء من القرنين السابع والثامن عشر، حيث يقال: بأن تركيزهم على أهمية دراسة الحضارة الإسلامية قد ساعد إلى حدّ مثير ومدهش على تغيير صورة الإسلام المشوهة في الفكر المسيحي الأوروبي[3]. ومما يُحْكى من الشواهد الأولى على هذه المبادرة العلمية الثائرة التي أتت من المدرسة البريطانية أنه «في عام 1705م أصدر هادريان ريلاند (1676-1718) كتابهُ «الديانة المحمدية» الذي يعتبر أول بحث موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... علماً بأن نشره لم يقبل في حينه بشكل إيجابي، فبسبب ما اعتبر نزعة قريبة

---

(1) محمد توفيق حسين (الإسلام في الكتابات الغربية) ص 254، من مجلة عالم الفكر مج 10، 24 من 1979م، الكويت. وينظر: محمد إبراهيم الفيومي: (حول قضية الاستشراق والإسلام) ص 93، من مجلة الهلال 4/ 12 من: 1420هـ، القاهرة - مصر

(2) إدوارد سعيد: الاستشراق...... ص 324، سبق ذكره.

(3) ينظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص 35، سبق ذكره.

من الإسلام قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه»[1].

ومن تلكم الأيام توالت حلقات هذا التطور المسلسل، وليسير في اتجاه موضوعي وربما بوضوح أكثر وخصوصاً في النصف الأخير من القرن الإفرنجي المنصرم، وبالأخص عند من تهيأت له القدرة على المزاوجة بين النزاهة العلمية والشجاعة الأدبية، فقادتهم ـ وهم كثير ـ تلك الميزة إلى اعتناق الإسلام، أو الاعتراف بفضله، والإنصاف في حق أهله، واستناداً إلى دعم هذا التيار مع الأخذ بكافة أسباب الحوار الدعوي ومقوّماته يمكن الاطمئنان إلى حدّ ما إلى سعة الإمكانيات المتاحة لكسر حواجز التعصب الثقافي، ودك صروح المغالطات التي كان الاستشراق القديم قد بالغ في بنائها ضد الإسلام والمسلمين، ودعمتها الكنيسة والاستعمار بكل ما أتيح لهما من كيد وسلطان ولتقوم مقامها جسور التفاهم الثقافي والديني عن طريق الخطاب الدعوي المعتمد على الحوار وكافة آليات الفكر ووسائل الإقناع.

وقد كتب أحد المسلمين منذ خمسينات القرن العشرين يقول: «لقد أظهر الباحثون والكتّاب الغربيون في السنوات الأخيرة وعياً متزايداً للحاجة إلى الفهم والتقدير والمشاركة الوجدانية في مواقفهم من الإسلام. لكن هذه الأهواء والتحاملات التي حُضنت طوال قرون متعددة لن يكون من الميسور التغلب عليها في فترة قصيرة. إننا في حاجة إلى جهد شاق موصول لكي نستبدل بها نزعة من التقدير الموضوعي»[2].

والحقيقة، هي أن من المؤسف حقاً، بعد مضّي ما يزيد على أربعة عقود زمنية، أي خمسة وأربعين عاماً على هذا القول أن الحاجة نفسها ما تزال قائمة وبشكل أكثر إلحاحاً اليوم، إذ يعاني العالم الغربي نقصاً حاداً في مُستوى كفايته من النشاط الدعوي الحكيم، وذلك بسبب من:

---

(1) لودفيغ ها غمان: «المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي»، ص31، من مجلة الاجتهاد، ع/ 30 س 8 = 1416هـ = 1996 م، بيروت.

(2) ظفر الله خان في تقديمه لكتاب: لورا فيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص 17، تعريب منير البعلبكي، ط 5/ 1981 م دار العلم للملايين، بيروت.

3 - غياب الخطاب الدّعوي المؤثر

بالرغم من تعدد المؤسسات والهيئات الإسلامية العاملة في العالم الغربي، وما استتبع هذا التعدد في الغالب من افتراق وتشتت، بسبب تصدير الخلافات المذهبية والمنهجية إلى بلاد المستشرقين، فإننا لا نجد من الناحية الواقعية خطاباً للحوار الدعوي، قادراً على التأثير الجذاب من جانبه، وعلى مواجهة هجمات الإعلام الغربي من جانب آخر، حيث إنّ عدداً كبيراً من وسائل الإعلام والفكر والثقافة ما تزال تعمل على تشويه صورة الإسلام وشحن حفيظة العالم الغربي ضد المسلمين، وهي تصور الفكر الإسلاميّ على أنّه مصدر تهديدٍ للمدنية الغربية، وتقويض لأسسه المادية الخليطة من التراث الإغريقي الوثني والفكر التثليثي الصليبي، ومن ثم فإن تحرشاً إعلامياً يتدفق تجاه المسلمين، وتعاني من عبئها الأكبر الأقليات المسلمة المقيمة في ديار الاستشراق، وخصوصاً أن من الناس هناك من يقرأ تاريخ الإسلام وثقافته قراءة إرهابية بالكامل. ولكن يبطل العجب حين نعلم أنّ ملكية أو إدارة تلك الوسائل الإعلامية في معظمها عائدة إلى قيادات صهيونية وصليبية إلحادية حاقدة على الإسلام[1]، وعلى كافة القيم الأخلاقية النبيلة، والتوجهات الخيّرة لصالح الناس جميعاً، وهي تسعى إلى إثارة العوامل المفضية إلى النزاع، تغذيةً لبواعث الصدام بين العالم الإسلاميّ الدعوي، والعالم الغربي الاستشراقي؛ وذلك من خلال مفاقمة التباينات الثقافية بين العالمين، ليظّل الطرفان على تغاير عميق وفق طرفي نقيض بلا لقاء ولا حوار. وفي مواجهة هذا الواقع يلْفى خطاب الحوار الدعوي نفسه مغيّباً ومعدماً، كما تلقى الخطابات الأخرى نفسها، حيال الوضع نفسها عاجزة عن التصدي العلمي الفعّال لهذا التدفق الإعلاميّ الذي يمارسه العالم الاستشراقي من جانب واحد، وبسعة إمكاناته الإعلامية والتي يسيء استغلالها في نشر ما يهواه من أفكار وقيم. الأمر الذي كثيراً ما نشاهد أعراضه وآثاره في تصوير وتقديم الإسلام كمصدر خطر واضطراب العالم كله، تزييفاً لحقيقة

---

(1) ينظر: عبدالله ناصح علوان: حكم الإسلام في وسائل الإعلام، ص: 37، ط6/ 1407هـ=1986م، دار السّلام للطباعة والنشر، د.م.

اعتباره رحمة للعالمين، وأنّ أمة محمد ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس. ولا شك أن هذا التعتيم الإعلامي له أثره في نفوس أهل الإسلام؛ حيث «إنّ أكثر ما يقلق المسلمين في الآونة الأخيرة هو تركيز الإعلام الغربي بكلّ وسائله على إظهار الإسلام في صورة العدو الجديد الذي يهدد المدنيّة الغربية الحديثة اتباعاً لمخطط عدائي صريح موجه ضد المسلمين ترعاه جهات مخضرمة في العداء للإسلام، وعلى رأسها مؤسسات صهيونية ذات نفوذ مالي وسياسي وإعلامي في الغرب»[1].

ومن هنا عندما ننهض لمواجهة الخطاب الإعلامي الغربي المعاصر، والموجه ضدنا في الظرف الرّاهن، من أجل إخراج المسلمين من قفص الاتهام وفق توجيهات قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية الملحّة. فإننا نواجه واقعاً علمياً وإعلامياً معقداً ومركّباً، وبخاصةً من أحداث 11/ 9/ 2001ف وما تبعها وترتب عليها من أحداث ونتائج شغلت الرأي العام العالمي برمته، ومن ثمّ اقتضى كل ذلك ظهور خطاب فاعل للحوار الدعوي في مقابلة الفكر الاستشراقي بشقّيه العلمي والإعلامي؛ وذلك للرّد على كلّ من المغالطات الاستفزازية والأسئلة الاستفهامية البريئة بأجوبة علمية واضحة ومقنعة، وللحديث المفيد فيما هو قائم الآن من تناوش وتوتر بين الأمة الإسلامية والعالم الغربي. ذلك العالم الذي يكاد يفشل في استيعاب الأقليات المسلمة، كما أخفق من قبل في تطبيق القيم الدينية الحقة في الحياة العامة، وفي مجال العلاقات الدولية مع الدول والشعوب الأخرى. فبات يتهم الآخر وبالذات الإنسان المسلم بالعنف والتطرف والإرهاب مع أنها صناعة غربية مصدراً وأنماطاً، ووسائل. ولذا أكّدت الكاتبة: كارين أرمسترونغ، وهي راهبة كاثوليكية سابقة في كتابها: (تاريخ السّماء) بأن «العنف في الأساس صنع في الغرب، وتم تصديره إلى باقي أنحاء المعمورة، وأن الغرب دفع وما زال يدفع ثمن محاولته لفرض حضارته بعد تقويض الحضارات المغايرة، وللتّحكم في مسيرة التاريخ يعتقد واهمًا أنّه يمتلك مفاتيحه،

---

(1) المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، ص 16، سبق ذكره.

جميعها»[1] . ولهذا، ونظراً لفظاعة سلوك العالم الغربي، بفعل ما تهيأ له من تقدم علمي وصناعيّ في القرن العشرين المنصرم. فقد أطلق أحد الكتاب الغربيين على القرن المذكور لقب «عصر التطرف»[2]؛ وذلك بعلم العالم الغربي به ومسؤوليته عنه. وما نعايشه منذ أكثر من سنة من هجوم مكثف على الإسلام، وتحريض صارخ على المسلمين مصدرهما الغرب إعلاماً وحكّاماً، لهو من قبيل إسقاط الجرم على الآخرين والتخلص من تبعة جناية اقترفها الغرب على نفسه وبمحض إرادته. على أن هذا لا يتضّمن إقراراً وتأييداً لما قد ينسب إلى بعض الجماعات إسلامية، والتيارات الدّعوية، مما يتنافى مع أصول الدّعوة ومبادئها من سلوكيات تتعارض وتعاليم الإسلام، بل وإنما نرى وفقاً لما يقوله القرضاوي: «أن من بيننا أناساً لا يقدمون صورة حسنة للإسلام، لا من جهة فكرهم، ولا من جهة سلوكهم، فهم يقدمون الإسلام في صورة العنف والتشدد والصدام الدموي مع الآخرين، وإهمال شأن الحريات، وحقوق الإنسان ولا سيما حقوق الأقليات والنساء»[3] . ولكن يجب ألا يحجبنا ذلك عن إدراك وإدانة من ليس لهم غاية من مفكري الغرب سوى الاستنفار والتعبئة من أجل المناطحة، كأمثال صمويل هنتنغتون منظر صدام الحضارات، والذي من عجيب أمره أنه عاجز عن تصور ما عدا الصراع والمواجهة بين حضارات يمكن لها أن تتسالم وتتعايش على أساس التعاون، والتكامل الإنساني؛ من أجل النماء والاستقرار، ونحو مزيد من الأمن والسعادة للناس جميعاً .

وإن هذه الحملة الضارية التي نشهدها الآن والتي لا يزال لهيبها مستعراً، لهي من تدبير وصنع من يعملون من منطلقات استشراقية إعلامية على تسميم العلاقة بين المسلمين والعالم الغربيّ، وإني لا أجد في غياب خطاب الحوار الدعوي أيّ تفسير مناسب للأحداث الجارية أكثر من هذا، إذ لا يستقيم فهم الأوضاع بغير هذا التفسير،

---

(1) نقلاً عن شوقي رافع. (محنة الأصوليين)، ص 60، ص مجلة العربي، ع / 437، عام 1995 ف.

(2) ينظر: عرض محمد الرميحي لكتاب أريك هيزبون: (عصر التطرف) القرن العشرون القصير، ص 14- 23، من مجلة العربي، ع / 446، عام 1996 م، الكويت.

(3) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 187 سبق ذكره.

بحيث لو كانت الأزمة الدولية الراهنة مبعثها في حقيقته قضية محاربة الإرهاب أياً كان نوعه أو مصدره، فإنّه في طبيعته ظاهرة ثقافية وفكرية، ولا يعالج إلا على هذا المستوى.

وعلى العموم فإنّ ما يهمّنا أكثر من غيره إزاء الوضع القائم هو العمل على تحسين صورة الإسلام في الغرب، وفي العالم كله، والتكاتف لتبرئة المسلمين وإخراجهم من قفص الاتهام؛ ذلك أنّ رسالة الإسلام هي الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن كما أمر رسول الله ﷺ وأمتّه من بعده وعلى ما كان عليه مسلكه عليه السّلام في دعوته. وما سلوك المسلمين الحضاريّ في مجازر رواندا وبورندي عنّا ببعيد، وما هو عن العالم الغربي خاصة بمجهول وإن ظل عنده في طي الكتمان والحجب الإعلاميين. فقد تمّ انتشار الإسلام قبل تلك الأحداث وفي أعقابها كما تحقق على امتداد تاريخ المسلمين بأكثر الطرق السلمية إنسانية وتهذباً[1].

إذن فقد بات الآن من المؤكد وفقاً لما يعتقد الكثير من أهل الدعوة إلى الإسلام أنه «لا بد من وعي ديني جديد، لا بد من الدعوة إلى الله في صورة واضحة قوية دون تنفير أو تخويف . . . . لا بّد من الدعوة إلى الله بالحب والتسامح والإخاء كما علمنا رسول الله ﷺ»[2].

وبما أنه يظهر بحكم الغالب والأعم «أن المواطن الغربي لا يفرق بين الإسلام والمسلمين ولا بين المسلمين والعرب فالكل موضوع في سلة واحدة بالطريقة التي أعدها النظام العقائدي الغربي»[3]. وبهذا فقط تأكدت الحاجة بناء عليه إلى بيان حقيقة الإسلام ومزاياه، ودحض ما ألم بكل من الإسلام والمسلمين والعرب في الفكر والإعلام الغربيين من مغالطات واتهامات. ولكن مع ذلك، نجد من بين المسلمين من

(1) يمكن الرجوع إلى بعض تفاصيل ذلك في كتاب: الدعوة إلى الإسلام، للمستشرق الإنجليزي توماس أرنولد.

(2) حسين الشرقاوي: الخائفون من شريعة الله، ص 11، ط عام 1983م، من منشورات شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر.

(3) راسم محمد الجمال: (الإسلام والغرب بين الفجوة المعرفية والمواجهة الأصولية)، ص 51، من مجلة مستقبل العالم الإسلامي، ع 9/ س3 = 1993 ف، مالطا.

يُبرّئ الغرب، ويلتمس له العذر متهماً المسلمين بالتقصير إزاء كل ما حدث، ومن ذلك قول الأستاذ السيد محمد الشاهد: «لا أسلّم أولاً بأنه قد قامت عليهم الحجة لأن الدعوة لم تصلهم بالطريقة التي ينتظر أن تؤثر فيهم، فليس للإسلام حضور في بلادهم سوى حضورٍ هَامشي ليس له وزن علمي أكاديمي بل قد يحارب كل مجهود يبذل، ويحاط هذا الاتجاه من بعض المسلمين بكل الشكوك والظنون، بل ويقاوم في كثير من الأحوال من بعض المراكز الإسلامية الموجودة هناك، فلا حضور مؤثر للإسلام على المستوى العلمي، ولا المستوى الإعلامي في بلاد الغرب، فكيف تكون قد بلغتهم الدعوة الصحيحة، وبالتالي يحكم أن الحجة قد قامت عليهم»[1].

وما من شك في أن الأوان قد آن؛ لأن يقوم من يستهويهم خطاب الحوار الدعوي وينتصرون له، بعبء رسالتهم الدعوية؛ بمقارعة المستشرقين، وكل من في العالم الغربي يستقي منهم معلوماته عن الإسلام والمسلمين بحجج علمية قوية، على أن يكون ذلك وفق منهج حواري ناضج رشيد. ولعل ما تم من مبادرات نادرة في هذا الصّدد ممّا يمكن تعزيزه بالتأسيس عليه، وذلك باعتباره ـ كما سنرى ـ تجارب ملهمة ومشجعة على السير قدماً في مجال الحوار الدعوي الإقْناعيّ مع شخصيات وتيارات الحركة الاستشراقية.

4 - من تجارب حوار الدعوة والإعلام بالإسلام مع المستشرقين:

فيما بين عامي 1993 - 1994ف جرت في دمشق، وفي جو هادئ من النقاش العلمي الرزين، سلسلة من اللقاءات الحوارية بين الدكتور شوقي أبو خليل وهو كما سبق من مؤيدي ديدات والمعجبين بمنهجه، وبين المستشرق الألماني: روديغربراون، وكان ممن يشتغل آنذاك بالبحث في قضايا الحوار الإسلامي المسيحي. وقد استوعبت وقائع هذا الحوار الفكري الهام، والتي توزعت على لقاءات ثمانية، ومواضيع شتّى عن الإسلام والمسيحية في أوربة، وصور الإعجاز القرآني، وعن الاستشراق والتنصير بالإضافة إلى التثليث، وما يتصل به من قضايا تصب في نطاق النقد العلمي لموثوقية

---

(1) (الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين)، ص 209-210، من مجلة الاجتهاد، ع/ 22 س 6 -1414هـ =1994م، بيروت.

مصادر الفكر المسيحي، ويجري تناولها في إطار البحث الاستشراقي العامّ، وبالرغم من أن المستشرق روديغر ظلّ على امتداد تلك الجلسات الشيقة - في أجواء منزلية مفعمة بالتسامح والصدق العلمية - متشبثاً بحريته في الحوار والاعتقاد، وذلك برغم كل ما أبداه محاوره المسلم من منهجية في الحوار والمناقشة، بفضل ما أتيح له من المعرفة في أكثر من مجال، وبسعة صدره، وبراعة استخدامه لأساليب الدعوة والحوار، فإن ما أسفرت عنه مباحثاتهما الفكرية لهو أمر ذو بال، ويستحق منا تسجيل أهمه في الملاحظات الآتية:

1- أقرّ المحاور المستشرق لنظيره المسلم بمفاد اعتقاده الناشئ عن واقع الخبرات التي أفادها من إقامته في سورية بأن الإنسان المسلم بوجه أعمّ هو إلى حدّ ما أكثر استعداداً للحوار من نظيره المسيحي[1].

2- استطاع المحاور المسلم الدكتور شوقي التأثير في ضيفه المستشرق، بحديثه المسهب في بيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فسحب من هذا الأخير اعترافه الصّريح بجهل تلك الحقائق التي لم يكن له سابق علم بها من قبل، إذ قال معقّباً: «ما سمعته من خلال الجلستين اليوم والأسبوع الماضي حول الإعجاز القرآني شيء عجيب دون شك، لم نسمع به من قبل»[2].

وهذا ممّا يعكس لنا كلاً من إمكانية التأثير والإقناع وقابلية التأثر والاقتناع في مثل هذه الحوارات، وخصوصاً عندما ينفسح الحوار الفكري، ويقْرَب من ندوة علمية يتاح فيها لكل طرف التوسّع نسبياً في معالجة موضوعية، سواء في مسرد طرح القضايا، أو في معرض الرد عليها[3].

3- من واقع ما توارثته الأجيال من نصوص أساسية في الفكر المسيحي، يعلن المستشرق الألماني أخيراً بأنّه يتحتم عليهم الاعتراف بالإسلام ديناً عالمياً موجهاً للبشرية كلها[4].

---

(1) ينظر: الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، ص 8، سبق ذكره.

(2) المصدر السابق، ص 125.

(3) ينظر: مثالاً على ذلك: حديثه المفصّلُ والمركز عن الإعجاز القرآني من ص 105 – 125، من المصدر نفسه.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 172 – 173.

وصدور تصريح كهذا من مستشرق يحتكم إليه في بلاده فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين بحكم الدراسة والتخصص، لهو أمر مُثير، وجدير بالاعتبار. يمكن لنا أن نجد فيه ما يؤكد اعتقادنا بجدوى الحوار مع المستشرقين، ويدعم قناعتنا بضرورة تكثيف الاهتمام به كمجال حي مؤثر له خطورته الاعتبارية، وخصوصيته الدعوية في أي خطاب إسلامي معاصر يدعو إلى الإسلام بالحكمة والإقناع.

4- إن متابعة مناقشات الدكتور شوقي الهادية لهذا المستشرق وطريقته الدّيداتية في محاورته، تكشف لنا عن قدرة نادرة وأهلية كافية في التصدي لمثل هذا المهام؛ حيث إن منهجه في ذلك يستند على «أن يكون العلم والمنطق وتحكيم العقل والحجة روادنا دوماً في حواراتنا، لأن الإسلام دين يمجد العقل ويجعله في درجة رفيعة ويرفض التسليم دون حجة من علم، أو برهان من عقل»[1]. كما أنه من حيث القيم الحوارية، ليس حريصاً فحسب، على الالتزام باللطف وسعة الصدر، واحترام الطرف الآخر، بل وإنما هو حريص كذلك على الدعوة إلى تلك القيم والتوصية بأهمية الالتزام بالتحلي بها مع غيرها، في كل سلوك يؤديه الإنسان في ضوء الإسلام ومن أجله[2]. هذا، وعلى صعيد آخر، من تجارب الحوار مع المستشرقين تستلفت انتباهنا إشارة عابرة إلى جهود أحد علماء الشيعة في هذا المجال وهو السيد محمد حسين الطباطبائي، (المولود في عام 1321هـ. في مدينة تبريز الإيرانية)، والذي «كانت لقاءاته مع الأستاذ (هنري كاربن)[3]. مستمرة في كل خريف، يحضرها جمع من الفضلاء والعلماء. تطرح فيها المسائل الدينية والفلسفية، فكانت لها نتائجها المثمرة»[4]. وقد جمعت في مجلدين

---

(1) المصدر نفسه، ص 135.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 63.

(3) هنري كاربان مستشرق فرنسي، 1903-1978ف، اشتغل بالفلسفة الإسلامية وكان له اهتمام خاص بدراسة الفكر الإسلامي في إيران بوجه أخص، ينظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص 335-339، ط1/ 1984ف، دار العلم للملايين، بيروت.

(4) في مقدمة كتاب: السيد محمد حسين الطباطبائي: الشيعة في الإسلام، ص8-9، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، د.م. ن.

خلاصة حصيلة تلك المناظرات التي لم تسعفنا المراجع المتاحة بتقديم صورة عامة عنها، سوى ما كان من إطراء لها، صاغه صاحبه في قوله: «ومن الجدير بالذكر، تلك اللقاءات والمباحثات لم يكن لها نظير في العالم الإسلامي، منذ القرون الوسطى حيث كان التلاقح الفكري بين الإسلام والمسيحية»[1]. أترى فأي تلاقح فكري، هذا الذي يقال بأنه كان قائماً بين الإسلام والمسيحية؟ !!.

فهذا مما لا أساس له من الصّحة. وأمّا الدكتور محمود حمدي زقزوق، فتعتبر قضية الحوار مع المستشرقين من أبرز همومه الفكرية، وبخاصة مع الموضوعيين المعتدلين منهم، ممن يشكلون الفريق الذي دعا زقزوق إلى استمالته ودعم مواقفه من أجل الحوار، الطرح الذي ليس استقدامه لبعض المستشرقين من أجل إلقاء محاضرات في جامعة الأزهر أيام كان عميداً لإحدى كليّاتها، فضلاً عن زياراته العلمية لبعض الجامعات الغربية، وخصوصاً في ألمانية[2]. سوى تطبيق عملي لفكرته. وتبقى أمامنا في هذا السياق الإشارة إلى تجارب حوارية، ولكن من نوع جماعيّ، قدر له أن يسهم بعرض واضح وجيّد لجوانب من تعاليم الإسلام، ممّا كان له أثره في تهيئة الآخرين لتفهمها وقبولها. وأعني بذلك المؤتمرات الدّولية التي عقدت في كل من هولندا وفرنسا، وغيرهما. ففي مدينة لاهاي الهولندية، انعقد سنة 1356هـ=1937ف مؤتمر دوليّ للقانون المقارن حضره مندوبان من كبار العلماء باسم الأزهر الشريف الذي دعي إليه للتمثيل عن الجانب الإسلامي، وقد تحدّثا عن قضايا الشريعة الإسلامية، وأقنعا باستقلالية الفقه الإسلامي، وانتفاء كلّ صلة مزعومة يربطها بالقانون الروماني. وقد سجّل المؤتمر المذكور على إثر مشاركتهما المقنعة بياناً تاريخياً هاماً. وكان مما جاء فيه موجّهاً إلى رجال التشريع الغربي ما يلي:

1 - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع الدّولي العام.

---

(1) المرجع نفسه، ص 9 وينظر: منه أيضاً ص 10.

(2) ينظر: محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب، ص 17 - 18، ط1 / 1407 ه = 1987 م، منشورات مكتبة وهبة، القاهرة.

2 – شريعة الإسلام حيّة، وقابلة لمواكبة التطورات .

3 – إنها شرع قائم بذاته، وليس مأخوذاً عن غيره[1] .

وأيضاً في عام 1948ف، أكدّ في مؤتمر لاهاي الدّولي للمحامين والذي اشترك فيه ثلاث وخمسون دولة، على نتائج المؤتمر السّابق، كما وجهت دعوة خاصة إلى جمعية المحامين الدولية بأن تتبنى الدراسة المقارنة للتشريع الإسلامي والتشجيع عليها[2] . ولعل أسبوع الفقه الإسلامي الذي كان عنواناً لمؤتمر علمي عقد في فرنسا عام 1950ف في كلية الحقوق في جامعة باريس، يعدّ متميزاً بما خلفه من انطباعات إيجابية عن الإسلام وشريعته، وبإسهامه الهام في تصحيح معلومات استشراقية مغلوطة[3] . الأمر الذي صوّر لنا نقيب سابق للمحاماة في باريس بعض جوانبه، بأن أفصح عن حقيقته فقال في غمرة الإحساس بسعادة العثور على حقيقةٍ طالما غيّبتْ: «أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يُحْكى لنا عن جمود الفقه الإسلاميّ وعدم صلوحه أساساً تشريعاً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً، ببراهين النصوص والمبادئ»[4] .

وهكذا يظهر لنا شيء من أهمية الحوار على المستويين الفردي والجماعي؛ إذ من طبيعته معالجة سوء التفاهم من الطرفين، وتحقيق ما عبّر عنه البعض «بتصفية الجوّ الفكري والثقافي بين الجانبين من الضلال الثقافي الذي يغصّ به حلبة الصّراع»[5] . وبذلك سوف يكون الحوار المنشود فعّالاً ومثمراً، ولكن بشرط حسن استثمار موضوع الفقرة اللاحقة من :

---

(1) ينظر: عجيل جاسم النشمي: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، ص 241، ط/ 1404هـ = 1984 ف، د. م. ن.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 241.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 241.

(4) المرجع السابق، ص 242.

(5) محمد إبراهيم الفيومي: «حول قضية الاستشراق والإسلام» ص90، من مجلة الهلال ع/ 12/ س108=1420هـ=1999ف.

5 - فرص ومؤشرات إيجابية لفهم الإسلام ومحاولة تفهيم الآخرين :

وسط ما يخيم على جوّ العلاقات الثقافية بين المسلمين والغرب من غيوم ملبّدة، وضباب كثيف ـ في الآونة الأخيرة ـ امتلأت الدنيا منها ذهولاً واضطراباً، تلوح بين حين وآخر في الفضاء الغربي بوارق أمل، تؤشّر مع محدوديتها لفرص وإمكانات الحوار والدعوة؛ وذلك على مستويات متعددة؛ فمن جانب المستشرقين فمما لا شك فيه أن عدداً منهم قد تحولوا إلى الإسلام وأصبحوا يعملون على نشره في أوساط أهلهم ويمكنون لخطابه في أرجاء بلادهم. ولعلّ من أقلهم شهرة وهم كثير السيدة ألن بول: «الباحثة الإنجليزية التي أشهرت إسلامها، وتحولت إلى داعية، أجرت دراسة ميدانية على عشرين فتاة إنجليزية مسلمة، خمس منهنّ اعتنقن الإسلام بسبب المطالعة المتعمقة في القرآن الكريم، والباقيات بسبب زواج من مسلم، أو التأثر بعالم مسلم»[1].

هذا وإن كان بعضهم من القدامى قد تجنّى على الإسلام، وتحامل على المسلمين: بدافع الجهل أو التعصب، فإن العديد منهم ـ بالمقابل ـ قد انتصروا للحق، ودافعوا عنه دفاعاً علمياً صادقاً، ووقفوا إلى جانب المسلمين لعوامل إنسانية خالصة، وربما أسلم عدد كبير منهم بفضل ما اهتدى إليه من نور الحقّ المبين عن طريق البحث العلمي النزيه، ولنا من الشواهد على ذلك كثير ممن تغني شهرتهم عن ذكرهم. وربما لهذا السبب وجدنا من الباحثين المسلمين من ينبي ويبدي أسفه على اعتقاده بتضاؤل حركة الاستشراق في العالم، وركود سوق صناعتها في شتى المجالات العلمية الأصيلة، وفي مختلف مناحي الإبداع في البحث العلمي الرصين؛ وذلك ظناً منه فيما يقول: «إن الغرض العلمي للاستشراق بوجه عام - فيما يبدو- هو الهدف المركزي الذي جنّد طاقات المستشرقين دون الأهداف الهامشية الأخرى، التي قد لا تشكل داعياً نهائياً وحتمياً عند أغلب المستشرقين وهذا لا ينزه قسماً منهم بدا انحرافهم واضحاً من خلال المرور بفقرات من عباراتهم . . .»[2].

---

(1) الحوار دائماً، ص 125، سبق ذكره.

(2) محمد حسين الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص 124، ينظر: أيضاً ص 125، ط 2/ 1406 هـ = 1986 ف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

إن ترجيح الدوافع العلمية على غيرها في دراسات المستشرقين، وجهودهم العلمية، هو أمر يمكن أن نجد له أساساً معتبراً، وخصوصاً في الاستشراق المعاصر[1]، ولكن بشرط ألا يرتبط تصور ذلك بعدم إسلام الكثير منهم، فهو شأن آخر له ظروفه ومبرراته الخاصة، بغض النظر عن وجاهتها من عدمها، وذلك لتعدد الموانع النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها من الاعتبارات الوظيفية والرسمية .

ومما يمكن اعتباره من مؤشرات الخير في عالم الاستشراق، بالنسبة لخطاب الحوار الدعوي، هو مشروع دراسة المقررات المدرسية في ألمانية، لإظهار الأخطاء وتصويبها، والذي صدر أوّلاً في ثمانية مجلدات، فانتقل ميدان هذا المشروع العلمي الكبير الهام إلى كل من النمسا وفرنسا، على أمل توسعة نطاقه ليشمل كل الدّول الأوربية الأخرى[2] .

وفي إطار توسعة هذا الاتجاه وتعزيزه تندرج كافة المشاريع العلمية الكبيرة المبرمة على أساس التعاون بين جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) لتصحيح الصورة الخاطئة، وتحسين المعرفة بالإسلام عقيدة، وقيماً، وتاريخاً، وحضارة .

ومن سعادة الحظ في هذا الصدد أن تكون في ظرفنا الراهن إمكانيات الاختراق العلمي للمعاهد والمؤسسات الاستشراقية الكبيرة متاحةً للمسلمين إلى حد كبير؛ وذلك عن طريق التعاون العلمي، وفتح الأقسام وإعارة الأساتذة المسلمين الأكفاء، والتزويد بالمصادر الأصيلة، والمراجع العلمية الرصينة، لتلك الاتجاهات الاستشراقية، ومن أبرزها معهد الدراسات الشرقية والأفريقية، الذي «يعد أكبر معهد من نوعه في أوروبا وفيه تدرّس حوالي ثمانين لغة أسيوية وخمسين لغة أفريقية، وهو يعنى كذلك بكل ما يتعلق بهذه البلدان من أدب ودين وفلسفة وعادات وفن وموسيقى، وتاريخ،

---

(1) ينظر: عن علمية توجه جيل المستشرقين الجديد عند السيد محمد الشاهد في مقاله، «الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين».

(2) ينظر: المرجع السابق، ص 193 .

وعلم آثار، واجتماع، وسياسة واقتصاد وعلم أجناس وجغرافيا»[1].

كما أن من الفرص والمؤشرات وجود عدد من المستشرقين يعملون بجهود فردية وإمكانيات محدودة لتحسين صورة الإسلام والمسلمين في الفكر الغربي المعاصر، كأمثال المستشرق البريطاني بيتر هولت المولود 1918ف والذي اختتم ميشال جحا ترجمته له بقوله: «وهو يحصر اهتمامه في تغيير صورة الإسلام التي كانت سائدة في أوروبا القرون الوسطى، وتحسين العلاقات بين المسيحيين والمسلمين والسعي إلى الحوار والتفاهم بدلاً من التباغض والتنابذ»[2].

وبالإضافة إلى هذا يقر كثير من ذوي الاهتمام بواقع ومستقبل الخطاب الإسلامي في العالم الغربي، بأن عدداً كبيراً من العلماء والكتاب والباحثين من مسلمين وغيرهم يتوافرون في عصرنا هذا على دراسة المواضيع والقضايا المتعلقة بالإسلام والمسلمين، ويناضلون بشرف علمي عظيم في سبيل التصدي للكتابات المغرضة والعمل على إبراز ما في رسالة الإسلام العالمية من سمو وعمق وإنسانية[3]. وهذا فيما يخص المستوى الاستشراقي، أماّ من حيث الجانب الإعلامّي فبالرغم من عجز الإعلام الإسلاميّ عن ملاحقة التشويهات التي يتعرض لها الإسلام والمسلمون في وسائل الإعلام الغربية، فإن ظاهرة إسلام رجال الإعلام هناك أصبحت من القضايا التي تستلفت النظر، وتنال اهتمام وتعليق من تشغلهم مسيرة العمل الإسلامي في العالم الغربي ويعنون بتوثيقها، والإفادة بتطوراتها. وقد كتب أحدهم يقول: «ثمة صحفيون أمريكيون كباراً اعتنقوا الإسلام خلال السنوات الفائتة ولم يكتموا إيمانهم به، أبرزهم بلا جدال هو ستيفن باريوز الذي تظهر مقالاته في نيويورك تايمز واشنطن بوست ومجلة U.S.A today وهم لا يتجهون إلى أسلوب الصراع من الكتابات السائدة وإنما ينتجون مادة جديدة مخالفة

---

(1) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص 69 سبق ذكره.

(2) المرجع السابق، ص 58.

(3) ينظر: نجمي رجب ضياف: «المد الإسلامي وانتشاره في مختلف بقاع العالم»، ص 10، من صحيفة الدعوة الإسلامية ع/ 748، بتاريخ 9 صفر الموافق 2/ 5/ 1369 من وفاة الرسول (ص).

تعرض دين الإسلام وحقائق وأوضاع المسلمين كما هي في أسلوب طلي شيق يستوفي كل شرائط العمل الصحفي الأصيل الراقي، فقد ينشئ أحدهم سلسلة من المقالات الشيقة، يخرج قارئها بنتيجة واحدة مؤدّاها أن نسبة الجريمة وسط المسلمين في أمريكا هي أقل بكثير مما لدى أتباع الديانات الأخرى»[1]. وعلى المستوى نفسه يقدم بعض الناس في الغرب على استخدام شبكة المعلومات الدّولية لتقديم رسائل اعتذار إلى المسلمين في جميع أنحاء العالم، على ما سبق منهم من تزوير ونشر آيات محرفة من القرآن الكريم عبر مواقع معلوماتية، كانت قد أنشئت لهذا الغرض؛ بدوافع مادية تافهة، وبمؤامرة صهيونية مبيّتة ومعهودة[2]. وبتلك الرسائل وغيرها من الاعترافات تتأكد لنا دوماً مصداقية الصادق المصدوق في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

وأما على الصعيد السياسي فإنّ من المؤشرات المبشرة أن تعلن شخصيات في أعلى المستويات القيادية في العالم الغربي عمّا يعبر عن فهم طيّب لرسالة الإسلام، وتقدير عال لجهود المسلمين، وإسهامهم المتميّز في بناء صرح الحضارة الإنسانية؛ وذلك حسبما ورد في حديث الرئيس الفرنسي السابق جيسكار ديستان بجامعة الأزهر، أثناء زيارته لمصر عام 1396هـ - 1976ف، ففي خلاله «أشاد بمبادئ الإسلام وقال: إنها مبادئ عالمية إنسانية تقوم على العدل والرحمة وتنشر الإخاء والسّلام . . ويقول إنه يشهد بهذا عن عقيدة وبصيرة، وأنّه يدعو أوروبا إلى هذا الفهم لقيمة الحضارة المصرية والمبادئ الإسلامية»[3] ومن المؤشرات كذلك أن جعلت مملكة السويد من عام 1985ف عاماً رسمياً للتعريف بالإسلام، عقيدة وإنسانية وحضارة[4]؛ وذلك في إطار

(1) مؤامرة الغرب على الإسلام والمسلمين، ص 97، سبق ذكره.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 100.

(3) «بداية فهم صحيح للإسلام في أوروبا» ص 94، من مجلة منبر الإسلام 4 / 1س 34 = 1396هـ = 1976ف. القاهرة.

(4) ينظر: الحوار دائماً، 80 - 81، سبق ذكره.

ما تعاني منه كلّ الدّول الغربية من بحث لاهث عمّا يُؤمّن لها الجانب الروحي في حياتها المادية الطافحة، ويضمن استقرار وسلامة الأسرة باعتبارها المؤسسة الأساسية في بناء المجتمع الإنساني السليم والسعيد. ولئن كنّا لم نعلم يقيناً بالأسباب الحقيقية للموجّهات التي عملت على حصر الاهتمام السويدي بالإسلام خاصة، ووقوع اختياره عليه دون غيره، فإن للذاكرة في هذا الفراغ التعليلي أن تستوحي تأثير مشاركة الشيخ ديدات في النقاش الديني الذي جرى كما رأينا في بلاط المملكة السويدية لتحديد عدّة المتوفّى عنها زوجها من الأرامل.

وفي عهد ولاية كلينتون على رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عمل على تشكيل هيئة علمية من عشرين عضواً، من بينهم مسلمان هما وارث الدّين محمد والسيّدة ليلي مراياتي، وتختص بتقديم المشورة للرئيس في الشؤون الدّينية العالمية والأمريكية[1]. وهذا مما يعكس على المستوى الرئاسي (آنذاك) تفهماً للإسلام، واعتباراً لدور المسلمين في الشأن المحلّي والعالمي. وقد وجدت مبادرة أخرى ذات بعد سياسي، تبنتها السيدة هيلاري كلينتون في عام 1996ف بأن استضافت احتفالاً كريمًا بالبيت الأبيض بمناسبة انقضاء شهر رمضان المبارك، وفي هذا الاحتفال الإسلاميّ الذي يعد الأوّل من نوعه في التاريخ الأمريكي اعترفت السيدة المضيفة لضيوفها بأن الأغلبية العظمى من المسلمين الأمريكيين مواطنون أوفياء[2]. والحقيقة، هي أنّ في العالم الغربي من الساسة من يعتبرون متسامحين مع الإسلام، وأصدقاء للمسلمين، كالنائب الأمريكي السابق بول فندلي الذي تقدم ذكره، وهم يعملون من أجل إتاحة الفرص الملائمة للحوار والتعاون لصالح التعايش والتكامل بين العالمين الإسلاميّ والغربيّ. وإن كان دور هذه الفئة الطيّب ممّا يضيع أحيانًا في معمعة المشاحنات والمشاجرات السياسية المفتعلة.

---

(1) ينظر: بحث الدكتور محمد السماك: «الإعلام الإسلامي في مواجهة تحديات القرن القادم» ص 25.

(2) ينظر: أمين يسري: «صورة العرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية» ص12، من مجلة الهلال، 3 /4، س30=1419 هـ=1999ف، القاهرة.

ومن التطورات القضائية التي لها صلة بالمؤشرات السياسية في العالم الغربي تجاه الإسلام والمسلمين محاكمة الكاتب الفرنسي ميشال ويلبيك ابتداء من يوم 18/ 9/ 2002ف في إحدى محاكم باريس بتهمة مناهضة الإسلام وإهانة المسلمين[1].

وهو حدث له دلالته في التعبير عما بدأت حركة الإسلام تُحرزه من حقوق ومكاسب في بعض مجتمعات المستشرقين. ولعلّ في المعطيات الإعلامية وبخاصة تلك التي تنبئ بتعاظم إقبال المجتمعات الغربية على اعتناق الإسلام، ما يفيد حقيقة هذا الطرح، ولا سيما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001ف، إذ ظهرت موجات اجتماعية كبيرة في التحرك نحو دراسة الإسلام والتعرف عليه عن طريق المحاورات والاستفسارات، من أجل اعتناقه. ففي السويد مثلاً كان مما صرح به إمام أحد مساجدها لمراسل صحفي قوله: «. . . هناك حركة هداية واضحة وفاعلة بين السويديين، وهناك إقبال شديد على الإسلام، وطرح الأسئلة والحوارات والمناقشات الجانبية التي تحدث بيننا وبين السويديين، وأوضح أن معظم ما نتعرض له يتركز حول نظرة الإسلام للمرأة، ومعنى الجهاد في الإسلام، ونظرة الإسلام إلى العلاقات غير الشرعية، وموقفه من الأديان الأخرى؛ النصرانية واليهودية، وأيضا الحكمة من تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير . . من منطلق عملي واتصالي بالمجتمع السويدي أرى أن أحداث سبتمبر فتحت المجال للسؤال عن الإسلام والبحث والدّراسة في تشريعاته»[2]. ومن المعلوم أن العمل الدّعوي يرحّب ويسعد بكلّ بحث موضوعيّ، أو دراسة علمية عن الإسلام والمسلمين، تتطلع إلى معرفة الحقيقة من أصولها بعيداً عن المغالطات الاستشراقية القديمة، والتشوهات الإعلامية المغرضة.

والواقع هو أنّ هناك من الكتّاب من يحاول أن يبثّ في نفوسنا الأمل الدّعوي، وهو ينبهنا فيما أظن إلى أهمية وضرورة الإفادة من المؤشرات الإيجابية المتاحة،

---

(1) ينظر: «محاكمة ميشال ويلبيك بتهمة إهانة الإسلام» ص2، من صحيفة الدعوة الإسلامية ع/ 821، بتاريخ 18 رجب الموافق 25/ 9/ 1370 و. ر.

(2) «السويديون يقبلون على الإسلام بعد 11 سبتمبر» ص 2، من المرجع السابق.

والسعي لاغتنام الفرص المفتوحة بسعتها أمام الخطاب الدّعويّ في العالم الغربي؛ وذلك بناء على ما قاله أمريكي اعتنق الإسلام فيما نصّه: «.. واليوم هناك العديد من المسلمين الأمريكيين والأوربيين الذين يقومون بنشر عقيدتهم للآخرين، وإننا نلاحظ ازدياداً في عدد الكتّاب الغربيين الذين يبدون تعاطفاً مع الإسلام»[1].

إذن، فيتعين - تأسيساً على كل ما سبق من فرص ومؤشرات - أن يستقرّ العلم لدى دعاة الإسلام بأن العمل الإسلاميّ في ديار الاستشراق يمرّ في الظرف الرّاهن بمرحلة تطوّرات جديدة وهائلة، من شأنها تمكين الخطاب الإسلامي من اكتساح مساحات إنسانية فسيحة ومتنوعة، للظهور على مسرح الحياة الغربية، لأداء دور حضاري بديع ومتميز، من طبيعته أن يجلب للإنسانية كلّ خير، ويقود العالم نحو الفضيلة والسّعادة. ولكن يظلّ كل ذلك مرهوناً بمدى وعينا وسعينا إلى تحقيق ما ينتظر من الدّعاة، من إشباع جادّ لما يمكن التعبير عنه بـ:

6 - معاناة عالم الاستشراق من شدة الحاجة إلى التعاطي معه بمنهج الحوار الدعوي:

لا ينكر دارس موضوعيّ للمستجدات العالمية المعاصرة بعامة، ولواقع العالم الغربي بما يفور منه من غليان واضطراب بخاصة، عظم حاجته إلى خطاب الحوار الدعوي؛ ذلك لأننا إذا تأملنا في حال عالمنا المعاصر منذ أكثر من سنة وجدناه لا يزال يعيش على أحر من الجمر، نتيجة أحداث مفاجئة ومعروفة عالمياً، الأمر الذي يجعل من توظيف وتفعيل دور خطاب الحوار الدّعوي ضرورة من ضرورات العصر، تفرضها بالإضافة إلى المقاصد الدّعوية النبيلة، طبيعة العوامل الظرفية، من حيث الأوضاع الجارية بقدر كبير من التوتر، والتنافر، ممّا يعكس إرادة بعض القوى العسكرية الرهيبة لظرفنا التاريخيّ الراهن أن يكون عصر الصراع والتصادم بين الغرب، والعالم الإسلامي على نحو أخص، وفي مختلف مجالات الحياة. وبذلك،

---

(1) جفري لانغ: الصراع من أجل الإيمان، ص 52 - 53، ترجمة: منذر العبسي، ط2/ 1421هـ=2000ف، دار الفكر، دمشق.

فإن خطاب الحوار في ظرف كهذا يغدو إجابة شافية لحاجة تعتمل في نفوس النـاس، في مختلف بقاع العالم، ولأن العالم اليوم يمر بأزمة قد تعصـف بكيانـه، فـإن القرضـاوي بالنظر إلى أهمية الـدور الفكـري الـذي يمثلـه المستشـرقون يعلّـل ضـرورة الحـوار معهـم بقوله: «وهذا الحوار ضروري، لتصحيح الفكرة، وتقريـب الشـقة، وتنقيـة الأجـواء، وتمهيد الأرض لعلاقات أفضل»[1]. وذلك معهم كوسطاء الفكر والثقافة، ومع العالم الغربي في عمومه والذي يعد القرضاوي الحوار معه كذلك «فريضة وضرورة لنا، حتى يفهم ما نريد لأنفسنا وللناس، وأننا أصحاب دعوة لا طلاب غنيمة، ورسل رحمـة لا نذر نقمة، ودعاة سلام لا أبواق حرب، وأنصار حـقّ وعـدل لا أعـوان بـاطل وظلـم، وأن مهمتنا أن نأخذ بيـد الإنسـانية الحـائرة إلـى هدايـة الله، وأن نصـل الأرض بالسـماء والدنيا بـالآخرة، والإنسـان بأخيـه الإنسـان، حتّـى يحـبّ كـل امـرئ لأخيـه مـا يحـب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه»[2]. وإن مـا حـدث في حـقّ الإسـلام والمسـلمين مـن توزيع اتهامات، وطرح مغالطات قديمة ومعاصرة، لهـا جذورهـا وامتدادهـا في العقـود القديمـة، والمؤثـرات الحديثـة، لهـو ممـا يقتضـي - بـالمحل الأول - مـن الدعـاة المحـاورين ردوداً منطقية مقنعة، وتصحيحات علمية هادئة من خلال العمليـات التنفيذيـة لمشـروع الحـوار الدّعـوي مـع المستشـرقين، حيـث إن الحـوار كمـا يقـول الدكتـور التويجـري: «... قوّة وسلاح من أسلحة السجال الثقافي والمعركة الحضارية، وهـو وسـيلة ناجحـة من وسائل الدفـاع عـن المصـالح العليـا للأمـة. وشـرح قضاياهـا، وإبـراز اهتماماتهـا، وتبليغ رسالتها، وإسماع صوتها، وإظهـار حقيقتهـا، وكسـب الأنصـار لهـا، وجلـب المنافع إليها ودرء المفاسد عنها»[3].

إن قضية الحوار والتفاهم مع المستشرقين، حـين تبْنـى وتجـرى علـى أسـس علميـة صحيحة، ووفق منهجيـة رشـيدة، فهـي كفيلـة بإعـادة تشـكيل الفكـر الاستشـراقي بمـا

---

(1) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 182، سبق ذكره.

(2) المرجع السابق، ص 175 – 176، وينظر: محمد إبراهيم الفيومي: رسالة في الحـوار الفكـري بـين الإسـلام والحضارة، ص 58 – 59، ط/ 1981ف، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

(3) الحوار من أجل التعايش، ص 15 – 16، مرجع سابق.

يصحح موروثهُ المغلوط ، وليحل محله الفقه الصحيح ، والمعرفة الموضوعية عن الإسلام والمسلمين . وسوف يكون حينئذ من الأمور الإيجابية جداً وحقاً ، إن قدّر للدعاة المحاورين التوفيق في مساعدة محاوريهم من المستشرقين بمفهومه العام ، في اكتشاف حقيقة ما خسره العالم بانحطاط المسلمين . ومما يهمنا هنا في معرض الدعوة إلى تعبئة الفراغ الذي خلّفه غياب الحوار الدّعوي في عالم الاستشراق وفي مراكزه العلمية ، أن ندرك جيداً ، نحن والغرب ، أنه ليست لأي من الطرفين أدنى مصلحة في معاداة الآخر ، وإنما الثقة المتبادلة ، والمودة ، والتنادي إلى الخير ، والتناهي عن الشرّ ، هو ما يخدم المصلحة الحقيقية والدائمة لكلّ من الجانبين . ولئن اختلط نسيج العلاقة بين المسلمين والغرب ، عبر التاريخ ، بخيوط واهنة من النزاعات الدينية والعنصرية من قبل الغرب ، ممّا جعل النظرة القائلة بأن موقف الغرب من الإسلام والمسلمين عدائي ومتعصب ، وأنّه حاول وما يزال طوال التاريخ الحد من انتشاره ، واستضعاف المسلمين ، والقضاء عليهم[1] ، هي السائدة في العالم الإسلامي ، ولا سيما منذ انهيار معسكر الاتحاد السوفييتي سابقاً ، فإنّ كل ذلك قابل للزوال والتبدل إذا اعتبرنا أنفسنا مع الغربيين وفق تعبير أحدهم : رفاق السّفر بالرغم من تشعب المسالك[2] . وبإمكاننا كما قد نتأثر بهم في حالة التفوق المادي أن نؤثر فيهم بديننا وقيمنا الروحية عن طريق العلم ، والمعاملة ، والحوار والدعوة . ومن هنا يأتي الخطاب التشجيعي للشيخ القرضاوي ، لزرع الأمل ، والدفع في الاتجاه المؤدي إلى خوض حوارات فكرية دعوية مع المستشرقين بروح وثابّة متفائلة . ومما يفيد ذلك قوله :

«وإذا تحقق الحوار مع رجال الدين ، وممثلي الكنيسة ، وهم الأكثر تعصباً بحكم مواقعهم ومواريثهم الثقافية الممتدة في التاريخ ، فالحوار مع المستشرقين وأهل الفكر

---

(1) ينظر : زينب عبد العزيز : "موقف الغرب من الإسلام في صراعه الحضاري" ص63 – 64 ، من مجلة مستقبل العالم الإسلامي ، ع/ 9 س=19993ف ، مالطا ، وينظر : أيضاً : محمد سعيد فخرو : «الاستشراق والإسلام ، ص 95 – 98 ، من مجلة الفيصل ، ع/ 150 س 13 = 1409هـ = 1989ف ، الرياض ، السعودية .

(2) هو تعبير استخدمه المستشرق هاملتون جيب ، في كتابه : دعوة تجديد الإسلام ، ص 11 ، ط/ دار الوثبة ، دمشق ، د. ت .

أقرب نفعاً، وأيسر سبيلاً»[1]. ولا يضيرنا بعد هذا، كما لا يثبط همتنا وجود من يسعى من بين المستشرقين للوقيعة والتناحر بين الشرق والغرب، من أمثال صمويل هنتغتون الذي وصفه الكاتب الكبير: إدوارد سعيد، في محاضرة له بجامعة طوكيو اليابانية عام 1995ف، بأنّه خبير في علم تدبير الأزمات[2] ذلك أن عدّةً كافية من القواعد والآليات، مما سنرى الآن، يمكن لها أولاً وأخيراً أن تسهم بقدر ما كبيرٍ، في تأهيل الدّعاة لخوض العمل الحواري مع المستشرقين بكل جدارة واقتدار وتأثير.

7 - من قواعد وآليات الحوار مع المستشرقين:

فمن حيث القواعد الأساسية لعمليات الحوار الدعوي مع المستشرقين فهي لا تخرج عما سبقت الإشارة إليه من قواعد وضوابط حوارية عامة، سواء في حديثنا عن البنية الهيكلية لمنهج الشيخ ديدات، أو في تحديدنا لبعض سبل وخطوات الاستفادة من هذا المنهج، وأيضاً كما تقرر في مختلف المجالات التطبيقية السابق تناولها. فالحوار أياً كان فهو دعوة نبيلة، ولكن لا بد له من أن يكون مسنوداً بشروط وقواعد أساسية تضمن علميته، وتحقق غاياته الإنسانية الكريمة؛ إذ «ليس الهدف من الحوار الانتصار والفوز، أو إدانة الآخر، بل الهدف هو البحث عن الحقيقة، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، والتعرف على ما عند الآخر بموضوعية، دون تعصب، وبلا مواقف مسبقة، وخلفية حاقدة»[3]. ومن أولى قواعد هذا الحوار، وأكثرها أساسية هي ما تحدد في قول من قال: «فنحن لا نمانع من الحوار، شريطة أن يكون لهذا الحوار أسس، إذ لا جدية في حوار مبني على الجمل المفيدة والعواطف وتبادل المجاملات بمعنى أن يتحاور كل طرف في حدود ذاته، فالمحاور المسلم عليه من البداية أن ينطلق من قاعدة ثابتة هي: أنّه لا حوار في

---

(1) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص 182، سبق ذكره.

(2) محسن خضر: "صدام الحضارات بين المهدي المنجرة وهينتجتون. . . ." ص169، من مجلة الهلال، ع/12/ س 107= 1419هـ=1998ف القاهرة، مصر.

(3) الحوار دائماً، ص 116، سبق ذكره.

غيبة الإسلام، ولا حوار على أساس عقيدة الإسلام»[1].

وهذا لا يعني حجراً على العقل في ممارسة عملية المراجعة النقدية، كما لا يعني حكماً مسبقاً أو إصداراً عن هوى، بل وإنما هو ضرب ضروري من ضروب التمسك بما صح من الثوابت الراسخة، التي تتعرض الواقعة الحوارية لحالات باطلة من الدور، والرجحان بدون مرجح، في غيابها كخلفيات أساسية لازمة يقوم عليها البناء الحواري المتين.

وهذا ممّا يتعارض ولا يحول دون التأكيد على قاعدة حوارية أخرى هي أن: «تنطلق حوارية الآخر من مبدأ الاعتراف بالرأي الآخر، واحترام الإنسان الآخر في وجوده الخاص والعام أي كفردٍ له شخصية مستقلة، ورأي خاص . . . وكذلك ينتمي إلى عضوية مجتمع له ثقافة وأصول معرفية، وقبول عقليته ووجدانيته، ونفسه وعرفانه . . قبولاً ينسجم وفق آلية الحوارية الإسلامية الحقة البعيدة عن أي أهواء أو أغراض بشرية شخصية»[2].

على أن مبدأ الاعتراف بالآخر، ليس تسليماً بما يراه هذا الآخر من أفكار، ويؤمن به من معتقدات، وإنما هو مدخل دعوي وضروري للتأثير والإقناع عن طريق التناظر الفكري في القضايا مواضيع الاختلاف، وأيضاً هو سبيل علمي وإنساني للتعاون في تفحص ومعالجة المعضلات الكثيرة، من سياسية، واقتصادية، واجتماعية، علمية وثقافية، والتي في جملتها تواجه وتهدد عموم الحياة الإنسانية المشتركة.

ولئن ساغ للبعض في سبيل مواجهة الاستشراق في ضوء قراءتهم إيّاه كظاهرة سياسية القول بأنه «يلزمنا استخدام كل المناهج، ولأن عصب هذا الاستشراق سياسي، وتبيانه ممكن، لا بدراسة موضوعه «الشرق» بل بالتوقّف عند مصدره الغرب . . . »[3].

---

(1) «الدكتور رشدي فكار في حوار صريح مع منبر الإسلام» ص39، من مجلة منبر الإسلام، ع/ 11 س47 = 1409 هـ 1989 ف، القاهرة، مصر.

(2) علي محمد رحومة: «مبدأ الحوارية في الإسلام» ص6، من صحيفة الدعوة الإسلامية، ع/ 702، مرجع سابق.

(3) الاستشراق السياسي. . . ، ص 238، سبق ذكره.

فإن من الحكمة الدعوية بمكان، أن نستقلّ قطار الحوار العلمي، ونسلك نهجه الموضوعي الفسيح بآدابه وأخلاقياته، والتي من أهمها: أن يكون الحوار كريماً، راقياً وهادفاً، يجري ويتم من غير تعصب ولا صخب، بعيداً عن شحن المزايدات الانفعالية؛ إذ كثيراً ما يعاب على خطابات المسلمين أنها تتسم بطابع التشكيك والاتهام، والاحتجاج والانفعال، مقابل خطابات هادئة ومتزنة من الطرف الغربي[1]. ولذلك لا يفهمهم الآخر، ويقل تأثيرهم فيه، إذ لا وجاهة عند معظم أهله لما يقوله المسلمون[2].

ولكي تكون حوارات الدعاة مع الغرب ومستشرقيه مثمرة فلا بد من تقعيدها على الحكمة، وضبط النفس عن الوقوع في المزالق الانفعالية التي يستدرج إليها الأعداء كعادتهم دعاة الخير للإيقاع بهم في شركها الإعلاميّ. ومن أجل التبشير الناجح بحقائق الإسلام ومزاياه بما يجذب الغربيين إليه، ويكسبهم لصالحه في هذا العصر، فقد لزم القيام بإجراء حوارات علمية مقنعة مع كافة الفصائل الاستشراقية للتعريف بأنظمة الإسلام وسماحته، وقيمة رسالته الإنسانية، التي تحمل للناس جميعاً عناصر الخير والسعادة، ولإيجاد منابر فكرية شيقة كقنوات دعوية تتيح للناس أن «يتعرفوا على ما حولهم بصدق وصفاء، ويتعاطوا معه بإخلاص ومحبة ورغبة في التعاون والتفاهم بعيداً عن أجواء التوتر التي كان ينشرها قديماً التعصب الديني الحاقد القائم على مجرد الكره والبغض والجهل»[3]. ومن حيث الآثار والنتائج المتوقعة فإن عمل دعاة الإسلام على ترتيب حوارات فكرية، ابتداء مع المستشرقين المعتدلين، حسبما يقول الدكتور زقزوق: «سيكون له أثره الإيجابي على الجانبين، فمن ناحية سيكون دعماً لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعاً لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة في يوم من الأيام تياراً عاماً في الغرب يكون له تأثيره الفعّال في تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام في العالم الغربي، ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد

---

(1) ينظر: مقال: محمد إبراهيم الفيومي: «التحدي الحضاري...» ص45، من مجلة الهلال ع/ 11س 108=14200هـ= 1999ف، القاهرة، مصر.

(2) ينظر: للكاتب نفسه كتاب: رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، ص، سبق ذكره.

(3) موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية، ص 7، مرجع سابق.

المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم، وتقليدهم لهذه الأفكار، وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة»[1].

وأما الآليات الإعلامية، والوسائل العلمية اللازمة، والتي يمكن أن يتحقق بها نجاح هذه الحوارات أولاً، ثم ينتشر صداها الدعوي في أثناء إجرائها وبعده، فيعم نفعها المأمول في أرجاء العالم، فإن الإمكانيات المتاحة منها اليوم أمام دعاة الإسلام ليست ضيقة، بل هي من السعة بمكان، يتحتم فيه من المنظور الدعوي استيعاب كافة تلك الآليات الإعلامية، والقدرة على استخدامها بأرقى المستويات الفنية، حيث إن الطفرة الإعلامية التي شهدها العالم منذ عقود قليلة، بالنظر إلى كمها وكيفها وتكييفها لحياة الإنسان المعاصرة، تجعل من اهتمام خطاب الحوار الدعوي بالبعد الإعلامي لخدمة قضيته بوسائله وتجاربه، أمراً في منتهى الأهمية والضرورة، وبخاصة في مجالات الحوار مع الديانات والتيارات الفكرية المخالفة لما عليه المسلمون من عقيدة وثقافة.

وللإشارة إلى تلك الوسائل والآليات وما أكثرها، يمكن تحديد بعض ما يخص منها الآليات الإعلامية: في الصحف السيّارة، وفي الإذاعات المسموعة والمرئية بما فيها القنوات الفضائية، والأرضية، والمسجّلات الحديثة بمختلف أنواعها الصوتية والضوئية، ولشبكة المعلومات الدولية كأحدث أداة للاتصال بالنسبة إلى الآليات الأخرى، وبالإضافة إليها، دور متميز في نشر الخطاب الدعوي بصورة فعالة، وللرد على كافة ما لا يصح عن الإسلام والمسلمين وعلى ما يرِد على الدعاة من أسئلة استفهامية تعرض للناس بخصوصهما. وعلى العموم، تجب مواجهة خطاب الحوار الدعوي للواقع الغربي بكل ما يكافئه من آليات إعلامية، مواجهةً تأخذ في اعتبارها دوماً ضرورة تطوير الخطابات الدعوية المعاصرة، لتتسم بالحيوية والهدوء، وبسموّ المنهج، ورقة الأساليب، وجاذبية المضامين.

وأما الوسائل العلمية فيتمثل أهمها: في عقد صلات علمية حوارية بالعلماء

---

(1) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 152، سبق ذكره.

والباحثين في مجالات الاستشراق، وفي المؤسسات العلمية، والمراكز الثقافية، بإلقاء محاضرات وإجراء حوارات فيها وفي إصدار كتب ومجلات متخصصة في قضايا الحوار الفكري مع المستشرقين والغرب، وكذلك في نشر مقالات فكرية محكمة، وبحوث علمية رصينة في الصحف والدوريات الاستشراقية والغربية بعامة . . بالإضافة إلى ما يعتبر من أهمها وهو الحضور الحواري الفاعل والمؤثر في ندوات ومؤتمرات المستشرقين .

على أنه يجب أن يسبق كلّ ما سبق ويواكبه سباق علمي مزدوج يدفع بالدعاة إلى التعمق في معرفة التراث الإسلاميّ ودراسته، كما يعنى من جانب آخر بإنشاء وتنمية النقيض المعرفي المضادّ لحركة الاستشراق، المعروف باسم الاستغراب؛ إذ لابد من معرفة الآخر قبل الخوض معه في أي حوار علمي هو من ضروب المواجهة بالحقّ، والإعلام به .

وإني لا أتصور أي نجاح أو فاعلية لدعاةٍ يعتزمون محاورة المستشرقين، ما لم يكونوا في المستوى المعرفي اللائق على الصعيد الاستشراقي، والاستغرابي، هذا إن لم يكونوا في طليعة من يبتدع المعرفة الصحيحة هنا وهناك، ويسعى لنشرها قبل غيره. ولا يخفي أنّ حالنا في ذلك دون ما يعذر عليه المرء، بل ممّا يلام عليه ويعاتب، ولذا قارن الدكتور فؤاد زكريا بين طبيعة أخطاء المستشرقين من جانب، وأخطاء المسلمين من جانب آخر، فصور لنا الواقع تصويراً أجده مشّوهاً وغير محايد كما تمثل في قوله: «. . . إننا لا نكفّ في السنوات الأخيرة عن مهاجمة المستشرقين، متهمين إياهم بتشويه تراثنا والجهل بخصوصية حضارتنا، ولو قارنا أخطاءنا في فهم الحضارة الغربية بأخطائهم في فهم الحضارة الإسلامية لما كانت المقارنة في صالحنا على الإطلاق؛ ذلك أن معظم أخطاء المستشرقين تفسيرية واستنتاجية، بينما نخطئ نحن في معرفة أبسط الحقائق عن حضارتهم»[1]. وهنا ينسى الدكتور أن الجهل أهون من الضلال في الفكر والعقيدة، وأن الخطأ في التفسير والاستنتاج مما يجرّ إليه، وهو مهلكة .

وانطلاقاً من اعتبار حقيقة أنه ليس في استطاعة الخطاب الدعوي مواجهة الأفق

---

(1) فؤاد ذكريا: «الإسلاميون المعاصرون وثقافة الغرب» ص30، من مجلة العربي، ع/ 362، لعام 1989 .

الاستشراقي الواسع، ما لم يستند على استعداد تام ويتعزز بعدّة كافية، فإن الكثير من الباحثين شرقاً وغرباً يدعون إلى استحداث حركة الاستغراب لما يقابل حركة الاستشراق، ويمهد الطريق الصحيح لنقدها بما هو علمي وموضوعي، ويخدم غرض الخطاب الدعوي في حواراته المرتقبة مع ركّاب الموجة الاستشراقية أفرادًا وجماعات.

ومن هؤلاء الباحثين على الساحة الغربية المستشرق فوتزستبات مدير معهد العلوم الإسلامية السابق في جامعة برلين الحرة، الذي عاب على المسلمين انعدام حركة الاستغراب بقوله في لقاءٍ مع أحد المسلمين: «إن الغرب اهتم ويهتم بدراسة الإسلام والحضارة الإسلامية، أما في العالم الإسلامي فلا نجد اهتماماً أكاديمياً متخصصاً بالحضارة الغربية استحقّ أن يخصص له معهدًا أو قسماً بالجامعات العربية والإسلامية»[1].

وفحوى كلامه أنّه قد حان الأوان على الصعيد الإسلامي لوجود ما طال عدمه من اهتمامات ومؤسسات مذكورة. ومن الغرب كذلك يقول الأستاذ إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق: «. . . إن مجرد وجود حقل كالاستشراق، دون أن يوجد معادل مطابق له في الشرق نفسه، ليوحي بالقوة النسبية لكل من الشرق والغرب، ثمة عدد هائل من الصفحات المكتوبة حول الشرق، وهي تشير طبعاً إلى درجةٍ وقدر من التفاعل مع الشرق كبيرين، بيد أن المؤشر الحاسم لقوة الغرب هو أنّه لا مجال لمقارنة حركة الغربيين شرقاً (منذ القرن الثامن عشر) مع حركة الشرقيّين غرباً»[2].

ومن العالم الإسلامي نشير إلى كل من الأستاذ طارق البشري، والأستاذ السيد محمد الشاهد الذي اقترح في غير ما مرة وبأكثر من وسيلة، إنشاء قسم خاص باسم علم الاستغراب، في بعض الجامعات الإسلامية، وعرض تفصيلاً بأهميته للبحث العلمي وأهدافه[3]. ولكن لم يسمع له ثمة صوت مطاع !!. ومن جهته يقول الدكتور زقزوق وفي

---

(1) قاله للسيد محمد الشاهد، وقد أورده في مقاله: "الاستشراق ومنهجية النّقد عند المسلمين" ص207-208، مجلة الاجتهاد، ع 22/ سبق ذكره.

(2) الاستشراق: ص 215 - 216، سبق ذكره.

(3) ينظر: الحوار الإسلامي العلماني، ص 41، سبق ذكره.

الشأن ذاته: «والأمر الغريب حقاً أن يكون هناك في أوروبا وأمريكا ما يربو على مائة معهد للاستشراق تقوم جميعاً بدراسة عقيدتنا وحضارتنا وتاريخنا كلّه، ويتوفر لهذا العمل هناك كل الإمكانات المادية والفكرية، وفي الوقت نفسه لا يوجد في العالم الإسلامي كله معهد واحد أو مركز علمي يخصص جهده لدراسة الكم الهائل من المؤلفات والمجلات والدوريات والموسوعات التي تصدرها المؤسسة الاستشراقية في الغرب عن الإسلام، ونكتفي فقط بالصياح والاستنكار والشكوى من زيف ما يكتبه المستشرقون، ولكننا لا نقوم بعمل إيجابي حقيقي على المستوى العلمي لخدمة الإسلام»[1]. ومن الواضح أن كلامه إن كان يحتمل الإشارة إلى قضية الاهتمام بالاستغراب إلى أنه ينصرف إلى نقد الاستشراق أكثر من غيره.

وقد ذهب كذلك الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح في دعوته إلى النضال ضد الاستشراق إلى «أننا إذا لم نتصدّ للتيار الاستشراقي بكل قوة، فسوف نتعرض للانسلاخ والذوبان لا محالة، والمعركة بين الاستشراق والإسلام معركة فكرية هائلة جند لها المستشرقون كل المعاول التي تحاول أن تهزم المسلمين وتبعدهم عن إسلامهم»[2]. وبصرف النظر عن موضوعية هذا القول من عدمها، فإن صاحبه يلتقي مع من قبله، وهو الدكتور زقزوق، في أن كلاً منهما - وربما على نحو من التأثر بهذا الأخير - يستوحي أنموذج أبِي حامد الغزالي في مقام المواجهة الفكرية لحركة الاستشراق، حيث إن الهجوم الذي شنه الغزالي على الفلاسفة، ما كان ممكناً بالقدر الذي مارسه من العمق والنضج الفكريين إلا بعد هضم دقيق، واستيعاب تام لما كان متوافراً وسائداً في أيامه من تراث وفكر فلسفي. ومن ثمّ حمل نفسه على إتقان الفلسفة، والتعرف على مقاصد الفلاسفة، ليتخذ من ذلك عدة علمية يبين بها تهافتهم، وينتقض بها ما خالف من أفكارهم قواطع العقيدة الإسلامية الصحيحة وكلياتها العامة[3].

---

(1) الإسلام في تصورات الغرب، ص 4 - 5، سبق ذكره.

(2) أحمد عبد الرحيم السائح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، 61، ط1/ 1417هـ=1996ف، الدار المصرية اللبنانية.

(3) ينظر: المرجع السابق، ص 62 - 63، وقارنه بالوارد في كتاب: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 124 - 125، سبق ذكره، وللعلم فإن تاريخ صدور هذا الأخير أقدم من الأول بكثير.

على أنّ من أهم وأبرز النداءات والمبادرات التي سجلت حتى الآن في سبيل تأسيس ظاهرة الاستغراب كحركة فكرية جادة، هو ما قام به الأستاذ حسن حنفي، في كتابه: (مقدمة في علم الاستغراب)، الذي يقدم نفسه فيه كمنشئ علم جديد، على غرار ابن خلدون، والشافعي، والخليل بن أحمد وغيرهم[1]. وذلك في غير ما موضع من الكتاب، ومنه قوله: «حاولت أن أجتهد رأيي لوضع أسس علم جديد ما زال مجرّد نوايا صادقة، ونيات حسنة، يظهر بين الحين والآخر في كتابات المفكرين العرب المعاصرين، وفي هموم الشباب، بل لقد انتشر في الصحافة، وفي أحاديث السياسيين، ولكن لم يتحول بعد إلى علم دقيق. أنقله من مستوى الهواة إلى علم المحترفين، ومن الإعلان عن النوايا إلى أصحاب الصنعة، هذا تصور العلم الجديد في ذهني، وقد يكون له تصورات أخرى ولا ريب»[2].

ومن حيث مهمّة العلم الجديد عنده فيحدّدها بقوله: «هو فك عقدة النقص التاريخي في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب، لغة وثقافة، وعلماء مذاهب، ونظريات وآراء»[3]. إذن، فهي عنده مهمة ثقافية بحتة، ولا غير. ولكنها مفيدة للدعوة كذلك.

وفيما يخص المنهج عنده، فالملاحظ أنه يعالج موضوع علمه الجديد معالجة تحليلية نقدية، تنصب على محتوى الاستقصاء التاريخي الذي سلكه في دراسة ووصف الفكر الغربي. ولأهمية التأصيل في أي علم جديد كهذا، فقد شغل هذا الجانب أكثر من مائة صفحة في كتاب يقارب بمضمونه نحو ثمانمائة صفحة.

---

(1) ينظر: حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص62، ط/ 1411هـ= 1991ف، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة.

(2) المصدر نفسه، ص 790.

(3) المصدر نفسه، ص 29.

وإن ما قام به في سبيل إنشاء الاستغراب، وفي صدد تنظير هياكله العامّة، يعدّ عملاً فكرياً كبيراً وهاماً، على أن الاستغراب إن تحقّق فهو أشبه ما يكون بدائرة علوم ومعارف ذات موضوع رئيس، وغاية موحدة ومتكاملة. لا كما يتصوره علماً مستقلاً وقائماً بذاته، على سبيل العلميّة والإفراد، كما يفْهم من عنوانه (علم الاستغراب).

وهكذا، من خلال ما تقدم من نماذج قليلة يتّضح لنا أن الاستغراب وسيلة علمية ضرورية ومفقودة، لا يستغني عنها الدعاة المسلمون في مواجهة الفكر الاستشراقي، وفي محاورة المستشرقين باختلاف طبقاتهم ومدارسهم، واهتماماتهم ومواقفهم، هذا. ولا شكّ في ثقل المهمة وصعوبتها، ولكنّنا نراها ممكنةً وموفقة بعون الله تعالى، بتوفر شرائطها ونهوض القادرين بها. وبذلك يمكّن الخطاب الدعوي من تحقيق انطلاقة إسلامية قوية وجادة، يكون لها رواج وانتشار واسع في عالم الاستشراق، وفي صميم الحياة الغربية المعاصرة.

وإلا فإن أحذر ما نحذره هو أن يتحول الاستغراب إلى عامل تغريب وتغييب للإنسان المسلم، فنحتاج عكسيًا إلى اقتطاع جزء من اهتمامنا الناقص لمعالجة تلك الظاهرة الطارئة، ومحاورة من تظهر عليهم أعراضه وشطحاته الفكرية والمنهجية، كما سترد صور ونماذج من ذلك في هذا المبحَث المقبل.

المبحث الثاني

الحوار الإسلامي مع الغلو الفكري والشطط الأدبي

« نماذج وتحليلات »

تجتاح واقعنا الإسلاميّ المعاصر ، منذ سنوات خلت ، موجة حادّة من النّقد الفكري والأدبيّ الشاطح للإسلام : مصادره وتراثه ومبادئه ، ولواقع مجتمعات معتنقية ، يمارسه بأقلامهم كتاب مسلمون ، من منطلق الحداثة والتّغريب ، وبرؤى هدامة مبتدعة ، يتمّ تمريرها من خلال مناهج مغرضة متّهمة ؛ وذلك لزعزعة أصالة الثوابت الإسلامية في نفوس المسلمين باسم العصْرنة والتقدميّة ، وشغل الأمة كلّها بما يلهيها - من معارك وهمية - عن مواجهة ما يهدّدها من تحديات بالغة وكثيرة ، وعن متابعة قضاياها المصيرية الكبرى والجادّة ، ليتلاشى أملُها في جدوى تصعيد النّضال في سبيل ملاحقة قافلة التّقدم ، واسترداد سابق عزّها ، وبلوغ مستوى مجدها القديم .

وفي سبيل مواجهة هذه الموجة بما هو مضادّ لها ، نلاحظ أنّ المشهد الثّقافي المعاصر في عالمنا الإسلاميّ يشتعل انفعالاً ، وردّ فعل ، بأساليب ووسائل ، لا تسلم في الغالب من انتقادات الآخرين ، مثلما لا تخلو من قابليّة سوء استغلالها لتشويه صورة الإسلام ، والإساءة إلى سمعة المسلمين وجرح مشاعرهم .

ومن أصدق ما ينطبق على هذا الواقع النّقدي الهدّام ، ما أشار إليه أحدهم قائلاً : «إنّ الإسلام يلقى اليوم داخل أوطانه ، وعلى أيدي من ينتسبون إليه ، من كيد له ، ومكر به ، ما لا يلقاه في الأوطان التّي لا تدين بالإسلام وما لا يصيبه من أيدي أعدائه الّذين يتربصون به . . !»[1] .

وعلى هذا ، يمكن القول ، قبل الشروع في بعض تلك الهجمات النّقدية ، إنّ ثمّة قواسم مشتركة تجمع بينها في المنهج والغاية ، كما أنّها تتّفق في الأساس - وإن اختلفت الطّرق والاهتمامات - على ادّعاء علمية منحاها ، وإيهام الآخرين بالاحتكام المطلق إلى العقل دون غيره ، والتّسليم التّام بأحكامه ومقرّراته.

وهو ما من حسن الحظّ - يجعل من تلك الاتجاهات مجالاً خصباً وممكناً لتطبيق المنهج الدّيداتّي في الحوار ويحتّم على حملة الخطاب الدّعويّ ضرورة الدّخول في حوار نقدي فاصل بين الحقّ والباطل ، مرشح للوقوف في طرفه الآخر ، كلّ من ينتمي من المسلمين إلى التّيار النّقدي العقلانّي ، من أمثال وأتباع من تستوجب خطورتهم الفكرية والمنهجية ،

---

(1) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته ، ص 11 ، ط3 / 1395 هـ = 1975م ، دار المعرفة ، بيروت.

تخصيص عروض مختصرة لبعض العناصر المشكّلة لمجرى خطاباتهم ، بما تتحدّد من خلاله مواقفهم من العقيدة والقيم الإسلامية وذلك على النحو التآلي :

1 - محمد أركون وفتنة السعي الحثيث من أجل علمنة المسلمين بمعول الهدم والنّقض:

يمثل أركون في الظّرف الرّاهن واحداً من أكثر الكتّاب المسلمين تشكيكاً في موثوقيّة النصوص الإسلامية الأساسيّة ، ومن أشدّهم جرأة في الدّعوة وفي ممارسة عملية إخضاع الإسلام للدراسة والنّقض ، بمناهج غربية ، وضعت أساساً لما للإسلام شأن مختلف عنه ، وذلك لتميّزه بوضعه الدّيني وسياقه التاريخيّ الخاصّ .

وفيما يرى الأستاذ على مدلل ، فإن «ما يميز محمد أركون عن كثيرين غيره من المفكرين العرب والمسلمين هو أنّه جعل مواجهته ، مباشرة مع النّصّ التّأسيسي للشريعة الإسلامية وللثّقافة الإسلامية ونعني بذلك القرآن الكريم»(1) وليس هذا اتهاماً للرجل بما هو منه بريء ، بل وإنّما هو واقع يقرّبه كثيراً ، وله شواهده في العديد من أد بياته ، ومن ذلك قوله : فإنّي قد حاولت أن أبرهن من خلال دراستي عن مفهوم الوحي أن ظاهرة الوحي لم تعد مسألة تخصّ علماء اللاهوت والتيولوجيا فحسب . وإنّما هي أصبحت تمثل أحد المواقع الإستراتيجية لتدخّل المؤرخ (أي مؤرخ النّصّ القرآني والأدبيات التّفسيرية) ، وكما تخصّ علم الألسنيات والدّلالات من حيث دراسة نظرية الخطاب الدّيني ونقد الخطاب اللاهوتي . وتخصّ أيضاً عالم الاجتماع . . . . كما تخصّ عالم النفس . . . كما وتخصّ رجل القانون . . . . كما وتخصّ عالم الانتربولوجيا «الّذي يدرس الوحي بصفته خطاباً يخلع الشرعية على كل أنواع الهيمنة والتسلط ؛ من سياسية واقتصادية ونفسية ورمزية ، ثمّ يخلع الشّرعية على هيمنة الرّجل على المرأة ، والبالغ على الطّفل والمراهق ، وربّ العمل على العامل . والزّعيم على المواطن والرّعيّة ، والوليّ على المؤمن العادي ، والشيخ على المريد ، والعالم الدينيّ على الرّجل العلماني الدّنيوي . . . »(2) .

---

(1) قراءة في كتاب محمد أركون حامل لواء التشكيك ، ص 10 ، من صحيفة الدّعوة الإسلامية ، ع 822 ، الصادر بتاريخ / 25 رجب الموافق 2 / 10 / 1370 و . ر . ، بطرابلس ، ليبيا .

(2) محمد أركون : الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ، ص 194 ، ترجمة هاشم صالح ، ط 2/ 1992ف ، دار الساقي ، بيروت ، لبنان .

وعن تدوين القرآن وجمعه يقول أركون: «. . . إن جمع القرآن قد ابتدأ أثر موت النبي مباشرة في عام 632م بل ويبدو أنهم قد دوّنوا في حياته بعض الآيات»[1].

وواضح من تعبيره هنا مدى استخفافه برسول الله ﷺ. وتشكيكه في تاريخ ودقة تدوين وجمع النّصّ القرآنيّ الّذي لا يتجاوز عند أركون كونه أثراً من الآثار المنقولة بخلط وخبط عن رسول الله ﷺ الّذي أنشأه من عنده إنشاء صياغة وإيجاد. وهذا ما يفهم في قوله: «وعندما نقول الخطاب القرآني فإننا نقصد العبارات الشفهية الّتي تلفظ بها النّبي ضمن حالات الخطاب وحيثياته الّتي لم تنقل كلّها بحذافيرها وبأمانة»[2]. وليس من العجب في شيء بعد هذا أن يفاجئنا بقوله: «نحن نعلم أن ترتيب السّور والآيات في المصحف لا يخضع لأي ترتيب زمني حقيقي، ولا لأي معيار عقلاني أو منطقي. وبالنسبة لعقولنا الحديثة المعتادة على منهجية معينة في التأليف والإنشاء والعرض القائم على المحاجة المنطقية، فإنّ نصّ المصحف وطريقة ترتيبه تدهشنا بفوضاها»[3]!!.

ومما يتّصل بهذا، أن أركون ينطلق في نظرته الدراسيّة إلى القرآن وسائر الأسفار الدينية، من الزاوية التاريخية والاجتماعية، وهدفه من وراء ذلك كما يقول، هو: «زعزعة كلّ التركيبات التقديسية والمتعالية للعقل اللاّهوتي التقليدي»[4]، ومن ثم فإن السّبيل إلى ذلك عنده يتمثل في الإشاعة والترويج للنزعة التاريخانية في مجال الدراسات الإسلامية أسوة بسائر المجالات البحثية الأخرى، مما سوف يؤدي بمريدي أركون ومطاوعيه في ذلك، إلى ما انتهى إليه وأعلنه في كتابه «الفكر الإسلامي قراءة علمية» قائلاً دون موارية: «منذ الفترة المدنية كان الإسلام قد فرض نفسه كدين مدعوم بواسطة نجاح سياسي. إذن هو حدث تاريخيّ بشكل كامل»[5]. ومما ساقه إلى هذا: أن التاريخانية كمنهج «لا يعترف ولا يقرّ بصعيد خاصّ للظاهرة الدينية ويرى إليها كأي ظاهرة سياسية واجتماعية أو اقتصادية عادية، انطلاقًا من الذاتية المباشرة والزمانية لها»[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص 85.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

(3) المصدر نفسه، ص 90.

(4) المصدر نفسه، ص 87 88.

(5) نقلاً عن مقال الدكتور: علي مدلل الوارد في صحيفة الدعوة الإسلامية، ع/ 822، ص: 10 سبق ذكره.

(6) جميل قاسم: «تاريخية/ تاريخانية الإسلام» ص: 214، من مجلة الاجتهاد، ع/ 22 س: 6، ص: 1414هـ=1994م، بيروت، لبنان.

ومن هذا التصوّر الزمني للإسلام كحدث تاريخي من صياغة الإنسان، يسعى أركون لإثارة ما من شأنه أن يعمل على هدم الفكر الديني، وينفّر المسلمين وغيرهم عن الثقة والاعتزاز بالتراث الإسلاميّ، ناهيكم عن التمسّك به والسّعي العلميّ الجادّ لتطويره وتنميته الإبداع. إذ ليس مشروع علمنة الفكر والحياة الإسلاميين، والّذي يُعدّ أركون من أبرز حملة لوائه سوى دليل ساطع على ذلك. وفي الدّعوة إلى العلمنة يعتقد قائلاً: «لا يمكن أن نحشر الدين في كل شيء: في الأكل والشرب والنوم والقيام والقعود وتنظيم العلاقات الاقتصادية والروابط الاجتماعية... إلخ. هذا غير ممكن، وحتّى أولئك الذين يدّعون أنّهم يتبعون وصايا الدّين في كلّ شيء يخرجون عليها في حياتهم اليوميّة بشكل فاضح وهم مجبرون على ذلك، بسبب تغيّر الظّروف والأحوال بين العصور القديمة والعصور الحديثة، وهنا أقول بأنّه ينبغي إحداث ثورة تيولوجية في الإسلام لكيْ تتطابق أقوالنا مع أفعالنا. ولكيْ نماشي متطلبات هذا العصر فلا نعيش في الخطيئة. والقلق والشّعور بالمعصية»[1] وعلى غرار ما حدث في فرنسا - حيث يقيم الدّكتور أركون - وغيرها من دول الغرب من تحولات علمانية، لظروف وأسباب لها خصوصيتها، يحدّد أركون في هذا الصّدد، وبوضوح تام، ما ينشده من العالم الإسلاميّ قائلاً: «.. كلّ ما أطلبه من أجل إدخال العلمنة الصّحيحة في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة هو إلغاء برامج التّعليم السّائدة، وإلغاء الطريقة اللاّتاريخية والعقائدية التّبشيرية لتعليم الدّين في المدارس العّامة، وإحلال تاريخ الأديان والانتروبولوجيات محلّه، ثم تدريس تاريخ الأنظمة التيولوجيّة بصفتها أنظمة ثقافية، وليس بصفتها أنظمة من الحقائق المطلقة الّتي تستبعد بعضها بعضاً...»[2]. وعلى هذا فليس بواهم، ولا متطاول، من يقول بأنّ ما تسعى الولايات المتّحدة الأمريكية لإلزام الدّول الإسلاميّة به من برامج ومناهج تعليميّة بمواصفات معيّنة، هو في صميمه فكر أركونيّ، وتنفيذ عملي بإدارة سياسيّة طاغية لما قد ألحّ في الدّعوة إليه. وظلّ يحمل خطابه، ويتحمّل في سبيله من الانتقادات كلّ مرّ وجارح.

ومن المعلوم أن العلمانية الّتي ينادي إليها أركون فكراً وسلوكاً «تعتقد أنّ أيّ مخطط من مخططات الحياة الإنسانية: الاجتماعية والاقتصادية والسّياسيّة والتربويّة... إلخ، يجب

---

(1) هاشم صالح في حوار مع الدّكتور أركون بعنوان: «من أجل مقاربة نقدية للواقع» ص9، من مجلة المستقبل العربي، ع101 / س 10 = 19870ف، بيروت، لبنان.

(2) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 295.

أن يصدر عن عقل الإنسان المجرد عن رواسبه الّتي هي نتاج تفاعل ماديّ مع وقائع ماديّة، وتدعو إلى أن تكون العقيدة وجميع النشاطات الرّوحية مقصورة على نطاقها الفردي الخاصّ دون أن تكون لها أيّ علاقة بالمجتمع أو الدّولة أو النظام، وأن تصدر كافة المخططات الجماعيّة عن مصدر واحد للمعرفة هو (العقل)»[1].

إن أركون يريد للمسلمين، ومنهم، أن يضبطوا إيقاعات سيْر حياتهم لتتناغم مع واقع الحياة في المجتمعات الغربية، بحلوها ومرّها. ومن المفارقات حقّاً أنّه قد خفي عليه وهو منعزل في برجه الأكاديمي مدى الأزمة الخانقة الّتي تعاني منها تلْك المجتمعات جرّاء تبنّي المشروع العلمانيّ، كما يظهر عدم اطلاعه على كلّ ما قاله وكتبه منْ حوْله مفكّروا تلك المجتمعات من منطلق النّقد والإدانة[2].

ولإرساء تقليد بحثي هادف في هذا الإطار إلى دراسة الموضوعات والقضايا الإسلامية من منظور علماني قاصر، راح إلى وضع ما عرف عنه بـ«الإسلاميات التطبيقية»، كمجال معرفيّ يعرّفه بقوله: «فهذا العلم الّذي دشنته قبل بضع سنوات، يهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقاً من خطابات المجتمعات الإسلاميّة والعربية وحاجياتها الحالية، كما يهدف في الوقت ذاته إلى إثارة الجمهور دون أن يتعرّض لخطر الإدانة والرّفض المنهجيّ أو حتى اللامبالاة من قبل البحّاثة المتبحّرين»[3]، وهذا بحكم الواقع ممّا لا يزال غير متحقّق، إذ أنه، يشهد هو نفسه بما قوبل به من اتّهام ورفض وإدانة، ممّا جعله دوماً يفكر في التراجع[4]. والعودة إلى الصواب.

ومن حيث المنهج يستخدم أركون مفاهيم النّظريات اللّغوية، والمعارف الإنسانية والاجتماعيّة، في دراسة ما يعنى بمعالجته، من قضايا إسلامية، ومنهجه وفق بيان الأستاذ هاشم صالح، وهو من أعرف النّاس بفكره ومنهجه «ليس واحداً، وإنّما هو متعدّد، إنه يستفيد حتماً من الخبرات المختلطة التي حملتها إلينا العلوم الإنسانيّة الحديثة، ذلك أنّه يزاوج ما بين التّحليل الألسني للنّصّ من جهة، والتحليل الاجتماعيّ التّاريخيّ له من جهة أخرى،

(1) عماد الدّين خليل: تهافت العلمانية، ص 35، ط / 1403 هـ = 1983 ف، مؤسسة الرّسالة، بيروت.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 129 – 226.

(3) الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ص 36.

(4) ينظر: حوار هاشم صالح مع أركون في مجلة المستقبل العربي، ع 101 / 10 مرجع سابق.

بكلمة أخرى يمكن القول بأنه يتبع ما يسمّى بطريقة تعدّد المناهج»[1].

ومن هذه النّاحيّة، يؤخذ عليه عند البعض أنّ منهجه شكلي في دراسة الفكر الإسلامي، بحجّة أنّه لا يتخطى في الغالب الإطار الدلاليّ للتّعمق في القضايا الجوهرية الهامّة[2]. وليس أضرّ على منهجه فيما أرى أكثر من طابعه الأيديولوجي المنتصر للعلمانية، والمتعصّب لفكر وتجربة المشروع الحداثي الغربيّ، فلذا نجده في سياق خطابه العامّ مثلما يُسوّي بين الإسلام وغيره من المعتقدات، ويلقي إليها بنفس النّظرة المنهجية بدعوى الموضوعيّة والحياد العلميّ[3]. يعمد كذلك إلى استلهام أنموذج التّجربة الفرنسية الّتي هو مفتتن بها، داعياً إلى التّأسي بها كما يظل الواقع والتاريخ الفرنسيين حاضرين وبشدة في معظم أطروحاته وتحليلاته. وعن خضوعه للمؤثرات الغربيّة، وتبعيّته الثّقافية لها، ومناهضة الآخرين لكل ذلك، فذلك ممّا يعترف به أركون ويسجلّه في قوله: «. . . فأنا أولي أهمية عالية للفكر الأوروبي إلى درجة أنّ الإسلاميّين يتهمونني بالتبعيّة للغرب»[4]. وكيف ولم لا؟ وقد سبق وأن عرّفنا هو نفسه بمصادر وأصول منهجه فقال: «والمنهجيات الّتي أطبّقها على التراث الإسلاميّ هي المنهجيات نفسها الّتي يطبّقها علماء فرنسا على تُراثهم اللاتيني المسيحيّ أو الأوروبي»[5]. إذن، فإذا كان أركون بمناهجه الاستشراقيّة لا يراعي ما بين الحقول البحثية من فوارق جوهريّة، فما الفرْق بينه في ميزان البحث العلميّ وبين من درجنا على نعتهم بلقب المستشرقين؟ فربّما هو أشدّ بأساً وأعظم خطراً، خصوصاً وأنّ هناك خلطاً فادحاً ومتعمداً في خطابه بين مصطلحي (الإسلام والمسلمين)؛ إذ ينسب إلى الإسلام - على شاكلة الغالب من الخطابات الاستشراقيّة - الزّعم بأنّه تلقى - بدل المسلمين - التّراث الإغريقي ونقله إلى الغرب[6].

---

(1) «جولة في فكر محمد أركون» ص 66، من مجلة المعرفة، ع / 216 س 18 = 1980 ف، دمشق، سورية.

(2) ينظر: جميل قاسم «تاريخية / تاريخانية الإسلام» الاجتهاد، ع 22 / 224، سبق ذكره.

(3) ينظر: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ص 61 - 84 - 271 - 297.

(4) المصدر نفسه، ص258.

(5) المصدر نفسه، ص 251.

(6) المصدر نفسه، ص 147.

ولعلّ بإمكاننا هنا أن نتصور خطورة خطابه ومنهجه حين نقدّر ما يمكن أن يطبعه من تأثير سلبي على طلاّبه من خلال وظيفته الجامعيّة، حيث هو المشرف على قسم الدّراسات العربية والإسلامية في السّوربون الجديدة بفرنسا فضلاً عن اعتباره هناك المرجع والفيصل في مجال الدّراسات الإسلاميّة في عمومها، وقد شاء لقرّائه التّعريف بمهامه العلميّة فقال: «وأنا في الأصل أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي في السوربون كما تعلم، أنا لست أستاذاً لتاريخ الفلسفة الإسلامية فقط، ولا لتاريخ الفقه أو القانون الإسلاميّ، ولا لتاريخ علم الكلام أو علم الحديث أو تاريخ التفسير الخ. . . أنا أستاذ كلّ ذلك في الوقت ذاته بمعنى أدق»[1]. وهكذا يتضح لنا جانب من اعتداد الدّكتور أركون بنفسه، لنتبين منه أنه يتصور نفسه، ويوهم الآخرين بأنه حجّة في كلّ ما يتصل بالإسلام، وأنه يشكل بثقله الجامعيّ دائرة معارف إسلاميّة شاملة، تتيح له طبيعة عمله حالة يوميّة من الاحتكاك المنتظم بالطلبة من العالم الإسلاميّ وغيره، لممارسة تأثيره الفكريّ والمنهجيّ عليهم، وهو ما أشار إليه منوّهاً بشأن النجاحات الّتي تحققت له في هذا الصّدد فقال: «وأنا أعلّم في السوربون منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وقد تلقيت أعداداً هائلة من الطلاب المسلمين والعرب في محاضراتي، وبعضهم حصل عنده تحوّل شبه كامل في فهم التّراث، والبعض الآخر تحوّل جزئيّ. ولكنّ النّتائج مشجعة بشكل عامّ»[2]. وتأكيداً على حقيقة هذا التأثير الّذي أخذ في الانتشار على نطاق واسع في العالم الإسلاميّ ذهب أحد الباحثين إلى الإفادة بأنه قد «تكوّن في الفكر الإسلاميّ المعاصر اليوم، ما أصبح يعرف بالظّاهرة الفكريّة الأركونية، هذه الظّاهرة الّتي صارت بما تحتله من حيز في فضاء ثقافتنا تفرض نفسها كحقيقة فلسفية، لا يمكن لأيّ دارس تجاوزها، أو القفز عليها، ومصدر أهميتها كفلسفة تكمن في كونها معقدة العناصر، متعدّدة الفصول وواسعة الانتشار»[3].

وعند ظاهرة الانتشار الواسع نجد أنفسنا أمام أحد أمرين أساسيين تكمن فيهما خطورة خطاب أركون ومنهجه، فمن حيث الانتشار تتجلّى مظاهره في مواقف جماعيّة وفرديّة،

---

(1) المصدر نفسه، ص 240.

(2) المصدر نفسه، ص 298.

(3) عبد الرزاق قسوم: مدارس الفكر الإسلامي المعاصر، ص177، ط 1418هـ=1997ف، دار عالم الكتب، الرّياض، السعودية.

حيث قد عقدت الجمعيّة الفلسفية الأردنيّة في ظرف سابق مؤتمراً فلسفياً في عمان، لمناقشة المنهج الفكري للدّكتور أركون، الّذي أقرّ له الكثير منهم بأنّ دراساته «فتحت الآفاق المعرفية أمام قراءة حرّة لمضمون الفكر الإسلاميّ»[1]. وأنّ فكره يقوم على مستند معرفي قوامه نقد العقل للعقل مع قبول كلّ أشكال المراجعة والنّقد والتّصحيح[2].

وعلى المستوى الفردي، فمن النّاس من يطبّل بتمجيده، وينسج حوله هالة من القداسة الفكرية، تصل إلى حدّ السّذاجة في ممارسة دعاية إعلامية مكشوفة، إذ يقول الأستاذ هاشم صالح الّذي نعته البعض بـ، المقاول الثّقافي المشرف على أسطول نقل الأفكار الأركونيّة إلى موانئ اللّغة العربيّة[3] «وبدا لي من خلال تجربة تلك السّنوات العشر الماضيات أنّه لا يمكن للقارئ العربي أن يتوّصل إلى فهم أركون إن لم ننْقل إليه مكتبة كاملة في الفكر الأوروبي المعاصر هي مكتبة العلوم الإنسانية والاجتماعية»[4]. وبالنسبة لمؤلفاته يقدّم لها بما يوهم فيها بعمق الفكر وجدّة التّحليل وأصالة الإنتاج، وكأن أركون أكبر كاتب وأعمق مفكّر في تاريخ الإنسانيّة، حيث يقول مريده الوفي عن مصنفات شيخه: «وفي ما يخصّ كتب أركون أشعر أحياناً، بعد المعاشرة الطّويلة، والمران المستمرّ، أنّه ينبغي ليس فقط ترجمتها وإنّما تلخيصها أيضاً أو كتابة عدّة كتب عن كلّ كتاب مترجم لكي يفهم فعلاً!»[5].

وأمّا الأمر الأساسيّ الآخر، فيظهر في خطورة ما يمكن أن يشغله الخطاب الأركوني الشّاطح من فراغ معرفي عن الإسلام الصّحيح في العالم الغربي، ولا سيّما في ظلّ تداعيات أحداث 2001/9/11 ف، والتي دخل بها العالم الغربي مرحلة التّعرف الجماهيريّ الواسع على الدّين الإسلاميّ وتاريخه، فانكب غالب النّاس هناك على مطالعة كلّ ما يتاح لهم حول هذا الدّين.

ومن الأمور اللاّفتة للنّظر، ذات المغزى في هذا السّياق، أنّه قد صدر بعْد الأحداث

---

(1) «الجمعية الفلسفية الأردنية تحتفي بأركون» ص 198، من مجلة العربي، ع/ 524، عام 1423 هـ = 2002 ف.

(2) ينظر: المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.

(3) مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، هامش الصفح: 77 1؛ مرجع سابق.

(4) الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ص7 22، مصدر سابق.

(5) المصدر نفسه، ص 197.

لأركون كتاب سمّاه بعنوان غريب ومثير هو : اللاّ مفكّر فيه في الفكر الإسلامي[1] . فضلاً عن احتمال التركيز الإعلاميّ عليه وأمثاله في العالم الغربيّ وبخاصة في ظروف عاصفة تتجّه فيها - عادة - عناية الرّأي العامّ إلى استقاء معلومات عن المسلمين والإسلام عند كلّ من يرتبط بهما بصلة انتماء عقدي ، أو تخصص علميّ .

وعليه ، فإن الوضع المعاصر بهوله ، ومخاطر الخطاب الأركونيّ في أجوائه الغربيّة والشرقيّة ، يطرح على كلّ داعيّة متحسّس بأزمة واقع العمل الإسلاميّ ، وواع لحجم التّضليل الكبير الّذي قد يسبّبه خطاب من نوع ما يشيعه أركون وأعوانه ، واجب المبادرة إلى المواجهة الرّشيدة بمنطق الحوار ومنهج العقلانيّة الّتي هي سمةٌ تدّعي كافة التيارات العلمانيّة أنّها طابعها المميّز ، وشعارها النفيس . هذا ، وبالرّغم من اتّفاقنا بالطبع مع من يقول : «لا أميل إلى الأخذ من محمّد أركون ، لغرابة فكره ، وخروجه عن المألوف من ناحية ، وعدم تعامله مع النّصوص الإسلاميّة ، بما يليق بها من الاحترام والقدسيّة ، الّتي ينبغي على المسلم على الأقلّ أن يعطيها إيّاها ، ومحمد أركون في واقع الأمر ، يكتب وكأنّه خارج العالم الإسلاميّ ، أي من خارج دائرته»[2] . فإنّ هذا الاتّفاق على الرّأي الواحد إزاءه لا يستتبع بالضرورة خطوات إجرائية لمقاطعته ، بل وإنما يجب العزم والإقدام على محاورته في أفكاره الشاطحة ، وذلك بالنّظر إلى حضوره المنهجيّ المتزايد في العالم الإسلاميّ وأيضاً باعتبار ما يتمتع به من حبّ للنقاش العلميّ ، ونزوع صابر إلى الحوار الفكريّ ، حيث يقول عن جهوده الفكريّة ، ومواقفه الحوارية : « . . . أحاول جاهداً ، منذ سنوات عديدة المساهمة في تنظيم اللقاءات ، وتشجيع التّعاون وتشكيل الروابط والتّبادلات ليس فقط بين المثقفين العلمانيين المؤيدين للحداثة ، وإنّما بين هؤلاء أيضاً وبين أولئك الّذين يواصلون موقف العلماء نفسه من رجال الدّين ، ويحتلون نفس وظائفهم ، والّذين هم في حالة تزايد مستمرة اليوم من حيث العدد ، ولقد مارست هذا الحوار شخصياً مع التقليديين أكثر من مرّة ، وذلك ضمن إطار ندوة الفكر الإسلاميّ في الجزائر ، كما وأنّي أمارسه مع طلابي الّذين يأتون إلى السّوربون من كلّيات الشّريعة في البلدان الإسلاميّة العربيّة ، وأعترف بأنّ الحوار مع أصحاب هذا التّيار صعب

---

(1) ينظر : صحيفة الدعوة الإسلامية ، ع / 822 ، ص 10 ، سبق ذكره .

(2) كلام قاله أبو بكر باقادر ، من كتاب العلمانية والممانعة الإسلامية ، ص 220 ، سبق ذكره .

قاس، ولكنّه يشكل ضرورة لا بدّ منها في ما أرى»[1].

ولعلّ ما يوصف به من التّحلّي بخاصيّة المراجعة والتّراجع عن الفكر الخاطئ، ممّا يغري ويؤمّل بجدوى الحوار معه، وأنّ الصّبر على مناقشته عند المؤهلين لها، قد يفضي به أحياناً إلى التّسليم بالحقّ، والانقياد لسلطان الفكر الأقوم والمنهج الحواريّ الأحسن، وخاصّة، إذا علمنا أنّ النّقاش قد احتدم ذات مرّة ودام يوماً ونصف يوم حول إحدى محاضراته في ملتقى الفكر الإسلاميّ في الجزائر عام 1985ف، فانتهى به الحوار الفكريّ الهادئ إلى أن أعلن توبته أمام الحضور قائلاً: أستغفر الله[2].

2 - حسن حنفي. والموقف اليساري المتمرّد في رحاب الفكر الإسلاميّ:

يعدّ المفكر المصريّ حسن حنفي من أشهر العقول في رحاب الفكر الإسلاميّ المعاصر، ويتركز همه ومشروعه الفكري على تجديد التّراث، الّذي يراه قضية القضايا، وصاحب الأولوية الأولى في أيّ عمل نهضوي يتطلّع إليه المسلمون. وينطلق حنفي من النّاحيّة المنهجيّة من موقف يساري متمرّد يعاني هموم الحاضر، ويعايش أزمات واقعه ومجتمعه فهماً وتحليلاً، وهمّه النّهوض المادي به نحو الحرّية التّقدّم.

وفي غمرة تحمسه الفكري لمشروعه النّهضوي تتناثر شطحات فكرية وعقدية على ضفاف جهوده، تستوجب محاورته، وتستدعي منّا الإشارة إلى بعضها بما لا يغني عن الرّجوع إلى مصادرها للمزيد من التّوسع والاستيعاب.

ففي كتاب له بعنوان «في فكرنا المعاصر» يقول الدّكتور حنفي بما يدلّ على عدم إيمانه بوجود الجنّ والملائكة والشّياطين، وذلك فيما نصّه: «.. والعقليّة السّلفية ليست عقليّة دينيّة غيبية، صحيح أنّ ابن تيميه وابن القيّم يؤمنان بوجود الشّياطين والجنّ والعفاريت، وهذا هو أحد وجوه الضّعف في هذه المدرسة»[3].

ويذهب في موضع آخر إلى ما هو أبعد من هذا معلناً عدم ضرورة الإيمان بالغيب بالنّسبة للمسلم، وأن الإسلام لا يستلزم ذلك، وعلى حدّ قوله: «لا يحتاج الإنسان إذن كي يكون

---

(1) الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ص 23، سبق ذكره.

(2) ينظر: مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، ص 193، سبق ذكره.

(3) حسن حنفي: في فكرنا المعاصر، ص 92، ط 2/ 1983 ف، دار التنوير، بيروت، لبنان.

مسلماً إلى الإيمان بالجنّ والملائكة والشّياطين والعفاريت، فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، الإيمان سلوك، لذلك قرن الإيمان دائماً بالعمل والعمل بالإيمان . . .، وقد قرر علماء الكلام أيضًا أنّ المعاملات شيء، والعبادات شيء آخر، فيمكن للمسلم المعاصر أن ينكر كلّ الجانب الغيبي في الدّين ويكون مسلماً حقاً في سلوكه»[1]؟!! نعم قد يصحّ ذلك فيما ابتدعه، وليس في إسلامنا الوارد عن رسول الله ﷺ من عند الله تعالى.

وفي تصوّر نفعي بحت لدور الدّين في الحياة بما يقْرب من حدود المادية والإلحاد، يقول الدّكتور حنفي: «. . . ومقياس صحّة العقائد ليس صدقها أو كذبها من النّاحية النّظرية بل مقدار فاعليتها من النّاحية العملية، فلا يهمّ إثبات خلود النّفس أو إنكارها بقدر ما يهمّ هذا الإثبات أو هذا الإنكار في حياة الناس العملية، إن الإثبات والنّفي النّظريّيْن لا يؤدّيان إلاّ إلى ضجّة مفتعلة دون أي تغيّر في حياة النّاس، وكذلك تحدث ضجّة نظرية مفتعلة حول إثبات الله أو نفيه إن لم يكن لذلك دور عملي في حياة النّاس. . .»[2].

وبما أنّ الدّكتور حنفي يتصوّر أحياناً أنّ العقلية الغيبية والفكر الأسطوري وجهان لعملة واحدة[3]، ويسعى من هذا المنطلق إلى تحويل الدّين ليكون مجرّد أداة نقد وتغيير اجتماعيين، فإنّه يرى بناء عليه، أنّه «لا يهم الدّين إذن وضع إجابات نظرية عن أصل الكون ونهايته، بل لا يتعرض إلاّ لما يعرض للنّاس من مشاكل عملية فليكن الكون قديماً أو حادثاً، ولكن الّذي يهمّ هو الخبز لكلّ فم والدواء لكلّ مريض والملبس لكلّ عار والمأوى لكلّ شريد والكلمة على كلّ لسان ثقيل»[4].

وفي خضمّ الدّور الاجتماعي للدّين تتحدّد مهمته الصّحيحة عند حنفي، وليتلاشى عنه كلّ فكر غيبيّ، وتنهار من ورائه فلسفة التكليف الدّينيّ، ومن ثمّ كلّ مايترتب عليه من غايات أخروية من قبيل الجزاء إيجاباً وسلباً، حيث يقول حنفي في كتابه (من العقيدة إلى الثورة) الّذي يوحي عنوانه بإطار مشروع كاتبه: «ليس الهدف من التكليف النّعيم والثّواب، بل أداء الرّسالة وإظهار إمكانيات الوجود الإنساني في ممارسة الحرّية وإعمال العقل، وليست

---

(1) المصدر السابق، ص 93.

(2) المصدر نفسه، ص 93.

(3) ينظر: المصدر نفسه ص 94 – 67.

(4) المصدر نفسه، ص 94.

الغاية من التكليف استحقاق التّعظيم لأن التفْضيل بالتعظيم قبيح، لأن الثّواب ليس هدفاً إنما الغاية منه تأكيد الإنسانية وتحويلها من مشروع ممكن إلى واقع متحقق»[1].

ومّما للإشارة إليه جدارة في هذا المقام هو أنّ قضيّة الإنسان عند حنفي تحتل بؤرة فكره، وتشكل جوهر خطابه، الأمر الّذي يدفع به أحياناً إلى التّسامي بالإنسان ليكون في مقابل الله عزّ وجلّ، أو بديلاً عنه والعياذ بالله ومّما يفيد ذلك عنده نصوص كثيرة منها قوله: «وإذا كانت بعض المقدمات الإيمانيّة القديمة تبدأ فقط (باسم الله الرّحمن الرّحيم) فإننا نبدأ (باسم الأمّة، فالله والأمة واجهتان لشيء واحد بنصّ القرآن. فإذا كان الله قد تمّ الدّفاع عنه عند القدماء وانتصروا في قضيتهم إثباتاً للّتنزيه، فإننا ندافع عن الأمّة الّتي اعتراها التفتت، وأنهكها الضّياع، وتوالت عليها الهزائم، وانتابها العجز وعمها القعود»[2]. وفيما ينقل عنه في هذا السّياق قوله أيضًا بأسلوب التقاضي والاستكبار وبروح المواجهة والتّمرد، وذلك فيما نصّه: «. . . فإنْ كان حقّ الله على العبيد هو تحقيق الرّسالة والدّعوة المبلغة، وهو كون الإنسان خليفة الله في الأرض، فإنّ حقّ العبيد على الله هو حقّهم في استرداد وعيهم المتحجّر خارجاً عنهم. وأمانتهم على الرّسالة، وتحقيقها في العالم، علاقة الإنسان بالله علاقة حقّ متبادل، فإذا كان القدماء، وبعض المصلحين المحدثين قد ركزّوا على حقّ الله على الإنسان فإنّ موقفنا الحالي يحتم علينا بيان حقّ الإنسان على الله خاصّة في هذا العصر الّذي ضاعت فيه حقوق الإنسان ومازالت تضيع»[3]. وإنّنا لنسأل الدّكتور حنفي عمن هو مضيع تلك الحقوق التي يقول عنها؟ إذ يثير احتجاجه الصّارخ في هذا المقام الظنّ بأنّه يطالب الله عزّ وجلّ باسترداد تلك الحقوق، فكأن ضياعها منه في حين يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وبالرغم من أنّ واقع المسلمين المعاصر هو بلا شكّ دون مستوى دينهم بمراحل كثيرة وطويلة، ويلزم بمقتضاه العمل على النّهوض الحضاري بهم، فإنّ ذلك لا يبرّر إطلاقاً هذا العبث الفكري الّذي يمارس على مسلمات العقيدة وأصولها، وإنّ الشّرك الفكري بوضع

---

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج 3/ 482، مكتبة، مدبولي، القاهرة، مصر، د. ت.

(2) من العقيدة إلى الثورة ج / 30.

(3) من العقيدة إلى الثورة، ج 2/ 661.

الإنسان مقابلاً للخالق عزّ وجلّ ونداً له يحتاج منّا جميعاً إلى مواجهة فكريّة قويّة، تعيد لقدسية الرّبّ هيبته في النّفوس، وفي واقع الفكر والحياة.

على أنّ خطورة خطاب كهذا، لا تنطوي فحسب في شدّة سقطاته الفكرية أو حتى في تبعة شطحاته العقديّة، وإنّما أيضًا فيما يمكن أن تتطور إليه أفكاره من غير مستندات علميّة وعقدية صحيحة من تقريرات خطيرة، ومواقف منهجيّة منحرفة قد تتلقفها تيارات وأفراد موالون له، كما يظهر ذلك في تعريفه الجديد لعلم أصول الدّين وفي تحديده لمهمة هذا العلم، الّذي يعرّفه بقوله: «هو العلم الّذي يقرأ في العقيدة واقع المسلمين من احتلال وتخلف وقهر وفقر وتغريب وتجزئة ولا مبالاة كما يرى فيها مقوّمات التّحرّر وعناصر التّقدم وشروط النّهضة، لو تمّ إعادة بنائه طبقاً لحاجات العصر بعد أن بناه القدماء تلبية لحاجات عصرهم»[1].

وفيما يخصّ مهّمته فتتحدّد عنده في قوله: «ليست مهّمة علم أصول الدين الجديد نظرية فحسب، بل هي أيضًا مهمّة عملية من أجل تحقيق الأيديولوجية بالفعل كحركة في التّاريخ بعد تجنيد الجماهير من خلال ثورة عقائدها، ومن ثمّ من مهامّه القضاء المباشر على احتلال أراضي المسلمين المباشر منها مثل فلسطين، وغير المباشر منها في صورة أجنبية وتسهيلات دفاعيّة برية وبحرية لقوى أجنبية شرقية أو غربيّة، أو الأحلاف العسكرية، أو المناورات المشتركة أو تبادل المعلومات العسكرية والخبرات الفنيّة»[2].

أجل، إنّها بلا شكّ لمهمة نبيلة وعظيمة، ولا سيّما في أيّامها هذه، الّتي تعرّت فيها معظم الحكومات الإسلاميّة وانكشفت للشّعوب المسلمة حقيقة تهافتها على عتبة التّحالف مع ألدّ أعداء الأمّة، وضدّ وجودها وأمنها ومصالحها، ولكن مع ذلك يجب التّحديد بأنّ القضايا المشار إليها عند حنفي آنفاً ليست من مباحث علم أصول الدّين، - فهي، وإن كانت عناصر هامّة وحسّاسة - ففي علم الفروع، وقضايا الفكر والكلام على إطلاقها أدخل من غيرها.

وفيما له صلة بقضيّة إعادة تأسيس علم الكلام عند حسن حنفي، فلكي نتفهم ونسلّم له بذلك، يبادر في أسلوب متهكّم إلى التّعريف برسالته الفكرية بما يميّزه عن غيره ممن لا يكن

(1) المصدر نفسه، ج 1 / 77.

(2) المصدر نفسه، ص 79.

لهم احتراماً، ومن ثم يبرأ بنفسه عن مماثلتهم ولو في ألقابهم الأمر الذي يخرج بـه عـن نطاق المعقول والمسموح به في مثل هذه الحالات، والتي منها قوله: «. . . أمّا من حيث الألقاب الّتي تبارى فيها القدماء مدحًا لأنفسهم أو تعظيماً من الآخرين لهم فلست الإمام، ولا القطب، ولا الشيخ، ولا القاضي، . . . ولا صاحب الفضيلة، ولست العبد الفقير إلى رحمة ربّه الحقير الرّاجي من الله غفران الوزر، بل أنا فقيه من فقهاء المسلمين أجدّد لهم دينهم، وأرعى مصالح النّاس، ليس لنا ألقاب بل نحن من علماء الأمّة، ورثة الأنبياء، والمحافظون على الشّرع كما كان فقهاء الأمة من قبل»[1].

ومن هذا المدخل الضيّق يرتقي حنفي بنفسه داعياً ومبادراً بنفسه إلى الاجتهاد المطلق، وطرح خطاب التّطوير بلا حدود منتصراً لما مفاده أنّه لا يوجد حدٌّ أقصى لحرّية الرّأي في الإسلام[2]. وفي سبيل الدّفع بالمسلمين نحو الاجتهاد كما يتصوّره، صرح قائلاً: «آن الأوان لأن يجتهد الإنسان، وأن يطوّر كلّ شيء آخذاً في الاعتبار ظروف العصر، وهكذا كان يفعل عمر بن الخطاب حتّى لو تعارض مع بعض النّصوص القرآنية أو النّبوية»[3].

ويكفينا هنا تعليقاً على هذا الرّأي، إيراد ما ردّ به الأستاذ أحمد الرّيسوني من علماء أصول الفقه ومقاصد الشّريعة المعاصرين، على مثل هذه الصّيحات الاجتهادية من غير أهلية شرعيّة متينة، وذلك في قوله: «والحقّ أنّ تفسير الدّين وتأويله والاجتهاد فيه أحوج من أي مجال علمي آخر إلى اشتراط الشروط والتّأكد من الأهليّة والصّلاحية إلى التّأني والتروي والاحتياط، بينما نجد في كثير من الحالات اليوم من يتجرأ على الدّين ويفرض عليه آراءه ونظرياته، ويعمل فيه مقصّه ومبضعه، ويؤوّله ويوجّهه ذات اليمين وذات الشمال، يعتبر مفكراً حراً، مجتهداً مجدّداً، ومبدعاً رائداً، وقد لا يكون له اختصاص أصلاً في الموضوع ولا يكون لديه أكثر من الإلمام ببعض المواقف والآراء المبتورة»[4].

---

(1) من العقيدة إلى الثورة: ج1 / 41 – 44، سبق ذكره.

(2) ينظر: حوار مع الدكتور حسن حنفي في «علاقة السلطة والأمة. . . المبدأ والآلية» ص 68، من مجلة المنطلق، ع / 110، س1415هـ = 1995 ف، بيروت.

(3) المرجع نفسه، ص 62.

(4) أحمد الرّيسوني وآخرون: الاجتهاد. . . النصّ، الواقع، المصلحة، ص 18 – 19، ط1 / 1430 هـ = 2000 ف، دار الفكر المعاصر بيروت + دار الفكر بدمشق.

والحقيقة أنّ منطلق ومنهج حنفي في دعوى الاجتهاد والتّجديد، يقومان على الاعتصام بالعقلانيّة، والتّمسك بالاشتراكيّة العلميّة، حيث كتب في ختام تقريره عن زيارة المفكّر الفرنسي روجيه غارودي لمصر عام 1970ف قائلاً ما نصّه: «... ولقد أثار فينا اللّقاء بغارودي التمسك بالاشتراكيّة العلميّة ورفض كلّ ما عداها، وننتظر لقاءات أخرى تخدم الاشتراكيّة أكثر ممّا تضرّها، وتضعنا على الطريق أكثر ممّا تبعدنا عنه»[1].

وبالنّسبة لنزعته العقلانيّة، فتفصح عن نفسها بشكل أوضح، وأكثر إثارة، من خلال ما خرج به في دراسته لقضية العقل والنّقل، في ضوء أصولي الدّين والفقه، من استنتاج خاطئ لخّصهُ في قوله: «وفي النهاية يمكن استنتاج الآتي من موضوع (العقل والنّقل)، كما عرضه علماء أصول الدّين، أوّلاً، أهمية العقل في علم أصول الدّين وضرورة إقامة الدّين عليه، فالعقل أساس النقل، والنّقل بدون العقل يكون مجرّد ظنّ، ولا يرقى إلى مرتبة اليقين، فالنّقل لا يتحدّث عن نفسه ولا يعرض نفسه إلاّ من خلال الذّهن الإنسانيّ، النّقل وحده لا يثبت شيئاً، وقال الله، وقال الرّسول لا يعتبر حجّة[2]». إنّ هذا الرّفع المفرط والمطلق من شأن العقل على حساب النّقل، إن تهيّأ الأخذ به، وتطّور السّير عليه، فسوف يقود أصحابه إلى أنماط من الفكر والسّلوك لا علاقة قبول ووفاق للإسلام والمسلمين بهما، ولا نماري إطلاقًا في أنّ الإسلام يرفع من شأن العقل، بل ويعتبر إعماله عبادة سامية، ولكنّه لا يطلق العنان لنسبيّته للخوض في متاهات لا مخلص له منها سوى بالنّقل الصّحيح المتواتر عن الله تبارك وتعالى، ورسوله عليه الصّلاة والسلام.

وإن الموقف الصّحيح، فيما نوافق عليه، من قضية التّجديد الّتي يخطىء حنفي صوابها هو «أنّ التّجديد الّذي نريده لا يعني إلغاء القديم، بل تطويره وتحسينه وتحديثه وبالإضافة إليه، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأدوات والكيفيات، فهي أمور مرنة قابلة للتطوير والتحوّل والاستفادة من إمكانات العصر، وممّا عند الآخرين، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها»[3].

---

(1) في فكرنا المعاصر، ص 171، سبق ذكره.

(2) بحوث في أصول الدّين – أصول الفقه.، العقل والنّقل، ص 123، ط/ دار المعارف، سوسة، تونس، د. ت.

(3) القرضاوي: أولويات الحركة الإسلاميّة في المرحلة القادمة، ص 112، سبق ذكره.

ومن حيث الملاحظات الّتي ترد في سياق دراسة خطاب حسن حنفي، فهي عديدة، ومن أبرزها:

1- تجلّي وتنامي الوعي بالذات، إذ يقدّم نفسه تارة فيلسوفاً ثائراً وأخرى فقيهاً مجتهدا، ومجدّداً إسلامياً دون أن يشق طريقاً واضحاً سليماً ومشروعاً إليه، وهذا لا يعني إنكاراً لكلّ ما ينسبه لنفسه من ألقاب ورتب، أو تشكيكاً في استحقاقه لبعضها، فقط القصد هو الإشارة إلى أنّ له ثقة بالنفس كبيرة، تعكس حاجته إلى الاعتراف والتقدير من الآخر من أجل إثبات ذاتٍ، لا يريد له حنفي أنّ يكون متواضعاً أو مهمشاً. وهو - فيما أرى - الأساس الّذي يشكّل الخلفية الّتي يقف عليها كامل مشروعه الفكري، كما أنّه هو الدّافع الّذي ساقه في اعتقادي إلى الملاحظة اللاحقة.

2- إعلان مدرسة اليسار الإسلاميّ: وهو اتّجاه فكري ظهر ودعِي إليه قبله في تونس وفي غيرها[1]. ولكنّه جدّد الدّعوة إليه في أوائل الثمانينات، فأنشأ مجلّة لم يصدر منها فيما أعلم إلا العدد الأول، تحمل اسم اليسار وتتبنّى مقولته بما آلت إليه من تطوّر، قال عنه الأستاذ عبد الله النّفيسيّ: «والملاحظ على هذه الدّعوة أنّ الّذين بدأوها كانوا إسلاميين خلّصاً، وكانوا يهدفون من جهة إلى توظيف سياسيّ لمقولات اليسار، ومن جهة أخرى يطمحون إلى أسلمة اليسار العربي، لكنّ هذه الدّعوة انتهت إلى يسرنة الإسلام، لأنّ الّذين تلقفوها كانوا يساريين خلّصاً، وانتماؤهم إلى الإسلام كان انتماء سياسياً»[2]. ويغلب على الاتجاه الأخير الّذي يمثله حسن حنفي نقد الفكر الإسلاميّ أكثر من نقد الفكر اليساري الخالص.

وعن ماهية خطاب اليسار الإسلاميّ، يقول حسن حنفي مجيباً على سؤال يتعلق بمجلة اليسار: «وقد كان حرصي على العدد الأوّل يدخل ضمن إعلان بداية فكر إسلاميّ ثوري تقدمي حضاري، فالإسلام السّياسيّ ليس فقط على مستوى البحث العلمي الطويل، ولكن أيضًا على مستوى الحركة الجماهيرية»[3].

---

(1) ينظر: في حوار مع حسن حنفي عن «علم الاستغراب ما هو؟» ص 136 - 139، من مجلة الكرمل، ع/ 45 س 1992 ف، سبق ذكره.

(2) ينظر: العلمانية والممانعة الإسلاميّة، ص 30، سبق ذكره.

(3) حوار مع حسن حول «الدّين والتراث والثورة» 136، من مجلة الوحدة، ع/ 6 س1=1405هـ=1985ف،

ولكن، لماذا وقع الاختيار على هذه التّسمية بالذّات (اليسار الإسلاميّ)، في حين أنّ الإسلام دين الوسطية والاعتدال، ولا يقرّ التطرف والغلّو؟

فهذا ما يجيبنا عليه حنفي في قوله: «لم يكن اسم اليسار الإسلاميّ جديداً، ولم يكن أمامي بديل، هل أقول العروة الوثقى، أو الإسلام المجاهد، الإسلام النّشط، الجهاد، الدّعوة، المنار، النّور، الهداية، وكلّها أسماء استخدمت سابقاً، بعض الأخوة في الحركة الإسلامية يعترض على تسمية (اليسار الإسلاميّ) إلا أنّ الاسم يبدو جماهيرياً، فهناك الشّباب المثقف الّذي يريد أن يكون يسارياً، وفي الوقت نفسه إسلامياً، وكلمة اليسار لها بعض السّحر عند الشّباب في الجامعات، وهي كلمة ليست جديدة، ولكنها فعّالة»[1]. وعلى هذا يمكن القول بأن اليسار الإسلاميّ بقيادة حسن حنفي حركة سياسيّة أكثر من اعتباره مدرسة فكرية، ولعلّ هذا ممّا يؤكّد عليه حنفي نفسه بقوله: «... إنّ اليسار الإسلاميّ يدعو لتشكيل جبهة وطنية عريضة تضّم الجميع، يوحّد بين مختلف الفئات والانتماءات»[2].

وعلى العموم فإنّي أصنّفه باتجاهه هذا ضمن من بهرهم وهم التّقدم اليساري الخارق في عالم تلك العقود المنصرمة، فظنّوه آخر صرخة التاريخ، ثمّ لم يلبث أن انهار وتوارى.

3 - موقف النّاس من فكره: أثار مشروعه الفكري الكثير من الانتقادات، وقوبل بكم من الدّراسات، والمواقف المجمعة باختلاف منطلقاتها على نقده، وشنّ الهجوم عليه[3].

ومن أروع وأحكم ما يندرج في هذا السّياق، ممّا يتّصل بقضيتنا، موضوع الحوار الفكري كمنهجيّة إسلاميّة، هو ما تمّ عام 1980م، في جلسة نقدية هادئة لمشروع حنفي من لقاء منزلي بينه وبين مجموعة من أعلام الفكر الإسلاميّ المعاصر في مصر، منهم الأستاذ محمّد عمارة الّذي جاء في حديثه المقتضب عن هذا اللّقاء الهامّ قوله: «... ولقد تولّيت أنا عرض هذه الملاحظات على الكتاب، ولم يشأ الدكتور حسن، يومها، أن يجيب على تساؤلات الحضور، إلا بابتسامة قال لي معها:

= باريس، فرنسا.

(1) المصدر السابق، ص 136.

(2) المصدر نفسه، (السابق)، ص 137.

(3) ينظر: مقال أحمد عبد الحليم عطية عن «الإنسان في الأصولية الجديدة، قراءة في كتاب حسن حنفي» ص 224، من مجلّة الوحدة، ع/ 77 - 78 = 1411 هـ = 1991 ف، باريس، فرنسا.

هو أنت كشفت الموضوع؟ !

فلما استأذنته أن أكتب عن الكتاب، رجاني ألا أفعل، وقال: «لقد طبعته بحروف صغيرة حتّى لا يستطيع (المشايخ) قراءته...»[1].

ومن تلك الملاحظات الّتي عرضت عليه للنّقاش حولها، تقييم وتلخيص الأستاذ محمّد عمارة لمشروعه بأنّه «محاولة أنسنة الدّين، وتفريغه من محتواه، وذلك بإلغاء ثوابته ومطلقاته ومقدساته من الله إلى النّبوة إلى الرّسالة إلى الوحي إلى الغيب.. إلغاء كلّ ذلك بإعطائها مضامين ومفاهيم إنسانية أرضيّة»[2]. ويستطرد في تعرية مشروعه، مبيّناً بأنّ مطلوبه هو: «علم توحيد بلا إله وبلا عقيدة، وهنا تبرز دلالة اختيار الدّكتور حسن لمشروعه عنواناً هو (من العقيدة إلى الثورة) فالغاية: علم توحيد أرضيّ إنسانيّ، لا علاقة له بالله أو الدّين أو السّماء»[3].

وبهذا، قد يسارع البعض إلى اتّهام الرّجل بالإلحاد، خصوصاً وأنّه يعرّض نفسه لمظنة ذلك في قوله فيما نقل عن الدّكتور عمارة: «... فالإلحاد هو التّجديد... هو التّحول من القول إلى العمل، ومن النّظر إلى السّلوك، ومن الفكر إلى الواقع، إنّه وعي بالحاضر، ودرء للأخطار. بل هو المعنى الأصلي للإيمان»[4].

هذا، ولئن أخفق في تأمين دفاع منتصر مقنع بفكره أمام الحقّ الّذي كان يساجله به محاوروه للدلالة على ضعف هذا الفكر، وسهولة تهافته، لكن تبقى عملية عقد حوارات منتظمة معه ذات أهمية لا تنكر، وتتمثّل في أمل التّوصّل يوماً ما إلى إقناعه، وإمكانيّة تجنيده للمشاركة من جانب دعوي في مختلف الحوارات القائمة والممكنة في شتى المجالات الدّينية والفكرية، ومبعث أملنا في هذا الشأن، ناتج من قوله عن نفسه في مقابلة إعلاميّة: «أنا دارس للفلسفة الغربيّة، وأحد المتخصصين بالدّراسات المسيحيّة، وأُستشار كثيراً في نصوص الأناجيل، ويسألني الغربيون هل هذه كلمة صحيحة في الإنجيل أم لا؟ ولي الخبرة والمعرفة

---

(1) محمّد عمارة: «التّراث والتّجديد» ص216، من مجلّة المسلم المعاصر، ع/ 77، س20 = 1416هـ = 1995ف.

(2) المصدر السابق، ص209 – 210.

(3) المصدر نفسه، ص213.

(4) نقلاً عن المصدر نفسه، ص 215.

التي تؤهلني للحكم بأنّ هذه الكلمة قالها المسيح أم لا، والشيء نفسه يتكرّر في التوراة . . . وأنا متخصص أيضًا بالفلسفة المعاصرة، لذلك فأنا أعرف الغرب جداً . . .»[1].

ومن حيث قابليته للحوار، فبالإضافة إلى لقائه الّذي أشير إليه آنفاً، يبدو لي أنّه مؤمن بالحوار، ومشجع على سلوكه، حيث يقول: «وقد كان الحوار شيمة تراثنا القديم حيث كان الحوار يعقد بصفة مستمرة بين الفرق المختلفة، وكان يدلّ على ثقة بالنّفس، وعلى احترام العقل، وعلى حرّية فكر يتمتّع بها الجميع على اختلاف ديانتهم، بهذا المعنى يكون الحوار مجدياً بل ويساعد على الخروج من العزلة الفكرية وعلى تعليم أسلوب الحديث مع الآخرين»[2].

وأيضاً على المستوى الإسلاميّ والدعوي، فهو يرى أنّ الحوار هو الحلّ الأمثل لمواجهة مشكلات التّخلف والضّعف والتّفكير، وهو كذلك المنهج الأقوم لإعلان الخطاب الدّعوي والإقناع به، ولتأكيد ذلك، فقد ختم بحثًا له عن أصول الدّين بتوجيهات ورد فيها قوله: «. . . والمسلمون اليوم في حالة ركود وتخلّف وضعف، لا يمكنهم محاربة أهل الملل والنّحل، كما أنّ تقدمهم مرهون بالاطلاع على المذاهب القديمة والمعاصرة، فالأولى عدم تكفير أحد. والدّعوة إلى الإسلام بالبرهان والإعلان عن التّوحيد وإظهار مآثره في حياة المسلمين، فالكلّ بشر، ولكلّ مجتهد حياة وفكر على قدم المساواة مع كلّ فرد آخر. مهمة المسلمين اليوم عدم تكفير أحد، والعودة إلى وحدة الأمّة عن طريق الوحدة الفكرية، وذلك بعقد الحوار بين اتّجاهاتها المختلفة . .»[3]. فهو يدرك جيّداً أنّ بإمكان الحوار توحيد المسلمين.

وفضلاً عن الجوانب النّظرية والتنظيرية لقضية الحوار عنده، فمن مميّزاته أنّ له مقدرة علميّة وعمليّة على مخاطبة العقل الغربي، والنّفاذ إلى أعماقه بإقناعية الفكر الإسلاميّ، ومن أدلّة هذا الطّرح أنّ الجمعيّة العلميّة السويّدية، قد طلبت منه ذات مرة في إطار حملتها العلمية العالميّة لحماية البيئة من التّلوث، التّقدم ببحث يجيب فيه من منظور إسلاميّ عن

---

(1) «الدّين والتّراث والتجديد في فكر حسن حنفي» ص 136، من مجلّة الوحدة ع / 6، س1، سبق ذكره.

(2) في فكرنا المعاصر، ص95، سبق ذكره.

(3) بحوث في علوم أصول الدّين – أصول الفقه، ص45، سبق ذكره.

سؤال مؤداه هل يمكن أن تساهم الحضارة والثّقافة في حماية البيئة؟ . وقد أجاب عليه حنفي بإعداد وتقديم بحثٍ عن مفهوم الطّبيعة في الثّقافة الإسلاميّة ، قدر له بسبب جودته العلميّة أن يترْجم إلى عدد من اللغات الأوروبية ، فكان من نتائج وأصداء هذا البحث الّذي لّما نطلع عليه ، ما صاغه في قوله : «ولأول مرّة تدرك الجمعية بأنّ حضارة ما يمكن أن يكون لها تصورّها الخاصّ للطّبيعة ، تصوّر يحميهامن التّلوث ، لأن الطّبيعة بالنّسبة لنا من صنع الله وخلقت للإنسان الّذي عليه أن يحترمها ، ويحميها من العوادم ، ومن كل ما يسيء لصورتها العامّة وجوهرها . . .»[1] .

ولنا في ضوء قوله هذا ، أن نتصوّر : كم يمكن لبحث من هذا النّوع أن يخلّف من تأثير إسلاميّ دعويّ ، في شخصيات وهيئات علميّة مرموقة ، وفي عالم من أولويات همومه وقضاياه الكبرى ، حماية البيئة من التّلوث !!

إذن ، بالنّظر إلى قابليته للحوار وإلى ما يتمتع به من قدرات التّأثير العلمي في الآخرين ، ففي غاية الحكمة والتّعقل الاستمرار في محاورته ، وخصوصاً إذا تأكد وسلّمنا بأنّ ترويجاً إعلامياً نشطاً يجري أو قد جرى لصالحه إلى حد ما كبير[2] .

3 - نصر حامد أبو زيد .. وخطاب الشغب والإثارة .

أثار الكاتب المصري نصر حامد أبو زيد بكتابه (نقد الخطاب الدّيني) في أوساط المجتمع المصري وخارجه زوبعة إعلامية هائلة ، حيث قوبل بضجّة مواقف ذات أبعاد فكرية وقضائية متجادلة ، وذلك لاشتماله على ما سنعرض لبعضها من رؤى ساطحة وانتقادات حادّة ، لم يتردد البعض في اعتبارها إنكاراً لما علم من الدّين بالضّرورة .

ومن ثّم أدين فكريّاً وقضائياً : بالتكفير والحيلولة دون ترقيته إلى درجة (أستاذ) والفصل من الجامعة ، بالإضافة إلى التّدخل قضائياً بدعوى الحسبة للفصل بينه وبين زوجته على اعتبار أنّها مسلمة وهو مرتد[3] . . . الخ .

على أنّ بالرّغم من مكانة هذا الكتاب في خطاب نصر حامد كسياق فكريّ طويل

---

(1) « الدّين والتّراث والثّورة » ص136 ، من مجلة الوحدة ، ع / 6 ، س1 ، سبق ذكره .

(2) ينظر : مدارس الفكر العربيّ الإسلاميّ المعاصر ، ص100 ، سبق ذكره .

(3) ينظر : نصر حامد أبو زيد : نقد الخطاب الدّيني ، ص22 ، ط3 / 19995 ف ، مكتبة مد بولي ، القاهرة .

ومتسلسل، إلا أنّه ليس بدعاً على الأقل في التّعبير عن منهجه العام، وعن منطلق وغاية نضاله الفكريّ الّذي ظل يكرس له مشروع حياته العلميّة، حيث إنّه في كتابه (فلسفة التّأويل. . . دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدّين بن عربي) وهو فيما أظّن من باكورة أعماله العلميّة، استناداً إلى خلوّ قائمة مصادره من الإشارة إلى أعماله الأخرى ما عدا كتابٍ ومقالٍ يعلن في هذا الكتاب بما لا لبس فيه، ويحدّد في غاية الوضوح ما ينوي القيام به من مشروع نقدي شامل لكافة جوانب التّراث الإسلاميّ، إذ كتب يمهد له بقوله: «والحلم الّذي يسعى الباحث لتحقيقه هو إعادة النّظر في تراثنا الدّيني بكل جوانبه، من خلال منظور علاقة المفسر بالنّصّ، وما تثيره هذه العلاقة من معضلاتٍ على المستوى الوجودي والمعرفيّ على السّواء، والآفاق الّتي يمكن أن يفتحها لنا هذا المنظور ثرية ومتنّوعة، ويمكن أن تضيء لنا كثيراً من الجوانب الّتي ما تزال مجهولة في التراث، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إنّها يمكن أن تصحّح لنا كثيراً من الأفكار الشائعة والمستقرة في تراثنا الدّيني على وجه الخصوص»[1].

ومن هنا راح أبو زيد يؤطّر قراءته للتّراث، وينظم عناصر نقده المعرفيّ له في سياق العلمانيّة، ظنّاً منه بأنّ «العلمانيّة ليست بالضرورة مضادّة للعقيدة بل إنّ الإسلام هو الدّين العلمانيّ بامتياز لأنّه لا يعرف سلطة الكهنوت، ولأنّه . . . يمثل بداية تحرير العقل لتأمل العالم والإنسان أي الطبيعة والمجتمع، واكتشاف قوانينها»[2]. ويفهم من قوله هذا الاعتماد الكلّيّ على العقل للوصول عن طريق التّفكير المجرد إلى ما يفيد علماً بقوانين الطبيعة، وينظم حركة المجتمع البشري المتجدّدة، ويضبط علاقاته الاجتماعيّة بقوانين وضعية خارج إطار الوحي وتوجيهاته، فقط وفق محدّدات المصالح الدّنيويّة، وعوامل النّهضة المادّية، والحرّية الفكرية.

وعلى هذا، فإنّنا لذلك لا نجد حدّاً لشطحاته الّتي يتردّد غالباً في الإفصاح عنها، ولكنّه يرسم مسارها منتقداً الخطاب الدّيني بقوله: «وهكذا تتبدّد واقعية الإسلام كما يطرحها الخطاب الدّيني ذاته، ناهيك بالعلاقة الجدليّة الّتي يكشف عنها التّاريخ بين الإسلام والواقع منذ اللّحظة الأولى لنزول الوحي. وينتهي الخطاب الدّيني بعزل الإسلام عن الواقع

---

(1) نصر حامد أبو يد، فلسفة التّأويل، ص11، ط2/ 1993 م، دار التّنوير، بيروت، لبنان.

(2) نقد الخطاب الدّيني، ص37 – 38، سبق ذكره.

والتاريخ، مع أن الوحي ومن ثمّ الإسلام واقعة تاريخيّة»[1].

وبيان ذلك عنده في موضع آخر يتضّح في قوله: «آن الأوان لكي نناقش مفهوم العلمانيّة والإسلام معاً وربّما نجد أنّ الإسلام دين علمانيّ لو أحسنا الفهم والتّدبر: تدبر النّصوص والتّاريخ والواقع في الوقت نفسه»[2]. وهذا التّدبر الذي أقدم عليه أبو زيد، وبدأ به وفق منهجه، أفضى به إلى ما أعرب عنه في أسلوب متلاعب حين قال في معرض التّبرير وفي الدّفاع عن محتوى كتابه (نقد الخطاب الدّينيّ): «ليس ثمّة دعوة للتّحرر من النّصوص، بل من سلطة النّصوص النابعة من شموليتها، وهي الشّمولية التّي بدأت برفع المصاحف على أسنّة السّيوف، طالبين الاحتكام إلى كتاب الله في صراع اجتماعيّ سياسي.. إنّ الدّعوة للتحرّر من سلطة النّصوص ومن مرجعيتها الشّاملة ليست إلا دعوة لإطلاق العقل الإنسانيّ حرّاً يتجادل مع الطبيعة في مجال العلوم الطّبيعية، ويتجادل مع الواقع الاجتماعيّ والإنسانيّ في مجال العلوم الإنسانيّة والفنون والآداب»[3].

وقبل هذا، نجده يسجّل على الشطحي الكبير محمد شحرور انتقاداً لقراءته المعاصرة والغريبة للنّصوص الإسلاميّة، وهو مهندس سوريّ !! ما نصّ عليه بقوله: «وقد كان منتظراً من مفكر يصرّ على تاريخيّة التراث أن يدرك أنّ مفهوم الإسلام الشامل مفهوم تراثي تاريخيّ يحتاج إلى الفحص وإعادة النّظر»[4].

وعلى خلفية هذا الرّأي الخاطئ يؤسس أبو زيد دعوته إلى إعادة قراءة النصوص بما يتفق مع طموحاته في مواكبة تطورات العصر والدّلالات، وبما ينفي ما يتحاشاه من مفاهيم تاريخيّة اجتماعيّة، وهو يقول: «إذا كانت اللغة تتطوّر بتطوّر حركة المجتمع والثّقافة فتصوغ مفاهيم جديدة، أو تطوّر دلالات ألفاظها، للتّعبير عن علاقات أكثر تطوّراً، فمن الطبيعي، بل والضروريّ أن يعاد فهم النّصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التّاريخية الاجتماعيّة الأصليّة

---

(1) المصدر السابق، ص 99.

(2) نصر حامد أبو زيد: التّفكير في زمن التّفكير ضدّ الجهل والزّيف والخرافة، ص40، ط2/ 19995ف، مكتبة مدبولي، القاهرة.

(3) المصدر نفسه، ص145 – 146.

(4) نصر حامد أبو زيد: «لماذا طغت التّلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الإسلام» ص21، من مجلة الهلال ع10/ س100 –1413هـ = 1991 ف، القاهرة، مصر.

وإحلال المفاهيم المعاصرة، والأكثر إنسانية وتقدّماً، مع ثبات مضمون النّصّ»[1].

وكأمثلة على ذلك يشير أبو زيد إلى قضية ميراث البنات بوضعها في إطار قضيّة المرأة بوجه أعم وحقها في التّحرر والمساواة بالرّجل، ذلك أنّه فيما يقول في هذا الشأن: «ليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذي وقف عنده الوحي، وإلا انهارت دعوى الصّلاحية لكلّ زمان ومكان من أساسها، واتسعت الفجوة بين الواقع المتحرك المتطوّر وبين النّصوص الّتي يتمسّك الخطاب الدّيني المعاصر بحرفيّتها»[2].

وممّا لإدراكه أهمية وخطورة في خطاب أبي زيد، وهو ما نبه إليه الأستاذ فؤاد كامل في عرضه لكتابه. (مفهوم النّصّ) من أنّه «يقصد بالنّصّ القرآن الّذي يعتبره نصّاً محورياً في تاريخ الثّقافة العربية...»[3].

وعليه تتمثّل خطورة خطابه في قوله بوجود أحكام كثيرة، قد أسقطها التّطوّر التّاريخيّ وألغاها من قضايا تتعلق بفقه الأحوال الشخصيّة، وبموضوعات الحريّة والمساواة المطلقة في الحقوق والواجبات بين النّاس جميعاً[4].

هذا.. ومن شطحاته الّتي لا مخلص من الإدانة بسببها، قوله بما له موارد مماثلة في فكر حسن حنفي، وهو أنّ: «من النّصوص الّتي يجب أن تعتبر دلالاتها من قبيل الشّواهد التّاريخية النّصوص الخاصّة بالسّحر والحسد والجنّ والشّياطين... وإذا كنا ننطلق هنا من حقيقة أنّ النّصوص الدّينية نصوص إنسانية بشريّة لغة وثقافةً، فإنّ إنسانيّة النّبي بكلّ نتائجها من الانتماء إلى عصر وإلى ثقافة وإلى واقع لا تحتاج لإثبات... وليس ورود كلمة (الحسد) في النّصّ الدّينيّ دليلاً على وجودها الفعْلي الحقيقي. بل هو دليل على وجودها في الثّقافة مفهوماً ذهنيّاً»[5].

ولا شك في أنّه بآراء كهذا، يثير عند الآخرين ريبة في معتقده الدّيني، ويغريهم

---

(1) نقد الخطاب الدّيني، ص133.

(2) المصدر نفسه، ص135.

(3) فؤاد كامل: «مفهوم النّصّ، لنصر حامد أبو زيد» ص198، من مجلة العربي، ع/ 412 عام 1993 ف.

(4) ينظر: نقد الخطاب الدّيني، ص 210 – 211.

(5) المصدر نفسه، ص211 – 212.

بالهجوم عليه والطّعن فيه بأسلحة خطيرة، من أهونها أن نقول لـه ولغيره مـن أمثالـه: «إنّ الثّوابت العقدية والتّشريعيّة ليست موضوعاً للنّقد والمراجعة، إنّها موضوع للبحث والفهم. لا نستطيع أن نسلّم بالمقولات الّتي يدّعيهـا هـؤلاء الكتـاب وأمثـالهم بالنّسبة إلى ما سموه العقل الإسلاميّ والعقل العربي، إنّ هذه الأعمال النّقدية تنطلق من رؤية فكريّة وحضاريّة خارج إطار الإسلام، حيث إنها تنطلق من مقولات الحداثة الّتي تقوم على رؤية موضوعيّة خالصة للعالم تجرده عن بعده الغيبيّ. وتنطلـق مـن التّركيز على الفردية ومن التّركيز على أنّ الغاية من الحياة غاية دنيوية»[1].

وإذا كـانت أنسنة المقدّس مـن أهـمّ ركـائز الإطـار المعـرفيّ العلمـاني[2]. فتسـتند هـي الأخرى، عند نقاد الفكر الدّيني بمن فيهم أبو زيد، إلى فكرة تاريخانيّـة الأحكام والنّصـوص الدّينيـة، وتعني «نفـي الخلـود عـن معـاني وأحكـام النّصـوص الدّينية، والادعـاء بأنها نسبيّة لاءمت زمان نزولها، فلما تطوّر الواقع، طويت صفحاتها مع طيّ صفحـات التّاريخ، ولقـد عممت الوضعيةّ الغربيّة هذه النّزعة التّاريخيّة على كلّ النّصوص الدّينية، . . . دونما تمييز بين الوحي الإلهي وبين الاجتهاد البشري!»[3]. فالتاريخيّـة طبقـاً للأستـاذ محمّـد عمـارة، في ردّه على كلّ القائلين بها، هي «واردة في فقه الواقع، وليسـت في ثوابـت أحكـام الشّريعة، نـاهيك عن القواعد والمبادئ والمقاصد الّتي هي المساحة الأعظم في مربعة الإسلام»[4].

وبخصوص منهجه في مشروع نقد التّراث الدّينيّ، فلعلّ اتّجاهه المبكر إلى دراسة موضوع التّأويل، وبخاصّة عنـد ابـن عربـي الّـذي مـا زال يثير الكثير مـن التّسـاؤلات والمواقف، هو أمر كفيل ببيان مسلكه المنهجي منذ بداية مشروعه علـى حـين غفلـة مـن النـاس، فباسم التّأويل يتخطى الدّكتور أبو زيد كلّ مـا اصطلـح عليـه عنـد العلمـاء مـن

---

(1) في حوار مع الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين حول (أزمة تفعيل الفكر الإسلاميّ) ص28، من كتـاب: الفكر الإسلاميّ المعاصر تحرير وحوار، عبد الجبار الرّفاعيّ، ط1/ 1421 هـ - 2000ف، دار الفكر المعاصر بيروت، = دار الفكر، دمشق.

(2) ينظر: ممدوح الشّيخ: الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحـرب، ص27، ط1/ 1420هـ=1999ف، دار البيارق، عمان، الأردن.

(3) «جارودي وتاريخيّة أحكام القرآن الكريم» ص39، من مجلة العربيّ، ع/ 474، عام 1998ف.

(4) المرجع نفسه، ص98.

آليات وضوابط التّأويل الصّحيح والمقبول[1]، والّذي يلزم منه أن يكون «وليد نظر سليم معمّق واجتهاد هادف موفّق، لا يقبل إلا من أولي الألباب الرّاسخين في العلم المتحصنين بالإيمان»[2].

ودونما تسلّح كاف بتلك الآليات والضّوابط العلميّة لعملية التّأويل، يغامر الدّكتور أبو زيد بخوض لجّته، فقط مستعيناً بما يعرف كآليّة منهجيّة بالهرمنيوطيقا الّتي يحدّد لنا مهمّتها بقوله: «القضيّة الأساسية الّتي تتناولها الهرمنيوطيقا بالدّرس هي معضلة تفسير النّص بشكل عام سواء كان هذا النّص نصّاً تاريخياً أم نصّاً دينياً، أم نصّاً أدبياً والأسئلة الّتي تحاول الإجابة عليها - من ثمّ - أسئلة كثيرة معقدة ومتشابكة حول طبيعة النّص وعلاقته بالتّراث والتّقاليد من جهة، وعلاقته بمؤلّفه من جهة أخرى، والأهم من ذلك أنها تركز اهتمامها بشكل لافت على علاقة المفسر - أو الناقد في حالة النصّ الأدبي - بالنّص هذا التركيز على علاقة المفسّر بالنّص هو نقطة البدء والقضية الملحة عند فلاسفة الهرمنيوطيقا»[3]. وهذا ما يعني في حقيقته إسقاط هوى النّفس على النّص، وتوجيهه وفق إرادة المفسّر بغض النّظر عن مدى احتمال دلالته الصّحيحة أو المناسبة لذلك، ولهذا ينتقد البعض ومنهم الأستاذ حميد سليم، سالكي هذا المنهج كنصر حامد وغيره منبّهاً إلى صنيعهم الخاطئ بقوله: «لقد افتتن كثير من الدارسين المحدثين بهذه المناهج الهرمنيوطقية، وحرصوا على توظيف أدواتها وآلياتها في الثقافة الإسلاميّة، بل ذهب بعضهم كنصر حامد أبو زيد وحسن حنفي إلى تطبيق هذه المفاهيم على النّص القرآني ظنّاً منهم أنها مناهج علميّة قوامها العقل»[4]. وكفى بما عنون به أبو زيد نفسه مقاله «الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النّص» دلالة على إشكال هذا المنهج ومزاجيّته، وربّما تأكيداً لهذا، يقول أحد الباحثين: «فقد صار اليوم من الحقائق المتفق عليها عند الألسنيين أنّ النّص لا يحتوي من المعاني إلا ما يضفيه عليه القارئ، وأنّ تلك المعاني ليست اعتباطية، بل هي ثمرة التّفاعل بين ثلاثة عناصر رئيسة هي النّص ذاته، والمجتمع بظروفه التّاريخية الّتي هي

---

(1) إبراهيم بن حسن بن سالم: قضية في التّأويل القرآن الكريم بين الغلاة والمعتدلين، ج1/ 134-136، ط8، س، 1413هـ=1993ف، دار قتيبة، دمشق=بيروت.

(2) المرجع السّابق، ج1 / 76.

(3) نصر حامد أبو زيد: «الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النّص» ص141، من مجلّة، فصول، مج1، ع3، عام 1401هـ=1981ف، القاهرة، مصر.

(4) حميد سليم: الهرمنيوطيقا والنّص القرآني... نقد وتجريح، ص19 - 20 ن ط / دار البيارق، د. م. ت.

في توازن غير قار، والقارئ بشخصيته المتميزة وموروثه الدّلالي»[1]. ولكن مع هذا كله، نقف بجانب من يرى إمكانية الاستفادة من علوم اللّغة، كالألسنيات الحديثة، في قراءة وفهم النّصوص الدّينية، إذا ما تبين عدم تعارضها لمعطيات اللّغة، ولسياق التنزيل وعموم مقاصده[2]. بل يحسن في عصرنا هذا إدراج علوم اللّغة الحديثة في قائمة آليات الاجتهاد والتأويل، للاستئناس بها والإفادة منها.

على أنّ هذا، لا يعني تأييد نصر حامد في قوله: «لعلّنا الآن أصبحنا في موقف يسمح لنا بالقول بأن النّصّوص الدّينية نصوص لغوية شأنها شأن أيّ نصوص أخرى في الثّقافة، وأنّ أصلها الإلهي لا يعني أنّها في درسها وتحليلها تحتاج لمنهجيات ذات طبيعة خاصّة تتناسب مع طبيعتها الإلهية الخاصّة»[3].

بل، فما يغيب عن بال الدّكتور نصر حامد في هذا المقام، مما لابدّ حقاً من تنبيهه إليه، هو أنّه: «ليس القرآن من الكتب البشرية الّتي يحيط أيّ إنسان بمحتوياتها، ويتعرف أغراض مؤلّفيها ومقاصدهم بمجرّد ذكائه وفطنته وعلمه، بل إنّه يحتاج للعلم بمقاصد الله عز وجلّ إلى مرضاته وإعانته، فإذا تكبد الإنسان للحصول على مرضاته المشاق في سبيله، وعمل على طهارة قلبه وتزكية نفسه، وتحسين أخلاقه، تقبل عليه رحمة الله، ويدنو منه فيضه، ويشرح له صدره، ويعطيه الحكمة والعلم»[4].

وهكذا ننتهي معه إلى تأكيد أنّ ما ينتجه هو خطاب شغب وإثارة، أي جدل وسجال. وذلك بشهادة الأستاذة: راوية العظيم، الّتي عملت مسؤولة نشر في مكتبة مدبولي المعروفة بنشر كتب أبي زيد، حيث قد صورته بدقة، وهي تقول: «إنّ نصر حامد أبو زيد هو من أخرج نفسه من سياق الباحث الموضوعيّ، إلى سياق الكاتب الملاكم، الباحث عن خصومات خطرة . . . إنّ نصر حامد أبو زيد كمن يقود سيّارة، ولا يكاد يكفّ عن التلفّت

---

(1) الفكر الإسلاميّ في الرّد على النّصارى، ص252، سبق ذكره.

(2) السّيد محمّد حسين فضل الله: «الاجتهاد، وإمكانيات التجديد في منهج التّفكير» ص65، وينظر: ص70، من مجلة المنطلق، ع111، سبق ذكره.

(3) نقد الخطاب الدّيني، ص206، سبق ذكره.

(4) عمر يوسف حمزة: معالم لفهم القرآن الكريم، ص 44 – 45، ط1 / 1998 ف، مركز الكتاب للنّشر، القاهرة، مصر.

يمنة ويسرة، يهجو هذا يلاسن ذاك بأنّهم لا يلتزمون أصول القيادة السّليمة، وينسى أن ينظر غايته الأساسية، وقائد سيّارة كهذا لا بدّ أن يرتطم بغيره»[1] . . . وتواصل الأستاذ راوية مفصّلة في شأنه، بما يعرّي حقيقة دوافعه المادية والإعلاميّة من وراء كلّ ما يقوم به من مغامرات مميتة. وفي معنى هذا جاء قولها: «. . . وأبو زيد إما أن تكون لديه رغبة قويّة في الانتحار أو أنّه - إذا ما أسأنا الظنّ - استحلى اللّعبة الإعلامية، التي قفزت باسمه من دائرة ضيّقة من اهتمامات الباحثين (وهي دائرة اللسانيّات الحديثة، وقراءة التّراث، وأمثاله كثر في العالم العربي) إلى نجم ثقافي، تتوالى عنه المقالات والتّحقيقات، خاصّة بعد حرمانه من التّرقية الأكاديميّة، ثمّ الدّعوة التي رفعت عليه، للتّفريق بينه وبين زوجته، وقد عادت عليه هذه الفرقعة الإعلامية بالفائدة، إذ إنّ كتبه الآن تباع، وتنفد من المكتبات . . »[2].

فهو إذن، إذ يخاطر بنفسه بالدّفع بها في مهالك التّجديد والتّأويل للفكر الدّيني ونصوصه، أجده يزجّ بنفسه في معركة لا قبل له بمواجهتها، إذ هي أكبر وأخطر ممّا تحتمله قدراته الدّفاعية، ولا سيّما حين تصوّب إليه سهام الرّدة والتّكفير، وتطلق نحوه إدانات شديدة بتهم يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 - إنكار مبدأ أنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء وإنكار الغيب والهجوم عليه.

2 - الهجوم على القرآن الكريم، وإنكار مصدره الإلهي، وشدة العداوة لنصوصه، وللسنّة كذلك، والدّعوة إلى رفضها.

3 - الهجوم على الصّحابة رضوان الله عنهم، ونعتهم بصفات غير لائقة بمقامهم الإسلاميّ الجليل.

4 - الدّفاع عن الماركسيّة والعلمانيّة وعن سلمان رشدي المارق، وروايته الشيطانيّة[3].

وبالمناسبة، يلاحظ ضمن ما هو عجيب من أمر المسلمين، أنّه: «كلّما كان هناك خلاف في الرأي حول مسألة تتصل بالدّين كان من الصّعب على المسلمين أن يناقشوا الأمر في هدوء

---

(1) «مستقبل التنوير في ظلّ أسماء ماركسيّة مرتدة» ص254 - 255، من كتاب العلمانية والممانعة الإسلاميّة، سبق ذكره.

(2) المرجع السابق، ص255.

(3) ينظر: نقد الخطاب الدّينيّ، ص28، سبق ذكره.

ودون انفعال، ودون سباب وتكفير وتخوين، السّر في أنّه قد بات من النّادر أن يصبر مسلم على الاستماع إلى وجهة نظر دينيّة من مسلم يخالفه، وأن يعرض قضيته عرضاً موضوعياً نقدياً. رغم أمر الله إيّانا بالمجادلة فيه بالّتي هي أحسن»[1].

والظّاهر، أنّ الطريقة الّتي قوبلت وأديرت بها قضيّة أبي زيد لم تكن حواريّة على النّحو الفكريّ المطلوب، بل وإنّما تحمّس كلا الطرفين لموقفه، وأخذ كلّ منهما يقع في الآخر بما يخرج أحياناً عن الموضوعيّة العلميّة، فضلاً عن فشل طرفيْها في حسمها عن طريق الحوار الفكري الموضوعيّ الهادئ المقنع، ممّا أدّى إلى مرافعات قضائيّة لم يكن فيها خاسر ولا رابح، بقدر ما تحمّل الإسلام وزرها عند الآخرين، وأصيب المسلمون جميعاً بتشويهٍ في سمعتهم، والتّهكم من شجارهم البينيّ، من قبل من يطربون لمثل ذلك، وقد يعملون على تخطيطه، وتأجيجه.

ومن أمثلة تراشق طرفي القضية، قول الدّكتور عبد الصّبور شاهين في تقريره عن نصر حامد، وفكره، وهو من أبرز نقّاد هذا الأخير، وأكبر خصومه: «إنّ الباحث وضع نفسه مرصاداً لكلّ مقوّمات الخطاب الدّينيّ، حتى ولو كلّفه ذلك إنكار البديهيات، أو إنكار ما علم من الدّين بالضّرورة . . . كما أنّ الكتاب كلّه لم يصل إلى أي نتيجة سوى تلك النّغمة النّقدية المسرفة، فهو بحقّ، جدليّة تضرب في جدليّة، لتخرج بجدليّة، تلد جدليّة، تحمل في أحشائها جنيناً جدلياً، متجادلاً بذاته، إنْ في التّصور أو التّعبير»[2].

وأمّا نصر حامد الّذي يظهر على امتداد كتابيه (نقد الخطاب، والتّفكير في زمن التّكفير) بمظهر من يصرّ على امتلاك الحقيقة، والمنهجيّة العلميّة الصّحيحة، فنجده بدوره يتوغّل في السّخريّة والازدراء بمساجليه، إذ يصف أحياناً أحد خصومه من العلماء بالواعظ[3]. وتارة يرمي خصومه بنقد لاذع ونقيض لآداب البحث العلميّ، إذ - على حدّ وصفه - يعانون من «جهل فاجر بلغ به فجره أن يتمسّح بمسوح العلم الكاذبة» وأيضا من آفات عقليّة مستعصية[4].

---

(1) حول الدّعوة إلى تطبيق الشريعة، ص197، سبق ذكره.

(2) نقد الخطاب الدّينيّ، ص15.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص85 - 89.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 211 - 130.

كما أنّه تارة أخرى يُقيّمُ في مكابَرة وتبجح تقرير الدّكتور شاهين عن كتابه الشهير، بأنه «عبارة عن بلاغ كاذب واتهامات زائفة ناتجة عن قراءة مغرضة أحياناً للإنتاج، وعن جهل بالمفاهيم والاصطلاحات المستخدمة في أغلب الأحيان»[1].

ولعلّه، من الممكن أن نلتمس عُذراً لأصحاب هذه الرّدود الانفعاليّة الضّعيفة، وهي إلى الشّتائم أقرب من غيرها؛ وذلك بردّها إلى ظروف السّجال القضائي، وما رافقه من إثارة إعلامية هائجة، وخوف الطّرف المتّهم منهما على حياته والدّفاع عنها، قبل أن يتهاون بدمه، وتزهق روحه بجرّة قلم !!

والصّواب، فيما نرى في مثل هذا الأمر وفق قول الدّكتور أحمد شلبي: «إنّه لا يوجد من يملك استعمال كلمة التّكفير، إلا من أعلن صراحة كفره، أما دون ذلك فإنّ سبيل المناقشة الفكريّة هي الطريق الوحيد للإقناع والتحاور. فمن قال لا إله إلا الله ليس لنا أبداً أن نكفره، فاستعمال التّكفير نوع من الإرهاب الفكريّ، نرفضه، علماً أنه ما دام من يحاورنا يستعمل العلم في حججه فيكون الرّدّ عليه بالعلم أيضاً»[2].

وعليه، فيجب التّعامل مع حالات كقضية نصر حامد، بأسلوب حواريّ واع، يختلف عن الأساليب الانفعاليّة الفجّة، إذ لم يعد مجدياً ولا صائباً تكفير كلّ شاطح ومارق، ونفيهم إلى ديار الغرب، لتتوفر لهم فيها ظروف ما كانوا يحلمون بها، فيكبر بها ومن خلالها تأثيرهم، ويعْظم نفوذهم لإحداث نشاط فكريّ ضارّ ومضادّ للإسلام والمسلمين في محيطهم، وربما أيضاً فيما هو أوسع .

وإننا الآن نمرّ بمرحلة دقيقة وحساسة، في تاريخ العمل الإسلاميّ، تجعل من متابعة مثل تلك القضيّة بالمراجعة، والنّقد، والحوار، أمراً مبرّراً بل ضرورياً، وهي ممّا لا بدّ له من أن يتم من خلال برنامج للعمل، يضعه ويضبطه أفق واسع للتفكير وجهد صادق ومؤهل للتنفيذ .

ونخلُص من دراستنا هنا لهذه الاتجاهات الفكريّة الشّاطحة، والّتي أثار بعضها في ظرف ما سجالاً فكرياً هزّ سكون المسلمين، وكان له صداه فيما هو أبعد من ميادين حدوثه، إلى أنّ الاختلاف الفكري بين البشر يبقي معطى طبيعياً في العلاقات الإنسانية، وبخاصّة في المسائل

---

(1) التفكير في زمن التّكفير، ص 237.

(2) نقلاً عن كتاب: السّلفيّة بين أهل السنّة والإمامية، ص713، سبق ذكره.

والقضايا الّتي تستند إلى حدٍّ ما إلى الاجتهاد، وللتأويل دور ونصيب في دراستها وفهمها؛ ذلك أنّه على حدّ قول صاحب كتاب (الإمتاع والمؤانسة): «فما دام النّاس على فطر كثيرة، وعادات حسنة وقبيحة، ومناشيء محمودة ومذمومة، وملاحظات قريبة وبعيدة، فلا بدّ من الاختلاف في كلّ ما يختار ويجتنب»[1].

وعلى هذا، فإنّ الاختلاف مع أولئك - المسلمين - الّذين يتّسم خطابهم بطرح مقولات الحداثة على النّمط الغربي، ويتميّز فكرهم بجسارة الدّعوة إلى العلمانيّة السّافرة في حياة ومجتمعات المسلمين، ظاهرة يمكن استيعابها، ومن ثمّ احتواؤها، بالنظر إليها من زاويتين، هما من حيث المنهج والغاية:

فمن جهة منهجهم، فبالإضافة إلى استخدام آليات العلوم اللّغوية والإنسانية الحديثة في قراءة الفكر الإسلاميّ، ودراسة النّصوص الإسلاميّة الأصيلة، يحدّد لنا الأستاذ عبد الرّازق قسوم سماته العامّة في العناصر الآتية على سبيل الإجمال:

1 - التّكوين العقلي الفلسفي.

2 - استخدام المنهج الشّكي إزاء النّصّ الدّينيّ، بما يؤدي بهم إلى نفي قدرته على تنظيم الإنسان.

3 - رفض إضفاء الحداثة على النّصّ الدّينيّ الإسلاميّ.

4 - النّزعة الإنسلابيّة إزاء العقل الغربي الّذي يحظى بمكانة خاصّة وعالية لديهم، كمقياس لكلّ شيء.

5 - مناصبة العداء الشّديد للعاملين في الحقل الدّينيّ.

6 - التّركيز على المبدأ النّقدي الرّافض لنمطيّة المجتمع الإسلامي.

وبتأمّل هذه السّمات، ندرك أنّ هذه الاتجاهات تمثل كياناً منهجيّاً، يستحيل كلّ موضوع معرفي أمامه إلى مجال للتّشكيك والنّقد، وربّما الرّفض، منبتاً عن النظر إلى مصدره وسياقه، وعن كلّ ما قد يترتّب على ذلك دينياً وحضارياً. وغني عن القول عن منهج من

(1) أبو حيان التوحيدي: كتاب الإمتاع والمؤانسة، ج3/ 187، تصحيح: أحمد أمين وآخرين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د. ت.

هذا القبيل بأنّ من طبيعته أن يشوّش على اعتقاد العامّة من المسلمين، ويلوّث عليهم جوّ الاطمئنان إلى عقيدتهم والتمسك بدينهم.

ولذا يقول الدّكتور زقزوق بأن «المعركة معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها الّتي يجب التسلّح بها. فالخسران في هذه المعركة أشدّ وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أي معركة حربية أيّاً كان حجمها»[1].

أما من حيث الغاية، فتتمثل في هدف صياغة المجتمعات الإسلامية وفق القوالب الغربية، بالفصل المتعسّف بين العلم والدّين، وبين الوسائل والغايات، والاهتمام بتنمية ذات طابع كمي محض، والتّركيز بدلاً عن القيم الدّينيّة والاجتماعيّة النبيلة، على النزعة الفردية الّتي تخول الإنسان مكانة المركز والمقياس لكلّ شيء. ولهذه الغاية في عمومها، نلاحظ أنّ الأنموذج التّنويري الغربيّ ظاهرة لها حضورها البارز في فكرهم، والاسترشاد بها أمر شائع عندهم، ذلك أنّ الكثير من المتغربين يتصور أنّ الإسلام شأنه شأن المسيحية في ضرورة فصل الدّين عن الحياة لصالح هذه الأخيرة، وأنّ الشّريعة ثابتة، ومتقادمة، ومن ثمّ لا تفي بمتطلبات التّطوّر والحداثة، كما يرومونها، ويروق لهم تحقيقها في أوساط المسلمين.

وفي سبيل الاستنارة بأساليب الحوار الكفيلة بإيقاف هذه الاتّجاهات الفكريّة الشّاطحة عند حدودها، وربما القضاء عليها كلياً أو جزئياً، فإننا - في غياب تجربة ديدات في هذا المجال- إذا عدنا إلى كتب التراث وتجارب الواقع، تطالعنا أمثلة ومواقف مشابهة في أكثر من وجه لما نواجهه الآن، وليس يتيماً أو شاذاً في هذا الباب، وإن كان مشهوراً، ما قام به الإمام الغزالي في مواجهة التّيارات المنحرفة، وفي مقدّمتها إلى جانب أولئكم الفلاسفة «الذين خاضوا في العلوم النّظرية، فذهبوا فيها شوطاً بعيداً، وانتهوا إلى نتائج لا تتفق مع الدّين، فاستغنوا بها عنه وأصبحوا خطراً على الإسلام، وكانت تصريحاتهم فعلاً تبث القلق والاضطراب بين العوام السّذج حتى صاروا يشكون في صحة معتقدهم، وكانوا قد ظنّوه حقيقة مطلقة ثابتة غير قابلة للنقض والتّغيير»[2]، تقف الفرق الباطنية الّتي كانت تروّج لثقافة «أنه لا بدّ من

---

(1) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاريّ، ص125، سبق ذكره.

(2) من مقدمة تحقيق: فيكتورشلحت لكتاب الإمام أبي حامد الغزالي، القسطاس المستقيم، ص32ـ 33 ط3/ 1991ف، دار المشرق، بيروت، لبنان.

الرّجوع إلى المعلّم في كلّ الأمور الفقهيّة والنّظرية الجارية، لأن المعلم معصوم عن الغلط دون بقيّة الناس، فلا حاجة إذن إلى الاجتهاد، بل يكفي اللّجوء إليه لتفويض المشاكل المعترضة إليه ثم الاستسلام إلى ما ينتهي إليه رأيه»[1].

وقد وعى الغزالي مهمته على نحو جيّد، فالتزم بأدائها، متصدياً لمقاومتهم بمنهج حواريّ حاسم، بيَن طريقته في تطبيقه مع أهل الجدل وهم عند الغزالي ثالث ثلاثة أصناف من الناس، ولكن مع ذلك يقول الغزالي عن محاوراته معهم: «فإنّي أدعوهم بالتّلطف إلى الحقّ، وأعني بالتلطف أن لا أتعصب عليهم ولا أعنف، ولكن أرفق وأجادل بالأحسن: بذلك أمر الله تعالى رسوله»[2].

وتضاف إلى هذا تلك التجربة الحواريّة المعاصرة والمتميزة، التي جمعت، بتنظيم من الاتحاد الوطني لطلبة سوريّة في العام الدّراسي 1997- 1998ف، بين الشّيخ محمد سعيد رمضان البوطي ممثلاً عن الاتجاه الدّعويّ المتنوّر، وبين الدّكتور طيّب تيزيني كأحد أقطاب الخطاب العلماني، ومن أبرز أركان ورعاة الفكر المادّي الماركسي، في العالم العربي[3]. وكان موضوع هذا اللّقاء الحواريّ الشيّق، والذي قدره البعض: «فاتحة مبكرة لأمر بات ضرورياً وملحاً، وهو الحوار بين أطراف السّاحة الفكريّة داخلياً»[4] يدور حول التحدّيات الّتي تواجه الإسلام في هذا العصر. بعنوان: الإسلام والعصر.. تحديات وآفاق.

وإنّ هذه التجربة بصرف النَظر عن نتائجها بما لها من أثر، هي في واقعها المجرّد ذات أهمية قصوى، إذ تؤسّس لتقليد يراد له فيما يستهدفه هذا البحث، الانتشار، وتواتر السّير عليه، في مواجهة ما يطرأ في الأوساط المسلمة من أفكار شاطحة، ومناهج هدّامة، وذلك باعتباره منهجاً دعوياً متميّزاً ومثمراً، درج عليه الشّيخ ديدات في محاوراته مع المسيحيين، ودعا إلى الأخذ به في كافّة المجالات المتاحة والممكنة، على الصعيدين الإسلاميّ والدعويّ على أن يراعى في ذلك تمامه في إطارٍ من الموضوعيّة، من غير انفعالات تشوبه، وأن يصار إلى

---

(1) المرجع نفسه، ص33.

(2) المرجع نفسه، ص89 90، سبق ذكره.

(3) ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، وطيب تيزيني، الإسلام والعصر تحديات وآفاق، ص16، ط2/ 1420هـ=1999م دار الفكر المعاصر، بيروت + دار الفكر دمشق.

(4) المرجع نفسه، ص8، من مقدمة المحرر: عبد الواحد علوان.

التّناقد الهادئ البنّاء، والنقد الذاتي الهادف، إذ لا خـوف مِنْ وعلى حـوارات فكرية راقية، تصبو وتسمو بأطرافها إلى شواطئ وآفاق الحقيقة، ليسترشد الجميع بما هوأصح وأصوب، إذ لا بقاء لسواه كما لا نجاة بغيره.

ويبقى على طرفي هذا الحوار أن يلتزما بحسن إدراك أنّه «إذا كـان جـامع الإيمـان وموحـد المؤمنين هو التّصديق بما جاء به الرّسول ﷺ فإن مظلّة هذا الجامع وإطار هذا التّصديق قـد اتسـع لتعددية أثمرها التّأويل فيما يجب أو يجوز فيه التّأويل، فإذا ما الـتزم الفرقـاء المتـأولون بقواعـد التّأويل التي قررتها العربيّة والتي لا تخرج عن ثوابت التّصديق الجامع انفسحت أمـامهم آفـاق التعددية في هذا الإطار الذي يعطي مذاهـب الفكـر طابعهـا الإسـلامي مـع مـا بينهـا مـن فـروق وتعدّدية في التصورات»[1].

أما في حالة ما يجد الخطاب الدعوي تصديـه لهـذه الاتجاهـات الفكريـة الشـاطحة بمنهـج الحوار الفكري المحكم أمراً متعذراً وغـير مقبـول مـن الطـرف الآخـر، فـلا مندوحـة حينئـذ مـن اللجوء إلى الطريقة التي واجه بها الشيخ ديدات شخصية روائية مارقة، في تجربة دعويـة واعيـة سنختتم بها هذا المبحث، وهي قصة دفاعه عن الإسلام ومقدساته، برده الفكري والإعلامي على المرتزق القلق صاحب عمل روائـي مشـهور عالمياً بعنوانـه، ومجهـول نسـبياً في مضمونـه وبتفاصيله، وهو رواية: الآيات الشيطانية.

4 - أنموذج دعوي في الرد على الشخصيات والكتابات الأدبية المارقة:

ابتلي المسلمون قبـل خمـس عشـرة سـنة، أي في عـام 1988ف بقضيـة الكـاتب الهنـدي الأصل سلمان رشدي المولود في مدينة بومباي الهندية في عـام 1947م لوالـد بهـائي مرتـد عـن الإسلام هو أنيس رشدي.

وكانت البلوى الفاجعة ماثلة في ظهوره للنـاس بخروجـه على المسلمين بروايتـه المعنونـة بالآيات الشيطانية، التي أهدر دمه بسببها، بالنظر إلى أن أهم ما جاء فيها يتلخّص في الآتي:

1 - اتهام الخليل إبراهيم عليه السلام باقتراف جريمة الزنى مع هاجر، وأنه هـاجر بهـا بعيـداً لمـا وضعت ستراً للفضيحة. !!

(1) محمد عمارة: الإسلام والتعددية.. الاختـلاف والتنوع في إطار الوحدة، ص17 18، ط1، 1418هـ = 1997، دار الرشاد، القاهرة: مصر.

2 – اتهام الرسول محمد ﷺ بأنه كان أحياناً يتلقى آيات من الشيطان . !!

3 – افترى على رسول الله ﷺ وجنى على التاريخ مدعياً أنه لما أقام مسجده الشريف بالمدينة المنورة، أمر بأن يكتب على بابه «هنا تستطيع أن تتناول الخمر» . !!

4 – قذف أمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ بتهم فاحشة، مما لا يتصوره عاقل خلوق .

5 – وصف الصحابي الجليل سلمان الفارسي بأنه نصاب، وذلك لأنه يكتب الوحي مغلوطاً بغير ما يملى عليه[1] .

وكرد فعل متحمس للدفاع عن الحق، والقضاء على الفسق وأسبابه، أصدر الإمام الخميني فتوى يبيح فيها دم سلمان رشدي، محرضا على قتله بجعل مادي ثمين ومغر[2] . ومنذ ذلكم الحين ما يزال الرجل يعيش قلقاً متخفياً، محاطاً بحراسة أمنية مشددة، وقد اضطره هذا الوضع المرهق إلى التصريح بما يمكن اعتباره من قبيل التوبة والاعتذار، مما أورده نصر حامد أبو زيد في سياق البرهنة على ما أسماه بآلية المسارعة إلى التكفير بخطاب الإسلاميين دون قراءة أو تثبت[3] . وذلك فيما ساقه على لسان سلمان رشدي مدافعاً عن نفسه، بقوله: «ليس في الرواية هجوم على الإسلام، ولا تتضمن أي استهزاء بالعقيدة، كما أنها لا تعني توجيه إهانة لأحد، وأنا أشك أن يكون الإمام الخميني أو أحد من المعترضين في إيران قد قرأ الرواية، بل هم في الغالب يستندون في أحكامهم على الرواية إلى العبارات أو الجمل المنتزعة من سياقها . . . وإنه لأمر مخيف أن يكون رد فعل الناس بهذه الدرجة من العنف ضد رواية – مجرد رواية – يتصورون أنها تهدد العقيدة، وتقف ضد التاريخ الإسلامي كله»[4] . وأجد بناء على هذا التبرير والاعتذار أنه من الأولى انطلاقاً من هذا الموقف، أن يناقش في جو هادئ، وأن يدخل معه في حوار كريم يفترض أن يؤدي به إلى إنتاج عمل جديد، ينقض كل رؤاه السابقة، ويمنعه من إعادة نشرها، وربما استرجاع ما قد لايزال منه في الأسواق . على أن من

---

(1) ينظر: سيد حافظ أبو الفتوح: قالوا عن الإسلام . . رسائل إلى سلمان رشدي من كبار مفكري و فلاسفة العالم المسيحي، ص15– 16، مكتبة مد بولي، القاهرة، د . م . ن .

(2) ينظر: (الحقيقة بنت زمانها) ص176– 177، من مجلة الاجتهاد، ع 28 من 7= 1416هـ = 1995م، بيروت .

(3) ينظر: نقد الخطاب الديني، ص57، سبق ذكره .

(4) المصدر السابق، ص74 .

حقائق هذه القضية، أنه قد أحاط بظهور الكتاب اهتمام خاص كان له إسهام كبير فيما ناله من شهرة، لم تكن متاحة له لولا هذا الاهتمام الإيراني البالغ، حيث إن «الضجة الكبرى التي ثارت حول هذا الكتاب ليس لها ما يبررها، ولو ترك هذا الرجل، وهذا الكتاب، لمات الرجل ومات الكتاب من أول لحظة. . . وإن كانت الضجة في نظر البعض دليلاً على التضامن وغيرة الشعوب الإسلامية على الإسلام والدفاع عن العقيدة»[1].

وبالرغم من تفاهة الرواية حتى بالمقاييس الأدبية، وذلك لخروجها بما حوته من مغالطات عن حقائق تاريخية موثقة، مع أن مبدأ صدق العمل الروائي مع الواقع شرط، له اعتباره في نقده وتقييمه، إذ أن «الرواية التاريخية والتي تتخذ من التاريخ تكئة لها، أو تقيم بعضاً من شخصياتها الروائية عن شخصيات تاريخية، عليها أن تلتزم، وتخضع في تقييمها على أساس توافقها مع الصدق التاريخي الواقع خارجها»[2] ولكن مع انتهاكها الصارخ لهذا المقياس والشرط الهام، إلا أن ذلك لم يمنع حكومة النمسا - وربما قصد إغاظة المسلمين وإثارتهم - من منح صاحبها المرتزق جائزة الأدب الأوربي لعام 1994ف[3] وإن هذا الإجراء الاستفزازي السخيف من جملة ما يدفع ببعض المسلمين إلى تأكيد اعتقادهم وأيضاً إقناع الآخرين بأن العالم الغربي عدو للإسلام لدود، ومتآمر على العالم الإسلامي، فلذا يصطنع كل وسيلة تؤدي إلى تشويش عقيدة هذا العدو، وتشويه صورته، وإلا فكيف نفسر الحدث: «وقد رأينا كيف استغل الإعلام الغربي تحرك المشاعر الإسلامية تجاه كتاب الآيات الشيطانية رامياً المسلمين بالتّعصّب وضيق الأفق والحد من حرية الفكر الخ، ثم كيف استطاع الإعلام الغربي عن طريق تصوير المشاعر الإسلامية التي دفع إليها المسلمون دفعاً الرفع من نسبة مبيعات هذا الكتاب التافه الذي لا يساوي شيئاً ولا يحدث أثراً لو أن القضية أخذت مساراً آخر. . .»[4].

---

(1) «في حوار مع رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان: حسن حامد حسان» ص50، من مجلة منبر الإسلام، ع/ 12، س47، 1409هـ = 1989ف، القاهرة: مصر.

(2) محمد روميش: «آيات شيطانية والصدق مع الواقع الخارجي والواقع التاريخي» ص69، من مجلة الهلال، ع/ 4 / س96 = 1409هـ = 1989ف، القاهرة.

(3) ينظر: مؤامرة الغرب على الإسلام والمسلمين، ص107 سبق ذكره.

(4) الدكتور محمد الزيادي: انتشار الإسلام، ص9، ط2/ 1415هـ= 1995ف، دار قتيبة، دمشق، سورية.

إذن، فثمة دافع قوي وكبير يقف من وراء كل ذلك، يؤكد القول بعداء العالم الغربي للمسلمين وتآمره عليهم ولعل في الأحداث الجارية الآن ما يشهد لذلك بشكل أوضح، مع كثرة التعليلات والتحليلات التي يخدع بها المسلمون وتخدر بها مشاعرهم من أجل الإعداد لتصويب الضربة القاضية نحوهم جميعاً ما لم يمن عليهم الله برشده وبرحمته، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولكن؛ على خلفية هذه النظرية، وهي اليوم سائدة في أوساط المسلمين إلى حد ما، لنا أن نتساءل وبخاصة في قضية سلمان رشدي وأختها، عما دفع بالمسلمين إلى الإيقاع بأنفسهم في هذا الشرك الإعلامي المكيد مع وجود إمكانيات فكرية وأدبية للرد الإعلامي الرادع المقنع؟!!

وربما هذا ما حاول الإجابة عليه من قال: «لم يكن سلمان رشدي مستحقاً لرد علمي يفند سخافاته وتجاوزاته التي اشتمل عليها عمله المسمى (آيات شيطانية). وذلك لأن الرد الذي يفند أو يصحح، إنما يتجه إلى الأعمال التي تقوم على الرأي أو في أقل تقدير تدعيه، لكن عمل (سلمان رشدي) ليس رأياً أو ادعاءً لرأي، إنما هو سب وتطاول، وفجور وعربدة، فهو أشبه بسكران قد أفرط في الشراب أو مجنون مسه طائف من الشيطان، فإذا هو يطلق لسانه بكل بذيء وقبيح، ويكون من غير المناسب لحالته أن نخاطبه بما يخاطب به الأسوياء الذين فيهم ما يستحق خطاب العقلاء!!»[1].

ولعله، لذات السبب، لم يعن ديدات بمحاولة مقابلة الرجل من أجل مواجهته حوارياً، آخذاً في الاعتبار ما يكتنف ذلك من صعوبات تقرب من حدود المستحيل، ولا سيما وسط ما يحيط به من إجراءات أمنية مركزة، ومن ثم لجأ إلى استخدام وسائل أخرى للكشف عن حقيقته، وتنبيه الناس إلى خبثه وإلى ما خفي عليهم من نيله واستخفافه، ليس بالمسلمين فحسب، وإنما بكافة المعتقدات، والقيم الأخلاقية التي يحرص شرفاء العالم بأسرهم على صيانتها، والتصدي لكل من وما يواجهها بالتهديد.

هذا... وقد تهيأ مما قام به ديدات في هذا الخصوص أسلوب مفيد في الخطاب الدعوي المعاصر، مما لابد من الوقوف عنده، بتسجيل أهم عناصره، صدوراً عن كتابه: (شيطانية

---

(1) من تقديم الأستاذ أحمد هيكل لكتاب: رسائل إلى سلمان رشدي، ص11، سبق ذكره.

الآيات الشيطانية، وكيف خدع رشدي الغرب) وذلك فيما يلي ختاماً لهذا المبحث :

. . . فعندما استعر ضجيج الترويج والهجوم الإعلامي على العالم الإسلامي بشأن قضية المارق سلمان رشدي لم يجد ديدات بدأ من الرد والتصويب بالكتابة، وبالمحاضرة معاً، فقام بنشر كتيب يسفه بها رواية الآيات الشيطانية، ويفضح فيها كاتبها، ويبصر مؤيديه إلى حقيقة وخطورة الرواية، بما هم في أغلبهم يجهلونه لعدم اطلاعهم عليها. وللغرض ذاته اتجه إلى العاصمة البريطانية لإقامة محاضرة عامة حول الموضوع، تنويراً للرأي العام المحلي فالعالمي، بما يكفل الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويضمن إدانة الجميع لمحتوى الرواية ومنشئها. وبهذا فهو يفتح باب الحوار على كتاب الآيات الشيطانية، وليس معه، إذ بالإضافة إلى الموانع الأمنية، يبدو لي أن الشيخ ديدات يترفع بنفسه ويصونها عن الانحطاط إلى مستوى محاورة شخص وضيع كسلمان رشدي، ومن على شاكلته.

وفي متابعتنا لهذه المحاضرة المشهورة في قاعة ألبرت بمدينة لندن، والتي حضرها حوالي ستة آلاف شخص نخرج بجملة من المعطيات المفيدة نحاول تلخيصها مصنفة في الجوانب الآتية :

1- فمن حيث الإعلام والاستقطاب : فقد واجه ديدات مشكلة امتناع الصحف عن الإعلان لمحاضرته ضد رواية سلمان رشدي، باللجوء إلى الإيهام بأن الموضوع هو (تحد لعمالقة الأدب البريطاني العالمي) فكسب بهذا الإجراء بغيته، ليكشف لغيره أنموذجاً للتعامل الدعوي مع المواقف الحرجة، هو : كيف يمكن للداعية التغلب على بعض المشكلات بالمناورة والحكمة، من أجل الوصول أخيراً إلى المطالب الدعوية الشريفة وإن بتقديم تنازلات شكلية وعرضية ما دام ذلك يضمن الوصول إلى الأهم والأعظم من الأهداف؟[1]. وأيضاً، كيف يجب من منظور دعوي السعي لإعلان الخطاب الإسلامي، والدفاع عن المسلمين، وتبرئة ساحتهم في القضايا ذات الأبعاد الإعلامية الحساسة، باتخاذ كافة السبل والوسائل الكفيلة بذلك، وباختيار أحسن المواقع الملائمة بكل الاعتبارات، لأداء الرسالة الواجبة، وتحقيق الهدف المنشود؟.

2- ومن حيث أسلوب الخطاب : يبدي ديدات احتراماً سابغاً، وتقديراً عالياً للمخاطبين في هذه المحاضرة وغيرها، وهذا بدليل أنه لما أراد - خلافاً لعادته - الخروج عن أسلوبه

---

(1) ينظر : شيطانية الآيات الشيطانية : ص69 - 70 مصدر سابق.

الهادئ الرفيع إلى أسلوب يميل إلى رد الفعل، والمعاقبة بالمثل على نحو لا يخلو من العنف والبذاءة في التعبير بما يعكس مدى الانفعال، ومن ثم رد الفعل، تجاه صنيع سلمان رشدي الشنيع، بالرغم من شدة حرصه على التزام معايير الأدب والوقار في القول والفعل، لم يعمد إلى مفاجأة المخاطبين بهذا الموقف الاستثنائي الجديد، وإنما عمل على إشعارهم به في غير ما مرة، وهو يعتذر إليهم بقوله: «يستحيل تنظيف مربط الخيل دون أن تتلوث الأيدي»[1].

وهذا الأسلوب في الطرح يضفي على الخطاب القدرة على الاستمالة والتأثير، ويكسبه مبررات القسوة في التعبير، كما يلطف من حدة ما به من ألفاظ قاسية ووقحة.

3 - أما من الجانب الفكري الموضوعي: فقد اهتمت المحاضرة بقضية تنبيه رعاة سلمان رشدي، ومن لهم كيد الدعاية بروايته، والإثارة بها، إلى أنهم أيضاً - كالمسلمين وغيرهم - تعرضوا لإساءته البالغة إليهم، وكان لهم منه ما لا يحسدون عليه؛ إذ كال سلمان رشدي أوفر الحظ من الشتم والقذف لكل البريطانيين عموماً، ولرئيسة الوزراء آنذاك، وللملكة على وجه الخصوص، فنال منهم جميعاً، أخلاقياً بأرذل الألفاظ، وأفسخ الأساليب.

وفي هذا السياق يورد الشيخ ديدات أمثلة على الألفاظ الساقطة الوضيعة في رواية الشيطاني الذي ضرب الرقم القياسي فيما يتحفظ الشرفاء من استخدامه ولو على سبيل القلة والضرورة.

وإمعاناً في تعرية سلمان المارق، يعزز ديدات نقده الهادم لوقاحته، بالإشارة إلى الاعتراض الذي قوبلت به روايته من قبل عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الغربي على صعيدي الفكر والدين، مستعرضاً مواقفهم في تشنيع عمل سلمان المارق، ووصفهم إياه بأنه انتهازي وخطر، وأنه ما كان ينبغي للرواية أن تنشر[2].

وعبر دائرتي الفكر والدين، ينتقل ديدات إلى الدائرة السياسية لمناقشة القضية بطريقة عقلانية واضحة الموضوعية، في زحام الضجة الإعلامية، والتذرع الغربي

---

(1) ينظر: المصدر السابق، ص14.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص22- 26.

بدعوى حقوق الإنسان، وحماية حرية الفكر في حين أن واقعاً مماثلاً سبق وأن واجهته دوائر سياسية في بريطانيا بطرد الجاني، وحظر دخوله إليها، لسبب هو أبسط وأهون بكثير مما اقترفه سلمان المارق[1].

ومن هنا ينتقد ديدات الازدواجية الغربية في التعامل مع القضايا والمواقف المتماثلة، ملقياً بعبء لومه على أولئك الذين تمثلوا موقف المساندة، وتبنوا مهمة دعم وتشجيع رشدي، بتوقيع إمضاءاتهم، ودفع تكاليف النشر الصحفي لبيانهم المؤيد له، وهم مجموعة من الشعراء، والسماسرة، ورجال الفكر والإعلام والصحافة. ويرى الشيخ ديدات أن هذه المساندة الغوغائية تعكس مدى ما أصاب العالم الغربي من فن تمجيد الرذيلة، إذ يبلغ السخف والسفه مداهما، حين تتلى رواية الآيات الشيطانية على الملأ في كل من بريطانيا وأمريكا بانتظام كانتظام المواظبة على أداء طقوس وشعائر دينية مقدسة[2].

وقد ترتب على هذا التأييد والتبجيل للرواية الشيطانية في الغرب إيحاء سلبي وشيطاني استطاع صاحبها أن يمارسه على الناشئة هناك، مما ظهر بوضوح فيما ترجمته الانحرافات، ومظاهر الاغتصاب المتكررة، والتي تعتبر وليست إلا من إفرازات التأثر بهذه الرواية، وغيرها من المؤثرات الشيطانية الساقطة.

ولإقناع أهل الغرب بصحة ما يقوله عن الرواية الشيطانية، ولتجنيدهم أيضاً لمواجهتها، أو الإعراض عنها يحاول ديدات تتبع موارد ما يخص غير المسلمين في الرواية من أقوال فاحشة ماجنة، وألفاظ بذيئة جارحة، متعمداً قدر الإمكان إغفال الحديث عن المواطن الخاصة بالمسلمين فيها. ومؤدى هذا الأسلوب الحكيم من أساليب محاربة الدعايات الشائعة، هو الوصول بالمخاطبين ومعهم إلى الإثبات والتأكد من أن الرواية الشيطانية تشهير وامتهان للإنسان أي إنسان، وهتك لكرامته، ونيل وطعن في كل ما يمت إلى القيم والأخلاق بصلة، إنها حقيقة لسبة خارقة لحرمة الناس جميعاً بوقاحة سافرة لا منتهى لها[3].

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن ديدات يعنى بتحسيس كل من الرجال والنساء، مشاركة

(1) ينظر: المصدر السابق، ص28، 42.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص47 – 48.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص45 – 58، 82.

ومغاربة، متدينين وعلمانيين، وغيرهم، بما يخصهم من تعريضات وشتائم في رواية سلمان المارق، مما قد يكونون غافلين عنه، والحال أن صاحبها يريد على حد قوله أن «يجري مجابهة نهائية بين مختلف العقائد الدينية الرئيسة في العالم»[1].

ولذا، يتطلع ديدات إلى استقطاب وحشد قطاعات واسعة وعريضة من كل الناس لتأييد رسالته الرامية إلى إدانة رشدي، والتصدي لروايته التي يدعو ديدات في ختام محاضرته إلى مواجهتها بقوله: «أيها الاخوة والأخوات الأعزاء: إن الآثار السيئة الناجمة عن كتاب الآيات الشيطانية لهذا الشيطان المدعو سلمان رشدي آثار بعيدة المدى، وهي أكبر من أن يتصدى لها شخص واحد ...»[2].

وإني أعتقد أن خطاباً يدور في هذا الإطار، ويوجه إلى حضور في هذا الحجم كماً ونوعاً، له أهميته وتأثيره، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار قلة وضيق فرص القراءة في خضم الحياة المادية الطاحنة، بما يعني أن شخصاً واحداً فقط من بين ستة آلاف حاضر، قد لبى طلب ديدات برفع اليد للإشارة إلى قراءة صاحبها للرواية الشيطانية، وذلك بالرغم من أن مؤلفها قد تلقى ثمانمائة ألف دولار مقابل حق النشر[3]!!، أما الباقون فلم يتعد علمهم بالرواية، وموقفهم من قضيتها عتبة ما أوحت به وسائل الإعلام، وروجت له ضد المسلمين. ومن هنا يأتي ديدات بخطابه المضاد، لمحو الظلال القاتمة، وإحلال الحقيقة محلها بوضوح، وإتقان.

ليتضح للجميع أن الهدف من تأليف الرواية كما يقول الأستاذ الجوهري: «هو الإساءة إلى الدين الإسلامي، والإساءة إلى نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، والإساءة إلى صحابة نبي الإسلام، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، ولم ينج من إساءة خيال سلمان إنس أو ملاك أو جان، حتى جبريل، الروح الأمين، حوله إلى شيطان .. وزعموا أن هذه التخيلات المريضة هي أعظم رؤيا ارتآها فنان منذ بدء الزمان حتى نهاية القرن العشرين»[4].

4 - الإشادة ببعض المواقف الشريفة حيال مصادرة الرواية الشيطانية: في إطار حملته الدعوية

---

(1) نقلاً عن المصدر السابق، ص83.

(2) المصدر نفسه، ص- 84.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص20.

(4) من تعقيب المترجم للمصدر نفسه، ص103.

ضد الرواية الشيطانية وفي نطاق التشجيع والاستقطاب خصوصاً، تقدم ديدات بالشكر إلى حكومة الهند لاتخاذها المبكر قرار حظر تداول الكتاب في بلادها، وقال في خطاب مفعم بالسعادة والارتياح: «إنني أهنئ رئيس وزراء الهند لتصرفه الحكيم . .» إن الكتاب الشيطاني لم يكن ليجرح رعاياه المسلمين في الهند، ولكنه كان سيجرح مشاعر أصحاب الديانات الهندية الأخرى المتعددة في الهند . . إن رشدي لم يستثن أحداً[1] .

وكذلك أيضاً حكومة جنوب إفريقيا، إذ ضربت بحظر على تداول الكتاب ومنعت كذلك المؤلف من دخول البلاد بطرده من أحد مطاراتها، وكان هذا الموقف مبنيّاً على الدور الذي قام به ديدات نفسه إذ قدم صفحات من الرواية إلى سلطات بلاده، واقترح عليهم ما تحقق بشأن كل من الكتاب والكاتب[2] .

والظاهر فيما يقال، أن هيئات علمية إسلامية اتصلت بالسلطات البريطانية للتصرف العادل حيال الكتاب، ولكنها لم تستجب بدعوى أن المؤلف لم يستخدم صراحة اسم النبي عليه الصلاة والسلام فيما كتبه[3] .

وإني لا أدري كيف بلغت الغفلة والبلادة ببعض الناس في تلك البلاد إلى حد أنهم لا وعي ولا استيعاب لهم إلا بالظاهر من الأقوال. والمصرح به من الأسماء !! فهل يعني هذا، أنه قد تبخرت منهم ينابيع القدرة العلمية والأدبية التي طالما تشدقوا بريادتهم العالمية في مجاريها وميادينها، أم هو تأكيد لاعتقاد بعض المسلمين في عامة أهل الغرب بأن عداءهم للإسلام أبدي ومستكن في النفوس، وأن المؤامرة مبيتة ضد أهله ما بقي الغرب غرباً والمسلمون مسلمين . !!

5 - ثم إنّ موقفه أخيراً من الأساليب الانفعالية التي تعاطى بها المسلمون مع قضية سلمان المارق، فإن ديدات ينتقدها في جملتها، مسجلاً على المسلمين سلبية الاندفاع للتصدي، بأساليب هي في أغلبها تخدم أعداء الإسلام، وتبعث في نفوسهم الارتياح، إذ توفر لهم المزيد من فرص الطعن، ومن ثم يدعو ديدات إلى

---

(1) المرجع نفسه، ص 56.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص56 متناً وحاشية . .

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص100.

الكف عن المواجهات العاطفية، المتمثلة في أساليب الصراخ والعويل؛ وذلك لكي يتسنى للمسلمين قلب المائدة على وجه المتآمرين بعقلانية ورشد. وفي هذا يقول: «وعلى الرغم من كل ما أشعر به من غضب وأسى ومرارة، فإنني ما زلت أقول أوقفوا الصراخ والعويل! كفوا أيها المسلمون عن مسيرات ومظاهرات الاحتجاج (على كتاب سلمان رشدي) وأوقفوا حرق نسخ منه (تعبيراً عن سخطكم عليه). إن كل علامات الألم والغضب التي نبديها نحن المسلمين تعطي أعداء الإسلام لحظات من السرور، الذي يبعث اللذة من إيلام الآخرين»[1].

وبالرغم من توفر إمكانية تبرير تلك الأساليب، بأنها كانت وليدة ظروف طارئة ومثيرة، فدفع إليها نبل التحمس للعقيدة، وشرف الغيرة عليها، إلا أنها في رأي ديدات لا تشكل مسلكاً سليماً وفعالاً في مواجهة حاسمة لقضية كتلك، إذ توجد بدائل أكثر صرامة، وأجدر بالخطاب الدعوي تبنيها، ومن أهمها اعتماد أسلوب الحوار بنوعيه الخطابي والكتابي، من مباشر وغيره[2].

وما يقول به ديدات هنا، يعتبر توجيهاً دعوياً ذا أهمية مستقبلية في تفادي تكرار ما حدث من أخطاء ارتجالية تتصل بأساليب المواجهة والدفاع، ولا سيما مع العلم بأن ما يقدر بأربعين مسلماً في الهند وباكستان، قد قتلوا - رحمهم الله وتقبلهم - خلال مظاهرات الإدانة، ومسيرات الاستنكار، وفي أثناء عمليات حرق نسخ الرواية الشيطانية[3].

وأخيراً، نخلص من استعراض أهم عناصر خطاب ديدات في هذا الصدد، ومن كل ما سبق في هذا المبحث، إلى تأكيد أن الدعوة إلى الحوار، وإلى الأخذ بكافة الأساليب الفكرية المقنعة ذات فائدة كبرى في تحرير كل من الشاطحين والمارقين من أسر المناهج والنظريات المنحرفة والضالة، إلى سعة الإسلام ورحمته، إذ ليس أجدر بكرامة الإنسان وألزم بالإقناع من النقاش الفكري الجاد بين أطراف تتطلع إلى الحقيقة،

---

(1) المصدر السابق، ص12، وينظر: ص72، 73، من المصدر نفسه.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 14، 73 - 74. وهو كتاب شيطانية الآيات الشيطانية.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص101، وينظر: أيضا كتاب: نقد الخطاب الديني، ص74 سبق ذكره.

ولا تتردد في قبولها طالما انكشفت لها، وتأكدت من صحتها، فبأساليب مخاطبة العقل، وطرق إقناعه يتبدد ما يعلق عادة بالنفوس ضد مخالفيها من جفوة، ومفاصلة، ومن دواعي الاتهام النفسية بالكفر، والردة، والفسق ونحوها.

إذن، فيتعين دعوياً الانتقال من المواقف الانفعالية، إلى مقامات المحاورات الفكرية الناضجة التي تتضح فيها مكانة مخاطبة العقل، وفاعلية القدرة على الإقناع .

وإذا كان الخطاب الدعوي في هذا المجال يواجه على الساحة الإسلامية وخارجها أبطالاً بلا قضية، وفرساناً بلا معركة، همهم الضرب في حديد بارد، أو النفخ في رماد خامد، فيجب في معمعة المناوشات الفكرية، وفي خضم الحمية الدينية الصادقة، ألا يتلاشى الوعي بما ذكر به الأستاذ رضوان السيد في إطار البعث والتمكين لثقافة الجدل وثقافة الحياة؛ من أنه قد «عاشت النخب المتجادلة بعضها مع بعض عبر العصور في الحواضر الإسلامية وأنتجت علمياً وثقافياً وفلسفياً تراثاً سمته الرئيسة الإصغاء لمتطلبات الحقيقة العلمية والمزاملة وتسليم الأطراف بحق الجميع في الاستقرار والاستمرار»(1) .

أما بالنسبة لخطاباتهم وأدبياتهم فسرعان ما تلحقها صهوة الموت، ويدركها التهافت دون أن تنطلي على أحد، وذلك بمجرد توظيف خطاب دعوي معاصر، يتسم بالفاعلية والمرونة، ولا يضيق بأي فكر سليم وإن كان جديداً، كما لا يتعصب لأي فكر قديم، ما لم يكن صحيحاً(2) .

وسوف ينحسم الصراع القائم الآن في العالم الإسلامي بين الخطابات المتنافرة، لصالح الخطاب الأكثر أهمية وأصالة، وله في وعي ونفس الأمة جذوره الممتدة، وفاعليته الحيوية المتجددة .

على أن كل ما يطمح إليه هذا المبحث هو أن يوفق للإسهام في التهيئة لذلك، بفتح أبواب تناظر فكري حكيم وحاسم بين الخطاب الدعوي وغيره، بما يقضي على ظواهر

---

(1) "ثقافة الجدل وثقافة الحياة" ص12، من مجلة الاجتهاد، ع/ 28، سبق ذكره.

(2) ينظر: مدارس الفكر العربي والإسلامي المعاصر، ص84، سبق ذكره.

التلاعن، وأعراض التشاحن، ويهيء لمناخ التقارب، وفرص الإقناع والاقتناع.

والواقع، أني أدرك أن هذا الأمر - كغيره من قضايا ومجالات هذا المبحث - موضوع بحث خاص ومستقل، ولعلي - أو غيري - أجد القدرة على تحقيقه في يوم ما، إن شاء الله تعالى، ولكن قبل ذلك يحسن في هذه الرحلة العلمية الطويلة توجيه سفينة هذه الرسالة إلى أن ترسو عند شاطئ مبحثها الأخير، وهو (مجال) آخر، موضوعه: الحوار بين الخطاب الدعوي والفكر المادي الإلحادي.

❖ ❖ ❖

المبحث الثالث

الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي

ختامًا لكل ما تقدم من مجالات مقترحة باعتبارها ممكنة لتطبيق المنهج الديداتـي، وأيضاً تتمة لهـذه الدراسـة في موضـوع الحـوار الدعـوي، يـبرز الفكـر المـادي الإلحـادي متميزاً بأهمية خاصة، حيث يفرض نفسه بإلحاح شديد في عالمنا المعـاصر، ويقـف أمـام كل خطاب ديني أو قيمة روحية، في مواجهة، لا نجد للشـيخ ديـدات - وهـو كمـا قيـل داعية العصر - مبرراً في الإعراض عنها، بالرغم من وجود إشارة منهجيـة عنـده بشـأن عـرض نـاجح ومقنـع للخطـاب الدعـوي علـى المشـتغلين في مجـال العلـوم الكونيـة والتجريبية، مما سنقف عنده في حينه من خلال هذا المبحث.

على أن طرح هذه القضيـة، مـن منطلـق البحـث في المنهجية الدعويـة المؤثـرة، لا تعني توجـه إرادة الـدارس لمعالجـة مشـكلة الفكـر المـادي الإلحـادي بصـورة عامـة، وفي مختلف الظروف زماناً ومكاناً. فذلك شـأن علمـي آخـر، لـه سـعته وأهلـه، بـل وإنمـا يهمنا من الأمر مـا يتصـل منـه بموضوعنـا هـذا، وبخاصـة فيمـا يدخـل ضمـن المجـالات التطبيقية الممكنة لمنهج الشيخ ديدات .

والإلحاد كـأي ظـاهرة فكريـة فرديـة كـانت أو اجتماعيـة، لا يمكـن التعـامل معهـا إيجابـاً أو سـلباً دون التعـرف علـى ماهيتهـا، واستكشـاف طبيعتهـا، وأسـبابها، ومرتكزاتها، وتاريخها. . . إلخ، للوصول إلـى مـا يضمـن بلـوغ الهـدف المتوخـى مـن وراء التعامل مع تلك الظاهرة.

ومـن هنـا، يعـرف الإلحـاد بأنه في اللغـة «الميـل والعـدول عـن الشـيء، والإلحـاد في الدين، الميل عن الدين الحق. وهو أقسام، فقـد يكـون ذلـك عـن طريـق الشـرك وإعطـاء خصـائص الألوهيـة لغير الله عـز وجـل، أو بإشـراك آلهـة أخـرى مزعومـة معـه سـبحانه وتعالى، وقد يكون الإلحاد بإنكار وجود الله تعـالى»[1]. والظـاهر أن هـذا المعنـى الأخـير هو أكثر شيوعاً؛ لاستقرار العرف عليه. وهو الذي أشار إليه وإلى تاريخ ظهوره الأسـتاذ أنور الجندي حين قال: «الإلحاد في التعبير الغربي هو نفي وجود الخالق المبدع للكائنـات،

---

(1) الموسوعة العربية العالمية، ج 2/ 528، ط 2/ 1419هـ = 1999م الرياض - السعودية .

وهو تعبير عن نفي وجود الله، والإلحاد ضد الإيمان، وقد بدأ الإلحاد في القرن السابع قبل الميلاد على يد الفيلسوف طاليس، وتتلمذ له كثيرون وكان مرماهم جميعاً التدليل على قيام الوجود بنفسه مستغنياً بقوته الذاتية عن مدبر حكيم فوق عالم المادة، وقد دارت بين الإلحاد والإيمان منذ ذلك الوقت وإلى اليوم معارك متعددة»[1].

وبحسب هذا المفهوم، فإن الإلحاد يتضمن نفي النبوة والكتب المنزلة، والحياة بعد الموت، بما فيها من حساب وجزاء.

وعن تلك المعارك التي لا تزال دائرة بين الإلحاد والإيمان، فقد كانت تشهد وطيساً حامياً في الظروف التي يتشجع فيها الملحدون على مهاجمة الدين بدعوى وضعيته، وأن الأديان في تاريخ البشرية إن هي إلا ظواهر عارضة، نشأت نتيجة خرافات وأوهام لا يقوم على صحتها دليل علمي.

وعلى إثر ذلك وتبعاً له، احتدم صراع عنيف في أوروبا بين العلم والكنيسة خلال القرون الثلاثة الأخيرة، انتهى بانهزام الكنيسة أمام أنصار العلم التجريبي، ومن ثم اتخذ هؤلاء من تلك المساجلات والوقائع ذريعة لإنكار كل ما يمت إلى الدين بصلة أساسية لا غنى عنها في أيّما دين يتضمن فكرة الإيمان بالله[2].

على أن أسباباً فكرية عززت من حدة هذا الصراع بين الجانبين، ولا سيما عندما اتخذ أتباع العالم الطبيعي دارون[3] من نظريته في أصل الأنواع، وفكرة النشوء والارتقاء مسوغات علمية للتشكيك في حقائق الدين. والقول بأن الإنسان وليد المصادفة البحتة، ولا وجود لخالق لهذا الكون وما فيه يتصف بأنه واجب الوجود[4].

---

(1) الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، ص 212، دار الاعتصام، د، م، ن.

(2) ينظر: الموسوعة العربية العالمية، ج 2/ 528، سبق ذكره.

(3) دارون: عالم حيوان إنجليزي (1809- 1882م) اشتهر خصوصاً بمذهب التطور، وقد أثارت أفكاره حملة رجال الدين وأصحاب النزعة الروحية ضده، ينظر: موسوعة الفلسفة للدكتور عبد الرحمن بدوي، ج1/ 473-474 ط1 / 1984م المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.

(4) ينظر: الشبهات والأخطاء الشائعة، ص 136، 214، سبق ذكره.

وقد ترتب على استفحال ظاهرة الإلحاد في عالم العصر الحديث باستنادها إلى الفلسفة المادية هيجان موجة الإباحية، وانغراق الملحدين وأتباعهم في حضيض نزعات بهيمية تبتذل المقدسات، وتهدد كافة القيم العليا، التي لا بد منها؛ لكي تستقيم الحياة، ويهنأ الإنسان بكرامته، وليمارس وظيفته الحضارية السامية في هذا الوجود.

ولذا كتب أحد الأساتذة عن شيوع ظاهرة الإلحاد في هذا العصر من جانب، وضرورة مواجهته من جانب آخر، يقول: «ولا أعرف عصراً انتشر فيه الإلحاد، وكثرت وسائله، وتنوعت كهذا العصر . . . وعلينا أن نبذل كل جهد مخلص، ونسلك كل طريق من شأنه أن يقنع أو يفحم . . هذا هو الأهم والأساس في هذا الزمن العصيب الغريب»[1].

لا شك، في أنه ظاهرة للعيان ما يجتاح عالم اليوم من تيار مادي عارم، من شأنه إن استمر بالرغم من ظهور ملامح إشراقات روحية متنامية في أوساط الشعوب أن يعرض الحياة الإنسانية لمخاطر نفسية وسلوكية رهيبة، وتدهور جسيم للأخلاق والقيم الفردية والاجتماعية. ومن هنا يعتقد البعض وهم على صواب في ذلك بأن التحديات الراهنة بما في مقدمتها تحدي الفكر المادي الإلحادي، هي أعمق وأشمل من جميع التحديات التي واجهها الإسلام من قبل؛ ذلك «أن قاعدة الإسلام الأولية هي الاعتقاد بوجود الله الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان، فهو واحد، وحقيقة واحدة لا يأتيها الباطل من قريب أو بعيد، وكل ما حولنا اليوم يتحدى هذه الحقيقة، يتحداها بالإنكار أو اللامبالاة، ويتحداها بالنفي أو الاستهزاء، ويتحداها بنقضها أو باعتبارها غير ذات موضوع بالنسبة لما هو عليه الإنسان وما هو صائر إليه»[2].

ولعل من أبرز الشواهد على كبر تحدي الإلحاد المعاصر للمعتقدات الدينية، قولهم: بأن الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر قد ألقى في أيامه دعوة عالمية تحدى بها المؤمنين في كل الأرض بأن يبعثوا إليه للجدال في الله، بمن يختارونه

---

(1) محمد جواد مغنية: شبهات الملحدين والإجابة عنها، ص8، ط/ 1986م، دار مكتبة الهلال، + دار الجواد بيروت – لبنان.

(2) حسن صعب، الإسلام وتحديات العصر، ص 13، وينظر: أيضاً: ص 11– 13 من المرجع نفسه، وقد سبق ذكره.

منهم لكفاءته العلمية والحوارية، وعليه تكاليف تنقلاته، ونفقات سكنه، وإقامته، ولكنه مع هذا التحدي الصارخ لم يلق من قبل المعنيين غير الصمت والتجاهل[1]!!

ومن أعراض ومظاهر الفكر المادي الإلحادي الذي طغى في القرن العشرين أكثر من غيره، ما تلخص في قول أحد علماء المسلمين: «حقاً إن الإلحاد قد انتجع من نفوس أهل هذا الجيل مكاناً خصيباً وظهرت طلائعه وكتائبه في كل مكان في دور العلم، في النواحي الأدبية، في المحافل الخاصة، وظهرت في الصحف والمجلات، والمؤلفات الحديثة على أشكال متنوعة وصور مختلفة، ومن وراء هذه القوى المتسلطة عصابة من السوء تمدها بالكفاية والمعونة»[2] وهذا من أجل نشر الفساد في العالم، والتهيئة لاستذلال الشعوب، واستتباعها.

ومن جهته، يستقصي ويستعرض لنا الأستاذ يحيى هاشم منازع الفكر المادي الإلحادي في شتى جوانبه العلمية والبحثية: كمجال الفكر الاجتماعي، وفي قضايا التشريع، وفي تدوين التاريخ، إلى أساليب التربية، فمجالات دراسة الأديان المقارنة، وفي غيرها من البحوث المتعلقة بالإسلاميات تطلعات إلى الفكر المادي الإلحادي، وتتمثل في التشكيك في القراءات، وتقديم القصص القرآني على أنه نوع من الفن الروائي، وفي مواقف إنكار دور السنة في التشريع[3]، إلخ وكل ذلك بدعوى إنكار منهج العلم الحديث لكل ما لا يخضع للحس والتجربة، وأخرى كذوبة ترى في العوامل والدوافع المادية الموجه الرئيس والأساسي لمسيرة التاريخ، ولحركة الحياة، والإنسان والمجتمع.

وإن من أوضح الشواهد على تلك الأعراض التي قد تكون بينة للناس اليوم في عصر الثورة المعلوماتية الهائلة، ما يعاني منه العالم الغربي من حياة مادية جامحة، ومن مظاهر العري، وظواهر الإباحية بلا حدود ولا قيود. وهي سلوكيات ناجمة عن

---

(1) ينظر: شبهات الملحدين والإجابة عنها، ص 10، سبق ذكره.

(2) محمود أبو العيون: "مهمة رجل الدين في الوقت الحاضر" ص 76، من مجلة الهلال، ع 11، من 42 = 1352هـ = 1933م.

(3) ينظر: يحيى هاشم: "منهج جديد لعلم الكلام" ص 544- 556، من مجلة الأزهر، ج 6، س 44= 1972م.

تبعات الثقافة المادية التائهة. والتي جرّت في أحيان كثيرة إلى الإلحاد، مثلما يؤدي هو الآخر بمعتنقيه إليها.

وهذا التفاعل بين الظاهرتين، مما يقودنا للبحث في جملة الأسباب التي تولدت، ونشطت بفعلها النزعات المادية. وهي أمور خمسة كما يلخصها الأستاذ العقاد في العناصر الآتية:

1 - كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ومن الأجرام السماوية على العموم.

2 - ظهور القوانين الطبيعية التي سميت بالقوانين المادية والآلية .

3 - مذهب النشوء والارتقاء، والمراد به ما سار عليه أتباع دارون من بعده من اعتقاد إلحادي في أصل الأنواع وتطورها .

4 - علم المقارنة بين الأديان والعبادات. وقد ترتب عليه عند البعض إلقاء نظرة تماثل إلى كافة الأديان على أنها أساطير.

5 - مشكلة الشرّ في العالم، والذي تفاقم في القرن العشرين، جرّاء الحروب الكبرى، وما نزل بالإنسان خلالها من مأساة ومعاناة، فَقَدَ أحياناً بسببها الثقة في القيم والمبادئ، وتعرض لقلق شديد، أدى به إلى اهتزاز بنية اعتقاده بإله خالق للكون مدبر ومنظم له[1].

وبالإضافة إلى هذه الأسباب، نرى أن للصهيونية دوراً مركزياً في إشاعة ثقافة الإلحاد، والانحلال، في أوساط الشعوب والمجتمعات الإنسانية؛ تمهيداً لإحكام السيطرة عليها، في إطار تحقيق أهداف الحركة الصهيونية، وبموجب مقرراتها وطموحاتنا الكبيرة، في استعباد واستغلال شعوب الأرض قاطبة .

كما أن من الأسباب أيضاً أن الإلحاد بمعنى إنكار الألوهية، والذي منشؤه العالم

---

(1) ينظر: عباس محمود العقاد: عقائد المفكرين في القرن العشرين، ص 22، منشورات المكتبة العصرية صيدا- بيروت. د.ت.

الغربي كان بمثابة موقف متمرّد على أوضاع ومعتقدات كنسية بالية، ولم يكن يواجه ديناً صحيحاً كالإسلام، بل وإنما هو تحد ورفض لديانة صليبية باطلة بمرجعية كنسية فاسدة. ولذا نلاحظ أنه حتى لما ظهر في أوساط المسلمين عناصر معدودة بإلحادها، فقد «اتجه الملحدون في الروح العربية إلى فكرة النبوة والأنبياء وتركوا الألوهية»[1].

وربما كان ذلك بدافع التحلل من القيم الدينية، والتهرب من تكاليف الشرع، كما قرّرته رسالة الإسلام الخاتمة بحسب ما ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، مع العلم بأن هذا الدافع في حد ذاته يشكل عند الدكتور عبد الرحمن بدوي أحد عوامل الإلحاد البارزة، وبخاصة عند من وصفوا بـ «عصبة المجان» من شعراء ما سلف من عصور ودول إسلامية[2].

وفضلا عمّا تتيحه وسائل النقل والاتصال من إمكانيات وفرص الانتشار السريع للأفكار والمعتقدات في عالمنا المعاصر، فمما له أيضاً صلة بأسباب وعوامل امتداد الفكر المادي الإلحادي في هذا العصر، أن الشيخ محمد الغزالي يرى أنه سوف يظل «الإلحاد بخير، ومستقبله إلى ازدهار، ما بقي التظالم يسود العلاقات بين المتدينين، وما بقيت علل القلوب توسع الفجوات بينهم»[3] وهو في هذا الرأي يتفق مع العقاد في الخامس من الأسباب التي وردت معزوة إليه في مطلع الحديث عن أسباب تطور وانتشار الفكر الإلحادي.

وهكذا تبدو لنا خطورة هذا الفكر انطلاقاً من تعريفه، واستناداً إلى أعراضه، وعوامل انتشاره، ومن ثمّ يتحتم على حملة الخطاب الدعوي العمل على مقاومته، والقضاء عليه، وخصوصاً مع علمنا بأن من بين المسلمين اليوم من يدعي ويقول مغالطاً بأن «المؤمن بالمسائل الغيبية كالجنة والنار والآخرة والجن والملائكة لا يعتبر مؤمناً حسب

---

(1) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص5، ط 2/ 1980م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. وينظر: أيضا كتاب: حسني يونس، الأساطير، المذهب الدهري عند العرب، ص 154، ط 1/ 1404هـ=1984م، دار البيان، مصر.

(2) ينظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص 163.

(3) محمد الغزالي: "الإلحاد في ازدهار ما بقي التظالم مستمرا" ص 19، مجلة لواء الإسلام، ع 8، س45= 1411هـ = 1990م.

المعايير القرآنية إن هو لم يعمل الصالح ، كما أن الكافر ليس الذي يرفض الغيب بل هو الكافر بالقيم الإنسانية والمتعدي على حقوق مواطنيه ، ونستنتج من كل هذا أن المحدد في الإيمان والكفر ليس إلا العمل أي الممارسة الاجتماعية»[1] . وقد أبعد صاحب هذا القول النجعة في سراب المغالطة والوهم ، فانتهى به التيه إلى نتيجة إلحادية ومردودة ، صاغها نصاً في قوله : «ونظراً إلى أن ظروف العصر تتطلب لغة تعبر أكثر عن مصالحنا وأهدافنا وتكون أكثر قوة على كشف هذا الواقع وتحليله فإننا انتهينا إلى عجز مصطلحي الإيمان والكفر عن تحليل واقعنا المعاصر بكل تعقيداته ، وضرورة الاستعاضة عنهما بمصطلحات جديدة ، لعل الوطني والعميل أو اليساري واليميني أو الرجعي والتقدمي تكون أكثر منهما جذرية وكفاءة في التعبير عن معاني وظروف العصر»[2] .

ولعل هذا يكفي دليلاً على مدى انتشار واختراق الفكر الإلحادي لأوساط دينية محضة ، ممّا يلزم بالسعي الدعوي الواعي لمقاومته فكرياً بالحوار مع مختلف نزعاته وفصائله ، ولكن مالسبيل والوسيلة إلى تلك المقاومة المطلوبة بالخطاب الدعوي بمختلف ألوانه ، ومدارسه؟ .

أولاً : الفكر المادي الإلحادي بين ضرورة المقاومة الدعوية وطرقها :

تستمد عملية المقاومة الدعوية للفكر المادي الإلحادي ضرورتها ومشروعيتها معاً من منطلقين أساسيين : فطري وعلمي ، فمن الجانب الفطري انعقد إجماع بحثي لدى دارسي تاريخ الأديان والمقارنة فيما بينها على «أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرّقي ودركات الهمجية . وهكذا ظهر أنها أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس»[3] .

---

(1) لطفي الوسلاتي : "الإلحاد والإيمان ومتطلبات العصر" ص 95 ، مجلة الوحدة ، ع 13 ، س 2 = 1406هـ = 1985م باريس .

(2) المرجع نفسه ، ص 96 .

(3) محمد عبد الله دراز : الدين . . بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص 82 ، ط / 1410هـ = 1990م ، دار القلم . الكويت .

وبناء على هذا الاعتبار يصل الدكتور دراز من خلال جولاته البحثية المعمقة في قضايا الظاهرة الدينية تاريخًا وماهية ووظيفة، إلى قناعة علميّة مؤدّاها أن «الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها، بل إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه (حيوان مفكر) أو بأنه (حيوان مدني بطبعه) يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه حيوان متدين بفطرته»[1].

ومع ذلك فالتدين محارب من قبل تيارات الإلحاد، وكافة الاتجاهات والحركات المادية، على نحو يتسم بالضراوة والتنظيم المحكم، والمدد الكافي من جهات ومؤسسات ليست لها غاية أشرف وأهم من القضاء على كل فكر أو سلوك ديني، وبخاصة منه؛ ماله سبب يصله بالإسلام!! وبهذا فإن نداء الفطرة الكامن في الأعماق يدعو كل ذي ضمير حيّ إلى التصدي لزوابع الإلحاد، والوقوف المنيع في وجه موجات المادية العاتية.

وأما من المنطلق العلمي، فيعمد الإلحاد الحديث باسم العلم إلى إنكار مبدأ الألوهية في الكون، بدعوى أنه ليس في مكنة كل من العلم والدين إقامة دليل علمي تجريبيّ على وجود الخالق، وعليه يكفي الاستغناء عندهم عن فكرة الإله باكتشاف قوانين الطبيعة، واعتبار الأديان مجرد عوامل تخدير وتلهية للأفراد والجماعات عن شقاء الحياة، فلذا تقبل عليها بشغف بالغ، مع أن الحياة مادة فحسب، ولا وجود لإله خالق للكون[2].

ومما يفند هذا الزعم المتنكر في عباءة العلم الحديث، أن نخبة لا تقل عن ثلاثين شخصاً من العلماء الأمريكيين في مختلف التخصصات العلمية: طبية وطبيعية، وما يتعلق بهما من فروع وشعب متعددة قد جمعت لهم في كتاب: (الله يتجلى في عصر العلم) شهادات موثقة، تؤكد اعتقادهم بوجود إله خالق مدبر ومنظم للكون، وأن الإيمان بالله والالتزام بالدين ضرورة أخلاقية، لا لاستمرارية الحياة فحسب، وإنما أيضاً لسلامتها واستقرارها وتوازنها كذلك.

---

(1) المرجع نفسه ص 98.

(2) ينظر: مقال عبد الفتاح أحمد الفاوي: "قضية الألوهية بين الإيمان والإلحاد" ص 78، من مجلة منبر الإسلام، ع/ 7 س 39= 1401هـ = 1981م.

ومن النصوص المعَبرة عن اتجاههم الديني العام، وهي ملء كتاب، قول أحدهم: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته. وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود. وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[1]. وقد ذهب آخر وهو متخصص في علم الحيوان والحشرات إلى تأكيد فحوى هذا البيان فقال: «لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله، وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا بدون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله»[2].

وإذا كان في الناس من يجحد وجود الله عز وجل باسم العلم افتراءً وتضليلاً، فمن كبار أهل العلم الحديث الواصلين إلى الحقيقة من يقرر أن «المشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم منطقياً بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه أو قدرته، موجود في كل ذرة أو جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة»[3]. وفي معرض الرد على القائلين بوجود الكون مصادفة، وأنه خالق ذاته بذاته، يقول بحاثة أمريكي من علماء الطبيعة: «وإذا سلّمنا بقدرة الكون على خلق نفسه، فإننا بذلك نصف الكون بالألوهية، ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله، ولكننا نعتبره إلها

---

(1) نخبة من العلماء: الله يتجلى في عصر العلم، ص 26، ترجمة: الدمرداش، عبد المجيد سرحان، ط/ دار القلم، بيروت – لبنان.

(2) المصدر السابق، ص 34، وينظر: أيضاً من المصدر نفسه، ص 135.

(3) المصدر نفسه ص 138. ويلاحظ أنه بالرغم من أننا لا نسلم بمصطلحات وإطلاقات من هذا القبيل، حين تصدر صفة في حقّ الله تبارك وتعالى؛ وذلك لاشتباهها بمعان واتجاهات عقدية منحرفة، ولكن مع ذلك يمكن أن نجاري أصحابها انطلاقاً من هذه الأرضية المشتركة، لاستدراجهم إلى مواقع دعوية أصفى إيماناً، وأعمق عقيدة وأخلص توحيداً.

مادياً وروحياً في نفس الوقت. وأنا أفضل أن أؤمن بإله غير مادي خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفؤاً له»[1].

وحين سئل (ألبرت أينشتين) أكبر عالم كوني في القرن العشرين عن اعتقاده في الله في ضوء البحوث الكونية، أقر الرجل بوجوده تعالى، ولم يزد في استدلاله وتعليله لهذا الإقرار على الإشارة إلى السماء[2].

وهو بهذا يشير على شاكلة الإشارات القرآنية المتعددة إلى واحد من أكبر الآثار الكونية دلالة على وجود الله تعالى، وسعة قدرته، وجمال إبداعه المحكم.

وإذ ليس بوسعنا هنا سوق رأي كل عالم ورد له بيان في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم»، الأمر الذي يقتضي الرجوع إلى الكتاب للإفادة منه عن عمق واستيعاب، فحسبنا إرغاماً لأنف الإلحاد، وإفحاماً لمن يتذرع في انتهازية واستغلال بعنوان العلم، ويتظاهر بحمل رايته، إيراد ما أفاد به أحد الضالعين في علوم الطب عندما قال: «. . . وجدت في قراءاتي ومناقشاتي أن معظم من اشتغلوا في ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين، ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم أو أساءوا فهمهم»[3].

وهكذا . . يتضح لنا أنه لا مكان للإلحاد في رحاب العلم الصحيح باختلاف ميادين تخصصه، وأن ثمة بوناً فسيحاً فاصلاً بين منطق العلم وبيئاته، وبين الفكر الإلحادي؛ ذلك أن «العلم الصحيح المستند إلى عقل ومنطق، يؤكد في نفس صاحبه الإيمان بالله وإضافة هذا الوجود وما فيه من أسرار إلى هذا الخالق العظيم . . ولست أدري كيف يقبل عقل متصل بالعلم يعيش سواد ليل أو بياض نهار وفي كيانه ذرة شك في الله رب العالمين»[4].

---

(1) المصدر السابق، ص 47.

(2) ينظر: كتاب: محمد الغزالي: قذائف الحق، ص 204، ط 1/ 1411هـ = 1991م، دار القلم، بيروت + دمشق.

(3) الله يتجلى في عصر العلم، ص 156، سبق ذكره.

(4) عبد الكريم الخطيب: "الإلحاد والملحدون" ص 21، من مجلة منبر الإسلام، ع8 س 15 = 1377هـ =1957م.

وبجلاء الأمر وتوافر دلائل لا حصر لها على وجود الخالق عز وجل، يعتبر الأستاذ محمد فريد وجدي (1878- 1954م) أن أكذب الناس على نفسه هو من يزعم أنه ملحد[1] . كما يصف الإلحاد ويقيمه بأنه «أحقر من أن ينتسب إلى العلم أو العقل، أو أن يسمى مذهباً إنسانياً وأقل وأصغر، من أن يهتم بشأنه، بل الإلحاد وهمٌ يلم ببعض العقول المستعدة لهمزات شياطين الوسائس»[2] .

ومن هنا يأتي الأستاذ أنور الجندي ليؤسس على صحيح موقف العلماء التجريبيين من قضية وجود الله تبارك وتعالى القول بأن «العلماء العمليين ليسوا هم دعاة الإلحاد وإنما تنطلق دعوى الإلحاد من محيط الفلاسفة، والفلسفة نظرية وافتراض وليست علماً، وهي افتراض يقوم في نفس أصحابه أولاً، ثم تلتمس له الأدلة، وهو قابل للانتقاض والتحول باختلاف العصور والبيئات»[3] .

والعجيب في الأمر، إزاء هذه الدعوى المرفوعة ضد فلاسفة العصر أن يشهد الشيخ مصطفى صبري (1286- 1373هـ= 1869- 1954م) بنقيض هذا الحكم، لمن عايشهم من فلاسفة النصف الأول من القرن العشرين والنصف الأخير مما قبله، حيث يقول: «. . . تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة الغربيين مؤمنين بالله، وتجد أقل قليل منهم يؤمنون بالنبوّات، حتى إنهم أغفلوا مبحث النبوات في المطالب الفلسفية، وحتى إن المذهب السائد اليوم في أوساط الغرب المثقفة الاعتراف بوجود الله دون الأنبياء»[4] . وأرى أن هذا الموقف على كفريته وضلاله، فهو أهون وأخف جرماً من صريح الإلحاد القائم على نكران وجود الخالق تبارك وتعالى جملة وتفصيلاً.

وليس مما يضر الفلاسفة بعد هذا، كما لا ينال إطلاقا من قضية الإيمان بالله أن

---

(1) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين، مج 1 / 535. ط 3/ 1971م، دار المعرفة، بيروت.

(2) المرجع السابق، ص 534.

(3) الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي ص217، سبق ذكره.

(4) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج 1/ 114- 115 , ط2 / 1401هـ = 1981م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

يكون عدد قليل منهم ملحدين، من أمثال الفيلسوف الألماني (نيتشه، ت 1900م) الذي كان إلحاده بالله نتيجة أنه كان يعاني من أمراض عقلية ونفسية، تبدّت أعراضها في السنوات العشر الأخيرة من حياته، وذلك حين ثار جنونه فسقط صريعاً في مدينة تورينو الإيطالية سنة 1889م، وهو يعنف أحد سائقي عربات النقل الحصاني[1].. مدفوعاً بعاطفة مشبوبة من الشفقة والرحمة من قبيل ما طالت مناهضته ورفضه إياه.

ومن هذا الأنموذج الذي أرجح أن تكون حالات الإلحاد عند الفلاسفة مماثلة له في أسبابه، يمكننا القول بأن الإلحاد في أغلب صوره ليس سوى عقدة نفسية، أو خلل عقلي، يتعرض لهما أو لأحدهما بعض المتفلسفين، وقليل من أدعياء العلم الحديث، فهو عبارة عن تحد نفسي أو عقلي يتعاناه كل ملحد، وليس أكثر من ذلك، فيما أعتقد.

ثم إن الفكر المادي الذي جعل منه البعض تكئة لإنكار ما فوق عالم المادة، فقد انتهى به الأمر الواقع إلى وضع محرج، ينتظر مصيراً بائساً، تتحدد ملامحه عند الأستاذ العقاد، فيما ختم به استعراضه لموقف الفكر الفلسفي في قوله: «ومجمل القول في موقف الفلسفة كلها في هذا القرن أن الفلسفة المادية تتراجع من الهجوم إلى الدفاع بسلاح غير فعال»[2].

وبيّن أنها اليوم أشد ضعفاً، وأبأس حالاً، ولا سيما بعد انهيار أوكار الشيوعية في العالم، وعودة الروح بقوة لا تهزم، لهزيمة المذاهب والتيارات المادية في العالم، والتي فعلاً أخذت قواعدها تهتز وتتهاوى نحو مصير حتمي لا بد منه. ويتمثل في سقوطها وزوال أطلالها، لينتهي بذلك كل أمل أو عمل يتطلع إلى صياغة الحياة على أسس فلسفات تتخذ من المادية الجدلية وغيرها محركات للتاريخ، ومنظمات لحياة المجتمعات البشرية، والأفراد كذلك.

وفي ضوء ما نؤمن به عقيدة، وما نلمحه فكراً، ونلمسه واقعاً، أقول في قناعة

---

(1) ينظر: مقال سمير وهبي: "نيتشه العبقري المجنون" ص 62-65، من مجلة الهلال، ج 9، س 66 =1378هـ = 1958م. وينظر: أيضا بشأن ترجمته وفكره: موسوعة الفلسفة للدكتور بدوي ج 2/ 508-509.

(2) عقائد المفكرين في القرن العشرين، ص106 - 107.

علمية أكيدة : بأن أي سعي إلحادي في العالم المعاصر ، فهو من غير شك مقضي عليه بالفشل ؛ ذلك لمناقضته الإيمان بالغيب ، وبوجود الله أساساً ، ولأنه من الناحية الفلسفية يقول الأستاذ رجب بودبوس : «إن كون العقل لا يستطيع إدراك الله (بالمفهوم العقلي للإدراك) ولا يستطيع إدراك ما يبدو في الدين من مفارقات ، لا يستلزم بالضرورة ، ومن جهة نظر العقل نفسه رفض الدين ، ولا نفي وجود الله . . »[1] .

ولئن كان البعض القليل من الصعيد العلمي والفلسفي قد جحدوا وجود الله تعالى ، وتنكروا لكل ما فوق عالم الحس والتجربة ، وقصر عن دركه العقل الإنساني ، فقد كتب الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في نفي أيما صلة بين العلم والإلحاد ، فقال : «فإن هناك بعض العلماء والفلاسفة - وإن كانوا - قلة تنكروا للإيمان وقواعده وغاياته ، بيد أن المتتبع لأقوال هؤلاء يجزم بأن انتسابها إلى العلم تزوير جزئي ، فهم يخمنون ويفترضون ثم يبنون قصوراً على رمال»[2] .

ومن هنا تتحتم مقاومة الفكر الإلحادي في كل علائقه وأشكاله ، وفي كل مسبباته وتطوراته ، وذلك بمقتضى كل من الدين والفطرة ، والعلم والفلسفة ، ومن منطلق الدفاع عن الحق الذي هو قوام الحياة ، وباسم الدعوة إلى الإسلام . يقول ابن تيمية : «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابر هم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[3] .

وسواء اتفقنا معه كلياً أم لا ، فحسبنا في قوله أنه يعكس مدى الأهمية والخطورة التي يعلقها ويرتبها الإمام ابن تيمية على قضية مناظرة الملحدين ، لدرء شرهم بأسلحة الحوار ؛ هداية لهم ، ووقاية لغيرهم من أن يتسرب إليهم من الأفكار والسلوكيات ما يقف على نقيض من الدين .

---

(1) رجب بودبوس : "الدين والعقل" ص 8 ، ط / 1988م الدار العربية للكتاب ، تونس .

(2) لا علاقة بين العلم والإلحاد ، ص 36 من مجلة الوعي الإسلامي ، ع / 76 ، س 7 = 1390هـ =1971م .

(3) نقلاً عن كتاب : المدخل إلى علم الدعوة ، ص 268 ، سبق ذكره . .

ومن هذا الأساس، ومن منطلقه، وجه المسلمون من قديم التاريخ الإسلامي جانباً خاصاً وهاماً من اهتمامهم الدعوي لمحاورة الملاحدة من شتى النحل، ومما يرويه المسعودي من بدايات هذا التوجه الدعوي «أن الخليفة المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبهة الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين»[1]. وكذلك وردت في كتاب (عيون الأخبار) حكايات طريفة لنماذج من حوارات العلماء والخلفاء مع الملحدين والمرتدين[2]. ودلالة ذلك أن واجب الحوار مع الملحدين والذي عرف بالرد على الملحدين، كان شأناً تَشَارَكَ في القيام به كل القادرين عليه، ومن مختلف المواقع والمستويات الفكرية والسياسية، وبخاصة علماء الكلام، ولا سيما المعتزلة منهم. ولعل كتاب (الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد) من أخلد آثارهم، وأصدقها دلالة على ذلك، ومناسبة تأليفه أن ابن الراوندي وهو أبو الحسن أحمد بن يحيى الراوندي اليهودي الأصل (ت 298هـ) كان قد أسلم ثم ألحد، فقيل في ترجمته: «. . . لم يكن في زمانه وفي نظرائه أحذق منه بالكلام، ولا أعرف بدقيقه وجليله منه، وكان في أول أمره حسن السيرة، جميل المذهب، كثير الحياء، ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له ولأن علمه كان أكبر من عقله»[3].

كان هذا المذكور قد تقلب بين اليهودية، والإسلام، والإلحاد، - ثم التوبة عند الموت[4]ـ فأغرق فيه ودعا إليه عندما «ألف عدة كتب في تثبيت الإلحاد، وإبطال التوحيد، وجحد الرسالة، وشتم النبيين عليهم السلام والأئمة الهادين . . .» فكان بسبب تلك الكتب التي ذكر صاحب الفهرست بعضها ومنها التاج والزمرد،

---

(1) نقلاً عن أحمد محمود صبحي في كتابه: في علم الكلام، ج 1 / 70، وإني لم أهتد إلى النص في مظانه، رغم جهدي في توثيقه من المصدر الأصلي المذكور: مروج الذهب.

(2) ينظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج1 =ج 1 -2 / 550 - 552، تحقيق محمد الأسكندراني ط 3 / 1418 = 1997 م، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

(3) النديم أبو الفرج محمد بن أبي إسحاق: كتاب الفهرست، ص216، ط 3 / 1988م، دار المسيرة، طهران: إيران.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 216.

والدامغ[1]، أن قام أبو الحسين الخياط المعتزلي بالرد عليه بكتابه الشهير، والسابق ذكره وهو: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد.

وفيما يخص دور المحدثين والمعاصرين في هذا المجال، فمن أهم ما تصدى به الشيخ رحمة الله الهندي للفكر الإلحادي، وردّ به على منكري البعث، كتابه «التنبيهات في إثبات الاحتياج إلى البعث والحشر». وهو كتاب يتركز على تأكيد حقيقة البعث بعد الموت وأن الحياة الآخرة هي غير الحياة الدنيا[2].

وأما مِنْ علماء الإسلام ودعاته في القرن العشرين، فمما يقال في ترجمة الشيخ محمد جواد البلاغي (1864-1933م) الذي نعته البعض برائد حركة التحديث الفكري في الحوزة العلمية في النجف بالعراق[3].. أنه كان على اهتمام وافر بدراسة اليهودية والمسيحية من خلال أسفارها المقدسة، إلى جانب عنايته الفائقة برصد شبهات المنصرين وإشكاليات المستشرقين، وآراء الماديين، والملحدين، لدراستها، ثم الرد عليها، كاشفاً عن تهافتها مبرهناً على تناقضها[4]. ومن أشهر كتبه في أعلام الزركلي، كتاب: (أنوار الهدى في إبطال شبه الملحدين)[5]. هذا، ومما يضاف إلى ما تقدم من أمثلة، أن للشيخ محمد الغزالي، تجربة دعوية في الحوار مع الملحدين، إذ يقول: «دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل ملكت فيه نفسي وأطلت صبري، حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يورد من شبهات..»[6].

وهذه التجربة التي وإن كنا لا نعلم شيئاً عما سبقها ولحقها من قبيلها. أو ما إذا كانت - وهذا مستبعد عندي - فريدة في مسيرة الغزالي الدعوية إلا أنها ذات دلالة معبرة عن اتجاه

(1) أبو عبد الرحيم الخياط: الانتصار..، ص 32، تحقيق: محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.
(2) ينظر: مقال: "الشيخ رحمة الله الهندي والمبشرون" ص 79، من مجلة الوعي الإسلامي، ع/ 231، مرجع سابق.
(3) ينظر: كتاب: الفكر الإسلامي المعاصر، ص 16، من جمع وتحرير: عبد الجبار الرفاعي، سبق ذكره.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 16.
(5) ينظر: الأعلام، ج 6/ 74 ط 12/ 1997 م، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
(6) محمد الغزالي: حوار مع ملحد" ص 12، من مجلة الوعي الإسلامي/ ع 8، س 27 = 1393 هـ = 1973م، القاهرة.

الشيخ الغزالي إلى هذا المجال الدعوي المهمل، مثلما أنها تصور لنا حسن أدبه، وجميل صبره مما لا بد منه في الحوار، فضلاً عن أنها تسجل قناعته ودعوته إلى تهييء الداعية في حواراته مع الملحدين بحجج قوية ساطعة، تدمغ الباطل بضربة فكرية حاسمة.

إذن، فلا حق لأحد بعد هذا في محاولة إحباط همم الدعاة في جدوى ممارسة الحوار الدعوي مع تيارات الفكر المادي الإلحادي؛ إذ من كبار الباحثين من يقول وهو مفكر مسلم: «هناك من العلمانيين من يعتنقون التفكير المادي الذي ينكر الغيب، ولا يجد وسيلة لمقاومة الإسلام بوصفه الديني العقدي الغيبي، إلا من خلال قنوات العلمانية التي تحجر الدين من حيث اتصاله بشؤون الحياة فقط «هؤلاء لا غناء في الحوار معهم ولا طائل منه»[1].

ويظهر لي خلافاً لهذا الرأي أنه لا بد من الحوار الدعوي مع الملحدين، إما لقيادتهم إلى الهدى، أو على الأقل لإقامة الحجة عليهم، وأداء حق الدعوة إلى الله. وذلك بالنظر إلى خاصيتي وجوبها على المسلمين جميعاً، وعموميتها -من حيث المدعوين- لكل الناس.

ولذا، فإن مسلك القرآن الكريم في إثبات قضايا العقيدة، وتعزيز دعائم الإيمان بالله وملحقاته في النفس الإنسانية، يتسم بالقدر الكافي من البساطة، وغاية الوضوح؛ حيث إنه بشهادة أحد من أسلم من ملحدي أمريكا «يقدم باستمرار البراهين العقلية الدالة على قدرة الله، فمعجزات الخلق مثل تكاثر الحيوانات، وحركة الأجرام السماوية والظواهر الكونية، واختلاف أنواع الحيوان والنبات بما يتناسب وحياة الإنسان بشكل رائع، هي جميعاً لآيات لأولي الألباب»[2].

وإن خصائص، وأساليب المنهج القرآني في محاورة الملحدين من منطلق «أفي الله

---

(1) طارق البشري: الحوار الإسلامي العلماني، ص 55، سبق ذكره

(2) جفري لانغ: الصراع من أجل الإيمان، ص 57، ترجمة: منذر العبسي، ط 2/ 1421هـ = 2000م دار الفكر المعاصر، بيروت + دار الفكر، دمشق.

شك فاطر السماوات والأرض» لَحَرِيَّةٌ بدراسات وبحوث تسبر أغوارها، وتفتح السبيل أمام الدارسين والمحاورين على السواء لتوظيفها فيما يكفل لدعوة الله الانتصار، ويهيء لدينه أوسع فرص الانتشار.

وقد ابتدر بعض المهتمين بهذا الشأن الأهمّ في حياة الإنسان، ووجود الكون، النظر في سمات المنهج القرآني، والحث على الاهتمام باستخدامها، ومن هؤلاء الأستاذ محمود محمد مزروعة الذي تركزت عنده في دراسته للمنهج القرآني، سمات هذا المنهج في الاستدلال على وجود الله في العناصر التي تقتضي منا أهميتها إجمالها كالآتي:

1 – يخاطب الناس أجمعين، وهو ما يقتضي الوضوح والبساطة.

2 – يعتمد القرآن في خطابه الدعوي على الفطرة .

3 – يزاوج بين كل من الإقناع العقلي والوجداني .

4 – تستند أدلة القرآن على الأمور الموضوعية الواقعية التي يتعامل معها الإنسان باستمرار؛ من مظاهر كونية وأخرى تتصل بوجوده الخلقي أو مواد أساسية تقوم عليها حياته، ولا غنى له عنها، من طعام وشراب، إلخ. ومن أمثلته قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه للدلالة على البعث بعد الموت، مهما طال أمده، وتعقدت ظروفه[1]. .

5 – يتسم الخطاب القرآني بتنويع الأدلة في المجال الواحد، مراعاة لاختلاف الطبائع والأمزجة، وترسيخاً للمقصد منها حين يكثر من ورودها، ويتأكد مغزاها بتكراره في أساليب متنوعة[2]. .

وأعتقد أن هذه السمات تتجلى فاعليتها الدعوية حين ننظر إليها في أيما موقف دعوي في القرآن الكريم، فمثلاً كقصة محاجة إبراهيم عليه السلام مع الملك من

---

(1) تنظر الآية 259 من سورة البقرة.

(2) ينظر: "المنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله" ص 69 – 72 من مجلة منبر الإسلام، ع 2، س37 = 1399هـ = 1979م.

جانب[1]، ومع أبيه وقومه من جانب آخر[2].

والذي نخلص إليه، هنا هو أن المنهج الإبراهيمي كما يعرضه القرآن الكريم متمثلاً في الدعوة الحكيمة إلى الله، وفي فاعلية محاربة الإلحاد، وتحدي كل من الملحدين والمشركين على السواء، يكتسي أهمية دعوية بما لا سبيل إلى إغفاله أو إهماله، بل يجعل من هذا المنهج بحكم مقتضيات الحوار الدعوي مع الملحدين موضوع دراسة علمية مستقلة، قد تتوافر للمختصين في هذا المجال أسباب وعناصر إنجازها في القريب العاجل بعون الله تعالى.

ولكن قبل ذلك وبعده، فسوف يظل من أَوْلَى الأمور وأحقها بالمراعاة بالنسبة للخطاب الدعوي، اللجوء «في إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة، البسيطة الواضحة، التي يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص في لجج الاستدلال والجدل، ومن غير أن يعتريه ارتباك، أو كلال، أو عجز، أو وهم، وهي البراهين التي أكثر من ذكرها القرآن، واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة. . .»[3].

هذا . . . ولما كان القرآن الكريم المصدر الأساسي الذي يحاول كل داعية مسلم الانطلاق منه في دعوته، آخذاً بمناهجه، ملتزماً بمبادئه، وهو من السعة والغنى بمكان لا مطلع في احتوائه، ولا سيما التعمق في الإحاطة بكل أبعاده؛ دقيقها وجليلها فقد استتبع ذلك تنوعًا في أساليب وضروب الخطاب الدعوي. ولعل الطرق التي سنقف عندها بالعرض والتعليق تعتبر بخصوص الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي، من أبرز ما أفاده أصحابه من القرآن الكريم في مقاومة هذا الفكر، ودعوة أهله إلى الإيمان. وهي مصنفة عندي في أربعة مسالك خطابية، تشكل طرق المقاومة على النحو الآتي:

---

(1) وهي واردة في سورة البقرة في الآية 258.

(2) في الآيات من 74 – 81 من سورة الأنعام.

(3) نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص 241، ط 3 / 1389هـ = 1969م، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

أ - الشيخ ديدات وخطاب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

سبق أن أشرنا من قبل إلى أن الشيخ ديدات قد تجاوب مع أصداء الحركة العلمية لتبيان أوجه الإعجاز العلمي الحديث للقرآن الكريم، فرسم بموجب هذا التجاوب ملامح منهج دعوي في الحوار مع الماديين والملحدين من العلماء[1]، مما يصلح ويسمح لنا - بالرغم من إيجازه - بعزو خطاب إليه في هذا الخصوص، يشترك مع آخرين في الاعتماد عليه، ألا وهو خطاب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، حيث يقول ديدات: «آيات هذا الكتاب الواضح السهل (القرآن الكريم) تقيم من نفسها شاهداً ذاتيّاً على صحتها، والمتتبعون للقرآن يرون آيات الله في كل اكتشاف يصل إليه الإنسان هذه هي آيات ومعجزات الله الرحيم العزيز ليزيل الشك ويثبت الإيمان»[2].

وفيما يخص الحوار مع الملحدين بالخطاب القرآني المعجز، فإن ديدات يتقدم إليهم بنوع من الاستفزاز، ويصورهم للآخرين مستخفاً بهم في قوله: « . . . فبالنسبة للملحدين واللاأدريين والشكاكين الذين تثقفوا ثقافة علمية عالية ويعتبرون أنفسهم عمالقة الفكر - وهم في الحقيقة أقزام ناقصو النمو - إنهم مثل قزم اكتسب نمواً غير عادي في أحد الاتجاهات الخاصة على حساب الأجزاء الأخرى من قدراته الشخصية أو الجسدية كرأس ضخم مثلاً على جسم ضئيل»[3].

هذا . . بعد أن تخيل حوارات مع بعضهم من مختلف التخصصات، ناقشهم فيها بآيات قرآنية في قضايا علم الأفلاك والبيولوجيا (الحياة) والطبيعة، والحيوان والنبات[4]، مبرزاً أوجه إعجاز القرآن في تلك الجوانب، والتي يكفي شاهداً عليها أنه أوحي به من الله العليم الخبير على نبي أمي، لا سبيل له، ولا لقومه، ولا لكل عصره، للوصول إلى

---

(1) ينظر: عرضنا في هذه الرسالة لكتابه: القرآن معجزة المعجزات، وبخاصة في المبحث الرابع من الفصل الخامس.

(2) القرآن معجزة المعجزات، ص 38.

(3) المصدر نفسه، ص 30.

(4) ينظر: المصدر نفسه ص 31 - 34، 37.

هذه المعلومات العلمية الدقيقة، عقب ديدات بتوجيه عتاب إلى الملحدين المتعالين، ناعياً عليهم عنادهم على المكابرة والإلحاد من غير ما أي حق يخول لهم هذا الموقف الإلحادي الذي يعتبرون أحق الناس بمخالفته، وأولاهم بالدعوة إلى نقيضه، حتى يتأسس الإيمان بالله في نفوس الناس، وأيضاً في حياتهم بأدلة علمية صحيحة.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ ديدات:

ليس من الصعب عليكم أن تلاحظوا أن هذه الكلمات من خالق الكون القدير العليم هي موجهة إليكم أنتم رجال العلم كرّد على المذهب الارتيابي اليوم، الأهمية الحقيقية لهذه الكلمات تتجاوز مكان الصحراء منذ ألف وأربعمائة عام. الله القدير بهذه الكلمات يخاطبكم أنتم رجال العلم كيف لا تؤمنون بالله؟ يجب أن تكونوا آخر من ينكر وجوده ولكنكم أول من يفعل ذلك! ماذا دهاكم لكي تسمحوا لغروركم كي يغشى أبصاركم عن رؤية الحقائق المنطقية الجلية في مجال علمكم[1].

وعلى العموم، إذا كان ما قيل هنا بمثابة مؤشرات منهجية لخطاب ديدات الدعوي في محاورة الملحدين، فما التأثير المتوقع لهذا الخطاب، وبم ينضبط من قواعد علمية تفسيرية، حتى يحظى بإجازة علماء علوم القرآن الكريم عامة، وأهل التفسير والدعوة منهم خاصة؟.

فمن حيث احتمالات النفع والتأثير، فمن الراجح عندي أنه خطاب فعال ومقنع طالما انبنى على صحيح العلم والفهم لكل من الآيات الكونية من جانب، والقرآنية من جانب آخر. حتى يمكن الوصول من خلال المطابقة بينهما إلى ما يدعم قضية الإيمان بالله تعالى، ويؤكد صدق رسالة القرآن. ولعل تجربة الطبيب الفرنسي موريس بوكاي مع هذا النوع من الخطاب، بما توصل إليه من خلاله، تكفي من بين تجارب متعددة للشهادة على فعالية هذا الخطاب، وقدرته على الأخذ بيد الباحثين في مجالات العلوم الحديثة إلى طريق الهدى، والصراط المستقيم. وقد كتب هذا الأخير يحكي عن تجربته

---

(1) المصدر السابق: ص 36.

ومنهجه فقال: «لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعـًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أيّ مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث»[1]. وإني أجد في هذا لكل متعالم مادي ملحد، ولكل باحث منصف، دعوة كريمة إلى استكشاف القرآن الكريم، ومدخلاً علميـًا موسعـًا للبحث في حقائقه العلمية المتنوعة لصالح الإيمان بالله، وبدينه الحق، وأرى أن جانبًا كبيراً من الواجب يقع على عاتق المسلمين في سبيل التشجيع على ذلك، وتيسير أسبابه، إذ يقول الأستاذ محمد رشيد رضا، رحمه الله: «ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام في صورته العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم فيه أفواجًا حتى يعم الدنيا»[2].

على أنه بالرغم من كثرة مؤيدي هذا الخطاب بحجة أنه يشكل تحديـًا علميـًا للملحدين، وأن فهم ما احتواه القرآن الكريم من آيات كونية في ضوء الحقائق العلمية الحديثة، يعد أداة وعامل تيسير للدعوة إلى دين الله في هذا العصر المتميز بروح علمية ثائرة . . ونحو ذلك من حجج مؤيدة ومبررة[3]، فمع ذلك نجد أن هناك من يقف من هذا الخطاب موقف التحفظ محتاطًا بأنه ينبغي التريث في هذا الشأن، حتى لا يؤخذ فيه إلا بما يلتقي عليه القرآن الكريم والعلم الحديث، من حقائق علمية ثابتة تتصف بالاطراد، وإجماع العلماء عليها، وأنه لا بد من الحذر كل الحذر من إقحام آيات القرآن في تفسير ما هو من قبيل النظريات والفروض، والآراء القابلة للتغير، القائمة في ميزان التجارب، الخاضعة لأحكام الصحة والخطأ؛ حيث إننا فيما يقول أحدهم: «إذا

(1) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 13، سبق ذكره.

(2) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص 170، ط / 1408 هـ = 1988م الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

(3) ينظر: بشأن المزيد من تلك الحجج كتاب الأستاذ: أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ص 107، ط 1 / 1411هـ = 1991م دار قتيبة، بيروت – لبنان + دمشق

قلنا أن كتاب الله لم يفرط في كبير ولا صغير من أمور الحياة، ثم جمعنا الهم وعقدنا العزم على تأكيد السبق العلمي في القرآن مستعملين ذلك سلاحًا لإقناع العقول المادية الحديثة، فإننا إذا استعملنا هذه الوسيلة وحدها فلا مناص من الوقوع في مزالق ولا خلاص من زلات وسقطات يهوي فيها المسلم، حيث ندخل كتاب الله في تفصيلات ما أرادها الله حينما أنزل هذا الكتاب»[1].

والذي ننتهي إليه مع هذا الخطاب، هو أنه استنجاد دعوي بالتفسير العلمي في محاورة علماء الطبيعة والملحدين، وهو كما عرفه الأستاذ أحمد أبو حجر «هو التفسير الذي يحاول فيه المفسر تطبيق ما قال به العلم على ما جاء في القرآن الكريم، بهدف إثبات وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم وبالتالي إثبات أنّه من عند الله، أو بهدف إثبات أنه لا تناقض بين الدين والعلم»[2].

وإذا كان هذا الضرب من التفسير لآيات القرآن الكريم في ضوء المعارف الحديثة، ووفق معطياته العلمية الثابتة، مما تؤكده ضرورة الاهتمام بالحوار الدعوي مع من يخصهم هذا الخطاب: من عقول ونفوس مادية ملحدة، فيجب أن ينضبط الأمر بكل ما يلزم المفسر لتمام عدته التفسيرية، كما يتعين كذلك تحقيق ما تقوم عليه الأهلية العلمية من سعة اطلاع ودقة فقه لمعطيات تلك المعارف التي يراد لها أن تكون شاهدة على مصداقية القرآن الكريم، بما احتواه من أصول الإيمان، وأركان الإسلام، ومبادئ الإحسان، كما يجب ألا يصار إلى التكلف والانسياق في عمليات توفيقية متعسفة فيما بين الآيات القرآنية، وما لا يزال في إطار النظريات والفرضيات.

وبما أن الهدف الأجلّ لهذا الخطاب هو إثبات وجود الله تعالى والإقناع بدعوة الإسلام، فإن من مسانديه المتحمسين له من يرى ويقول: «... إن الدليل العلمي هو الدليل الأكبر في إيمان أهل هذا العصر بالله وبالقرآن، خاصة إذا قدم لهم الحقائق

---

(1) كارم السيد غنيم: "التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن" ص 44 من مجلة المسلم المعاصر، ع 36، س9 - 1403هـ = 1983م، دار البحوث العلمية - الكويت.

(2) التفسير العلمي في الميزان، ص 513، سبق ذكره.

العلمية اليقينية التي أشار إليها منذ أربعة عشرة قرناً، وتكشّف عنها العلم الحديث ليكون مصداقاً لما بين يديه من القرآن، ومثبتاً صدق النبي الأمي المرسل به ﷺ»[1].

وهكذا تتضح لنا ماهية هذا الخطاب، وتتأكد لنا احتمالات نفعه وتأثيره، مع إصرار البعض على استخدامه على نطاق دعوي واسع في هذا العصر، بشرط مراعاة ما لا بد له منه من ضوابط تفسيرية، وتحريات علمية يقظة؛ تقتصر على اعتماد الحقائق، دون غيرها من النظريات.

ب - الداعية وحيد الدين خان وخطاب المدخل العلمي إلى الإيمان:

يصنف الداعية وحيد الدين خان كواحد من أبرز وألمع الوجوه الدعوية في هذا العصر، ذلك أن دعوته تتميز إلى جانب نشاطها الوافر بعلمية منحاها، وإقناعية منهجها القائم على الإفادة من معطيات العلوم الحديثة استيعاباً، ونقداً، وتمحيصاً، لبيان أنه لا شيء مما يصح علمياً يمكن أن يتعارض مع الدين الإسلامي، بل يؤكده، انطلاقاً من وحدة مصدر كل من الحقيقة العلمية والدينية.

والدعوة إلى الله عند الشيخ وحيد الدين «هي بمثابة التمثيل عن الله بين عباده، وهي أمر يتناوله الداعية باعتباره مسئوليته الوحيدة، دون أن يطمح إلى أيّ حقوق، والداعية يعطي ثم يأخذ أجره من الله، وحين يؤذيه الناس يصبر ويثابر من أجل الله، وهو يتلقى الحرمان من قبل الناس، إلا أنه يبقى جاداً في مهمته المقدسة دون أن يعتريه أي وهن»[2].

وبهذا الحس الدعوي المرهف، وما تولد عنه من تصور حساس للواجب الدعوي، تتسع دائرة نشاطه الإسلامي ليتميّز بحيوية نادرة المثيل، في علاقته بكل ما يتصل بالدعوة والدعاة. غير أنه يمكننا أن نتبين إجمالاً وجهة خطابه الدعوي في عمومه، وهو يسعى به ومن خلاله إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسة هي :

---

(1) خليل إبراهيم دياب: ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، ص 79، ط 1/ 1420هـ= 1999م دار عمار - عمان - الأردن.

(2) وحيد الدين خان: القضية الكبرى، ص 49، الناشر: الرسالة للإعلام الدولي، القاهرة، د. م. ت.

1 - مواجهة الأفكار والتحديات التي يواجهها الإسلام والمسلمون بذات الأساليب المستخدمة في الهجوم .

2 - مقاومة الأفكار الدخيلة على المسلمين، والتي استحكمت في قلوب بعضهم بفعل عوامل الغفلة والجهل، ومحاولة تقديم تصور صحيح للدين فلسفة، وأصولاً، ومقاصد، وغايات .

3 - صياغة الفكر الإسلامي والخطاب الدعوي صياغة عصرية لمساوقة أساليب العصر، ومواكبة مستجداته، بما يتناسب معها، فكرًا وأسلوبًا، ووسائل[1] .

ومن حيث إقناعية منهجه فيدل عليها موقفه من التيارات الإسلامية المجابهة، ونقده لها[2] . حيث يقول: «فالآخرون يقولون: إن التقدم لا يأتي إلا عن طريق الحرب والتناحر. وأنا أقدم خطة للتقدم في ميدان الدعوة والتبليغ، وبينما يدعو الآخرون إلى التقدم والرقي الذي يأتي عن طريق السيف، أدعو أنا إلى التقدم والرقي النظري، أي أن الفرق بيني وبينهم يتحدد في تعيين ميدان التقدم وليس في مفهوم التقدم نفسه»[3] .

ومن جانب آخر يخاطب مخالفيه من الحركيين بقوله: «. . . فالذين ينشدون شعار العظمة ولا يوفون الدعوة حظها من الاحترام والتقدير لا أحد في الدنيا أكثر حمقًا وسذاجة منهم»[4] . وأيضًا له في هذا الباب كتاب لما أتمكن من الاطلاع عليه بعنوان: (أخطاء التفسير في الفكر الإسلامي السياسي) وهو كذلك دليل على حوارية وإقناعية منهجه الدعوي الإسلامي .

وأما علمية خطابه باعتبارها مدخلاً دعويًا إلى الإيمان، بالنسبة لمن يشتغلون بالعلم والفكر، فتعتبر أهم علامة مميزة لفكر ومنهج الأستاذ وحيد الدين خان، وقد أعلن عنها في

---

(1) ينظر: مقال: محمد بدر الدين: "من رواد البعث الإسلامي الحديث" وحيد الدين خان، ص 36، من مجلة الأمة، ع/ 59، س 5 = 1405هـ الدوحة - قطر .

(2) ينظر: كتابه: القضية الكبرى، ص 58 - 59، 95، سبق ذكره

(3) وحيد الدين خان: ميدان العمل في الإسلام، ص 4، ط 1/ 1413هـ = 1992م. الرسالة للإعلام الدولي، القاهرة .

(4) المصدر نفسه، ص 40.

أشهر كتبه المعربة وهو (الإسلام يتحدى) وذلك في قوله: «إن الطريقة التي يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين: فكرية وتجريبية، وبعبارة أخرى: فلسفية وعلمية، إن صح التعبير، وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية وهي التجريبية أو العلمية. والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول، على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني، وإنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين، هو تصديق لما جاء في القرآن، في سورة النمل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: 93] وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة»[1].

وإذا كان هدف إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الإلحادي، هو ما جعل صاحب هذا الخطاب يتبع في كتابه نفس الطرق العلمية التي جرت عادة الملحدين باتباعها، والاستدلال بها لإثبات أوهامهم الاعتقادية، فإن أيسر السبل وأقصرها للوقوف على خطوات هذا المنهج - والتي يمكن أيضًا الاهتداء إليها ذاتيا من خلال موضوعات وقضايا كتابه المذكور - هو ما يتمثل عند الدكتور عبد الصبور شاهين في قوله: «... نجده يعرض (قضية معارضي الدين) بكل حيدة وأمانة، حتى لا يتهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمي، ثم يبدأ في مناقشتها معتمدًا في الأساس على الإنتاج الفكري الغربي، من باب ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ مرجئًا مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية في آراء الأعداء قبل الأصدقاء»[2] فهو في هذا الخطاب يعرض فكرة معارضي الدين مقرونة ببيان أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية، ثم يَنْقَضُّ عليها بالمناقشة والنقض بأدلة من نفس الأسس، حتى إذا ما أثبت وجود الله تعالى ووجوب الإيمان بالله، انتقل إلى إثبات قضية الإيمان بالآخرة باعتبارها ممكنة بأدلة طبيعية، وتاريخية، وغيرها، إضافة إلى بيان ضرورة قيام الآخرة، وأنه يأتي

(1) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ص 21، تعريب: ظفر الإسلام خان، ط 12 / 1418 هـ = 1997م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

تلبية لحاجات نفسية، سلوكية، وأخلاقية.

ولأن قضية الآخرة ذات أهمية خاصة، وقد ينكرها بعض المؤمنين بوجود الله، عني الشيخ وحيد الدين بإفرادها بالمعالجة، في كتاب له قال فيه: «... إن العلماء يرون أن كل صوت أخرجه أي إنسان قبل آلاف السنين، وكل حديث أو خطبة ألقيت من قبل إنسان ما، هي موجودة في شكل موجات في الأثير، وإن كنا لا نرى تلك الأصوات ولا نسمعها اليوم إلا أنه إذا توفرت لدينا أجهزة تستطيع التقاطها فإنه يمكن إعادتها في شكلها أو صورتها الأولى في وقت ما، إننا نستطيع أن نفهم من خلال هذا المثال قضية الآخرة بشكل واضح ...»[1].

ومن إثبات الإيمان بالآخرة كأصل أصيل في العقيدة الإسلامية، ينتقل المؤلف في كتابه (الإسلام يتحدى) إلى الحديث عن الرسالة ودورها في الإيمان بالله وباليوم الآخر، ثم يعرض قضية إعجاز القرآن الكريم، ومنها يناقش علاقة الدين بمشكلات الحضارة في جوانب متعددة: تشريعية، وأخلاقية، فردية، واجتماعية، مختتماً بالحديث عن الحياة المنشودة لمستقبل العالم الإسلامي وما هو دور المسلمين في هذا العالم، وبيان ما تحمله الأمة المسلمة من رسالة دعوية[2] إلى دين من شأنه أن يقدم - حسب قوله -: «جواباً محدداً لكل الأسئلة التي تؤرقنا في كفاحنا الحضاري... يعطينا كل ما نحتاج إليه لبناء الحضارة في حين لا يتيح لنا الإلحاد والكفر شيئاً ما، سوى الضياع والفاقة، فهو عقيم لا يجدي نفعاً»[3].

والمستفاد من عرض الخطوات التي اتبعها في كتابه هو للوقوف على منطقية أسلوبه في الحوار الدعوي الصامت مع الملحدين، وكيف أنه يراعي مبدأ التدرج من الأهم إلى المهم فالهام، أي أنه يتتبع البناء من الأساس، فالأركان.. ثم الجدران، فالسقف، للوصول أخيراً عبر منهجه الجديد إلى صورة منسقة من عناصر متكاملة ومتجانسة.

---

(1) القضية الكبرى، ص 23، سبق ذكره.

(2) ينظر: بشأن تفصيل هذه القضايا كتابه: الإسلام يتحدى. من أوله لآخره.

(3) المصدر نفسه، ص 175.

وهي صورة جذابة بقوى العلم، وأسباب الإقناع، تصدع بالحق معلنة، أن «في الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل، وقد ضللتها عن طريقها، التي لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة، ولا حل لهذه الأزمة إلا بالرجوع إلى الله، والتسليم بأهمية الدين للحياة، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه، وليست هناك من أسس أخرى»[1].

وفيما يخص التأثير الدعوي المرتقب لهذا الخطاب، فمن الواضح أن تعدد طبعات كتابه، فضلاً عن اعتماده مقرراً دراسياً في بعض الكليات الدعوية، ككلية الدعوة الإسلامية بطرابلس مثلاً، بالإضافة إلى ما قوبل به من قبل الدارسين والنقاد من ثناء وإطراء، كل ذلك يعد من الأمور الدالة على فرص التأثير، وإمكانياته المتوفرة لهذا الخطاب، حيث اعتبره البعض كالأستاذ زغلول النجار «على الرغم من أن الكتاب لم يخل من بعض الأخطاء العلمية . . . إلا أنه يعتبر فتحاً جديداً في أسلوب مخاطبة العقل البشري في عصر طغت فيه المادة وبعد فيه الناس عن طريق الله، وفتنوا بما حققه العلم والتقنية الحديثة فتنة كبيرة، سواء كان ذلك في الغرب أم الشرق»[2]. وكما ذهب آخر إلى «أن المؤلف بذلك المنهج الجديد الذي عرض به الإسلام يستجيب لحاجة العصر في أسلوب الدعوة والحجاج، فيخاطب العقل العصري باللغة التي يعشقها والتي يخيل إليه أنها وحدها اللغة المثلى في التفكير والإقناع، وقد وفق المؤلف أيما توفيق في اختيار منهجه. كما وفق في الوفاء بما يلتزمه من الحجج الموضوعية العقلية الهادئة»[3].

وحسبنا أخيراً ما قال به أحدهم من أن «هذا الكتاب - الإسلام يتحدى: مدخل علمي إلى الإيمان - يعتمد في كل ما يصدر عنه على (موضوعية علمية) افتقدتها الدعوة الإسلامية طويلاً. وهذه الموضوعية، تسقط من حسابها بالضرورة كل الانفعالات والتشنجات،

---

(1) الإسلام يتحدى، ص 183، سبق ذكره.

(2) زغلول النجار: "نقد كتاب الإسلام يتحدى" ص 204 - 205، من مجلة المسلم المعاصر، ع 1-2/ 1395هـ = 1975م.

(3) إبراهيم عوضين: "الإسلام يتحدى. . عرض وتعليق" ص 782، من مجلة الأزهر، س 58 = 1406هـ = 1986م.

والخطابة الجوفاء، والإنشاد، والكلام الجاف، وتناول القشور دون اللباب»[1].

وهكذا يتاح لنا أن نتصور مدى ما بذله صاحب الخطاب من جهد إبداعي عظيم، استند فيه إلى ثقافة علمية واسعة، وعقلية منهجية واعية، وكل ذلك من أجل استحداث خطاب دعوي، يعتمد على العلم الحديث والفكر المنطقي السليم، في محاورة الماديين الملحدين وإقناعهم. كما يمكن من جانب آخر - استناداً إلى التقريظات السابقة - تقدير ما يرجى له من دور وأثر في صد هجمات الإلحاد، ودحض مقولاته، لتأسيس دعائم اليقين، وتثبيت أصول الإيمان ومقرراته.

ويبقى في خاتمة هذا الخطاب أن نشير إلى الفرق القائم بينه وبين خطاب الإعجاز القرآني للشيخ ديدات في محاورة الماديين الملحدين، وهو أن هذا الأخير يعتمد أساساً على القرآن الكريم، ويرتكز خطابه هنا على استكشاف وعرض إشارات القرآن إلى صور الإعجاز العلمي، والإعلام بها كوسيلة مؤثرة في الحوار الدعوي. وهذا مما يؤكد ما تقرر من قرآنية منهجه، من بين السمات العامة لعموم منهجه الحواري، بينما يعمد الشيخ وحيد الدين إلى الاعتماد شبه التام على العلوم والمعارف الحديثة في شتى مجالاتها، لنقض ما لا يصح من نظرياتها وأوهامها، وللاستدلال بحقائقها اليقينية على وجود الله عز وجل، وعلى وجوب الإيمان به تعالى، وضرورة الإسلام له وبدينه الحق.

جـ - خطاب عصرنة رسالة علم الكلام الإسلامي وتفعيل دوره الدعوي:

يظهر عند الأستاذ محمد سعيد البوطي في كتاباته الهادفة إلى ترسيخ أصول العقيدة في نفوس المسلمين، ودعوة الآخرين للإيمان بها، التزامه بمنهج دعوي، من أهم مقاصده محاورة الملحدين؛ من أجل إقناعهم بحقيقة الإسلام، وفق أساليب علم الكلام القائم على الجدل الفكري، والتناظر العميق المفحم بأدلة منطقية معتمدة وبروح موضوعية هادئة. ومن هذا السلوك المنهجي نجد مسوغاً لاعتباره في طليعة من

---

(1) حلمي محمد قاعود: "وحيد الدين خان.. الداعية النموذج" ص 93. من مجلة الوعي الإسلامي، ع 141، س 12 = 1396هـ = 1976م.

يجدد رسالة علم الكلام الإسلامي في هذ العصر، ويعمل على تفعيل دور خطابه في الدعوة إلى الله تعالى، وخصوصاً من حيث الحوار مع أهل الجدل من الماديين، ومن هم في إلحادهم تبع لأهوائهم.

يقول الأستاذ البوطي معلناً عن منهجه في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «كبرى اليقينيات الكونية» فيما نصه. . . «فإن هذ الكتاب ليس إلا نموذجاً مما ألف في علم الكلام على مافيه من اختلاف في كثير من المباحث وفي الأسلوب. ذلك أن علم الكلام إنما أطلق على المناقشات العلمية التي دارت أو تدور حول مبادىء العقيدة الإسلامية بقطع النظر عن نوع الشبه وطريقة البحث والنقاش، فإن كل ذلك من شأنه أن يختلف ويتطور من عصر إلى آخر»[1].

ولأن البوطي ارتضى لنفسه ولغيره تبني هذ المنهج في دعوة من هم خارج دائرة الإيمان، وهم على قدر كبير من الفكر وعلى انتماء يصلهم بالعلم الحديث، فلذا يحرص على تحديد ما يلزم القيام به، وتبصير الدعاة بواجبهم، وهو يقول: «. . . فإن علينا أن نفعل ما فعله أسلافنا، فنضع هذه الشبه الجديدة تحت مجهر العلم والعقل المجردين طبقاً للموازين الفكرية التي يعتد بها أصحاب هذه الشبه، وسيكشف ذلك أخيراً إما عن زيف هذه الشبه، أوعن زيف من يصطنعوها، أو عن رجوعهم إلى الحق والتحرر من الباطل»[2].

وإذا كان هذ الأمر يشكل كما يجب عند البوطي شأناً هاماً وملحاً، لكن، فبأي منهج (كلامي) ذاك الذي يتسنى من خلاله أداء هذا الواجب الدعوي العظيم. وبنجاح بالغ ومشهود هو في اعتقادي أعز أماني الشيخ البوطي، وأسمى طموحاته، مثلما هو كذلك عند كل داعية مخلص في دعوته، متحسس أمين في القيام بها؟ ولعل هذا ما قصد الإجابة عنه حين كتب يقول: «وجود الله عز وجل، دعوة علمية تتعلق

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية. . وجود الخالق ووظيفة المخلوق، ص 18، ط 1406 هـ 1986 م، دار الفكر، دمشق، سورية

(2) المصدر نفسه، ص 24 سبق ذكره.

من العلم بجانب لا يخضع للتجربة والمشاهدة، ولذلك فإن السبيل إلى التحقيق فيهما إنما يكون بأحد طريقين»[1] وهما مايطلق البوطي على أحدهما (طريق التدرج من الأدنى، وهو يقوم على ترك البحث في ذات الله، والبدء بالنظر في مصداقية القرآن الكريم، وصدق مبلغه عليه الصلاة والسلام، ثم يتدرج رويداً رويداً إلى أن نصل إلى إثبات وجود الله متلازماً مع اقتناعنا بأن هذا القرآن الحكيم ليس إلا من الله[2] العزيز القدوس الكبير المتعال.

أما الطريق الآخر، وهو طريق التدرج من الأعلى، فيستند على المباشرة في تحقيق وجود الله ببراهين يقينية من شأنها الدلالة على وجوده تعالى خالقاً لهذا الكون، وأنه لم يخلق شيئاً منه عبثاً، ثم يتفرع عن الإيمان بهذا الأصل الأساس، التسليم ببقية الأصول الأخرى من ملحقاته[3]. وهذا الطريق المنهجي يرتكز على براهين يقينية أربعة هي كالآتي:

1 - برهان بطلان الرجحان بدون مرجح ويعني هذا الرجحان بدون مرجّح! «أن يكون الشيء جارياً على نسق معين ثم يتغير عن نسقه ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقاً، فهذا من الأمور الواضحة البطلان»[4].

2 - برهان بطلان التسلسل، وهوعبارة عن: «فرض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلى ما لا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله وعلة لما بعده، دون أن تنبع هذه السلسلة أخيراً من علة واجبة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد عن سائر تلك الحلقات، فهذا الفرض باطل يحكم العقل باستحالته بالضرورة»[5].

3 - برهان بطلان الدور ومعناه «أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق، أو تكييف معين له على شيء آخر إلا أن الشيء متوقف في ذلك الوجود أو التكييف وفي نفس

---

(1) المصدر نفسه، ص 77

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 78

(3) ينظر: المصدر السابق، ص 77 78

(4) المصدر نفسه، ص 79

(5) المصدر السابق، 82

الوقت على ذلك الشيء الأول، فمن المحال إذًا أن يوجد أو يتكيف هذا الشيء أو ذاك . . .»[1].

4 - قانون العلية، أو العلة الغائية، ويعني أن ثمة حكمة إلهية في خلق كل جزء من عناصر هذا الكون وأن كل شيء فيه مهيأ لأداء غاية ما، بتقدير الخالق عز وجل، مما يدل دلالة منطقية أكيدة على وجوده تعالى، وعلى لطف حكمته، وبديع صنعه[2].

هذا. . ، ونظرًا لفرط ثقة البوطي بالبراهين السابقة، ومبلغ استناده عليها في المحاجة الدعوية مع الملحدين، فليس من المفاجئ - إذن - التعويل عليها كأسلحة فعالة في استئصال شأفة الإلحاد، وحسم أصول جرثومته. وبيان ذلك وارد في قوله: «فإذا تأملت في هذه البراهين التي عرضناها، أدركت أن كلمة (الإلحاد) لا تعني شيئًا أكثر من مخاصمة العقل مهما كان نوع هذا الإلحاد ومنبعه ومهما كانت فلسفته أو دوافعه»[3] وهذا يعني في واقع الأمر أن صمود الإلحاد في وجه تلك البراهين مما يؤكد كونه ضربًا من الهذيان، وحالة خصام مع العقل إن كان سليمًا.

وعلى نطاق فلسفي أوسع، تقدم براهين أخرى لإثبات وجود الله تعالى، هي وإن كانت زائدة على البراهين التي ساقها الشيخ البوطي وأغفل غيرها لسبب لا نعلمه، فإن ذلك لا يعني أنها خارجة عن نسق خطابه الكلامي في الحوار الدعوي، بل وإنما هي من صميم هذا الخطاب ولها أهميتها الإقناعية في خِضَمّه.

وتتمثل تلك البراهين الإضافية في أربعة من بين سبعة براهين وردت في الموسوعة الفلسفية العربية على اتفاق مع البوطي في ثلاثة منها، والأخرى هي:

1 - برهان الإجماع: وهو أن ثمة إجماعًا فطريًا لدى الناس جميعًا في الإيمان بوجود قوة عليا خالقة وموجهة لهذا الكون، وهذا من أبسط البراهين على وجوده تعالى.

---

(1) المصدر نفسه، ص 86

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 88 96

(3) المصدر نفسه، ص 95

2 - برهان المماثلة: وهو يقوم في إثباته لوجود الله تعالى على المماثلة بين وجود النفس في البدن ووجود الله في العالم، وأن وجود قوة خفية هي النفس تعمل على تسيير الجسم الإنساني هو في حد ذاته دليل على وجود الخالق عز وجل بالنسبة للوجود الكوني العام.

3 - البرهان الأنطولوجي: وهو برهان منطقي مركب من أنه إذا كانت فكرتنا عن الله تتضمن الاعتقاد بأن من صفاته الكمال المطلق فيترتب على ذلك التسليم بوجود من اعتُقِد في حقه الكمال؛ إذ الكمال المطلق يتنافى مع العدم، وهو من صفات العجز والنقص، وقد تعالى عن ذلك الحي الذي لا يموت، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

4 - برهان التذوق الصوفي والإشراقي الروحي !وهو برهان لا يدخل في عداد الخطاب الكلامي الفلسفي، وإنما هو وثيق الصلة بالخطاب السلوكي الأخلاقي وهو كما سنرى خاتم هذه الخطابات الأربعة في مجال محاورة ودعوة الماديين والملحدين إلى الإسلام، ولكننا آثرنا الإشارة إليها للإفادة بورودها في المصدر الذي نحن بصدد عرض عناصر براهينه المثبتة لوجود الخالق عز وجل مع تصرف منا في تعريفها، والتعبير عن مدلولاتها الاستدلالية [1].

ونخلص مما سبق، إلى الإشارة بأن الأستاذ البوطي اشتغل بتوظيف منهجه هذا في الرد على الفلسفة المادية في كتاب بعنوان: «نقض أوهام المادية الجدلية» فكان رده العلمي الدقيق الوافي بمثابة حوار موضوعي هادئ، مبتغاه نقض كل الأوهام المادية الزائفة لإقامة صرح الإيمان وإعلان سيادة الخطاب القرآني، القائم على الإيمان بالله عز وجل، وتوحيده بما يليق بجلال مقامه، وعظيم سلطانه.

والملاحظ: أنه لم يستعن في هذا الحوار الصامت، والمشار إليه آنفًا بشيء من المنطق الديني في مناقشة فكر لا يُسلِّمُ له بذلك، وإنما عمد إلى الفكر المنقود نفسه على

---

(1) ينظر: بشأن القول المفصل في مسألة هذه البراهين كتاب: الموسوعة الفلسفية العربية، مج 1 / 102 - 105، سبق ذكرها

طريقة الغزالي، وابن تيمية، والشيخ ديدات أحياناً، يلتمس من دقيقه وجليله ما يَشْحَذُ بِهِ معول هدمه لأوهامه، وما يضمن به إزالة شبهاته على أساس من العلم الصحيح، والفكر النير، والعقل الراجح .

وقد أبان عن أسلوبه في النقاش فقال في خاتمة كتابه المذكور :

ولقد رأيت أننا لم نعتمد في شيء من النقاش والحجاج على أسلوب خطابي، ولا على الطريقة التهويلية التي قد يسلكها بعضهم في النقاش وإبطال آراء الخصوم، إذ يخاطب العواطف ويثيرها أكثر مما يخاطب العقول ويتحاكم إليها . كما أنّا لم نستعن بشيء من المنطق الديني في إبطال مفاهيم لا يقر أصحابها بالدين لا في جوهره ولا في تفاصيله .

وإنما اعتمدنا خلال مناقشاتنا كلها على الميزان الذي لا يملك أن ينصرف عنه أحد من العلماء، أثناء التعرف إلى قيمة أي مبدأ أو فكرة أو مذهب؛ ألا وهو ميزان المنطق العلمي بمعناه الشامل العام الذي يتسع لتقدير كل الباحثين وفي مقدمتهم دعاة المادية الجدلية أنفسهم[1] .

ومن أهم ما يستفاد من هذا البيان هو: أن صاحبه يتطلع إلى أن يأخذ حملة الخطاب الدعوي بمقتضاه، ويلتزموا بالسير على موجبه في كل حوار دعوي، ولا سيما مع الماديين والملحدين بخاصة. ويبدو لي أنه قد توصل من خلاله إلى إمكانية إقناعهم عن طريقه، بما يشجع الدعاة على الإقدام عليه، وحسن استخدامه لصالح الدعوة إلى الإسلام، على أنه ليس لي من دليل على ذلك أكثر من قوله: «انتهى المنصفون من الباحثين والعلماء والمفكرين، وفي مقدمتهم الفلاسفة، إلى أن الإسلام هو الطهور الذي لا بديل عنه لتهذيب النفس الإنسانية وتزكيتها. ذلك لأن الإسلام في جوهره الاعتقادي؛ إنما هو اكتشاف لحقيقة الذات، ويقظة تامة إلى أبرز ما يسري داخل كيان الإنسان، ألا وهو الشعور الخفي بواقع عبوديته ومملوكيته لله عز وجل . . . وتلك هي

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: نقض أوهام المادية الجدلية، ص 300، ط 3 / 1420 هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت + دار الفكر بدمشق، سورية

مهمة القرآن الأولى إذ يتوجه بخطابه الحواري الهادىء إلى الناس»[1].

وكذلك يتوجه الشيخ البوطي أيضًا بخطابه منتدبًا إخوانه من علماء المسلمين ودعاتهم إلى ذات التوجه.

د - خطاب السلوك والمعاملة بأخلاق القرآن :

فمن الخطابات النفاذة في دعوة الملحدين والماديين إلى الإسلام، سلوك الداعية ومعاملته إياهم بأخلاق القرآن الكريم، ذلك أن للقيم والمبادىء الأخلاقية دورًا كبيرًا في التأثير في النفس البشرية، واستمالتها نحو الهداية، وإلى طريق الخير والفلاح. ومعلوم أن الإسلام يقدم منهجًا متكاملاً، يضمن لتابعيه الانسجام بين كافة القوى الجسمية والنفسية والعقلية والروحية، كما يؤمن للجماعة المسلمة التوازن في شتى مجالات حياتها الإنسانية.

وعليه؛ فإن الإيمان بالله الحق، حق وحاجة، وضرورة، والذي يحرم منه يكون أذل وأشقى من أي مخلوق آخر، حيث إن الإلحاد يولد في النفس الإحساس بعبث الحياة وتفاهتها. والإنسان المؤمن معصوم من هذا الشعور القنط المتشائم، وذلك لاتصاله الدائم بالله، وتطلعه الفائق إلى كريم رضوانه وتوفيقه، بدافع الوعي بقيمة الحياة الدنيوية العابرة، وما للإنسان من رسالة تكريمية في تعميرها وفق إرادة الله تعالى، وأمره القاضي بعبادته بمفهومها الأوسع والأشمل.

ومن المؤكد أن نفوسًا وبيئات -تموج بكل مفاهيم الحياة المادية الوضعية- تفتقر إلى فلسفة حكيمة، ومعنى كبير من هذا القبيل الذي يقدمه الإسلام غاية لوجود الإنسان، وطريقة لحياته وسعيه نحو مصيره الأبدي الخالد، ومن ثم فلا غرو من أن تكون محرومة كذلك من متعة التنعم بأكبر زاد للإنسان في رحلته الدنيوية الخطرة. ألا وهو زاد الإيمان والتقوى.

وبما أن لمبدأ الإيمان بالله ثمرات طيبة، وآثارًا نفسية واجتماعية واضحة النفع في حياة

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي وآخر: الإسلام والعصر تحديات وآفاق، ص 27 28، سبق ذكره

الإنسان والمجتمع، فإننا نلاحظ أن المجتمعات المغلوبة على أمرها بسيطرة الفكر المادي الإلحادي عليها، هي أحوج من غيرها إلى كل قيمة روحية سليمة، وفضيلة أخلاقية معتدلة، ومن ثم فإنها بمقتضى حاجتها تلك، يغلب عليها سرعة التأثر والانقياد لكل دعوة تقوم على أسس روحية ثابتة، وتقيم صرح القيم النبيلة، والأخلاق الفاضلة. وهذا ما لمسه واستوعبه الدكتور محمد عبد الله دراز- رحمه الله - فاتخذ من الخطاب الأخلاقي للقرآن الكريم منطلقاً لدعوته ومدخلاً واسعاً لاقتحام الفكر الغربي المعاصر برسالة الإسلام، ليثبت لأهل الغرب أنه حتى لو احتكمنا إلى المقاييس النفعية، والاعتبارات المصلحية العاجلة، فإن في صالحهم ومن حقهم الأخذ بأخلاق القرآن الكريم، التي هي من ثمار وآثار الإيمان بالله كما يقرره القرآن، ويدعو إليه الإسلام.

ولذا تعلق اهتمام الأستاذ دراز في دعوته بموضوع الأخلاق القرآنية، ولاسيما إبان إقامته في فرنسا لأهداف علمية، وفي ظرف كان يعاني فيه العالم بأسره والغربي خاصة، من تطورات رهيبة، وأوضاع حربية، هي غاية في المأساوية، وذلك في أربعينات القرن العشرين المسيحي. وقد شهد له الأستاذ مهدي الصابري في خاتمة دراسته عن فكره بأنه «حاول ما وسعه عرض أخلاق القرآن على الفكر الغربي وبلغته...»[1]. وأبرز دليل علمي على ذلك كتابه الشهير، وهو في الأصل رسالة علمية نال بها المؤلف درجة دكتوراه الدولة من جامعة السوربون في فرنسا بتاريخ 21/ 10/ 1947م وبعنوان: (دستور الأخلاق في القرآن)، وكان (الهدف الرئيس من هذا البحث، هو إبراز الطابع الحضاري النفعي للأخلاق التي تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعملية)[2]. ولهذا السبب عني في بحثه بدراسة مختلف الجوانب النظرية للفكر الأخلاقي من إلزام ومسؤولية، وجزاء ونية، ودوافع إلى العمل، وغيرها، مضافاً إليها البحث كذلك في المجالات العلمية المتعلقة بالأخلاق

---

(1) المهدي عياد الصابري: محمد عبد الله دراز والفكر الإسلامي المعاصر، ص 272، رسالة ماجستير مخطوطة، نوقشت عام 1983 م بكلية التربية من جامعة الفاتح، بطرابلس - ليبيا

(2) من كلام السيد محمد بدوي: في مراجعته لتعريب الدكتور عبد الصبور شاهين لكتاب: دستور الأخلاق في القرآن، ص "ي" ط 3/ 1400 هـ 1980 م، مؤسسة الرسالة، بيروت

الفردية والعائلية، والاجتماعية، والخاصة بالدولة ثم الأخلاق الدينية، وهي عنده تلك التي تنظم واجبات الإنسان نحو ربه[1].

على أن مما يهمنا إدراكه والكشف عنه في هذا الخطاب، هو أن الأستاذ دراز إذ يسلك ويدعو بأخلاق القرآن وإليها، فهو يرمي إلى غاية بعيدة، تقوم على إثبات أنه إذا كانت الأخلاق ضرورية للحياة الإنسانية، فإنها ليست قائمة بذاتها، بل هي ناشئة عن العقيدة، ولا مكان لها ثابت بدون عقيدة صحيحة. وتبعاً لصحة عقيدة الإسلام وامتيازها، فإن «أدنى ما يمكن أن نقوله في الأخلاق القرآنية، إنها تكفي نفسها بنفسها على وجه الإطلاق، فهي: أخلاق متكاملة»[2].

وهكذا نتبين من هذا الكتاب الذي يجمع بين كونه دستوراً للأخلاق، وأيضاً دستوراً لفكر مؤلفه وخطابه الدعوي في آن معاً، أن الشيخ دراز كان قد انتقل بالخطاب الدعوي الموجه إلى مجتمعات الفكر المادي الإلحادي إلى آفاق سلوكية أخلاقية، تقتضي كلاً من الدعوة والمعاملة بأخلاق القرآن الكريم.

هذا .. ومما لاشك فيه، أن من حق خطاب كهذا، أن يحظى بحظ وافر وإطار واسع من التأثير، على نحو يتعذر تقديره كماً ونطاقاً. وأما مسوغ اعتبارنا إياه من رواد خطاب السلوك والدعوة بأخلاق القرآن اعتماداً على كتابه المذكور (دستور الأخلاق في القرآن) فحسبنا رائداً في ذلك ما ورد في تقريظ الأستاذ عبد الصبور شاهين- مترجم الكتاب - بأنه «أثمن ما ترك الشيخ دراز من تراث وأخلد ما أبدع من فكر»[3].

وفيما نخلص إليه في ختام هذه الخطابات الأربعة، وهي تعكس في جملتها ثراء العمل الدعوي بإمكانيات منهجية متعددة، هو أنه لا وجه عندنا للمفاضلة بينها، وذلك بنظرنا إليها على أنها خطابات متكاملة، تتيح للدعاة متسعاً للتكيف مع ظروف الوسط الدعوي، بحسب مقتضيات الأحوال. وعليه؛ فإن لكل منها موقعه ومناسبته في الحوار الدعوي مع

---

(1) للتأكد من هذا يرجع إلى الكتاب، ويمكن الاهتداء إليه مبدئياً، حتى من الفهرس فقط

(2) دستور الأخلاق في القرآن، ص 684

(3) المصدر نفسه، ص "5 هـ"

الفكر المادي الإلحادي، بمختلف انتماءاته الفلسفية والأدبية والعلمية، كما أنها من جانب آخر - وهو مهم جداً تلتقي جميعاً بأسسها في الدائرة المنهجية الكبرى من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

إذن.. فالغاية الأساسية والمركزية هي الدعوة إلى الإسلام، وهي ما ينبغي - وبخاصة في هذا المجال الدعوي - أن تتآزر كل الخطابات المعروضة في سبيل تحقيقها، من منطلق قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23].

ومن هنا انطلق البعض في ظروف اعتقالية صعبة لمحاورة من جمعت بينهم الأيام من شيوعيين وملحدين برسالة الدعوة إلى الإسلام، فكان اللقاء الحواري تجربة مثمرة في نتاجها، ليكون بذلك رصيداً عملياً يضاف إلى حقل تجارب العمل الدعوي، ودفعاً معنوياً يجد فيه الدعاة في خطابهم للماديين والملحدين ما يعزز في نفوسهم أمل النجاح في أداء المهمة، والتوفيق في هدايتهم إلى ما يطهر اعتقادهم من أدران الإلحاد، وينير لهم سبيل الحق لتتحق لهم السعادة في دنياهم وأخراهم.

وإن تجربة كهذه حرية بوقفة ولو قصيرة عندها، تشجيعاً لروح العودة إلى مصدرها الأصلي بقراءة منهجية ومعرفية مستوعبة، مما يفيد الدعاة وينفع العمل الدعوي.

ثانياً: تجربة حوارية رائدة وموفقة مع ملحدين في سجون مصرية:

إذا كان من علمائنا المعاصرين من يرفع شعاراً سجالياً، هو أن الموقف (صراع مع الملاحدة حتى العظم)[1] ففي مقابله خطاب آخر يلتزم خط (الحوار مع الملاحدة حتى الإسلام). ومن نماذج هذا المنهج ما دار من حوار عقلي وسلوكي بين فئة مؤمنة، وأخرى

---

(1) هو عنوان كتاب للدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، يرد فيه على مغالطات صادق جلال العظم، في كتابه: نقد الفكر الديني

شيوعية ملحدة، كانتا قد وقعتا في قيد الاعتقال بسجون مصرية. وكان من حصيلة هذا الحوار النادر المثيل كتاب: (حوار مع الشيوعيين في أقبية السّجون) للأستاذ المحامي عبد الحليم خفاجي، الذي كان قائد هذ الحوار، ورائد الجماعة المسلمة في كل حلقاته.

وإن إطلالة ولو عاجلة على وقائع هذا الحوار وقضاياه من خلال الكتاب المذكور، تكشف للقارئ المتأمل أصالة الفكر الإسلامي وقوته، كما أنها توقفه على جدوى الصبر والانضباط في الحوار، مع التزام الموضوعية والهدوء في النقاش؛ ذلك أن الطرفين اصطلحا مقدمًا على هدف التعاون في البحث عن الحقيقة بكل الموازين العلمية، وألا يصار في سبيل ذلك إلى التناحر والمزيد من التنافر، بل يجب أن يتم في رحاب ضوابط الحوار ومبادئه، وفي فيض من آدابه وأخلاقياته[1].

وكان الجانب المسلم في هذا الحوار على قناعة تامة بأن «الإسلام لن يهزم أبدًا في حوار مفتوح ولا في نقاش ريان بالحرية الفكرية»[2] ولذا انطلق في حواره مع هذه الجماعة المنتمية لفلسفة ذات صبغة إلحادية، من منطلق منهجي قرآني هو: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾[3] فكان منه دليل ملموس على الصبر على الإصغاء، والتمتع بسعة الأفق لدى الداعية المسلم وهو يتابع في حلقات متواصلة، وإن كانت في جلسات متفرقة، أطروحات الرأي الآخر، وتوسعه في عرض ما يعتقده، مع أنه نقيض لما يعتقده المسلم من أصول ومبادئ إسلامية صحيحة.

وبما أن الإقناع بالأدلة العقلية الواضحة هو الوسيلة المعتمدة عند الطرف المسلم في هذا الحوار، فقد أفاض نقيبه كثيرًا في عرض ومناقشة جوهريات الفكر الماركسي الشيوعي، وذلك بتركيز علمي متميز، وسند مرجعي أصيل[4]. فكان يعزز نقده له بإحصائيات دقيقة، كما يدعمه أحيانًا بوقائع اجتماعية حية تنبىء بإفلاس التجربة

(1) ينظر: حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون، ص 8، ط 4 / 1406 هـ 1986 م، دار القلم، الكويت

(2) المصدر نفسه، ص 12

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 16 197

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 125 145

الماركسية، وخصوصاً في روسيا، وما والاها من دول شرق أوروبا، فكان هذا الإمعان في النقد والتقييم بحقائق الواقع وفي ميزانه، مجالاً مقنعاً لتفنيد كافة قضايا الفكر الماركسي: من جدلية مادية وتاريخية، وملكية وإلحاد وغيرها، الأمر الذي يجعل من هذا الحوار، ومن الكتاب الذي تضمن أدبياته مرجعاً هاماً، وربما خطاباً عملياً مؤسِّساً للمنهج الدعوي المعاصر في الحوار مع الماديين والملاحدة.

على أن القضية لم تقتصر على مجرد النقد والإبطال لما عند الآخر فحسب، بل كانت المهمة الأخرى التي ظلت حاضرة في وعي الجماعة المسلمة في هذا الحوار، هي واجب عرض الخطاب الدعوي ببيان أصول العقيدة، وما يرتبط بها من عبادات ومعاملات، ضبطها الشارع وألزم بها عباده[1]. فلذا، حين تعرض المحاور المسلم لنقض نظرية الملكية، وعائد العمل في الفكر الماركسي، أسهب في وقفة امتدت حتى نهاية المسيرة الحوارية في معالجة قضية المشكل الاقتصادي بالحلول الإسلامية، التي تعتبر الزكاة من أهم أبوابها، مما جعله يركز عليها مفصلاً القول في مصارفها بما يوحي بتأثيره الطيب في الحياة الاجتماعية، ذلك أنها تضمن حالة كريمة من التضامن الإنساني، تتحقق من خلاله ما تتشدق الماركسية بالنضال من أجل تحقيقه، ألا وهو العدالة الاجتماعية. ولأهمية هذا الموضوع بالنظر إلى الخلفيات والأهداف الفكرية التي يصدر عنها الطرف الآخر، ينزل المحاور المسلم بتلك الحلول الاقتصادية، إلى مستوى التطبيقات الواقعية في تاريخ المسلمين[2]، ليتبين لنظيره الشيوعي أن لها أهمية عملية لا تنكر، في توجيه واقعنا المعاصر، ومعالجة كافة المشكلات الإنسانية، ومنها ما يهم الماديين الشيوعيين أكثر من غيرها، وهي المشكلة الاقتصادية، وقضية تحقيق العدالة الاجتماعية.

ومن جملة الملاحظات التي يمكن الخروج بها من قراءتنا لحصيلة هذا الحوار الدعوي مع الملحدين، منها: أن الحوار بين الطرفين، لم يكن على - أهميته - نظرياً بحتاً، أي قاصراً في الأفكار والمفاهيم، بل كان يجري بجانب ذلك حوار سلوكي صامت بين

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 198 199

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 216 - 244

الفريقين للدلالة على مصداقية وقيمة المبادئ والأفكار التي يؤمن بها ويحملها كل منهما.

وهذا ما قصده الأستاذ عبد الحليم خفاجي بـ(البلاغ المبين) بالحجة والسلوك معًا[1]، كمدخل أساسي إلى النفس البشرية. ولخطر ما يمثله هذا المنهج السلوكي أسماه بـ(الحوار الكبير) وهو حوار صامت وعميق وكبير «يجري بين حياتنا وحياتهم، حول المجتمع النموذج من المجتمع النموذج»، وليس حوار الأفكار مع الأفكار، مقارنة بهذا الحوار، سوى حوار صغير في رأيه[2].

والحق أن هذا الحوار الدعوي مع الشيوعيين كان مثمرًا إلى حد كبير؛ إذ فيما يقول الأستاذ خفاجي: «كانت المفاجأة الكبرى فيما أعلنه ما يزيد على الأربعين منهم من انفصال عن التنظيمات الشيوعية وعودتهم إلى الإسلام، ومطالبتهم إدارة السجن بتخصيص سكن مستقل، وبدأنا بالفعل نسمع الأذان للصلاة وخطبة الجمعة بعد أن استجابت الإدارة لمطلبهم»[3]. كما أن نظرتهم العامة إلى مناظريهم من المسلمين قد تغيرت من صورة مخيفة كانت في نفوسهم عنهم قبل لقاءات الحوار، إلى أنهم يمثلون مجموعة ممتازة ضد الاستغلاق، مما تكشفت عنه فرص الحوار الدعوي بين الطرفين، وبدونها لظلت النظرة القاتمة هي هي.

ولعل مرد هذه الانطباعات الطيبة، والتأثيرات الإيجابية، يتمثل في المنهجية الحوارية الرفيعة التي أبداها والتزم بها الطرف المسلم، مع ما تميز به من حسن المعاملة، وسلوك فاضل كريم، أصاب الطرف الشيوعي الكثير من مزاياه وعوائده، ومن ثم، فقد كان لكل ذلك إلى جانب النظرة الموقرة إليهم من قبل الفئة المسلمة، على اعتبار أنهم فئة أخطأت الطريق إلى الحقيقة[4] دونما أي وصف آخر قد يخدش مشاعرهم، ويجرح كرامتهم، كان لذلك كله أثره في الحصاد الذي جنته هذه الفئة الداعية، وكسبته لصالح الدعوة الإسلامية.

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 79

(2) ينظر: المصدر السابق، ص 103 – 106

(3) المصدر السابق، ص 10 11

(4) ينظر: المصدر السابق، ص 59

وقد تحقق هذا بالرغم من وجود فئة متشنجة في فريق المحاورين المسلمين، كان يعلوها الغضب أثناء الحوار، فتنتفخ أوداجها، وتتغير ملامحها مهددة الشيوعيين بالاستتابة أو القتل، وبخاصة حين ينكر أحدهم رسالة المصطفى ﷺ مكتفيًا بأنه يعتقده فقط عبقريًا كسائر العباقرة[1].

ومن هذا الأنموذج الفظ الغليظ، الذي لا يصلح للدعوة؛ إذ من مناهجها الحكمة، ومن مبادئها وأخلاقياتها: الصبر والرفق، واللين . . ، ندرك أنه بحسب قول الأستاذ خفاجي: «لم يكن الرضى تامًا لدى بعض الإخوان الذين يعارضون سياسة الاتصال بالشيوعيين لأسباب مقنعة لديهم مما دعاهم إلى محاولة تعطيل الاستمرار أكثر من مرة، لولا أننا التزمنا الصبر والحكمة ودفعنا ضريبة الحب حتى لمس الجميع فيما بعد ثمار هذا العمل»[2].

وهذا مما يعني أن خطاب الحوار الدعوي يمتلك سعة في الإمكانات الفكرية والأدبية، تتيح لمن يحسن توظيفها مردودًا دعويًا كبيرًا ومعتبرًا؛ إذ بفضلها ارتد هؤلاء الشيوعيون إلى الإسلام، مثلما اهتدى إليه كذلك مفكر شيوعي بارز هو رجاء غارودي الذي رأى البعض في إسلامه ثورة على الإلحاد والمادية[3]، كما ذهب البعض الآخر إزاء إسلامه إلى أن «القيمة الحقيقية لغارودي هي في كونه يمثل دلالة كبرى على سمو هذا الدين على كل الفلسفات والأوهام البشرية، بل على كونه يمثل أقصى الإشباع الذي تنشده أكبر العقول الفلسفية في هذا العصر»[4].

وربما من المعلوم أن هذه الاعتبارات تستند على خلفية كونه قبل اعتناق الإسلام «كان ينكر تعالي الإله على الإنسان، مادام يؤمن بأن الإنسان ذاته هو الإله، هو الإله

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 210

(2) المصدر نفسه، ص 209

(3) ينظر: مقال الأستاذ: سيد فرج راشد: «إسلام رجاء غارودي ثورة على الإلحاد والمادية» ص 48، من مجلة الفيصل، ع / 99، س 9، 1405 هـ 1985 م، الرياض

(4) من مقال للأستاذ: محمد إبراهيه مبروك بعنوان: «كيف نفهم موقف غارودي» من ملاحق كتاب الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 375، سبق ذكره

الذي خلق الإله، هـذا الإنسـان، ليس إلا الإنسـان الـذي اندمـج في الحزب الشـيوعي واهتدى بالنظرية الماركسية إلى العمل الثوري الخلاق»[1].

وهكذا كان غارودي يتصور الإلحاد موقفًا ثوريًا تحرريًا، ينزع بالإنسـان لإثبـات قدراته، وتأكيد استقلاله التام من أسر كل معتقد ديني أو تفكير أسطوري.

والظـاهر أن غـارودي لـم يكـن بدعـًا في كـل مـن تصـوره الشـيوعي وموقفـه مـن الدين، بل فقد كان كذلك للأستاذ عادل حسين رئيـس تحرير جريـدة الشـعب المصريـة شأن مماثل؛ إذ حكى بعضًا من جوانبـه في حـوار صحفـي معـه، بعنـوان: «قصتـي مـن ظلام الشيوعية إلى نور الإسـلام» مفيـدًا بـأن المقـام قـد اسـتقر بـه في رحـاب الإسـلام، عقب رحلة بحث، ودراسة، واستكشاف امتـدت لـما يقـرب مـن عشـرين عامـًا، كـان خلالها يشتبك دومًا مع شقيقه أحمد حسين في حوارات عميقة وممتـدة عـن الإسـلام، وعن الفكر الديني عمومًا[2].

ثم إننا أخيرًا، من بين العديد من شواهد هذه الحالات المتكـررة عـن ظاهـرة الهجـرة مـن الإلحـاد إلـى الإسـلام، نجـد إلحـادًا دام بصاحبـه زهـاء عشـر سـنوات، يتلاشـى أمـام الإسلام كأن لم يكن، فيصبح المعافى منه مسلمًا متحمسًا في الإشادة بفضـل الإسـلام، مبرزًا مزاياه للآخرين، حريصًا على نقل قصة إسلامه ومعلوماته العميقة عن دينه الجديد إلى الآخرين، وهذا ما فعله بحق الأستاذ الأمريكي جفري لانغ، حـين سـجل انطباعاتـه الحافلة بالعلم والإحساس بالسعادة في كتابه: «الصراع من أجل الإيمان»[3].

إنه حقًا لصراع قائم بين الإيمان من جانب، والمادية والإلحـاد مـن جـانب آخر، ومـن الخير الـذي نسـعد بـه أن يُثبـت الإيمـان باسـتمرار قدرتـه علـى الانتصـار فيـه، وحسـم الأمر

---

(1) محسن الميلي: روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ص126-127، ط1/ 1413هـ-1993م، دار قتيبـة، بيروت: لبنان + دمشق – سورية

(2) ينظر: «قصتـي مـن ظـلام الشـيوعية إلـى نـور الإسـلام»، ص12 –15 مـن مجلـة لـواء الإسـلام، ع6، س44/ 1410هـ-1989م، القاهرة

(3) ينظر: كل الكتاب المذكور بشأن تفاصيل هذه التجربة، وبخاصة منه، ص 306 361، وهو مما سبق ذكره.

لصالح التوحيد والرشد، بكافة المناهج والأساليب الدعوية، وفي مقدمتها هنا مختلف خطابات الحوار الدعوي مع هذا الصنف من الناس، أي أسرى الفكر المادي الإلحادي. ولكن يبقى مع ذلك مجال لما ينبغي القيام به؛ إذا شئنا للعمل الدعوي في هذا المجال أن نسرع بخطاه، وحين نريد لنطاقه أن يتوسع أكثر فأكثر، ليستوعب المزيد من الانتصارات. وإني أعتقد أن هذا الهدف السامي يعتمد في تحققه على مدى اهتمام الدعاة بالتزود الكافي بما سنشير إلى بعضه، من آليات نرى أنها مما لابد من توظيفه بقدر كبير من الاستيعاب والفاعلية، تجسيداً واقعياً لمبدأ «الحوار مع الماديين والملاحدة حتى الإسلام أو السلام».

ثالثاً: من العدد والآليات الضرورية جداً في الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي:

أ - التعمق في دراسة الفلسفات القديمة والمعاصرة:

إذا كان القليل من العقول الملحدة، هم ممن ينتمي أغلبها إلى مدارس فلسفية قديمة أو معاصرة، فقد لزم بمقتضى الحال التعمق في دراسة الفلسفة في كافة أطوارها ومراحلها، وفي مختلف نزعاتها وقضاياها؛ وذلك لأخذ العلم بمستنداتها الضعيفة، وإدراك ما فيها من مطاعن لا تخفى على البصير المتعمق في دراستها في ضوء هدي الإسلام، ووفق منهاجه الحضاري الأصيل. الأمر الذي يتيح قدراً كبيراً من الحوار الدعوي الناضج مع قادتها وأتباعها حول مختلف المسائل التي تجب منا قشتها بحدية نقدية فائقة، من شأنها أن تنتهي بأصحابها في الغالب إلى دائرة الإيمان بالله، وبما يتصل بهذا الأساس من أصول وأركان إسلامية، توفر ملاذا آمناً مطمئناً لكل النفوس المتعطشة إلى السعادة، وتؤمن راحة وهداية لكافة العقول الكليلة التائهة في متاهات البحث عن الحقيقة المطلقة.

وحبذا لو استلهم الدعاة المحاورون أهمية ما عبر عنه أحد الشيوعيين العائدين إلى الإسلام، حين قال في تصوير ما يشكله من خطورة مقلقة للفكر الشيوعي: «... أستطيع أن أكلمهم بلغتهم، والدخول لهم من المداخل التي تصل إلى صميم عقيدتهم، وأفكارهم... وهذا هو مكمن الخطورة الذي أمثله سواء على صفوفهم

من الداخل أو في الدوائر الثقافية بشكل عام»[1] .

ولا أحد يستطيع أن ينكر عظم مقدار ما يمكن أن يتحقق للدعوة إلى الإسلام بعدة قوية كافية من هذا القبيل ؛ حيث إن من طبيعة دعوة الإسلام أن تلقى قبولاً ، وتشهد رواجًا كلما وجدت عقولاً مفكرة تتمتع بصحة النظر وبعده .

وإذا كان في علماء القرون السابقة ، من تحامل على الفلسفة ، وثار على أهلها محرضًا السلاطين على ردعهم للكف عنها ، وزجر الآخرين عن الاشتغال بها ، كما نقل مثلاً عن الفقيه الشافعي ابن الصلاح (ت650 هـ) الذي أفتى بأن «الفلسفة رأس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة ، والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تعليمًا وتعلمًا قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه عن نبوة نبينا ﷺ مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة»[2] . فمما يفهم من هذا النص أن لهذا الموقف وهذه الأحكام ظروفها ومبرراتها التاريخية ، ولا تنطبق على الفلسفة ، حين يتوصل بها إلى إثبات وجود الله تعالى ، ووجوب الإيمان به ، وقد تكون عند الشيخ المفتي من أحرى الفنون بالقبول والدراسة عندما تكون من وسائل إقرار رسالة سيدنا محمد ﷺ والتبشير بمحاسن الشريعة ومزاياها .

ب - الاهتمام بالعلوم الحديثة ، واستخدام معطياتها العلمية الثابتة لصالح الدعوة إلى الله تعالى :

إن ثقافة واسعة بكل من الدين ، والعلوم الحديثة ، تعتبر عدة لازمة للداعية في هذا المجال ؛ حيث إن من الركائز التي ينبغي أن يبنى عليها منهج الحوار مع الملحدين «استخدام نتائج الكشوف العلمية والتجريبية الحديثة للبرهنة على صحة التفكير

---

(1) قصتي من ظلام الشيوعية إلى نور الإسلام ، ص 15 ، من لواء الإسلام ، ع 6 س 44 سبق ذكره

(2) أبوعمرو بن الصلاح : فتاوى ابن الصلاح ، ص70 ـ71 ، تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي ، ط1/ 1403هـ = 1938م ، دار الوعي ، حلب – سورية

الإلهي، كأبحاث الفلك ونشوء الحياة والطب والنبات... إلخ»[1] وذلك لا لنفي التعارض فيما بين حقائق الإسلام، وما تأكدت صحته من معطيات العلم الحديث فحسب، وإنما أيضًا لإثبات أن الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم هي غاية في الدقة العلمية، وإنّ سبق الإشارة إليها في ظرف تاريخي متخلّف علميًا، يعدّ من أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، مما يقتضي الإيمان المطلق بكل ما جاء فيه، والتّسليم التام لما تواتر أو صح من سنّة مبلغه ﷺ. وتجدر الإشارة كذلك إلى أهمية التركيز الدعوي هنا، على قضية العلاقة بين الإسلام والعلم؛ لإبراز مستوى المكانة التي بوأها الإسلام للعلم، معززة بنصوص مقدسة، وتطبيقات تاريخية متقدمة، وسيادة فكر علمي مستنير في تراث المسلمين وإبداعاتهم القديمة والحديثة. ذلك أن الدين الإسلامي الذي بهر العالم بإنسانية حضارته يتطلع إلى أرقى المستويات الحضارية اللائقة بمقام التكريم الإلهي للإنسان. ولا شك أن للعلم دورًا كبيرًا في أداء هذه المهمة، وبذلك ما كان الإسلام ليغفله بحال من الأحوال، وما كان للمسلمين إهماله في كل فترات قوتهم وعزتهم.

وهكذا... إذا ما استقرت هذه الحقيقة في وعي الملحدين تحت شعار العلم التجريبي، فستنقشع أوهام اختلاق التنافي والتضاد بين العلم والدين، وبخاصة الإسلام، ومن ثم تقوم الحجة على الملحدين بما انتهى إليه الأستاذ (السيد سابق) من أنه لا سند للإلحاد؛ وذلك في قوله: «أخيرًا نقرر أنه لم يثبت من ناحية العقل، ولا من ناحية العلم أي دليل يمكن الاستناد عليه في نفي وجود الله، وكل ما ذكره الملحدون ما هو إلا وهم لا يستند إلى منطق سليم، ولا علم مكين... على أن هذا العصر الذي بلغ فيه العلم شأوًا لم يصل إليه من قبل لم يستطع أن ينكر وجود الله، بل إن علماء ه من أشد الناس إيمانًا بالله، ولا نريد بالعلماء؛ السطحيين من أدعياء العلم، وإنما نقصد العلماء الحقيقيين»[2].

---

(1) في مناهج الدعوة والتبليغ، ص18، ط1/ 1417هـ-1996م من منشورات لجنة التأليف بمؤسسة البلاغ، في طهران -إيران.

(2) العقائد الإسلامية، ص 48 49، ط 1423 هـ 2002 م، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس - ليبيا.

ج – صياغة معاصرة لعلم الكلام من أجل مواجهة الفكر المادي الإلحادي[1] :

من المعلوم أن علم الكلام قد مثل في سالف القرون سلاحًا بيد المتكلمين في مواجهة حركات الزندقة، ومقاومة كافة الأبنية الفكرية والدينية المخالفة لعقيدة الإسلام، ومقتضى رسالته في الفكر والسلوك. وكان من أهم أسباب نشأته وتطور حركته، خوض حوارات دعوية مقنعة مع أصحاب الملل والنحل السائدة في تلك العصور. يقول أحد الباحثين عن مهمة هذا العلم قديمًا: «إن علم الكلام في الإسلام كان ذا هدفين: الأول منهما هو تنظير العقيدة بالاعتماد على النقل والعقل، وغرضه من ذلك التصديق بالعقيدة وتحلية الإيمان بالإيقان، والثاني أن هذا العلم كان ردًا ودفاعًا عن هذه العقيدة في وجه مخالفيها سواء من الفرق الإسلامية المغالية، أم من أهل الملل والديانات الأخرى»[2]. وهذا تفصيل للموجز المركز الوارد عن أحد أقطاب هذا العلم، وهو عضد الدين الإيجي الذي عرف علم الكلام بأنه «علم يقتدر معه إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»[3]. وفيما يخص دور هذا العلم في مقاومة الفكر الإلحادي فمن عظم مبلغ أهمية هذا الجانب عند علماء الكلام أن جعله صاحب (مفاتيح العلوم) في مقدمة ما يعنى المتكلمون بالكلام فيه من أصول الدين، فقال: «أولها القول في حدوث الأجسام والرد على الدهرية الذين يقولون بقدم الدهر، والدلالة على أن للعالم محدثًا وهو الله تعالى، والرد على المعطلة وأنه عز وجل قديم عالم قادر حي وأنه واحد»[4].

---

(1) ليس من شأن الباحث في هذه العجالة، التصدي الواسع بالتحليل والتفصيل لكل قضايا ومسائل ومناهج هذا المشروع الفكري الكبير، وإن ما يهمنا هنا وما يدخل في مكنتنا أكثر من غيره في هذا الطرح ؛ هو إلقاء دعوة علمية للقيام بهذا الشأن الدعوي الجليل، ولعلها تلقى قبولاً وافراً من قبل من لهم قدرة على شيء من ذلك، مما لا قبل لغيرهم به.

(2) الطاهر بن عريفة: ابن حزم الأندلسي وكتابه الفصل، ص 30، سبق ذكره

(3) الشريف الجرجاني: شرح المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي، مج1/ 40، ط 1 / 1419هـ 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت

(4) محمد أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص27، النشرة الـ1/ 1342هـ مطبعة الشرق: القاهرة – مصر، وتعني الدهرية: من يقولون بقدم الدهر، والمعطلة هم من لا يثبتون للباري عز وجل وجودًا، ينظر، ص25، من المصدر نفسه.

وعليه فإذا ثبت وتأكد القول بأن «علم الكلام عند المسلمين يُعد من أهم العلوم الأصيلة النشأة والمنبت، الذي وقف في وجه التشويش الإلحادي والزندقي، وما إلى ذلك من مظاهر الانحراف العقائدي والنظري أو الأيديولوجي بلغة العصر»[1] إذن؛ فما المانع من إحيائه، واعتماده في عداد آليات المقاومة والإقناع، طالما بالإمكان تحديث موضوعاته، لتتناسب مع أرضية المقاومة الدعوية، لكل التيارات المادية والإلحادية المعاصرة، علمًا بأن ما هو متوفر للمسلمين اليوم من حجج وحقائق متنوعة، للإقناع برسالة الإسلام، تعد قاعدة عريضة ومتينة، لإقامة صرح علم الكلام الدعوي الجديد، وذلك في ظرف تاريخي يلمس فيه الداعية وحيد الدين خان أن ثمة ضرورة كلامية تقتضي منا المواجهة بخطاب دعوي، في مستوى علمية العصر وحداثة أفكاره[2].

هذا . . وإني ألمح أن هذا الاتجاه الكلامي الجديد آخذ في النمو والاتساع ولعل ذلك بسبب قناعة أصحابه بما أفصح عنه من برَّر دعوته إلى تجديد علم الكلام بحجة قوله: « . . إن الواجب أصبح يقتضي أن نبدأ بوضع علم الكلام في مكانه الصحيح، وهو الدفاع عن العقائد الدينية أمام تلك الحروب الضروس المعلنة على تلك العقائد»[3]. وذلك من قبل قوى المادية والإلحاد. ومن هنا ولذا يتحتم على رعاة العمل الدعوي ما يلي:

د - حشد كافة الطاقات الأخلاقية والروحية في العالم للمواجهة:

إن قضية مقاومة تيار المادية والإلحاد في العالم، تقتضي لكي ينحسم التدافع لصالح القيم والإيمان، حشد واستنفار كافة (أنصار الإيمان والفضيلة) نحو مواجهة المادية والإلحاد، ومختلف صور الانحراف الفكري ومظاهر الفساد الخلقي. ولو أن

---

(1) محمد محمد بنيعيشي: علم الكلام بين الأصالة وموضوعية المواقف، ص46، من مجلة دعوة الحق، ع313، س36، 1416هـ 1995م المغرب.

(2) ينظر: كل من كتابيه: الإسلام يتحدى، ص 15، 33، وكتاب القضية الكبرى، ص 117، سبق ذكرهما

(3) بركات عبد الفتاح دويدار: (علم الكلام بين الكائن وما يجب أن يكون)، ص 394 395، من مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، ع 2، س 2/ 1394 1395 هـ 1974 1975 م، من منشورات جامعة قاريونس، بنغازي - ليبيا

هذه المهمة جسيمة إلا أنها واقعية وممكنة؛ لتوفر بعض إرهاصاتها القولية والعملية، ذلك أن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية تتبنى فيما يبدو لي هذه الفكرة؛ حيث قد ورد في خطاب أمينها العام في ندوة (الدين والتدافع الحضاري بمالطا عام 1988م) ما يمكن الاستدلال به إلى جانب الوقائع وجهودها اليومية الحية على هذا الطرح؛ إذ توجه إلى الحضور من فعاليات إسلامية ومسيحية بخطاب، منه قوله: «. . . أنا سعيد أننا لم نعد في مثل الموقع السابق الذي نتحاور فيه مسيحيين ومسلمين نقول فيه ما عندنا وكل ما يقول ما عنده. . . ولكننا اليوم معًا وجميعًا نناقش قضية تهمنا جميعًا ونقف منها في موقف واحد وهي قضية التدافع الحضاري»[1].

ومن الإرهاصات العملية ما أذاعته الإذاعة البريطانية المسموعة (ب، ب، سي) وذلك بقسمها العربي ظهيرة يوم السبت 13/ 4/ 2002م من خبر مفاده: أن مظاهرة إسلامية حاشدة شهدتها مدينة (لندن) بدعوة وتنظيم من الاتحاد الإسلامي في بريطانيا، شارك فيها عدد كبير، يتراوح ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين ألف متظاهر: من عرب ومسلمين، بمعيّة ومساندة أفراد وجماعات من الفصائل الإنسانية في بريطانيا؛ وذلك تضامنًا مع الشعب الفلسطيني المجاهد، وتأييدًا لحركة انتفاضته الشريفة المباركة.

وهذا وغيره، مما يدل على توفر إمكانات حشد اتجاهات روحية وأخلاقية متنوعة، للوقوف في وجه الظلم والعدوان، والتصدي لكل سلوك يتدنى وينحط بالإنسان دون مستوى فطرته الخيرة، مجردًا من كل ماله حظ من الأخلاق الفاضلة، والقيم الإنسانية الرفيعة، وهي من ضرورات الحياة الإنسانية، بقدر ما هي من آليات الخطاب الدعوي، وخصوصًا في الحوار مع أصحاب الفكر المادي الإلحادي.

هـ - الالتزام بأخلاقيات الدعوة وآداب الحوار:

إن الحوار الدعوي في هذا المجال، بحاجة كغيره من الأنشطة والمواقف الدعوية والإسلامية عامة، إلى سلوك أخلاقي رفيع مستواه، ذلك أن ظهور ثمرات الإسلام في حياة

---

(1) الدين والتدافع الحضاري، ص 14، سبق ذكره.

المسلم وتصرفاته مع الناس يعد البرهان الأقوى على إيجابية هذا الدين، ومدى سمو قيمه التي لا تناظرها أيّ قيمة دينية أو دنيوية فاضلة على الإطلاق. وفيما يتصل بآداب الحوار، فالملاحظ أن القرآن الكريم يرسم لدعاته منهجاً متميزاً بموضوعيته، سباقاً إلى كل ما يضمن للحوار تحقيق غاياته الإقناعية، أو الوصول من خلاله إلى كلمة سواء بين الطرفين، وإن أدى ذلك بالداعية المحاور إلى النزول منزلة الشاك أو الجاهل بموضع الحق فيما بينه وبين نظيره المحاور. الأمر الذي يقتضي من الطرفين تعاوناً صادقاً في سبيل البحث عن الحقيقة؛ من أجل الأخذ بها معاً، وذلك من منطلق قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: 24].

على أن هذا الموقف في حقيقته، ليس موقف الشاك أو المتردد، كما أنه ليس من قبيل التنازل أو التخاذل، وإنما هو موقف المؤمن بعقيدته، الواثق بحقه وقدرته على الإقناع بها، وبتوفيق الله عز وجل، دونما شجار ولا شغب، بل هو موقف يؤمن بحرية الآخر في الاعتقاد، ويضمن له حقه في الحوار، ملتزماً بما يجدي معه من منطق هادئ، وأسلوب حكيم لطيف، يتصدى بعقلانية وكفاءة ناضجتين لمناقشة ما يدلي به الآخر، منتهياً إلى نقضه، فيتجاوزه لبيان الحق الذي تشارط الطرفان على البحث عنه، باعتباره ضالة مشتركة ومفيدة لكليهما.

على أن قضية الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي، هي فوق كل هذا عبارة عن عملية إنقاذ أرواح شاردة، وإسعاف نفوس ومعتقدات تائهة في ضلالها. إذن؛ فيجب التلطف في ذلك إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه الحالات الشاذة، من أساليب المعاملة باللين والرفق والصّبر والتضحية، وغيرها من الأخلاقيات والآداب التي تتوفر القناعة بقدرتها الإسلامية على إنقاذ الناس من الضلال، وإخراجهم من ظلمات الشك إلى نور اليقين والاطمئنان.

وعن بعض هذه العدد والآليات الكفيلة بتحقيق الغرض الذي نرومه في هذا المجال الدعوي، تحدث الشيخ كفتارو- رحمه الله - في شيء من التفاؤل والتهوين فقال:

« . . . الإلحاد الذي نسمعه والذي رأيته حسب تجاربي، إلحاد برجل الكنيسة . . إلحاد بالعقائد الكنسية، وهم يفهمون الإسلام فهمًا عكسيًا . . يفهمون عن (الألماس) أنه فحم أسود . . وهذا لا يحتاج إلى عناء إلا أن نريهم (الألماس) فقط : لا نحتاج إلى دليل، لا نحتاج إلى أدلة وبراهين . . لكن نحتاج إلى دعاة أصحاب كفاءات قلبية وروحية، وعلمية تجددية، وعقلانية قرآنية، وحكمة محمدية، نحتاج لبناء دعاة من برنامج ثوري مجدد يقوم على مدرسة القرآن . . المشروح والمفصل والمبين في سنة سيدنا رسول الله . . . »[1] عليه الصلاة والسلام . وهكذا تتأكد الحاجة في الحوار الدعوي في هذا المجال إلى استعدادات ما تزال ناقصة حتى الآن، ولكن إلى متى سيظل الوضع على ما هو عليه، من نقص في الكفاءات، وفتور في الهمم، وإهمال شبه تام لعدد كبير من مجالات الخطاب الدعوي المعاصر ؟!!!

وأخيرًا ..، يعد ما سبق من أهم عدد وآليات الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي، كما أننا بهذا نكون قد أتينا على عرض ومعالجة أهم المجالات التطبيقية الممكنة لمنهج الحوار الدعوي الذي انطلقنا من أبرز نماذجه المعاصرة، وهو (منهج الشيخ أحمد ديدات في الحوار والدعوة) لننتهي أخيرًا إلى كليات ونتائج، مما يمكننا إجمالها في خاتمة هذه الدراسة، وذلك على النحو الآتي :

❖ ❖ ❖

---

(1) بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، ص 23، سبق ذكره.

الخاتمة:

إذا كانت التقاليد البحثية قد جرت بتضمين نتائج البحوث في خاتمتها، فيمكننا تلخيص أهم ما خلص إليه هذا البحث من معطيات علمية في العناصر الآتية:

1 - إن منطقة جنوب أفريقيا منطقة جغرافية على قدر كبير من الأهمية والحيوية، وذلك من شتى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبخاصّة على صعيد القارة الأفريقية، وقد عملت مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية والإنسانية على صياغة تاريخ هذا البلد، مما أتاح للدعوة الإسلامية دخولاً متأخراً إليه، بالرغم من كل ما يمثله من ثقل ومكانة لها اعتبارها في أفريقيا، قارة الإسلام والمسلمين.

2 - اضطلع المسلمون منذ وصولهم إلى جنوب أفريقيا بدور فعّال ومشرّف في حياتها السياسية والدينية، وقد كان لجهودهم الصادقة فضل مضايقة التنصير، وتضييق الخناق عليه، مع كل ما تميز به سوقه هناك من رواج وازدهار، بسبب ارتباطه بحركة الاستعمار التي التزمت تجاهه بدعم لا حدود له، كما كان لمواقف كل من القيادات والدول والمنظمات الإسلامية، في مساندة حركات وأنشطة التحرير في جنوب أفريقيا، من الدور والتأثير ما قدّم انطباعاً حميداً عن كرامة الإسلام، بل جسد في قلب وذاكرة إنسان هذه المنطقة صورة بطولية رائعة عن الإنسان المسلم، لربما وُفّقت بجاذبيّتها في اقتياد البعض للانضمام إلى أمة هذا الدين الذي يحرر الإنسان، ويحقق له موفور كرامته وكامل سعادته.

3 - انطلاقاً من الرأي السائد في تحديد دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا بعام

1667م، على يد الداعية الأندونيسي الشيخ يوسف - رحمه الله - ومن كان معه من المهاجرين، بسبب نضالهم الجهادي المستميت ضد الاستعمار الهولندي آنذاك، فإن هذه الدراسة في مقاربة أولية -غير مسبوقة - حاولت رصد مراحل انتشار الإسلام في جنوب أفريقيا بتحديد أهم سماتها ورسم أبرز معالمها، وقد تمخض عن هذه المحاولة ضبط خمس مراحل أساسية حتّى الآن، يلاحظ من خلال تتبعها ما شهده العمل الإسلامي هناك من تنوع كمي في النشاط وتطور نوعي في رصيد الوعي، وتجارب التنسيق والتنظيم.

ومما يثلج الصدر كحصيلة لكل ذلك أن العمل الإسلامي في جنوب أفريقيا إذا كان قد تأصل على امتداد ما يربو على ثلاثة قرون، فإنه اليوم قد تفرّع وأينع ثماره، ويتمثل ذلك واضحاً من عدّة أمور :-

أولاً : في ما تكتظُّ به البلاد إسلامياً من أنشطة دعوية وتربوية وتعليمية.

وثانياً : في فيضان هذا النشاط الإسلامي المتدفق إلى ما وراء البلاد، لتنتعش الدول والمناطق المجاورة لها في عموم هذا الإقليم الجنوبي برمّته.

وثالثاً : في تطويق العمل الإسلامي هناك للنشاط التنصيري المكثف بمراكزه وإمكاناته الهائلة، وأيضاً في ظهور شخصيات ومؤسسات إسلامية، كان لها إسهام متميز ومشكور في تفعيل أنشطة الدعوة إلى الله، وفي تنظيم شؤونها، والاهتمام بدفع وإمداد كافة روافد العمل الإسلامي في الداخل والخارج.

4 - ومن حيث أهم الوسائل والعوامل التي ساعدت على نشر الإسلام هناك، فمن هذه الأخيرة: عامل قوة الإسلام الذاتية، العامل البيئي الخصب، نموذجية دعاة الإسلام. ورقيّهم الحضاري، في مقابل عامل الضعف في حركتي التنصير والاستعمار، أما الوسائل الدعوية في هذا النطاق فمن أبرزها: الالتزام بالشعائر الدينية، تبني الأطفال الشاردين والمهملين وتنشئتهم على الإسلام، الزيارات الأخوية من العالم الإسلامي إلى جنوب أفريقيا للدعوة وتفقد أحوال المسلمين،

وشدّ أزرهم والدفع بهم إلى الأمام ونحو الأفضل، بالإضافة إلى نشاط الحوارات الدينية والمحاضرات الدعوية العامة، فضلاً عن الجهود الدعوية في إطارات جماعية منظمة ومنسقة.

5 - في إطلالة سريعة على الوضع المعاصر للإسلام والعمل الإسلامي في جنوب أفريقيا، انتهى البحث إلى جملة من التحديات والمشكلات المثيرة، وقد أشير على نحو خاص في سياق الحديث عن التحديات إلى كل من تحدي المحيط الثقافي المتغرّب، وكثافة النشاط التنصيري المعادي والمحموم، وقد وقف الباحث عنده لتجلية مكمن الخطورة فيه، وإبراز ما يمتلكه من آليات وقدرات الممانعة والمجابهة. بالإضافة إلى التحدي الذي يواجهه العمل الإسلامي من جانب كل من مساندي الحركة الصهيونية، والحركات الصنيعة والعميلة لها، من قاديانية وبهائية، قد عرفتا بمروقهما من الإسلام، وبراءة المسلمين منهم.

وفيما يخص مشكلات الأقلية المسلمة هناك، ترد طائفة من القضايا في هذا الإطار، منها ما يتصل ببعض أركان العمل الإسلامي وآلياته، كمشكلات تعليم اللغة العربية والمعارف الإسلامية، والحاجة إلى خبراء الدعوة والتعليم وعدم كفاية المنح الدراسية المخصصة لأبناء هذا البلد في الجامعات العربية والإسلامية، كما أنّ منها ما يتعلّق بضيق وعاء الفهم الديني عند بعض الناس مما يجرّ أحياناً إلى خلافات في هامشيات القضايا كمسائل اللّحية ولغة خطب الجمعة، وشروط الإمامة في الصلاة وغيرها، كما أن من المشكلات أيضًا ما هو ناتج عن الخلط بين المأثور الديني والموروث الثقافي، وتتبدى مظاهر هذا الخلط في كل من قضية تغيب المرأة المسلمة عن أداء دورها الإسلامي المناط بها، وفي تأثير الإنتماء العرقي، والتعامل-أحياناً- بين مجموعات الجالية الإسلامية الوافدة على أساس طبقي قبلي يمقته الإسلام، ويستهجنه الإنسان المسلم، إلى جانب مشكلة الوصاية على المساجد ومؤسسات العمل الإسلامي من قبل أبناء الروّاد والمؤسسين، وبخاصة ممن لا فقه لهم بشؤونها، ولا صلاحية فيهم لإدارتها بكفاءة واقتدار.

6 - إن منطقة الجنوب الأفريقي غنية بتنظيماتها الإسلامية، ورجالاتها الدعوية، وهي من حيث ما يميزها من خصوبة دعوية، تعتبر-بالنظر إلى تحمس مسلميها في التمسك بعقيدتهم من جانب وحرصهم على التعاون في نشرها باستحداث الوسائل والأساليب الملائمة والجذابة، من جانب آخر- كنزاً مفتوحاً أمام حركة العمل الإسلامي، وذلك لما لها من عوامل التجاوب وأسباب القبول لكل دعوة حقّة، ترتكز على صحّة العقيدة، وما يتفرع عنها من قيم إنسانية نبيلة، وسلوكيات فردية واجتماعية سامية متحضرة.

وعليه، فإن هذه الرسالة لا تألو جهداً في استلفات عناية عامّة المسلمين نحو تكثيف الاهتمام بالمستقبل الإسلامي لهذه المنطقة، مع تصعيد مستويات التعاون والتنسيق مع الفعاليات الإسلامية، وكل من ينتمي-عموماً- إلى الإسلام الحقّ، وينتسب إلى أمته.

7 - في خضم المناشط والشخصيات التي برّزتها هذه البيئة، يرد اسم الداعية أحمد ديدات، بشخصيته الفذة وجهوده الكثيفة في خدمة الدين والأمة، وإن دراسة سيرته في مراحلها الأولى لا تكشف عن أيّ ظروف استثنائية، أو ملامح عبقرية كان يتمتع بها، بل توحي بميلاده ونشأته في أسرة متواضعة وفي ظروف اجتماعية واقتصادية ضيّقة، مما عاقه في فترة مبكرة من حياته التعليمية عن المواصلة في التحصيل، مع شدّة رغبته المتأججة-مذ ذاك-في الارتباط بالتعليم، والتعلق بكل ما له صلة بالعلم والفهم.

8 - في ظروف طارئة ومفاجئة، وجد أحمد ديدات نفسه في رحاب العمل الإسلامي، وذلك على سبيل الاضطرار في بداية أمره؛ ذلك أن التحديات التنصيرية التي كانت تنتابه فرضت عليه ضرورة الدفاع عن الذات والمعتقد، ومن ثمّ أخذ يتهيأ لهذا الواجب الشريف والعظيم، متزوداً بما يلزم له من زاد وعتاد.

وقد أسهمت فرص تكوينية، في تنمية مواهبه الدعوية، أفاد منها ديدات أيّما

إفادة، وكان من الثمرات المبكرة والكبيرة لجهوده الدعوية الناشئة تأسيس المركز الدولي للدعوة الإسلامية عام 1957م، إلى جانب محاضراته الأسبوعية الناجحة، وبداية رحلاته الداخلية لقضايا الدعوة، وخدمة الإسلام، بالإضافة إلى محاولة إصدار منشورات مضادة للفكر الكنسي المنحرف.

وفي عام 1959م تفرّغ ديدات كلياً للعمل الإسلامي، وكان لهذا التفرغ من النتائج الباهرة ما جعل صاحبه شخصية دعوية متميزة على الصعيد العالمي، وهو الأمر الذي قام على أساسه التفكير في إعداد هذه الدراسة حول جهوده ومنهجه.

9 - ومن حيث أنشطة ومجالات عمله الإسلامي، فهي متعددة الوجوه وقد تم إيراد أهمها في مبحثها من البحث، وهي مجالات تتراوح ما بين عامة وخاصّة ابتكرها ديدات، وتميزت بطرافة وجاذبية بالغة، ويبلغ تعداد ما أحصي منها في هذا البحث نحو خمسة عشر مجالاً ونشاطاً دعوياً إسلامياً.

والظاهر أن الشيخ ديدات يكاد لا يعرف من بينها-خارج حدود بلده-إلا بنشاط الكتابات والمحاضرات والمناظرات، وبخاصة في وجه المنصرين وكبار القساوسة.

10 - وبالنسبة لمنهجه في الحوار الدعوي، فبالرغم من كونه منهجاً مركباً ومتكاملاً إلا أنه كذلك يتصف بالبساطة والوضوح، ويتّسم بالقرآنية والفاعلية. وقد حاولت الدراسة التعمق في استكشاف ملامحه وقسماته البارزة، فخرجت من جوانب متعددة بطائفة من العناصر والمحاور، تمثل كلاً من جوهر هذا المنهج، وأسسه ومرتكزاته النصية والعقلية، إلى جانب الدعائم التي تسنده، وتعزز فاعليته، فضلاً عن الخصائص الأسلوبية لهذا المنهج، وقد أدت الرغبة في إبراز كيان هذا المنهج وتوضيح معالمه، إلى استقصاء سماته وملامحه العامة، والتي يمكن اعتبارها حدوداً فاصلة بينه وبين غيره من المناهج إن وجدت.

والغاية من كل ذلك تشكل الجزء الأكبر من رسالة هذه الدراسة، وهي فتح آفاق الاستفادة من هذا المنهج بعد التعرف عليه بوضوحٍ كافٍ، ولا سيما أنه يخدم إلى حد

كبير قضية الحوار الديني المنشود في عالمنا المعاصر، ومن ثم يمكن أن يسهم للعمل الإسلامي في تحقيق بغيته، ويعيد لعالمنا الحائر القلق ضالته النفيسة.

11 - أما المؤثرات الموضوعية التي أطرت شخصية صاحب هذا المنهج الفعّال، فتفتقت في رياضها مكوناتها الذاتية، فهذه المؤثرات تتحدد في أوساط عائلية ومجتمعية، وفي شخصيات إسلامية وكتب ومطبوعات دينية، وأما ما تفاعل مع هذه المؤثرات من خصائصه الذاتية، فتصنّف إلى مميزات شخصية، تنتظم في طموحه الفائق والواسع، وفي جديته الدافعة، وحبه للعمل الشريف، وأيضاً حبه لدينه، وتفانيه في خدمته، وإلى تجارب شخصية، منها ما هي محضة وخالصة له، وأخرى مقتبسة من الآخرين، ويتعذر في كل الأحوال حصر كلّ من النوعين، نظراً لتنوع التجارب وتشابكها.

12 - وبالنسبة لصدى منهجه الحواري في عالم الاعتقاد والدعوة، فيظهر أن -ثمة- موقفاً واهتماماً متبايناً إزاء هذا المنهج باختلاف العالمين الإسلامي والمسيحي، فلذا قوبلت جهوده بموجة عارمة من الاستياء والقلق عند المنصرين، وعامة من عرفه من الصليبيين، بينما احتفى به العالم الإسلامي في عمومه احتفاءً بالغاً، ووجد المسلمون فيه فارساً مناظراً لا يشق له غبار؛ ذلك أنه هزّ أركان وأبطال العمل التنصيري، وأتى على قواعد وأسس الفكر الصليبي بمعول الهدم والتقويض، ومن ثم اهتدى به إلى دعوة الحقّ عالم غفير من الضالين، الأمر الذي أثار غيظ الأعداء، وشحن حفيظتهم ضد الداعية ديدات، فلاذوا إلى مواجهته بمنطق العاجز الفاشل، كما تمثل ذلك فيما تلقاه من مئات الرسائل الحاقدة، المنددة بنشاطه الدعوي الرائع، والمهددة بقتله من موقع الجبن والإرهاب.

ونتيجة صبره على الصمود والنضال الدعوي كرم ديدات عام 1986م بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، كما عبر له الكثيرون عن مشاعرهم الطيبة تجاهه، إما عبر رسائل الشكر وشهادات التقدير، أو من خلال استقدامه للمشاركة في الندوات والمؤتمرات الإسلامية على أعلى المستويات القيادية.

13 - بالمقارنة بين البعد الفكري والرصيد العملي في مشروع ديدات الدعوي، تكشف الدراسة أنه أمضى ما يربو على رحلة ستة عقود من حياته المباركة في قافلة الدعوة إلى الله تعالى، أمضاها في جهاد متواصل، ونشاط دائب، ظل خلالها يتفاعل مع قضايا الدعوة وهمومها، بروح غيورة نشطة، قوياً في عقيدته، عزيزاً بإسلامه. فكانت الدعوة في حياته إيماناً وعملاً، ورسالة ومسؤولية، بدل كونها عقيدة خامدة، أو مجرّد دراسة نظرية. وبذلك فإن تتبع ديدات في مختلف مواقفه الدعوية شرقاً وغرباً، مما يعزز الاعتقاد بأنه رجل عملي ميداني أكثر من اعتباره رجل فكر ونظر، والحق أنه لم يدّخر وسعاً ولا طاقة مادية أو معنوية إلا وقد وظفها في سبيل العمل الإسلامي.

ولعلّه لقاء ما بذله من جهود عزيزة كتب الله له التوفيق في إسلام آلاف البشر، إن لم تكن عشرات الآلاف داخل بلاده وخارجها، وذلك إما من خلال مركزه، وجهوده المباشرة، أو بتأثير منشوراته المجانية إلى جانب محاضراته الحافلة، ومناظراته الحوارية المظفّرة.

14 - أعار الداعية ديدات اهتماماً خاصاً بقضية تكوين دعاة مهرة في أساليب الحوار الدعوي وفي مختلف فنون العمل الإسلامي، وقد أقام خصيصاً لهذا العرض دورات تدريبية ضمت عشرات المشاركين من مختلف مناطق وقارات العالم، عبّروا في ختام دوراتهم التي استمرّت إحداها زهاء ستين يوماً عن عمق ارتباطهم المستقبلي بالعمل الإسلامي، ووعدوا بأنهم سيكونون في مستوى الالتزام والوفاء بحقّ الدعوة إلى هذا الدين، الذي ما أسهل وأقصر الطريق إليه بواسطة وسائل الحوار، وأساليب الإقناع والإفحام!.

15 - ظل ديدات في كل المواقف وعلى كل المنابر، يحرض الدعاة وقادة العمل الإسلامي على الصدق في القول، والإخلاص في العمل، مبشراً بما يمكن أن يعود على الدعوة الإسلامية جرّاء ذلك من مكاسب ثمينة عاجلة، ومخطراً من جانب آخر بفداحة الحملة التنصيرية في مظاهرها الكمية والنوعية، والتي تتربص

بالمسلمين، في عقر دارهم، وتنافسهم في الوصول إلى غيرهم، وكلّ ذلك يتم في إطار التحالف المحكم مع كل معادٍ للإسلام والمسلمين، بينما يعاني المسلمون -في عامتهم- من حالة عجز وقصور عن المواجهة بسلاح الفكر ومعطيات علم مقارنة الأديان. وأمام تحديات الظروف الراهنة، والتي يستنفر ديدات المسلمين لمواجهتها نجده يُحمّل كل قادر مسؤولية المشاركة الفاعلة، وواجب التصدي والمرابطة، وبمختلف الوسائل والأدوات المتاحة، وبخاصة المجربة والحاسمة منها.

وهكذا يتضح أنه من ناحية الفكر والتنصير لا يضيف جديداً، بقدر ما يحمس للدعوة، ويحرض على المواجهة الفكرية والحوارية في أروع أشكالها، وبأحسم مناهجها وأسلحتها.

16 - ومن أهم وأمضى الأسلحة التي يعول عليها ديدات في هذه المواجهة الفكرية الماكرة والصعبة، توظيف الوسائل الإعلامية الحديثة بكافة أنواعها المتوفرة، وفي منتهى فنون المهارة في الاستخدام. وتظهر في هذا الصدد واسع خبرته في المجال الإعلامي، وهو ما يتناسب مع قناعته بضرورة قيام جهد إعلامي واسع ومكثف، يوازي عالمية رسالة الإسلام، وأهميتها الكبرى. ومما يميز مسلكه الإعلامي، وضوح محتواه لغةً وفكراً، وتنوع أساليبه وتعدد وسائله، وتركيزه على الوسائل العامة والمتاحة للجميع، ومجانية توزيعه على كل المحتاجين، بالإضافة إلى التزامه بمعايير الأدب، وأخلاقيات الأداء، فضلاً عن اعتماده العقيدة والأخلاق كموضوعين أساسيين لهذا الخطاب الإعلامي الذي كان ديدات يكثف من استخدامه.

17 - وإذا ألقينا نظرة متفحصة على معطيات منشوراته العلمية والإعلامية، وبخاصة في موضوعات الأديان المقارنة، تستلفت الانتباه جاذبية العناوين التي يطلقها على كتبه، كالمسيح في الإسلام، وعتاد الجهاد، ومسألة الصلب، ونحوها. ومن مميزات أسلوبه فيها أنه يعتمد على العرض السهل والوافي والتحليل الدقيق والمناقشة المقنعة.

ويستفاد من تلك الكتب طرحه للعديد من القضايا ذات الأهمية الخاصة في الفكر الصليبي، والتكثيف من إثارة الشبهات حول موثوقية مصادره، وصحة معتقداته، والكشف عن مواطن الضعف والطعن في كتبهم الصليبية المقدسة، ولا شك أن هذا المسلك أمر ذو فائدة بالنسبة للداعي المتمرس على مناهج النقاش والحوار، إذ يجد فيها ما يسعفه للنجاح في مهمته، وأيضاً بالنسبة لمن- من المدعوين - هو واقع تحت تأثير العقائد الصليبية والمصادر الكنسية الموضوعة، فهذا الأخير يظفر فيها بما يصحح عقائده الفاسدة، ويصوب خطواته نحو صحيح المعتقد، وقويم المسلك.

18 - وأما كتاباته الدعوية الهادفة إلى التعريف بالإسلام: مصادره وتعاليمه، ونبيّه عليه الصلاة والسلام، فإن ديدات بالرغم من عدم ضلوعه في المعارف الإسلامية، إلا أنه يبذل قصارى جهده في توصيل وإيضاح مفاهيم الإسلام وقضاياه على شكل بسيط وميسّر، يستوعبه القارئ العادي، ويستفيد منه، وربما يتأثر بتلك الحقائق الجذابة والمقنعة من كان يجهلها من قبل، كما يزداد المؤمنون بها يقيناً واطمئناناً.

19 - ومن حيث المناظرات العالمية الشهيرة التي أجراها مع أحبار الفكر الصليبي متحدياً إيّاهم، فقد انتصر عليهم في مختلفها، وفي مواقف حاشدة بالجمهور والحضور الإعلامي المتميّز، وظهر فيها ديدات متحلياً بأرقى أخلاقيات الحوار، وأدق ضوابط وقواعد التناظر الناضج.

وقد تمثلت المفاجأة الكبرى من قبله في عمليته ودقة مطارحاته، وفي إيراده عن ظهر قلب لمختلف ما تدعو إليه الحاجة من نصوص وأدلة مأثورة، ومن شواهد وبراهين معقولة.

ومن ثم فإن انتصاراته البيّنة في تلك المناظرات الكثيرة قد أعادت إلى الأذهان المسلمة ذكرى الأمجاد الإسلامية في هذا المجال المهمل في عصرنا هذا، كما قدم للآخرين انطباعاً حميداً وصادقاً عن عظمة ومصداقية الإسلام، وعن قوة منطقه،

وحكمة وكفاءة رجاله العظام حملة خطابه الدعوي المنتصر دوماً، والذي يعلو ولا يعلى عليه.

20 - وعلى ذكر البطولات والأمجاد الإسلامية في هذا الحقل الدعوي، اتجهت العناية إلى مقارنة منهج الشيخ ديدات بما كان عليه غيره، من مناهج تتنوع باختلاف الزمان والمكان والإنسان. وقد تأكد الشبه قوياً بينه وبين قدامى وأعلام الحوار الديني من علمائنا الأجلاء، كأمثال الإمام الظاهري ابن حزم الأندلسي، ت 456هـ، والإمام ابن قيم الجوزية، ت751هـ، وذلك سواء في الإيمان بفاعلية المنهج الحواري في العمل الدعوي والدفاعي، أم في الملامح المنهجية، أو حتى في موضوعات الحوار، وطرق المناقشة وأساليب الاستدلال، إلى جانب ضخامة الرصيد الحواري وتحدي سدنة وقمم الفكر الصليبي بالمقارعة الفكرية والعقدية إلى حلبات الحوار والتناظر، وفيما يخص الإمام ابن قيم الجوزية فتتحدد أوجه المماثلة المنهجية بينه وبين ديدات في كل من أسلوب المناقشة المكثف بالنصوص، وفي إقامة الحجة على الخصم، بمصادره الأصيلة ومراجعه المعتمدة، مع ما يميز ذلك من الضبط التام، وتحري الدقة والأمانة العلمية في النقولات. وهذا مما يعني ضمناً أن كلاً منهما كان يناضل في عصره وبطريقته، من أجل التمكين لثقافة الحوار الديني، فكان لكل منهما نتيجة المراس الطويل والكثير تجربة عملية ناضجة ومفيدة، تستحقّ الاستفادة منها؛ إذ لها ما يمكن أن تقدمه لذوي الاتصال العلمي والاهتمام العملي الخاص بهذا المجال.

وتبقى في سياق المقارنات المنهجية مع القدامى ضرورة تأكيد الشبه القائم بينه وبين العالم الفاضل رحمة الله الهندي، ت1891م. الذي تتلمذ ديدات على كتابه (إظهار الحقّ) فخرج منه بوافر زاده العلمي الذي مكنه من شقّ طريقه بنجاح في هذا المجال، مما أعانه على متابعة سيره إلى الحدّ الذي بلغه في هذا المسار، ومن ثمّ، فليس من قبيل المفارقة أن تكون نسبة التماثل بينهما مدهشة، وذلك على كلا المستويين العلمي والعملي، وهذا لا يعني انعدام خصوصيات فارقة بينه وبين هؤلاء الذين ليس لنا حتى

الآن ما يفيد قطعاً تأثر ديدات بهم ما عدا الشيخ الهندي، بل قد أتينا على ذكر طائفة من الفوارق والمميزات في هذا الصدد، وإنما هو تأكيد على ما يربط بين هؤلاء جميعاً، من وحدة العقيدة، والاهتمام، والمسلك المنهجي، وربما أيضاً مع مراعاة اختلاف العصور كانت الأدوار والنتائج متشابهة إلى حد كبير.

21 - وحتى تتسق المقارنة، وتكتمل حلقاتها، انعقد مبحث استطلاعي للنظر في أوجه الشبه والتباين بين منهج الشيخ ديدات من جانب، وعدد من علمائنا المعاصرين، ممن لهم إسهام في حقل الدراسات الدينية المقارنة إما بالحوار المباشر، أو بتهيئة فرص تحضير أسبابه، ومن هؤلاء - وما أكثرهم - وقع اختيارنا على كل من الشيخ محمد أحمد أبو زهرة، ت1974م، والدكتور أحمد حجازي السّقا، والشيخ عبد الوهاب النجار، ت1941م، بالإضافة إلى الدكتور أحمد شلبي، وهو ممن مارس الحوار الديني ومهد لرواجه كثيراً، وأيضاً الشيخ أحمد كفتارو مفتي سورية، ت2004م وهو على جانب منهجي كبير من الاهتمام بالحوار الديني.

ومؤدى ما انتهى إليه البحث من كل المقارنات التي عقدت في ثناياه، هو أن الشيخ ديدات - بصرف النظر عن أهمية الحكم له أو لغيره فيها - كان بلا شك مبدعاً، وموفقاً، اتسم عمله بخصوصيات تعبر عن استقلالية شخصيته وقوتها. وإن التفكير فيما تحقق له من نجاح دعوي باهر في هذا المقام، أي في معرض المقارنة بينه وبين كبار العلماء والباحثين، لمما يوفر الأمل لدى الناشئة من الدعاة بأن وعي الإنسان المسلم لدوره، وإخلاصه لرسالته مما قد يرفعه - مع ضآلة تكوينه المعرفي - إلى مقام كبار علماء الإسلام، ويضعه في مصاف أبطال الدعوة وفرسان الحوار في كل العصور الإسلامية.

22 - ولتعميق الفهم بخصوصية مسلك عمل ديدات الإسلامي، بما يعين على شمولية تصوره لصالح الإفادة منه، فقد خصص البحث اهتماماً لائقاً ومطلوباً، لاستقراء السمات العامة، والملامح الرئيسة لمسلكه العام، في الحوار والدعوة، وكانت الحصيلة التوصل إلى ما يقارب عشرين عنصراً من المواصفات المسلكية، وهي من السعة والتنوع بمكان لا يسمح بإيرادها في هذا المقام الضيق، بل يمكن

الرجوع إليها في مواردها، وبالأخص في حدود المبحث المخصص لها، فلعلّه لا يخلو مما يفيد. . .

23 - ولما كان أي جهد إنساني قابلاً للتقييم إيجاباً وسلباً، ولاسيما إذا كان في مستوى عمل ديدات - أو أكبر - من العظمة والنجاح، إذاً، فلا غرو من تباين المواقف والأمزجة إزاء منهجه الدعوي، حيث قد أسفرت الردود القليلة والتي تمخضت عن المقابلات والمراسلات الكثيرة التي أجريت في سبيل استفتاء العلماء والمختصين لتقييم منهجية الحوار الدعوي عند ديدات، أسفرت عن مفاجأة خطيرة، تمثلت في أن عدداً كبيراً من علمائنا وأعلامنا لا يعرفون عنه شيئاً علمياً يذكر، وقد أفضى ذلك ببعضهم إلى الكيل بموازين المدح والتفريط والتعبير عن عواطف ومشاعر رقيقة نحوه، لا تستند في أغلبها إلى أسس موضوعية مقنعة، إذ ليست ناشئة عن سابق معرفة صحيحة، واطلاع علمي مكين.

والحقّ أن طائفة قليلة من المهتمين به لسبب أو لآخر، استطاعت بعنايتها ومتابعتها أن تُكَوّنَ عن منهجه صورة نقدية، ذات روح وأبعاد علمية، لا سبيل إلى التهوين من شأنها، إذ تشكل مختلف آرائهم وانطباعاتهم الطيبة عن منهجه، والمشجعة على الأخذ به والسير عليه، ما بمثابة شهادة جدارة وتزكية بحسن السيرة والسلوك الدعوي، الأمر الذي يهيء نفوس الحائرين لتقبل منهجه باطمئنان فائق، ولاسيما إذا كانت الشهادة من أعلام وخبراء لهم ثقل معتبر في موازين الفكر والدعوة، والمعرفة.

وفي مقابل أولئك المؤيدين، يجنح فريق قليل من المقيمين إلى معارضته وشن هجوم عنيف عليه شخصاً ومنهجاً، وذلك من خلال انتقاداتهم اللاذعة، والملاحظ أن جملة مؤاخذاتهم عليه تكاد تكون شخصية مطلقة، لا علاقة لها بالعلم- برغم صدورها أحياناً من علماء كبار-؛ إذ من السهل جداً دحض تلك المقالات المضادة والردّ على أصحابها بردود لطيفة ومقنعة.

والحقيقة أن المنهج الديداتي، وبخاصة في جانبه الحواري، سوف يظل أمراً مثيراً للجدل، ويدفع بطبيعته إلى الأخذ والرد، وذلك -فيما أرى- يعد مطلباً علمياً لا بد منه، للكشف عن الجوانب المضيئة والمفيدة من هذا المنهج، والتي قد يظل العمل الإسلامي في مسيس الحاجة إليها على الدوام.

ومع لحاظ سرعة ما يمكن أن تتعرض لها الانتقادات الموجهة من تلاشٍ وانهيار، لكونها تعيب عليه أحياناً أموراً هينة، وربما تافهة تارة، فهي مؤاخذات ودعاوٍ عارية من أسس موضوعية متوازنة، حرية بالنقض والرفض، إلا أنها - فيما أظن- ليست ناشئة عن عداء شخصي أو كراهية لذاته، وإنما هي من النوع الإيجابي الذي يعكس تبايناً طبيعياً في الرؤى والمواقف، ويجسد تدافعاً علمياً غايته التطلع الدائم إلى صياغة وتشكيل منهج حواري أفعل، والخروج بأسلوب دعوي أمثل.

24 - وفيما يخص تقييم الشيخ ديدات ومنهجه، في اعتقاد صاحب هذه الدراسة، وفي ضوئها، فليس من المفاجئ القول بأنّه داعية كبير ومحاور قدير، كان يمثل معلماً شامخاً في أفق العمل الإسلامي المعاصر، أدّى الرسالة بإخلاص وإتقان، نغّص بها على المنصرين صفو نفوسهم، وهدوء نشاطهم، وكان بذلك مدرسة دعوية منيرة وقوية.

ومن ثم فإن الاعتقاد بكفاءة منهجه يظل قائماً ومعتمداً، طالما توفرت له مقوماته ورجاله، واتسعت قاعدة أخلاقياته الحوارية، وانفسحت دائرة آفاقه الإعلامية ليشمل العالم بأسره بكافة معتقداته الدينية، وطوائفه المذهبية، وتياراته الفكرية، وما أكثرها وأشكلها.

وحتى يتأسس هذا التقييم على خلفية علمية موضوعية، فقد استنتج الباحث وأورد مزايا عشرة من بين إيجابيات كثيرة، تسجّل للنشاط الديداتي حواراً ودعوة، وهي ما يعزز منطلقنا في الدفع العلمي، والتحريض العملي، ليس نحو هذا المنهج فحسب، بل وكافة المناهج الدعوية القائمة على عماد الحوار والإقناع أو الإفحام والإلزام.

25 - وأما عن رأي ديدات في تقييم نفسه ومنهجه، فالظاهر أنه يعتد بخبرته في مجال

مقارنة الأديان، ويعتز بثراء تجربته في قضايا الردّ على النصارى، ومع ذلك يبدي قابلية دائمة بتقبل النقد والتوجيه، والاستعداد لتصحيح أي خطأ في المسار والفكر، والمنهج. ولئن كان ديدات -بهذا- يكشف عن عظيم الرضى والارتياح بدوره وخبرته الدعوية، إلا أنه بالقدر نفسه يعكس تواضعاً نادراً وإخلاصاً جمّاً في التعرف على الحقيقة والتعريف بها، والدفع بالآخرين في سبيل ذلك.

وبالنسبة لتقييمه للمنهج، فقد خلصت الدراسة إلى أنه يمثل عنده منهجاً قرآنياً فعّالاً، ثبت نفعه بالتجربة والتوظيف. ومن هنا يستحث ديدات الدعاة للانتفاع بهذا المنهج في مناشطهم الدعوية، وللدفاع عن دينهم الحقّ أمام حملات المؤامرة والمواجهة، أو على الأقل لإيقاف أو تجفيف ما يداهمهم اليوم من سيول تنصيرية جارفة.

هذا وقد ارتأى منطق الدراسة أن ذلك مما يتعذر - وربما يستحيل- تحققه من قبل المدربين والمتدربين معاً، دون دراية كافية بسبل الاستفادة من تجربته ومنهجه في كل ما أقدم عليه من جهود، ومجاهدات، قصد بها أن تكون خالصةً لوجه الله تعالى، وفي سبيل دعوته الكريمة.

26 - وبالنسبة لسبل الاستفادة من التجربة والمنهج فقد أتى هذا البحث على رصد ورسم خطوات أساسية وضرورية تعتبر معالم مضيئة في طريق السّالكين نحو تحقيق مثيل هذه التجربة، ووفق هذا المنهج الدعوي السّديد. وتتراوح تلك المعالم ما بين عناصر ذاتية، وموضوعية، وقيم أخلاقية من شأنها حين تؤخذ بمأخذ الجدّ والاهتمام، التمكين من الوصول إلى الهدف المرتجى، وتذليل كافة الصعاب والعوائق المتوقعة.

وفيما لا يطاله الشك والجحود، أن ديدات علم من أعلام الحوار والدعوة، وحري بأن تُدْرَسَ- كغيره - آثاره لغرض الاستفادة من روعة مسلكه الإسلامي بوافر إيجابياته وإنجازاته الكثيرة والكبيرة، وإلا فإن نكسة كبيرة، وخسارة لا تعوض قد تنذر بالوقوع، على الأقل في أوساط وساحات دعوية، تقتضي اتجاهاً منهجياً من النوع

الذي سلكه وسار عليه الداعية أحمد ديدات طيلة حياته الدعوية.

27 - وفي إطار تحديد أهم المجالات التطبيقية الممكنة لهذا المنهج الحواري، تفرض قضية الحوار الإسلامي المسيحي نفسها بإلحاح شديد، وذلك لتقييم الواقع والمرتجى، والوقوف على كل من المردود والمنشود من هذه الحوارات حتى الآن. وإن من أكبر ما يتعلق بهذا المجال من إشكالات، هو ما عرض له البحث من اختلاف المنطلقات عند الفريقين الإسلامي والمسيحي، وازدواجية الغاية من اللقاءات الحوارية ما بين حوار للتعايش والتعاون، وآخر للدعوة والإقناع، إلى جانب ما يخيم على هذه الحوارات من أجواء الريبة والتوجّس المتبادلة بين الفريقين من جانب، واتهام وتشهير يعاني منه كل فريق في حدود دائرته الدينية من جانب آخر، ولا شك أن لكل طرف وموقف حججه ومبررات الإقدام والإحجام، مما قد عرضنا لبعضها في نطاق مبحثها الخاص، مع الإشارة إلى مختلف المشكلات والمعوّقات التي تواجه مسيرة الحوارات الإسلامية المسيحية المعاصرة.

وحيث إن تقييم النتائج شأن مرتبط بتحديد ومعرفة أبرز الموضوعات التي دارت - أو يمكن أن تدور- حولها الحوارات حتى الآن، فإن تلك الموضوعات بكافة تفاصيلها، وتفرعاتها، لم تخرج -فيما أرى- عن حدود التعايش والتعاون، ومحاربة الفساد والظلم والإلحاد، والتناظر حول العقائد وما يتصل بها من قضايا متشعّبة. ومن هنا فإن النتائج - برغم ضخامة العقبات - والإشكالات، فضلاً عن الشبهات والمحاذير - المحتملة - هي على جانب ملحوظ من الإيجابية والاعتبار، وقد توقفنا عندها في شيء من التفصيل، ليس من شأننا هنا اجترارها في هذه اللمحة الخاتمة.

ومن جانب آخر مما له أهميته العلمية، كان لابد من وقفة استكشافية محللة تعمق النظرة الموازنة بين الجانبين الإسلامي والمسيحي في العدد والآليات الحوارية، وذلك في كافة المستويات والحيثيات، سواء في فن التحاور أو في العدّة العلمية والزاد الثقافي اللازم، أو في الأجهزة والنشرات الحوارية، وصولاً إلى قضية التخطيط والتنسيق الحواري، انتهاءً بمعايير التقييم ومقتضيات التقويم.

وقد خرجنا من كل ذلك إلى أنه-فيما يخص المسلمين- ينبغي ألا تقوم جدلية مفاضلة بين حوارات ثنائية أو متعددة الأطراف، أي بين المناظرات والمؤتمرات الحوارية، أو الترجيح بين أحادية الهدف الحواريّ، وتنوعه، بل فكلّ هذه وتلك مما ينصبّ في مجرى مقاصد وآليات العمل الإسلامي العامّة، بل وإنما تدعو الضرورة إلى العمل على تنزيل هذه الحوارات الجارية من قممها النخبويّة إلى السّاحات الشعبية، في معترك الحياة اليومية المشتركة بين المسلمين والمسيحيين، كما يجدر إسلامياً الاهتمام بتفعيل العمل الحواري ليتجاوز المستويات الفكرية والكلامية، نحو مشاريع إسلامية واقعية هادفة وملموسة، تحاور وتقارع ما عرف المنصرون بالسبق إليه، والتوسع في إقامة مشاريعه التنصيرية المتنوعة والمؤثرة كذلك.

28 - وفي مجال حواري آخر، يصلح لتطبيق المنهج الديداتي، وله سابق جهود ومحاولات في طرقه والولوج إليه، فقد نال من عناية هذا البحث مجال الحوار الديني والفكري مع اليهود والصهاينة، حيث قد تبنى ديدات مسالك عدة في استحوارهم ودعوتهم إلى الإسلام والعدل، وذلك سواء من خلال محاضراته التنويرية الخاصة بهم، أم بطلب مقارعتهم ودعوتهم إلى الحوار والمكاشفة بالحقّ، فلما لم يجد كل ذلك معهم نفعاً اتجه همه إلى محاورة عدد من المسيحيين الصهاينة، كان من نتائجها أنه انتصر عليهم في مواقع حاشدة حاسمة، مما أثلج صدره، وأتاح له حالة من الارتياح الناشئ عن أداء بعض الواجب، لكنه لم يقف عند هذا الحدّ، بل جاوز إلى ما هو أبعد من ذلك حين أخذ يعمل في مشروع تجنيد النخب السياسية والفكرية في العالم الغربي لمواجهة الحركة الصهيونية، وهي حركة ورد في البحث حديث مفصل عن ماهيتها وتاريخها، ومبادئها، ومقاصدها، ووسائل وأساليب عملها وحجم تأثيرها في عالمنا المعاصر، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية دولة ومجتمعاً، إعلاماً واقتصاداً.

ولخطورة هذا التأثير العالمي، وما يترتب عليه من قتل واضطهاد، ودمار وتشريد لشعبنا المسلم في فلسطين، فضلاً عن احتلال الأرض واستلاب الحقوق والمقدسات،

بات الواجب الإسلامي يدعو أكثر فأكثر إلى إنقاذ الموقف، والعمل بكافة الإمكانيات والوسائل المتاحة لردّ الحقّ السليب والكرامة المهدورة.

وفي خضم ما هو متاح من تلك الوسائل والمناهج العملية الكثيرة في هذه المعركة المصيرية المقدسة، تقع على عاتق الدعاة وعامة أرباب الفكر والقلم والإعلام، مسؤولية النضال الشريف من أجل استرداد الحقّ الإسلامي المغتصب من جانب، ودعوة اليهود والصهاينة إلى الإسلام من جانب آخر، وذلك عن طريق الحوار الدعوي معهم وفق المنهج الديداتي، أو غيره - إن وجد وتأكدت فعاليته - على أن يتم ذلك بشرط التعمق في دراسة ونقد مصادر وأصول عقيدة وفكر اليهود والصهاينة، وألا يغفل التركيز على مناقشتهم فيما يحرجهم من القضايا العقدية والفكرية، كمسألة توحيد الله تعالى، وعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والكشف عن أخطاء وتناقضات أسفارهم المقدسة، إلى جانب تسليط الضوء على دلائل البشارة بنبوة محمد- عليه الصلاة والسلام - من خلال إشارات العهد القديم، مع خفاء وإستنتاجية بعضها.

ومما هو جدير بالإشارة إليه، أن القارة الأفريقية من شرقها لغربها تشهد حملة تهويدية وصهيونية مكثفة، الأمر الذي يضع كل ذي وسع من مسلمي العصر أمام مسؤولية دينية وتاريخية لا حدود لها، إلا بانجلاء الظلم، والقضاء التام على صولات الباطل وجولات دعاته وعملائهم.

29 - وبما أن الحوار الديني بإطلاقه أصبح ضرورة ملحة من ضرورات العصر، فإن النوع الذي يستند منه على الخطاب الدعوي يعتبر بالنسبة للمسلمين أهم من غيره؛ إذ هم في ظل التطورات الجارية في وسائل النقل والاتصال، وشيوع فرص التلاقي والتعايش لأسباب عديدة بين بني الإنسان، يتأكد مجدداً بأنهم أدعى الناس قبل غيرهم للاستفادة من تلك الوسائل والمكتسبات في نشر العقيدة الصحيحة، وفي إشاعة رسالة الرحمة والأخوة بين الناس جميعاً.

ومما يقرره هذا البحث في هذا الصدد وبكل قناعة وثقة، هو أن التوسع بإتقان في توجيه الخطاب الدعوي الحواري إلى جماعات المعتقدات الدينية الأخرى في مختلف قارات وبقاع العالم، لهو أمر من المتوقع أن يهدي إلى الإسلام جموعاً غفيرة من الشعوب، ومن ثمّ تسود تلقائياً ثقافة الإسلام وقيمه في أرجاء العالم بأسره.

ومن هنا ترد أهمية التأكيد على أنه يلزم كافة المسلمين الفكاك من نزعة الشعور بضرورة مفاصلة أصحاب الديانات الوثنية عامة، اعتقاداً بتفاهتهم وخبثهم، وسوء مصيرهم الأخروي؛ ذلك أن صالح العمل الإسلامي، ومصلحة الأمة يقتضيان من الدعاة المؤهلين إجراء حوارات دعوية موسّعة ودائمة معهم، تتم عبر مخالطتهم، ومن خلال الانفتاح عليهم، واستغلال نقاط وعوامل التأثير فيهم.

30 - وفيما يتصل بمجالات الحوار الدعوي مع التيارات الفكرية بمختلف أصنافها واتجاهاتها، فإن الحوار مع المستشرقين وفق هذا المنهج الدعوي العلمي شأن جدير بالاعتبار، ولا سيما إذا تصورنا أن المسلمين لا يزالون يتعاملون مع الظاهرة الاستشراقية كقضية فكرية وثقافية بحتة، دون اعتبارها مجالاً دعوياً يقتضي الحوار والتناظر.

ومن الناحية الإجرائية، فقد أبان هذا البحث أن من أساسيات مشروع الحوار الدعوي مع المستشرقين التصدي بالنقد المنهجي الدقيق لمجمل التراث الاستشراقي المتراكم عبر العصور، وبخاصة ما يتعلق منه بالجوانب الدينية في إطارها المباشر. وسيلاحظ المهتمون بهذا الشأن - كما سبقت الإشارة إليه في البحث - ما طرأ من تطور ملحوظ على الجهد الاستشراقي المعاصر، سواء في منهجه أو نتاجه. وهو مما يدعم هذا المشروع الحواري، ويعزز إمكانيات نجاحه أكثر من أي وقت سابق.

هذا ولئن كان الخطاب الاستشراقي القديم مسؤولاً إلى حد كبير عن تشويه صورة الإسلام، وتكريس العداء ضد المسلمين، في ذاكرة الإنسان الغربي غير المسلم، وبالأخص في الأجيال السّالفة، فإن حركة الاستشراق المعاصرة تبدي تفهماً علمياً

لاعهد للعمل الاستشراقي به قديماً، مما يعني أن المهمة الحوارية اليوم باتت أسهل وأوفر حظاً من كل العصور والمراحل الماضية، ولكن مع ذلك يلاحظ غياب مؤسف لا مبرر له لهذا النوع من الحوار، والذي ندعو له كخطاب دعوي فاعل ومؤثر. وهذا في ظرف تشتد فيه الحاجة الإسلامية إلى توظيف كافة القدرات والمناهج لتصحيح صورة الإسلام، والدعوة إليه في العالم الغربي، والإسهام في تهيئة ظروف تقبل الإنسان المسلم هناك، والاستئناس به في منتهى الأريحية وغاية السعادة.

ولعل من الأمور التي تستحق التنويه بها الإشارة إلى أن الدكتور شوقي أبو خليل، وهو من أشد الناس تحمساً للمنهج الديداتي وإعجابًا به، كان قد سبق منذ زهاء عقد من الزمن إلى عقد سلسلة من جلسات حوارية مع أحد المستشرقين الألمان، وذلك فيما بين عامي 1993-1994م. وبغض النظر عن أهمية ما تحقق خلالها من نتائج هامة على الصعيدين العلمي والدعوي، إلا أن اعتباره أحد الرواد في مجال تجارب حورات الدعوة والإعْلام بالإسلام مع المستشرقين يشكل في حد ذاته قيمة دعوية وتاريخية، لا تعدلها - فيما أعتقد - أيّ قيمة إنسانية أخرى على الإطلاق.

ومن هنا فإن هذه التجربة الناجحة مما يدعم اعتقاد الباحث بوجود فرص ومؤشرات إيجابية لفهم الإسلام ومحاولة تفهيمه للآخرين، أكان ذلك في أوساط المستشرقين، بدليل إسلام عدد لا يستهان به منهم، أم في المجتمعات الغربية في عمومها، حيث نجد من أبنائها من اعتنق الإسلام، وحسن إسلامه، فتحمس للدعوة إليه مستخدماً لصالحها كافة قدراته والوسائل الإعلامية المتاحة.

ولما كان لهذا النشاط الحواري المرتقب خصوصيات تميزه، فقد دعت الحاجة إلى الحديث عن قواعده وآلياته، وهي إلى حد كبير مستوعبة في منهج الشيخ أحمد ديدات، غير أننا في معرض الدعوة والحث على هذا النشاط الدعوي الإسلامي يظل من الضرورة بمكان لفت العناية إلى أهمية التأسيس الفعلي لمشروع حركة الاستغراب التي يُنَظِّرُ لها الدكتور حسن حنفي ويقدمها في مجلده الكبير كنشاط فكري إسلامي،

حضاري مضاد للعمل الاستشراقي بنوعيه التقليدي والمعاصر.

31 - عنيت الرسالة في متابعتها لقضية الحوار على الصعيد الفكري، بعرض ومناقشة بعض أفكار عدد من الاتجاهات الفكرية المتسمة بالشطط الفكري على الصعيد الإسلامي، من أمثال محمد أركون، المناضل من أجل علمنة الفكر والحياة في العالم الإسلامي، وحسن حنفي، صاحب الموقف اليساري القلق والمتمرد في رحاب الفكر الإسلامي المعاصر، وكذلك نصر حامد أبو زيد، الذي استطاع بشغبه الفكري أن يثير ضجة إعلامية هائلة على الصعيد العالمي، زاد من حدة أزمتها إعراض أطرافها عن الأخذ بمنهج الحوار والمقارعة بمنطق العلم، وذلك عندما جعلوا من الخلاف الفكري قضية تكفير، وإدانة ومرافعة قضائية.

وقد تبين من خلال ما تقرر في البحث، أن المنهج الحواري الواحد، يصلح لكل هؤلاء مع ما يظهر بينهم من اختلاف واتفاق، سواء في المنطلقات والأفكار والاتجاهات، أم في طرائق التفكير وأساليب الدراسة والنقد.

هذا... وقد اهتمت الرسالة إلى جانب ما سبق بعرض أنموذج سلمان رشدي معبراً عن الشخصيات المارقة، والكتابات الأدبية الساقطة، وقد عُلم أن الشيخ ديدات كان قد تصدى لمواجهته بمنهج علمي قوي ومحترم، بعد أن عاب على عامة المسلمين اندفاعهم في مقاومته بمواقف وأساليب انفعالية، استغلت ضدهم إعلامياً وسياسياً، بسبب تعاطيهم بها - من غير مناسبة - في قضية فكرية وأدبية كان من اليسير أن تحسم لصالحهم لو فكروا في مثل ما عمله ديدات بكل حنكة، وحكمة وتأنٍ ووقار.

32 - تتمة لكل المباحث السابقة، رست سفينة هذه الدراسة عند شواطئ الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي، الأمر الذي تَطَلّب التعريج على تعريف الإلحاد، والكشف عن حقيقته وأسباب ظهوره وانتشاره، وعن شيوع المادية في عالمنا المعاصر، وما يرتّبُ ذلك على الداعية المسلم من التزامات تقتضي ضرورة المقاومة بطرائق الحوار الدعوي. ومن أهم الاتجاهات المنهجية التي اعتمدها البحث في سياق

الحوار الدعوي مع المادية والإلحاد، تلك المسالك الخطابية الأربعة المتمثلة في :

1 - خطاب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي تبناه الشيخ ديدات في هذا المجال الحواري الدعوي.

2 - الداعية وحيد الدين خان في خطاب المدخل العلمي إلى الإيمان .

3 - الدكتور محمد سعيد البوطي وخطابه المعتمد على تحديث رسالة علم الكلام الإسلامي، وتفعيل دوره الدعوي.

4 - الشيخ محمد عبد الله دراز، ورؤيته المنهجية القائمة على السلوك والمعاملة بأخلاق القرآن الكريم.

وتشجيعاً على الأخذ بأحد أهم هذه المناهج أو كلها، فقد أرْدفها الباحث بتجربة حوارية رائدة وموفقة، تمت في سجون مصرية بين جماعتين مسلمة وملحدة، كان لها من النتائج ما ساق عدداً طيباً من ذوي الموقف الإلحادي للإنضمام إلى الفضاء الإسلامي الفسيح السعيد.

وحيث إن القيام بهذه الرسالة العظيمة تستدعي استعداداً خاصاً، فقد أتينا على عرض شيء ما من العُدد والآليات الضرورية جداً في الحوار الدعوي مع الفكر المادي الإلحادي، يمكن الرجوع إليها في موردها، وذلك في نهاية المبحث الأخير من هذه الدراسة.

33 - ثم إن من نتائج هذه الدراسة - فضلاً عن الفائدة العلمية التي تحققت لصاحبها من خلالها - هي أنها تكشفت عن موضوعات بحثية متعددة، إذ يكاد يشكل كل مبحث أو جزئية من هذه الدراسة عنوان رسالة أو رسائل علمية تستحق اهتماماً خاصاً ومستقلاً، وإني أعتقد أن إجراء دراسات علمية رصينة - لما تثيره هذه الدراسة من قضايا وموضوعات - مشفوعة بتوظيف محكم لنتائجها، وتطبيق عملي لمقرراتها، هو شأن علمي وعملي مزدوج - إن تحقق - سوف يثمر فوائد للعمل الإسلامي عموماً، وللخطاب الدعوي الحواري على وجه الخصوص.

وأخيراً: ليس لي إلا أن أعرب عن سعادتي واستفادتي من هذه الدراسة، وعلى أيّ حال؛ فهذا ما وسع الجهد لتحقيقه، واتسع المقام لظهوره، فعسى أن تتاح لي في مستقبل الأيام فرص الاستقصاء والمعالجة، وعسى أن يجد فيه الدعاة ما يثير فضولهم العلمي، ويشبع نهمهم في العمل الإسلامي، مما قد يستفزّهم للمضي قدماً لا في مجالات الدراسة والبحث فحسب، وإنما أيضاً- فيما هو أهم-في ميادين العمل والإبداع.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 105].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على رسوله الكريم، الذي بلغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين.

قائمة

المصادر والمراجع

أولاً: مصادر أساسية:

القـــرآن الكريم

1. أحمد بن علي بـن حجر العسقلاني: فتـح البـاري بشـرح البخـاري ج7، تَـحْ محـب الدين الخطيب وآخر، ط1/ 1407هـ= 1986م. دار البيان للتراث، القاهرة، مصر.

2. الطاهر بـن عاشـور: تفسير التحريـر والتنويـر، ج30، ط1/ 1414هـ= 1994م. دار القلم العربي، بيروت، لبنان.

3. محمـد علـي الشـوكاني: فتـح القديـر، ج5، ط2/ 1419هـــ= 1998م. دار الكلـم الطيّب، دمشق بيروت.

4. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج3، ط1/ 1414هـــ= 1994م. دار القلـم العربي، بيروت، لبنان.

ثانياً: المصادر الأصول:

أ-كتب ومناظرات :

5. أحمد ديدات: أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، تعريـب: محمـد مختـار، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.

6. أحمـد ديـدات: الله في العقيـدة المسـيحية، تعريـب: علـي عثمـان، دار المختـار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.

7. أحمد ديدات: الحلّ الإسلامي للمشكلة العنصرية، من سلسلة مكتبة ديدات، منشورات دار المختار الإسلاميّ.
8. أحمد ديدات: خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، وحوار البابا مع المسلمين، تعريب: رمضان الصفناوي، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.
9. أحمد ديدات: الرسول الأعظم محمد ﷺ تعريب: علي عثمان، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د.ت.
10. أحمد ديدات: شيطانية الآيات الشيطانية، وكيف خدع رشدي الغرب، تعريب عليّ الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.
11. أحمد ديدات: عتاد الجهاد، تعريب: علي الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.
12. أحمد ديدات: العرب وإسرائيل شقاق. . . أم وفاق؟، تعريب: علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.
13. أحمد ديدات: القرآن معجزة المعجزات، تعريب: علي عثمان، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، د.ت.
14. أحمد ديدات: لماذا محمد ﷺ هو الأعظم، ترجمة: رمضان الصفناوي، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.
15. أحمد ديدات: ماذا يقول الغرب عن محمد ﷺ تعريب: علي عثمان، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.
16. أحمد ديدات: محمد ﷺ المثال الأسمى، تعريب: محمد مختار، من سلسلة مكتبة ديدات، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، د،ت.
17. أحمد ديدات: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، تعريب: علي الجوهري، من منشورات دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.
18. أحمد ديدات: المسيح في الإسلام، تعريب: علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

19. أحمد ديدات: مفهوم العبادة في الإسلام، تعريب: علي عثمان، دار المختار الإسلاميّ، القاهرة، مصر، د،ت.

20. أحمد ديدات: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقسّ سواجارت، إصدار الدكتور: أحمد حجازي السّقا، مكتبة الزهراني، القاهرة، مصر، د.ت.

21. أحمد ديدات: مناظرة العصر بين ديدات والقسّ أنيس شروش، تعريب: علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

22. أحمد ديدات: مناظرتان في استكهولم، تعريب: علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

23. أحمد ديدات: هل الكتاب المقدّس كلام الله، ترجمة: خليل، ط1/ 1410هـ = 1989م. دار المنار، القاهرة، مصر.

24. أحمد ديدات: هذه حياتي... سيرتي ومسيرتي، إعداد: أشرف محمد الوحش، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د.ت.

ب - أصول مرئية مصورة:

25.Ahmad Deedat: Message to the musulms.

26. Ahmad Deedat: Islam to zulu.

27. Ahmad Deedat: meets farakhan.

ثالثاً: مراجع عامة:

[أ]

28. إبراهيم إمام: أصول الإعلام الإسلامي، دار الفكر العربي، 1405هـ = 1985م. بدار القاهرة، مصر.

29. إبراهيم بن حسن بن سالم: قضية التأويل في القرآن الكريم بين الغلاة والمعتدلين، ج1/ 134، ط1/ دار قتيبة، دمشق - بيروت.

30. إبراهيم سليمان الجبهان: معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، ط4/ 1981م. عالم الكتب، الرياض، السعودية.
31. ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، مج1/ ج1/ 28، تح: لجنة من العلماء، ط8/ 1404هـ = 1984م. دار الحديث، القاهرة.
32. ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق الدكتور: أحمد حجازي السقا، ط4/ 1407هـ، المكتبة القيمة، مصر الجديدة.
33. ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق محمد علي أبو العباس: مكتبة القرآن، د.ت، القاهرة، مصر.
34. ابن هشام: السيرة النبوية، مج2/ ج4، بتحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط2/ 1375هـ = 1955م. مكتبة البابي، مصر.
35. أبو بكر عبد الرزّاق: أبو زهرة وقضايا العصر، ج3/ ط / 1988م. دار الاعتصام، القاهرة، مصر.
36. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج2/ الطبعة المحققة الأولى/ 1412هـ = 1992م. ط/ دار قتيبة، بيروت - دمشق.
37. أبو حامد الغزالي: القسطاس المستقيم، تحقيق: فيكتور سلحت، ط3/ 1991م. دار المشرق، بيروت، لبنان.
38. أبو الحسن عبد الرحيم الخياط: الانتصار، تحقيق: محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
39. أبو عمرو بن صالح: فتاوى ابن الصلاح: تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، ط1/ 1403هـ = 1983م. دار الوعي، حلب، سورية.
40. أبو الفرج محمد أبي إسحاق (ابن النديم): كتاب الفهرست، ط3/ 1988م. دار المسيرة، طهران، إيران.
41. أبو المعالي الجويني: شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، تح: أحمد حجازي السقا، ط3/ 1409هـ = 1989م. الناشر: مكتبة الكليات

الأزهرية، القاهرة، مصر.
42. أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط2/ 1987م. دار الغرب الإسلامي.
43. أحمد أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، عام 1987م. دار الكتاب المصري، القاهرة، بيروت.
44. أحمد الجبير: العلاقات العربية الأفريقية، ط1/ 1992م. من منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا.
45. أحمد حامد: هكذا دخل الإسلام 36 دولة، ط1/ د. ت، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان.
46. أحمد حجازي السقا: البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، ج2/ ط1/ 1409هـ = 1989م. دار الجيل، بيروت.
47. أحمد الريسوني وآخر: الاجتهاد... النص، الواقع، المصلحة، ط1/ 1420هـ = 2000م. دار الفكر المعاصر، بيروت+ دار الفكر بدمشق.
48. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى، ط9/ 1990م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
49. أحمد شلبي: رحلة حياة، ط3/ 1992م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
50. أحمد شلبي: المسيحية، ط1/ 1993م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
51. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6/ ط4/ 1983م. الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
52. أحمد شلبي: اليهودية، ط12/ 1997م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
53. أحمد عبد الرحيم السائح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط1/ 1417هـ = 1996م. الدار المصرية اللبنانية.
54. أحمد محمد أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ط1/ 1411هـ = 1991م. دار قتيبة، بيروت، لبنان.
55. أحمد محمد بن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، تح: محمد عبد القادر

شاهين، ج1/ ط2/ 1420هـ = 1991م. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
56. إدوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، تعريب: كمال أبو ديب، ط2/ 1984م. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
57. أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ج1/ ترجمة: فؤاد محمد شبل، ط2/ 1966م. من منشورات الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، مصر.
58. أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف محمد الجرّاد، ط2/ 1421هـ = 2000م. دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.
59. أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، ط1/ 1400هـ = 1980م. د.م.ن.
60. أنور الجندي: الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، دار الاعتصام، د.م.ن.

[ب]

61. بركات عبد الفتاح دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام، أهدافها ومقاومتها، دار المطبع العربي للطبع والنشر، د.ت.د.م.
62. بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحيّ، ط1/ 1418هـ = 1988م. دار قتيبة، دمشق، سورية.
63. البهي الخولي: تذكرة الدعاة، ط/ دار الفتح، د.ت.د.م.
64. بول فندلي: من يجرؤ على الكلام، ط3/ 1406هـ = 1986م. شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

[ت]

65. توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرون، ط3/ 1930م. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.

[ج]

66. جديون س، وير: تاريخ جنوب أفريقيا، ترجمة: الدكتور: عبد الرحمن عبد الله

السيخ، دار المريخ 1407هـ = 1986م. الرياض، السعودية.
67. جفري لانغ: الصراع من أجل الإيمان، ترجمة: منذر العبسي، ط2/ 1421هـ = 2000م. دار الفكر.
68. جمال زكرياء قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، 1416هـ = 1996م.
69. جمال عبد الهادي محمد مسعود وآخر: الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء، ط3/ 1410هـ = 1990م. دار الوفاء، المنصورة، مصر.
70. جميل عبد الله المصري: حاضر العالم الإسلامي... وقضاياه المعاصرة، ط5/ 1421هـ = 2001م. مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية.

[ح]

71. حامد عثمان: المسلمون في العالم... قضايا وتحديات، ط1/ 1990م = 1399و.ر. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.
72. حسن أحمد: الإسلام وانتشار الثقافة العربية في أفريقيا، ط/ دار الفكر العربي، 1420هـ = 1999م. د.ر.
73. حسن حنفي: بحوث في أصول الدين- أصول الفقه... العقل والنقل، دار المعارف، سوسة، تونس، د.ت.
74. حسن حنفي: في فكرنا المعاصر، ط2/ 1983م. دار التنوير، بيروت، لبنان.
75. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، 1411هـ = 1991م. الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة.
76. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة، ج3/ 482، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، د.ت.
77. حسن خالد: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية، ط1/ 1986م. معهد الإنماء العربي، بيروت.
78. حسن الشرقاوي: الخائفون من شريعة الله، عام 1983م. من منشورات شباب الجامعة الأسكندرية، مصر.

79 . حسن يوسف الأطير : المذهب الدهري عند العرب ، ط1/ 1404هـ = 1984م ، دار البيان ، مصر .
80 . حميد سليم : الهيرمينوطيقا ، والنص القرآني ، نقد وتجريح ، دار البيارق ، د . م . ن .

[خ]

81 . خليل إبراهيم دياب : ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم ، ط1/ 1420هـ = 1999م . دار عمار ، عمان ، الأردن .
82 . خليل إبراهيم حسونة : الماسونية قديماً وحديثاً ، مراجعة : محمود علي التّائب ، ط2/ 1428هـ =1999م . من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، ليبيا .

[ر]

83 . رجاء جارودي : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية . . . ومحاورات جارودي بالقاهرة ، من منشورات دار الغد العربي ، القاهرة ، د . ت .
84 . رجب بو دبوس : الدين والعقل ، 1988م . الدار العربية للكتاب ، تونس .
85 . ريجينا الشريف : الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي ، ترجمة : أحمد عبد الله عبد العزيز من سلسلة عالم المعرفة ، ع/ 96/ 1406هـ = 1985م . الكويت .
86 . رحمة الله الهندي : إظهار الحقّ ، إصدار مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، د . ت . د . ر .

[س]

87 . ساسي سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية ، وأثرها على الدراسات الإسلامية ، ج1/ ط1/ 1991م . من منشورات مركز العالم الإسلامي ، مالطا .
88 . سعيد إسماعيل صيني : مدخل إلى الإعلام الإسلامي ، ط/ 1411هـ = 1991م . مؤسسة الرسالة ، بيروت .
89 . سيد حافظ أبو الفتح : قالوا عن الإسلام . . . رسالة إلى سلمان رشدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، د . ن .

90. السيد سابق: العقائد الإسلامية، ط/ 3/ 1420هـ = 2002م. من منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.
91. السيد عبد الماجد الغوري: أبو الحسن الندوي، ط2/ 1420هـ = 1999م. دار ابن كثير، دمشق - بيروت.
92. السيد محمد حسن الطباطبائي: الشيعة في الإسلام، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، د.م.ن.
93. السيد محمد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوارِ إلى الحوارِ، ط1/ 1421هـ = 2001م. دار الأمين، القاهرة، مصر.

[ش]

94. شارل جوليان: تاريخ أفريقيا، ترجمة: عوض أباظة، ط/ نهضة مصر، القاهرة، مصر، د.ت.
95. الشريف الجرجاني: شرح المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي: مج1/ ط1/ 1419هـ = 1983م. دار الكتب العلمية، بيروت.
96. شوقي أبو خليل: الحوار دائماً وحول ومع مستشرق، ط2/ 1421هـ = 2000م. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان + دار الفكر، دمشق، سورية.
97. شوقي الجمل وآخر: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ط1/ 1407هـ = 1987م. دار الثقافة، الدوحة.

[ص]

98. صابر طعيمة: الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ط1/ 1404هـ = 1984م. عالم الكتب، بيروت، لبنان.
99. الصديق عمر يعقوب: بحوث ودراسات في العقيدة والفكر والدعوة، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية لعام 1402 من وفاته ﷺ 1994م. بطرابلس، ليبيا.

100 . صلاح الدين الأيوبي : الإسلام والتفرقة العنصرية ، ط2/ 1401هـ = 1981م . دار الأندلس ، لبنان .

101 . صلاح عبد الفتاح الخالدي : البيان في إعجاز القرآن ، ط3/ 1413هـ = 1992م . دار عمار ، عمان ، الأردن .

[ط]

102 . الطاهر بن عريفة : ابن حزم الظاهري ، وكتابه الفصل ، ط1/ 1996م . دار الحكمة ، طرابلس ، ليبيا .

103 . طلعت محمد عفيفي سالم : أخلاق الدعاة إلى الله تعالى ، النظرية والتطبيق ، ط1/ 1421هـ = 2000م . دار عالم الكتب : الرياض ، المملكة العربية السعودية .

104 . طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام ، ط1/ 1405هـ ، من سلسلة كتاب الأمة ، الدوحة ، قطر .

105 . طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام ، ط1/ 1405هـ ، من سلسلة كتاب الأمة ، الدوحة ، قطر .

[ع]

106 . عاطف عبد الغني : شهود يهوه مملكة إسرائيل على الأرض ، 1/ د . ت . دار ديوان ، القاهرة .

107 . عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، لبنان ، د . ت . د . ر .

108 . عباس محمود العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، د . ت . د . ر .

109 . عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام ، ط2/ 1966م . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

110 . عباس محمود العقاد : روح عظيم المهاتما غاندي ، ط/ 1408هـ =1988م . المكتبة

العصرية، صيدا، يروت، لبنان، د.ت.د.ر.
111. عبد الجبار الرفاعي: الفكر الإسلامي المعاصر، تحرير وحوار، ط1/ 1421هـ = 2000م. دار الفكر المعاصر، بيروت + دار الفكر، دمشق.
112. عبد الجليل شلبي: معركة التبشير والإسلام، ط1/ 1409هـ = 1989م. مؤسسة الخليج العربي، د.م.
113. عبد الحليم خفاجي: حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون، ط4/ 1406هـ = 1986م. دار القلم، الكويت.
114. عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج3/ 1078، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط3/ دار النهضة، مصر، د.ت.
115. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ط2/ 1980م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
116. عبد الرحمن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ط4/ 1414هـ = 1993م. دار القلم، دمشق، سورية.
117. عبد الرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د.ر.د.ت.
118. عبد الرزاق قسوم: مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، ط1/ 1418هـ = 1997م. دار عالم الكتب، الرياض، السعودية.
119. عبد العزيز الثعالبي: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، ط1/ 1985م. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
120. عبد العزيز عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، ط / 1419هـ = 1998م. دار الشروق، القاهرة - بيروت.
121. عبد القادر حاتم: الإعلام في القرآن الكريم، ط / 1405هـ = 1985م. مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، مصر. د.ر.
122. عبد القادر سيلا: المسلمون في السينغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل،

ط1/ 1406هـ، ع12، من سلسلة كتاب الأمة، قطر، الدوحة.

123. عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته، ط2/ 1395هـ = 1975م. دار المعرفة، بيروت.

124. عبد الكريم الخطيب: النبي محمد.. إنسان الإنسانية، ونبي الأنبياء، ط2/ 1395هـ = 1975م. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

125. عبد الكريم العلوي المدغري: حوار فكري إسلامي مسيحي حول الدين بين الوحدة والتشابه، د.م.ت.

126. عبد الله الترجمان: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق: الطّاهر المعموري ط / دار السلام للطباعة والنشر، تونس، د.ت.

127. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، مج1/ ج1-2، تحقيق: محمد الإسكندراني، ط3/ 1418هـ = 1997م. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

128. عبد الله ناصح علوان: حكم الإسلام في وسائل الإعلام، ط2/ 1407هـ = 1986م. دار السلام للطباعة والنشر، د.م.

129. عبد المجيد المشرفي: الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، ط / 1986م. الدار التونسية للكتاب، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

130. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ط1/ 1401هـ = 1981م. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

131. عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ط4/ 1375هـ = 1957م. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر.

132. عجيل جاسم النشمي: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، 1404هـ = 1984م. د.ت.

133. عرفات كامل العيشي: رجال ونساء أسلموا، ج1/ ط3/ 1398هـ = 1978م. دار القلم، الكويت.

134. عطية مخزوم: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ط1/ 1998م. بنغازي، ليبيا.

135 . علي سامي النشار وآخر : الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، من منشورات منشأة المعارف بالإسكندرية ، لعام 1972م .

136 . علي محفوظ : هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ، ط7/ د . ت ، الناشر : المكتبة المحمودية التجارية ، القاهرة ، مصر .

137 . عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ط1/ 1975م . دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

138 . عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ، ط / 1403هـ = 1983م . مؤسسة الرسالة ، بيروت .

139 . عمر يوسف حمزة : معالم لفهم القرآن الكريم ، ط1/ 1998م . مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، مصر .

140 . عواشة محمد حقيق : الرأي العام بين الدعاية والإعلام ، من منشورات الجامعة المفتوحة لعام 1994م . طرابلس ، ليبيا .

[ف]

141 . فخر الدين الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ط / 1398هـ = 1987م . من منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

142 . فوزي محمد حميد : علم الأديان بين الأسطورة والحقيقة ، ط2/ 1428هـ = 1999م . من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، الجماهيرية العظمى .

143 . قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، ط1/ 1403هـ = 1983م . منشورات دار الطباعة للنشر ، الرياض ، السعودية .

[ل]

144 . لورا فيشا فاغليري : دفاع عن الإسلام ، تعريب : منير البعلبكي ، ط5/ 1981م . دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

[م]

145 . مؤسسة البلاغ : في منهج الدعوة والتبليغ ، ط1/ 1417هـ = 1996م . طهران ، إيران .

146 . مالك بن نبـي : في مهـب المعركـة ، ط4/ 1411هـ = 1991م . دار الفكـر المعـاصر ، بيروت ، لبنان ، ودار الفكر ، دمشق ، سورية .

147 . محمـد أبـو زهـرة : ابـن حـزم حياتـه وعصـره ، وآراؤه وفقهـه ، ط / دار الفكـر العربي ، القاهرة ، مصر ، د . ن . د . ر .

148 . محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، د . ت .

149 . محمـد أبـو زهـرة : مقارنـات الأديـان : الديانـات القديمـة ، دار الفكـر العربـي ، القاهرة ، مصر ، د . ت .

150 . محمد أبو الفتح البيانوي : المدخل إلـى علـم الدعـوة ، ط3/ 1415هـ = 1995م . مؤسسة الرسالة ، بيروت .

151 . محمد أحمد يوسف الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، النشـرة الـ1/ 1342هـ ، مطبعة الشرف ، القاهرة ، مصر .

152 . محمـد أركـون : الفكـر الإسـلامي نقـد واجتهـاد ، ترجمـة : هاشـم صـالح ، ط2/ 1992م . دار الساقي ، بيروت ، لبنان .

153 . محمد أمين حسن بني عـامر : أسـاليب الدعـوة والإرشـاد ، ط / 1999م . جامعة اليرموك ، الأردن ، د . ر .

154 . محمـد البهـي : الفكـر الإسـلامي الحديـث وصلتـه بالاسـتعمار الغربـي ، ط11/ 1405هـ = 1985م . مكتبة وهرة ، القاهرة .

155 . محمد جواد مغنية : شبهات الملحدين والإجابة عنها ، 1986م . دار مكتبة الهـلال + دار الجواد ، بيروت ، لبنان .

156 . محمـد حسـين الصغـير : المستشـرقون والدراسـات القرآنيـة ، ط2/ 1406هـ = 1986م . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان .

157 . محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي ، 1408هـ = 1988م . الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة .

158 . محمد السعدي : حـول موثوقيـة الأنـاجيل والتوراة ، ط1/ 1395 من و . ر . = 1986م . من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس الجماهيرية العظمى .

159 . محمد سعيد رمضان البوطي وطيب تيزيني : الإسلام والعصر تحديات وآفاق ، ط2/ 1420هـ = 1999م . دار الفكر المعاصر ، بيروت + دار الفكر ، دمشق .

160 . محمد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ، وجود الخالق ووظيفة المخلوق ، 1406هـ = 1986م . دار الفكر ، دمشق ، سورية .

161 . محمد سعيد رمضان البوطي : نقد أوهام المادية الجدلية ، ط3/ 1420هـ 1999م . دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان + دار الفكر ، دمشق ، سورية .

162 . محمد سليم بن محمد سعيد : أكبر مجاهد في التاريخ الشيخ رحمة الله الهندي ، ط1/ 1397هـ = 1977م . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

163 . محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج2/ ط1/ 1409هـ = 1988م . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

164 . محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، ط3/ 1400هـ = 1980م . مؤسسة الرسالة ، بيروت .

165 . محمد عبد الله دراز : الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، 1410هـ = 1990م . دار القلم ، الكويت .

166 . محمد عبده يماني : أفريقيا لماذا؟ ، ط / 1991م . دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، د . ر .

167 . محمد عثمان : مؤامرة الغرب على الإسلام والمسلمين اعتداء وتشويه ، د . ت . دار المحبة ، دمشق .

168 . محمد عزت إسماعيل الطهطاوي : التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي ﷺ وبلاء الإسلام ، ط1/ 1411هـ = 1991م . الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، مصر .

169 . محمد عمارة : الإسلام والتعددية ، الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة ، ط1/ 1418هـ = 1997م . دار الرشاد ، القاهرة ، مصر .

170 . محمد الغزالي : جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج ، ط / 1408هـ ، دار الصحوة ، القاهرة ، مصر .

171 . محمد الغزالي : قذائف الحقّ : ط1/ 1411هـ=1991م . دار القلم ، بيروت - دمشق .
172 . محمد فاروق الزين : المسيحية والإسلام والاستشراق ، ط1/ 1421هـ = 2000م . دار الفكر ، دمشق ، سورية .
173 . محمد فتح الله الزيادي : الاستشراق أهدافه ووسائله ، ط1/ 1426و . ر ، 1998م . د . م . ن .
174 . محمد فتح الله الزيادي : انتشار الإسلام ، ط3/ 1415هـ =1995م . دار قتيبة ، دمشق ، سورية .
175 . محمد الفيومي إبراهيم : رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة ، 1981م ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر .
176 . محمد قاسم محمد : التناقض في تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل ، ط2/ 1992م . مطابع ستار برس للطباعة والنشر ، د . م .
177 . محمد متولي الشعراوي : الخير والشر ، مكتبة الشعراوي الإسلامية ، عام 1990م . القاهرة .
178 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط3/ 1405هـ = 1985م . مؤسسة الرسالة ، بيروت .
179 . محمود حمدي زقزوق : الإسلام في تصورات الغرب ، ط1/ 1407هـ =1987م . منشورات مكتبة وهبة ، القاهرة .
180 . محمود شاكر : العالم الإسلامي ، ط3/ 1408هـ= 1988م . المكتب الإسلامي ، دمشق - بيروت .
181 . المسعودي أبو الحسن : مروج الذهب في معادن الجوهر ، ج1/ 334/ تحقيق : قاسم الشماعي الرفاعي ، 1408هـ=1989م . دار القلم ، بيروت ، لبنان .
182 . مسعود ضاهر : مجابهة الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني للمشرق العربي ، ط1/ 1989م . من منشورات المكتب القومي للثقافة العربية .
183 . مصطفى الخالدي وآخر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ط4/ 1390هـ

=1970م. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
184. مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج1/ ط2/ 1401هـ=1981م. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
185. مصطفى نصر المسلاتي: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ط1/ 1396من و. ر. =1986م. دار اقرأ للطباعة والنشر، طرابلس، روما، مالطا.
186. ممدوح الشيخ: الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب، ط1/ 1420هـ= 1999م. دار البيارق، عمان، الأردن.
187. موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، د. م. ن.
188. ميشال جحا: الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ط1/ 1982م. معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان.
189. الميلي محسن: روجيه غارودي والمشكلة الدينية، ط1/ 1413هـ=1993م. دار قتيبة، بيروت، لبنان - دمشق، سورية.

[ن]

190. نبيل عبد الحليم متولي: أخطار الأيديولوجية الصهيونية والأيديولوجية الأخرى على المجتمع العربي الإسلامي، ط1/ 1400من و. ر ﷺ =1990م. من منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.
191. نخبة من العلماء: الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، دار القلم، بيروت، لبنان.
192. نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ط3/ 1389هـ=1969م. منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
193. نصر حامد أبو زيد: التفكير في زمن التكفير ضد الجهل والزيف والخرافة، ط2/ 1995م. مكتبة مدبولي، القاهرة.
194. نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، ط2/ 1993م. دار التنوير، بيروت، لبنان.

195 . نصر حامد أبو زيد : نقد الخطاب الديني ، ط3/ 1995م . مكتبة مدبولي ، القاهرة .

[هـ]

196 . هاملتون جيب : دعوة تجديد الإسلام ، دار الوثبة ، دمشق ، د . ت .

197 . هنري فورد : اليهودية العالمية ، المشكلة الأولى التي تواجه العالم ، تعريب : خيري حماد ، من منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان . د . ت . د . ر .

.198هـ . ا . أ غيبون : خريطة أفريقيا الجديدة ، ترجمة منصور عمر الشتيوي ، ط2/ 1975م . دار الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا .

[و]

199 . وحيد الدين خان : القضية الكبرى ، الناشر : الرسالة للإعلان الدولي ، القاهرة ، د . م . ن .

200 . وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، تعريب : ظفر الإسلام خان ، ط12/ 1414هـ=1997م . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

201 . وحيد الدين خان : ميدان العمل في الإسلام ، ط1/ 1413هـ=1992م . الرسالة للإعلام الدولي ، القاهرة .

202 . وهبة الزحيلي : أصول الفقه ، ط1/ 1990م . من منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا .

[ي]

203 . يوسف العظم : المنهزمون دراسة في الفكر المتخلف والحضارة المنهارة ، ط2/ 1397هـ=1977م . دار القلم ، بيروت ، لبنان .

رابعاً: مقابلات شخصية :

204 . مقابلة مع الأستاذ الكبير/ إبراهيم بشير الغويل : وهو محام ليبي قدير ، من رواد الفكر والثقافة في بلاده ، عضو مؤسس ، وقيادي ، لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ذو اهتمامات ساهرة بالعمل الإسلامي ، والمسلمين عموماً ، تمت المقابلة

في مكتبه بشارع أوّل سبتمبر في طرابلس، بتاريخ 11/ 4/ 2002ف. الموافق 28/ محرم الحرام/ 1370من وفاة الرسول ﷺ.

205. مقابلة مع الشيخ/ إبراهيم صالح الحسيني: وهو رئيس هيئة الإفتاء بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بعموم نيجيريا، ومساعد الأمين العام للشؤون الأفريقية في القيادات الشعبية الإسلامية العالمية، مؤسس ومرشد منظمة النهضة الإسلامية في بلاده، وهو داعية مشهور، ومشارك بالتأليف في مجالات إسلامية متعددة، تمت المقابلة بفندق طرابلس الكبير، إثر زيارة له إلى الجماهيرية العظمى، في ضيافة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بتاريخ 3/ 5/ 2002ف. الموافق 20/ صفر/ 1370من وفاة الرسول ﷺ.

206. مقابلة مع الدكتور/ زكي بدوي: وهو عميد الكلية الإسلامية بلندن، ويعدّ وجهاً بارزاً من قيادات وفعاليات العمل الإسلامي في العالم الغربي، قابلته بمقرّ كلية الدعوة الإسلامية، بطرابلس-ليبيا، بتاريخ18/ 3/ 2002ف.

207. مقابلة مع الأستاذ/ الصديق بشير نصر: وهو أستاذ وباحث ليبي معاصر، يتميز بثقافته الواسعة، ورصده العلمي لواقع العمل الإسلامي المعاصر، يقوم حالياً بتدريس بعض المواد الدينية على طلاب كلية الدعوة الإسلامية، أجريت هذه المقابلة، بتاريخ 19/ 2/ 2002ف. الموافق 7/ ذي الحجة/ 1370من وفاة الرسول ﷺ بطرابلس، ليبيا.

208. مقابلة مع الدكتور/ محمد البائك: يعمل بكلية اللغة العربية بمراكش من المملكة المغربية، له اطلاع ومتابعة للدعوة والدعاة، ومشاركة غنية في مؤتمرات وندوات العمل الإسلامي المعاصر، أجريت المقابلة بمقر كلية الدعوة الإسلامية بطرابس، بتاريخ 18/ 3/ 2002ف.

209. مقابلة مع الدكتور/ مسعود عبد الله الوزاني: وهو أحد أركان المجلس الإداري لكلية الدعوة الإسلامية، رئيس قسم المواد العامة، وأستاذ مادة مقارنة الأديان بذات الكلية، نقلت عنه رأيه مشافهة في مقابلة أجريتها معه في مكتبه بمبنى إدارة الكلية، بتاريخ 8/ 4/ 2002ف. بطرابلس، ليبيا.

210. محاضرة الدكتور/ عارف علي النايض: عن الحوار الإسلامي المسيحي، على طلبة الدراسات العليا، في كلية الدعوة الإسلامية، بتاريخ 15/ 2/ 1999ف. بطرابلس، ليبيا.

خامساً: الموسوعات ودوائر المعارف، وكتب المعاجم، والتراجم:

211. ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1/ تح: محمد إبراهيم نصر وآخر، دار الجيل، بيروت، لبنان، د. ت.

212. أحمد علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

213. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج1/ ط1/ 1984م. المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان.

214. عبد الرزاق محمد أحمد: الموسوعة الفلسطينية، مج1/ ط1/ 1978م. الدار العربية للموسوعات، د. م.

215. عبد الكريم الشهرستاني: موسوعة الملل والنحل، ط1/ 1981م. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان.

216. عبد الهادي هاشم: الموسوعة الفلسطينية، ج2/ ط1/ 1984م. إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية.

217. عبد الوهاب محمد المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج3/ ط1/ 1999م. دار الشروق، القاهرة، مصر.

218. تاريخ أفريقيا العام، مج7/ ط / 1990م. من إصدارات اليونسكو.

219. تاريخ أفريقيا العام، مج8/ ط / 1998م. من إصدارات اليونسكو.

220. الموسوعة: مج2/ ط / 1993م. إصدار الشركة الشرقية للمطبوعات جنيف، سويسرا.

221. موسوعة السياسة: ج2/ ط1/ 1981م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

222. الموسوعة العربية العالمية: ج2/ ط2/ 1419هـ=1999م. الرياض، السعودية.

223. الموسوعة العربية العالمية: مج 10/ ط2/ 1419هـ=1999م. الرياض، السعودية.

224. دائرة المعارف الإسلامية: ابن حزم، مج1/ ج3/ المكتبة الحديثة، بيروت، لبنان.
225. دائرة معارف القرن العشرين، مج1/ ط3/ 1971م. دار المعرفة، بيروت، لبنان.
226. ابن منظور: لسان العرب، ج9/ ط2/ 1418هـ=1997م. دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.
227. المطبعة الكاثوليكية: المنجد في اللغة والأعلام، ط37/ 1998م. دار المشرق، بيروت، لبنان.
228. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج1/ ط / 1397هـ=1977م. دار صادر، بيروت، لبنان.
229. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، تحقيق: نزار رضا، ط/ 1970م. من مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان.
230. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج3/ تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
231. ابن كثير: البداية والنهاية، مج6/ ج12/ ط/ 1398هـ=1978م. دار الفكر، بيروت، لبنان.
232. أحمد بن يحي بن مرتضى: طبقات المعتزلة: تح: سوسنة ديقلد، عام 1960م. مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان.
233. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6/ ط12/ 1984م. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
234. عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج3/ دار الفكر، بيروت، لبنان. د. ت.
235. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط1/ 1984م. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
236. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مج1/ ج1/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
237. عبد الوهاب السبكي: تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى، ج2/ ط2/ دار المعرفة، بيروت، لبنان. د. ت.
238. محمد علي ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج3/ دار

الفكر، بيروت، لبنان، د. ت.

سادساً: وثائق تنظيمية وتقارير إدارية:

239. أعمال الملتقى الثالث لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

240. أعمال ندوة الدين والتدافع الحضاري، ط1/ 1399و. ر=1989م. من منشورات مجلة رسالة الجهاد، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

241. بحوث ومداخلات المؤتمر العام الثالث للدعوة الإسلامية، عام 1986م=1397و. ر، من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ط1/ 1987م = 396و. ر.

242. البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة : جمع جوليت حداد، ط1/ 1995م، دار المشرقي، بيروت، لبنان.

243. توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، تعريب المطران يوحنا منصور، ط1/ 1986م، من منشورات المكتبة البولسية، بيروت، لبنان.

244. جلسات ووثائق لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة الإسلامية، من 18-22، الفاتح، عام1425م. من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.

245. دراسة مبدئية موجزة عن المسلمين بجنوب أفريقيا، من تقارير ومحفوظات مكتب الدعوة بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

246. الصهيونية والعنصرية، أبحاث المؤتمر الفكري ببغداد حول الصهيونية، ج1/ ط1/ 1977م. من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

247. عمر المختار نشأته وجهاده، من أعمال الندوة العلمية المنعقدة بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاده، ط2/ 1983م. مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، ليبيا.

248. مذكرة تعريفية بالشيخ أحمد ديدات ومركزه ونشاطه الدعوي، عن حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا، بتاريخ 13/ 9/ 2000ف. من وثائق ومحفوظات مكتب الدعوة بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.

249. من أدبيات الجمعية الطبية الإسلامية، بجمهورية جنوب أفريقيا، د. م. ن.

250 . مؤتمر جلين آيري : التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، المنعقد عام 1978م .
مركز دراسات العالم الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

سابعاً: بحوث ورسائل علمية:

251 . أحمد أنداك نوح : الاستعمار الغربي وأثره على علائق التواصل بين شمال أفريقيا والسودان الغربي ، رسالة ماجستير ، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية ، عام 1421هـ=2001م .

252 . حمزة مايقا : المجتمع الإسلامي بين ماضيه وحاضره ومستقبله ، بحث مخطوط أعده الطالب ، عام 1996م . بطرابلس .

253 . حمزة مايقا : نحو خطة شاملة للعمل الإسلامي في عالمنا المعاصر ، بحث مخطوط أعده صاحبه ، عام 1999م . ضمن متطلبات مرحلة الدراسة التمهيدية بقسم الدراسات العليا .

254 . عبد الرحيم محمد برمو : القاديانية ، دراسة فكرية تحليلية نقدية ، رسالة ماجستير ، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية ، بطرابلس ، عام 1998م .

255 . عبد الله رمزي قناديلو : وسائل الإعلام الحديثة وأثرها في حركة الدعوة الإسلامية ، رسالة علمية مخطوطة ، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية ، بطرابلس ، عام 1994م .

256 . مهدي عياد الصابري : قواعد المنهج عند ابن حزم الأندلسي ، أطروحة دكتوراه مخطوطة ، نوقشت عام 1995م . بقسم الفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم ، بجامعة القاهرة ، مصر .

257 . مهدي عياد الصابري : محمد عبد الله دراز والفكر الإسلامي المعاصر ، رسالة علمية نوقشت عام 1973م . بكلية التربية من جامعة الفاتح ، طرابلس ، ليبيا .

ثامناً: الدوريات:

أ- المجـــلات :

258 . مجلة الاجتهاد : ع / 2 / عام 1995 ، بيروت ، لبنان .

289 . مجلة الاجتهاد : ع / 2 / عام 1995 ، بيروت ، لبنان .

260. مجلة الاجتهاد: ع / 34-35، س9/ 1417هـ= 1997م، بيروت، لبنان.
261. مجلة الاجتهاد: ع / 22، س6/ 1414هـ= 1994م، بيروت، لبنان.
262. مجلة الاجتهاد: ع / 22، س6/ 1414هـ= 1994م، بيروت، لبنان.
263. مجلة الاجتهاد: ع / 30، س8/ 1416هـ= 1996م، بيروت، لبنان.
264. مجلة الاجتهاد: ع / 28، س7/ 1416هـ= 1995م، بيروت، لبنان.
265. مجلة الأزهر: س25، عام1373هـ=1953م. القاهرة.
266. مجلة الأزهر: مج4، س38، 1386هـ=1966م. القاهرة.
267. مجلة الأزهر: ج8، مج33، عام1381هـ=1962م. القاهرة.
268. مجلة الأزهر: ج7، س34، عام1382هـ=1963م. القاهرة.
269. مجلة الأزهر: ج9-10، س37، عام1385هـ=1966م. القاهرة.
270. مجلة الأزهر: ج3، س14، عام1389هـ=1969م. القاهرة.
271. مجلة الأزهر: ج2، س44، عام1392هـ=1972م. القاهرة.
272. مجلة الأزهر: س51، عام1399هـ=1979م. القاهرة.
273. مجلة الأزهر: ج62، 1410هـ=1989م. القاهرة.
274. مجلة الأزهر: ج5، س60، عام1408هـ=1988م. القاهرة.
275. مجلة الأزهر: ج7، س91، عام1409هـ=1989م. القاهرة.
276. مجلة الأزهر: ج7، س61، عام1409هـ=1989م. القاهرة.
277. مجلة الأزهر: ج2، س62، عام1411هـ=1991م. القاهرة.
278. مجلة الأزهر: ج5، س68، عام1406هـ=1986م. القاهرة.
279. مجلة الأصالة: ع 20/ س2/ 1394هـ=1974م. الجزائر.
280. مجلة الأمة: ع25/ س3/ 1403هـ=1982م. الدوحة، قطر.
281. مجلة الأمة: ع26/ س3/ 1403هـ=1982م. الدوحة، قطر.
282. مجلة الأمة: ع20/ س2/ 1402هـ=1982م. الدوحة، قطر.
283. مجلة الأمة: ع28/ س3/ 1403هـ=1983م. الدوحة، قطر.

284. مجلة الأمة: ع37/ س / 1404هـ=1983م. الدوحة، قطر.
285. مجلة الأمة: ع59/ س5/ 1405هـ=1984م. الدوحة، قطر.
286. مجلة الأمة: ع58/ س5/ 1405هـ=1985م. الدوحة، قطر.
287. مجلة الأمة: ع62/ س6/ 1405هـ=1985م. الدوحة، قطر.
288. مجلة الأمة: ع69/ س6/ 1406هـ=1986م. الدوحة، قطر.
289. مجلة الأمة: ع70/ س6/ 1406هـ=1986م. الدوحة، قطر.
290. مجلة الأمة: ع62/ س6/ 1406هـ=1985م. الدوحة، قطر.

البحوث الإسلامية:

291. مجلة البحوث الإسلامية: ع5/ عام 1400هـ، الرياض، السعودية.
292. مجلة البحوث الإسلامية: ع23/ عام 1408هـ، الرياض، السعودية.
293. مجلة التاريخ العربي: ع1/ 1417هـ=1996م. لجمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية.
294. المجلة التاريخية المصرية: مج32/ 1985م. مصر.
295. مجلة التربية الإسلامية: ع1/ س30/ 1409هـ=1988م. بغداد، العراق.
296. مجلة الثقافة العالمية: ع22/ س4/ 1405هـ=1985م.
297. مجلة الثقافة العالمية: ع26/ 198، س5/ 1406هـ.
298. مجلة الثقافة العالمية: ع37، مج7، س7/ 1408هـ=1987م. الكويت.
299. مجلة الجامعة الإسلامية: ع1/ س8/ عام 1395هـ=1975، المدينة المنورة.
300. مجلة حضارة الإسلام: ع9/ س4/ 1383هـ=1964م. دمشق.
301. مجلة حضارة الإسلام: ع4/ س7/ 1386هـ=1966م. دمشق.
302. مجلة حضارة الإسلام: ع6/ س1/ 1401هـ=1980م. دمشق.
303. مجلة دراسات إفريقية: ع6/ العام 1410هـ=1990م. الخرطوم.
304. مجلة دراسات إفريقية: ع6/ العام 1410هـ=1990م. الخرطوم.

305. مجلة دعوة الحق: ع313/ س36، 1416هـ=1995م.

306. مجلة الدوحة: ع82/ س 1402هـ=1981م. الدوحة، قطر.

307. مجلة رسالة الجهاد: ع262/ مج2/ ي6/ 1357هـ=1938م. القاهرة.

308. مجلة رسالة الجهاد: ع11-12/ س2/ 1392و. ر=1972م. طرابلس، ليبيا.

309. مجلة الشورى: ع11/ س3/ عام 1396=1976م. طرابلس، ليبيا.

310. مجلة عالم الفكر: مج1، 24، س 1979م. الكويت.

311. مجلة العربي: ع313/ عام 1984م.

312. مجلة العربي: ع223/ عام 1977م.

313. مجلة العربي: ع326/ عام 1986م.

314. مجلة العربي: ع412/ عام 1993م.

315. مجلة العربي: ع325/ عام 1985م.

316. مجلة العربي ع476/ عام 2000م=1420هـ.

317. مجلة العربي: ع370/ عام 1989م.

318. مجلة العربي: ع181/ عام 1973م.

319. مجلة العربي: ع324/ عام 1985م.

320. مجلة العربي: ع100/ عام 1977م.

321. مجلة العربي: ع524/ عام1423هـ= 2002م.

322. مجلة العربي: ع216/ عام1396هـ= 1976م.

323. مجلة العربي: ع342/ عام 1987م.

324. مجلة العربي: ع165/ عام1392هـ= 1972م.

325. مجلة العربي: ع / عام 1993م.

326. مجلة العربي: ع412/ عام 1993م.

327. مجلة العربي: ع / عام 1995م.

328. مجلة العربي: ع362/ عام 1989م.

329. مجلة العربي: ع446/ عام 1996م. الكويت.
330. مجلة العربي: ع474/ عام 1998م.
331. مجلة فصول: مج1/ ع3/ عام 1401هـ=1981م. القاهرة، مصر.
332. مجلة الفكر الإسلامي: ع3، س16، 1987م. القاهرة، مصر.
333. مجلة الفكر الإستراتيجي العربي: ع23-24، يناير-أبريل، 1988م.
334. مجلة الفكر المعاصر: ع40/ يونيو 1968م. القاهرة، مصر.
335. مجلة الفكر المعاصر: ع68/ س/ 1970م. القاهرة، مصر.
336. مجلة الفيصل: ع28/ عام 1399هـ=1979م. الرياض، السعودية.
337. مجلة الفيصل: ع99/ س9، عام 1405هـ=1985م. الرياض، السعودية.
338. مجلة الفيصل: ع107/ س6، عام 1406هـ=1986م. الرياض، السعودية.
339. مجلة الفيصل: مج35/ ع35/ س9، عام 1406هـ=1986م. الرياض، السعودية.
340. مجلة الفيصل: ع150/ س13، عام 1419هـ=1989م. الرياض، السعودية.
341. مجلة الكرمل: ع45/ س 1992م.
342. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ع10/ عام 1415هـ=1995م. دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.
343. مجلة كلية الدعوة الإسلامية: ع9/ عام 1992م. طرابلس، ليبيا.
344. مجلة كلية الدعوة الإسلامية: عدد خاص بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للدعوة الإسلامية، عام 1400من و. ر ﷺ = 1990م. طرابلس، ليبيا.
345. مجلة اللغة العربية والدراسات الإسلامية: ع2/ س2/ 1394-1395هـ=1974-1975م. من منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا.
346. مجلة اللغة العربية والدراسات الإسلامية: ع1/ س1/ 1393-1394هـ=1973-1974م. من منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا.
347. مجلة لواء الإسلام: ع3/ س42/ عام 1407هـ=1988م.
348. مجلة لواء الإسلام: ع9/ س42/ عام 1408هـ=1987م.

349. مجلة لواء الإسلام: ع8/ س45/ عام 1411هـ=1990م.
350. مجلة المجلة: ع84/ س7/ 1963م. القاهرة.
351. مجلة مستقبل العالم الإسلامي: ع9/ س3، 1993م. مالطا.
352. مجلة المستقبل العربي: ع101/ س10، 1987م. بيروت، لبنان.
353. مجلة المسلم المعاصر: ع1-2/ 1395هـ=1975م.
354. مجلة المسلم المعاصر: ع10-73/ عام 1397هـ=1977م.
355. مجلة المسلم المعاصر: ع10/ 1397هـ=1977م.
356. مجلة المسلم المعاصر: ع36/ س9، 1403هـ=1983م. دار البحوث العلمية، الكويت.
357. مجلة المسلم المعاصر: ع77/ س20، 1416هـ=1995م.
358. مجلة المعرفة: ع216/ س18، 1980م. دمشق، سورية.
359. مجلة المعرفة: ع49/ س5، 1966م. دمشق، سورية.
360. مجلة المعرفة: ع238/ س19، 1981م. دمشق، سورية.
361. مجلة المعرفة: ع254/ س22، 1983م. دمشق، سورية.
362. مجلة المعرفة: ع290/ س25، 1986م. دمشق، سورية.
363. مجلة المعرفة: ع327/ س29، 1990م. دمشق، سورية.
364. مجلة المقتطف: ج4/ مج66، عام 1925م.
365. مجلة المنار: مج15/ ج7/ س1291هـ=1912م. القاهرة، مصر.
366. مجلة المنار: مج9/ ج3/ س1324هـ=1906م. القاهرة، مصر.
367. مجلة المنار: مج16/ ج11/ س1331هـ=1913م. القاهرة، مصر.
368. مجلة منبر الإسلام: ع1/ س34/ 1291هـ=1912م. القاهرة، مصر.
369. مجلة منبر الإسلام: ع6/ س36/ 1398هـ، القاهرة، مصر.
370. مجلة منبر الإسلام: ع11/ س13/ 1375هـ=1956م، القاهرة، مصر.
371. مجلة منبر الإسلام: ع8/ س15/ 1377هـ=1957م، القاهرة، مصر.
372. مجلة منبر الإسلام: ع6/ س23/ 1385هـ=1965م، القاهرة، مصر.

373. مجلة منبر الإسلام: ع5/ س36/ 1397هـ، القاهرة، مصر.
374. مجلة منبر الإسلام: ع2/ س37/ 1399هـ=1979م، القاهرة، مصر.
375. مجلة منبر الإسلام: ع7/ س39/ 1401هـ=1981م، القاهرة، مصر.
376. مجلة منبر الإسلام: العددان لجمادى الأولى والآخرة، سنة 1403هـ= مارس 1983م. القاهرة.
377. مجلة منبر الإسلام: ع11/ س47/ 1409هـ=1989م، القاهرة، مصر.
378. مجلة منبر الإسلام: ع12/ س47/ 1409هـ=1989م، القاهرة، مصر.
379. مجلة المنطلق: ع110/ س 1415هـ=1995م. بيروت.
380. مجلة المنطلق: ع111/ س 1995م.
381. مجلة الموقف العربي: ع78/ س10/ 1407هـ=1986م.
382. مجلة الموقف العربي: ع96/ س12/ 1408هـ=1988م.
383. مجلة النور: ع59/ 1408هـ=1988م. الكويت.
384. مجلة النور: ع59/ 1408هـ=1988م. الكويت.
385. مجلة الهداية: ج1/ مج2/ عام 1348هـ، القاهرة.
386. مجلة الهلال: ع11/ س42/ 1352هـ=1933م.
387. مجلة الهلال: ج9/ س66/ 1378هـ=1958م.
388. مجلة الهلال: ع4/ س96/ 1409هـ=1989م. القاهرة.
389. مجلة الهلال: ع10/ س100/ 1412هـ=1991م. القاهرة.
390. مجلة الهلال: ع4/ س307/ 1419هـ=1999م. القاهرة.
391. مجلة الهلال: ع12/ س107/ 1419هـ=1998م. القاهرة. مصر.
392. مجلة الهلال: ع11/ س108/ 1420هـ=1999م. القاهرة. مصر.
393. مجلة الهلال: ع12/ س108/ 1420هـ=1999م. القاهرة. مصر.
394. مجلة الوحدة: ع6/ س1/ 1405هـ=1985م. باريس، فرنسا.
395. مجلة الوحدة: ع77-78/ س7/ 1411هـ=1991م. باريس، فرنسا.

396 . مجلة الوحدة : ع13/ س2/ 1406هـ=1985م . باريس ، فرنسا .

397 . مجلة الوعي الإسلامي : ع9/ س1/ 1385هـ=1965م الكويت .

398 . مجلة الوعي الإسلامي : ع76/ س7/ 1390هـ=1971م .

399 . مجلة الوعي الإسلامي : ع115/ س 1394هـ=1974م .

400 . مجلة الوعي الإسلامي : ع115/ س 1394هـ=1974م .

401 . مجلة الوعي الإسلامي : ع156/ عام 1397هـ=1977م .

402 . مجلة الوعي الإسلامي : ع141/ س12/ 1396هـ=1976م .

403 . مجلة الوعي الإسلامي : ع162/ س14/ 1398هـ=1978م .

404 . مجلة الوعي الإسلامي : ع162/ س14/ 1398هـ=1978م .

405 . مجلة الوعي الإسلامي : ع181/ س16/ 1400هـ=1989م .

406 . مجلة الوعي الإسلامي : ع 214/ س18/ 1402هـ=1982م .

407 . مجلة الوعي الإسلامي : ع 207/ س18/ 1402هـ=1982م .

408 . مجلة الوعي الإسلامي : ع / س / 1413هـ=1992م .

409 . مجلة الوعي الإسلامي : ع 231/ س19/ 1404هـ=1984م .

410 . مجلة الوعي الإسلامي : ع 265/ س / 1407هـ=1986م .

ب - الصحف الدورية:

411 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع579 ، بتاريخ 7/ شوال/ 1428من و . ر .

412 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع695 ، بتاريخ 16/ من ذي الحجة/ 1430من ميلاده ﷺ طرابلس .

413 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع793 ، بتاريخ 7/ المحرم ، الموافق 12/ الطير/ 1430 من ميلاده ﷺ .

414 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع701 ، بتاريخ 4/ ربيع الأول ، عام 1369هـ .

415 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع714 ، بتاريخ 7/ جمادى الآخرة ، عام 1369هـ .

416 . صحيفة الدعوة الإسلامية : ع717 ، بتاريخ 28/ جمادى الآخرة ، عام 1369هـ .

417. صحيفة الدعوة الإسلامية: ع747، بتاريخ 2/ صفر، لعام 1369و. ر.
418. صحيفة الدعوة الإسلامية: ع765، بتاريخ 11/ جمادى الآخرة، لعام 1369و. ر.
419. صحيفة الدعوة الإسلامية: ع821، بتاريخ 18/ الموافق25/ 9 / 1370و. ر.
420. صحيفة الدعوة الإسلامية: ع822، بتاريخ 25/ رجب الموافق 2/ 10/ 1370و. ر.
421. صحيفة العرب العالمية: ع4324/ بتاريخ 10/ 5/ 1994م. الصادرة في لندن.
422. صحيفة العرب العالمية: ع / بتاريخ 13/ 12/ 2001م. الصادرة في لندن.
423. صحيفة الفجر الجديد: ع9693، بتاريخ23، جمادى الأولى، لعام 1369هـ.
424. صحيفة القلم: الحلقة 25/ ع11/ عام 1999م. والأعداد 1-2-3-من الحلقة 26. عام 2000م.

AL= qulam: Volume 26. N=3. March 2000.

تاسعاً: مراجع أجنبية:

425.Abdul kader tayob: Islam in south africa.
Mosques. Imans- and sermons.
Univessity pren of flovida.

426.AL Qalam. Volume 26 :N 3 March 2000.

427.Jeune afrique N:1879. DU:08-14/1/1997.
Paris- France.

الفهرس
التفصيلي لمحتويات الدراسة

الموضـــوع	الصفحة
ج ـ موقف الإسلام من العنصرية ودعم المسلمين لحركة النضال في جنوب أفريقيا .	61
د ـ موقف الجماهيرية العظمى وقائدها العالمي الكبير في التحريض والدّعم .	64
المبحث الثاني : تاريخ دخول الإسلام إليها وانتشاره فيها	71
أولاً : مقاربة أولية لتاريخ دخول الإسلام إلى جنوب أفريقيا ومراحل انتشاره فيها	73
المرحلة الثانية لانتشار الإسلام في جنوب أفريقيا	80
أ ـ مجموعة الهجرة التعاقدية .	81
ب مجموعة الهجرة الاختيارية .	81
من سمات هذه المرحلة : أ ـ بناء أوّل مسجد في مدينة الكاب	82
ب ـ ظاهرة تنظيم رحلات جماعية إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج .	82
ج ـ انتشار الإسلام في أرجاء البلاد بتوزع المسلمين وتفرقهم في الأقاليم .	82
د ـ تمتع المسلمين نسبيًا بحرية التديّن .	83
مرحلة الانتشار الثالثة وسماتها :	83
أ ـ المجابهة مع النظام العنصري .	83
ب ـ تنامي مدّ الهجوم الكنسي التنصيري على الإسلام ورسوله ﷺ	84
ج ـ ظهور شخصيات ومؤسسات بارزة	84
د ـ تطوّر اهتمام العالم الإسلامي بمسلمي جنوب أفريقيا	85
هـ ـ تنفّر طائفة من المسلمين للتفقه في الدين والعودة للإنذار	85
المرحلة الرابعة وأهم سماتها :	86
أ ـ نمو منظمة حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا	86
ب ـ فتح قسم للدراسات الإسلامية في جامعة دربان	87
ج ـ إنشاء المجلس الإسلامي الوطني	87
د ـ نشاط وعموم حركة انتشار الإسلام في كل البلاد	87
المرحلة الخامسة والمعاصرة وملامحها :	88
أ ـ التعاون الفعّال بين المؤسسات العاملة في حقل العمل الإسلامي	88
ب ـ فيضان النشاط الإسلامي إلى ما وراء البلاد	89
ج ـ تضييق الخناق على المراكز والأجهزة التنصيرية .	90
ثانيًا : من أهم العوامل والوسائل التي ساعدت على نشر الإسلام .	90
أ ـ عامل القوة الذاتية في الإسلام	91

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

❖ ❖ ❖

سلسلة الرسائل الجامعية

بعد المسيرة الميمونة التي قطعتها كلية الدعوة الإسلامية في حقل الدراسات العليا وأسفرت حتى الآن عن أكثر من خمسين رسـالة في مستوى درجة التخصص العالي (الماجستير) ورأت أن بين هذه الأعمال العلميـة ما ينضوي على قيمة علمية رفيعة تسـتوجب أن يصل مداها العلمي إلى آفاق أرحب من القراء ، وعدد أكثر من المختصين الذين لا يمكنهم الرجوع إلى المرقونـات في مظانها ، فقررت تعميماً للفائدة وتشجيعاً للباحثين، وخدمة للعلم أن تنشر هذه الرسائل في سلسـلة خاصة تسمى سلسلة الرسائل الجامعية .

وسوف تنشر هذه الأعمال تباعـاً تعميمـاً للثقافـة وتشجيعاً للعلم .

لجنة كلية الدعوة الإسلامية